سلسلة منشورات مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع بالرياض ١٦

التسبيح في الكتاب والسنة

والرد على المفاهيم الخاطئة فيه

تأليف
د. محمد بن إسحاق كندو

تقديم فضيلة الشيخ
أ. د. عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر
الأستاذ في قسم العقيدة بالجامعة الإسلامية
بالمدينة النبوية

مكتبة دار المنهاج
للنشر والتوزيع بالرياض

سلسلة منشورات مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع بالرياض ١٦

التسبيح
في الكتاب والسنة
والرد على المفاهيم الخاطئة فيه

تأليف
د. محمد بن إسحاق كندو

تقديم فضيلة الشيخ
أ. د. عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر
الأستاذ في قسم العقيدة بالجامعة الإسلامية
بالمدينة النبوية

المجلد الأول

مكتبة دار المنهاج
للنشر والتوزيع بالرياض

بسم الله الرحمن الرحيم

التسبيح

في الكتاب والسنة

والرد على المفاهيم الخاطئة فيه

ح مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، ١٤٢٥هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
كندو، محمد إسحاق
التسبيح في الكتاب والسنة والرد على المفاهيم الخاطئة فيه. / محمد إسحاق كندو.- الرياض، ١٤٢٥هـ
٢مج.
ردمك: ١ ـ ٦ ـ ٩٥٥٧ ـ ٩٩٦٠ (مجموعة)
X ـ ٧ ـ ٩٥٥٧ ـ ٩٩٦٠ (ج١)
١ ـ العقيدة الإسلامية ٢ ـ الأدعية والأوراد أ ـ العنوان
ديوي ٢٤٠ ١٤٢٥/٧٢٦٢

الطبعة الأولى

١٤٢٦هـ

مكتبة دار المنهاج
للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية ـ الرياض
المركز الرئيسي: طريق الملك فهد / شمال الجوازات
هاتف ٤٠٦٥٥٥٣ - فاكس ٤٠٨٣٦٩٨ - ص ب ٦٩٩٩٥ الرياض ١١٥٥٣
الفروع: طريق خالد بن الوليد (إنكاس سابقا) ت ٢٣٢٢٠٩٥
مكة المكرمة ـ الشامية هاتف ٥٧٢٠٩٨٠

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، ذي الجلال والكمال، والعظمة والكبرياء، المتّصف بالصفات الحسنى الكاملة، والمنزّه عن كل نقص، جلّ شأنه، وعظم سلطانه، وتعالى جدّه.

وأصلي وأسلّم على محمد عبد الله ورسوله، خير من نزّه الله وسبّحه وقدّسه وأطاعه وعبده، وعلى آله الأخيار، وأصحابه الأطهار، وعلى المؤمنين جميعهم أهل الجنة الأبرار.

وبعد: فإنّ من الأصول العظيمة والأسس المتينة في توحيد الأسماء والصفات تنزيه الله جلّ وعلا عمّا لا يليق بجلاله وينافي كماله من صفات النقص، كالسِّنة والنوم واللغوب والولد والوالد وغيرها، وعن أن يشبهه أحد من خلقه، أو أن يشبه هو أحداً من خلقه، تعالى وتقدّس وتنزّه عن الشبيه والنظير والمثال، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وإن من أدلّ النصوص على هذا الأصل العظيم قول الله تعالى - في مواضع عديدة من القرآن الكريم -: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي: أنزّه الله، وأجلّ الله، وأبرّئ الله عما لا يليق به.

ومن هذا قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الصافات: ١٨٠ - ١٨٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مقدمة «العقيدة الواسطية»:

(فسبّح نفسه عمّا وصفه به المخالفون للرسل، وسلّم على المرسلين، لسلامة ما قالوه من النقص والعيب، وهو قد جمع فيما وصف وسمّى به نفسه بين النفي والإثبات، فلا عدول لأهل السنّة والجماعة عما جاء به المرسلون، فإنّه الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين).

والتسبيح هو التنزيه، فأصل هذه الكلمة من السّبح وهو البُعد، قال الأزهري في «تهذيب اللغة»: (ومعنى تنزيه الله من السوء: تبعيده منه، وكذلك تسبيحه تبعيده، من قولك: سبحتُ في الأرض إذا أبعدتَ فيها، ومنه قوله جلّ وعزّ: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، وكذلك قوله: ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ۝٣﴾ [النازعات: ٣])[١].

فالتسبيح هو إبعاد صفات النقص من أن تضاف إلى الله، وتنزيه الربّ سبحانه عن السوء وعمّا لا يليق به، (وأصل التسبيح لله عند العرب التنزيه له من إضافة ما ليس من صفاته إليه، والتبرئة له من ذلك)[٢].

وقد ورد هذا المعنى في تفسير التسبيح في حديث يُرفع إلى النبي ﷺ إلّا أنّ في إسناده كلاماً، فقد روى الحاكمُ في المستدرك عن عبد الرحمٰن بن حمّاد، ثنا حفص بن سليمان، ثنا طلحة بن يحيى بن طلحة، عن أبيه، عن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن تفسير سبحان الله، فقال: «هو تنزيه الله عن كلّ سوء». قال الحاكم: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وتعقبه الذهبي في تلخيصه للمستدرك بقوله: (بل لم يصح فإن طلحة منكر الحديث، قاله

(١) تهذيب اللغة (٤/٣٢٨).
(٢) جامع البيان، لابن جرير (١/٢١١).

البخاري، وحفص واهي الحديث، وعبد الرحمٰن قال أبو حاتم: منكر)[١].

وروي الحديث من وجه آخر مرسلاً.

وورد في هذا المعنى آثار عديدة عن السلف ـ رحمهم الله ـ، روى جملة منها الطبري في تفسيره، والطبراني في كتابه «الدعاء» في باب: تفسير سبحان الله[٢]، وغيرهما من أهل العلم، منها:

ما جاء عن ابن عباس ﵄ أنه قال: (سبحان الله تنزيه الله ﷿ عن كل سوء).

وعن عبد الله بن بريدة أن رجلاً سأل علياً ﵁ عن سبحان الله فقال: (تعظيم جلال الله).

وجاء عن مجاهد أنه قال: (التسبيح انكفاف الله من كل سوء). قال ابن الأثير في النهاية: (أي: تنزيهه وتقديسه).

وعن ميمون بن مهران قال: (سبحان الله اسم يعظّم الله به، ويحاشى به من السوء).

وعن أبي عبيدة معمر بن المثنّى قال: (سبحان الله: تنزيه الله وتبرئته).

وعن محمد بن عائشة قال: (تقول العرب إذا أنكرت الشيء وأعظمته سبحان الله، فكأنه تنزيه الله ﷿ عن كل سوء، لا ينبغي أن يوصف بغير صفته).

والآثار في هذا المعنى عن السلف كثيرة.

---

(١) المستدرك (١/ ٥٠٢).

(٢) الدعاء، للطبراني (٣/ ٥٩١ وما بعدها).

ونقل الأزهري في كتابه «تهذيب اللغة» عن غير واحد من أئمة اللغة تفسير التسبيح بالمعنى السابق، وقال: (وجماع معناه: بُعده تبارك وتعالى عن أن يكون له مثلٌ أو شريك أو ضدٌّ أو ندٌّ)(١).

وبهذه النقول المتقدمة يتبيّن معنى التسبيح والمراد به، وأنّه تنزيه الله ﷻ عن كلّ نقص وعيب، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (والأمر بتسبيحه يقتضي تنزيهه عن كل عيب وسوء، وإثبات المحامد التي يُحمد عليها، فيقتضي ذلك تنزيهه وتحميده وتكبيره وتوحيده)(٢). اهـ كلامه رحمه الله.

وبه يتبيّن أن تسبيح الله إنما يكون بتبرئة الله وتنزيهه عن كلِّ سوء وعيب، مع إثبات المحامد وصفات الكمال له سبحانه، على وجهٍ يليق به، أمّا ما يفعله المعطّلة من أهل البدع كالمعتزلة وغيرهم من تعطيل للصفات وعدم إثبات لها وجحد لحقائقها ومعانيها بحجة أنهم يسبّحون الله وينزّهونه، فهو في الحقيقة ليس من التسبيح في شيء، بل هو إنكارٌ وجحودٌ، وضلالٌ وبهتانٌ، ولذا يقول ابن هشام النحوي في كتابه مغني اللبيب: (ألا ترى أن تسبيح المعتزلة اقتضى تعطيل كثير من الصفات)(٣).

ويقول ابن رجب رحمه الله في معنى قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [النصر: ٣]، أي: (سبّحه بما حمد به نفسه، إذ ليس كل تسبيح بمحمود، كما أن تسبيح المعتزلة يقتضي تعطيل كثير من الصفات)(٤).

وقوله رحمه الله: (إذ ليس كل تسبيح بمحمود) كلام في غاية الأهمية والدقة، إذ إنّ تسبيح الله بإنكار صفاته وجحدها وعدم إثباتها أمرٌ لا يُحمد عليه فاعله، بل يُذمُّ غاية الذم، ولا يكون بذلك من المسبّحين

---

(١) تهذيب اللغة (٤/ ٣٣٩). (٢) دقائق التفسير، لابن تيمية (٥/ ٥٩).

(٣) مغني اللبيب (١/ ١٤٠) مع أنه وقع في بعض ذلك، غفر الله له ورحمه.

(٤) تفسير سورة النصر (ص٧٣).

بحمد الله، بل يكون من المعطلين المنكرين الجاحدين، من الذين نزّه الله نفسه عن قولهم ووصفهم بقوله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الصافات: ١٨٠ ـ ١٨٢]، فسبّح الله نفسه عمّا وصفه به المخالفون للرسل، وسلّم على المرسلين لسلامة ما قالوه في الله من النقص والعيب.

إن تسبيح الله وتنزيهه وتقديسه وتعظيمه يجب أن يكون وفق الضوابط الشرعية، وعلى ضوء الأدلة النقليّة، ولا يجوز بحال أن يبنى ذلك على الأهواء المجردة، أو الظنون الفاسدة، أو الأقيسة العقلية الكاسدة كما هو الشأن عند أرباب البدع المعطلين لصفات الربّ سبحانه، ومن كان يعتمد في باب التعظيم على هواه بغير هدى من الله، فإنه يزلّ في هذا الباب ويقع في أنواع من الباطل وصنوف من الضلال. جاء عن عبد الرحمٰن بن مهدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ وقد ذُكر عنده أن الجهمية ينفون أحاديث الصفات، ويقولون: الله أعظم من أن يوصف بشيء من هذا ـ أنه قال: (قد هلك قوم من وجه التعظيم فقالوا: الله أعظم من أن ينزل كتاباً أو يرسل رسولاً، ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]، ثم قال: هل هلكت المجوس إلا من جهة التعظيم؟ قالوا: الله أعظم من أن نعبده، ولكن نعبد من هو أقرب إليه منا، فعبدوا الشمس وسجدوا لها، فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣])(١).

وفي كلامه هذا رَحِمَهُ ٱللَّهُ إشارة إلى أن التعظيم والتنزيه إن لم يكن على هدي الكتاب والسنّة فإنّه يكون غاية التعطيل، ومنتهى الجحود، والعياذ بالله، ومن يتأمل حال الطوائف الضالة والفرق المنحرفة التي سلكت في التنزيه والتعظيم هذا الطريق يجد أنهم لم يستفيدوا من ذلك سوى التنقّص

(١) ذكره التيمي في الحجة في بيان المحجة (١/ ٤٤٠).

لربّ العالمين وجحد صفات كماله ونعوت جلاله، حتى آل الأمر ببعضهم في التنزيه إلى الاعتقاد بأنه ليس فوق العرش إلٰه يُعبد، ولا ربّ يصلى له ويُسجد، تعالى الله عما يقولون، وسبحان الله عما يصفون.

ومن هنا كانت العناية بفهم التنزيه على أساس صحيح ومنهج سليم أمراً عظيماً وأصلاً متيناً، يجب العناية والاهتمام به، وخير سبيل إلى ذلك هو التفقه في قول الله جلّ وعلا: ﴿سُبْحَانَ ٱللَّهِ﴾، وعقل مراده بها، وفهمها فهماً صحيحاً سليماً بعيداً عن الشوائب والمكدرات.

هذا، وقد سمت همّة الأخ المفضال، والباحث الموقر، الشيخ محمد بن إسحاق كندو، من دولة «بوركينافاسو» للكتابة في هذا الموضوع الجليل، ولمّ أطرافه، وجمع شمله في سفر واحد، وقبل مشكوراً إشارتي عليه بالكتابة فيه، وقدّمه موضوعاً لأطروحته العلمية في مرحلة «العالمية العالية» بقسم العقيدة في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، بعنوان: (التسبيح في الكتاب والسنة والرّدّ على المفاهيم الخاطئة فيه)، وكنت مشرفاً عليه في إعداده، فألفيته ـ حفظه الله ووفقه وبارك فيه ـ باحثاً محقّقاً، قد أجاد وأفاد في تحرير مسائله، وتقرير دلائله، وتجلية جوانبه، وجمع أطرافه، ومناقشة المخالفين فيه، بأسلوب رصين، وكلام واضح، وعرض شيّق، وتقرير محكم، هكذا أحسبه ولا أزكي على الله أحداً، وأسأل الله الكريم أن يثيبه على هذا التسبيح في هذا السفر المليح، وأن يكتبه في موازين حسناته يوم يلقى الله ﷻ ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾، وأن يجعله مباركاً أينما كان، إنه سبحانه سميع مجيب، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

كتبه

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

في ١٤٢٥/٣/١٢هـ

المقدمة

الحمد لله حمداً كثيراً طيّباً مباركاً فيه، وسبحان الله عدد خلقه وزنة عرشه ورضا نفسه ومداد كلماته، ولا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كلّ شيء قدير، والله أكبر كبيراً، له الأمر كلّه، وله الملك كلّه، الخير كلّه في يديه، والشرّ ليس إليه، تفرّد بالكمال المطلق من كلّ وجه، وتنَزّه عن النقائص والعيوب من كلّ وجه، لا يحصي أحد من خلقه ثناء عليه وإن استوعب جميع الأوقات بكلّ أنواع الثناء، بل ثناؤه أعظم من ذلك فهو كما أثنى على نفسه.

والصلاة والسلام الأتمّان الأكملان على خاتم أنبيائه ورسله، وخير عباده وخلقه، محمد بن عبد الله وآله، ومن اقتفى أثره، وتمسك بسنّته إلى لقاء ربّه.

أما بعد: فإنّ الله تبارك وتعالى قد جعل لهذه الملّة الحنيفيّة شرائع وعبادات، ومسالك وطاعات، وأقوالاً وأعمالاً واعتقادات، يتفقّه العبد بتعلّمها، ويتنعّم بالتعبّد لله تعالى بها، ويترقّى في مدارج الكمال البشريّ بقدر ما علم وأتى به منها.

وإنّ من أجلّ ما عُلم من ذلك وأهمّه تسبيح الله ﷻ وتنْزيهه وتعظيمه، فما من مسلم إلا وهو يسبّح لله تعالى في يومه وليلته مرّات وكرّات قد يصعب ضبط عددها، مما يعني أنّ التّسبيح من أوفر الأذكار حظّاً في الإسلام، وأولاها بالعناية تفهّماً لمعناه، وتعقّلاً لمدلوله، وتحقّقاً به اعتقاداً وقولاً وعملاً.

وإذا كان جلّ المسلمين يدركون عظم شأن التّسبيح باعتباره ذكراً من الأذكار المشروعة في الإسلام، فإنّ حظّ كثير منه هو ترداده باللسان مع الجهل بمدلوله ومعناه الصحيح.

ولا شكّ أن هذا الصنف من المسلمين يثابون ـ بإذن الله ـ على نطقهم بالتسبيح بحسب نيّاتهم، ولكن يفوتهم خير كثير بسبب جهلهم لمعنى التّسبيح ومدلوله، وربّما كان المسلم ـ بسبب هذا الجهل ـ مسبّحاً لله بلسانه، وهو مناقض له باعتقاده وقوله وعمله.

ولهذا كان على أهل العلم وعلى طلاب العلم أن يبذلوا جهوداً في دراسة ألفاظ الذكر المشروعة في الإسلام، وإبراز معانيها الصّحيحة ودلالتها العظيمة بالأسلوب الذي ينتفع به المسلمون ويزدادون به علماً وإيماناً بتوفيق الله تعالى. ومن هنا تأتي فكرة اختيار هذا الموضوع ودراسته في رسالة علميّة بعنوان:

(التسبيح في الكتاب والسنة
والرد على المفاهيم الخاطئة فيه)

❐ أهمّية الموضوع:

ولهذا الموضوع أهمية خاصّة يمكن إجمالها فيما يلي:

أولاً: أنّه مرتبط بذكر من أشهر الأذكار التي شرع للمسلم أن يأتي بها أكثر من مرة في اليوم والليلة.

ثانياً: أنّ فيه إبرازاً للعلاقة الوثيقة بين ألفاظ الذكر المشروعة ـ ممثلة في التّسبيح ـ وبين عقيدة المسلم، وأن هذه الأذكار لم تشرع لمجرّد ألفاظها، بل لكي يتفهّمها المسلم ويعتقد دلالاتها ويتعبّد بها لله تعالى تعبّداً صحيحاً وكاملاً قولاً واعتقاداً وعملاً.

ثالثاً: أنّ مسألة التنْزيه ـ الذي هو مدلول التسبيح ـ تعدّ من المسائل الأساسيّة في العقيدة الإسلامية.

وقد تنازعت الفرق الكلامية المبتدعة مفهومه، وادّعى كلّ فرقة أنّها تسبّح الله وتنَزّهه بما ابتدعته من مقالات في العقيدة، مما سبّب اشتباها والتباساً على كثير من المسلمين في المفهوم الصحيح للتسبيح والتنْزيه.

فكان تناول موضوع التّسبيح بالدراسة من الناحية العقدية في ضوء الكتاب والسنة، مع التنبيه على المفاهيم الخاطئة التي أحدثتها الفرق المبتدعة فيه، كان ذلك من المطالب المهمة في الدين، لما ينتج عنه ـ بإذن الله ـ من الفوائد العامة والخاصة.

❐ أسباب اختيار الموضوع:

وهناك أسباب دفعت الباحث لاختيار هذا الموضوع ـ بالإضافة إلى ما سبق ذكره من الأهمية ـ وهذه الأسباب هي:

أوّلاً: أنّه على الرّغم من أهمية هذا الموضوع فإنّه لم ينل حقّه من العناية لدى الباحثين، ولا سيما في مجال العقيدة، فإنني لم أقف ـ بحسب اطّلاعي ـ على بحث علميّ أو كتاب مؤلّف في هذا الموضوع بالطريقة التي خطّطت له في هذه الرسالة.

ثانياً: أنّ بعض مشايخنا الأفاضل ـ نفع الله بهم ـ قد حبّذوا هذا الموضوع واستحسنوه، وشحذوا همّتي للبحث فيه.

ثالثاً: أنّ هذا الموضوع يتّصف بالسعة وتعدّد المسائل، مما يتيح للباحث الاطلاع على أنواع المعارف الربانية التي تزيد من قوته العلمية والعملية بتوفيق الله تعالى.

رابعاً: أنّ هذا الموضوع يرجى له ـ إذا ما تمّ بحثه ونشره ـ أن

ينال قبولاً لدى المسلمين، لحاجة كلّ مسلم إلى معرفة المعنى الصحيح لهذا الذكر الهام في الإسلام، ومدلولاته ومناسباته العقدية.

خامساً: أن هذا الموضوع فيه إضافة علمية تسهم ـ بإذن الله ـ في ترسيخ العقيدة الصحيحة وتفنيد المفاهيم الخاطئة فيها.

❐ خطة البحث:

وقد قسمت البحث في هذا الموضوع إلى مقدمة، وخمسة أبواب، وخاتمة، على التفصيل التالي:

ـ المقدمة/ واشتملت على:

١ ـ الافتتاحية.

٢ ـ بيان فكرة الموضوع.

٣ ـ بيان أهمية الموضوع.

٤ ـ بيان أسباب اختيار الموضوع.

٥ ـ بيان خطة البحث.

٦ ـ بيان منهج البحث.

٧ ـ الشكر والتقدير.

* **الباب الأول**: معاني التّسبيح وأنواعه، وفيه فصلان:

الفصل الأول: معاني التّسبيح، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: التّسبيح في اللغة، وفيه سبعة مطالب:

المطلب الأول: بناء لفظ التسبيح.

المطلب الثاني: معنى التسبيح.

المطلب الثالث: أصل التسبيح.

المطلب الرابع: تعدية التسبيح.

المطلب الخامس: ماهية (سبحان).

المطلب السادس: استعمالات (سبحان) في اللغة.

المطلب السابع: إعراب (سبحان).

المبحث الثاني: التّسبيح في الشرع، وفيه سبعة مطالب:

المطلب الأول: المعنى الأصلي للتسبيح في الشرع.

المطلب الثاني: دلالة التسبيح على التعظيم.

المطلب الثالث: إطلاق التسبيح على الصلاة.

المطلب الرابع: إطلاق التسبيح على الذكر عموماً.

المطلب الخامس: إطلاق التسبيح على الاستثناء.

المطلب السادس: إطلاق التسبيح على العبادة.

المطلب السابع: تسمية التسبيح دعاء.

المبحث الثالث: الألفاظ الدالة على معنى التّسبيح، فيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: التقديس.

المطلب الثاني: السلام.

المطلب الثالث: تعالى.

المطلب الرابع: حاش لله.

المطلب الخامس: النفي الوارد في حق الله تعالى، وفيه:

١ ـ النفي بـ (ليس).

٢ ـ النفي بـ (لا).

٣ ـ النفي بـ (لم).

٤ ـ النفي بـ (لن).

٥ ـ النفي بـ (ما).

الفصل الثاني: أنواع التّسبيح، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: أنواع التّسبيح باعتبار معناه، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تسبيح الله تعالى عن النقائص، وفيه ثلاث مسائل:

١ ـ التعريف بالنقائص في اللغة.

٢ ـ التعريف بالنقائص التي يسبح الله وينزه عنها.

٣ ـ أنواع النقائص.

المطلب الثاني: تسبيح الله تعالى عن التمثيل، وفيه أربع مسائل:

١ ـ التعريف بالتمثيل في اللغة.

٢ ـ التعريف بالتمثيل الذي ينزه الله تعالى عنه.

٣ ـ الفرق بين التمثيل والتشبيه.

٤ ـ أنواع التمثيل.

المطلب الثالث: تلازم نوعي التسبيح.

المبحث الثاني: أنواع التّسبيح باعتبار صيغه، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: صيغة الإفراد.

المطلب الثاني: صيغة القران، وفيه سبع مسائل:

١ ـ قرن التسبيح بالتحميد.

٢ ـ قرن التسبيح بالتهليل.

٣ ـ قرن التسبيح بالتكبير.

٤ ـ قرن التسبيح بأسماء الله وصفاته.

٥ ـ قرن التسبيح بالاستغفار.

٦ ـ قرن التسبيح بالدعاء.

المبحث الأول: التعريف بالصوفية.

المبحث الثاني: مفهوم التّسبيح عند الصوفية.

المبحث الثالث: إبطال تسبيح الصوفية.

* **الخاتمة، وفيها ملخص عامّ للبحث.**

منهج البحث

وقد اتّبعت في إعداد هذا البحث المنهج التالي:

١ ـ تناولت موضوع التّسبيح من جوانب متعدّدة بغية إبرازه في صورة علمية متكاملة حسب الإمكان، ولهذا تضمن البحث مسائل في التفسير، والحديث، والفقه، واللغة، إلى جانب العقيدة التي هي أساس البحث في هذا الموضوع.

٢ ـ قمت باستقراء الآيات القرآنية التي ورد فيها لفظ التسبيح بجميع مشتقاته اللفظية بحيث احتوى البحث على جميع تلك الآيات.

٣ ـ جمعت ما أمكن من الأحاديث النبوية التي لها صلة بموضوع التّسبيح، ولا سيما في بيان المواضع التي يشرع فيها التّسبيح، وكان جلّ اعتمادي في ذلك على الكتب الستة، بالإضافة إلى مسند الإمام أحمد بن حنبل، والأدب المفرد، للإمام البخاري، وعمل اليوم والليلة، للإمام النسائي، وكتاب الدعاء، للإمام الطبراني، مع الاستغناء عن الأحاديث التي ثبت ضعفها وعدم وجود ما يقوّيها.

٤ ـ قسمت البحث إلى أبواب وفصول ومباحث ومطالب ـ في بعض المباحث ـ، وفقاً لمعطيات المادة العلمية التي أمكن جمعها في هذا الموضوع.

٥ ـ اعتمدت في التعليق على الآيات القرآنية الواردة في التسبيح على كتب التفسير، وفي مقدمتها: تفسير الطبري، وتفسير القرآن العظيم، للحافظ ابن كثير، وتيسير الكريم الرحمن، للشيخ عبد الرحمن

السعدي. ولم أهمل الاستفادة من كلام بعض العلماء المحققين في ذلك، كشيخ الإسلام ابن تيمية، والعلامة ابن قيم الجوزية.

٦ ـ اعتمدت في التعليق على الأحاديث على أهمّ شروح الحديث المتداولة، ولا سيما شرح صحيح مسلم، للنووي، وفتح الباري، لابن حجر العسقلاني وغيرهما.

٧ ـ حرصت ـ عند بيان المواضع التي شرع فيها التسبيح ـ على إبراز المناسبة العقدية للتسبيح في كل موضع.

٨ ـ حرصت على دراسة مسألة تنزيه الله تعالى وبيان أسسها الصحيحة، في ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة، مع التنبيه على المفاهيم الخاطئة في هذا الباب والرد عليها بالحجج الصحيحة.

واستفدت في ذلك كثيراً من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية، وكتب العلامة ابن قيم الجوزية، وغيرها من كتب علماء أهل السنة والجماعة.

٩ ـ عزوت الآيات القرآنية الواردة في البحث إلى مواضعها في القرآن الكريم، بذكر اسم السورة، ورقم الآية.

١٠ ـ عزوت الأحاديث النبوية الواردة في البحث إلى مصادرها المعتمدة، فإذا كان الحديث في الصحيحين أو في أحدهما، اكتفيت في العزو إليهما أو إلى أحدهما. وإذا كان الحديث في غير الصحيحين، عزوته إلى أهم مصادره ـ كالسنن الأربعة، ومسند الإمام أحمد ـ بأيسر طريقة ممكنة، مع الاهتمام بنقل ما اطلعت عليه من كلام أهل العلم في بيان درجته.

١١ ـ وثّقت الموادّ العلمية الأخرى المنقولة في البحث، فإذا كان النقل بالنص جعلته بين قوسين مزدوجين صغيرين، مع الإشارة إلى مصدره في الهامش. وإذا كان النقل بالمعنى أو بتصرف ـ ولو قليلاً ـ

لم أجعله بين قوسين، بل أشير إلى مصدره في الهامش مسبوقاً بقولي: انظر.

كما أنني أجعل النصوص المقتبسة بين قوسين، وأشير إلى المصدر المقتبس منه في الهامش.

١٢ ـ شرحت الألفاظ الغريبة الواردة في صلب البحث.

١٣ عرّفت بالفرق والطوائف الوارد ذكرها في صلب البحث.

١٤ ـ ترجمت للأعلام المذكورين في صلب البحث، عند أوّل موضع يرد فيه ذكر العلم، إلا قليلاً ممن رأيت أنهم في غنية عن التعريف، كالعبادلة من الصحابة، والأئمة الأربعة، وابن تيمية، وابن القيم، وابن كثير، وابن حجر العسقلاني، والشوكاني، وغيرهم.

١٥ ـ ذيّلت البحث بفهارس لتيسير الاستفادة منه، وهي:

أ ـ فهرس الآيات القرآنية، مرتبة حسب السور.

ب ـ فهرس الأحاديث النبويّة، مرتبة على الحروف، بحسب أطراف الأحاديث.

جـ ـ فهرس الأعلام المترجم لهم، مرتبين على الحروف، باعتبار شهرة العلم.

د ـ فهرس المصادر والمراجع، مرتبة على الحروف.

هـ ـ فهرس الموضوعات.

الشكر والتقدير

وفي ختام هذه المقدمة أحمد الله تعالى حق حمده على أن يسّر لي كتابة هذا البحث وإخراجه للمسلمين، ولقد بذلت فيه جهداً حاولت به إبراز التسبيح في صورة علمية تجلّي حقيقته وتوضّح دلالته ومناسباته المختلفة في الكتاب والسنة، وتصفيه من المفاهيم الخاطئة التي ألصقها به أصحاب الأهواء من أهل الكلام والتصوف.

وهذا الجهد في النهاية جهد عبد ضعيف قصير الباع قليل العلم، ومع هذا فأرجو الله تعالى أن يجعله جهداً مباركاً مقبولاً، وأن يغفر لي ويعفو عني ما وقعت فيه من خطأ أو زلل أو قصور.

ولا يسعني في هذا المقام إلّا أن أتوجّه بالشكر الجزيل والثناء الجميل للقائمين على الجامعة الإسلامية المباركة على رعايتهم الحميدة للعلم وأهله وطلّابه، وعلى إتاحتهم الفرصة لي ولأمثالي من أبناء المسلمين في أنحاء المعمورة لتعلّم العقيدة الصحيحة والتفقه في دين الله تعالى في طيبة الطيبة على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم.

وأتقدم بوافر الشكر وبالغ التقدير لفضيلة شيخي الأستاذ الدكتور عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر الذي كان المشير الأول لي باختيار هذا الموضوع، ثم تكرّم بالإشراف عليه، وأولاني والموضوع من عنايته اللطيفة ومتابعته الدقيقة ما كان له أكبر الأثر ـ بتوفيق الله تعالى ـ في إتمام البحث وتذليل ما واجهني في أثنائه من صعوبات، فالله تعالى

أسأل أن يجزل له المثوبة، وأن يبارك في علمه وعمره، وأن ينفع به طلاب العلم والمسلمين إنه تعالى ولي ذلك والقادر عليه.

ثم أتقدم بالشكر والتقدير لصاحبي الفضيلة عضوي المناقشة لهذه الرسالة: فضيلة الشيخ الدكتور يوسف بن محمد السعيد، الأستاذ المشارك بقسم العقيدة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، ورئيس القسم فيها. وفضيلة الشيخ الدكتور إبراهيم بن عامر الرحيلي، الأستاذ المشارك بقسم العقيدة في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة. اللذين تحملا عناء قراءة هذه الرسالة وأبديا فيها ملحوظاتهما واستدراكاتهما التي أفاد منها الباحث كثيراً، جعل الله ذلك في موازين حسناتهما ونفع بعلمهما وجهدهما.

كما أشكر كلّ من أسهم في إنجاز هذا البحث من طابع ومشير برأي ومعير لكتاب وغير ذلك من أوجه المساعدة، جزى الله الجميع خير الجزاء، ووفقني وإياهم للعلم النافع والعمل الصالح والعاقبة الحميدة، وصلى الله على نبينا محمد وآله وسلم، ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

الباب الأول

معاني التسبيح وأنواعه

وفيه فصلان:

الفصل الأول: معاني التسبيح

الفصل الثاني: أنواع التسبيح

الفصل الأول

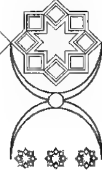
معاني التسبيح

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: التسبيح في اللغة

المبحث الثاني: التسبيح في الشرع

المبحث الثالث: الألفاظ الدالة على معنى التسبيح

المبحث الأول

التسبيح في اللغة

❐ **تمهيد:**

التسبيح في اللغة يتناول لفظين عليهما مدار الكلام في هذا المبحث، وهما:

أ ـ لفظ (تسبيح) الذي يستعمل منه الفعل والوصف بأنواعهما.

ب ـ لفظ (سبحان) الذي يستعمل مضافاً تعبيراً عن التسبيح.

وتتعلق بكل من هذين اللفظين مباحث لغوية سيتمُّ بحثها ـ إن شاء الله ـ في المطالب الآتية:

المطلب الأول: بناء لفظ التسبيح.

المطلب الثاني: معنى التسبيح.

المطلب الثالث: أصل التسبيح.

المطلب الرابع: تعدية التسبيح.

المطلب الخامس: ماهية (سبحان).

المطلب السادس: استعمالات (سبحان).

المطلب السابع: إعراب (سبحان).

وإليك تفصيلها مطلباً مطلباً:

❖ المطلب الأول ❖

بناء لفظ التسبيح

(التسبيح) مبني على وزن (التفعيل)، وهذا البناء مقياس لمصادر الأفعال الرباعية المبنية على وزن (فعّل) بتضعيف العين[١].

فالتسبيح مصدر قياسي للفعل (سبّح) بتشديد الباء، على وزن (فعّل).

وأغلب الأفعال المبنية على وزن (فعّل) هي في الأصل أفعال ثلاثية بنيت على هذا الوزن ـ بتضعيف عين الفعل منها ـ لإفادة معنى من المعاني، منها:

١ ـ تكثير الفعل وتكريره والمبالغة فيه، كقوله تعالى ـ في المنافقين ـ: ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦١].

فـ (قتلوا) ـ بتشديد التاء ـ أشد مبالغة من (قتلوا) إذا خففته[٢].

٢ ـ تعدية الفعل إلى المفعول، كقوله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠﴾ [الإسراء: ٧٠].

فالفعل (كرّم) بني على وزن (فعّل) لتعديته إلى المفعول (بني آدم)، وأصله (كرم) بالتخفيف، وهو فعل لازم لا يتعدى.

---

(١) قال ابن هشام الأنصاري: «لا بد لكل فعل غير ثلاثي من مصدر مقيس، فقياس (فعل) بالتشديد ـ إن كان صحيح اللام ـ (التفعيل)، كالتسليم، والتكليم، والتطهير» [أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك: ص ١١٢].

(٢) انظر: مجاز القرآن، لأبي عبيدة معمر بن المثنى التيمي، تحقيق محمد فؤاد سزكين: ٢/ ١٤١.

وكذا الفعل (فضّل) ومصدره (تفضيلاً)، تعدى الفاعل إلى المفعول ببنائه على وزن (فعّل)، وأصله (فضل) ـ بالتخفيف ـ لازم.

٣ ـ معنى الفعل المجرد، كقوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] فإن (كلّم) على وزن (فعّل)، ومصدره (تكليما)، ولم يرد به التكثير والمبالغة، ولا التعدية، بل أريد به إثبات وقوع خطاب الله تعالى لموسى عليه السلام، وهذه اللفظة الرباعيّة، وليس لها ثلاثيّ نقلت عنه إلى الرباعيّ[(١)].

٤ ـ اختصار حكاية الكلام، نحو: أيَّه، أي: قال: (يا أيها الرجل)[(٢)]. وحَمَّد، أي: قال: الحمد لله.

ولبناء (فعّل) معان أخرى ليس هذا موضع ذكرها[(٣)]، وإنما ذكرت هذه المعاني الأربعة لصلتها بمعنى (سبّح) الآتي ذكره.

ويجمع لفظ (التسبيح) على تسبيحات، وعلى تسابيح[(٤)].

---

(١) انظر: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لضياء الدين ابن الأثير، تحقيق الدكتور أحمد الحوفي، والدكتور بدوي طبانه: ٢/ ٢٥٥، ٢٥٦.

(٢) انظر: القاموس المحيط، للفيروز آبادي: مادة (أيه): ص ١٦٠٤.

(٣) انظر هذه المعاني ـ إن شئت ـ في: شرح شافية ابن الحاجب، لرضي الدين الاستراباذي: ١/ ٩٢ ـ ٩٦، وتسهيل الفوائد وتكميل المقاصد، لابن مالك الأندلسي، تحقيق محمد كامل بركات: ص ١٩٨، وهمع الهوامع في شرح جمع الجوامع، لجلال الدين السيوطي، تحقيق الدكتور عبد العال سالم مكرم: ٦/ ٢٣ ـ ٢٤. وتعرض لبعضها الإمام قوام السنة أبو القاسم التيمي، في «الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة»، تحقيق الدكتور محمد بن ربيع هادي المدخلي: ١/ ٣٠٥.

(٤) انظر: أساس البلاغة، للزمخشري: ١/ ٤١٨.

❖ المطلب الثاني ❖

معنى التسبيح

يتبين من معاجم اللغة العربية، ومن كتب غريب القرآن، وكتب غريب الحديث أن للتسبيح معنيين في اللغة:

أحدهما: التنزيه والتبرئة من السوء. تقول: سبحت الله تسبيحاً، أي: نزهته تنزيهاً، وبرأته تبرئة من كل سوء.

وهذا المعنى قد أطبق على ذكره أهل اللغة في تفسيرهم للفظ (التسبيح)[١].

وقال أبو إسحاق الزجاج[٢]: «لا اختلاف بين أهل اللغة في معنى التسبيح أنه: التبرئة لله ﷻ»[٣].

---

(١) انظر ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ: كتاب العين، للخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق الدكتور مهدي المخزومي، وآخر: ٣/ ١٥١، وتهذيب اللغة، لأبي منصور الأزهري، تحقيق الأستاذ عبد الكريم العزاوي: ٤/ ٣٣٨، ومقاييس اللغة، لابن فارس، تحقيق عبد السلام محمد هارون: ٣/ ١٢٥، والصحاح، للجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار: ١/ ٣٧٢، ولسان العرب، لابن منظور: ٢/ ٤٧١، وتاج العروس من جواهر القاموس، لمحمد مرتضى الزبيدي، تحقيق الدكتور حسين نصار: ٦/ ٤٤٤، ٤٤٧، والمعجم الوسيط: ١/ ٤١٢، كلها في مادة (سبح).

(٢) هو إبراهيم بن محمد بن السري، أبو إسحاق الزجاج، البغدادي، الإمام، نحوي زمانه، كان يخرط الزجاج فنسب إليه، وله تآليف جمة، منها: معاني القرآن، وكتاب الاشتقاق، وكتاب النوادر، وغيرها، وتوفي سنة (٣١١هـ)، رحمه الله. انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: ١٤/ ٣٦٠، وبغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، لجلال الدين السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم: ١/ ٤١١ ـ ٤١٣.

(٣) معاني القرآن وإعرابه، تحقيق الدكتور عبد الجليل عبده شلبي: ٢/ ٢٧٨.

والمعنى الآخر: قول: (سبحان الله). يقال: سبّح الرجل تسبيحاً، أي: قال: سبحان الله.

وهذا المعنى ذكره كثير من أهل اللغة[١]، وظن بعضهم أن التسبيح مخصوص بهذا المعنى[٢]، حتى قال ابن عطية[٣]: «و(سبح) إنما معناه: قال: سبحان الله، فلم يستعمل (سبح) إلا إشارة إلى (سبحان)» اهـ[٤].

ولا اختلاف ـ في الحقيقة ـ بين المعنيين المذكورين، فإن هذا المعنى الثاني آيل إلى المعنى الأول؛ لأن أهل اللغة متفقون على أن

---

(١) انظر ـ على سبيل المثال ـ: المحكم والمحيط الأعظم في اللغة، لابن سيده، تحقيق الدكتورة عائشة بنت الشاطئ: ٣/ ١٥٤، والمخصص، له: ١٦/ ١٦٣، والمغرب، لأبي الفتح ناصر الدين المطرزي، تحقيق محمود فاخوري، وآخر: ١/ ٣٧٩، ولسان العرب، لابن منظور: ٢/ ٤٧١، والمصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، لأحمد بن محمد الفيومي، تحقيق الدكتور عبد العظيم الشناوي ص٢٦٣، والقاموس المحيط، للفيروزابادي: ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥، ومعجم متن اللغة، للشيخ أحمد رضا: ٣/ ٩١، والمعجم الوسيط: ١/ ٤١٢، كلها في مادة (سبح).

(٢) انظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لمحمود الألوسي: ١٥/ ٣.

(٣) هو عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربي، أبو محمد الغرناطي، القاضي، كان فقيهاً عالماً بالتفسير والحديث والنحو وغيرها من العلوم، ولي القضاء بمدينة المرية، وكان غاية في الدهاء والذكاء، وله مؤلفات من أشهرها تفسيره المسمى «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز»، وتوفي سنة (٥٤٦هـ)، وقيل غير ذلك، رحمه الله. انظر: الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، لابن فرحون المالكي، تحقيق الدكتور محمد الأحمدي أبو النور: ٢/ ٥٧ ـ ٥٨، وطبقات المفسرين، للسيوطي، تحقيق علي محمد عمر: ص٦٠ ـ ٦١.

(٤) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ١٠/ ٢٥٦.

قول القائل: (سبحان الله) معناه: تنزيه الله وبراءة الله من السوء[(١)]. قال المبرد[(٢)]: «فأما قولهم: سبحان الله، فتأويله: براءة الله من السوء»[(٣)].

وقال الزجاج: «ومعنى (سبحان الله) في اللغة: تنزيه الله عن السوء»[(٤)].

وقال نفطويه[(٥)]: «وقول القائل: سبحان الله عن هذا، أي: برأته من هذا براءة، ونزهته تنزيهاً» اهـ[(٦)].

لكن الذي ينبغي أن يعلم هنا هو أن التسبيح إذا جاء على المعنى الأول ـ وهو التنزيه والتبرئة من السوء ـ كان مدلوله معنوياً، وكان الفعل منه متعدياً. ويحتمل في هذه الحالة أن يكون بناؤه على التفعيل للتعدية فحسب، أو لإفادة المبالغة مع ذلك، أو لمعنى (فعل) المجرد على ما تقدم ذكره من المعاني التي يفيدها هذا البناء اللفظي في اللغة.

---

(١) انظر: المصادر اللغوية السابقة.

(٢) هو محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الأزدي، أبو العباس المبرد البصري، إمام العربية ببغداد في زمانه، كان علامة أخباريًّا صاحب نوادر وظرافة، وله تصانيف كثيرة، منها: معاني القرآن، والكامل في اللغة والأدب، والمقتضب، وغيرها، وتوفي سنة (٢٨٥هـ)، وقيل: بعدها، رحمه الله. انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: ١٣/ ٥٧٦ ـ ٥٧٧، وبغية الوعاة للسيوطي: ١/ ٢٦٩ ـ ٢٧١.

(٣) المقتضب، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة: ٣/ ٢١٧ ـ ٢١٨.

(٤) معاني القرآن وإعرابه: ٣/ ٢٢٥.

(٥) هو إبراهيم بن محمد بن عرفة بن سليمان العتكي الأزدي، أبو عبد الله الواسطي، المشهور بنفطويه، الإمام العلامة النحوي الأخباري، سكن بغداد، وكان متضلعاً من العلوم، ذا سنة ومروءة وحسن خلق، وصنف من الكتب: غريب القرآن، وكتاب المقنع في النحو، ومسألة سبحان، وغيرها. وتوفي سنة (٣٢٣هـ)، رحمه الله. انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: ١٥/ ٧٥ ـ ٧٧.

(٦) مسألة سبحان، تحقيق الأخ جمال عزون: ص٢٩.

ولكل من هذه الاحتمالات الثلاثة المذكورة وجه، سيأتي بيانها قريباً.

وإذا جاء التسبيح على المعنى الثاني ـ وهو قول: سبحان الله ـ كان مدلوله قولياً لفظياً. وهو حينئذٍ من باب اختصار حكاية الكلام، على غرار (حمّد) إذا قال: الحمد لله، و(كبّر) إذا قال: الله أكبر. ويكون فعله في هذه الحالة لازماً غير متعد(١).

وربما اختصرت حكاية قول: (سبحان الله) على بناء (فعلل)، فيقال: سبحل، أي: قال: سبحان الله(٢). والمصدر منه: السبحلة(٣). وهذا الاختصار جار على عادة العرب في بعض العبارات التي تتكرر على ألسنتهم، وهي من لفظتين فما فوق، فإنهم يختصرونها ليسهل تكررها، وذلك بإسقاط حرف أو أكثر من كل لفظة، وضم بقية الحروف إلى بعض، لتتألف منها لفظة واحدة، مثل: البسملة، والحمدلة(٤).

---

(١) انظر: المنصف شرح ابن جني لكتاب التصريف، لأبي عثمان المازني، تحقيق إبراهيم مصطفى، وآخر: ١/ ٩١.

(٢) انظر: المعجم الوسيط: ١/ ٤١٢.

(٣) قال ابن القطاع: «السبحلة: أن تكثر من قول: سبحان الله» [كتاب الأفعال: ٢/ ١٧٢].

(٤) ويعرف هذا ـ في علم الاشتقاق ـ بالنحت، وهو: أخذ كلمة من كلمتين أو أكثر مع المناسبة بين المأخوذ والمأخوذ منه في اللفظ والمعنى معاً، ثم تعطى هذه الكلمة المنحوتة حكم الأسماء إن كانت اسماً، أو حكم الأفعال إن كانت فعلاً. وذكر بعض العلماء أن الكلمات المنحوتة في اللغة العربية لا تكاد تتجاوز ستين كلمة. ومن أشهرها: (بسمل) في بسم الله، و(هلل) في لا إله إلا الله، و(سبحل) في سبحان الله، و(حوقل) في لا حول ولا قوة إلا بالله. وانظر ـ في مباحث النحت ـ: المزهر في علوم اللغة وأنواعها، للسيوطي، بشرح وضبط محمد أحمد جاد المولى، وآخرين: ١/ ٤٨٢ ـ ٤٨٥، والاشتقاق، لعبد الله أمين: ص٣٩١ ـ ٣٩٣.

❖ المطلب الثالث ❖

أصل التسبيح

التسبيح ـ من حيث الاشتقاق اللغوي[(١)] ـ مأخوذ من مادة «سبح» المؤلفة من حروف ثلاثة، هي: السين المهملة، والباء، والحاء المهملة.

وجميع المعاجم اللغوية أوردت التسبيح في هذه المادة، كما أنها ذكرت لهذه المادة اللغوية عدة معان[(٢)]، أهمها:

١ ـ البعد، تقول: سبحت في الأرض: إذا أبعدت، أو تباعدت فيها[(٣)]، والسبح: الإبعاد في السير[(٤)].

واشتق التسبيح من السبح بهذا المعنى، فمعنى (سبحت الله): بعدته عن السوء. والتسبيح التبعيد، أي: تبعيد الله ﷻ عن السوء[(٥)].

---

(١) الاشتقاق: هو أخذ صيغة من أخرى مع اتفاقهما في المعنى وفي الحروف الأصلية وترتيبها، ليدل بالثانية على معنى الأصل بزيادة مفيدة لأجلها اختلفا في الهيئة، كضارب من (ضرب)، وحذر من (حذر). وهذا هو الاشتقاق الأصغر المحتج به لغة، وهنالك أيضاً الاشتقاق الأوسط والاشتقاق الأكبر، وأشهرها الأصغر، وهو المراد عند الإطلاق. وانظر في هذا: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٧/ ٢٣١ ـ ٢٣٢، والمزهر في علوم اللغة وأنواعها، للسيوطي: ١/ ٣٤٦ ـ ٣٤٧.

(٢) انظر: لسان العرب، لابن منظور: ٢/ ٤٧٠ ـ ٤٧٥، وتاج العروس، لمحمد مرتضى الزبيدي: ٦/ ٤٤٣ ـ ٤٥٤، وهما أكثر المعاجم إيراداً للمعاني في هذه المادة.

(٣) انظر: تهذيب اللغة، للأزهري: ٤/ ٣٣٧، ٣٣٨.

(٤) انظر: تاج العروس، للزبيدي: ٦/ ٤٥١.

(٥) انظر: تهذيب اللغة، للأزهري: ٤/ ٣٣٨، وشأن الدعاء، لأبي سليمان الخطابي، تحقيق أحمد يوسف الدقاق: ص١٤٣، ومدارك التنزيل وحقائق =

٢ ـ الجري والمر السريع، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، أي يجرون[١].

وقال بعض العلماء: إن التسبيح متشق من السبح بمعنى الجري. قال: «فالمسبح جار في تنزيه الله وتبرئته من السوء»[٢]. وقال بعضهم: أصل التسبيح المر السريع في عبادة الله[٣].

٣ ـ العوم، وهو السير على الماء منبسطاً. يقال: سبح بالماء وفيه، يسبح، سبحاً وسباحة: إذا عام فيه، فهو سابح وسبوح[٤]. قال بعض العلماء: اشتقاق التسبيح من السباحة؛ لأن الذي يسبح يباعد ما بين طرفيه، فيكون فيه معنى التبعيد[٥].

= التأويل، لأبي البركات النسفي، تحقيق يوسف علي بديوي: ٣/ ٤٣٢، والدر المصون في علوم الكتاب المكنون، للسمين الحلبي، تحقيق الدكتور أحمد محمد الخراط: ١/ ٢٥٩، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، للقاضي أبي السعود العمادي: ١/ ٨٣، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي، باعتناء الشيخ صلاح الدين العلايلي: ٥/ ٢٥١.

(١) انظر: تفسير الطبري (جامع البيان في تأويل القرآن)، لابن جرير الطبري: ١٠/ ٤٤٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي: ١/ ٢٧٦.

(٣) انظر: مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، تحقيق صفوان عدنان داوودي: ص٣٩٢، وتفسير التحرير والتنوير، للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور: ١/ ٤٠٥.

(٤) انظر: جمهرة اللغة، لابن دريد: ١/ ٢٢١، ٢٢٢، والمحكم والمحيط الأعظم في اللغة، لابن سيده: ٣/ ١٥٣، والقاموس المحيط، للفيروز آبادي: ص٢٨٤.

(٥) انظر: تفسير السمرقندي المسمى (بحر العلوم)، لأبي الليث نصر بن محمد السمرقندي، تحقيق علي محمد معوض، وآخرين: ١/ ١٠٩.

وقال بعضهم: «إن التسبيح تفعيل من السبح، وكأن المسبح سبح بقلبه في بحار ملكوته[(١)]»[(٢)].

وقال آخرون: «إن أصل التسبيح من مادة «سبح»، والسباحة والتسبيح مشتركان في أصل المادة، فبينهما اشتراك في أصل المعنى، والسباحة في الماء ينجو بها صاحبها من الغرق، وكذلك المسبح لله والمنزه له ينجو من الشرك ويحيى بالذكر والتمجيد لله تعالى» اهـ[(٣)].

فهذا اشتقاق التسبيح وما قيل من المناسبة بين معناه ومعنى المادة الأصلية التي اشتق منها.

ويظهر بالتأمل في المعاني السابقة لمادة «سبح» أنها كلها ترجع إلى معنى البعد والإبعاد، فإن المعنى الثاني الذي هو الجري والمر السريع، فيه هذا المعنى، لأنه إذا جرى أو مر سريعاً أبعد، وصار بعيداً[(٤)]. وكذا المعنى الثالث الذي هو العوم والسباحة في الماء، فقد سبق آنفاً أن الذي يسبح في الماء يباعد ما بين طرفيه، فيكون فيه معنى التبعيد[(٥)]. ولهذا أشار بعض أهل العلم باللغة إلى أن أصل المادة الدلالة على البعد[(٦)]. وهذا يتفق مع تفسير أهل اللغة للتسبيح بالتنزيه؛

---

(١) أي: ملكوت الله تعالى، والملكوت: مبني على وزن (فعلوت) من الملك، وهو مختص بملك الله ﷻ. انظر: مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني: ص٧٧٥.

(٢) الدعاء المأثور وآدابه، لأبي بكر الطرطوشي، تحقيق الدكتور محمد رضوان الداية: ص١٦٤.

(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (تتمته للشيخ عطية سالم): ٥/ ٢٦٧.

(٤) انظر: أضواء البيان، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: ٥/ ٢٥١.

(٥) انظر: ص٤٢.

(٦) انظر: عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، للسمين الحلبي، تحقيق محمود محمد السيد: ص٢٢٩.

لأن أصل التنزيه في اللغة: البعد[(١)]، إذ هو مأخوذ من النزهة، وهي البعد، ويقال: رجل نزيه، أي: بعيد من السوء[(٢)].

قال الأزهري[(٣)]: «ومعنى تنزيه الله من السوء: تبعيده منه، وكذلك تسبيحه تبعيده»[(٤)]. وقال أبو شامة[(٥)]: «فقولك: سبحت الله، أي: نزهته وبرأته مما لا يليق به، أي: جعلته بمعزل منها، متباعداً عنها تباعد المنزلة والرتبة»[(٦)].

---

(١) انظر: معاني القرآن الكريم، لأبي جعفر النحاس، تحقيق محمد علي الصابوني: ١/ ٥٢٦.

(٢) انظر: حروف المعاني، لأبي القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي، تحقيق الدكتور علي توفيق الحمد: ص١٨، والقاموس المحيط، للفيروزآبادي: ص١٦١٩.

(٣) هو محمد بن أحمد بن الأزهر بن طلحة الأزهري، أبو منصور الهروي الشافعي، العلامة اللغوي، كان رأساً في اللغة والفقه، ثبتاً ديناً، صنف «تهذيب اللغة»، وغيره من الكتب، وتوفي سنة (٣٧٠هـ) عن ثمان وثمانين سنة، رحمه الله، انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: ١٦/ ٣١٥ ـ ٣١٧، ومعجم الأدباء، لياقوت الحموي: ١٧/ ١٦٤.

(٤) تهذيب اللغة: ٤/ ٣٣٨.

(٥) هو عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم، شهاب الدين، أبو القاسم وأبو محمد المقدسي ثم الدمشقي، الشافعي، المعروف بأبي شامة، لشامة كبيرة كانت فوق حاجبه الأيسر. ولد بدمشق سنة (٥٩٩هـ)، وبرع في فنون العلم حتى بلغ في عصره مكانة جليلة، وقيل: بلغ رتبة الاجتهاد. وله تصانيف عديدة في أنواع العلوم، وتوفي سنة (٦٦٥هـ) رحمه الله. انظر: طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي، تحقيق الدكتور عبد الفتاح الحلو، وآخر: ٨/ ١٦٥ ـ ١٦٨، والبداية والنهاية، للحافظ ابن كثير، تحقيق الدكتور أحمد أبو ملحم، وآخرين: ١٣/ ٢٦٤ ـ ٢٦٥.

(٦) نور المسرى في تفسير آية الإسراء، تحقيق الدكتور علي حسين البواب: ص٣٦.

وعلى هذا فتفسير التسبيح بالتنزيه، وتفسيره بالتبعيد، وكذا تفسيره بالتبرئة، كل ذلك سواء في المعنى.

ولما كان أصل المادة «سبح» بمعنى أبعد، وهو لازم غير متعدّ، بني التسبيح على وزن التفعيل للتعدية، فتقول: سبّحت الله، أي: بعّده عن السوء. إلا أن بعض علماء اللغة أثبت ورود (سبح) مخففاً متعدّياً بمعنى نزّه[١]، فيكون (سبّح) المضعّف قد نقل من صيغة الثلاثي المجرد إلى صيغة الرُّباعيّ - بتضعيف عين الفعل - لإفادة المبالغة في المعنى[٢]. ففي التسبيح معنى المبالغة في التبعيد والتنزيه عن السوء.

لكن من العلماء من صرّح بأنه لم يُسْتعمل (سبح) مخففاً متعدّياً بمعنى نزه، وأنه لم يُستعمل في هذا المعنى إلا (سبّح) المضعّف[٣].

وعلى هذا القول يكون التسبيح بني على وزن التفعيل لإفادة معنى (فعل) المجرد، كما استعملوا (كلّم) بالتضعيف في معنى (فعل) المجرد. وإذا لُوحظ هنا أن المثبت مقدم على النافي، لما عنده من

---

(١) انظر: المحكم والمحيط الأعظم في اللغة، لابن سيده: ٣/ ١٥٤، والدر المصون، للسمين الحلبي: ١/ ٢٦٥، والقاموس المحيط، للفيروز آبادي: ص٢٨٤، وإرشاد العقل السليم، لأبي السعود: ٣/ ١٦٨، تاج العروس، للزبيدي: ٦/ ٤٤٦، ٤٤٧.

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، لأبي السعود: ١/ ١٥٠.

(٣) انظر: المقتضب للمبرد: ٣/ ٢١٧، والمحرر الوجيز، لابن عطية: ١٠/ ٢٥٦، وشرح المفصل، لابن يعيش: ١/ ٣٧، ١١٩، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٠/ ٢٠٤، وغرائب التفسير وعجائب التأويل، لتاج القراء محمود بن حمزة الكرماني، تحقيق الدكتور شمران سركال العجلي: ١/ ٦١٩، والإتقان في علوم القرآن، لجلال الدين السيوطي، بتعليق الدكتور مصطفى ديب البغا: ١/ ٥١٧، وتفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١/ ٤٠٥ و٦/ ٥٨، ومعجم متن اللغة، للشيخ أحمد رضا: ٣/ ٩١.

زيادة علم، يكون القول بأن التسبيح بني على وزن التفعيل لإفادة المبالغة في المعنى أولى بالصواب، والله تعالى أعلم.

ـ وذهب بعض العلماء إلى أن التسبيح مشتق من لفظ (سبحان)، ولذلك بني على وزن التفعيل(١). وهذا صحيح بأحد اعتبارين:

الاعتبار الأول: أن يكون (سبحان) مصدراً للفعل الثلاثي المجرد، اشتق منه التسبيح على وزن التفعيل للتعدية أو لإفادة المبالغة في المعنى، كما سبق آنفاً، وكما سيأتي بيانه ـ إن شاء الله ـ عند الكلام على لفظ (سبحان)(٢).

الاعتبار الثاني: أن يكون التسبيح بمعنى قول: سبحان الله، كما سبق ذكره في معنى التسبيح(٣)، فبني على وزن التفعيل لاختصار حكاية هذا القول، وهو (سبحان الله). ويعد هذا نوعاً من الاشتقاق عند بعض علماء اللغة(٤).

فبكل من هذين الاعتبارين يصح أن يقال: إن التسبيح مشتق من (سبحان). ويكفي ما بين اللفظين ـ لفظ (تسبيح) ولفظ (سبحان) ـ من التناسب في اللفظ والمعنى دليلاً على اشتقاق أحدهما من الآخر(٥).

❖ المطلب الرابع ❖

تعدية التسبيح

سبق عند الكلام على معنى التسبيح أنه إذا كان بمعنى التنزيه

---

(١) انظر: شرح المفصل، لابن يعيش: ١/ ٣٧، ١٢٠، وتفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١/ ٤٠٥.

(٢) انظر: ص٥٥. (٣) انظر: ص٣٨.

(٤) انظر: ما سبق ذكره ص٤٠.

(٥) انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٧/ ٢٣١.

والتبرئة، فإن الفعل منه يكون متعدياً. ويتعدى فعل التسبيح بنفسه بدون واسطة حرف غالباً، ويتعدى باللام تارة، ويتعدى بالباء تارة أخرى. فله من حيث التعدية ثلاث حالات، كلها واردة في القرآن الكريم.

ـ الحالة الأولى: أن يتعدى بنفسه بدون واسطة حرف، كقوله تعالى: ﴿لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾ [الفتح: ٩]. وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾ [ق: ٤٠]. وقوله سبحانه: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ [الأعلى: ١].

وذكر أهل العلم أن تعديه بنفسه هو الأصل؛ لأن معناه ـ كما تقدم ـ: نزه، وبعد، وبرأ[1]. وعلى هذا فتعديه باللام أو الباء لمعنى زائد، كما سيأتي بيانه، إن شاء الله.

ـ الحالة الثانية: أن يتعدى باللام، كقوله تعالى؛ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٤١]. وقوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ١].

واختلف أهل العلم في المعنى الذي تفيده اللام في هذه الحالة على أقوال:

ـ القول الأول: أن فعل التسبيح يتعدى باللام كما يتعدى بنفسه، «وذلك أن العرب تقول: فلان يسبح الله ويقدسه، ويسبح لله ويقدس له، بمعنى واحد»[2]. وعلى هذا فتعديه بنفسه وتعديه باللام لغتان للعرب، كقولهم: نصحه ونصح له، وشكره وشكر له[3].

---

(١) انظر: تفسير النسفي: ٣/ ٤٣٢، وفتح القدير، للشوكاني، تحقيق أبي حفص سيد إبراهيم: ٥/ ٢٣٦.
(٢) مقتبس من: تفسير الطبري: ١/ ٢٤٩.
(٣) انظر: تفسير النسفي: ٣/ ٤٣٢، وأضواء البيان، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: ٥/ ٢٥١.

ـ القول الثاني: أن اللام مزيدة للتأكيد، بمنزلة اللام في «نصحت لزيد» تقول: سبحت الله، كما تقول: نصحت زيداً. فإذا أردت التأكيد قلت: سبحت لله. فجئت باللام لتقوية وصول الفعل إلى المفعول(١).

ـ القول الثالث: أن اللام مزيدة للتعليل. فقوله: سبح لله، أي: أحدث التسبيح لأجل الله سبحانه، أي: ابتغاء وجهه تعالى(٢).

ـ القول الرابع: أن اللام للاختصاص، وذلك أن فعل التسبيح إذا أريد به مجرد الفعل، تعدى بنفسه. وإذا أريد به مع ذلك بيان القصد والإخلاص، تعدى باللام، فاللام تبين كمال الإرادة من الفاعل المسبِّح، وكمال الاستحقاق من المسبَّح، وهو الله ﷻ(٣).

ـ القول الخامس: أن التسبيح إذا أريد به التنزيه والذكر المجرد دون معنى آخر، تعدى بنفسه. وإذا أريد به السجود والخضوع والطاعة، تعدى باللام، كما قال تعالى؛ ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٥]، وقال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ١]، والمراد: التسبيح الذي هو السجود والخضوع والطاعة.

ولهذا قال سبحانه ـ لما جمع بين التسبيح والسجود ـ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ۩ (٢٠٦)﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، فتعدى فعل التسبيح بنفسه لما ذكر السجود باسمه الخاص، فصار التسبيح ذكرهم له وتنزيههم إياه(٤).

---

(١) انظر: البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي، تحقيق مجموعة من الأساتذة: ٨/ ٢١٧، وفتح القدير، للشوكاني: ٥/ ٢٣٦.

(٢) انظر المصدرين السابقين، وأضواء البيان، للشنقيطي: ٥/ ٢٥١.

(٣) انظر: شرح العقيدة الواسطية، للشيخ محمد بن صالح العثيمين: ١/ ٣٦٠، وأحكام من القرآن الكريم، له أيضاً، جمع أبي خالد عبد الكريم المقرن: ص١٥٦.

(٤) انظر: بدائع الفوائد، لابن قيم الجوزية، تحقيق بشير محمد عيون: ١/ ٢٣.

فهذه خمسة أقوال في معنى اللام إذا تعدى بها فعل التسبيح، وهذه الأقوال بعضها قريب من بعض، والمعاني المذكورة كلها صحيحة ـ إن شاء الله ـ ، وتحتملها الآيات، والله تعالى أعلم.

ـ الحالة الثالثة: أن يتعدى بالباء، كقوله تعالى ـ حكاية عن الملائكة ـ: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠].

ولم يرد في القرآن الكريم تعدية فعل التسبيح بالباء إلا مقروناً بلفظ «حمد»، أو لفظ «اسم». والباء في ذلك دائرة بين كونها للمصاحبة أو للسببية أو للاستعانة أو صلة زائدة، على خلاف بين العلماء سيأتي بيانه عند الكلام على قرن التسبيح بالحمد، وقرنه باسم من أسماء الله تعالى، فيما سيأتي بحثه من أنواع التسبيح باعتبار الصيغة، إن شاء الله تعالى.

❖ المطلب الخامس ❖

ماهية سبحان

تقدم عند الكلام على معنى التسبيح أن (سبحان الله) معناه: تنزيه الله وبراءته من السوء[(١)].

فهو إذا كلمة تنزيه وتبرئة لله ﷻ عن كل ما لا ينبغي أن يوصف به[(٢)]. ولا خلاف بين أهل اللغة في أن هذا هو معناه في اللغة، ولكنهم اختلفوا في حقيقة لفظ (سبحان): ما هو؟

وخلافهم في ذلك يدور في: هل هو مصدر أو اسم مصدر[(٣)]؟

---

(١) انظر: ص٣٩.

(٢) انظر: كتاب العين، للخليل بن أحمد الفراهيدي: ٣/ ١٥١.

(٣) المصدر واسم المصدر: كلاهما يدل على الحدث مجرداً عن الزمان =

فجماعة من العلماء يرون أن (سبحان) مصدر وليس اسم مصدر، إلا أنهم يختلفون في نوع مصدريته:

ـ فيرى بعضهم أنه مصدر قياسي للفعل (سبح) بتخفيف الباء، فيكون كـ (غفران) مصدر غفر، و(شكران) مصدر شكر، و(كفران) مصدر كفر[١].

ومن أصحاب هذا الرأي من قال: إن فعله ـ وهو (سبح) المخفف ـ غير مستعمل، وأنه من المصادر التي أميتت أفعالها[٢].

= والمكان. وبينهما فرقان: لفظي ومعنوي. أما اللفظي، فإن المصدر هو الجاري على فعله الذي هو قياسه، كالإفعال من أفعل، والتفعيل من فعّل، والانفعال من انفعل، والتفعلل من تفعلل، وبابه. واسم المصدر غير جار على فعله، كقولك: تكلم كلاماً، واغتسل غسلاً، وسلم سلاماً، ونحو ذلك مما فعله متجاوز الثلاثة وهو بزنة مصدر الثلاثي.

وأما المعنوي، فهو أن المصدر دال على الحدث وفاعله، فإذا قلت: تكلم، وتسليم، وإكرام، ونحو ذلك، دل على الحدث ومن قام به، فيدل التكلم ـ مثلاً ـ على الكلام والمتكلم. وأما اسم المصدر فإنما يدل على الحدث وحده، فالكلام والسلام لا يدل لفظه على متكلم ولا مسلم، بخلاف التكلم والتسليم. انظر: بدائع الفوائد، لابن القيم: ١/ ٣٧٧، وأوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، لابن هشام الأنصاري: ص١٠٨.

(١) انظر: مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني: ص٣٩٣، والمحكم والمحيط والأعظم في اللغة، لابن سيده: ٣/ ١٥٤، والمخصص، له: ١٦/ ١٦٣، وغرائب التفسير، لتاج القراء الكرماني: ١/ ٦١٩، وشرح المفصل، لابن يعيش: ١/ ١١٩، والدر المصون، للسمين الحلبي: ١/ ٢٦٥، وتفسير أبي السعود: ١/ ٨٥، و٣/ ١٦٨، وروح المعاني، لمحمود الآلوسي: ١/ ٢٢٦، وتاج العروس، للزبيدي: ٦/ ٤٤٧، وفتح البيان في مقاصد القرآن، لصديق حسن خان القنوجي، بعناية عبد الله بن إبراهيم الأنصاري: ٧/ ٣٤٧، وتفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١/ ٤١٣، ومعجم متن اللغة، لأحمد رضا: ٣/ ٩١.

(٢) انظر: المخصص، لابن سيده: ١٦/ ١٦٣، وغرائب التفسير، للكرماني: =

ومنهم من رد على ذلك بأن فعله مسموع[١]، وأنه فعل مشهور أورده أرباب الأفعال وغيرهم[٢]، فلا اعتداد بقول من قال: إنه أميت الفعل منه[٣].

- ويرى بعضهم أن (سبحان) مصدر سماعي للفعل (سبّح) بتشديد الباء، فهو كالتسبيح. تقول: سبحت الله تسبيحاً وسبحاناً، كما تقول: كفرت عن يميني تكفيراً وكفراناً[٤].

ورد هذا الرأي بأن كون (سبحان) مصدراً لـ (سبّح) - بالتشديد - بعيد عن القياس؛ لأنه لا نظير له، بخلاف كونه مصدراً لـ (سبح) - بالتخفيف -، فإنه كثير، وإن كان غير مقيس[٥].

وذلك أن (سبّح) المشدد مصدره (التسبيح)؛ لأنه على وزن (فعّل) وفعّل يجيء المصدر منه على وزن (التفعيل) - كما سبق بيانه[٦] -، ولا

= ١/ ٦١٩، وشرح المفصل، لابن يعيش: ١/ ١١٩، والإتقان في علوم القرآن، للسيوطي: ١/ ٥١٧.

(١) انظر المحكم والمحيط الأعظم في اللغة، لابن سيده: ٣/ ١٥٤، والدر المصون، للسمين الحلبي: ١/ ٢٦٥، وتفسير أبي السعود: ٣/ ١٦٨.

(٢) انظر: تاج العروس، للزبيدي: ٦/ ٤٤٦.

(٣) انظر: المصدر السابق: ٦/ ٤٤٧.

(٤) انظر: شأن الدعاء، للخطابي: ص١٤٣، والمحكم والمحيط الأعظم في اللغة، لابن سيده: ٣/ ١٥٤، والبيان في غريب إعراب القرآن، لأبي البركات ابن الأنباري، تحقيق دكتور طه عبد الحميد طه: ١/ ٧٢، والنهاية في غريب الحديث والأثر، لمجد الدين ابن الأثير، تحقيق محمود الطناحي، وآخر: ٢/ ٣٣١، وتاج العروس، للزبيدي: ٦/ ٤٤٦، وفتح البيان، للقنوجي: ٧/ ٣٤٧.

(٥) انظر: تاج العروس، للزبيدي: ٦/ ٤٤٦.

(٦) انظر: ص٣٥.

يجيء على وزن (فعلان) الذي بني عليه (سبحان)[١].

وجماعة أخرى من العلماء يرون أن (سبحان) ليس بمصدر أصلاً، بل هو اسم مصدر أقيم مقام المصدر، فالمصدر التسبيح، والاسم (سبحان) يقوم مقام المصدر[٢].

قالوا: ونظير إقامة (سبحان) مقام التسبيح إقامة العطاء مقام الإعطاء، والكلام مقام التكليم، والسراح مقام التسريح. فكما يقال: أعطيته عطاء، وكلمته كلاماً، وقال تعالى: ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٩]، فاستعملت هذه الأسماء في مواضع المصادر، كذلك استعمل (سبحان) في موضع التسبيح[٣].

ويحتج هؤلاء العلماء لقولهم: إن (سبحان) اسم مصدر لا مصدر بأمرين:

أحدهما: أن (سبحان) لم يجيء على أبنية مصادر الرباعي[٤].

---

(١) انظر: البيان في غريب إعراب القرآن، لابن الأنباري: ١/ ٧٢.

(٢) انظر: المقتضب، للمبرد: ٣/ ٢١٧، وتهذيب اللغة، للأزهري: ٤/ ٣٣٨، وإعراب القرآن، لأبي القاسم إسماعيل بن محمد الأصبهاني، تحقيق الدكتورة فائزة بنت عمر المؤيد: ص٢٧، ١٩٧، والأمالي الشجرية، لهبة الله بن علي العلوي المعروف بابن الشجري: ١/ ٣٤٧، والبيان في غريب إعراب القرآن، لابن الأنباري: ١/ ٧٢، والتفسير الكبير، للفخر الرازي: ٢٥/ ١٠٣، ونور المسرى، لأبي شامة: ص٤٨ ـ ٤٩، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٠/ ٢٠٤، والدر المصون، للسمين الحلبي: ١/ ٢٦٥، وشرح المفصل، لابن يعيش: ١/ ٣٧ ـ ٣٨، والبحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي: ٦/ ٣٧، وفتح البيان، للقنوجي: ٧/ ٣٤٧، وتفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١/ ٤١٣ و٦/ ٥٨.

(٣) انظر: الأمالي الشجرية، لابن الشجري: ١/ ٣٤٧، ونور المسرى، لأبي شامة: ص٤٩.

(٤) انظر: البيان في غريب إعراب القرآن، لابن الأنباري: ١/ ٧٢، وتفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١/ ٤١٣.

والثاني: أنه لم يجز منه فعل.

وهذان الأمران ليس فيهما حجة للقول المذكور، فإن عدم مجيء (سبحان) على أبنية مصادر الرباعي حجة على من جعله مصدراً للفعل الرباعي ـ وهو (سبح) بتشديد الباء ـ، وليس حجة على من جعله مصدراً للفعل الثلاثي ـ وهو (سبح) بتخفيف الباء ـ، وإن تنوزع في استعمال هذا الفعل؛ لأن بناء (فعلان) وارد في أبنية مصادر الثلاثي(١).

وسبق أن من أهل اللغة من أيد إجراء الفعل من (سبحان)، وأن من نفى ذلك ليس معه دليل على النفي، ومن علم حجة على من لم يعلم(٢). ثم إن القائلين بأن (سبحان) اسم لا مصدر اختلفوا في نوع اسميته:

ـ فذهب فريق منهم إلى أنه معرفة بالعلمية، يعنون أنه اسم علم للتسبيح(٣)، فهو ـ على هذا ـ علم جنس لمعنى التنزيه(٤).

قال ابن جني(٥): «وكما جاءت الأعلام في الأعيان، فكذلك أيضاً جاءت في المعاني، نحو قوله:

---

(١) انظر: لامية الأفعال، لابن مالك الأندلسي، بشرح ابنه بدر الدين: ص٣٥ ـ ٣٦.

(٢) انظر: ص٥١ من البحث.

(٣) انظر: الخصائص، لأبي الفتح ابن جني، تحقيق محمد علي النجار: ٢/ ١٩٧، والمفصل، للزمخشري، بشرح ابن يعيش: ١/ ٣٧، ونور المسرى، لأبي شامة: ٥٠٢، وروح المعاني، للآلوسي: ١٥/ ٣، وخزانة الأدب، لعبد القادر البغدادي، تحقيق عبد السلام محمد هارون: ٧/ ٢٣٨، وأضواء البيان، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: ٢/ ٢١١.

(٤) انظر: أضواء البيان، للشنقيطي: ٢/ ٢١١.

(٥) هو عثمان بن جني، أبو الفتح الموصلي، إمام العربية، وصاحب التصانيف، لازم أبا علي الفارسي نحو أربعين سنة، وتصدر مكانه بعد وفاته. وكان أبو الطيب المتنبي الشاعر يقول: «ابن جني أعرف بشعري مني»، من =

أقول لما جاءني فخره سبحان من علقمة الفاخر[1]

فسبحان: اسم علم لمعنى البراءة والتنزيه، بمنزلة عثمان وحمران»[2]. وظاهر مذهب هذا الفريق أن (سبحان) معرفة بالعلمية دائماً، في حالة الإفراد ـ كما في البيت ـ، وفي حالة الإضافة، كسبحان الله.

ولكن بعضاً منهم فرق بين الحالتين، فقال: هو معرفة بالعلمية في حالة الإفراد فحسب، كحالته في البيت المذكور. وأما في حالة الإضافة، فهو معرفة بالإضافة، وليس ـ حالتئذٍ ـ علماً؛ لأن الأعلام لا تضاف قياساً[3].

وفي كون (سبحان) معرفة بالعلمية ـ في الحالتين أو في حالة الإفراد فحسب ـ نظر، سيأتي بيانه ـ إن شاء الله ـ عند الكلام على

= أشهر كتبه «الخصائص» و«فقه اللغة»، وتوفي سنة (٣٩٢هـ)، رحمه الله. انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: ١٧/١٧ ـ ١٩، وبغية الوعاة، للسيوطي: ٢/١٣٢.

(١) بيت شعر منسوب إلى الأعشى: ميمون بن قيس، وهو في ديوانه: ص٩٤ ـ طبعة دار صادر ـ، ضمن أبيات له يهجو بها علقمة بن علاثة ـ وهو صحابي، رضي الله عنه، ويمدح ابن عمه عامر بن الطفيل في منافرة جرت بينهما. والشاهد في البيت قوله: «سبحان من علقمة»، حيث جاء لفظ (سبحان) غير منون من دون إضافة، فيكون علماً ممنوعاً من الصرف للعلمية وزيادة الألف والنون. وانظر: كتاب سيبويه، تحقيق عبد السلام محمد هارون: ١/٣٢٤، وشرح أبيات سيبويه، للسيرافي، تحقيق الدكتور محمد علي سلطاني: ١/ ١٥٧ ـ ١٥٨، وخزانة الأدب، للبغدادي: ٣/٣٩٧ ـ ٣٩٨.

(٢) الخصائص: ٢/١٩٧.

(٣) انظر: المقتضب، للمبرد: ٣/٢١٧، وشرح المفصل، لابن يعيش: ١/٣٧ ـ ٣٨، ١١٩، وتفسير البيضاوي المسمى أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للقاضي البيضاوي: ١/٥٦٣، والبحر المحيط، لأبي حيان: ٦/٥، وروح المعاني، للآلوسي: ١٥/٣.

استعمالات اللفظ في لسان العرب[(١)].

ـ وذهب فريق إلى أن (سبحان) ليس اسم علم، بل هو نكرة معرفة بالإضافة[(٢)].

فهذا حاصل كلام العلماء في ماهية (سبحان) ـ حسب ما تيسر الوقوف عليه ـ والصواب في ذلك ـ إن شاء الله ـ: أن (سبحان) مصدر باعتبار، واسم مصدر باعتبار.

فباعتبار (سبح) المخفف هو مصدر، لما تقدم أن هذا الفعل الثلاثي مستعمل في كلام العرب، على قول بعض علماء اللغة، وأن بناء (فعلان) وارد في مصادر الأفعال الثلاثية[(٣)].

وباعتبار (سبّح) المشدد هو اسم مصدر، لما تقرر في علم الصرف أن الاسم الدال على مجرد الحدث، إن كان فعله مزيداً ثلاثياً، وهو على وزن مصدر الثلاثي المجرد، فهو اسم مصدر[(٤)].

فلا منافاة بين كون (سبحان) مصدراً وكونه اسم مصدر، على ما سبق بيانه هنا.

والصواب كذلك أن (سبحان) نكرة معرفة بالإضافة وليس علماً، كما سيتبين ـ إن شاء الله ـ فيما يلي من استعمالاته.

---

(١) انظر: ص٥٩.

(٢) انظر: المخصص، لابن سيده: ١٦/١٦٣، والأمالي الشجرية، لابن الشجري: ١/٣٤٨، ونور المسرى، لأبي شامة: ص٥٢ وخزانة الأدب، للبغدادي: ٧/٢٣٤، ٢٤٣، وروح المعاني، للآلوسي: ١٥/٣، ٤.

(٣) انظر: ما سبق بيانه في ص٥٣.

(٤) انظر: أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، لابن هشام الأنصاري: ص١٠٨. وانظر ص٥٠ من هذا البحث.

❖ المطلب السادس ❖

استعمالات (سبحان) في اللغة

استعمل لفظ (سبحان) في كلام العرب على أربع حالات[١]:

ـ **الحالة الأولى** ـ استعماله مضافاً إلى ما بعده، نحو: سبحان الله.

وهذه الحالة هي الغالبة، بل هي الأصل في استعمال (سبحان)، ولم يستعمل في القرآن ولا في السنة إلا مضافاً، ولهذا نص عدد من أهل العلم على أنه من الألفاظ الملازمة للإضافة[٢].

وقد أضيف في هذه الحالة إلى اسم ظاهر، كقوله تعالى: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ [يوسف: ١٠٨]، وقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٩٣].

وأضيف كذلك إلى اسم مضمر، كقوله تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾ [البقرة: ٣٢]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ﴾ [البقرة: ١١٦][٣].

وهذا المضاف إليه ـ ظاهراً كان أو مضمراً ـ إما فاعل له تقديراً، وإما مفعول به تقديراً[٤].

---

(١) انظر: الكافية الشافية وشرحها، لابن مالك الأندلسي، تحقيق الدكتور عبد المنعم أحمد هريدي: ٢/٩٥٨ ـ ٩٦١، وخزانة الأدب، للبغدادي: ٧/ ٢٣٤.

(٢) انظر: شرح الكافية الشافية، لابن مالك: ٢/٩٥٩، وتهذيب الأسماء واللغات، للنووي: ٣/١٤٢، والدر المصون، للسمين الحلبي: ١/ ٢٦٥، والإتقان في علوم القرآن، للسيوطي: ١/٥١٧، وأضواء البيان، للشيخ محمد الأمين للشنقيطي: ٢/ ٢١٢.

(٣) انظر: الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي: ١/ ٥١٧.

(٤) انظر: الدر المصون، للسمين الحلبي: ١/ ٢٦٦، وفتح الباري، للحافظ ابن حجر العسقلاني: ١١/ ٢٠٦، وروح المعاني، للآلوسي: ١/ ٢٢٦.

وصرح بعض العلماء بأنه فاعل[1]، وعليه فكلمة (سبحان الله) ونحوها بمعنى: تنزه الله، أو تباعد الله عما لا يليق به[2].

كما صرح بعضهم بأنه مفعول به[3]، وعليه فكلمة (سبحان الله) ونحوها كقولك: سبحت الله[4]، بمعنى: نزّهته، أو بعّدته، أو برّأته عما لا يليق به.

وكلا القولين المذكورين صحيح؛ لأن المصدر، وكذا اسم المصدر، يضاف إلى الفاعل تارة، وإلى المفعول تارة[5]، ولكن إضافة (سبحان) إلى الفاعل ـ وهو الله ﷻ ـ أقوى، لأمور:

أحدها: أن المصدر لا بد له من فاعل، إما مذكور وإما مقدر[6]، وليس هو كذلك مع المفعول.

والثاني: أن (سبحان) المضاف قد عطف عليه فعل (تعالى) في مواضع من القرآن[7]، مثل قوله ﷻ: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾

---

(١) انظر: الدر المصون، للسمين الحلبي: ١/ ٢٦٦، والكليات، لأبي البقاء الكفوي، تحقيق الدكتور عدنان درويش، وآخر: ص٥١٦.

(٢) انظر: الدر المصون، للسمين الحلبي: ١/ ٢٦٦، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٤/ ٢٦، ٥٠، والتسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي الكلبي، ضبط محمد سالم هاشم: ١/ ٤٨٠، وتفسير أبي السعود: ٣/ ١٦٨، و٥/ ١٥٤.

(٣) انظر: تهذيب الأسماء واللغات، للنووي: ٣/ ١٤٢، والدر المصون، للسمين الحلبي: ١/ ٢٦٦، وتفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور: ٧/ ٤٠٩.

(٤) انظر: شأن الدعاء للخطابي: ص١٤٤، وتهذيب الأسماء واللغات، للنووي: ٣/ ١٤٢.

(٥) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠/ ٢٣٨.

(٦) انظر: المصدر السابق، الموضع نفسه، وبدائع الفوائد، لابن القيم: ١/ ٣٧٧.

(٧) عدتها سبعة مواضع.

[الأنعام: ١٠٠]، وقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨].

وهذا العطف دليل على مناسبة تامة بينهما، فإن (تعالى) فعل ماض، وفاعله مقدر بما أضيف إليه لفظ (سبحان)، فيستفاد منه أن هذا المضاف إليه فاعل في المعنى، وأن قوله: (سبحان الله) كقوله: (تعالى الله)(١)، غير أن الفاعل مجرور مع (سبحان) من أجل الإضافة، ومرفوع مع (تعالى)، لأنه فعل. ولهذا فسر قوله ﷻ: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ﴾ [الأنعام: ١٠٠] بمعنى: تنزه الله وتعالى(٢)، فظهر في التفسير أنه فاعل.

والثالث: أن قول العبد: (سبحان الله)، إن قدر لفظ الجلالة فيه فاعلاً، كان خبراً عن الله تعالى بأنه تنزه عن كل ما لا يليق به.

وإن قدر مفعولاً به، كان خبراً من العبد عن نفسه بأنه ينزه الله عما لا يليق به.

ولا شك أن كونه خبراً عن الله تعالى أفضل وأبلغ في الثناء، فإن الكلام إما إخبار وإما إنشاء، وأفضل الأخبار ما كان خبراً عن الله تعالى، والخبر عن الله أفضل من الخبر عن غيره ومن الإنشاءات(٣).

ـ **الحالة الثانية** ـ استعماله مفرداً غير منون، أي: مقطوعاً عن الإضافة مع ترك تنوينه.

ولم يستعمل (سبحان) على هذه الحالة، إلا نادراً، إذ لم يذكر العلماء له ـ فيما وقفت عليه ـ إلا شاهداً واحداً، وهو قول الشاعر:

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٤/٢٦، ٥٠.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ٥/٢٩٣، والبحر المحيط، لأبي حيان: ٦/٣٧ ـ ٣٨، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/٤٤٤، وتفسير أبي السعود: ٥/١٥٤، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للشيخ عبد الرحمن السعدي، تحقيق عبد الرحمن اللويحق: ص٣٦٠، ٤٥٨، ٧٢٩.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٢/٣٧٦.

«أقول لما جاءني فخره سبحان من علقمة الفاخر»[(١)].

وبهذا البيت استدل من ذهب من العلماء إلى أن (سبحان) اسم علم للتسبيح[(٢)]، قالوا: إن الشاعر ترك تنوينه؛ لأنه ممنوع من الصرف للعلمية وزيادة الألف والنون[(٣)].

وقد رد هذا القول كثير من العلماء، وقالوا: إن (سبحان) ليس اسم علم، وإن الشاعر لم يترك تنوينه في البيت المذكور لكونه علماً، بل ترك تنوينه لأنه مضاف إلى محذوف مقدر الثبوت، والأصل: سبحان الله من علقمة، فحذف المضاف إليه لضرورة الشعر، للعلم به، وأبقى (سبحان) على فتحه بغير تنوين مراعاة لأغلب أحواله، وهو التجرد عن التنوين[(٤)].

ـ **الحالة الثالثة** ـ استعماله مفرداً منوناً.

واستعمل (سبحان) على هذه الحالة نادراً، كما في قول الشاعر:

«سبحانه ثم سبحانا يعود له وقبلنا سبح الجودي والجمد»[(٥)]

---

(١) سبق ذكر هذا البيت وتخريجه في ص٥٤.

(٢) انظر: ما سبق في ص٥٤، بالإضافة إلى: المحكم والمحيط الأعظم في اللغة، لابن سيده: ٣/ ١٥٤.

(٣) انظر: الأمالي الشجرية: ١/٣٤٨، وشرح المفصل، لابن يعيش: ١/١١٩، ونور المسرى، لأبي شامة: ص٥١، وعمدة الحفاظ، للسمين الحلبي: ص٢٢٨، وروح المعاني، للآلوسي: ١/ ٢٢٦ و١٥/٣، وخزانة الأدب، للبغدادي: ٧/ ٢٤٣، ٢٤٤.

(٤) انظر: مسألة سبحان، لنفطويه: ص٢٩ ـ ٣٠، وشرح الكافية الشافية، لابن مالك: ٢/ ٩٥٩ ـ ٩٦٠، وشرح رضي الدين الاستراباذي لكتابه الكافية في النحو لابن الحاجب: ٢/ ١٣٣، وخزانة الأدب، للبغدادي: ٣/ ٣٩٧ و٧/ ٢٣٤ ـ ٢٣٥، وأضواء البيان، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: ٢/ ٢١٢.

(٥) وقع اضطراب في نسبة هذا البيت وفي رواياته، فقد نسبه سيبويه إلى أمية بن =

ويروى أيضاً:

«سبحان ذي العرش سبحانا يدوم له رب البرية فرد واحد صمد»[١]

وهذا يدل على أن (سبحان) مصدر أو اسم مصدر، وليس علماً؛ لأن الشاعر نونه ـ في قوله: (ثم سبحانا) ـ عند ما لم يضفه لفظاً ولا تقديراً.

والذين زعموا أن (سبحان) علم، قالوا: إن الشاعر نونه في هذا البيت لضرورة الشعر[٢].

ولم يقم دليل على علميته ـ كما سبق بيانه ـ، فلا معنى لحمل تنوينه على الضرورة، بل التنوين دليل على أنه نكرة[٣]، وإذا أضيف كان معرفة بالإضافة.

= أبي الصلت [كتاب سيبويه: ١/ ٣٢٦]، وهو في ديوان أمية، جمع وتحقيق الدكتور عبد الحفيظ السطلي: ص٣٧٦. ونسبه السيرافي إلى زيد بن عمرو بن نفيل [شرح أبيات سيبويه: ١/ ١٩٤]. ونسبه البغدادي إلى ورقة بن نوفل [خزانة الأدب: ٣/ ٣٨٨ ـ ٣٨٩]. ويروى شطره الأول: «سبحانه ثم سبحانا نعود له»، ويروى أيضاً: «ثم سبحانا نعوذ به». وانظر اختلاف هذه الروايات مع شرحها في: شرح أبيات سيبويه، للسيرافي: ١/ ١٩٤ ـ ١٩٥، ونور المسرى، لأبي شامة: ص٥٨ ـ ٦٠، وخزانة الأدب، للبغدادي: ٣/ ٣٨٨ ـ ٣٩٣ و٧/ ٢٤٢.

(١) ذكر هذا البيت أبو شامة، ونسبه إلى زيد بن عمرو بن نفيل [نور المسرى: ص٥٨].

(٢) انظر: المقتضب، للمبرد: ٣/ ٢١٧ ـ ٢١٨، وشرح أبيات سيبويه، للسيرافي: ١/ ١٩٤، وشرح المفصل، لابن يعيش: ١/ ٣٧ ـ ٣٨، والدر المصون، للسمين الحلبي: ١/ ٢٦٥، وتفسير أبي السعود: ١/ ٨٥، وخزانة الأدب، للبغدادي: ٣/ ٣٨٨ و٧/ ٢٣٦ ـ ٢٣٧.

(٣) انظر: المحكم والمحيط الأعظم في اللغة، لابن سيده: ٣/ ١٥٤، والأمالي الشجرية، لابن الشجري: ١/ ٣٤٨، ونور المسرى، لأبي شامة: ص٥٦، وعمدة الحفاظ، للسمين الحلبي: ص٢٢٩، وتاج العروس، للزبيدي: ٦/ ٤٤٧.

ـ **الحالة الرابعة** ـ استعماله محلى بأل.

واستعمل (سبحان) محلى بأل، وذلك نادر أيضاً، كما في قول الراجز: «سبحانك اللهم ذا السبحان»(١).

واستعماله على هذه الحالة دليل آخر على أنه ليس علماً، حيث جاء معرفاً بأل، والأعلام لا تعرف لأنها معرفة(٢).

ـ ويتلخص مما سبق الكلام فيه في هذا المطلب: أن (سبحان) أكثر ما يستعمل في كلام العرب مضافاً، واستعمل مقطوعاً عن الإضافة نادراً في الشعر خاصة للضرورة. وجاء في حال عدم الإضافة منوناً مرة، وغير منون مرة، ومحلى بأل مرة أخرى.

فتبين أن (سبحان) ليس معرفة بالعلمية، بل هو معرفة بالإضافة لفظاً أو تقديراً، أو بأل، وإلا فهو نكرة، والله تعالى أعلم.

❖ المطلب السابع ❖

إعراب سبحان

من متممات الكلام على لفظ (سبحان) في اللغة بيان إعرابه، كما سبق بين ماهيته وحالات استعماله.

---

(١) لم أقف على هذا الرجز منسوباً في شيء من المصادر التي أوردته، وقد ورد في: الأمالي الشجرية، لابن الشجري: ١/٣٤٨، والكافية الشافية وشرحها، لابن مالك: ٢/٩٥٨ ـ ٩٦١، وشرح الرضي لكتاب الكافية في النحو لابن الحاجب: ٢/١٣٣، وخزانة الأدب، للبغدادي: ٧/٢٤٣، وأضواء البيان، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: ٢/٢١٢.
و(ذا) في الرجز بمعنى صاحب، منصوب لأنه تابع للهم على المحل [خزانة الأدب: ٧/٢٤٣].

(٢) انظر: خزانة الأدب، للبغدادي: ٧/٢٤٣.

وقد تبين مما سبق أن (سبحان) يستعمل منصوباً في جميع حالاته، ما عدا حالة واحدة استعمل فيها مجروراً بالإضافة، وهي حالة استعماله محلى بأل، كقول الراجز:

«سبحانك اللهم ذا السبحان»(١)، حيث وقع السبحان مجروراً بإضافة (ذا) إليه، فـ (ذا) ـ بمعنى صاحب ـ: مضاف، والسبحان: مضاف إليه.

ونص بعض العلماء على أن (سبحان) من الأسماء اللازمة النصب(٢)، معتبرين مجيئه بالجر في الرجز السابق شاذاً(٣)، لكونه مخالفاً لأكثر الاستعمال.

وذكر بعضهم أن (سبحان) لا يجري بوجوه الإعراب لقلة تمكنه(٤)، كأنهم يذهبون إلى أنه اسم علم ممنوع من الصرف، للعلمية وزيادة الألف والنون، كما قال بذلك جماعة من العلماء. وقد تقدم أن هذا القول ضعيف، وأن (سبحان) ليس علماً، بل هو نكرة تعرف بالإضافة، أو بأل(٥).

وجمهور أهل الإعراب على أن (سبحان) منصوب على

---

(١) سبق في ص٦١. وانظر: تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١/ ٤١٤.

(٢) انظر: شرح المفصل، لابن يعيش: ١/ ١١٩، وغرائب التفسير، للكرماني: ١/ ٦١٩، والدر المصون، للسمين الحلبي: ١/ ٢٦٥، وتاج العروس، للزبيدي: ٦/ ٤٤٧.

(٣) قال ابن مالك: «وشذ قول راجز رباني: سبحانك اللهم ذا السبحان» [الكافية الشافية بشرحها: ٢/ ٩٥٨].

(٤) انظر: المصادر السابقة، والمحرر الوجيز، لابن عطية: ١٠/ ٢٥٦، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٠/ ٢٠٤.

(٥) انظر: ما سبق في ص٦٠.

المصدرية[(١)]، أي: على المفعولية المطلقة[(٢)]. وعلى أن ناصبه فعل مقدر متروك إظهاره[(٣)]، ولكنهم اختلفوا في تقدير هذا الفعل:

فقدره بعضهم: سبح ـ بتخفيف الباء ـ الله سبحاناً[(٤)]، أي: تنزه الله وتباعد عن السوء تنزهاً وتباعداً[(٥)].

وقدره بعضهم: أسبح الله سبحاناً، أي: تسبيحاً[(٦)]، بمعنى: نزهته عن السوء تنزيهاً.

وقدره آخرون فعلاً من معناه لا من لفظه، فالتقدير عندهم:

---

(١) انظر: معاني القرآن، للفراء، تحقيق محمد علي النجار: ٢/ ١٠٥، ومعاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ٣/ ٢٢٥، ومسألة سبحان، لنفطويه: ص٢٩، وإعراب القرآن، لأبي جعفر النحاس، تحقيق الدكتور زهير غازي زاهد: ص١٦٠، ومشكل إعراب القرآن، لمكي بن أبي طالب، تحقيق الدكتور حاتم صالح الضامن: ١/ ٨٦، وإعراب القرآن، لقوام السنة التيمي: ص١٩٧، والمغرب، للمطرزي: ١/ ٣٧٨.

(٢) انظر: نور المسرى، لأبي شامة: ص٦١، وتاج العروس، للزبيدي: ٦/ ٤٤٥، وتفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١/ ٤١٤، وأضواء البيان، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: ٢/ ٢١١.

(٣) انظر: تفسير البيضاوي: ١/ ٥٦٣، والدر المصون للسمين الحلبي: ١/ ٢٦٦، والعلم الهيب في شرح الكلم الطيب، لبدر الدين محمود بن أحمد العيني، تحقيق أبي المنذر خالد بن إبراهيم المصري: ص١٠٠، وتفسير أبي السعود: ١/ ١٥٠ و٣/ ١٦٨، وأضواء البيان، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: ٢١١٢، وتفسير النسفي: ٢/ ٢٤٤.

(٤) انظر: شرح المفصل، لابن يعيش: ١/ ١١٩.

(٥) انظر: الدر المصون للسمين الحلبي: ١/ ٢٦٦.

(٦) انظر: كتاب سيبويه: ١/ ٣٢٢، وتفسير النسفي: ٢/ ٢٤٤، وتفسير أبي السعود: ١/ ١٥٠ و٣/ ١٦٨، وتاج العروس، للزبيدي: ٦/ ٤٤٥، وأضواء البيان، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: ٢١١٢.

أنزه الله تنزيهاً، وأبرئه تبرئة، فوقع (سبحان) مكان (تنزيهاً، وتبرئة)[(١)].

وإنما قدره هؤلاء هكذا لزعمهم أن (سبحان) لم يجر من لفظه فعل، فهو على هذا مثل: قعد القرفصاء[(٢)]، واشتمل الصماء[(٣)(٤)].

والذين قدروه (سبح) ـ بتخفيف الباء ـ أصوب طريقة، لما سبق أن (سبحان) مصدر ورد من لفظه فعل ثلاثي مجرد[(٥)].

ومن قدره أسبّح، أو سبّح، فليس ببعيد عن الصواب؛ لأن (سبحان) يكون ـ حينئذ ـ اسم مصدر لهذا الفعل الرباعي، كما سبق بيانه[(٦)].

وأما من قدره فعلاً من معناه فحسب، فقد أبعد، إذ لا حاجة لذلك مع ورود الفعل من لفظه، والله أعلم.

---

(١) انظر: كتاب سيبويه: ١/ ٣٢٤، والمحرر الوجيز، لابن عطية: ١٠/ ٢٥٦، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٠/ ٢٠٤، وفتح البيان، لصديق حسن القنوجي: ٧/ ٣٤٧.

(٢) القرفصاء ـ بضم القاف، وسكون الراء أو ضمها على الاتباع ـ: نوع من الجلوس، وهو أن يجلس على أليتيه، ويلصق فخذيه ببطنه، ويحتبي بيديه يضعهما على ساقيه. أو يجلس على ركبتيه منكباً، ويلصق بطنه بفخذيه، ويتأبط كفيه [القاموس المحيط، للفيروزآبادي/ مادة (قرفص): ص٨٠٨ ـ ٨٠٩].

(٣) اشتمل الصماء: أن يرد الكساء من قبل يمينه على يده اليسرى وعاتقه الأيسر، ثم يرد ثانيه من خلفه على يده اليمنى وعاتقه الأيمن، فيغطيهما جميعاً. أو الاشتمال بثوب واحد ليس عليه غيره، ثم يرفعه من أحد جانبيه فيضعه على منكبه، فيبدو منه فرجه [القاموس المحيط/ مادة (صمم): ص١٤٥٩].

(٤) انظر: المحرر الوجيز، لابن عطية: ١٠/ ٢٥٦، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٠/ ٢٠٤، وفتح البيان، لصديق بن حسن القنوجي: ٧/ ٣٤٧.

(٥) انظر: ص٥١.

(٦) انظر: ص٥٥.

كما اختلفوا من وجه آخر في الفعل المقدر: هل يجوز أن يقدر أمراً، أو يلزم أن يقدر خبراً؟

ووقفت في كلام لأبي شامة المقدسي على جواب لهذه المسألة، يقول فيه: «ثبت أن (سبحان الله) حيثما جاء منصوباً نصب [على] المفعول المطلق اللازم إضمار فعله، وفعله إما أمر أو خبر، وهو في هذه السورة[١] محتمل للأمرين، أي: سبحوا الذي أسرى بعبده، أو أسبح الذي أسرى بعبده، على أن يكون ابتداء ثناء من الله تعالى على نفسه، كقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝﴾ [الفاتحة: ٢].

وفي قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾ [الروم: ١٧] يظهر أن المقدر فعل أمر، ولا سيما إذا جعلنا المعنى فيه: الأمر بالصلاة في هذه الأوقات، فيكون كقوله تعالى: ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ [محمد ﷺ: ٤]، أي: اضربوها ضرباً» اهـ[٢].

وعند التأمل في كلمة (سبحان الله) وما تدل عليه من التنزيه لله تعالى عما لا يليق بجلاله وعظمته، يتبين أن تقدير الفعل خبراً أرجح من تقديره أمراً، لكون الخبر أمكن في الدلالة، وأنسب بالمقام من الإنشاء، والله تعالى أعلم.

واتفق المعربون على أن الفعل المقدر ـ خبراً كان أو أمراً ـ لا يجوز إظهاره، بل يجب إضماره، لأن (سبحان) قد نزل منزلته، فسد مسده، وصار بدلاً من اللفظ به[٣]، كما كان قولهم: (مرحباً) بدلاً من

---

(١) يعني سورة الإسراء التي أولها: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾.

(٢) نور المسرى في تفسير آية الإسراء: ص٦١ ـ ٦٢. وانظر: المصدر نفسه: ص٩٧.

(٣) انظر: كتاب العين، للخليل بن أحمد الفراهيدي: ٣/ ١٥١، وكتاب سيبويه: ١/ ٣٢٢، ٣٢٧، ومعاني القرآن، للأخفش: ١/ ٢٢٠، وتهذيب اللغة، =

رحبت بلادك[(١)].

وقيل ـ في إعراب (سبحان) ـ: إنه منصوب على النداء، فتقديره: يا سبحان الله[(٢)].

ويعزى القول بهذا الإعراب إلى أبي عبيدة[(٣)]، والكسائي[(٤)].

وأبى جمهور العلماء هذا الإعراب؛ لأنه لا معنى له[(٥)]، والله تعالى أعلم.

= للأزهري: ٤/ ٣٣٨، والعلم الهيب، للعيني: ص١٠٠، وتاج العروس، للزبيدي: ٦/ ٤٤٥، وفتح البيان، للقنوجي: ٧/ ٣٤٧.

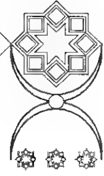
(١) انظر: كتاب سيبويه: ١/ ٣٢٧.

(٢) انظر: إعراب القرآن، لأبي جعفر النحاس: ص١٦٠، ومشكل إعراب القرآن، لمكي بن أبي طالب: ٢/ ٢٤، وإعراب القرآن، لأبي القاسم التيمي: ص١٩٨، والدر المصون للسمين الحلبي: ١/ ٢٦٦.

(٣) هو معمر بن المثنى، أبو عبيدة التيمي مولاهم، البصري، الحافظ اللغوي الأخباري، من مصنفاته «مجاز القرآن»، وتوفي سنة (٢٠٨هـ)، وقيل: بعد ذلك، وقد قارب المائة، رحمه الله، انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي: ١/ ٣٧١ ـ ٣٧٢، وتقريب التهذيب، لابن حجر العسقلاني: ٢/ ٢٧١.

(٤) هو علي بن حمزة بن عبد الله بن بهمن الأسدي مولاهم، أبو الحسن الكوفي، الملقب بالكسائي، لكساء أحرم فيه، وقيل: كان يلتف به. كان إمام أهل الكوفة في النحو، واختار قراءة اشتهرت وصارت إحدى السبع، وله تصانيف عدة. توفي سنة (١٨٩هـ) رحمه الله. انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: ٩/ ١٣١ ـ ١٣٤، وبغية الوعاة، للسيوطي: ٢/ ١٦٢ ـ ١٦٥.

(٥) انظر: إعراب القرآن، لأبي القاسم التيمي: ص١٩٨، والمحرر الوجيز، لابن عطية: ١٠/ ٢٥٦، ونور المسرى، لأبي شامة: ص٦٢، والدر المصون، للسمين الحلبي: ١/ ٢٦٦.

المبحث الثاني

التسبيح في الشرع

❐ توطئة:

تكرر في الكتاب والسنة ذكر التسبيح في مواضع كثيرة، بعبارات مختلفة، لمناسبات متعددة.

ويعد التسبيح من الألفاظ الشرعية التي اشتهرت في الشرع أكثر من اشتهارها في اللغة[1]، ولهذا كان له في الشرع مفهوم واسع، حيث استعمل في معان متعددة، كما سيتضح ـ إن شاء الله ـ في المطالب السبعة التالية:

المطلب الأول: المعنى الأصلي للتسبيح في الشرع.

المطلب الثاني: دلالة التسبيح على التعظيم.

المطلب الثالث: إطلاق التسبيح على الصلاة.

المطلب الرابع: إطلاق التسبيح على الذكر عموماً.

المطلب الخامس: إطلاق التسبيح على الاستثناء.

---

(١) من غريب ما قيل في هذا ما ذكره ابن عاشور في بعض كلامه على التسبيح، حيث قال: «هو من المعاني الدينية، فالأشبه أنه منقول إلى العربية من العبرانية» [تفسير التحرير والتنوير: ٣٠/ ٢٧٣]. فزعمه أنه منقول من العبرانية مردود، وما سبق بحثه في التسبيح من حيث اللغة كاف في رد هذا القول، وبيان بعده عن الصواب.

المطلب السادس: إطلاق التسبيح على العبادة.

المطلب السابع: تسمية التسبيح دعاء.

* * *

❖ المطلب الأول ❖

المعنى الأصلي للتسبيح في الشرع

ورد عن النبي ﷺ بيان معنى التسبيح في عدة أحاديث، كما ورد في بيان معناه آثار كثيرة عن بعض الصحابة والتابعين ـ رضي الله عنهم ورحمهم ـ، وأقوال وافرة لأهل العلم من المتقدمين والمتأخرين.

فأما الأحاديث الواردة عن النبي ﷺ في بيان معنى التسبيح، فثلاثة، أحدها مسند(١)، والآخران مرسلان(٢)، وهي:

١ ـ حديث طلحة بن عبيد الله(٣) رضي الله عنه قال: «سألت رسول الله ﷺ

(١) المسند ـ في اصطلاح المحدثين ـ: هو ما يضيفه الصحابي إلى النبي ﷺ، بسند متصل إليه في الظاهر. وله عندهم تعريف غير هذا، ولكن هذا هو المشهور في الاستعمال. وانظر: علوم الحديث، للحافظ ابن الصلاح، تحقيق الدكتور نور الدين عتر: ص٣٩ ـ ٤٠، وفتح الباري، للحافظ ابن حجر العسقلاني: ٩/ ٦٠ ـ ٦١.

(٢) المرسل ـ في اصطلاح المحدثين ـ: هو ما يضيفه التابعي إلى النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير، دون ذكر للواسطة بينه وبين النبي ﷺ. وهذا أيضاً هو المشهور في تعريف المرسل عندهم. وانظر: النكت على كتاب ابن الصلاح، للحافظ ابن حجر العسقلاني، تحقيق الدكتور ربيع بن هادي عمير: ٢/ ٥٤٠ ـ ٥٤٦، وفتح الباري، للحافظ ابن حجر أيضاً: ٩/ ٦٠.

(٣) هو طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب القرشي التيمي، أبو محمد المدني، أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الثمانية السابقين إلى الإسلام، وأحد الستة أصحاب الشورى الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، استشهد يوم الجمل، سنة (٣٦هـ)، رضي الله عنه. انظر: سير أعلام النبلاء، =

عن تفسير (سبحان الله)؟ فقال: **«هو تنزيه الله تبارك وتعالى من السوء»**»[١].

= للذهبي: ١/ ٢٣ ـ ٤٠، والإصابة في تمييز الصحابة، للحافظ ابن حجر العسقلاني، تحقيق علي محمد البجاوي: ٣/ ٥٢٩ ـ ٥٣٣.

(١) أخرجه البزار في «البحر الزخار المعروف بمسند البزار»، تحقيق الدكتور محفوظ الرحمن زين الله: ٣/ ١٦٤، برقم (٩٥٠)، والطبراني في «كتاب الدعاء»، تحقيق الدكتور محمد سعيد البخاري: ٣/ ١٥٩١، برقم (١٧٥١)، والحاكم في «المستدرك على الصحيحين»، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا: ١/ ٦٨٠، برقم (١٨٤٨)، والبيهقي في «الأسماء والصفات»، تحقيق عبد الله بن محمد الحاشدي: ١/ ١٠٥، برقم (٥٩). كلهم من طرق عن عبد الرحمن بن حماد، عن طلحة بن يحيى بن طلحة بن عبيد الله، عن أبيه، عن جده.
وفي إسناد كل من الطبراني والحاكم والبيهقي زيادة رجل بين عبد الرحمن بن حماد وطلحة بن يحيى هو حفص بن سليمان.
وأخرج الخطيب البغدادي الحديث في «الكفاية في علم الرواية»: ص٣٣٦، بالإسناد نفسه، بزيادة حفص بن سليمان مرة، وبإسقاطه من الإسناد مرة أخرى.
وأشار إلى ما يدل على أن المحفوظ هو عدم ذكر حفص في الإسناد.
والحديث قال فيه البزار ـ عقب إخراجه ـ: «وهذا الحديث لا نعلمه يروى عن طلحة متصلاً إلى من هذا الوجه بهذا الإسناد». وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد»، وتعقبه الذهبي بقوله: «بل لم يصح، فإن طلحة ـ يعني ابن يحيى ـ منكر الحديث، قاله البخاري. وحفص ـ يعني المزيد في الإسناد ـ واهي الحديث. وعبد الرحمن ـ يعني ابن حماد ـ قال أبو حاتم: منكر الحديث» اهـ. قلت: طلحة بن يحيى الأقوال فيه متباينة جرحاً وتعديلاً، كا في «تهذيب التهذيب»، للحافظ ابن حجر: ٥/ ٢٧ ـ ٢٨. وأما عبد الرحمن بن حماد، فكما قال أبو حاتم. وانظر: الجرح والتعديل، لابن أبي حاتم: ٥/ ٢٢٦، وميزان الاعتدال، للذهبي: ٢/ ٥٥٧.
ـ وأخرج الطبراني الحديث بإسناد آخر في «كتاب الدعاء»: ٣/ ١٥٩١، برقم (١٧٥٢) من طريق موسى بن طلحة بن عبيد الله، عن أبيه ﵁، عن النبي ﷺ، مثل اللفظ السابق. وفي الإسناد من لا يعرف، وهو سليمان بن =

٢ ـ حديث موسى بن طلحة[(١)]، قال: «سئل رسول الله ﷺ عن التسبيح؟ فقال: **(هو إنزاهه عن السوء)**»[(٢)].

= عيسى الراوي عن موسى بن طلحة، ويروي عنه ابنه أيوب بن سليمان، وقد ذكره ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل»: ٢/٢٤٨، ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً. ويروي عنه ابنه سليمان بن أيوب، قال فيه الحافظ ابن حجر: «صدوق يخطئ» [تقريب التهذيب: ١/٣١١]، ويروي عنه شيخ الطبراني: يحيى بن عثمان، وهو السهمي مولاهم، قال فيه الحافظ ابن حجر: «صدوق رمي بالتشيع، ولينه بعضهم لكونه حدث من غير أصله» [تقريب التهذيب: ٢/٣٦١].

فحديث طلحة هذا ـ بكلا إسناديه ـ ضعيف.

(١) هو موسى بن طلحة بن عبيد الله القرشي التيمي، أبو عيسى وأبو محمد المدني، نزيل الكوفة، تابعي ثقة جليل كثير الحديث، من وجوه آل طلحة، ومن أجلاء المسلمين، يقال: إنه ولد في عهد النبي ﷺ، وتوفي سنة (١٠٣هـ) على الصحيح، رحمة الله عليه. انظر: تهذيب التهذيب، للحافظ ابن حجر: ١٠/٣٥٠ ـ ٣٥١، وتقريب التهذيب، له: ٢/٢٨٩.

(٢) رواه عبد بن حميد ـ ذكر روايته بإسنادها شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى: ١٦/١٢٦ ـ، وابن جرير الطبري في تفسيره: ٨/٣، والطبراني في «كتاب الدعاء»: ٣/١٥٩١ ـ ١٥٩٢، برم (١٧٥٣، ١٧٥٤)، والبيهقي في «الأسماء والصفات»: ١/١٠٤ ـ ١٠٥، برقم (٥٨). كلهم من طرق عن عثمان بن عبد الله بن موهب، عن موسى بن طلحة، عن النبي ﷺ مرسلاً.

قال الطبراني ـ عقب روايته ـ: «لم يجاوز به عثمان بن عبد الله بن موهب موسى بن طلحة». وقال البيهقي: «هذا منقطع» يعني: مرسل.

ورجال الإسناد في جميع هذه الطرق ثقات، ما عدا الطريق الثاني عند الطبراني، برقم (١٧٥٤)، ففي بعض رواته كلام، لكنهم توبعوا في الطرق الأخرى.

وروي الحديث بإسناد آخر عن موسى بن طلحة، عن أبيه طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه مسنداً، أخرجه الطبراني في «كتاب الدعاء»، كما سبق ذكره، ولكن إسناده لا يصح، كما بين في الحديث الأول. ولهذا رجح الحافظ الدارقطني المرسل على المسند، كما في كتابه «العلل الواردة في الأحاديث النبوية»، تحقيق محفوظ الرحمن زين الله: ٤/٢٠٨.

٣ ـ حديث إبراهيم بن يزيد التيمي[(١)]، عن النبي ﷺ قال: **«سبحان الله: إنكاف الله[(٢)] ﷻ عن كل سوء»**[(٣)].

وهذه الأحاديث تنتهض ـ بمجموعها ـ للاحتجاج، وإن كان الأول منها ضعيفاً، فإن الأخيرين قويان، إلا أنهما مرسلان.

والحديث المرسل إذا اعتضد بمجيئه من وجه آخر مسند أو مرسل، كان ذلك دليلاً على صدقه، وقوي الاحتجاج به[(٤)].

ويشهد لما تضمنته هذه الأحاديث من تفسير التسبيح في الشرع

---

(١) هو إبراهيم بن يزيد بن شريك التيمي، أبو أسماء الكوفي، تابعي ثقة من العباد، إلا أنه كان يرسل ويدلس. توفي سنة (٩٢هـ)، وقيل: بعدها، ولم يبلغ الأربعين، رحمه الله. انظر: تهذيب التهذيب، لابن حجر: ١/١٧٦، وتقريب التهذيب، له: ١/٦٠.

(٢) إنكاف الله: تنزيهه وتقديسه. يقال: نكفت من الشيء، واستنكفت منه، أي: أنفت منه. وأنكفته، أي: نزهته عما يستنكف منه. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: ٥/١٦٦، والقاموس المحيط، للفيروزآبادي: مادة (نكف): ص١١٠٩.

(٣) أخرجه الطبراني في «كتاب الدعاء»: ٣/١٥٩٢، برقم (١٧٥٥)، ورجال إسناده ثقات غير المختار بن فلفل، فهو صدوق له أوهام، كما في «تقريب التهذيب»، للحافظ ابن حجر: ٢/٢٤١.

(٤) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٣/٣٤٧ ـ ٣٥٠، وفتح الباري، للحافظ ابن حجر العسقلاني: ١/٢٥٧، ٢٩٣.
وهناك نزاع كثير بين العلماء من المحدثين وغيرهم في قبول الحديث المرسل ورده. وانظر ـ إن شئت ـ في ذلك: جامع التحصيل في أحكام المراسيل، للحافظ صلاح الدين العلائي، تحقيق حمدي السلفي: ص٣٣ ـ ٨٨، والنكت على كتاب ابن الصلاح، للحافظ ابن حجر: ٢/٥٤٦ ـ ٥٧١. ولشيخ الإسلام ابن تيمية كلام لطيف في قبول الحديث المرسل، في كتابه «منهاج السنة النبوية»، تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم: ٧/٤٣٥.

بتنزيه الله تعالى ما ثبت من حديث حذيفة بن اليمان[(١)] رضي الله عنه: «أنه صلى مع النبي ﷺ ذات ليلة، فكان - عليه الصلاة والسلام - يقرأ مترسلاً[(٢)]، إذ مر بآية فيها تسبيح سبح» الحديث[(٣)].

وفي رواية: «إذ مر بآية فيها تنزيه الله عز وجل سبح»[(٤)].

فجعل تنزيه الله عز وجل - في الرواية الثانية - مكان التسبيح - في الرواية الأولى -، فكان كالتفسير له.

وأما الآثار الواردة في بيان معنى التسبيح فكثيرة، ومنها:

١ - أثر ابن عباس رضي الله عنهما، ورد عنه في ذلك عدة روايات:

إحداها - عن الضحاك بن مزاحم[(٥)] عن ابن عباس: «سبحان الله،

---

(١) هو حذيفة بن اليمان بن جابر العبسي، حليف الأنصار، صحابي جليل من السابقين، وكان صاحب سر رسول الله ﷺ. سكن الكوفة، واستعمله عمر رضي الله عنه على المدائن، فلم يزل بها حتى توفي في أول خلافة علي رضي الله عنه سنة (٣٦هـ)، رضي الله عنه. انظر: الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني: ٢/ ٤٤ - ٤٥.

(٢) أي: متأنياً. يقال: ترسل في قراءته: اتأد. والترسل: الرفق والتؤدة. انظر: القاموس المحيط، للفيروزآبادي: مادة (رسل): ص١٣٠٠.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه: ١/ ٥٣٦، برقم (٧٧٢) بلفظ طويل، ذكرت منه محل الشاهد فقط.

(٤) أخرجه ابن ماجه في سننه - ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي - ١/ ٤٢٩، برقم (١٣٥١)، وأحمد في مسنده: ٥/ ٣٨٤، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه: ١/ ٤٠١، برقم (١١١٩).

(٥) هو الضحاك بن مزاحم الهلالي، أبو القاسم أو أبو محمد الخراساني، المفسر، وثقه أحمد وابن معين وأبو زرعة وغيرهم. ويقال: إنه لم يلق ابن عباس، وإنما لقي سعيد بن جبير فأخذ عنه التفسير، وتوفي سنة (١٠٥هـ) أو (١٠٦) هـ، رحمه الله. انظر: ميزان الاعتدال، للذهبي: ٢/ ٣٢٥ - ٣٢٦، وتهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني: ٤/ ٤٥٣ - ٤٥٤.

قال: تنزيه الله»[١].

وثانيتها ـ عن عكرمة[٢] عن ابن عباس: «سبحان الله، قال: تنزيهه»[٣].

وثالثتها ـ عن ابن أبي مليكة[٤] عن ابن عباس ﵄، قال: «سبحان الله: تنزيه الله ﷻ عن كل سوء»[٥].

---

(١) رواه الطبراني في كتاب الدعاء: ٣/ ١٥٩٣، برقم (١٧٥٩)، وفي إسناده بشر بن عمارة، وقد تكلم فيه. وانظر: ميزان الاعتدال، للذهبي: ١/ ٣٢١، وتهذيب التهذيب، لابن حجر: ١/ ٤٥٥.

(٢) هو عكرمة بن عبد الله البربري، أبو عبد الله المدني، مولى ابن عباس، ثقة ثبت، عالم بالتفسير، لا يثبت عنه بدعة. قال محمد بن نصر المروزي: «قد أجمع عامة أهل العلم بالحديث على الاحتجاج بحديث عكرمة، واتفق على ذلك رؤساء أهل العلم بالحديث من أهل عصرنا». وذكره الحافظ ابن حجر من ثقات رواة التفسير عن ابن عباس. وتوفي بالمدينة، سنة (١٠٧هـ) وقيل قبل ذلك، ﵀. انظر: تهذيب التهذيب، للحافظ ابن حجر: ٧/ ٢٦٣ ـ ٢٧٣، وتقريب التهذيب، له: ٢/ ٣٥، والعجاب في بيان الأسباب، له أيضاً، تحقيق عبد الحكيم محمد الأنيس: ١/ ٢٠٣ ـ ٢٠٦.

(٣) رواه عبد بن حميد. ونقل الرواية بإسنادها شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى: ١٦/ ١٢٦ ورجاله ثقات، غير شبيب ـ وهو ابن بشر البجلي ـ، قال فيه الحافظ ابن حجر: «صدوق يخطئ» [تقريب التهذيب: ١/ ٣٣٣].

(٤) هو عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة ـ بالتصغير ـ زهير بن عبد الله القرشي التّيمي، أبو بكر وأبو محمد المكي الأحول، كان إماماً فقيهاً ثقة حجة كثير الحديث، وكان قاضي مكة زمن ابن الزبير، وتوفي سنة (١١٧هـ)، ﵀. انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي: ١/ ١٠١ ـ ١٠٢، وتقريب التهذيب، لابن حجر: ١/ ٤٠٧.

(٥) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره ـ تفسير القرآن العظيم، تحقيق أسعد محمد الطيب ـ: ١/ ٨١ و٤/ ١١٢٣ ـ ١١٢٤، والطبراني في كتاب الدعاء: ٣/ ١٥٩٢، برقم (١٧٥٧). وفي إسناده حجاج بن أرطأة، وهو صدوق كثير =

٢ ـ أثر مجاهد[١]، فقد جاء عنه قوله: «سبحان الله: إنكاف لله»[٢]. وفي رواية أخرى عنه قال: «التسبيح: إنكاف»[٣].

٣ ـ أثر أبي عبيدة معمر بن المثنى، قال: «سبحان الله: تنزيه الله وتبرئته»[٤].

٤ ـ أثر ابن عائشة[٥]، قال: «تقول العرب إذا أنكرت الشيء، وأعظمته: سبحان الله، فكأنه تنزيه الله ﷻ عن كل سوء لا ينبغي أن يوصف بغير صفته»[٦].

= الخطأ والتدليس، كما في «تقريب التهذيب»، لابن حجر: ١/ ١٥٥، وبقية رجال الإسناد ثقات.

(١) هو مجاهد بن جبر المخزومي مولاهم، أبو الحجاج المكي، أحد الأعلام الأثبات، لزم ابن عباس مدة، وقرأ عليه القرآن، وكان ثقة حافظاً، إماماً في التفسير وفي العلم، وتوفي سنة إحدى أو اثنتين أو ثلاث أو أربع ومائة من الهجرة، وله ثلاث وثمانون سنة، رحمه الله. انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي: ١/ ٩٢، وتقريب التهذيب، لابن حجر ٢/ ٢٣٧.

(٢) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره: ٨/ ٤، من طريق ابن أبي نجيح عنه. وقد قال الحافظ ابن حجر: إن ما يروى من التفسير عن مجاهد من طريق ابن أبي نجيح قوي. وانظر: العجاب في بيان الأسباب: ١/ ٢٠٤.

(٣) رواه الطبراني في كتاب الدعاء: ٣/ ١٥٩٤، برقم (١٧٦٣)، وفي إسناده راو ضعيف.

(٤) رواه الطبراني في كتاب الدعاء: ٣/ ١٥٩٤، برقم (١٧٦٦).

(٥) هو عبيد الله بن محمد بن حفص التيمي، أبو عبد الرحمن البصري، المعروف بابن عائشة، وبالعائشي، والعيشي، نسبة إلى عائشة بنت طلحة؛ لأنه من ذريتها، وكان ثقة عالماً جواداً من سادات أهل البصرة، وتوفي سنة (٢٢٨هـ)، رحمه الله. انظر: تهذيب التهذيب، لابن حجر: ٧/ ٤٥ ـ ٤٦، وتقريب التهذيب، له ١/ ٤٩٩ ـ ٥٠٠.

(٦) رواه الطبراني في كتاب الدعاء: ٣/ ١٥٩٤، برقم (١٧٦٧).

ـ وما تضمنته هذه الأحاديث والآثار من معنى التسبيح هو الذي قال به السلف عامة في معناه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ بعد ذكر قول ابن عباس في معنى التسبيح ـ: «وقد جاء عن غير واحد من السلف مثل قول ابن عباس، أنه: تنزيه نفسه من السوء، وروي في ذلك حديث مرسل(١)» اهـ(٢).

وعلى هذا المعنى أيضاً تطابقت أقوال أهل العلم من الخلف في تفسير التسبيح، واشتمل بعض تلك الأقوال على مزيد إيضاح لمفهوم التسبيح في الشرع، كقول العلامة الشوكاني ـ في تفسير قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ﴾ [النور: ٣٦، ٣٧] ـ حيث بين أن التسبيح في الآية فسر بالصلاة. ثم قال: «وقيل: المراد بالتسبيح هنا معناه الحقيقي، وهو تنزيه الله سبحانه عما لا يليق به في ذاته، وصفاته، وأفعاله» اهـ(٣).

فاشتمل قوله هذا على بيان متعلق التسبيح، وهو ذات الله تعالى، وأسماؤه وصفاته، وأفعاله.

فإن التسبيح يتضمن تنزيه ذاته ﷻ من كل نقص وعيب، وتنزيه صفاته من كل سوء وذم، ومن مماثلة صفات المخلوقين، وتنزيه أفعاله من العبث والظلم والشر وخلاف الحكمة.

وكقول أبي السعود(٤): «التسبيح: تنزيه الله تعالى وتبعيده ـ اعتقاداً

---

(١) لعله يعني مرسل موسى بن طلحة، أو مرسل إبراهيم التيمي، وكلاهما سبق تخريجهما في ص (٧٠، ٧١).

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٦/ ١٢٥ ـ ١٢٦.

(٣) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: ٤/ ٥١، ٥٨.

(٤) هو محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، أبو السعود الحنفي، كان فقيهاً أصولياً، ومفسراً لغوياً، وتولى منصب القضاء والفتيا، وصنف كتباً، منها: =

وقولاً وعملاً ـ عما لا يليق بجنابه سبحانه» اهـ(١).

فاشتمل قوله هذا على بيان طريقة تسبيح الله تعالى شرعاً، وهي أن يكون اعتقاداً بالقلب، وقولاً باللسان، وعملاً بالجوارح.

ونحوه قول ابن عاشور(٢): «التسبيح: التنزيه عن النقائص بالاعتقاد، والعبادة، والقول» اهـ(٣).

وهذا يبين أن التسبيح الشرعي ليس مجرد قول باللسان، بل لا بد أن يكون مع القول اعتقاد يطابقه، وعمل يصدقه.

ـ فحاصل المعنى الأصلي للتسبيح في الشرع هو: تنزيه الله ﷻ في الاعتقاد والقول والعمل، عما لا يليق به سبحانه في ذاته وأسمائه وصفاته، وأقواله وأفعاله.

وما تقدم بيانه ـ في المبحث الأول ـ من المعنى اللغوي للتسبيح موافق لهذا المعنى الشرعي المذكور هنا، وبذلك يكون تفسير التسبيح بأنه «تنزيه الله تعالى عن السوء» مجمعاً عليه لغة وشرعاً.

وقد سبق إلى بيان هذا الإجماع أبو إسحاق الزجاج، حيث قال:

= «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم» في تفسير القرآن، وتوفي سنة (٩٨٢هـ)، رحمه الله. انظر: البدر الطالع، للشوكاني: ١/ ٢٦١، ومعجم المؤلفين، لعمر رضا كحالة: ٣/ ٦٩٣.

(١) تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم): ١/ ٨٣.

(٢) هو محمد الطاهر بن عاشور التونسي، ولد سنة (١٢٩٦هـ)، وكان رئيس المفتين المالكيين، وشيخ جامع الزيتونة وفروعه بتونس، وله تصانيف عديدة، منها: التحرير والتنوير في تفسير القرآن، ومقاصد الشريعة الإسلامية. وتوفي سنة (١٣٩٣هـ)، رحمه الله. انظر: الأعلام، للزركلي: ٦/ ١٧٤، ومعجم المؤلفين، لعمر رضا كحالة: ٣/ ٣٦٣.

(٣) تفسير التحرير والتنوير: ٢٩/ ١٥١.

«جاء عن النبي ﷺ أن قوله: (سبحان الله): تنزيه الله من السوء. وأهل اللغة كذلك يقولون، من غير معرفة بما فيه عن النبي ﷺ، ولكن تفسيره يجمعون عليه» اهـ[(١)].

وبين ذلك أيضاً الواحدي[(٢)] ـ فيما نقله عنه الإمام النووي ـ أنه قال: «أجمع المفسرون وأهل المعاني على أن معنى (تسبيح الله تعالى): تنزيهه وتبرئته من السوء»[(٣)].

وبهذا يعلم أن التسبيح هو والتنزيه شيء واحد، إذ يقصد بكل منهما تجريد ما لا يليق نسبته إلى الله ﷻ ـ من وصف، أو سمة، أو قول، أو فعل ـ مما هو لائق بكماله، فيثبت له ما يليق به، وينزه عما لا يليق به[(٤)].

ومن هنا فسر بعض أهل العلم التسبيح بقوله: «سبحان الله: تنزيه لله عن كل ما لا ينبغي أن يوصف به»[(٥)].

وفسر بعضهم التنزيه بقوله: «وتنزيه الله عزّ اسمه: ألّا يوصف بوصف لا يليق به»[(٦)].

---

(١) معاني القرآن وإعرابه: ٢/ ٣٧٤، وانظر: المصدر نفسه: ٥/ ١١٨ ـ ١١٩.
(٢) هو علي بن أحمد بن محمد بن علي بن متويه الواحدي، أبو الحسن النيسابوري، كان أوحد عصره في التفسير، وصنف فيه التفاسير الثلاثة: البسيط، والوسيط، والوجيز. وله أيضاً: أسباب النزول. وقد رزق السعادة في تصانيفه، وأجمع الناس على حسنها، وتوفي سنة (٤٦٨هـ)، رحمه الله. انظر: البداية والنهاية، لابن كثير: ١٢/ ١٢١، وطبقات المفسرين، للداوودي: ١/ ٣٨٧ ـ ٣٩٠.
(٣) المجموع شرح المهذب: ٣/ ٣٥٥.
(٤) انظر كلاماً حول هذا المعنى في: مدارج السالكين، لابن قيم الجوزية، تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي: ١/ ٤٩٨.
(٥) كتاب العين، للخليل بن أحمد الفراهيدي: ٣/ ١٥١.
(٦) تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني، تحقيق أبي بلال غنيم بن عباس: ٦/ ٢٠٦.

فالتسبيح هو التنزيه، غير أن لفظ التسبيح هو الوارد في الكتاب والسنة، بخلاف التنزيه، فلا أعلم له ذكراً فيهما، سوى ما في التفسير النبوي للتسبيح، في الأحاديث الثلاثة المتقدم ذكرها(١).

وكثير من الناس لا يدركون تمام الإدراك ما بين التسبيح والتنزيه من الاتحاد في المعنى، كما أن بعض الناس ليس عندهم تصور صحيح لمعناهما على الصورة التي سبق بيانها. وهذا الموضع لم يتخلص فيه ـ في الحقيقة ـ إلا أهل السنة والجماعة الذين تلقوا علمهم وعقيدتهم من نصوص الوحيين الكتاب والسنة، وفق فهم السلف الصالح من الصحابة والتابعين والعلماء السائرين على نهجهم في كل عصر.

وضل فيه أهل البدع والأهواء الذين تلقوا علومهم وعقائدهم من أفكار الناس وقوانين البشر، ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

❖ المطلب الثاني ❖

دلالة التسبيح على التعظيم

ما سبق بيانه من المعنى الأصلي للتسبيح في الشرع هو ما يدل عليه لفظ التسبيح بالمطابقة(٢). وقد يظن أن ذلك المعنى المطابقي نفي

---

(١) انظر: ص٦٨ ـ ٧١.

(٢) اللفظ من حيث الوضع له ثلاث دلالات، هي: دلالة المطابقة، ودلالة التضمن، ودلالة الالتزام.
فدلالة المطابقة: هي دلالة اللفظ على تمام المعنى الموضوع له اللفظ، كدلالة الرجل على الإنسان الذكر، ودلالة المرأة على الإنسان الأنثى.
وسميت مطابقة لتطابق الوضع والفهم، فالمفهوم من اللفظ هو عين المعنى الموضوع له اللفظ.
ـ ودلالة التضمن: هي دلالة اللفظ على جزء مسماه في ضمن كله، ولا =

محض، أو سلب مجرد، وأنه لا يتضمن معنى ثبوتياً.

ومعلوم أن التسبيح جاء في الكتاب والسنة في سياق المدح لله ﷻ، وتنزيهه عن كل وصف لا يليق بجلاله وعظمته. والمدح إنما يكون بالأمور الموجودة لا بالأمور المعدومة، والنفي أو السلب إنما يكون مدحاً إذا تضمن أمراً وجودياً هو كمال، وإلا فالنفي المحض أو السلب المجرد لا مدح فيه ولا كمال[1].

ولهذا لزم أن يعلم أن التسبيح وكل تنزيه لله تعالى في الكتاب والسنة، أنه ليس نفياً محضاً ولا سلباً مجرداً، بل هو نفي يتضمن إثباتاً، وسلب يستلزم إيجاباً.

وبيان ذلك: أن التسبيح لما دل على تنزيه الله تعالى عن النقائص والعيوب، استلزم اتصافه بالكمال المطلق الذي لا نقص ولا عيب فيه بوجه من الوجوه؛ لأن التنزيه ـ الذي دل عليه التسبيح ـ مقصوده نفي ما يناقض الكمال، فإذا نفي النقيض الذي هو النقص والعيب، لزم ثبوت النقيض الآخر الذي هو الكمال والمدح[2].

= تكون إلا في المعاني المركبة، كدلالة الأربعة على الواحد ربعها، وعلى الاثنين نصفها. وسميت تضمناً؛ لأن الجزء يفهم في ضمن الكل.
ـ ودلالة الالتزام: هي دلالة اللفظ على خارج عن مسماه لازم له لزوماً ذهنياً، بحيث يلزم من فهم المعنى المطابقي فهم ذلك الخارج اللازم، كدلالة الأربعة على الزوجية، وهي: الانقسام إلى متساويين.
انظر: آداب البحث والمناظرة، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي (القسم الأول): ص١٣ ـ ١٦.

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠/ ٢٥٠.

(٢) انظر: المنهاج في شعب الإيمان، للحليمي؛ تحقيق حلمي محمد فوده: ١/ ١٩٧، والأسماء والصفات، للبيهقي: ١/١٠٧ ـ ١٠٨، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٦/٩٩.

ولما تنزه ﷻ عن صفات النقص كلها، واتصف بصفات الكمال كلها، وجبت له العظمة والجلال[١]، وهي كونه تعالى متصفاً بجملة أوصاف الكمال[٢]. فكان التسبيح ـ بهذا ـ دالاً على التعظيم والمدح والثناء في حق الله ﷻ.

وفي بيان دلالة التسبيح على التعظيم قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ بعد كلام له ـ: «والمقصود هنا أن صفات الكمال إنما هي في الأمور الموجودة، والصفات السلبية إنما تكون كمالاً إذا تضمنت أموراً وجودية، ولهذا كان تسبيح الرب يتضمن تنزيهه وتعظيمه جميعاً، فقول العبد: (سبحان الله) يتضمن تنزيه الله وبراءته من السوء، وهذا المعنى يتضمن عظمته في نفسه، ليس هو عدماً محضاً لا يتضمن وجوداً، فإن هذا لا مدح فيه ولا تعظيم. وكذلك سائر ما تنزه الرب عنه من الشركاء، والأولاد، وغير ذلك، كقوله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنَـٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ٤٠ ـ ٤٤].

وقوله تعالى: ﴿سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾﴾ [الصافات: ١٨٠، ١٨١]، وغير ذلك» اهـ[٣].

ولشيخ الإسلام ابن تيمية كلام في هذه المسألة في مواضع متعددة، بين فيها أن التسبيح يتضمن مع نفي صفات النقص عن الله

---

(١) انظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، لأبي العباس القرطبي، تحقيق محيي الدين مستو، وآخرين: ٧/٥٩.

(٢) انظر: بدائع الفوائد، لابن قيم الجوزية: ١/١٧٦، ١٧٧.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٧/١٤٣ ـ ١٤٤.

تعالى إثبات ما يلزم ذلك من عظمته جل وعلا، ففي التسبيح تنزيه الله من العيوب والنقائص، وفيه تعظيمه ﷻ[١].

وقد جاء في الأحاديث النبوية، والآثار السلفية، وأقوال كثير من أهل العلم ما يقرر دلالة التسبيح على التعظيم والمدح والثناء في حق الله تعالى، فمن ذلك:

١ ـ حديث النعمان بن بشير[٢] رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«الذين يذكرون من جلال الله من تسبيحه وتحميده وتكبيره وتهليله، يتعاطفن[٣] حول العرش، لهن دوي[٤] كدوي النحل، يذكرن بصاحبهن. ألا يحب أحدكم أن لا يزال له عند الله شيء يذكر به؟»**[٥].

---

(١) انظر المصدر السابق: ١٧/ ١١٢، ودرء تعارض العقل والنقل، له أيضاً: ٦/ ١٧٧.

(٢) هو النعمان بن بشير بن سعد بن ثعلبة الأنصاري الخزرجي، أبو عبد الله، صحابي مشهور، ابن صحابي، ويقال: إنه أول مولود في الإسلام من الأنصار بعد الهجرة بأربعة عشر شهراً، وكان من أخطب الناس، وتوفي بالشام سنة (٦٥هـ)، رضي الله عنه.
انظر: الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني: ٦/ ٤٤٠.

(٣) يتعاطفن: يتمايلن ويتحركن، من العطف، وهو الميل. وانظر: القاموس المحيط، للفيروزآبادي: مادة (عطف): ص١٠٨٣.

(٤) يعني يسمع لهن صوت كدوي النحل، ودوي النحل: حفيفها، وهو صوتها. وانظر: القاموس المحيط: مادة (دوي): ص١٦٥٧، ومادة (حفف): ص١٠٣٤.

(٥) أخرجه أحمد في مسنده: ٤/ ٢٦٨، واللفظ له، وابن ماجه بنحوه في سننه: ٢/ ١٢٥٢، برقم (٣٨٠٩)، والحاكم في المستدرك: ١/ ٦٨٢، برقم (١٨٥٥)، وقال: «هذا حديث على شرط مسلم»، ووافقه الذهبي. وقال البوصيري ـ في زوائد ابن ماجه ـ: «إسناده صحيح، رجاله ثقات». وصححه الألباني في «مختصر العلو للعلي الغفار»: ص٩٦، برقم (٣٢).

فأخبر ﷺ أن التسبيح من جلال الله، أي: من عظمته[١]، فمن سبح الله تعالى فقد أجله وعظمه.

٢ ـ وحديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**ألا وإني نهيت أن أقرأ القرآن راكعاً أو ساجداً، فأما الركوع فعظموا فيه الرب عز وجل، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء فقمن[٢] أن يستجاب لكم**»[٣].

فأمر ﷺ بتعظيم الرب عز وجل في الركوع، وجاء في أحاديث أخرى ما يبين أن هذا التعظيم يكون بالتسبيح، لأنه هو المشروع في الركوع لا غير، كما سيأتي بيانه في موضعه، إن شاء الله تعالى[٤].

٣ ـ وأثر عبد الله بن بريدة[٥]: «أن رجلاً سأل علياً رضي الله عنه عن (سبحان الله)، فقال: (تعظيم جلال الله)»[٦].

---

(١) يقال: جل جلالا، أي: عظم، فهو جليل. وأجله، أي: عظمه. انظر: القاموس المحيط، للفيروزآبادي: مادة (جلل): ص١٢٦٤.

(٢) (قمن) بفتح الميم وكسرها، لغتان. فهو بالفتح مصدر، فلا يثنى ولا يجمع ولا يؤنث. وهو بالكسر وصف، فيثنى ويجمع ويؤنث. ومعناه: خليق وجدير، ومثله: القمين. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: ٤/ ١١١.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه: ١/ ٣٤٨، برقم (٤٧٩).

(٤) انظر: مبحث «التسبيح في الركوع والسجود» في ص (٥٣٤). وانظر أيضاً: شرح صحيح مسلم، للنووي: ٤/ ١٩٧.

(٥) هو عبد الله بن بريدة بن الحصيب الأسلمي، أبو سهل المروزي، قاضيها، ثقة، توفي سنة (١٠٥هـ)، وقيل: سنة (١١٥هـ)، رحمه الله. انظر: تقريب التهذيب، لابن حجر العسقلاني: ١/ ٣٨٣ ـ ٣٨٤.

(٦) أخرجه الطبراني في كتاب الدعاء: ٣/ ١٥٩٣ ـ ١٥٩٤، برقم (١٧٦٢)، ورجال إسناده ثقات غير محمد بن دينار، فهو صدوق سيئ الحفظ، كما في «تقريب التهذيب»، لابن حجر: ٢/ ١٦٩.

٤ ـ وأثر النضر بن عربي[(١)]، قال: «سأل رجل ميمون بن مهران[(٢)] عن (سبحان الله)، فقال: (اسم يعظم الله به، ويحاشى به من السوء)»[(٣)]. ـ وفي رواية، قال: «سبحان الله: تعظيم الله وحاشا»[(٤)].

٥ ـ وقول الزجاج: «التسبيح في اللغة: تعظيم الله وتنزيهه عن السوء»[(٥)] وقوله أيضاً: «التسبيح: تمجيد الله وتنزيهه من السوء»[(٦)].

٦ ـ وقول ابن دريد[(٧)]: «سبح الرجل تسبيحاً: عظم الله ومجده»[(٨)].

٧ ـ وقول نفطويه: «ومعنى (سبحان): التنزيه والتعظيم والتكبير

---

(١) هو النضر بن عربي الباهلي مولاهم، أبو روح، ويقال: أبو عمر، الحراني، لا بأس به، توفي سنة (١٦٨هـ)، رحمه الله. انظر: ميزان الاعتدال، للذهبي: ٤/ ٢٦١، وتقريب التهذيب، لابن حجر العسقلاني: ٢/ ٣٠٧.

(٢) هو ميمون بن مهران الجزري، أبو أيوب الرقي، كوفي الأصل، ثقة فقيه من أجلاء التابعين وزهادهم، ولي الجزيرة لعمر بن عبد العزيز، وتوفي سنة (١١٧هـ)، رحمه الله. انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي، ٥/ ٧١ ـ ٧٢، تقريب التهذيب، لابن حجر: ٢/ ٢٩٦.

(٣) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (تفسير القرآن العظيم)، جمع أسعد محمد الطيب: ٤/ ١١٢٤، برقم (٦٣١٥)، وإسناده حسن.

(٤) رواه الطبراني في كتاب الدعاء: ٣/ ١٥٩٤، برقم (١٧٦٤)، وإسناده حسن.

(٥) معاني القرآن وإعرابه: ٥/ ٢٢. (٦) المصدر السابق: ٥/ ١٢١.

(٧) هو محمد بن الحسن بن دريد بن عتاهية الأزدي، أبو بكر البصري، اللغوي النحوي الشاعر، ولد سنة (٢٢٣هـ)، وكان من أعلم الناس في زمانه باللغة والشعر وأيام العرب وأنسابها، ومن مصنفاته: جمهرة اللغة، وغيره، وتوفي سنة (٣٢١هـ)، رحمه الله.
انظر: ميزان الاعتدال، للذهبي: ٣/ ٥٢٠، والبداية والنهاية، للحافظ ابن كثير: ١١/ ١٨٨، ومعجم الأدباء، لياقوت الحموي: ١٨/ ١٢٧.

(٨) جمهرة اللغة: ١/ ٢٢٢.

والإبعاد»[١].

٨ ـ وقول الماوردي[٢]: «التسبيح ـ في كلامهم ـ: التنزيه من السوء على جهة التعظيم»[٣].

ـ وقوله أيضاً ـ في بيان اشتقاق التسبيح ـ: «وهو من السبح في التعظيم، وهو الجري فيه إلى أبعد الغايات»[٤]، ومعنى قوله هذا: أن المسبح لله تعالى جار في تعظيمه إلى أبعد الغايات.

٩ ـ وقول أبي المظفر السمعاني[٥]: «سبحان: تنزيه الله من كل سوء. وحقيقته: تعظيم الله بوصف المبالغة، ووصفه بالبراءة من كل نقص»[٦]. وقوله أيضاً: «تسبيح الله: تعظيم له على وجه ينفي عنه كل

---

(١) مسألة سبحان: ص٢٩.

(٢) هو علي بن محمد بن حبيب البصري، أبو الحسن الماوردي، القاضي، شيخ الشافعية في وقته، كان صدوقاً في نفسه، ولكنه وافق المعتزلة في بعض المسائل فاتهم بالاعتزال. وله تصانيف كثيرة، منها: الحاوي الكبير في فقه الشافعية، والأحكام السلطانية، وأدب الدين والدنيا، وغيرها، وتوفي سنة (٤٥٠هـ)، رحمه الله. انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: ١٨/ ٦٤ ـ ٦٨، وميزان الاعتدال، له: ٣/ ١٥٥، والبداية والنهاية، لابن كثير: ١٢/ ٨٥ ـ ٨٦.

(٣) النكت والعيون (تفسير الماوردي)، بتعليق السيد بن عبد المقصود: ١/ ٩٦.

(٤) المصدر السابق: ٣/ ٢٢٤.

(٥) هو منصور بن محمد بن عبد الجبار بن أحمد التميمي، أبو المظفر السمعاني، المروزي، الحنفي ثم الشافعي، كان وحيد عصره فضلاً وطريقة وزهداً، انتصر لأهل السنة وكان شوكاً في أعين المخالفين، من مصنفاته: تفسير القرآن، وقواطع الأدلة، توفي سنة (٤٨٩هـ)، رحمه الله. انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: ١٩/ ١١٤، والبداية والنهاية، لابن كثير: ١٢/ ١٦٤.

(٦) تفسير القرآن، تحقيق أبي تميم ياسر بن إبراهيم، وأبي بلال غنيم بن عباس: ٣/ ٢١٢.

سوء»[١]. وقوله كذلك: «التسبيح: هو الثناء على الله بالتبرئة والتنزيه من العيوب»[٢].

١٠ ـ وقول الإمام ابن قيم الجوزية: «ومعنى هذه الكلمة ـ يعني (سبحان الله) ـ تنزيه الرب تعالى وتعظيمه وإجلاله عما لا يليق به»[٣]. وقوله أيضاً: «التسبيح: ثناء عليه سبحانه يتضمن التعظيم والتنزيه»[٤].

ـ فهذه مما جاء في بيان دلالة التسبيح على التعظيم والمدح والثناء في حق الله تعالى من الأحاديث والآثار وأقوال العلماء.

وبيان هذه الدلالة للتسبيح يزيد في العلم بحقيقة التسبيح في الشرع، وما يتضمنه من معاني الجمال ودلائل الكمال في حق الله ﷻ، وأنه ليس نفياً مجرداً عن إثبات، بل هو نفي متضمن إثباتاً، فهو نفي بدلالة لمطابقة، وهو إثبات بدلالة الالتزام؛ لأنه يدل على انتفاء النقائص والعيوب عن الله تعالى، وهذا المعنى يستلزم ثبوت الكمالات له سبحانه على التمام بحيث لا يلحقه فيها نقص ولا عيب بوجه من الوجوه.

فيعلم ـ بهذا ـ أن كل نفي في حق الله تعالى إذا لم يتضمن إثبات كمال في حقه جل وعلا، فليس تسبيحاً ولا تنزيهاً؛ لأنه لا تعظيم فيه ولا مدح ولا ثناء، ولا يليق بجلال الله وعظمته. «ولهذا إنما يصف الله نفسه بصفات التنزيه ـ لا السلبية العدمية ـ، لتضمنها أموراً وجودية تكون كمالاً يتمدح سبحانه بها»[٥]، ويعظمه بها عباده المؤمنون، ويثنون عليه بها.

---

(١) المصدر السابق: ٤/٣٣٨. (٢) المصدر نفسه: ٣/١٥٦.
(٣) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، تحقيق الدكتور السيد الجميلي: ص٤٥٢.
(٤) المنار المنيف في الصحيح والضعيف، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة: ص٣٦.
(٥) مقتبس من «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية»: ١٧/١٤٢.

وهذا الموضع مما يجب الاعتناء بفهمه على هدي كتاب الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ، ليحصل به الفرقان بين تنزيه الرسل وأتباعهم القائم على نفي ما يناقض كمال الله وعظمته وتوحيده، وتنزيه المخالفين لهم القائم على نفي صفات الكمال التي وصف الله بها نفسه، ووصفه بها رسوله ﷺ[(١)]، والله والموفق والهادي إلى سواء السبيل.

❖ المطلب الثالث ❖

إطلاق التسبيح على الصلاة

ومن المعاني التي يراد بها لفظ التسبيح في الشرع: تسمية الصلاة تسبيحاً.

فقد كثر في القرآن الكريم وفي الحديث النبوي إطلاق التسبيح على الصلاة[(٢)]. أما القرآن، ففي الأثر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كل تسبيح في القرآن هو الصلاة»[(٣)]. وعن سعيد بن جبير[(٤)] مثله[(٥)].

ولا بد من حمل هذين الأثرين على إرادة أغلب المواضع في

---

(١) انظر: الروح، للإمام ابن قيم الجوزية: ص٣٨٧.

(٢) انظر: نور المسرى، لأبي شامة المقدسي: ص٢٨، والنهاية في غريب الحديث، لابن الأثير ٢/ ٣٣٢، وفتح الباري، للحافظ ابن حجر: ٢/ ٥٧٥، وأضواء البيان، للشنقيطي: ٢/ ١١١.

(٣) ذكره الحافظ ابن كثير في تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٣٠٥.

(٤) هو سعيد بن جبير الأسدي مولاهم، الكوفي، أحد الأعلام، ثقة ثبت فقيه، قتله الحجاج بن يوسف، سنة (٩٥هـ)، ولم يكمل خمسين سنة، رحمه الله. انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي: ١/ ٧٦ ـ ٧٧، وتقريب التهذيب، لابن حجر: ١/ ٢٨٤.

(٥) رواه الفراء في معاني القرآن: ٢/ ١٢٥.

القرآن، أو ما جاء من التسبيح بصيغة الأمر في القرآن، لما تقدم أن التسبيح قد استعمل في الشرع في معان متعددة، منها الصلاة وغيرها.

ومن إطلاق التسبيح على الصلاة في القرآن:

١ ـ قول الله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾ [طه: ١٣٠].

قال ابن العربي(١): «لا خلاف أن المراد بقوله تعالى ها هنا ـ: ﴿سَبِّحْ﴾: صلِّ؛ لأنه غاية التسبيح وأشرفه» اهـ(٢).

ويؤيد كون المراد بالتسبيح ـ في هذه الآية ـ الصلاة حديث جرير بن عبد الله(٣) رضي الله عنه قال: «كنا عند النبي ﷺ، إذ نظر إلى القمر ليلة البدر، فقال: «**أما إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون(٤) في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع**

---

(١) هو محمد بن عبد الله بن محمد الإشبيلي، المعروف بابن العربي، العلامة الحافظ القاضي المالكي، كان من حفاظ علماء الأندلس، وبقي يفتي أربعين سنة، وله تآليف كثيرة دالة على سعة علمه، منها: أحكام القرآن، وعارضة الأحوذي في شرح جامع الترمذي، والعواصم من القواصم، وغيرها، وتوفي سنة (٥٤٣هـ)، رحمه الله. انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي: ٤/ ١٢٩٤ ـ ١٢٩٧، وشجرة النور الزكية، للشيخ محمد مخلوف: ص١٣٦ ـ ١٣٨.

(٢) أحكام القرآن، تحقيق محمد عبد القادر عطا: ٣/ ٢٦٠.

(٣) هو جرير بن عبد الله بن جابر البجلي الأحمسي، أبو عمرو، وقيل: أبو عبد الله، اليماني، الكوفي، صحابي مشهور، توفي سنة(٥١هـ)، وقيل: بعدها، رضي الله عنه. انظر: تهذيب الأسماء واللغات، للنووي: ١/ ١٤٧، وتقريب التهذيب، لابن حجر العسقلاني: ١/ ١٣٢.

(٤) لا تضامون: يروى بتشديد الميم وتخفيفها. فبالتشديد معناه: لا ينضم بعضكم إلى بعض وتزدحمون وقت النظر إليه. ويجوز في التاء الضم والفتح، =

الشمس وقبل غروبها فافعلوا». ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠]»[(١)].

وفي رواية زيادة: «يعني العصر والفجر»[(٢)].

وتعددت أقوال المفسرين في الصلاة المعنية بهذا التسبيح في الآية، فقال بعضهم: إن الآية في بيان الصلوات المكتوبة.

وقال آخرون: إنها في بيان الصلوات النافلة.

وقال غيرهم: إنها في بيان المكتوبات والنوافل[(٣)].

وكون الآية في بيان النوافل فقط دون المكتوبات بعيد، لما جاء من التصريح بإرادة العصر والفجر في بعض روايات الحديث السابق.

٢ ـ وقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾ [ق: ٣٩، ٤٠].

وهذه الآية نظير الآية السابقة، وقد وقع في بعض روايات حديث

= على (تفاعلون) و(تتفاعلون). وبتخفيف الميم معناه: لا ينالكم ضيم في رؤيته، فيراه بعضكم دون بعض. والضيم: الظلم. انظر: النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير: ٣/ ١٠١.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٢/ ٥٢، برقم (٥٧٣) ومسلم في صحيحه: ١/ ٤٣٩، برقم (٦٣٣).

(٢) هذه الزيادة عند مسلم في روايته المشار إليها.

(٣) انظر هذه الأقوال في: تفسير الطبري: ٨/ ٤٧٧ ـ ٤٨٨، وتفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني: ٣/ ٣٦٣، وأحكام القرآن، لابن العربي: ٣/ ٢٦٠، والمحرر الوجيز، لابن عطية: ١١/ ١١٥ ـ ١١٦، وزاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي: ٥/ ٣٣٣ ـ ٣٣٤، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ١٧٨ ـ ١٧٩.

جرير بن عبد الله رضي الله عنه ذكر هذه الآية بدل تلك الآية(١)، ولعل ذلك تصرف من بعض الرواة نظراً لاتحاد دلالة الآيتين.

وقد ذكر المفسرون في معنى هذه الآية والصلاة المقصودة بلفظ التسبيح فيها نحو ما ذكروه في الآية السابقة(٢).

٣ ـ وقوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الروم: ١٧، ١٨].

جاء في الأثر أن نافع بن الأزرق(٣) سأل ابن عباس رضي الله عنهما: «هل تجد الصلوات الخمس في القرآن؟»، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: «نعم، ثم قرأ عليه: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾ قال: صلاة المغرب. ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ قال: صلاة الصبح. ﴿وَعَشِيًّا﴾ قال: صلاة العصر. ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ قال: صلاة الظهر. ثم قرأ: ﴿وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ﴾ [النور: ٥٨]»(٤).

وجاء في أثر آخر عن ابن عباس أيضاً رضي الله عنهما قال: «جمعت هاتان الآيتان مواقيت الصلاة ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾ قال: المغرب والعشاء. ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ الفجر. ﴿وَعَشِيًّا﴾ العصر. ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾

---

(١) انظر: صحيح البخاري ـ مع الفتح ـ ٢/ ٣٣، حديث رقم (٥٥٤)، و٨/ ٥٩٧، حديث رقم (٤٨٥١).

(٢) انظر: تفسير الطبري: ١١/ ٤٣٥ ـ ٤٣٦، وتفسير البغوي: ٧/ ٣٦٤ ـ ٣٦٥.

(٣) هو نافع بن الأزرق الحروري، من رؤوس الخوارج، قتل سنة (٦٥هـ). انظر: ميزان الاعتدال، للذهبي: ٤/ ٢٤١، والبداية والنهاية، لابن كثير: ٨/ ٢٦٤.

(٤) رواه عبد الرزاق الصنعاني في تفسيره، بتحقيق الدكتور مصطفى مسلم محمد: ٢/ ١٠٣، وابن جرير الطبري في تفسيره: ١٠/ ١٧٤، والحاكم في المستدرك: ٢/ ٤٤٥، برقم (٣٥٤١) وصححه، ووافقه الذهبي.

الظهر»[١].

فهذا بعض ما جاء من إطلاق التسبيح على الصلاة في القرآن الكريم. وأما إطلاق التسبيح على الصلاة في الحديث النبوي، فوقع كثيراً، ومن ذلك:

١ ـ حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لعلكم ستدركون أقواماً يصلون الصلاة لغير وقتها، فإن أدركتموهم فصلوا الصلاة لوقتها، وصلوا معهم واجعلوها سبحة»**[٢].

وفي رواية: قال لي رسول الله ﷺ: **«كيف بكم إذا أتت عليكم أمراء يصلون الصلاة لغير ميقاتها؟»** قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك، يا رسول الله؟ قال: **«صل الصلاة لميقاتها، واجعل صلاتك معهم سبحة»**[٣].

قال الخطابي[٤]: «والسبحة: ما يصليه المرء نافلة من الصلوات»[٥].

---

(١) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره: ١٠/ ١٧٤.

(٢) أخرجه النسائي في سننه: ٢/ ٤١٠، برقم (٧٧٨)، وابن ماجه في سننه: ١/ ٣٩٨، برقم (١٢٥٥)، وهو صحيح، كما في صحيح سنن النسائي، للألباني: ٢٥٨/١، برقم (٧٧٨). وأخرجه مسلم في صحيحه ـ بنحوه مطولاً ـ: ١/ ٣٧٨ ـ ٣٧٩، برقم (٥٣٤)، وليس فيه تصريح برفعه إلى النبي ﷺ.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه: ١/ ٣٠٠، برقم (٤٣٢)، وهو صحيح، كما في صحيح سنن أبي داود، للألباني: ١٢٧/١ ـ ١٢٨ برقم (٤٣٢).

(٤) هو حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي، أبو سليمان البستي، الإمام الحافظ، والعلامة المجتهد اللغوي، له مصنفات مفيدة، منها: أعلام السنن ـ في شرح صحيح البخاري ـ، ومعالم السنن ـ في شرح سنن أبي داود ـ، وشأن الدعاء. وتوفي سنة (٣٨٨هـ) رحمه الله. انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: ٧/ ٢٣ ـ ٢٨، والبداية والنهاية، لابن كثير: ٣٤٦/١١.

(٥) معالم السنن: ١/ ١١٧.

٢ ـ وحديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ يسبح على الراحلة قبل أي وجه توجه، ويوتر عليها، غير أنه لا يصلي عليها المكتوبة»[(١)].

قال الحافظ ابن حجر: «قوله: (يسبح) أي: يصلي النافلة»[(٢)].

٣ ـ وحديث ابن عمر أيضاً رضي الله عنهما قال: «جمع النبي ﷺ بين المغرب والعشاء بجمع[(٣)]، كل واحدة منهما بإقامة، ولم يسبح بينهما ولا على إثر كل واحدة منهما»[(٤)].

قال الحافظ ابن حجر: «قوله: (ولم يسبح بينهما) أي: لم يتنفل»[(٥)].

٤ ـ وحديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: «ما سبح رسول الله ﷺ سبحة الضحى قط، وإني لأسبحها، وإن كان رسول الله ﷺ ليدع العمل وهو يحب أن يعمل به خشية أن يعمل به الناس فيفرض عليهم»[(٦)].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٢/ ٥٧٥، برقم (١٠٩٨)، ومسلم في صحيحه: ١/ ٤٨٧، برقم (٧٠٠).

(٢) فتح الباري: ٢/ ٥٧٥.

(٣) جمع ـ بإسكان الميم ـ مكان معروف بالمزدلفة، وهو اسم المشعر الحرام. وقيل: هو المزدلفة نفسها، سميت بذلك لاجتماع الناس فيها. انظر: تهذيب الأسماء واللغات، للنووي: ٣/ ٥٩، وهدي الساري، للحافظ ابن حجر العسقلاني: ص٩٩.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٣/ ٥٢٣، برقم (١٦٧٣).

(٥) فتح الباري: ٣/ ٥٢٣.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٣/ ١٠، برقم (١١٢٨)، ومسلم في صحيحه: ١/ ٤٩٧، برقم (٧١٨)، وأبو داود في سننه: ٢/ ٦٤، برقم (١٢٩٣) واللفظ له.

ففي هذه الأحاديث وغيرها من الأحاديث ذكر التسبيح بمعنى الصلاة، ولكن يلاحظ أن إطلاق التسبيح على الصلاة في هذه الأحاديث جاء مختصاً بالصلاة النافلة دون المكتوبة.

ولعل هذا هو الذي جعل بعض العلماء يخصون النافلة من الصلوات باسم التسبيح، كما قال الخطابي: «كل صلاة يتطوع بها فهي تسبيح وسبحة»[(١)].

وقال ابن فارس[(٢)]: «السبحة، وهي الصلاة، ويختص بذلك ما كان نفلاً غير فرض»[(٣)].

وبالغ الحافظ ابن حجر فقال: «وأما اختصاص ذلك بالنافلة فهو عرف شرعي»[(٤)].

ومن ثم علل هو وغيره هذا الاختصاص بأن التسبيح في صلاة الفريضة نافلة، فقيل لصلاة النافلة: سبحة؛ لأنها كالتسبيح في الفريضة، في أنه غير واجب[(٥)].

وفي هذا كله نظر؛ لأن التسبيح ورد في القرآن إطلاقه على صلاة الفريضة، كما في الآيات التي سبق ذكرها وغيرها.

---

(١) معالم السنن: ١/ ١١٧.

(٢) هو أحمد بن فارس بن زكريا القزويني، أبو الحسين الرازي، اللغوي، كان رأساً في الأدب، بصيراً بفقه مالك، مناظراً متكلماً على طريقة أهل الحق، من مصنفاته: مجمل اللغة، ومقاييس اللغة، وتفسير أسماء النبي ﷺ، وتوفي سنة (٣٩٥هـ)، رحمه الله. انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: ١٧/ ١٠٣ ـ ١٠٦، وبغية الوعاة، للسيوطي: ١/ ٣٥٢.

(٣) مقاييس اللغة: ٣/ ١٢٥.

(٤) فتح الباري: ٢/ ٥٧٥.

(٥) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: ٢/ ٣٣١، وفتح الباري، لابن حجر العسقلاني: ٣/ ٥٥ ـ ٥٦.

فيظهر أن تخصيص النافلة بإطلاق التسبيح عليها كان عرفاً عند الناس في وقت من الأوقات، وليس ذلك عرفاً شرعياً كما ذهب إليه الحافظ ابن حجر. ولذا كان الحافظ ابن عبد البر[١] أدق في التعبير حيث قال: «إن أهل العلم لا يوقعون اسم (سبحة) إلا على النافلة دون الفريضة، لقوله ﷺ: (واجعلوا صلاتكم معهم سبحة)[٢] أي: نافلة»[٣].

فجعل تخصيص النافلة باسم (سبحة) عرفاً لأهل العلم لورود ذلك في الحديث، ولم يجعله عرفاً شرعياً؛ لأنه ليس مطرداً في نصوص الشرع وإن وقع كثيراً في الأحاديث، كما سبق، والله تعالى أعلم.

وقد أشار شيخ الإسلام ابن تيمية إلى سبب تخصيص النافلة بلفظ التسبيح حيث قال: «ولفظ (التسبيح) يراد به: جنس الصلاة. وقد يراد: النافلة خصوصاً، فإن الفرض لما كان له اسم يخصه جعل هذا اللفظ للنافلة» اهـ[٤].

- فبين أن إطلاق التسبيح على النافلة هو من باب تمييزها عن الفريضة في التسمية، ولا يعني ذلك أن التسبيح في الصلاة نافلة، خلافاً لمن علل التسمية بذلك.

---

(١) هو يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري، أبو عمر القرطبي، الإمام الحافظ والعلامة المتقن، كان ثقة ديناً، صاحب سنة واتباع، له تصانيف بديعة نافعة، منها: التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، والاستيعاب بمعرفة الأصحاب، وجامع بيان العلم وفضله، وغيرها. وتوفي سنة (٤٦٣هـ) رحمه الله. انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: ١٨/ ١٥٣ ـ ١٦٣، وشجرة النور الزكية، للشيخ محمد مخلوف: ص١١٩.

(٢) هو جزء من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، سبق تخريجه في ص (٩٠).

(٣) التمهيد: ٨/ ١٣٤.

(٤) قاعدة حسنة في الباقيات الصالحات، تحقيق وتعليق أبي محمد أشرف بن عبد المقصود: ص٥٣.

وأما حكم التسبيح في صلاة الفريضة، وهل هو واجب أو غير واجب؟ فسيأتي البحث فيه في موضعه(١)، إن شاء الله تعالى.

وإذا ثبت أن التسبيح يطلق في الشرع على الصلاة ـ فرضاً أو نفلاً ـ، فإن للعلماء في سبب تسمية الصلاة تسبيحاً أقوالاً:

أحدها: أن الصلاة سميت تسبيحاً من باب تسمية الشيء باسم جزئه، أو من باب إطلاق اسم البعض على الكل، تنبيهاً على فضل ذلك الجزء أو البعض وأهميته، لاشتمال الصلاة على التسبيح في الركوع والسجود، وفي غيرهما(٢).

وثانيها: أن الصلاة سميت تسبيحاً لأن التسبيح: **تعظيم الله تعالى** وتبرئته من السوء، والصلاة يوحد الله ﷻ فيها، ويحمد ويعظم، ويوصف بكل ما يبرئه من السوء، فسميت لذلك سبحة وتسبيحاً(٣).

وثالثها: أن الصلاة سميت تسبيحاً لأن المصلي منزه لله تعالى بإخلاص العبادة له وحده، والتسبيح: التنزيه، فسميت الصلاة به، لما يلزم من الصلاة المخلصة لله وحده من التنزيه(٤).

---

(١) في الكلام على حكم تسبيح الله تعالى من حيث القول، وانظر: ص (٣٩٠ ـ ٤٠٢).

(٢) انظر: تفسير الماوردي (النكت والعيون): ٤/ ٣٠٣، ونور المسرى، لأبي شامة المقدسي: ص٣٨، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٤/ ١٥، وإحكام الأحكام على عمدة الأحكام، لابن دقيق العيد، بحاشيته العدة للصنعاني: ٢/ ١٩٥، وعمدة الحفاظ، للسمين الحلبي: ص٢٢٩، والإعلام بفوائد عمدة الأحكام، لابن الملقن، تحقيق عبد العزيز بن أحمد المشيقح: ٢/ ٤٧٨ ـ ٤٧٩، وفتح الباري، لابن حجر العسقلاني: ٢/ ٥٧٥.

(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ١/ ٤٠٩، وأحكام القرآن، للجصاص: ٥/ ٢٩٣ ـ ٢٩٤، ومشارق الأنوار على صحاح الآثار، للقاضي عياض اليحصبي: ١/ ٢٠٣، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٤/ ٨٢.

(٤) انظر: إحكام الأحكام، لابن دقيق العيد، بحاشيته العدة: ٢/ ١٩٦، والإعلام =

ورابعها: أن الصلاة سميت تسبيحاً لأن المصلي معظم لله تعالى بصلاته وخضوعه وخشوعه فيها لله ﷻ، فهو مسبح لله بصورة حاله[(١)].

وهذه الأقوال وإن بدت مختلفة في عباراتها، فهي متفقة في معانيها، وكلها تشترك في بيان الوجه المصحح لإطلاق التسبيح على الصلاة، وفي إظهار المناسبة بين الصلاة والتسبيح، ليعلم العبد حقيقة الصلاة الشرعية، وأنها تتضمن غاية التنزيه، ومنتهى التعظيم لله رب العالمين[(٢)].

ويتجلى هذا المعنى فيما قاله الإمام محمد بن نصر المروزي[(٣)]، من أنه «لا عمل بعد توحيد الله أفضل من الصلاة لله؛ لأنه افتتحها بالتوحيد والتعظيم لله بالتكبير، ثم الثناء على الله، وهي قراءة فاتحة الكتاب، وهي حمد لله وثنا عليه وتمجيد له ودعاء، وكذلك التسبيح في الركوع والسجود، والتكبيرات عند كل خفض ورفع، كل ذلك توحيد لله وتعظيم له، وختمها بالشهادة له بالتوحيد، ولرسوله بالرسالة، وركوعها وسجودها خشوعاً له وتواضعاً، ورفع اليدين عند الافتتاح والركوع ورفع الرأس تعظيماً لله وإجلالاً له، ووضع اليمين على الشمال بالانتصاب لله تذللاً له وإذعاناً بالعبودية»[(٤)].

= بفوائد عمدة الأحكام، لابن الملقن: ٢/ ٤٧٩، وفتح الباري، لابن حجر العسقلاني: ٢/ ٥٧٥.

(١) انظر: نور المسرى، لأبي شامة: ص٣٩، وتهذيب الأسماء واللغات، للنووي: ٣/ ١٤٢.

(٢) انظر: أضواء البيان، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: ٢/ ١١١.

(٣) هو محمد بن نصر المروزي، أبو عبد الله الفقيه، الثقة الحافظ، إمام أهل الحديث في عصره بلا مدافعة، من تصانيفه: تعظيم قدر الصلاة، والقسامة. وتوفي سنة (٢٩٤هـ) رحمه الله تعالى. انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي: ٢/ ٦٥٠ ـ ٦٥٣، وتقريب التهذيب، لابن حجر العسقلاني: ٢/ ٢٢٢.

(٤) تعظيم قدر الصلاة، تحقيق الدكتور عبد الرحمن الفريوائي: ١/ ٢٦٨.

وفيما قاله الإمام ابن قيم الجوزية من «أن الصلاة قد اشتملت على عبودية جميع الجوارح والأعضاء مع عبودية القلب، فلكل عضو منها نصيب من العبودية، فجميع أعضاء المصلي وجوارحه متحركة في الصلاة عبودية لله وذلاً له وخضوعاً» اهـ(١).

ولاشتمال الصلاة على هذه المعاني القدسية والمظاهر التعبدية كانت أعظم عبادات الإسلام العملية، وأفضل أعمال العباد البدنية(٢).

❖ المطلب الرابع ❖

إطلاق التسبيح على الذكر عموماً

المراد بالذكر هنا: الألفاظ التي ورد في الشرع الترغيب في قولها والثناء على الله تعالى بها وتوحيده بها، مثل: أسماء الله سبحانه وصفاته وأحكامهما. ومثل: التسبيح، والتحميد، والتهليل، والتكبير، والحوقلة، والبسملة، والحسبلة، والاستعاذة، والاستغفار، ونحو ذلك(٣).

فالتسبيح ـ بمعنى قول: سبحان الله ـ واحد من الألفاظ التي يراد بها لفظ الذكر في الكتاب والسنة.

---

(١) بدائع الفوائد: ١/٤٢٩. وانظر كلاماً ضافياً في أسرار الصلاة وفوائدها في: شفاء العليل، لابن قيم الجوزية: ٢/١٦٦ ـ ١٧٠.

(٢) انظر: دقائق التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية، جمع وتحقيق الدكتور محمد السيد الجليند: ٢/٣٥٧، والوابل الصيب من الكلم الطيب، لابن قيم الجوزية، تحقيق محمد عبد الرحمن عوض: ص١٢٤، وصفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم، للشيخ عبد الرحمن بن محمد الدوسري: ٢/٧٧ ـ ٧٨.

(٣) انظر: الوابل الصيب من الكلم الطيب، لابن قيم الجوزية: ص١١٨، وفتح الباري، للحافظ ابن حجر العسقلاني: ١١/٢٠٩.

وقد يطلق التسبيح ويراد به جميع ألفاظ الذكر التي سبق بيانها[(١)]، وذلك من باب تسمية العام باسم الخاص.

قال الأخفش[(٢)]: «لأن الذكر كله تسبيح وصلاة، تقول: قضيت سبحتي من الذكر والصلاة»[(٣)].

وقال الإمام ابن جرير الطبري: «وكل ذكر لله عند العرب فتسبيح وصلاة يقول الرجل منهم: قضيت سبحتي من الذكر والصلاة»[(٤)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ويراد بالتسبيح جنس ذكر الله تعالى. يقال: فلان يسبح، إذا كان يذكر الله، ويدخل في ذلك التهليل والتحميد، ومنه سميت السباحة للأصبع التي يشير بها، وإن كان يشير بها في التوحيد» اهـ[(٥)].

ومن شواهد التسبيح بمعنى الذكر في القرآن الكريم: قول الله تعالى ـ في قصة نبيه زكريا عليه السلام ـ: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾ [مريم: ١١].

قال الإمام ابن جرير الطبري ـ في تفسير هذه الآية ـ: «وقد يجوز

---

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير: ٢/ ٣٣١، وفتح الباري، لابن حجر: ١١/ ٢٠٦.

(٢) هو سعيد بن مسعدة البلخي المجاشعي ولاء، أبو الحسن، المعروف بالأخفش الأوسط، كان عالماً بالنحو واللغة والعروض، من مصنفاته: معاني القرآن، وكتاب العروض، وكتاب القوافي. وتوفي سنة (٢١٠هـ) أو(٢١٥هـ) أو (٢٢١هـ) على خلاف، رحمه الله.
انظر: بغية الوعاة، للسيوطي: ١/ ٥٩٠ ـ ٥٩١.

(٣) معاني القرآن، تحقيق الدكتور عبد الأمير محمد أمين الورد: ١/ ٢١٩.

(٤) تفسير الطبري: ١/ ٢٤٧.

(٥) قاعدة حسنة في الباقيات الصالحات: ص٥٤.

في هذا الموضع أن يكون عنى به التسبيح الذي هو ذكر الله، فيكون أمرهم بالفراغ لذكر الله في طرفي النهار بالتسبيح. ويجوز أن يكون عنى به الصلاة، فيكون أمرهم بالصلاة في هذين الوقتين»[(١)].

وقال نفطويه ـ في معنى الآية ـ: «أي: اذكروا الله بأسمائه»[(٢)].

ومن شواهد ذلك في الحديث: حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: «رأيت رسول الله ﷺ يعقد التسبيح[(٣)]»[(٤)].

فالمراد بالتسبيح هنا ألفاظ الذكر، لا خصوص لفظ التسبيح، فقد جاء في رواية أخرى عنه رضي الله عنه ذكر التسبيح والتحميد والتكبير في دبر كل صلاة، ثم قال: «فأنا رأيت رسول الله ﷺ يعقدها بيده»[(٥)].

وإنما ساغ إطلاق التسبيح على الذكر كله؛ لأن التسبيح ـ كما سبق ـ: تنزيه الله عز وجل على وجه التعظيم والثناء الحسن، فكان كل لفظ تضمن تنزيه الله تعالى وتعظيمه والثناء عليه بما هو أهله تسبيحاً وتقديساً، وكان كل من ذكر الله سبحانه بما ورد من ألفاظ الذكر المشروعة مسبحاً لله تبارك وتعالى.

---

(١) تفسير الطبري: ٨/ ٣١٤.

(٢) مسألة سبحان: ص٤٦.

(٣) يعقد التسبيح، أي: يحسب التسبيح ويضبط عدده بيده. انظر: القاموس المحيط، للفيروزآبادي: مادة (عقد): ص٣٨٣، وحاشية السندي بهامش سنن النسائي: ٣/ ٨٣.

(٤) أخرجه أبو داود في سننه: ٢/ ١٧٠، برقم (١٥٠٢)، والترمذي في سننه: ٥/ ٤٤٦، برقم (٣٤١١)، والنسائي في سننه: ٣/ ٨٨، برقم (١٣٥٤). قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب»، وصححه الذهبي في تلخيص المستدرك. انظر: مستدرك الحاكم ـ مع التلخيص ـ: ١/ ٧٣١ ـ ٧٣٢، برقم (٢٠٠٥)، وكذا صححه الألباني في صحيح سنن أبي داود: ١/ ٤١١، برقم (١٥٠٢).

(٥) سيأتي هذا الحديث بنصه كاملاً مع تخريجه في ص (٥٨٤).

قال نفطويه: «فكل من عظم الله وكبره، ودعاه بأسمائه، فهو مسبح له»[1].

وقال الواحدي: «كل من أثنى على الله وبعده عن السوء فقد سبح الله»[2].

وقال أبو بكر الطرطوشي[3]: «فإذا ثبت أن التسبيح هو التنزيه، وقد أمر الله سبحانه عباده بالتسبيح، فكل كلام تضمن تنزيه الله سبحانه وتقديسه عما لا يجوز في صفته فهو تسبيح لله سبحانه.

فإذا قلت: (لا إله إلا الله)، نفيت ما لا يجوز في صفته من شريك في عبادته، مع الإقرار بأنه الإله وحده، فهذا من أعظم التسبيح لله سبحانه»[4].

وقال الإمام ابن قيم الجوزية: «فكل صفة عليا واسم حسن وثناء جميل، وكل حمد ومدح وتسبيح وتنزيه وتقديس وجلال وإكرام، فهو لله ﷻ على أكمل الوجوه وأتمها وأدومها، وجميع ما يوصف به ويذكر به ويخبر عنه فهو محامد له وثناء وتسبيح وتقديس» اهـ[5].

---

(١) مسألة سبحان: ص٥١.

(٢) الوسيط في تفسير القرآن المجيد: ١/ ١١٥.

(٣) هو محمد بن الوليد بن خلف القرشي الفهري، أبو بكر الأندلسي، المعروف بابن رندقه، أو أبي رندقه الطرطوشي، العلامة، شيخ المالكية، كان عالماً فاضلاً، وإماماً زاهداً، له تآليف مفيدة، منها: البدع والحوادث، وكتاب الزهد، والعمد في الأصول، وغيرها. وتوفي سنة (٥٢١هـ) أو التي قبلها، رحمه الله.
انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: ١٩/ ٤٩٠ ـ ٤٩٦، وشجرة النور الزكية، لمحمد مخلوف: ص١٢٤.

(٤) الدعاء المأثور وآدابه: ص١٧٨.

(٥) طريق الهجرتين وباب السعادتين، ضبط وتعليق عمر بن محمود أبو عمر: ص٢٣٠ ـ ٢٣١.

❖ المطلب الخامس ❖

إطلاق التسبيح على الاستثناء

ومن المعاني التي ورد بها لفظ التسبيح في القرآن الكريم: الاستثناء[(١)]، وهو تعليق الأمر بمشيئة الله تعالى، بقول: إن شاء الله مثلاً[(٢)]. والأصل في ورود التسبيح بمعنى الاستثناء قوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [القلم: ١٧ ـ ٢٩].

فقوله: ﴿لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾، قال جمهور المفسرين: معنى التسبيح ههنا الاستثناء[(٣)]، أي: هلا تستثنون فتقولوا: إن شاء الله. أنكر عليهم ترك الاستثناء في قولهم ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾[(٤)].

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٨/٣، والزاهر في معاني كلمات الناس، لأبي بكر الأنباري: ١/١٤٤، وتهذيب الأسماء واللغات، للنووي: ٣/١٤٢.

(٢) قال الراغب الأصفهاني: «الاستثناء: إيراد لفظ يقتضي رفع بعض ما يوجبه عموم لفظ متقدم، أو يقتضي رفع حكم اللفظ عما هو.

فمما يقتضي رفع بعض ما يوجبه عموم اللفظ قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ [الأنعام: ١٤٥]. وما يقتضي رفع ما يوجبه اللفظ فنحو قوله: والله لأفعلن كذا، إن شاء الله، وامرأته طالق إن شاء الله، وعبده عتيق إن شاء الله. وعلى هذا قوله تعالى: ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾ [مفردات ألفاظ القرآن: ص١٧٩].

(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ٥/٢٠٨، وزاد المسير، لابن الجوزي: ٨/٣٣٨، ونور المسرى، لأبي شامة: ص٣٩.

(٤) انظر: المصادر السابقة، وتفسير الطبري: ١٢/١٩٤، وتفسير البغوي: ٨/١٩٦.

ويدل على هذا التفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾ أي: ولا يقولون: إن شاء الله[١]. قال أبو شامة: «وليس قولهم ـ بعد ذلك ـ: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ بمناقض لما قاله أهل التفسير، فلا يظن أنهم امتثلوا قول أوسطهم، فسبحوا حينئذٍ، وإنما اعترفوا بالمعصية، ونزهوا الله تعالى عن أن يكون ظالماً بما فعل، وأقروا على أنفسهم بالظلم، خلافاً لما كانوا قالوه أولاً: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [القلم: ٢٧]»[٢].

وقال بعض المفسرين: كان استثناؤهم في ذلك الزمان التسبيح. فعن مجاهد ـ في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ [القلم: ٢٨] ـ قال: «يقول: تستثنون، فكان التسبيح فيهم الاستثناء» اهـ[٣]. يعني: أنهم كانوا يقولون: (سبحان الله) مكان قولنا: (إن شاء الله)[٤].

وعلى هذا يكون قولهم ـ بعد ذلك ـ: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ استثناء استدركوا به ما تركوه عند قولهم: ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾، ولكن بعد ما وقع العذاب على جنتهم[٥].

ومناسبة ورود التسبيح بمعنى الاستثناء تظهر من وجهين:

الوجه الأول: أن في الاستثناء تعظيما لله ﷻ، وتنزيهاً له عن أن يكون شيء إلا بمشيئته، وإقراراً بأنه لا يقدر أحد أن يفعل شيئاً إلا

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٨/٣، و١٢/١٨٩، ومفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني: ص٣٩٣.

(٢) نور المسرى في تفسير آية الإسراء: ص٣٩.

(٣) رواه الطبري في تفسيره: ١٢/١٩٤، وانظر: زاد المسير، لابن الجوزي: ٨/ ٣٣٨.

(٤) انظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني: ٦/٢٦، وتفسير البغوي: ٨/ ١٩٦، والدر المنثور، للسيوطي: ٦/٣٩٧.

(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص٨٨٠.

بمشيئة الله تعالى[(١)]، فسمي الاستثناء لذلك تسبيحاً؛ لأن التسبيح ـ كما علم ـ: تنزيه الله تعالى عن كل نقص، فلو وقع شيء في الوجود على خلاف إرادة الله سبحانه لكان ذلك يوجب نقصاً في قدرة الله تعالى، والاستثناء يزيل هذا النقص، فكان تسبيحاً[(٢)].

والوجه الثاني: أن الاستثناء ذكر لله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٣ ـ ٢٤][(٣)].

فقوله: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ معناه: إذا نسيت الاستثناء فاستثن عند ذكرك له[(٤)]، فسمى الاستثناء ذكراً للرب تعالى، وقد تقدم أن التسبيح يطلق على جميع ألفاظ الذكر، لتضمنها التنزيه والتعظيم لله تعالى والثناء عليه[(٥)]، والله الموفق.

---

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ٥/٢٠٨ ـ ٢٠٩، وتفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني: ٦/ ٢٥ ـ ٢٦، وتفسير البغوي: ٨/١٩٦، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي ١٨/ ٢٤٤، وتفسير النسفي: ٣/ ٥٢٢.

(٢) انظر: التفسير الكبير، للفخر الرازي: ٣٠/ ٩٠.

(٣) قال الإمام ابن القيم: «وتفسير الآية عند جماعة المفسرين: أنك لا تقل لشيء أفعل كذا وكذا حتى تقول: إن شاء الله، فإذا نسيت أن تقولها، فقلها متى ذكرتها. وهذا هو الاستثناء المتراخي الذي جوزه ابن عباس، وتأول عليه الآية، وهو الصواب» [مدارج السالكين: ٢/ ٤٠٣].

وقال الحافظ ابن كثير: «ومعنى قول ابن عباس أنه يستثني ولو بعد سنة، أي: إذا نسي أن يقول في حلفه وفي كلامه: إن شاء الله، وذكر ولو بعد سنة، فالسنة له أن يقول ذلك، ليكون آتياً بسنة الاستثناء حتى ولو كان بعد الحنث» [تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٨٣].

(٤) انظر: تفسير الطبري: ٨/ ٢٠٨، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٨٣.

(٥) انظر: ص(٩٨) من هذا البحث.

❖ المطلب السادس ❖

إطلاق التسبيح على العبادة

وذكر بعض العلماء في معاني التسبيح أنه يطلق عاماً على العبادة قولاً كانت أو فعلاً أو نية(١).

وحمل على هذا المعنى قول الله تعالى ـ عن نبيه يونس عليه السلام ـ: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الصافات: ١٤٣].

ففي رواية عن وهب بن منبه(٢) ـ في تفسير هذه الآية ـ قال: «من العابدين. قال: فذكر لعبادته»(٣).

وفي تفسير الآية أقوال أخرى سيأتي بيانها ـ إن شاء الله ـ عند الكلام على تسبيح نبي الله يونس عليه السلام(٤).

وإذا أطلق التسبيح على العبادة فإما أن يراد به العبادة بمعنى التعبد، وهو التذلل للمعبود محبة له وتعظيماً، فيكون من باب إطلاق الشيء على مقتضاه ولازمه؛ لأن التسبيح هو التنزيه والتعظيم لله تعالى، وهذا المعنى يقتضي التذلل والمحبة لله عز وجل ويستلزمهما. وإما أن يراد

---

(١) انظر: مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني: ص٣٩٢، وعمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، للسمين الحلبي: ص٢٢٩.

(٢) هو وهب بن منبه بن كامل اليماني الصنعاني، أبو عبد الله الأبناوي، عالم أهل اليمن، كان تابعياً ثقة واسع العلم، وكان ينظر بكعب الأحبار في زمانه، وعنده من علم أهل الكتاب شيء كثير، وكان على قضاء صنعاء، وتوفي سنة (١١٤هـ)، رحمه الله. انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي: ١/ ١٠٠ ـ ١٠١، وتقريب التهذيب، لابن حجر: ٢/ ٣٤٥.

(٣) رواه عبد الرزاق الصنعاني في تفسير القرآن: ٢/ ١٥٦. وانظر: تفسير البغوي: ٧/ ٦٠.

(٤) انظر: ص(٢٩٣ ـ ٣٠١) من هذا البحث.

به العبادة بمعنى المتعبد به، وهو كل ما يتعبد به لله تعالى، من قول أو فعل أو اعتقاد[1]، فيكون من باب إطلاق جزء الشيء على كله، لإبراز منزلة هذا الجزء من الكل، فإن العبادة شاملة للتسبيح وغيره من القربات.

وهناك مناسبة أخرى لورود التسبيح بمعنى العبادة، وهي أن كل عبادة من العبادات وإن كانت مشروعة بأصلها، فشرط تحقق التعبد بها لله تعالى أن يخلص العبد نيته فيها لله وحده لا شريك له، كما قال سبحانه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

وقد قال الزجاج: «كل من عمل عملاً قصد به الله فقد سبح» اهـ[2]، وذلك لأن التسبيح ـ كما سبق تقريره ـ: تنزيه الله تعالى اعتقاداً وقولاً وعملاً عما لا يليق به سبحانه[3].

فالعبادة ـ قولاً كانت أو فعلاً أو اعتقاداً ـ وإن لم تشتمل على قول (سبحان الله)، فإن إخلاصها لله سبحانه تنزيه له ﷻ عن أن يكون له شريك في العبادة، أو أن يستحق العبادة أحد غير الله تعالى[4]، فكل عبادة تسبيح بهذا المعنى، لأنها تنزيه لله سبحانه عن كون العبد يصرفها لغيره تبارك وتعالى[5].

---

(١) انظر في معنى العبادة: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠/١٤٩، ١٥٣، وتقريب التدمرية، للشيخ محمد بن صالح العثيمين، باعتناء سيد بن عباس الحليمي: ص١١٣.

(٢) معاني القرآن وإعرابه: ١/ ١١٠.

(٣) انظر: ص(٧٦) من هذا البحث.

(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي: ص٦٣٨.

(٥) انظر: المصدر السابق: ص٧٣٢.

❖ المطلب السابع ❖

تسمية التسبيح دعاء

ومما يتصل بمعاني التسبيح في الشرع: تسمية التسبيح دعاء، كما في قول الله تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ [يونس: ١٠]، حيث أخبر تعالى أن التسبيح بلفظ: (سبحانك اللهم) هو دعوى أهل الجنة فيها[(١)]، و(الدعوى) مثل الدعاء، يقال: دعاه دعاء ودعوى[(٢)].

وكما في حديث سعد[(٣)] رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**دعوة ذي النون[(٤)] إذ دعا بها وهو في بطن الحوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له**»[(٥)]. فسمى ﷺ القول المشتمل على

---

(١) انظر: الكلام على تسبيح أهل الجنة فيها في ص(٣٧١ ـ ٣٨٥).

(٢) انظر: لسان العرب، لابن منظور: مادة (دعو): ١٤/ ٢٥٧.

(٣) هو سعد بن أبي وقاص: مالك بن وهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب الزهري، أبو إسحاق، أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأول من رمى بسهم في سبيل الله، ومناقبه كثيرة، توفي سنة (٥٥هـ) على المشهور، وهو آخر العشرة وفاة، رضي الله تعالى عنه وأرضاه. انظر: الإصابة، لابن حجر: ٣/ ٧٣ ـ ٧٧، وتقريب التهذيب، له: ١/ ٢٨٢.

(٤) النون: الحوت، جمعه نينان وأنوان [القاموس المحيط، للفيروزآبادي: مادة (نون): ص١٥٩٦]. وذو النون: لقب نبي الله يونس بن متى عليه السلام، كما يقال له: صاحب الحوت؛ لأن الحوت التقمه، كما ذكر الله تعالى ذلك في القرآن الكريم. وانظر: تفسير الطبري: ٩/ ٧٣، وزاد المسير، لابن الجوزي: ٥/ ٣٨١، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٢٠١.

(٥) أخرجه الترمذي في سننه: ٥/ ٤٩٥، برقم (٣٥٠٥)، والنسائي في سننه الكبرى، تحقيق الدكتور عبد الغفار البنداري، وسيد كسروي: ٦/ ١٦٨، برقم (١٠٤٩٢)، وصححه الحاكم في المستدرك: ١/ ٦٨٤، برقم (١٨٦٢)، ووافقه الذهبي، كما صححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٣٣٨٣).

التهليل والتسبيح دعوة، و(الدعوة) هي المرة الواحدة من الدعاء[١].

ومثل تسمية التسبيح دعاء: تسمية التحميد دعاء في قول رسول الله ﷺ: «**أفضل الدعاء الحمد لله**»[٢]، وتسمية ما يقال عند الكرب دعاء، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان النبي ﷺ يدعو عند الكرب، يقول: «**لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السماوات ورب الأرض ورب العرش الكريم**»»[٣]. وكان السلف يدعون بهذا الدعاء، ويسمونه دعاء الكرب[٤].

وقد استشكل بعضهم تسمية التسبيح وغيره من أنواع الذكر والثناء دعاء، بدعوى أن الدعاء طلب، والذكر والثناء ليس فيه ـ فيما يظهر ـ طلب، فكيف يسمى دعاء؟!

وذلك مثل ما جاء في الأثر عن الحسين بن الحسن المروزي[٥]

---

(١) انظر: لسان العرب، لابن منظور: مادة (دعو): ١٤/ ٢٥٨.

(٢) جزء حديث أخرجه الترمذي في سننه: ٥/ ٤٣١، برقم (٣٣٨٣)، وابن ماجه في سننه: ٢/ ١٢٤٩، برقم (٣٨٠٠)، والنسائي في سننه الكبرى: ٦/ ٢٠٨، برقم (١٠٦٦٧)، وصححه الحاكم في المستدرك: ١/ ٦٧٦، برقم (١٨٣٤)، و١/ ٦٨١ ـ ٦٨٢، برقم (١٨٥٢)، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في صحيح الجامع، برقم (١١٠٤).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ١١/ ١٤٥، برقم (٦٣٤٦)، ومسلم في صحيحه: ٤/ ٢٠٩٢، برقم (٢٧٣٠).

(٤) انظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، لأبي العباس القرطبي: ٧/ ٥٦، والجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله القرطبي: ٨/ ٣١٤.

(٥) هو الحسين بن الحسن بن حرب السلمي، أبو عبد الله المروزي، نزيل مكة، صدوق، توفي سنة (٢٤٦هـ)، رحمه الله. انظر: تهذيب التهذيب، لابن حجر: ٢/ ٣٣٤، وتقريب التهذيب، له: ١/ ١٧٥.

قال: «سألت ابن عيينة[1] عن الحديث الذي فيه: «أكثر ما كان يدعو به النبي ﷺ بعرفة: **لا إله إلا الله وحده لا شريك له**» الحديث[2]. فقلت له: هذا ثناء وليس بدعاء! فقال: هو ذكر وليس فيه دعاء، ولكن قال النبي ﷺ عن ربه ﷿: «**من شغله ذكري عن مسألتي ـ وفي رواية: إذا شغل عبدي ثناؤه علي عن مسألتي ـ أعطيته أفضل ما أعطي السائلين**»[3].

---

(١) هو سفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون الهلالي، أبو محمد الكوفي ثم المكي، الإمام الحجة الحافظ الفقيه شيخ الإسلام، كان ثقة في الحديث، واسع العلم، كبير القدر، وتوفي سنة (١٩٨هـ)، وله إحدى وتسعون سنة، رحمه الله تعالى. انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي: ١/ ٢٦٢ ـ ٢٦٥، وتقريب التهذيب، لابن حجر: ١/ ٣٠٣.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده: ٢/ ٢١٠، بزيادة: «له الملك وله الحمد، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير»، والترمذي بنحوه في سننه: ٥/ ٥٣٤، برقم (٣٥٨٥)، كلاهما من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ، وفي إسنادهما محمد بن أبي حميد الملقب بحماد، وهو ضعيف في الحديث، كما في ميزان الاعتدال، للذهبي: ٣/ ٥٣١، وتقريب التهذيب، لابن حجر: ٢/ ١٦٦. وللحديث شاهد من حديث طلحة بن عبيد الله بن كريز مرفوعاً، أخرجه مالك في الموطأ: ١/ ٣٣٧، كتاب الحج، برقم (٢٤٦)، وإسناده صحيح إلا أنه مرسل. وله شاهد آخر من حديث علي ﷺ، أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه: ١٠/ ٣٧٣ ـ ٣٧٤، برقم (٩٧٠٥) وفي إسناده قيس بن الربيع، وفيه مقال، وانظر: ميزان الاعتدال للذهبي: ٣/ ٣٩٣ ـ ٣٩٦، وتهذيب التهذيب، لابن حجر: ٨/ ٣٩١ ـ ٣٨٥، وبهذين الشاهدين يكون الحديث حسناً لغيره، وانظر: السلسلة الصحيحة، للألباني، برقم (١٥٠٣).

(٣) أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد ـ ضمن عقائد السلف، لعلي النشار ـ ص٢٠٥، من حديث عمر بن الخطاب ﷺ، وفي إسناده ضرار ـ وهو ابن صرد ـ متكلم فيه، كما في ميزان الاعتدال، للذهبي: ٢/ ٣٢٧. وفيه أيضاً: صفوان بن أبي الصهباء، قال فيه الحافظ ابن حجر: «مقبول» [تقريب التهذيب: ١/ ٣٥١]. =

قال: وقال أمية بن أبي الصلت[١] ـ حين أتى ابن جدعان[٢] يطلب فضله ونائله ـ:

أأطلب حاجتي أم قد كفاني حياؤك إن شيمتك الحياء
إذا أثنى عليك المرء يوماً كفاه من تعرضك الثناء[٣]

ثم قال سفيان: يا حسين، هذا مخلوق حين نسب إلى الكرم اكتفى بالثناء عليه عن مسألته، فكيف بالخالق جل وعز؟!» اهـ[٤].

= وأخرجه الترمذي بنحوه في سننه: ٥/١٦٩، برقم (٢٩٢٦)، من حديث أبي سعيد الخدري، وقال: «حديث حسن غريب»، وفي إسناده محمد بن الحسن بن أبي يزيد الهمداني، وهو ضعيف، كما في ميزان الاعتدال، للذهبي: ٣/٥١٤ ـ ٥١٥، وتقريب التهذيب، لابن حجر: ٢/١٦٤، وذكر الذهبي الحديث في ترجمته وقال: «حسنه الترمذي فلم يحسن». والحديث ضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة، برقم (١٣٣٥).

(١) هو أمية بن أبي الصلت عبد الله بن ربيعة بن عوف الثقفي، شاعر جاهلي من أهل الطائف، كان يتعبد في الجاهلية، وينبذ عبادة الأوثان، وينشد في أبياته الشعر المليح، وأدرك الإسلام ولم يسلم، وقال النبي ﷺ ـ لما سمع بعض أبياته ـ: (إن كاد ليسلم في شعره)، كما رواه مسلم في صحيحه: ٤/١٧٦٧، برقم (٢٢٥٥). وانظر: تهذيب الأسماء واللغات، للنووي: ١/١٢٦، والأعلام، للزركلي: ٢/٢٣.

(٢) هو عبد الله بن جدعان التيمي، أحد الأجواد المشهورين في الجاهلية، أدرك النبي ﷺ قبل النبوة، ويذكر في حكام العرب في الجاهلية. انظر: الأعلام، للزركلي: ٤/٧٦.

(٣) انظر: ديوان أمية بن أبي الصلت: ص١٧.

(٤) هذا الأثر أورده الخطابي في شأن الدعاء: ص٢٠٦ ـ ٢٠٧، وابن عبد البر في التمهيد: ٦/٤٣ ـ ٤٤، والقرطبي في تفسيره (الجامع لأحكام القرآن): ٨/٣١٤، وشيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع فتاواه: ١٠/٢٤٥، والإمام ابن قيم الجوزية في مطالع السعد بكشف مواقع الحمد: ص٨٨ ـ ٩٠، والحافظ ابن حجر في فتح الباري: ١١/١٤٧.

واستشكال تسمية التسبيح وغيره من الذكر دعاء ناشئ عن القصور في العلم بحقيقة الدعاء في الكتاب والسنة، فإن الدعاء فيهما ليس خاصاً بالطلب والمسألة، بل هو أعم من ذلك. قال ابن جرير الطبري: «والدعاء لله: يكون بذكره وتمجيده والثناء عليه قولاً وكلاماً، وقد يكون بالعمل له بالجوارح الأعمال التي كان عليهم فرضها، وغيرها من النوافل التي ترضي عن العامل له عابده بما هو عامل له»[1].

وقال الزجاج: «معنى الدعاء لله ﷻ على ثلاثة أضرب: فضرب منها توحيده والثناء عليه، كقولك: يا الله، لا إله إلا أنت. وكقولك: ربنا لك الحمد، إذا قلته فقد دعوته بقولك: ربنا، ثم أتيت بالثناء والتوحيد. ومثله قوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾ [غافر: ٦٠] أي: عن توحيدي والثناء علي، فهذا ضرب من الدعاء.

والضرب الثاني: مسألة الله العفو والرحمة وما يقرب منه، كقولك: اللهم اغفر لنا.

والضرب الثالث: مسألة الحظ من الدنيا، كقولك: اللهم ارزقني مالاً وولداً، وما أشبه ذلك» اهـ[2].

وما ذكره الزجاج هنا راجع في الحقيقة إلى نوعين؛ لأن الضرب الثاني والثالث يشتركان في أنهما مسألة لحظّ العبد في الدنيا أو في الآخرة، فهما نوع واحد، مع الضرب الأول، فصار نوعين.

وحاصل ما سبق في كلام ابن جرير الطبري والزجاج أن الدعاء لله تعالى ثلاثة أنواع:

أحدها: ذكر الله ﷻ وتمجيده والثناء عليه.

---

(١) تفسير الطبري: ٥/٢٠٣ ـ ٢٠٤. (٢) معاني القرآن وإعرابه: ١/٢٥٥.

والثاني: العمل لله سبحانه بالجوارح بفعل العبادات الواجبة والمندوبة.

والثالث: مسألة الله تعالى ما ينفع العبد الداعي في دنياه وأخراه.

وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية أن دعاء الله بأسمائه الحسنى يتناول هذه الأنواع الثلاثة، وهي: دعاء المسألة، ودعاء الثناء، ودعاء التعبد[١].

وقد ترد هذه الأنواع المذكورة إلى نوعين، وهما: دعاء المسألة، ودعاء العبادة[٢].

فدعاء المسألة كما ذكر، ودعاء العبادة شامل لذكر الله تعالى الذي هو دعاء الثناء، ولفعل القربات العملية الذي هو دعاء التعبد، وهو أشرف النوعين؛ لأنه حق الرب سبحانه ووصفه، ودعاء المسألة حظ العبد ومصلحته[٣].

والمقصود هنا أن الدعاء في الكتاب والسنة يتناول الطلب والسؤال، والتسبيح ونحوه من ألفاظ الذكر والثناء، كما يتناول سائر العبادات الظاهرة والباطنة.

وسمي التسبيح دعاء وإن كان ثناء محضاً؛ لأن الدعاء هو قصد

---

(١) انظر: مدارج السالكين: ١/ ٤٢٠ ـ ٤٢١.

(٢) وهذان النوعان قد ذكرهما شيخ الإسلام ابن تيمية في عدة مواضع من مؤلفاته، وكذا تلميذه الإمام ابن قيم الجوزية، وغيرهما من العلماء. وانظر ـ مثلاً ـ: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١/ ٦٩ و٢/ ٤٥٦، و١٠/ ٢٣٧ ـ ٢٣٨، ٢٥٨ و١٥/ ١٠ و٢٢/ ٤٩٨. وبدائع الفوائد، لابن القيم: ٢/ ٣، وزاد المعاد، له: ١/ ٢٣٥، ومدارج السالكين، له أيضاً: ٢/ ٤٠٦، والقواعد الحسان لتفسير القرآن، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص١٢٦.

(٣) انظر: الدعاء المأثور وآدابه، للطرطوشي: ص١٤٥، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠/ ٢٦٣، وبدائع الفوائد، لابن القيم: ١/ ٤٢٩ ـ ٤٣٠.

المدعو تارة لذاته، وتارة لمسألته أمراً منه[١]، والمثني على ربه تعالى بتسبيحه أو بتحميده أو بتوحيده داع له بالاعتبارين، فإنه طالب منه، طالب له، فهو أحق أن يسمى داعياً من السائل الطالب من ربه حاجة ما، فنفس التسبيح والثناء متضمن لأعظم الطلب، فهو دعاء حقيقة، بل هو أحق باسم الدعاء من غيره من أنواع الطلب الذي دونه[٢].

وبهذا البيان يزول الإشكال الوارد على تسمية التسبيح دعاء، إذ تبين أن التسبيح دعاء حقيقة، وهو دعاء ثناء وذكر وعبادة لله ﷻ متضمن طلب القبول والرضا والثواب منه سبحانه.

وهذا أحسن مما قيل: إن الثناء ـ كالتسبيح ونحوه ـ سمي دعاء لما تضمنه من تعرض المثني للنوال، وإن لم يكن مصرحاً بالسؤال، كما سبق في الأثر عن الحسين بن الحسن المروزي.

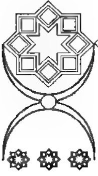
وأحسن كذلك مما قيل: إن الثناء سمي دعاء؛ لأن الداعي يفتتح دعاءه بالثناء على الله تعالى، ويقدمه أمام مسألته، فسمي الثناء دعاء إذ كان مقدمة له وذريعة إليه، من باب تسمية الشيء باسم سببه[٣].

وأحسن أيضاً مما قيل: إن الثناء سمي دعاء؛ لأنه بمنزلة الدعاء في استيجاب ثواب الله وجزائه[٤].

فهذه الأقوال كلها حسنة، لكن ما سبق بيانه من أن الثناء نفسه دعاء حقيقة أحسن وأولى بدلالة الكتاب والسنة، والله تعالى أعلم.

---

(١) انظر: بيان تلبيس الجهمية، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٢/٤٥٣.
(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٥/١٩، وبدائع الفوائد، لابن القيم: ٢/١٢، مطالع السعد بكشف مواقع الحمد، له: ص٩٠.
(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ١/٢٥٥، وشأن الدعاء، للخطابي: ص٢٠٦، والمفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، للقرطبي: ٧/٥٦ ـ ٥٧، وفتح الباري، لابن حجر العسقلاني: ١١/١٤٧،
(٤) انظر: النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير: ٢/١٢٢.

المبحث الثالث

الألفاظ الدالة على معنى التسبيح

□ **توطئة:**

تقدم أن كل لفظ دل على الثناء على الله تعالى وتعظيمه فهو تسبيح[(١)]؛ لأن فيه تنزيهاً لله سبحانه إما بالمطابقة أو التضمن أو الالتزام.

ولا شك أن الألفاظ الدالة على معنى التسبيح ـ بهذا المفهوم ـ كثيرة جداً، ولا سبيل إلى الإحاطة بها في هذا المبحث، ولا هي المقصودة هنا، وإنما المقصود هنا: الألفاظ الواردة في الكتاب والسنة دالة بالمطابقة على تنزيه الله تعالى، وهي ـ حسب ما تبين لي ـ تتمثل في الألفاظ التالية:

١ ـ التقديس، ومنه (القدوس) من أسماء الله الحسنى.

٢ ـ السلام، من أسماء الله الحسنى.

٣ ـ تعالى، مسنداً إلى الله ﷻ.

٤ ـ حاش لله.

٥ ـ النفي الوارد في حق الله تعالى.

* * *

(١) انظر: ما سبق من الكلام على التسبيح بمعنى الذكر عموماً: في ص (٩٨).

فهذه الألفاظ ـ فيما يظهر من كلام أهل العلم ـ ترادف التسبيح في الدلالة على التنزيه والتعظيم لله ﷻ، فكان بيانها في مباحث التسبيح مهما، وذلك في المطالب الآتية:

❖ المطلب الأول ❖

التقديس

التقديس: على وزن التفعيل كالتسبيح، وهو كذلك مصدر كالتسبيح، من الفعل: قدّس، يقدّس، تقديساً. وأصل مادته (قدس)، ومعناه: الطهر.

قال ابن فارس: «القاف والدال والسين أصل صحيح، وأظنه من الكلام الشرعي الإسلامي(١)، وهو يدل على الطهر»(٢).

وقال ابن القيم: «أصل الكلمة من الطهارة والنزاهة. ومنه: بيت المقدس(٣)؛ لأنه مكان يتطهر فيه من الذنوب، ومن أمّه لا يريد إلا الصلاة فيه رجع من خطيئته كيوم ولدته أمه(٤). ومنه سميت الجنة

---

(١) يعني أن هذا اللفظ لم يشتهر استعماله إلا في الإسلام، وهو في ذلك كلفظ التسبيح، كما سبق ذكره، في (ص٦٧).

(٢) مقاييس اللغة: ٥/ ٦٣.

(٣) بيت المقدس ـ بفتح الميم، وسكون القاف، وتخفيف الدال وكسرها ـ: المسجد الأقصى وهو مسجد كبير متسع الأقطار، في وسط مدينة كبيرة تسمى المقدس، وهي القدس في فلسطين. انظر: مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، لصفي الدين البغدادي، تحقيق علي محمد البجاوي: ٣/ ١٢٩٦، والروض المعطار في خبر الأقطار، لمحمد بن عبد المنعم الحميري: ص٥٥٦ ـ ٥٥٧.

(٤) جاء ذلك في حديث عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً، أخرجه النسائي في سننه: ٢/ ٣٦٤، برقم (٦٩٢) وابن ماجه في سننه: ١/ ٤٥١ ـ ٤٥٢، برقم =

حظيرة القدس[1]، لطهارتها من آفات الدنيا. ومنه سمي جبريل روح القدس[2]؛ لأنه طاهر من كل عيب» اهـ[3].

فالتقديس: معناه التطهير، يقال: قدّسه، أي طهره[4]. ومعناه ـ في حق الله تعالى ـ: تنزيه الله ﷻ[5]. ومنه اسمه تعالى (القدوس)، كما سيأتي الكلام فيه قريباً إن شاء الله.

وقد جاء التقديس مقروناً بالتسبيح في قول الله سبحانه ـ حكاية عن الملائكة ـ: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠].

واختلف أهل العلم في معنى كل من التسبيح والتقديس في هذه الآية، حيث قرن بينهما:

فجعل بعضهم التسبيح على أصله، وجعلوا التقديس راجعاً إلى الملائكة، فقالوا: معنى ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ أي: ونطهر أنفسنا لك، أي:

= (١٤٠٨). وإسناد النسائي رجاله ثقات كلهم، والحديث صححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه: ١/ ٤٢١، برقم (١١٦٤).

(١) جاء تسمية الجنة حظيرة القدس في حديث أبي أمامة رضي الله عنه أخرجه أحمد في مسنده: ٥/ ٢٥٧، بإسناد ضعيف. انظر: مجمع الزوائد، للهيثمي: ٥/ ٦٩. وجاء في حديث أنس رضي الله عنه، أخرجه البزار ـ كشف الأستار (٣/ ٣٥٩)، برقم (٢٩٣٩) و٣/ ٣٨٠ ـ ٣٨١، برقم (٣٠٠٢)، وقال الهيثمي: «فيه شعيب بن بيان، قال الذهبي: صدوق. وضعفه الجوزجاني والعقيلي، وبقية رجاله ثقات» [مجمع الزوائد: ٥/ ٧٦].

(٢) كما في قول الله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [النحل: ١٠٢].

(٣) شفاء العليل: ٢/ ٦٤ ـ ٦٥.

(٤) انظر: مسألة سبحان، لنفطويه: ص٣٠، وإعراب القرآن، لقوام السنة أبي القاسم الأصبهاني: ص٢٨، والنهاية في غريب الحديث، لابن الأثير: ٤/ ٢٣.

(٥) انظر: لسان العرب، لابن منظور: مادة (قدس): ٦/ ١٦٨.

نطهر أفعالنا من المعاصي، وقلوبنا من الالتفات إلى غيرك[١].

ويترتب على هذا القول حذف مفعول (نقدس) من دون دليل يدل عليه، ولهذا لم يرتضه الإمام ابن القيم، فقال ـ بعد حكايته ـ: «وهذا ليس بشيء»[٢].

وقال بعضهم: التسبيح: التسبيح ـ يعني على أصله ـ، والتقديس: الصلاة[٣].

وعكس غيرهم فقالوا: التسبيح: الصلاة، والتقديس: التطهير والتعظيم[٤].

وذهب آخرون إلى أن التسبيح: هو التنزيه والتبرئة، على أصله. والتقديس: هو التنزيه والتعظيم ونسبته تعالى إلى ما هو من صفاته من الطهارة[٥].

قال ابن جرير الطبري: «فمعنى قول الملائكة إذاً: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾، ننزهك ونبرئك مما يضيفه إليك أهل الشرك بك، ونصلي لك. ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، ننسبك إلى ما هو من صفاتك من الطهارة من الأدناس وما أضاف إليك أهل الكفر بك»[٦].

---

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ١/ ١١٠، وتفسير البغوي: ١/ ٧٩، وزاد المسير، لابن الجوزي: ١/ ٦١، والبحر المحيط، لأبي حيان: ١/ ٢٩١، والدر المصون، للسمين الحلبي: ١/ ٢٥٧.

(٢) شفاء العليل: ٢/ ٦٥.

(٣) انظر: تفسير الطبري: ١/ ٢٤٨، ٢٤٩، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١/ ٢٧٧، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ١/ ٧٥.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ١/ ٢٤٨ ـ ٢٤٩.

(٥) انظر: شفاء العليل، لابن القيم: ٢/ ٦٥.

(٦) تفسير الطبري: ١/ ٢٤٨، وانظر: تفسير البغوي: ١/ ٧٩.

قال: «وأما قول من قال: إن التقديس: الصلاة أو التعظيم، فإن معنى قوله ذلك راجع إلى المعنى الذي ذكرناه من التطهير، من أجل أن صلاتها لربها تعظيم منها له، وتطهير مما ينسبه إليه أهل الكفر به» اهـ[(١)].

وهذا الذي قرره ابن جرير الطبري هو الصواب في تفسير الآية إن شاء الله تعالى. وبه يتبين التقارب بين التقديس والتسبيح في المعنى، وحسن عطف أحدهما على الآخر لاختلاف لفظيهما، وعليه يكون قول الملائكة: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ توكيداً لقولهم: ﴿نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾، والله تعالى أعلم.

ومن أسماء الله تعالى الحسنى: القدوس، وهو ثابت بالكتاب والسنة. أما الكتاب، ففي قول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ﴾ [الحشر: ٢٣] وقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ﴾ [الجمعة: ١].

وأما السنة، ففي حديث أبي بن كعب[(٢)] ـ رضي الله عنه ـ قال: «كان رسول الله ﷺ إذا سلم في الوتر قال: **(سبحان الملك القدّوس)**»[(٣)].

والقدّوس: على وزن (فعّول)، مأخوذ من التقديس[(٤)]، وهو من

---

(١) المصدر السابق: ١/ ٢٤٩.

(٢) هو أبي بن كعب بن قيس الأنصاري الخزرجي النجاري، أبو المنذر، وأبو الطفيل، أحد القراء الكبار، وأحد فضلاء الصحابة الكرام، شهد بدراً وغيرها من المشاهد مع رسول الله ﷺ، وكتب له الوحي، وتوفي بالمدينة ودفن بها، واختلف في سنة وفاته اختلافاً كثيراً ما بين (١٩ ـ ٣٢هـ)، رضي الله عنه وأرضاه. وانظر: الإصابة، لابن حجر: ١/ ٢٧ ـ ٢٨، وتقريب التهذيب: له، ١/ ٦٢.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه: ٢/ ١٣٧، برقم (١٤٣٠)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود: ١/ ٢٦٨، برقم (١٢٦٧).

(٤) انظر: تفسير غريب القرآن، لابن قتيبة، تحقيق السيد أحمد صقر: ص٨، وبيان تلبيس الجهمية، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٢/ ٥٣٧.

أبنية المبالغة[(١)]، وفيه لغتان: ضم القاف، وفتحها، والضم أكثر وأفصح في الكلام، والفتح أقيس في الأسماء[(٢)].

وللعلماء في معنى هذا الاسم الكريم أقوال:

أحدها: أن معناه: الطاهر من كل عيب ونقص، البليغ في النزاهة عن كل ما يستقبح[(٣)].

والثاني: أن معناه: المقدس، أي: المنزه عن النقائص الموصوف بصفات الكمال[(٤)].

والثالث: أن معناه: المستحق للتطهير[(٥)].

والرابع: أن معناه: الممدوح بالفضائل والمحاسن[(٦)].

---

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير: ٤/ ٢٣.

(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ٥/ ١٥٢، والزاهر في معاني كلمات الناس، لأبي بكر الأنباري: ١/ ١٤٨، والمحكم والمحيط الأعظم في اللغة، لابن سيده: ٣/ ١٥٤ ـ ١٥٥، وإعراب القرآن، لأبي القاسم الأصبهاني: ص٢٨، والنهاية في غريب الحديث، لابن الأثير: ٤/ ٢٣، وتاج العروس، للزبيدي: ٦/ ٤٤٧ ـ ٤٤٨.

(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ٥/ ١٥٠، ١٥٢، وكتاب التوحيد، لابن منده، تحقيق الدكتور علي بن محمد بن ناصر الفقيهي: ٢/ ٦٦، والاعتقاد، للبيهقي، بتعليق أحمد عصام الكاتب: ص٥٤، وتفسير البغوي: ٨/ ٨٧، وتفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني: ٥/ ٤٠٨، والنهاية في غريب الحديث، لابن الأثير: ٤/ ٢٣، وشفاء العليل، لابن القيم: ٢/ ٦٤، والعلم الهيب، لبدر الدين العيني: ص٢٨٤.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٤/ ٣٨٨.

(٥) انظر: إعراب القرآن، لأبي القاسم الأصبهاني: ص٢٧.

(٦) انظر: المنهاج في شعب الإيمان، للحليمي، ١/ ١٩٧، والأسماء والصفات، للبيهقي: ١/ ١٠٧.

والخامس: أن معناه: المبارك الذي كثرت بركته[(١)].

وهذه الأقوال كلها متفقة في المعنى، وإنما اختلفت في العبارة فقط، وكلها معان صحيحة.

وكما قرن بين التسبيح والتقديس في الآية المتقدم ذكرها، جاء في السنة القرن بين اسم الله تعالى (السبوح) واسمه تعالى (القدوس)، وذلك فيما روته عائشة أم المؤمنين ﵂: «أن رسول الله ﷺ كان يقول في ركوعه وسجوده: (**سبوح قدوس رب الملائكة والروح**)»[(٢)].

وسيأتي الكلام على (السبوح) عند بيان منزلة التسبيح في العقيدة، إن شاء الله تعالى[(٣)].

وقد تبين بما سبق أن التقديس كالتسبيح وزنا ومعنى، وكذلك القدوس والسبوح في الوزن والمعنى.

وذهب الحليمي[(٤)] في كلام له إلى أن التقديس هو إثبات المدائح له تعالى المتضمن نفي المذام عنه سبحانه، وأن التسبيح هو نفي المذام عن الله سبحانه المتضمن إثبات المدائح له تعالى، فقولنا: هو كذا، ظاهره التقديس، وقولنا: ليس بكذا، ظاهره التسبيح.

فالتسبيح موجود في ضمن التقديس، والتقديس موجود في ضمن

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ١٢/ ٥١ ـ ٥٢، ومعاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ٥/ ١٥٢، وشأن الدعاء، للخطابي: ص٤٠، وتفسير الخازن: ٤/ ٤٧٧.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: ١/ ٥٣، برقم (٤٨٧).

(٣) انظر: ص(٤٧٩ ـ ٤٨١) من هذا البحث.

(٤) هو الحسين بن الحسن بن محمد بن حليم البخاري، أبو عبد الله الحليمي الشافعي، كان علامة متفننا، سيال الذهن مناظراً، طويل الباع في الأدب والبيان، وله مصنفات نفيسة، منها: المنهاج في شعب الإيمان، وتوفي سنة (٤٠٣هـ)، ﵀ ـ انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: ١٧/ ٢٣١ ـ ٢٣٣.

التسبيح. قال: «وقد جمع الله تبارك وتعالى بينهما في سورة الإخلاص، فقال ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾، فهذا تقديس. ثم قال: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾، فهذا تسبيح. والأمران معاً راجعان إلى إفراده وتوحيده، ونفي الشريك والتشبيه عنه» اهـ[1].

ومفاد كلامه هذا أن التقديس إيجاب يتضمن سلباً، وأن التسبيح سلب يتضمن إيجاباً، وأن صفات الله تعالى المثبتة داخلة في معنى التقديس، وصفات الله تعالى المنفية داخلة في معنى التسبيح، وهذا تقرير جيد لمعنى التقديس والتسبيح، وما بينهما من المناسبة، والله تعالى أعلم.

❖ المطلب الثاني ❖

السلام

السلام اسم من أسماء الله تعالى الحسنى الثابتة بالكتاب والسنة. قال الله ﷻ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ﴾ [الحشر: ٢٣]. وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في التشهد أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله هو السلام**»[2].

وعن ثوبان[3] رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من

---

(١) المنهاج في شعب الإيمان: ١/ ١٩٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ ٢/ ٣١١، برقم (٨٣١)، ومسلم في صحيحه: ١/ ٣٠١، برقم (٤٠٢).

(٣) هو ثوبان بن بجدد ـ بوحدة مضمومة ثم جيم ساكنة ثم دال مهملة مكررة الأولى مضمومة ـ، ويقال: ابن جحدر، أبو عبد الله، ويقال: أبو عبد الرحمن، الهاشمي مولى النبي ﷺ، صحبه ولازمه، ونزل ـ بعده ـ الشام، وتوفي بحمص سنة (٥٤هـ)، رضي الله عنه. انظر: تهذيب الأسماء واللغات، =

صلاته استغفر ثلاثاً، وقال: «**اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت ذا الجلال والإكرام**»[(١)].

والسلام في الأصل مصدر بمعنى السلامة. يقال: سلم، سلاماً وسلامة، كما يقال: رضع، رضاعاً ورضاعة[(٢)]. ويكون السلام اسم مصدر للفعل (سلّم) الذي مصدره التسليم[(٣)]، كما يكون (سبحان) اسم مصدر للفعل (سبّح) الذي مصدره التسبيح[(٤)].

ومعنى السلام والسلامة: البراءة والخلاص والنجاة من الشرور والعيوب الظاهرة والباطنة، وعلى هذا المعنى تدور تصاريف هذه اللفظة[(٥)]. ومن ذلك تسمية الجنة بدار السلام، كما في قول الله تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الأنعام:

= للنووي: ١/ ١٤٠ ـ ١٤١، وتهذيب التهذيب، لابن حجر: ٢/ ٣١، وتقريب التهذيب، له: ١/ ١٢٥.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: ١/ ٤١٤، برقم (٥٩١).

(٢) انظر: تفسير غريب القرآن، لابن قتيبة: ص٦، وشأن الدعاء، للخطابي: ص٤١، والنهاية في غريب الحديث، لابن الأثير: ٢/ ٣٩٢، وفتح الباري، لابن حجر: ٢/ ٣٤.

(٣) انظر: المخصص، لابن سيده: ١٦/ ١٣٦، وأحكام أهل الذمة، لابن قيم الجوزية، تحقيق أبي براء يوسف البكري وأبي أحمد شاكر العاروري: ١/ ٤١٣.

(٤) انظر: ما سبق تقريره في ص(٥٥).

(٥) انظر: عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، للسمين الحلبي: ص٢٤٧، وبدائع الفوائد، لابن قيم الجوزية: ١/ ٣٧٣.
وانظر ما قيل في معنى تسمية الجنة بدار السلام في: تفسير غريب القرآن، لابن قتيبة: ص٦ ـ ٧، وتفسير الطبري: ٥/ ٣٤٢، و٦/ ٥٤٨، وشأن الدعاء، للخطابي: ص٤١، والنهاية في غريب الحديث، لابن الأثير: ٢/ ٣٩٢، وبدائع الفوائد، لابن القيم: ١/ ٣٧٤.

١٢٧]. ومن ذلك أيضاً تحية المسلمين بعضهم لبعض بقول: (السلام عليكم)[(١)].

وفي الحديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**إن السلام اسم من أسماء الله تعالى وضعه الله في الأرض، فأفشوا السلام بينكم**»[(٢)].

وأما السلام الذي هو اسم من أسماء الله تعالى الحسنى، فاختلف العلماء في أصله على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه من باب النسبة، فالسلام يعني: ذو السلام، على حذف المضاف[(٣)]، كقولهم: رجل مال، أي: ذو مال[(٤)].

والثاني: أنه من باب استعمال المصدر بمعنى اسم الفاعل، فالسلام يعني: السالم. كما سميت ليلة القدر سلاماً في قول الله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ هِيَ﴾ [القدر: ٥] أي: سالمة من كل شر، بل هي خير لا

---

(١) انظر أقوال العلماء في معنى هذه التحية في: تفسير غريب القرآن، لابن قتيبة: ص٦ ـ ٧، ومعاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ٢/ ٢٥٢ ـ ٢٥٣، وشأن الدعاء، للخطابي: ص٤٣ ـ ٤٥، وتهذيب الأسماء واللغات، للنووي: ٣/ ١٥١، وبدائع الفوائد، لابن القيم: ١/ ٣٨٠ ـ ٣٨٣، وفتح الباري، لابن حجر العسقلاني ٢/ ٣١٤، والعلم الهيب، لبدر الدين العيني: ص٣١٤ ـ ٣١٥.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ـ بتخريجات وتعليقات الألباني ـ: ص٣٥٧، برقم (٩٨٩)، وإسناده حسن. وانظر: فتح الباري، لابن حجر: ١١/ ١٣، والسلسلة الصحيحة، للألباني: رقم (١٨٤)، و(١٦٠٧).

(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ٢/ ٢٥٣، وشأن الدعاء، للخطابي: ص٤١، والمخصص، لابن سيده: ١٦/ ١٣٦، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٨/ ٤٦، والعلم الهيب، لبدر الدين العيني: ص٣١٤.

(٤) انظر: شأن الدعاء، للخطابي: ص٤١.

شر فيها[١].

والثالث: أنه من باب وضع المصدر موضع الاسم لإفادة المبالغة، لكون معناه غالباً على المسمى به مكرراً منه[٢]. ومن عادة العرب أنهم يضعون المصادر موضع الأسماء ويصفون الشيء بها إذا أرادوا المبالغة[٣]، كقولهم: رجل صوم، وعدل، وزور، وبابه[٤].

وهذا القول الثالث أقوى وأقيس في العربية[٥]، وعليه فنفس السلام من أسماء الله تعالى، ووصفه تعالى به أبلغ من وصفه بالسالم، أو بذي السلام، والله تعالى أعلم[٦].

وكذلك للعلماء في معنى هذا الاسم الكريم في حق الله تعالى أقوال عديدة، منها:

١ ـ أن السلام: هو الذي يملك السلام الذي هو تخليص العباد من المكروه[٧]. وهذا التفسير راجع إلى القول بأن السلام أصله: ذو السلام، فالسلام هنا هو حظ العبد فيما يطلبه من السلامة من الآفات والمهالك، والله تعالى هو مالك ذلك[٨].

---

(١) انظر: بدائع الفوائد، لابن القيم: ١/ ٣٧٧.
(٢) انظر: بدائع الفوائد، لابن القيم: ١/ ٣٧٧، وفتح الباري، للحافظ ابن حجر: ٢/ ٣١٤، والعلم الهيب، للعيني: ص٣١٤.
(٣) انظر: العلم الهيب، للعيني: ٣١٤.
(٤) انظر: بدائع الفوائد، لابن القيم: ١/ ٣٧٨.
(٥) انظر: المصدر السابق: ١/ ٣٧٧.
(٦) انظر: المصدر السابق، الموضع نفسه، وشفاء العليل، لابن القيم أيضاً: ٢/ ٦٥.
(٧) انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ٢/ ٢٥٣، وتهذيب الأسماء واللغات، للنووي: ٣/ ١٥١.
(٨) انظر: فتح الباري، لابن حجر العسقلاني: ٢/ ٣١٤ و١٣/ ٣٦٦.

٢ ـ أن السلام: هو المسلم لعباده[١]، أي: منه السلامة لعباده[٢].

٣ ـ أو هو الذي سلم الخلق من ظلمه[٣].

٤ ـ أو هو الذي سلم المؤمنون من عقوبته[٤].

٥ ـ أو هو الذي يسلم من عذابه من لم يستحقه[٥].

وهذه الأقوال كالقول الأول، وإنما اختلفت في العموم والخصوص، وهي كلها أقوال صحيحة في ذاتها؛ لأنها من باب تفسير الاسم ببعض لوازمه وآثاره، وهو منهج معروف عن السلف الصالح في تفسير القرآن[٦]، ولكن المقصود هنا تفسير اسم الله (السلام) باعتباره دالاً على وصف قائم بذاته سبحانه، كالشأن في جميع أسماء الله تعالى الحسنى[٧]، وقد غاير الرسول ﷺ بين السلام الذي هو اسم الله تعالى ووصفه، والسلام الذي هو ملكه في قوله ﷺ: «**اللهم أنت السلام،**

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٤٦/١٨، وفتح الباري، لابن حجر: ١٣/١١.

(٢) انظر: فتح الباري، لابن حجر: ٣٦٦/١٣.

(٣) انظر: تفسير الطبري: ٥٢/١٢، ومعاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ١٥٠/٥، وشأن الدعاء، للخطابي: ص٤١، والمخصص، لابن سيده: ١٥٧/١٦، وتفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني: ٤٠٩/٥، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٤٦/١٨، وتهذيب الأسماء واللغات، للنووي: ١٥١/٣، وفتح الباري، لابن حجر: ٣٦٦/١٣.

(٤) انظر: تهذيب الأسماء واللغات، للنووي: ١٥١/٣، وفتح الباري، لابن حجر: ٣٦٦/١٣.

(٥) انظر: المخصص، لابن سيده: ١٣٧/١٦.

(٦) انظر: مقدمة التفسير ـ ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٣٣٧/١٣.

(٧) انظر: القواعد الحسان لتفسير القرآن، للشيخ عبد الرحمن السعدي: القاعدة الثلاثون: ص٨٩.

ومنك السلام»[(١)]، فأخبر ﷺ أنّ السلام لله تعالى وصفاً وملكاً[(٢)]، فالسلام الذي هو وصفه غير السلام الذي هو ملكه. وهذه المعاني المذكورة هي من السلام الذي هو ملكه، وهو من موجبات اسمه السلام وآثاره، لا عين معناه.

٦ ـ أن السلام: هو المسلِّم على أوليائه[(٣)]، كما سلَّم عليهم في كتابه حيث قال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ﴾ [الصافات: ٧٩]، وقال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الصافات: ١٠٩]، وقال: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل: ٥٩].

٧ ـ أنّ السلام: هو المسلِّم على عباده في الجنة، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ [يس: ٥٧، ٥٨][(٤)].

وهذان القولان يدلان على ثنائه تعالى على أوليائه بالقول السلام في الدنيا، وتحيّته لهم بالقول السلام في الجنة، وليس شيء من ذلك معنى للسلام الذي هو اسمه ووصفه ﷻ، بل ذلك من الآثار المتعلقة باسمه السلام.

٨ ـ أنّ السلام: هو الذي سلم من جميع العيوب والنقائص، وبرئ من كلّ آفة يلحق المخلوقين[(٥)]. وهذا المعنى ـ في تفسير اسمه

---

(١) سبق تخريجه من حديث ثوبان رضي الله عنه في ص (١٢٠).
(٢) انظر: بدائع الفوائد، لابن القيم: ١/٤٢٦، والعلم الهيب، للعيني: ص٣١٤.
(٣) انظر: تهذيب الأسماء واللغات، للنووي: ٣/١٥١، وفتح الباري، لابن حجر: ١١/١٣.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٨/٤٦، وفتح الباري، لابن حجر: ١٣/٣٦٦.
(٥) انظر: تفسير غريب القرآن، لابن قتيبة: ص٦، وشأن الدعاء، للخطابي: =

السلام ـ دالّ على صفة ذاته، وأنّه ﷻ سمى نفسه بهذا الاسم الكريم لسلامته من كل عيب ونقص من كل وجه، فهو السلام الحق بكل اعتبار، والمخلوق سلام بالإضافة(١).

وهذا القول الأخير هو الأصل في تفسير اسم الله تعالى (السلام)، وبه يتبين أن السلام كالقدوس، وهما من أسماء التنزيه التي تتضمن كل ما ينزه عنه تبارك وتعالى(٢).

قال الإمام ابن قيم الجوزية:

«هذا ومن أوصافه القدوس ذو التـ ـنزيه بالتعظيم للرحمن
وهو السلام على الحقيقة سالم من كل تمثيل ومن نقصان»(٣)

ومن الأقوال الجميلة في معنى السلام في حق الله تعالى ما حكاه الإمام ابن منده(٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «ومعنى السلام: أن

= ص٤١، وتفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني: ٥/ ٤٠٩، وتفسير البغوي: ٨/ ٨٧، والنهاية في غريب الحديث، لابن الأثير: ٢/ ٣٩٢، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٨/ ٤٦، وتهذيب الأسماء واللغات، للنووي: ٣/ ١٥١، وشفاء العليل، لابن القيم: ٢/ ٦٥، وأحكام أهل الذمة، له: ١/ ٤١٣، وعمدة الحفاظ، للسمين الحلبي: ص٢٤٧، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٤/ ٣٦٧، وفتح الباري، لابن حجر: ٢/ ٣١٤، و١١/ ١٢، ١٣ و١٣/ ٣٦٦، والعلم الهيب، للعيني: ص٣١٤.

(١) انظر: بدائع الفوائد، لابن القيم: ١/ ٣٧٥.

(٢) انظر: المصدر السابق: ١/ ١٧٦، ٣٧٦.

(٣) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية ـ القصيدة النونية ـ، بعناية عبد الله بن محمد العمير: ص٢٤٧.

(٤) هو محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى بن منده العبدي مولاهم، أبو عبد الله الأصبهاني، الإمام الحافظ محدث الإسلام، صاحب التصانيف المفيدة في اعتقاد أهل السنة، منها: كتاب الإيمان، وكتاب التوحيد، وغيرهما، وتوفي سنة (٣٩٥هـ)، رحمه الله. انظر سير أعلام النبلاء، للذهبي: ١٧/ ٢٨ ـ ٤٢.

ذات الله ﷻ خلصت بانفراد الوحدانية من كل شيء، وبانت عن كل شيء، وأخلصت به القلوب إلى توحيد الله ﷻ وسلمت» اهـ[(١)].

وقد تضمن هذا القول الرد على أهل الباطل القائلين بأن الله تعالى في كل مكان بذاته، أو أنه يحل في خلقه أو في بعضهم، فالله ﷻ بائن من خلقه، سالم من كل ما يلحق الخلق من العيوب والنقائص والآفات، ليس كمثله شيء.

❖ المطلب الثالث ❖

تعالى

تعالى: على وزن (تفاعل)، فعل ماض، ومصدره (التعالي)، وهو تفاعل من العلو[(٢)]، بمعنى: ترفع أو ارتفع. ومنه قولهم: تعالى النهار، إذا ارتفع، والتعالي: الارتفاع[(٣)].

وقد جاء هذا الفعل مسنداً إلى الله ﷻ في ثلاثة عشر موضعاً في القرآن الكريم[(٤)]، في أربعة منها أسند إلى اسمه الظاهر، كقوله سبحانه: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٩٠﴾ [الأعراف: ١٩٠].

وفي بقية المواضع أسند إلى الضمير المقدر العائد إلى الله جل

---

(١) كتاب التوحيد: ٢/ ٦٨.

(٢) انظر: تفسير غريب القرآن، لابن قتيبة: ص١٠، وتفسير الطبري: ٥/ ٢٩٣.

(٣) انظر: لسان العرب، لابن منظور: مادة (علا): ١٥/ ٨٣، ٩٠.

(٤) وهي المواضع التالية: سورة الأنعام، الآية: ١٠٠، وسورة الأعراف، الآية: ١٩٠، وسورة يونس، الآية: ١٨، وسورة النحل، الآية: ١، والآية: ٣، وسورة الإسراء، الآية: ٤٣، وسورة طه، الآية: ١١٤، وسور المؤمنون، الآية: ٩٢، والآية: ١١٦، وسورة النمل، الآية: ٦٣، وسورة القصص، الآية: ٦٨، وسورة الروم، الآية: ٤٠، وسورة الزمر، الآية: ٦٧.

وعلا، كقوله عز من قائل: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [المؤمنون: ٩٢].

وجاء مسنداً إلى (جد ربنا) في قوله سبحانه ـ حكاية عن الجن ـ: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾﴾ [الجن: ٣].

وجاء هذا الفعل في السنة مسنداً إلى الضمير البارز العائد إلى الله سبحانه، في حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه فيما كان يقوله رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة، وفيه: «**أنا بك وإليك، تباركت وتعاليت، أستغفرك وأتوب إليك**»[(1)].

وإذا أسند هذا الفعل إلى الله عز وجل كان معناه تنزيهه سبحانه عما لا يليق بكماله وعظمته وعلوه على كل شيء، ولهذا ورد هذا الفعل مقروناً بلفظ (سبحان) في أكثر الآيات التي ذكر فيها مسنداً إلى الله جل وعلا، وذلك لما بين اللفظين من المناسبة في المعنى، وإنما افترقا من جهة أن (سبحان) يكون مضافاً إلى لفظ الجلالة أو إلى ضميره، لكونه مصدراً. و(تعالى) يكون مسنداً إلى لفظ الجلالة أو إلى ضميره لكونه فعلاً[(2)].

قال ابن جرير الطبري: «وأما قوله: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٠]، فتنزيه من الله تبارك وتعالى نفسه، وتعظيم لها عما يقول فيه المبطلون ويدعون معه من الآلهة والأوثان»[(3)].

ومن هذا الباب اسم الله (المتعالي)، فإنه اسم فاعل من (تعالى)، وقد وصف الله عز وجل نفسه بهذا الاسم في قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾ [الرعد: ٩].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: ١/ ٥٣٤ ـ ٥٣٦، برقم (٧٧١) في حديث طويل.
(٢) انظر: ما سبق ذكره في ص(٥٨) من هذا البحث.
(٣) تفسير الطبري: ٦/١٤٨.

قال الأزهري: «وأما المتعالي، فهو الذي جل عن إفك المفترين، وتنزه عن وساوس المتحيرين. وقد يكون المتعالي بمعنى العالي»(١).

وقال الخطابي: «المتعالي: هو المتنزه عن صفات المخلوقين، تعالى أن يوصف بها، وارتفع عن مساواتهم في شيء منها. وقد يكون بمعنى العالي فوق خلقه» اهـ(٢).

ومنه أيضاً اسما الله (العلي والأعلى) اللذان وصف الله ﷻ بهما نفسه في كتابه، فقال تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى: ١].

فإن هذه الأسماء ـ المتعالي، والعلي، والأعلى ـ يقرب بعضها من بعض في الاشتقاق والمعنى(٣)، وهي دالة على العلو المطلق لله ﷻ من جميع الوجوه: علو القدر، وعلو القهر، وعلو الذات.

قال قوام السنة أبو القاسم الأصبهاني(٤): «وقد أجمع المسلمون أن الله هو العلي الأعلى، ونطق بذلك القرآن في قوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى: ١]. وزعموا(٥) أن ذلك بمعنى علو الغلبة لا علو

---

(١) تهذيب اللغة: ٣/ ١٨٦. (٢) شأن الدعاء: ص٨٩.

(٣) انظر: تهذيب اللغة، للأزهري: ٣/ ١٨٦.

(٤) هو إسماعيل بن محمد بن الفضل بن علي القرشي التيمي، أبو القاسم الأصبهاني، الملقب بقوام السنة، كان إماماً حافظاً متقناً حسن الاعتقاد، وله تصانيف نافعة، منها: الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة، وتوفي سنة (٥٣٥هـ)، رحمه الله تعالى، انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: ٢٠/ ٨٠ ـ ٨٨، والبداية والنهاية، لابن كثير: ١٢/ ٢٣٣.

(٥) يعني نفاة علو الذات عن الله تعالى، كالجهمية والمعتزلة والأشاعرة ومن وافقهم.

الذات. وعند المسلمين أن لله ﷻ علو الغلبة، والعلو من سائر وجوه العلو؛ لأن العلو صفة مدح، فثبت أن لله تعالى علو الذات، وعلو الصفات، وعلو القهر والغلبة» اهـ[١].

والعلو بجميع معانيه يدل على أن الله ﷻ عال عن كل عيب ونقص، وعن كل مثيل وشريك، وأنه سبحانه متصف بجميع صفات الكمال، منزه عما ينافيها من صفات النقص، وعن أن يكون له مثل في شيء من صفات الكمال، وأنه لا إله إلا هو ولا رب سواه[٢].

❖ المطلب الرابع ❖

حاش لله

ورد هذا اللفظ مرتين في القرآن الكريم، في قصة نبي الله يوسف عليه السلام مع النسوة، حيث قال الله تعالى: ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ [يوسف: ٣١]، وقال تعالى أيضاً: ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ [يوسف: ٥١].

وذكر أهل العلم أن معنى (حاش لله) مثل معنى (سبحان الله)[٣]، أي: التنزيه لله[٤]، وبراءة لله[٥].

---

(١) الحجة في بيان المحجة: ٢/ ١١٤.

(٢) انظر مزيد بيان لهذا الموضوع في: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٦/ ١١٩ ـ ١٢٤.

(٣) انظر: النكت والعيون، للماوردي: ٣/ ٣٣، وتفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٤/ ١٨٢.

(٤) انظر: مجاز القرآن، لأبي عبيدة: ١/ ٣١٠، وتفسير الطبري: ٧/ ٢٠٦، وتفسير النسفي: ٢/ ١٠٧ ـ ١٠٨.

(٥) انظر: المخصص، لابن سيده: ١٦/ ١٦٣، وتفسير النسفي: ٢/ ١٠٨، ولسان العرب، لابن منظور: مادة (حشا): ١٤/ ١٨١.

وذكر بعضهم أن معناه: الاستثناء[١]، أي: الاستثناء من الشر[٢]، وهذا المعنى موافق للمعنى الأول.

وجاء عن مجاهد: أن معناه: معاذ الله[٣].

وحكى أهل العلم في هذا اللفظ عدة لغات[٤]:

إحداها: (حاشى لله).

والثانية: (حاشا لله) بألف بعد الشين.

والثالثة: (حشا لله) بحذف الألف الأولى بعد الحاء.

والرابعة: (حاشاً لله) بالتنوين على الشين.

والخامسة: (حاشى الله) بحذف لام الجر من لفظ الجلالة.

والسادسة: (حشى الله) بحذف الألف الأولى، مع حذف لام الجر.

والسابعة: (حاش الله) بتسكين الشين مع الألف.

فهذه أقصى ما حكي من لغات لهذا اللفظ، فيما اطلعت عليه.

وتبعاً لهذه اللغات اختلف أهل اللغة في حقيقة (حاش) على خمسة أقوال:

القول الأول: أنه حرف من حروف الخفض، ولذلك جاء ما بعده

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٧/٢٠٦، ومعاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ٣/١٠٧، وتهذيب اللغة، للأزهري: ٥/١٤٠ ـ ١٤١.

(٢) انظر: مجاز القرآن، لأبي عبيدة: ١/٣١٠.

(٣) انظر: تفسير الطبري: ٧/٢٠٦، والنكت والعيون، للماوردي: ٣/٣٣.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ٧/٢٠٥ ـ ٢٠٦، وتهذيب اللغة، للأزهري: ٥/١٤٠ ـ ١٤١، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٩/١٨١، ومغني اللبيب، لابن هشام الأنصاري: ص١٦٥.

مخفوضاً في بعض اللغات المحكية فيه[١].

ورد هذا القول من وجهين: من صحة إثبات الألف في آخره وحذفها، والحرف لا يحذف منه شيء. ومن وقوع حرف الجر ـ اللام ـ بعده، والحرف لا يدخل على الحرف[٢].

والقول الثاني: أنه فعل، بدليل تصرفهم فيه بالحذف، وإدخالهم إياه على الحرف[٣].

ورد هذا القول أيضاً بأن الدليل المذكور له إنما ينافي الحرفية، ولا يثبت الفعلية[٤].

والقول الثالث: أنه متردد بين الحرفية والفعلية، فإن جر فهو حرف، وإن نصب أو وقع بعده حرف جر فهو فعل[٥].

وهذا القول جمع بين القولين السابقين، ويرد عليه ما ورد عليهما من الرد.

القول الرابع: أنه اسم فعل، بمعنى: أتبرأ، أو برئت، بدليل بنائه وعدم تصرفه[٦].

ورد هذا القول كذلك بوروده معرباً في بعض اللغات[٧]، كما تقدم.

---

(١) انظر: تهذيب اللغة، للأزهري: ٥/ ١٤١، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٩/ ١٨١، وتفسير النسفي: ٢/ ١٠٧.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٩/ ١٨١، والدر المصون، للسمين الحلبي: ٦/ ٤٨٢، ومغني اللبيب، لابن هشام: ص١٦٥.
(٣) انظر: المصادر السابقة، المواضع نفسها.
(٤) انظر: مغني اللبيب، لابن هشام: ص١٦٥.
(٥) انظر: الدر المصون، للسمين الحلبي: ٦/ ٤٨١.
(٦) انظر: مغني اللبيب، لابن هشام: ١٦٥.
(٧) انظر: المصدر السابق.

القول الخامس: أنه اسم صريح مرادف للتنزيه والبراءة، بدليل تنوينه في إحدى اللغات[1]، وإنما ترك تنوينه في بعض اللغات لأنهم أبدلوا التنوين ألفاً كما يبدلونه في الوقف، ثم إنهم أجروا الوصل مجرى الوقف، كما فعلوا ذلك في مواضع كثيرة[2]، وقد يحذفون الألف المبدلة من التنوين كما حذفوا الألف في مواضع أخرى[3].

وقيل: إنما ترك تنوينه في بعض اللغات لبنائه، تشبيهاً له بحاشا الحرفية[4]، وما سبق بيانه آنفاً من سبب ترك التنوين أولى من هذا.

والقول باسمية (حاش) قوي ـ في نظري ـ، إلا إذا وقع بعده اسم منصوب به، فيقوى حينئذٍ كونه فعلاً، إذ لا وجه للنصب غير الفعلية.

والخلاصة: أن (حاش) في قول العلماء متردد بين الاسمية والفعلية والحرفية، وأيا كان، فكلمة (حاش لله) مرادف لكلمة (سبحان الله) في الدلالة على التنزيه والتبرئة لله تعالى من كل سوء.

وأما اللام الداخلة على لفظ الجلالة، فمن قال: إن (حاش) اسم، جعل اللام متعلقة بمحذوف على سبيل البيان، كاللام في قولهم: (سقيا لك، ورعيا لزيد). ومن قال: إن (حاش) فعل، جعل اللام متعلقة بالفعل نفسه. وادعى بعضهم أن اللام زائدة[5]، والله تعالى أعلم.

---

(١) انظر: الدر المصون، للسمين الحلبي: ٦/ ٤٨٣، ومغني اللبيب، لابن هشام: ص١٦٥، ٨٩٣.
(٢) انظر: الدر المصون، للسمين الحلبي: ٦/ ٤٨٤.
(٣) انظر: تفسير الطبري: ٧/ ٢٠٦.
(٤) انظر: الدر المصون، للسمين الحلبي: ٦/ ٤٨٣، ٤٨٤، ومغني اللبيب، لابن هشام: ص١٦٥، ٨٩٣.
(٥) انظر: الدر المصون، للسمين الحلبي: ٦/ ٤٨٤ ـ ٤٨٨.

❖ المطلب الخامس ❖

النفي الوارد في حق الله تعالى

النفي: مصدر نفى، ينفي، وهو ضد الإثبات. ويأتي بمعنى الإبعاد، والتنحية، والإنكار، والجحود(١).

ويستعمل للنفي ـ في لغة العرب ـ ألفاظ تعرف بأدوات النفي، وأشهرها: ليس، ولا، ولم، ولن، وما(٢).

أما ليس، ففعل لا يتصرف، وأما الأربعة الباقية فحروف.

وقد ورد النفي بهذه الأدوات المذكورة في حق الله تعالى في الكتاب والسنة، لإفادة تنزيهه سبحانه عما نفي عنه، وأنه مما لا يليق بكماله وجلاله وعظمته، ولهذا كان النفي الوارد في حق الله تعالى بإحدى هذه الأدوات دالاً على معنى التسبيح من التنزيه لله ﷻ والتعظيم له.

وأمثلة هذا النفي في الكتاب والسنة كثيرة جداً لا يمكن استقصاؤها في هذا المطلب، ولكن يمكن ذكر بعض منها، وهو:

❑ أولاً ـ النفي الوارد في حق الله تعالى بـ (ليس):

ورد النفي بـ (ليس) في حق الله تعالى في مواضع، منها:

١ ـ قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾ [آل عمران: ١٨٢، والأنفال: ٥١].

وفي هذه الآية نفي الظلم عن الله تعالى، وذلك في سياق التقريع والتوبيخ للكفار، وأن ما حل بهم من العذاب والعقاب ليس بظلم

---

(١) انظر: لسان العرب، لابن منظور: مادة (نفى): ١٥/ ٣٣٦ ـ ٣٣٨، والقاموس المحيط، للفيروزآبادي: مادة (نفى)، ص١٧٢٦، والمعجم الوسيط: ٢/ ٩٤٣.
(٢) انظر: المعجم الوسيط: ٢/ ٩٤٣.

من الله تعالى، بل لاستحقاقهم العذاب بما عملته أيديهم، فإن الله سبحانه لكمال عدله وحكمته ليس ظلاماً أحداً من خلقه؛ لأن الظلم لا يليق به ﷻ[(١)].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. فـ (ليس كمثله شيء) نفي للمثل عن الله تعالى، فلا يماثله شيء من خلقه، كما أنه لا رب سواه، ولا إله غيره.

وقد اختلف في إعراب هذه الجملة على وجوه:

أحدها: أن الكاف صلة زيدت للتأكيد، و(مثله) خبر ليس مقدم، و(شيء) اسمها مؤخر. والمعنى: ليس مثله شيء[(٢)].

والثاني: أن (مثل) زائد لتوكيد الكلام؛ لأنه والكاف بمعنى واحد، وعلى هذا فالمعنى: ليس كهو شيء، أو ليس هو كشيء[(٣)].

وهذا الوجه بعيد؛ لأن (مثل) اسم، والكاف حرف، والقول بزيادة الحرف للتأكيد أولى من القول بزيادة الاسم[(٤)].

والثالث: أنه ليس ثم زيادة أصلاً، بل هذا من باب قولهم: مثلك لا يفعل كذا، أي: أنت لا تفعله، وأتي بـ (مثل) للمبالغة. وقالوا ـ في

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٣/ ٥٣٨ و٦/ ٢٦٨. وانظر: مبحث تسبيح الله تعالى عن الظلم في أقواله وأفعاله: (٢/ ٢٥٥) من البحث.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ١١/ ١٣٣، وإعراب القرآن، لأبي القاسم التيمي: ص١٥، وشرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الدمشقي، بتحقيق الدكتور عبد الله التركي، وشعيب الأرناؤوط: ١/ ١٢١ ـ ١٢٢.

(٣) انظر: تفسير الطبري: ١١/ ١٣٣، وشرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز: ١/ ١٢٤.

(٤) انظر: مغني اللبيب، لابن هشام الأنصاري: ص٢٣٨، وشرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز: ١/ ١٢٤.

معنى المبالغة هنا ـ: أي ليس لمثله مثل لو فرض المثل، فكيف ولا مثل له[(١)].

وهذا الوجه أبعد من سابقه؛ لأن فيه إثبات مثل لله سبحانه، ثم نفي الشبه عن ذلك المثل، وهذا ـ كما ترى ـ شرك بالله تعالى[(٢)].

وما ادعي فيه من المبالغة لا يصح؛ لأن المبالغة لا يتوصل إليها بمعنى فاسد، ولا سيما في حق الله ﷻ.

فالصواب في إعراب (ليس كمثله شيء) هو الوجه الأول ـ أن الكاف صلة زيدت للتأكيد ـ، وهو وجه قوي حسن معروف في لغة العرب[(٣)]، والله تعالى أعلم.

☐ ثانياً ـ النفي الوارد في حق الله تعالى بـ (لا):

وللنفي بـ (لا) في حق الله تعالى مواضع كثيرة في القرآن الكريم، ومنها:

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥﴾.

وهذه آية الكرسي[(٤)]، ولها شأن عظيم، فقد صح أنها أعظم آية

---

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز: ١/ ١٢٤، والإتقان في علوم القرآن، للسيوطي: ١/ ٥٣١ ـ ٥٣٢.

(٢) انظر: إعراب القرآن، لأبي القاسم التيمي: ص١٥.

(٣) انظر: شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز: ١/ ١٢٢، وشرح العقيدة الواسطية، للشيخ محمد خليل هراس، بضبط علوي السقاف: ص٦٩.

(٤) انظر: سميت بذلك لذكر الكرسي فيها.

في كتاب الله تعالى، كما في حديث أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا أبا المنذر، أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟**» قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «**يا أبا المنذر، أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟**» قال: قلت: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾، قال: فضرب في صدري، وقال: «**ليهنك العلم**[1] **أبا المنذر**»[2].

وقد اشتملت الآية الكريمة على خمسة من النفي بـ (لا) في حق الله تعالى، وهي:

١ - ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وهذه الجملة هي كلمة التوحيد التي دعا إليها جميع الرسل - عليهم الصلاة والسلام -، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، ومن أجلها خلق الجن والإنس، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، أي: إلا ليوحدون[3]. وهي دالة بصدرها (لا إله) على نفي الإلهية عن كل ما سوى الله عز وجل، ودالة بعجزها (إلا هو) على إثبات الإلهية لله تعالى وحده، فـ (لا إله إلا هو) تنزيه لله سبحانه عن كل شرك في الإلهية، وإخبار بأنه المنفرد بالإلهية لجميع الخلائق[4].

---

(١) أي: ليكن العلم هنيئاً لك.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: ١/٥٥٦، برقم (٨١٠).

(٣) انظر: صحيح البخاري - مع الفتح -: ٨/٥٩٨، وتأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة، تحقيق السيد أحمد صقر: ص٣٧٣.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ١/٣١٦، وشرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الدمشقي: ١/٧٢، وتيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، للشيخ سليمان بن عبد الله آل الشيخ: ص٧٧، وشرح العقيدة الواسطية، للشيخ محمد خليل هراس: ص٥٦.

٢، ٣ ـ ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ فيه نفي السنة والنوم عن الله تعالى، نفاهما معاً؛ لأن السنة ـ وهي النعاس ـ مقدمة النوم، والنوم أقوى من السنة وأثقل(١).

وفي هذا النفي تنزيه لله سبحانه عن الآفات التي تعتري المخلوق، وهو من تمام حياته وقيوميته(٢).

٤ ـ ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ بين الله تعالى في هذا أن العباد لا يعلمون شيئاً من علمه تعالى إلا ما علمهم إياه. وفي هذا النفي تنزيه لله تعالى عن أن يعلم أحد شيئاً إلا بتعليم الله، كما قالت الملائكة: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة: ٣٢]، وذلك لأن الله تعالى هو ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾ [العلق: ١، ٢]، وهو ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: ٤، ٥](٣).

٥ ـ ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ قال الحافظ ابن كثير: «أي: لا يثقله ولا يكرثه حفظ السموات والأرض ومن فيهما ومن بينهما، بل ذلك سهل عليه يسير لديه»(٤).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «هذا النفي تضمن كمال قدرته، فإنه مع حفظه للسموات والأرض لا يثقل ذلك عليه، كما يثقل على من في قوته ضعف» اهـ(٥)، ففيه تنزيه الله تعالى عن الضعف.

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٣/ ٨، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ١/ ٣١٦.
(٢) انظر: تفسير الطبري: ٣/ ٩، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٧/ ١٠٩، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ١/ ٣١٦.
(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٧/ ١١٠.
(٤) تفسير القرآن العظيم: ١/ ٣١٨.
(٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٧/ ١١٠.

فهذا ما تضمنته آية الكرسي من النفي في حق الله تعالى، مع ما تضمنته أيضاً من إثبات صفات الكمال لله تعالى، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ليس في القرآن آية واحدة تضمنت ما تضمنته آية الكرسي»[١]، يعني: من صفات الله الثبوتية والتنزيهية.

□ ثالثاً ـ النفي الوارد في حق الله تعالى بـ (لم):

ومن النفي بـ (لم) في حق الله تعالى: قوله ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾. وهذه سورة الإخلاص التي ثبت في أحاديث صحيحة أنها تعدل ثلث القرآن[٢]، بل ثبت في فضلها أحاديث أخرى كثيرة[٣]، حتى قال الإمام الدارقطني[٤]: «لم يصح في فضل سورة أكثر مما صح في فضلها»[٥].

وقد اشتملت السورة على ثلاثة من النفي بـ (لم) في حق الله تعالى، وهي:

---

(١) المصدر السابق: ١٧/ ١٣٠.

(٢) ثبت ذلك في حديث أبي سعيد الخدري ﷺ عند البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٩/٥٨ ـ ٥٩، برقم (٥٠١٣)، ورقم (٥٠١٥)، وفي حديث أبي الدرداء ﷺ عند مسلم في صحيحه: ١/٥٥٦، برقم (٨١١)، وفي حديث أبي هريرة ﷺ عند مسلم في صحيحه: ١/٥٥٧، برقم (٨١٢).

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، للحافظ ابن كثير: ٤/ ٦٠٤ ـ ٦٠٩.

(٤) هو علي بن عمر بن أحمد بن مهدي البغدادي، أبو الحسن الدارقطني، كان حافظ زمانه، وإمام وقته، وفريد عصره، انتهى إليه علم الأثر والمعرفة بالعلل والرجال، مع الصدق والثقة وحسن الاعتقاد، صنف السنن، وعلل الأحاديث، وغيرهما من المصنفات، وتوفي سنة (٣٨٥هـ)، رحمه الله. انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي: ٣/ ٩٩١ ـ ٩٩٥.

(٥) نقله شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى: ١٧/٢٠٦.

١ ـ قوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ أي: لم يتفرع عنه شيء[١] ففيه تنزيهه تعالى عن الولد[٢]. وقيل: فيه تنزيهه عن الفناء؛ لأنه لا شيء يلد إلا وهو فان بائد[٣]، وهذا لازم عن المعنى الأول.

٢ ـ وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ أي: ولم يتفرع هو عن شيء[٤]، فليس له والد[٥]، وليس بمحدث لم يكن فكان؛ لأن كل مولود فإنما وجد بعد أن لم يكن، وحدث بعد أن كان غير موجود، ولكنه سبحانه أزلي لم يزل، ودائم لا يبيد ولا يزول ولا يفنى[٦].

٣ ـ وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ أي: ليس شيء من الأشياء كفوا له في شيء من الأشياء[٧]. والكفو: هو المثل والشبيه والنظير. وفسر أيضاً بالصاحبة[٨].

فتضمنت هذه السورة العظيمة تنزيه الله تعالى عن الأصول والفروع والنظراء، وهذه الثلاثة هي جماع ما ينسب إليه المخلوق من الآدميين والجن والملائكة والبهائم، بل والنبات، ونحو ذلك، فإنه ما من شيء من المخلوقات إلا ولا بد أن يكون له شيء يناسبه: إما أصل، وإما فرع، وإما نظير، أو اثنان من ذلك، أو ثلاثة[٩].

---

(١) انظر: شرح العقيدة الواسطية، للشيخ محمد خليل هراس: ص٨٣.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم: لابن كثير: ٤/ ٦١٠.
(٣) انظر: تفسير الطبري: ١٢/ ٧٤٤.
(٤) انظر: شرح العقيدة الواسطية: لهراس: ص٨٣.
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٤/ ٦١٠.
(٦) انظر: تفسير الطبري: ١٢/ ٧٤٤.
(٧) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٧/ ٢٣٨.
(٨) انظر: تفسير الطبري: ١٢/ ٧٤٥.
(٩) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢/ ٤٣٨ ـ ٤٣٩، و١٧/ ١٠٩.

كما تضمنت السورة أيضاً وصف الله تعالى بالأحدية الدالة على انفراده المطلق، وبالصمدية الدالة على كماله المطلق(١).

ولهذا سميت بسورة الإخلاص؛ لأنها أخلصت الخبر عن الله تعالى وعن أسمائه وصفاته، فهي نسب الرحمن وصفته، ولأنها خلصت قارئها المؤمن بها من الشرك العلمي الاعتقادي(٢).

ولهذا أيضاً عدلت هذه السورة ثلث القرآن؛ لأن القرآن الكريم اشتملت على ثلاثة مقاصد أساسية:

أولها: الأوامر والنواهي المتضمنة للأحكام.

والثاني: القصص والأخبار المتضمنة لأحوال الوعد والوعيد.

والثالث: الخبر عن الله تعالى وما يجب على العباد من معرفته بأسمائه وصفاته.

وسورة الإخلاص قد اشتملت على هذا المقصد الثالث إجمالاً، فحق لها أن تعدل ثلث القرآن(٣).

وقد كان الأئمة يعتمدون على هذه السورة في التوحيد، وإذا أرادوا أن يذكروا ما يستحقه الله تعالى من التنزيه ذكروا هذه السورة، وأنها مستوفية كل ما ينفى في هذا الباب(٤).

---

(١) انظر: المصدر السابق: ١٧/ ١٠٧، ٣٢٥، وزاد المعاد، لابن القيم: ١/ ٣١٦.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٧/ ١٣٤، وزاد المعاد، لابن القيم: ١/ ٣١٦ ـ ٣١٧.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٧/ ١٠٣، ١٣٤، ٢٠٧.

(٤) انظر: المصدر السابق: ٢/ ٤٣٨، وبيان تلبيس الجهمية، لشيخ الإسلام أيضاً: ٢/ ٥٧ ـ ٥٨.

□ رابعاً ـ النفي الوارد في حق الله تعالى بـ (لن):

ومن الأمثلة على النفي بـ (لن) في حق الله تعالى:

١ ـ قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا﴾ [آل عمران: ١٧٧].

نفى سبحانه إمكان وقوع الضرر عليه؛ لأن ذلك دليل على النقص والعجز، وهو سبحانه يتعالى عن ذلك، فإنه لا تضره معصية العاصين، ولا تنفعه طاعة الطائعين، لكمال غناه عن عباده، كما في حديث أبي ذر[1] رضي الله عنه عن النبي ﷺ، فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال ـ الحديث بطوله ـ وفيه: «**يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني**»[2].

٢ ـ وقوله تعالى: ﴿وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾ [الحج: ٤٧].

نفى سبحانه عن نفسه خلف الوعد؛ لأن ذلك يعد لؤماً ومنقصة، وهو تعالى كامل الصدق والكرم والعلم والقدرة، فلا يقع منه مع هذا الكمال خلف الوعد.

□ خامساً ـ النفي الوارد في حق الله تعالى بـ (ما):

ورود النفي بـ (ما) في حق الله تعالى في مواضع كثيرة من كتاب الله تعالى، ومنها:

---

(١) أبو ذر، صحابي مشهور، اختلف في اسمه وفي اسم أبيه، والأصح أنه: جندب بن جنادة، أبو ذر الغفاري، من السابقين إلى الإسلام، كان زاهداً متقللاً من الدنيا، وكان صادق اللهجة، قوالاً بالحق، ومناقبه كثيرة جداً، وتوفي بالربذة ـ قرية قرب المدينة ـ في خلافة عثمان، سنة (٣٢هـ)، رضي الله عنه. انظر: الإصابة، لابن حجر: ٤/ ٧٠٥ ـ ٧٠٦، وتقريب التهذيب، له: ٢/ ٤٢٠.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: ٤/ ١٩٩٤ ـ ١٩٩٥، برقم (٢٥٧٧).

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤، ٨٥، ١٤٠، ١٤٩، وآل عمران: ٩٩].

نفى سبحانه عن نفسه الغفلة، وهي: ترك الشيء على وجه السهو عنه والنسيان له. وهذا إخبار للعباد أنه سبحانه ليس غافلاً عن أعمالهم، ولا ساه عنها، بل هو لها محص ولها حافظ، وسيجازي كلا بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر[١].

٢ ـ وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٨].

نفى سبحانه عن نفسه خفاء شيء عليه في الأرض أو في السماء، وفي ذلك تنزيه له عن الجهل مطلقاً، وإثبات لكمال علمه وإحاطته بكل شيء؛ لأنه خالقه ومدبره، فلا يخفى عليه منه شيء[٢].

٣ ـ وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ١٦﴾ [الأنبياء: ١٦].

نفى سبحانه أن يكون خلقه للسموات والأرض على وجه اللعب، واللعب: هو العبث واللهو وضد الجد، واللاعب: هو العابث الذي لا يقصد بفعله غاية محمودة يريد سوق الوسائل إليها، فإن هذا فعل الجاد الذي يجيء بالحق، فالذي يأتي بالحق خلاف اللاعب[٣].

ولهذا نفى سبحانه أن يكون خلق الخلق لاعباً؛ لأن ذلك لا يليق

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ١/٤٠٩، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ١/١٩٤، ٣٩٥، وانظر: (٢/١٤٦) من البحث.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ٧/٤٦٦، وتفسير القرآن العظيم: ٢/٥٦١.

(٣) انظر: جامع الرسائل، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم: ١/١٩ ـ ٢٢.

به، لكمال حكمته، فلا يخلق شيئاً عبثاً، بل لحكمة وغاية محمودة(١).

وبهذه المواضع السابقة يتبين أن النفي الوارد في حق الله تعالى بأدوات النفي المعروفة يشترك مع التسبيح في الدلالة على تنزيه الله تعالى وتعظيمه والثناء عليه بنفي ما لا يليق بجلاله وكماله وعظمته.

ـ **تنبيه**: وينبغي أن يعرف أن النفي في حق الله تعالى قد يرد في صورة استفهام، وهو الاستفهام الإنكاري الإبطالي الذي يقتضي أن ما بعده غير واقع(٢)، ومن ذلك:

١ ـ قوله تعالى ـ في تعديد آيات ربوبيته ـ: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٦٠ و٦٤]، «أي: أفعل هذه إله مع الله؟! والمعنى: ما فعلها إلا الله»(٣).

وفي هذا تنزيه لله تعالى عن أن يكون معه شريك في العبادة، لكونه تعالى المستقل المتفرد بالخلق والرزق والتدبير، فكيف يكون معه ـ والحالة هذه ـ إله يعبد؟ بل هو المستحق للعبادة وحده(٤).

٢ ـ وقوله تعالى ـ في آية الكرسي ـ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

فـ (من) هنا هي (من) الاستفهامية أشربت معنى النفي(٥).

والمعنى: لا أحد يشفع عنده بدون إذنه له في الشفاعة(٦).

---

(١) انظر: مبحث تسبيح الله تعالى عن العبث في أقواله وأفعاله. (٢/ ٢٣٧) من البحث.
(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٤/ ٦٣، ومغني اللبيب، لابن هشام الأنصاري: ص٢٤، والكليات، لأبي البقاء الكفوي: ص٩٩.
(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٤/ ٦٣.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٣٨٢.
(٥) انظر: مغني اللبيب، لابن هشام الأنصاري (ص٤٣١).
(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ١/ ١٣٦، وتيسير الكريم الرحمن، =

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فنفي الشفاعة بدون إذنه مستلزم لكمال ملكه، إذ كل من شفع إليه شافع بلا إذنه فقبل شفاعته كان منفعلاً عن ذلك الشافع، فقد أثرت شفاعته فيه فصيرته فاعلاً بعد أن لم يكن، وكان ذلك الشافع شريكاً للمشفوع إليه في ذلك الأمر المطلوب بالشفاعة، إذ كانت بدون إذنه، لا سيما والمخلوق إذا شفع إليه بغير إذنه فقبل الشفاعة، فإنما يقبلها لرغبة أو لرهبة: إما من الشافع أو من غيره، وإلا فلو كانت داعيته من تلقاء نفسه تامة مع القدرة لم يحتج إلى شفاعة، والله تعالى منزه عن ذلك كله» اهـ[(١)].

٣ ـ وقوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

«أي: هل تعلم لله مسامياً ومشابهاً ومماثلاً من المخلوقين[(٢)].

وهذا استفهام بمعنى النفي[(٣)]، المعلوم بالعقل، أي: لا تعلم له مسامياً ولا مشابهاً؛ لأنه الرب وغيره مربوب، الخالق وغيره مخلوق، الغني من جميع الوجوه، وغيره فقير بالذات من كل وجه، الكامل الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه، وغيره ناقص ليس فيه من الكمال إلا ما أعطاه الله تعالى، فهذا برهان قاطع على أن الله هو المستحق لإفراده بالعبودية، وأن عبادته حق، وعبادة ما سواه باطل»[(٤)].

فهذه الأمثلة المذكورة ونحوها من جملة ما ورد من النفي في حق الله تعالى للدلالة على تنزيهه سبحانه عما لا يليق بكماله وجلاله وعظمته.

= للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص١١٠.

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٧/١٠٩ ـ ١١٠.

(٢) انظر: مجاز القرآن، لأبي عبيدة: ٢/٩، وتفسير الطبري: ٨/٣٦١ ـ ٣٦٢.

(٣) انظر: مغني اللبيب، لابن هشام الأنصاري: ٤٥٩.

(٤) مقتبس من: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص٤٩٨.

الفصل الثاني

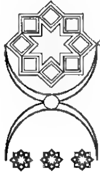
أنواع التسبيح

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: أنواع التسبيح باعتبار معناه

المبحث الثاني: أنواع التسبيح باعتبار صيغه

المبحث الثالث: أنواع التسبيح باعتبار فاعله




المبحث الأول

أنواع التسبيح باعتبار معناه

❐ **توطئة:**

تقرر أن المعنى الأصلي للتسبيح هو: تنزيه الله ﷻ عما لا يليق به في ذاته وأسمائه وصفاته وأقواله وأفعاله.

وهذا المعنى يجمعه أمران عليهما مدار تنزيه الله تعالى:

أحدهما: تنزيه الله تعالى عن النقائص والعيوب.

والآخر: تنزيه الله تعالى عن التمثيل والتشبيه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والتنزيه الذي يستحقه الرب يجمعه نوعان:

أحدهما: نفي النقص عنه.

والثاني: نفي مماثلة شيء من الأشياء فيما يستحقه من صفات الكمال»(١).

وقال الإمام ابن قيم الجوزية ـ وهو يعدد الطرق النقلية الدالة على علو الله تعالى ـ:

«هذا وثامن عشرها تنزيهه   سبحانه عن موجب النقصان

---

(١) منهاج السنة النبوية: ٢/١٨٦ ـ ١٨٧. وانظر أيضاً: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/٣٢٩، و١٦/٩٨، ٣٦٣، و١٧/١٠٨.

وعن العيوب وموجب التمثيل والتّـ شبيه جل الله ذو السلطان»[(١)]

فأشار في هذين البيتين إلى تنزيه الله سبحانه عن النقصان والعيوب، وتنزيهه سبحانه عن التمثيل والتشبيه.

ومن هنا يعرف أن التسبيح يتنوع ـ باعتبار معناه ـ إلى هذين النوعين اللذين جمعا التنزيه الذي يستحقه الله تعالى. وهما نوعان متلازمان، لا يحصل التسبيح على التمام إلا باجتماعهما، ولا يحقق العبد تسبيح الله تعالى ـ وفق معناه الشرعي ـ إلا بمعرفة نوعيه على التفصيل، ومعرفة ما بينهما من التلازم، وذلك هو موضوع هذا المبحث المشتمل على المطالب الثلاثة الآتية:

المطلب الأول: تسبيح الله تعالى عن النقائص.

المطلب الثاني: تسبيح الله تعالى عن التمثيل.

المطلب الثالث: تلازم نوعي التسبيح.

* * *

❖ المطلب الأول ❖

تسبيح الله تعالى عن النقائص

الكلام على هذا النوع في ثلاث مسائل:

المسألة الأولى: التعريف بالنقائص في اللغة:

النقائص: جمع، مفردها: نقيصة، وهي فعيلة من النقص، وتطلق ـ في اللغة ـ على عدة معان[(٢)]:

---

(١) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية (القصيدة النونية): ص١٣٥.

(٢) انظر: جمهرة اللغة، لابن دريد: ٣/ ٨٥، وتهذيب اللغة، للأزهري: ٨/ ٣٧٣، والصحاح، للجوهري: ٣/ ١٠٥٩، ولسان العرب، لابن منظور: =

أحدها: الخصلة الدنيئة في الإنسان.

والثاني: العيب.

والثالث: الضعف.

والرابع: الخسران في الحظ.

والخامس: الوقيعة في الناس، يقال: فلان يتنقص فلاناً، أي: يقع فيه ويثلبه.

ويتبين بهذا أن معاني النقائص ـ في اللغة ـ تدور على الذم وعدم الكمال. كما يتبين أن النقائص والعيوب مترادفتان، فكل نقيصة عيب، وكل عيب نقيصة[1].

المسألة الثانية: التعريف بالنقائص التي يسبح الله تعالى وينزه عنها:

وإذا علم المراد بالنقائص في اللغة، فينبغي أن يعلم أن النقائص التي يتعالى عنها الرب ﷻ، ويسبح عنها وينزه هي: ما يوجب النقص والعيب والذم في حق الله سبحانه، من الأسماء والصفات والأفعال والأقوال. وهو كل ما ينافي ويضاد ما علم من أوصاف الكمال الثابتة لله تعالى في الكتاب والسنة، وكل ما يستلزم تعطيل أسمائه وصفاته عن مقتضياتها وآثارها[2].

= ٧/ ١٠١، والقاموس المحيط، للفيروز آبادي: ص٨١٧، وتاج العروس، للزبيدي: ١٨/ ١٨٨ ـ ١٨٩.

(١) انظر: معارج القبول، للشيخ حافظ الحكمي، بضبط وتعليق عمر بن محمود: ١/ ٧٤.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٦/ ٤٢٥، والتدمرية، له: ص١٣٨، وشفاء العليل، لابن قيم الجوزية: ٢/ ١٢٩، ١٩١، ومدارج السالكين: له: ١/ ٤١٨ ـ ٤١٩، والتوضيح المبين لتوحيد الأنبياء والمرسلين، =

فالنقائص التي يتضمن التسبيح تنزيه الله تعالى عنها تكون إما مناقضة لأسماء الله الحسنى وصفاته العليا الواردة في الكتاب والسنة، وإما مستلزمة تعطيلها عما تقتضيه من الأقوال والأفعال. وكل ما كان كذلك ـ من اسم أو صفة، أو قول أو فعل ـ فالتسبيح يشمله في المعنى نفياً لهذا الجنس، وتنزيهاً لله تعالى عنه؛ لأن هذا الجنس يوجب نقصاً وعيباً وذماً في حقه سبحانه، وهو منزه عن كل نقص وعيب وذم، موصوف بكل كمال وحمد ومدح.

وبيان ذلك: أنه قد علم أن الله تعالى حي، والموت ضد الحياة، فهو منزه عنه، وكذلك النوم والسنة ضد كمال الحياة، فإن الحي اليقظان أكمل من النائم والوسنان، والله ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وعلم أنّه سبحانه وصف نفسه بالعلو[١]، وهو من صفات المدح والكمال والتعظيم له، فلا يوصف بضد العلو، وهو السفول، بل هو منزه عن ذلك.

وعلم أيضاً أنه تعالى (الصمد)، ومن معاني الصمد: المصمت الذي لا جوف له، ولا يأكل ولا يشرب، ولا يخرج منه شيء[٢].

فإن الأكل والشرب ونحو ذلك من الأمور فيه افتقار إلى موجود غيره، كما أن الاستعانة بالغير والاعتضاد به يتضمن الافتقار والاحتياج

= للشيخ عبد الرحمن السعدي، بتصحيح الشيخ محمد بن سليمان آل بسام: ص١٢٥.

(١) انظر: ما سبق بيانه من معاني العلو في حق الله تعالى، في ص(١٢٨ ـ ١٢٩).

(٢) هذا بعض ما جاء عن السلف في معنى اسمه (الصمد). وانظر: تفسير الطبري: ١٢/٧٤١ ـ ٧٤٤، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٧/ ٢١٤ ـ ٢٣٤.

إليه، وكل من يحتاج إلى من يحمله أو يعينه على قيام ذاته، أو أفعاله، فو مفتقر إليه ليس مستغنياً بنفسه، فكيف من يأكل ويشرب؟! والآكل والشارب أجوف، والمصمت الصمد أكمل من الآكل الشارب.

وبهذا يعلم تنزيهه عن الذوق، والكبد، والطحال، ونحو ذلك من آلات الأكل والشرب؛ لأن هذه الآلات لا يوصف بها إلا من يأكل ويشرب، والله الغني المنزه عن الأكل والشرب منزه عن آلات ذلك، بخلاف اليد، فإنها للعمل والفعل، وهو سبحانه موصوف بالعمل والفعل، إذ ذلك من صفات الكمال، فمن يقدر أن يفعل أكمل ممن لا يقدر على الفعل.

وكذلك علم أنه سبحانه مدح نفسه بأنه العظيم، والعليم، والقدير، والعزيز، والحليم، والحكيم، والسميع، والبصير، فعلم أنه منزه عن أضداد هذه الأوصاف، فلا يجوز أن يوصف بضد العظمة وهو الحقارة، ولا بضد العلم وهو الجهل، ولا بضد القدرة وهو العجز، ولا بضد العزة وهو الذل، ولا بضد الحلم وهو السفه، ولا بضد الحكمة وهو العبث، ولا بضد السمع وهو الصمم، ولا بضد البصر وهو العمى، بل هو سبحانه منزه عن هذه النقائص المنافية لصفات الكمال الثابتة له.

ومن هذا الباب أيضاً: أنه سبحانه موصوف بالكلام دون البكم، وبالضحك دون البكاء، وبالفرح دون الحزن، وبالعدل دون الظلم، وبأنه يأمر بالعدل والإحسان، ولا يأمر بالفحشاء والمنكر، ويحب المحسنين، ولا يحب المفسدين، ونحو ذلك مما يطول المقام بذكره دون استيفائه[١].

---

(١) انظر: فيما سبق من الأمثلة: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/٩٣ و١٦/٩٧ ـ ٩٨، والتدمرية، له: ص١٤١ ـ ١٤٤.

وبالجملة، فالنقائص هي أضداد صفات الكمال المعلوم ثبوتها لله تعالى في الكتاب والسنة.

فيتبين بهذا أن حقيقة النقائص التي ينزه عنها الله تعالى راجعة إلى سلب صفات الكمال عنه سبحانه، فمجرد سلب هذه الصفات نقص ينزه الله تعالى عنه، ولهذا قال الإمام ابن قيم الجوزية:

«ما النقص غير السلب حسب وكل نقـ ص أصله سلب وهذا واضح التبيان
فالجهل سلب العلم وهو نقيصة والظلم سلب العدل والإحسان
متنقص الرحمن سالب وصفه حقاً تعالى الله عن نقصان»[١]

المسألة الثالثة: أنواع النقائص.

وإذا تبين أن مسمى النقائص يصدق على أشياء متعددة غير منحصرة، فقد ذكر بعض أهل العلم أن جميع ما ينزه الله تعالى عنه من النقائص والعيوب على نوعين:

النوع الأول: تنزيه الله تعالى عن النقائص المتصلة.

والنقائص المتصلة: هي صفات النقص التي من شأنها أن تكون متصلة بالموصوف بها، قائمة به، غير منفصلة عنه.

ويشمل هذا النوع صفات النص المحضة، كالموت، والجهل، والنسيان، والعجز، والتعب، والكذب، والظلم، والخيانة، والبخل، والخوف، والذل، والافتقار، والقبح، ونحو ذلك من الصفات المجردة عن الكمال.

ويشمل هذا النوع كذلك الكمال النسبي المستلزم للنقص، وهو ما يكون كمالاً بالنسبة إلى المخلوق، ولكنه كمال مستلزم لنقص المخلوق وحاجته، كالأكل والشرب ـ مثلاً ـ، فإن الصحيح الذي يشتهي الأكل

(١) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية (القصيدة النونية): ص٢٢٩.

والشرب من الحيوان أكمل من المريض الذي لا يشتهي الأكل والشرب؛ لأن قوامه بالأكل والشرب، فإذا قدر غير قابل له، كان ناقصاً عن القابل لذلك، لكن الأكل والشرب يستلزمان حاجة الآكل والشارب إلى غيره، وهو ما يدخل فيه من الطعام والشراب، وما لا يحتاج إلى دخول شيء فيه أكمل مما يحتاج إلى ذلك، وما يتوقف كماله على غيره أنقص مما لا يحتاج في كماله إلى غيره.

وبهذا يعلم أن من النقائص التي ينزه الله تعالى عنها ما يكون بالنسبة إلى المخلوق كمالاً، وهو بالنسبة إلى الخالق تعالى نقص؛ لأنه ليس كمالاً محضاً، بل هو كمال مقرون بالنقص والحاجة والافتقار، والرب الخالق منزه عن ذلك.

إذا، ليس كل كمال في المخلوق يجوز أن يكون كمالاً للخالق، كما أنه ليس كل كمال في الخالق ﷻ يعد كمالاً في المخلوق المربوب، فمثلاً: التعالي والتكبر والثناء على النفس كمال محمود من الرب الخالق تبارك وتعالى، وهو نقص مذموم من المخلوق المربوب.

فالله تعالى مستحق للكمال الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه، منزه عن صفات النقص المحضة، وعن الكمال النسبي المستلزم للنقص.

وهذا ما يتعلق بتنزيه الله تعالى عن النقائص المتصلة(١).

النوع الثاني: تنزيه الله تعالى عن النقائص المنفصلة.

والنقائص المنفصلة: هي ما افتراه الجاهلون ونسبوه إلى الله تعالى

---

(١) انظر فيما سبق من الكلام على ذلك ـ: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/٨٧، ١٣٧، وشرح القصيدة النونية، لهراس: ٢/٥٧، وشرح العقيدة الواسطية، للشيخ ابن عثيمين: ١/١٤٣، ١٦٨.

من الأشياء المنفصلة التي توجب نسبتها إلى الله النقص في حقه سبحانه، وليست من قبيل الصفات القائمة بالموصوف.

وذلك مثل: نسبة بعض الجهال الولد، والوالد، والصاحبة إلى الله تعالى. وافتراء بعضهم الشريك، والظهير مع الله تعالى، أو الشفيع بغير إذنه، أو الولي من دونه.

فهذه الأمثلة المذكورة أشياء منفصلة افتراها جهال العباد، وزعموا وجودها، وهي اعتقادات باطلة لا حقيقة لها، ولا تليق بكمال الله ووحدانيته، بل الله تعالى منزه عن هذه الافتراءات كلها.

أما الولد والوالد والصاحبة، فمنفيون عن الله تعالى مطلقاً، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤]، وقال سبحانه: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾﴾ [الجن: ٣].

وأما الشريك والظهير ـ وهو المعاون ـ، فمنفيان أيضاً عن الله تعالى مطلقاً، كما قال ﷻ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [سبأ: ٢٢].

وأما الشفيع بغير إذن الله، فمنفي بقوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣].

ونفى الله تعالى الولي من دونه في قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [البقرة: ١٠٧].

وهذا ما يتعلق بتنزيه الله تعالى عن النقائص المنفصلة.

وفي بيان نوعي النقائص المتصل والمنفصل يقول الإمام ابن قيم الجوزية:

«سلب النقائص والعيوب جميعها ... عنه هما نوعان معقولان
سلب لمتصل ومنفصل هما ... نوعان معروفان أما الثاني
سلب الشريك مع الظهير مع الشـ ... ـفيع بدون إذن المالك الديان
وكذاك سلب الزوج والولد الذي ... نسبوا إليه عابدو الصلبان
وكذاك نفي الكفء أيضاً والولي ... لنا سوى الرحمن ذي الغفران
والأول التنزيه للرحمن عن ... وصف العيوب وكل ذي نقصان
كالموت والإعياء والتعب الذي ... ينفي اقتدار الخالق المنان
والنوم والسنة التي هي أصله ... وعزوب شيء عنه في الأكوان
وكذلك العبث الذي تنفيه حكـ ... ـمته وحمد الله ذي الإتقان
وكذاك ترك الخلق إهمالاً سدى ... لا يبعثون إلى معاد ثان
كلا ولا أمر ولا نهي عليـ ... ـهم من إله قادر ديان
وكذاك ظلم عباده وهو الغني ... فما له والظلم للإنسان
وكذاك غفلته تعالى وهو علا ... م الغيوب فظاهر البطلان
وكذاك النسيان جل إلهنا ... لا يعتريه قط من نسيان
وكذاك حاجته إلى طعم ورز ... ق وهو رزاق بلا حسبان»(١)

❖ المطلب الثاني ❖

تسبيح الله تعالى عن التمثيل

والكلام على هذا النوع في أربع مسائل:

المسألة الأولى: التعريف بالتمثيل في اللغة:

التمثيل: مصدر مثّل يمثّل، وهو تفعيل من المثل.

---

(١) الكافية الشافية (القصيدة النونية) ص٢٣٨ ـ ٢٣٩.

والميم والثاء واللام أصل لغوي صحيح يدل على مشابهة الشيء للشيء، ومناظرته له[(١)].

يقال: هذا مثل هذا، أي: شبهه ونظيره.

ومِثْل، ومَثَل، ومَثِيل: كشِبْه، وشَبَه، وشَبِيه[(٢)].

ويقال: مثّل الشيء بالشيء، أي: سوّاه وشبّهه به، وجعله مثله وعلى مثاله[(٣)]. ومصدر ذلك هو التمثيل.

فالتمثيل إذاً: هو التسوية والتشبيه.

ويقال أيضاً: مثل ـ بالتشديد والتخفيف ـ، أي: صور مثالاً.

والتمثيل: الاسم منه. وظل كل شيء: تمثاله[(٤)].

ومن ذلك حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **«أشد الناس عذاباً يوم القيامة: رجل قتله نبي، أو قتل نبياً، وإمام ضلالة، وممثل من الممثلين»**[(٥)].

فقوله: (وممثل من الممثلين) أي: مصور من المصورين[(٦)].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، لابن فارس: ٥/ ٢٩٦.

(٢) انظر: المصدر السابق، ولسان العرب، لابن منظور: ١١/ ٦١٠.

(٣) انظر: تهذيب اللغة، للأزهري: ١٥/ ٩٨، والنهاية في غريب الحديث، لابن الأثير: ٤/ ٢٩٥، ولسان العرب، لابن المنظور: ١١/ ٦١٣.

(٤) انظر: النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير: ٤/ ٢٩٥.

(٥) أخرجه أحمد في مسنده: ١/ ٤٠٧، بإسناد رجاله ثقات، غير عاصم ـ وهو ابن أبي النجود ـ فإنه صدوق له أوهام، كما في (تقريب التهذيب، لابن حجر: ١/ ٣٦٠)، والحديث حسنه الألباني في صحيح الجامع، برقم (١٠٠٠). وانظر: السلسلة الصحيحة، له: رقم (٢٨١).

(٦) انظر: النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير: ٤/ ٢٩٥.

ويعلم ـ بما سبق ـ أن التمثيل في اللغة يكون بمعنى: التشبيه والتسوية والتصوير.

المسألة الثانية: التعريف بالتمثيل الذي يسبح الله تعالى وينزه عنه:

والتمثيل الذي يسبح الله تعالى عنه وينزه هو: أن يشارك سبحانه المخلوقات في شيء من خصائصها، وأن يشاركه المخلوق في شيء من خصائصه ﷻ[(١)].

فالمشاركة في الخصائص بين الله تعالى ومخلوقاته هي التمثيل الممتنع في حق الله تعالى، وهي التي يكون تنزيه الله تعالى عنها داخلاً في معنى التسبيح.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «التشبيه الذي يجب نفيه عن الرب تعالى: اتصافه بشيء من خصائص المخلوقين، كما أن المخلوق لا يتصف بشيء من خصائص الخالق، وأن يثبت للعبد شيء يماثل فيه الرب» اهـ[(٢)].

وهذا يعني أن كل ما يثبت لله تعالى من الوجود، والأسماء والصفات، والأقوال والأفعال، فهو مختص به، لا يجوز أن يشركه فيه مخلوق، سواء كان ما ثبت له مما لا يثبت منه شيء للمخلوق، كوجوب الوجود، وربوبية العباد، والغنى المطلق، والإلهية، ونحو ذلك، أو كان مما يثبت منه نوع للمخلوق، كالسمع والبصر، والعلم والقدرة، والرضا والغضب، والاستواء، والنزول، فالذي يثبت لله تعالى من هذه المعاني هو أكمل وأعظم مما يثبت من ذلك للمخلوق، بحيث

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ١٢٢، والتدمرية، له: ص٣٩ ـ ٤٠.

(٢) بيان تلبيس الجهمية: ١/ ٥٨٨.

لا يقاربه المخلوق في هذه المعاني فضلاً عن أن يماثله فيها(١).

ومن هنا يعلم أن الاتفاق في بعض الأسماء والصفات بين الخالق ﷻ والمخلوق لا يوجب التمثيل الممتنع في حق الله تعالى، للعلم القطعي أنه سبحانه ليس من جنس المخلوقات، فلا يجوز أن تكون حقيقته كحقيقة شيء من المخلوقات، ولا حقيقة شيء من أسمائه وصفاته كحقيقة شيء من أسماء المخلوقات وصفاتهم(٢).

قال الإمام أبو نصر السجزي(٣): «والأصل الذي يجب أن يعلم: أن اتفاق التسميات لا يوجب اتفاق المسميين بها، فنحن إذا قلنا: إن الله موجود، رؤوف، واحد، حي، عليم، سميع، بصير، متكلم. وقلنا: إن النبي ﷺ كان موجوداً، حياً، عالماً، سميعاً، بصيراً، متكلماً، لم يكن ذلك تشبيها، ولا خالفنا به أحداً من السلف والأئمة، بل الله موجود لم يزل، واحد حي قديم قيوم عالم سميع بصير متكلم فيما لم يزل، ولا يجوز أن يوصف بأضداد هذه الصفات، والموجود منا إنما وجد عن عدم، وحيي بمعنى حله، ثم يصير ميتاً بزوال ذلك المعنى، وعلم بعد أن لم يعلم، وقد ينسى ما علم، وسمع وأبصر وتكلم بجوارح قد تلحقها الآفات، فلم يكن فيما أطلق للخلق تشبيه بما أطلق للخالق ﷻ، وإن اتفقت مسميات هذه الصفات» اهـ(٤).

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ١٣٩ ـ ١٤٠ و١٧/ ٣٢٥.

(٢) انظر: التدمرية، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ص١٤٤ ـ ١٤٥.

(٣) هو عبيد الله بن سعيد بن حاتم بن أحمد الوائلي، أبو نصر، السجزي، الإمام الحافظ المجود، شيخ السنة وعلمها، وصاحب التصانيف المفيدة، ومنها: الإبانة في مسألة القرآن، والرد على من أنكر الحرف والصوت، وغيرهما، وتوفي سنة (٤٤٤هـ)، رحمه الله. انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: ١٧/ ٦٥٤ ـ ٦٥٧، وشذرات الذهب، لابن العماد: ٣/ ٢٧١ ـ ٢٧٢.

(٤) الإبانة في مسألة القرآن، بواسطة درء تعارض العقل والنقل، لشيخ الإسلام =

ومن المعلوم بالضرورة أن بين كل موجودين قدراً مشتركاً وقدراً مميزاً[(١)]، فالقدر المشترك: هو مسمى اللفظ عند الإطلاق[(٢)]، وهو مطلق كلي لا يختص بأحدهما دون الآخر[(٣)]، ولا يوجد في الخارج إلا معيناً مقيداً[(٤)]. والقدر المميز: هو مسمى اللفظ عند التقييد، فإذا قيد اللفظ بأحد المحلين تقيد به[(٥)]، وامتنع اشتراكهما فيما يختص به أحدهما؛ لأن الدال على ما به الاشتراك وحده لا يستلزم ما به الامتياز[(٦)].

ومثال ذلك: اسم العلم، فإنه يستعمل مطلقاً، ويستعمل مضافاً إلى العبد، كقول الله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ﴾ [آل عمران: ١٨]. ويستعمل مضافاً إلى الله تعالى، كقوله سبحانه: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦۖ﴾ [النساء: ١٦٦].

فإذا أضيف العلم إلى المخلوق، اختص به، ولم يصلح أن يدخل فيه علم الخالق سبحانه، ولم يكن علم المخلوق كعلم الخالق.

وإذا أضيف العلم إلى الخالق، اختص به، ولم يصلح أن يدخل فيه علم المخلوقين، ولم يكن علمه تعالى كعلمهم.

= ابن تيمية: ٢/٨٩ ـ ٩٠. وكتاب الإبانة، لأبي نصر السجزي لا أعلمه مطبوعاً.

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/٢٠٢.

(٢) انظر: المصدر السابق، الموضع نفسه.

(٣) انظر: التدمرية، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ص١٢٦.

(٤) انظر: المصدر السابق: ص١٢٨.

(٥) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/٢٠٢.

(٦) انظر: المصدر السابق، الموضع نفسه.

وإذا قيل: العلم مطلقاً، أمكن تقسيمه، فيقال: العلم ينقسم إلى العلم القديم الأزلي، والعلم المحدث، فلفظ العلم عام فيهما متناول لهما بطريق الحقيقة(١).

ولهذا سمى الله تعالى نفسه بأسماء، وسمى صفاته بأسماء، فكانت تلك الأسماء مختصة به إذا أضيفت إليه، لا يشركه فيها غيره، وسمى بعض مخلوقاته بأسماء مختصة بهم مضافة إليهم، توافق تلك الأسماء التي سمى بها نفسه المقدسة إذا قطعت عن الإضافة والتخصيص(٢) ولم يلزم من هذه الموافقة في الأسماء المماثلة في الخصائص والحقائق(٣)، وإنما دلت الموافقة على أن بين المسميين قدراً مشتركاً فقط(٤)، وليس في ذلك ما يدل على شيء من خصائص المخلوقين، كما لا يدل على شيء من خصائص الخالق(٥). وكل ما يثبت لله تعالى من الأسماء والصفات دال على القدر المشترك الذي تتوافق فيه المسميات(٦)؛ لأن أسماء الله وصفاته تعالى غيب، والغيب لا يفهم إن لم يعبر عنه بالأسماء المعلومة معانيها في الشاهد، ويعلم بها ما في الغائب بواسطة العلم بما في الشاهد، مع العلم بالفارق المميز، وأن ما اختص الله تعالى به، وامتاز عن خلقه أعظم ممّا يخطر بالبال، أو يدور في الخيال(٧).

ومن هنا كانت أسماء الله وصفاته تعالى معلومة باعتبار معانيها

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/ ٢٠٠.
(٢) انظر: التدمرية، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ص٢١.
(٣) انظر: المصدر السابق، الموضع نفسه.
(٤) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/ ٢٠٢.
(٥) انظر: التدمرية: ص١٢٦.
(٦) انظر: المصدر السابق: ص٤٢.
(٧) انظر: التدمرية: ص٤٣، ٩٧.

التي دلت عليها ظواهر ألفاظها، ومجهولة باعتبار كيفياتها التي هي عليها[١]، والتي بها باين الله تعالى مخلوقاته وامتاز عنهم.

وبهذا يتبين أن المماثلة فيما هو مستحق لله تعالى من الكمال، وأن يشركه شيء من الأشياء فيما هو من خصائص هو حقيقة التمثيل الذي دل التسبيح وسائر أدلة الكتاب والسنة على أنه سبحانه منزه عنه.

فمن جوز على الله تعالى أن يتصف بخصائص المخلوقين، أو جوز على المخلوق أن يتصف بشيء من خصائص الله تعالى، فقد وقع في التمثيل الممنوع شرعاً وعقلاً.

ومن أثبت لله تعالى الأسماء والصفات كما يليق بكماله وجلاله وعظمته، ونفى عنه خصائص المخلوقين، وأفرده بالربوبية والألوهية، فقد حقق التوحيد المطلوب شرعاً وعقلاً.

وإنما احتاج التعريف بالتمثيل إلى شيء من البسط؛ لأنه مقام غلط فيه كثير من أهل الكلام، مما أدى بهم إلى الخطأ والضلال في توحيد الله تعالى[٢].

وللإمام ابن قيم الجوزية كلام جامع في هذا الباب، بين فيه أن الأسماء والصفات التي تطلق على الله تعالى وعلى العباد، كالحي والسميع والبصير والعليم والقدير والملك ونحوها، لها ثلاثة اعتبارات:

الاعتبار الأول: اعتبارها من حيث هي، مع قطع النظر عن تقييدها، بالرب تعالى أو بالعبد.

---

(١) انظر: القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى، للشيخ ابن عثيمين: ص٤٣.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٠٦/٥، والتدمرية، له: ص١٢٧.

الاعتبار الثاني: اعتبارها مضافة إلى الرب تعالى مختصة به.

الاعتبار الثالث: اعتبارها مضافة إلى العبد مقيدة به.

فما لزم الاسم أو الصفة من هذا النوع لذاته وحقيقته كان ثابتاً للرب والعبد، وللرب منه ما يليق بكماله، وللعبد منه ما يليق به. وهذا كاسم (السميع) الذي يلزمه إدراك المسموعات، و(البصير) الذي يلزمه رؤية المبصرات، والعليم والقدير وسائر الأسماء، فإن شرط صحة إطلاقها حصول معانيها وحقائقها للموصوف بها، فما لزم هذه الأسماء والصفات لذاتها، فإثباته للرب تعالى لا محذور فيه بوجه، بل تثبت له على وجه لا يماثله فيه خلقه، فمن نفاه عنه لأجل أنه يطلق على المخلوق، فقد ألحد في أسمائه، وجحد صفات كماله. ومن أثبته له على وجه يماثل فيه خلقه، فقد مثله بخلقه. ومن أثبته له على وجه لا يماثل فيه خلقه، بل كما يليق بجلاله وعظمته، فقد برئ من التعطيل والتمثيل، وهذا طريق أهل السنة والجماعة.

وما لزم الاسم أو الصفة لإضافته إلى العبد، وجب نفيه عن الله تعالى، كما يلزم حياة العبد من النوم والسنة والحاجة إلى الغذاء ونحو ذلك. وكذلك ما يلزم إرادته من حركة نفسه في جلب ما ينتفع به ودفع ما يتضرر به. وكذلك ما يلزم علوه من احتياجه إلى ما هو عال عليه، وكونه محمولاً به مفتقراً إليه محاطاً به. كل هذا يجب نفيه عن الله تعالى.

وما لزم الاسم أو الصفة من جهة اختصاص الله تعالى به، فإنه لا يثبت للمخلوق بوجه، كعلمه تعالى الذي يلزمه القدم والوجوب والإحاطة بكل معلوم، وقدرته وإرادته وسائر صفاته، فإن ما يختص به منها لا يمكن إثباته للمخلوق[1].

---

(١) بدائع الفوائد: ١/ ١٨١ ـ ١٨٢، بتصرف.

قال ابن القيم: «فإذا أحطت بهذه القاعدة خبراً، وعقلتها كما ينبغي، خلصت من الآفتين اللتين هما أصل بلاء المتكلمين: آفة التعطيل، وآفة التشبيه، فإنك إذا وفيت هذا المقام حقه من التصور، أثبت لله الأسماء الحسنى والصفات العلى حقيقة، فخلصت من التعطيل، ونفيت عنها خصائص المخلوقين ومشابهتهم، فخلصت من التشبيه. فتدبر هذا الموضع، واجعله جنتك التي ترجع إليها في هذا الباب، والله الموفق للصواب» اهـ[1].

المسألة الثالثة: الفرق بين التمثيل والتشبيه:

التشبيه ـ من حيث اللغة كالتمثيل وزنا ومعنى، كما سبق في التعريف بالتمثيل في اللغة.

وقال الإمام أبو القاسم التيمي الأصبهاني: «وأما التشبيه: فهو مصدر شبه، يشبه، تشبيهاً. يقال: شبهت الشيء بالشيء، أي: مثلته به، وقسته عليه، إما بذاته، أو بصفاته أو بأفعاله. قال أهل اللغة: أشبه الشيء الشيء، وشابهه، أي صار مثله. وهذا الشيء شبه هذا، وشبيهه، وشبهه، ومشابهه» اهـ[2].

ووقع في كلام بعض أئمة السلف استعمال التشبيه بمعنى التمثيل الذي يجب تنزيه الله تعالى عنه[3]، كقول الإمام نعيم بن حماد الخزاعي[4]: «من

(١) المصدر السابق: ١/ ١٨٢. (٢) الحجة في بيان المحجة: ١/ ٣٠٦.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٤/ ١٥٣.

(٤) هو نعيم بن حماد بن معاوية بن الحارث الخزاعي، أبو عبد الله، المروزي، الفرضي، الإمام العلامة الحافظ، يقال: إنه أول من جمع المسند في الحديث، وكان شديد الرد على الجهمية وأهل الأهواء، وتوفي سنة (٢٢٨هـ)، رَحِمَهُ اللهُ. انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي: ٢/ ٤١٨ ـ ٤٢٠، وتهذيب التهذيب، لابن حجر: ١٠/ ٤٥٨.

شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس ما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيهاً» اهـ[(١)].

وظاهر هذا كله أن التمثيل والتشبيه سيان في اللغة وفي باب العقيدة.

وذكر بعض أهل العلم أنه قد يفرق بينهما: بأن التمثيل هو التسوية في كل الصفات، فيقتضي المساواة من كل وجه.

والتشبيه هو التسوية في أكثر الصفات، فيقتضي المساواة من بعض الوجوه لا من كل وجه[(٢)].

ومهما قيل من التسوية بين التمثيل والتشبيه في المعنى، أو التفريق بينهما، فإن التعبير بنفي التمثيل في حق الله تعالى أولى من التعبير بنفي التشبيه، لوجوه ثلاثة[(٣)]:

الوجه الأول: أن التمثيل هو الذي ورد نفيه في القرآن الكريم، كما قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وقد ورد في القرآن الكريم أيضاً نفي التمثيل عن الله تعالى بلفظ (الند)، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]. قال الإمام ابن جرير الطبري: «والأنداد: جمع ند، والند: العدل والمثل»[(٤)].

---

(١) رواه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، تحقيق الدكتور أحمد سعد حمدان: برقم (٩٣٦)، وهو صحيح. انظر: مختصر العلو، للشيخ الألباني: ص١٨٤، برقم (٢١٧).

(٢) انظر: القواعد المثلى، للشيخ ابن عثيمين: ص٣٦، وفتح رب البرية بتلخيص الحموية، له: ضمن القواعد الطيبات في الأسماء والصفات: ص١٠٧.

(٣) انظر: القول المفيد على كتاب التوحيد، للشيخ ابن عثيمين: ٩٦/٣.

(٤) تفسير الطبري: ١٩٨/١.

وبلفظ (السمي)، كما قال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، وتقدم بيان معنى هذه الآية عند الكلام على النفي الوارد في حق الله تعالى[١].

وبلفظ (الكفؤ)، كما قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ٤]، وتقدم بيان معنى ذلك أيضاً[٢].

وأما لفظ (التشبيه)، فلم يرد في الكتاب ولا في السنة نفيه في حق الله تعالى، فكان التعبير بالألفاظ الشرعية في هذا الباب أولى من التعبير بلفظ ليس في كتاب الله تعالى ولا في سنة رسوله ﷺ[٣].

والوجه الثاني: «أنه ما من شيئين موجودين إلا وبينهما تشابه من بعض الوجوه، واشتراك في المعنى من بعض الوجوه»[٤]، كما سبق بيانه قريباً في المسألة الثانية.

وهذا التشابه من بعض الوجوه أو الاشتراك في المعنى من بعض الوجوه لا يصح نفيه مطلقاً، كما يصح نفي التمثيل مطلقاً؛ لأن ذلك يفضي إلى التعطيل التام، وهو تعطيل وجود كل موجود[٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأما التشبيه ـ في اللغة ـ فإنه قد يقال بدون التماثل في شيء من الحقيقة، كما يقال للصورة المرسومة في الحائط: إنها تشبه الحيوان. ويقال: هذا يشبه هذا في كذا وكذا، وإن كانت الحقيقتان مختلفتين.

---

(١) انظر: ص١٤٤. (٢) انظر: ص١٣٩.
(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٣/١٦٦.
(٤) مقتبس من: القول المفيد على كتاب التوحيد، للشيخ ابن عثيمين: ٣/٩٦ ـ ٩٧.
(٥) انظر: التدمرية، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ص١٢٦، ١٢٧، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٣/٩٩.

ولهذا كان أئمة أهل السنة ومحققو أهل الكلام يمنعون من أن يقال: لا يشبه الأشياء بوجه من الوجوه، فإن مقتضى هذا كونه معدوماً، ومنهم طوائف يطلقون هذا، لكن من هؤلاء من يريد بنفي التشابه: نفي التماثل، فلا يكون بينهما خلاف معنوي، إذ هم متفقون على نفي التماثل بوجه من الوجوه، كما دل على ذلك القرآن» اهـ(١).

الوجه الثالث: أن لفظ (التشبيه) قد دخله الإجمال والاشتراك بسبب اختلاف الاصطلاحات فيه، فقد يراد به التمثيل الذي دل الكتاب والسنة على نفيه عن الله تعالى، كما وقع في كلام بعض علماء أهل السنة والجماعة. وقد يراد به نفي الحق الذي دل الكتاب والسنة على إثباته في حق الله تعالى، كما يقع كثيراً في كلام أهل البدع والأهواء الذين يجعلون إثبات صفات الله تعالى أو بعضها تشبيهاً، ويسمون كل من أثبت لله تعالى ما يستحقه من صفات الكمال مشبهاً(٢).

ولهذا صار استعمال هذا اللفظ موهماً، بخلاف لفظ (التمثيل) الذي دل عليه القرآن ونفى موجبه عن الله ﷻ(٣).

المسألة الرابعة: أنواع التمثيل:

والتمثيل الممتنع على الله تعالى نوعان(٤):

---

(١) بيان تلبيس الجهمية: ١/ ٤٧٧.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٤/ ١٥٠، وبيان تلبيس الجهمية: ١/ ١٠٩، ٤٧٦ - ٤٧٧، والتدمرية، له: ص١١٧، وشرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الدمشقي: ١/ ٥٧، والقول المفيد على كتاب التوحيد، للشيخ ابن عثيمين: ٣/ ٩٧.

(٣) انظر: بيان تلبيس الجهمية، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ١/ ١٠٩.

(٤) انظر: شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز: ١/ ٢٥٩، وطريق الوصول إلى العلم المأمول، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص٢٢٧، والتنبيهات السنية =

النوع الأول: تمثيل الخالق بالمخلوق.

وهو أن يثبت لله تعالى في ذاته أو صفاته أو أفعاله من الخصائص على حد ما يثبت للمخلوق من ذلك[(١)].

كمن قال: لله تعالى علم كعلم المخلوق، أو قوة كقوة المخلوق، أو حب كحب المخلوق، أو يدان كيدي المخلوق، أو استواء كاستواء المخلوق، أو نحو ذلك[(٢)].

وهذا النوع من التمثيل ممتنع على الله تعالى، لامتناع مشاركته المخلوقات في شيء من خصائصها، كما سبق بيانه، سواء كانت تلك الخاصة شاملة لجميع المخلوقات أو مختصة ببعضها[(٣)].

ولهذا لما كان الله سبحانه موصوفاً بأن له يدين، وصفت كلتا يديه باليمين، دفعا لتوهم النقص عن يده الأخرى، كما هي الحال في أيدي المخلوقين، فإن يسار أحدهم أنقص من يمينه في القوة والفعل[(٤)].

ومما جاء في إثبات اليدين لله تعالى ووصفهما باليمين:

١ ـ حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل، وكلتا يديه يمين: الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا»**[(٥)].

= على العقيدة الواسطية، للشيخ عبد العزيز الناصر الرشيد: ص٢٥، والكواشف الجلية، للشيخ عبد العزيز السلمان: ص٨٩.

(١) انظر: فتح رب البرية، للشيخ ابن عثيمين ـ ضمن القواعد الطيبات ـ: ١٠٩.

(٢) انظر: التدمرية، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ص٣٠، والمصدر السابق قبله.

(٣) انظر: درء تعارض العقل والنقل، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٤/ ١٤٤.

(٤) تأويل مختلف الحديث، لابن قتيبة، تحقيق عبد القادر أحمد عطا: ص١٩٠.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه: ٣/ ١٤٥٨، برقم (١٨٢٧).

٢ ـ وحديث أبي هريرة رضي الله عنه في خلق آدم عليه السلام، وفيه أنه قال: **«اخترت يمين ربي وكلتا يدي ربي يمين مباركة»**(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وقد جاء ذكر اليدين في عدة أحاديث ويذكر فيها أن كلتيهما يمين، مع تفضيل اليمين. قال غير واحد من العلماء: لما كانت صفات المخلوقين متضمنة للنقص، فكانت يسار أحدهم ناقصة في القوة، ناقصة في الفعل، بحيث تفعل بمياسرها كل ما يذم ـ كما يباشر بيده اليسرى النجاسات والأقذار ـ بين النبي صلى الله عليه وسلم أن كلتا يمين الرب مباركة، ليس فيها نقص ولا عيب بوجه من الوجوه، كما في صفات المخلوقين، مع أن اليمين أفضلهما» اهـ(٢).

وكذا لما كان الله سبحانه موصوفاً بالنزول ـ كما ثبت في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **«ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له»**(٣) ـ، لم يكن نزوله كنزول المخلوقين، لا نزول الآدميين ولا غيرهم، «فالمخلوق إذا نزل من علو إلى أسفل زال وصفه بالعلو، وتبدل إلى وصفه بالسفول،

---

(١) جزء من حديث طويل أخرجه الترمذي في سننه: ٥/ ٤٢٢ ـ ٤٢٣، برقم (٣٣٦٨)، والحاكم في المستدرك: ١/ ١٣٢ ـ ١٣٣، برقم (٢١٤)، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه»، وذكر له طريقاً أخرى. وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم»، وذكر له طريقاً أخرى أيضاً، ووافقه الذهبي على تصحيح الحديث، وقد صححه الألباني أيضاً في صحيح الجامع، برقم (٥٢٠٩). وانظر: السنة، لابن أبي عاصم، ومعه ظلال الجنة، للألباني: ص٩١، برقم (٢٠٦).

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٧/ ٩٢ ـ ٩٣.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٣/ ٢٩، برقم (١١٤٥)، ومسلم في صحيحه: ١/ ٥٢١ ـ ٥٢٣، برقم (٧٥٨).

وصار غيره أعلى منه. والرب تعالى لا يكون شيء أعلى منه قط، بل هو العلي الأعلى، ولا يزال هو العلي الأعلى مع أنه يقرب إلى عباده ويدنو منهم، وينزل إلى حيث شاء، ويأتي كما شاء، وهو في ذلك العلي الأعلى، الكبير المتعالي، علي في دنوه، قريب في علوه.

فهذا وإن لم يتصف به غيره، فلعجز المخلوق أن يجمع بين هذا وهذا، كما يعجز أن يكون هو الأول والآخر، والظاهر والباطن»[(١)].

فتمثيل الخالق بالمخلوق جهل عظيم بعظمة الخالق ﷻ وبما لا يليق أن يتصف به من خصائص المخلوقين.

النوع الثاني: تمثيل المخلوق بالخالق.

وهو إثبات شيء للمخلوق مما يختص به الخالق، من الأسماء والصفات، والأفعال، والحقوق[(٢)].

فتمثيل المخلوق بالخالق في الأسماء والصفات: هو أن يسمى المخلوق أو يوصف بما لا يصلح إلا للخالق سبحانه، وهذا يقع أحياناً ممن يغلو في مدح بعض المخلوقين، كما قال أبو الطيب المتنبي[(٣)] يمدح أحد الأعيان ـ:

«فكن كما أنت يا من لا شبيه له   أو كيف شئت فما خلق يدانيكا»[(٤)]

---

(١) مقتبس من: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٦/ ٤٢٤.

(٢) انظر: فتح رب البرية، للشيخ ابن عثيمين ـ ضمن القواعد الطيبات ـ: ص١٠٨.

(٣) هو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الله الجعفي، أبو الطيب، الكوفي، الشاعر الأديب الشهير بالمتنبي، ولد سنة (٣٠٣هـ) وقيل: (٣٠٦هـ)، وطلب الأدب حتى فاق أهل زمانه فيه، وبلغ الذروة في النظم، وله ديوان شعر سار في الآفاق، وتوفي سنة (٣٥٤هـ). انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: ١٦/ ١٩٩ ـ ٢٠١، والبداية والنهاية، لابن كثير: ١١/ ٢٧٣ ـ ٢٧٦.

(٤) البيت في (ديوان أبي الطيب المتنبي) ـ بشرح أبي البقاء العكبري ـ، ضبط =

فإن هذا القول لا يصلح أن يقال لمخلوق؛ لأن الله وحده هو الموصوف بأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وأنه لا يدانيه شيء في كماله.

وتمثيل المخلوق بالخالق في الأفعال: هو الشرك في توحيد الربوبية؛ لأن توحيد الربوبية: هو توحيد الله تعالى بأفعاله، كالخلق والرزق والإحياء والإماتة وتدبير الكون.

فمن زعم أن لغير الله تعالى شيئاً من هذه الأفعال ونحوها مما لا يقدر عليه أحد إلا الله، فقد مثل المخلوق بالخالق في الفعل، وأشرك مع الله في الربوبية.

وتمثيل المخلوق بالخالق في الحقوق: هو الشرك في توحيد الألوهية؛ لأن الحقوق: هي العبادات التي يجب إخلاصها لله تعالى وعدم صرفها لغيره، كالدعاء، والسجود، والخوف، والرجاء، والصوم، والحج، والصدقة، والذبح، والتوبة، والإنابة، ونحوها. فمن صرف منها شيئاً لمخلوق، فقد مثله بالخالق الذي لا يستحق العبادة أحد سواه.

وقد وقع أبو الطيب المتنبي في هذا التمثيل أيضاً، حين قال ـ يخاطب أحد ممدوحيه ـ:

«يا من ألوذ به فيما أؤمله ... ومن أعوذ به مما أحاذره
لا يجبر الناس عظما أنت كاسره ... ولا يهيضون عظما أنت جابره»(١)

قال الحافظ ابن كثير ـ بعد إيراد هذين البيتين للمتنبي ـ: «وقد

= وتصحيح مصطفى السقا، وآخرين: ٢/ ٣٧٩، ضمن أبيات يمدح بها عبد الله بن يحيى البحتري.

(١) في (ديوانه): ٢/ ٢٢٥، ضمن أبيات يمدح بها جعفر بن كيغلغ.

بلغني عن شيخنا العلامة، شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ أنه كان ينكر على المتنبي هذه المبالغة في مخلوق، ويقول إنما يصلح هذا لجناب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وأخبرني العلامة شمس الدين ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ أنه سمع الشيخ تقي الدين المذكور يقول: ربما قلت هذين البيتين في السجود أدعو الله بما تضمناه من الذل والخضوع» اهـ[1].

وذلك لأن البيت الأول تضمن الدعاء واللياذ والعياذ، فاللياذ: يكون لطلب جلب الخير، والعياذ: لطلب دفع الشر[2].

والبيت الثاني تضمن وصف الممدوح بالقدرة النافذة على قدرات الناس. ولا يصلح شيء مما ذكر للمخلوق، بل ذلك كله مما يختص به الخالق جَلَّ وَعَلَا.

وكذلك وقع البوصيري[3] ـ صاحب قصيدة البردة، في مدح النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ في كثير من المبالغات التي فيها تمثيل المخلوق بالخالق، كقوله:

«يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم
ولن يضيق ـ رسول الله ـ جاهك بي ... إذا الكريم تحلى باسم منتقم
فإن من جودك الدنيا وضرتها ... ومن علومك علم اللوح والقلم»[4]

---

(١) البداية والنهاية: ١١/ ٢٧٥.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ١/ ١٦.

(٣) هو محمد بن سعيد بن حماد الصنهاجي الدلاصي، شرف الدين، أبو عبد الله، البوصيري. ولد سنة (٦٠٨هـ)، وكان صوفياً من أهل الطرق، نظم قصائد في مدح النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأشهرها: الكواكب الدرية في مدح خير البرية، وهي المعروفة بقصيدة البردة، وتوفي سنة (٦٩٤هـ). انظر: معجم المؤلفين، لعمر رضا كحالة: ٣/ ٣١٧ ـ ٣١٨.

(٤) قصيدة البردة ـ ضمن مجموع مهمات المتون ـ: ص٦٣.

فقد اشتملت هذه الأبيات على تمثيل المخلوق بالخالق في الألوهية، والربوبية، والصفات.

فالبيت الأول فيه دعاء المخلوق واللياذ به عند الشدائد، وهذا شرك في العبادة.

وقوله: «فإن من جودك الدنيا وضرتها» يعني: أن الدنيا والآخرة من جود رسول الله ﷺ، وهذا شرك في الربوبية.

وقوله: «ومن علومك علم اللوح والقلم» لم يبق شيئاً من علم الغيب والشهادة إلا وجعله من علم الرسول ﷺ، وهذا شرك في الصفات، فإن الله وحده الذي عنده علم اللوح والقلم، وأما المخلوق، فكما قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى ـ لنبيه ﷺ ـ: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ۝٥٠﴾ [الأنعام: ٥٠].

ولو تأمّل إنسان هذه الآية لوجدها رداً تامّاً على الأبيات المذكورة، وسبحان الله وتعالى عن أن يكون المخلوق مماثلاً له في شيء من الخصائص والحقوق.

وقد تقاسمت اليهود والنصارى نوعي التمثيل: فاليهود تشبّه الخالق بالمخلوق في صفات النقص، والنصارى تشبّه المخلوق بالخالق في صفات الكمال، ولهذا أنكر القرآن على كلّ من الطائفتين ما وقعت فيه من ذلك[1].

ووقعت طوائف من بني آدم في هذين النوعين من التمثيل، غير أنّ تمثيل المخلوق بالخالق هو الواقع في الأمم كثيراً، وهو أصل شرك

---

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٧/ ٩٥.

العالم وعبادة الأصنام[١]، «فكل من جعل مخلوقاً مثلاً للخالق في شيء من الأشياء، فأحبّه مثل ما يحب الخالق، أو وصفه بمثل ما يوصف به الخالق فهو مشرك، سوّى بين الله وبين المخلوق في شيء من الأشياء، فعدل بربّه»[٢]، والله تعالى منزَّه عن ذلك، فلا مثل له، ولا شريك له، ولا إله غيره.

❖ المطلب الثالث ❖

تلازم نوعي التسبيح

وينبغي أن يُعلم أنَّ تنوّع التسبيح من حيث المعنى إلى تسبيح الله تعالى عن النقائص والعيوب، وتسبيحه عن التمثيل والتشبيه، لا يعني تباين هذين النوعين، بل هما نوعان متلازمان، وإذا ورد التسبيح في الكلام مجملاً تناولهما معاً، وإن كان عند التفصيل قد يختص بأحدهما.

ومعرفة ما بين نوعي التسبيح من التلازم مهمّة في باب تنزيه الله تعالى عمّا لا يليق به، وبيان ذلك كما يلي:

أولاً: أن هذين النوعين جمعا التنزيه الذي يستحقّه الله تعالى وفق ما دلّ عليه الكتاب والسنة، فإنّ النصوص الشرعيّة واردة بتنزيهه سبحانه عن النقائص والعيوب، وبتنزيهه ﷻ عن التمثيل والتشبيه، فلا يكون تنزيه الله تعالى على مقتضى الشرع إلا بالجمع بين النوعين.

ولهذا بيَّن شيخ الإسلام ابن تيمية أنّه «كما يجب تنزيه الربّ عن كلّ نقص وعيب، يجب تنزيهه عن أن يماثله شيء من المخلوقات في

---

(١) انظر: إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، لابن قيم الجوزية، تحقيق خالد عبد اللطيف السبع العلمي: ٢/ ٢٧٥.

(٢) مقتبس من: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٣/ ١٦٣.

شيء من صفات الكمال الثابتة له» قال: «وهذان النوعان يجمعان التنزيه الواجب لله» اهـ[١].

ثانياً: أنه لا يكفي ـ في باب تنزيه الله تعالى ـ مجرّد نفي التمثيل أو التشبيه بمعزل عن نفي النقائص والعيوب، إذ لو كان مجرّد نفي التشبيه كافياً، لجاز أن يوصف الله تعالى بما هو ممتنع عليه من النقائص والعيوب مع نفي التشبيه عنه، كما لو وصف الله تعالى مفتر عليه بالبكاء والحزن والجوع والعطش مع نفي التشبيه، ويزعم أنّ هذه الصفات تجوز على الله سبحانه كما يليق بشأنه.

وكما لو قال المفتري: إنّه تعالى يأكل لا كأكل العباد، ويشرب لا كشربهم، ويتعب لا كتعبهم، ونحو ذلك مما يتعالى الله ﷻ عنه.

فهذه الصفات المذكورة ونحوها من النقائص ممتنعة على الله ﷻ؛ لأنّها مناقضة لما علم من صفاته الكاملة، فلا ينبغي أن يوصف بشيء منها، ولا ينبغي أن يقال ـ في شيء منها ـ: إنّه يجوز عليه كما يليق بشأنه؛ لأنّ هذا الجنس يوجب نقصاً في كماله[٢]، كما سبق بيانه في معنى النقائص التي يُسبَّح الله تعالى عنها ويُنَزَّه[٣].

فالاعتماد على مجرّد نفي التشبيه فيما يُنفى عن الرّبّ تعالى ويُنَزَّه عنه ـ كما يفعله كثير من المتكلّمين ـ خطأ كبير في باب التنزيه[٤]، بل لا بدّ في هذا الباب من الاعتماد على نفي النقائص والعيوب، مع نفي التمثيل والتشبيه، كما سبق بيانه.

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٧/ ٣٢٥.
(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٦/ ٤٢٥، والتدمرية، له: ص١٣٦ ـ ١٣٧.
(٣) انظر: ص١٤٩.
(٤) انظر: التدمرية: ص١٢٤، ١٣١، وإغاثة اللهفان، لابن القيم: ٢/ ٢٧٦.

ثالثاً: أنّ تسبيح الله تعالى عن التمثيل والتشبيه ما هو في الحقيقة إلّا تنزيه له عن النقص؛ لأنّ التمثيل ـ كما سبق التعريف به ـ: هو مشاركة الخالق تعالى المخلوقين في خصائصهم، أو مشاركة المخلوقين الخالق في خصائصه[1]، وكلّ ما اختصّ به المخلوق فهو من النقائص التي يجب تنزيه الخالق سبحانه عنها[2]؛ لأنّ مشابهة الناقص في صفات النقص نقص مطلق[3]، كما أنّ اعتقاد مشاركة المخلوق للخالق في شيء من خصائصه تنقيص للخالق سبحانه؛ لأنّ الاشتراك نقص بكلّ من المشتركين، وليس الكمال المطلق إلّا في الوحدانية[4].

وبهذا يكون مفهوم التمثيل ـ عند التحقيق ـ داخلاً في مفهوم النقائص التي يُسبَّح الله تعالى تنزيهاً له عنها.

ولهذا قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ في بيان ما يقتضي النقص في حقّ الله تعالى ـ:

«النقص في أمرين سلب كماله ... أو شِرْكةٍ بالواحد الرحمن»[5]

فبيّن أنّ النقص في حق الله تعالى يرجع إلى أمرين: إمّا سلب كماله، وهو نفي صفاته، وإمّا اعتقاد شركة فيه سبحانه، وهو التمثيل[6].

وهذا يؤكّد ما سبق بيانه من أنّ مجرد نفي التشبيه لا يفيد في

---

(١) انظر: ص١٥٦

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٧/ ٣٢٥.

(٣) انظر: التدمرية، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ص١٤١.

(٤) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ١٢٥ و١٧/ ١٤٥.

(٥) الكافية الشافية (القصيدة النونية): ص٢٢٩.

(٦) انظر: توضيح الكافية الشافية، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص١١٢، وشرح القصيدة النونية، للشيخ محمد خليل هراس: ٢/ ٣٨.

باب التنزيه ما لم يكن الاعتماد فيه على نفي النقص والعيب عن الله تعالى.

كما يتبيّن بهذا أنّ ما لا يقتضي النقص ولا يستلزمه في حقّ الله تعالى لا يتناوله مفهوم التمثيل أو التشبيه الذي يجب نفيه عن الله تعالى، وهذه النكتة خفيت على كثير من أهل الكلام مما أوقعهم في اضطراب وغلط كبير في باب الصفات.

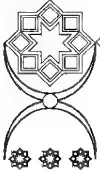
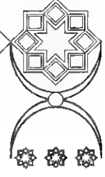
رابعاً: أنّ هذين النوعين بهما يتحقّق إفراد الله تعالى بالكمال المطلق، فإنّ تسبيح الله عن النقائص والعيوب يستلزم ثبوت الكمال له، وتسبيحه عن التمثيل والتشبيه يقتضي وحدانيّته، وهو من تمام الكمال، فإنّ ما له نظير قد انقسمت صفات الكمال وأفعال الكمال فيه وفي نظيره، فحصل له بعض الكمال لا كلّه، فالمنفرد بجميع صفات الكمال وأفعال الكمال أكمل ممّن له شريك يقاسمه إيّاها(١).

فمن أثبت لله تعالى صفات الكمال، ونفى عنه النقائص والتمثيل، فقد أفرده بالكمال المطلق الذي لا يشركه فيه شيء من الأشياء.

وهكذا يتبيّن تلازم نوعي التسبيح، وأنّ تنزيه الله تعالى لا يتمّ على الوجه الصحيح إلّا بهما، وبالله التوفيق.

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٧/ ١٤٤.

المبحث الثاني

أنواع التسبيح باعتبار صيغه

❑ **توطئة:**

المتتبع للفظ التسبيح في موارده في الكتاب والسنة يجد أنه ورد بصيغ متنوعة، فتارة يرد التسبيح في الكلام مفرداً، أي: مجرّدًا عن غيره من ألفاظ الذكر والثناء على الله تعالى، وتارة يرد التسبيح في الكلام مقروناً ببعض ألفاظ الذكر الأخرى، كالتحميد والتهليل والتكبير، ونحو ذلك كالاستغفار والدعاء.

ولا شك أن ورود التسبيح بهذه الصيغ المتنوعة له دلالات بليغة في مقام تنزيه الله تعالى وتعظيمه تجدر العناية بتدبرها وتفهم مقاصدها، لما في ذلك من مزيد المعرفة بأسرار التسبيح في الكتاب والسنة.

وفي هذا المبحث بيان لأنواع التسبيح باعتبار صيغه المتنوعة في الكتاب والسنة، وذلك في مطلبين:

المطلب الأول: صيغة الإفراد في التسبيح.

المطلب الثاني: صيغة القران في التسبيح.

* * *

❖ المطلب الأول ❖

صيغة الإفراد في التسبيح

ورد التسبيح في مواضع من الكتاب والسنة مفرداً غير مقرون بلفظ آخر من ألفاظ التعظيم والثناء على الله تعالى، وورود التسبيح بهذه الصورة هو المعني بصيغة الإفراد هنا.

وتبلغ المواضع التي ورد فيها التسبيح بصيغة الإفراد في كتاب الله تعالى ستة عشر موضعاً، وهي:

١ ـ قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [البقرة: ١١٦].

وهذه الآية في تنزيه الله تعالى عن اتخاذ الولد، والرد على من ادعى الولد لله تعالى، وقد ذكر فيها التسبيح مفرداً في قوله تعالى: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ﴾، وهو نص صريح في تنزيه الله ﷻ وتسبيحه عما قالوا[(١)].

قال أبو حيان الأندلسي[(٢)] ـ في تفسير هذه الآية ـ: «ولما كانت هذه المقالة من أفسد الأشياء وأوضحها في الاستحالة، أتى باللفظ الذي يقتضي التنزيه والبراءة من الأشياء التي لا تجوز على الله تعالى قبل أن يضرب عن مقالتهم ويستدل على بطلان دعواهم، وكان ذكر

---

(١) انظر: أضواء البيان (تتمته)، للشيخ عطية محمد سالم: ٦/ ١٨٠.

(٢) هو محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان النفزي ـ نسبة إلى (نفزة) بكسر النون وسكون الفاء، قبيلة من البربر ـ، أثير الدين، أبو حيان، الأندلسيّ الغرناطي، ثم المصري، كان متفنناً في العلوم، مبرزاً في العربية وآدابها، صنف ودرس، ومن أشهر كتبه: البحر المحيط في تفسير القرآن، وتوفي بالقاهرة آخر سنة (٧٤٤هـ) رحمه الله. انظر: ذيل تذكرة الحفاظ: ص٢٣ ـ ٢٦، وشذرات الذهب، لابن العماد: ٦/ ١٤٥ ـ ١٤٧، ومعجم المؤلفين، لعمر رضا كحالة: ٣/ ٧٨٤ ـ ٧٨٥.

التنزيه أسبق؛ لأن فيه ردعاً لمدعي ذلك، وأنهم ادعوا أمراً تنزه الله عنه وتقدس» اهـ[١].

٢ ـ وقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧١﴾ [النساء: ١٧١].

وهذه الآية في الرد على أهل الكتاب من النصارى في زعمهم أن الآلهة ثلاثة ـ وهو التثليث عندهم ـ، وفي دعواهم الولد لله تعالى بقولهم في نبي الله عيسى عليه السلام: إنه ابن الله، وجاءت الإشارة إلى هذه العقائد النصرانية في بداية هذه الآية، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ «أي: هو المنفرد بالألوهية، الذي لا تنبغي العبادة إلا له»[٢]. وقال تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ﴾ أي: تنزه وتقدس عن أن يكون له ولد[٣]. وقد جاء التسبيح هنا مفرداً أيضاً.

٣ ـ وقول الله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ﴾ الآية [المائدة: ١١٦].

وهذه الآية فيها تقريع وتوبيخ للنصارى الذين اتخذوا عيسى وأمه مريم عليهما السلام إلهين من دون الله تعالى، وقالوا: إن الله ثالث ثلاثة، كما سبقت الإشارة إليه في الآية قبلها. فيقول الله تعالى هذا الكلام لعيسى عليه السلام، إذ إن النصارى يزعمون أنهم تلقوا ذلك منه، فيتبرأ

(١) البحر المحيط: ١/ ٥٣٢.
(٢) مقتبس من: تيسير الكريم الرحمن، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص٢١٦.
(٣) انظر: تفسير الطبري: ٤/ ٣٧٥، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ١/ ٦٠٥.

منهم عليه السلام ومن مقولتهم الكفرية، وينزه الله تعالى عن ذلك بالتسبيح له[١]، فيقول: ﴿سُبْحَانَكَ﴾. وهذا تسبيح مفرد أتى به نبي الله عيسى عليه السلام تعظيماً لربه عز وجل وتنزيهاً له عما لا يليق به مما نسبه إليه الجاهلون.

وسيأتي ـ إن شاء الله ـ مزيد بيان لهذه الآية عند الكلام على تسبيح الأنبياء عليهم السلام لله تعالى[٢].

٤ ـ وقول الله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨].

وهذه الآية خطاب من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ يأمره فيه أن يخبر عن دعوته التي يدعو هو وأتباعه من المؤمنين الناس إليها، ويأمره كذلك بأن يعلن عن تنزيه الله تعالى بقوله: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾، وهو تسبيح مفرد دال على عموم التنزيه لله تعالى وتعظيمه[٣].

وسيأتي ـ إن شاء الله ـ مزيد بيان لهذه الآية وما تتضمنه من دلالات وفوائد متعلقة بالتسبيح في مواضع أخرى من هذا البحث[٤].

٥ ـ وقول الله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [النحل: ٥٧].

وهذه الآية رد على المشركين الذين أضافوا إلى الله تعالى البنات مع كرههم لهن، ولا ينبغي أن يكون لله تعالى ولد ذكر ولا أنثى،

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٥/١٣٨، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٢/١٢٤، وتيسير الكريم الرحمن، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص٢٤٩.
(٢) انظر: ص(٣٠٨ ـ ٣١٠) من البحث.
(٣) انظر: تفسير الطبري: ٧/٣١٤ ـ ٣١٥، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٤٠٦.
(٤) انظر: ص(٣١١، ٤٢٦، ٥٠١) و(٢/١٢٢) من البحث.

ولهذا عقب مقالتهم بقوله: ﴿سُبْحَانَهُ﴾، وهو تسبيح مفرد يفيد تنزيه الله تعالى وتبرئته مما أضافوه إليه من البنات.

وقوله: ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ «ما» اسم موصول قصد به البنون، وهو إما في محل نصب عطفاً له على البنات، فيكون المعنى: ويجعلون لله البنات ولهم البنين الذين يشتهون. وإما في محل رفع على أنه مبتدأ، فيكون المعنى: ويجعلون لله البنات، ولهم البنون(١).

فهؤلاء المشركون لم يرضوا ـ بجهلهم إذ أضافوا إلى الله تعالى ما لا ينبغي إضافته إليه ـ أن يضيفوا إليه ما يشتهونه لأنفسهم ويحبونه لها من البنين، ولكنهم أضافوا إليه ما يكرهونه لأنفسهم ولا يرضونه لها من البنات(٢)، ولهذا قال تعالى في موضع آخر ـ منكراً عليهم هذه القسمة ـ: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ۝٢٢﴾ [النجم: ٢١، ٢٢]، أي: هذه القسمة جائرة غير منصفة(٣)؛ لأنها تقتضي تفضيل العبد المخلوق على الخالق، تعالى عن قولهم علواً كبيراً(٤).

وهذا الذي عابه الله تعالى على من جعل الملائكة بناته من المشركين، مع كراهتهم أن يكون لهم بنات، له نظير في النصارى، فإنهم يجعلون لله ولداً، وينزهون أكابر أهل دينهم عن أن يكون لأحدهم صاحبة أو ولد، فيجعلون لله تعالى ما يكرهونه لأكابر دينهم، سبحانه وتعالى عن إفكهم وافترائهم(٥).

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٧/ ٥٩٩.
(٢) انظر: المصدر السابق، الموضع نفسه.
(٣) انظر: تفسير الطبري: ١١/ ٥٢١ ـ ٥٢٢.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص٨٢٠.
(٥) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢/ ٤٤١.

٦ ـ وقول الله تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣].

وهذا خطاب من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ ليجيب به مشركي قريش الذين اقترحوا عليه ثماني آيات ـ ذكرها الله تعالى قبل هذا الخطاب ـ وجعلوها شرطاً لإيمانهم به، وهم في الحقيقة متعنتون باقتراحهم هذه الآيات التي ليس من شأن البشر الإتيان بمثلها، ولهذا أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يجيبهم بهذا القول المذكور. فقوله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّي﴾ تسبيح مفرد، معناه: تنزيهاً لربي جل وعلا عن كل ما لا يليق به، ومنه تنزيهه تعالى عن العجز عن فعل ما اقترحتم من الآيات، فهو قادر على كل شيء لا يعجزه شيء، ولو أراد لفعل ما طلبتم، ولكنه سبحانه لا يأتي بالآيات على ما يقترحه الناس، ولا تكون أفعاله وأحكامه تابعة لأهواء الناس(١).

وقوله: ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ قال الإمام ابن جرير الطبري: «يقول: هل أنا إلا عبد من عبيده من بني آدم، فكيف أقدر أن أفعل ما سألتموني من هذه الأمور، وإنما يقدر عليها خالقي وخالقكم، وإنما أنا رسول أبلغكم ما أرسلت به إليكم، والذي سألتموني أن أفعله بيد الله الذي أنا وأنتم عبيد له، لا يقدر على ذلك غيره» اهـ(٢).

٧ ـ وقول الله تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨].

---

(١) انظر: تفسير البغوي: ٥/ ١٣٠، وتيسير الكريم الرحمن، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص٤٦٧، وأضواء البيان، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: ٢/ ٣٢٨.

(٢) تفسير الطبري: ٨/ ١٤٩.

وهذا خبر عن مؤمني أهل الكتاب الذين أوتوا العلم قبل بعثة رسول الله محمد ﷺ، وأنهم يسجدون لله تعالى عند ما يتلى عليهم القرآن، ويقولون: ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَآ﴾ وقولهم هذا تسبيح مفرد، قالوه تنزيهاً لله تعالى وتعظيماً له على إتمام وعده ببعثة خاتم النبيّين محمد ﷺ الذي جاء ذكره في الكتب المنزلة قبل القرآن، ولهذا قالوا: ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾[1].

وسيأتي ـ إن شاء الله ـ مزيد بيان لهذا الأمر عند الكلام على تسبيح المؤمنين أتباع الأنبياء[2].

٨ ـ وقول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾ [مريم: ٣٥].

ذكرت هذه الآية بعد قصة نبي الله عيسى عليه السلام، وكيف حملته أمه مريم ووضعته من غير أب آية من آيات الله تعالى.

ومعلوم أن النصارى أعظموا الفرية على الله تعالى بدعواهم أن عيسى ابن الله. ولهذا عقب تعالى قصة ولادة عيسى ابن مريم عليهما السلام بقوله: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ أي: ما ينبغي لله تعالى أن يتخذ ولداً، ولا يصلح ذلك له، ولا يكون[3]؛ لأنه الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

وقوله: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ هو محل الشاهد هنا، فهو تسبيح مفرد يدل على تأكيد ما قبله من تنزيه الله تعالى عن اتخاذ الولد، وعلى مطلق التنزيه لله تعالى عن كل ما لا يليق بكماله وعظمته.

---

(١) انظر: زاد المسير، لابن الجوزي: ٥/ ٩٨، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٧٢.

(٢) انظر: ص(٣١٨ ـ ٣١٩) من البحث. (٣) انظر: تفسير الطبري: ٨/ ٣٤٢.

وقوله: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ حجة لإثبات تنزيهه عن اتخاذ الولد. قال الإمام ابن قيم الجوزية: «وتقرير هذه الحجة: أن من كانت قدرته تعالى كافية في إيجاد ما يريد إيجاده بمجرد أمره وقوله: ﴿كُن﴾، فأي حاجة به إلى ولد، وهو لا يتكثر به من قلة، ولا يتعزز به، ولا يستعين به، ولا يعجز عن خلق ما يريد خلقه؟! وإنما يحتاج إلى الولد من لا يخلق ولا إذا أراد شيئاً قال له: كن، فيكون، وهذا المخلوق العاجز المحتاج الذي لا يقدر على تكوين ما أراد» اهـ[1].

٩ ـ وقول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦].

وفي هذه الآية أيضاً حكاية لفرية من نسب إلى الله الولد، مع بيان تنزيه الله تعالى عن ذلك بلفظ التسبيح ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ﴾، وهو تسبيح مفرد. وقوله: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ إضراب لإبطال مقولتهم[2]، ولبيان أن هؤلاء الذين قيل فيهم إنهم أولاد لله هم عباد له لا أولاد، ولكنهم عباد مكرمون عند الله تعالى قد أكرمهم بما خصهم به من الفضائل والتطهير من الرذائل[3]، والذين قالوا: اتخذ الله ولداً، جعلوه إما من الملائكة وإما من الآدميين كالمسيح عيسى ابن مريم والعزير، وهؤلاء جميعاً عباد مكرمون[4]، فغلا فيهم الجاهلون حتى جعلوهم أولاداً لله تعالى وتقدس عن ذلك.

١٠ ـ وقول الله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ

(١) بدائع الفوائد: ٢/ ٤٥٤.
(٢) انظر: مغني اللبيب، لابن هشام: ص١٥١ ـ ١٥٢، والإتقان في علوم القرآن، لجلال الدين السيوطي: ١/ ٥٠٥.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص٥٢٢.
(٤) انظر: جامع الرسائل، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ١/ ٢٢.

إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون: ٩١].

وهذه الآية تتضمن نفي اتخاذ الولد عن الله تعالى، ونفي وجود إله آخر يستحق العبادة معه، وتتضمن كذلك برهاناً عقلياً لتقرير توحيد الله في الربوبية والألوهية، كما تضمنت تنزيه الله تعالى بلفظ التسبيح عن كل وصف مناقض لكماله وانفراده باستحقاق العبادة وحده لا شريك له.

فقوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ نفي لاتخاذ الولد عن الله تعالى، كما في أكثر الآيات السابقة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ أي: ليس مع الله تعالى إله آخر يستحق العبادة، بل الله تعالى هو الإله المستحق للعبادة وحده.

وقوله تعالى: ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ جواب لمحذوف اجتزئ عنه بدلالة ما ذكر عليه، أي: لو كان معه آلهة أخرى لذهب كل إله بما خلق، ولعلا بعضهم على بعض[(١)].

وفي هذا القول تقرير لبرهان التوحيد بأحسن تقرير وأوجزه وأبلغه[(٢)]، حيث تضمن لازمين كل منهما يدل عى انتفاء الملزوم[(٣)]:

أحدهما: قوله: ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ أي: لو قدر تعدد الآلهة لانفرد كل منهم بما خلق[(٤)]، فإن الإله الحق لا بد أن يكون

(١) انظر: تفسير الطبري: ٩/ ٢٤٠.

(٢) انظر: المصدر السابق، والصواعق المرسلة، لابن القيم: ٢/ ٤٦٢.

(٣) انظر: درء تعارض العقل والنقل، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٩/ ٣٥٩.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٢٦٤.

خالقاً فاعلاً مستقلاً لا يحتاج إلى غيره[١]، وحينئذٍ يلزم أن لا يكون العالم منتظماً متسقاً، والمشاهد أن العالم العلوي والسفلي منتظم ومرتبط بعضه ببعض في غاية الكمال، وأنه جار على نظام محكم لا يختلف ولا يفسد[٢]، فهذا أدل دليل على أن خالقه ومدبره واحد لا إله غيره ولا رب سواه؛ لأنه كما يستحيل أن يكون للعالم خالقان متكافئان، يستحيل أن يكون له إلهان معبودان[٣].

والثاني: قوله: ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: ولكان كل إله منهم يطلب قهر الآخر ومغالبته وحينئذٍ يعلو بعضهم على بعض، ويغلب القوي منهم الضعيف؛ لأن القوي لا يرضى أن يشركه الضعيف، وذلك يمنع إلهية المغلوب فإن الضعيف لا يصلح أن يكون إلهاً[٤]، والقاهر الغالب يكون هو وحده الإله الحق، والآخرون مقهورون تحت حكمه وتصرفه[٥]. فبين الله تعالى في هذه الآية: أن كل واحد من ذهاب كل إله بما خلق، ومن علو بعضهم على بعض، برهان قاض بأنه ليس مع الله تعالى إله آخر يستحق العبادة[٦]. ولهذا قال تعالى بعد ذلك ﴿سُبْحَانَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾، وهذا تسبيح مفرد يفيد تقرير ما قبله،

---

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٩/ ٣٥٩، والصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، لابن القيم، تحقيق الدكتور علي بن محمد الدخيل الله: ٢/ ٤٦٣.

(٢) انظر: الصواعق المرسلة، لابن القيم: ٢/ ٤٦٤، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٢٦٤.

(٣) انظر: الصواعق المرسلة، لابن القيم: ٢/ ٤٦٤.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ٩/ ٢٤٠، ودرء تعارض العقل والنقل، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٩/ ٣٦١، وتفسير القرآن العظيم: ٣/ ٣٦٤.

(٥) انظر: الصواعق المرسلة، لابن القيم: ٢/ ٤٦٤.

(٦) انظر: درء تعارض العقل والنقل، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٩/ ٣٥٩.

وأن الله تعالى منزه عما وصفه به الظالمون المعتدون من أن له ولداً، أو أن معه إلهاً يعبد، تقدس وتعالى عن ذلك علواً كبيراً[(١)].

١١ ـ وقول الله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ [النور: ١٦].

وهذه الآية وردت ضمن الآيات التي في تبرئة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها من الإفك الذي رميت به. والشاهد هنا قوله: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ فهو تسبيح مفرد وقع معترضاً بين قوله: ﴿مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ وقوله: ﴿هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾، وهذا التسبيح ها هنا يفيد التعجب والتنزيه معاً، كما سيأتي ـ إن شاء الله ـ بيانه في مبحث التسبيح عند التعجب[(٢)].

١٢ ـ وقول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾﴾ [الفرقان: ١٧، ١٨].

وفي هاتين الآيتين يخبر الله عز وجل عن حال المشركين الذين عبدوا غير الله، وما سيقع عليهم من تقريع وتوبيخ يوم القيامة، يوم يحشرهم الله جميعاً ويحشر معهم معبوداتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله في الدنيا. وقد اختلف المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، فقيل: الملائكة. وقيل: الملائكة وعيسى وعزير. وقيل: الملائكة وعيسى وعزير والإنس والجن. وقيل: الأصنام والأوثان. وقيل: عام في كل معبود من دون الله[(٣)]، وهذا

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٩/ ٢٤٠، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٣٦٤.

(٢) انظر: انظر: ص٢/ ٢٤ ـ ٢٦ من البحث.

(٣) انظر في هذه الأقوال: تفسير الطبري: ٩/ ٣٧٢، وتفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني: ٤/ ١١، وزاد المسير، لابن الجوزي: ٦/ ٧٨، والجامع لأحكام =

القول الأخير أشمل، ويدخل فيه جميع ما قيل قبله.

وقوله تعالى: ﴿فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ سؤال يخاطب الله تعالى به المعبودين من دونه على وجه التقريع لعابديهم[١]، «أي: فيقول تبارك وتعالى للمعبودين: أأنتم دعوتم هؤلاء إلى عبادتكم من دوني أم هم عبدوكم من تلقاء أنفسهم من غير دعوة منكم لهم؟»[٢].

ثم حكى الله تعالى جواب المعبودين فقال: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ قال الإمام ابن قيم الجوزية: «وهذا الجواب إنما يحسن من الملائكة والمسيح وعزير، ومن عبدهم المشركون من أولياء الله» اهـ[٣].

يعني: أن هؤلاء عباد صالحون عبدوا من دون الله تعالى بدون رضاهم ولا بدعوة منهم لعابديهم إلى عبادة غير الله سبحانه، حاشاهم.

ولهذا بدأوا جوابهم بتسبيح الله تعالى. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «نزهوا الله وعظموه أن يكون معه إله»[٤].

ثم قالوا: ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: ليس للخلائق كلهم أن يعبدوا أحداً سواك، لا نحن ولا هم[٥]، وهذا يؤيد إنكار هؤلاء المعبودين لعبادة غير الله تعالى أيا كان.

= القرآن، للقرطبي: ١٣/ ١٠، وإغاثة اللهفان، لابن القيم: ٢/ ٢٩٠، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٣٢٤.

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص٥٨٠.

(٢) مقتبس من: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٣٢٤.

(٣) إغاثة اللهفان: ٢/ ٢٩١.

(٤) ذكره ابن القيم في المصدر السابق، الموضع نفسه.

(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٣٢٤.

ولهذا قالوا ـ في بيان سبب ضلال المشركين بعبادة غير الله تعالى ـ: ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا﴾ أي: متعتهم بالصحة والمال في الدنيا حتى نسوا ما أنزلته إليهم على ألسنة رسلك من الدعوة إلى عبادتك وحدك لا شريك لك، وكانوا قوماً هالكين فاسدين لا خير فيهم(١).

١٣ ـ وقول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١].

وهاتان الآيتان أيضاً في ذكر حال المشركين ومعبوديهم من دون الله تعالى يوم القيامة، ولكن وقع التصريح هنا بالمعبودين، وهم الملائكة، ولهذا سيأتي بيان هاتين الآيتين ـ إن شاء الله ـ عند الكلام على تسبيح الملائكة لله تعالى(٢)، والمقصود هنا قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ﴾، فإنه تسبيح مفرد، لم يقرن بغيره من ألفاظ التعظيم والثناء على الله تعالى.

١٤ ـ وقول الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٥٨، ١٥٩].

وفي هاتين الآيتين يخبر الله تعالى عن افتراء المشركين عليه سبحانه، حيث جعلوا بينه وبين الجنة نسباً.

والصحيح من أقوال أهل العلم أن الجنة هنا: الجن(٣)، كما قال تعالى: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٦].

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٩/ ٣٧٣، وإغاثة اللهفان، لابن القيم: ٢/ ٢٩٥، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٣٢٤، وتيسير الكريم الرحمن، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص٥٨٠.

(٢) انظر: ص(٢٨٣) من البحث.

(٣) انظر: حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، لابن القيم: ص١٢٧ ـ ١٢٨.

والنسب الذي جعلوه بين الله والجن: هو زعمهم أن الملائكة بنات الله، وأن أمهاتهن من الجن، كما جاء عن مجاهد وغيره من مفسري السلف[١]، فعقد هؤلاء المشركون بين الله تعالى وبين الجن نسباً بهذا الإيلاد، وجعلوا هذا النسب متولداً بينه وبين الجن[٢].

وأما قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾، فالصحيح أيضاً أن الضمير فيه يرجع إلى الجنة[٣]، أي: والحال أن الجنة قد علمت أنهم سيحضرون بين يدي الله تعالى للحساب يوم القيامة، فلو كان بينهم وبين الله تعالى نسب لم يكونوا محضرين للحساب[٤]، فجعل سبحانه عقوبتهم بذنوبهم وإحضارهم للعذاب مبطلاً لدعوى المشركين الكاذبة[٥]. ولا شك أنّ هذا التقدير في الآية أبلغ في إبطال قولهم من تقدير من جعل الضمير في قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ راجعاً إلى مدعي هذا القول من المشركين[٦]. ولهذا قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ وهذا تسبيح مفرد، يعني: تنزّه الله وتقدس عما يضيفه إليه المشركون ويفترون عليه من أن له بنات، وأن له صاحبة، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً[٧].

١٥ ـ وقول الله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الطور: ٤٣].

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ١٠/٥٣٥، وتفسير البغوي: ٧/٦٣، والدر المنثور في التفسير بالمأثور، للسيوطي: ٥/٥٤٨.
(٢) انظر: حادي الأرواح، لابن القيم: ص١٢٨.
(٣) انظر: المصدر السابق، الموضع نفسه.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص٧٠٨.
(٥) انظر: حادي الأرواح، لابن القيم: ص١٢٨.
(٦) انظر: تفسير الطبري: ١٠/٥٣٦، وحادي الأرواح، لابن القيم: ص١٢٨.
(٧) انظر: تفسير الطبري: ١٠/٥٣٦، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٤/٢٦.

وهذه الآية إنكار على المشركين عبادتهم غير الله تعالى، وتنزيه لله تعالى عن شركهم به.

فـ (أم) في هذه الآية: هي المنقطعة، وهي هنا تتضمن استفهاماً إنكارياً[(١)]، ومعنى الآية ـ كما قال الإمام ابن جرير الطبري ـ: «أم لهم معبود يستحق عليهم العبادة غير الله فيجوز لهم عبادته؟ يقول: ليس لهم إله غير الله الذي له العبادة من جميع خلقه. ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يقول: تنزيهاً لله عن شركهم وعبادتهم معه غيره» اهـ[(٢)].

١٦ ـ وقول الله تعالى: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [القلم: ٢٩].

وهذه الآية حكاية لقول أصحاب الجنة الذين ذكر الله تعالى قصتهم في السورة نفسها قبل هذه الآية، فقولهم: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ تسبيح مفرد. وقد قيل: إن تسبيحهم هذا كان استثناءاً، كقولنا: إن شاء الله. وقيل: كان تنزيهاً لله تعالى عن أن يكون ظلمهم بإحراق جنتهم، كما سبق بيان ذلك كله في مبحث معاني التسبيح شرعاً، عند الكلام على إطلاق التسبيح على الاستثناء[(٣)].

فهذه الآيات التي سبق ذكرها في هذا المطلب قد سيقت فيها كلمة التسبيح بصيغة الإفراد دون أن تقرن بغيرها من ألفاظ الثناء على الله تعالى.

وهذه التسبيحات المفردة في كتاب الله تعالى أكثرها وارد

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٧/ ٧١، ٧٦، ومغني اللبيب، لابن هشام الأنصاري: ص٦٦، وفتح القدير، للشوكاني: ٥/ ١٤٠.

(٢) تفسير الطبري: ١١/ ٤٩٧.

(٣) انظر: ص(١٠٠ ـ ١٠٢) من البحث.

بتنزيه الله ﷻ عن اتخاذ الولد رداً على من اعتقد ذلك وادعاه على الله تعالى افتراء وكذباً عليه سبحانه.

وبعضها وارد بتنزيه الله تعالى عن الشرك في الألوهية، وبعضها وارد في مقام التعظيم والثناء على الله تعالى بالتنزيه العام له.

والمواضع التي ورد فيها التسبيح بصيغة الإفراد في السنة النبوية كثيرة، ولا سبيل إلى حصرها في هذا المقام، ومن ذلك:

١ ـ حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**قال الله تعالى: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان، وأمّا شتمه إياي فقوله: لي ولد، فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولدا**»[(١)].

فقوله ـ في هذا الحديث القدسي ـ: (فسبحاني) تسبيح مفرد نزه تعالى نفسه المقدسة عن اتخاذ الصاحبة أو الولد.

٢ ـ حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**سبحان الله، إن المؤمن لا ينجس**»[(٢)].

٣ ـ قوله ﷺ: «**من نابه شيء في صلاته فليقل: سبحان الله**»[(٣)].

وهذا أمر بالتسبيح بصيغة الإفراد لمن نابه شيء في صلاته، كما سيأتي بحثه إن شاء الله تعالى[(٤)].

وستأتي أمثلة أخرى للتسبيح بصيغة الإفراد من السنة النبوية عند

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٨/ ١٦٨، برقم (٤٤٨٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ١/ ٣٩٠، برقم (٢٨٣)، ومسلم في صحيحه: ١/ ٢٨٢، برقم (٣٧١).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٣/ ٨٧، ٨٨، برقم: ١٢١٨.

(٤) في ص٥٥٨.

بيان المواضع التي يشرع فيها التسبيح مفرداً[١].

❖ المطلب الثاني ❖

صيغة القران في التسبيح

صيغة القران في التسبيح تعني: ورود التسبيح ـ في مقام الذكر والثناء على الله تعالى ـ مقروناً بغيره من ألفاظ الذكر والثناء والدعاء لله ﷻ.

وقد ورد التسبيح بهذه الصيغة في الكتاب والسنة في مواضع كثيرة جداً تفوق المواضع التي ورد فيها بصيغة الإفراد أضعافاً كثيرة.

وتتنوع صيغة القران في التسبيح بحسب ما قرن به لفظ التسبيح من الألفاظ الأخرى، فقد قرن التسبيح بالتحميد، وبالتهليل، وبالتكبير، وببعض أسماء الله تعالى وصفاته، وقرن بالاستغفار، وبالدعاء، وبالسلام على المرسلين، فهذه من أنواع صيغة القران في التسبيح التي تم ضبطها في الكتاب والسنة.

وقد أشار الحافظ ابن رجب الحنبلي[٢] إلى الحكمة في ورود التسبيح مقروناً، فقال: «والتسبيح: هو تنزيه الله عن النقائص والعيوب والآفات، والإثبات أكمل من السلب، لهذا لم يرد التسبيح

---

(١) هو موضوع الفصل الثاني من الباب الثالث.

(٢) هو عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسين بن محمد البغدادي ثم الدمشقي، أبو الفرج، زين الدين، الشهير بابن رجب الحنبلي، كان ماهراً في علوم الحديث والفقه، وكان على منهج السلف في العقيدة والسلوك، وله تصانيف كثيرة بديعة مفيدة، منها: جامع العلوم والحكم، وشرح علل الترمذي، والقواعد الفقهية. وتوفي سنة (٧٩٥هـ)، رحمه الله. انظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، للحافظ ابن حجر العسقلاني: ٢/٤٢٨ ـ ٤٢٩، وشذرات الذهب، لابن العماد: ٦/٣٣٩ ـ ٣٤٠.

مجرداً[١]، لكن مقروناً بما يدل على إثبات الكمال، فتارة يقرن بالحمد، كقول: سبحان الله وبحمده، وسبحان الله والحمد لله. وتارة باسم من الأسماء الدالة على العظمة والجلال، كقوله: سبحان الله العظيم» اهـ[٢].

ولكن لا ينبغي أن يفهم من هذا أن التسبيح إذا ورد مفرداً مجرداً لم يدل على إثبات الكمال، فقد تقدم عند الكلام على معاني التسبيح في الشرع بيان دلالته على التعظيم والمدح والكمال بما فيه مقنع[٣] ـ ولله الحمد والمنة ـ، وإذا ورد التسبيح مقروناً كانت له دلالة أخرى في إثبات الكمال لله تعالى والثناء عليه والتعبد له ﷻ، كما سيتم ـ بإذن الله ـ بيانه عند الكلام على كل نوع من أنواع صيغة القران في التسبيح، وذلك في المسائل الآتية:

المسألة الأولى: قرن التسبيح بالتحميد:

ولهذه المسألة شأن عظيم يسترعي النظر ويستدعي الانتباه، وذلك لأن قرن التسبيح بالتحميد هو الأكثر وروداً في نصوص الشرع، وجاء في كتاب الله تعالى الأمر بقرن التسبيح بالتحميد في سبعة مواضع، حيث قال تعالى ـ في أربعة مواضع منها ـ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [طه: ١٣٠، غافر: ٥٥، ق: ٣٩، الطور: ٤٨]، وقال تعالى ـ في موضعين ـ: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [الحجر: ٩٨، والنصر: ٣]، وقال في ـ موضع ـ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ٥٨].

كما جاء في كتاب الله تعالى الخبر عن قرن التسبيح بالتحميد في

---

(١) هذا محمول على أغلب المواضع، وإلا فقد ورد التسبيح مجرداً غير مقرون في مواضع أيضاً، كما سبق بيانه في صيغة الإفراد في التسبيح.

(٢) جامع العلوم والحكم: ٢/١٨.

(٣) انظر: ص(٧٨ ـ ٨٦) من البحث.

مواضع متعددة، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة: ١٥]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: ٥]، ونحو ذلك من الآيات(١).

وأما السنة النبوية فورد فيها قرن التسبيح بالتحميد في أحاديث كثيرة تفوق الحصر، ومن ذلك:

حديث أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إن أحب الكلام إلى الله: سبحان الله وبحمده**»(٢).

وحديث أبي مالك الأشعري(٣) رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن ـ أو تملأ ـ ما بين السماوات والأرض**» الحديث(٤).

وسيأتي ـ إن شاء الله ـ ذكر أمثلة كثيرة للتسبيح المقرون بالتحميد في الأحاديث النبوية عند الكلام على فضل التسبيح(٥)، وعند بيان

---

(١) انظر: سورة البقرة، الآية: ٣٠، وسورة يونس، الآية: ١٠، وسورة الرعد، الآية: ١٣، وسورة الروم، الآية: ١٧، وسورة الصافات، الآيات: ١٨٠ ـ ١٨٢، وسورة الزمر، الآية: ٧٥، وسورة غافر، الآية: ٧.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: ٤/٢٠٩٣ ـ ٢٠٩٤، برقم (٢٧٣١).

(٣) هو الحارث بن الحارث الأشعري الشامي، صحابي يكنى أبا مالك، تفرد بالرواية عنه أبو سلام ممطور الحبشي، وفي الصحابة اثنان آخران غير هذا يكنى كل منهما أبا مالك الأشعري، ويكثر الاشتباه بينهم، رضي الله عنهم أجمعين. انظر: تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني: ٢/١٣٧ ـ ١٣٨ و١٢/٢١٨ ـ ٢١٩، وتقريب التهذيب، له: ١/١٤٣.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه: ١/٢٠٣، برقم (٢٢٣).

(٥) انظر: ص(٤٢١) من البحث.

المواضع التي يشرع فيها التسبيح(١).

ولما كان هذا حال التسبيح مع التحميد في الكتاب والسنة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والتحميد مقرون بالتسبيح وتابع له»(٢). وقال أيضاً: «فالتسبيح قرين التحميد»(٣).

وله رَحِمَهُ اللَّهُ رسالة لطيفة بعنوان: «قاعدة حسنة في الباقيات الصالحات وبيان اقتران التهليل بالتكبير والتسبيح بالتحميد»(٤). وبين في رسالته هذه أن «التسبيح والتحميد يجمع النفي والإثبات: نفي المعايب وإثبات المحامد، وذلك يتضمن التعظيم»(٥).

وقال: «التسبيح يتضمن التنزيه المستلزم للتعظيم. والحمد يتضمن إثبات المحامد المتضمن لنفي نقائصها» اهـ(٦).

وقال الحافظ ابن كثير ـ في تفسير قول الله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الصافات: ١٨٠، ١٨٢] ـ: «ولمّا كان التسبيح يتضمن التنزيه والتبرئة من النقص بدلالة المطابقة، ويستلزم إثبات الكمال، كما أن الحمد يدل على إثبات صفات الكمال مطابقة، ويستلزم التنزيه من النقص، قرن بينهما في هذا الموضع وفي مواضع كثيرة من القرآن» اهـ(٧).

وهذا الكلام موافق لما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية، وبكلامهما يتبين سبب اقتران التسبيح بالتحميد في أكثر المواضع من الكتاب

(١) هو موضوع الباب الثالث الآتي في ص(٥٠٩).
(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠/٢٥١.
(٣) المصدر السابق: ٢٤/٢٣١.
(٤) طبعت هذه الرسالة حديثاً بتحقيق أبي محمد أشرف بن عبد المقصود.
(٥) قاعدة حسنة في الباقيات الصالحات: ص٢٢.
(٦) المصدر السابق: ص٢٣.
(٧) تفسير القرآن العظيم: ٤/٢٨.

والسنة، ويتبين أيضاً أن كلا من التسبيح والتحميد يستلزم معنى الآخر إذا أفرد، وعند الاقتران يعطى كل خاصيته، ويدلان حينئذٍ على إثبات الكمالات ونفي النقائص في حق الله تعالى على الإجمال والتمام.

وبهذا يعلم ما في صيغة التسبيح المقرون بالتحميد من دلالة عظيمة في عقيدة التوحيد، وما في الجمع بين التسبيح والتحميد من الأهمية في ذكر الله تعالى، كما أشار بعض المفسرين ـ عند تفسير قول الله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الروم: ١٧، ١٨] ـ إلى أن الله تعالى ذكر الحمد معترضاً بين أوقات التسبيح للاعتناء بشأنه، والإشعار بأن حقهما أن يجمع بينهما[١].

وإذا علم هذا، فإن الجمع بين التسبيح والتحميد يكون بالاعتقاد وبالقول. أما الجمع بينهما في الاعتقاد، فيتم باعتقاد معناهما مع تطبيق ذلك واقعاً بإثبات صفات الكمال لله تعالى وتنزيهه عن النقائص والتمثيل، كما سيأتي تفصيله ـ إن شاء الله ـ عند بيان المفهوم الصحيح في تسبيح الله تعالى[٢].

وأما الجمع بينهما في القول، فيحصل إما بصيغة: «سبحان الله والحمد لله» وإما بصيغة: «سبحان الله وبحمده» أو «سبحانك وبحمدك»، ونحو ذلك مما وردت به السنة والآثار.

ومع هذا، فإن العلماء مختلفون في توجيه ما جاءت به الآيات والأحاديث من صيغة التسبيح المقرون بالتحميد، وفي بيان المراد بها على أقوال عديدة.

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود: ٧/ ٥٤، وفتح القدير، للشوكاني: ٤/ ٣٠٦.
(٢) وهو موضوع الباب الرابع، في (٢/ ١١٧).

ويرجع اختلافهم في ذلك إلى أربعة أمور:

أحدها: الاختلاف في لفظ التسبيح: هل يراد به معناه الأصلي ـ وهو التنزيه قولاً واعتقاداً ـ، أو يراد به الصلاة، أو الذكر، أو الحمد نفسه؟

والثاني: الاختلاف في لفظ الحمد: هل يراد به الثناء، أو التوفيق والإنعام، أو الرضا، أو الأمر؟

والثالث: الاختلاف في الباء الداخلة على لفظ الحمد: هل هي للمصاحبة، أو الاستعانة، أو السببية، أو هي صلة زائدة؟

والرابع: الاختلاف في الواو في نحو (سبحان الله وبحمده): هل هي للعطف، أو الحال، أو المعية، أو هي صلة زائدة؟

وقد نتج عن الاختلاف المتعلق بلفظ التسبيح، ولفظ الحمد، والباء الجارة بدون الواو عشرة أقوال ـ حسب ما اطلعت عليه بالبحث ـ وهي:

القول الأول: أن كلا من التسبيح والتحميد يراد به معناه الأصلي، والباء للمصاحبة بمعنى (مع)[1]. وعليه فالمراد بقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ الجمع بين التسبيح والتحميد لفظاً بقول: سبحان الله وبحمده، أو سبحان الله والحمد لله[2]. ومعنًى بتنزيه الله تعالى عما لا

---

(١) انظر: نور المسرى، لأبي شامة المقدسي: ص٤٢، والدر المصون، للسمين الحلبي: ٢٥٦، ومغني اللبيب، لابن هشام الأنصاري: ص١٤٠، وتفسير سورة النصر، لابن رجب الحنبلي ـ ضمن مجموعة رسائل له، جمع عادل العزازي: ص٢١٣.

(٢) انظر: الوسيط في تفسير القرآن المجيد، للواحدي: ١/ ١١٥، وتفسير البغوي: ٦/ ٩١، والمحرر الوجيز، لابن عطية: ٦/ ١٦٤، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١/ ٢٧٧، والبحر المحيط، لأبي حيان: ٦/ ٢٦٨، والتسهيل، لابن جزي: ٢/ ٢٩.

يليق به من النقائص والتمثيل، وإثبات ما يليق به من المحامد وصفات الكمال[(١)].

وربما جعل بعضهم التسبيح خاصاً باعتقاد القلب، والتحميد خاصاً بقول اللسان الموافق لاعتقاد القلب[(٢)].

القول الثاني: أن التسبيح يراد به معناه الأصلي، والتحميد يراد به التوفيق والإنعام، والباء للسببية. فقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ معناه: سبح بتوفيق ربك لك وإنعامه عليك، أي: بسبب ذلك[(٣)].

وحقيقة هذا المعنى أن الحمد هو الثناء، والثناء ناشئ عن التوفيق للخير والإنعام على المثني، فنزل الناشئ عن السبب منزلة السبب[(٤)]. ولكن ليس في هذا المعنى ما يدل على الجمع بين التسبيح والتحميد لفظاً ومعنى، وإنما يدل على أن العبد يأتي بالتسبيح لفظاً ومعنى من أجل توفيق الله له وإنعامه عليه.

القول الثالث: أن التسبيح يراد به معناه الأصلي، والتحميد يراد به الرضا، وذلك كما قال نفطويه: «وأما قوله: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]، فقولهم: ﴿نُسَبِّحُ﴾ أي: ننزهك ونباعد عنك ما وصفت به من خلاف صفاتك. وقوله: ﴿بِحَمْدِكَ﴾ أي: برضاك ورضانا بذلك» اهـ[(٥)].

---

(١) انظر: نور المسرى، لأبي شامة: ص٤٢، والبحر المحيط، لأبي حيان: ٦/ ٢٦٨، ومغني اللبيب، لابن هشام الأنصاري: ص١٤٠، وتفسير سورة النصر، لابن رجب: ص٢١٣.

(٢) انظر: البحر المحيط، لأبي حيان: ٦/ ٤٦٥.

(٣) انظر: التفسير الكبير، للفخر الرازي: ٣٢/ ١٦١، والدر المصون، للسمين الحلبي: ١/ ٢٥٦، والبحر المحيط، لأبي حيان: ١/ ٢٩١.

(٤) انظر: البحر المحيط، لأبي حيان: ١/ ٢٩١.

(٥) مسألة سبحان: ص٣٠.

وهذا المعنى يفيد الجمع بين التسبيح ـ لفظاً ومعنى ـ وبين الرضا، وهو من أعمال القلوب؛ لأنه ضد السخط والكراهة[(١)]، ولهذا يكون تفسير الحمد بالرضا تفسيراً له بجزء مدلوله[(٢)]؛ لأن الحمد يتضمن الرضا وزيادة، فحقيقة الحمد: الإخبار عن محاسن المحمود مع حبه وإجلاله والرضا به[(٣)]، فتضمن الثناء والمحبة والإجلال والرضا.

القول الرابع: أن التسبيح يراد به معناه الأصلي، والتحميد يراد به الأمر. فقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ معناه: سبح بأمر ربك[(٤)].

ولهذا التفسير توجيهان أشار إليهما شيخ الإسلام ابن تيمية:

التوجيه الأول: أن قوله: (بحمد ربك) أي: بكونه محموداً، يعني المحمود على التسبيح، حيث كان هو الذي أمر بذلك وشرعه، فإذا سبحنا سبحنا بحمده[(٥)].

والتوجيه الثاني: أن «يكون القائل الذي قال: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: بأمره، أراد المأمور به، أي: سبحه بما أمرك أن تسبحه به. فيكون المعنى: سبح التسبيح الذي أمرك به»[(٦)].

وعلى كلا التوجيهين، لا يكون قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ دالاً على الجمع بين التسبيح والتحميد في اللفظ والمعنى؛ لأنه ـ على

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠/ ٤٣، والقاموس المحيط، للفيروزآبادي: مادة (رضي): ص١٦٦٢.

(٢) انظر: بدائع الفوائد، لابن قيم الجوزية: ١/ ٣٣٣.

(٣) انظر: المصدر السابق، الموضع نفسه، والوابل الصيب، للمؤلف نفسه: ص١١٩.

(٤) انظر: زاد المسير، لابن الجوزي: ٧/ ٢٠٢.

(٥) انظر: قاعدة حسنة في الباقيات الصالحات، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ص٥٠ ـ ٥١.

(٦) المصدر السابق: ص٥١.

التوجيه الأول ـ تكون الباء للسببية، بمعنى: سبح بسبب أن الله أمرك بذلك وهو المحمود عليه.

وعلى التوجيه الثاني تكون الباء للاستعانة، بمعنى: سبح بما أمرك الله أن تسبحه به.

القول الخامس: أن التسبيح يراد به التنزيه، وقوله: (بحمد ربك) الباء للاستعانة، والحمد مضاف إلى الفاعل، فمعنى ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾: نزهه بما حمد به نفسه من الأسماء والصفات[1].

وهذا التفسير قريب في المعنى مما قبله، بحسب التوجيه الثاني له.

والظاهر أن أصحاب هذا القول أرادوا التنبيه بهذا التفسير على أن تنزيه الله تعالى لا بد أن يكون منضبطاً بما جاء به الكتاب والسنة من إثبات صفات الكمال لله تعالى مع نفي النقائص والتمثيل عنه، فهذا هو التنزيه المحمود؛ لأنه تنزيه لله تعالى بما حمد به نفسه خلافاً لمن نفى صفات الله تعالى أو نفى بعضها بدعوى التنزيه، فهذا تنزيه مذموم، لمخالفته الكتاب والسنة[2].

القول السادس: أن التسبيح يراد به الصلاة، والتحميد يراد به الثناء، والباء للاستعانة، فقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ معناه: صل بثنائك على ربك[3].

---

(١) انظر: نور المسرى، لأبي شامة: ص٤٢، ومغني اللبيب، لابن هشام: ص١٤٠، وتفسير سورة النصرة، لابن رجب: ص٢١٣.

(٢) انظر: المصادر السابقة، المواضع نفسها، ومسألة سبحان، لنفطويه: ص٤٢ ـ ٤٣.

(٣) انظر: تفسير الطبري: ٨/٤٧٦، وزاد المسير، لابن الجوزي: ٨/٢٣، وقاعدة حسنة في الباقيات الصالحات، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ص٤٩.

وقد تقدم ـ عند بيان معاني التسبيح في الشرع ـ أن التسبيح جاء بمعنى الصلاة في مواضع كثيرة من الكتاب والسنة، مع بيان مناسبة ذلك[(١)].

ولا ريب أن الثناء على الله تعالى بالحمد له ركن في الصلاة، فإنها لا تتم إلا بالفاتحة التي نصفها الأول حمد لله وثناء عليه وتمجيد له، وقد شرع قبل ذلك الاستفتاح، وشرع التسبيح في الركوع والسجود، وشرع في الصلاة غير ذلك من أنواع الثناء على الله تعالى[(٢)].

فالمصلي إذا حمد ربه في القيام، وسبح في الركوع والسجود، فقد جمع بين التسبيح والتحميد، فسبح بحمد ربه، فالصلاة الشرعية تسبيح بحمد الله تعالى[(٣)].

القول السابع: أن التسبيح يراد به الصلاة، والتحميد يراد به الأمر. فقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾: معناه: صل بأمر ربك[(٤)].

وفي هذا التفسير أيضاً التوجيهان المذكوران في القول الرابع مما سبق، فإما أن يكون المراد صل بأمر ربك، أي: بكونه المحمود على ذلك، حيث كان هو الذي شرع الصلاة وأمر بها.

وإما أن يكون المراد: صل بأمر ربك، أي: صل الصلاة المأمور بها التي أمرك بها ربك[(٥)].

---

(١) انظر: ص(٨٦ ـ ٩٦) من البحث.

(٢) انظر: قاعدة حسنة في الباقيات الصالحات: ص٥٠.

(٣) انظر: المصدر السابق: ص٥٦.

(٤) انظر: تفسير البغوي: ٤/٣٩٧، وقاعدة حسنة في الباقيات الصالحات: ص٥٠ ـ ٥١.

(٥) انظر: قاعدة حسنة في الباقيات الصالحات: ص٥٠ ـ ٥١.

وقد علم أن الصلاة المأمور بها في الشرع تتضمن الجمع بين التسبيح والتحميد، وغير ذلك من الثناء على الله تعالى.

القول الثامن: أن التسبيح يراد به الذكر، والتحميد يراد به الثناء، والباء للاستعانة. فقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ معناه: اذكر ربك بالتحميد والشكر، أي: ليكن ذكرك بالحمد والشكر لربك[(١)].

وهذا المعنى لا يدل ضرورة على الجمع بين التسبيح والتحميد، بل يدل على أن يكون ذكر الله بالتحميد والشكر له.

وتفسير التسبيح بجنس ذكر الله تعالى سبق بيانه في معاني التسبيح في الشرع[(٢)].

القول التاسع: أن التسبيح يراد به الحمد نفسه، والتحميد يراد به الثناء، والباء للاستعانة. فقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ معناه: احمده، أي سبحه بواسطة أن تحمده.

وذلك لأن الحمد يقوم مقام التسبيح، لما تضمنه الحمد من معنى التسبيح، فإن الحمد معناه: الثناء على الله والشكر له، وهذا تنزيه له واعتراف بأنه أهل لأن ينزه ويعظم ويثنى عليه؛ لأنه لا يكون مستحقاً للثناء إلا إذا كان منزهاً عن النّقص، فحمد الحامد لله تسبيح له[(٣)].

وبناء على هذا التفسير لا تكون الآيات التي وردت في هذا الباب

---

(١) انظر: معاني القرآن، للأخفش: ١/ ٢١٩ و٢/ ٧٤٥، وتفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني: ٦/ ٢٩٦.

(٢) انظر: ص(٩٦) من البحث.

(٣) انظر: الوسيط في تفسير القرآن المجيد، للواحدي: ١/ ١١٥، والدعاء المأثور وآدابه، للطرطوشي: ص١٦٤، والتفسير الكبير، للرازي: ٣٢/ ١٦٠، ونور المسرى، لأبي شامة: ص٤٦، وفتح الباري، لحافظ ابن حجر العسقلاني: ٢/ ٢٩٩.

دالة على الجمع بين التسبيح والتحميد في اللفظ والمعنى، وهذا فيه نظر، وكون الحمد يتضمن معنى التسبيح لا يقتضي أن يقوم مقامه، لا سيما عند الاقتران، فقد تقدمت الإشارة إلى أن كلا من التسبيح والتحميد يستلزم معنى الآخر إذا أفردا، وعند الاقتران يعطى كل خاصيته، فلا سبيل إلى تفسير التسبيح بالحمد نفسه في هذه الآيات، والله تعالى أعلم.

القول العاشر: أن التسبيح يراد به التنزيه والتطهير، والتحميد يراد به الثناء، والباء صلة زائدة؛ لأن العرب تدخل الباء أحياناً في التسبيح، وتحذفها أحياناً، فتقول: سبح بحمد ربك، وسبح حمد ربك، كما قال الله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ [الواقعة: ٧٤ و٩٦، والحاقة: ٥٢]، وقال في موضع آخر: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ [الأعلى: ١].

فقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ تقديره: سبح حمد ربك(١).

وفي المراد بذلك احتمالات:

أحدها: أن معناه: اختر لربك أطهر المحامد وأزكاها.

الثاني: طهر محامد ربك عن الرياء والسمعة، وعن التوسل بذكرها إلى الأغراض الدنيوية.

الثالث: طهر محامد ربك عن أن تقول جئت بها كما يليق به(٢).

وهذا التفسير بجميع ما فيه من الاحتمالات قائم على أن الفعل (سبح) مسلط على لفظ (حمد ربك)، بمعنى: طهر حمد ربك، ثم لهذا التطهير الاحتمالات المذكورة، وليس فيها ما يدل على الجمع بين التسبيح والتحميد لفظاً ومعنى.

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ١١/ ٣٥، والدعاء المأثور وآدابه، للطرطوشي: ص١٦٤، والتفسير الكبير، للرازي: ٣٢/ ١٦١.
(٢) انظر: التفسير الكبير: ٣٢/ ١٦١.

وهذه الأقوال العشرة السابقة معظمها صحيح في نفسها، ولكن الشأن هنا في بيان ما جاء به الكتاب والسنة من القرن بين التسبيح والتحميد لفظاً ومعنى، قولاً واعتقاداً. وأوضح هذه الأقوال دلالة على ذلك هو القول الأول.

وقد دلت السنة على أن المراد بقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ الجمع بين التسبيح والتحميد لفظاً ومعنى، وقولاً واعتقاداً، كما في حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «كان النبي ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «**سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي**»، يتأول القرآن»(١).

فقولها: «يتأول القرآن» أي: يفعل ما أمره الله به في القرآن، تعني قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾ [النصر: ٣](٢).

وأما (الواو) في قوله: (سبحانك اللهم وبحمدك) ونحوه، كـ (سبحان الله وبحمده) فاختلف فيها العلماء على أربعة أقوال:

القول الأول: أن الواو للعطف، والكلام جملتان:

أولاهما: جملة (سبحانك اللهم) أو (سبحان الله)، وهي الجملة المعطوف عليها. والثانية: جملة (بحمدك) أو (بحمده)، وهي الجملة المعطوفة(٣).

والباء في هذه الجملة الثانية متعلقة بمحذوف اختلفوا في تقديره:

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه - مع الفتح - ٢/ ٢٩٩، برقم (٨١٧)، ومسلم في صحيحه: ١/ ٣٥٠، برقم (٤٨٤).

(٢) انظر: شرح صحيح مسلم، للنووي: ٤/ ٢٠١.

(٣) انظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، للقرطبي: ٧/ ٥٢، ومغني اللبيب، لابن هشام: ص١٤٠، وفتح الباري، لابن حجر العسقلاني: ١٣/ ٥٤١، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، للمباركفوري: ٩/ ٣٩٢ - ٣٩٣.

فقدره بعضهم مقدماً، وتقديره: وأثني عليك بحمدك، أو وأثني عليه بحمده، أي: بذكر صفات كماله وجلاله، كما يقال: سبحان الله والحمد لله[١].

أو تقديره: وأحمدك بحمدك، وأحمده بحمده[٢]. أو وأتلبس بحمدك، وأتلبس بحمده[٣].

وقدره بعضهم مؤخراً، وتقديره: وبحمدك سبحتك، وبحمده سبحته، أو وبحمدك تسبيحنا، وبحمده تسبيحنا[٤].

والذين قدروا المحذوف هكذا مؤخراً فسروا قوله: (بحمدك) بمعنى: بمعونتك وتوفيقك ونعمتك التي توجب علي حمداً سبحتك، لا بحولي وقوتي، أو نحو هذا من الكلام[٥].

فيؤخذ منه أن المراد بالحمد لازمه، وهو ما يوجب الحمد، فيكون مما أقيم فيه السبب مقام المسبب[٦]، كما تقول: فعلت هذا

---

(١) انظر: المفهم، للقرطبي: ٧/ ٥٣، والتنقيح في حديث التسبيح، لابن ناصر الدين: ص٨٧، وفتح الباري، لابن حجر العسقلاني: ١٣/ ٥٤١.

(٢) انظر: العلم الهيب في شرح الكلم الطيب، لبدر الدين العيني: ص١٠٠، ٢٦٢.

(٣) انظر: فتح الباري، لابن حجر العسقلاني: ١٣/ ٥٤١.

(٤) انظر: شأن الدعاء، للخطابي: ص١٤٣، والمغرب، لأبي الفتح المطرزي: ١/ ٣٧٩، وشرح صحيح مسلم، للنووي: ٤/ ٢٠٢، ومغني اللبيب، لابن هشام: ص١٤٠، والتنقيح في حديث التسبيح، لابن ناصر الدين: ص٨٧، والعلم الهيّب، للعيني: ص٢٦٢.

(٥) انظر: شأن الدعاء، للخطابي: ص١٤٤، وشرح صحيح مسلم، للنووي: ٤/ ٢٠٢، والتنقيح في حديث التسبيح، لابن ناصر الدين: ص٨٦ ـ ٨٧.

(٦) انظر: مغني اللبيب، لابن هشام الأنصاري: ص١٤٠، وفتح الباري، لابن حجر: ١٣/ ٥٤١،

بحمد الله، أي: بتوفيقه وفضله الذي يستحق الحمد عليه[١].

القول الثاني: أن الواو بمعنى (مع)، والكلام جملة واحدة، فقوله: (سبحانك اللهم وبحمدك) تقديره: أسبحك اللهم مع التلبس بحمدك[٢].

القول الثالث: أن الواو للحال، والكلام جملة واحدة أيضاً، فقوله: (سبحان الله وبحمده) تقديره: أسبح الله متلبساً بحمدي له من أجل توفيقه[٣]. وقوله: (سبحانك وبحمدك) تقديره: أسبح حامداً لك[٤].

القول الرابع: أن الواو صلة زائدة[٥]، والكلام جملة واحدة كذلك. فقوله: (سبحانك اللهم وبحمدك) تقديره: سبحتك بحمدك[٦]، أي: سبحتك بما حمدت به نفسك[٧]. فالباء ـ على هذا التقدير ـ للاستعانة.

وقدره بعضهم: أسبحك تسبيحاً متلبساً ومقترناً بحمدك، فتكون الباء ـ على هذا التقدير ـ للملابسة[٨].

والأقوال الثلاثة الأول أرجح من هذا القول الأخير؛ لأن الأصل أن تكون الواو لمعنى مقصود، وليست زائدة.

---

(١) انظر: قاعدة حسنة في الباقيات الصالحات، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ص٥١.
(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، للمباركفوري: ٢/ ٤٧.
(٣) انظر: فتح الباري، لابن حجر العسقلاني: ١٣/ ٥٤١.
(٤) انظر: تحفة الأحوذي، للمباركفوري: ٩/ ٣٩٣.
(٥) شأن الدعاء، للخطابي: ص١٤٤، ومغني اللبيب، لابن هشام: ص١٤٠.
(٦) انظر: شأن الدعاء، للخطابي: ص١٤٤.
(٧) انظر: نور المسرى، لأبي شامة: ص٤٦.
(٨) انظر: تحفة الأحوذي، للمباركفوري: ٢/ ٤٧.

ثم إن هذه الأقوال لا يظهر فيها ـ عند التأمل ـ اختلاف حقيقي في المعنى، وإن كان القول الأول ـ في الجملة ـ أحسن بياناً للمعنى المقصود بالواو في هذه الصيغة من التسبيح، وبه تكون صيغة (سبحان الله وبحمده) مثل صيغة (سبحان الله والحمد لله).

وعلى كل، فإن صيغة التسبيح المقرون بالتحميد من أكمل صيغ الثناء على الله تعالى، وأدلها على استغراق الثناء عليه سبحانه بكل كمال؛ لأن التسبيح دال على تنزيهه عن كل ما لا يليق به من النقائص والعيوب والأمثال والشركاء، والتحميد دال على إثبات ما يليق به من المحامد والفضائل وصفات الكمال، فإذا سبح العبد بحمده، جمع له بين هذا وهذا[(١)]، فنفى بـ (سبحان الله) كل نقص عن الله تعالى؛ لأن ترك التقييد فيه مشعر بالتعميم، وأثبت بـ (حمده) كل وصف كمال وجلال ثابت لله ﷻ؛ لأنه مضاف إلى معرفة، فتعم جميع المحامد[(٢)]. فكان في قوله: (سبحان الله وبحمده) و(سبحان الله والحمد لله) ونحوه، إثبات تنزيهه وتعظيمه وتحميده وإلهيته[(٣)]، وبالله التوفيق.

المسألة الثانية: قرن التسبيح بالتهليل

ورد التسبيح مقروناً بالتهليل في مواضع من الكتاب والسنة، وذلك مثل:

١ ـ قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ

---

(١) انظر: منهاج السنة النبوية، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/١٠٤ ـ ١٠٥، وأضواء البيان، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: ٢/١١١.

(٢) انظر: ملحة الاعتقاد، لعز الدين بن عبد السلام، تحقيق حسن السماحي: ص٣٥ ـ ٣٦، وفتح الباري، لابن حجر العسقلاني: ١٣/٥٤١، وأضواء البيان: ٢/١١١.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠/٢٥٣.

إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]. فقوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تهليل. وقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تسبيح.

٢ ـ وقوله تعالى ـ مخبراً عن نبيه يونس عليه السلام ـ: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧]. فقوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ تهليل. وقوله: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ تسبيح.

٣ ـ وحديث عائشة رضي الله عنها قالت: «افتقدت النبي ﷺ ذات ليلة، فظننت أنه ذهب إلى بعض نسائه، فتحسست، ثم رجعت، فإذا هو راكع أو ساجد يقول: «**سبحانك وبحمدك، لا إله إلا أنت**». فقلت: بأبي أنت وأمي، إني لفي شأن، وإنك لفي آخر»(١). ففي هذا الذكر الذي كان يقوله ﷺ تسبيح مقرون بالتحميد والتهليل.

٤ ـ وحديث يسيرة(٢) رضي الله عنها قالت: قال لنا رسول الله ﷺ: «**عليكن بالتسبيح والتهليل والتقديس، ولا تغفلن فتنسين التوحيد**»(٣).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: ١/ ٣٥١ ـ ٣٥٢، برقم (٤٨٥).

(٢) هي يسيرة ـ بالتصغير ـ، ويقال: أسيرة ـ بهمزة ـ بنت ياسر، ويقال: أم ياسر، وتكنى أيضاً: أم حميضة، صحابية من الأنصار، وقيل: من المهاجرات، عرفت بروايتها لهذا الحديث المذكور، رضي الله عنها. انظر: الإصابة، للحافظ ابن حجر: ٨/ ١٦٣، وتقريب التهذيب، له: ٢/ ٥٣١.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه: ٥/ ٥٣٣، برقم (٣٥٨٣)، والحاكم في المستدرك: ١/ ٧٣٢، برقم (٢٠٠٧)، واللفظ له، وعند الترمذي: (الرحمة) بدل (التوحيد). وأخرجه أبو داود ـ بنحوه ـ في سننه: ٢/ ١٧٠، برقم (١٥٠١). قال الألباني: وهو حديث حسن، وصححه الحاكم والذهبي، وحسنه النووي والعسقلاني، وله شاهد عن عائشة موقوف. انظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة: ١/ ١٨٦، في الكلام على حديث رقم (٨٣). وكذا حسنه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٤٠٨٧).

ففي هذا الحديث أمر بملازمة التسبيح والتهليل، وهو دليل على مشروعية القرن بينهما في الذكر، كما يشرع إفرادهما في الذكر أيضاً. وقد ثبت في السنة قرن التسبيح بالتهليل في مواضع عديدة، سيأتي ذكرها ـ إن شاء الله ـ عند بيان المواضع التي يشرع فيها التسبيح مقروناً[١].

ولصيغة التسبيح المقرون بالتهليل دلالة عظيمة في مقام الثناء على الله تعالى وتوحيده، فإن التهليل صريح في نفي الإلهية عن كل ما سوى الله ﷻ، وإثباتها له وحده لا شريك له، فلا إله إلا الله، أي: لا معبود بحق إلا الله[٢]. والتسبيح صريح في تنزيه الله تعالى عن النقائص والأمثال.

فمنطوق التهليل توحيد، ومفهومه تنزيه؛ لأن الإلهية الحقة تقتضي انتفاء النقائص والأمثال.

ومنطوق التسبيح تنزيه، ومفهومه توحيد؛ لأن تنزهه عن النقائص والأمثال يقتضي اختصاصه بالإلهية، وأن لا يستحق العبادة أحد سواه سبحانه[٣].

فإذا قرن التسبيح بالتهليل كان التسبيح تقريراً لمعنى التهليل، وتحقيقاً لتنزيه الله تعالى وتوحيده.

المسألة الثالثة: قرن التسبيح بالتكبير

ورد التسبيح مقروناً بالتكبير في مواضع من السنة، ولم يرد مثل

---

(١) انظر: (٢/ ٦٣) من البحث.

(٢) انظر: تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، للشيخ سليمان بن عبد الله: ص٧٣، ومعارج القبول، للشيخ حافظ الحكمي: ٢/ ٤١٦، وشرح العقيدة الواسطة، للشيخ محمد خليل هراس: ص٥٦.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٦/ ١٢٣ ـ ١٢٤، وفتح الباري، لابن حجر العسقلاني: ١١/ ٢٠٧.

ذلك في القرآن الكريم، ومن أمثلة التسبيح المقرون بالتكبير:

ما جاء في حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: «بينما نحن نصلي مع رسول الله ﷺ إذ قال رجل من القوم: (الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيرا، وسبحان الله بكرة وأصيلا). فقال رسول الله ﷺ: **«من القائل كلمة كذا وكذا؟»** فقال رجل من القوم: أنا، يا رسول الله. قال: **«عجبت لها فتحت لها أبواب السماء»**. قال ابن عمر: فما تركتهن منذ سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك»[1].

فهذا الذكر ـ وهو (الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلاً) ـ قرن فيه التسبيح بالتكبير والتحميد.

وما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم، فقال: **(وما ذاك؟)** قالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق. فقال رسول الله ﷺ: **«أفلا أعلمكم شيئاً تدركون به من سبقكم، وتسبقون به من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل صنعكم؟»**، قالوا: بلى، يا رسول الله. قال: **«تسبحون وتكبرون وتحمدون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين مرة»**»[2].

ففي هذا الحديث إرشاد إلى التسبيح مقروناً بالتكبير والتحميد في دبر كل صلاة.

وسيأتي ـ إن شاء الله ـ بيان هذا الحديث والذي قبله في مباحث

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: ١/ ٤٢٠، برقم (٦٠١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٢/ ٤٢٥، برقم (٨٤٣)، ومسلم في صحيحه: ١/ ٤١٦ ـ ٤١٧، برقم (٥٩٥)، واللفظ له.

التسبيح في الصلاة[١]، كما سيأتي ـ إن شاء الله ـ أمثلة أخرى للتسبيح المقرون بالتكبير في المواضع التي يشرع فيها التسبيح مقروناً[٢].

وكلمة التكبير (الله أكبر) تقتضي تفضيل الله تعالى على كل شيء فيما توصف به الأشياء من الكمالات، وفيما تنزه عنه من النقائص[٣]؛ لأنها أفعل تفضيل يدل على أنه سبحانه أكبر من كل شيء بجميع الاعتبارات[٤]، فهو ﷻ أكبر من كل شيء ذاتا وقدراً ومعنى وعزة وجلالة، أكبر من كل شيء في أسمائه وصفاته وأقواله وأفعاله، كما هو فوق كل شيء، وعال على كل شيء، وأعظم من كل شيء، وأجل من كل شيء في ذاته وأسمائه وصفاته وأقواله وأفعاله، فلا يساويه شيء في شيء من ذلك[٥].

وهذا المعنى العظيم الذي دل عليه التكبير إذا تأملته وجدت بينه وبين التسبيح مناسبة تامة، فكل منهما يتضمن التعظيم والإجلال لله تبارك وتعالى، ولأن التسبيح دال على أنه سبحانه منزه عن النقائص كلها، وعن الأمثال بأنواعها، وهذه الدلالة تتضمن أيضاً أنه تعالى أكبر من كل شيء، وأنه لا مثل له؛ لأن كل شيء غيره لا بد أن يكون فيه نقص، ولا بد أن يكون له مثل، والله تعالى وحده الذي له الكمال المطلق الذي لا يلحقه نقص بوجه من الوجوه، وليس كمثله شيء في

---

(١) انظر: الفصل الأول من الباب الثالث: ص٥١٦، ٥٧٨.
(٢) انظر: الفصل الثالث من الباب الثالث: (٢/٦٣).
(٣) انظر: قاعدة حسنة في الباقيات الصالحات، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ص٢٥، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/٢٣٩.
(٤) انظر: الصواعق المرسلة، لابن قيم الجوزية: ٤/١٣٧٨.
(٥) انظر: المصدر السابق: ٤/١٣٧٩، وقاعدة حسنة في الباقيات الصالحات، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ص٢٣.

ذاته ولا في أسمائه وصفاته، ولا في أقواله وأفعاله تبارك وتعالى.

وإذا قرن بين التسبيح والتحميد والتكبير، نشأت من اقتران الثلاثة دلالة أخرى؛ لأن التسبيح يتضمن نفي النقائص والعيوب، والتحميد يتضمن إثبات صفات الكمال التي يحمد عليها، والتكبير تفصيل لما تضمنه التسبيح والتحميد من النفي والإثبات، فإن كل ذلك إما أن يكون مختصاً به، أو ليس كمثله شيء فيه[١].

وتجدر الإشارة هنا إلى ورود التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير مقترنة، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لأن أقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، أحب إلي مما طلعت عليه الشمس**»[٢].

وقد أوضح شيخ الإسلام ابن تيمية أن هذه الكلمات شطران:

فالتحميد مقرون بالتسبيح وتابع له، والتكبير مقرون بالتهليل وتابع له[٣]، ثم إن كلا من الكلمتين يتضمن معنى الكلمتين الأخريين إذا أفردتا، وعند الاقتران تعطى كل كلمة خاصيتها[٤].

كما أن هذه الكلمات الأربع تتضمن معاني أسماء الله الحسنى وصفاته العليا، ففيها كمال المدح وتمام الثناء على الله تعالى[٥].

وجاء في كلام للعلامة عز الدين بن عبد السلام[٦] بيان اندراج

---

(١) انظر: قاعدة حسنة في الباقيات الصالحات: ص٢٦، ٣١.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: ٤/ ٢٠٧٢، برقم (٢٦٩٥).
(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠/ ٢٥١ و٢٤/ ٢٣١، ٢٣٢، وقاعدة حسنة في الباقيات الصالحات، له: ص١٨.
(٤) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠/ ٢٥٢، ٢٥٣ ـ ٢٥٤.
(٥) انظر: المصدر السابق: ١٠/ ٢٥٤.
(٦) هو عبد العزيز بن عبد السلام بن القاسم بن الحسن السلمي، عز الدين، =

أسماء الله تعالى في هذه الكلمات الأربع، حيث بين أن ما كان من أسماء الله تعالى سلبا، فهو مندرج تحت كلمة (سبحان الله)، كالقدوس، والسلام. وما كان من أسمائه إثباتاً، فهو مندرج تحت كلمة (الحمد لله)، كالعليم، والسميع، البصير. وما كان من أسمائه مدحاً فوق ما يعرفه البشر ويدركونه، فهو مندرج تحت كلمة (الله أكبر)، كالأعلى، والمتعالي. وما كان من أسمائه جامعاً لجميع هذه المعاني على الإجمال، فهو مندرج تحت كلمة (لا إله إلا الله)، كالواحد، والأحد، وذي الجلال والإكرام؛ لأن الألوهية ترجع إلى استحقاق العبودية، ولا يستحق العبودية إلا من اتصف بجميع أوصاف الكمال ونعوت الجلال، وهو الله وحده سبحانه وتعالى[١].

ولهذا كانت لهذه الكلمات الأربع فضائل كثيرة في الكتاب والسنة، منفردة ومشتركة، كما سيأتي بيانه ـ إن شاء الله ـ عند الكلام على فضل التسبيح[٢].

المسألة الرابعة: قرن التسبيح بأسماء الله تعالى وصفاته

ولهذه المسألة أيضاً أهمية خاصة؛ لأن لفظة التسبيح (سبحان) لازمة الإضافة في الكلام، كما سبق بيانه عند بحث استعمالاته في

= أبو محمد، الدمشقي، الشافعي، الملقب بسلطان العلماء، كان عالماً بارعاً، وفقيهاً ناسكاً، أماراً بالمعروف نهاء عن المنكر، درس وأفتى وصنف، ومن مصنفاته: قواعد الأحكام في مصالح الأنام، وتوفي سنة (٦٦٠هـ)، رحمه الله. انظر: البداية والنهاية، لابن كثير: ١٣/٢٤٨ ـ ٢٤٩، وشذرات الذهب، لابن العماد: ٥/٣٠١ ـ ٣٠٢.

(١) انظر: ملحة الاعتقاد: ص٣٥ ـ ٣٧.

(٢) انظر: الفصل الثاني من الباب الثاني: ص٤٤٤ ـ ٤٦٧.

اللغة[١]، والغالب أن تضاف إلى لفظ الجلالة، مثل: (سبحان الله)، أو إلى لفظ (رب)، مثل: (سبحان ربي)، أو إلى ضمير عائد إلى الله تعالى، مثل: (سبحانك) و(سبحانه).

فالتسبيح حيث وقع في الكتاب أو السنة فهو مضاف إلى اسم من أسماء الله تعالى أو ضمير عائد إليه سبحانه.

وكثيراً ما يأتي التسبيح ـ مع الاسم أو الضمير المضاف إليه ـ مقروناً باسم آخر أو أكثر من أسماء الله تعالى الحسنى، أو مقروناً بصفة فأكثر من صفاته العليا.

وقد جاء في كتاب الله تعالى الأمر بالتسبيح باسم الله، كما قال تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [الواقعة: ٧٤، ٩٦، والحاقة: ٥٢]، والأمر بتسبيح اسمه، كما قال تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ [الأعلى: ١].

وفي هذه الآيات دليل على قرن التسبيح بأسماء الله تعالى وصفاته، غير أن العلماء مختلفون في تفسير هذه الآيات، بناء على اختلافهم في الباء من قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ هل هي أصلية أو صلة؟.

حيث ذهب فريق من العلماء إلى أن الباء صلة زائدة[٢]، وأنها داخلة على المفعول، كالباء في قوله: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ [مريم: ٢٥]، أي: وهزي إليك جذع النخلة[٣].

وذهب فريق آخر من العلماء إلى أن الباء أصلية وليست زائدة،

---

(١) انظر: ص٥٦.

(٢) انظر: تفسير البغوي: ٨/ ٢٧، والدعاء المأثور وآدابه، للطرطوشي: ص١٦٤، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٧/ ٢٣٤، وأضواء البيان، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: ٥/ ٢٤٩.

(٣) انظر: أضواء البيان، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: ٥/ ٢٤٩.

وأنها للملابسة[١]، أو المصاحبة[٢]، أو أنها للاستعانة[٣].

وقال بعضهم: إنها للتعدية؛ لأن الفعل (سبح) يتعدى بنفسه تارة، كقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾. ويتعدى بحرف الجر (الباء) تارة، كقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾[٤].

كما اختلف العلماء أيضاً في لفظ (اسم) في هذه الآيات: هل هو صلة لا معنى له، أو هو بمعنى المسمى، أو بمعنى التسمية، أو يراد به الاسم الذي هو اللفظ الدال على المسمى؟

وإذا كان بمعنى اللفظ الدال على المسمى، فهل هو للجنس، أو هو واحد مقصود؟.

وقد نتج عن هذه الاختلافات ـ في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾، وقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ ـ سبعة أقوال[٥]:

القول الأول: أن الاسم صلة[٦]، بمعنى أنه زائد لا معنى له[٧]،

---

(١) انظر: الدر المصون، للسمين الحلبي: ١٠/ ٢٣٣، وروح المعاني، للآلوسي: ١٤/ ١٥١، وفتح القدير، للشوكاني: ٥/ ٢٣١.

(٢) انظر: تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور: ٢٩/ ١٥١.

(٣) انظر: روح المعاني: للآلوسي: ١٤/ ١٥١.

(٤) انظر: الدر المصون، للسمين الحلبي: ١٠/ ٢٣٣، وفتح القدير، للشوكاني: ٥/ ٢٣١.

(٥) هذا العدد بحسب ما اطلعت عليه من الأقوال في تفسير هذه الآيات.

(٦) انظر: النكت والعيون، للماوردي: ٦/ ٢٥١، وتفسير البغوي: ٨/ ٣٩٩، والدعاء المأثور وآدابه، للطرطوشي: ص١٦٤، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٢٠/ ١٣، وتفسير البيضاوي: ١/ ٦، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ١٩٩، والتسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٢/ ٥٦٢.

(٧) انظر: تفسير الطبري: ١٢/ ٥٤٣، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ١٩٩.

أو ذكر لقصد تعظيم المسمى[(١)]؛ لأن التعظيم إذا وجب للمعظم، فقد تعظم ما هو متعلق به، كما يقال: سلام على الحضرة العالية، والمجلس الكريم، ونحو ذلك من العبارات[(٢)].

فمعنى قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ وقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾: سبح ربك، أي: نزهه عما لا يليق به[(٣)].

ويترتب على هذا القول أن الباء والاسم كليهما زائد، ولا معنى لهما.

ولا شك أن القول بزيادة الباء أهون من القول بزيادة لفظ (اسم)؛ لأن زيادة باء الجر معهودة في كلام العرب، لقصد التوكيد، ولذلك شواهد في كتاب الله تعالى[(٤)].

وأما زيادة الاسم فتفتقر إلى دليل، والأصل عدم الزيادة، وما استدل به بعضهم ـ على زيادة لفظ (اسم) في الكلام ـ من قول الشاعر:

«إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ... ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر»[(٥)]

---

(١) انظر: النكت والعيون، للماوردي: ٦/ ٢٥١، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٢٠/ ١٣، وروح المعاني: للآلوسي: ١٥/ ١٣٠.

(٢) انظر: بدائع الفوائد، لابن قيم الجوزية: ١/ ٢١.

(٣) انظر: تفسير القرطبي: ١٢/ ٥١٣، وتفسير البغوي: ٨/ ٣٩٩، والتسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٢/ ٥٦٢.

(٤) انظر: مغني اللبيب، لابن هشام الأنصاري: ص١٤٤ ـ ١٥٠، والإتقان في علوم القرآن، للسيوطي: ١/ ٥٠٤ ـ ٥٠٥.

(٥) البيت من شعر لبيد بن ربيعة العامري، وهو في ديوانه: ص٧٩ ـ ٨٠، وانظر: النكت والعيون، للماوردي: ٦/ ٢٥١، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٢٠/ ١٣، وتفسير البيضاوي: ١/ ٦، وفتح الباري، لابن حجر العسقلاني: ١١/ ١١٤.

لا يسلم لهم هذا الاستدلال؛ لأن للعلماء في لفظ الاسم في هذا البيت توجيهات عديدة، وكلها منافية للقول بزيادته، ولا مجال هنا لذكر هذه التوجيهات[١].

القول الثاني: أن الاسم بمعنى المسمى، أي: الذات[٢]، فقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ وقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ بمعنى: سبح ربك[٣]؛ لأن أحداً لا يقول: سبحان اسم الله، أو سبحان اسم ربنا، وإنما يقول: سبحان الله، وسبحان ربنا. فالمسبح هو المسمى، وهو الله، وذلك دليل على أن الاسم هو المسمى، ولا فرق بينهما[٤].

وهذا القول فيه نظر، للأمور الآتية:

١ ـ أن مجيء الاسم بمعنى المسمى لا يعرف له شاهد صحيح، لا من كلام فصيح ولا غير ذلك[٥]، بل الاسم هو اللفظ الموضوع على الشيء للتمييز[٦]، ولهذا يقال: الاسم دليل على المسمى، وعلم على المسمى، ونحو ذلك[٧]. ويقال: ما اسم هذا؟ فيقال: زيد ـ مثلاً ـ،

---

(١) انظر هذه التوجيهات في: تفسير الطبري: ١/ ٨٠ ـ ٨٢، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ٢٠٢، وبدائع الفوائد، لابن قيم الجوزية: ١/ ٢٣ ـ ٢٤.

(٢) انظر: الدعاء المأثور وآدابه، للطرطوشي: ص١٦٤، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٧/ ٢٣٤ و٢٠/ ١٤، وفتح القدير، للشوكاني: ٥/ ٢٣١.

(٣) انظر: تفسير البغوي: ٨/ ٣٩٩، والمحرر الوجيز، لابن عطية: ١٦/ ٢٨٠، والتسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٢/ ٥٦٢.

(٤) انظر: تفسير البغوي: ٨/ ٣٩٩، وتفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني: ٦/ ٤٣، ٢٠٦، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٢٠/ ١٤، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ١٩٠.

(٥) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ١٩٦.

(٦) انظر: القاموس المحيط، للفيروزآبادي: مادة (سمو): ص١٦٧٢.

(٧) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ٢٠٩.

فيجاب باللفظ، ولا يقال: ما اسم هذا؟ فيقال: هو هو[(١)].

٢ ـ أن لفظ (اسم) ـ في الآيات المذكورة ـ لو كان بمعنى المسمى، لكان يكفي قوله: (فسبح بربك العظيم) و(سبح ربك الأعلى)، فإن نفس الاسم عندهم هو نفس الرب، فكان هذا تكريراً من دون فائدة تذكر[(٢)].

٣ ـ أن الذي يقول: سبحان الله، وسبحان ربنا، إنما نطق بالاسم الذي هو لفظ (الله) ولفظ (ربنا)، فتسبيحه وقع على الاسم، لكن مراده هو المسمى بهذا الاسم. فهذا يبين أن المسبح ينطق باسم المسمى، ويريد به تسبيح المسمى، لا يريد به تسبيح مجرد الاسم.

وهذا لا ريب فيه، لكن هذا لا يدل على أن لفظ «اسم» يراد به المسمى، بل يدل على أن أسماء الله تعالى ـ مثل: الله، ربنا، ربي الأعلى، ونحو ذلك ـ يراد بها المسمى، مع أنها في نفسها ليست هي المسمى، لكن يراد بها المسمى[(٣)].

ويتبين ـ بهذا ـ أن هؤلاء القائلين: الاسم هو المسمى، إنما يسلم لهم أن أسماء الأشياء إذا ذكرت في الكلام، أريد بها مسمياتها، وهذا لا ينازع فيه أحد من العقلاء، لا أن لفظ (اسم) هو الذات[(٤)].

«وهذا هو الذي أراده من قال من أهل السنة: إن الاسم هو المسمى[(٥)]. أرادوا به أن الاسم إذا دعي وذكر يراد به المسمى، فإذا

---

(١) انظر: المصدر السابق: ٥/ ١٩٢. (٢) انظر: المصدر نفسه: ٦/ ١٩٣.
(٣) انظر: المصدر نفسه: ٦/ ١٩٢، ١٩٦ ـ ١٩٧، ٢٠٠ ـ ٢٠١ و١٦/ ٣٢٣.
(٤) انظر: المصدر نفسة: ٦/ ٢٠٢.
(٥) قال به بعض العلماء من أهل السنة بعد الأئمة، منهم: أبو القاسم الطبري، وأبو القاسم اللالكائي، وأبو محمد البغوي، وغيرهم. وانظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ١٨٧ ـ ١٨٨.

قال المصلي: (الله أكبر)، فقد ذكر اسم ربه، ومراده المسمى.

لم يريدوا به أن نفس اللفظ هو الذات الموجودة في الخارج، فإن فساد هذا لا يخفى على من تصوره، ولو كان كذلك كان من قال: (ناراً) احترق لسانه، وبسط هذا له موضع آخر»(١).

القول الثالث: أن الاسم بمعنى التسمية، فقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ وقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ بمعنى: سبح تسمية ربّك، أي: نزه تسميتك ربك وذكرك إياه أن تذكره إلا وأنت له خاشع معظم، ولذكره محترم(٢).

والمراد بالتسمية ـ عند أصحاب هذا القول ـ: اللفظ الذي هو نفس الاسم، كلفظ الجلالة (الله)، و(الرحمن) و(الرحيم)، وغيرها من أسماء الله تعالى(٣).

وهذا الذي جعله هؤلاء تسمية هو الاسم عند الناس جميعهم، وليس هو التسمية، بل التسمية: مصدر (سمى، يسمي، تسمية): إذا جعل للشيء اسماً، فالتسمية نطق بالاسم وتكلم به، وليست هي الاسم نفسه(٤).

ومنشأ الغلط في هذا القول والذي قبله هو الخلط بين الاسم والمسمى والتسمية، وعدم التفريق بينها، وهي ثلاث حقائق يجب التفريق بينها.

---

(١) مقتبس من: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٦/٣٢٣.
(٢) انظر: تفسير الطبري: ١٢/٥٤٣، وتفسير البغوي: ٨/٤٠٠، والدعاء المأثور وآدابه، للطرطوشي: ص١٦٤، والمحرر الوجيز، لابن عطية: ١٦/٢٨١، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٢٠/١٤.
(٣) انظر: المحرر الوجيز، لابن عطية: ١٦/٢٨٠ ـ ٢٨١، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/١٨٩.
(٤) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/١٩٢، ١٩٥.

فالاسم: عبارة عن اللفظ الدال على المسمى.

والمسمى: عبارة عن الشيء الموجود في الأعيان أو الأذهان.

والتسمية: عبارة عن فعل المسمي ووضعه الاسم للمسمى[(١)].

ولا سبيل إلى جعل لفظين من هذه الثلاثة مترادفين على معنى واحد، لتباين حقائقها، وإذا جعل الاسم هو المسمى أو التسمية بطل واحد من هذه الحقائق الثلاثة ولا بد[(٢)].

القول الرابع: أن الاسم هو اللفظ، فقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ وقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ أمر بتسبيح اسم الله، أي: بتنزيهه، فنفس الاسم مقصود بالذكر في هذه الآيات[(٣)]، لأنه كما يجب تنزيه ذاته سبحانه وصفاته عن النقائص، يجب تنزيه الألفاظ الموضوعة لها عن سوء الأدب وعن كل ما لا يليق بها[(٤)].

ثم ذكر هؤلاء لتنزيه أسماء الله تعالى أوجهاً، منها:

١ ـ تنزيه أسماء الله عن أن يسمى بها شيء سواه، وعن إطلاقها على غيره بزعم أنهما فيها سواء[(٥)].

---

(١) انظر: البحر المحيط، لأبي حيان: ١/١٢٧، وبدائع الفوائد، لابن قيم الجوزية: ١/١٨ ـ ١٩، ومعتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله الحسنى، للدكتور محمد بن خليفة التميمي: ص٢٤٩.

(٢) انظر: بدائع الفوائد، لابن القيم: ١/٢٠.

(٣) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٢/٥٦٢، وأضواء البيان، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: ٥/٢٥٠.

(٤) انظر: تفسير البيضاوي: ١/٦، وروح المعاني، للآلوسي: ١٤/١٥١، وأضواء البيان، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: ٥/٢٥٠.

(٥) انظر: تفسير الطبري: ١٢/٥٤٢ ـ ٥٤٣، والنكت والعيون، للماوردي: ٦/ ٢٥١، والمحرر الوجيز، لابن عطية: ١٦/٢٨١، ونور المسرى، لأبي شامة: =

٢ ـ تنزيه أسماء الله عن غير ما سمى به نفسه، وعن ذكرها في غير موضعها، وعن استعمالها في غير ما أذن في استعمالها فيه[1].

٣ ـ تنزيه أسماء الله عن الإلحاد[2] فيها بالتأويلات الفاسدة والمعاني الباطلة، كالتشبيه والتعطيل[3][4].

٤ ـ تنزيه أسماء الله عن أن تذكر في حال الغفلة دون خشوع، وعن اللهو واللعب بها، كالتلفظ بها في حالة تنافي الخشوع والإجلال[5].

٥ ـ تنزيه أسماء الله عن الأماكن غير الطاهرة، ومنه صيانة الأوراق المكتوبة من الابتذال[6] صوناً لاسم الله تعالى[7].

= ص٤١، وتفسير البيضاوي: ٢/٥٨٩، والتسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٢/٥٦٢.

(١) انظر: مسألة سبحان، لنفطويه: ص٤١، ونور المسرى، لأبي شامة: ص٤١، وأضواء البيان (تكملته)، للشيخ عطية سالم: ٦/٢٧.

(٢) الإلحاد: مصدر ألحد، إلحاداً، أي: مال، وعدل، وماري، وجادل. وانظر: القاموس المحيط، للفيروزآبادي: مادة (لحد): ص٤٠٤.

(٣) التشبيه: هو التمثيل، كما سبق في أنواع التسبيح باعتبار معناه: ص١٦٢، والتعطيل: هو نفي معاني أسماء الله وإنكار قيامها بذاته سبحانه. وانظر: ٢/٣٩١ من البحث.

(٤) انظر: تفسير البيضاوي: ٢/٥٨٩، والتسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٢/٥٦٢، وأضواء البيان، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: ٥/٢٥٠.

(٥) انظر: التسهيل، لابن جزي: ٢/٥٦٢، وأضواء البيان (تكملته) للشيخ عطية سالم: ٦/٢٧.

(٦) الابتذال: ضد الصيانة [القاموس المحيط، للفيروزآبادي: مادة (بذل): ص١٢٤٧].

(٧) انظر: روح المعاني، للآلوسي: ١٥/١٣٠، وأضواء البيان (التكملة)، للشيخ عطية سالم: ٦/٢٨.

فهذه أهم أوجه التنزيه التي ذكرها الذين جعلوا التسبيح واقعاً على الاسم نفسه في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ وقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾.

ولا شك أن هذه الأوجه المذكورة صحيحة كلها، وهي مما تستحقه أسماء الله تعالى من التنزيه[1]، لكن هذه الأوجه تابعة للمراد الأصلي بهذه الآيات، وليست هي المقصودة بها القصد الأول[2].

القول الخامس: أن الاسم هو اللفظ، وقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ يحتمل أن يكون الاسم هنا واحداً مقصوداً، ويكون (العظيم) صفة له، فكأنه تعالى أمر عبده أن يسبحه باسمه الأعظم، وإن كان لم ينص عليه[3].

وهذا القول أشار إليه ابن عطية هكذا احتمالاً، ولا أعلم له وجهاً يسانده، بل هو ضعيف؛ لأن (العظيم) ليس بمعنى (أعظم)، وهو ـ في الآية ـ صفة للرب، وليس صفة للاسم، كما سيأتي بيانه من السنة قريباً.

القول السادس: أن الاسم هو اللفظ الدال على المسمى، وقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ و﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ بمعنى: سبح ذاكراً اسم ربك العظيم والأعلى ناطقاً به[4].

---

(١) انظر: مطلب (التوقير والتعظيم لأسماء الله وصفاته لفظاً ومعنى وظاهراً وباطناً) في ٢/٢٢١ من البحث.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/١٩٩.

(٣) انظر: المحرر والوجيز، لابن عطية: ١٥/٣٩٥.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ١١/٥٦٧ و١٢/٢٢٤، والمحرر الوجيز: لابن عطية: ١٥/٣٩٥، ونور المسرى، لأبي شامة: ص٤١، وتفسير البيضاوي: ٢/٤٦٣، والتسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٢/٥٦٢، وروح المعاني، =

والاسم هنا للجنس، أي: بأسماء ربك[1]، فيعم كل ما هو معلوم من أسماء الله الحسنى.

وهذا المعنى ذكره وأشار إليه كثير من المفسرين، وهو صريح في أن ذكر الله تعالى والثناء عليه بالتسبيح يكون مقروناً بأسمائه الحسنى المتضمنة لصفاته العليا.

وقد أوضح ذلك الإمام ابن قيم الجوزية في جواب له عن تعلق الذكر والتسبيح المأمور به بالاسم، حيث قال: «الجواب الصحيح أن الذكر الحقيقي محله القلب؛ لأنه ضد النسيان، والتسبيح نوع من الذكر، فلو أطلق الذكر والتسبيح لما فهم منه إلا ذلك، دون اللفظ باللسان، والله تعالى أراد من عباده الأمرين جميعاً، ولم يقبل الإيمان وعقد الإسلام إلا باقترانهما واجتماعهما، فصار معنى الآيتين: سبح ربك بقلبك ولسانك، واذكر ربك بقلبك ولسانك، فأقحم الاسم تنبيهاً على هذا المعنى، حتى لا يخلو الذكر والتسبيح من اللفظ باللسان؛ لأن ذكر القلب متعلقه المسمى المدلول عليه بالاسم، دون ما سواه، والذكر باللسان متعلقه اللفظ مع مدلوله؛ لأن اللفظ لا يراد لنفسه، فلا يتوهم أحد أن اللفظ هو المسبح دون ما يدل عليه من المعنى.

وعبر لي شيخنا أبو العباس ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ عن هذا المعنى بعبارة لطيفة وجيزة، فقال: المعنى: سبح ناطقاً باسم ربك متكلماً به. وكذا ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ المعنى: سبح ربك ذاكراً اسمه.

وهذه الفائدة تساوي رحلة، لكن لمن يعرف قدرها، فالحمد لله

= للآلوسي: ١٤/ ١٥١، وتفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور: ٢٩/ ١٥١ و٣٠/ ٢٧٢ ـ ٢٧٤، وتيسير الكريم الرحمن، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص٩٢٠.

(١) انظر: تفسير الطبري: ١١/ ٦٦٨، والمحرر الوجيز، لابن عطية: ١٥/ ٣٩٥.

المنان بفضله، ونسأله تمام نعمته» اهـ[١].

القول السابع: أن التسبيح في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ وقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ بمعنى الصلاة.

ولأصحاب هذا القول تعبيرات في معنى هذه الآيات، منها:

ـ المعنى: صل بذكر ربك، أي: صل وأنت له ذاكر، ومنه وجل خائف[٢].

ـ المعنى: صل بذكر ربك، بأن تفتتح به الصلاة، وأن تكون ذاكراً له بقلبك في نيتك للصلاة[٣].

ـ المعنى: صل بأسماء الله، لا كما يصلي المشركون بالمكاء[٤] والتصدية[٥][٦].

وهذه التعبيرات متفقة على أن الأمر بالتسبيح في الآيات المذكورة تعني الصلاة بذكر الله تعالى، وهذا التفسير لا يختلف عما سبق؛ لأن الصلاة مشتملة على التسبيح باسم الله تعالى لفظاً في الركوع والسجود، ولأن الصلاة بأقوالها وأفعالها تسبيح لله تعالى في المعنى، ولهذا

---

(١) بدائع الفوائد: ١/ ٢١ ـ ٢٢.
(٢) انظر: تفسير الطبري: ١٢/ ٥٤٣، وتفسير البغوي: ٨/ ٢٧، وتفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني: ٦/ ٢٠٦، وفتح القدير، للشوكاني: ٥/ ٢٣١.
(٣) انظر: النكت والعيون، للماوردي: ٦/ ٢٥٢.
(٤) المكاء: الصفير بالفم، أو أن يشبك بأصابعه وينفخ فيها. انظر: مجاز القرآن، لأبي عبيدة: ١/ ٢٤٦، والقاموس المحيط، للفيروزآبادي: مادة (مكو): ص١٧٢١.
(٥) التصدية: التصفيق بالأكف. انظر: مجاز القرآن، لأبي عبيدة: ١/ ٢٤٦، والقاموس المحيط، للفيروزآبادي: مادة (صدي): ص١٦٧٩.
(٦) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٢٠/ ١٥.

سميت الصلاة تسبيحاً، كما تقدم بيان ذلك[(١)].

وللإمام ابن قيم الجوزية كلام في هذا الباب فرق فيه بين قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ وقوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾، بسبب دخول الباء في الأول دون الثاني، حيث قال: «فإن قيل: فما الفائدة في دخول الباء في قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ ولم تدخل في قوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾؟ قيل: التسبيح يراد به التنزيه والذكر المجرد دون معنى آخر، ويراد به ذلك مع الصلاة، وهو ذكر وتنزيه مع عمل، ولهذا تسمى الصلاة تسبيحاً.

فإذا أريد التسبيح المجرد فلا معنى للباء؛ لأنه لا يتعدى بحرف جر، لا تقول: سبحت بالله. وإذا أردت المقرون بالفعل ـ وهو الصلاة ـ أدخلت الباء تنبيهاً على ذلك المراد، كأنك قلت: سبح مفتتحاً باسم ربك، أو ناطقاً باسم ربك، كما تقول: صل مفتتحاً أو ناطقاً باسمه» اهـ[(٢)].

ومهما قيل في تفسير هذه الآيات فقد دلت السنة على أن المراد بها النطق بالتسبيح مقروناً باسم الله تعالى، وذلك لما جاء في حديث عقبة ابن عامر[(٣)] رضي الله عنه قال: «لما نزلت: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾، قال رسول الله ﷺ: «**اجعلوها في ركوعكم**». فلما نزلت: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾، قال: «**اجعلوها في سجودكم**»»[(٤)].

---

(١) انظر: ص٨٦ ـ ٩٦ من البحث. (٢) بدائع الفوائد: ١/ ٢٣.

(٣) هو عقبة بن عامر بن عبس بن عمرو الجهني، صحابي مشهور، اختلف في كنيته، وأشهرها: أبو حماد. كان قارئاً كاتباً، وفقيهاً شاعراً، فصيح اللسان، شهد الفتوح، وولي إمرة مصر لمعاوية مدة، وتوفي قرب سنة (٦٠هـ)، رضي الله عنه. انظر: الإصابة، لابن حجر العسقلاني: ٤/ ٥٢٠ ـ ٥٢١، وتقريب التهذيب، له: ٢/ ٣١.

(٤) أخرجه أبو داود في سننه: ١/ ٥٤٢، برقم (٨٦٩)، وابن ماجه في سننه: =

. . . .

= ١/ ٢٨٧، برقم (٨٨٧)، وأحمد في مسنده: ٤/ ١٥٥، والحاكم في المستدرك: ١/ ٣٤٧، برقم (٨١٨) و٢/ ٥١٩ ـ ٥٢٠، برقم (٣٧٨٣). وقال الحاكم ـ في الموضع الأول ـ: «هذا حديث حجازي صحيح الإسناد، وقد اتفقا على الاحتجاج برواته غير إياس بن عامر، وهو عم موسى بن أيوب القاضي ومستقيم الإسناد»، وتعقبه الذهبي فقال: «إياس ليس بالمعروف». وقال الحاكم ـ في الموضع الثاني ـ: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي فقال: «الحديث صحيح». وقال الألباني ـ في التعليق على هذا الحديث في مشكاة المصابيح: ١/ ٢٧٧، برقم (٨٧٩) ـ: «إسناده محتمل للتحسين، رجاله ثقات كلهم غير الراوي عن عقبة، وهو إياس بن عامر، قال العجلي: لا بأس به، وذكره ابن حبان في الثقات. قال الحافظ: وصحح له ابن خزيمة، ومن خط الذهبي في تلخيص المستدرك: ليس بالقوي. قلت: وتناقض الذهبي، فإن الحاكم لما أخرج الحديث (٢/ ٤٧٧) وقال: صحيح الإسناد، وافقه الذهبي» اهـ.

ولا بد من التنبيه هنا على أن قول الذهبي في إياس هو: (ليس بالمعروف)، كما سبق في الموضع الأول الذي أخرج الحاكم فيه الحديث.

ثم إن الألباني ضعف الحديث في إرواء الغليل: ٢/ ٤٠ ـ ٤١، برقم (٣٣٤)، بسبب إياس هذا، حيث رجح قول الذهبي فيه: إنه ليس بالمعروف. قال الألباني: «وهذا الذي يقتضيه علم المصطلح، أنه غير معروف، لأنه لم يرو عنه غير ابن أخيه موسى بن أيوب» اهـ.

فحصل للألباني موقفان من هذا الحديث، كما حصل للذهبي قبله، وهذا الموضع يحتاج إلى بيان، وهو أن إياس بن عامر وإن كان لم يرو عنه إلا واحد ـ وهو ابن أخيه موسى بن أيوب ـ، إلا أنه قد وجد فيه تعديل معتبر، بقول العجلي فيه: «لا بأس به» [معرفة الثقات، بتحقيق عبد العليم عبد العظيم البستوي: ١/ ٢٣٩]، وقولهم في الراوي: لا بأس به، في مرتبة (صدوق). وانظر: [فتح المغيث شرح ألفية الحديث، للسخاوي، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان: ١/ ٣٣٨].

وذكر يعقوب الفسوي إياساً في ثقات التابعين من أهل مصر، وساق له هذا الحديث بإسناده: انظر: [كتاب المعرفة والتاريخ بتحقيق الدكتور أكرم ضياء =

فهذا الجعل المأمور به في الحديث هو قول: (سبحان ربي العظيم) في الركوع، وقول: (سبحان ربي الأعلى) في السجود، كما ثبت في حديث حذيفة رضي الله عنه: «أنه صلى مع النبي ﷺ، فكان يقول في ركوعه: «**سبحان ربي العظيم**»، وفي سجوده: «**سبحان ربي الأعلى**» الحديث(١).

= العمري: ٢/ ٤٨٧، ٥٠٢].

وكذلك ذكره ابن حبان في الثقات: (٤/ ٣٣)، وقال في صحيحه: «عم موسى بن أيوب، اسمه: إياس بن عامر، من ثقات المصريين» [الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، لابن بلبان، تحقيق شعيب الأرنؤوط: ٥/ ٢٢٦].

وقال الحافظ ابن حجر: «إياس بن عامر الغافقي ـ بالغين المعجمة ـ، المصري، صدوق، من الثالثة» [تقريب التهذيب: ١/ ٩٧].

ويتبين ـ بهذا التعديل من الأئمة المذكورين ـ أن إطلاق القول بأن إياس بن عامر ليس بالمعروف، فيه نظر، وأن رد روايته لذلك فيه نظر أيضاً؛ لأن مدار الجهالة في الراوي هو أن لا يعرف فيه تعديل ولا تجريح معين [انظر: نزهة النظر، للحافظ ابن حجر ـ ومعه النكت، لعلي بن حسن الحلبي ـ ص١١٧]، أما إن وجد في الراوي تعديل من إمام معتبر، فإن روايته مقبولة، ولو لم يرو عنه إلا واحد. قال الذهبي ـ في ترجمة أسفع بن أسلع ـ: «ما علمت روى عنه سوى سويد بن حجير الباهلي، وثقه مع هذا يحيى بن معين، فما كل من لا يعرف ليس بحجة، لكن هذا الأصل» [ميزان الاعتدال: ١/ ٢١١]. وقال الحافظ ابن حجر: «فإن سمي الراوي وانفرد راو واحد بالرواية عنه فهو مجهول العين، كالمبهم، فلا يقبل حديثه إلا أن يوثقه غير من ينفرد عنه على الأصح، وكذا من ينفرد عنه إذا كان متأهلاً لذلك» [نزهة النظر: ص١٣٥].

وبناء على هذا البيان يكون الصواب في حديث عقبة هذا أنه محتمل للتحسين، بل هو حسن ـ إن شاء الله ـ، وقد حسنه النووي في [المجموع شرح المهذب، بتحقيق محمد نجيب المطيعي: ٣/ ٣٨٦]، واحتج به كثير من أهل العلم في تقرير حكم التسبيح في الركوع والسجود، كما سيأتي في موضعه، إن شاء الله.

(١) أخرجه أبو داود في سننه: ١/ ٥٤٣، برقم (٨٧١)، والترمذي في سننه: =

ويتبين ـ بهذين الحديثين ـ أن أولى الأقوال بالصواب في تفسير قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ وقوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ هو قول من قال: إن معنى ذلك: سبح ذاكراً اسم ربك ناطقاً به.

وهذا المعنى يتضمن أن يكون التسبيح مقروناً باسم الله تعالى قولاً باللسان، واعتقاداً بالقلب.

ولما كان التسبيح بالقول لا يتأتى إلا بإجراء اسم الله ﷻ على اللسان، أوقع التسبيح في هذه الآيات على الاسم ـ مباشرة مرة، وبواسطة الباء مرة أخرى ـ، كما أوقع الذكر على الاسم في آيات أخرى، مثل قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾﴾ [المزمل: ٨]، وقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ [الإنسان: ٢٥].

وهذا هو حقيقة التسبيح الذي أثنى الله تعالى به على نفسه، وأثنى به عليه رسوله ﷺ، فإنه يكون دائماً مقروناً بأسماء الله تعالى الحسنى وصفاته العليا التي بها استحق الثناء بالجميل والتنزيه عن القبيح.

ومن الأمثلة على قرن التسبيح بأسماء الله تعالى وصفاته في الكتاب والسنة ما يلي:

١ ـ قول الله تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [يونس: ١٠]. فـ ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ تسبيح مقرون بلفظ الجلالة مزيداً فيه الميم المشددة المفتوحة، وللعلماء في هذه الميم المزيدة في (اللهم) ثلاثة أقوال:

= ٢/٤٨، برقم (٢٦٢)، والنسائي في سننه: ٢/ ٥٣٤ ـ ٥٣٥، برقم (١٠٤٥)، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح». وأخرجه مسلم بنحوه مطولاً في صحيحه: ١/ ٥٣٦ ـ ٥٣٧، برقم (٧٧٢).

أحدها: أنها عوض عن جملة محذوفة، والتقدير: (يا الله أمنا بخير) أي: اقصدنا بخير، ثم حذف الجار والمجرور (بخير)، وحذف المفعول، وهو الضمير من (أمنا)، فبقي في التقدير: (يا الله أم) ثم حذفوا الهمزة، لكثرة دوران هذا الاسم في الدعاء، فبقي (ياللهم)[(١)].

وهذا القول ضعيف لفظاً ومعنى:

أما لفظاً، فلأن الأصل عدم الحذف، وتقدير هذه المحذوفات الكثيرة خلاف الأصل، ولا دليل عليها، ولا يقتضيها القياس، فلا يصار إليها بغير دليل.

وأما معنى، فلأنه لا يحسن في الدعاء أن يقول العبد: اللهم أمني بكذا؛ لأن مثل هذا الكلام يقال لمن يعرض له الغلط والنسيان، فلا يقال ذلك للرب سبحانه؛ لأنه لا يضل ولا ينسى.

وهناك أوجه أخرى تبين ضعف هذا القول، ذكرها الإمام ابن قيم الجوزية[(٢)].

والثاني: أنها عوض عن حرف النداء. فـ (اللهم) معناه: (ياالله)، ولذلك لا يجمع بينهما في اختيار الكلام، فلا يقال: (يا اللهم) إلا فيما ندر، وهذا قول أقطاب اللغة[(٣)].

والثالث: أنها زيدت للتعظيم والتفخيم؛ لأن الميم ـ في كلام العرب ـ دالة على الجمع، مقتضية له في الغالب، فكان لحوقها في

---

(١) انظر: جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على خير الأنام، لابن قيم الجوزية، تحقيق مشهور حسن آل سلمان: ص٢٣٧.

(٢) انظر: المصدر السابق: ص٢٣٨ ـ ٢٣٩.

(٣) انظر: كتاب سيبويه: ١/ ٢٥ و٢/ ١٩٦، ومعاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ١/ ٣٩٤، والبحر المحيط، لأبي حيان: ٢/ ٤٣٦، وجلاء الأفهام، لابن القيم: ص٢٣٦.

آخر لفظ الجلالة إيذاناً بجمع الأسماء والصفات، فإذا قال العبد: (اللهم إني أسألك)، كأنه قال أدعو الله الذي له الأسماء الحسنى والصفات العليا بأسمائه وصفاته[(١)].

وهذا المعنى أحسن وأولى بلفظ (اللهم) مما قبله، وقد جاء ما في معناه عن غير واحد من السلف، كقول الحسن البصري[(٢)]: «اللهم مجمع الدعاء»[(٣)].

وقول النضر بن شميل[(٤)]: «من قال: اللهم، فقد دعا الله بجميع أسمائه»[(٥)].

---

(١) انظر: جلاء الأفهام، لابن القيم: ص٢٤٢ ـ ٢٤٨، وبدائع الفوائد، له: ١/ ٤٣٢.

(٢) هو الحسن بن أبي الحسن يسار البصري، أبو سعيد الأنصاري مولاهم، أحد الأئمة من التابعين، نشأ بالمدينة، وكان ثقة فاضلاً، فقيه النفس، كبير الشأن، مليح التذكير، بليغ الموعظة، رأساً في أنواع الخير، وتوفي سنة (١١٠هـ)، وقد قارب التسعين، رحمه الله. انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي: ١/ ٧١ ـ ٧٢، وتقريب التهذيب، لابن حجر: ١/ ١٦٦.

(٣) هذا الأثر نقله أبو عبد الله القرطبي في تفسيره (الجامع لأحكام القرآن: ٤/ ٥٤)، وأبو حيان الأندلسي في تفسيره (البحر المحيط: ٢/ ٤٣٦)، وابن قيم الجوزية في جلاء الأفهام: ص٢٥١.

(٤) هو النضر بن شميل المازني، أبو الحسن النحوي، نزيل مرو، كان إماماً في العربية والحديث، ثقة ثبتاً، حافظاً علامة، صاحب سنة، وألف كتباً كثيرة لم يسبق إليها، وولي قضاء مرو، وتوفي آخر يوم من سنة (٢٠٣هـ)، ودفن في أول يوم من سنة (٢٠٤هـ)، رحمه الله. انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي: ١/ ٣١٤ ـ ٣١٥، وتقريب التهذيب، لابن حجر: ٢/ ٣٠٦.

(٥) هذا الأثر أورده أبو عبد الله القرطبي في تفسيره (الجامع لأحكام القرآن: ٤/ ٥٤)، وأبو حيان الأندلسي في تفسيره (البحر المحيط: ٢/ ٤٣٦)، وابن قيم الجوزية في جلاء الأفهام: ص٢٥١.

وإذا علم هذا، تبين ما في صيغة (سبحانك اللهم) من المعاني والدلالات العظيمة، فـ (سبحانك) تنزيه له عن النقائص والعيوب، والأمثال والأنداد.

و(اللهم) إثبات لإلهيته الجامعة لأسمائه الحسنى وصفاته العليا التي تقتضي تنزيهه وتعظيمه وعبادته وحده لا شريك له.

٢ ـ وقوله تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ [يونس: ٦٨]. فقرن تعالى التسبيح باسمه الغني، ليبرهن على تنزهه عن اتخاذ الولد؛ لأن ذلك مناف لكمال غناه، فلا يتخذ أحد ولداً إلا لنقص في غناه، والله تعالى هو الغني الذي له الغنى التام بكل اعتبار من جميع الوجوه، فلأي شيء يتخذ ولداً، وليس به حاجة إلى شيء؟[(١)]، وكل شيء سواه فقير إليه، وهو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد.

٣ ـ وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء: ٢٢]. ومعنى هذه الآية: أنه لو كان في السموات والأرض آلهة ـ أي: معبودات ـ يستحقون العبادة غير الله تعالى، لفسدتا، أي: لفسدت السموات والأرض في ذاتهما، وفسد من فيهما من المخلوقات[(٢)]. وذلك أن قوام السموات والأرض والخليقة جميعاً بأن تؤله الإله الحق، فلو كان فيهما إله آخر غير الله تعالى لم يكن إلهاً حقاً؛ لأن الإله الحق لا يكون إلا واحداً لا شريك له ولا مثل له، ولو تألهت الخليقة غيره لفسدت كل الفساد، بانتفاء ما به صلاحها، إذ صلاحها بتأله الإله الحق، كما أنها لا وجود لها إلا

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص٣٦٩.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ١٥/٩، وتفسير البغوي: ٣١٤/٥، وتيسير الكريم الرحمن، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص٥٢١.

باستنادها إلى الرب الخالق الواحد، ويستحيل أن تستند في وجودها إلى ربين خالقين متكافئين، فكذلك يستحيل أن تستند في بقائها وصلاحها إلى إلهين متساويين[١]. فجماع صلاح الخليقة وسعادتها في أن يكون الله ﷻ هو معبودها الذي تنتهي إليه إرادتهم ومحبتهم، ويكون ذلك غاية الغايات ونهاية النهايات[٢]. ولهذا ختمت الآية الكريمة بتسبيح الله تعالى عما يصفه به المشركون من وجود آلهة أخرى معه، وقرن هذا التسبيح بربوبيته مضافة إلى العرش. والربوبية تتضمن معاني ترجع إلى كونه تعالى الخالق الموجد لجميع المخلوقات، والمالك لها المتصرف فيها بمشيئته وقدرته، وأن كل شيء له ومنه وإليه[٣].

ولذا يأتي اسمه (الرب) في الغالب مضافاً إلى عموم المخلوقات، مثل: (رب العالمين). أو إلى بعض المخلوقات تخصيصاً وتشريفاً، مثل: (رب العرش). وفي قوله: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ إشارة إلى موجب تسبيحه وتنزيهه عن كل نقص وعن كل شرك، لكماله وعظمته وربوبيته لكل شيء؛ لأنه رب العرش الذي هو سقف المخلوقات وأوسعها وأعظمها، فربوبيته لما دونه من باب أولى[٤].

٤ ـ وقوله تعالى: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٨]. وهنا قرن التسبيح بربوبيته المضافة إلى عموم المخلوقين؛ لأن (العالمين) بمعنى

---

(١) انظر: طريق الهجرتين، لابن قيم الجوزية: ص١٠٣، والجواب الكافي، له: ص٢١١.

(٢) انظر: درء تعارض العقل والنقل، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٩/ ٣٧٢ ـ ٣٧٣.

(٣) انظر: مقاييس اللغة، لابن فارس: مادة (رب): ٢/ ٣٨١ ـ ٣٨٣، وشرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز: ١/ ١١٦، وتجريد التوحيد المفيد، للعلامة أحمد بن علي المقريزي، تحقيق علي بن محمد العمران: ص٤٣.

(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص٥٢١.

المخلوقين[١]، وهو كل موجود سوى الله ﷻ[٢]. وقد جاء هذا التسبيح ضمن ما نادى الله تعالى به نبيه موسى عليه السلام عند كلامه تعالى معه لأول مرة، كما سيأتي بيانه ـ إن شاء الله ـ عند ذكر تسبيح الله تعالى لنفسه المقدسة[٣].

٥ ـ وقوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [يس: ٨٣]. وهذا تسبيح مقرون بصفة من صفات الله تعالى، حيث أضيف فيه لفظ (سبحان) إلى الاسم الموصول (الذي) المقصود به الله ﷻ. وصلته (بيده ملكوت كل شيء) وفيها إثبات اليد لله تعالى كما يليق بجلاله وعظمته، وإثبات ملكه تعالى لكل شيء؛ لأن (ملكوت) فعلوت من الملك، وهو مختص بملك الله تعالى[٤]، وصيغة (الفعلوت) من صيغ المبالغة[٥]. قال الحافظ ابن كثير: «ومعنى قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ كقوله ﷻ: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [المؤمنون: ٨٨]، وكقوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١]، فالملك والملكوت واحد في المعنى، كرحمة ورحموت، ورهبة ورهبوت، وجبر وجبروت. ومن الناس من زعم أن الملك هو عالم الأجسام، والملكوت هو عالم الأرواح، والصحيح الأول، وهو الذي عليه الجمهور من المفسرين وغيرهم» اهـ[٦].

---

(١) انظر: مجاز القرآن، لأبي عبيدة: ١/ ٢٢.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ١/ ٢٥.
(٣) انظر: ص٢٥٥ ـ ٢٦٣ من البحث.
(٤) انظر: مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني: ص٧٧٥، والعلم الهيب، للعيني: ص٢٨٧.
(٥) انظر: النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير: ١/ ٢٣٦، والعلم الهيب، للعيني: ص٢٨٦ ـ ٢٩٧.
(٦) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٥٩٠.

٦ ـ وقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الصافات: ١٨٠]. وهذا تنزيه لله تعالى عما يصفه به الخلق مما لا يليق بكماله وعظمته، وجاء التسبيح هنا مقروناً باسمه تعالى (الرب) مرتين: مرة مضافاً إلى ضمير المخاطب، وهو النبي ﷺ[1]. ومرة إلى (العزة)، والعزة صفة من صفات الله تعالى العليا، وتتضمن ثلاثة معان هي: الامتناع والقوة والغلبة، وقد كملت كلها لله تعالى من كل وجه[2]، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٦٥]، ومن تمام عزته ﷻ براءته عن كل نقص وعيب، وعن كل مثيل وشريك، فإن ذلك ينافي العزة التامة[3]، وبهذا يظهر سر قرن التسبيح بهذه الصفة الكريمة مع اسمه تعالى الرب في هذه الآية التي نزه الله تعالى فيها نفسه عما يصفه به الجاهلون من عباده، مما لا يليق بكماله وعظمته وعزته التامة.

٧ ـ وقوله تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾ [الزمر: ٤]. وهذه الآية نقض لمقولة الذين نسبوا إلى الله تعالى اتخاذ الولد، وتنزيه لله تعالى عن ذلك. قال الحافظ ابن كثير: «بين تعالى أنه لا ولد له كما يزعمه جهلة المشركين في الملائكة، والمعاندون من اليهود والنصارى في العزير وعيسى. فقال تبارك وتعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ﴾، أي: لكان الأمر على خلاف ما يزعمون، وهذا شرط لا يلزم وقوعه ولا جوازه، بل هو محال، وإنما قصد تجهيلهم فيما ادعوه وزعموه، كما قال ﷻ: ﴿لَّوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ١٠/٥٤٣.

(٢) انظر: التوضيح المبين لتوحيد الأنبياء والمرسلين، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص٦٤ ـ ٦٥، وتوضيح الكافية الشافية، له: ص١١٩.

(٣) انظر: شفاء العليل، لابن قيم الجوزية: ٢/٦٦.

لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٧]، ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الزخرف: ٨١]، كل هذا من باب الشرط، ويجوز تعليق الشرط على المستحيل لمقصد المتكلم» اهـ[1].

ثم نزه تعالى نفسه فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾، وهذا تسبيح مقرون بثلاثة أسماء من أسماء الله الحسنى، قرن تعالى التسبيح بها ليبين امتناع اتخاذه للولد؛ لأنه تعالى هو الله، أي: المعبود الحق الذي يعبده كل شيء، فلو كان له ولد لم يكن له عبداً[2]. وهو الواحد، «أي: الواحد في ذاته وفي أسمائه وفي صفاته وفي أفعاله، فلا شبيه له في شيء من ذلك ولا مماثل، فلو كان له ولد، لاقتضى أن يكون شبيهاً له في وحدته؛ لأنه بعضه وجزء منه»[3].

وهو القهار الذي قد قهر كل شيء بقدرته وسلطانه، فدانت له الأشياء كلها وذلت وخضعت[4]، فلو كان له ولد لم يكن مقهوراً، ولكان له إدلال على أبيه ومناسبة منه[5].

فألوهيته تعالى ووحدانيته وقهره تمنع أن يكون له ولد، تبارك وتعالى عما يقول الجاهلون علواً كبيراً.

٨ ـ وقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الزخرف: ٨٢]. وهذا تسبيح مقرون باسمه (الرب) مضافاً إلى السموات والأرض، وإلى العرش، وفيه بيان لعظمة الله تعالى المقتضية لتسبيحه وتنزيهه عن كل ما لا يليق به مما وصفه به الظالمون الجاهلون، مما ينافي عظمته وربوبيته وإلهيته ﷻ.

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٤٩ ـ ٥٠. (٢) انظر: تفسير الطبري: ١٠/ ٦١٢.
(٣) مقتبس من: تيسير الكريم الرحمن، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص٧١٩.
(٤) تفسير الطبري: ١٠/ ٦١٢، تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٤/ ٥٠.
(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص٧١٩.

٩ ـ وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: ٢٢ ـ ٢٤].

وفي هذه الآيات الكريمات أثنى الله تعالى على نفسه بأسمائه الحسنى المتضمنة لصفاته العليا، وقرن ذلك بتسبيحه عن شرك المشركين به في قوله: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، وأخبر عن تسبيح ما في السموات والأرض له، فبين بذلك سبحانه أنه مستحق للعبادة وحده دون كل ما سواه، لما له من صفات الكمال ونعوت الجلال التي ليست لغيره، وأنه تعالى مستحق للتسبيح والتقديس عن كل ما ينافي كماله وجلاله مما دلت عليه أسماؤه الحسنى التي أثنى بها على نفسه.

١٠ ـ وقول رسول الله ﷺ: «**سبحان الله العظيم**»، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم**»(١).

فقوله: (سبحان الله العظيم) تسبيح مقرون باسم الله تعالى (العظيم) والعظيم دال ـ في حق الله تعالى ـ على جملة أوصاف عديدة لا يختص بصفة معينة(٢)؛ لأنه يوصف به الذات وصفاتها وأفعالها، فعظم الذات شيء، وعظم صفاتها شيء، وعظم أفعالها شيء، والله

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ١١/ ٢٠٦، برقم (٦٤٠٦)، و١١/ ٥٦٦، برقم (٦٦٨٢)، ومسلم في صحيحه: ٤/ ٢٠٧٢، برقم (٢٦٩٤).
(٢) انظر: بدائع الفوائد، لابن قيم الجوزية: ١/ ١٧٦.

تعالى له العظمة بكل اعتبار ومن كل وجه[١]، فهو العظيم، أي: المتصف بكل صفة كمال، المستحق لكل أنواع التعظيم[٢]، الذي يستحق على العباد أن يعظموه غاية التعظيم بقلوبهم وألسنتهم وأعمالهم[٣].

ولا تخفى مناسبة قرن التسبيح باسمه (العظيم)؛ لأن من كمال عظمته تعالى تنزهه عن النقائص والعيوب، وتعاليه عن الأمثال والشركاء، ولهذا كان التسبيح دالاً ـ بالالتزام ـ على التعظيم، كما سبق بيانه في معاني التسبيح[٤].

١١ ـ وقوله ﷺ: «**سبحان ربي الأعلى**»، كما سبق في حديث حذيفة رضي الله عنه أنه ﷺ كان يقول في سجوده: «**سبحان ربي الأعلى**»[٥].

وهذا القول تسبيح مقرون باسم الله (الأعلى)، وهذا الاسم من أسماء الله تعالى دال على علوه سبحانه بجميع معاني العلو، وهي: علو الذات، وعلو القدر، وعلو القهر. فالله هو الأعلى على خلقه، بمعنى: أنه سبحانه مستوٍ على عرشه فوق جميع مخلوقاته مباين لهم. وهو الأعلى عن كل نقص وعيب، بمعنى: أنه تعالى منزه عن ذلك، موصوف بغاية الكمال والجمال. وهو الأعلى على كل شيء، بمعنى:

---

(١) انظر: الصواعق المرسلة، لابن قيم الجوزية: ٤/ ١٣٧٤.

(٢) انظر: بدائع الفوائد، لابن القيم: ١/ ١٧٧، والتوضيح المبين لتوحيد الأنبياء والمرسلين، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص٣٨ ـ ٣٩، وتوضيح الكافية الشافية، له: ص١١٧، وشرح القصيدة النونية، للشيخ محمد خليل هراس: ٢/ ٦٨ ـ ٦٩.

(٣) انظر: التوضيح المبين، للسعدي: ص٣٩، وتوضيح الكافية الشافية، له: ص١١٧.

(٤) انظر: ص٧٩.

(٥) سبق في ص٢٢٧.

أنه ﷻ قاهر لكل شيء، قادر عليه، متصرف فيه. فله سبحانه العلو المطلق من كل وجه، وبكل اعتبار، ليس فيه مثيل ولا نصير ولا شريك[(١)].

ومن هنا تظهر مناسبة قرن التسبيح بهذا الاسم الكريم الذي يتضمن معنى التسبيح من التنزيه لله تعالى عما لا يليق بكماله وجلاله[(٢)].

وهذا كما قرن التسبيح بالتعالي في مواضع من القرآن الكريم، مثل: قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٠]، وقوله: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨، والنحل: ١، والروم: ٤٠، والزمر: ٦٧]، وقوله: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾ [الإسراء: ٤٣].

والتعالي كالتسبيح في المعنى، كما سبق بيانه في الألفاظ الدالة على معنى التسبيح[(٣)].

١٢ ـ وقوله ﷺ: (سبحان الملك القدوس)، كما في حديث أبي ابن كعب رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا سلم في الوتر، قال: «**سبحان الملك القدوس**»»[(٤)]. وهذا تسبيح مقرون باسم الله تعالى (الملك) واسمه (القدوس)، والملك: هو الذي جميع العوالم العلوية والسفلية مماليك وعبيد له، وله السلطان التام عليهم، والتصرف المطلق فيهم، والتدبير لهم كما يشاء[(٥)].

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٦/١١٩، ١٢٣، وتوضيح الكافية الشافية، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص١١٦.
(٢) انظر: ما سبق بيانه في ص١٢٦ ـ ١٢٩ من البحث.
(٣) انظر: ص١٢٦.
(٤) سبق تخريجه في ص١١٦.
(٥) انظر: بدائع الفوائد، لابن القيم: ١/ ٤٩٠ ـ ٤٩٢.

وإضافة لفظ (سبحان) إلى اسم الله (الملك) كإضافته إلى اسمه (الله) وإلى اسمه (الرب)، وبين هذه الأسماء الثلاثة مناسبة تامة، فإن ملكه تعالى من كمال ربوبيته، وإلهيته من كمال ملكه، فربوبيته تستلزم ملكه وتقتضيه، وملكه يستلزم إلهيته ويقتضيها[١].

و(سبحان الملك) تنزيه الله تعالى عن كل ما ينافي كمال ملكه وما يقتضيه من الأقوال والأفعال.

والقدوس: من أسماء الله تعالى الدالة ـ بالمطابقة ـ على التنزيه التام عما لا يليق بكماله وعظمته، كما سبق بيانه في الألفاظ الدالة على معنى التسبيح[٢]، وقرن التسبيح به للمناسبة التامة بينهما في المعنى.

١٣ ـ وقوله ﷺ: **«سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة»**، كما في حديث عوف بن مالك الأشجعي[٣] رضي الله عنه قال: «قمت مع رسول الله ﷺ ليلة، فقام فقرأ سورة البقرة، لا يمر بآية رحمة إلا وقف فسأل، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف فتعوذ. قال: ثم ركع بقدر قيامه يقول في ركوعه: **«سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة»**. ثم سجد بقدر قيامه، ثم قال في سجوده مثل ذلك، ثم قام فقرأ بآل عمران، ثم قرأ سورة سورة»[٤].

---

(١) انظر: المصدر السابق: ١/٤٩١ ـ ٤٩٢.

(٢) انظر: ص١١٦ ـ ١١٩.

(٣) هو عوف بن مالك بن أبي عوف الأشجعي الغطفاني، أبو حماد، ويقال في كنيته غير ذلك، صحابي مشهور، شهد فتح مكة، ويقال: كانت معه راية أشجع، ثم نزل الشام، فسكن دمشق، وتوفي سنة (٧٣هـ)، رضي الله عنه. انظر: الإصابة، لابن حجر العسقلاني: ٤/٧٤٢ ـ ٧٤٣، وتقريب التهذيب، له: ٢/٩٦.

(٤) أخرجه أبو داود في سننه: ١/٥٤٤، برقم (٨٧٣)، والنسائي في سننه: ٢/ ٥٧٢ ـ ٥٧٣، برقم (١١٣١)، وصححه النووي في الأذكار: ص١١٤، =

وفي هذا الذكر النبوي إضافة لفظ (سبحان) إلى (ذي) بمعنى صاحب، وإضافة (ذي) إلى (الجبروت، والملكوت، والكبرياء، والعظمة) من باب إضافة الموصوف إلى صفته[1]، فإن هذه الأربع صفات من صفات الله تعالى قرن بها التسبيح.

فالجبروت: فعلوت من الجبر، وهو في صفة الله تعالى يتضمن ثلاثة معان:

أحدها: جبر إصلاح، فيجبر الكسر، ويغني الفقير، وييسر العسر، ويجبر القلوب المنكسرة من أجله، ويجبر عبده المؤمن بإصلاح حاله.

والثاني: جبر قهر، فيجبر الخلق ويقهرهم على ما يريد، فإذا أراد شيئاً قال له: كن، فيكون، بحيث لا يمتنع عليه شيء.

والثالث: جبر علو، فقد باين مخلوقاته وعلا عليها، فليس يدانيه شيء منها، لكمال رفعته وجلاله[2].

والملكوت: فعلوت من الملك، وقد تقدم بيان معناه عند الكلام على قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [يس: ٨٣].

والكبرياء: هي الجلال والعظمة والمجد والسلطان[3]. «وقيل:

= والألباني في صحيح سنن أبي داود: ١/ ٢٤٧، برقم (٨٧٣)، وفي صحيح سنن النسائي: ١/ ٣٦٦ ـ ٣٦٧، برقم (١١٣١).

(١) انظر: الصواعق المرسلة، لابن قيم الجوزية: ٤/ ١٣٨١ ـ ١٣٨٢.

(٢) انظر: الكافية الشافية (القصيدة النونية)، لابن قيم الجوزية: ص٢٤٦، وشفاء العليل، له: ١/ ٣١٠ ـ ٣١٢ وتوضيح الكافية الشافية، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص١٢٦، والتوضيح المبين لتوحيد الأنبياء والمرسلين، له: ص١٢٠ ـ ١٢١.

(٣) انظر: تفسير الطبري: ١١/ ٢٦٩، وتيسر الكريم الرحمن، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص٧٧٨.

هي عبارة عن كمال الذات وكمال الوجود، ولا يوصف بها إلا الله تعالى»[(١)]، كما قال ﷻ: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [الجاثية: ٣٧].

والعظمة: تقدم معناها عند الكلام على قوله ﷺ: «**سبحان الله العظيم**»، فإن (العظيم) فعيل من العظمة.

وإذا تبينت معاني هذه الصفات الجليلة تبينت مناسبة قرن التسبيح بها، فإنها مقتضية لتسبيح الله تعالى وتنزيهه عما ينافيها ويضادها. وهكذا الشأن في كل ما قرن به التسبيح من أسماء الله الحسنى وصفاته العليا، فإنها مقتضية أتم الاقتضاء لتسبيحه وتقديسه وتنزيهه عن كل عيب ونقص وتمثيل وشرك ينافي ما دلت عليه أسماؤه وصفاته من الكمال والجلال والجمال.

ومن تدبر ما جاء في الكتاب والسنة من صيغ التسبيح المقرون بأسماء الله وصفاته، انفتحت له ـ بإذن الله ـ أبواب من العلم بالله تعالى وبأسرار كتابه الحكيم وسنة رسوله ﷺ المشرفة.

المسألة الخامسة: قرن التسبيح بالاستغفار

ورد التسبيح مقروناً بالاستغفار في مواضع من كتاب الله تعالى، ومن ذلك:

١ ـ قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٧]. وهذه الآية خبر عن تسبيح حملة العرش واستغفارهم للمؤمنين، وسيأتي ـ إن شاء الله ـ الكلام على هذه الآية عند بحث تسبيح الملائكة لله تعالى[(٢)].

---

(١) مقتبس من: النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير: ٤/١٤٠.

(٢) انظر: ص(٢٧٩).

٢ ـ وقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ۝٥٥﴾ [غافر: ٥٥].

هذه الآية خطاب من الله تعالى لرسوله محمد ﷺ تضمن أمره بالاستغفار مع التسبيح.

٣ ـ وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥]. وفي هذه الآية أيضاً خبر عن تسبيح الملائكة واستغفارهم لمن في الأرض من المؤمنين، وسيأتي ـ إن شاء الله ـ بيان ذلك عند الكلام على تسبيح الملائكة(١).

٤ ـ وقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾ [النصر: ٣]. وهذه الآية أيضاً خطاب للنبي ﷺ، وفيه أمر بالتسبيح مع الاستغفار. وقد دلت هذه الآيات جميعاً على مشروعية الجمع بين التسبيح والاستغفار وأهمية ذلك، وجاءت السنة النبوية مبنية لذلك ومؤكدة له، حيث كان رسول الله ﷺ يكثر من قول: (**سبحان الله وبحمده؛ أستغفر الله وأتوب إليه**)، كما ثبت في الحديث عن عائشة أم المؤمنين ﵂(٢).

وفي الحديث عن عائشة أيضاً ﵂ قالت: «كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «**سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي**»، يتأول القرآن»(٣).

وفي هذين الحديثين دلالة على أن رسول الله ﷺ كان يقرن التسبيح بالاستغفار ويكثر من ذلك، وأن قرن التسبيح بالاستغفار يكون بالصيغتين الواردتين فيهما ونحوهما.

---

(١) انظر: ص٢٨٧ ـ ٢٨٩.
(٢) وهذا الحديث أخرجه مسلم في صحيحه: ١/٣٥١، برقم (٤٨٤).
(٣) سبق تخريجه في ص٢٠٤.

وهناك مناسبة للقرن بين التسبيح والاستغفار، فإن التسبيح فيه نفي النقائص والعيوب عن الله تعالى، والاستغفار فيه طلب الستر لذنوب العبد وعيوبه ووقايته من شرها[١]، فإذا قرن العبد بينهما تضمن ذلك إقراره بكمال الرب ﷻ، وتنزهه عن العيوب والنقائص، مع الإقرار بنقص العبد وتقصيره وافتقاره إلى ربه، وإلى ستره ووقايته وغفرانه.

ولا شك أن هذين الإقرارين من أهم الأمور التي تتحقق بها العبودية لله تعالى علماً وعملاً وحالاً، وبهذا يعرف ما في صيغة التسبيح المقرون بالاستغفار من الدلالات العقدية والمعاني التعبدية، وأن على العبد أن يتحقق بهذه الدلالات والمعاني ويكثر من تسبيح ربه والاستغفار من عيوب نفسه، لينال السعادة بإذن ربه ﷻ وتوفيقه.

المسألة السادسة: قرن التسبيح بالدعاء

ورد قرن التسبيح بالدعاء في قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١﴾ [آل عمران: ١٩١].

وهذه الآية في بيان أوصاف المؤمنين الذين منّ الله تعالى عليهم بالعقل السليم والإيمان الصحيح، فرأوا ببصائر عقولهم وعيونهم عظمة ربهم وكمال صفاته وبراءته من كل نقص وعيب مناف لعظمته وكماله، ولهذا فهم يداومون ذكر الله تعالى في جميع أحوالهم، ويخصصونه بالتسبيح تنزيهاً له وتعظيماً، ويتوجهون إليه وحده بالدعاء طلباً لما ينفعهم، ودفعاً لما يضرهم، كما يتجلى ذلك في قولهم: ﴿سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير: ٣/ ٣٧٣، ونتائج الأفكار في شرح حديث سيد الاستغفار، للسفاريني، بإشراف عبد العزيز بن سليمان الهبدان، وعبد العزيز بن إبراهيم الدخيل: ص٣٣٣.

عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾، حيث قرنوا فيه التسبيح بالدعاء، فـ (سبحانك) تسبيح، و(فقنا عذاب النار) دعاء بالوقاية من عذاب النار.

وفي القرن بين التسبيح والدعاء مناسبات عقدية من أوجه:

أحدها: أن التسبيح يدل على تنزيه الله تعالى عما لا يليق بكماله وعظمته، والدعاء يدل على حاجة العبد وافتقاره، وأنه لا حول له ولا قوة إلا بالله رب العالمين.

والثاني: أن فيه تقديم ذكر الله تعالى والثناء عليه بما هو أهله بين يدي سؤاله، وهذا من أفضل الوسائل وأحبها إلى الله تعالى.

والثالث: أن فيه توجهاً إلى الله تعالى بنوعين من الدعاء، وهما: دعاء الثناء، ودعاء المسألة، وهما من مفهوم الدعاء الذي شرعه الله تعالى لعباده في قوله ﷻ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠][(١)]، وتقدم بيان ذلك عند الكلام على تسمية التسبيح دعاء[(٢)].

فهذه من المناسبات العقدية لقرن التسبيح بالدعاء، وينبغي للعبد معرفتها والحرص على تحقيقها، ليكون ممن وصفهم الله تعالى في الآية السابقة، وبالله التوفيق.

المسألة السابعة: قرن التسبيح بالسلام على المرسلين

جاءت هذه الصيغة في قول الله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠ ـ ١٨٢].

---

(١) انظر: بدائع الفوائد، لابن قيم الجوزية: ٢/٥، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٧٤٠.

(٢) انظر: ص١١٠ من البحث.

حيث قرن الله تعالى في هذا الموضع بين التسبيح لنفسه والسلام على المرسلين والحمد لنفسه أيضاً.

وقد بين أهل العلم أن الله تعالى بدأ بالتسبيح تنزيهاً لنفسه عما يصفه به الواصفون المفترون. ثم سلم على المرسلين تشريفاً لهم، وتنويهاً بشأنهم، لسلامة ما وصفوه به من النقائص والعيوب، ومن التمثيل والتعطيل، ولسلامة ما قالوه من الإفك والشرك. ثم حمد نفسه ـ بعد ذلك ـ على تفرده بصفات الكمال التي يستحق لأجلها كمال الحمد، والتنزيه عن كل نقص وعيب وتمثيل وشرك[1].

كما أن في قرنه تعالى التسبيح بالسلام على المرسلين إشارة «إلى أنه كما يجب تنزيه الله ﷻ وإبعاده عن كل شائبة نقص وعيب، فيجب اعتقاد سلامة الرسل في أقوالهم وأفعالهم من كل عيب كذلك، فلا يكذبون على الله، ولا يشركون به، ولا يغشون أممهم، ولا يقولون على الله إلا الحق»[2].

ولهذا قال تعالى ـ في موضع آخر ـ: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الصافات: ١٥٩، ١٦٠]، «فنزه سبحانه نفسه عما يصفه به كل أحد إلا المخلصين من عباده، وهم الرسل ومن تبعهم»[3]؛ لأنهم لم يصفوا الله تعالى من عند أنفسهم، وإنما وصفوه

---

(١) انظر: العقيدة الواسطية، لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ بشرح الدكتور محمد خليل هراس، وضبط علوي السقاف ـ: ص٧٥ ـ ٧٦، والتدمرية، له: ص٩ ـ ١٠، والصواعق المرسلة، لابن قيم الجوزية: ١/ ١٥٣ ـ وجلاء الأفهام، له: ص٢٧٥ ـ ٢٧٦، وتفسير أبي السعود: ٧/ ٢١٢.

(٢) مقتبس من: شرح العقيدة الواسطية، لهراس: ص٧٦.

(٣) مقتبس من: جلاء الأفهام، لابن القيم: ص٢٧٥. وانظر أيضاً: الصواعق المرسلة، له: ١/ ١٥٢ ـ ١٥٣.

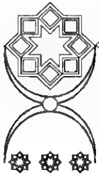
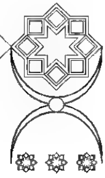
سبحانه بما أذن لهم في وصفه به مما تضمنه وحيه المبين من أسمائه الحسنى وصفاته العليا[١].

ومن هنا كان في قرنه تعالى التسبيح لنفسه بالسلام على المرسلين حكمة عظيمة أوضحها الإمام ابن قيم الجوزية بقوله: «وفي اقتران السلام عليهم بتسبيحه لنفسه سر عظيم من أسرار القرآن يتضمن الرد على كل مبطل ومبتدع، فإنه نزه نفسه تنزيهاً مطلقاً، كما نزه نفسه عما يقول خلقه فيه، ثم سلم على المرسلين، وهذا يقتضي سلامتهم من كل ما يقول المكذبون لهم المخالفون، وإذا سلموا من كل ما رماهم به أعداؤهم، لزم سلامة كل ما جاؤوا به من الكذب والفساد، وأعظم ما جاؤوا به التوحيد ومعرفة الله ووصفه بما يليق بجلاله مما وصف به نفسه على ألسنتهم.

وإذا سلم ذلك من الكذب والمحال والفساد، فهو الحق المحض، وما خالفه هو الباطل والكذب والمحال. وهذا المعنى بعينه في قوله: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل: ٥٩]، فإنه يتضمن حمده بما له من نعوت الكمال وأوصاف الجلال والأفعال الحميدة والأسماء الحسنى، وسلامة رسله من كل عيب ونقص وكذب، وذلك يتضمن سلامة ما جاؤوا به من كل باطل.

فتأمل هذا السر في اقتران السلام على رسله بحمده وتسبيحه» اهـ[٢]، والله تعالى الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

(١) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم: ٣/ ٤٨١.
(٢) بدائع الفوائد: ١/ ٤١١.

المبحث الثالث

أنواع التسبيح باعتبار فاعله

❑ **توطئة:**

يتنوع التسبيح باعتبار الفاعل الذي يصدر منه التسبيح إلى أنواع عديدة، فقد سبح الله تعالى نفسه، وسبحته ملائكته المقربون، وسبحه صالحو البشر من الأنبياء وأتباعهم المؤمنين في الدنيا، وسبحه ما في السموات وما في الأرض من الكائنات المختلفة، ويسبحه أهل الجنة وهم فيها في نعيم مقيم.

وجميع هذه الأنواع من التسبيحات ثابتة بأدلة واضحة في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وآثار السلف الصالح.

ولما كانت لأنواع التسبيح باعتبار فاعله دلالات عقدية وفوائد تعبدية، كانت حقيقة بالبحث، جديرة بالبيان، وذلك فيما يلي من المطالب، وهي:

المطلب الأول: تسبيح الله تعالى لنفسه المقدسة.

المطلب الثاني: تسبيح الملائكة لله تعالى.

المطلب الثالث: تسبيح صالحي البشر لله تعالى.

المطلب الرابع: تسبيح الكائنات كلها لله تعالى.

المطلب الخامس: تسبيح أهل الجنة فيها لله تعالى.

وإلى تفاصيلها مطلباً مطلباً:

❖ المطلب الأول ❖

تسبيح الله تعالى لنفسه المقدسة

إن أعظم المسبحين لله تعالى هو الله تعالى نفسه، حيث ورد في القرآن الكريم تسبيح الله تعالى لنفسه المقدسة في آيات كثيرة بلغت سبعاً وعشرين آية من تسع عشرة سورة، وهي:

١ - قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [البقرة: ١١٦]. سبح الله تعالى لنفسه المقدسة في هذه الآية تنزيهاً لها عن اتخاذ الولد، وبين أن جميع ما في السموات والأرض مملوك له وعبيد له، ففيه بيان المانع عقلاً من اتخاذه الولد(١).

٢ - وقوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۖ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ۘ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾﴾ [النساء: ١٧١]. سبح الله تعالى لنفسه المقدسة - في هذه الآية - تنزيهاً لها عن الولد أيضاً(٢).

٣ - وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الأنعام: ١٠٠]. قال الحافظ ابن كثير: «هذا رد على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره وأشركوا به في عبادته، أن عبدوا الجن فجعلوهم شركاء له في العبادة، تعالى الله عن شركهم وكفرهم».

---

(١) انظر: جامع الرسائل، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ١/ ٢٢ - ٢٣.

(٢) انظر: ص(١٧٨) من البحث.

وقوله: ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ قال ابن كثير: «أي: وقد خلقهم، فهو الخالق وحده لا شريك له، فكيف يعبد معه غيره؟».

قال: «ومعنى الآية: أنه ﷻ هو المستقل بالخلق وحده، فلهذا يجب أن يفرد بالعبادة وحده لا شريك له» اهـ(١).

وأما قوله تعالى: ﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، فقال الزجاج: «معنى (خرقوا): اختلقوا وكذبوا، وذلك لأنهم زعموا أن الملائكة بنات الله، وزعمت النصارى أن المسيح ابن الله، وذكرت اليهود أن عزيراً ابن الله، فأعلم جل ثناؤه أنهم اختلقوا ذلك بغير علم، أي: لم يذكروه عن علم، وإنما ذكروه تكذباً» اهـ(٢).

ولهذا قال تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾ فسبح لنفسه المقدسة تنزيهاً لها عما يصفها به هؤلاء الجهلة من خلقه(٣).

٤ ـ وقوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١]. وهذه الآية خبر عن اليهود والنصارى أنهم اتخذوا أحبارهم ـ وهم علماؤهم ـ ورهبانهم ـ وهم عبادهم ـ أرباباً من دون الله، يعني: سادة لهم من دون الله تعالى، يطيعونهم في معاصي الله، فيحلون ما أحلوه لهم مما قد حرمه الله عليهم، ويحرمون ما حرموه عليهم مما قد أحله الله لهم، كما اتخذوا المسيح عليه السلام رباً من دون الله تعالى، في حين أنهم لم يؤمروا في كتبهم المنزلة عليهم من التوراة والإنجيل إلا بعبادة رب واحد لا معبود بحق سواه ولا رب غيره، وهو الله ﷻ.

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ١٦٥ ـ ١٦٦.
(٢) معاني القرآن وإعرابه: ٢/ ٢٧٨. (٣) انظر: تفسير الطبري: ٥/ ٢٩٣.

ولهذا سبح الله تعالى نفسه عن شرك المشركين، فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تنزيهاً وتطهيراً لله عما يشرك به في طاعته وربوبيته وإلهيته(١).

٥ ـ وقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس: ١٨].

وفي هذه الآية ينكر الله تعالى على المشركين الذي يعبدون مع الله آلهة أخرى معتقدين فيها النفع والضر وأنها تشفع لهم عند الله تعالى، فنفى سبحانه ما كانوا يعتقدونه، وقال: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ أي: أتخبرون الله بما لا يكون في السموات ولا في الأرض؟ لأن ما لا يعلم الله تعالى أنه موجود أو حادث فهو باطل لا حقيقة له، ولو كان صحيحاً لعلمه سبحانه(٢).

ولهذا سبح تعالى نفسه المقدسة عن شركهم بقوله ﷻ: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

٦ ـ وقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [يونس: ٦٨].

سبح الله تعالى لنفسه المقدسة ـ في هذه الآية ـ تنزيهاً لها عن اتخاذ الولد، كما في بعض الآيات التي سبق ذكرها، وفي هذه الآية برهن تعالى على تنزيه نفسه عن اتخاذ الولد بثلاثة براهين:

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٦/٣٥٣ ـ ٣٥٥.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ٦/٥٤٢، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/١٩٥، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٢/٥٨١.

١ ـ أنه هو الغني[١].

٢ ـ أن له ما في السموات وما في الأرض.

٣ ـ أن الذين ادعوا الولد لله تعالى ليس عندهم حجة على دعواهم، وإنما يقولون على الله تعالى ما لا يعلمون ثبوته، وهذا محض فرية على الرب ﷻ، وهو من أعظم المحرمات[٢].

٧ ـ وقوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝١﴾ [النحل: ١]. سبح الله تعالى لنفسه المقدسة ـ في هذه الآية ـ تنزيهاً لها عن شرك المشركين به وعبادتهم معه ما سواه من الأوثان والأنداد، بعد أن أخبر أن ما وعد به من قيام الساعة ومحاسبة الناس بمنزلة ما قد أتى، فلا يستعجله المكذبون؛ لأن ما هو آت فإنه قريب[٣].

٨ ـ وقوله تعالى: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ ۝٥٧﴾ [النحل: ٥٧]. سبح الله تعالى لنفسه المقدسة ـ في هذه الآية ـ تنزيها لها عما نسبه إليه الكفار من أن له البنات، في حين أنهم يشتهون البنين ويكرهون البنات، كما سبق بيانه في صيغة الإفراد في التسبيح[٤].

٩ ـ وقوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ۝١﴾ [الإسراء: ١]. في هذه الآية سبح الله لنفسه المقدسة وعظم شأنه، لقدرته على ما لا يقدر عليه أحد سواه، حيث أسرى بعبده

(١) انظر: ما سبق في ص(٢٣١).

(٢) انظر: تفسير الطبري: ٦/ ٥٨٣ ـ ٥٨٤، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٣٦٩.

(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ٣/ ١٨٩.

(٤) انظر: ص(١٧٩).

ورسوله محمد ﷺ في جزء من الليل من المسجد الحرام بمكة، إلى المسجد الأقصى ببيت المقدس، ثم عرج به ﷺ إلى السموات العلى، فرأى من آيات الله الكبرى الدالة على كمال قدرته، وتمام سلطانه، وسعة ملكه، إنه سبحانه هو السميع البصير(١).

وذكر أهل العلم لافتتاح حادثة الإسراء بالتسبيح ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أن الله تعالى سبح تنزيهاً لنفسه المقدسة عن تكذيب المشركين الذين كذبوا بحادثة الإسراء والمعراج، ونسبوا النبي ﷺ إلى الكذب. فالتسبيح ـ على هذا ـ خرج مخرج الرد على هؤلاء المكذبين لله تعالى ولرسوله ﷺ(٢).

الوجه الثاني: أن الله تعالى سبح تعجباً من إسرائه بعبده محمد ﷺ في جزء من الليل من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى؛ لأن ذلك من العجائب الدالة على عظمته ﷻ(٣)؛ ولأن جملة التسبيح في الكلام الذي لم يقع فيه ما يقضي النقص أو التمثيل في حق الله تعالى، يتعين أن تكون مستعملة في أكثر من التنزيه، وذلك هو التعجب من الخبر المتحدث به، ولهذا عبر سبحانه عن نفسه المقدسة بالاسم الموصول دون الاسم العلم، للتنبيه على ما تفيده صلة الموصول من الإيماء إلى وجه هذا التعجب، وهو ذلك الحادث العظيم وتلك العناية الكبرى بالنبي ﷺ(٤).

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٣.

(٢) انظر: مسألة سبحان، لنفطويه: ص٤٣، وزاد المسير: لابن الجوزي: ٥/ ٤، ونور المسرى، لأبي شامة: ص٩٧.

(٣) انظر: زاد المسير، لابن الجوزي: ٥/ ٤، ونور المسرى، لأبي شامة: ص٩٧، ودرء تعارض العقل والنقل، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ١٧٧.

(٤) انظر: تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٥/ ١٠.

والله ﷻ يتعجب من الشيء لخروجه عن نظائره تعظيماً له، كما يعظم ما هو عظيم: إما لعظمة سببه، أو لعظمته في نفسه[١]، والله تعالى يفعل ما يشاء، وهو بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير.

الوجه الثالث: أن التسبيح هنا للأمر، أي: سبحوا الذي أسرى بعبده. والمراد إخبار الناس بهذا الحادث الجليل الذي هو خليق أن يذكر الله تعالى عنده، وينزه عن الشريك في ذاته وصفاته وأفعاله؛ لأنه وحده القادر على ذلك والمقدر له بقدرته[٢].

وهذه الأوجه الثلاثة المذكورة كلها صحيحة، ولا تعارض بينها عند التأمل. فالله تعالى افتتح هذه الآية الكريمة بالتسبيح تنزيهاً لنفسه المقدسة وتعظيماً لها عما يقوله المكذبون لرسوله ﷺ ويصفونه به من النقائص والأمثال ـ وتعجباً من هذه المعجزة العظمى الدالة على قدرة الله تعالى وعلى صدق نبيه ﷺ وتكريم الله تعالى وتأييده له.

وفي هذا تنبيه للعباد إلى عظمة الله تعالى وإلى علو مكانة عبده محمد ﷺ عنده، وأمر لهم بأن يسبحوا الله تعظيماً له وثناء عليه بما له من الصفات الحميدة والأفعال الجميلة والآيات العجيبة.

١٠ ـ وقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾ [الإسراء: ٤٢، ٤٣]. وهذا أمر من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ أن يقول للمشركين الذين جعلوا مع الله آلهة أخرى: ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والآية فيها قولان معروفان للمفسرين:

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/١٢٣.

(٢) انظر: نور المسرى، لأبي شامة: ص٩٧.

أحدهما: أن قوله: ﴿لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا﴾ أي: بالتقرب إليه والعبادة والسؤال له.

والثاني: بالممانعة والمغالبة. والأول هو الصحيح» اهـ[(١)].

والمعنى الأول الذي رجحه شيخ الإسلام هو الذي ذكره الإمام ابن جرير الطبري في تفسير الآية، ولم يذكر غيره، حيث قال: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل ـ يا محمد، لهؤلاء المشركين الذين جعلوا مع الله إلهاً آخر ـ لو كان الأمر كما تقولون من أن معه آلهة، وليس ذلك كما تقولون، إذن لابتغت تلك الآلهة القربة من الله ذي العرش العظيم، والتمست الزلفة إليه، والمرتبة منه» اهـ[(٢)].

فالآية مقررة لبرهان توحيد الألوهية أحسن تقرير وأوجزه وأبلغه[(٣)].

ولهذا سبح الله تعالى لنفسه المقدسة ـ عقب ذلك ـ بقوله: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ۝٤٣﴾، فنزه تعالى نفسه عما يقوله المشركون من أن معه آلهة أخرى؛ لأنه هو وحده المعبود بحق، وكل معبود سواه فباطل.

١١ ـ وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٣٥﴾ [مريم: ٣٥].

سبح الله تعالى لنفسه المقدسة ـ في هذه الآية ـ تنزيهاً لها عن اتخاذ الولد، وسبق إيراد هذه الآية مع بيان معناها في صيغة الإفراد

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل: ٩/ ٣٥٠.
(٢) تفسير الطبري: ٨/ ٨٤.
(٣) انظر: الصواعق المرسلة، لابن القيم: ٢/ ٤٦٢.

في التسبيح(١).

١٢ ـ وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء: ٢٢].

وفي هذه الآية سبح الله تعالى لنفسه المقدسة بعد أن قرر توحيده في الإلهية بأوضح برهان، كما سبق بيانه في صيغة القران في التسبيح، عند الكلام على قرن التسبيح بأسماء الله وصفاته(٢).

١٣ ـ وقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦].

١٤ ـ وقوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون: ٩١].

وهاتان الآيتان مما سبق بيانه في صيغة الإفراد في التسبيح(٣).

١٥ ـ وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾﴾ [النمل: ٨].

وهذه الآية جاءت ضمن قصة موسى عليه السلام، واشتملت على تسبيح الله تعالى لنفسه المقدسة في قوله: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وهذا التسبيح معطوف على قوله تعالى: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، فهو من ضمن ما نودي به موسى عليه السلام في ذلك الموضع.

وقوله: ﴿نُودِيَ﴾ أي: ناداه الله تعالى(٤).

---

(١) انظر: ص ١٨٢. (٢) انظر: ص٢٣١ ـ ٢٣٢.

(٣) انظر: ص١٨٣، ١٨٦..

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٥٨/١٣، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٦٠١.

وقوله: ﴿أَنْ بُورِكَ﴾ «أن» هذه هي المفسرة؛ لأنها مسبوقة بما فيه معنى القول، وهو قوله: ﴿نُودِىَ﴾. وقيل: هي مخففة من الثقيلة[(١)].

و«بورك» جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أن معناه: قدس[(٢)].

وقوله: ﴿مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ فسر بأربعة أقوال ـ حسب اطلاعي ـ:

القول الأول: أن الله تعالى عنى بذلك نفسه المقدسة[(٣)]، والمعنى: تقدس من في النار، وهو الله عز وجل[(٤)]؛ لأنه سبحانه نادى موسى عليه السلام منها، وأسمعه كلامه من جهتها[(٥)].

وجاء في هذا المعنى تفاسير مأثورة عن ابن عباس[(٦)] رضي الله عنهما،

---

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ٤/ ١٠٩.
(٢) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره: ٩/ ٤٩٦، من طريق معاوية عن علي بن أبي طلحة عنه. وذكره البغوي في تفسيره: ٦/ ١٤٥، وابن الجوزي في زاد المسير: ٦/ ١٥٥، والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ١٣/ ١٥٨ والحافظ ابن كثير في تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٣٦٩.
(٣) انظر: تفسير الطبري: ٩/ ٤٩٦، وتفسير البغوي: ٦/ ١٤٥، وتفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني: ٤/ ٧٨، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٣/ ١٥٨.
(٤) انظر: زاد المسير، لابن الجوزي: ٦/ ١٥٥.
(٥) انظر: تفسير البغوي: ٦/ ١٤٥.
(٦) جاء عنه هذا التفسير من ثلاث طرق:
١ ـ من طريق عطية العوفي عنه، رواه ابن جرير الطبري في تفسيره: ٩/ ٤٩٦، وابن أبي حاتم في تفسيره (تفسير القرآن العظيم، جمع أسعد محمد الطيب: ٩/ ٢٨٤٥)، ونقله شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى: ٥/ ٤٦١.
٢ ـ ومن طريق سعيد بن جبير عنه، رواه ابن أبي حاتم في تفسيره أيضاً، وانظر: المصدرين المذكورين في الطريق السابق.
٣ ـ ومن طريق عكرمة عنه، وانظر: المصدرين نفسهما.

وسعيد بن جبير[(١)]، وعكرمة[(٢)]، والحسن البصري[(٣)]، وقتادة[(٤)]، ومحمد بن كعب[(٥)] ـ رحمهم الله أجمعين ـ.

القول الثاني: أن المعني بمن في النار الملائكة، فكان في النار ملائكة لهم زجل بالتقديس والتسبيح[(٦)].

وهذا القول مروي عن السدي[(٧)] وحده[(٨)]، فيما أشار إليه شيخ

---

(١) جاء عنه هذا التفسير من طريقين عن عطاء بن السائب عنه ـ رواه ابن جرير الطبري في تفسيره: ٩/ ٤٩٦، وابن أبي حاتم في تفسيره (تفسير القرآن العظيم: ٩/ ٢٨٤٥، ٢٨٤٦)، وانظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/ ٤٦١.

(٢) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (تفسير القرآن العظيم: ٩/ ٢٨٤٥)، وانظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/ ٤٦١.

(٣) جاء عنه من طريقين: من طريق معمر عنه، ومن طريق ابن جريج عنه، رواهما ابن جرير الطبري في تفسيره: ٩/ ٤٩٦.

(٤) هو قتادة بن دعامة بن قتادة السدوسي، أبو الخطاب البصري، ثقة ثبت. يقال: ولد أكمه، وتوفي سنة بضع عشرة ومائة، رحمه الله. انظر: تقريب التهذيب، لابن حجر العسقلاني: ٢/ ١٢٩ ـ ١٣٠.
جاء عنه هذا التفسير من طريق معمر عنه، رواه ابن جرير الطبري في تفسيره: ٩/ ٤٩٦.

(٥) هو محمد بن كعب بن سليم بن أسد القرظي، أبو حمزة المدني، وكان قد نزل الكوفة مدة، ولد سنة (٤٠هـ) على الصحيح، وتوفي سنة (١٢٠هـ)، رحمه الله. انظر: تقريب التهذيب، لابن حجر العسقلاني: ٢/ ٢١٢.
وجاء عنه هذا التفسير من طريق موسى بن عبيدة، رواه ابن جرير الطبري في تفسير: ٩/ ٤٩٧، وابن أبي حاتم في تفسيره: (تفسير القرآن العظيم: ٩/ ٢٨٤٦)، وانظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/ ٤٦٢.

(٦) انظر: تفسير البغوي: ٦/ ١٤٤، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٣/ ١٥٨.

(٧) هو إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة السدي، أبو محمد، الكوفي، وهو السدي الكبير، كان عالماً بالتفسير، ولكنه متكلم فيه. وقال الحافظ ابن حجر: «صدوق يهم، ورمي بالتشيع»، وتوفي سنة (١٢٧هـ)، رحمه الله. انظر: تهذيب التهذيب، لابن حجر: ١/ ٣١٣ ـ ٣١٤، وتقريب التهذيب، له: ١/ ٨٣.

(٨) جاء عنه هذا التفسير من طريق سفيان الثوري، رواه ابن أبي حاتم في تفسيره =

الإسلام ابن تيمية[(١)].

القول الثالث: أن المعني بمن في النار موسى عليه السلام.

ولم أقف على هذا القول مروياً عن أحد من السلف، ولكن ذكره بعض أهل التفسير، وقالوا: إن قوله: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ تحية من الله تعالى لموسى عليه السلام بالبركة وتكرمة له، كما حيى تعالى إبراهيم عليه السلام على ألسنة الملائكة حين دخلوا عليه فقالوا: ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ﴾ [هود: ٧٣][(٢)].

ولأصحاب هذا القول تأويلان في الآية:

أحدهما: على معنى: بورك من في قرب النار؛ لأن موسى عليه السلام لم يكن في وسط النار، ولكن كان قريباً منها، كما يقال: بلغ فلان المنزل، إذا قرب منه وإن لم يبلغه بعد[(٣)].

والثاني: على معنى: بورك من في طلب النار، وهو موسى عليه السلام[(٤)]. وكلا التأويلين قائم على تقدير محذوف هو المضاف، والنار مضاف إليها، وليس هناك دليل على أن في الآية محذوفاً مقدراً كما قالوا، فالواجب عدم الإقدام على مثل هذا في تفسير كلام الله تعالى، لما يؤدي إليه من سوء الفهم لمراد الله تعالى.

= (تفسير القرآن العظيم: ٩/ ٢٨٤٦).

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/ ٤٦٢.

(٢) انظر: الوسيط في تفسير القرآن المجيد، للواحدي: ٣/ ٣٦٩، وتفسير البغوي: ٦/ ١٤٤، وزاد المسير، لابن الجوزي: ٦/ ١٥٥، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٣/ ١٥٨.

(٣) انظر: تفسير البغوي: ٦/ ١٤٥، وتفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني: ٤/ ٧٨، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٣/ ١٥٨.

(٤) انظر: زاد المسير: لابن الجوزي: ٦/ ١٥٥.

القول الرابع: أن قوله: ﴿بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ معناه: بوركت النار.

وهذا التفسير مروي عن مجاهد[١]، وفي رواية أخرى عنه قال: «كذلك قاله ابن عباس»[٢].

وقد حمل بعض المفسرين هذا التفسير على اعتبار (من) زائدة؛ لأنها قد تكون بمعنى (ما)، و(ما) قد تكون صلة في الكلام[٣].

ولكن لا يلزم من هذا التفسير ـ في نظري ـ اعتبار (من) زائدة، لاحتمال أن يكون المراد بيان أن هذه النار بوركت؛ لأن الله تعالى كلم موسى عليه السلام منها، وليس المراد تفسير الآية بكاملها، وهذا كثير في تفاسير السلف.

وعلى كل فالقول المرضي في معنى قوله تعالى: ﴿بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ هو ما جاء عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، وعكرمة، والحسن البصري، وقتادة، ومحمد بن كعب القرظي، كما سبق في القول الأول.

ويؤيده حديث أبي موسى الأشعري[٤] رضي الله عنه قال: «قام فينا

---

(١) روي عنه هذا التفسير من طريق ابن أبي نجيح، رواه ابن جرير الطبري في تفسيره: ٩/ ٤٩٧.

(٢) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره: ٩/ ٤٩٦، وابن أبي حاتم في تفسيره (تفسير القرآن العظيم: ٩/ ٢٨٤٥).

(٣) انظر: تفسير البغوي: ٦/ ١٤٥، وتفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني: ٤/ ٧٨، وزاد المسير، لابن الجوزي: ٦/ ١٥٥.

(٤) هو عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار، أبو موسى الأشعري، صحابي جليل مشهور بكنيته، وكان أحد الشجعان الفاتحين، واستعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم على جانب من اليمن، وأمّره عمر ثم عثمان رضي الله عنهما، وتوفي سنة (٥٠هـ)، وقيل: بعدها رضي الله عنه. انظر: الإصابة، لابن حجر العسقلاني: ٤/ ٢١١ ـ ٢١٤، وتقريب التهذيب، له: ١/ ٤١٥.

رسول الله ﷺ بخمس كلمات، فقال: «**إن الله ﷻ لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه**[(١)]**، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور ـ وفي رواية: النار ـ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه**[(٢)] **ما انتهى إليه بصره من خلقه**»[(٣)].

وفي رواية أخرى زيادة: «ثم قرأ أبو عبيدة[(٤)]: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٨]»[(٥)].

---

(١) قوله: (يخفض القسط ويرفعه) المراد بالقسط: الميزان، سمي قسطاً لأن القسط هو العدل، وبالميزان يقع العدل، والمراد بخفضه ورفعه: أنه تعالى يخفض الميزان ويرفعه بما يوزن من أعمال العباد. وقيل: المراد بالقسط: الرزق الذي هو قسط كل مخلوق، يخفضه الله فيقتره، ويرفعه فيوسعه، والله تعالى أعلم. وانظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم، للقاضي عياض: ١/ ٥٣٥، وشرح صحيح مسلم، للنووي: ٣/ ١٣.

(٢) انظر: معنى قوله: (سبحات وجهه) في ص ٤٨١ ـ ٤٨٥ من البحث.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه: ١/ ١٦١ ـ ١٦٢، برقم (١٧٩).

(٤) هو الراوي عن أبي موسى الأشعري ﷺ في الحديث السابق. وهو أبو عبيدة ابن عبد الله بن مسعود الهذلي الكوفي، مشهور بكنيته، والأشهر أن لا اسم له غيرها، ويقال: اسمه عامر، وهو ثقة من كبار التابعين، وتوفي سنة (٨٠هـ)، وقيل: بعدها رحمه الله تعالى. انظر: تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني: ٥/ ٧٥ ـ ٧٦، وتقريب التهذيب، له: ٢/ ٤٣٩.

(٥) أخرج الحديث بهذه الزيادة ابن ماجه في سننه: ١/ ٧١، برقم (١٩٦) من طريق المسعودي، عن عمرو بن مرة، عن أبي عبيدة. والمسعودي ـ وهو عبد الرحمن بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الكوفي ـ وثقه بعض الأئمة، وقال الحافظ ابن حجر: «صدوق»، وقد اختلط قبل موته، إلا أن الراوي عنه هنا هو وكيع بن الجراح، وسماعه منه قديم قبل الاختلاط، فالرواية ثابتة. وانظر: تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني: ٦/ ٢١٠ ـ ٢١٢، وتقريب التهذيب، له: ١/ ٤٥٣.

فإن هذا الحديث دليل على أن الله تعالى محتجب بالنور أو النار، وهو المناسبة لقراءة الراوي لهذه الآية عقب الحديث، للإشارة إلى أن هذه النار المذكورة في الآية هي من حجاب الله ﷻ كلم موسى عليه السلام من ورائه، كما قال سبحانه: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [الشورى: ٥١].

وقد جاء في الأثر عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «احتجب الله من خلقه بأربع: نار وظلمة، ونور وظلمة»[١].

واختلف قول المفسرين في النار التي رآها موسى عليه السلام: هل كانت ناراً أو نوراً؟.

والروايات الواردة عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، وعكرمة، والحسن والبصري، وقتادة، ومحمد بن كعب، كلها تفيد أن النار كانت نوراً[٢]. وقال بعض المفسرين: كانت ناراً لا نوراً[٣].

والحق أنها كانت ناراً، وهي أيضاً نور، وقد سبق آنفاً ـ في أثر ابن عمر رضي الله عنهما أن حجب الله تعالى نار ونور.

---

(١) رواه أبو سعيد الدارمي في كتاب الرد على الجهمية ـ ضمن عقائد السلف ـ: ص٢٨٣، وابن أبي زمنين في أصول السنة: ص١٠٨، رقم (٤٢)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة: ٢/ ٤٢٩، برقم (٧٢٩)، وهو أثر موقوف صحيح، وله حكم الرفع؛ لأن مثل هذا لا يقال بالرأي.

(٢) سبق تخريج هذه الروايات عن المذكورين، وانظر: تفسير الطبري: ٩/ ٤٩٦ ـ ٤٩٧، وتفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم، جمع أسعد محمد: ٩/ ٢٨٤٥ ـ ٢٨٤٦، والوسيط، للواحدي: ٣/ ٣٦٩، وتفسير البغوي: ٦/ ١٤٤، وتفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني: ٤/ ٧٨، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٣/ ١٥٨، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٣٦٩.

(٣) انظر: تفسير الطبري: ٩/ ٤٩٧.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والذي رآه موسى كان ناراً بنص القرآن، وهو أيضاً نور، كما في الحديث[١]، والنار هي نور، والله أعلم»[٢]، «فإن مثل هذه النار الصافية التي كلم بها موسى يقال لها: نار ونور، كما سمى الله نار المصباح نوراً، بخلاف النار المظلمة، كنار جهنم، فتلك لا تسمى نوراً.

فالأقسام ثلاثة: إشراق بلا إحراق، وهو النور المحض، كالقمر. وإحراق بلا إشراق، وهي النار المظلمة. وما هو نار ونور، كالشمس، ونار المصابيح التي في الدنيا توصف بالأمرين» اهـ[٣].

وإذا تبين ما سبق ذكره فإن الكلام في قوله تعالى: ﴿أَنْ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ من جنس الكلام في نزوله ﷻ كل ليلة إلى السماء الدنيا، وقربه من عابديه، ودنوه عشية عرفة. وهذا الذي قرره شيخ الإسلام ابن تيمية[٤]، والعلم عند الله تعالى. وأما قوله تعالى: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ فيعني: ومن حول النار[٥]، وفي المعني بذلك ثلاثة أقوال للمفسرين:

فقيل: الملائكة. وقيل: موسى عليه السلام. وقيل: الملائكة وموسى[٦]، وكل ذلك محتمل للصواب، والله تعالى أعلم.

وسبح الله تعالى لنفسه المقدسة بعد ذلك بقوله: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: «عن أن يظن به نقص أو سوء، بل هو الكامل في وصفه

---

(١) يعني حديث أبي موسى الأشعري الذي سبق ذكره.
(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ٥٨٥.
(٣) المصدر السابق: ٦/ ٣٨٧.
(٤) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/ ٢٤٢، ٤٦٠ ـ ٤٦٥.
(٥) انظر: تفسير الطبري: ٩/ ٤٩٧.
(٦) انظر: المصدر السابق، الموضع نفسه، وزاد المسير، لابن الجوزي: ٦/ ١٥٥.

وفعله»[(١)] «الذي يفعل ما يشاء، ولا يشبهه شيء من مخلوقاته، ولا يحيط به شيء من مصنوعاته، وهو العلي العظيم المباين لجميع المخلوقات، ولا تكتنفه الأرض والسموات، بل هو الأحد الصمد المنزه عن مماثلة المحدثات»[(٢)].

وقد اقتضى المقام شيئاً من البسط في الكلام على هذه الآية لاختلاف الأقوال فيها، وسلوك بعض المفسرين فيها مسلك التأويل المخالف للمأثور عن السلف الصالح والمؤدي إلى تحريف كلام الله تعالى، وسبحان الله وتعالى عن كل وصف لا يليق بكماله وعظمته.

١٦ ـ وقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [القصص: ٦٨].

وفي هذه الآية سبح الله تعالى لنفسه المقدسة تنزيهاً لها عن شرك المشركين به، بعد أن أخبر أنه سبحانه المتفرد بالخلق والاختيار، وأنه ليس له في ذلك منازع ولا معقب، فليس لأحد أن يختار على الله تعالى، بل هو الذي يخلق ما يشاء، ويختار ما يشاء من مخلوقاته وأوامره، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، والأمور كلها خيرها وشرها بيده ومرجعها إليه[(٣)].

وقد ذهب الإمام ابن جرير الطبري إلى أن (ما) في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ اسم موصول بمعنى (الذي)، وأنه في محل نصب مفعول به للفعل (يختار)، وأطال في تقرير ذلك[(٤)].

---

(١) مقتبس من: تيسير الكريم الرحمن، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص٦٠١.
(٢) مقتبس من: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٣٦٩.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٤٠٨، وتيسير الكريم الرحمن، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص٦٢٢.
(٤) انظر: تفسير الطبري: ١٠/ ٩٥ ـ ٩٦.

ورجح الإمام ابن القيم والحافظ ابن كثير أن (ما) هذه نافية، وأن الوقف التام عند قوله تعالى: ﴿وَيَخْتَارُ﴾. وقوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ استئناف لنفي الاختيار الذي اقترحه المشركون بإرادتهم وأهوائهم، ولبيان انفراده تعالى بالخلق والتقدير والاختيار، وأنه لا نظير له في ذلك[1]، ولهذا قال ﷻ: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فنزه نفسه المقدسة عن شرك المشركين، وعما أشركوه به من الأصنام والأنداد التي لا تخلق ولا تختار شيئاً[2].

١٧ ـ وقوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الروم: ١٧، ١٨].

وقال الحافظ ابن كثير ـ في تفسير هذه الآية ـ: «هذا تسبيح منه تعالى لنفسه المقدسة، وإرشاد لعباده إلى تسبيحه وتحميده في هذه الأوقات المتعاقبة الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه، عند المساء ـ وهو إقبال الليل بظلامه ـ، وعند الصباح ـ وهو إسفار النهار بضيائه ـ، ثم اعترض بحمده مناسبة للتسبيح، وهو التحميد، فقال تعالى: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: هو المحمود على ما خلق في السموات والأرض ـ ثم قال تعالى: ﴿وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾، فالعشاء: هو شدة الظلام، والإظهار: قوة الضياء، فسبحان خالق هذا وهذا» اهـ[3].

وهذا التفسير مبني على أن التسبيح ـ في هذه الآية ـ ابتداء ثناء من الله تعالى على نفسه المقدسة، فيكون خبراً.

---

(١) انظر: شفاء العليل، لابن القيم: ١/ ٩٧ ـ ٩٨، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٤٠٨.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٤٠٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٤٣٨،

وفي الآية وجه آخر في التفسير ـ سبق ذكره عند الكلام على التسبيح بمعنى الصلاة ـ، وهو أن التسبيح ـ في هذه الآية ـ بمعنى الصلاة[١]، وعليه فقوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ يقدر أمراً، أي: سبحوا الله، بمعنى صلوا في الأوقات المذكورة[٢].

١٨ ـ وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الروم: ٤٠].

سبح الله تعالى لنفسه المقدسة ـ في هذه الآية ـ تنزيهاً لها عن شرك المشركين، مبيناً لهم أنه سبحانه هو الذي تفرد بخلقهم فأوجدهم من العدم، ثم رزقهم بعد إيجادهم بما تقوم به حياتهم، ثم يميتهم بعد هذه الحياة الدنيا، ثم يحييهم بعد موتهم ليوم القيامة والحساب. وبين سبحانه أنه ليس من شركاء المشركين الذين عبدوهم من دون الله أحد يفعل شيئاً من هذه الأمور، فكيف يشركون بالله تعالى من ليس له تصرف في أمورهم بوجه من الوجوه؟![٣].

ولهذا نزه نفسه عن شركهم به بقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

١٩ ـ وقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [يس: ٣٦].

سبح الله تعالى لنفسه المقدسة ـ في هذه الآية ـ في معرض ذم

---

(١) انظر: ص٨٩ من البحث.

(٢) انظر: نور المسرى، لأبي شامة: ص٦١ ـ ٦٢.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/٤٤٤، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٦٤٣.

الكفار وتوبيخهم على كفرهم بالله تعالى مع ظهور دلائل توحيده في الكون المشاهد. ولهذا عبر تعالى عن نفسه بالاسم الموصول الدال بصلته على أفعال ربوبيته المستلزمة لتوحيده في العبادة، مبيناً سبحانه أنه الذي خلق أصناف الأشياء كلها مما تنبته الأرض، ومن الناس، ومن مخلوقات شتى لا يعلمهم إلا الله تعالى، وفي هذا دليل على أنه سبحانه المنفرد بالربوبية لكل شيء، فلا ينبغي أن يشرك به في الألوهية[(١)].

ولهذا قيل: إن التسبيح في هذه الآية فيه تقدير الأمر، أي: سبحوه ونزهوه عما لا يليق به[(٢)].

وقيل: إن فيه معنى التعجب، كما سيأتي ـ إن شاء الله ـ عند الكلام على التسبيح عند العجائب الدالة على عظمة الله تعالى[(٣)].

٢٠ ـ وقوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [يس: ٨٣][(٤)].

٢١ ـ وقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٥٩][(٥)].

٢١ ـ وقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الصافات: ١٨٠][(٦)].

٢٢ ـ وقوله تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾ [الزمر: ٤][(٧)].

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٥/٢٦.
(٢) المصدر السابق، الموضع نفسه. (٣) انظر: ٢/ ٣٤ من البحث.
(٤) وتقدم الكلام عليها في ص ٢٣٣.
(٥) وتقدم الكلام عليها في ص ١٨٨، ٢٤٥.
(٦) وتقدم الكلام عليها في ص ٢٣٤، ٢٤٤.
(٧) وتقدم الكلام عليها في ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥.

وهذه الآيات كلها مشتملة على تسبيح الله تعالى لنفسه المقدسة، وتقدم الكلام عليها في مواضع متفرقة من هذا البحث.

٢٤ ـ وقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٦٧].

وهذه الآية فيها تسبيح الله تعالى لنفسه المقدسة عن الشرك، بعد ذكر دلائل عظمته وقدرته التي يعلم بها أنه سبحانه لا شيء مثله، ولا إله غيره، ولذا فإن الكفار الذين أشركوا به ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ أي: ما عظموه حق عظمته(١)؛ لأنهم سووا المخلوق الناقص الضعيف بالرب الخالق العظيم، الذي من عظمته الباهرة وقدرته القاهرة أن ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦٓ﴾(٢).

وقد ورد في معنى هذه الآية الكريمة أحاديث عن النبي ﷺ، اتفق أهل العلم عل صحتها وتلقيها بالقبول والتصديق(٣)، ومنها:

• حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقبض الله تبارك وتعالى الأرض يوم القيامة، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟**»(٤).

• وحديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**يطوي الله عز وجل السموات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم**

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ١١/ ٢٣.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٧٢٩.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/ ٥٨٢.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٨/ ٥٥١، برقم (٤٨١٢)، ومسلم في صحيحه: ٤/ ٢١٤٨، برقم (٢٧٨٧).

يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟»(١).

• وحديث عبد الله بن مسعود ﷺ قال: «جاء حبر من الأحبار(٢) إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، إنا نجد أن الله يجعل السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والجبال والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع، ثم يهزهن ويقول: أنا الملك، أنا الملك ـ فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه تعجباً مما قال الحبر، وتصديقاً له، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾»(٣). قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ففي هذه الآية والأحاديث الصحيحة المفسرة لها المستفيضة التي اتفق أهل العلم على صحتها وتلقيها بالقبول، ما يبين أن السموات والأرض وما بينهما بالنسبة إلى عظمة الله تعالى أصغر من أن تكون مع قبضه لها إلا كالشيء الصغير في يد أحدنا، حتى يدحوها(٤) كما تدحى الكرة» اهـ(٥).

وإذا علم هذا، فما قدر الله تعالى حق قدره من أشرك معه شيئاً

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: ٤/٢١٤٨، برقم (٢٧٨٨).

(٢) الحبر ـ بفتح الحاء وكسرها، والفتح أفصح، وجمعه الأحبار ـ: هو العالم [شرح صحيح مسلم، للنووي: ١٧/١٢٩] والمراد هنا: عالم من علماء اليهود، كما صرح به في بعض روايات الحديث.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٨/ ٥٥٠، برقم (٤٨١١) و١٣/ ٣٩٣، برقم (٧٤١٤، ٧٤١٥)، ومسلم في صحيحه: ٤/٢١٤٧ ـ ٢١٤٨، برقم (٢٧٨٦).

(٤) دحا الشيء، يدحوه، ويدحاه، دحوا ودحيا: بسطه أو دفعه أو رماه [القاموس المحيط: مادة (دحا): ص ١٦٥٤، والمعجم الوسيط: ص٢٧٤].

(٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٨/ ٥٦٢.

آخر في عبادته، أو في أفعاله، أو في أسمائه وصفاته، ولهذا ختم سبحانه هذه الآية بتنزيه نفسه عن الشرك، فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

٢٥ ـ وقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الزخرف: ٨٢](١).

٢٦ ـ وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الطور: ٤٣](٢).

٢٧ ـ وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الحشر: ٢٣](٣).

وفي هذه الآيات يسبح الله تعالى لنفسه المقدسة تنزيهاً لها عن الشرك، وعن كل وصف لا يليق بجلاله وعظمته، وقد سبق تناول هذه الآيات في مواضع أخرى من البحث.

وجاء في السنة تسبيح الله تعالى لنفسه المقدسة في الحديث القدسي الذي رواه ابن عباس ﵄ عن النبي ﷺ قال: «**قال الله: كذبني ابن آدم، ولم يكن له ذلك، وشتمني، ولم يكن له ذلك. فأما تكذيبه إياي فزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إياي، فقوله: لي ولد، فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولداً**»(٤).

فقوله تعالى: (فسبحاني) صريح في تسبيح نفسه، وقد سمى الله

---

(١) وسبق الكلام عليها في ص ٢٣٥.
(٢) وسبق الكلام عليها في ص ١٨٩.
(٣) وسبق الكلام عليها في ص ٢٣٦.
(٤) سبق تخريجه في ص١٩١.

نسبة الولد إليه شتماً ـ في هذا الحديث ـ؛ لأن الشتم: «هو الوصف بما يقتضي النقص، ولا شك أن دعوى الولد لله يستلزم الإمكان المستدعي للحدوث، وذلك غاية النقص في حق الباري ﷻ»[(١)].

وهذه التسبيحات التي سبح الله تعالى بها نفسه المقدسة في كتابه أو فيما ثبت من سنة نبيه ﷺ يستفاد منها معارف ربانية عظيمة، منها:

١ ـ أن هذه التسبيحات داخلة فيما مدح الله تعالى به نفسه وأثنى عليها به. وقد ثبت من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**لا أحد أحب إليه المدح من الله، ولذلك مدح نفسه**»[(٢)].

فالله ﷻ يمدح نفسه ويثني عليها بما فيه إثبات الكمال والجمال والجلال لها، وبما فيه نفي العيوب والنقائص والأمثال عنها، ومن ذلك تسبيحه تعالى لنفسه، فإن التسبيح يتضمن التنزيه والتعظيم كما تقدم تقريره.

والله سبحانه هو الحقيق بأن يمدح نفسه ويثني عليها وينزهها ويقدسها بالتسبيح وبغير التسبيح؛ لأنه تبارك وتعالى قد ثبتت له صفات الكمال كلها على الإطلاق، وانتفت عنه صفات النقص كلها على الإطلاق. ولهذا لا يبلغ أحد ـ مهما أوتي من الفصاحة والبلاغة ـ أن يمدحه ويثني عليه كما ينبغي له، بل هو سبحانه كما مدح نفسه وأثنى على نفسه. وكان رسول الله ﷺ ـ وهو أعرف الناس بالله تعالى وأكثرهم ثناء عليه ـ يقول: «**لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك**»[(٣)].

---

(١) مقتبس من: فتح الباري، للحافظ ابن حجر العسقلاني: ٦/ ٢٩١.
(٢) هو جزء حديث أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٨/ ٢٩٥، ٣٠١، برقم (٤٦٣٤، ٤٦٣٧)، ومسلم في صحيحه: ٤/ ٢١١٣، برقم (٢٧٦٠).
(٣) جزء حديث أخرجه مسلم في صحيحه: ١/ ٣٥٢، برقم (٤٨٦).

وأما العبد المخلوق فليس حقيقاً بأن يمدح نفسه، ولا أن ينزهها من العيب والنقص مطلقاً؛ لأنه وإن كان فيه بعض صفات الكمال فالنقص لازم له، ولأن تلك الصفات الحميدة فيه الله واهبه إياها وخالقها فيه فهو أحق بالمدح عليها من العبد، كما أنه تعالى أعلم بالعبد وبصفاته من العبد نفسه، ولهذا قال ﷻ ـ مخاطباً عباده ـ: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ۝٣٢﴾ [النجم: ٣٢]. فنهاهم أن يزكوا أنفسهم، أي: أن يمدحوها ويبرئوها من الذنوب والمعاصي(١).

وهذا النهي يتناول مدح العبد نفسه من باب أولى، ويتناول مدح العبد غيره إلا فيما لا بد منه، ويكون بالضوابط الشرعية، كما في الحديث أن رجلاً أثنى على رجل عند النبي ﷺ، فقال: «**ويلك، قطعت عنق صاحبك، قطعت عنق صاحبك**» ـ مراراً ـ ثم قال: «**من كان منكم مادحاً أخاه لا محالة، فليقل: أحسب فلاناً، والله حسيبه، ولا أزكي على الله أحداً. أحسبه كذا وكذا، إن كان يعلم ذلك منه**»(٢).

٢ ـ ومنها: أن هذه التسبيحات داخلة كذلك فيما تعرف الله تعالى به إلى عباده، فإنه سبحانه قد تعرف إلى عباده ببيان ما يليق به من الأسماء والصفات والأفعال، وما لا يليق به من العيوب والنقائص والأمثال، بحسب ما جاء في كتابه العزيز أو ثبت في سنة نبيه ﷺ،

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ١١/ ٥٣٠، وتفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني: ٢٩٨/٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٢٧٤/٥، برقم (٢٦٦٢). ومسلم في صحيحه: ٢٢٩٦/٤، برقم (٣٠٠٠).

على الطريقة التي سار عليها السلف الصالح من وصفه بما يليق به وصفاً سليماً بلا تمثيل ولا تأويل، وتنزيهه عما لا يليق به تنزيهاً سليماً بلا تعطيل.

وتسبيح الله لنفسه فيه تنزيهه عما لا يليق به إجمالاً أو تفصيلاً، كما سبق.

٣ ـ ومنها: أن هذه التسبيحات فيها إرشاد للعباد إلى أن يسحبوه عن كل ما لا يليق بكماله وجماله وجلاله، تسبيحاً لفظياً باللسان، وتسبيحاً معنوياً بالجنان، وتسبيحاً عملياً بالأركان. فإن الله تعالى لما سبح نفسه دل ذلك على أنه يحب التسبيح، ويحب من عباده أن يسبحوه، ولهذا أمر بالتسبيح، ومدح المسبحين، كما سيأتي بيانه إن شاء الله[1]. وبالله التوفيق.

❖ المطلب الثاني ❖

تسبيح الملائكة لله تعالى

الملائكة خلق من خلق الله تعالى، وعالم من عوالم الغيب، جعل الله الإيمان بهم وبما ثبت في حقهم أصلاً من أصول الدين، كما جعل الكفر بهم وبما ثبت في حقهم ضلالاً مخرجاً من الدين.

قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ . . .﴾ الآية [البقرة: ١٧٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

وقد جاء في كتاب الله تعالى وفي سنة رسوله ﷺ أوصاف عظيمة

(١) في بيان حكم التسبيح، وبيان فضله، في الباب الثاني.

للملائكة دالة على صفاء طبيعتهم، وكمال عبوديتهم لله تعالى، وتمام طاعتهم له.

ومن أعظم تلك الأوصاف: تسبيحهم لله تعالى. فقد تكرر في الكتاب والسنة ذكر تسبيح الملائكة في صور متنوعة وبعبارات مختلفة، وبيان ذلك كما يلي:

أولاً: إخبار الله تعالى عن تسبيح الملائكة له على الدوام بلا انقطاع:

وهذا وارد في عدة مواضع من القرآن الكريم، يخبر الله تعالى أن الملائكة يسبحونه تسبيحاً دائماً متواصلاً من غير انقطاع ولا فتور ولا سآمة. وهذه المواضع هي:

١ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

فقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ يعني بهم: الملائكة[1]. وهذه العندية تعني قربهم من الله تعالى ورفعة منزلتهم على غيرهم من المخلوقات. ثم وصفهم الله تعالى ـ في هذه الآية ـ بثلاثة أوصاف: أنهم لا يستكبرون عن عبادة الله تعالى، وأنهم يسبحونه، وأنهم يسجدون له. وهذه الأوصاف دالة على كمال عبوديهم لله تعالى، حيث قد اجتمعت لهم العبادة القلبية والقولية والبدنية.

فعدم الاستكبار عبادة قلبية عنها تنشأ العبادة القولية والبدنية[2]، والتسبيح هو ذكرهم لله تعالى وتنزيههم إياه عن كل ما لا يليق بجلاله وعظمته[3]، وهو عبادة كائنة بالقلب ـ وهي اعتقاد التنزيه ـ، وباللسان

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٦/ ١٦٧.

(٢) انظر: البحر المحيط، لأبي حيان: ٤/ ٤٤٩ ـ ٤٥٠.

(٣) المصدر السابق، الموضع نفسه، وبدائع الفوائد، لابن قيم الجوزية: ١/ ٢٣.

ـ وهي قول: سبحان الله، ونحوه من الذكر ـ، وبالجوارح، كالصلاة ـ مثلاً ـ. والسجود عبادة بدنية تتضمن الخضوع والذل لله العلي العظيم. وتقديم الجار والمجرور في قوله: ﴿وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ﴾ إيذان باختصاص سجودهم لله تعالى وحده دون غيره[(١)].

٢ ـ وقوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ۝٢٠﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠]. فقوله ـ هنا ـ: ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ﴾ يعني: الملائكة[(٢)]، كما في الآية السابقة. وقد تضمنت هذه الآية بيان أن الملائكة ـ زيادة على عدم استكبارهم عن عبادة الله ـ ﴿وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ﴾ أي: لا يتعبون ولا يملون[(٣)]. ولهذا فهم ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ۝٢٠﴾ وهذا كالبيان لقوله: ﴿وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ﴾؛ لأن من يحب أمراً ولا يتعب منه، لا يتركه ولا يمل منه بل يواظب عليه[(٤)]، والملائكة كذلك يحبون تسبيح الله تعالى، فهم دائبون عليه ليلاً ونهاراً، لا يلحقهم كلال ولا إعياء، ولا يشغلهم التسبيح عن تدبير ما وكلوا به من أمور الخلق[(٥)].

وفي الأثر: أن ابن عباس رضي الله عنهما سأل كعباً[(٦)] عن قوله تعالى:

---

(١) انظر: البحر المحيط: ٤/ ٤٥٠.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ١٨٤.
(٣) انظر: المصدر السابق، الموضع نفسه.
(٤) انظر: تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٧/ ٣٦.
(٥) انظر: بغية المرتاد، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق الدكتور موسى الدويش: ص٢٢٨ ـ ٢٢٩.
(٦) هو كعب بن ماتع الحميري، أبو إسحاق، المعروف بكعب الأحبار، كان من أوعية العلم، ومن كبار علماء أهل الكتاب، أدرك الجاهلية، وأسلم في خلافة أبي بكر الصديق، وقدم المدينة من اليمن في خلافة عمر بن الخطاب، =

﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾، فقال: «هل يؤودك طرفك؟ هل يؤودك نفسك؟ قال: لا، قال: فإنهم ألهموا التسبيح كما ألهمتهم الطرف والنفس»[(١)].

وفي الأثر أيضاً: عن عبد الله بن الحارث[(٢)] قال: «قلت لكعب الأحبار: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ أما يشغلهم رسالة أو عمل؟ قال: يا ابن أخي، إنهم جعل لهم التسبيح كما جعل لكم النفس، ألست تأكل وتشرب وتقوم وتقعد وتجيء وتذهب وأنت تنفس؟ قلت: بلى. قال: فكذلك جعل لهم التسبيح»[(٣)].

٣ ـ وقوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ۩ ﴿٣٨﴾﴾ [فصلت: ٣٨].

وهذه الآية في معنى الآيتين السابقتين، فقوله: ﴿لَا يَسۡـَٔمُونَ﴾ كقوله: ﴿لَا يَفۡتُرُونَ﴾[(٤)].

= فأخذ عنه الصحابة وغيرهم، وأخذ هو عن الصحابة الكتاب والسنة، ثم سكن الشام حتى توفي في خلافة عثمان سنة (٣٢هـ)، وقد زاد عمره على المائة، رَحِمَهُ اللَّهُ. انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي: ١/ ٥٢، وتهذيب التهذيب، لابن حجر: ٨/ ٤٣٨.

(١) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره: ٩/ ١٤.

(٢) هو عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم القرشي الهاشمي، أبو محمد، المدني، لقبه (ببه) ـ بموحدتين مفتوحتين، الثانية ثقيلة ـ، ولد على عهد النبي ﷺ، وكان له سنتان عند وفاته ﷺ، اتفقوا على توثيقه، وكان من فقهاء أهل المدينة، كثير الحديث، وولي البصرة لابن الزبير، وتوفي سنة (٨٤هـ)، رحمه الله ورضي عنه. انظر: تهذيب التهذيب، لابن حجر: ٥/ ١٨٠ ـ ١٨١.

(٣) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره: ٩/ ١٤، وذكره الحافظ ابن كثير في تفسير القرآن العظيم: ٣/ ١٨٤.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ١١/ ١١٣.

وجميع هذه الآيات دالة على قوة الملائكة وكمال حياتهم، وشدة الداعي القوي منهم إلى تسبيح الله تعالى وملازمته، فلا يلحقهم فيه فتور ولا سآمة، ولا يشغلهم عنه شاغل(١).

□ ثانياً ـ تمدح الملائكة بتسبيحهم لله تعالى:

وكما أخبر الله تعالى عن تسبيح الملائكة له، فإن الملائكة تمدحوا بتسبيحهم لله تعالى، إظهاراً لعبوديتهم له، وإخباراً بفضله وامتنانه عليهم. وقد حكى الله تعالى ذلك عنهم في موضعين من كتابه:

١ ـ في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: ٣٠].

فهذا سؤال استخبار من الملائكة بعد قوله تعالى لهم: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، كأنهم قالوا: أتستخلف في الأرض خليفة يكون منه الفساد وسفك الدماء، وحكمتك تقتضي أن لا تفعل ذلك، وإن جعلت فيها خليفة، فتجعل فيها من يسبح بحمدك ويقدس لك، ونحن نفعل ذلك.

فأجابهم تعالى عن هذا السؤال بأن له من الحكمة في جعل هذا الخليفة في الأرض ما لا تعلمه الملائكة، وإن وراء ما زعمتم من الفساد وسفك الدماء مصالح وحكماً لا تعلمونها أنتم(٢).

---

(١) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم: ٣/ ٢٤٥، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٥٢٠ ـ ٥٢١، ٧٥٠.

(٢) انظر: بدائع الفوائد، لابن القيم: ٢/ ٤٣٨، ومدارج السالكين، له: ٢/ ١٩٣، وشفاء العليل، له أيضاً: ٢/ ١١٩، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ١/ ٧٣.

والشاهد: أن قولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ يتضمن تمدحهم بتسبيحهم وتقديسهم لله تعالى(١).

٢ ـ وقوله تعالى ـ حكاية لقول الملائكة ـ: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الصافات: ١٦٥، ١٦٦].

وفي هذا تمدح بوقوفهم صفوفاً في السماء لعبادة الله تعالى، وبتسبيحهم لله تعالى. وقد أقسم الله تعالى بهم في قوله سبحانه: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾﴾ [الصافات: ١]. قال الإمام ابن جرير الطبري: «فأما الصافات: فإنها الملائكة الصافات لربها في السماء» اهـ(٢).

وقولهم: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ قال قتادة: «هذا قول الملائكة يثنون بمكانهم من العبادة»(٣).

وقال الحافظ ابن كثير ـ في تفسير الآيتين ـ: «أي: نصطف فنسبح الرب ونمجده ونقدسه وننزهه عن النقائص، فنحن عبيد له، فقراء إليه، خاضعون لديه» اهـ(٤).

□ ثالثاً ـ تسبيح حملة العرش(٥) والحافين من حوله من الملائكة:

وكما جاء الخبر بتسبيح الملائكة على العموم، جاء الخبر بتسبيح

---

(١) انظر: ما سبق من الكلام على ورود التسبيح في هذه الآية مقروناً بالتقديس ومعنى ذلك، في ص ١١٤ ـ ١١٦ من البحث.

(٢) تفسير الطبري: ١٠/٤٦٧.

(٣) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره: ١٠/٥٣٩.

(٤) تفسير القرآن العظيم: ٤/٢٦.

(٥) تقدم عند الكلام على قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ـ ص٢٣٢ من البحث ـ الإشارة إلى أن العرش هو سقف المخلوقات وأوسعها وأعظمها. ويطلق العرش ـ في اللغة ـ على سرير الملك، وسمي =

حملة العرش والحافين من حوله من الملائكة على الخصوص، وذلك في موضعين من القرآن الكريم:

١ - في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الزمر: ٧٥].

وهذه الآية ذكرت بعد ذكر أحداث يوم القيامة وما يقع فيه من القضاء بين العباد، وتوفية كل نفس ما عملت، وإدخال أهل الجنة وأهل النار كلا في المحل الذي يستحقه ويليق به.

فقوله: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ﴾ أي: في ذلك اليوم العظيم[١] ﴿حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ أي: محدقين محيطين بالعرش[٢] ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي: يمجدونه ويعظمونه ويقدسوه وينزهونه عن الجور وعن كل ما لا يليق بجلاله[٣]. ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم﴾ أي: بين الخلائق[٤] ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالعدل[٥]. ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ وهذا إخبار عن حمد الكون أجمعه ناطقه وبهيمه لله رب العالمين، عقيب قضائه بالحق بين

= بذلك لارتفاعها؛ لأن مقعد الملك يكون عادة أعلى من غيره، وعرش الرحمن هو أعلى المخلوقات، وقد اختصه الله تعالى بالاستواء عليه، وأمر ملائكته بحمله وتعبدهم بتعظيمه والطواف به، كما دل على ذلك كله نصوص عديدة في الكتاب والسنة. وانظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٦/ ٤٠٢، والقاموس المحيط، للفيروزآبادي: مادة (عرش): ص٧٧٠، وفتح الباري، للحافظ ابن حجر العسقلاني: ١٣/ ٤٠٥.

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٧٣١.

(٢) انظر: تفسير البغوي: ٧/ ١٣٤.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٤/ ٧٥.

(٤) انظر: المصدر السابق.

(٥) انظر: تفسير الطبري: ١١/ ٣٦، وتفسير البغوي: ٧/ ١٣٤.

الخلائق. ولهذا حذف فاعل الحمد في قوله: ﴿وَقِيلَ﴾، لإفادة العموم والإطلاق، حتى لا يسمع إلا حامد لله تعالى من أوليائه ومن أعدائه ومن جميع مخلوقاته[1]، كما قال الإمام الحسن البصري: «لقد دخلوا النار وإن حمده لفي قلوبهم، ما وجدوا عليه حجة ولا سبيلاً»[2].

٢ ـ وفي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧﴾ [غافر: ٧].

وفي هذه الآية ذكر الله تعالى صنفين من ملائكته المسبحة بحمده، وهما: الملائكة الذين يحملون العرش، والملائكة الذين يطوفون حول العرش.

ثم أخبر تعالى عنهم جميعاً بثلاثة أمور:

الأمر الأول: أنهم ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ و«هذا مدح لهم بكثرة عبادتهم لله تعالى، وخصوصاً التسبيح والتحميد، وسائر العبادات تدخل في تسبيح الله وتحميده؛ لأنها تنزيه له عن كون العبد يصرفها لغيره وحمد له، بل الحمد هو العبادة لله تعالى»[3].

والأمر الثاني: أنهم ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: «يقرون بالله أنه لا إله لهم سواه، ويشهدون بذلك، لا يستكبرون عن عبادته»[4].

والأمر الثالث: أنهم ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: يستغفرون

---

(١) انظر: الصواعق المرسلة، لابن القيم: ٤/١٤٩٦ ـ ١٤٩٧، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٤/٧٥، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٧٣١.

(٢) ذكره ابن القيم في الصواعق المرسلة: ٤/١٤٩٧.

(٣) مقتبس من: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٧٣٢.

(٤) مقتبس من: تفسير الطبري: ١١/٤١.

للمؤمنين من أهل الأرض، ممن آمن بالغيب، وأقر بمثل إقرار الملائكة من توحيد الله تعالى والبراءة من كل معبود سواه(١).

وهذا من جملة فوائد الإيمان وفضائله الكثيرة، أن الله تعالى قيض ملائكته المقربين الذين لا ذنوب عليهم يستغفرون لأهل الإيمان من البشر، ويدعون لهم بظهر الغيب، فالمؤمن بإيمانه تسبب لهذا الفضل العظيم(٢).

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ...﴾ هو بيان لصفة دعائهم للمؤمنين، وكذا الآيتان المذكورتان بعدها.

وتخصيص هذين الصنفين من الملائكة بالذكر في الموضعين السابقين دليل على ما لهما من شأن عظيم، إذ اختارهم الله تعالى لحمل عرشه العظيم والطواف من حوله، فلا شك أنهم من أكبر الملائكة وأعظمهم وأقواهم وأقربهم منه سبحانه وتعالى(٣).

وقد وردت روايات عديدة ـ مرفوعة وموقوفة ومقطوعة ـ في بيان عدة حملة العرش والطائفين حوله من الملائكة، وفي بيان أوصافهم، ولكن معظم هذه الروايات في ثبوتها نظر. والمتيقن في هذا الباب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧]، حيث أخبر تعالى أن حملة العرش ثمانية، وهذا عددهم يوم القيامة بصريح الآية، والله تعالى أعلم.

---

(١) انظر: المصدر السابق، الموضع نفسه، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٤/ ٧٨.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٤/ ٧٨، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٧٣٢.

(٣) انظر: تفسير البغوي: ٧/ ١٣٩، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٤/ ٧٧، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٧٣٢.

☐ رابعاً ـ تسبيح الملائكة لكلام الله تعالى وقضائه:

وإذا كان الملائكة عليهم السلام يسبحون الله تعالى تسبيحاً عاماً في كل وقت على الدوام بلا انقطاع، فإنهم يسبحون الله تعالى ـ مع ذلك ـ تسبيحاً خاصاً إذا قضى الله تعالى بالأمر في السماء وسمعوا كلامه.

وقد جاء في السنة بيان ذلك في حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: «أخبرني رجل من أصحاب النبي ﷺ من الأنصار أنهم بينما هم جلوس ليلة مع رسول الله ﷺ رمي بنجم فاستنار، فقال لهم رسول الله ﷺ: «**ماذا كنتم تقولون في الجاهلية إذا رمي بمثل هذا؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، كنا نقول: ولد الليلة رجل عظيم، ومات رجل عظيم. فقال رسول الله ﷺ: «**فإنها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربنا تبارك وتعالى اسمه إذا قضى أمراً سبح حملة العرش، ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم، حتى يبلغ التسبيح أهل هذه السماء الدنيا. ثم قال الذين يلون حملة العرش لحملة العرش: ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم ماذا قال. قال: فيستخبر بعض أهل السموات بعضاً حتى يبلغ الخبر هذه السماء الدنيا، فتخطف الجن السمع، فيقذفون إلى أوليائهم، ويرمون به، فما جاءوا به على وجهه فهو حق، ولكنهم يقرفون[1] فيه ويزيدون**»»[2].

فهذا الحديث يبين أن الملائكة يسبحون لله تعالى إذا قضى أمراً، أي: إذا تكلم بأمره الذي قضاه مما يكون[3]، وفي ذلك إشارة إلى أن هذا التسبيح للتنزيه والتعظيم والخضوع لكلام الله تعالى وقضائه بما شاء

---

(١) أي: يخلطون فيه الكذب ـ انظر: شرح صحيح مسلم، للنووي: ١٢/٢٢٧.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: ٤/١٧٥٠ ـ ١٧٥١، برقم (٢٢٢٩).
(٣) انظر: تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، للشيخ سليمان بن عبد الله آل الشيخ: ص٢٦٦.

أن يكون من الأمور، فإنه سبحانه لا يقول إلا الحق، ولا يقضي إلا بالحق.

وقد جاء تأكيد هذا المعنى في حديث آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إن نبي الله ﷺ قال: «**إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله، كأنه سلسلة على صفوان**[١]، **فإذا فزع عن قلوبهم**[٢] **قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحق، وهو العلي الكبير....**» الحديث[٣].

وهذا كله يبين أن لكلام الله تعالى بالقضاء أو الوحي وقعاً عظيماً على الملائكة، يخرون لذلك سجداً لله تعالى، ويسبحون تنزيهاً وتعظيماً وخضوعاً له سبحانه.

□ خامساً ـ افتتاح الملائكة كلامهم مع الله تعالى بالتسبيح:

ومن تسبيح الملائكة لله تعالى أيضاً أنهم إذا تكلموا معه سبحانه افتتحوا كلامهم بالتسبيح له وذلك في مقامات دل عليها كتاب الله تعالى، ومن هذه المقامات:

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾ [البقرة: ٣١، ٣٢].

---

(١) أي: كأن الصوت المسموع سلسلة على صفوان، والصفوان: هو الحجر الأملس: انظر: فتح الباري، للحافظ ابن حجر: ٨/٥٣٨، وتيسير العزيز الحميد، للشيخ سليمان بن عبد الله: ص٢٦٦.

(٢) أي: أزيل عن قلوبهم الخوف والغشي. انظر: تيسير العزيز الحميد: ص٢٦٧.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٨/٥٣٨، برقم (٢٢٢٩).

وهذا مقام بين الله تعالى فيه شرف آدم عليه السلام للملائكة بما فضله به من علم أسماء كل شيء من أصناف المخلوقات[١]، ثم عرض تعالى تلك الأشياء على الملائكة قائلاً: ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾. وقد علم تعالى أنه لا علم لهم بذلك، وإنما سألهم ليريهم عجزهم، وأنه قد خلق من خلقه من هو أعلم منهم بتعليمه إياه[٢].

فأجاب الملائكة قائلين: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾، أي: تنزيهاً لك أن نعلم شيئاً إلا ما علمتنا إياه، فإنك أنت العليم بكل شيء من غير تعليم، وأنت الحكيم في خلقك وأمرك، وفي تعليمك ما تشاء لمن تشاء، لك الحكمة العليا والعدل التام في ذلك[٣].

والشاهد: أنهم بدأوا كلامهم مع الله تعالى في هذا المقام بالتسبيح، وهذا أدب منهم وتعظيم لذي الجلال والإكرام والعظمة المطلقة[٤].

٢ ـ وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١].

وهذا تقريع للمشركين يوم القيامة على رؤوس الخلائق، حين يحشرهم الله تعالى جميعاً، ثم يسأل الملائكة الذين كان هؤلاء المشركون يتخذونهم آلهة من دون الله، فيقول تعالى للملائكة: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ١/٧٦.
(٢) انظر: مسألة سبحان، لنفطويه: ص٢٨.
(٣) انظر: تفسير الطبري: ١/٢٥٧ ـ ٢٥٨، ومسألة سبحان، لنفطويه: ص٢٨ ـ ٢٩، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ١/٧٧.
(٤) انظر: تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١/٤١٣.

﴿إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ أي: أأنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم؟[١].

فيجيب الملائكة ـ متبرئين من عبادة المشركين ـ: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾، افتتحوا جوابهم بالتسبيح لله تعالى، أي: تنزيهاً لك أن يكون معك شريك في العبادة، فنحن عبيدك مفتقرون إلى ولايتك، فلا نتخذ ولياً من دونك، ونبرأ إليك من هؤلاء المشركين[٢].

وهذا يعني أن الملائكة لم يأمروهم بذلك ـ وحاشاهم ـ، وإنما أمرهم بذلك الشياطين من الجن[٣]، ولهذا قالوا: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ أي: بل كان هؤلاء المشركون يعبدون الجن ـ يعنون الشياطين ـ؛ لأنهم هم الذين زينوا للمشركين عبادة الأوثان وأضلوهم، وأكثر المشركين مصدقون للجن منقادون لهم، فعبادتهم ـ في نفس الأمر ـ وقعت للشياطين، وهم يظنون أنهم يعبدون الملائكة[٤].

وفي بيان ما دلت عليه الآيات السابقة من افتتاح الملائكة كلامهم مع الله تعالى بالتسبيح يقول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم[٥]: «إن الله تبارك وتعالى لم يكلم ملكاً قط، فيبدأ فيكلمه حتى يسبحه، فلا يجيبه

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٥٥٠.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ١٠/ ٣٨٢، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٥٥٠، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٦٨٢.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٤/ ١٣٥.

(٤) انظر: الجواب الكافي، لابن قيم الجوزية: ص١٤٨، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٥٥٠، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٦٨٢.

(٥) هو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم العمري العدوي مولاهم المدني، كان صاحب قرآن وتفسير، ولم يكن قوياً في الحديث، بل هو ضعيف، وكان في نفسه صالحاً، وتوفي سنة (١٨٢هـ) رحمه الله. انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: ٨/ ٣٤٩، وتهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني: ٦/ ١٧٧ ـ ١٧٩.

حتى يبدأه بالتسبيح، ثم قرأ: ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٣١ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ﴾ [البقرة: ٣١، ٣٢]، وقرأ: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ۝٤٠ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١]»[١].

□ سادساً ـ حال الملائكة في تسبيحهم لله تعالى:

وقد يظن ظان من وصف الملائكة بأنهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون، وأنهم يلهمون التسبيح كما يلهم الناس النفس أن التسبيح يصدر منهم على وجه العادة بلا شعور ولا اهتمام، وهذا الظن بعيد عن الواقع، فإن الله تعالى قد وصف حال الملائكة في تسبيحهم لله ﷻ فقال: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ﴾ [الرعد: ١٣].

فقوله تعالى: (والملائكة من خيفته) يعني: وتسبح الملائكة من خيفته[٢]. و(من) هنا للتعليل. ومعنى (خيفته): هيبته وإجلاله ورهبته[٣]، وهاء الضمير فيه راجع إلى الله ﷻ[٤]. فدلت هذه الآية على أن الملائكة يسبحون الله تعالى خاشعين له خائفين منه، كما وصفهم سبحانه ـ في آية أخرى ـ بقوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ۩ ۝٥٠﴾ [النحل: ٥٠]، وبقوله ـ في آية أخرى ـ: ﴿وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «يخافون الله وليس كخوف ابن آدم، لا يعرف أحدهم من على يمينه ومن على يساره، ولا يشغله عن عبادة الله شيء»[٥].

---

(١) رواه أبو الشيخ في كتاب العظمة: ٢/ ٤٦٧ ـ ٤٦٨، وإسناده صحيح.
(٢) انظر: تفسير الطبري: ٧/ ٣٦٠، وتفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني: ٣/ ٨٤.
(٣) انظر: تفسير الطبري: ٧/ ٣٦٠، والبحر المحيط، لأبي حيان: ٥/ ٣٦٦.
(٤) انظر: زاد المسير، لابن الجوزي: ٤/ ٣١٤.
(٥) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير: ٤/ ٣١٤.

وأما قوله تعالى ـ في الآية ـ: (ويسبح الرعد بحمده) فمعناه ـ كما قال الطبري ـ: «ويعظم الله الرعد ويمجده، فيثني عليه بصفاته، وينزهه مما أضاف إليه أهل الشرك به، ومما وصفوه به من اتخاذ الصاحبة والولد، تعالى ربنا وتقدس»[(١)].

وأكثر المفسرين على أن الرعد ملك من الملائكة يزجر السحاب ويجمعه، والمسموع من الصوت تسبيحه[(٢)].

وقد جاء في ذلك حديث مرفوع عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أقبلت يهود إلى النبي ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم، أخبرنا عن الرعد ما هو؟ قال: «**ملك من الملائكة موكل بالسحاب، معه مخاريق**[(٣)] **من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله**». فقالوا: فما هذا الصوت الذي نسمع؟ قال: «**زجره بالسحاب إذا زجره حتى ينتهي إلى حيث أمر**». قالوا: صدقت» الحديث[(٤)].

وجاء في ذلك أيضاً آثار كثيرة عن ابن عباس رضي الله عنهما[(٥)]، وعن عدد من التابعين[(٦)].

---

(١) تفسير الطبري: ٧/ ٣٦٠.

(٢) انظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني: ٣/ ٨٣، وزاد المسير: ٤/ ٣١٤.

(٣) مخاريق: جمع مخراق، وهو آلة يضرب بها. وانظر: القاموس المحيط، للفيروزآبادي: مادة (خرق): ص١١٣٤.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه: ٥/ ٢٧٤، برقم (٣١١٧)، وأحمد في مسنده: ١/ ٢٧٤، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب»، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (١٨٧٢)، وفي صحيح الجامع، برقم (٣٥٥٣).

(٥) انظر: كتاب الدعاء، للطبراني: ٢/ ١٢٦٤، الأثر رقم (٩٩٣)، وتفسير الطبري: ١/ ١٨٥، الأثر رقم (٤٢٥) و(٤٢٦) و(٤٢٧)،

(٦) انظر: كتاب الدعاء، للطبراني: ٢/ ١٢٦٤، وتفسير الطبري: ١/ ١٨٥.

وعليه فيكون عطف الملائكة على الرعد من باب عطف العام على الخاص، ويكون ذكره على الانفراد مع ذكر الملائكة بعده لمزيد خصوصية له وعناية به(١)؛ لأن صوته من أعظم الأصوات(٢).

وقيل: إن الرعد هو صوت اصطكاك الأجرام العلوية(٣)، أو هو ريح تختنق تحت السحاب فتصاعد فيكون منه ذلك الصوت(٤)، وعليه فسيأتي ذكره ـ إن شاء الله ـ في الكلام على تسبيح الكائنات(٥).

ومما يبين أيضاً حال الملائكة في تسبيحهم لله تعالى قوله ﷻ: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾ [الشورى: ٥].

ومعنى (تكاد السموات يتفطرن) أي: قاربت السماوات ـ على عظمها وكونها جماداً ـ أن يتشققن ويتصدعن(٦).

ومعنى ﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾ أي: كل سماء تتفطر فوق التي تليها(٧).

وللعلماء في سبب مقاربة السماوات للتفطر ـ في هذه الآية ـ وجهان كلاهما يدل له قرآن:

الوجه الأول: أن المعنى ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ﴾ خوفاً من الله تعالى وهيبة وإجلالاً. ويدل لهذا الوجه قوله تعالى ـ قبله ـ: ﴿وَهُوَ

---

(١) انظر: فتح القدير، للشوكاني: ٣/ ١٠٢، وفتح البيان، للقنوجي: ٧/ ٣٠.
(٢) انظر: زاد المسير: ٤/ ٣١٤.
(٣) انظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر: ٣/ ٨٤.
(٤) انظر: تفسير الطبري: ١/ ١٨٦، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١/ ٢١٧.
(٥) في المطلب الرابع من هذ المبحث: ص٣٣٥.
(٦) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٧٥٣، وأضواء البيان، للشنقيطي: ٤/ ٤١٣.
(٧) انظر: أضواء البيان: ٤/ ٤١٤.

﴿ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [الشورى: ٤]؛ لأن علوه ﷻ وعظمته سبب للسماوات ذلك الخوف والهيبة والإجلال، حتى كادت تتفطر.

وعلى هذا الوجه فقوله ـ بعده ـ: (والملائكة يسبحون بحمد ربهم) مناسبته لما قبله واضحة؛ لأن المعنى: أن السماوات في غاية الخوف منه تعالى والهيبة والإجلال له، وكذلك سكانها من الملائكة، فهم يسبحون بحمد ربهم ـ أي: ينزهونه عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله، مع إثباتهم له كل كمال وجلال ـ خوفاً منه وهيبة وإجلالاً.

الوجه الثاني: أن المعنى (تكاد السموات يتفطرن) من شدة عظم الفرية التي افتراها الكفار على خالق السماوات والأرض جل وعلا من كونه اتخذ ولداً ﷻ عن ذلك علواً كبيراً.

وهذا الوجه جاء موضحاً في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ٨٨ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ٩٠ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ٩١ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ٩٢ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ٩٣﴾ [مريم: ٨٨ ـ ٩٣].

وغاية ما في هذا الوجه أن آية الشورى هذه فيها إجمال في سبب تفطر السماوات، وقد جاء ذلك موضحاً في آية مريم المذكورة. وعليه فمناسبة قوله تعالى: (والملائكة يسبحون بحمد ربهم) لما قبله أن الكفار وإن قالوا أعظم الكفر وأشنعه، فإن الملائكة بخلافهم، فإنهم يداومون ذكر الله وطاعته، كما قال تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ۩ ٣٨﴾ [فصلت: ٣٨].

وكلا الوجهين المذكورين حق[1]، غير أن الوجه الأول هو

---

(١) ما ذكر من الوجهين والكلام عليهما منقول بتصرف من «أضواء البيان»: ٤/ ٤١٣ ـ ٤١٥.

المقصود هنا، فمنه يتبين حال الملائكة في تسبيحهم لله تعالى، وأنهم لشدة خوفهم من الله وهيبتهم وإجلالهم له يسبحون بحمده على الدوام بلا انقطاع.

وقوله تعالى - في هذه الآية الكريمة -: **(ويستغفرون لمن في الأرض)** يعني لخصوص الذين آمنوا منهم، كما أوضحه الله بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الآية [غافر: ٧].

وقوله تعالى - في ختام الآية -: **(ألا إن الله هو الغفور الرحيم)** أكد فيه أنه هو وحده المختص بغفران الذنوب وإيجاد الرحمات، وذلك بذكر حرف الاستفتاح (ألا) وحرف التوكيد (إن) المقتضيين للتوكيد، وضمير الفصل (هو) المقتضي للحصر[١].

وبجميع ما سبق ذكره في هذا المطلب من الآيات والأحاديث والآثار يتجلى مقام الملائكة في التسبيح، وأنهم في هذه العبادة العظيمة متميزون عن غيرهم من العالمين. وهنا يختلف أهل العلم في معنى تسبيح الملائكة على أقوال:

أحدها: أن تسبيحهم هو الصلاة[٢]. وقد يستدل أصحاب هذا القول بما ورد في القرآن من إطلاق التسبيح على الصلاة[٣]، ولا يخفى أن ذلك لا يلزم منه كون تسبيح الملائكة بمعنى الصلاة.

الثاني: أن تسبيحهم هو رفع الصوت بالذكر، واستشهد من قال

---

(١) انظر مزيد إيضاح لذلك في: أضواء البيان: ٤/ ٤١٥.

(٢) انظر: زاد المسير، لابن الجوزي: ١/ ٦١ والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١/ ٢٧٦، والبحر المحيط، لأبي حيان: ١/ ٢٩١، وصفوة الآثار، للدوسري: ٢/ ٧٧.

(٣) انظر: ما سبق بيانه من معاني التسبيح في الشرع.

بذلك بقول جرير[(١)]:

«قبح الإله وجوه تغلب كلما   سبح الحجيج وكبروا إهلالا»[(٢)]

والاستشهاد بهذا البيت على المعنى المذكور منتقد من وجهين:

الوجه الأول: أن تفسير تسبيح الملائكة بهذا المعنى أو غيره لا يؤخذ من الشعر، بل من الكتاب أو السنة أو الآثار السلفية.

وقد ورد في الكتاب والسنة إطلاق التسبيح على الذكر، من باب تسمية الشيء باسم بعضه؛ لأن التسبيح نوع من الذكر ـ كما تقدم بيانه[(٣)] ـ ولكن ذلك ليس مقيداً برفع الصوت بالذكر كما ذكر هنا.

وعلى هذا فلو قيل: إن تسبيح الملائكة هو ذكرهم لله لكان معنى صحيحاً.

الوجه الثاني: أن محل الشاهد في البيت ـ وهو قوله: «سبح الحجيج» ـ يظهر أن فيه تصحيفاً[(٤)]؛ لأن الذي في ديوان جرير هو

---

(١) هو جرير بن عطية بن الخطفي بن بدر بن سلمة بن عوف التميمي، أبو حرزة، الشاعر. ولد باليمامة سنة (٢٨هـ)، وعاش عمره يناضل شعراء زمنه ويساجلهم، وكان أشعرهم وأخيرهم، وقد امتدح يزيد بن معاوية والخلفاء من بعده، وكان هجاء مرا: توفي سنة (١١٠هـ) وقيل: (١١١هـ)، وله ديوان شعر مطبوع. انظر: البداية والنهاية، لابن كثير: ٩/٢٧١ ـ ٢٧٧ ومعجم المؤلفين، لكحالة: ١/ ٤٨٤.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١/٢٧٦.

(٣) في تفسير التسبيح شرعاً: انظر: ص٩٦.

(٤) التصحيف: هو تغيير حرف أو حروف بالنسبة إلى النقط مع بقاء صورة الخط في السياق. انظر: نزهة النظر، لابن حجر ـ بتعليقات علي بن حسن الحلبي ـ: ص١٢٧ ـ ١٢٨، وقيل: هو قراءة الشيء على خلاف ما أراد كاتبه، أو على خلاف ما اصطلحوا عليه. كذا في «التعريفات»، للجرجاني: ص٨٢.

«شبح الحجيج» ـ بالشين المعجمة[(١)]، ويقال ـ في اللغة ـ: شبح الداعي: إذا مد يده للدعاء[(٢)]. فيكون الشاعر أراد بقوله: «شبح الحجيج» أي: مدوا أيديهم للدعاء.

وعلى هذا فلا يكون في البيت شاهد لمن استشهد به على المعنى المذكور. وعلى فرض أن البيت لا تصحيف فيه، فيمكن حمل قوله: (سبح الحجيج) على معنى الإبعاد في السير والسرعة فيه، وهو من معاني (سبح) الثلاثي في اللغة، كما سبق بيانه عند الكلام على أصل التسبيح[(٣)].

الثالث: أن تسبيحهم هو التنزيه[(٤)]. والتنزيه هو معنى التسبيح كما علم، لكن إن قصد قائل هذا القول أن تسبيحهم هو التنزيه اعتقاداً دون أن يكون ذلك بالقول، فلا شك أن قصر تسبيحهم على الاعتقاد دون القول ترده الأدلة.

الرابع: أن تسبيحهم هو التعظيم والحمد[(٥)]. والتعظيم أيضاً من معنى التسبيح كما سبق بيانه، والقول في هذا كالقول في الذي قبله.

الخامس: أن تسبيحهم هو الخضوع والذل[(٦)].

والخضوع والذل من لوازم التسبيح وآثاره، وليس هو نفس معنى التسبيح، لا لغة ولا شرعاً.

وكأن من قال بهذا المعنى يريد أن تسبيح الملائكة هو بلسان الحال، وهو خضوعهم لله تعالى وذلهم له، لا بلسان المقال. فإن كان

---

(١) ديوان جرير: ٣٦١.

(٢) انظر: لسان العرب، لابن منظور ـ مادة (شبح) ـ: ٢/ ٤٩٥.

(٣) انظر: ص٤١ من البحث.

(٤) انظر: البحر المحيط: ١/ ٢٩١.

(٥) انظر: زاد المسير: ١/ ٦١.

(٦) انظر: المصدر السابق: ١/ ٦١.

هذا هو المراد، فلا شك أنه مخالف للأدلة؛ لأن تسبيح الملائكة ليس بالحال فحسب، بل بالحال والمقال كما يأتي.

السادس: أن تسبيحهم هو تسبيحهم لله تعالى بألسنتهم، بقول: «سبحان الله»، أو «سبحان الله وبحمده»، أو نحو ذلك من التسبيح الثابت عنهم في الأخبار المقبولة[(١)].

وهذا المعنى هو الذي تدل عليه الأدلة من الكتاب والسنة وآثار السلف مما سبق ذكرها في هذا المطلب وغيرها، كما في حديث أبي ذر ﵁ أن رسول الله ﷺ سئل: أي الكلام أفضل؟ قال: **«ما اصطفى الله لملائكته أو لعباده: سبحان الله وبحمده»**[(٢)].

وإذا اتضح ما يتعلق بتسبيح الملائكة لله تعالى فينبغي أن تكون للعلم بذلك فوائد عملية بالنسبة للمؤمن، بأن يقتدي بالملائكة الكرام فيكثر من تسبيح الله تعالى بالليل والنهار على قدر طاقته، فإن إخبار الله سبحانه عنهم في الآيات السابقة، ووصفه إياهم فيها بما وصف «فيه حث للمؤمنين وترغيب لهم في أن يقتدوا بهم فيما ذكر عنهم؛ لأنه إذا كان أولئك ـ وهم معصومون من الذنب والخطأ ـ هذه حالهم في التسبيح والذكر والعبادة، فكيف ينبغي أن يكون غيرهم»[(٣)].

وإذا كان الله ﷻ قد أعطى الملائكة من القدرة وكمال الحياة ما يفوق ما للبشر من ذلك، فإن المؤمن يجتهد في الاقتداء بهم في حدود طاقته البشرية، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها، وبالله تعالى التوفيق.

---

(١) انظر: المصدر السابق: ١/ ٦١، والجامع لأحكام القرآن: ١/ ٢٧٦، والبحر المحيط: ١/ ٢٩١ وصفوة الآثار: ٢/ ٧٧.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: ٤/ ٢٠٩٣، برقم (٢٧٣١).

(٣) مقتبس من: فقه الأدعية والأذكار، للأستاذ الدكتور عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر: ص٦٠.

❖ المطلب الثالث ❖

تسبيح صالحي البشر لله تعالى

ويعد التسبيح من أكثر العبادات ذكراً في الكتاب والسنة مسنداً إلى صالحي البشر من الأنبياء وأتباعهم المؤمنين.

وما ورد في القرآن والأحاديث والآثار في ذكر تسبيح صالحي البشر كثير جداً يصعب استقصاؤه في هذا المطلب، ولكن يمكن بيان ما تيسر من ذلك فيما يلي:

❑ أولاً ـ تسبيح الأنبياء عليهم السلام لله تعالى:

الأنبياء عليهم السلام هم صفوة البشر وأكملهم علما وعملاً وخلقاً، وأتمهم تسبيحاً لله تعالى قولاً واعتقاداً وعملاً؛ لأن الله تعالى قد اصطفاهم على الناس برسالاته، وخصهم بوحيه، وجعلهم واسطة بينه وبين عباده في تبليغ دينه، وأقام بهم الحجة على خلقه.

وقد قص الله تعالى في كتابه (القرآن الكريم) من قصص أنبيائه ما يشتمل على بيان تسبيحهم لله تعالى في مختلف الأوقات والأحوال، ومن ذلك:

١ ـ تسبيح يونس عليه السلام لله تعالى:

جاء ذكر تسبيح نبي الله يونس عليه السلام في موضعين من القرآن:

الموضع الأول: في قول الله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨].

فإن (ذا النون) هو يونس عليه السلام[(١)] ـ، وهو بمعنى: صاحب الحوت، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨]، وذلك لأن الحوت التقمه، كما قال سبحانه ـ في قصته في موضع آخر ـ: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾ [الصافات: ١٤٢].

وهذا التسبيح الذي ذكر في هذه الآية إنما قاله يونس عليه السلام وهو في بطن الحوت، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ﴾، فإن الظلمات المذكورة هي جمع ظلمة، والمقصود بها: ظلمات بطن الحوت الذي التقمه؛ لأن في كل جنباته ظلمة، فجمعها لشدة تكاثفها، فكأنها ظلمة مع ظلمة[(٢)].

وقيل: المقصود بها: ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل[(٣)].

وقوله تعالى: ﴿أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ تفسير لما نادى به يونس عليه السلام في الظلمات، فـ (أن) هنا مفسرة[(٤)]، وما بعدها هو المنادى به، والله تعالى هو المنادى.

والمعنى: أن يونس عليه السلام نادى ربه تعالى في الظلمات بهذا القول المشتمل على التهليل والتسبيح والاعتراف بالذنب.

فـ (لا إله إلا أنت) تهليل، فيه إفراد الإلهية لله وحده، وذلك يوجب أن لا يعبد إلا إياه، وأن لا يسأل غيره[(٥)].

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٩/ ٧٣، وزاد المسير، لابن الجوزي: ٥/ ٣٨١.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١١/ ٣٣٣، والبحر المحيط، لأبي حيان: ٦/ ٣١١.
(٣) انظر: تفسير الطبري: ٩/ ٧٦ ـ ٧٧، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٢٠١.
(٤) انظر: أضواء البيان، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: ٤/ ٧٤٧.
(٥) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠/ ٢٧٦.

و(سبحانك) تسبيح، يتضمن تعظيم الرب وتنزيهه عن السوء.

والمقام يقتضي هذا التنزيه، فإن يونس عليه السلام كان مليماً[(١)] عندما التقمه الحوت، فهو بهذا التسبيح ينزه الله تعالى عن الظلم وغيره من المعايب، فكأنه يقول: أنت مقدس ومنزه عن ظلمي وعقوبتي بغير ذنب، بل أنا الظالم لنفسي[(٢)]، ولهذا قال ـ بعده ـ: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وهذا اعتراف بالذنب، وهو استغفار؛ لأن هذا الاعتراف يتضمن طلب المغفرة، فهو عليه السلام سأل الله تعالى المغفرة بوصف حاله[(٣)].

وقد كان التهليل والتسبيح مقدمة بين يدي هذا الاستغفار، وتوسلاً إلى الله عز وجل بتوحيده والثناء عليه، ولهذا استجاب الله تعالى له، كما قال سبحانه: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٨٨﴾.

وفي الحديث عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**دعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له**»[(٤)].

والآية الكريمة شاهدة لهذا الحديث، في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، فإنه وعد وبشارة لكل مؤمن أن الله تعالى ينجيه كما أنجي يونس عليه السلام[(٥)].

وإنما كانت هذه الدعوة بهذه المكانة؛ لأن «فيها من كمال

---

(١) سيأتي بيان معنى ذلك ـ إن شاء الله ـ في الموضع الثاني.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠/٢٤٨، ٢٥٠.

(٣) انظر: المصدر السابق: ١٠/٢٤٤، ٢٥٤.

(٤) سبق تخريجه في ص (١٠٥).

(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٥٣٠،

التوحيد والتنزيه للرب تعالى، واعتراف العبد بظلمه لنفسه وذنبه ما هو من أبلغ أدوية الكرب والهم والغم، وأبلغ الوسائل إلى الله سبحانه في قضاء الحوائج، فإن التوحيد والتنزيه يتضمنان إثبات كل كمال لله، وسلب كل نقص وعيب وتمثيل عنه، والاعتراف بالظلم يتضمن إيمان العبد بالشرع والثواب والعقاب، ويوجب انكساره ورجوعه إلى الله، واستقالته عثرته والاعتراف بعبوديته وافتقاره إلى ربه.

فها هنا أربعة أمور قد وقع التوسل بها: التوحيد، والتنزيه، والعبودية، والاعتراف»[1].

الموضع الثاني: في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات: ١٣٩ ـ ١٤٤].

وقد ذكر تعالى في هذا الموضع التقام الحوت ليونس عليه السلام، وأنه كان مليماً حينئذٍ، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾ أي: ابتلعه الحوت وحاله أنه مليم، والمليم: اسم فاعل من (ألام)، إذا أتى ما يلام عليه من الأمر، وإن لم يلم[2].

والظاهر أن الأمر الذي أتاه يونس عليه السلام هو ذهابه عن قومه مغاضباً، دون أن يأذن له ربه بالذهاب، وهو الذي عبر الله عنه هنا بقوله تعالى: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾﴾، فيونس عليه السلام أبق من ربه؛ لأنه ذهب قبل أن يأذن له، ولهذا كان مليماً[3].

---

(١) مقتبس من: زاد المعاد، لابن قيم الجوزية: ٤/٢٠٨.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ١٠/٥٢٧.

(٣) انظر: المصدر السابق: ١٠/٥٢٦، وأضواء البيان، للشنقيطي: ٤/٧٤٨.

ثم ذكر تعالى تسبيحه، فقال: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾. وفي هذا بيان أنه عليه السلام كان يكثر التسبيح لله تعالى؛ لأن الوصف باسم الفاعل (المسبحين) يدل على ذلك. وبين تعالى أن تسبيحه كان سبب نجاته، ولولا ذلك لبقي في بطن الحوت إلى يوم القيامة[١].

وعن قتادة ـ في قوله تعالى: ﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ ـ قال: «لصار له بطن الحوت قبراً إلى يوم القيامة»[٢].

والكلام السابق يبين أن قوله: (كان من المسبحين) يعني في بطن الحوت[٣]، وأن تسبيحه هذا هو المذكور في الموضع الأول الذي سبق الكلام عليه في قوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧][٤].

وهذا هو الأظهر في معنى قوله تعالى: (فلولا أنه كان من المسبحين) أنه هو تسبيحه عليه السلام وهو في بطن الحوت، وأنه تسبيح اللسان الموافق للجنان، بقول: (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين)[٥].

وقال بعض العلماء: المراد كونه من المسبحين قبل أن يلتقمه الحوت، فنجاه الله من الشدة بما تقدم له من العمل في الرخاء[٦]، كما في الحديث المرفوع: **«تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة»**[٧].

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٥/ ١٢٦.
(٢) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره: ١٠/ ٥٢٩.
(٣) انظر: تفسير البغوي: ٧/ ٦٠.
(٤) وانظر: المصدر السابق، وأضواء البيان: ٦/ ٦٩٦.
(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٥/ ١٢٧.
(٦) انظر: تفسير الطبري: ١٠/ ٥٢٧، والبداية والنهاية: ١/ ٢١٩.
(٧) جزء من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه أحمد في المسند: ١/ ٣٠٧ والحاكم =

ومن ثم فسر بعضهم التسبيح هنا بالصلاة، فعن قتادة ـ في قوله تعالى: (فلولا أنه كان من المسبحين) ـ قال: «كان كثير الصلاة في الرخاء، فنجاه الله بذلك. وقد كان يقال في الحكمة: إن العمل الصالح يرفع صاحبه إذا ما عثر، فإذا صرع وجد متكئاً»(١).

وفسره بعضهم بالذكر. فعن الضحاك بن قيس(٢) قال: «اذكروا الله في الرخاء يذكركم في الشدة، إن يونس كان عبداً لله ذاكراً، فلما أصابته الشدة دعا الله، فقال الله: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾، فذكره الله بما كان منه». قال الضحاك: «فاذكروا الله في الرخاء يذكركم في الشدة»(٣).

وفسر التسبيح ـ في هذه الآية ـ أيضاً بالعبادة والطاعة(٤).

ولا اختلاف في الحقيقة بين هذه التفسيرات، فالصلاة متضمنة للذكر، وهما من العبادة والطاعة، كما أن التسبيح يطلق على كل من الصلاة، والذكر، والعبادة، وسبق بيان ذلك في التعريف بالتسبيح شرعاً(٥).

= في المستدرك: ٣/ ٦٢٤، برقم (٦٣٠٤). وصححه الألباني في صحيح الجامع: ١/ ٥٦٩، برقم (٢٩٦١).

(١) رواه الطبري في تفسيره: ١٠/ ٥٢٧.

(٢) هو الضحاك بن قيس بن خالد بن وهب بن ثعلبة القرشي الفهري، أبو أنيس، مختلف في صحبته، فقيل: أدرك النبي ﷺ وسمع منه قبل البلوغ. وقيل: ولد قبل وفاة النبي ﷺ بنحو ست سنين أو أقل. شهد فتح دمشق وسكنها إلى حين وفاته، قتل رحمه الله يوم مرج راهط، سنة (٦٤هـ). انظر: تهذيب التهذيب: ٤/ ٤٤٨ والبداية والنهاية: ٨/ ٢٤٥ ـ ٢٤٧.

(٣) رواه الطبري في تفسيره: ١٠/ ٥٢٨. وانظر: مسألة سبحان، لنفطويه: ص٥٤ ـ ٥٥.

(٤) انظر: تفسير البغوي: ٧/ ٦٠. وانظر: ما سبق في ص١٠٣ ـ ١٠٤.

(٥) انظر: ص٨٦ ـ ١٠٤ من البحث.

وكذلك لا اختلاف في الحقيقة بين القول بأن يونس عليه السلام كان من المسبحين في بطن الحوت، والقول بأنه كان من المسبحين قبل ذلك، بل كلا القولين حق: أما كونه من المسبحين قبل التقام الحوت إياه، فيونس عليه السلام نبي مرسل قبل ذلك، والأنبياء والرسل هم - بلا ريب - أكثر الناس تسبيحاً لله تعالى في جميع الأحوال والأوقات كما سبق ذكره في أول المطلب.

وأما كونه من المسبحين في بطن الحوت، فقد دل عليه قوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، كما سبق الكلام عليه في الموضع الأول.

ويمكن أن يكون هذا التسبيح المذكور هو المراد في قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ١٤٣﴾، وهذا هو الأظهر. ويمكن أن يراد بهذه الآية الأخيرة ما كان منه من التسبيح قبل حبسه في بطن الحوت. ولا يبعد القول بإرادة الوجهين معاً في الآية[1]. والله تعالى أعلم.

والخلاصة من الموضعين السابقين في قصة يونس عليه السلام أنه سبح الله التسبيح العظيم فكان تسبيحه سبباً في نجاته ورفع درجاته.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن ما تضمنته قصة ذي النون مما يلام عليه كله مغفور بدله الله به حسنات، ورفع درجاته، وكان بعد خروجه من بطن الحوت وتوبته أعظم درجة منه قبل أن يقع ما وقع. قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ٤٨ لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ٤٩ فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٥٠﴾ [القلم: ٤٨ - ٥٠]، وهذا بخلاف حال التقام الحوت، فإنه قال: ﴿فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ ١٤٢﴾ [الصافات: ١٤٢]، فأخبر أنه في

(١) وفسر الآية بالوجهين معاً السعدي رحمه الله في: تيسير الكريم الرحمن: ص٧٠٧.

تلك الحال مليم، والمليم: الذي فعل ما يلام عليه، فالملام في تلك الحال لا في حال نبذه بالعراء وهو سقيم[(١)]، فكانت حاله بعد قوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] أرفع من حاله قبل أن يكون ما كان، والاعتبار بكمال النهاية لا بما جرى في البداية، والأعمال بخواتيمها» اهـ[(٢)].

ولهذا جاء النهي في السنة المطهرة عن تفضيل أحد نفسه على يونس عليه السلام ظاناً أن ما في القرآن الكريم من قصته فيها حط من مرتبته. ففي الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه «قال ـ يعني الله تبارك وتعالى ـ: **لا ينبغي لعبد لي أن يقول: أنا خير من يونس بن متى** عليه السلام»[(٣)].

«وهذا اللفظ يدل على العموم، أي: لا ينبغي لأحد أن يفضل نفسه على يونس بن متى»[(٤)].

وفي رواية أخرى لأبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**من قال: أنا خير من يونس بن متى فقد كذب**»[(٥)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ تعليقاً على هذا الحديث ـ: «فمن ظن أنه خير من يونس بحيث يعلم أنه ليس عليه أن يعترف بظلم نفسه،

---

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿۞ فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٞ ١٤٥﴾ [الصافات: ١٤٥]. وهذه الآية من تكملات قصة يونس السابق ذكرها في الموضع الثاني.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠/٢٩٩.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه: ٤/١٨٤٦، برقم (٢٣٧٦). وأخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٦/٤٥١، برقم (٣٤١٦)، ولكن وقع عنده غير مضاف إلى الله تبارك وتعالى.

(٤) مقتبس من: شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز: ١/١٦١.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٨/٢٦٧، برقم (٤٦٠٤).

فهو كاذب، ولهذا كان سادات الخلائق لا يفضلون أنفسهم على يونس في هذا المقام[(١)]، بل يقولون كما قال أبوهم آدم[(٢)]، وخاتمهم محمد ﷺ[(٣)]» اهـ[(٤)].

وقد جاءت الإشارة إلى علة المنع من أن يظن أحد أنه خير من يونس عليه السلام فيما رواه علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**قال ـ يعني الله عز وجل ـ: ليس لعبد لي أن يقول: أنا خير من يونس بن متى، قد سبح الله عز وجل في الظلمات**»[(٥)].

فكان في هذا الحديث بيان للمعنى الذي من أجله منع أن يفضل أحد نفسه على يونس بن متى عليه السلام؛ لأنه سبح الله تعالى في الظلمات بقوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٢ ـ تسبيح موسى عليه السلام لله تعالى:

جاء ذكر تسبيح نبي الله وكليمه موسى عليه السلام في موضعين:

الموضع الأول: في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ

---

(١) يعني مقام الاعتراف بظلم الإنسان نفسه.

(٢) يعني قول آدم عليه السلام فيما حكى الله تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

(٣) يعني ما ثبت في حديث علي رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ كان إذا قام إلى الصلاة قال: «**وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا...**» إلخ، وفيه: «**أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعاً، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت**» الحديث أخرجه مسلم في صحيحه: ١/ ٥٣٤ ـ ٥٣٦، برقم (٧٧١).

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠/ ٢٥٤.

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه: ١١/ ٥٤٠، وأبو جعفر الطحاوي في شرح معاني الآثار: ٤/٣١٦، وفي شرح مشكل الآثار، تحقيق شعيب الأرنؤوط: ٣/ ٤٧، برقم (١٠١٣).

قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وفي هذه الآية بيان أن موسى عليه السلام طمع في رؤية ربه سبحانه حين كلمه من وراء حجاب، ولم يعنفه الله تعالى على ذلك؛ لأنه سأل ما يجوز(١)، ولكن الله عز وجل أراد أن يرى موسى عليه السلام من كمال عظمته وجلاله ما يعلم به أن القوة البشرية في هذه الدار الدنيا لا تثبت لرؤيته ومشاهدته عياناً(٢)، ولهذا قال له: ﴿لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾، يعني أن الجبل ـ على صلابته وعظمته ـ لا يستقر مكانه إذا تجلى الله تعالى له، فكيف بالإنسان الضعيف؟!

وقد تبين ذلك لموسى عليه السلام حين رأى الجبل قد صار دكا عندما تجلى له ربه سبحانه أدنى تجل، وسقط موسى مغشياً عليه من هول ما رأى، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ﴾(٣).

ولما أفاق موسى عليه السلام من غشيته، وثاب إليه فهمه، قال: (سبحانك)، وهذا تسبيح من موسى عليه السلام لربه عز وجل، سبحه في ذلك الموقف الهائل الذي رأى فيه من عظمة ربه وجلاله ما يستدعي التسبيح تعظيماً له سبحانه، وتنزيهاً له عما لا يليق بكماله وعظمته، وعن أن يقوى أحد من الخلق على رؤيته عياناً في هذه الحياة الفانية(٤)، ولهذا

---

(١) انظر: مسألة سبحان، لنفطويه: ص٣٨.

(٢) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم: ٣/ ٩٩.

(٣) انظر: تفسير الطبري: ٦/ ٥٣ ـ ٥٤، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٢/ ٢٥٥، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٣٠٢.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ٦/ ٥٥، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٣٠٢.

قرن تسبيحه بقوله: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: تبت إليك من مسألتي إياك ما سألتك من الرؤية[(١)]، وأنا أول المؤمنين بأنه لا يراك أحد في الدنيا إلا مات[(٢)]. وقيل: أول المؤمنين من قومي بما توحيه إلي، كما أن سائر الأنبياء هم أول أقوامهم إيماناً بما يأتيهم من الوحي، ثم يبلغون فيؤمن من يؤمن، ويكفر من يكفر[(٣)].

الموضع الثاني: في قوله تعالى ـ حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [طه: ٢٩ ـ ٣٥].

وهذا سؤال من موسى عليه السلام لربه سبحانه أن يجعل أخاه هارون عليه السلام وزيراً له يعينه، وشريكاً له في النبوة وتبليغ الرسالة، ثم ذكر عليه السلام الفائدة في ذلك فقال: ﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾﴾[(٤)]، وفي هذا ما يدل على أن موسى وأخاه هارون عليهما السلام كانا يكثران من التسبيح والذكر لله عز وجل. كما أن في تقديم التسبيح على الذكر دليلاً على مزيد اهتمامهما بالتسبيح على وجه الخصوص، مع اهتمامهما بالذكر على وجه العموم[(٥)].

٣ ـ تسبيح داود عليه السلام لله تعالى:

جاء ذكر تسبيح نبي الله داود عليه السلام في ثلاثة مواضع في القرآن الكريم:

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٦/ ٥٥.

(٢) انظر: الرد على الزنادقة والجهمية، للإمام أحمد بن حنبل ـ ضمن عقائد السلف ـ: ص٦٠، وتفسير الطبري: ٦/ ٥٥.

(٣) انظر: مسألة سبحان، لنفطويه: ص٣٨ ـ ٣٩.

(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٥٠٥.

(٥) انظر: ما يأتي بيانه في فضل التسبيح، في ص ٤٢٥.

الموضع الأول: في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

وفي هذه الآية يخبر تعالى عما خص به نبيه داود ﷺ من العجائب الدالة على صدق نبوته وعلى عظمة الله تعالى، وهو تسخير الجبال والطير للتسبيح معه إذا سبح.

وذكر بعض المفسرين في معنى تسخير الجبال والطير للتسبيح مع داود ﷺ أنه هو جعلها بحيث تطيعه إذا أمرها بالتسبيح[١].

وذكر بعضهم في معنى ذلك أنه ﷺ كان إذا قرأ سمعه الله تعالى تسبيح الجبال والطير، لينشط في التسبيح ويشتاق إليه[٢].

والصواب في معناه: أنه ﷺ كان إذا سبح الله تعالى وأثنى عليه، سبحت بتسبيحه الجبال والطير، وجاوبته بالذكر والثناء على الله تبارك وتعالى[٣]. يدل على هذا المعنى الموضع الثاني الآتي.

الموضع الثاني: في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ﴾ [سبأ: ١٠].

وفي هذه الآية أخبر الله تعالى أنه أعطى داود ﷺ فضلاً، وهذا الفضل هو النبوة، والكتاب، والملك، والصوت الحسن، وتسخير الجبال والطير للتسبيح معه، وغير ذلك مما أنعم به تعالى عليه[٤]،

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١١/ ٣٢٠.

(٢) انظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني: ٣/٣٩٦.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/١٩٦، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٥٢٨.

(٤) انظر: زاد المسير، لابن الجوزي: ٦/ ٤٣٥، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٥٣٤، وتفسير أبي السعود: ٧/ ١٢٤.

ولهذا قال: ﴿فَضۡلٗا﴾ فجعله نكرة، للدلالة على التعظيم والتفخيم، كما أن قوله: ﴿مِنَّا﴾ لبيان شرف هذا الفضل بإضافته إلى الله تعالى، وأنه وحده المنعم به على عبده ورسوله داود عليه السلام[(١)].

ثم قال تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾، وهذا نداء منه تعالى للجبال[(٢)] وأمر لها بالتأويب مع داود عليه السلام، والتأويب: هو الترجيع[(٣)]، فـ ﴿أَوِّبِي﴾ بمعنى: رجعي[(٤)].

وأكثر المفسرين على أن معناه هنا: سبحي ورجعي التسبيح[(٥)]؛ لأنه متعلق بالظرف ﴿مَعَهُۥ﴾، والضمير فيه عائد إلى داود عليه السلام، فمعنى ﴿أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ أي: سبحي معه إذا سبح، ورجعي معه التسبيح[(٦)].

وفي هذا دليل على أن داود عليه السلام كان يسبح الله تعالى، وكانت الجبال والطير تردد التسبيح معه بأمر الله تعالى وتسخيره[(٧)].

وقد ذكر بعض العلماء أن الله تعالى أعطى داود عليه السلام من الصوت الحسن الذي كان إذا سبح به سبحت معه الجبال الراسيات الصم الشامخات، ووقفت له الطيور السارحات الغاديات والرائحات، وتجاوبه بأنواع اللغات، وترجع بترجيعه التسبيح[(٨)].

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود: ٧/ ١٢٤.
(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ٤/ ٢٤٣.
(٣) انظر: القاموس المحيط، للفيروزآبادي: مادة (أوب): ص٧٦.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٥٣٤ ـ ٥٣٥.
(٥) انظر: تفسير الطبري: ١٠/ ٣٤٩ ـ ٣٥٠، وتفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني: ٤/ ٣١٩، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٥٣٤.
(٦) انظر: تفسير الطبري: ١٠/ ٣٤٩، وزاد المسير، لابن الجوزي: ٦/ ٤٣٥، وأضواء البيان، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: ٣/ ١٥٥.
(٧) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ٦٧٦.
(٨) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٥٣٤، والبداية والنهاية، له: ٢/ ١٠ ـ ١١.

الموضع الثالث: في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾ [ص: ١٧ ـ ١٩].

وهذا الموضع موافق للموضعين السابقين، وهنا وصف الله تعالى نبيه داود ﷺ بوصفين عظيمين دالان على قوته في عبادة ربه سبحانه، وعزيمته في طاعته ﷻ:

أحدهما: أنه ذو الأيد، بمعنى: ذو القوة العظيمة على عبادة الله تعالى، في بدنه وقلبه، وذو البطش الشديد في ذات الله ﷻ(١).

والثاني: أنه أواب، بمعنى: مسبح لله تعالى، أو مطيع له، أو رجاع إليه في جميع الأمور بالإنابة والحب والتأله(٢).

ولا اختلاف بين هذه المعاني المذكورة، بل كلها معان صحيحة ومتلازمة. وفي هذه المواضع المذكورة دلالة واضحة على أن نبي الله ورسوله داود ﷺ كان يكثر التسبيح لله تعالى والعبادة له، وعلى أن الله سبحانه قد أعطاه من الفضل والنعمة ما خصه به دون غيره من عباده، كتسخير الجبال والطير للتسبيح معه(٣).

وسيأتي ـ بإذن الله ـ كلام أيضاً على هذه الآيات السابقة، عند بيان تسبيح الكائنات كلها لله تعالى(٤).

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ١٠/٥٦١، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٧١١.
(٢) انظر: تفسير الطبري: ١٠/٥٦١ ـ ٥٦٢، وتيسير الكريم الرحمن: ص٧١١.
(٣) انظر: روح المعاني، للألوسي: ٢٣/١٧٤، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٦٧٦.
(٤) انظر: ص٣٣٥ ـ ٣٤١ من البحث.

٤ ـ تسبيح زكريا عليه السلام لله تعالى:

تسبيح نبي الله زكريا عليه السلام مذكور في ما حكى الله تعالى من دعائه عليه السلام بأن يهبه الله ولداً، وأن الله عز وجل بشره بالولد على لسان الملائكة، وتمام ذلك ما حكاه تعالى من قوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾ [آل عمران: ٤١].

فذكر تعالى أن زكريا عليه السلام طلب منه أن يجعل له علامة يستدل بها على وجود الولد منه، فجعل الله تعالى علامة ذلك: أن ينحبس لسانه عن الكلام مع الناس من غير آفة ولا سوء، فلا يستطيع النطق إلا رمزاً، أي: إشارة[1].

ثم أمره الله تعالى بكثرة الذكر والتسبيح في هذه الحال، فقال: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾.

قال ابن عطية: «وقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ﴾ معناه: قل: سبحان الله. وقال قوم: معناه: صل. والقول الأول أصوب؛ لأنه يناسب الذكر، ويستغرب مع امتناع الكلام مع الناس» اهـ[2].

وفي هذا دليل على أنه عليه السلام كان يكثر من ذكر ربّه تعالى وتسبيحه، حتى في هذه الأيام الثلاثة التي كان عاجزاً فيها عن الكلام مع الناس، وهذا من الآيات العجيبة: أن يكون ممنوعاً من الكلام الذي يتعلق بالآدميين وخطابهم، وأما التسبيح والتهليل ونحوه، فغير ممنوع منه[3].

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ١/ ٣٧٠، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص١٣٠.

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ٣/ ٨١.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٤٩٠.

وقد أوضح الله تعالى ـ في موضع آخر ـ أن هذا التسبيح الذي أمر به نبيه زكريا عليه السلام قد أمر به زكريا قومه أيضاً، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾ [مريم: ١١].

قال الحافظ ابن كثير: «﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾ أي الذي بشر فيه بالولد ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي: أشار إشارة خفية سريعة ﴿أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أي: موافقة له فيما أمر به في هذه الأيام الثلاثة زيادة على أعماله شكراً لله على ما أولاه» اهـ(١).

وبهذا يتبين اهتمام نبي الله زكريا عليه السلام بالتسبيح، وحثه لقومه على التسبيح.

٥ ـ تسبيح عيسى عليه السلام لله تعالى:

من تسبيح نبي الله عيسى عليه السلام لله تعالى ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾ [المائدة: ١١٦].

وهذا تقريع وتوبيخ للنصارى الذين اتخذوا عيسى وأمه مريم إلهين من دون الله تعالى، وقالوا: إن الله ثالث ثلاثة. فيقول الله تعالى هذا الكلام لعيسى عليه السلام فيتبرأ عيسى منهم ومن مقولتهم الكفرية، وينزه الله تعالى عن ذلك بالتسبيح له(٢).

واختلف أهل العلم في ما ورد في هذه الآية: هل هو خبر عما

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٣/١١٩.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٢/١٢٤، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٢٣٩.

مضى ـ كما هو ظاهر اللفظ ـ، أو هو خبر عما يستقبل، ولكن عبر عنه بالماضي لتحقق وقوعه؟ قولان:

اختار الأول منهما الإمام ابن جرير الطبري وأيده في تفسيره(١).

واختار جمهور أهل العلم القول الثاني، وهو أن الله تعالى يقول ذلك لعيسى عليه السلام يوم القيامة، لتقريع النصارى وتوبيخهم على رؤوس الأشهاد يوم القيامة؛ لأنهم ادعوا أن عيسى أمرهم باتخاذه إلهاً(٢).

ويؤيد هذا القول أن الله تعالى قال ـ بعد القصة ـ: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ الآية [المائدة: ١١٩]، وأن كثيراً من أمور يوم القيامة ذكر في القرآن بلفظ الماضي، ليدل على الوقوع والثبوت(٣).

والمقصود هنا: أن نبي الله عيسى عليه السلام بدأ جوابه بالتسبيح لله تعالى، وذلك لأمرين:

أحدهما: تنزيهاً لله تعالى عما أضيف إليه مما لا يليق به، وبراءة إليه سبحانه مما قالته الكفرة من النصارى فيه وفي أمه، فيعلم من كان يقول ذلك أنه إنما كان يقول باطلاً.

الثاني: تعظيماً لله تعالى وثناء عليه، وخضوعاً له وخوفاً منه، لا إله غيره ولا رب سواه(٤).

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٥/ ١٣٧ ـ ١٣٨.

(٢) انظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني: ٢/ ٨٢، والمحرر الوجيز، لابن عطية: ٥/ ٢٣٩، وزاد المسير، لابن الجوزي: ٢/ ٤٦٣، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٦/ ٣٧٤، والبحر المحيط، لأبي حيان: ٤/ ٦٣، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٢/ ١٢٤.

(٣) انظر: تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة: ص٢٩٥، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٢/ ١٢٤.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ٥/ ١٣٧ ـ ١٣٨، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٦/ ٣٧٥.

وفي بعض الآثار: أن عيسى عليه السلام أرعدت مفاصله لما سأله الله هذا السؤال، وخشي أن يكون قد قال، ولهذا قال: ﴿سُبْحَانَكَ ...﴾ إلخ[(١)].

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «**تلقى عيسى حجته ولقاه الله في قوله**: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾؟ قال أبو هريرة ـ عن النبي ﷺ ـ: **فلقاه الله**: ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ **الآية كلها**»[(٢)].

وقد ظهر في هذه الآية كمال أدب عيسى عليه السلام في خطابه لربه عز وجل، فلم يقل في جوابه: لم أقل شيئاً من ذلك، وإنما أخبر بكلام ينفي عن نفسه أن يقول مقالة تنافي منصبه الشريف، وأن هذا من الأمور المحالة، ونزه ربه عز وجل عن ذلك أتم تنزيه بالتسبيح له، ورد العلم إلى عالم الغيب والشهادة تبارك وتعالى[(٣)].

٦ ـ تسبيح خاتم النبيين محمد ﷺ لله تعالى:

وأما نبينا محمد ﷺ فإن شواهد تسبيحه لربه تعالى أشهر من أن تذكر، وأكثر من أن تحصر.

فهو ـ عليه الصلاة والسلام ـ أفضل من سبح الله تعالى ونزه، وأبلغ من دعا إلى التسبيح ونوه.

وقد جاء إعلان ذلك في قول الله تعالى له: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٥/ ١٣٧.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه: ٥/ ٢٤٣، برقم (٣٠٦٢)، وقال «هذا حديث صحيح».

(٣) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم: ٢/ ٣٥٨، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٢٤٩.

إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨].

فإن هذه الآية أمر له ﷺ بأن يخبر الناس جميعاً عن سبيله الذي يسلكه في حياته، وعن دعوته التي يدعو إليها الناس(١)، وقد جاء فيها التصريح بالتسبيح في قوله: ﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾، وهو معطوف على قوله: ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾، بمعنى: قل: هذه سبيلي، وقل: سبحان الله(٢)، فهو أمر له ﷺ بالتسبيح.

ويصح أن يكون معطوفاً على قوله: ﴿أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾، بمعنى: أدعو إلى الله، وأسبح الله، فيكون (سبحان) اسم مصدر جاء بدلاً عن الفعل (أسبح)، للمبالغة، وتقديره: وأسبح الله سبحاناً(٣).

وعلى هذا التقدير فهو أمر له ﷺ بأن يخبر عن نفسه أنه يسبح الله تعالى. والتفسيران متطابقان في المعنى، لا اختلاف بينهما.

وهذا دليل على أن التسبيح من أهم وظائف النبي ﷺ قولاً واعتقاداً وعملاً.

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة فيها أمر للنبي ﷺ بالتسبيح في حالات وأوقات مختلفة، منها:

• قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: ٩٧ ـ ٩٩].

وفي هذه الآية تسلية للنبي ﷺ عن أقوال المشركين الكفرية التي

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٢/ ٥١٤.
(٢) انظر: تفسير الطبري: ٧/ ٣١٥، والبحر المحيط، لأبي حيان: ٥/ ٣٤٦.
(٣) انظر: تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٣/ ٦٦.

يضيق منها صدره ﷺ، وأمر له بأن يفزع إلى تسبيح ربه ﷻ مقروناً بحمده، وإلى الصلاة، لكشف ما نابه من الضيق والمكاره التي يلقاها من قومه المشركين[(١)].

وقد كان ﷺ «إذا حزبه[(٢)] أمر صلى»[(٣)]، والصلاة فيها تسبيح لله تعالى وحمد له، وتقرب إليه بالقول والفعل.

• وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [الفرقان: ٥٨].

وفي هذه الآية أمر له ﷺ بالتوكل على الله تعالى الموصوف بالحياة الكاملة الدائمة التي لا موت معها أبداً، وبالتسبيح بحمده تعالى، فالتوكل يتعلق بالتفويض إليه، والثقة به، والاعتماد عليه في الأمور كلها[(٤)]، والتسبيح بحمده يتعلق بتعظيمه وتنزيهه عن كل ما لا يليق به من النقائص والتمثيل، وتمجيده بالحمد على ما يليق به من صفات الكمال وحسان الفعال.

• وقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾ [ق: ٣٩، ٤٠].

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٧/ ٥٥٣، والمحرر الوجيز، لابن عطية: ١٠/ ١٥٤، وفتح القدير، للشوكاني: ٣/ ٢٠٤، وفتح البيان، للقنوجي: ٧/ ٢٠١.

(٢) حزبه الأمر: نابه، واشتد عليه، أو ضغطه. [القاموس المحيط، للفيروزآبادي: مادة (حزب): ص٩٤].

(٣) ورد من حديث حذيفة ﷺ، أخرجه أبو داود في سننه: ٢/ ٧٨، برقم (١٣١٩)، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود: ١/ ٢٤٥، برقم (١١٧١).

(٤) انظر: البحر المحيط، لأبي حيان: ٦/ ٤٦٥، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٣٣٥.

وفي هاتين الآيتين أمر له ﷺ بالتسبيح في أوقات مخصوصة، كما سيأتي الكلام على ذلك ـ إن شاء الله ـ عند بيان المواضع التي يشرع فيها التسبيح[١].

• وقوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾ [النصر: ١ ـ ٣].

وهذه السورة هي آخر سورة نزلت كاملة من القرآن، كما ثبت ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما[٢].

وقد فهم بعض الصحابة رضي الله عنهم من هذه السورة دنو أجل رسول الله ﷺ، وأن الله تعالى أمره فيها بالتسبيح والتحميد والاستغفار في هذه الحال ليختم عمله بذكر ربه وتعظيمه وتنزيهه واستغفاره، ويستعد للقاء ربه سبحانه بأفضل الأعمال[٣]. وكان رسول الله ﷺ خلقه القرآن، كما ثبت في الحديث عن عائشة رضي الله عنها[٤]، فكان في حياته مثالاً عالياً يحتذى، وقدوة حسنة تقتفي في كثرة التسبيح لله تعالى في جميع الأحوال والأوقات، كما يتجلى من الأحاديث الآتية:

أولاً: حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: «صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة، فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المائة، ثم مضى، فقلت:

---

(١) انظر: ٢/ ٥٤ ـ ٥٥ من البحث.

(٢) انظر: صحيح مسلم: ٤/٢٣١٨، حديث رقم (٣٠٢٤). وانظر: فتح الباري، لابن حجر ٨/ ٧٣٤.

(٣) انظر: صحيح البخاري ـ مع الفتح ـ: ٨/ ٧٣٤ ـ ٧٣٥، حديث رقم (٤٩٠٧)، وتفسير الطبري: ١٢/ ٧٣٠ ـ ٧٣١، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٩٣٦.

(٤) جاء ذلك ضمن حديث طويل رواه مسلم في صحيحه: ١/ ٥١٣، برقم: ٧٤٦.

يصلي بها في ركعة، فمضى، فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء، فقرأها، ثم افتتح آل عمران، فقرأها. يقرأ مترسلاً، إذا مر بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوذ. ثم ركع، فجعل يقول: «**سبحان ربي العظيم**»، فكان ركوعه نحواً من قيامه. ثم قال: «**سمع الله لمن حمده**»، ثم قام طويلاً قريباً مما ركع. ثم سجد، فقال: «**سبحان ربي الأعلى**»، فكان سجوده قريباً من قيامه»[(١)].

فهذا الحديث فيه أنه ﷺ كان يسبح إذا قرأ آية فيها تسبيح، وأنه كان يسبح في ركوعه وسجوده قريباً من قيامه الذي قرأ فيه بالبقرة والنساء وآل عمران، مع أن قراءته كانت بترسل، مما يعني أنه كان يكرر التسبيح مرات يصعب ضبط عددها.

ثانياً: حديث ربيعة بن كعب[(٢)] رضي الله عنه قال: «كنت أبيت عند حجرة النبي ﷺ، فكنت أسمعه إذا قام من الليل يقول: «**سبحان الله رب العالمين**» الهوي[(٣)]، ثم يقول: «**سبحان الله وبحمده**» الهوي»[(٤)] ـ وفي رواية ـ قال: «كنت أخدم رسول الله ﷺ، وأقوم له في حوائجه نهاري أجمع، حتى يصلي رسول الله ﷺ العشاء الآخرة، فأجلس ببابه ـ إذا

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: ١/٥٣٦ ـ ٥٣٧، برقم (٧٧٢)، وسبق طرفه الأول، في ص٧٢.

(٢) هو ربيعة بن كعب بن مالك الأسلمي، أبو فراس، المدني، صحابي، من أهل الصفة، وكان يخدم النبي ﷺ، وتوفي سنة (٧٣هـ)، رضي الله عنه: انظر: تقريب التهذيب، لابن حجر: ١/٢٤٣.

(٣) الهوي ـ بفتح الهاء، وتشديد الياء ـ: الحين الطويل من الزمان. وقيل: هو مختص بالليل [النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير: ٥/٢٨٥].

(٤) أخرجه النسائي في سننه: ٣/٢٣٠ ـ ٢٣١، برقم (١٦١٧)، وابن ماجه في سننه: ٢/١٢٧٦، برقم (٣٨٧٩)، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي: ١/٥٢٧، برقم (١٦١٧).

دخل بيته ـ أقول لعلها أن تحدث لرسول الله ﷺ حاجة، فما أزال أسمعه يقول رسول الله ﷺ: «**سبحان الله، سبحان الله، سبحان الله وبحمده**» حتى أمل، فأرجع أو تغلبني عيني فأرقد» الحديث(١).

وهذا الحديث يدل على أنه ﷺ كان يسبح في الليل كثيراً، في غير الصلاة أيضاً.

ثالثاً: حديث أم المؤمنين، أم سلمة(٢) رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ في آخر أمره ـ لا يقوم ولا يقعد، ولا يذهب ولا يجيء، إلا قال: «**سبحان الله وبحمده**». فقلت: يا رسول الله، إنك تكثر من (سبحان الله وبحمده)، لا تذهب ولا تجيء، ولا تقوم ولا تقعد، إلا قلت: (سبحان الله وبحمده). قال: «**إني أمرت بها**»، فقال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ إلى آخر السورة»(٣).

وهذا الحديث صريح في إكثار النبي ﷺ من التسبيح في جميع الحالات، وفي جميع الأوقات.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده: ٤/٥٩، بلفظ أطول، والطبراني ـ بنحوه ـ في كتاب الدعاء: ٢/١١٥٨، برقم (٧٧٤) وله عنده طرق عديدة في المصدر نفسه: ٢/ ١١٥٥ ـ ١١٥٨، برقم (٧٦٦ ـ ٧٧٤).

(٢) هي هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو القرشية المخزومية، أم سلمة، وأم المؤمنين، تزوجها رسول الله ﷺ سنة أربع من الهجرة ـ على المشهور ـ، وكانت من أجمل النساء، وتوفيت ما بين سنة (٥٩هـ)، وسنة (٦٢هـ) على خلاف، وكان عمرها أربعاً وثمانين سنة، وهي آخر أمهات المؤمنين وفاة، رضي الله عنهن جميعاً. انظر: تهذيب الأسماء واللغات، للنووي: ٢/٣٦١ ـ ٣٦٢، والبداية والنهاية، لابن كثير: ٨/٢١٧، والإصابة، لابن حجر: ٨/ ٢٢١ ـ ٢٢٥، وتقريب التهذيب، له: ٢/ ٥٣٠.

(٣) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره: ١٢/ ٧٣١، برقم (٣٨٢٤٨)، ورجال إسناده كلهم ثقات، ويشهد له حديث عائشة رضي الله عنها المذكور بعده.

رابعاً: حديث عائشة ﵂ قالت: «كان رسول الله ﷺ يكثر من قول: «**سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه**». قالت: فقلت: يا رسول الله، أراك تكثر من قول: (سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه). فقال: «**خبرني ربي أني سأرى علامة في أمتي، فإذا رأيتها أكثرت من قول: (سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه)**»، **فقد رأيتها**: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ - **فتح مكة** - ﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾»(١).

- وهذه الأحاديث المذكورة وغيرها من الأحاديث فيها دلالة واضحة على مقام خاتم النبيين محمد ﷺ في تسبيح الله تعالى، في الصلاة وخارج الصلاة، وفي جميع الأحوال والأوقات، وأنه كان - حقاً - أفضل من قام بهذه العبادة العظيمة كما ينبغي قولاً واعتقاداً وعملاً، تعظيماً لربه سبحانه وتنزيهاً له عن كل ما يليق به في ذاته وفي أسمائه وصفاته وفي أقواله وأفعاله. كما أنه ﷺ دعا أمته إلى التسبيح، ورغبهم فيه، وبين لهم فضائله وآثاره الحميدة، مما سيأتي بيانه في مواضع من هذا البحث، إن شاء الله تعالى.

❑ ثانياً: تسبيح المؤمنين أتباع الأنبياء:

ولما كان التسبيح من هدي الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - الذي كثر تعبدهم لله تعالى به ودعوتهم الناس إليه، كان دأب عباد الله المؤمنين، وشغل أوليائه المتقين، اتباعاً لأنبياء الله المرسلين، وتمسكاً بهديهم المستبين.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: ٣٥١/١، برقم (٤٨٤)، وسبقت الإشارة إليه عند الكلام على قرن التسبيح بالاستغفار، في ص٢٤٢.

وقد أخبر الله تعالى عن المؤمنين ومدحهم بتسبيحهم له في مواضع من القرآن الكريم، ومنها:

١ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩١].

ففي هذا الموضع أخبر الله تعالى أن في خلق السموات والأرض آيات دالة على عظمة الخالق وكمال صفاته، لذوي العقول التامة الزكية التي تدرك الأشياء بحقائقها على جلياتها، وهم المؤمنون الموقنون بالله تعالى(١).

وإنما خصهم الله تعالى بذلك؛ لأنهم هم المنتفعون بها في معرفة خالقهم، والإيمان به، وبصفات كماله ونعوت جلاله(٢)، ولهذا فهم يذكرون الله تعالى في جميع أحوالهم، بسرائرهم وضمائرهم وألسنتهم(٣)، ويتفكرون في مخلوقات الله تعالى تفكراً يوصلهم إلى فهم ما فيها من الحكم الباهرة، والآيات الدالة على عظمة الخالق وقدرته وعلمه وحكمته واختياره ورحمته(٤)، فتلهج ألسنتهم ـ عندئذٍ بالتسبيح له ﷻ، تعظيماً وتنزيهاً له عن العبث وخلق الباطل، وعن كل نقص أو تمثيل، وهو قولهم: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾(٥). وقولهم: ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ دعاء قرنوا به تسبيحهم، كما سبق بيان ذلك عند

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ١/ ٤٤٧.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص١٦١.
(٣) انظر: تفسير الطبري: ٣/ ٥٥٠، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ١/ ٤٤٧.
(٤) انظر: المصدرين السابقين.
(٥) انظر: ص٢/ ٢٥١ ـ ٢٥٢ من هذا البحث.

الكلام على قرن التسبيح بالدعاء[(١)].

٢ - وقوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩].

وهذا إخبار عن تسبيح مؤمني أهل الكتاب، ابتدأه تعالى بأمر نبيه ﷺ أن يقول للكفار المكذبين بالقرآن الكريم: ﴿ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾ «وهذا من الله ﷻ على وجه التبكيت لهم والتهديد، لا على وجه التخيير»[(٢)]، «أي: سواء آمنتم به أم لا، فهو حق في نفسه، أنزله الله ونوه بذكره في سالف الأزمان في كتبه المنزلة على رسله»[(٣)].

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ يعني: «وإن تكفروا به، فإن الذين أوتوا العلم بالله وآياته من قبل نزوله من مؤمني أهل الكتابين إذا يتلى عليهم هذا القرآن يخرون تعظيماً له وتكريماً وعلماً منهم بأنه من عند الله لأذقانهم سجدا بالأرض»[(٤)].

وقيل: إن الضمير في قوله: (من قبله) يرجع إلى رسول الله ﷺ[(٥)]. وأن قوله: (إذا يتلى عليهم) يعني: ما أنزل إليهم من عند الله[(٦)].

والصواب أن المراد في ذلك كله القرآن؛ لأن هذه الآيات في

---

(١) انظر: ص٢٤٣.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٠/ ٣٤٠.
(٣) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٧٢. (٤) تفسير الطبري: ٨/ ١٦٣.
(٥) انظر: المصدر السابق: ٨/ ١٦٤، وزاد المسير: ٥/ ٩٧.
(٦) انظر: المصدرين السابقين.

سياق ذكر القرآن الكريم، ولم يجر لغيره من الكتب ذكر فيصرف الكلام إليه[١].

ثم ذكر تعالى تسبيحهم له في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾ أي: ويقول هؤلاء الذين أوتوا العلم من قبل نزول القرآن، إذا خروا للأذقان سجداً لله تعالى عند سماعهم القرآن يتلى عليهم: (سبحان ربنا)[٢]، وهذا تسبيح تنزيه لله تعالى عن تكذيب المكذبين بالقرآن[٣]، وتعظيم وتوقير له ﷻ على قدرته التامة وأنه لا يخلف الميعاد، ولهذا قالوا: (إن كان وعد ربنا لمفعولا)[٤].

لأن الله ﷻ وعد على ألسنة أنبيائه ورسله المتقدمين أن يبعث في آخر الزمان نبياً عظيم الشأن، يملأ الأرض نوراً وهدى، ويظهر دينه على الدين كله، وينشر دعوته في أقطار الأرض، وعلى رأس أمته تقوم الساعة[٥].

«وأهل الكتاب مجمعون على أن الله وعدهم بهذا النبي، فالسعداء منهم عرفوا الحق فآمنوا به واتبعوه. والأشقياء قالوا: نحن ننتظره، ولم يبعث بعد رسولاً. وأولئك لما سمعوا القرآن من الرسول عرفوه أنه الرسول الموعود، فخروا سجداً لله إيماناً به وبرسوله، وتصديقاً بوعده الذي أنجزه فرأوه عياناً، فقالوا: (سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا)»[٦].

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٨/ ١٦٤ ـ ١٦٥.
(٢) انظر: المصدر السابق. (٣) انظر: زاد المسير: ٥/ ٩٨.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٧٢.
(٥) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم: ٣/ ١٢٣، وهداية الحيارى، له: ص٣٠٠ ـ ٣٠١.
(٦) مقتبس من: هداية الحيارى: ص: ٣٠١.

٣ ـ وقوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾ [النور: ٣٦ ـ ٣٨].

وهذا تنويه بالمؤمنين لتسبيحهم لله تعالى، واعتنائهم به وبغيره من أنواع الذكر والعبادات، ووعد من الله لهم بالجزاء على ذلك وزيادتهم من فضله بلا حساب.

فقوله: (في بيوت) يعني بها المساجد التي هي بيوت الله(١).

وقيل: يعني بها البيوت كلها(٢). والتحقيق أنها المساجد(٣)، لدلالة ما بعدها(٤).

وفي متعلق الجار والمجرور قولان:

أحدهما: أنه متعلق بقوله تعالى ـ في الآية قبلها ـ: ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ [النور: ٣٥]. والمعنى: مثل نوره كمشكاة فيها مصباح في بيوت(٥)، وذلك أن الله تعالى ضرب بالمشكاة مثلاً لقلب المؤمن وما فيه من الهدى والعلم، وذكر محلها وهي المساجد التي هي أحب البقاع إليه من الأرض، وهي بيوته التي يعبد فيها ويوحد(٦).

والثاني: أنه متعلق بـ (يسبح)، ويكون (فيها) تكريراً على التوكيد.

---

(١) انظر: تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة: ص٣٢٩، وتفسير الطبري: ٨/ ٣٢٩، وتفسير القرآن العظيم: ٣/ ٣٠٣، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٥٦٩.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ٨/ ٣٣٠.

(٣) انظر: أضواء البيان: ٤/ ١١٦.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ٨/ ٣٣٠.

(٥) انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ٤/ ٤٥، وتفسير الطبري: ٨/ ٣٢٩.

(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٣٠٣.

فيكون المعنى: يسبح لله رجال في بيوت أذن الله أن ترفع[(١)].

وقوله تعالى: (أذن الله أن ترفع) أي: أمر الله ووصى بأن ترفع[(٢)].

وفي معنى (أن ترفع) قولان:

أحدهما: أن معناها: أن تبنى[(٣)]، واختار الطبري هذا المعنى.

الثاني: أن معناها: أن تعظم[(٤)].

والأولى تفسيرها بالقولين معاً، فيدخل في رفعها بناؤها وعمارتها، وتطهيرها من الدنس والنجاسة والأذى، وصونها عن اللغو والأقوال والأفعال التي لا تليق فيها[(٥)].

وقوله تعالى: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ معطوف على قوله: (أن ترفع)، أي: «وأذن لعباده أن يذكروا اسمه فيها»[(٦)]، و«يدخل في ذلك الصلاة كلها فرضها ونفلها، وقراءة القرآن، والتسبيح والتهليل وغيره من أنواع الذكر، وتعلم العلم وتعليمه والمذاكرة فيها، والاعتكاف، وغير ذلك من أنواع العبادات التي تفعل في المساجد»[(٧)].

ثم مدح الله تعالى عمارها بالعبادة، فقال: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ

---

(١) انظر: معاني القرآن، للفراء: ٢/ ٢٥٤، ومعاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ٤/ ٤٥.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٣٠٣، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٥٦٩.

(٣) انظر: معاني القرآن، للفراء: ٢/ ٢٥٤، ومعاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ٤/ ٤٥، وتفسير الطبري: ٨/ ٣٣٠.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ٨/ ٣٣٠.

(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٣٠٣ ـ ٣٠٥، وتيسير الكريم الرحمن: ص٥٦٩.

(٦) انظر: تفسير الطبري: ٨/ ٣٣٠.

(٧) تيسير الكريم الرحمن: ص٥٦٩.

وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ﴾[(١)].

وعامة القراء قرأوا (يسبح) بكسر الباء الموحدة المشددة مبنياً للفاعل، وجعله فعلاً للرجال وخبراً عنهم، وترفع به الرجال على الفاعلية.

وبعض القراء قرأوا (يسبح) بفتح الباء الموحدة المشددة مبنياً للمفعول، وعلى هذه القراءة حذف فاعل (يسبح)، ويكون الوقف على قوله: (والآصال) وقفاً تاماً، وابتدأ بقوله: (رجال) وهو مفسر للفاعل المحذوف، كأنه لما قال: (يسبح له فيها)، قيل: ومن يسبح له فيها؟ قال: (رجال)، أي: يسبح له فيها رجال، فيكون رفع رجال ههنا بفعل مضمر، ويظهر بهذا اتفاق القراءتين في المعنى[(٢)].

والتسبيح المسند إلى الرجال في هذه الآية فسر بالصلاة[(٣)]، والصلاة تسمى تسبيحاً كما سبق[(٤)].

وفسر بالتسبيح بالقول، ويدخل فيه التسبيح في الصلاة وغيرها[(٥)].

وخص الوقتين ـ الغدو، وهو أول النهار، والآصال جمع أصيل، وهو آخر النهار ـ لشرفهما ولتيسير السير فيهما إلى الله تعالى[(٦)].

وقوله (رجال) «فيه إشعار بهممهم السامية، ونياتهم وعزائمهم

---

(١) انظر: المصدر السابق.
(٢) انظر: معاني القرآن، للفراء: ٢/ ٢٥٣، ومعاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ٤/ ٤٥ ـ ٤٦، وتفسير الطبري: ٨/ ٣٣٠ ـ ٣٣١، وتفسير القرآن العظيم: ٣/ ٣٠٥، وأضواء البيان: ٤/ ١١٦.
(٣) انظر: تفسير الطبري: ٨/ ٣٣١، وتفسير القرآن العظيم: ٣/ ٣٠٥.
(٤) انظر: ما سبق في: ص٨٦.
(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن: ص٥٦٩.
(٦) انظر: المصدر السابق.

العالية التي بها صاروا عماراً للمساجد التي هي بيوت الله في أرضه، ومواطن عبادته وشكره وتوحيده وتنزيهه»[١].

ووصف الله هؤلاء الرجال الذين يسبحون له بالغدو والآصال بأنهم (لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة) أي: «لا تشغلهم الدنيا وزخرفها وزينتها وملاذ بيعها وربحها عن ذكر ربهم الذي هو خالقهم ورازقهم، والذي يعلمون أن الذي عنده هو خير لهم وأنفع مما بأيديهم؛ لأن ما عندهم ينفد وما عند الله باق»[٢]، ولهذا «جعلوا طاعة الله وعبادته غاية مرادهم ونهاية مقصدهم، فما حال بينهم وبينها رفضوه»[٣].

ووصفه تعالى إياهم بهذه الصفات على سبيل مدحهم والثناء عليهم يدل على أنها لا ينبغي التساهل فيها بحال؛ لأن ثناء الله على المتصف بها يدل على أن من أخل بها يستحق الذم الذي هو ضد الثناء، ويوضح ذلك أن الله نهى عن الإخلال بها نهياً جازماً في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩﴾ [المنافقون: ٩].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَۚ﴾ الآية [الجمعة: ٩]، إلى غير ذلك من الآيات[٤].

وقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ ذكر فيه جل وعلا أن الرجال الذين يسبحون له في المساجد بالغدو والآصال

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٣٠٥ ـ ٣٠٦.
(٢) المصدر السابق: ٣/ ٣٠٦.
(٣) تيسير الكريم الرحمن: ص٥٦٩.
(٤) انظر: أضواء البيان: ٤/ ١١٦.

إلى آخر ما ذكر من صفاتهم، أنهم يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار، وهو يوم القيامة، لشدة فزعه، وعظمة أهواله، وإزعاجه للقلوب والأبدان، فلذلك خافوا ذلك اليوم فسهل عليهم العمل وترك ما يشغل عنه(١).

وقوله تعالى ـ في ختام الآيات ـ: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾ اللام فيه متعلقة بقوله: (يسبح له فيها) وما بعده، يعني: أنهم يسبحون له في المساجد بالغدو والآصال، ولا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطاعوا ربهم مخافة عذابه يوم القيامة، كي يثيبهم الله يوم القيامة بأحسن أعمالهم التي عملوها في الدنيا، وهو ما تقربوا به إلى الله من الواجبات والمستحبات؛ لأن (أحسن) صيغة تفضيل، تدل على أن من أعمالهم حسناً لم يجزوه وهو المباح، فهم يعملون المباحات وغيرها، والثواب لا يكون إلا على العمل الصالح(٢).

ويزيدهم الله على ثوابه إياهم على أحسن أعمالهم التي عملوها في الدنيا من فضله، فيفضل عليهم من عنده بما أحب من كرامته لهم، والله يتفضل على من شاء من طوله وكرامته مما لم يستحقه بعمله ولم يبلغه بطاعته (بغير حساب)، وهذا كناية عن كثرته جداً(٣).

• وجاء التنويه أيضاً بتسبيح عباد الله المؤمنين في السنة النبوية،

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٣٠٧، وتيسير الكريم الرحمن: ص٥٦٩، وأضواء البيان: ٤/ ١٢٢.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ٩/ ٣٣٣، وتيسير الكريم الرحمن: ص٥٦٩، وأضواء البيان: ٤/ ١٢٣.

(٣) انظر: تفسير الطبري: ٩/ ٣٣٣، وتيسير الكريم الرحمن: ص٥٦٩.

ومنه: حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تنادوا هلموا إلى حاجتكم، قال: فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا، قال: فيسألهم ربهم عز وجل ـ وهو أعلم منهم ـ: ما يقول عبادي؟ قال: تقول: يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك. قال: فيقول: هل رأوني؟ قال: فيقولون: لا والله ما رأوك. قال: فيقول: كيف لو رأوني؟ قال: يقولون: لو رأوك كانوا أشد لك عبادة، وأشد لك تمجيداً، وأكثر لك تسبيحاً. قال: يقول: فما يسألوني؟ قال: يسألونك الجنة. قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله، يا رب ما رأوها. قال: فيقول: فكيف لو أنهم رأوها؟ قال: يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصاً، وأشد لها طلباً، وأعظم فيها رغبة. قال: فمم يتعوذون؟ قال: يقولون: من النار. قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: فيقولون: لا والله، يا رب ما رأوها. قال: يقول: فكيف لو رأوها؟ قال: يقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فراراً، وأشد لها مخافة. قال: فيقول: فأشهدكم أني قد غفرت لهم. قال: يقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة. قال: هم الجلساء لا يشقى جليسهم**»[(١)].

وفي هذا الحديث النبوي الشريف ما يشير إلى أن العبد المؤمن يكون ـ أكثر لله تسبيحاً كلما كان أقوى بالله إيماناً وأشد به يقيناً، لقول الملائكة: «لو رأوك كانوا أشد لك عبادة، وأشد لك تمجيداً، وأكثر لك تسبيحاً»، وهذا القول صريح في أن رؤية الله عز وجل مقتضية لكثرة

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ١١/٢٠٨ ـ ٢٠٩، برقم (٦٤٠٨)، ومسلم في صحيحه: ٤/٢٠٦٩ ـ ٢٠٧٠، برقم (٢٦٨٩)، واللفظ للبخاري.

تسبيحه وشدة تمجيده وعبادته، ولهذا لا يبلغ العبد مرتبة الإحسان في الإسلام حتى يعبد الله كأنه يراه، كما قال رسول الله ﷺ «**الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»(١).

وذكر بعض أهل العلم أن في خصوص سؤال الله الملائكة عن أهل الذكر الإشارة إلى قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠] فكأنه قيل لهم: انظروا إلى ما حصل منهم من التسبيح والتقديس مع ما سلط عليهم من الشهوات ووساوس الشيطان، وكيف عالجوا ذلك وضاهوكم في التسبيح والتقديس(٢).

وقال بعضهم: إنه يؤخذ من هذا الحديث أن الذكر الحاصل من بني آدم أعلى وأشرف من الذكر الحاصل من الملائكة، لحصول ذكر الآدميين مع كثرة الشواغل ووجود الصوارف وصدوره في عالم الغيب، بخلاف الملائكة في ذلك كله(٣).

ـ ولقد ضرب سلفنا الصالح من الصحابة والتابعين وأتباعهم ـ رضي الله عنهم ورحمهم أجمعين ـ أروع الأمثلة وأسماها في كثرة تسبيحهم لله تعالى، ومن ذلك:

١ ـ تسبيح عثمان بن عفان رضي الله عنه:

قال حسان بن ثابت(٤) رضي الله عنه في رثائه لعثمان بعد مقتله:

---

(١) هو جزء من حديث جبريل الطويل، أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ١/ ١١٤، برقم (٥٠)، ومسلم في صحيحه: ١/ ٣٦ ـ ٣٨، برقم (٨).

(٢) انظر: فتح الباري، : للحافظ ابن حجر: ١١/ ٢١٣.

(٣) انظر: المصدر السابق: ١١/ ٢١٣.

(٤) هو حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام الأنصاري الخزرجي ثم النجاري، =

«ضحوا بأشمط[1] عنوان السجود به يقطع الليل تسبيحاً وقرآنا»[2]

فيفهم من هذا البيت أن عثمان بن عفان رضي الله عنه كان كثير التسبيح والتلاوة في الليل.

٢ ـ تسبيح عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:

فعن أبي وائل[3] قال: «غدونا على عبد الله بن مسعود يوماً بعد ما صلينا الغداة، فسلمنا بالباب، فأذن لنا. قال: فمكثنا بالباب هنية. قال: فخرجت الجارية، فقالت: ألا تدخلون؟ فدخلنا، فإذا هو جالس يسبح، فقال: ما منعكم أن تدخلوا وقد أذن لكم؟ فقلنا: لا، إلا أنا ظننا أن بعض أهل البيت نائم. قال: ظننتم بآل ابن أم عبد[4] غفلة؟ قال: ثم أقبل يسبح حتى ظن أن الشمس قد طلعت، فقال: يا جارية، انظري هل طلعت؟ فنظرت فإذا هي قد طلعت. فقال: الحمد لله الذي أقالنا[5] يومنا هذا ولم

= أبو الوليد أو أبو عبد الرحمن، المدني، شاعر رسول الله ﷺ، وكان من أشعر العرب، وكان قديم الإسلام، قيل: عاش في الجاهلية ستين سنة، وفي الإسلام ستين سنة، وتوفي في خلافة معاوية وله مائة وعشرون سنة، رضي الله عنه. انظر: الإصابة: ٢/ ٦٢ ـ ٦٤، وتهذيب التهذيب: ٢/ ٢٤٧ ـ ٢٤٨.

(١) الأشمط: المختلط سواد شعره ببياض، وهي شمطاء، والجمع شمط. المعجم الوسيط: مادة شمط: ١/ ٤٩٤.

(٢) ذكره أبو عمر بن عبد البر في ترجمة عثمان بن عفان من كتابه «الاستيعاب»: ٣/ ١٠٤٩. هو في «ديوان حسان بن ثابت»: ١/ ٩٦.

(٣) هو شقيق بن سلمة الأسدي، أبو وائل الكوفي، مخضرم ثقة كثير الحديث، من أصحاب عبد الله بن مسعود، سكن الكوفة وكان من عبادها، وتوفي في خلافة عمر بن عبد العزيز، وله مائة سنة، رحمه الله. انظر: تهذيب التهذيب: ٤/ ٣٦١ ـ ٣٦٣، وتقريب التهذيب: ١/ ٣٤٥.

(٤) ابن أم عبد: هو عبد الله بن مسعود نفسه. وأم عبد هي كنية أمه رضي الله عنها.

(٥) يقال: أقال الله عثرتك، وأقالكها: أي صفح عنه وتجاوز. وانظر: القاموس =

يهلكنا بذنوبنا. . .» الأثر[(١)].

وفي هذه الرواية بيان لما كان يقوم به عبد الله بن مسعود رضي الله عنه من التسبيح، من بعد صلاة الصبح إلى أن تطلع الشمس.

٣ ـ تسبيح أبي هريرة رضي الله عنه:

فعن عكرمة: «أن أبا هريرة رضي الله عنه كان يسبح كل يوم اثنتي عشرة ألف تسبيحة، يقول: أسبح بقدر ذنبي»[(٢)]. وإذا كان هذا شأن أبي هريرة رضي الله عنه في التسبيح، مع قلة ذنوبه وكثرة فضائله، فماذا يكون حال من دونه بمراحل؟!.

٤ ـ تسبيح خالد بن معدان[(٣)]:

فعن سلمة بن شبيب[(٤)] قال: «كان خالد بن معدان يسبح في اليوم أربعين ألف تسبيحة، سوى ما يقرأ من القرآن، فلما مات ووضع على سريره ليغسل، جعل بأصبعه كذا يحركها، يعني بالتسبيح»[(٥)].

= المحيط، للفيروزآبادي: مادة (قيل): ص١٣٥٩، والمعجم الوسيط: مادة (قال): ٢/ ٧٧٠.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: ١/ ٥٦٤، برقم (٧٢٢).

(٢) ذكره الحافظ ابن حجر في ترجمة أبي هريرة من كتابه «الإصابة»: ٧/ ٤٤٢، وقال: أخرجه ابن سعد بسند صحيح.

(٣) هو خالد بن معدان بن أبي كريب الكلاعي، أبو عبد الله الشامي الحمصي، تابعي ثقة من فقهاء الشام بعد الصحابة، ومن خيار عباد الله، وقال: إنه أدرك سبعين من أصحاب النبي ﷺ، وتوفي وهو صائم، سنة (١٠٣هـ)، وقيل: بعدها، رحمه الله تعالى. انظر: سير أعلام النبلاء: ٤/ ٥٣٦ ـ ٥٤٠، وتهذيب التهذيب: ٣/ ١١٨ ـ ١٢٠.

(٤) هو سلمة بن شبيب النيسابوري، أبو عبد الرحمن الحجري المسمعي، نزيل مكة ومحدثها، كان صاحب سنة وجماعة متفقاً على إتقانه وصدقه، وتوفي بمكة سنة (٢٤٧هـ)، رحمه الله. انظر: تهذيب التهذيب: ٤/ ١٤٦ ـ ١٤٧.

(٥) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء»: ٥/ ٢١٠، وذكره الحافظ الذهبي في ترجمة =

٥ ـ تسبيح عمير بن هانئ[(١)]:

فعن مسلمة بن عمرو[(٢)] قال: «كان عمير بن هانئ يصلي كل يوم ألف سجدة، ويسبح مائة ألف تسبيحة»[(٣)].

وفي رواية عن سعيد بن عبد العزيز[(٤)] قال: «قلت لعمير بن هانئ: لسانك لا يفتر عن ذكر الله، فكم تسبح كل يوم وليلة؟ قال: مائة ألف إلا أن تخطئ الأصابع»[(٥)].

٦ ـ تسبيح شريح بن عبيد[(٦)]:

فقد كان يقول: «ارتفع إليك ثغاء[(٧)] التسبيح ـ ويروى: ثناء

= خالد بن معدان في «سير أعلام النبلاء»: ٤/ ٥٤٠، وقال: إسناده منقطع. قلت: يعني الانقطاع بين سلمة وخالد.

(١) هو عمير بن هانئ العنسي، أبو الوليد الدمشقي الداراني، تابعي ثقة إمام، يقال: إنه أدرك ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ، وذكر فيمن مات بين سنة مائة وعشر ومائة، رحمه الله. انظر: سير أعلام النبلاء: ٥/ ٤٢١، وتهذيب التهذيب: ٨/ ١٤٩ ـ ١٥١.

(٢) هو مسلمة بن عمرو الدمشقي الشامي، أبو عمرو، ذكره ابن حبان في الثقات، وقال أبو حاتم: مجهول. انظر: تهذيب التهذيب: ١٠/ ١٤٧.

(٣) رواه الترمذي في سننه: ٥/ ٤٤٨، برقم (٣٤١٥).

(٤) هو سعيد بن عبد العزيز بن أبي يحيى التنوخي، أبو محمد وأبو عبد العزيز الدمشقي، يقال: هو لأهل الشام كمالك لأهل المدينة في التقدم والفضل والفقه والأمانة، وتوفي سنة (١٦٧هـ)، رحمه الله. انظر: تهذيب التهذيب: ٤/ ٥٩ ـ ٦١.

(٥) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء»: ٥/ ١٥٧.

(٦) هو شريح بن عبيد بن شريح بن عبد بن عريب الحضرمي المقرائي، أبو الطيب وأبو الصواب الحمصي، تابعي ثقة من أهل حمص، توفي بعد المائة من الهجرة، رحمه الله. انظر: تهذيب التهذيب، لابن حجر: ٤/ ٣٢٨ ـ ٣٢٩، وتقريب التهذيب، له: ١/ ٣٣٦.

(٧) الثغاء ـ بالضم ـ: صوت الغنم والظباء وغيرها عند الولادة. وثغت ـ كدعت ـ: =

التسبيح ـ، وصعد إليك وقار التقديس، سبحانك ذا الجبروت، بيدك الملك والملكوت والمفاتيح والمقادير، وملكك الدنيا والآخرة، تعاليت وتجبرت في مجلس وقار كرسي عرشك، ترى كل عين وعين لا تراك، وتدرك كل شيء وشيء لا يدركك»[1].

٧ ـ تسبيح الحسن البصري:

فقد كان كثيراً ما يقول ـ إذا لم يحدث ولم يكن له شغل ـ: «سبحان الله العظيم»، فذكر ذلك لبعض فقهاء مكة، فقال: إن صاحبكم لفقيه، ما قالها أحد سبع مرات إلا بني له بيت في الجنة[2].

٨ ـ تسبيح ابن سيرين[3]:

فقد كان عامة كلامه: «سبحان الله العظيم، سبحان الله وبحمده»[4].

ـ وبالجملة فتسبيح السلف الصالح لله تعالى مما لا يمكن حصره،

= صوتت. القاموس المحيط: مادة (ثغا): ص١٦٣٥.

(١) رواه أبو الشيخ في «العظمة»: ١/٣٩٧، برقم (١٠٧). وذكره ابن قيم الجوزية في «اجتماع الجيوش الإسلامية»: ص٢٦٩، وقال: رواه أبو الشيخ بإسناد صحيح. وكذا ذكره الذهبي في «العلو»، وصححه الألباني في «مختصر العلو»: ص١٢٩، برقم (١٠٠).

(٢) ذكره الحافظ ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» ٢/٥١٧.

(٣) هو محمد بن سيرين الأنصاري مولاهم، أبو بكر بن أبي عمرة البصري، مولى أنس بن مالك رضي الله عنه، كان ثقة ثبتاً، مأموناً عالياً، فقيهاً عابداً، إماماً ورعاً، كثير العلم، كبير القدر، وكان يحدث بالحديث على حروفه ولا يرى الرواية بالمعنى، وتوفي سنة (١١٠هـ)، رحمه الله تعالى. انظر: تهذيب التهذيب: ٩/٢١٤ ـ ٢١٧، وتقريب التهذيب: ٢/١٦٩.

(٤) ذكره الحافظ ابن رجب في «جامع العلوم والحكم»: ٢/٥١٧.

وهذه أمثلة منه تدل على شدة اجتهادهم في التسبيح خاصة، وفي سائر الأعمال الصالحة عامة.

❖ المطلب الرابع ❖

تسبيح الكائنات كلّها لله تعالى

ومن أنواع التّسبيح باعتبار الفاعل ما وقع في الكتاب والسنة من إسناد التّسبيح إلى أصناف الكائنات المختلفة، من الحيوانات والنباتات والجمادات، العاقلة وغير العاقلة، والناطقة وغير الناطقة، والنامية والجامدة، وكلّ ما يصدق عليه أنّه شيءٌ مما خلق الله في السموات أو في الأرض أو في ما بينهما من المخلوقات التي لا يُحيط بأنواعها ولا يُحصي عدَدَها إلا اللهُ الخالقُ القديرُ الذي أحاط بكلّ شيءٍ علماً، وأحصى كلّ شيءٍ عدداً.

ففي كتاب الله تعالى نحوُ ثلاث عشرةَ آية من إحدْى عشرةَ سورة(١) أُسند فيها التّسبيح إلى هذه الكائنات مجملةً في بعضها، ومفصّلةً في بعضها الآخر.

● فأما الآيات التي أُسند فيها التّسبيح إلى الكائنات مجملة، فهي:

١ ـ قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١﴾ [الحديد: ١].

---

(١) هي: سورة الرعد، الآية: ١٣، وسورة الإسراء، الآية: ٤٤، وسورة الأنبياء، الآية: ٧٩، وسورة الأنبياء، الآية: ٧٩، وسورة النور، الآية: ٤١، وسورة سبأ، الآية: ١٠، وسورة ص، الآيتان: ١٨، ١٩، وسورة الحديد، الآية: ١، وسورة الحشر، الآيتان: ١، ٢٤، وسورة الصف، الآية: ١، وسورة الجمعة، الآية: ١، وسورة التغابن، الآية: ١.

٢ ـ وقوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١﴾ [الحشر: ١، والصف: ١].

٣ ـ وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢٤﴾ [الحشر: ٢٤].

٤ ـ وقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾ [الجمعة: ١].

٥ ـ وقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾ [التغابن: ١].

وفي هذه الآيات جميعها يخبر الله ﷻ أنّ ما في السموات وما في الأرض سبّح له ويسبّح له.

واللام في قوله: (لله) تقدّم بيان معناها عند الكلام على تعدية التّسبيح، وأنّها تحتمل أوجهاً، أظهرها أنّها للاختصاص، أي: أنّها تفيد كمال الإرادة من الفاعل المسبّح، وكمال الاستحقاق من الله المسبَّح تبارك وتعالى(١).

ولفظ (ما) الذي أسند إليه التّسبيح في هذه الآيات اسم موصول بمعنى الذي، ويستوي فيه المذكّر والمؤنّث، والمفرد والمثنّى والجمع، ويستعمل في غير العاقل غالباً، وفي العاقل قليلاً(٢). وذكر المفسّرون أنّه ـ في هذه الآيات ـ متناول للعاقل وغير العاقل، بتغليب غير العاقل لكثرته(٣).

---

(١) انظر: ص٤٧ ـ ٤٩ من هذا البحث.
(٢) انظر: مفردات ألفاظ القرآن، للراغب: ص٧٨٤، والإتقان في علوم القرآن، للسيوطي: ١/ ٥٥٧.
(٣) انظر: أضواء البيان، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: ٥/ ٢٥٢.

كما ذكر المفسّرون وغيرهم أنّه من صيغ العموم[1]، فيكون إسناد التّسبيح إليه في هذه الآيات شاملاً لكلّ شيءٍ في نطاق السموات والأرض[2]، فقوله: (ما في السموات) يعني كلَّ ما في السموات السبع من الملائكة وغيرهم، كالشمس والقمر والنجوم، وغير ذلك[3]. وجاء لفظ (السموات) مجموعاً في جميع هذه الآيات؛ لأنّ المراد الإخبار عن تسبيح سكّانها على كثرتهم وتباين مراتبهم، فكان لا بدّ من جمع محلّهم[4].

وقوله: (وما في الأرض) يعني كلَّ ما في الأرضين من الإنس والجنّ، والأنعام والدوابّ، والجبال والأشجار، والنبات والبحار، وغير ذلك[5].

وكرّر ذكر (ما) مع (الأرض) في هذه الآيات ـ ما عدا آية سورة الحديد ـ لزيادة التقرير والتنبيه على استقلال كلّ من الفريقين (ما في السموات وما في الأرض) بالتّسبيح[6].

وبالجملة فقد أخبر الله تعالى عن عظمته وجلاله وسعة سلطانه أنّ جميع ما في السموات وجميع ما في الأرض من المخلوقات على كثرة عددها واختلاف أنواعها ينَزّهه عما لا يليق بعظمته وجلاله وسلطانه،

---

(١) انظر: المصدر السابق: ٥/ ٢٦٨. (٢) انظر: المصدر نفسه والموضع.
(٣) انظر: تفسير الطبري: ١٢/ ٨٨، والنكت والعيون، للماوردي: ٥/ ٤٦٨، وتفسير السمرقندي: ٣/ ٣٢١، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٧/ ٢٣٥، وتفسير الخازن: ٤/ ٢٤٥.
(٤) انظر: بدائع الفوائد، لابن القيم: ١/ ١٢٧.
(٥) انظر: تفسير الطبري: ١٢/ ٨٨، وتفسير السمرقندي: ٣/ ٣٢١، وتفسير الخازن: ٤/ ٢٤٥.
(٦) انظر: تفسير أبي السعود: ٨/ ٢٢٤.

ويقدّسه ويمجدّه ويوحّده ﷻ[(١)].

وقد ختم الله ﷻ كلّ آية من الآيات السابقة ببعض أسمائه الحسنى الدالّة على صفاته العليا المقتضية لتسبيحه، فختم آية الحديد، وآيتي الحشر، وآية الصفّ، بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: هو الغالب الذي لا يغلبه شيء، الحكيم الذي يضع الأمور في مواضعها، ويوقعها في مواقعها[(٢)]. فبعزّته قهر كلّ شيء فلا يمتنع عليه شيء، ولا يستعصي عليه مستعصٍ، وبحكمته أحسن كلّ شيء خلقه، فلا يخلق شيئاً عبثاً، ولا يَشرَع ما لا مصلحة فيه[(٣)]. ومن تمام عزته وحكمته براءتُه عن كلّ سوء وعيب ونقص، فإنّ ذلك ينافي العزّة التامّة والحكمة التامّة[(٤)].

وختم آية الجمعة بقوله تعالى: ﴿ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾، فذكر مع الاسمين السابقين اسمه الملك، واسمه القدّوس، وقد تقدّم الكلام على هذين الاسمين وبيان مناسبة قرن التّسبيح بهما[(٥)].

وختم آية التغابن بقوله تعالى: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: أنه سبحانه المختصّ بالملك كلّه، والحمد كلّه، وكمال القدرة وعمومها.

فهذه الأوصاف العظيمة مما يدعو إلى تسبيحه وعبادته وحده لا شريك له[(٦)].

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٤/٣٥٣، وتفسير أبي السعود: ٨/ ٢٥٥، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٨٣٧.

(٢) انظر: أضواء البيان: ٥/ ٢٥٢.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن: ص٨٤٩، ٩٤٥.

(٤) انظر: شفاء العليل، لابن القيم: ٢/ ٦٦.

(٥) انظر: ص١١٦ ـ ١١٩، ٢٣٨ ـ ٢٣٩ من هذا البحث.

(٦) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٨٦٢.

ـ وأما الآيات التي أسند فيها التّسبيح إلى الكائنات مفصّلة، فهي:

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ [الرعد: ١٣].

وهذه الآية سبق ذكرها في تسبيح الملائكة[١]، وذُكرتْ هنا بناءً على ما قيل في تفسير الرعد من أنّه: صوت اصطكاك الأجرام العلوية[٢]، أو ريح تختنق تحت السحاب فتصّاعد فيكون منه ذلك الصوت[٣]، وعليه فإنّما خصّ الرعد بالتسبيح لأنّه من أعظم الأصوات[٤].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

وهذه الآية سبق ذكرها عند الكلام على تسبيح نبيّ الله داود عليه السلام[٥]، وفيها إسناد التّسبيح إلى الجبال والطير، فإنّ قوله ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ جملة حاليّة من الجبال، أي: مسبّحات لله تعالى[٦].

وقوله: ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ معطوف على الجبال، أي: وسخّرنا الطير تسبّح مع داود[٧]. وقيل: هو مفعول معه، أي: وسخّرنا الجبال يسبّحن

---

(١) انظر: ص٢٨٥ من هذا البحث.

(٢) انظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر: ٣/ ٨٤، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٤/ ٢٦٣ ـ ٢٦٤.

(٣) انظر: تفسير الطبري: ١/ ١٨٦، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١/ ٢١٧.

(٤) انظر: زاد المسير، لابن الجوزي: ٤/ ٣١٤.

(٥) انظر: ص٣٠٤ من البحث.

(٦) انظر: البحر المحيط، لأبي حيان: ٦/ ٣٠٧، وتفسير النسفي: ٣/ ١٣١.

(٧) انظر: المصدرين السابقين، وأضواء البيان، للشنقيطي: ٣/ ١٥٥.

مع الطير[١].

وقدّم تعالى ذكر الجبال على الطير؛ لأنّ تسخيرها وتسبيحها أعجب وأدخل في الإعجاز؛ لأنّها جماد، بخلاف الطير، فإنّها حيوان لها صوت[٢].

ولهذا قال سبحانه: ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ أي: فاعلين هذه الأعاجيب من تسخير الجبال والطير لداود ﷺ، وتسبيحهنّ معه[٣]، ففي هذا القول تأكيد لما قبله، والموجب لذلك أن تسخير الجبال والطير وتسبيحهنّ أمر عجب خارق للعادة، مظنّة لأن يكذّب به الكفرة الجهلة[٤].

٣ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ﴾ [سبأ: ١٠].

وهذه الآية كالتي قبلها، سبق ذكرها في تسبيح نبيّ الله داود ﷺ، وفيها أيضاً بيان تسبيح الجبال والطير لله تعالى، فإنّ قوله: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ أمر للجبال بترجيع التّسبيح مع داود ﷺ كما سبق[٥]. وقوله: ﴿وَٱلطَّيْرَ ۖ﴾ قرئ بالنصب، وفي إعرابه أوجه:

أحدها: أنّه معطوف على (فضلاً)، أي: ولقد آتينا داود منّا فضلاً والطيرَ، ويكون قوله: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ جملة معترضة[٦]. وهذا الوجه ليس بظاهر في معنى الآية.

---

(١) انظر: المصادر السابقة نفسها.

(٢) انظر: البحر المحيط: ٦/٣٠٨، وتفسير النسفي: ٣/١٣١، والبداية والنهاية، لابن كثير: ٦/٢٩٠.

(٣) انظر: البحر المحيط، لأبي حيان: ٦/٣٠٨.

(٤) انظر: أضواء البيان، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: ٣/١٥٦.

(٥) انظر: ص٣٠٤ ـ ٣٠٥ من البحث.

(٦) انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ٤/٢٤٣، وروح المعاني، للآلوسي: ٢٢/١١٤.

الثاني: أنّه معطوف على (جبال). وتوجيهه ـ كما قال ابن جرير الطبري ـ: «أن الطيرَ نوديتْ كما نوديتْ الجبالُ، فتكون منصوبة من أجل أنّها معطوفة على مرفوع بما لا يحسن إعادة رافعه عليه، فيكون كالمُصدَّر[١] عن جهته»[٢].

ووجّهه غيره بأنّ العطف هنا على محلّ (جبال)؛ لأنّ كلّ منادى منصوبٌ، ولكنّه إذا كان معرفةً غيرَ مضاف ولا شبيهاً به بُني على ما يرفع به في محلّ نصب[٣]. كأنّه قال: دعونا الجبالَ والطيرَ، فالطير معطوف على محلّ الجبال في الأصل[٤].

الثالث: أنّه مفعول معه، أي: أنّه نصب على معنى (مع)، كما تقول: قمت وزيداً، أي: قمت مع زيدٍ، فالمعنى هنا: يا جبال أوّبي معه مع الطير[٥].

وقد اعْتُرِض على هذا الوجه بأنّه يؤدّي إلى تكرار لفظ (مع).

وأجيب عنه بأنّهما معمولان متغايران، كلّ منهما باب على حدة[٦].

---

(١) أي كالمصروف عن وجهه، حيث عدل به عن الرفع إلى النصب؛ لأنّ حرف النداء لا يدخل على الاسم المحلّى بأل.

(٢) تفسير الطبري: ١٠/ ٣٥٠.

(٣) قال ابن مالك في الألفية:

«وابن المعرَّف المنادَى المفردا على الذي في رفعه قد عهدا»

ألفية ابن مالك في النحو والصرف: ص٤٩. وانظر: شرح ابن عقيل على ألفيّة ابن مالك: ٢/٢٥٨.

(٤) انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ٤/٢٤٣، وتفسير النسفي: ٣/ ٤٦٥، وروح المعاني، للآلوسي: ٢٢/ ١١٤.

(٥) انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ٤/ ٢٤٣.

(٦) انظر: روح المعاني: للآلوسي: ٢٢/ ١١٤.

الرابع: أنّه منصوب بفعل مقدّر مناسب، ثمّ اختلف في الفعل المقدّر: فقدّره بعضهم (سخّرنا)، أي: وسخّرنا له الطير[١].

وقدّره بعضهم (أمرنا)، أي: وأمرنا الطير أن تسبّح معه[٢].

وقدّره بعضهم (نادينا)، أي: وناديناالطير بمثل ذلك من ترجيع التّسبيح معه[٣].

وقرئ: (والطيرُ) بالرفع، وفي إعرابه أوجه أيضاً:

أحدها: أنه معطوف على (جبال)، وإن لم يحسن نداؤها بحرف النداء الذي نوديتْ به الجبال[٤].

وعند من يقول: إن (جبال) مبني على الضم في محل نصب، يكون العطف هنا على لفظ الجبال، تشبيهاً للحركة البنائية العارضة بالحركة الإعرابية[٥].

الثاني: أنه مرفوع على البدل من منادًى محذوف، والتقدير: يا جبال ويا أيها الطير أوِّبي معه[٦]، فالطير بدل من (أيّ)، المنادى.

الثالث: أنه معطوف على الضمير في (أوِّبي)، وهو ياء المخاطبة العائدة على الجبال، والمعنى: يا جبال رجِّعي التسبيحَ أنتِ والطيرُ[٧].

---

(١) مجاز القرآن، لأبي عبيدة: ٢/ ١٤٣، وتفسير الطبري: ١٠/ ٣٥٠ ـ ٣٥١.
(٢) انظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر: ٤/ ٣١٩.
(٣) انظر: أضواء البيان: ٣/ ١٥٥.
(٤) انظر: تفسير الطبري: ١٠/ ٣١٥ وانظر: الوجه الثاني في قراءة النصب.
(٥) انظر: تفسير النسفي: ٣/ ٤٦٥، وتفسير أبي السعود: ٧/ ١٢٤، وروح المعاني: ٢٢/ ١١٤.
(٦) انظر: معاني القرآن وإعرابه: ٤/ ٢٤٣.
(٧) انظر: تفسير الطبري: ١٠/ ٣٥١، ومعاني القرآن وإعرابه: ٤/ ٢٤٣، وروح المعاني: ٢٢/ ١١٤.

وهذه الأوجه الإعرابية المتعلقة بالقراءتين وإن اختلفت إعراباً، فهي متفقة معنى، غير أن بعضها أظهر في الدلالة على المعنى من بعض، فإن في كل وجه من الأوجه المذكورة بيان أن الطير مأمورة بمثل ما أمرت به الجبال من التأويب ـ وهو التسبيح ـ مع داود عليه السلام.

وقد أشار بعض المفسرين إلى ما في هذه الآية من العظمة الإلهية، حيث جعلت الجبال والطير بمنزلة العقلاء الذين إذا أمروا بالطاعة أطاعوا، وإذا دعوا أجابوا، إشعاراً بأنه ما من حيوان ولا جماد إلا هو منقاد لمشيئة الله تعالى[1].

٤ ـ قوله تعالى ـ في قصّة نبيّه داود عليه السلام ـ: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾ [ص: ١٨، ١٩].

وأسند التّسبيح هنا أيضاً إلى الجبال والطير، كما في الآيتين السابقتين، ولكن قيّد تسبيح الجبال ـ هنا ـ بوقتي (العشي والإشراق) أي: بآخر النهار وأوّله[2].

كما أخبر عن الطير بأنّها (محشورة) أي: مجموعة من كلّ ناحية[3].

وقيل: محبوسة في الهواء[4]. ولا اختلاف بين المعنيين، وذلك أنّ داود عليه السلام كان إذا سبّح الله تعالى جاوبته الجبال بالتسبيح، واجتمعت إليه الطير السابحة في الهواء، فسبّحت معه، فتكون محبوسة

---

(١) انظر: تفسير النسفي: ٣/ ٤٦٥.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ١٠/ ٥٦٢، ومعاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ٤/ ٣٢٤، والبداية والنهاية، لابن كثير: ٢/ ١٠.

(٣) انظر: تفسير الطبري: ١٠/ ٥٦٢، تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني: ٤/ ٤٣٠، وتفسير النسفي: ٤/ ٥٦، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٧١١.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٤/ ٣٣.

باجتماعها[(١)]، ولهذا ختم الله تعالى الآية بقوله: ﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، وللمفسّرين أقوال في بيان المراد بذلك:

فقال بعضهم: يعني بالكلّ: كلّ الطير، وبالضمير في (له) داود عليه السلام، و(أوّاب) بمعنى: مطيع رجّاع إلى طاعته وأمره، أي: كلّ الطير لداود مطيع رجّاع إلى طاعته وأمره بالتسبيح معه[(٢)].

وقال بعضهم: يعني بالكلّ: كلّ واحد من الجبال والطير، واللام في (له) تعليليّة، والضمير لداود عليه السلام، و(أوّاب) بمعنى: مسبّح، أي: كلّ من الجبال والطير لأجل داود، أي: لأجل تسبيحه مسبّح رجّاع إلى التّسبيح؛ لأنّها كانت تسبّح لتسبيحه، ويرجّعن التّسبيح معه، فكلما سبّح داود عليه السلام سبّحت الجبال والطير معه[(٣)].

ومِن القائلين بهذا التفسير مَن أشار إلى أنّ الأوّاب وضع موضع المسبّح؛ لأنّ الجبال والطير كانت ترجّع التّسبيح مع داود عليه السلام، والمرجّع رجّاع؛ لأنّه يرجع إلى فعله رجوعاً بعد رجوع[(٤)].

أو لأنّ الأوّاب: هو التوّاب الكثير الرجوع إلى الله تعالى، ومن دأبه أن يُكثر ذكر الله تعالى، ويُديم تسبيحَه وتقديسه[(٥)].

وقال بعضهم: يعني بالكلّ: كلّ الطير، والضمير في (له) لله

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ١٠/ ٥٦٢، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٤/ ٣٣.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ١٠/ ٥٦٣، وزاد المسير، لابن الجوزي: ٧/ ١١١، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٤/ ٣٣.

(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ٤/ ٣٢٤، وتفسير القرآن، لأبي المظفر: ٤/ ٤٣٠، وتفسير النسفي: ٤/ ٥٧، وروح المعاني، للألوسي: ٢٣/ ١٧٦.

(٤) انظر: روح المعاني: ٢٣ ١٧٦.

(٥) المصدر السابق نفسه، وتفسير النسفي: ٤/ ٥٧.

تعالى، و(أوّاب) بمعنى: مسبّح، أي: كلّ الطير لله تعالى مسبّح[1].

وعليه فقوله: (كلّ له أوّاب) استئناف مقرّر لمضمون قوله: (والطير محشورة)، مُصرّح بما فهم منه إجمالاً من تسبيح الطير[2].

وذكر بعضهم نحو التفسير السابق، ولكنّه جعل المعنيّ بالكلّ: الجبال والطير، أي: كلّ من الجبال والطير لله تعالى مسبّح، وهذا التفسير موافق لقوله تعالى ـ في الآية السابقة ـ: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠]، فكلّ من الجبال والطير لله تعالى مسبّح أوّاب امتثالاً لذلك[3].

وآخرون من المفسّرين جعلوا المعنيّ بالكلّ: داود عليه السلام، والجبال، والطير، أي: كلّ من داود والجبال والطير لله تعالى أوّاب، أي: مسبّح مرجّع للتسبيح[4].

وهذه الأقوال وإن بدتْ متنوّعة، لكنّها ليست متعارضة، وأظهرها دلالة على معنى الآية ـ في نظري ـ التفسيران الأخيران، والله تعالى أعلم.

وقد ظهر في الآيات الثلاث المذكورة إسناد التّسبيح إلى الجبال وإلى الطير، كما ظهر في الآية المذكورة قبل هذه الآيات إسناد التّسبيح إلى الرعد، فهذا مما وقع في كتاب الله تعالى من إسناد التّسبيح إلى الكائنات مفصّلة.

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ١٠/ ٥٦٣، وزاد المسير: ٧/ ١١١.

(٢) انظر: تفسير أبي السعود: ٧/ ٢١٩، وروح المعاني: ٢٣/ ١٧٦.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن: ص٧١١.

(٤) انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ٤/ ٣٢٤، وتفسير النسفي: ٤/ ٥٧، وروح المعاني: ٢٣/ ١٧٦.

وهناك آيتان أخريان أسند فيهما التّسبيح إلى الكائنات مجملة ومفصّلة، وهما:

١ ـ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [النور: ٤١].

ففي هذه الآية أخبر الله تعالى عن تسبيح جميع من في السماوات والأرض له على العموم، وعن تسبيح الطير له على الخصوص.

وقوله: (ألم تر) الهمزة فيه للتقرير، والرؤية: هي الرؤية القلبيّة المرادفة للعلم[١]، أي ألم تنظر بعين قلبك، فتعلم أنّ الله تعالى يسبّح له من في السموات والأرض[٢] والخطاب هنا للنبيّ ﷺ، والمراد به المكلّفين[٣].

وقوله: ﴿أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فيه إسناد التّسبيح إلى (من)، وهي كـ (ما) في موصوليّتها، واستوائها في المذكّر والمؤنّث، والمفرد والمثنى والجمع. والغالب استعمالها في العاقل عكس (ما)[٤]، كما سبق[٥].

وقال المفسرون: إن (من) هنا عامة لكل شيء، العاقل وغير العاقل، لكنه لما اجتمع ذلك عبر عنه بـ (من) تغليباً لمن يعقل على ما لا يعقل[٦].

فيكون قوله: (من في السموات والأرض) متناولاً لجميع

(١) انظر: روح المعاني: ١٨/ ١٨٧. (٢) انظر: تفسير الطبري: ٩/ ٣٣٦.
(٣) انظر: روح المعاني: ١٨/ ١٨٧.
(٤) انظر: الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي: ١/ ٥٦٥.
(٥) انظر: ص٣٣٢ من هذا البحث.
(٦) انظر: المحرر الوجيز، لابن عطية: ١١/ ٣١٤ ـ ٣١٥، والبحر المحيط، لأبي حيان: ٦/ ٤٢٥.

الكائنات، من الملائكة، والإنس، والجن، والحيوانات، والجمادات[١].

وقوله: (والطير) معطوف على (من). وقيل: مرفوع بفعل مقدر، أي: ويسبح له الطير[٢]، والقولان في المعنى سواء، وهو إسناد التسبيح إلى الطير كما أسند إلى من في السموات والأرض. وأشار بعض المفسرين إلى أن تخصيص الطير بالذكر مع اندراجها في عموم (من في السموات والأرض) لعدم استمرار قرارها في الأرض؛ لأنها إذا طارت تكون بين السماء والأرض، فهي خارجة عن جملة من في السموات والأرض[٣].

وقوله: (صافات) حال من الطير، أي: باسطات أجنحتها في الهواء[٤]. والمعنى: أن الطير تسبح الله تعالى في حال طيرانها وبسطها أجنحتها في جو السماء[٥]. و«قد بين تعالى في غير هذا الموضع أن إمساكه الطير صافات أجنحتها في الهواء وقابضات لها من آيات قدرته، واستحقاقه العبادة وحده، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ﴾ الآية [الملك: ١٩].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [النحل: ٧٩]»[٦].

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٩/٣٣٦، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/٣٠٨، وتيسير الكريم الرحمن: ص٥٧٠.
(٢) انظر: زاد المسير: ٦/٥١، والبحر المحيط: ٦/٤٢٥.
(٣) انظر: زاد المسير: ٦/٥١، وروح المعاني: ١٨/١٨٧.
(٤) انظر: المحرر الوجيز: ١١/٣١٥، وزاد المسير: ٦/٥١، والبحر المحيط: ٦/٤٢٥.
(٥) انظر: تفسير الطبري: ٩/٣٣٦.
(٦) مقتبس من: أضواء البيان: ٤/١٢٥.

وقوله: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ أي: كل من هذه المخلوقات المذكور المصرح به - كالطير -، والمندرج تحت عموم (من في السموات والأرض)، قد علم صلاته وتسبيحه[(١)].

وفي المعني بالضمير المستتر في (علم)، وبالضميرين في (صلاته وتسبيحه) ثلاثة أقوال للمفسرين:

القول الأول: أن الضمير المستتر الذي هو فاعل (علم) يعود إلى الله تعالى في قوله: (ألم تر أن الله يسبح له) الآية، والضميران في (صلاته وتسبيحه) يعودان إلى (كل). وعلى هذا فالمعنى: كل من هذه المخلوقات قد علم الله صلاة المصلي منها، وتسبيح المسبح منها[(٢)]. ويكون هذا إخباراً عن علم الله تعالى بعبادات كل المخلوقات، وإن لم يعلم العباد منها إلا ما أطلعهم الله عليه[(٣)].

وهذا القول هو الذي رجحه ابن جرير الطبري في تفسيره، وأبو إسحاق الزجاج في معاني القرآن وإعرابه.

القول الثاني: أن الضمير المستتر في (علم)، والضميرين في (صلاته وتسبيحه) جميعها يعود إلى (كل). وعليه فالمعنى: كل من هذه المخلوقات قد علم صلاة نفسه وتسبيح نفسه، أي: قد علم ما كلف من ذلك وألزمه، فهو يثابر عليه[(٤)].

---

(١) انظر: البحر المحيط، لأبي حيان: ٦/٤٢٥، وروح المعاني: ١٨/١٨٨، تيسير الكريم الرحمن: ص٥٧٠.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ٩/٣٣٧، ومعاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ٤/٤٨ - ٤٩، وأحكام القرآن، للجصاص: ٥/١٨٩، والمحرر الوجيز، لابن عطية: ١١/٣١٥، وزاد المسير، لابن الجوزي: ٦/٥١، وتيسير الكريم الرحمن: ص٥٧٠، وأضواء البيان: ٤/١٢٤.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن: ص٥٧٠.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ٩/٣٣٧، ومعاني القرآن وإعرابه، ٤/٤٨، والمحرر =

وعلى هذا المعنى يكون قوله: (كل قد علم صلاته وتسبيحه) استئنافاً «جيء به لبيان كمال عراقة كل واحد مما ذكر من الطير وما اندرج في عموم (من في السموات والأرض) في التنزيه، ورسوخ قدمه فيه بتمثيل حاله بحال من يعلم ما يصدر عنه من الأفاعيل، فيفعلها عن قصد ونية، لا عن اتفاق بلا روية»[١].

وهذا القول الثاني هو الذي رجحه الحافظ ابن كثير، فإنه لم يذكر في تفسير الآية غيره، حيث قال: «(كل قد علم صلاته وتسبيحه) أي: كل قد رشده إلى طريقته ومسلكه في عبادة الله ﷻ، ثم أخبر أنه عالم بجميع ذلك لا يخفى عليه من ذلك شيء، ولهذا قال: (والله عليم بما يفعلون)»[٢].

ورجح هذا القول أيضاً الشيخ عبد الرحمن السعدي قائلاً ـ في تفسير الآية ـ: «(كل) من هذه المخلوقات (قد علم صلاته وتسبيحه) أي: كل له صلاة وعبادة بحسب حاله اللائقة به، وقد ألهمه الله تلك الصلاة والتسبيح، إما بواسطة الرسل، كالجن والإنس والملائكة، وإما بإلهام منه تعالى، كسائر المخلوقات غير ذلك، وهذا الاحتمال أرجح، بدليل قوله: (والله عليم بما يفعلون)، أي: علم جميع أفعالها، فلم يخف عليه منها شيء، وسيجازيهم بذلك، فيكون على هذا قد جمع بين علمها[٣] بأعمالها، وذلك بتعليمه، وبين علمه

= الوجيز: ١١/٣١٥، وزاد المسير: ٦/٥٢، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/٣٠٨، وتيسير الكريم الرحمن: ص٥٧٠، وأضواء البيان: ٤/١٢٤.

(١) مقتبس من: روح المعاني: ١٨/١٨٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٣/٣٠٨.

(٣) في الأصل المطبوع (علمه)، وعلق عليه المحقق في الهامش بقوله: «كذا في ب، وفي أ، علمها». وقد اخترت إثبات ما في «أ» حسب ما أشار إليه المحقق؛ لأنه الصواب ـ فيما يظهر لي ـ، فإن مقصود المؤلف بيان أن الله =

بأعمالهم المتضمن للجزاء»[1].

وكذلك رجحه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، وقال ـ في تقرير ذلك ـ: «قد قدمنا في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ الآية [النحل: ٩٧] كلام الأصوليين في أن اللفظ إن احتمل التوكيد والتأسيس حمل على التأسيس، وبينا أمثلة لذلك من القرآن العظيم. وإذا علمت ذلك، فاعلم أن الأظهر ـ على مقتضى ما ذكرنا عن الأصوليين ـ أن يكون ضمير الفاعل المحذوف في قوله: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ راجعاً إلى قوله: (كل)، أي: كل من المصلين قد علم صلاة نفسه، وكل من المسبحين قد علم تسبيح نفسه، وعلى هذا القول فقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ تأسيس لا تأكيد، أما على القول بأن الضمير راجع إلى الله، أي: قد علم الله صلاته، يكون قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ كالتكرار مع ذلك، فيكون من قبيل التوكيد اللفظي.

وقد علمت أن المقرر في الأصول أن الحمل على التأسيس أرجح من الحمل على التوكيد، كما تقدم إيضاحه» اهـ[2].

القول الثالث: أن الضمير المستتر في (علم) يعود إلى (كل)، والضميران في (صلاته وتسبيحه) يعودان إلى الله تعالى. والمعنى: كل من هذه المخلوقات قد علم صلاة الله وتسبيحه اللذين أمر بهما وهدى إليهما، أي: علم أن ذلك لله تعالى وحده[3].

= تعالى قد جمع بين علم المخلوقات بأعمالها، وبين علمه تعالى بأعمال المخلوقات، وهذا المقصود لا يظهر إلا بما أثبته، فليتأمل.

(١) تيسير الكريم الرحمن: ص٥٧٠.

(٢) أضواء البيان: ٤/ ١٢٤.

(٣) انظر: تفسير الطبري: ٩/ ٣٣٧، ومعاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ٤/ ٤٩، =

وهذا القول - في نظري - ضعيف؛ لأن الإضافة في (صلاته وتسبيحه) - بناء عليه - تكون للمفعول، ومعلوم أن (صلاة) اسم مصدر فعل لازم، وهو (صلى، يصلي، صلاة)، فإضافته للمفعول مشكلة في المعنى، ويظهر أنه لضعفه قد أهمل ذكره بعض المحققين من المفسرين فيما تحتمله الآية من الأوجه.

أما القولان الأول والثاني فقويان، وأقواهما القول الثاني، كما تقدم في كلام العالمين المحققين السعدي والشنقيطي، والله تعالى أعلم.

وذكر بعض المفسرين في معنى قوله: (كل قد علم صلاته وتسبيحه) أن الصلاة لبني آدم، والتسبيح لما سواهم من الخلق، وهو مروي عن مجاهد[1].

وقد تضمن الكلام السابق بيان معنى قوله تعالى - في ختام هذه الآية -: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾، وقال ابن جرير الطبري: «يقول تعالى ذكره: والله ذو علم بما يفعل كل مصل ومسبح منهم، لا يخفى عليه شيء من أفعالهم، طاعتها ومعصيتها، محيط بذلك كله، وهو مجازيهم على ذلك كله» اهـ[2].

٢ - قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ٤٤﴾ [الإسراء: ٤٤].

= والمحرر الوجيز، لابن عطية: ١١/ ٣١٥، وزاد المسير، لابن الجوزي: ٦/ ٥٢، وروح المعاني: للألوسي: ١٨/ ١٨٨.

(١) انظر: تفسير الطبري: ٩/ ٣٣٦ - ٣٣٧، ، ومعاني القرآن وإعرابه: ٤/ ٤٨، والمحرر والوجيز: ١١/ ٣١٥.

(٢) تفسير الطبري: ٩/ ٣٣٧.

وفي هذه الآية أخبر الله تعالى عن تسبيح الكائنات له على التفصيل والإجمال.

فقوله: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ﴾ فيه إسناد التسبيح إلى السموات السبع، وجاء لفظ (السموات) في هذه الآية «مجموعة إخباراً بأنها تسبح له بذواتها وأنفسها على اختلاف عددها، وأكد هذا المعنى بوصفها بالعدد، ولم يقتصر على السماوات فقط، بل قال: (السبع)»[(١)].

وقوله: (والأرض) معطوف على (السموات السبع)، وفيه إسناد التسبيح إلى الأرض أي: وتسبح له الأرض بذاتها كما تسبح له السماوات السبع بذواتها.

وأشار بعض العلماء إلى أن إسناد التسبيح إلى السماوات والأرض هو بما في كل منهن من أفلاك وكواكب وبروج، أو جبال ووهاد وفجاج[(٢)].

وقوله: (ومن فيهن) معطوف على (السموات السبع والأرض)، والضمير فيه يعود إلى السموات والأرض، أي: ويسبح له من في السموات والأرض.

وذهب بعض المفسرين إلى أن (من) في هذه الآية قصد بها العقلاء، من الملائكة والإنس والجن[(٣)].

وجعلها ابن جرير الطبري خاصة في المؤمنين منهم، فقال: «(ومن فيهن) من المؤمنين به من الملائكة والإنس والجن»[(٤)].

---

(١) مقتبس من: بدائع الفوائد: ١/ ١٢٨.
(٢) انظر: أضواء البيان (التكملة): ٥/ ٢٦٨.
(٣) انظر: المحرر الوجيز، لابن عطية: ١٠/ ٣٠٠، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٠/ ٢٦٦.
(٤) انظر: تفسير الطبري: ٨/ ٨٤.

وكثير من المفسرين على أن (من) هنا عامة في جميع المخلوقات، العقلاء وغيرهم[(١)]، وعليه فقوله: (ومن فيهن) كقوله ـ في الآية السابقة ـ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [النور: ٤١]. و(من) وإن كانت للعاقل غالباً، فإنها تستعمل للعاقل وغيره في مواضع، منها: أن يجتمع غير العاقل مع العاقل في الحكم، فيغلب العاقل على غير العاقل لشرفه، كما قد تستعمل في هذه الحالة (ما)، تغليباً لغير العاقل على العاقل لكثرته[(٢)]، مثل قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ﴾ [الحشر: ١، والصف: ١].

وبهذا يكون إسناد التسبيح في قوله: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ﴾ شاملاً للسماوات والأرض بذواتهما، ولكل شيء فيهما، عاقل وغير عاقل[(٣)]، والله تعالى أعلم.

وقوله: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ (إن) هنا بمعنى «ما» النافية[(٤)]، و(من) حرف جر صلة. و(شيء) أعم العمومات، فيشمل السماوات والأرض، والملائكة والإنس والجن، والحيوانات والنباتات والجمادات، والشجر والحجر والمدر، والحي والميت، وكل مخلوق لله تعالى[(٥)]، وقد وصلت به (من) لتوكيد العموم[(٦)].

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٨/ ٨٤، وتفسير السمرقندي: ٢/ ٢٧٠، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٤٥، وأضواء البيان: ٥/ ٢٥١.

(٢) انظر: ص٣٣٢ و٣٤٢ من البحث.

(٣) انظر: أضواء البيان: ٥/ ٢٥١، ٢٦٨.

(٤) انظر: زاد المسير: ٥/ ٣٩.

(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن: ص٤٥٩، وأضواء البيان: ٥/ ٢٦٨.

(٦) انظر: مغني اللبيب، لابن هشام: ص٤٢٥.

و(إلا يسبح بحمده) إثبات للتسبيح للأشياء كلها. والمعنى: وما من شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله تعالى(١)، يعني تسبيحاً مقروناً بالحمد، على ما سبق بيانه في صيغة القران للتسبيح(٢).

وهذه الآية أكثر شمولاً، وأبلغ عموماً في إسناد التسبيح إلى الكائنات، فإنها تدل بمنطوقها أن كل ما يصدق عليه أنه شيء يسبح بحمد الله ﷻ، وتدل بمفهومها على عدم وجود شيء لا يسبح بحمد الله جل وعلا.

ولكن للمفسرين موقفان حيال هذا العموم الذي دلت عليه هذه الآية: فقد ذهب فريق منهم إلى أن الآية على عمومها، فكل شيء يسبح، حياً أو غير حي، نامياً، أو غير نام، باقياً على أصله أو متغيراً عنه(٣).

وذهب فريق آخر من المفسرين إلى أن الآية من قبيل العام المراد به الخاص(٤). ثم اختلف هذا الفريق في الخاص المراد به على ثلاثة أقوال:

القول الأول: أنه كل شيء فيه الروح، يعنون كل شيء حي، وأما ما لا حياة فيه فلا يسبح، إنما يسبح ما كان فيه روح(٥).

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٨/ ٨٤، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٤٥.
(٢) انظر: ص١٩٣ من هذا البحث.
(٣) انظر: تفسير الطبري: ٨/ ٨٤ ـ ٨٥، ومعاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ٣/ ٢٤٢، والنكت والعيون، للماوردي: ٣/ ٢٤٥، وتفسير القرآن، لأبي المظفر: ٣/ ٢٤٤، وتفسير البغوي: ٥/ ٩٦، والمحرر الوجيز، لابن عطية: ١٠/ ٣٠٠، وزاد المسير: ٥/ ٣٩، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٠/ ٢٦٦، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٤٥.
(٤) انظر: المحرر الوجيز: ١٠/ ٣٠٠، وزاد المسير: ٥/ ٣٩.
(٥) انظر: تفسير الطبري: ٨/ ٨٥، والنكت والعيون: ٣/ ٢٤٥، وزاد المسير: ٥/ ٣٩، تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٤٦.

القول الثاني: أنه كل شيء حي ونام دون الجمادات، ومعنى هذا أن الحيوانات والنباتات هي التي تسبح، وأما الجمادات فلا تسبح[(١)].

واستدل بعضهم لهذا القول بما رواه ابن عباس رضي الله عنهما قال: «مر النبي ﷺ بقبرين، فقال: «**إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير: أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة**»، ثم أخذ جريدة رطبة فشقها نصفين، فغرز في كل قبر واحدة. قالوا: يا رسول الله، لم فعلت هذا؟ قال: «**لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا**»»[(٢)].

قال المستدلون بهذا الحديث على القول المذكور: إن قوله ﷺ: (ما لم ييبسا) إشارة إلى أنهما يسبحان ما داما رطبين، فإذا يبسا صارا جماداً، وانقطع تسبيحهما[(٣)].

ومعلوم أن الحديث ليس فيه تصريح بما قاله هؤلاء وإنما هو رأي قالوه احتمالاً، ومع الاحتمال لا يقوم الاستدلال.

القول الثالث: أنه كل شيء لم يغير عن حاله، فإذا تغير انقطع تسبيحه[(٤)].

ويعزى في هذا إلى المقدام بن معدي كرب[(٥)] قوله: «إن التراب

---

(١) انظر: المحرر الوجيز: ١٠/٣٠٠، وزاد المسير: ٥/٣٩، وتفسير البغوي: ٥/٩٦، والجامع لأحكام القرآن: ١٠/٢٦٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ١/٣٢٢، برقم (٢١٨)، ومسلم في صحيحه: ١/٢٤٠ ـ ٢٤١، برقم (٢٩٢).

(٣) انظر: تفسير السمرقندي: ٢/٢٧٠، وشرح صحيح مسلم، للنووي: ٣/٢٠٢، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٠/٢٦٦، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/٤٦.

(٤) انظر: تفسير السمرقندي: ٢/٢٧٠، وزاد المسير: ٥/٣٩.

(٥) هو المقدام بن معدي كرب بن عمرو بن يزيد بن معدي كرب، أبو كريمة، =

ليسبح ما لم يبتل، فإذا ابتل ترك التسبيح، وإن الخرزة تسبح ما لم ترفع من موضعها، فإذا رفعت تركت التسبيح، وإن الورقة لتسبح ما دامت على الشجرة، فإذا سقطت تركت التسبيح، وإن الثوب ليسبح ما دام جديداً، فإذا توسخ ترك التسبيح، وإن الماء يسبح ما دام جارياً فإذا ركد ترك التسبيح، وإن الوحش والطير تسبح إذا صاحت، فإذا سكنت تركت التسبيح»(١).

وهذه الأقوال ـ كما ترى ـ ليس على شيء منها دليل يجب المصير إليه، فلا يسوغ العدول عن عموم الآية لمجرد هذه الأقوال كائناً من كان قائلوها، لا سيما مع ما سبق بيانه من أن الآية جاءت بأبلغ صيغة دالة على العموم، يبعد في مثلها أن يكون من العام المراد به الخاص، اللهم إلا فيما يتعلق بجاحدي توحيد الله من الإنس والجن، هل هم داخلون في هذا العموم أو لا؟ وسيأتي الكلام فيه لاحقاً ـ في هذا المطلب ـ إن شاء الله تعالى.

وقد ذهب المحققون من المفسرين وغيرهم إلى أن الآية على عمومها في أن كل شيء يسبح بحمد الله تعالى(٢).

وقوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ استدراك عقب به تعالى الخبر

= وقيل: أبو يحيى، الكندي، صحابي، وفد على رسول الله ﷺ في وفد كندة، وعداده في أهل الشام، سكن حمص، وتوفي سنة سبع وثمانين من الهجرة، وعمره إحدى وتسعون سنة، ﷺ. انظر: تهذيب الأسماء واللغات، للنووي: ٢/ ١١٢ ـ ١١٣، الإصابة، لابن حجر: ٦/ ٢٠٤.

(١) ذكره ابن الجوزي في: زاد المسير: ٥/ ٣٩، والبغوي في تفسيره: ٥/ ٩٦.

(٢) انظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر: ٣/ ٢٤٤ ـ ٢٤٥، وشرح صحيح مسلم، للنووي: ٣/ ٢٠٢، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٠/ ٢٦٨، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٤٥، وفتح القدير، للشوكاني: ٣/ ٢٢٦، وتيسير الكريم الرحمن، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص٤٥٩.

عن تسبيح الأشياء كلها بحمده، لما قد ينشأ عن هذا الخبر من استغراب تسبيح الأشياء غير العاقلة، من الحيوانات والجمادات، فبين سبحانه أن تسبيح هذه الأشياء مما لا يفقهه الناس، أي: لا يفهمونه ولا يعلمونه؛ لأنه بخلاف لغاتهم(١).

وفي هذا بيان أن تسبيح ما سوى ما يسبح بمثل ألسنة الناس من المخلوقات لا يفقهه إلا الخالق ﷻ، وإن شاء أن يعلم بعض خلقه ذلك التسبيح علمه، كما سبق في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، وكما قال نبي الله سليمان عليه السلام فيما حكى الله تعالى عنه: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ [النمل: ١٦]، وكما سيأتي ذكره قريباً ـ إن شاء الله ـ من تسبيح الحصى في كف نبينا محمد ﷺ، وسماع بعض الصحابة رضي الله عنهم تسبيح الطعام، فهذا كله مما لا يفقهه الناس، ولكن شاء الله تعالى أن يعلمه من شاء من الناس، والله تعالى على كل شيء قدير.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ أي: إنه تعالى لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، بل يؤجله وينظره، فإن استمر على كفره وعناده أخذه أخذ عزيز مقتدر، وإن تاب إلى الله ورجع عن كفره وعصيانه ستر عليه ذنبه، وأعطاه الثواب الجزيل(٢).

وهذه الآيات التي سبق ذكرها في هذا المطلب أدلة صريحة على تسبيح الكائنات كلها لله ﷻ، وبعضها أدلة على تسبيح أصناف معينة من الكائنات، وهي: تسبيح الرعد، وتسبيح الجبال، وتسبيح الطير، وتسبيح السماوات السبع، وتسبيح الأرض.

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٨/ ٨٥، وتفسير القرآن، لأبي المظفر: ٣/ ٢٤٤، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٤٥، وأضواء البيان، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: ٥/ ٢٥١.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ٨/ ٨٥، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٤٦.

وفي سنة رسول الله ﷺ أحاديث عديدة أثبتت تسبيح الكائنات ﷺ تعالى موافقة لكتاب الله العزيز، ومن ذلك:

١ ـ تسبيح النمل:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قرصت نملة نبياً من الأنبياء فأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه: أفي أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح الله؟**»(١).

والشاهد في هذا الحديث قوله: (أفي أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح الله)، فإن فيه إسناد التسبيح إلى النمل، واعتبار النمل ـ وهي جمع النملة ـ أمة من الأمم، ويدل عليه قول الله تعالى: ﴿**وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم**﴾ [الأنعام: ٣٨].

وفي رواية عطاء(٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ في تفسير هذه الآية ـ قال: «﴿**إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم**﴾ يريد: يعرفونني ويوحدونني ويسبحونني ويحمدونني»(٣). وقال ابن قتيبة: «﴿**إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم**﴾ أي: أصناف، وكل صنف من الدواب والطير مثل بني آدم في المعرفة بالله، وطلب الغذاء، وتوقي المهالك، والتماس الذرء، مع أشباه لهذا كثيرة» اهـ(٤).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٦/ ١٥٤، برقم (٣٠١٩)، ومسلم في صحيحه: ٤/١٧٥٩، برقم (٢٢٤١).

(٢) هو عطاء بن أبي رباح ـ بفتح الراء والموحدة ـ، واسم أبي رباح أسلم، أبو محمد، القرشي مولاهم، المكي، كان ثقة فقيهاً فاضلاً فصيحاً كثير العلم، قال الأوزاعي: مات عطاء يوم مات وهو أرضى أهل الأرض عند الناس، وكانت وفاته بمكة، سنة (١١٤هـ)، رحمه الله، انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي: ١/ ٩٨، وتقريب التهذيب، لابن حجر: ٢/ ٢٢.

(٣) ذكر ابن قيم الجوزية هذه الرواية في شفاء العليل: ١/ ٢٠٥.

(٤) تأويل مشكل القرآن: ص٤٤٥.

٢ ـ تسبيح الحصى:

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: «كنت أتبع خلوات رسول الله ﷺ وأتعلم منه، فذهبت يوماً فإذا هو قد خرج، فاتبعته فجلس في موضع، فجلست عنده، فقال: «**يا أبا ذر، ما جاء بك؟**» قال: قلت: الله ورسوله. قال: فجاء أبو بكر فسلم وجلس عن يمين النبي ﷺ، ثم جاء عمر، فسلم وجلس عن يمين أبي بكر، ثم جاء عثمان، فسلم وجلس عن يمين عمر. قال: وبين يدي رسول الله ﷺ سبع حصيات، أو قال: تسع حصيات، فأخذهن في كفه ﷺ فسبحن في يده حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النحل، ثم وضعهن فخرسن. ثم تناولهن فوضعهن في يد أبي بكر، فسبحن في يده حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النحل، ثم وضعهن فخرسن. ثم تناولهن فوضعهن في يد عمر، فسبحن في يده حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النحل، ثم وضعهن فخرسن. ثم تناولهن فوضعهن في يد عثمان، فسبحن في يده حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النحل، ثم وضعهن فخرسن» الحديث(١).

وفي رواية أخرى عن أبي ذر رضي الله عنه قال: «إني لشاهد عند النبي ﷺ في حلقة، وفي يده حصى، فسبحن في يده، وفينا أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، فسمع تسبيحهن من في الحلقة، ثم دفعهن النبي إلى أبي بكر فسبحن مع أبي بكر، سمع تسبيحهن من في الحلقة، ثم دفعهن إلى

---

(١) أخرجه البزار في «البحر الزخار المعروف بمسند البزار»: ٩/ ٤٣١ ـ ٤٣٢، برقم (٤٠٤٠)، و٩/ ٤٣٤، برقم (٤٠٤٤). والبيهقي في «دلائل النبوة»: ٦/ ٦٤ ـ ٦٥، وابن أبي عاصم في السنة: ص٥٢٩، برقم (١١٤٦)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة: ٢/٨٠٦، برقم (١٤٨٥)، وذكره الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية: ٦/١٣٨ ـ ١٣٩. والحديث صححه الألباني في ظلال الجنة في تخريج السنة لابن أبي عاصم: ص٥٢٩، برقم (١١٤٦).

النبي ﷺ، فسبحن في يده، ثم دفعهن النبي ﷺ إلى عمر فسبحن في يده، وسمع تسبيحهن من في الحلقة، ثم دفعهن النبي ﷺ إلى عثمان بن عفان، فسبحن في يده، ثم دفعهن إلينا فلم يسبحن مع أحد منا»[١].

ولا شك أن تسبيح الحصى في كف رسول الله ﷺ، وفي كف أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم هو من الآيات التي أعطيها الرسول ﷺ[٢]، وهو أعجب من تسبيح الجبال الذي أعطيه داود عليه السلام، فإن صدور التسبيح من الحصى الصغار الصم التي لا تجاويف فيها أعجب من صدور ذلك من الجبال، لما فيها من التجاويف والكهوف، فإنها وما شاكلها تردد صدى الأصوات العالية غالباً[٣].

٣ ـ تسبيح الطعام:

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «كنا نعد الآيات[٤] بركة وأنتم تعدونها تخويفاً، كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فقل الماء، فقال: «**اطلبوا فضلة من ماء**»، فجاؤوا بإناء فيه ماء قليل، فأدخل يده في الإناء، ثم قال: «**حي على الطهور المبارك، والبركة من الله**»، فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ، وكنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل»[٥].

---

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط»: ٢/ ٥٩، برقم (١٢٤٤)، وأبو نعيم في دلائل النبوة: ٢/ ٤٣١ ـ ٤٣٢، برقم (٣٣٨).

(٢) انظر: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، لابن تيمية: ص٢٩٢.

(٣) انظر: البداية والنهاية، لابن كثير: ٦/ ٢٩٠.

(٤) يريد بالآيات هنا: الأمور الخارقة للعادات [فتح الباري، لابن حجر: ٦/ ٥٩١]. وقد اصطلح المتأخرون على تسمية ما وقع منها للأنبياء بالمعجزات، وما وقع منها للمؤمنين بالكرامات.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه: مع الفتح ـ ٦/ ٥٨٧، برقم (٣٥٧٩).

والشاهد هنا في قوله: «وكنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل».

ويعني بذلك في عهد رسول الله ﷺ، كما وقع التصريح به في رواية أخرى لهذا الحديث، جاء فيها أنه رضي الله عنه قال: «كنا نأكل مع النبي ﷺ الطعام، ونحن نسمع تسبيح الطعام»(١).

فتسبيح الطعام أيضاً من الآيات التي أعطيها النبي ﷺ.

وهذه الأحاديث السابقة صريحة في إسناد التسبيح إلى هذه الكائنات المذكورة فيها، وهي: النمل، والحصى، والطعام.

وفي حكايات الصالحين ما يستأنس به أيضاً في تسبيح الكائنات، مثل ما روي أن أبا الدرداء(٢)، وسلمان الفارسي(٣) رضي الله عنهما، كانا يأكلان في صحفة، فسبحت الصحفة وما فيها، أو بما فيها. وكان أبو الدرداء إذا كتب إلى سلمان، أو كتب سلمان إلى أبي الدرداء، كتب إليه: بآية الصحفة(٤).

---

(١) هذه الرواية عند الإسماعيلي، أوردها الحافظ ابن حجر في فتح الباري: ٦/ ٥٩٢.

(٢) هو عويمر، وقيل: عامر، وعويمر لقب. واختلف في اسم أبيه أيضاً، وهو أنصاري خزرجي، اشتهر بكنيته أبي الدرداء، صحابي جليل، شهد أحداً فما بعدها، وولي قضاء دمشق في خلافة عثمان، وكان فقيهاً عابداً، وحكيماً زاهداً، وتوفي بدمشق، سنة (٣٢هـ)، رضي الله عنه. انظر: تهذيب الأسماء واللغات: ٢/ ٢٢٨، والإصابة: ٤/ ٧٤٧ ـ ٧٤٨.

(٣) هو الصحابي المشهور، يقال له: سلمان ابن الإسلام، وسلمان الخير، أصله من أصبهان، وقيل: من رامهرمز، وكان أول مشاهده الخندق، وشهد بقية المشاهد بعد ذلك، وولي إمرة المدائن، وكان عالماً زاهداً، وتوفي سنة(٣٤هـ)، وقيل: بعد ذلك، رضي الله عنه. انظر: الإصابة، لابن حجر: ٣/ ١٤١ ـ ١٤٢، وتقريب التهذيب، له: ١/ ٣٠٦.

(٤) رواه البيهقي في «دلائل النبوة»: ٦/ ٦٣، وأبو نعيم في «حلية الأولياء»: =

ومثل ما روي أن مطرف بن عبد الله بن الشخير[(١)] كان إذا دخل بيته سبحت معه آنيته[(٢)].

وما ثبت من هذه الحكايات فهو معدود في كرامات الأولياء التي تحصل للمؤمنين ببركة اتباع رسول الله ﷺ، ولهذا فهي ـ في الحقيقة ـ تدخل في معجزات الرسول ﷺ، كتسبيح الحصى في كفه عليه الصلاة والسلام، وتسبيح الطعام بين يديه ﷺ.

ويتبين بما سبق ذكره في هذا المطلب أن الأدلة من الكتاب والسنة والآثار متضافرة ـ بما لا يدع مجالاً للشك والتردد ـ على تسبيح الكائنات كلها لله تعالى تسبيحاً حقيقياً بلسان المقال، فضلاً عن لسان الحال الذي هو دلالتها ـ بظهور آثار الصنعة الإلهية فيها ـ على عظمة خالقها وكماله وتنزهه عن العيوب والنقائص والشركاء والأنداد.

ولكن الذي يستغرب له أنه مع تنوع الأدلة ووضوحها في هذا الباب، فإن أصحاب التفسير وغيرهم من المؤلفين قد اختلفوا في التسبيح المسند إلى الكائنات: هل هو بلسان المقال، أو بلسان الحال؟

فذهب قوم إلى أن ما جاء في القرآن من تسبيح ما في السماوات

= ١/ ٢٢٤، وذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان: ص٣٠٢.

(١) هو مطرف بن عبد الله بن الشخير العامري الحرشي، أبو عبد الله البصري، أحد أئمة التابعين، كان ثقة عابداً فاضلاً، وكان مجاب الدعوة، وتوفي سنة (٩٥هـ)، رحمه الله. انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: ٤/ ١٨٧ ـ ١٩٥، وتقريب التهذيب، لابن حجر العسقلاني: ٢/ ٢٦٠.

(٢) رواه الإمام أحمد في الزهد: ص٢٤١، وأبو الشيخ في العظمة ٥/ ١٧٣١، برقم (١٢٠١)، وذكره ابن الجوزي في صفة الصفوة: ٣/ ٢٢٢، وشيخ الإسلام ابن تيمية في الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان: ص٣١٨.

والأرض لله تعالى، ومن تسبيح كل شيء لله تعالى، محمول على التسبيح المجازي، أي: على التسبيح بلسان الحال، لا بلسان المقال.

إلا أن منهم من خص ذلك بتسبيح غير العقلاء من الكائنات، فقال: إن تسبيح العقلاء ـ وهم: الملائكة، والإنس، والجن ـ حقيقي بلسان المقال، وتسبيح غير العقلاء ـ من الحيوانات والنباتات والجمادات ـ مجازي بلسان الحال(١).

ومنهم من خصه بتسبيح غير الحيوان، فقال: إن تسبيح الحيوان ـ ناطقاً كان أو غير ناطق ـ حقيقي، أما الناطق فمعلوم، وأما غير الناطق فيمكن التسبيح منه بصوته. وغير الحيوان كالجمادات تسبيحه مجازي بلسان الحال(٢).

وأبى بعضهم هذا التخصيص ـ بنوعيه ـ، فقالوا: ينبغي حمل التسبيح المسند إلى الكائنات على المجاز(٣)، وعدم التفريق فيه بين

---

(١) انظر: البحر المحيط، لأبي حيان: ٦/ ٣٨، وأضواء البيان (تتمته): ٥/ ٢٦٩.

(٢) انظر: المحرر الوجيز، لابن عطية: ١٥/ ٣٩٧، وزاد المسير، لابن الجوزي: ٥/ ٤٠، والبحر المحيط: ٨/ ٢١٦.

(٣) المجاز ـ عند أهله ـ: اسم لما أريد به غير ما وضع له لمناسبة بينهما، وهو مفعل بمعنى فاعل، من (جاز) إذا تعدى. سمي به لأنه جاوز وتعدى عن محله الموضوع له إلى غيره.
انظر: التعريفات، للجرجاني: ص٢٥٧ ـ ٢٥٩.
والمجاز اصطلاح حادث، لم يكن معروفاً لدى العلماء في القرون المفضلة، وقد اختلف العلماء المتأخرون في أصل وقوعه، فذهب جمع من المحققين إلى أنه ليس لاستعماله أصل في اللغة.
ولقد كان القول بالمجاز ذريعة لأهل الأهواء في تحريف نصوص الكتاب والسنة، ونفي صفات الكمال عن الله تعالى، ولذلك اعتنى بعض العلماء الأثبات ببيان بطلانه لغة وشرعاً وعقلاً.
وانظر في ذلك: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٧/ ٨٧ ـ ١١٩، =

العاقل وغير العاقل، أو بين الحيوان وغير الحيوان، لئلا يكون جمعاً بين المجاز والحقيقة[١] بلفظ واحد[٢].

وسلك آخرون منهم مسلك الجمع، فقالوا: إن العاقل يسبح بوجهين: بلسان المقال، وبلسان الحال. وغير العاقل إنما يسبح بلسان الحال، لاستحالة تسبيحه بلسان المقال، فيكون التسبيح بلسان الحال قدراً مشتركاً بين الكائنات[٣].

ثم اختلف هؤلاء القوم في التعبير عن التسبيح المجازي، أو التسبيح بلسان الحال الذي أثبتوه للكائنات، بعد اتفاقهم على نفي التسبيح الحقيقي عنها، أو عن بعضها.

فقال بعضهم: تسبيح الكائنات هو آثار الصنعة فيها، أي: كونها دلائل شاهدة بلطيف تركيبها، وعجيب هيئاتها، على خالقها، وعلى كمال قدرته ووحدانيته وعظمته، وأنه منزه عما لا يليق به، فهذا بمنزلة التسبيح منها، كأنها تنطق بذلك[٤].

= ومختصر الصواعق المرسلة، لابن القيم، اختصار الشيخ محمد بن الموصلي: ٢/ ٢٣١ ـ ٢٩٤، ومنع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي ـ وهو مؤلف خاص لإبطال المجاز.

(١) الحقيقة: فعيلة من: حق الشيء، إذا ثبت، والتاء فيه للنقل من الوصفية إلى الاسمية. ومعناه: اللفظ المستعمل فيما وضع له في اصطلاح التخاطب، وهو ضد المجاز.

وانظر: التعريفات، للجرجاني: ص١٢١، والكليات، لأبي البقاء الكفوي: ص٣٦١ ـ ٣٦٣.

(٢) انظر: البحر المحيط: ٦/ ٣٨.

(٣) انظر: التفسير الكبير، للفخر الرازي: ٢٠/ ٢١٨، والبحر المحيط: ٦/ ٤٢٥.

(٤) انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ٢/ ٢٤٢، و٥/ ١٢١، وتفسير السمرقندي: ٢/ ٢٧٠، و٣/ ٣٢١، وتفسير القرآن، لأبي المظفر: ٣/ ٢٤٤، =

وقال بعضهم: تسبيح الكائنات هو كونها سبباً داعياً إلى التسبيح، أي: أن ما يظهر فيها من آثار الصنعة يوجب على من رآه تسبيح الله تعالى وتقديسه[1].

وقال فريق آخر: تسبيح الكائنات هو خضوعها وخشوعها لله جل وعلا[2].

وهذه الأقوال كلها تشترك في استبعاد صدور التسبيح عن الكائنات غير العاقلة أو غير الحية على وجه الحقيقة بلسان المقال، وتقرير تسبيحها على وجه المجاز بلسان الحال.

وهذا الاستبعاد ناتج عن تحكيم الحس والعقل في كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ، فإنهم لما لم يشاهدوا ذلك في الواقع، ولم تتصوره عقولهم، نفوا أن يكون تسبيح هذه الكائنات بالنطق والكلام، وحملوه على التسبيح بالحال والدلالة.

وهذا نفسه منهج أهل الكلام في آيات الصفات وأحاديثها، لما ساء فهمهم لها، وتصوروها على غير وجهها، حرفوها عن مواضعها، وأولوها على خلاف ظاهرها، بشبه واهية، ودعاوى باطلة.

ولهذا تجد أن الذين أكثروا الكلام في تسبيح الكائنات، وادعوا أنه تسبيح حال لا تسبيح مقال، هم من رؤوس أهل الكلام المبتدع

= و٥/ ٢٦٤، وزاد المسير، لابن الجوزي: ٥/ ٤٠، ونور المسرى، لأبي شامة: ص٣٩، ٤٢، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٠/ ٢٦٦، والبحر المحيط، لأبي حيان: ٦/ ٣٨، ٤٢٥.

(١) انظر: النكت والعيون، للماوردي: ٣/ ٢٤٥، و٥/ ٤٦٨، والمحرر الوجيز، لابن عطية: ١٠/ ٣٠٠، و١١/ ٣١٤، و١٥/ ٣٩٧، وزاد المسير: ٥/ ٤٠، ونور المسرى: ص٤٠، وفتح الباري، للحافظ ابن حجر: ٦/ ٣٥٩.

(٢) انظر: تفسير السمرقندي: ٣/ ٣٢١، وزاد المسير: ٥/ ٤٠.

ـ كابن حزم(١) في فصله(٢)، والزمخشري(٣) في كشافه(٤)، والفخر الرازي(٥) في مفاتيحه(٦) ـ، أو ممن تأثر بهم من المؤلفين في التفسير وغيره.

---

(١) هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الفارسيّ الأصل الأندلسي القرطبي، أبو محمد، اليزيدي مولى الأمير يزيد ابن أبي سفيان بن حرب الأموي المعروف بيزيد الخير، رزق ذكاء مفرطاً وذهناً سيالاً، ومهر أولاً في الأدب والأخبار والمنطق والفلسفة، فأثرت فيه تأثيراً ليته سلم من ذلك، وكان أيضاً رأساً في الفقه، متبحراً في النقل، ومن تناقضاته أنه كان في الفقه ظاهرياً مفرطاً، وفي العقيدة جهمياً جلداً، وله تصانيف كثيرة في فنون عديدة، وتوفي سنة (٤٥٦هـ). انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: ١٨/ ١٨٤ ـ ٢١٢.

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل: ١/١٥٣ ـ ١٥٩.

(٣) هو محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي، أبو القاسم الزمخشري، شيخ العربية والاعتزال، وصاحب المؤلفات العديدة في التفسير، وغريب الحديث، واللغة، والنحو. كان في غاية المعرفة بفنون البلاغة وتصرف الكلام، وكان يظهر مذهب الاعتزال ويصرح بذلك في تفسيره (الكشاف)، وكانت وفاته سنة (٥٣٨هـ). انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: ٢٠/ ١٥١ ـ ١٥٦، والبداية والنهاية، لابن كثير: ١٣/ ٢٣٥، ولسان الميزان، لابن حجر العسقلاني: ٦/ ٤.

(٤) الكشاف، بتحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض: ٣/ ٥٢٢.

(٥) هو محمد بن عمر بن الحسن القرشي، التيمي، البكري، الطبرستاني، المعروف بالفخر الرازي، وبابن خطيب الري، ولد سنة (٥٤٤هـ)، وكان أحد أئمة الأشاعرة الذين مزجوا المذهب بالاعتزال والفلسفة، وله تصانيف عديدة منتشرة. وقال الذهبي: «قد بدت منه في تواليفه بلايا وعظائم وانحرافات عن السنة، والله يعفو عنه، فإنه توفي على طريقة حميدة، والله يتولى السرائر». وكانت وفاته سنة (٦٠٦هـ). انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: ٢١/ ٥٠٠ ـ ٥٠١، والبداية والنهاية، لابن كثير: ١٣/ ٦٠ ـ ٦١، ولسان الميزان، لابن حجر: ٤/ ٤٢٦ ـ ٤٢٩.

(٦) مفاتيح الغيب (التفسير الكبير): ٢٠/ ٢١٨ ـ ٢٢٠.

وقد رد المحققون من العلماء من المفسرين وغيرهم على مقالة هؤلاء في حمل تسبيح الكائنات على المجاز، وبينوا بطلانها، ورجحوا أن تسبيح الكائنات تسبيح حقيقي بلسان المقال، وذلك لأدلة كثيرة، هي:

أولاً: أن ظاهر الكتاب والسنة يدل على أن التسبيح فعل لهذه الكائنات التي أسند إليها التسبيح في الآيات والأحاديث(١)، وأن تسبيحها عبادة تعبدت بها(٢). «والقاعدة المقررة عند العلماء: أن نصوص الكتاب والسنة لا يجوز صرفها عن ظاهرها المتبادر منها إلا بدليل يجب الرجوع إليه»(٣).

وكون هذه الكائنات دلائل شاهدة على خالقها ليس فيه إسناد فعل إليها، إنما هو كونها مفعولة للرب جل وعلا، وهذا معنى ثابت فيها لازم لها، يتعلق بربوبية الرب لها. وأما كونها مسبحة فيتعلق بتأهلها وعبادتها للرب ﷻ، فهذا غير هذا(٤).

ثانياً: أن قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] نص في أن تسبيح الكائنات تسبيح غير مفقوه للبشر، وفيه الرد الصريح على من زعم أن تسبيحها هو دلالتها على عظمة خالقها؛ لأن تلك الدلالة يفقهها كل العقلاء، كما صرح الله تعالى بذلك في قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]، وأمثال ذلك من الآيات كثيرة في القرآن(٥).

---

(١) انظر: جامع الرسائل، لابن تيمية: ١/٤٤.
(٢) انظر: تهذيب اللغة، للأزهري: ٤/٣٤٠.
(٣) مقتبس من: أضواء البيان: ٣/١٥٦.
(٤) انظر: جامع الرسائل، لابن تيمية: ١/٤٤.
(٥) انظر: أضواء البيان: ٥/٢٥١ ـ ٢٥٢.

والذين زعموا أن تسبيح الكائنات هو دلالتها على عظمة خالقها زعموا أن قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ خطاب للكفار، أي: ولكنكم أيها الكفار لا تفقهون أثر الصنعة في هذه المخلوقات[(١)]؛ لأنكم لم تستوضحوا الدلالة منها على الخالق[(٢)]، ولم تستدلوا بمشاهدتهما على تعظيم الله[(٣)].

وهذا التفسير ليس صحيحاً؛ لأنه مبني على الزعم المذكور، وهو فاسد الاعتبار، لما سبق ولما يأتي من الأدلة، ولأنه يمكن القول بأن الكفار استدلوا بأثر الصنعة في هذه المخلوقات على وجود الخالق، وإن لم يوحدوه بالألوهية.

ثالثاً: أن ما أخبر الله تعالى به من تسخير الجبال مع داود يسبحن والطير، ومن أمر الجبال بالتأويب معه والطير، دليل على أن تسبيح هذه المخلوقات تسبيح حقيقي بلسان المقال، ولو كان تسبيحها معه تسبيح دلالة كما يقولون، لما كان لداود عليه السلام خصوصية على غيره[(٤)].

رابعاً: أن الله تعالى قد أثبت للكائنات غير العاقلة إدراكاً وتمييزاً، فأثبت لها الخشية في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا

---

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ٣/ ٢٤٢، والفصل في الملل والأهواء والنحل، لابن حزم: ١/ ١٥٤.

(٢) انظر: الكشاف، للزمخشري: ٣/ ٥٢٢، ونور المسرى، لأبي شامة: ص٤٣.

(٣) انظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر: ٣/ ٢٤٥.

(٤) انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ٥/ ١٢١، وتهذيب اللغة، للأزهري: ٤/ ٣٤٠، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٠/ ٢٦٨، وأضواء البيان (التتمة): ٥/ ٢٦٩.

لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [البقرة: ٧٤].

وأثبت لها الإباء والإشفاق في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وأثبت لها النطق في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [النمل: ١٨].

وهناك آيات أخرى نحو هذه، وليس تسبيح هذه الكائنات بلسان المقال بأعجب مما أخبر الله تعالى عنها في هذه الآيات ونحوها، فكل ذلك مما يعلمه الله ﷻ ولا يعلمه الناس(١).

خامساً: أنه ليس لدى من زعم أن تسبيح الكائنات هو دلالتها على عظمة خالقها حجة سوى استبعاد حصول النطق والإدراك من هذه الكائنات، لكون العقل والحس لم يشهد بذلك(٢). وهذه حجة داحضة؛ لأن عدم شهادة العقل والحس بحصول النطق والإدراك من هذه الكائنات ليس دليلاً على عدم حصول ذلك في الواقع، وإنما هو دليل على عجز العقل والحس وقصورهما عن علم ما لم يعلم الله الناس إياه، ومصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

وهنا مفرق الطرق بين عقل المؤمن وعقل المنكر، فعقل المؤمن

---

(١) انظر: أضواء البيان: ٣/ ١٥٥ ـ ١٥٦، و٤/ ١٢٥. و(التتمة): ٥/ ٢٦٩ ـ ٢٧٣.

(٢) انظر: الفصل، لابن حزم: ١/ ١٥٤ ـ ١٥٦.

يفرق بين كون الشيء مستحيلاً في ذاته لا يمكن تحققه، وبين عجز العقل عن العلم به، وعقل المنكر يجعل معرفته بالشيء دليلاً على وجوده، كما يتخذ من جهله بالشيء دليلاً على عدمه، وهذا هو عين الجهل[(١)].

فمدافعة تسبيح الكائنات على الحقيقة بلسان المقال ليست من العقل ولا من الإيمان في شيء.

سادساً: أن عدداً من أهل العلم قد نصوا على أن القول بأن تسبيح الكائنات تسبيح حقيقي بلسان المقال هو أشهر القولين[(٢)]، وهو قول السلف والمحققين من العلماء المتأخرين[(٣)]. وأن القول بأن تسبيح الكائنات تسبيح مجازي بلسان الحال ليس بمعتمد[(٤)]، بل هو بعيد، وهو خلاف أقاويل المفسرين[(٥)]. وما نص عليه هؤلاء العلماء كاف في بيان الحق في تسبيح الكائنات، وأنه بلسان المقال وليس بلسان الحال فحسب كما زعم.

سابعاً: أنه قد جاء في السنة القول الفصل في هذه المسألة، وهو ما رواه عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**إن نبي الله**

---

(١) انظر: مقدمة تحقيق كتاب التوحيد لشيخ الإسلام ابن تيمية، للدكتور محمد السيد الجليند: ص٤٥ ـ ٤٦.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٤٥.

(٣) انظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني: ٣/ ٢٤٤ و٥/ ٢٦٤، والمحرر الوجيز، لابن عطية: ١١/ ٣١٤، وتفسير البغوي: ١/ ١١١، و٥/ ٩٦، ٣٧٢، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١/ ٤٦ ـ ٤٧.

(٤) انظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر: ٣/ ٢٤٥.

(٥) انظر: تفسير السمرقندي: ٢/ ٢٧٠، وجامع الرسائل، لابن تيمية: ١/ ٤٣ و٢/ ٢٠٩.

نوحاً عليه السلام لما حضرته الوفاة، قال لابنه: إني قاص[1] عليك الوصية، آمرك باثنتين، وأنهاك عن اثنتين: آمرك بـ «لا إله إلا الله»، فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة، ووضعت «لا إله إلا الله» في كفة، لرجحت بهن «لا إله إلا الله» ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة، لقصمتهن[2] «لا إله إلا الله». وآمرك بـ «سبحان الله وبحمده»، فإنّها صلاة كلّ شيءٍ، وبها يُرزق كلُّ شيءٍ وأنهاك عن الشرك والكبر»[3].

فقوله ـ في هذا الحديث ـ: «وآمرك بسبحان الله وبحمده، فإنّها صلاة كلّ شيء»، فيه تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ الآية [الإسراء: ٤٤]، وبيان أنّ كلّ شيء ينّزه الله تعالى بلسان المقال، فيقول: (سبحان الله وبحمده)، وهذا نصّ في محلّ النِّزاع يجب المصير إليه، والإعراض عن كلّ قول يخالفه.

ولا يعني هذا نفي تسبيح الكائنات بلسان حالها الذي فسّر بظهور آثار الصنعة فيها، وكونها دلائل شاهدة على عظمة خالقها وعلى تنزيهه عن العيوب والنقائص، فإنّ هذا المعنى صحيح، ولكنّ الاقتصار عليه في تفسير تسبيح الكائنات ليس صحيحاً، بل الصحيح أنّ تسبيحها أمر

---

(١) القاص: اسم فاعل من القص، وهو البيان. والقاص: الذي يأتي بالقصة على وجهها، كأنه يتتبع معانيها وألفاظها. انظر: النهاية في غريب الحديث: ٤/ ٧٠.

(٢) القصم: كسر الشيء وإبانته. وقوله: (لقصمتهن) أي: لكسرتهن. انظر: النهاية في غريب الحديث: ٤/ ٧٤.

(٣) جزء من حديث طويل أخرجه أحمد في المسند: ٢/ ١٧٠، ٢٢٥، والبخاري في الأدب المفرد ـ بتخريجات وتعليقات الألباني: ص١٨٨، برقم (٥٤٨)، وإسناده صحيح. انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة، للألباني: ١/ ٢٥٩، رقم (١٣٤).

زائد على ذلك، وهو قولها: سبحان الله وبحمده، كما سبق[١].

وإذا ثبت بالأدلة المذكورة أنّ تسبيح الكائنات تسبيح حقيقي بلسان المقال، فهل يدخل الكفّار من الإنس والجنّ في عموم الكائنات المسبّحة أو لا؟.

وهذا السؤال يجاب عنه بما رواه عمرو بن عبسة[٢] رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «**ما تستقلّ[٣] الشمس فيبقى شيء من خلق الله عز وجل إلا سبح الله بحمده، إلا ما كان من الشياطين وأعتى بني آدم**»، فسألت عن أعتى بني آدم؟ فقال: «**شرار الخلق، أو شرار خلق الله عز وجل**»[٤].

فهذا الحديث دليل على استثناء الكفار إنساً وجناً من عموم الكائنات المسبحة بحمد الله تعالى. ومثل استثناء الكفار من تسبيح الله تعالى استثناء كثير من الناس من السجود لله جل وعلا في قوله تعالى:

---

(١) وانظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١/ ٤٧، وجامع الرسائل، له: ١/ ٤٣.

(٢) هو عمرو بن عَبَسة بن عامر بن خالد بن غضرة بن عتّاب بن امرئ القيس السلميّ، أبو نجيح، وقيل: أبو شعيب، صحابيّ جليل أسلم قديماً بمكة، وكان رابع أربعة في الإسلام، ثم رجع إلى بلاده، وقدم المدينة بعد ذلك مهاجراً، ثم نزل الشام، وتوفي بحمص في أواخر خلافة عثمان، رضي الله عنه. انظر: تهذيب الأسماء واللغات، للنووي: ٢/ ٣٢، والإصابة، لابن حجر: ٤/ ٦٥٨ ـ ٦٦١، وتهذيب التهذيب، له: ٨/ ٦٩.

(٣) استقلّ: ارتفع، واستقلّت الشمس: ارتفعتْ. انظر: المعجم الوسيط: مادة (قلّ): ٢/ ٧٥٦.

(٤) أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة: ص١٠٦، برقم (١٤٩)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٦/ ١١١)، وإسناده حسن، كما قال الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة: ٥/ ٢٦٤ ـ ٢٦٥، رقم (٢٢٢٤)، وفي صحيح الجامع الصغير وزيادته: ٢/ ٩٨٠، رقم (٥٥٩٩).

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ (١٨)﴾ [الحج: ١٨].

فذكر تعالى ـ في هذه الآية ـ سجود جميع الكائنات له على سبيل العموم، وأما الناس قال: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ﴾ أي: وكثير من الناس يسجد لله تعالى، وهم المؤمنون، وكثير من الناس لا يسجد لله تعالى فحق عليه العذاب لتركه السجود، وهم الكفار(١). ولفظ الناس يدخل فيه الإنس والجن فيما ذكره طائفة من أهل العربية(٢).

وإنما وقع الاستثناء على الإنس والجن في التسبيح والسجود دون سائر الكائنات؛ لأنهما الكائنان اللذان وهب لهما العقل وترك لهما الخيار، فكان منهما فريقان: فريق مؤمن، يسبح لله تعالى ويسجد له طوعاً مختاراً متعبداً بذلك، وفريق كافر امتنع عن التسبيح لله تعالى والسجود له مستكبراً بذلك عن التعبد لربه وخالقه، كما قال ﷻ: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (١) هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢)﴾ [التغابن: ١، ٢].

ويتبين بهذا أن تسبيح الكائنات على ضربين: تسبيح بالاختيار، وهو تسبيح الملائكة، والأنبياء والرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، والمؤمنين من الإنس والجن.

وتسبيح بالتسخير، وهو تسبيح سائر الكائنات من الحيوانات،

---

(١) انظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر: ٣/ ٤٢٨، وتفسير البغوي: ٥/ ٣٧٢.

(٢) انظر: جامع الرسائل، لابن تيمية: ٢/ ٢١٢.

والنباتات، والجمادات، وغيرها مما يصدق عليه أنه شيء(١).

فجميع الكائنات على اختلاف أنواعها يسبح الله تعالى اختياراً أو تسخيراً تسبيحاً حقيقياً بلسان المقال، كما سبق بيانه بالأدلة.

وجاء إسناد التسبيح إلى هذه الكائنات في صور مختلفة: فجاء ماضياً في نحو قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١﴾ [الحديد: ١]، ومضارعاً في نحو قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ۝٤٤﴾ [الإسراء: ٤٤]، وأمراً في نحو قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤﴾ [الواقعة: ٧٤، و٩٦، والحاقة: ٥٢]، وقوله تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَۖ﴾ [سبأ: ١٠]، ومصدراً في نحو قوله تعالى: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥۗ﴾ [النور: ٤١]، ليدل ذلك كله على دوام التسبيح واستمراره من هذه الكائنات في جميع الأوقات، وأن التسبيح هو شأنها في الماضي والحال والمستقبل(٢).

فالتسبيح وظيفة مشتركة بين جميع الكائنات، العاقل منها وغير العاقل، والناطق منها وغير الناطق، وكل منها يسبح الله تعالى بلغته الخاصة، فلا الإنسان يفهم عن الحيوان والطير والجماد ما يقول، ولا كيف يسبح، وكذلك الحيوان والطير والجماد لا يفهم عن الإنسان ما يقول، ولا كيف يسبح، بل الكل متوجه بلغته الخاصة إلى خالقه يسبح بحمده، ولا يفقه نوع منها لغة النوع الآخر(٣)، ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ

(١) انظر: مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني: ص٣٩٣.

(٢) انظر: فتح القدير، للشوكاني: ٥/٢٣٦، وأضواء البيان: ٥/٢٥٢، و(تتمته): ٥/٢٦٧ ـ ٢٦٨.

(٣) انظر: مقدمة تحقيق كتاب التوحيد لشيخ الإسلام ابن تيمية للدكتور محمد السيد الجليند: ص٤٤.

إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

فيجب على المرء أن يؤمن بتسبيح كل شيء لله تعالى، ويكل علم ذلك إلى خالقه، ويعلم أن لله في مخلوقاته علماً لا يقف عليه غيره[١]، وأنه تعالى لم يخف عن الناس تسبيح سائر الكائنات إلا لحكمة يعلمها، ومنها ما جاء عن الحسن البصري أنه قال: «لو لا ما غم[٢] الله عليكم من تسبيح خلقه ما تقاررتم[٣]»[٤]، وهذا شيء من الحكمة الإلهية في جعل تسبيح الكائنات غير مفقوه للناس، والله تعالى أعلم بحقيقة حكمته في ذلك.

ومعرفة العبد بأن كل شيء في هذا العالم يسبح الله بحمده لا ريب أن ذلك يزيد في شعوره بعظمة الله تعالى وخشيته منه وتوجّهه إليه وحده دون ما سواه، وأن ذلك يكون منهضاً له على التسبيح ومهيجاً له على ذكر الله ﷻ، والله يهدي من يشاء إلى الصراط المستقيم.

❖ المطلب الخامس ❖

تسبيح أهل الجنة فيها لله تعالى

ولا ينتهي التسبيح بانتهاء هذه الحياة الدنيا وانتقال العباد منها إلى الحياة الأبدية في الدار الآخرة، فقد دل الكتاب والسنة على أن أهل

---

(١) انظر: تفسير البغوي: ١/ ١١١، وجامع الرسائل، لابن تيمية: ١/ ٤٢.

(٢) يقال: غم علينا الهلال، إذا حال دون رؤيته غيم أو نحوه، من غممت الشيء، إذا غطيته. النهاية في غريب الحديث والأثر: ٣/ ٣٨٨.

(٣) أي: ما استقررتم، يقال: ما يتقار في مكانه، أي: ما يستقر. انظر: لسان العرب: مادة (قرر): ٥/ ٨٤.

(٤) رواه أبو الشيخ في العظمة: ٥/ ١٧٣١ ـ ١٧٣٢، برقم (١٢٠٢ ـ ١٢٠٣)، وأورده السمرقندي في تفسيره: ٢/ ٢٧٠، والسيوطي في الدر المنثور: ٤/ ١٨٥.

الجنة يسبحون الله تعالى في الجنة، وهذا نوع من أنواع التسبيح باعتبار الفاعل.

والجنة هي الجزاء الكبير، والثواب الجزيل، والفوز العظيم، الذي أعده الله ﷻ لعباده المؤمنين، وأوليائه المتقين، في الحياة الآخرة بعد هذه الحياة الفانية، وهي من الغيب الذي يجب الإيمان به وبما ثبت في صفتها وصفات أهلها في كتاب الله تعالى، وسنة رسول الله ﷺ.

ومما جاء في شأن أهل الجنة في كتاب الله تعالى قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [يونس: ٩، ١٠].

فقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: جمعوا بين الإيمان ومقتضاه، ففعلوا الإيمان الذي طلبه الله منهم، وعملوا الصالحات التي شرعها لهم على وجه الإخلاص والمتابعة(١).

وقوله: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم﴾ خبر عن ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بأن الله تعالى يهديهم، وهذه الهداية حملها بعض المفسرين على الهداية في الدنيا، فالمعنى: يزيد ربهم هدى في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧](٢).

وحملها بعضهم على الهداية في الآخرة، فالمعنى: يرشدهم ربهم

---

(١) انظر: فتح القدير، للشوكاني: ٢/ ٥٩٧، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٣٥٨.

(٢) انظر: المحرر الوجيز، لابن عطية: ٩/ ١٤، وزاد المسير، لابن الجوزي: ٤/ ١٠، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٨/ ٣١٢.

إلى طريق الجنة في الآخرة[١]. وقيل: يهديهم ربهم على الصراط[٢] بالنور إلى الجنة[٣].

وجعلها آخرون شاملة للهداية في الدنيا وفي الآخرة، بمعنى أن الله تعالى يرزقهم الهداية إلى الصراط المستقيم وفي الصراط المستقيم في الدنيا، فيصلون بذلك إلى الجنة في الآخرة[٤].

وهذا المعنى الأخير أولى، لشموله المعنيين السابقين، والله تعالى أعلم.

وقوله: (بإيمانهم) متعلق بقوله: (يهديهم ربهم)، ويحتمل أن تكون الباء ههنا سببية، أي: يهديهم ربهم بسبب إيمانهم[٥]، فمن جعل الهداية في الدنيا، كان المعنى: يهديهم ربهم بسبب ما معهم من الإيمان، فيعلمهم ما ينفعهم، ويمن عليهم بالأعمال الناشئة عن الهداية، ويديمهم ويثبتهم عليها[٦]. ومن جعل الهداية في الآخرة، كان

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٦/ ٥٣٤، والوسيط، للواحدي: ٢/ ٥٣٩، والمحرر الوجيز: ٩/ ١٤، وزاد المسير: ٤/ ١٠، والبحر المحيط، لأبي حيان: ٥/ ١٣١.

(٢) يعني: الصراط الأخروي الذي هو الجسر الممدود على ظهر جهنم، يمر الناس عليه على قدر أعمالهم، فمنهم من يوبق بعمله، ومنهم من ينجو، ومن مر عليه دخل الجنة. وقد ثبت في هذا الصراط وفي وصفه أخبار صحيحة، فيجب الإيمان به. وانظر: صحيح البخاري ـ مع الفتح ـ: ٢/ ٢٩٢، و١٣/ ٤١٩. وصحيح مسلم ـ بشرح النووي: ٣/ ٢٠. والعقيدة الواسطية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، بشرح محمد خليل هراس: ص٢١١ ـ ٢١٢.

(٣) انظر: تفسير السمرقندي: ٢/ ٨٩.

(٤) انظر: فتح القدير، للشوكاني: ٢/ ٥٩٧، وتيسير الكريم الرحمن: ص٣٥٨ ـ ٣٥٩.

(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٢/ ٤٢٢، وفتح القدير: ٢/ ٥٩٧.

(٦) انظر: تيسير الكريم الرحمن: ص٣٥٨ ـ ٣٥٩.

المعنى: يهديهم الله يوم القيامة على الصراط بسبب إيمانهم في الدنيا حتى يجوزوه ويخلصوا إلى الجنة[١].

ويحتمل أن تكون الباء للاستعانة[٢]، وعليه تحمل الهداية ـ في الآية ـ على الهداية في الآخرة، والمعنى ـ كما روي عن مجاهد وغيره ـ: يكون لهم إيمانهم نوراً يمشون به[٣]، وفي هذا المعنى إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ [الحديد: ١٢].

وقوله: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: «تجري من تحت هؤلاء المؤمنين الذين وصف جل ثناؤه صفتهم أنهار الجنة»[٤]. ومعنى (من تحتهم) أي: تجري الأنهار بين أيديهم وهم يرونها من علو[٥]، وقيل: تجري الأنهار من تحت بساتينهم، وقيل: تجري الأنهار من تحت أسرتهم. قال القرطبي: «وهذا أحسن في النزهة والفرجة»[٦].

وهذه الجملة في إعرابها أقوال:

أحدها: أنها خبر ثان بعد الخبر الأول، وهو قوله: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾، فيكون قد أخبر عنهم بخبرين عظيمين، أحدهما: هداية الله تعالى لهم في الدنيا وفي الآخرة. والآخر: جريان الأنهار من

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٢/ ٤٢٢.

(٢) انظر: المصدر السابق: ٢/ ٤٢٢.

(٣) انظر: تفسير الطبري: ٦/ ٥٣٤، والبحر المحيط: ٥/ ١٣١، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٢/ ٤٢٢ ـ ٤٢٣.

(٤) مقتبس من: تفسير الطبري: ٦/ ٥٣٥.

(٥) انظر: زاد المسير، لابن الجوزي: ٤/ ١٠.

(٦) الجامع لأحكام القرآن: ٨/ ٣١٢.

تحتهم في الآخرة[١].

والثاني: أنها في محل نصب على الحال[٢].

والثالث: أنها جملة مستأنفة[٣].

والرابع: أنها معطوفة على ما قبلها، وفي الكلام واو محذوفة، أي: وتجري من تحتهم الأنهار[٤].

والقول الأول في إعرابها أظهر ـ في نظري ـ والله تعالى أعلم.

وقوله: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ يجوز أن يكون خبراً ثالثاً عن ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وأن يكون متعلقاً بـ ﴿يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم﴾، أو بـ ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ وأن يكون حالاً في الأنهار[٥]. ومعناه: «في بساتين النعيم الذي نعم الله به أهل طاعته والإيمان به»[٦].

قال العلامة السعدي: «أضافها الله ـ أي جنات ـ إلى النعيم، لاشتمالها على النعيم التام، نعيم القلب بالفرح والسرور والبهجة والحبور، ورؤية الرحمن وسماع كلامه، والاغتباط برضاه وقربه، ولقاء الأحبة والإخوان، والتمتع بالاجتماع بهم، وسماع الأصوات المطربات والنغمات المشجيات، والمناظر المفرحات. ونعيم البدن بأنواع المآكل والمشارب والمناكح، ونحو ذلك مما لا تعلمه النفوس، ولا خطر ببال أحد، أو قدر أن يصفه الواصفون» اهـ[٧].

---

(١) انظر: البحر المحيط: ٥/ ١٣١، وفتح القدير: ٢/ ٥٩٧ ـ ٥٩٨.

(٢) انظر: فتح القدير: ٢/ ٥٩٨.

(٣) انظر: المصدر السابق: ٢/ ٥٩٧.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ٨/ ٣١٢.

(٥) انظر: البحر المحيط: ٥/ ١٣٢، وفتح القدير: ٢/ ٥٩٨.

(٦) مقتبس من: تفسير الطبري: ٦/ ٥٣٥.

(٧) تيسير الكريم الرحمن: ص٣٥٩.

وقوله: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ بيان لحال أهل الجنة في الجنة[١]، وأنهم فيها على تنزيه الله تعالى بالتسبيح عما نزه عنه نفسه المقدسة، كما كانوا في الدنيا[٢]، وهذا هو الشاهد على تسبيح أهل الجنة لله تعالى في الجنة.

و﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ مبتدأ[٣]، وأكثر المفسرين على أن معناه: دعاؤهم[٤]، فإن الدعوى يكون مصدر (دعا، يدعو)، كالشكوى مصدر (شكا، يشكو)[٥]، وهو هنا مصدر مضاف للفاعل[٦] الذي هو الضمير (هم) العائد إلى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾. والدعاء يراد به الثناء، ويراد به السؤال[٧].

وفسر جماعة (دعواهم) بمعنى: عبادتهم[٨]، وهذا موافق للتفسير الأول؛ لأن المراد بالدعاء: دعاء العبادة.

وفسره بعضهم بمعنى: قولهم[٩]، وهذا أيضاً قريب من المعنيين

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٢/ ٤٢٣.
(٢) انظر: مسألة سبحان، لنفطويه: ص٣٩.
(٣) انظر: الدر المصون، للسمين الحلبي: ٦/ ١٥٥.
(٤) انظر: تفسير الطبري: ٦/ ٥٣٥، ومعاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ٣/ ٨، وزاد المسير: ٤/ ١٠، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٨/ ٣١٣، والبحر المحيط: ٥/ ١٣٢، وحادي الأرواح، لابن قيم الجوزية: ص٤٥٢، والدر المصون، للسمين الحلبي: ٦/ ١٥٥.
(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ٨/ ٣١٣.
(٦) انظر: الدر المصون: ٦/ ١٥٥.
(٧) انظر: حادي الأرواح، لابن القيم: ص٤٥٢، والدر المصون، للسمين الحلبي: ٦/ ١٥٥.
(٨) انظر: البحر المحيط، لأبي حيان: ٥/ ١٣٢، والدر المصون: ٦/ ١٥٥، وتيسير الكريم الرحمن: ص٣٥٩.
(٩) انظر: تفسير السمرقندي: ٢/ ٨٩، وتفسير القرآن، لأبي المظفر: ٢/ ٣٦٨.

السابقين؛ لأن المقصود بالدعاء والعبادة القول المذكور.

وذكر بعضهم أن معنى (دعواهم): طريقتهم وسيرتهم، وذلك أن المدعي للشيء مواظب عليه، فيكون الدعوى هنا كناية عن الملازمة[١]. ولا حاجة إلى جعل (الدعوى) في الآية كناية؛ لأن تفسيره بالدعاء أو العبادة أو القول يتضمن كون ذلك طريقتهم وسيرتهم.

وقيل: (إن دعواهم) هنا بمعنى: تمنيهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: ٣١]، أي: ما تتمنون[٢]. وهذا القيل ليس بظاهر في المراد بـ (دعواهم) في هذه الآية.

و(فيها) متعلق بـ (دعواهم)[٣]، والضمير يعود إلى (جنات النعيم). و﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ خبر عن (دعواهم)، أي: دعواهم في الجنة هذا اللفظ، فالخبر هنا هو نفس المبتدأ في المعنى[٤]، وجيء به محكياً على نصبه لأنه من باب الإسناد اللفظي[٥].

وجوز بعضهم أن يكون الخبر هنا من باب الإسناد المعنوي، فلا يلزم أن يقولوا هذا اللفظ فقط، بل يقولونه وما يؤدي معناه من الألفاظ الدالة على تنزيه الله تعالى وتقديسه[٦]. وظاهر الآية أنهم يقولون اللفظ

---

(١) انظر: فتح القدير: للشوكاني: ٢/ ٥٩٨.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٨/ ٣١٣.

(٣) انظر: الدر المصون، للسمين الحلبي: ٦/ ١٥٥، وروح المعاني، للآلوسي: ١١/ ٧٥.

(٤) الجملة الواقعة خبراً عن مبتدأ إما أن تكون نفس المبتدأ في المعنى، وهي التي يكون معناها متحداً مع المبتدأ، نحو: نطقي الله حسبي، فإن المراد بالنطق المنطوق به، وإما أن تكون الجملة غير المبتدأ في المعنى، نحو: (الله لا إله إلا هو). وانظر: أوضح المسالك، لابن هشام: ص٢٦.

(٥) انظر: الدر المصون: ٦/ ١٥٥.

(٦) انظر: المصدر السابق: ٦/ ١٥٥.

المذكور فقط، وهو (سبحانك اللهم)، وقد تقدمت الإشارة إلى أن هذا اللفظ يفيد تنزيه الله تعالى بجماع أسمائه الحسنى وصفاته العليا[١].

وللمفسرين في بيان سبب نطق أهل الجنة بهذا التسبيح في الجنة أقوال:

أحدها: أنهم يقولون ذلك عندما يشتهون الشيء، أو عندما يريدون أن يدعوا بالشيء، فكلما اشتهى أهل الجنة شيئاً، أو أرادوا شيئاً، قالوا: ﴿سُبْحَانَكَ ٱللَّهُمَّ﴾، فيأتيهم ما يشتهون، وما يريدون[٢].

وكأن القائلين بهذا القول فهموا من تسمية هذا التسبيح دعوى أنه يراد به دعاء المسألة، وهذا قصور بمعنى الآية، وليس في الآية ما يدل على ما ذكروه، فلا يليق هذا القول بمعنى الآية، كما أنه لا يليق بحال أهل الجنة[٣].

الثاني: أنهم إذا أرادوا الرغبة إلى الله تعالى في دعاء يدعونه به، كان دعاؤهم له: (سبحانك اللهم)[٤]، ووجه ذلك أن ما هم فيه من النعيم هو غايات الراغبين، بحيث إذا أرادوا أن ينعموا بمقام دعاء ربهم الذي هو مقام القرب، لم يجدوا أنفسهم مشتاقين لشيء يسألونه، فاعتاضوا عن السؤال بالثناء على ربهم[٥].

وهذا القول لطيف جداً في بيان سبب دعاء أهل الجنة بهذا

---

(١) انظر: ص٢٢٨ ـ ٢٣١ من هذا البحث.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ٦/ ٥٣٥، وتفسير السمرقندي: ٢/ ٨٩، والنكت والعيون، للماوردي: ٢/ ٤٢٤، والمحرر الوجيز، لابن عطية: ٩/ ١٥، وزاد المسير، لابن الجوزي: ٤/ ١٠، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٢/ ٤٢٣.

(٣) انظر: حادي الأرواح، لابن القيم: ص٤٥٢ ـ ٤٥٣.

(٤) انظر: النكت والعيون: ٢/ ٤٢٤، وزاد المسير: ٤/ ١١.

(٥) انظر: تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١١/ ١٠٢.

التسبيح، وإن كان لم يذكره أكثر المفسرين، وواضح منه أن تسبيح أهل الجنة للثناء على ربهم، لا لاستدعاء ما يشتهون؛ لأن جميع مشتهياتهم حاصلة بالفعل، فليس بهم حاجة إلى سؤال ولا استدعاء.

الثالث: أنهم يقولون هذا التسبيح على سبيل الابتهاج والالتذاذ والتنعم، وليس على سبيل التكليف، فإن الجنة لا تكليف فيها[(١)].

ويقوي هذا القول ما سيأتي ذكره قريباً ـ إن شاء الله ـ مما جاء في السنة في تسبيح أهل الجنة، ويقرب منه في المعنى القول الثاني المذكور قبله.

وقوله: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌۚ﴾ جملة خبرية معطوفة على قوله: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾، و(تحيتهم) مبتدأ، وهي مصدر قولهم: حياك الله، بمعنى أطال حياتك[(٢)]، وإضافته إلى الضمير هنا يحتمل أن تكون من باب إضافة المصدر إلى فاعله[(٣)]، فالمعنى: تحية بعضهم بعضاً في الجنة عند التلاقي والتزاور سلام[(٤)]، وهذا المعنى ذهب إليه أكثر المفسرين، وأشار بعضهم في تفسير هذه الآية إلى الحديث المروي عن النبي ﷺ في صورة خلق آدم عليه السلام وفيه: «**فلما خلقه قال: اذهب فسلم على أولئك، نفر من الملائكة جلوس، فاستمع ما يحيونك، فإنها تحيتك وتحية ذريتك. قال: فذهب فقال: السلام عليكم. فقالوا:**

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٤/٣٢٩ ـ ٣٣٠، والبحر المحيط، لأبي حيان: ٥/١٣٢، وتفسير الخازن: ٢/٤٣٠.

(٢) انظر: الدر المصون: ٦/١٥٥.

(٣) انظر: الدر المصون: ٦/١٥٥، وروح المعاني: ١١/٧٦.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ٦/٥٣٦، ومعاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ٣/٨، وتفسير القرآن، لأبي المظفر: ٢/٣٦٨، وزاد المسير: ٤/١١، وتيسير الكريم الرحمن: ص٣٥٩.

السلام عليك ورحمة الله، فزادوه: ورحمة الله»[(١)]. ثم قال: «وبين في القرآن ههنا أنها تحيتهم في الجنة، فهي تحية موضوعة من ابتداء الخليقة إلى غير غاية». قال: «وهذا أظهر؛ لأنه ظاهر القرآن، والله أعلم»[(٢)].

ويحتمل أن تكون الإضافة في (تحيتهم) من باب إضافة المصدر إلى مفعوله[(٣)]، والفاعل إما الله سبحانه، فالمعنى: تحية الله تعالى إياهم في الجنة سلام[(٤)]، يدل عليه قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ [يس: ٥٨].

وإما الملائكة، فالمعنى: تحية الملائكة إياهم في الجنة سلام[(٥)]، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

وهذه الاحتمالات كلها صحيحة؛ لأن الأدلة المذكورة شاهدة بها. وذكر بعض المفسرين أن التحية هنا يجوز أن تكون بمعنى الملك؛ لأن العرب تسمي الملك التحية[(٦)]، فقوله: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ معناه: وملكهم فيها سالم[(٧)]. ولا أعلم دليلاً يدل على صحة هذا المعنى في هذه الآية، والله تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ١١/٣، برقم (٦٢٢٧)، ومسلم في صحيحه: ٤/٢١٨٣ ـ ٢١٨٤، برقم (٢٨٤١).
(٢) أحكام القرآن، لابن العربي: ٣/٧.
(٣) انظر: الدر المصون: ٦/١٥٥، وروح المعاني: ١١/٧٥.
(٤) انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ٣/٨، وتفسير القرآن، لأبي الظفر: ٢/٣٦٨، وزاد المسير: ٤/١١، والبحر المحيط، لأبي حيان: ٥/١٣٢.
(٥) انظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر: ٢/٣٦٨، زاد المسير: ٤/١١، والبحر المحيط: ٥/١٣٢، والدر المصون ٦/١٥٥.
(٦) انظر: تفسير الطبري: ٦/٥٣٦.
(٧) انظر: زاد المسير: ٤/١١.

و(فيها) متعلق بـ (تحيتهم)(١). و(سلام) خبر عن (تحيتهم)(٢) ومعناه: الدعاء بالسلامة من الآفات(٣)، أو: كلام سالم من اللغو والإثم موصوف بأنه سلام(٤)، كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ۝٢٦﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦].

وقوله: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يعني: «وآخر دعائهم أن يقولوا: (الحمد لله رب العالمين)، ولذلك خففت (أن) ولم تشدد؛ لأنه أريد بها الحكاية» هذا قول ابن جرير الطبري(٥) يذهب إلى أن (أن) هنا مفسرة، وقد غلط من جعلها كذلك في هذه الآية؛ لأن من شروط (أن) المفسرة عند مثبتها أن تكون مسبوقة بجملة، وهذا الشرط غير متحقق هنا(٦).

وذهب غيره إلى أن (أن) هنا مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير شأن محذوف والتقدير: أنه الحمد لله رب العالمين(٧).

فـ (آخر دعواهم) مبتدأ، و(أن) واسمها وخبرها جملة اسمية وقعت خبراً للمبتدأ(٨).

وفي هذا إخبار بأن آخر دعائهم: الحمد لله رب العالمين، كما كان أول دعائهم: سبحانك اللهم(٩).

---

(١) انظر: الدر المصون: ٦/ ١٥٥، وروح المعاني: ١١/ ٧٥.
(٢) انظر: المصدرين السابقين. (٣) أضواء البيان: ١/ ٥٠٩.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن: ص٣٥٩.
(٥) تفسير الطبري: ٦/ ٥٣٦.
(٦) انظر: مغني اللبيب، لابن هشام: ص٤٧ ـ ٤٨.
(٧) انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ٤/ ٨، والدر المصون: ٦/ ١٥٦.
(٨) انظر: الدر المصون: ٦/ ١٥٦، وروح المعاني: ١١/ ٧٦.
(٩) انظر: النكت والعيون، للماوردي: ٢/ ٤٢٤، وحادي الأرواح، لابن القيم: ص٤٥٢.

قال الزجاج: «أعلم الله أنهم يبتدئون بتعظيم الله وتنزيهه، ويختمون بشكره والثناء عليه»(١).

وقال ابن كيسان(٢): «يفتتحون كلامهم بالتوحيد، ويختمونه بالتوحيد»(٣)، وقال الحافظ ابن كثير: «قوله: (وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) هذا فيه دلالة على أنه تعالى هو المحمود أبداً، المعبود على طول المدى، ولهذا حمد نفسه عند ابتداء خلقه واستمراره، وفي ابتداء كتابه، وعند ابتداء تنزيله، حيث يقول تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١]، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١]، إلى غير ذلك من الأحوال التي يطول بسطها، وأنه المحمود في الأولى والآخرة، في الحياة الدنيا وفي الآخرة، في جميع الأحوال...» اهـ(٤).

وذكر بعض المفسرين أن قوله تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ علامة بين أهل الجنة وبين خدمهم في الجنة، فإذا قالوا هذه المقالة جاءهم الخدام بالموائد بين أيديهم، وأوتوا بما يشتهون، فإذا فرغوا من الطعام قالوا: الحمد لله رب العالمين، فذلك قوله تعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يعني: وآخر قولهم بعدما فرغوا من

---

(١) معاني القرآن وإعرابه: ٣/٨. وانظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر: ٢/٣٦٨، وزاد المسير، لابن الجوزي: ٤/١١، والبحر المحيط، لأبي حيان: ٥/ ١٣٢.

(٢) هو علي بن محمد بن أحمد بن كيسان الحربي، أبو الحسن، كان ثقة من جلة النحويين، وتوفي سنة (٣٧٣هـ)، رحمه الله. انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: ١٦/٣٢٩ ـ ٣٣٠.

(٣) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير: ٤/١١، وأبو حيان في البحر المحيط: ٥/١٣٢.

(٤) تفسير القرآن العظيم: ٢/٤٢٣.

الطعام أن يقولوا: الحمد لله رب العالمين[١].

وهذا التفسير قد سبق التنبيه على ضعفه، وأنه ليس في الآية ما يدل عليه[٢]، بل الصواب أن الآية إخبار عن اشتغال أهل الجنة في الجنة بالتسبيح والتحميد والتقديس لله ﷻ، والثناء عليه بما هو أهله[٣]، يفتتحون بالتسبيح، ويختتمون بالتحميد، فيقرنون تسبيحهم لله تعالى بحمده جل وعلا، وفي ذلك من الدلالة الواضحة على توحيد الله تعالى وتعظيمه ما قد تقدم بيان شيء منه عند الكلام على مسألة قرن التسبيح بالحمد[٤]، كما أن في قرن الخبر عن تسبيحهم لله تعالى بالخبر عن سلامتهم من الآفات من اللطافة والمناسبة ما لا يخفى على المتأمل.

ونحو هذه الآية قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الصافات: ١٨٠، ١٨٢]، افتتحه بالتسبيح، ثم سلم على المرسلين، وختمه بالتحميد، وتقدم شرح ذلك عند الكلام على قرن التسبيح بالسلام على المرسلين[٥]، والله الموفق.

وقد جاء في السنة المشرفة ما يوضح تسبيح أهل الجنة لله تعالى في الجنة، وذلك في حديثين:

أحدهما: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يبصقون فيها ولا يمتخطون ولا يتغوطون، آنيتهم فيها الذهب، وأمشاطهم[٦] من**

---

(١) انظر: تفسير السمرقندي: ٢/ ٨٩ ـ ٩٠، وتفسير القرآن، لأبي المظفر: ٢/ ٣٦٨.

(٢) انظر: ص٣٧٨ (٣) انظر: تفسير الخازن: ٢/ ٤٣٠.

(٤) انظر: ص١٩٣ ـ ٢٠٧ من هذا البحث.

(٥) انظر: ص٢٤٤ ـ ٢٤٦ من هذا البحث.

(٦) الأمشاط: جمع مشط ـ مثلثة الميم ـ، وهي آلة يمتشط بها، والامتشاط =

الذهب والفضة، ومجامرهم الألوة[(١)]، ورشحهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم من الحسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم قلب واحد، يسبحون الله بكرة وعشيا»[(٢)].

والثاني: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون، ولا يتفلون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يمتخطون**». قالوا: فما بال الطعام؟ قال: «**جشاء**[(٣)] **ورشح كرشح المسك، يلهمون التسبيح والتحميد، كما تلهمون النفس**»[(٤)].

ففي هذين الحديثين دلالة صريحة على أن أهل الجنة يسبحون الله تعالى فيها تسبيحاً دائماً مستمراً غير منقطع ولا مقيد بحال معين من الأحوال، وأنهم لا يجدون مشقة في هذا التسبيح ولا كلفة عليهم فيه، ولهذا قال: (يلهمون التسبيح والتحميد كما تلهمون النفس)، و«ووجه التشبيه: أن تنفس الإنسان لا كلفة عليه فيه ولا بد له منه، فجعل تنفسهم تسبيحاً»[(٥)]. ونظير ذلك ما أخبر الله تعالى عن الملائكة من

= ترجيل الشعر أو اللحية. انظر: القاموس المحيط: مادة (مشط): ص٨٨٨.

(١) المجامر: جمع مجمرة، وهي المبخرة، سميت مجمرة لأنها يوضع فيها الجمر ليفوح به ما يوضع فيها من البخور [فتح الباري، لابن حجر: ٦/ ٣٢٤]. الألوة ـ بفتح الهمزة، ويجوز ضمها، وبضم اللام، وتشديد الواو ـ: العود الذي يبخر به [فتح الباري: ٦/ ٣٢٤].

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٦/٣١٨، برقم (٣٢٤٥)، ومسلم في صحيحه: ٤/ ٢١٨٠، برقم (٢٨٣٤).

(٣) الجشاء ـ ومثله: التجشؤ ـ: تنفس المعدة، وهو صوت يخرج من الفم عند امتلاء المعدة من الطعام. انظر: القاموس المحيط، للفيروز آبادي: مادة (جشأ): ص٤٥، والمعجم الوسيط: مادة (جشأ): ١/ ١٢٣.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه: ٤/ ٢١٨٠ ـ ٢١٨١، برقم (٢٨٣٥).

(٥) مقتبس من: فتح الباري، للحافظ ابن حجر العسقلاني: ٦/ ٣٢٦.

أنهم ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ۝٢٠﴾ [الأنبياء: ٢٠]، وأنهم ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ﴾ [فصلت: ٣٨].

وفي الحديثين أيضاً دلالة على أن هذا التسبيح الذي يلهمه أهل الجنة هو من النعيم الذي تتنعم به الأنفس في الجنة وتتلذذ به، ولولا تمتع أهل الجنة بذلك التسبيح الذي هو لهم كالنفس لم يكن الأمر كذلك(١)، و«سببه أن قلوبهم تنورت بمعرفة الرب سبحانه، وامتلأت بحبه، ومن أحب شيئاً أكثر من ذكره»(٢)، ولهذا يكون اشتغالهم بالتسبيح أعظم من كل شيء، وألذ عليهم من المآكل والمشارب والمناكح(٣).

وهذا ختام أنواع تسبيح العباد لله تعالى، وهو تسبيح دائم خالد بدوام أهل الجنة وخلودهم فيها، فنسأل الله الرحمن الرحيم أن يجعلنا من عباده المسبحين له في الحياة الدنيا ومن عباده الذين سيتنعمون بتسبيحه في جنات النعيم، إنه سبحانه ولي ذلك والقادر عليه، وبالله التوفيق.



---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٤/ ٣٣٠، ودرء تعارض العقل والنقل، له: ٦/ ٦٩.

(٢) مقتبس من: فتح الباري، لابن حجر: ٦/ ٣٢٦.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٤/ ٣٣٠، و١٠/ ٦٤.

الباب الثاني

حكم التسبيح وفضله ومنزلته في العقيدة

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: في حكم التسبيح.

الفصل الثاني: في فضل التسبيح.

الفصل الثالث: في منزلة التسبيح في العقيدة.

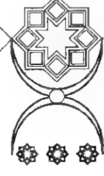
الفصل الأول

حكم التسبيح

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: حكم تسبيح الله تعالى

المبحث الثاني: حكم تسبيح غير الله تعالى





المبحث الأول

حكم تسبيح الله تعالى

لقد شرع الله تعالى تسبيحه وأمر به في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، وبلغت الآيات القرآنية التي جاء فيها الأمر بالتسبيح ثماني عشرة آية(١)، منها قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾ [طه: ١٣٠]، وقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [الواقعة: ٧٤، ٩٦ والحاقة: ٥٢]، وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾ [الإنسان: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ [الأعلى: ١].

والأمر في هذه الآيات موجه للنبي ﷺ، ولكن الأمر له أمر لأمته إلا ما ثبت تخصيصه به(٢)، ومع ذلك فقد جاء الأمر بتسبيح الله تعالى لأمته صريحاً في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢].

وجاء في السنة المشرفة الحث على تسبيح الله تعالى والترغيب فيه في أحاديث كثيرة جداً تفوق الحصر، وسيأتي ذكر جملة منها عند

---

(١) سيأتي بيان أرقام هذه الآيات مع سورها في ص٤٢٣ من البحث.

(٢) انظر: روضة الناظر وجنة المناظر، لموفق الدين بن قدامة المقدسي ـ بشرحه نزهة الخاطر العاطر، لابن بدران ٢/ ١٠٠ ـ ١٠٤، وشفاء العليل، لابن القيم: ٢/ ٣٩، ومذكرة أصول الفقه، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: ص١٦٣ ـ ١٦٤.

الكلام على فضل التسبيح[١]، وعند بيان المواضع التي يُشرع فيها التسبيح[٢]، إن شاء الله تعالى.

فالأدلة من الكتاب والسنة متواترةٌ في الأمر بتسبيح الله تعالى والحث عليه، وهذه الأدلة تتناول تسبيح الله تعالى من حيث القول، وتسبيحه من حيث الاعتقاد، وبيان ذلك في المطلبين التاليين:

❖ المطلب الأول ❖

حكم تسبيح الله تعالى من حيث القول

تقدم أنّ التسبيح يفسّر بمعنى قول: (سبحان الله) ونحوه، فيكون مدلوله حينئذٍ قوليّاً[٣]، كما قال ابن عطية في تفسير قوله تعالى ـ لنبيّه زكريا عليه السلام ـ: ﴿وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [آل عمران: ٤١]. قال: «وقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ﴾ معناه: قل: سبحان الله، وقال قوم: معناه: صلّ. والقول الأول أصوب؛ لأنّه يناسب الذكر، ويستغرب مع امتناع الكلام مع الناس»[٤].

وقال الزجاج ـ في تفسير قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى: ١] ـ: «أي: نزّه ربّك عن السوء، وقل: سبحان ربّي الأعلى» اهـ[٥].

ومما يدلّ على إرادة اللفظ بالتسبيح قولاً توقيتُه بالوقت، كما في قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٤٢﴾ [الأحزاب: ٤٢]، وقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٦]، فإنّ الذي يكلّف بتوقيته هو

---

(١) وذلك في الفصل الثاني من هذا الباب، ص٤٣٠.

(٢) وهو موضوع الباب الثالث من هذا البحث. انظر: ص٥٠٩.

(٣) انظر: ص٣٨ ـ ٤٠ من هذا البحث. (٤) المحرر الوجيز: ٣/ ٨١.

(٥) معاني القرآن وإعرابه: ٥/ ٣١٥.

الأقوال والأفعال دون العقائد(١).

وكذلك قرنه بالاسم، كما في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [الواقعة: ٧٤ و٩٦، والحاقة: ٥٢]، وقوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ [الأعلى: ١]. وقد سبق نقل الإمام ابن قيم الجوزية توضيح ذلك عن شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية، إذ قال ـ في تفسير هاتين الآيتين ـ: «المعنى: سبّح ناطقاً باسم ربّك متكلماً به. وكذا (سبح اسم ربك) المعنى: سبّح ربّك ذاكراً اسمه»(٢). وذلك أنّ التسبيح باللسان لا بدّ فيه من ذكر الاسم، فأوقع التسبيح على الاسم تنبيهاً على إرادة اللفظ باللسان(٣).

ويؤيّد إرادة اللفظ بالتسبيح ما ثبت في السنة من تأويل قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ [النصر: ٣] بالقول، كما في حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: «كان النبي ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «**سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي**»، يتأوّل القرآن»(٤).

فقولها: «يتأول القرآن» أي: يفعل ما أمر به فيه من التسبيح، وتعني بالقرآن: الآية المذكورة ونحوها(٥).

وإذا تبيّن هذا عُلِم أنّ ما جاء في الكتاب والسنة من الأمر بتسبيح الله تعالى يتناول اللفظ بالتسبيح قولاً باللسان، مع ضرورة مطابقة ذلك لاعتقاد الجنان.

---

(١) انظر: تفسير التحرير والتنوير: ٣/ ٢٧٤.

(٢) بدائع الفوائد: ١/ ٢٢، وانظر: ص٢٢٣ من البحث.

(٣) انظر: التسهل لعلوم التنْزيل، لابن جزي: ٢/ ٥٦٢، وبدائع الفوائد: ١/ ٢١ ـ ٢٢، وتفسير التحرير والتنوير: ٣٠/ ٢٧٣.

(٤) سبق تخريجه، في ص. ٢٠٤

(٥) انظر: فتح الباري، للحافظ ابن حجر: ٢/ ٢٩٩.

ولهذا اتّفق العلماء على مشروعية التسبيح من حيث القول، وأنه من أجلّ الألفاظ التي يُتعبّد بها لله تعالى، ويُذكر بها الله ﷻ، بل العلم بذلك من الأمور الظاهرة في الإسلام. ولكنّ العلماء اختلفوا في وجوب التسبيح من حيث القول.

فذهب أكثر الفقهاء من أصحاب المذاهب إلى أنّ التسبيح سنّة مندوبة وليس واجباً[1]، ويستوي في ذلك التسبيح في الصلاة، والتسبيح خارج الصلاة.

أما التسبيح في الصلاة فعمدتهم في عدم وجوبه هي حديث المسيء صلاته، وهو ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ دخل المسجد، فدخل رجل فصلى، ثم جاء فسلم على النبي ﷺ، فرد النبي ﷺ، فقال: «**ارجع فصل، فإنك لم تصل**»، فصلى، ثم جاء فسلم على النبي ﷺ، فقال: «**ارجع فصل فإنك لم تصل (ثلاثاً)**»، فقال: والذي بعثك بالحق، فما أحسن غيره، فعلمني. فقال: «**إذا قمت إلى الصلاة فكبر، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن، ثم اركع حتى تطمئن راكعاً، ثم ارفع حتى تعتدل قائماً، ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً، ثم ارفع حتى تطمئن جالساً، ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً، ثم افعل ذلك في صلاتك كلها**»»[2].

---

(١) انظر: معالم السنن، للخطابي: ١/ ١٨٤، وشرح السنة، للبغوي: ٣/ ١٠٣، والمغني، لابن قدامة، بتحقيق الدكتور عبد الله التركي: ٢/ ١٨٠، ورسالة ابن أبي زيد القيرواني ـ بشرحه الثمر الداني، للشيخ عبد السميدح الآبي ـ ص١٠٨، ١١٣، والمجموع شرح المهذب، للنووي، بتحقيق محمد نجيب المطيعي: ٣/ ٣٨٧، وشرح فتح القدير، للكمال ابن الهمام: ١/ ٢٦٠، ٢٦٧، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٦/ ١١٤، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار، للشوكاني، باعتناء محمد حلاق، وعز الدين خطاب: ٢/ ٢٤٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٢/ ٢٧٦ ـ ٢٧٧، برقم (٧٩٣)، ومسلم في صحيحه: ١/ ٢٩٨، برقم (٣٩٧).

قالوا: فالنبي ﷺ علم هذا الرجل واجبات الصلاة، ولم يذكر فيها التسبيح ولا غيره من الأذكار، مع أنه ﷺ علمه تكبيرة الإحرام والقراءة، فدل ذلك على أن التسبيح وسائر الأذكار ليست واجبة في الصلاة، ولو كانت واجبة لعلمه إياها؛ لأن تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز(١). وجعلوا هذا الحديث قرينة صارفة لما ورد من الأمر بالتسبيح في الصلاة عن الوجوب إلى الاستحباب(٢)، بل جعلوه قرينة صارفة لجميع الأوامر الواردة بأمور خارجة عنه(٣).

ومن ثم قرر بعضهم أن حديث المسيء صلاته هو المرجع في معرفة واجبات الصلاة، فما ذكره النبي ﷺ فيه كان واجباً، وما لم يذكره فيه من الأقوال والأفعال فليس بواجب، وما قامت عليه أدلة تدل على وجوبه مما لم يذكر فيه فهو محل خلاف(٤).

وهذا ملخص ما استدلوا به على عدم وجوب التسبيح في الصلاة. أما التسبيح خارج الصلاة فلم أقف على كلام مفصل لهؤلاء الفقهاء في عدم وجوبه، ولكن يظهر أن القول بعدم وجوب ذلك هو مذهب العلماء عامة، كما سيتبين فيما يلي.

وذهب جماعة من الفقهاء من السلف والخلف إلى أن التسبيح من حيث القول واجب، وخصوا ذلك بالتسبيح في الصلاة، وهو التسبيح

---

(١) انظر: المجموع، للنووي: ٣/ ٣٨٧، والمغني، لابن قدامة: ٢/ ١٨٠، ونيل الأوطار، للشوكاني: ٢/ ٢٤٦.

(٢) انظر: المجموع، للنووي: ٣/ ٣٨٧، ونيل الأوطار، للشوكاني: ٢/ ١٧٦.

(٣) انظر: نيل الأوطار: ٢/ ١٨٩.

(٤) انظر: إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، لابن دقيق العيد، ومعه حاشيته العدة، للأمير الصنعاني، بتحقيق علي بن محمد الهندي: ٢/ ٣٥٨ ـ ٣٦٠، ونيل الأوطار، للشوكاني: ٢/ ١٧٥، ٢٦٧.

في الركوع والسجود على وجه التحديد[١]، فأبطلوا لهذا صلاة من ترك التسبيح في الركوع والسجود عمداً، وأوجبوا سجود السهو على من سها عنه فيهما[٢].

وقد استدل القائلون بوجوب التسبيح في الركوع والسجود في الصلاة بأدلة من الكتاب والسنة والنظر المستند إليهما، وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن أدلة وجوبه في الكتاب والسنة كثيرة جداً[٣]، فيدل على وجوب التسبيح من الكتاب:

١ ـ الآيات التي جاء فيها الأمر بالتسبيح، وهي آيات عديدة سبق بيان عددها مع ذكر بعضها[٤].

فهذه الآيات ظاهرها الوجوب[٥]، ولا وجوب في غير الصلاة،

---

(١) انظر: حلية العلماء في معرفة مذاهب الفقهاء، لأبي بكر الشاشي القفال، بتحقيق الدكتور ياسين درادكه: ٢/ ١١٨، ومعالم السنن، للخطابي: ١/ ١٨٤، والمحلى بالآثار، لابن حزم، بتحقيق الدكتور عبد الغفار البنداري: ٢/ ٢٩٠، وشرح السنة، للبغوي: ٣/ ١٠٣، والمغني، لابن قدامة: ٢/ ١٨٠، والمجموع، للنووي: ٣/ ٣٨٧، ونيل الأوطار، للشوكاني: ٢/ ٢٤٦، ومجموع الفتاوى: ١٦/ ١١٤.

(٢) انظر: الصلاة وحكم تاركها، لابن قيم الجوزية، بتحقيق سيد إبراهيم: ص٣١٧، ونيل الأوطار، للشوكاني: ٢/ ٢٤٦.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٦/ ١١٦.

(٤) انظر: ص٣٩٠.

(٥) لأن الأصل في أوامر الكتاب والسنة أنها للوجوب، إلا إذا دل الدليل على الاستحباب أو الإباحة. وانظر في تقرير ذلك: قواطع الأدلة في أصول الفقه، لأبي المظفر السمعاني، بتحقيق الدكتور عبد الله بن حافظ الحكمي: ١/ ٩٢ ـ ١٠٨، ورسالة لطيفة جامعة في أصول الفقه المهمة، للشيخ عبد الرحمن السعدي، وبذيلها التعليقات المنيفة، لأبي الحارث نادر آل مبارك: ص٧٣ ـ ٧٥، ومذكرة أصول الفقه، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: ص١٩١ ـ ١٩٢.

فتعين أن يكون فيها[(١)]؛ لأن السنة بينت ذلك كما سيأتي.

٢ ـ الآيات التي أطلق فيها التسبيح على الصلاة، كما سبق بيانه في معاني التسبيح في الشرع[(٢)].

وقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية دلالة ذلك على وجوب التسبيح، فقال: «وإذا كان الله ﷻ قد سمى الصلاة تسبيحاً، فقد دل ذلك على وجوب التسبيح، كما أنه لما سماها قياماً في قوله تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢﴾ [المزمل: ٢]، دل على وجوب القيام، وكذلك لما سماها قرآناً في قوله تعالى: ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾ [الإسراء: ٧٨]، دل على وجوب القرآن فيها، ولما سماها ركوعاً وسجوداً في مواضع[(٣)]، دل على وجوب الركوع والسجود فيها، وذلك أن تسميتها بهذه الأفعال دليل على أن هذه الأفعال لازمة لها، فإذا وجدت هذه الأفعال فتكون من الأبعاض اللازمة، كما أنهم يسمون الإنسان بأبعاضه اللازمة له، فيسمونه رقبة، ورأساً، ووجهاً، ونحو ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ﴾ [المجادلة: ٣].

ولو جاز وجود الصلاة بدون التسبيح لكان الأمر بالتسبيح لا يصلح أن يكون أمراً بالصلاة، فإن اللفظ حينئذٍ لا يكون دالاً على معناه، ولا على ما يستلزم معناه» اهـ[(٤)].

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٦/ ١١٥ والصلاة وحكم تاركها، لابن القيم: ص٣١٧، ونيل الأوطار، للشوكاني: ٢/ ٢٤٦.

(٢) انظر: ص٨٦ ـ ٩٦.

(٣) منها: قوله تعالى: ﴿وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣]. وقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٩٨﴾ [الحجر: ٩٨].

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٢/ ٥٥١. وانظر أيضاً: المصدر نفسه: ١٦/ ١١٥.

وهذا الاستدلال في غاية القوة لمن تأمله، وفيه الرد على من زعم من أهل العلم أن صلاة النافلة سميت تسبيحاً ـ كما وقع ذلك في الأحاديث كثيراً ـ؛ لأنها كالتسبيح في الفريضة في أنه غير واجب، وقد تقدم الرد على هذا الزعم أيضاً(١).

٣ ـ قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾﴾ [السجدة: ١٥].

فهذه الآية تدل على أن التذكير بآيت الله موجب للسجود والتسبيح؛ لأنه تعالى «أخبر أنه لا يكون مؤمناً إلا من سجد إذا ذكر بالآيات وسبح بحمد ربه، ومعلوم أن قراءة القرآن في الصلاة هي تذكير بالآيات، ولذلك وجب السجود مع ذلك، وقد أوجب خرورهم سجداً، وأوجب تسبيحهم بحمد ربهم، وذلك يقتضي وجوب التسبيح في السجود»(٢).

ويدل على وجوب التسبيح من السنة:

١ ـ حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: «لما نزلت ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [الواقعة: ٧٤، ٩٦، والحاقة: ٥٢]، قال رسول الله ﷺ: «**اجعلوها في ركوعكم**». فلما نزلت ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ [الأعلى: ١]، قال: «**اجعلوها في سجودكم**»»(٣).

ففي هذا الحديث أمر النبي ﷺ بجعل هذين التسبيحين المأمور بهما في الركوع والسجود، فعين ﷺ بأمره هذا محل التسبيح المأمور به

---

(١) انظر: ص٩٢ ـ ٩٣ من البحث.

(٢) مقتبس من: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٢/٥٤٩، وانظر: المصدر نفسه: ٢٣/١٤٩.

(٣) سبق تخريج هذا الحديث مع الكلام على إسناده وبيان درجته في ص٢٢٥.

في الكتاب، وأمره على الوجوب[١].

قال الخطابي ـ معلقاً على الحديث المذكور ـ: «في هذا دلالة على وجوب التسبيح في الركوع والسجود؛ لأنه قد اجتمع في ذلك أمر الله وبيان الرسول ﷺ، وترتيبه في موضعه من الصلاة، فتركه غير جائز»[٢].

٢ ـ ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: **«ألا وإني نهيت أن أقرأ القرآن راكعاً أو ساجداً، فأما الركوع فعظموا فيه الرب** عز وجل**، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء، فقمن أن يستحاب لكم»**[٣].

وفي هذا الحديث أمر ﷺ بتعظيم الرب عز وجل في الركوع، وهذا الأمر للوجوب، وهو موافق لقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [الواقعة: ٧٤، ٩٦، والحاقة: ٥٢]، فيكون المراد بالتعظيم المأمور به في الحديث التسبيح المأمور به في الآية، كما في الحديث السابق[٤].

وقوله: **«وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء»** لا ينافي الأمر بالتسبيح في السجود، كما في الأدلة الأخرى، بل هو أمر بالاجتهاد في الدعاء مع الذي أمر به من التسبيح في السجود، فيكون في ذلك زيادة خير وحسنة لمن فعله[٥]. وذكر الخطابي أن النهي عن القراءة راكعاً أو ساجداً في هذا الحديث يشد من القول بإيجاب الذكر في الركوع

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٢/ ٥٥٠، والصلاة وحكم تاركها، لابن قيم الجوزية: ص٣١٧.

(٢) معالم السنن: ١/ ١٨٤.

(٣) سبق تخريجه في ص٨٢.

(٤) انظر: المحلى بالآثار، لابن حزم: ٢/ ٢٩٠ ـ ٢٩١.

(٥) انظر: المصدر السابق: ٢/٢٩١، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٣٧٨/٢٢.

والسجود، وذلك إنما أخلي موضعها من القراءة ليكون محلاً للذكر والدعاء[(١)].

٣ ـ قوله ﷺ: «صلوا كما رأيتموني أصلي»[(٢)].

فهذا الحديث يؤيد بعمومه وجوب التسبيح في الصلاة؛ لأنه «يدل على وجوب ما ثبت عنه ﷺ في الصلاة من الأقوال والأفعال، ويؤكد الوجوب كونها بياناً لمجمل قوله: ﴿أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣][(٣)]، وهو أمر قرآني يفيد الوجوب، وبيان المجمل الواجب واجب، كما تقرر في الأصول»[(٤)]، إلا أن يثبت دليل بعدم وجوب شيء منه. والتسبيح قد فعله الرسول ﷺ في الصلاة، وثبت الأمر به في الكتاب وفي السنة، فيتأكد وجوبه بعموم هذا الحديث. وقد عد بعض علماء السنة التسبيحات في الركوع والسجود من السنة اللازمة التي لا يجوز تركها، وتركها ضلال لكل عامد راغب عنها[(٥)].

وبالإضافة إلى ما سبق من أدلة الكتاب والسنة فإن النظر الصحيح يدل على وجوب التسبيح في الصلاة، وبيان ذلك:

١ ـ أن الركوع والسجود ركنان من أركان الصلاة، فكان التسبيح فيهما واجباً، كما تجب القراءة في القيام، والتشهد في الجلوس، والتكبير في الانتقالات، فمواضع هذه الأذكار هي أركان الصلاة، فكان الذكر فيها واجباً[(٦)].

---

(١) انظر: معالم السنن: ١/ ١٨٤.
(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٢/ ١١١، برقم (٦٣١).
(٣) جاء هذا القول في مواضع من القرآن، أولها: في سورة البقرة: ٤٣.
(٤) مقتبس من: نيل الأوطار، للشوكاني: ٢/ ١٧٦.
(٥) انظر: الحجة في بيان المحجة، لأبي القاسم التيمي: ٢/ ٣٠٥.
(٦) انظر: المغني، لابن قدامة: ٢/ ١٨١.

٢ ـ أن الذكر هو مقصود الصلاة[(١)]، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤] ولهذا كان مبناها على التحميد والتوحيد في القيام، والقعود، والتسبيح في الركوع والسجود، والتكبير في الانتقالات[(٢)]، فلو خلت الصلاة من الذكر كانت فاقدة لمقصودها، وصارت كالجسد بلا روح.

ويؤيد هذا المعنى قوله ﷺ في حديث معاوية بن الحكم السلمي[(٣)] ـ: «**إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن**»[(٤)]. فعبر ﷺ عن الصلاة بهذه الأذكار لبيان أنها هي مقصود الصلاة.

وهذه الأدلة المذكورة من الكتاب والسنة والنظر قاضية برجحان القول بوجوب التسبيح في الصلاة على القول بعدم وجوبه. وحديث المسيء صلاته ـ الذي استدل به القائلون بعدم الوجوب ـ لا يصلح أن يكون صارفاً لهذه الأدلة عما تقتضيه من الوجوب إلى الندب، لاحتمال أن يكون التسبيح مما يعلمه المسيء صلاته، فاقتصر النبي ﷺ على تعليمه ما رآه أساء فيه[(٥)]، وعليه فالحديث ليس موضوعاً لحصر واجبات الصلاة، بل لحصر ما جهله الرجل، وما أهمله في صلاته[(٦)]، ويؤيد هذا عدم ذكر بعض الواجبات فيه، كالجلسة الأخيرة، والتشهد الأخير، والصلاة على النبي ﷺ فيه، والسلام في

---

(١) انظر: الصواعق المرسلة، لابن قيم الجوزية: ٤/ ١٤٧٤.
(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٦/ ٣٢٠.
(٣) هو صحابي كان ينزل المدينة ويسكن في بني سليم، ولم تتوفر عنه معلومات كثيرة، رضي الله عنه. انظر: تهذيب التهذيب، لابن حجر: ١٠/ ٢٠٥.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه: ١/ ٣٨١ ـ ٣٨٢، برقم (٥٣٧).
(٥) انظر: المغني، لابن قدامة: ٢/ ١٨١.
(٦) انظر: الإعلام بفوائد عمدة الأحكام، لابن الملقن: ٣/ ١٦٤.

آخر الصلاة[١]، فلم يرد في شيء من روايات الحديث أنه ﷺ علمه هذه الأمور المذكورة[٢]، في حين أنه علمه أموراً جزم بعدم وجوبها أكثر الفقهاء، كالاستفتاح، وتكبيرات الانتقال، ووضع اليدين على الركبتين في الركوع، والتسميع، والافتراش في الجلسة الوسطى[٣].

وبهذا يظهر ضعف ما قرره بعضهم من أن حديث المسيء صلاته هو المرجع في معرفة واجبات الصلاة[٤]، ويظهر كذلك ضعف قول من زعم أنه ﷺ ذكر ما تعلقت به الإساءة من هذا المصلي وما لم تتعلق به إساءته من واجبات الصلاة[٥]، فليس في سياق الحديث ما يبين أنه أساء في موضع دون موضع[٦]. وعلى التسليم بأن التعليم لم يقتصر على ما وقعت فيه الإساءة فحسب، لا يكون عدم ذكر التسبيح دليلاً على عدم الوجوب إلا بدعوى أن عدم الذكر في الرواية يدل على عدم الذكر في نفس الأمر، وهي دعوى مردودة لوجود روايات متعددة لحديث المسيء صلاته، وفي بعضها زيادات بأمور ليست في الأخرى، الأمر الذي يدل على تفاوت الرواة في ضبط الأمور التي ذكرها النبي ﷺ في تعليمه للرجل صفة الصلاة، فكل راو أدى ما تمكن من

---

(١) وهذه الأمور من الواجبات المختلف فيها سوى الجلسة الأخيرة، فهي واجبة بالاتفاق، وانظر: المصدر السابق: ٣/ ١٦٥.

(٢) انظر: فتح الباري، للحافظ ابن حجر: ٢/ ٢٨٠.

(٣) انظر: المصدر السابق: ٢/ ٢٧٨ ـ ٢٧٩، وصفة صلاة النبي ﷺ، للألباني: ص٩١، ١٢٩، ١٣٥، ١٥٧.

(٤) انظر: وبل الغمام على شفاء الأوام، للشوكاني، تحقيق محمد صبحي حلاق: ١/ ٢٦٨.

(٥) انظر: إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، لابن دقيق العيد: ٢/ ٣٦٥.

(٦) انظر: العدة حاشية الصنعاني على إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، لابن دقيق العيد: ٢/ ٣٦٠.

ضبطه، ولا يلزم أن يكون ما وردت به الروايات قد أحاط بجميع ما ذكره النبي ﷺ. نعم، يصلح أن يكون عدم الذكر دليلاً على عدم الوجوب فيما لم يقم دليل آخر على وجوبه؛ لأن الأصل عدم الوجوب، فيقوى بعدم ذكره في الحديث.

وأما إذا قام دليل بإيجاب أمر لم يذكر في حديث المسيء صلاته فالواجب المصير إليه[(١)]، وإسقاط وجوبه حينئذٍ لعدم ذكره في الحديث المذكور منهج خاطئ في التعامل مع نصوص الكتاب والسنة. وإذا تقرر هذا، فإن عامة الأدلة من الكتاب والسنة قد دلت على وجوب التسبيح في الصلاة، كما سبق بيانه، ولهذا صرح شيخ الإسلام ابن تيمية بأن القول بأن التسبيح ليس بواجب يخالف ظاهر الكتاب والسنة، فإن ظاهرهما مما يدل على وجوبه[(٢)].

ويتلخص مما سبق أن ما جاء في القرآن الكريم من الأمر بالتسبيح ظاهره الوجوب، وهو محمول على التسبيح في الصلاة عند الركوع والسجود؛ لأن السنة النبوية قد بينت ذلك وعينت موضعه من الصلاة، فلزم أن يكون التسبيح واجباً في الركوع والسجود، وأما التسبيح في غيرهما فحكمه الندب؛ لأن الأدلة الواردة بالتسبيح في غير الركوع والسجود ليست دالة على الوجوب، والله تعالى أعلم.

❖ المطلب الثاني ❖

حكم تسبيح الله تعالى من حيث الاعتقاد

تبين مما سبق بحثه في التعريف بالتسبيح أن حقيقة معناه في الشرع واللغة هي التنزيه والتعظيم، أي: تنزيه الله تعالى عن كل ما لا

---

(١) انظر: إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، لابن دقيق العيد: ٢/ ٣٦٢ ـ ٣٦٦.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٢/ ٥٥٠.

يليق به على جهة التعظيم[١].

فمدلول التسبيح ـ على هذا ـ اعتقادي يقوم بالقلب، ويصدقه القول والعمل، وهو: أن يعتقد العبد براءة الله تعالى عن جميع العيوب والنقائص، واختصاصه بجميع معاني العظمة والجلال، وتكون أقواله وأعماله مطابقة لهذا الاعتقاد غير مناقضة له في الظاهر والباطن.

وهذا المعنى المذكور هو المقصود الأصلي من شرع التسبيح في الإسلام؛ لأنه لا يخفى على من له علم بمقاصد الشريعة أن التسبيح وغيره من ألفاظ الذكر المشروعة، كالتهليل والتحميد والتكبير، إنما شرعت ليتعبد الناس بذكر ألفاظها واعتقاد معانيها، ولم تشرع لمجرد ألفاظها، إذ المقصود من الكلام معناه لا الألفاظ المجردة[٢]؛ ولأن هذا المعنى المذكور إذا تحقق منه العبد علم أن العقيدة في الله تعالى لا تستقيم بدونه، فهو قاعدة من قواعد العقيدة الإسلامية، وأصل من أصولها، كما سيأتي بيانه ـ إن شاء الله ـ عند الكلام على منزلة التسبيح في العقيدة، في الفصل الثالث من هذا الباب[٣].

وفي هذا تمهيد لبيان حكم التسبيح من حيث الاعتقاد؛ لأنه إذا ثبت أن المقصود الأصلي من التسبيح هو معناه لا لفظه فحسب، وأن معناه يعد من أصول العقيدة الإسلامية التي لا تستقيم عقيدة العبد إلا باعتقادها وعدم مناقضتها، تبين عظم شأن التسبيح من حيث الاعتقاد، وأنه من أوجب ما على العبد أن يعلمه ويعتقده ويعمل بمقتضاه.

ويتقرر وجوب تسبيح الله تعالى من حيث الاعتقاد بأدلة، منها:

---

(١) انظر: ص٦٨ ـ ٨٦ من هذا البحث.

(٢) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم: ١/ ٣٣٩ ـ ٣٤٠.

(٣) انظر: ص٤٩٢.

١ ـ ما جاء في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ من الأمر بالتسبيح. وقد تقدم أن هذا الأمر ظاهره الوجوب، وأنه يتناول تسبيح الله تعالى من حيث القول، وتسبيحه من حيث الاعتقاد[١]. وإذا كان العلماء قد اختلفوا في وجوب التسبيح من حيث القول بناءاً على اختلاف اجتهادهم في الجمع بين الأدلة الواردة في ذلك من الكتاب والسنة، فلا مجال لمثل هذا الاختلاف في وجوب التسبيح من حيث الاعتقاد؛ لأنه من مهمات المسائل الاعتقادية التي لا تختلف فيها ظواهر الأدلة من الكتاب والسنة، ولا ينازع في وجوبها عالم بمنزلة التوحيد في الدين، وحكمة التشريع في الإسلام.

٢ ـ ما جاء في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ من إثبات الأسماء الحسنى والصفات العليا لله ﷻ، فإن على العبد حيال ذلك وظيفتين مهمتين:

الأولى: إثبات الأسماء والصفات على ظاهرها كما وردت في الكتاب والسنة، بلا تعطيل لها ولا تحريف فيها بالتأويلات الباطلة.

الثانية: تنزيه الله تعالى عن كل ما يناقض أسماءه الحسنى وصفاته العليا ويضادها من النقائص والعيوب والأنداد والأمثال.

ومن هنا فآيات الأسماء والصفات وأحاديثها دليل على وجوب تنزيه الله تعالى عما لا يليق به، كما هي دليل على وجوب إثباتها كما يليق بجلاله وعظمته[٢].

٣ ـ ما جاء في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ من النفي في حق الله تعالى، كما سبق بيانه في مبحث الألفاظ الدالة على معنى

---

(١) انظر: ص٣٩١.

(٢) انظر: ما يأتي بيانه في ٢/ ١٣٣ من البحث.

التسبيح شرعاً[(١)].

فإن هذا النفي الوارد في حق الله تعالى في الكتاب أو السنة دليل على وجوب تنزيه الله سبحانه عما نفي عنه، لكون ذلك المنفي مما لا يليق به جل وعلا.

٤ ـ ما جاء في كتاب الله تعالى من ذم من خالف التنزيه بنسبة ما لا يليق بالله إليه سبحانه، كذمه تعالى من نسب إليه الفقر، في قوله ﷻ: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾ [آل عمران: ١٨١].

وكذمه تعالى من نسب إليه البخل، في قوله سبحانه: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ﴾ [المائدة: ٦٤].

وذمه تعالى من نسب إليه الشريك في الألوهية، في قوله جل وعلا: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [المائدة: ٧٣].

وذمه تعالى من نسب إليه الولد، في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [التوبة: ٣٠].

ولما نسبت اليهود الإعياء إلى الله تعالى بزعمهم أنه فرغ من الخلق يوم الجمعة واستراح يوم السبت، أكذبهم الله ﷻ[(٢)] في قوله

---

(١) ص١٣٣ ـ ١٤٤.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ١١/ ٤٣٤ ـ ٤٣٥.

تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [ق: ٣٨].

فهذه الآيات ونظيراتها من الآيات التي ذم الله تعالى فيها من خالف مقتضى تنزيهه فنسب إليه ما يتعالى عنه من النقائص المتصلة أو المنفصلة(١)، دليل على وجوب تنزيه الله تعالى، وعلى تحريم كل ما يخالف مقتضى التنزيه والتعظيم من الأقوال والأعمال والاعتقادات.

وتبين بهذه الأدلة المذكورة ونحوها أن تسبيح الله تعالى من حيث الاعتقاد ـ وهو تنزيهه سبحانه عما لا يليق به على جهة التعظيم ـ واجب مقرر وجوبه بأنواع من الأدلة في الكتاب والسنة، وأن عدم تسبيح الله تعالى من حيث الاعتقاد معصية عظمى؛ لأنه يناقض سلامة العقيدة في الله ﷻ وصحتها.

ويناسب هنا بيان ما بين التسبيح من حيث الاعتقاد والتسبيح من حيث القول من الفروق، وذلك في أمور:

• **أحدها**: أن التسبيح من حيث الاعتقاد مسألة عقدية يقوم مسماه بالقلب، ولا بد أن يوافقه القول والعمل.

والتسبيح من حيث القول مسألة عملية يحصل مسماه بقول: (سبحان الله) ونحوه باللسان، ولا بد أن يواطئ القلب فيه اللسان.

• **الثاني**: أن التسبيح من حيث الاعتقاد واجب متفق عليه، فلا يعلم أحد من المسلمين يقول بعدم وجوب تنزيه الله تعالى وتعظيمه(٢)، إلا أن ثمة اختلافاً في مفهوم هذا التنزيه ومنهج تطبيقه قولاً وعملاً بين

---

(١) انظر: ما سبق بيانه في أقسام النقائص: ص١٥١ ـ ١٥٤.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٢/ ١٨٩، ولوامع الأنوار البهية، للسفاريني: ١/ ١٠٤ ـ ١٠٥.

أهل السنة والجماعة وغيرهم من الفرق المنتسبة إلى الإسلام، كما سيأتي الكلام فيه ـ إن شاء الله تعالى ـ عند بيان المفاهيم الخاطئة في التسبيح والرد عليها في الباب الخامس من هذا البحث.

أما التسبيح من حيث القول فمختلف في وجوبه في الصلاة خاصة، وهو مندوب بالاتفاق في المواضع الأخرى التي يشرع فيها، كما سيأتي ذكرها ـ إن شاء الله تعالى ـ في الباب الثالث من هذا البحث.

• **الثالث**: أن من لم يسبح الله تعالى من حيث الاعتقاد فهو كافر أو على خطر كبير في دينه، لما يلزم من عدم تسبيح الله من حيث الاعتقاد من مخالفة مقتضى تنزيه الله تعالى وتعظيمه، وفساد العقيدة في الله ﷻ.

وأما من لم يسبح الله تعالى من حيث القول، فليس بكافر، وإن كان عاصياً بتركه التسبيح باللفظ في الصلاة، عند من يقول بوجوبه ـ وهو الراجح ـ كما سبق.

وخلاصة القول في حكم تسبيح الله تعالى: أن التسبيح عبادة قولية اعتقادية ورد الأمر بها في الكتاب والسنة، وعلى العبد تحقيقها لفظاً ومعنى، فيكون عند نطقه بلفظ التسبيح في الصلاة أو خارجها مستحضراً معناه بقلبه معتقداً له، ويكون بذلك قد أتى بالتسبيح على التمام والكمال إن شاء الله تعالى.

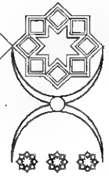
وأما الاعتناء بتحقيق التسبيح من حيث القول مع الإخلال به من حيث الاعتقاد فليس بنافع صاحبه؛ لأن صلاح الأقوال والأعمال بصلاح اعتقاد القلب مع سلامة منهج العبادة. وقد ذكر أهل العلم أن ذكر الله تعالى ـ ومنه تسبيحه ـ على ثلاث درجات: «ذكر يتواطأ عليه القلب واللسان، وهو أعلاها. وذكر بالقلب وحده، وهو في الدرجة

الثانية. وذكر باللسان المجرد، وهو في الدرجة الثالثة»[١].

فليبادر من يريد لنفسه الفلاح والسعادة إلى تسبيح الله ﷻ بالقول والاعتقاد وفق ما كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته ـ رضوان الله عليهم ـ والتابعون لهم بإحسان، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

---

(١) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم: ٢/ ٤٠٣.



المبحث الثاني



حكم تسبيح غير الله تعالى

قد تبين في المبحث الماضي حكم تسبيح الله تعالى من حيث القول ومن حيث الاعتقاد، ويحتاج مع ذلك إلى بيان ما إذا كان التسبيح بمدلوليه القولي والاعتقادي مما يختص بالله تعالى فلا يجوز تسبيح غيره من المخلوقين، لا من حيث القول ولا من حيث الاعتقاد، وما إذا كان التسبيح مما لا يختص به تعالى فيجوز أن يسبح غيره من المخلوقين قولاً أو اعتقاداً.

وهذه المسألة ذات أهمية في هذا الباب، ليكون المرء على بينة في أمر التسبيح، وليتخلص ـ بإذن الله ـ من الزلل الكبير الذي وقعت فيه بعض الطوائف في هذا الأمر.

وسيكون بيان حكم تسبيح غير الله تعالى بالكلام عليه من حيث القول ومن حيث الاعتقاد، على غرار ما سبق في حكم تسبيح الله تعالى، وذلك في المطلبين التاليين:

❖ المطلب الأول ❖

حكم تسبيح غير الله من حيث القول

المقصود هنا استعمال لفظ التسبيح بمشتقاته مقروناً باسم غير الله تعالى أو ضميره العائد إليه أو المفسر به، كإضافة لفظ (سبحان) إلى اسم مخلوق، نحو: «سبحان فلان»، أو ضميره، نحو: «فلان سبحانه».

وكتعدية فعل (سبح) ماضياً، أو مضارعاً، أو أمراً، إلى اسم المخلوق أو ضميره، نحو: سبح فلان فلاناً، وسبح فلان لفلان، وسبحه، وسبح له.

ونحو: يسبح فلان فلاناً، ويسبح لفلان، ويسبحه، ويسبح له.

ونحو: سبح فلاناً، وسبح لفلان، وسبح باسم فلان، وسبحه، وسبح له.

فهذه أمثلة للصور اللفظية الممكنة في تسبيح غير الله تعالى كما يؤخذ من الصور اللفظية الواردة في تسبيح الله ﷻ.

وقد اتفقت أقوال أهل العلم على أن تسبيح غير الله تعالى من حيث القول لا يجوز شرعاً ولا لغة.

أما لغة فلما ذكره بعض أهل اللغة من أن العرب لا تستعمل لفظ (سبحان) مضافاً إلا إلى الله، أو إلى ضميره، أو إلى الرب، ولم يسمع إضافته إلى غيره(١).

ولا يعارض هذا القول ما جاء في قول الشاعر:

«أقول لما جاءني فخره   سبحان من علقمة الفاخر»(٢)

وإن زعم بعضهم أن (سبحان) في هذا البيت مضاف إلى (علقمة)، وأن تقديره: (سبحان علقمة)، فزاد الشاعر فيه (من) رداً إلى أصله، وأنه أضاف (سبحان) إلى (علقمة) على سبيل التهكم(٣)(٤).

---

(١) انظر: المقتضب، للمبرد: ٣/٢١٧، وخزانة الأدب، للبغدادي: ٣/٣٩٨، و٧/٢٤٥.

(٢) سبق تخريجه في ص٥٤ من هذا البحث.

(٣) التهكم: الاستهزاء، انظر: القاموس المحيط: مادة (هكم): ص١٥١١.

(٤) انظر: مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني: ص٣٩٣،

وهذا الزعم مردود لأمرين:

أحدهما: ما سبق ذكره من أن العرب لا تستعمله مضافاً إلى غير الله تعالى.

الثاني: أن حرف (من) لا يزاد في كلام موجب، على قول جمهور أهل العربية[١].

وإذا علم هذا فقد تقدم أن قوله: (سبحان من علقمة) في البيت المذكور، أصله: (سبحان الله من علقمة)، فـ (سبحان) مضاف إلى لفظ الجلالة، ولكن الشاعر حذفه ضرورة للعلم به، ولهذا أبقى لفظ (سبحان) على فتحه غير منون؛ لأنه مضاف حكماً[٢] وهذا البيت قاله الشاعر على سبيل التعجب، وحرف (من) داخل على المتعجب منه، وهو (علقمة)، فالتقدير: (سبحان الله من أجل علقمة الفاخر)، يعجب من فخره[٣].

وذكر بعض المفسرين أن التسبيح من الأسماء التي لا تضاف لغير الله تعالى، وكذلك أسماء المصدر منه، نحو: سبحان الله[٤]، وهذا يؤيد ما سبق ذكره عن بعض أهل اللغة.

وأما شرعاً، فلما جاء في الأثر عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سئل عن (سبحان الله) فقال: «كلمة رضيها الله عز وجل لنفسه»[٥].

---

(١) انظر: مغني اللبيب، لابن هشام: ص٤٢٥ ـ ٤٢٩، وخزانة الأدب، للبغدادي: ٣/٣٩٧ ـ ٣٩٨، و٧/٢٤٥.

(٢) انظر: ما سبق ذكره في استعمالات (سبحان) في كلام العرب: ص٥٩ من البحث.

(٣) انظر: مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني: ص٣٩٣، والدر المصون، للسمين الحلبي: ١/٢٥٩، وخزانة الأدب، للبغدادي: ٣/٣٩٨.

(٤) تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور: ٣٠/٢٧٣.

(٥) رواه الطبراني في كتاب الدعاء: ٣/١٥٩٣، برقم (١٧٥٨)، وإسناده حسن.

ويروى مثل هذا القول عن علي رضي الله عنه، ولكن بإسناد فيه ضعف(١).

ويدل هذا الأثر على أن لفظ التسبيح مختص بالله تعالى؛ لأنه تعالى قد رضيه لنفسه دون غيره.

وجاء في أثر آخر عن الحسن البصري رحمه الله قال: «سبحان الله: اسم لا يستطيع الناس أن ينتحلوه(٢)»(٣).

وفي رواية قال: «اسم ممنوع لم يستطع أحد من الخلق أن ينتحله»(٤).

وهذا الأثر يؤكد اختصاص الله تعالى بلفظ التسبيح، وأن الخلق ممنوعون من انتحاله، لكونه مختصاً بالخالق عز وجل. وجاء عن كثير من أهل العلم أقوال بمضمون هذه الآثار، والتصريح بعدم جواز تسبيح غير الله تعالى:

• قال الماوردي: «ولا يجوز أن يسبح غير الله، وإن كان منزهاً؛ لأنه صار علماً في الدين على أعلى مراتب التعظيم التي لا يستحقها إلا الله تعالى»(٥).

• وقال أبو المظفر السمعاني: «وكلمة (سبحان) كلمة ممتنعة، لا يجوز أن يوصف بها غير الله؛ لأن المبالغة في التعظيم لا تليق لغير الله»(٦).

---

(١) رواه الطبراني في الدعاء: ٣/ ١٥٩٣ برقم (١٧٦٠، ١٧٦١).

(٢) أن ينتحلوه، أي: أن يدعوه، يقال: انتحله وتنحله: إذا دعاه لنفسه وهو لغيره، انظر: القاموس المحيط: مادة (نحل): ص١٣٧١.

(٣) رواه ابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم، بتحقيق الدكتور أحمد الزهراني: ١/ ١١٧.

(٤) رواه الطبراني في كتاب الدعاء: ٣/ ١٥٩٤، برقم (١٧٦٥).

(٥) النكت والعيون: ١/ ٩٧.

(٦) تفسير القرآن: ٣/ ٢١٢.

• وقال تاج القراء الكرماني[(١)]: «سبحان: كلمة اتخذها الله لنفسه»[(٢)].

• وقال القرطبي - في كلام له على لفظ (سبحان) -: «فهو ذكر عظيم لله تعالى لا يصلح لغيره»[(٣)].

• وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأصناف العبادات الصلاة بأجزائها مجتمعة، وكذلك أجزاؤها التي هي عبادة بنفسها، من السجود، والركوع، والتسبيح، والدعاء، والقراءة، والقيام، لا يصلح إلا لله وحده»[(٤)].

• وقال السمين الحلبي[(٥)] - في كلام له على لفظ (سبحان) -: «وهو مختص بالباري تعالى»[(٦)].

• وقال الحافظ ابن ناصر الدين[(٧)] - في شرح (سبحان الله

---

(١) هو محمود بن حمزة بن نصر الكرماني، أبو القاسم، برهان الدين، المعروف بتاج القراء، كان مقرئاً مفسراً، وفقيهاً شافعياً، وله مصنفات، وتوفي سنة (٥٠٠هـ)، رحمه الله. انظر: معجم المؤلفين، لكحالة: ٣/ ٨٠٤.

(٢) غرائب التفسير وعجائب التأويل: ١/ ٦١٩.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ١٠/ ٢٠٤.

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١/ ٧٤.

(٥) هو أحمد بن يوسف بن عبد الدائم الحلبي، شهاب الدين، المعروف بالسمين، كان مقرئاً مفسراً فقيهاً نحوياً أديباً، وله عدة مصنفات مفيدة، وتوفي سنة (٧٥٦هـ)، رحمه الله تعالى: انظر: الدرر الكامنة، لابن حجر العسقلاني: ١/ ٣٣٩ - ٣٤٠، وشذرات الذهب، لابن العماد: ٦/ ١٧٩.

(٦) الدر المصون: ١/ ٢٥٩.

(٧) هو محمد بن أبي بكر عبد الله بن محمد بن أحمد القيسي، أبو عبد الله، شمس الدين، الدمشقي، المعروف بابن ناصر الدين، كان علامة حافظاً، ذا سيرة حميدة ونصرة للسنة، وله مؤلفات عديدة في الحديث والتاريخ، وتوفي سنة (٨٤٢هـ)، رحمه الله تعالى. انظر: شذرات الذهب، لابن العماد: =

وبحمده، سبحان الله العظيم) الوارد في الحديث[١] ـ: «ولما كان التسبيح والتقديس خالصاً لله ﷻ، لا يستحق ذلك سواه، أضيف في هاتين الكلمتين إلى أخص الأسماء، وهو الله»[٢] اهـ.

وهذه أمثلة لأقوال أهل العلم في حكم تسبيح غير الله من حيث اللفظ، وقد تبين بها وبما قبلها أن أهل اللغة وأهل العلم بالشرع متفقون على أن لفظ التسبيح مختص بالله تعالى كيفما تصرف، وأن الله ﷻ وحده المستحق للتسبيح من حيث اللفظ، فلا يجوز تسبيح غير الله تعالى أيا كان.

ويؤيد هذا الحكم ويقرره قوله تعالى: ﴿لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩﴾ [الفتح: ٩].

فإن المفسرين من السلف والخلف مجمعون على أن الضمير في قوله: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ راجع إلى الله تعالى، على الرغم من اختلافهم في مرجع الضميرين اللذين قبله في قوله: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾: فأكثرهم على أنهما يرجعان إلى الرسول ﷺ، وبعضهم على أن الضمائر الثلاثة كلها راجعة إلى الله تعالى[٣].

وفي هذا دليل على اختصاص لفظ التسبيح بالله تعالى دون غيره، وإلا لجاز إرجاع الضمير في قوله: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ إلى الرسول ﷺ، كما

= ٧/ ٢٤٣ ـ ٢٤٥، والبدر الطالع، للشوكاني: ٢/ ١٩٨ ـ ١٩٩.

(١) هو حديث: «**كلمتان خفيفتان على اللسان... إلخ**». سبق تخريجه في ص(٢٣٦).

(٢) التنقيح في حديث التسبيح: ص١٢١.

(٣) انظر: النكت والعيون، للماوردي: ٥/ ٣١٣، وتفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني: ٥/ ١٩٣ ـ ١٩٤، والمحرر الوجيز، لابن عطية: ١٥/ ٩٤، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٦/ ٢٦٦ ـ ٢٦٧.

أرجع الأكثر الضميرين إليه في قوله: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾، وستأتي زيادة إيضاح لهذه الآية في المباحث اللاحقة إن شاء الله تعالى.

ويعلم بما سبق أن التسبيح عبادة قولية وشعيرة لفظية يجب إفراد الله تعالى بها، وعدم إشراك غيره فيها، كسائر العبادات المشروعة في الإسلام(١).

❖ المطلب الثاني ❖

حكم تسبيح غير الله من حيث الاعتقاد

لقد ظهر من تعليلات أهل العلم لعدم جواز استعمال لفظ التسبيح في حق غير الله تعالى أن هذا الحكم مرتبط بالمعنى الذي وضع له لفظ التسبيح، فإنه لما دل على التعظيم البليغ، والتنزيه الكامل عن جميع النقائص والعيوب والأمثال لم يجز استعماله في حق غير الله تعالى.

وهذا يعني أن المعنى المذكور لا يستحقه غير الله تعالى، فلذلك لم يستحق اللفظ الدال عليه.

ولا شك أن التسبيح من حيث المعنى إذا تصوره العبد المؤمن المنور العقل بنور الكتاب والسنة، علم أنه لا يمكن أن يتحقق في غير الله تعالى؛ لأن غيره لا يكون إلا مخلوقاً، والمخلوق ـ أيا كان ـ متصف بالنقص، مكافأ بالأمثال والأنداد، وإن كان ذلك النقص، وتلك المكافأة على تفاوت بحسب الأجناس والأنواع والأعيان، ويكفي أن المخلوق مفتقر في وجوده إلى خالقه وإلهه الحق ﷻ، وأنه لا استقلال له بشيء أصلاً إلا أن يشاء الله ﷻ ذلك ويقدره.

ولهذا لما اقترح كفار مكة على الرسول ﷺ ما اقترحوه من

---

(١) انظر: شرح القصيدة النونية، لهراس: ٢/٢٠٣.

الآيات التي يعجز عن مثلها البشر ـ كما ذكر الله تعالى ذلك في قوله: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾ الآيات [الإسراء: ٩٠ ـ ٩٣] ـ أمره الله جل وعلا أن يجيبهم بقوله تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣]، فبدأ بتسبيح الله تعالى لإفادة أنه منزه من كل نقص، ومنه أنه لا يعجز عن فعل ما اقترحوه من الآيات، ولكنه تعالى لا ينزل الآيات على ما يقترحه الناس(١). ثم عقب التسبيح بالإقرار بأنه بشر ـ ومن شأن البشر العجز عن فعل مقترحاتهم ـ، غير أنه رسول يبلغ ما أرسل به من عند الله تعالى(٢).

وفي هذا دليل على عجز البشر، وأنه ليس بأيديهم شيء من الأمر. ونظير هذا ما أخبر به الرسول ﷺ عن نفسه، عندما سها في الصلاة، فقال: «**إنما أنا بشر مثلكم، أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني**»(٣).

قال الحافظ ابن حجر: «وفيه دليل على جواز وقوع السهو من الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ في الأفعال»(٤).

ومما يحسن ذكره هنا أيضاً ما سبق بيانه عند الكلام على قرن التسبيح بالاستغفار ـ في نحو قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾ [النصر: ٣] ـ من أن لذلك مناسبة تامة، وهي تضمنه الإقرار بكمال الرب ﷻ، وتنزهه عن النقائص والعيوب،

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٨/١٤٩، وتفسير البغوي: ٥/١٣٠. وانظر: ما سبق في ص١٨١.

(٢) انظر: المصدرين السابقين، والموضع السابق.

(٣) جزء من حديث أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ١/٥٠٣، برقم (٤٠١)، ومسلم في صحيحه: ١/٤٠٠، برقم (٥٧٢).

(٤) فتح الباري: ١/٥٠٤.

والإقرار بنقص العبد، وتقصيره في حق ربه، وافتقاره إلى ربه وإلى غفرانه[(١)].

ويؤكد هذا النقص والتقصير والافتقار إلى الله تعالى وإلى غفرانه في العبد، ما حكى الله سبحانه عن أبوي البشر، في قوله ﷻ: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٣]، وهذا تعبير منهما عن حالهما وحال بنيهما.

وإذا كان هذا حال سيد ولد آدم، وأكملهم في الصفات الحميدة، محمد ﷺ، وحال أبويهم آدم وحواء، فكيف بمن دون هؤلاء في الكمال البشري؟

فالكمال المطلق المبرأ عن جميع النقائص والعيوب، وعن المماثلة، هو لله تعالى وحده لا شريك له، على حد قوله ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وهنا يظهر السر في إجماع المفسرين ـ من السلف والخلف ـ على رجوع الضمير في ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ إلى الله تعالى دون الرسول ﷺ، في قوله تعالى: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾ [الفتح: ٩].

قال ابن جرير الطبري: «والهاء في قوله: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ من ذكر الله وحده دون الرسول»[(٢)].

وقال أبو جعفر النحاس[(٣)]: «يجوز أن يكون ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ لله

---

(١) انظر: ص٢٤٣ من هذا البحث.

(٢) تفسير الطبري: ١١/٣٣٨.

(٣) هو أحمد بن محمد بن إسماعيل المرادي، أبو جعفر، المصري النحوي، المعروف بالنحاس، كان لغوياً مفسراً أديباً، وله مصنفات كثيرة في التفسير وغيره، وتوفي سنة (٣٣٨هـ) رحمه الله تعالى. انظر: البداية والنهاية، لابن كثير: ١١/٢٣٦، وشذرات الذهب، لابن العماد: ٢/٣٤٦.

جل وعز وحده، ويجوز أن يكون للنبي ﷺ. فأما قوله تعالى: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾، فلا يجوز أن يكون إلا لله جل وعز؛ لأنه ليس يخلو من أن يكون معناه ـ كما قال جويبر[1] ـ: وتصلوا له، أو يكون معناه: وتعظموه وتنزهوه»[2].

فهذه الآية دليل صريح على أن التعظيم المطلق والتنزيه المطلق الذي هو معنى التسبيح خاص بالله تعالى، لا يجوز أن يشاركه فيه غيره، لا الرسول ﷺ ولا أحد سواه.

وذكر كثير من أهل العلم أن الآية اشتملت على ثلاثة أنواع من الحقوق، هي: الحق المشترك بين الله تعالى وبين رسوله ﷺ، والحق المختص بالرسول ﷺ، والحق المختص بالله وحده.

فالإيمان بالله ورسوله حق مشترك، والتعزير والتوقير حق الرسول ﷺ، والتسبيح حق الله تعالى[3].

وفي بيان هذه الحقوق الثلاثة يقول الإمام ابن قيم الجوزية:

لله حق لا يكون لغيره ... ولعبده حق هما حقان

---

(١) هو جويبر ـ تصغير جابر ـ ابن سعيد الأزدي، أبو القاسم، البلخي، يقال: اسمه جابر، وجويبر لقب، وعداده في الكوفيين، توفي بعد سنة (١٤٠هـ)، رحمه الله تعالى. وعن يحيى القطان قال: «تساهلوا في أخذ التفسير عن قوم لا يوثقونهم في الحديث» ـ وذكر منهم: جويبر ـ قال: «هؤلاء لا يحمل حديثهم، ويكتب التفسير عنهم». انظر: تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني: ٢/ ١٢٣ ـ ١٢٤.

(٢) معاني القرآن: ٦/ ٥٠٠.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٣/ ٢٧٢، واقتضاء الصراط المستقيم، له: ٢/ ٨٢٩، وطريق الهجرتين، لابن القيم: ص٤٨٢، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي: ص٧٩٢، وشرح القصيدة النونية، لهراس: ٢/ ٢٠٤.

لا تجعلوا الحقين حقا واحدا … من غير تمييز ولا فرقان
فالحج للرحمن دون رسوله … وكذا الصلاة وذبح ذي القربان
وكذا السجود ونذرنا ويميننا … وكذا متاب العبد من عصيان
وكذا التوكل والإنابة والتقى … وكذا الرجاء وخشية الرحمن
وكذا العبادة واستعانتنا به … إياك نعبد ذان توحيدان
وعليهما قام الوجود بأسره … دنيا وأخرى حبذا الركنان
وكذلك التسبيح والتكبير والتـ … ـهليل حق إلهنا الديان
لكنما التعزير والتوقير حق … للرسول بمقتضى القرآن
والحب والإيمان والتصديق لا … يختص بل حقان مشتركان
هذي تفاصيل الحقوق ثلاثة … لا تجهلوها يا أولي العدوان»[(١)]

وإذا ثبت أن التسبيح ـ من حيث القول ومن حيث الاعتقاد ـ حق الله تعالى، فإن تسبيح غيره ـ سواء أكان بالقول أم بالاعتقاد ـ شرك بالله سبحانه، وهو ظلم عظيم.

وعلم العبد بهذا الحكم وأن الله هو المسبح وحده قولاً واعتقاداً، يعرفه بالانحراف الجسيم الذي وقع فيه بعض الطوائف في حق ربهم، حيث عدلوا به بعض خلقه، فسبحوهم ونزهوهم وعظموهم واعتقدوا فيهم الكمال الذي لا يليق إلا بالله ﷻ، ومن ثم صرفوا لهم أنواعاً من العبادة التي هي محض حق الله تعالى الذي لا يصلح ولا ينبغي لسواه من ملك مقرب، أو نبي مرسل، أو عبد صالح.

وسبحان الله وتعالى عن أن يكون له من خلقه عديل، وعن أن يستحق التسبيح أحد سواه.

(١) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية «القصيدة النونية»: ص٢٨٨ ـ ٢٨٩.

الفصل الثاني

فضل التسبيح

وفيه ثلاثة مباحث:

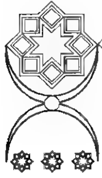
المبحث الأول: الفضل المختص بالتسبيح.

المبحث الثاني: الفضل المشترك للتسبيح.

المبحث الثالث: المفاضلة بين التسبيح وبين التحميد والتهليل والتكبير



المبحث الأول



الفضل المختص بالتسبيح

تبين من الفصل السابق أن التسبيح حق من حقوق الله تعالى التي يجب إفراده بها، وأنه عبادة عظيمة شرعها الله تعالى في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، وأمر بها عباده أمر إيجاب تارة، وأمر ندب تارة أخرى.

وقد خص الله تعالى التسبيح بأنواع من الفضل، ووعد عليه أصنافاً من الأجر، ورد في بيانها نصوص كثيرة من الكتاب والسنة. ولا يمكن حصر هذه النصوص ولا استقصاؤها في هذا المبحث، لكثرتها وتعدد مظانها في دواوين السنة المختلفة، لكن هذا المبحث يتضمن جملة طيبة منها، بدءاً بما ورد في كتاب الله تعالى، ثم بما ورد في سنة رسول الله ﷺ، وانتهاء بأفضل صيغ التسبيح الواردة، وذلك في مطالب ثلاثة:

المطلب الأول: ما ورد في كتاب الله تعالى من الفضل المختص بالتسبيح.

المطلب الثاني: ما ورد في سنة رسول الله ﷺ من الفضل المختص بالتسبيح.

المطلب الثالث: أفضل صيغ التسبيح.

وبيانها فيما يلي:

❖ المطلب الأول ❖

ما ورد في كتاب الله تعالى من الفضل المختص بالتسبيح

دل كتاب الله تعالى على فضل التسبيح من أوجه متنوعة في مواضع متعددة، ويمكن إبراز ذلك في الأمور الآتية:

أولاً: كثرة ذكر التسبيح في كتاب الله تعالى مستوعباً من جميع جهات تصريفه(١).

فقد ذكر التسبيح بصيغة الماضي أربع مرات، في أربع آيات، من أربع سور(٢).

وذكر بصيغة المضارع عشرين مرة، في تسع عشرة آية، من سبع عشرة سورة(٣).

وذكر بصيغة الأمر ثماني عشرة مرة، في سبع عشرة آية، من أربع عشرة سورة(٤).

---

(١) انظر: غرائب التفسير، لتاج القراء الكرماني: ١/٦١٩، وفتح الباري، لابن حجر العسقلاني: ١٣/٥٤١.

(٢) هي: سورة السجدة، الآية: ١٥، وسورة الحديد، والحشر، والصف الآية: ١ من كل منها.

(٣) هي: سورة البقرة، الآية: (٣٠)، وسورة الأعراف، الآية: ٢٠٦، وسورة الرعد، الآية: ١٣، وسورة الإسراء، الآية: ٤٤، وسورة طه، الآية: ٣٣، وسورة الأنبياء، الآيتان: ٢٠، ٧٩، وسورة النور، الآيتان: ٣٦ و٤١، وسورة ص، الآية: ١٨، وسورة الزمر، الآية: ٧٥، وسورة غافر، الآية: ٧، وسورة فصلت، الآية: ٣٨، وسورة الشورى، الآية: ٥، وسورة الفتح، الآية: ٩، وسورة الحشر، الآية: ٢٤، وسورة الجمعة، والتغابن، الآية: ١ منهما، وسورة القلم، الآية: ٢٨.

(٤) هي: سورة آل عمران، الآية: ٤١، وسورة الحجر، الآية: ٩٨، وسورة مريم، الآية: ١١، وسورة طه، الآية: ١٣٠، وسورة الفرقان، الآية: ٥٨، =

وذكر بصيغة الوصف (اسم الفاعل) مرتين، في سورة واحدة[(١)].

وذكر بصيغة المصدر «تسبيح» مرتين، في سورتين[(٢)].

وذكر بصيغة الاسم «سبحان» إحدى وأربعين مرة، في إحدى وأربعين آية، من سبع وعشرين سورة[(٣)].

والحاصل من هذا كله: أن التسبيح ـ بتصاريفه المختلفة ـ مذكور في كتاب الله تعالى سبعاً وثمانين مرة، في ثلاث وثمانين آية، من سبع وأربعين سورة[(٤)].

= وسورة الأحزاب، الآية: ٤٢، وسورة غافر، الآية: ٥٥، وسورة ق، الآيتان: ٣٩ ـ ٤٠، وسورة الطور، الآيتان: ٤٨ ـ ٤٩، وسورة الواقعة، الآيتان: ٧٤، ٩٦، وسورة الحاقة، الآية: ٥٢، وسورة الإنسان، الآية: ٢٦، وسورة الأعلى، الآية: ١، وسورة النصر، الآية: ٣.

(١) هي: سورة الصافات، الآيتان: ١٤٣، ١٦٦.

(٢) هما: سورة الإسراء، الآية: ٤٤، وسورة النور، الآية: ٤١.

(٣) هي: سورة البقرة، الآيتان: ٣٢، ١١٦، وسورة آل عمران، الآية: ١٩١، وسورة النساء، الآية: ١٧١، وسورة المائدة، الآية: ١١٦، وسورة الأنعام، الآية: ١٠٠، وسورة الأعراف، الآية: ١٤٣، وسورة التوبة، الآية: ٣١، وسورة يونس، الآيات: ١٠، ١٨، ٦٨، وسورة يوسف، الآية: ١٠٨، وسورة النحل، الآيتان: ١، ٥٧، وسورة الإسراء، الآيات: ١، ٤٣، ٩٣، ١٠٨، وسورة مريم، الآية: ٣٥، وسورة الأنبياء، الآيات: ٢٢، ٢٦، ٨٧، وسورة المؤمنون، الآية: ٩١، وسورة النور، الآية: ١٦، وسورة الفرقان، الآية: ١٨، وسورة النمل، الآية: ٨، وسورة القصص، الآية: ٦٨، وسورة الروم، الآيتان ١٧، ٤٠، وسورة سبأ، الآية: ٤١، وسورة يس، الآيتان: ٣٦، ٨٣، وسورة الصافات، الآيتان: ١٥٩، ١٨٠، وسورة الزمر، الآيتان: ٤، ٦٧، وسورة الزخرف، الآيتان: ١٣، ٨٢، وسورة الطور، الآية: ٤٣، وسورة الحشر، الآية: ٢٣، وسورة القلم، الآية: ٢٩.

(٤) اعتمدت في هذا الإحصاء على: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، وضع: محمد فؤاد عبد الباقي.

ومن بين هذه السور سبع سور افتتحت بالتسبيح(١)، وتسمى بالمسبحات.

فورود التسبيح بهذا الكم والكيف في كتاب الله تعالى دليل على فضله وجلالة قدره عند الله ﷻ.

ثانياً: تخصيص التسبيح بالأمر به بعد الأمر بالذكر عموماً مع اندراجه في هذا العموم.

وقد وقع هذا التخصيص في موضعين من كتاب الله تعالى:

١ - في قوله تعالى - لنبيه زكريا عليه السلام -: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [آل عمران: ٤١].

٢ - وفي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الأحزاب: ٤١ - ٤٢].

كما وقع تخصيص التسبيح قبل عموم الذكر في قول الله تعالى - حكاية عن نبيه موسى وهارون عليهما السلام -: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [طه: ٣٣، ٣٤]. فتخصيص التسبيح بالنص عليه في هذه الآيات مع اندراجه في عموم الذكر، لا شك أن ذلك دليل على مزيد شرفه وإنافة ثوابه، وأنه عمدة في ذكر الله تعالى(٢).

ثالثاً: إطلاق التسبيح على الذكر عموماً، وعلى الصلاة، وعلى سائر العبادات القولية والعملية.

فقد تقدم في مبحث معاني التسبيح في الشرع أن له مفهوماً واسعاً، حيث ورد في الشرع إطلاقه على الذكر عموماً، وعلى الصلاة،

---

(١) هي: سورة الإسراء، والحديد، والحشر، والصف، والجمعة، والتغابن، والأعلى.

(٢) انظر: تفسير أبي السعود: ١٠٦/٧، وفتح البيان، لصديق حسن القنوجي: ١٠٣/١١.

وعلى العبادة، وغير ذلك من المعاني، وتقدم هناك ذكر الشواهد من كتاب الله عز وجل[١].

ويظهر أن إطلاق التسبيح على هذه المعاني المتعددة هو مما انفرد به من بين ألفاظ الذكر المعروفة، ففي ذلك فضيلة للتسبيح، حيث دخل في معناه جميع أنواع العبادة.

رابعاً: ورود التسبيح معللاً به إرسال النبي محمد ﷺ. وذلك في قول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩﴾ [الفتح: ٨، ٩]. فإن اللام في قوله: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟﴾ حرف تعليل متعلق بقوله: ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾، ويفيد أن ما هو مذكور بعد اللام مرتب على إرساله ﷺ، أي: أرسلناك لتقوموا بالإيمان بالله ورسوله[٢]، وقوله: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ معطوف على قوله: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟﴾ فدل ذلك على أن تسبيح الله تعالى من الأمور الهامة التي أرسل رسول الله ﷺ من أجل القيام بها، وفي هذا دليل واضح على فضل التسبيح.

خامساً: أمر الله تعالى لنبيه محمد ﷺ بالإعلان عن التسبيح. وذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٠٨﴾ [يوسف: ١٠٨].

والشاهد هنا في قوله: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾، فإنه ـ كما سبق[٣] ـ إما معطوف على قوله: ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾. وإما معطوف على قوله: ﴿أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ﴾، وأيا كان ذلك ففيه إعلاء لشأن التسبيح وبيان لمكانته العظيمة في دين الرسول ﷺ.

---

(١) انظر: ص٦٧ من البحث.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٧٩٢.
(٣) انظر: ص٣١١ من البحث.

سادساً: ثناء الله تعالى على المشتغلين بالتسبيح.

وذلك كما في قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ [النور: ٣٦، ٣٧].

وكما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾﴾ [السجدة: ١٥].

ففي هاتين الآيتين بيان لفضل التسبيح وأنه وظيفة المؤمنين بالله تعالى.

سابعاً: حكاية الله تعالى عن الملائكة الكرام تمدحهم بتسبيحهم(١).

وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: ٣٠].

وكما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الصافات: ١٦٥، ١٦٦].

فتمدح الملائكة بالتسبيح ـ كما في هاتين الآيتين ـ دليل على أهميته وعظيم فضله عند الله تعالى.

ثامناً: أن التسبيح عون على الصبر وسبب لزوال الكرب.

ومما دل عليه كتاب الله من فضل التسبيح أن الله تعالى يعين به على الصبر، وينجي به من الكرب، ولهذا أمر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ

---

(١) انظر: ما سبق بيانه في تسبيح الملائكة، ص٢٧٦.

بالتسبيح بعد أمره إياه بالصبر في عدة مواضع من القرآن الكريم، وهي:

١ ـ قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾ [طه: ١٣٠].

٢ ـ وقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٥٥﴾﴾ [غافر: ٥٥].

٣ ـ وقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾﴾ [ق: ٣٩].

٤ ـ وقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾﴾ [الطور: ٤٨].

٥ ـ وقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾ [الإنسان: ٢٤ ـ ٢٦].

فهذه خمسة مواضع من كتاب الله تعالى يأمر فيها نبيه ﷺ بالتسبيح بعد أمره له بالصبر. قال الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي: «وأمره له بالتسبيح بعد أمره له بالصبر على أذى الكفار فيه دليل على أن التسبيح يعينه الله به على الصبر المأمور به» اهـ[1].

وهكذا أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالتسبيح عند ضيق صدره بما يقوله الكفار من السوء والكفر، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الحجر: ٩٧، ٩٨].

قال الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي: «اعلم أن ترتيبه جل

---

(١) أضواء البيان: ٥/ ١٨٠.

وعلا الأمر بالتسبيح والسجود على ضيق صدره ﷺ بسبب ما يقولون له من السوء دليل على أن الصلاة والتسبيح سبب لزوال المكروه، ولذا كان ﷺ إذا حزبه أمر بادر إلى الصلاة» اهـ[(١)].

ومن قبل نجى الله تعالى نبيه يونس عليه السلام من الكرب بسبب تسبيحه، وقال تعالى ـ في ذلك ـ: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤].

وفي هذا كله بيان لفضل التسبيح وما فيه من الآثار العظيمة والعواقب الحميدة.

تاسعاً: أن التسبيح أفضل ما يستعد به العبد للقاء ربه ﷻ.

قال أبو بكر الطرطوشي: «ومن أحسن ما يستدل به على فضيلة التسبيح أن الله سبحانه لما نعى إلى النبي عليه الصلاة والسلام نفسه في سورة النصر، فإنما أمره بالتسبيح والاستغفار، قال: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾﴾ [النصر: ٣]» اهـ[(٢)].

وعن الحسن البصري قال: «أعلم الله رسوله ﷺ أنه قد اقترب أجله، فأمره بالتسبيح والتوبة، ليختم له في آخر عمره بالزيادة في العمل الصالح» اهـ[(٣)].

عاشراً: أن التسبيح عبادة جميع الكائنات.

وهذه المسألة قد سبق بيانها بأدلتها[(٤)]، وإنها لمن أوضح الأدلة على فضل التسبيح، فإن الله تعالى لحبه هذه الكلمة ألهمها السماوات والأرض ومن فيهما، ورضيها من الملائكة والأنبياء وعباده المؤمنين،

---

(١) أضواء البيان: ٢/١١٢، وانظر: ما سبق في البحث: ص٣١٢.
(٢) الدعاء المأثور وآدابه: ص١٧٧.
(٣) ذكره البغوي في تفسيره: ٨/٥٧٧. (٤) انظر: ص٣٣١ ـ ٣٧١.

ومن أهل الجنة في الجنة، كما سبق بيان ذلك كله[١].

حادي عشر: أن التسبيح عبادة لا تتناهى.

ومن فضل التسبيح الذي دل عليه كتاب الله تعالى أنه عبادة لا تتناهى، فقد أخبر الله سبحانه أن التسبيح باق في الجنة في قوله ﷻ: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ [يونس: ١٠].

وثبت في السنة أن أهل الجنة يلهمون التسبيح في الجنة، كما يلهمون النفس[٢]، وأنفاس أهل الجنة وألفاظهم وحركاتهم لا تتناهى، بل هي دائمة بدوامهم فيها[٣]، جعلنا الله من أهلها بفضله ومنه.

فهذه أوجه فضل التسبيح التي دل عليها كتاب الله تعالى.

❖ المطلب الثاني ❖

ما ورد في سنة رسول الله ﷺ من الفضل المختص بالتسبيح

وكما دل كتاب الله تعالى على فضل التسبيح من أوجه متنوعة، كذلك سنة رسول الله ﷺ دلت على فضل التسبيح من وجوه كثيرة، ومن ذلك:

١ ـ أن التسبيح من أحب الكلام إلى الله.

جاء في هذا حديث عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أخبرك بأحب الكلام إلى الله؟**» قلت: يا رسول الله، أخبرني بأحب

(١) أنواع التسبيح باعتبار فاعله، في ص٢٤٧ ـ ٣٨٥.
(٢) سبق الحديث بلفظه وتخريجه في ص٣٨٤.
(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٢/٣٩٨ ـ ٣٩٩، ودرء تعارض العقل والنقل، له: ٢/ ٣٥٤.

الكلام إلى الله. فقال: «**إن أحب الكلام إلى الله: سبحان الله وبحمده**»[١].

وجاء في معنى هذا الحديث آثار عن بعض الصحابة رضي الله عنهم، منها:

١ ـ ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قال عمر لعلي ـ وأصحابه عنده ـ لا إله إلا الله قد عرفناه، فما سبحان الله؟ فقال له علي: كلمة أحبها الله لنفسه، ورضيها، وأحب أن تقال»[٢].

٢ ـ وما رواه ابن عباس أيضاً رضي الله عنهما قال: قال عمر رضي الله عنه: «قد عرفنا ما أراد الله بلا إله إلا الله، والله أكبر، أرأيت سبحان الله، ما أراد؟ قالوا: الله عز وجل أعلم، فقال لابن عباس رضي الله عنهما: ما تقول؟ قال: كلمة رضيها الله تعالى، فأحب أن يقال. قال: صدقت» اهـ[٣].

وإنما كان التسبيح من أحب الكلام إلى الله تعالى لأنه يدل على التعظيم البالغ والتنزيه الكامل لله عز وجل[٤]، كما سبق بيانه في معنى التسبيح.

٢ ـ أن الله تعالى اصطفى التسبيح لملائكته وعباده.

وجاء في هذا حديث عن أبي ذر أيضاً رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل: أي الكلام أفضل؟ قال: «**ما اصطفى الله لملائكته، أو لعباده:**

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: ٤/٢٠٩٣ ـ ٢٠٩٤، برقم (٢٧٣١).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم، بتحقيق الدكتور أحمد الزهراني ١/١١٧، رقم (٣٤٧)، ورجال إسناده ثقات ما عدا حجاجاً، وهو ابن أرطأة، فإنه صدوق كثير الخطأ والتدليس. وانظر: تقريب التهذيب، لابن حجر: ١/١٥٥.

(٣) رواه الطبراني في كتاب الدعاء: ٣/١٥٩٢، برقم (١٧٥٦)، إسناده كالذي قبله.

(٤) انظر: الإفصاح عن معاني الصحاح، لابن هبيرة: ٢/١٩٤.

سبحان الله وبحمده»[١]. وفي الأثر: «جاء رجل إلى ابن عباس رضي الله عنهما فقال: لا إله إلا الله نعرفها، لا إله غيره، والحمد لله نعرفها، أن النعم كلها منه، وهو المحمود عليها، والله أكبر نعرفها، لا شيء أكبر منه، فما سبحان الله؟ قال: كلمة رضيها الله عز وجل لنفسه، وأمر بها ملائكته، وفزع لها الأخيار من خلقه»[٢].

وتقدم أن التسبيح عبادة جميع الكائنات، في الأرض والسماوات، وأنه عبادة باقية في الجنة، دائمة بدوام أهلها[٣].

٣ ـ أن التسبيح يحط الخطايا وإن كثرت.

وجاء في هذا حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**من قال: سبحان الله وبحمده، في يوم مائة مرة، حطت عنه خطاياه، وإن كانت مثل زبد البحر**[٤]»[٥].

قال الحافظ ابن حجر: «والمراد بقوله: «وإن كانت مثل زبد البحر) الكناية عن المبالغة في الكثرة»[٦].

وأشار بعض أهل العلم إلى مناسبة هذا الثواب المذكور في الحديث للتسبيح، وهي: أن التسبيح: تنزيه الله عز وجل من كل سوء، ومن كل ما لا يجوز عليه، فكان منزهاً لقائله من خطاياه التي تجوز عليه؛ لأنه لما نزه الله عز وجل عما لا يجوز عليه، نزهه الله من خطاياه التي

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: ٣/ ٢٠٩٣، برقم (٢٧٣١).
(٢) رواه الطبراني في كتاب الدعاء: ٢/ ١٥٩٣، برقم (١٧٥٨)، وإسناده حسن.
(٣) انظر: ص٤٢٩ ـ ٤٣٠.
(٤) زبد البحر: طفاوته وقذاه. انظر: لسان العرب: مادة (زبد): ٣/ ١٩٣.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ١١/ ٢٠٦، برقم (٦٤٠٥)، ومسلم في صحيحه: ٤/ ٢٠٧١ برقم (٢٦٩١)، واللفظ للبخاري.
(٦) فتح الباري: ١١/ ٢٠٦.

تجوز عليه[١]. وهذه من الإشارات اللطيفة التي تبين أثر التسبيح على قائله، وأنه منزه للعبد عن خطاياه بإذن الله تعالى.

٤ ـ أن التسبيح وسيلة لكسب الحسنات.

لما جاء في حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: «كنا عند رسول الله ﷺ، فقال: «**أيعجز أحدكم أن يكسب كل يوم ألف حسنة؟**» فسأله سائل من جلسائه: كيف يكسب أحدنا ألف حسنة؟ قال: «**يسبح مائة تسبيحة، فيكتب له ألف حسنة، أو يحط عنه ألف خطيئة**»»[٢].

فللعبد بكل تسبيحة يسبحها عشر حسنات، فإن الحسنة بعشر أمثالها، كما قال الله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، ومن زاد من التسبيح زاده الله سبحانه من الثواب والأجر، فـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٤٠﴾ [النساء: ٤٠].

٥ ـ أن المسبح تغرس له بكل تسبيحة نخلة في الجنة.

دل عليه حديث جابر[٣] رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**من قال:**

---

(١) انظر: الإفصاح، لابن هبيرة: ٦/ ٤١٧.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: ٤/ ٢٠٧٣، برقم (٢٦٩٨). قال النووي: «هكذا هو في عامة نسخ صحيح مسلم (أو يحط) بأو، وفي بعضها: (ويحط) بالواو» [شرح صحيح مسلم: ١٧/ ٢٠]. فعلى رواية الواو يكون هذا الحديث شاهداً لكسب الحسنات وحط الخطيئات.

(٣) هو جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري السلمي، أبو عبد الله، وأبو عبد الرحمن، وأبو محمد، له ولأبيه صحبة، وكان أحد المكثرين في الرواية عن النبي ﷺ، وغزا تسع عشرة غزوة، وتوفي بالمدينة بعد السبعين من الهجرة، وهو ابن أربع وتسعين سنة، رضي الله عنه. انظر: تذكرة الحفاظ: ١/ ٤٣ ـ ٤٤، والإصابة: ١/ ٤٣٤ ـ ٤٣٥.

سبحان الله العظيم وبحمده، غرست له نخلة في الجنة»[١].

وهذا الثواب المترتب على التسبيح في هذا الحديث مناسب لما سيأتي ذكره ـ إن شاء الله ـ من أن غراس الجنة هي: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»[٢]، فلما كان التسبيح من غراس الجنة ناسب أن ينال قائله غرساً من تلك الغراس، والله تعالى أعلم.

٦ ـ أن التسبيح من أفضل ما يأتي به العبد يوم القيامة.

ودليل ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من قال ـ حين يصبح، وحين يمسي ـ: سبحان الله وبحمده، مائة مرة، لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به، إلا أحد قال مثل ما قال أو زاد عليه»**[٣].

ويفهم من هذا الحديث أن من أكثر من التسبيح في الدنيا كان من أفضل الناس ثواباً وأجراً يوم القيامة، بحيث لا يفضله في الثواب والأجر إلا من كان أكثر منه تسبيحاً في الدنيا، وهذا ميدان تنافس السعداء الراغبين في أعلى الدرجات يوم القيامة.

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه: ٥/ ٤٧٧، برقم (٣٤٦٤، ٣٤٦٥)، بإسنادين، قال في الأول: «هذا حديث حسن صحيح غريب، ولا نعرفه إلا من حديث أبي الزبير عن جابر». وقال في الثاني: «هذا حديث حسن غريب» وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه: ١٠/ ٢٩٠، برقم (٩٤٦٥). والحاكم في المستدرك: ١/ ٦٨٠، برقم (١٨٤٧)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه»، وقال الذهبي في التلخيص: «على شرط البخاري».
والحديث صححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم (٦٤)، وفي صحيح الجامع: رقم (٦٤٢٩).

(٢) انظر: ص٤٥٨ من البحث.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه: ٤/ ٢٠٧١، برقم (٢٦٩٢).

٧ ـ أن التسبيح ثقيل في الميزان يوم القيامة.

ثبت ذلك في حديث أبي هريرة أيضاً رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **«كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»**(١).

وهذا الحديث له شأن كبير في بيان فضل التسبيح، حتى إن بعض أهل العلم أفرد فيه مؤلفاً مستقلاً(٢)، وختم به الإمام البخاري كتابه (الجامع الصحيح) الذي هو أصح الكتب المصنفة في الإسلام(٣).

وقد اشتمل على ثلاثة أوصاف لصيغتي التسبيح المذكورتين فيه، فوصفهما بأنهما «كلمتان خفيفتان على اللسان»، وإنما كانتا كذلك لقلة ألفاظهما، وسهولة تعلمها، وسرعة نطق الذاكر بها، ولأن حروفهما عارية عن الحروف الشديدة، وليست متباعدة المخارج، فلا يستثقلها اللسان(٤).

ووصفهما بأنهما «ثقيلتان في الميزان» «أي: بالحسنات المضاعفة لقائلهما، والأجور المدخرة للذاكر بهما»(٥).

---

(١) سبق تخريجه في ص٢٣٦.

(٢) كالحافظ ابن ناصر الدين الدمشقي، في كتابه «التنقيح في حديث التسبيح»، وهو مطبوع.

(٣) انظر: مقدمة شرح صحيح مسلم، للنووي: ١/ ١٤، وهدي الساري مقدمة فتح الباري، للحافظ ابن حجر: ص١٠. وللعلماء أقوال في مناسبة ختمه كتابه بهذا الحديث، انظرها في: التنقيح، لابن ناصر الدين: ١٣٥ ـ ١٤٢، وفتح الباري: ١٣/ ٥٤٢.

(٤) انظر: التنقيح في حديث التسبيح: ص٩٥، والعلم الهيب في شرح الكلم الطيب، لبدر الدين العيني: ١٠١.

(٥) مقتبس من: التنقيح في حديث التسبيح: ص٩٦.

وهناك مقابلة بديعة بين وصفهما بالخفة على اللسان والثقل في الميزان، ووصفهما بذينك لبيان قلة العمل وكثرة الثواب[١].

ووصفهما أيضاً بأنهما «حبيبتان إلى الرحمن» أي: محبوبتان عنده[٢]. وخص (الرحمن) من الأسماء الحسنى بالذكر هنا للتنبيه على سعة رحمة الله تعالى لعباده، حيث يجازي على العمل القليل بالثواب الجزيل[٣].

وهذه الأحاديث المذكورة في هذا المطلب كلها واضحة الدلالة على فضل التسبيح، وبيان ما أعد الله ﷻ لأهله من أجور كريمة، وأفضال عظيمة، وعطايا جمة[٤]، والله ذو الفضل العظيم.

❖ المطلب الثالث ❖

أفضل صيغ التسبيح

لقد ورد في الكتاب والسنة صيغ متنوعة للتسبيح، كما سبق بيانها في أنواع التسبيح باعتبار الصيغة[٥]، وثبت لبعض هذه الصيغ فضل مخصوص، كما يتضح من النصوص الواردة في فضل التسبيح في الكتاب والسنة[٦].

وإذا ورد النص بفضل مخصوص لصيغة معينة من صيغ التسبيح، فالظاهر أن ذلك الفضل لا يحصل إلا بتلك الصيغة، فتكون أفضل من غيرها من هذه الجهة، وهذه أفضلية نسبية.

---

(١) انظر: فتح الباري، لابن حجر: ١٣/ ٥٤٠.

(٢) التنقيح في حديث التسبيح: ص٩٤.

(٣) انظر: فتح الباري، لابن حجر: ١١/ ٢٠٨، وفقه الأدعية والأذكار، للأستاذ الدكتور عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر: ص٢٠٩.

(٤) انظر: فقه الأدعية والأذكار: ص٢٠٧.

(٥) انظر: ص١٧٦ من البحث.

(٦) انظر: المطلبين السابقين آنفاً.

وكذلك الشأن في ورود النص بذكر صيغة من التسبيح مقيدة بعدد، أو بحال، أو بزمن، فإن الظاهر في هذا أيضاً أن الثواب المترتب على تلك الصيغة لا يحصل إلا بالإتيان بالصيغة نفسها مع مراعاة العدد، أو الحال، أو الزمن؛ لأن للشارع الحكيم حكمة في اختيار تلك الصيغة، وفي تقييدها بذلك العدد أو الحال أو الزمن[(١)].

وأما الحكم على صيغة معينة بأنها أفضل صيغ التسبيح فلم أقف على نص صريح في ذلك من الكتاب ولا من السنة، إلا ما يؤخذ من حديث جويرية أم المؤمنين[(٢)] رضي الله عنها: «أن النبي ﷺ خرج من عندها بكرة حين صلى الصبح، وهي في مسجدها[(٣)]، ثم رجع بعد أن أضحى، وهي جالسة، فقال: **«ما زلت على الحال التي فارقتك عليها؟»** قالت: نعم. قال النبي ﷺ: **«لقد قلت بعدك أربع كلمات، ثلاث مرات، لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته»**»[(٤)].

وفي لفظ: «**سبحان الله عدد خلقه، سبحان الله رضا نفسه،**

---

(١) انظر: فتح الباري، لابن حجر: ٢/ ٣٣٠.

(٢) هي: جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار الخزاعية، من بني المصطلق، سباها النبي ﷺ في غزوة المريسيع ـ وهي غزوة بني المصطلق ـ في السنة الخامسة من الهجرة، ثم تزوجها، وكان اسمها برة، فسماها النبي ﷺ جويرية، وتوفيت سنة (٥٠هـ) على الصحيح، وهي بنت خمس وستين سنة، رضي الله عنها. انظر: تهذيب الأسماء واللغات: ٢/٣٣٦، والإصابة: ٧/ ٥٦٥ ـ ٥٦٧.

(٣) قوله: «وهي في مسجدها» أي: موضع صلاتها [شرح صحيح مسلم، للنووي: ١٧/ ٤٤].

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه: ٤/ ٢٠٩٠، برقم (٢٧٢٦).

سبحان الله زنة عرشه، سبحان الله مداد كلماته»[(١)].

فهذا الحديث يدل على أفضلية هذه الصيغة المذكورة، لقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: (لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن) أي: لرجحت عليهن في الوزن[(٢)].

ولكن ليس في الرواية تصريح بنوع الذكر الذي كانت تقوله جويرية رضي الله عنها، فيحتمل أنها كانت تذكر نوعاً آخر غير التسبيح، فيكون الحديث دليلاً على أفضلية التسبيح على ذلك النوع، ولا يقتضي هذا أن تكون هذه الصيغة أفضل صيغ التسبيح.

ويحتمل أنها رضي الله عنها كانت تسبح، فيؤخذ من الحديث أن الصيغة المذكورة فيه هي أفضل الصيغ في التسبيح.

وقد صرح الإمام ابن قيم الجوزية بأفضلية هذه الصيغة على غيرها من صيغ التسبيح، لكونها أجمع للثناء على الله تعالى وأعم وأعظم[(٣)]، ولأن ما يقوم بقلب القائل: (سبحان الله وبحمده عدد خلقه) ـ من معرفة الله تعالى وتنزيهه وتعظيمه من هذا القدر المذكور من العدد، أعظم مما يقوم بقلب القائل: (سبحان الله) فقط. فكانت الصيغة الواردة في الحديث أفضل، وتسمى: الذكر المضاعف[(٤)].

ثم شرح ابن القيم هذه الصيغة مبيناً وجه أفضليتها، فقال: «وهذا إنما يظهر في معرفة هذا الذكر وفهمه. فإن قول المسبح: (سبحان الله

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه أيضاً: ٤/ ٢٠٩١، بالرقم السابق نفسه.

(٢) انظر: العلم الهيب في شرح الكلم الطيب، لبدر الدين العيني: ص١٠٨.

(٣) انظر: الوابل الصيب من الكلم الطيب، لابن قيم الجوزية، تحقيق محمد عبد الرحمن عوض: ص١١٨، والمنار المنيف في الصحيح والضعيف، له أيضاً، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة: ص٣٥.

(٤) انظر: المنار المنيف في الصحيح والضعيف: ص٣٥.

عدد خلقه) يتضمن إنشاء وإخباراً عما يستحقه الرب من التسبيح عدد كل مخلوق كان أو هو كائن إلى ما لا نهاية له. فتضمن الإخبار عن تنزيه الرب وتعظيمه والثناء عليه هذا العدد العظيم، الذي لا يبلغه العادون، ولا يحصيه المحصون. وتضمن إنشاء العبد لتسبيح هذا شأنه، لا أن ما أتى به العبد من التسبيح هذا قدره وعدده، بل أخبر أن ما يستحقه الرب ﷻ من التسبيح هو تسبيح يبلغ هذا العدد الذي لو كان في العدد ما يزيد لذكره، فإن تجدد المخلوقات لا ينتهي عداً، ولا يحصى الحاضر.

وكذلك قوله: (ورضا نفسه) فهو يتضمن أمرين عظيمين:

أحدهما: أن يكون المراد تسبيحاً هو والعظمة والجلال سيان، ولرضا نفسه[1]، كما أنه في الأول مخبر عن تسبيح مساو لعدد خلقه.

ولا ريب أن رضا نفس الرب لا نهاية له في العظمة والوصف. والتسبيح ثناء عليه سبحانه يتضمن التعظيم والتنزيه.

فإذا كانت أوصاف كماله ونعوت جلاله لا نهاية لها ولا غاية، بل هي أعظم من ذلك وأجل، كان الثناء عليه بها كذلك، إذ هو تابع لها إخباراً وإنشاء. وهذا المعنى ينتظم المعنى الأول من غير عكس.

وإذا كان إحسانه سبحانه وثوابه وبركته وخيره لا منتهى له، وهو من موجبات رضاه وثمرته، فكيف بصفة الرضا؟!

وفي الأثر: (إذا باركت لم يكن لبركتي منتهى)، فكيف بالصفة التي صدرت عنها البركة؟

والرضا يستلزم المحبة والإحسان والجود والبر والعفو والصفح

---

(١) علق المحقق على هذا الموضوع بقوله: «كذا في الأصل، وفيه سقط لم أهتد إليه».

والمغفرة. والخلق يستلزم العلم والقدرة والإرادة والحياة والحكمة، وكل ذلك داخل في رضا نفسه وصفة خلقه.

وقوله: (وزنة عرشه) فيه إثبات للعرش، وإضافته إلى الرب ﷻ، وأنه أثقل المخلوقات على الإطلاق، إذ لو كان شيء أثقل منه لوزن به التسبيح. وهذا يرد على من يقول: إن العرش ليست بثقيل ولا خفيف. وهذا لم يعرف العرش، ولا قدره حق قدره. فالتضعيف الأول: للعدد والكمية. والثاني: للصفة والكيفية. والثالث: للعظم والثقل، وليس للمقدار.

وقوله: (ومداد كلماته) هذا يعم الأقسام الثلاثة ويشملها، فإن مداد كلماته ﷻ لا نهاية لقدره، ولا لصفته، ولا لعدده. قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف: ١٠٩]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [لقمان: ٢٧].

ومعنى هذا: أنه لو فرض البحر مداداً، وبعده سبعة أبحر تمده كلها مداداً، وجميع أشجار الأرض أقلاماً ـ وهو ما قام منها على ساق، من النبات، والأشجار المثمرة وغير المثمرة، وتستمد بذلك المداد ـ لفنيت البحار والأقلام، وكلمات الرب لا تفنى ولا تنفد. فسبحان الله وبحمده عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته.

فأين هذا من وصف من يصفه بأنه ما تكلم ولا يتكلم، ولا يقوم به كلام أصلاً؟ وقول من وصف كلامه بأنه معنى واحد، لا ينقضي ولا يتجزأ، ولا له بعض ولا كل، ولا هو سور وآيات، ولا حروف وكلمات؟

والمقصود أن في هذا التسبيح من صفات الكمال ونعوت الجلال

ما يوجب أن يكون أفضل من غيره، وأنه لو وزن غيره به لوزنه وزاد عليه.

وهذا بعض ما في هذه الكلمات من المعرفة بالله، والثناء عليه بالتنزيه والتعظيم، مع اقترانه بالحمد المتضمن لثلاثة أصول:

أحدها: إثبات صفات الكمال له سبحانه، والثناء عليه.

الثاني: محبته والرضا به.

الثالث: فإذا انضاف هذا الحمد إلى التسبيح والتنزيه على أكمل الوجوه، وأعظمها قدراً، وأكثرها عدداً، وأجزلها وصفا، واستحضر العبد ذلك عند التسبيح، وقام بقلبه معناه: كان له من المزية والفضل ما ليس لغيره، وبالله التوفيق» اهـ(١).

وقد آثرت نقل كلامه هنا بتمامه لاشتماله على بيان وفوائد فيما يتعلق بهذه الصيغة من التسبيح، لم أجدها عند غيره.

وجاء في هذا الباب أيضاً حديث أبي أمامة(٢) رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم مر به وهو يحرك شفتيه، فقال: «**ماذا تقول، يا أبا أمامة؟**» قال: أذكر ربي. قال: «**ألا أخبرك بأفضل أو أكثر من ذكرك الليل مع النهار، والنهار مع الليل؟ أن تقول: سبحان الله عدد ما خلق، سبحان الله ملء ما خلق، سبحان الله عدد ما في الأرض والسماء، سبحان الله ملء ما في السماء والأرض، سبحان الله عدد ما أحصى كتابه، سبحان الله عدد كل شيء، وسبحان الله ملء كل شيء. وتقول:**

(١) المنار المنيف في الصحيح والضعيف: ص٣٥ ـ ٣٨.

(٢) هو صدي ـ بالتصغير ـ ابن عجلان بن الحارث الباهلي، أبو أمامة، صحابي مشهور بكنيته، سكن الشام، وتوفي سنة (٨٦هـ)، رضي الله عنه. انظر: الإصابة ٣/ ٤٢٠ ـ ٤٢١، وتقريب التهذيب: ١/ ٣٥٠.

الحمد لله، مثل ذلك»[(١)].

وجاء في حديث عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه نحو هذه الصيغة، ولفظه: «**سبحان الله عدد ما خلق في السماء، وسبحان الله عدد ما خلق في الأرض، وسبحان الله عدد ما خلق بين ذلك، وسبحان الله عدد ما هو خالق. والله أكبر مثل ذلك، والحمد لله مثل ذلك، ولا إله إلا الله مثل ذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله مثل ذلك**»[(٢)].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند: ٥/٢٤٩، والنسائي في عمل اليوم والليلة: ص٢١٤ ـ ٢١٥، برقم (١٦٦)، والطبراني في المعجم الكبير: ٨/٢٨٤، برقم (٧٩٣٠)، و٨/٣٥٢، برقم (٨١٢٨)، وفي كتاب الدعاء: ٣/١٥٨٧، برقم (١٧٤٣)، و٣/١٥٨٧ ـ ١٥٨٨، برقم (١٧٤٤)، وابن حبان في صحيحه ـ الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان ـ ٣/١١٢، برقم (٨٤٠)، والحاكم في المستدرك: ١/٦٩٤، برقم (١٨٩١)، كلهم من طرق عن أبي أمامة، واللفظ للنسائي، والطبراني في الدعاء، وابن حبان، والحديث صححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي: «رواه الطبراني من طريقين، وإسناد أحدهما حسن» [مجمع الزوائد: ١٠/٩٣]، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٢٦١٥).

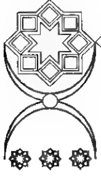
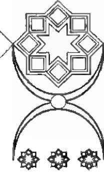
(٢) أخرجه أبو داود في سننه: ٢/١٦٩ ـ ١٧٠، برقم (١٥٠٠)، والترمذي في سننه: ٥/٥٢٥ ـ ٥٢٦، برقم (٣٥٦٨)، وقال: «هذا حديث غريب من حديث سعد». وأخرجه الطبراني في كتاب الدعاء: ٣/١٥٨٤، برقم (١٧٣٨)، وابن حبان في صحيحه ـ الإحسان ـ: ٣/١١٨، برقم (٨٣٧)، والحاكم في المستدرك: ١/٧٣٢ ـ ٧٣٣، برقم (٢٠٠٩)، وقال الذهبي في التلخيص: صحيح. وفي الحكم له بالصحة نظر؛ لأن في إسناده (خزيمة) غير منسوب، قال عنه الذهبي نفسه: «لا يعرف» [ميزان الاعتدال: ١/٦٥٣]، ويروى الحديث بدون ذكر خزيمة هذا في الإسناد، كما هو عند ابن حبان والحاكم، فيحتمل الانقطاع بين سعيد بن أبي هلال الراوي عن خزيمة، وعائشة بنت سعد الراوية عن أبيها سعد بن أبي وقاص. فلا يخلو إسناد هذا الحديث من علة الجهالة أو الانقطاع، وقد أوضح ذلك الشيخ الألباني في السلسلة الضعيفة، تحت رقم (٨٣)، لكن اللفظ المذكور من الحديث =

فهذه الأحاديث تدل على أن ما كان من التسبيح مفيداً للشمول والكثرة التي لا تتناهى ولا تنحصر أفضل مما هو مجرد عن ذلك، مع العلم أن محل هذه الأفضلية في غير المواضع التي شرع فيها التسبيح بصيغ معينة من الشارع؛ لأن مقتضى الاتباع الالتزام بصيغ التسبيح المشروعة في مواضعها التي شرع ذكرها فيها، كما سبقت الإشارة إليه في أول المطلب.

ويحسن أن يذكر هنا أن النظر في الأحاديث الواردة في فضل التسبيح يوصل إلى أن صيغة (سبحان الله وبحمده) لها الحظ الأوفر من الفضل؛ لأن أكثر تلك الأحاديث قد نصت على هذه الصيغة، وتقدم عند الكلام على قرن التسبيح بالحمد بيان ما تدل عليه هذه الصيغة من المعنى الجامع للثناء على الله تعالى[1]، فلا عجب أن يترتب عليها القسط الأكبر من الأجر والثواب، والله تعالى أعلم.

= يشهد له حديث أبي أمامة المذكور قبله، ولعل هذا هو وجه تحسين الحافظ ابن حجر له في (أمالي الأذكار) كما نقله ابن علان في (الفتوحات الربانية على الأذكار النواوية: ١/ ٢٤٥).

(١) انظر: ص١٩٣ـ ٢٠٧.

المبحث الثاني

الفضل المشترك للتسبيح

ولا يقف فضل التسبيح عند الفضل المختص به الذي سبق بيان جملة منه في المبحث الأول، بل قد وردت نصوص أخرى في الكتاب والسنة بإثبات أنواع مختلفة من الفضل للتسبيح منضماً إلى نظيراته من ألفاظ الذكر المشروعة في الإسلام، وهي: التحميد، والتهليل، والتكبير، وتعني قول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر.

وتذكر مع هذه الأربع ـ أحياناً ـ الحوقلة، وهي قول: لا حول ولا قوة إلا بالله. وتعد هذه الأقوال المذكورة أهم ما شرع لذكر الله تعالى في الشريعة الإسلامية، ولهذا اشتركت في الفضل في أمور عديدة وردت بها النصوص في الكتاب والسنة. وليس من السهل جمع كل ما ورد في الفضل المشترك للتسبيح؛ لأن ذلك يتطلب بحثاً مستقلاً، ولكن المقصود في هذا المبحث ذكر جملة طيبة مما أمكن الوقوف عليه من الفضل المشترك للتسبيح في الكتاب والسنة، وذلك فيما يلي:

١ ـ أن التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير من ذكر الله الذي حث عليه عباده في كتابه، ومدح أهله، ورتب عليه الأثر العظيم والأجر الكريم.

قال تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البقرة: ١٥٢]، «فأمر تعالى بذكره،

ووعد عليه أفضل جزاء، وهو ذكره لمن ذكره»[(١)]، وجاء إيضاح هذا في الحديث القدسي الذي يرويه النبي ﷺ عن ربه تبارك وتعالى، قال: «**يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خير منهم**» الحديث[(٢)].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾ [الرعد: ٢٨].

وهذا نص على أعظم أثر للذكر في النفوس المؤمنة، فإن قلوبهم تسكن وتستأنس بذكر الله تعالى[(٣)]، وليس لقلب العبد سكون ولا استئناس بغير ذكر ربه وخالقه سبحانه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا﴾ [طه: ١٢٤].

قال الحافظ ابن كثير: «أي: ضنكا في الدنيا، فلا طمأنينة له، ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق حرج لضلاله، وإن تنعم ظاهره، ولبس ما شاء، وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى فهو في قلق وحيرة وشك، فلا يزال في ريبة يتردد، فهذا من ضنك المعيشة»[(٤)].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

---

(١) مقتبس من: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ص٧٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ١٣/ ٣٨٤، برقم (٨٤٠٥)، ومسلم في صحيحه: ٤/ ٢٠٦١، برقم (٢٦٧٥).

(٣) انظر: تفسير الطبري: ٧/ ٣٨٠.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم: ٣/ ١٧٧. وانظر: الوابل الصيب، لابن القيم: ص٦٨.

قال بعض أهل التفسير: معنى هذه الآية: أنكم في الصلاة تذكرون الله تعالى، وهو ذاكر من ذكره، ولذكر الله تعالى إياكم أكبر من ذكركم إياه[(١)]، وهذا المعنى رجحه ابن جرير الطبري في تفسيره[(٢)].

وقال بعضهم: معنى الآية: ولذكر الله أكبر من كل شيء[(٣)].

ونقل الإمام ابن قيم الجوزية أن شيخ الإسلام ابن تيمية كان يقول: «الصحيح أن معنى الآية: أن الصلاة فيها مقصودان عظيمان، وأحدهما أعظم من الآخر، فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهي مشتملة على ذكر الله تعالى، ولما فيها من ذكر الله أعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر»[(٤)].

ومال إلى ترجيح هذا المعنى الحافظ ابن كثير في تفسيره[(٥)].

وأيًّا ـ من هذه المعاني المذكورة ـ كان هو معنى الآية، فهي دالة على فضل الذكر وعظم مكانته.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وهذا في مقام المدح للذاكرين والذاكرات من الرجال والنساء،

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ١٠/ ١٤٥ ـ ١٤٧، والوابل الصيب، لابن القيم: ص١٠٣.

(٢) في: ١٠/ ١٤٨.

(٣) انظر: تفسير الطبري: ١٠/ ١٤٧.

(٤) الوابل الصيب: ص١٠٣، وانظر: تفسير الطبري: ١٠/ ١٤٨.

(٥) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٤٢٥.

وخبر عنهم بأن الله تعالى هيأ لهم مغفرة منه لذنوبهم، وأجراً عظيماً لا يقدر قدره إلا الذي أعطاه، وهو الجنة(١).

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾ [الأحزاب: ٤١].

وفي هذه الآية يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بذكره ذكراً كثيراً، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إن الله تعالى لم يفرض على عباده فريضة إلا جعل لها حداً معلوماً ثم عذر أهلها في حال العذر غير الذكر، فإن الله تعالى لم يجعل له حداً ينتهي إليه، ولم يعذر أحداً في تركه، إلا مغلوباً على عقله، فقال: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣]، بالليل والنهار، في البر والبحر، وفي السفر والحضر، والغنى والفقر، والسقم والصحة، والسر والعلانية، وعلى كل حال»(٢).

وسئل الإمام أبو عمرو بن الصلاح(٣) عن القدر الذي به يصير المرء من الذاكرين الله كثيراً؟ فقال ـ ما ملخصه ـ: إذا واظب على الأذكار المأثورة المثبتة صباحاً ومساء، وفي الأوقات والأحوال

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٤٩٧، والعلم الهيب، لبدر الدين العيني: ص٤٦، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ص٦٦٥.

(٢) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره: ١٠/ ٣٠٦، وأورده الحافظ ابن كثير في تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٥٠٣.

(٣) هو عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان بن موسى الكردي، تقي الدين، أبو عمرو، ابن الصلاح، السهرزوري ثم الدمشقي، الإمام الحافظ، مفتي الشام ومحدثها في وقته، كان على طريقة السلف الصالح، وكان متقدماً في فنون كثيرة، من تصانيفه: علوم الحديث (مقدمة ابن الصلاح)، وغيره، وتوفي سنة (٦٤٣هـ)، رحمه الله. انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي: ٤/ ١٤٣٠ ـ ١٤٣١، والبداية والنهاية، لابن كثير: ١٣/ ١٧٩ ـ ١٨٠.

المختلفة ليلاً ونهاراً، كان من الذاكرين الله كثيراً[(١)].

والآيات الواردة في شأن ذكر الله تعالى كثيرة جداً في القرآن الكريم.

٢ ـ أن هذه الأربع ـ التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير ـ هي أحب الكلام إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ. دل على ذلك حديث سمرة بن جندب[(٢)] رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أحب الكلام إلى الله أربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، لا يضرك بأيهن بدأت**»[(٣)].

وحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لأن أقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، أحب إلي مما طلعت عليه الشمس**»[(٤)].

وقوله: (مما طلعت عليه الشمس) يعني: من الدنيا وما فيها[(٥)].

وإنما كانت هذه الكلمات أحب إلى الله تعالى لأنها مدح وثناء على الله جل وعلا، وفي الحديث: «**لا أحد أحب إليه المدح من الله**»[(٦)]. ولذلك أيضاً كانت أحب إلى رسول الله ﷺ.

---

(١) فتاوى ومسائل ابن الصلاح ـ ومعها أدب المفتي والمستفتي، له: تحقيق الدكتور عبد المعطي قلعجي: ١/ ١٥٠.

(٢) هو سمرة بن جندب بن هلال الفزاري، حليف الأنصار، يكنى أبا سليمان، صحابي مشهور له أحاديث، وكان شديداً على الخوارج، وتوفي بالبصرة، سنة (٥٨هـ)، وقيل: في أول سنة (٦٠هـ)، رضي الله عنه. انظر: الإصابة: ٣/ ١٧٨ ـ ١٧٩.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه: ٣/ ١٦٨٥، برقم (٢١٣٧).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه: ٤/ ٢٠٧٢، برقم (٢٦٩٥).

(٥) انظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، للقرطبي: ٧/ ٢٢ ـ ٢٣، وتحفة الذاكرين، للشوكاني: ص٣٦٨.

(٦) سبق تخريجه: في ص٢٧٠.

فما أسعد عبداً وافق الله ورسوله، فأحب هذه الكلمات أكثر من حبه للدنيا وما فيها.

٣ ـ أن الله تعالى اصطفى من الكلام هذه الكلمات الأربع.

كما جاء في حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله اصطفى من الكلام أربعاً: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر**»[(١)].

وهذا الفضل مناسب لما قبله؛ لأن الله تعالى أحب هذه الكلمات، فاصطفاها من الكلام، واختارها لعباده أن يذكروه بها.

٤ ـ أن هذه الكلمات من أطيب الكلام.

وثبت ذلك في حديث سمرة بن جندب أيضاً رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أربع هن من أطيب الكلام، وهن من القرآن، ولا يضرك بأيهن بدأت: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر**»[(٢)].

وأطيب الكلام: أزكاه وأحسنه مبنى ومعنى، والمراد هنا ذكر الله تعالى والثناء عليه، فليس في الكلام أطيب منه، لتعلقه بالباري جل وعلا، ومنه هذه الكلمات الأربع.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند: ٢/ ٣٠٢، والنسائي في «عمل اليوم والليلة»: ص٤٨٥، برقم (٨٤٠)، والحاكم في المستدرك: ١/ ٦٩٣، برقم (١٨٨٦)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم»، ووافقه الذهبي. وصححه الألباني في «صحيح الجامع»: برقم (١٧١٨).

(٢) أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده ـ تحقيق الدكتور محمد بن عبد المحسن التركي ـ: ٢/ ٢١٩ ـ ٢٢٠، برقم (٩٤١)، وأحمد في المسند: ٥/ ١١، والنسائي في عمل اليوم والليلة: ص٤٨٧، برقم (٨٤٧). وإسناده صحيح، رجاله كلهم ثقات مشهورون.

وقوله: (هن من القرآن) يريد أن هذه الكلمات موجودة في القرآن[(١)]، أما الثلاث ـ سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله ـ فباللفظ، وأما (الله أكبر) فبالمعنى؛ لأنها لم ترد في القرآن لفظاً[(٢)].

٥ ـ أنها أفضل الكلام بعد القرآن الكريم.

جاء ذلك في حديث سمرة أيضاً رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أفضل الكلام بعد القرآن أربع ـ وهي من القرآن ـ، لا يضرك بأيهن بدأت: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»**[(٣)].

وهذا الحديث يقتضي أن هذه الكلمات أفضل من غيرها من الكلمات سوى القرآن؛ لأنه جعل درجتها دون درجة القرآن في قوله: (بعد القرآن)، وهذا يقتضي أنها ليست من القرآن، ثم قال: (وهي من القرآن)، وكلا قوليه حق وصواب، فهي من القرآن باعتبار، وليست من القرآن باعتبار[(٤)]، فباعتبار ألفاظها هي من القرآن، لوجودها فيه. وباعتبار نظمها ليست بقرآن، وليست آية متلوة[(٥)].

وورد الحديث أيضاً بلفظ: **«خير الكلام أربع لا تبالي بأيتهن**

---

(١) انظر: شأن الدعاء، للخطابي: ص١٦١.

(٢) انظر: العلم الهيب، لبدر الدين العيني: ص١٠٤.

(٣) أخرجه أحمد في المسند: ٥/ ٢٠، وابن ماجه ـ بنحوه ـ في سننه: ٢/ ١٢٥٣، برقم (٣٨١١). وقال الهيثمي: «رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح» [مجمع الزوائد: ١٠/ ٨٨]. وله شاهد عن بعض أصحاب النبي، أخرجه الإمام أحمد في المسند: ٤/ ٣٦. وقال عنه الألباني: «وهذا إسناد صحيح، رجاله رجال الشيخين، وجهالة الصحابي لا تضر، كما هو معلوم» [سلسلة الأحاديث الصحيحة: رقم (١٤٩٨)].

(٤) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٢/ ٦٧، ٧٧ و١٦/ ١١٧ و٢٢/ ٣٨٩.

(٥) انظر: شأن الدعاء، للخطابي: ص١٦١، والعلم الهيب، للعيني: ص١٠٤.

بدأت...» فذكرها[١].

٦ ـ أن هذه الكلمات دليل إسلام العبد واستسلامه لله تعالى.

ففي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**من قال: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله. قال الله: أسلم عبدي واستسلم**»[٢].

وفي هذا الحديث زيادة كلمة (لا حول ولا قوة إلا بالله) على الكلمات الأربع، وهي كلمة عظيمة، جاء في فضلها على الخصوص أحاديث عديدة[٣]، ومعنى الاستسلام ظاهر فيها؛ لأنها دالة على التبرؤ من الحول والقوة، والتفويض إلى الله تعالى، وأن العبد لا يملك من أمره شيئاً، وليس له حيلة في دفع شر، ولا قوة له في جلب خير إلا بإرادة الله تعالى[٤].

٧ ـ أنها سبب لتكفير الذنوب وإن كانت كثيرة.

دل على ذلك حديث أنس رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ أخذ غصناً فنفضه فلم ينتفض، ثم نفضه فلم ينتفض، ثم نفضه فانتفض، فقال رسول الله ﷺ: «**إن سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر،**

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ النسائي في عمل اليوم والليلة: ص٤٨٥، برقم (٨٤١).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك: ١/ ٦٨١، برقم (١٨٥٠) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد»، ووافقه الذهبي، وفي إسناده الوليد بن مسلم ـ وهو مدلس تدليس التسوية ـ لكنه صرح بالتحديث، فانتفت شبهة التدليس.

(٣) انظر: شيئاً من الكلام على فضلها ومعناها في: فقه الأدعية والأذكار، لفضيلة الشيخ الدكتور عبد الرزاق البدر: ص٢٩٥ ـ ٣٠٥، وله أيضاً ـ حفظه الله ـ رسالة مستقلة في دراسة معنى هذه الكلمة ودلالتها العقدية.

(٤) انظر: شرح صحيح مسلم، للنووي: ١٧/ ٢٦ ـ ٢٧، وفتح الباري، لابن حجر: ١١/ ٥٠١.

تنفض الخطايا كما تنفض الشجرة ورقها»»[1].

وفي رواية: «أن رسول الله ﷺ مر بشجرة يابسة الورق، فضربها بعصاه، فتناثر الورق، فقال: «**إن الحمد لله، وسبحان الله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، لتساقط من ذنوب العبد كما تساقط ورق هذه الشجرة»»**[2].

ودل عليه أيضاً حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما على الأرض رجل يقول: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، إلا كفرت عنه ذنوبه، ولو كانت أكثر من زبد البحر»**[3].

٨ ـ أنها وسيلة كسب الحسنات.

وتزيد هذه الكلمات على كونها سبباً لتكفير السيئات بأنها وسيلة

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده: ٣/ ١٥٢، والبخاري في الأدب المفرد: ص٢١٨، برقم (٦٣٤)، وحسنه الألباني في تعليقه على الأدب المفرد، وفي صحيح الجامع، برقم (٢٠٨٩).

(٢) أخرجه بهذا اللفظ الترمذي في سننه: ٥/ ٥٠٨، برقم (٣٥٣٣) من رواية الأعمش عن أنس رضي الله عنه. قال الترمذي: «هذا حديث غريب، ولا نعرف للأعمش سماعاً من أنس، إلا أنه رآه ونظر إليه» اهـ. وهذا يعني أن فيه انقطاعاً، لكن متنه ثابت بالرواية التي قبلها، ولهذا حسن الألباني هذا المتن في صحيح الجامع، برقم (١٦٠١).

(٣) أخرجه الترمذي في سننه: ٥/ ٤٧٥، برقم (٣٤٦٠)، والنسائي في عمل اليوم والليلة: ص٤٧٧، برقم (٨٢٢)، وأحمد في المسند: ٢/ ١٥٨، ٢١٠، وقد اختلف في رفعه ووقفه، قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب، وروى شعبة هذا الحديث عن أبي بلج بهذا الإسناد نحوه ولم يرفعه». وصحح المرفوع الحاكم في المستدرك: ١/ ٦٨٢، برقم (١٨٥٣)، ووافقه الذهبي. ولكن الموقوف أصح، وله حكم الرفع؛ لأن الثواب المذكور فيه ليس مما يدرك بالعقل.

لكسب الحسنات، فقد جاء في حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله اصطفى من الكلام أربعاً: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر. فمن قال: سبحان الله، كتب الله له عشرين حسنة وحط عنه عشرين سيئة، ومن قال: الله أكبر، فمثل ذلك، ومن قال: لا إله إلا الله، فمثل ذلك، ومن قال: الحمد لله رب العالمين، من قبل نفسه، كتبت له ثلاثون حسنة، وحط عنه ثلاثون سيئة**»[١].

وقد اشتمل هذا الحديث على ثواب عظيم لهذه الكلمات، وهو ثبوت عشرين حسنة وتكفير عشرين سيئة في كل واحدة منها.

ويزيد ثواب الحمد عندما يقوله العبد من قبل نفسه زيادة على الأربع المذكورة، وذلك لأن الحمد يقع غالباً بعد حدوث نعمة من أكل أو شرب أو نحوهما، فكأنه وقع في مقابلة ما أسدي إليه وقت الحمد، فإذا أنشأ العبد الحمد من قبل نفسه، دون أن يدفعه لذلك تجدد نعمة زاد ثوابه[٢]، وإن كان العبد لا يزال في نعمة تتجدد له، والله تعالى أعلم.

٩ ـ أنها أكثر ثواباً من إعتاق الرقاب من ولد إسماعيل.

يدل على ذلك حديث أبي أمامة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لأن أقعد أذكر الله، وأكبره وأحمده وأسبحه وأهلله حتى تطلع الشمس أحب إلي من أن أعتق رقبتين أو أكثر من ولد إسماعيل، ومن بعد العصر حتى تغرب الشمس أحب إلي من أن أعتق أربع رقاب من ولد إسماعيل**»[٣].

---

(١) سبق ذكر جزئه الأول مع تخريجه في ص٤٤٩.

(٢) انظر: تحفة الذاكرين، للشوكاني: ص٣٧١، وفقه الأدعية والأذكار، لفضيلة الشيخ الدكتور عبد الرزاق البدر: ص١٦١ ـ ١٦٢.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده: ٥/ ٢٥٥، وانظر ما بعده.

وفي رواية: «**لأن أذكر الله من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس أكبر وأهلل وأسبح، أحب إلي من أعتق أربع رقاب من ولد إسماعيل. ولأن أذكر الله من بعد صلاة العصر إلى أن تغيب الشمس أحب إلي من أن أعتق كذا وكذا من ولد إسماعيل**»[١].

ووصف الرقاب في هذا الحديث بكونهم من ولد إسماعيل؛ لأنهم أشرف من غيرهم من العرب فضلاً عن العجم[٢]، ففيه بيان لعظم ثواب التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير، وأنه أعظم من ثواب إعتاق أشرف الرقاب وأعزها.

١٠ ـ أنها تعادل إنفاق المال، وجهاد العدو، ومكابدة الليل.

كما جاء في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «**إن الله تعالى قسم بينكم أخلاقهم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله تعالى يعطي المال من أحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا من يحب، فمن ضن بالمال أن ينفقه، وخاف العدو أن يجاهده، وهاب الليل أن يكابده، فليكثر من قول: لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر**»[٣].

وهذا الحديث موقوف على عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وهو في

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده: ٥/ ٢٥٣ ـ ٢٥٤، والطبراني في المعجم الكبير: ٨/ ٣١٧ برقم (٨٠٢٨). وقال الهيثمي: «رواه كله أحمد، والطبراني بنحو الرواية الثانية، وأسانيده حسنة» [مجمع الزوائد: ١٠/ ١٠٤].

(٢) انظر: فتح الباري، لابن حجر: ١١/ ٢٠٥، وفقه الأدعية والأذكار، لفضيلة الشيخ الدكتور عبد الرزاق البدر: ص١٥٨.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد: ص١٠١، برقم (٢٧٥). وقال الهيثمي: «رواه الطبراني موقوفاً، ورجاله رجال الصحيح» [مجمع الزوائد: ١٠/ ٩٠]. وقال الألباني في تعليقه على الحديث في الأدب المفرد: «صحيح موقوف في حكم المرفوع».

حكم المرفوع[1]، ويشهد له حديث أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟**» قالوا: بلى. قال: «**ذكر الله تعالى**»[2].

وينبغي أن لا يفهم من هذا الحديث ونحوه أن الاشتغال بالذكر أفضل من غيره من الأعمال في كل وقت وفي كل حال، فقد يكون المفضول فاضلاً، وذلك بحسب اختلاف الناس فيما يقدرون عليه من الأعمال، وبحسب اختلاف الأوقات والأحوال[3]، ومعرفة تفاضل الأعمال ومناسباته باب مهم من الفقه في الدين، يؤدي الجهل به أو تجاهله إلى خلل في طريقة التعبد لله تعالى، لكن مما هو كالإجماع بين العلماء أن ملازمة ذكر الله تعالى دائماً هو أفضل ما شغل به العبد نفسه في الجملة، والأدلة على ذلك كثيرة في الكتاب والسنة[4].

١١ ـ أن كل واحدة منها صدقة عن مفصل من مفاصل الذاكر بها.

ويدل على ذلك حديث أبي ذر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**يصبح على كل سلامى**[5] **من أحدكم صدقة، فكل تسبيحة صدقة، وكل**

---

(١) انظر الكلام على المرفوع حكماً من الروايات في: نزهة النظر، لابن حجر العسقلاني ـ ومعه النكت، لعلي بن حسن الحلبي ـ: ص١٤١ ـ ١٤٨.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه: ٥/ ٤٢٨ ـ ٤٢٩، برقم (٣٣٧٧)، وابن ماجه في سننه: ٢/ ١٢٤٥، برقم (٣٧٩٠)، والحاكم في المستدرك: ١/ ٦٧٣، برقم (١٨٢٥)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي. وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٢٦٢٩).

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠/ ٦٦٠ و٢٢/ ٣٤٨.

(٤) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠/ ٦٦٠.

(٥) سلامى: بضم السين المهملة وتخفيف اللام. قال النووي: «أصله عظام =

تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، ويجزئ من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى»[1].

وحديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «**إنه خلق كل إنسان من بني آدم على ستين وثلاثمائة مفصل، فمن كبر الله، وحمد الله، وهلل الله، وسبح الله، واستغفر الله، وعزل حجراً عن طريق الناس، أو شوكة أو عظماً عن طريق الناس، وأمر بمعروف، أو نهى عن منكر، عدد تلك الستين والثلاثمائة السلامى، فإنه يمشي يومئذٍ وقد زحزح نفسه عن النار**»[2].

ومعنى الحديثين أن كل مفصل من مفاصل ابن آدم عليه صدقة؛ لأن تركيبه على هذه المفاصل وسلامتها من أعظم نعم الله تعالى على عبده، فيحتاج كل مفصل منها إلى صدقة يتصدق ابن آدم عنه، ليكون شكراً لهذه النعمة[3]، فإذا ذكر الله تعالى بهذه الكلمات عدد تلك المفاصل ـ ثلاثمائة وستين ـ، فإنه قد تصدق عن نفسه، ويكون ذلك سبباً لزحزحته عن النار.

١٢ ـ أنها جنة لقائلها من النار.

جاء ذلك في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**خذوا جنتكم**» قالوا: يا رسول الله، أمن عدو قد حضر؟ قال: «**لا،**

= الأصابع وسائر الكف، ثم استعمل في جميع عظام البدن ومفاصله»، وجمعه: سلاميات ـ بفتح الميم وتخفيف الياء ـ انظر: شرح صحيح مسلم للنووي: ٥/ ٢٣٣ و٧/ ٩٣، والقاموس المحيط: مادة (سلم): ص١٤٤٩.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: ١/ ٤٩٨ ـ ٤٩٩، برقم (٧٢٠).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: ٢/ ٦٩٨، برقم (١٠٠٧).

(٣) انظر: جامع العلوم والحكم، لابن رجب الحنبلي: ٢/ ٧٥.

ولكن جنتكم من النار، قولوا: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، فإنهن يأتين يوم القيامة مجنبات ومعقبات[١]**، وهن الباقيات الصالحات»**[٢].

وفي لفظ: «**فإنهن يأتين يوم القيامة منجيات ومقدمات**»[٣].

وفي هذا الحديث دليل على أن هذه الكلمات تكون سبباً لنجاة قائلها من النار، وأنها تأتي يوم القيامة مقدمات أمام قائلها، ومعقبات من ورائه تستره وتقيه من النار، وهذا فضل عظيم.

قال الإمام ابن القيم: «الذكر سد بين العبد وبين جهنم، فإذا كانت له إلى جهنم طريق من عمل من الأعمال، كان الذكر سداً في تلك الطريق، فإذا كان ذكراً دائماً كاملاً، كان سداً محكماً لا منفذ فيه، وإلا فبحسبه» اهـ[٤].

وفي الحديث السابق أيضاً وصف هذه الكلمات بأنهن الباقيات الصالحات، وسيأتي بيان ذلك قريباً إن شاء الله تعالى.

---

(١) قال الشوكاني: «قوله: (مجنبات) بضم الميم وفتح الجيم، ثم نون مشددة مفتوحة، وبعدها باء موحدة، أي: مقدمات أمامكم. وقيل: هي بكسر النون المشددة، جمع مجنبة، وهي التي تكون في الميمنة والميسرة. والأول أولى بدليل قوله في الحديث: (معقبات) وهي بضم الميم وكسر القاف المشددة، أي: مؤخرات يعقبونكم من ورائكم، ومجنبات من أمامكم» [تحفة الذاكرين: ص٣٦٩].

(٢) أخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة: ص٤٨٨، برقم (٨٤٨) ـ وهذا لفظه ـ، والحاكم في المستدرك: ١/ ٧٢٥، برقم (١٩٨٥)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي. وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٣٢١٤).

(٣) هذا لفظ الحاكم في المستدرك، وانظر: التخريج السابق.

(٤) الوابل الصيب: ص١٠٩.

١٣ ـ أنها غراس الجنة.

يدل على ذلك حديث عبد الله بن مسعود ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لقيت إبراهيم ليلة أسري بي، فقال: يا محمد، أقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء، وأنها قيعان**[١]**، وأن غراسها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر**»[٢].

والمراد بهذا الحديث ـ والله أعلم ـ أن الجنة يزداد غراسها سريعاً بهذه الكلمات، كما ينمو غراس القيعان من الأرض ونبتها[٣].

وجاء تأكيد هذا المعنى في حديث أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ مر به وهو يغرس غرساً، فقال: «**يا أبا هريرة، ما الذي تغرس؟**» قلت: غراساً لي. قال: «**ألا أدلك على غراس خير لك من هذا؟**» قلت: بلى، يا رسول الله. قال: «**قل: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، يغرس لك بكل واحدة شجرة في الجنة**»[٤].

---

(١) جمع قاع. قال ابن الأثير: «القاع: المكان المستوي الواسع في وطأة من الأرض، يعلوه ماء السماء فيمسكه ويستوي نباته» [النهاية في غريب الحديث: ٤/ ١٣٢ ـ ١٣٣].

(٢) أخرجه الترمذي في سننه: ٥/ ٤٧٦، برقم (٣٤٦٢)، وقال: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه من حديث ابن مسعود». وفي إسناده عبد الرحمن بن إسحاق، أبو شيبة الكوفي، وقد تكلم فيه. انظر: تهذيب التهذيب: ٦/ ١٣٦ ـ ١٣٧. ولكن الحديث له شاهدان من حديث أبي أيوب الأنصاري، أشار إليه الترمذي عقب الحديث. ومن حديث عبد الله بن عمر، وذكر الشاهدين الألباني في السلسلة الصحيحة، في رقم (١٠) وحسن الحديث بهما، فانظره ـ إن شئت ـ، كما حسنه في صحيح الجامع، برقم (٥١٥٢).

(٣) انظر: جزء في تفسير الباقيات الصالحات، للحافظ العلائي، تحقيق بدر الزمان محمد شفيع: ص٣٦، والوابل الصيب، لابن القيم: ص١٠٩.

(٤) أخرجه ابن ماجه في سننه: ٢/ ١٢٥١، برقم (٣٨٠٧)، والحاكم في =

وجاء نحوه في حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«من قال: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، غرس الله له بكل واحدة منهن شجرة في الجنة»**[1].

وفي هذه الأحاديث دليل على أن هذه الكلمات تورث قائلها الجنة، وأن الساعي في اكتسابها هو الذي لا يضيع سعيه؛ لأن الجنة هي المغرس الذي لا يتلف ما استودع، ولا يخلف ما نبت فيه[2].

قال الإمام ابن القيم في قصيدته النونية - في وصف الجنة -:

«أو ما سمعت بأنها القيعان فاغـ ـرس ما تشاء بذا الزمان الفاني
تبا لتارك غرسه ماذا الذي قد فاته من مدة الإمكان»[3]

١٤ - أن الملائكة يذكرون قائليها عند الله تعالى.

جاء ذلك في حديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي ذكر فيه الرسول ﷺ أن الملائكة إذا وجدوا قوماً يذكرون الله تعالى جلسوا معهم، ويحفونهم بأجنحتهم، فإذا تفرقوا عرجوا وصعدوا إلى السماء. قال: **«فيسألهم الله عز وجل - وهو أعلم بهم -: من أين جئتم؟ فيقولون: جئنا من عند عباد لك في الأرض، يسبحونك، ويكبرونك، ويهللونك،**

= المستدرك: ١/ ٦٩٣، برقم (١٨٨٧) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي. وقال المنذري: «رواه ابن ماجه بإسناد حسن» [الترغيب والترهيب: ٢/ ٤٠٧، برقم (٢٢٩٣)]، وقال البوصيري في الزوائد: إسناده حسن. وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٢٦١٣).

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط: ٨/ ٢٢٦، برقم (٨٤٧٥). وقال المنذري: «رواه الطبراني، وإسناده حسن، لا بأس به في المتابعات» [الترغيب والترهيب: ٢/ ٤٠٨، برقم (٢٢٩٥)]، وقال الهيثمي: «رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله موثقون» [مجمع الزوائد ١٠/ ٩١].

(٢) انظر: العلم الهيب، لبدر الدين العيني: ص١١٦.

(٣) القصيدة النونية: ص٣٩٥.

ويحمدونك» الحديث[١].

وفي هذا فضل كبير لمن يذكرون الله تعالى بهذه الكلمات، حيث إن الملائكة ينوهون بهم عند الله العلي الأعلى.

١٥ ـ أنها تفتح لها أبواب السماء فتصعد إلى الله تعالى.

يدل على ذلك حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: «بينما نحن نصلي مع رسول الله ﷺ، إذ قال رجل من القوم: الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلا. فقال رسول الله ﷺ: **«من القائل كلمة كذا وكذا؟»** فقال رجل من القوم: أنا، يا رسول الله. قال: **«عجبت لها، فتحت لها أبواب السماء»»**.

قال ابن عمر: «فما تركتهن منذ سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك»[٢].

وفي هذا الحديث دليل على أن هذه الكلمات إذا قالها المؤمن صعدت إلى الله تعالى، ولذلك تفتح لها أبواب السماء.

وقد جاء توضيح صعود هذه الكلمات عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، حيث قال لأصحابه: «إذا حدثناكم بحديث أتيناكم بتصديق ذلك من كتاب الله. إن العبد المسلم إذا قال: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، وتبارك الله، أخذهن ملك، فجعلهن تحت جناحيه، ثم صعد بهن إلى السماء، فلا يمر بهن على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن، حتى يحيي[٣] بهن وجه

---

(١) متفق عليه، سبق تخريجه في ص٣٢٥، والمذكور هناك لفظ البخاري، وهذا جزء من لفظ مسلم.

(٢) سبق تخريجه في ص٢١٠.

(٣) يحيي ـ بالحاء المهملة، وتشديد الياء المثناة تحت ـ: من التحية. وفي بعض =

الرحمن. ثم قرأ عبد الله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]»(١).

وهذه الآية التي استشهد بها عبد الله بن مسعود ﷺ صريحة في صعود الكلم الطيب إلى الله تعالى، والكلم الطيب: هو الذكر والدعاء، كما قاله غير واحد من السلف(٢).

١٦ ـ أنها تتعاطف حول العرش تذكر بقائلها عند الله تعالى.

كما في حديث النعمان بن بشير ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«الذين يذكرون من جلال الله من تسبيحه، وتحميده، وتكبيره، وتهليله، يتعاطفن حول العرش، لهن دوي كدوي النحل، يذكرن بصاحبهن، ألا يحب أحدكم أن لا يزال له عند الله شيء يذكر به؟»**(٣).

فقد دل الحديث على أن هذه الكلمات تدور حول العرش، ويكون منها الدوي، لأجل التذكير بقائلها في المقام الأعلى عند الله تعالى، وفي هذا أعظم حض على الذكر بهذه الكلمات، ولذلك قال: (ألا يحب أحدكم أن لا يزال له عند الله شيء يذكر به؟)(٤).

= الروايات: يجيء ـ بالجيم ـ، من المجيء. وانظر: الترغيب والترهيب، للمنذري: ٣/٤١٨، حديث رقم (٢٣١٣).

(١) رواه الطبري في تفسيره: ١٠/٣٩٨ ـ ٣٩٩، والحاكم في المستدرك: ٢/ ٤٦١، برقم (٣٥٨٩)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد»، ووافقه الذهبي، وذكره الذهبي في كتابه «العلو للعلي الغفار» وقال: أخرجه أبو أحمد العسال بإسناد صحيح عن ابن مسعود. وانظر: مختصره، للألباني: ص١٠٤، برقم (٤٩). وقال الهيثمي: «رواه الطبراني، وفيه المسعودي، وهو ثقة ولكنه اختلط، وبقية رجاله ثقات» [مجمع الزوائد: ١٠/٩٠].

(٢) انظر: تفسير الطبري: ١٠/٣٩٨، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/٥٥٦.

(٣) سبق تخريجه وشرح كلماته الغريبة في ص٨١.

(٤) انظر: تحفة الذاكرين، للشوكاني: ص٣٧٥، وفقه الأدعية والأذكار: ص١٦٣.

١٧ ـ أنه بالإكثار منها يزداد المؤمن فضلاً عند الله تعالى.

لما جاء في حديث طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**ليس أحد أفضل عند الله من مؤمن يعمر في الإسلام، لتسبيحه وتكبيره، وتهليله**»(١).

وفي لفظ: «**يكثر تكبيره وتسبيحه وتهليله وتحميده**»(٢).

فهذا الحديث يدل على أن المؤمن كلما كان لهذه الكلمات أذكر، كان لأجلها أفضل عند الله تعالى، فينبغي للمؤمن أن يشغل وقته بذكرها، ويعمر حياته بالإكثار منها لينال هذه المنزلة عند الله تعالى.

١٨ ـ أنها ثقيلات في الميزان يوم القيامة.

وقد دل على ذلك قول الرسول ﷺ: «**بخ بخ(٣) لخمس ما أثقلهن في الميزان: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، والولد الصالح يتوفى فيحتسبه والده**».

وهذا الحديث جاء عن غير واحد من الصحابة رضي الله عنهم مرفوعاً إلى النبي ﷺ(٤)، وفيه تعظيم لهذه الكلمات، وإعجاب بثقلهن في الميزان،

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده: ١/ ١٦٣ ـ وهذا لفظه، وفيه قصة ـ، والنسائي في عمل اليوم والليلة: ص٤٨٤، برقم (٨٣٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٥٣٧١)، وينظر: السلسلة الصحيحة: رقم (٦٥٤).

(٢) هذا لفظه عند النسائي في عمل اليوم والليلة، كما في الهامش السابق.

(٣) يروى بفتح الباء الموحدة وسكون الخاء على أنه مبني، ويروى بالتنوين فيهما، ويروى بتنوين الأولى وسكون الثانية، ويروى بالعكس، وربما شددت. وهي كلمة تقال لتعظيم الأمر وتفخيمه وبيان الرضا به، وتكرر للمبالغة. انظر: النهاية في غريب الحديث: ١/ ١٠١، والقاموس المحيط: مادة (بخ): ص٣١٧، وتحفة الذاكرين: ص٣٧٤.

(٤) جاء من حديث أبي سلمى مولى رسول الله ﷺ ـ رضي الله عنه ـ، أخرجه أحمد في =

وهذا أسلوب من أساليب البيان لفضل هذه الكلمات، والترغيب في الذكر بها والإكثار منها.

١٩ ـ أنهن من الباقيات الصالحات اللاتي ذكر الله تعالى شأنهن في كتابه العزيز، في قوله سبحانه: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف: ٤٦]، وفي قوله ﷻ: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ [مريم: ٧٦].

فقد سلف في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**قولوا: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، فإنهن يأتين يوم القيامة مجنبات ومعقبات، وهن الباقيات الصالحات**»(١).

وقد وردت أحاديث أخرى في تسمية هذه الكلمات بالباقيات الصالحات، ولكن في أسانيدها كلام.

= مسنده: ٣/ ٤٤٣، والنسائي في عمل اليوم والليلة: ص٢١٥، برقم (١٦٧)، والطبراني في المعجم الكبير: ٢٢/ ٣٤٨، برقم (٨٧٣)، وصححه الحاكم في المستدرك: ١/ ٦٩٢، برقم (١٨٨٥)، ووافقه الذهبي. وقال الهيثمي: «رواه أحمد ورجاله ثقات» [مجمع الزوائد: ١/ ٤٩]. وجاء من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه: ١٠/ ٢٩٥، برقم (٩٤٨٥). ومن حديث سفينة رضي الله عنه، أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط: ٥/ ٢٢٥، برقم (٥١٥٢)، وقال: «لا يروى هذا الحديث عن سفينة إلا بهذا الإسناد، تفرد به النضر بن محمد». وقال الهيثمي: «رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله رجال الصحيح» [مجمع الزوائد: ١٠/ ٨٩]. ومن حديث ثوبان رضي الله عنه أخرجه البزار ـ زوائده (٣٠٧٢) ـ، وقال الهيثمي: «رواه البزار وحسن إسناده، إلا أن شيخه العباس بن عبد العظيم الباساني لم أعرفه» [مجمع الزوائد: ١٠/ ٨٨]. والحديث خرجه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (١٢٠٤)، وذكره في صحيح الجامع، برقم (٢٨١٧).

(١) سبق تخريجه في ص٤٥٧.

ووردت في تسميتها بالباقيات الصالحات آثار كثيرة عن الصحابة والتابعين، منها:

١ ـ ما ورد أن عثمان بن عفان رضي الله عنه قيل له: ما الباقيات الصالحات؟ فقال: «هن: لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله»[١].

٢ ـ وما ورد أن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما سئل عن الباقيات الصالحات؟ فقال: «لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله»[٢].

٣ ـ وما ورد عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ [الكهف: ٤٦، ومريم: ٧٦]، قال: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»[٣].

٤ ـ وما ورد أن سعيد بن المسيب[٤] قال ـ في الباقيات الصالحات ـ: «إنها قول العبد: الله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله»[٥].

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده: ١/ ٧١، وابن جرير الطبري في تفسيره: ٨/ ٢٣٠، وقال الهيثمي: رواه أحمد وأبو يعلى والبزار، ورجاله رجال الصحيح، غير الحارث مولى عثمان، وهو ثقة [مجمع الزوائد: ١/ ٢٩٧].

(٢) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره: ٨/ ٢٣١.

(٣) رواه ابن جرير الطبري من عدة طرق عنه في تفسيره: ٨/ ٢٣٠.

(٤) هو سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب القرشي المخزومي، أبو محمد، ولد لسنتين مضتا من خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان من أجل التابعين، وأحد فقهاء المدينة الكبار، وأحد علماء الإسلام الأثبات، وتوفي بعد عام (٩٠هـ)، على خلاف فيما زاد، رحمه الله، انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي: ١/ ٥٤ ـ ٥٦، وتقريب التهذيب، لابن حجر العسقلاني: ١/ ٢٩٧.

(٥) روه مالك في الموطأ: كتاب القرآن: برقم (٢٣)، وابن جرير الطبري في تفسيره: ٨/ ٢٣١ ـ ٢٣٢.

٥ ـ وما ورد عن الحسن وقتادة ـ في قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ ـ قالا: «لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، هن الباقيات الصالحات»(١).

فهذه مما ورد من الأحاديث والآثار في تسمية هذه الكلمات بالباقيات الصالحات. وقد اختلف أهل العلم في: هل الباقيات الصالحات محصورة في هذه الكلمات الأربع، أو الخمس، أو لا؟(٢).

فبعض الروايات السابقة تفيد بظاهرها الحصر، وهو رأي ذهب إليه بعض العلماء(٣).

والتحقيق أنها غير محصورة في هذه الكلمات، بل هي شاملة لها ولغيرها من الطاعات القولية والعملية، الظاهرة والباطنة، كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ [الكهف: ٤٦، ومريم: ٧٦]، قال: «هي ذكر الله قول: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله. وتبارك الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأستغفر الله، وصلى الله على رسول الله، والصيام، والصلاة، والحج، والصدقة، والعتق، والجهاد، والصلة، وجميع أعمال الحسنات، وهن الباقيات الصالحات التي تبقى لأهلها في الجنة ما دامت السموات والأرض» اهـ(٤).

ويستفاد من هذه الرواية وجه تسمية العبادات بالباقيات الصالحات؛ لأنها تبقى لأهلها في الجنة، فسميت بذلك مقابلة لها بالفانيات الزائلات، وهي غير العبادات من الدنيا وما فيها(٥)، والعاقل

---

(١) رواه عبد الرزاق الصنعاني في تفسير القرآن: ٢/ ١١، بإسناد صحيح.
(٢) حكى الخلاف في ذلك ابن جرير الطبري في تفسيره: ٨/ ٢٩٩ ـ ٢٣٢.
(٣) منهم العلائي في جزء له في تفسير الباقيات الصالحات: ص١٩ ـ ٢٨.
(٤) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره: ٨/ ٢٣٢.
(٥) انظر: تفسير الطبري: ٨/ ٣٧٤، والكاشف عن حقائق السنن، للطيبي: ٦/ ١٨١٩.

اللبيب يؤثر الباقي على الفاني، والمحروم يعكس. قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧].

ومع القول بعدم حصر الباقيات الصالحات في الكلمات المذكورة ـ كما في رواية ابن عباس، وكما ذهب إليه المحققون من أهل العلم[(١)] ـ، فإن هذه الكلمات هي أولى ما سميت بالباقيات الصالحات، لما ثبت لها من الفضل الذي لم يثبت مثله لغيرها من العبادات.

٢٠ ـ أنّها تجزئ من القرآن لمن لا يستطيع شيئاً منه.

فقد جاء في الحديث عن ابن أبي أوفى[(٢)] رضي الله عنهما قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: إني لا أستطيع أن آخذ من القرآن شيئاً، فعلمني ما يجزئني منه. قال «**قل: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم**». قال: يا رسول الله، هذا لله عز وجل، فما لي؟ قال: «**قل: اللهم ارحمني، وارزقني، وعافني، واهدني**». فلما قام، قال هكذا بيده. فقال رسول الله ﷺ: «**أما هذا فقد ملأ يده من الخير**»»[(٣)].

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٨/ ٣٧٤، وتفسير البغوي: ٥/ ٢٥٣، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٤٧٩، ٤٩٩.

(٢) هو عبد الله بن أبي أوفى علقمة بن خالد بن الحارث الأسلمي، صحابي ابن صحابي، شهد بيعة الرضوان، وما بعدها من المشاهد، ولم يزل بالمدينة حتى توفي رسول الله ﷺ ثم تحول إلى الكوفة، وتوفي بها سنة (٨٧هـ)، وهو آخر من مات من الصحابة بالكوفة رضي الله عنه. انظر: تهذيب الأسماء واللغات، للنووي: ١/ ٢٦١، وتقريب التهذيب، لابن حجر العسقلاني: ١/ ٣٨٣.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه: ١/ ٥٢١، برقم (٨٣٢)، والنسائي في سننه: ٢/ ٤٨١، برقم (٩٢٣) مختصراً إلى قوله: «ولا حول ولا قوة إلا بالله» دون =

فجعله ﷺ هذه الكلمات مجزئة من القرآن الكريم في حق من لا يستطيع أخذ شيء منه دليل على عظم موقعها، وزيادة فضلها على غيرها، ومناسب تماماً لما سبق ذكره من أن هذه الكلمات هي أفضل الكلام بعد القرآن الكريم.

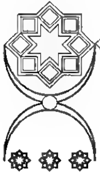
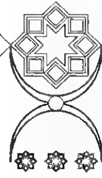
وثبت من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: «جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ، فقال: علمني كلاماً أقوله. قال: «**قل: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، سبحان الله رب العالمين، لا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم**». قال: فهؤلاء لربي، فما لي؟ قال: «**قل: اللهم اغفر لي، وارحمني، واهدني، وارزقني**»»[1].

والحديثان دالان على أن هذه الكلمات الخمس هي أولى ما ينبغي العناية بتعلمه وتعليمه بعد القرآن الكريم، وهذا فضل اختصت به هذه الكلمات، وأنافت به على غيرها من الكلمات الطيبات.

وجميع ما سبق ذكره أنواع من الفضل الوارد في الكتاب والسنة للتسبيح والتحميد والتهليل، والتكبير، مع إضافة الحوقلة إليها أحياناً. وبانضمام هذا الفضل المشترك إلى ما تقدم من الفضل المختص تتجلى جلالة قدر التسبيح، وجزالة فضله، وكثرة ثوابه، وبالله التوفيق.

= «العلي العظيم»، وأحمد ـ بنحوه ـ في مسنده: ٤/ ٣٥٣، ٣٥٦، والحاكم ـ بنحوه ـ في المستدرك: ١/ ٣٦٧ ـ ٣٦٨، برقم (٨٨٠). ومدار الحديث عند جميعهم على إبراهيم السكسكي، وهو من رجال البخاري في صحيحه، إلا أنه متكلم فيه. وانظر: هدي الساري، للحافظ ابن حجر: ص٣٨٨، وتهذيب التهذيب، له: ١/ ١٣٨. وقد حسن الألباني الحديث في إرواء الغليل: ٢/ ١٢، برقم (٣٠٣).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: ٤/ ٢٠٧٢، برقم (٢٦٩٦).

المبحث الثالث

المفاضلة بين التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير

قد علم اشتراك التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير في الفضل من وجوه كثيرة، والنصوص الواردة بالفضل المشترك بين هذه الكلمات الأربع تدل بظاهرها على أنها متساوية في الفضل غير متفاضلة، لكن وردت بشأن كل واحدة من هذه الكلمات نصوص أخرى تدل على أنها متفاضلة.

ومسألة المفاضلة بين الأمور ـ من الأعيان والألفاظ والمعاني ـ معلومة في الشرع[١]، وقد نص أهل العلم على «أن في الذكر شيئاً أفضل من شيء، وشيئاً أعظم أجراً من شيء»[٢].

ومن هنا اختلف العلماء في المفاضلة بين التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير:

فذهب فريق من العلماء إلى أن هذه الكلمات الأربع متساوية في الفضل تمسكا بالنصوص المصرحة باشتراكها في الفضل[٣]، وأما النصوص المفيدة لأفضلية إحدى هذه الكلمات فالمراد أفضليتها منضمة إلى أخواتها الثلاث في اللفظ أو في المعنى.

---

(١) كتبت في موضوع المفاضلة رسالة علمية بعنوان: «مباحث المفاضلة في العقيدة»، لفضيلة الشيخ الدكتور محمد بن عبد الرحمن أبو سيف الشظيفي، وهي مطبوعة منشورة.

(٢) التنقيح في حديث التسبيح، لابن ناصر الدين الدمشقي: ص٩٠.

(٣) انظر: التمهيد، لابن عبد البر: ٦/٤٨.

وممن قرر هذا المذهب أبو العباس القرطبي[1]، حيث قال ـ في شرح حديث: (**أحب الكلام إلى الله أربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، لا يضرك بأيهن بدأت**)[2] ـ: «فقد مضى هذا الحديث بأن الأربعة متساوية في الأفضلية والأحبية، من غير مراعاة تقديم بعضها على بعض ولا تأخيره، وأن التسبيح وحده لا ينفرد بالأفضلية، ولا التهليل وحده أيضاً ينفرد بها.

وإذا ثبت ذلك فحيث أطلق أن أحد هذه الأذكار الأربعة أفضل الكلام أو أحبه، إنما يراد إذا انضمت إلى أخواتها الثلاث المذكورة في هذا الحديث، إما مجموعة في اللفظ، أو في القلب بالذكر؛ لأن اللفظ إذا دل على واحد منها بالمطابقة، دل على سائرها باللزوم. وبيان ذلك: أن معنى (سبحان الله) البراءة له من كل النقائص، والتنزيه عما لا يليق بجلاله، ومن جملتها تنزيهه عن الشركاء والأنداد، وهذا معنى (لا إله إلا الله)، هذا مدلول اللفظ من جهة مطابقته، ولما وجب تنزيهه عن صفات النقص لزم اتصافه بصفات الكمال، إذ لا واسطة بينهما، وهي المعبر عنها بـ (الحمد لله)، ثم لما تنزه عن صفات النقص واتصف بصفات الكمال وجبت له العظمة والجلال، وهو معنى (الله أكبر)، فقد ظهر لك أن هذه الأربعة الأذكار متلازمة في المعنى، وأنها قد شملها لفظ الأحبية، كما جاء في الحديث، فمن نطق بجميعها فقد ذكر الله تعالى بأحب الكلام إلى الله لفظاً ومعنى، ومن نطق بأحدها

---

(١) هو أحمد بن عمر بن إبراهيم الأنصاري، أبو العباس القرطبي، المعروف بابن المزين، المالكي، كان فقيها محدثاً متفنناً، ومن مصنفاته: (المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم)، وهو شرح محرر ومفيد لصحيح الإمام مسلم، وتوفي سنة (٦٥٦هـ)، رحمه الله. انظر: البداية والنهاية، لابن كثير: ١٣/ ٢٢٦، وشجرة النور الزكية، لمحمد مخلوف: ص١٩٤.

(٢) سبق تخريجه، في ص٤٤٨.

فقد ذكر الله ببعض أحب الكلام نطقاً، وبجميعها معنى من جهة اللزوم الذي ذكرناه.

فتدبر هذه الطريقة فإنها حسنة، وبها يرتفع التعارض المتوهم بين تلك الأحاديث(١)، والله تعالى أعلم» اهـ(٢).

وقرر الطيبي(٣) نحواً مما قرره القرطبي، وذلك في تعليقه على حديث أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل: «أي الكلام أفضل؟ قال: **«ما اصطفى الله لملائكته، أو لعباده: سبحان الله وبحمده»**»(٤)، حيث قال الطيبي: «ويمكن أن تجعل هذه ـ يعني (سبحان الله وبحمده) ـ مختصرة من قوله: (سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر)، لما سبق أن (سبحان الله) تنزيه لذاته عما لا يليق بجلاله، وتقديس لصفاته من النقائص، فيندرج فيه معنى قول: (لا إله إلا الله). وقوله: (وبحمده) صريح في معنى (والحمد لله)؛ لأن الإضافة فيه بمعنى اللام في الحمد، ومستلزم لمعنى (والله أكبر)؛ لأنه إذا كان كل الفضل والإفضال لله ومن الله وليس من غيره، فلا يكون أحد أكبر منه» اهـ(٥).

وهذه الطريقة حسنة ـ بلا شك ـ في بيان تلازم الكلمات الأربع في المعنى، لكن التسوية بين هذه الكلمات في الفضل بهذه الطريقة فيها

---

(١) يعني الأحاديث الواردة في الفضل المختص لكل من هذه الكلمات الأربع.
(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم: ٧/ ٥٩ ـ ٦٠.
(٣) هو الحسين بن محمد بن عبد الله الطيبي، شرف الدين، العلامة، كان شديد الرد على الفلاسفة مظهراً فضائحهم، وله تصانيف عديدة، منها: الكاشف عن حقائق السنن ـ شرح فيه مشكاة المصابيح للتبريزي ـ، وتوفي سنة (٧٤٣هـ)، رحمه الله. انظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، للحافظ ابن حجر العسقلاني: ٢/ ١٥٦ ـ ١٥٧.
(٤) سبق تخريجه، في ص٢٩٢، ٤٣٢.
(٥) الكاشف عن حقائق السنن: ٦/ ١٨٢١ ـ ١٨٢٢.

نظر. كما أن الأدلة المصرحة باشتراكها في الفضل لا تقتضي تساويها؛ لأن ثبوت الأفضلية لها بالنسبة إلى غيرها من الأذكار لا يمنع أن تكون هي فيما بينها متفاضلة.

وذهب فريق آخر من العلماء إلى أن هذه الكلمات الأربع متفاضلة فيما بينها، ولكنهم اختلفوا في الأفضل من هذه الكلمات، وفي موجب الأفضلية فيها، على ثلاثة أقوال(١):

القول الأول: أن التسبيح أفضل الأذكار؛ لأن في النصوص الواردة بالفضل المختص بالتسبيح ما يدل على مزيد فضله على التحميد والتهليل والتكبير من الأذكار(٢)؛ وقد تقدم ذكر جملة وافرة من هذه النصوص من الكتاب والسنة؛ فلا حاجة لتكرارها هنا(٣).

ولأن التسبيح دال ـ بالتضمن والالتزام ـ على معنى كل من التحميد، والتهليل، والتكبير، كما بينه أبو العباس القرطبي فيما سبق نقله عنه قريباً، وإن جعل هو تلك الدلالة موجبة للتسوية بين هذه الكلمات الأربع، فإن غيره جعلها موجبة لأفضلية التسبيح(٤).

القول الثاني: أن التحميد أفضل من التسبيح من جهة المعنى، بسبب «أن التحميد إثبات المحامد كلها لله، فدخل في ذلك إثبات صفات الكمال ونعوت الجلال كلها، والتسبيح هو تنزيه الله عن

---

(١) هذه بحسب ما اطلعت عليه بالبحث، وهي دائرة في المفاضلة بين التسبيح والتحميد والتهليل، وأما التكبير فلم أطلع على قول بأفضليته على غيره من الثلاث المذكورة، والله تعالى أعلم.

(٢) انظر: التمهيد، لابن عبد البر: ٦/٤٩، ٥٠ ـ ٥١، وتحفة الذاكرين، للشوكاني: ص٣٧٤.

(٣) انظر: ص٤٢٢ ـ ٤٣٦ من البحث.

(٤) انظر: الكاشف عن حقائق السنن، للطيبي: ٦/١٨٢٢.

النقائص والعيوب والآفات، والإثبات أكمل من السلب»[١].

كما أن التحميد أفضل من التسبيح والتهليل والتكبير من جهة كثرة الثواب، لما جاء في حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله اصطفى من الكلام أربعاً: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر. فمن قال: سبحان الله، كتب الله له عشرين حسنة وحط عنه عشرين سيئة، ومن قال: الله أكبر، فمثل ذلك، ومن قال: لا إله إلا الله، فمثل ذلك، ومن قال: الحمد لله رب العالمين، من قبل نفسه، كتبت له ثلاثون حسنة وحط عنه ثلاثون سيئة**»[٢].

فقد جعل ثواب التحميد ـ في هذا الحديث ـ زائداً على ثواب التسبيح والتهليل والتكبير، فدل ذلك على أفضلية التحميد[٣].

وقد سبق إيراد هذا الحديث في الفضل المشترك للتسبيح، مع بيان وجه زيادة ثواب التحميد خاصة إذا قاله العبد من قبل نفسه[٤].

وأما ما ذكر من تفضيل التحميد على التسبيح من جهة المعنى، فيمكن أن يجاب عنه بأن التسبيح وإن كان سلباً إلا أنه يتضمن إثباتاً ويستلزمه، وليس سلباً محضاً[٥]، كما أن التحميد إثبات يستلزم سلباً، وهو سلب المعايب المنافية للمحامد.

---

(١) مقتبس من: جامع العلوم والحكم، لابن رجب الحنبلي: ٢/١٧ ـ ١٨. وانظر: التمهيد، لابن عبد البر: ٦/٤٢، ٤٧، والإعلام بفوائد عمدة الأحكام، لابن الملقن: ١/٨٣ ـ ٨٤.

(٢) سبق ذكر جزئه الأول وتخريجه في ص٤٤٩.

(٣) انظر: التمهيد، لابن عبد البر: ٦/٤٧، وجامع العلوم والحكم، لابن رجب: ٢/٢٠ ـ ٢١.

(٤) انظر: ص٤٥٣ من البحث.

(٥) سبق بيان ذلك عند الكلام على دلالة التسبيح على التعظيم، في ص٧٨ ـ ٨٦ من البحث.

القول الثالث: أن التهليل أفضل من التسبيح والتحميد والتكبير، ومن الذكر كله[١]، لأدلة منها:

حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله**»[٢].

وحديث أبي ذر رضي الله عنه قال: «قلت: يا رسول الله، أفمن الحسنات لا إله إلا الله؟ قال: «**هي أفضل الحسنات**»»[٣].

وقول الرسول ﷺ: «**أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له**»[٤].

ففي هذه الأحاديث كلها التصريح بأن التهليل أفضل مطلقاً[٥].

وربما قوبل هذا الاستدلال بأن التسبيح وردت فيه أيضاً أحاديث تفيد أنه أفضل مطلقاً، وهذا صحيح، لكن للتهليل ـ بالإضافة إلى هذه الأحاديث المذكورة ـ من الخصائص والمزايا ما يقطع بها أنه أفضل من التسبيح والتحميد والتكبير، ومن ذلك:

(١) انظر: التمهيد، لابن عبد البر: ٦/ ٤٢، ٤٩، ٥١، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠/ ٦٦١، والكاشف عن حقائق السنن، للطيبي: ٦/ ١٨٢٢، وفتح الباري، للحافظ ابن حجر: ١١/ ٢٠٧.

(٢) سبق ذكر جزئه الأخير مع تخريجه في ص١٠٦.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده: ٥/ ١٦٩، والراوي عن أبي ذر أشياخ مبهمون، وبقية رجال الإسناد ثقات، ويشهد له حديث جابر المذكور قبله.

(٤) أخرجه مالك في الموطأ: ١/ ١٨٨، كتاب القرآن، برقم (٣٢)، مرسلاً، وأخرجه الترمذي بنحوه في سننه: ٥/ ٥٣٤، برقم (٣٥٨٥) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مرفوعاً، وفي إسناده ضعف.
والمرسل صحيح، وله عدة شواهد تقدم تخريجها في ص١٠٧ من البحث.

(٥) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٤/ ٢٣٤ ـ ٢٣٥.

١ ـ أن التهليل هو أول أركان الإسلام، وهو مفتاح الإسلام وبابه الذي لا يدخل إليه إلا منه، وعماده الذي لا يقوم بغيره[١].

٢ ـ أن التهليل هو أفضل شعب الإيمان وأرفعها، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الإيمان بضع وسبعون، أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**»[٢]. وفي رواية: «**الإيمان بضع وسبعون بابا، أدناها إماطة الأذى عن الطريق، وأرفعها قول: لا إله إلا الله**»[٣].

٣ ـ أن التهليل هو الذي بعث به جميع الرسل، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

٤ ـ أن التهليل يدل على تخصيص الله تعالى بالإلهية، وأنه ليس هناك أحد يتصف بالإلهية الحقة إلا الله تعالى وحده لا شريك له، والإلهية تتضمن أنه سبحانه مستحق لصفات الكمال كلها، منزه عن النقائص كلها، وعن أن يكون كمثله شيء، بل هو فوق كل شيء وأكبر من كل شيء. ويتضح من هذا أن (سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر) من معنى (لا إله إلا الله)، لكن فيها تفصيل بعد إجمال[٤]، فمنزلة التهليل الأصل، ومنزلة التسبيح والتحميد والتكبير الفرع[٥].

---

(١) انظر: تحفة الذاكرين، للشوكاني: ص٣٤٧.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: ١/ ٦٣، برقم (٣٥)، والبخاري في الأدب المفرد: ٢٠٤، برقم (٥٩٨).

(٣) أخرجه الترمذي في سننه: ٥/ ١٢، برقم (٢٦١٤)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

(٤) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٤/ ٤٢١.

(٥) انظر: المصدر السابق: ٢٤/ ٢٣٥.

وبهذا كله يرجح القول بأفضلية التهليل على بقية ألفاظ الذكر، وليس هذا المقام لسرد الأدلة لأفضلية التهليل، بل للإشارة إلى بعضها.

ومع هذا فينبغي أن يعلم أن تفضيل التهليل على جميع ألفاظ الذكر أمر مطلق، ولا يقتضي أن يكون التهليل أفضل في كل زمان أو مكان أو حال، فإن المفضول من الذكر ـ كالتسبيح والتحميد والتكبير ونحوها ـ قد يعرض له ما يكون به أفضل من التهليل، وهو تفضيل اعتباري لا ينافي كون التهليل أفضل مطلقاً. وقد قعد شيخ الإسلام ابن تيمية لذلك أصلاً عظيماً، فقال: «وهنا أصل ينبغي أن نعرفه، وهو: أن الشيء إذا كان أفضل من حيث الجملة، لم يجب أن يكون أفضل في كل حال ولا لكل أحد، بل المفضول في موضعه الذي شرع فيه أفضل من الفاضل المطلق، كما أن التسبيح في الركوع والسجود أفضل من قراءة القرآن، ومن التهليل والتكبير، والتشهد في آخر الصلاة والدعاء بعده أفضل من قراءة القرآن...» اهـ[1].

فالحاصل في مسألة المفاضلة بين التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير أن هذه الكلمات الأربع تشترك في الفضل في مواضع عديدة، وينفرد كل منها بالفضل في مواضع أخرى يكون فيها أفضل مما سواه بمقتضى الشرع، ولكن التهليل أفضل على الإطلاق، لما له من الخصائص والمزايا في الدين.

والمنهج القويم في التعبد لله تعالى والثناء عليه بهذه الأذكار أن يأتي العبد في كل زمان وفي كل مكان وفي كل حال بما هو أفضل منها مفرداً أو مجموعاً مع غيره، وفق ما دلت عليه النصوص من الكتاب والسنة، والله تعالى أعلم.

---

(١) المصدر نفسه: ٢٤/٢٣٦ ـ ٢٣٧.

الفصل الثالث

منزلة التسبيح في العقيدة

❑ توطئة:

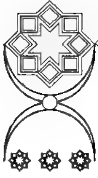
وإذا كانت للتسبيح منزلة في الدين على وجه العموم، يعرف ذلك بما سبق بيانه من حكمه وفضله في الكتاب والسنة، فإن للتسبيح منزلة عظمى في العقيدة على وجه الخصوص. وإن كان ما سبق بحثه ـ من معاني التسبيح، وأنواعه، وحكمه ـ قد تضمن بياناً لصلة التسبيح بالعقيدة، إلا أن التنويه بالمنزلة التي يحتلها التسبيح في العقيدة الإسلامية مهم جداً، لترسيخ المفهوم الصحيح للتسبيح، وتوضيح صلته الوثيقة بالعقيدة، وذلك من خلال المباحث الأربعة الآتية:

المبحث الأول: التسبيح دال على وصف لله تعالى.

المبحث الثاني: التسبيح من شواهد الإيمان بالله تعالى.

المبحث الثالث: التسبيح من أصول توحيد الله تعالى.

المبحث الرابع: التسبيح من دلائل حسن العقيدة الإسلامية.




المبحث الأول

التسبيح دال على وصف لله تعالى

من أعظم أوصاف الله تعالى التي قررها الكتاب والسنة نزاهته سبحانه من النقائص والعيوب كلها، وبراءته من الأقوال السيئة والأفعال الذميمة جميعها، وتعاليه عن أن يكون له مماثل أو مساو أو معاون.

والتسبيح ـ كما علم من بيان معناه اللغوي والشرعي ـ موضوع للدلالة على هذا المعنى بألطف لفظ وأجمله وأبلغه، ومن هنا كان التسبيح دالا على أعظم وصف لله ﷻ.

ويؤيد ذلك أنه قد اشتق من التسبيح اسم من أسماء الله تعالى الحسنى، وهو: (السبوح)(١).

وقد ثبت هذا الاسم فيما روته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «أن رسول الله ﷺ كان يقول ـ في ركوعه وسجوده ـ: «**سبوح قدوس، رب الملائكة والروح**»»(٢).

قال ابن قتيبة(٣): «ومن صفاته (سبوح)، وهو مبني على (فعول)

---

(١) انظر: كتاب التوحيد ومعرفة أسماء الله ﷻ وصفاته على الاتفاق والتفرد، للإمام الحافظ ابن منده، تحقيق الأستاذ الدكتور علي بن ناصر الفقيهي: ٢/ ١٣٧، ونور المسرى، لأبي شامة: ص٤٦.

(٢) سبق تخريجه في ص١١٨.

(٣) هو عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، أبو محمد، الإمام العلامة اللغوي، كان ثقة دينا فاضلا، وله تصانيف عديدة ومفيدة، منها: تأويل مشكل القرآن، =

من (سبح الله) إذا نزهه وبرأه من كل عيب»[١].

وقال ابن فارس: «وفي صفات الله جل وعز (سبوح)، واشتقاقه من الذي ذكرناه ـ يعني من التسبيح ـ أنه تنزه من كل شيء لا ينبغي له»[٢].

وقال الخطابي: «السبوح: المنزه عن كل عيب. جاء بلفظ (فعول) من قولك: سبحت الله، أي: نزهته»[٣].

وقال أبو القاسم التيمي: «السبوح: المستحق للتنزيه والتعظيم» اهـ[٤].

ونقل عن بعض العلماء في معنى (السبوح) أيضاً أنه: «الذي جل عن التشبيه والتعطيل، وبعد عن كل نقص وعيب، فيكون من أوصافه الذاتية التي لم يزل موصوفاً بها» اهـ[٥].

وفي هذا كله بيان أن (السبوح) اسم من أسماء الله الحسنى، اشتق من التسبيح للدلالة على صفة من صفات الله الذاتية، وهي النزاهة والبراءة من كل نقص وعيب، ومن أن يكون معطلاً عن كماله، وأن يكون كمثله شيء. وبني على (فعول) لإفادة المبالغة في هذه الدلالة؛ لأن بناء (فعول) من أبنية المبالغة[٦].

= وتأويل مختلف الحديث، وأدب الكاتب، وغيرها. وتوفي سنة (٢٧٦هـ)، رحمه الله. انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي: ٢/ ٦٣١ ـ ٦٣٣، والبداية والنهاية، لابن كثير: ١١/ ٥٢، ٦١.

(١) تفسير غريب القرآن: ص٨.

(٢) مقاييس اللغة: ٣/ ١٢٥.

(٣) شأن الدعاء: ص١٥٤.

(٤) إعراب القرآن: ١٩٧.

(٥) نور المسرى، لأبي شامة: ص٤٦.

(٦) انظر: النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير: ٤/ ٢٣، والمفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، للقرطبي: ٢/ ٩١.

وعلى هذا فالسبوح اسم الله تعالى ووصفه، ولا تنافي اسميته وصفيته، كسائر أسماء الله الحسنى، فهي أسماء، وهي أوصاف؛ لأنها دالة على صفات كماله، وبذلك كانت حسنى، إذ لو كانت ألفاظاً لا معاني فيها لم تكن حسنى، ولا كانت دالة على مدح ولا كمال[(١)].

* وكما اشتق من لفظ التسبيح اسم الله (السبوح)، اشتق من معناه أسماء حسنى لله تعالى، وهي الأسماء التي ترجع إلى التنزيه، كالقدوس، والسلام، والمتعالي[(٢)].

وقد تقدم ذكر هذه الأسماء الثلاثة والكلام عليها ضمن الألفاظ الدالة على معنى التسبيح[(٣)].

* وكذلك يندرج في التسبيح كل نفي ورد في حق الله تعالى، كما سبق أيضاً الكلام عليه في الألفاظ الدالة على معنى التسبيح[(٤)].

* ومما له صلة باشتقاق وصف لله تعالى من التسبيح ما ثبت في السنة النبوية من نسبة (السبحات) إلى وجه الله ﷻ، كما في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: «قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات، فقال: «**إن الله ﷻ لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام. يخفض القسط ويرفعه. يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل. حجابه النور ـ وفي رواية: النار ـ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**»»[(٥)].

---

(١) انظر: بدائع الفوائد، لابن القيم: ١/ ٢٧، ومدارج السالكين، له: ١/ ٥١ ـ ٥٢.
(٢) انظر: بدائع الفوائد، لابن القيم: ١/ ١٧٦، وجزء في تفسير الباقيات الصالحات، للعلائي: ص٤١.
(٣) انظر: ص١١٣ ـ ١٢٩. (٤) انظر: ص١٣٣ ـ ١٤٤.
(٥) سبق تخريجه وشرح بعض ألفاظه في ص٢٦٠.

فالسبحات ـ بضم السين والباء ـ: جمع، واحدتها سبحة[١].

قال أبو عبيد الهروي[٢]: «يقال في السبحة: إنها جلال وجهه ونوره.

ومنه قيل: سبحان الله، إنما هو تعظيم الله وتنزيهه.

وهذا الحرف ـ قوله: (سبحات وجهه) ـ لم نسمعه إلا في هذا الحديث»[٣].

وقال أبو بكر الأنباري[٤]: «ويكون التسبيح النور، ومنه الحديث الذي يروى: (لولا ذلك لأحرقت سبحات وجهه ما أدركت من شيء)[٥]»[٦].

وفي هذين القولين بيان لما بين السبحات والتسبيح من التناسب

---

(١) انظر: المخصص، لابن سيده: ١٦/ ١٦٣، والنهاية في غريب الحديث، لابن الأثير: ٢/ ٣٣٢.

(٢) هو القاسم بن سلام ـ بالتشديد ـ البغدادي، أبو عبيد الهروي، الإمام الحافظ المشهور، واللغوي الفقيه المجتهد، ولي قضاء الثغور مدة، وكان ثقة فاضلا مأموناً، وله مصنفات مفيدة في القراءات، والناسخ والمنسوخ، وغريب الحديث، والأموال، وغيرها، وتوفي سنة (٢٢٤هـ)، رحمه الله تعالى. انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي: ٢/ ٤١٧، وتقريب التهذيب، لابن حجر: ٢/ ١٢٤.

(٣) غريب الحديث: ٣/ ١٧٣.

(٤) هو محمد بن القاسم بن محمد بن بشار الأنباري، أبو بكر، الحافظ العلامة، كان صدوقا دينا من أهل السنة، وكان من أفراد الدهر في سعة الحفظ، ومن أعلم الناس بالنحو والأدب، وله مصنفات كثيرة، في القراءات، والغريب، والمشكل، والوقف والابتداء، وغير ذلك، توفي سنة (٣٢٨هـ)، رحمه الله. انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي: ٣/ ٨٤٢ ـ ٨٤٤، وبغية الوعاة، للسيوطي: ١/ ٢١٢ ـ ٢١٤.

(٥) لم أقف على الحديث بهذا اللفظ، وهو قريب مما عند ابن ماجه بلفظ: «حجابه النور، لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره» [سنن ابن ماجه: ١/ ٧١، برقم (١٩٦)].

(٦) الزاهر في معاني كلمات الناس: ١/ ١٤٥.

في اللفظ والمعنى، أما الهروي فبين أن كلمة (سبحان الله) مأخوذة من (السبحة) بمعنى جلال وجه الله ونوره. وأما الأنباري فبين أن لفظ (سبحات) مأخوذة من التسبيح، بمعنى النور.

ولا تناقض بين قوليهما؛ لأن المقصود بيان أن كلا من التسبيح والسبحات مناسب للآخر لفظاً ومعنى.

وتجدر الإشارة هنا ـ توضيحاً لهذا التناسب ـ إلى أن السبحات والتسبيح يجتمعان ـ من حيث اللفظ ـ في مادة لغوية واحدة، هي مادة (سبح) المكونة من السين والباء والحاء.

وأما من حيث المعنى، فقد ذكر الإمام النووي أن جميع الشارحين للحديث من اللغويين والمحدثين قالوا: «معنى سبحات وجهه: نوره وجلاله وبهاؤه»[(١)].

وقبله قال القاضي عياض[(٢)] ـ في معنى السبحات ـ: «هي النور والجلال ـ كما قالوا ـ وما في معناها من البهاء والجمال والكبرياء والعظمة ونعوت التعالي»[(٣)].

---

(١) شرح صحيح مسلم: ٣/ ١٣ ـ ١٤. وانظر ـ لتثبيت ما ذكر ـ: كتاب العين، للفراهيدي: ٣/ ١٥١، وتهذيب اللغة، للأزهري: ٤/ ٣٣٩، والمحكم والمحيط الأعظم في اللغة، لابن سيده: ٣/ ١٥٥، ولسان العرب، لابن منظور: ٢/ ٤٧٣.

(٢) هو عياض بن موسى بن عياض اليحصبي، أبو الفضل السبتي الأندلسي، العلامة الحافظ القاضي المالكي، أحد الأعلام من علماء المغرب، له تصانيف بديعة، منها: الشفا في التعريف بحقوق المصطفى، ومشارق الأنوار على صحاح الآثار، وغيرهما، وتوفي سنة (٥٤٤هـ)، رحمه الله. انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي: ٤/ ١٣٠٥ ـ ١٣٠٦، وشجرة النور الزكية في طبقات المالكية، للشيخ محمد بن محمد مخلوف: ص١٤٠ ـ ١٤١.

(٣) إكمال المعلم بفوائد مسلم: ١/ ٥٣٦.

وقال أبو العباس القرطبي: «والسبحات: جمع سبحة، وأصله: جمال الوجه وبهاؤه، ثم يعبر بها عن العظمة والجلال»[١].

ونقل ابن الأثير[٢] أقوالاً في معنى (سبحات وجهه) نحو ما سبق، ثم قال: «وأقرب من هذا كله أن المعنى: لو انكشف من أنوار الله التي تحجب العباد عنه شيء، لأهلك كل من وقع عليه ذلك النور، كما خر موسى عليه السلام صعقاً، وتقطع الجبل دكاً، لما تجلى الله تبارك وتعالى[٣]» اهـ[٤].

وكأنه يرجح في معنى (سبحات وجهه) أنها أنوار وجهه، وهذا المعنى صحيح، ولكنه لا ينافي المعاني الأخرى التي قيلت، بل يوافقها، فإن أنوار وجه الله تعالى التي لو كشف الحجاب عنها لتدكدك العالم كله، دليل على جمال الله سبحانه وكماله وجلاله وعظمته وكبريائه وبهائه وتعاليه عن النقص والمثيل.

وعن هذا عبر الإمام ابن القيم حيث قال: «من أعز أنواع المعرفة معرفة الرب سبحانه بالجمال، وهي معرفة خواص الخلق، كلهم عرفه بصفة من صفاته، وأتمهم معرفة من عرفه بكماله وجلاله وجماله سبحانه، ليس كمثله شيء في سائر صفاته، ولو فرضت الخلق كلهم على أجملهم صورة، وكلهم على تلك الصورة، ونسبت جمالهم الظاهر

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم: ١/ ٤١١.

(٢) هو المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، مجد الدين، أبو السعادات، المعروف بابن الأثير الجزري، كان محدثا ولغويا بارعا، من مصنفاته: جامع الأصول من أحاديث الرسول، والنهاية في غريب الحديث والأثر. توفي سنة (٦٠٦هـ)، رحمه الله. انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: ١/ ٤٨٨ ـ ٤٩١.

(٣) انظر: ما سبق في ص٣٠٢.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر: ٢/ ٣٣٢.

والباطن إلى جمال الرب سبحانه، لكان أقل من نسبة سراج ضعيف إلى قرص الشمس، ويكفي في جماله (أنه لو كشف الحجاب عن وجهه لأحرقت سبحاته ما انتهى إليه بصره من خلقه)[١].

ويكفي في جماله أن كل جمال ظاهر وباطن في الدنيا والآخرة فمن آثار صنعته، فما الظن بمن صدر عنه هذا الجمال؟!» اهـ[٢].

ومعلوم أن ما دل عليه التسبيح من التنزيه البليغ لله تعالى من كل وجه وبكل اعتبار، هو من معاني جمال ذاته، وجمال أسمائه، وجمال صفاته، وجمال أفعاله، ومن معاني كماله وجلاله وعظمته، وبذلك كان التسبيح تعظيماً لله ﷻ، وثناء عليه بما يليق به، كما سبق بيانه مراراً، فظهر بهذا التناسب التام بين سبحات الله تعالى وتسبيحه في اللفظ والمعنى، وصح أن يقال: إن كلا منهما مشتق من الآخر.

وبمعرفة ما بين التسبيح والسبوح وسبحات وجه الله تعالى من المناسبة في اللفظ وفي المعنى، يتبين ما للتسبيح من منزلة في العقيدة، لكونه قد اشتق منه أوصاف عظيمة مما يلزم العبد اعتقاده، وإثباته لله سبحانه على ما يليق بكماله وجلاله وجماله.

فالله ﷻ يسمى بالسبوح. ويوصف بأن لوجهه سبحات، لو كشفها لاحترق ـ من عظمة أنواره ـ جميع الخلق. ويذكر بكلمة: سبحان الله، تنزيها له وتعظيماً. ويخبر عنه بأنه ذو السبحان ـ أي: ذو النزاهة والبراءة من كل ما لا يليق به ـ، كما قال الراجز:

«سبحانك اللهم ذا السبحان»[٣].

---

(١) مقتبس من الحديث السابق.

(٢) الفوائد: ص٣١٨ ـ ٣١٩.

(٣) سبق ذكر هذا الرجز مع التعليق عليه عند الكلام على لفظ (سبحان)، في ص٦١. وقد اقتبسه الإمام ابن قيم الجوزية في عدة مواضع في قصيدته النونية المسماة: الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية: ص٥١، ١١٨، ٣٢٦.

وقال الناظم السني:

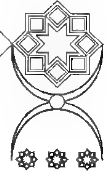
«سبحان ذي الجبروت والملكوت والـ إجلال والإكرام والسبحان»[(١)]

كما يخبر عنه بأنه المسبح في ذاته، وفي أسمائه وصفاته، وفي أقواله وأفعاله، عن كل نقص وعيب، وتمثيل وتعطيل. كما قال الناظم المسبح لله تعالى:

«وهو الموحد والمسبح والممجـ ـد والحميد ومنزل القرآن
والأمر من قبل ومن بعد له سبحانك اللهم ذا السلطان»[(٢)]

(١) بيت من القصيدة النونية، لابن قيم الجوزية: ص٣٥٢.

(٢) المصدر السابق: ص٣٥٢.

المبحث الثاني

التسبيح من شواهد الإيمان بالله تعالى

قد علم مما سبق بيانه في حكم التسبيح أنه لا يقع شرعاً ولا لغة إلا متعلقاً بالله تعالى مختصاً به، كما علم من بيان معناه أنه ثناء على الله تعالى بالتنزيه والتعظيم له على وجه الاختصاص عن كل ما لا يليق بكماله وعظمته.

ولهذا لا يتصور أن يصدر التسبيح على وجهه شرعاً ولغة إلا ممن يؤمن بالله تعالى رباً خالقاً، وإلهاً معبوداً، منزهاً عن العيوب والنقائص، وعن الأمثال والشركاء.

وهذا الاستلزام بين التسبيح والإيمان هو مما فارق فيه الثناء الدعاء ـ أعني دعاء المسألة ـ، فإن الثناء المشروع ـ كالتسبيح والتحميد والتكبير ـ يستلزم الإيمان بالله تعالى، بخلاف الدعاء، فقد لا يستلزمه، إذ الكفار أيضاً يسألون الله تعالى كما يسأله المؤمنون، وقد أخبر الله تعالى عن نفسه فقال: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمن: ٢٩].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ومما يبين فضل الثناء على الدعاء أن الثناء المشروع يستلزم الإيمان بالله، وأما الدعاء فقد لا يستلزمه، إذ الكفار يسألون الله فيعطيهم، كما أخبر الله بذلك في القرآن في غير موضع، فإن سؤال الرزق والعافية ونحو ذلك من الأدعية المشروعة هو مما يدعو به المؤمن والكافر، بخلاف الثناء، كقوله: (سبحانك اللهم

وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك)[١]، و(التحيات لله والصلوات والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته)[٢]، فإن هذا لا يثني به إلا المؤمن. وكذلك قوله: (اللهم ربنا ولك الحمد، ملء السماوات وملء الأرض وملء ما بينهما، وملء ما شئت من شيء بعد)[٣]. لكن قد يكون بعض الثناء يقر به الكفار، كإقرارهم بأن الله خالق السموات والأرض، وأنه يجيب المضطر إذا دعاه، ونحو ذلك. لكن المشركون لم يكن لهم ثناء مشروع يثنون به على الله، حتى في تلبيتهم كانوا يقولون: (لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك)، وكذلك النصارى ثناؤهم فيه الشرك، وأما اليهود فليس في عبادتهم ثناء، اللهم إلا ما يكون مأثوراً عن الأنبياء، وذلك من ثناء أهل الإيمان، وكذلك النصارى إن كان عندهم شيء من ذلك. وأما ما شرعه من ثنائه فهو يتضمن الإيمان» اهـ[٤].

وهذا في الثناء المشروع عموماً، وأما في التسبيح المشروع خصوصاً، فإن الله تعالى جعل التسبيح من شواهد الإيمان في قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾﴾ [السجدة: ١٥]، فأخبر تعالى أن المؤمن

---

(١) هذا الثناء ورد في أحاديث عديدة أن النبي ﷺ كان يقوله في افتتاح الصلاة، وانظر تخريجه مفصلاً في مبحث التسبيح في افتتاح الصلاة، ص٥١٥.

(٢) هذا جزء من التشهد المشروع في الصلاة، ورد به حديث متفق عليه: أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ١١/١٣، برقم (٦٢٣٠)، ومسلم في صحيحه: ١/٣٠١ ـ ٣٠٢، برقم (٤٠٢).

(٣) ورد هذا فيما كان يقوله رسول الله ﷺ بعد الرفع من الركوع في الصلاة، وأخرجه مسلم في صحيحه: ١/٣٤٦ ـ ٣٤٧، برقم (٤٧٦ ـ ٤٧٨) من حديث ابن عباس، وأبي سعيد الخدري، وعبد الله بن أبي أوفي.

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٢/٣٨٢ ـ ٣٨٣.

هو الذي يسبح بحمد ربه إذا ذكر بآياته، بل دلت الآية على أنه لا يكون مؤمناً إلا من إذا ذكر بآيات ربه سجد وسبح بحمد ربه(١)، وهذا يتحقق بالتسبيح في الصلاة في الركوع والسجود بعد القراءة، لهذا كانت هذه الآية مما استدل به على وجوب التسبيح في الركوع والسجود داخل الصلاة(٢)، وعلى فضل التسبيح أيضاً(٣).

وقرن الله تعالى بين التسبيح والإيمان في قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ [غافر: ٧]، وفي قوله تعالى: ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا ۝٩﴾ [الفتح: ٩].

وهذا ـ والله تعالى أعلم ـ لما للتسبيح من التأثير في الإيمان بالزيادة والتقوية والتصفية مما يناقض الإيمان الصحيح.

وقد جاء في الأثر عن عمير بن حبيب(٤) رضي الله عنه قال: «الإيمان يزيد وينقص. فقيل: وما زيادته وما نقصانه؟ قال: إذا ذكرنا الله فحمدناه وسبحناه، فتلك زيادته، وإذا غفلنا وضيعنا ونسينا فذلك نقصانه»(٥).

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٢/١٤٩.

(٢) انظر: ما سبق في حكم التسبيح ص٣٩٧.

(٣) انظر: ص٤٢٧.

(٤) هو عمير بن حبيب بن خماشة بن جويبر بن عبيد الأنصاري الخطمي، صحابي ممن بايع تحت الشجرة، ولم تذكر سنة وفاته رضي الله عنه. انظر: الإصابة، للحافظ ابن حجر العسقلاني: ٤/ ٧١٤ ـ ٧١٥.

(٥) أخرجه أبو بكر الآجري في كتاب الشريعة، تحقيق الدكتور عبد الله بن عمر الدميجي: ٢/ ٥٨٤، برقم (٢١٦)، وأبو القاسم اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة: ٣/ ٩٤٩، برقم (١٧٢١)، وأبو عثمان الصابوني في عقيدة السلف أصحاب الحديث، تحقيق بدر بن عبد الله البدر: ٨٢، برقم (١٠٥).

ومصداق هذا الأثر حديث يسيرة رضي الله عنها قالت: قال لنا رسول الله ﷺ: «**عليكن بالتسبيح والتهليل والتقديس، ولا تغفلن فتنسين التوحيد**»[(١)].

فإن هذا الحديث يدل على أن ملازمة التسبيح والتهليل والتقديس ذكر للتوحيد واستحضار له، وأن الغفلة عن ذلك نسيان للتوحيد.

ويوضح هذه المسألة: أن المؤمن صادق في قوله: (**سبحان الله**)، وكلما كرر ذلك زاد إيمانه وقوي، وتحقق قلبه بالتنزيه والتعظيم والتوحيد لله تعالى، وذلك أن المؤمن إذا سبح الله تعالى فهو مسبح له بإيمانه به ومعرفته إياه، وهو ما في قلبه من جلال الله وإكرامه وعظمته، وتنزهه عن النقائص والعيوب، وتعاليه عن الأمثال والشركاء[(٢)].

فإذا قال المؤمن: (سبحان الله)، فقد نزه الله تعالى، فنزه بذلك قلبه ولسانه عن أن يصف الله تعالى بما لا ينبغي له، وزكى نفسه وعمله عن الشرك بالله سبحانه، وكلما سبح الله عز وجل تنزهت نفسه عن أن يصف الله تعالى بشيء من السوء أو أن يشرك به شيئاً[(٣)].

ولا شك أن المسلمين يشتركون في الإتيان بالتسبيح في الصلاة وخارج الصلاة، ويتفاوتون في معرفتهم بمضمون هذا التسبيح وفي قيامهم بمقتضاه ظاهراً وباطناً تفاوتاً لا يحصيه إلا الله تعالى.

فأصح الناس تسبيحاً وأكملهم فيه الأنبياء والرسل عليهم السلام الذين هم أعلم الناس بالله تعالى وأكثرهم قياماً بمقتضى العبودية، ثم أتباعهم

---

(١) سبق تخريجه ص٢٠٨.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٣٥/ ٢٧٥.

(٣) انظر: قاعدة حسنة في الباقيات الصالحات، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ص٣٤ - ٣٦.

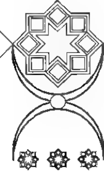
المؤمنون الذين تلقوا علمهم بالله تعالى من مشكاة النبوة، وكانوا في عقيدتهم وعبادتهم على هدي الأنبياء والمرسلين، من الإيمان بالله تعالى وإثبات ما أثبته لنفسه وأثبته له أنبياؤه ورسله من صفات الكمال، ونفي ما نفاه الله تعالى عن نفسه ونفاه عنه أنبياؤه ورسله مما يضاد كماله وينافي وحدانيته من النقائص والأمثال والشركاء.

فكل تسبيح لله تعالى قام على هذا الاعتقاد الصحيح كان تسبيحاً مؤثراً في نفس صاحبه إيماناً وتوحيداً وزكاة، بإذن الله تعالى.

وأبخس الناس حظاً في التسبيح أولئك الذين يلوكون التسبيح بأفواههم وقلوبهم خاوية من معناه الصحيح، إما لغفلتهم عن هذا المعنى بعدم استحضاره وترك التأمل فيه، وإما لعدم عنايتهم بتعلمه وتفهمه كما ينبغي.

والأسوأ من ذلك أن ينطوي القلب على اعتقاد فاسد مخالف لما جاءت به الأنبياء والرسل، كمن ينفي صفات الله تعالى، أو يمثل الله ﷻ بخلقه، أو يصرف شيئاً من العبادة لغير الله تعالى، فإن من هذا حاله ليس عنده علم بالله تعالى، ولم يؤمن به سبحانه كما يجب، فلا يكون لتسبيحه تأثير في نفسه ولا في إيمانه؛ لأن ما قام بقلبه من الاعتقاد الفاسد يحول دون ذلك، فليصحح اعتقاده أولاً.

وبالجملة فإن التسبيح القائم على العلم بمعناه الصحيح الموافق لهدي الكتاب والسنة من شواهد الإيمان بالله تعالى ومقوماته وأسباب زيادته وسلامته مما ينافي تنزيه الله تعالى وتوحيده، وبالله التوفيق.



المبحث الثالث



التسبيح من أصول توحيد الله تعالى

توحيد الله تعالى يتناول توحيده في الاعتقاد والقول، وتوحيده في الإرادة والعمل.

فالأول يسمى: التوحيد الاعتقادي القولي؛ لأنه يتعلق باعتقاد القلب وقول اللسان، وهو الإيمان بحقيقة ذات الله تعالى وأسمائه وصفاته، وأقواله وأفعاله، وبأنه سبحانه منزه عن العيوب والنقائص، والأمثال والأنداد، والثناء عليه ﷻ بوصفه بما يستحقه من الكمال والجلال والجمال، وبتنزيهه عما لا يليق بوحدانيته وعظمته.

ويسمى هذا النوع أيضاً: التوحيد العلمي الخبري، لتعلقه بالعلم بالله تعالى المستفاد من الخبر الصادق: من كتاب الله تعالى، أو سنة رسوله ﷺ.

وربما سمي أيضاً: توحيد المعرفة والإثبات؛ لأن المقصود منه المعرفة بالقلب، والإثبات باللسان.

والثاني يسمى: التوحيد الإرادي العملي؛ لأنه يتعلق بإرادة العبد وعمله، وهو عبادة الله تعالى وحده بما شرع من أعمال القلوب والجوارح، لا يشرك به شيء في شيء من أنواع العبادة، فيكون الله وحده هو مراد العبد بجميع أعماله التي يقوم بها على وجه التقرب.

ولهذا يسمى هذا النوع أيضاً: توحيد القصد والطلب؛ لأن معناه توحيد الله ﷻ بالقصد والطلب في جميع أنواع العبادة.

كما يسمى: توحيد العبادة، وتوحيد الألوهية؛ لأن معناه إفراد الله تعالى بالعبادة. والألوهية: هي كونه الإله المألوه ـ أي المعبود ـ الذي ينبغي أن يعبده الخلق وحده، ولا يشركوا به شيئاً.

وقد دخل في ما سبق ذكره أنواع التوحيد الثلاثة المعروفة عند أهل السنة والجماعة، وهي: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات.

فتوحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات، مدلولهما اعتقادي قولي، فهما داخلان في التوحيد الاعتقادي القولي.

وتوحيد الألوهية مدلوله إرادي عملي، فهو التوحيد الإرادي العملي. فهذه أنواع التوحيد التي دل عليها الكتاب والسنة، واتفق عليها أهل السنة والجماعة[1].

وهي أنواع متلازمة، كل نوع منها مرتبط بالآخر، دال عليه لزوماً[2]، ولا يتحقق توحيد الله تعالى إلا بالإتيان بها جميعاً، فمن أتى بنوع منها ولم يأت بالآخر، فما ذاك إلا أنه لم يأت بالتوحيد على وجه

---

(١) انظر: الكلام على أنواع التوحيد في: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠٧/١٧ ـ ١٠٨، وبيان تلبيس الجهمية، له: ١/ ١٣٤، ٤٧٩. ومدارج السالكين، لابن قيم الجوزية: ١/ ٤٨ و٣/ ٤١٧. وبدائع الفوائد، له: ١/ ١٥٣. وشرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز: ١/ ٢٤، ٤٢ ـ ٤٣. ومجموعة التوحيد، بتحقيق بشير محمد عيون: ١/ ٥ ـ ٧، وتيسير العزيز الحميد، للشيخ سليمان بن عبد الله: ٣٣ ـ ٣٦. والقول السديد في مقاصد التوحيد، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص١١ ـ ١٤. ومعارج القبول، للشيخ حافظ الحكمي: ١/ ٩٨. ودعوة التوحيد، للشيخ محمد خليل هراس: ص١٠ ـ ٣٣، وشرح القصيدة النونية للإمام ابن القيم، له: ٢/ ٥٥ ـ ٥٦، وأضواء البيان، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: (٣/ ٤١٠ ـ ٤١٤).

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠٧/١٧ ـ ١٠٨.

الكمال المطلوب[(١)].

ولهذا لما كان الكفار يقرون بتوحيد الربوبية في الجملة، وبجنس توحيد الأسماء والصفات، وينكرون توحيد الألوهية، لم يكونوا موحدين، بل مشركين، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ١٠٦﴾ [يوسف: ١٠٦].

قال طائفة من السلف ـ في معنى هذه الآية ـ: «تسألهم: من خلقهم؟ ومن خلق السماوات والأرض؟ فيقولون: الله، فذلك إيمانهم بالله. وهم مع هذا يعبدون غيره»[(٢)].

وقال ابن زيد: «ليس أحد يعبد مع الله غيره إلا وهو مؤمن بالله، ويعرف أن الله ربه، وأن الله خالقه ورازقه، وهو يشرك به، ألا ترى كيف قال إبراهيم: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ٧٥ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ٧٦ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٧٧﴾ [الشعراء: ٧٥ ـ ٧٧]، قد عرف أنهم يعبدون رب العالمين مع ما يعبدون. قال: فليس أحد يشرك به إلا وهو مؤمن به. ألا ترى كيف كانت العرب تلبي تقول: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك؟ المشركون كانوا يقولون هذا» اهـ[(٣)].

وهكذا الشأن في كل من قصد غير الله تعالى بشيء من أنواع العبادة، فإنه لا يكون موحداً، وإن أقر ببعض أنواع التوحيد؛ لأنه لم يأت

---

(١) انظر: تيسير العزيز الحميد، للشيخ سليمان بن عبد الله: ص٣٣.

(٢) قد روى ابن جرير الطبري في تفسيره آثاراً كثيرة في هذا المعنى عن عدد من الصحابة والتابعين. انظر: تفسير الطبري: ٧/ ٣١٢ ـ ٣١٣، ودرء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية: ١/ ٢٢٦ ـ ٢٢٧، وتيسير العزيز الحميد، للشيخ سليمان بن عبد الله: ص٣٣ ـ ٣٤.

(٣) رواه الطبري في تفسيره: ٧/ ٣١٣ ـ ٣١٤.

بالتوحيد المطلوب إذ أشرك مع الله سبحانه غيره في شيء من العبادة.

ولهذا أيضاً لما كان بعض الفرق الضالة من المسلمين يقرون بتوحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية ـ في الجملة ـ، ويجحدون صفات الله تعالى أو بعضها، ويلحدون في أسمائه أو بعضها، لم يكونوا موحدين، بل ضالين في التوحيد، واشتد إنكار علماء السلف عليهم، مع بيان مخالفتهم للتوحيد.

فتوحيد الله تعالى لا يتحقق إلا باجتماع أنواعه السابق ذكرها على الوجه الذي بينه الله تعالى في كتابه، وبينه الرسول ﷺ في سنته، وفهمه السلف الصالح رضوان الله عليهم.

يتضح مما سبق بيانه أن التوحيد الاعتقادي القولي المتضمن توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات مبني على أصلين عظيمين:

أحدهما: إثبات صفات الكمال التي وصف الله تعالى بها نفسه في كتابه، أو وصفه بها رسوله ﷺ في سنته، بألفاظها ومعانيها على وجهها، والتحقق بها تصديقاً ومعرفة وتعبداً لله تعالى بها.

الثاني: تنزيه الله ﷻ عما لا يليق بجلاله وعما ينافي كماله من النقائص والعيوب ومشاركة أحد من المخلوقين في شيء من الصفات والخصائص والحقوق(١).

وهذا الأصل الثاني هو مدلول تسبيح الله تعالى، كما أن الأصل الأول هو مدلول حمده سبحانه. وفي بيان ذلك قال العلامة أبو بكر الطرطوشي: «جماع التوحيد في ركنين: أحدهما: نفي النقائص والآفات. والثاني: إثباته على أعلى صفات الجلال ونعوت الكمال

---

(١) انظر: الصواعق المرسلة، لابن قيم الجوزية: ٢/٤٠٢ ـ ٤٠٣، وتوضيح الكافية الشافية، للشيخ عبد الرحمن السعديّ: ص١١٥ ـ ١١٦.

والعظمة والكبرياء. فاختار الله سبحانه لنفي النقائص والآفات لفظ التسبيح، واختار لإثبات المحامد وصفات الجلال لفظ الحمد.

فإذا قال القائل: (سبحان الله وبحمده) فتقديره: براءة لك من النقائص والآفات، والحمد لله على ما أنت أهله من صفات الجلال ونعوت الكمال، وتحقيق الألوهية وثبوت الربوبية» اهـ[١].

وعلى هذين الركنين والأصلين العظيمين قام الاعتقاد الصحيح الذي كان عليه السلف الصالح من هذه الأمة في توحيد الله تعالى بأسمائه وصفاته، كما بين ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية حيث قال: «فقولهم في الصفات مبني على أصلين:

أحدهما: أن الله ﷻ منزه عن صفات النقص مطلقاً، كالسنة، والنوم، والعجز، والجهل، وغير ذلك.

والثاني: أنه متصف بصفات الكمال التي لا نقص فيها على وجه الاختصاص بما له من الصفات، فلا يماثله شيء من المخلوقات في شيء من الصفات» اهـ[٢].

وتقريراً لهذين الأصلين وتفصيلاً لهما جاءت صفات الله تعالى في الكتاب والسنة على نوعين: صفات إثبات، وصفات تنزيه[٣].

فصفات الإثبات: تتمثل فيما أثبته الله تعالى لنفسه، وفيما أثبته له رسوله ﷺ، من صفات الكمال اللائقة بجلاله وعظمته، كالعلم، والسمع، واليد، والرحمة، والملك، والعلو، وغير ذلك من صفات الله الثابتة في الكتاب والسنة.

---

(١) الدعاء المأثور وآدابه: ص١٦٥. (٢) منهاج السنة النبوية: ٢/ ٥٢٣.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٧/ ١٠٧، والقواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى، للشيخ ابن عثيمين: ص٣١ ـ ٣٢.

وصفات التنزيه: تتمثل فيما نزه الله تعالى نفسه عنه، وفيما نزهه عنه رسوله ﷺ، مما لا يليق بكماله وجماله ووحدانيته.

وصفات التنزيه هذه يجمعها معنيان، وهما: تنزيه الله تعالى عن النقائص، وتنزيهه سبحانه عن التمثيل بشيء من خلقه[(١)].

وهذان المعنيان قد سبق الكلام عليهما بالتفصيل في مبحث أنواع التسبيح باعتبار المعنى[(٢)].

فصفات التنزيه داخلة ـ بالجملة ـ في معنى التسبيح.

ووفقاً للأصلين المذكورين أيضاً صرح بعض العلماء بتقسيم التوحيد الاعتقادي القولي إلى نوعين: توحيد الإثبات، وتوحيد التنزيه[(٣)].

ونظير ذلك تقسيم الثناء على الله تعالى إلى قسمين:

أحدهما: ثناء التنزيه والتسبيح، وهو سلب النقائص والتمثيل عن الله تعالى.

والثاني: ثناء الحمد والتمجيد، وهو إثبات صفات الكمال لله تعالى[(٤)].

وقد تجلى تنوع صفات الله تعالى إلى صفات تنزيه وصفات

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠٨/١٧.

(٢) انظر: ص١٤٦ ـ ١٧٥.

(٣) انظر: الكافية الشافية (القصيدة النونية)، لابن القيم: ص٢٣٨ ـ ٢٣٩، وشرح العقيدة الواسطية، لهراس: ص٨٣، والكواشف الجلية، للشيخ عبد العزيز السلمان: ص١١٦.

(٤) انظر: نور المسرى، لأبي شامة: ص٢٧، ٣٢ ـ ٣٣، وبدائع الفوائد، لابن القيم: ٤٢٦/١.

إثبات، وتنوع الثناء عليه إلى ثناء تسبيح وتنزيه، وثناء حمد وتمجيد فيما ذكره الإمام ابن القيم من الأصول التي اتفقت عليها النبوات في وصف الله تعالى، حيث قال رحمه الله: «النبوات من أولها إلى آخرها متفقة على أصول:

- أحدها: أن الله تبارك وتعالى قديم واحد. لا شريك له في ملكه، ولا ند ولا ضد ولا وزير ولا مشير ولا ظهير ولا شافع إلا من بعد إذنه.
- الثاني: أنه لا والد له، ولا ولد، ولا كفؤ ولا نسيب بوجه من الوجوه، ولا زوجة.
- الثالث: أنه غني بذاته، فلا يأكل، ولا يشرب، ولا يحتاج إلى شيء مما يحتاج إليه خلقه بوجه من الوجوه.
- الرابع: أنه لا يتغير، ولا تعرض له الآفات من الهرم، والمرض، والسنة، والنوم، والنسيان، والندم، والخوف، والهم، والحزن، ونحو ذلك.
- الخامس: أنه لا يماثل شيئاً من مخلوقاته، بل ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى: ١١]، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله.
- السادس: أنه لا يحل في شيء من مخلوقاته، ولا يحل في ذاته شيء منها، بل هو بائن عن خلقه بذاته، والخلق بائنون عنه.
- السابع: أنه أعظم من كل شيء، وأكبر من كل شيء، وفوق كل شيء، وغالب على كل شيء، وليس فوقه شيء البتة.
- الثامن: أنه قادر على كل شيء، فلا يعجزه شيء يريده، بل هو الفعال لما يريد.

- التاسع: أنه عالم بكل شيء، يعلم السر وأخفى، ويعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ [الأنعام: ٥٩] ولا ساكن ولا متحرك إلا وهو يعلمه على حقيقته.

- العاشر: أنه سميع بصير، يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات، ويرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء. قد أحاط سمعه بجميع المسموعات، وبصره بجميع المبصرات، وعلمه بجميع المعلومات، وقدرته بجميع المقدورات، ونفذت مشيئته في جميع البريات، وعمت رحمته جميع المخلوقات، ووسع كرسيه الأرض والسموات.

- الحادي عشر: أنه الشاهد الذي لا يغيب، ولا يستخلف أحداً على تدبير ملكه، ولا يحتاج إلى من يرفع إليه حوائج عباده أو يعاونه عليها، أو يستعطفه عليهم ويسترحمه لهم.

- الثاني عشر: أنه الأبدي الباقي الذي لا يضمحل ولا يتلاشى ولا يعدم ولا يموت.

- الثالث عشر: أنه المتكلم المكلم الآمر الناهي، قائل الحق، وهادي السبيل، ومرسل الرسل، ومنزل الكتب، والقائم على كل نفس بما كسبت من الخير والشر، ويجازي المحسن على إحسانه، والمسيء بإساءته.

- الرابع عشر: أنه الصادق في وعده وخبره، فلا أصدق منه قيلاً، ولا أصدق منه حديثاً، وهو لا يخلف الميعاد.

- الخامس عشر: أنه تعالى صمد بجميع معاني الصمدية، فيستحيل عليه ما يناقض صمديته.

- السادس عشر: أنه قدوس سلام، فهو المبرأ من كل عيب ونقص وآفة.
- السابع عشر: أنه الكامل الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه.
- الثامن عشر: أنه العدل الذي لا يجور ولا يظلم، ولا يخاف عباده منه ظلماً.

فهذا مما اتفقت عليه جميع الكتب والرسل، وهو من المحكم الذي لا يجوز أن تأتي شريعة بخلافه، ولا يخبر نبي بخلافه أصلاً» اهـ[(١)].

ويستفاد مما سبق أن معرفة الله تعالى لا تتم إلا بمعرفة صفاته الثبوتية مع صفاته التنزيهية؛ لأن الله سبحانه قد دل على نفسه بهذه وبهذه[(٢)]، وأن كمال الإيمان بالله ﷻ يتضمن إثبات ما أثبته لنفسه، وتنزيهه عما نزه نفسه عنه[(٣)]، ولهذا كان معرفة ما يستحقه الله تعالى وما ينزه عنه من أجل أمور الدين وأعظم أصوله التي أرسلت الرسل لبيانها، وأنزلت الكتب لتقريرها[(٤)].

وقد تبين بهذا أن التسبيح أصل عظيم من أصول توحيد الله تعالى، وبالله التوفيق.

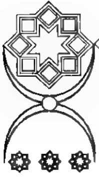
---

(١) هداية الحياري في أجوبة اليهود والنصارى، تحقيق الدكتور محمد أحمد الحاج: ص٥٢٢ ـ ٥٢٥.

(٢) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم: ٣/ ٢٢١.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٤/ ١٣٥ ـ ١٣٦.

(٤) انظر: المصدر السابق: ٥/ ١٧٤.

المبحث الرابع

التسبيح من دلائل حسن العقيدة الإسلامية

يعد تسبيح الله تعالى وتنزيهه عن النقائص والعيوب، وعن التمثيل والتعطيل، وعن الشرك به في العبادة، من خصائص العقيدة الإسلامية ودلائل حسنها واستقامتها.

وقد جاء ذلك صريحاً في قول الله تعالى ـ لرسوله محمد ﷺ ـ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨].

فقوله ـ في هذه الآية ـ: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ دليل على أن التسبيح من الأصول العظام التي أمر الرسول ﷺ بإعلانها والدعوة إليها[1]. و(سبحان الله) ـ كما سبق ـ: كلمة يعظم الله تعالى بها ويحاشى بها عن كل ما يخالف كماله، ويناقض توحيده، من سوء ونقص وعيب، وتمثيل وتعطيل وشرك.

وهذا المعنى من الأصول التي اتفقت عليها جميع الرسالات السماوية، كما سبق بيانه قريباً ـ في المبحث الثاني ـ، ولكن كثيراً من طوائف بني آدم قد خالفوا هذا الأصل العظيم، فوصفوا الله ﷻ بما يتعالى عنه من النقائص والعيوب، إما مع العلم بأنها نقائص وعيوب،

---

(١) انظر ما سبق من الكلام على الآية المذكورة في: ص١٧٩، ٣١١، ٤٢٦ من هذا البحث.

كما وقع من اليهود من قولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨١]، وقولهم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾، وقولهم: «إنه ـ سبحانه ـ بكى على الطوفان حتى رمد، وعادته الملائكة. وإنه ندم على ذلك حتى عض أصابعه. وإنه تبدى لإسرائيل وصارعه»(١)، تعالى عما يقول الظالمون.

وإما مع الجهل بكونها نقائص وعيوباً، كما وقع من النصارى، من قولهم: إنه اتخذ مريم زوجة، وأولدها عيسى، فهي صاحبته، وعيسى ابنه»(٢)، تعالى الله عما يقولون علوا كبيراً.

وكما وقع من مشركي العرب، من زعمهم أن الله صاهر الجن، فولدت له الملائكة، وهو ما ذكره الله في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الصافات: ١٥٨ ـ ١٥٩](٣).

وأمثال ذلك من الأقوال التي تتضمن تنقص رب العالمين ووصفه بما لا يليق بكماله وعظمته ووحدانيته.

ولهذا يذكر عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال ـ في أهل الكتاب الذين سبق ذكر بعض أقوالهم من اليهود والنصارى ـ: «أهينوهم، ولا تظلموهم، فلقد سبوا الله ﷻ مسبة ما سبه إياها أحد من البشر»(٤).

---

(١) انظر: هداية الحياري في أجوبة اليهود والنصارى، لابن القيم: ص٤١٨ ـ ٤٢٠، ٤٦٧، والصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، له: ٣/ ٨٣١، وأحال محقق الكتاب بهذا الكلام على: الكتاب المقدس، سفر التكوين، الإصحاح/٨، فقرة/ ٢١، والإصحاح/ ٣٢، فقرة/ ٢٤ ـ ٢٨.

(٢) الصواعق المرسلة، لابن القيم: ٣/ ٨٣١. وانظر: هداية الحياري، له: ص٤٨٠ ـ ٤٨٣.

(٣) وقد سبق الكلام فيها في: ص١٨٨ ـ ١٨٩.

(٤) ذكره ابن قيم الجوزية في هداية الحياري: ص٤٨٢، وإغاثة اللهفان: ٢/ ٣٤١.

ولا ريب أن وصف الله تعالى بشيء من النقائص والعيوب مسبة عظيمة في حقه سبحانه، لا يقع فيها إلا من كان عدواً لله أو جاهلاً به أشد الجهل.

ومن حسن العقيدة الإسلامية ونقائها واستقامتها أنها بريئة من هذه القبائح، خالصة من هذه الشوائب، قائمة على التنزيه التام لله تعالى عن جميع النقائص والعيوب، وعن التمثيل والتعطيل. وبرهان ذلك: أن التسبيح والتنزيه جاء في القرآن الكريم بأساليب متنوعة، وعبارات مختلفة، في آيات كثيرة جداً، لا يمكن حصرها إلا بكلفة ومشقة، وقد تضمنت هذه التسبيحات والتنزيهات تبرئة الله ﷻ وتقديسه من نقائص وعيوب قالها عليه أعداؤه والجاهلون به، ومن نقائص وعيوب ما قالها عليه أحد، تحذيراً من وقوعها، كما قال الإمام ابن القيم:

«ولقد أتى التنزيه عما لم يقل ... كي لا يدور بخاطر الإنسان
فانظر إلى التنزيه عن طعم ولم ... ينسب إليه قط من إنسان
وكذلك التنزيه عن موت وعن ... نوم وعن سنة وعن غشيان
وكذلك التنزيه عن نسيانه ... والرب لم ينسب إلى نسيان»[1]

«يعني أنه سبحانه كما نزه نفسه عما قاله المبطلون ووصفوه به، نزه نفسه عما لم يقله أحد، ولم ينسبه إليه حتى لا يقع بخاطر أحد، فنزه نفسه عن الطعم مع أن أحداً لم يصفه به، قال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤]، وقال سبحانه: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾﴾ [الذاريات: ٥٧]. وكذلك نزه نفسه عن الموت، وعن السنة والنوم، وعن الغشيان الذي هو الجماع، وعن النسيان الذي هو ضد الذكر، مع أن أحداً لم ينسبه

(١) الكافية الشافية (القصيدة النونية): ص١٣٥.

إلى شيء من ذلك، قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وقال: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤]»[١].

فهذا كله مما يدل على أهمية شأن التنزيه، وشدة العناية به، وأن العقيدة لا تصلح ولا تستقيم إلا به.

وينبغي أن يعلم أن التسبيح أو التنزيه في كتاب الله تعالى وفي سنة رسوله ﷺ ليس مقصوده مجرد نفي النقائص والعيوب عن الله تعالى، وإنما مقصوده تقرير توحيد الله سبحانه، وحفظ كماله عن الظنون السيئة والخواطر الباطلة، وجميع ما نزه الله تعالى نفسه عنه، أو نزهه عنه رسوله ﷺ هو مما يخالف توحيده، ويضاد كماله، ولهذا كان في تنوع تنزيهه عن ذلك من العلم والمعرفة بتوحيده وكماله ما في بيان محاسن الشيء وكماله عند معرفة ما يضاده ويخالفه[٢].

وهذا توضيح لحقيقة التسبيح الذي تكون به العقيدة حسنة ومستقيمة، وأنه التسبيح الذي يتلقى معناه ومفهومه من هدي الكتاب والسنة وما كان يعتقده سلف هذه الأمة وأئمتها من إثبات صفات الكمال لله تعالى، وتنزيهه عن أن يلحقه فيها نقص أو عيب، وعن أن يكون له فيها مماثل أو شريك.

فهذا هو التسبيح الذي حسنت به العقيدة الإسلامية، وباينت به عقائد الملل والنحل والأديان المحرفة.

وأما من جعل تعطيل صفات الله تعالى أو تمثيلها بصفات المخلوقين من مفهوم التسبيح، فقد ابتدع في التسبيح معنى يخالف ما دل

---

(١) شرح القصيدة النونية، لهراس: ١/ ٢٦٧.

(٢) انظر: طريق الهجرتين، لابن القيم: ص٢٥١.

عليه الكتاب والسنة، وما فهمه السلف الصالح، وقال على الله سبحانه ما يجب تنزيهه عنه، كما سيأتي بيانه ـ إن شاء الله ـ عند الكلام على المفاهيم الخاطئة في التسبيح، في الباب الخامس من هذا البحث.

• ولما كان التسبيح ـ بالمفهوم الصحيح الموافق لهدي الكتاب والسنة وفهم السلف الصالح ـ دليلاً على حسن العقيدة الإسلامية وصفائها، حسن إطلاق التسبيح على ما كان رمزاً لتوحيد الله تعالى، أو دالاً عليه قولاً أو حالاً، كإطلاق التسبيح على الصلاة(١)، وعلى الذكر(٢)، وعلى العبادة(٣).

ومن ذلك تسمية الأصبع التي يشير بها المصلي في تشهده: المسبحة أو السباحة، أخذاً من التسبيح(٤).

قال الإمام النووي: «والمسبحة ـ بضم الميم، وفتح السين، وكسر الباء المشددة ـ: الأصبع السبابة، وهي التي تلي الإبهام، سميت بذلك لأن المصلي يشير بها إلى التوحيد والتنزيه لله ﷻ عن الشرك»(٥).

وقال أيضاً: «ويقال لها: السبابة؛ لأنهم كانوا يشيرون بها إلى السب في المخاصمة ونحوها»(٦).

• ولما كان التسبيح كذلك متضمناً تبعيد الله تعالى من الشرك(٧)،

---

(١) سبق بيانه، في ص٨٦ ـ ٩٦.
(٢) سبق بيانه، في ص٩٦ ـ ٩٩.
(٣) سبق بيانه، في ص١٠٣ ـ ١٠٤.
(٤) انظر: مشارق الأنوار على صحاح الآثار، للقاضي عياض اليحصبي: ١/ ٢٠٣ ـ ٢٠٤.
(٥) تهذيب الأسماء واللغات: ٣/ ١٤٤، ونحوه في: تحرير ألفاظ التنبيه، له، بتحقيق عبد الغني الدقر: ص٦٩.
(٦) تحرير ألفاظ التنبيه: ص٦٩.
(٧) انظر: الزاهر في غريب ألفاظ الإمام الشافعي، لأبي منصور الأزهري: ص١٦٣.

حسن سلب التسبيح عما كان رمزاً للشرك بالله تعالى مما اتخذ إلهاً من دون الله سبحانه، كما جاء في الخبر أن رسول الله ﷺ بعث خالد بن الوليد رضي الله عنه لهدم العزى ـ إحدى أشهر أصنام العرب في الجاهلية[1] ـ، فلما أتاها خالد خرج عليه الشيطان الذي يتلاعب بعقول المشركين داخل هذا الصنم في صورة امرأة حبشية ناشرة شعرها واضعة يديها على عاتقها، تصرف بأنيابها، وخلفها سادنها.

فقال خالد:

«يا عزى كفرانك لا سبحانك   إني رأيت الله قد أهانك»

ويحكى البيت أيضاً بلفظ:

«كفرانك اليوم لا سبحانك   إني رأيت الله قد أهانك»

ثم ضربها خالد رضي الله عنه ففلق رأسها، فإذا هي حممة.

وقتل سادن الصنم[2].

فنفى رضي الله عنه التسبيح عن هذا الصنم بقوله: «لا سبحانك»، ويتضمن ذلك نفي الألوهية عنه؛ لأن التسبيح لا يستحقه إلا الإله الحق ـ جلّ جلاله ـ المتصف بكل كمال على الحقيقة، المنزه التنزيه التام من كل وجه وبكل اعتبار، عن كل نقص متوهم. وأما الآلهة المزعومة بأنواعها، فإن فيها من النقائص والعيوب ما ينفي استحقاقها التسبيح،

---

(١) وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ [النجم: ١٩ ـ ٢٠].

(٢) هذه القصة أوردها ابن قيم الجوزية في إغاثة اللهفان: ٢/ ٢٦٢ ـ ٢٦٣، نقلاً عن هشام بن السائب الكلبي، بإسناده عن ابن عباس رضي الله عنهما. واللفظ الثاني للبيت ذكره ابن القيم في مدارج السالكين: ٣/ ٢٣٠.
وأصل القصة أخرجه النسائي في السنن الكبرى: ٦/ ٤٧٤، برقم (١١٥٤٧).

وإنما اتخذها المشركون آلهة من دون الله ظلماً وزوراً، وسبحان الله وتعالى عما يشركون.

وتأمل التناسب العكسي بين هذا البيت وأمره تعالى لرسوله ﷺ بأن يقول: ﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]، يظهر لك بجلاء حسن التوحيد الذي دعا إليه رسول الله ﷺ، وآمن به صحابته الكرام ـ رضوان الله عليهم ـ، لكونه إفراد الله تعالى بالعبادة، وتنزيهه عن النقص والشرك، لانفراده بصفات الإلهية التي لا تكون لغيره. ويظهر لك كذلك قبح الشرك الذي نهى عنه رسول الله ﷺ وتبرأ من أهله، لكونه تمثيل الناقص بالكامل، وتمثيل الكامل بالناقص، مما يؤدي إلى تنقص الكامل الذي له الكمال المطلق تبارك وتعالى(١).

وبكل ما سبق يتبين أن أحسن الناس عقيدة، وأكملهم توحيداً، هم أهل السنة والجماعة الذين تمسكوا بالعقيدة الإسلامية النقية من آراء المتكلمين وأقاويل المتفلسفين، وسبحوا الله رب العالمين تنزيها لربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته عما لا يليق به من كل ما نسبه إليه الجاهلون الظالمون، ومن كل ما يناقض كماله ويخالف توحيده(٢)، والله يهدي من يشاء إلى الصراط المستقيم.



---

(١) انظر: كتاب التوحيد، للإمام محمد بن عبد الوهاب، بتعليق الشيخ أحمد شاكر، وتخريج إبراهيم الحازمي: ص١٥، وتيسير العزيز الحميد، للشيخ سليمان بن عبد الله: ص١٢٤، والتوضح المفيد لمسائل كتاب التوحيد، للشيخ عبد الله الدويش: ص٢١، والقول المفيد على كتاب التوحيد، للشيخ محمد بن صالح العثيمين: ١/ ١٣٩ ـ ١٤٠.

(٢) انظر: شفاء العليل، للإمام ابن القيم: ٢/ ٨١.

الباب الثالث

المواضع التي يُشرع فيها التّسبيح ومناسباتها العقديّة

❑ **مدخل:**

قد وَضُح من البابين السابقين عظم شأن التسبيح في معناه وفي حكمه وفي فضله، ولذا لا يكون مستغرباً أن يُشرع التسبيح في مواضع كثيرة من الأوقات والأحوال، ليكون العبد المؤمن مسبّحاً لربّه ﷻ ومستحضراً نزاهته وجلالته وعظمته في أكثر أوقاته وأحواله.

فقد بلغ المواضع التي شرع فيها التسبيح ـ بحسب البحث ـ ثلاثين موضعاً تقريباً، منها مواضع شرع فيها التسبيح مفرداً، ومواضع أخرى شرع فيها التسبيح مقروناً بغيره من ألفاظ الذكر والثناء والدّعاء.

ولمّا كانت الغاية العظمى من التّسبيح أن يأتي به العبد قولاً واعتقاداً وعملاً، حسن الحرص على معرفة المناسبات العقديّة للتسبيح في المواضع التي شرع فيها، ليعمر القلب بمشاهدة تلك المناسبات العقدية، كما يعمر اللسان بلفظ التسبيح والنطق به.

ولهذا اجتهدت في التعبير عن المناسبات العقدية في هذه المواضع مسترشداً بما تيسر الاطلاع عليه من أقوال أهل العلم، وبما ظهر لفهمي القاصر.

ويشتمل هذا الباب على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: مواضع يشرع فيها التّسبيح في الصلاة ومناسباتها العقدية.

الفصل الثاني: مواضع يشرع فيها التّسبيح مفرداً ومناسباتها العقدية.

الفصل الثالث: مواضع يشرع فيها التّسبيح مقروناً ومناسباتها العقدية.

الفصل الأول

مواضع يشرع فيها التّسبيح
في الصلاة ومناسباتها العقدية

□ **تمهيد:**

يحظى التّسبيح بأهمية خاصّة في الصلاة؛ لأن الصلاة هي عمود الدين، وأعظم شرائع الإسلام ـ بعد الشهادتين ـ، وهي قرّة عيون المؤمنين، وسلوة عباد الله الصالحين، فيها يناجون ربّهم العليّ الأعلى، وبها يتقربون إليه زلفى.

ومما يدلّ على خصوصية التّسبيح بالصلاة:

١ ـ أنّ الصلاة تسمّى تسبيحاً، كما سبق بيان ذلك[١].

٢ ـ وأن النبي ﷺ قد جعل التسبيح من أهمّ ما يشتغل به المصلّي في صلاته، فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التّسبيح والتكبير وقراءة القرآن**»[٢].

٣ ـ وأنّ التسبيح قد شرع في أكثر من موضع في الصلاة: فشرع في افتتاح الصلاة، وفي الركوع والسجود، ويشرع للمصلّى التسبيح عند قراءة آية فيها تسبيح الله تعالى، وعند ما يحتاج إلى تنبيه غيره في الصلاة لأمر طارىء، ويشرع لمن لا يحسن قراءة القرآن أن يسبّح في الصلاة بدلاً من القرآءة، كما شرع التسبيح أيضاً في دبر الصلاة.

---

(١) انظر: ص٨٦ ـ ٩٦ من هذا البحث.

(٢) سبق ذكره وتخريجه في ص٤٠٠.

فهذه سبعة مواضع يشرع فيها التّسبيح في الصلاة، وذلك لأن المقصود الأكبر من الصّلاة هو ذكر الله تعالى، كما قال الإمام ابن قيم الجوزية: «ولمّا كان حمده والثّناء عليه وتمجيده هو مقصود الصلاة التي هي عماد الإسلام ورأس الطّاعات، شرع في أوّلها ووسطها وآخرها وجميع أركانها، ففي دعاء الاستفتاح يحمد ويثنى عليه ويمجّد، وفي ركن القراءة يحمد ويثنى عليه ويمجّد، وفي الركوع يثنى عليه بالتّسبيح والتّعظيم، وبعد رفع الرأس منه يحمد ويثنى عليه ويمجّد... وفي السجود يثنى عليه بالتسبيح المتضمن لكماله المقدّس، والعلو المتضمّن لمباينته لخلقه، وفي التّشهّد يثنى عليه بأطيب الثّناء من التحيّات، ويختم ذلك بذكر حمده ومجده» اهـ[1].

ويتناول هذا الفصل المواضع التي شرع فيها التسبيح في الصلاة في ستة مباحث مرتّبة كما يلي:

المبحث الأول: التّسبيح في افتتاح الصلاة.

المبحث الثاني: التّسبيح عند قراءة آية فيها تسبيح الله تعالى.

المبحث الثالث: التّسبيح بدلاً من القراءة لمن لا يحسن شيئاً من القرآن.

المبحث الرابع: التّسبيح في الركوع والسجود.

المبحث الخامس: التّسبيح في الصلاة لأمر طارىء.

المبحث السادس: التّسبيح في دبر الصلاة.

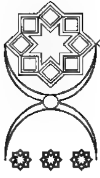
وإليك بيان ذلك مبحثاً مبحثاً:

---

(١) الصواعق المرسلة: ٤/ ١٤٧٤ ـ ١٤٧٥.



المبحث الأول



التّسبيح في افتتاح الصّلاة

يشرع التّسبيح في افتتاح الصلاة، بعد تكبيرة الإحرام وقبل قراءة الفاتحة.

وقد استُدِلّ على مشروعية التّسبيح في هذا الموضع بقول الله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الطور: ٤٨].

فعن سعيد بن المسيب قال: «حقّ على كلّ مسلم حين يقوم إلى الصلاة أن يقول: (سبحان الله وبحمده)؛ لأن الله يقول لنبيه: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾»(١).

وعن الضحّاك بن مزاحم ـ في تفسير الآية ـ قال: «حين تقوم إلى الصلاة تقول هؤلاء الكلمات: (سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدّك، ولا إله غيرك)»(٢).

وفي رواية أخرى عنه قال: «حين تقوم للصلاة تقول: (الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلاً)»(٣).

ووردت روايات في هذا المعنى أيضاً عن الرّبيع بن أنس(٤)،

---

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور: ٦/ ١٥١، وعزاه إلى أبي عبيد، وابن المنذر.

(٢) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره: ١١/ ٥٠٠، وعزاه السيوطي أيضاً ـ في الدر المنثور: ٦/ ١٥١ ـ إلى سعيد بن منصور، وابن المنذر.

(٣) رواه عبد الرزاق الصنعاني في تفسير القرآن: ٢/ ٢٤٩.

(٤) هو الربيع بن أنس البكري الحنفي البصري ثم الخراساني، كان صدوقاً في =

وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهما[(١)].

ولكنّ الآية المذكورة ليستْ نصّاً في التّسبيح في افتتاح الصلاة؛ لأن قوله تعالى: (حين تقوم) ليس مقيَّداً بقيام معين بل هو مطلق، ولهذا اختلفت أقوال المفسّرين في معناها، وتبلغ الأقوال فيها ستة[(٢)].

ودلّت السنّة النّبويّة على مشروعية التّسبيح في افتتاح الصلاة، ووردت في ذلك أحاديث كثيرة مشتملة على صيغ متنوّعة للتسبيح في افتتاح الصلاة، وبيان ذلك كما يلي:

١ ـ (سبحانك اللهمّ وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جَدُّك، ولا إله غيرك).

ورد عن النبي ﷺ أنه كان يفتتح الصلاة بهذه الصيغة من التّسبيح، وروى ذلك عدد من الصحابة ﷺ منهم:

عائشة[(٣)]، وعبد الله بن مسعود[(٤)]، وعبد الله بن عمر[(٥)]، وأنس بن

= الحديث، ورمي بالتشيّع، وتوفي سنة (١٣٩هـ) أو (١٤٠هـ)، رحمه الله. انظر: تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني: ٣/ ٢٣٨ ـ ٢٣٩.

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٤/ ٢٦٢.

(٢) انظر هذه الأقوال في: زاد المسير، لابن الجوزي: ٨/ ٦٠.

(٣) حديث عائشة رضي الله عنها أخرجه أبو داود في سننه: ١/ ٤٩١، برقم (٧٧٦)، والترمذي في سننه: ٢/ ١١، رقم (٢٤٣)، وابن ماجه في سننه: ١/ ٢٦٥، برقم (٨٠٦)، وصححه الحاكم في المستدرك: ١/ ٣٦٠، برقم (٨٥٩)، ووافقه الذهبي.

(٤) حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ١٠/ ١٣٣، برقم (١٠١١٧)، وفي كتاب الدعاء: ٢/ ١٠٣٣، برقم (٥٠٤)، وفي إسناده راو مجهول. وانظر: مجمع الزوائد، للهيثمي: ٢/ ١٠٦.

(٥) حديث عبد الله عمر رضي الله عنهما أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ١٢/ ٣٥٣، وفي كتاب الدعاء: ٢/ ١٠٣١، برقم (٥٠٠)، و٢/ ١٠٣٥، برقم (٥٠٨). =

مالك[(١)]، وأبو سعيد الخدريّ[(٢)].

وبهذه الروايات يتبيّن أن افتتاح الصلاة بهذا التسبيح ثابت بلا ريب[(٣)]. وكان عمر رضي الله عنه يفتتح الصلاة بهذا التسبيح، ويجهر به[(٤)].

٢ ـ (الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلاً).

ورد افتتاح الصلاة بهذا التسبيح في حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «بينما نحن نصلّي مع رسول الله ﷺ، إذ قال رجل من القوم: (الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلاً)، فقال رسول الله ﷺ: «**من القائل كلمة كذا وكذا؟**» قال رجل من القوم: أنا، يا رسول الله. قال: «**عجبت لها، فتحت لها أبواب السماء**». قال ابن

= وقال الهيثمي: «فيه عبد الله بن عامر الأسلمي، وهو ضعيف» [مجمع الزوائد: ٢/١٠٧].

(١) حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أخرجه الطبراني في كتاب الدعاء: ٢/١٠٣٤، برقم (٥٠٥) و(٥٠٦)، والدارقطني في سننه: ١/٣٠٠، وهو صحيح.

(٢) حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أخرجه أبو داود في سننه: ١/٤٩٠، برقم (٧٧٥)، والترمذي في سننه: ٢/٩ ـ ١٠. برقم (٢٤٢)، والنسائي في سننه: ٢/٤٦٨، برقم (٨٩٨) و(٨٩٩)، وابن ماجه في سننه: ١/٢٦٤، برقم (٨٠٤). وقال الحافظ ابن حجر: «هذا حديث حسن» [نتائج الأفكار: ١/٤٠٢].

(٣) انظر: صفة صلاة النبي ﷺ، للشيخ محمد ناصر الدين الألباني: ص٩٣.

(٤) روى ذلك مسلم في صحيحه: ١/٢٩٩، برقم (٣٩٩)، وفي إسناده انقطاع، وإنما ذكره مسلم هكذا لأنه سمعه مع غيره وليس هو على شرطه، فأدّاه كما سمعه. وانظر: شرح صحيح مسلم، للنووي: ٤/١١١ ـ ١١٢، والمحرر في الحديث، لابن عبد الهادي المقدسي، تحقيق الدكتور يوسف المرعشلي: ١/١٨٢ ـ ١٨٢.

وقد رواه موصولاً عن عمر: ابن أبي شيبة في مصنفه: ١/٢٣٠، و٢/٥٣٦، والحاكم في المستدرك: ١/٣٦١، برقم (٨٦٠)، وصححه هو والذهبيّ.

عمر: فما تركتهنّ منذ سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك»[١].

٣ ـ عن عاصم بن حميد[٢] قال: «سألت عائشة: بأيِّ شيء كان يفتتح رسول الله ﷺ قيام الليل؟ فقالت: لقد سألتني عن شيء ما سألني عنه أحد قبلك، كان إذا قام كبّر عشراً، وحمد الله عشراً، وسبّح عشراً، وهلّل عشراً، واستغفر عشراً، وقال: «**اللهم اغفر لي واهدني وارزقني وعافني**»، ويتعوذ من ضيق المقام يوم القيامة»[٣].

فهذه أهمّ صيغ التّسبيح الثابتة عن النبي ﷺ في افتتاح الصلاة[٤]، مع العلم بأنّ السنّة النبويّة قد وردت أيضاً بأدعية وأذكار أخرى في افتتاح الصلاة، ولكنها ليست مشتملة على كلمة التّسبيح، ولهذا لم يرد ذكرها في هذا المبحث[٥].

وقد استدلّ أهل العلم بما ثبت في السنة من الأدعية والأذكار في

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: ١/ ٤٢٠، برقم (٦٠١).

(٢) هو عاصم بن حميد السّكوني الحمصيّ، تابعيّ من أصحاب معاذ بن جبل رضي الله عنه، ولم تذكر سنة وفاته، رحمه الله. وانظر: تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني: ٥/ ٤٠ ـ ٤١.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه: ١/ ٤٨٦ ـ ٤٨٧، برقم (٧٧٦)، والنسائي في سننه: ٣/ ٢٣٠، برقم (١٦١٦)، وابن ماجه في سننه: ١/ ٤٣١، برقم (١٣٥٦)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود: ١/ ٢١٩، برقم (٧٦٦)، وفي صحيح سنن النسائي: ١/ ٥٢٦، برقم (١٦١٦)، وفي صحيح سنن ابن ماجه: ١/ ٤٠٣، برقم (١١٢٣).

(٤) هناك صيغ أخرى في التسبيح تركت ذكرها لأن الأحاديث الواردة بها لا تخلو من ضعف في أسانيدها.

(٥) انظر: أنواع ما ورد في افتتاح الصلاة في: كتاب الدعاء، للطبراني: ٢/ ١٠٢٦ ـ ١٠٤٢، وزاد المعاد، لابن القيم: ١/ ٢٠٢ ـ ٢٠٥، وصفة صلاة النبي ﷺ، للألباني: ٩١ ـ ٩٥.

افتتاح الصلاة على أن الافتتاح سنة من سنن الصلاة[١] ـ فرضاً كانت أو نفلاً[٢] ـ بل تنازعوا في وجوبه[٣]، وأكثرهم على أنه مستحبّ وليس بواجب، وفي هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأما كونه واجباً، فمذهب الجمهور أنه مستحبّ وليس بواجب، وهو قول أبي حنيفة والشافعي، وهو المشهور عن أحمد، وفي مذهبه قول آخر يذكره بعضهم رواية عنه: أنّ الاستفتاح واجب، والله أعلم» اهـ[٤].

وقد خالف المالكية جمهور العلماء في هذه المسألة، فلم يروا افتتاح الصلاة بذكر ولا دعاء، وإنما يكبر ويقرأ.

قال أبو عمر بن عبد البر: «ولا تستفتح المكتوبة بشيء من الذّكر غير تكبيرة الإحرام والقراءة بآخرها، ثم يركع» اهـ[٥].

ولا شكّ أنّ مذهب الجمهور هو الحقّ، لثبوت ذلك في السنة النبوية.

ومع تنوّع الأذكار والأدعية الواردة في افتتاح الصلاة، فإنّ كثيراً من أهل العلم اختاروا الافتتاح بصيغة: (سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جَدُّك، ولا إله غيرك)، وفضّلوا هذه الصيغة على غيرها مما ورد في هذا الباب.

قال الإمام الترمذي: «وأمّا أكثر أهل العلم فقالوا بما روي عن

---

(١) انظر: المغنى، لابن قدامة، تحقيق التركي: ٢/١٤١، وشرح صحيح مسلم، للنووي: ٥/٩٦ ـ ٩٧.

(٢) انظر: الأذكار، للنووي: ص١٠٣، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٢/٣٣٨، ٣٤٤.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٢/ ٢٧٥، ٣٨٨.

(٤) المصدر السابق: ٢٢/ ٤٠٤.

(٥) كتاب الكافي في فقه أهل المدينة المالكي: ١/٢٠٦.

النّبيّ ﷺ أنه كان يقول: «**سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جَدُّك، ولا إله غيرك**». وهكذا روي عن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن مسعود. والعمل على هذا عند أهل العلم من التابعين وغيرهم» اهـ[(١)].

ونقل عن الإمام أحمد بن حنبل أنه قال: «أمّا أنا فأذهب إلى ما روي عن عمر، ولو أنّ رجلاً استفتح ببعض ما روي عن النبي ﷺ من الاستفتاح كان حسناً، أو قال: جائزاً»[(٢)].

وإنما كانت هذه الصيغة من التّسبيح أفضل من غيرها في افتتاح الصلاة لعدة أمور:

أحدها: جهر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بها في الصلاة، على ملأ من أصحاب رسول الله ﷺ وإقرارهم له، فإنّ هذا يدلّ على أنّ الافتتاح بهذا التسبيح كان من سنن الصلاة الظاهرة[(٣)].

مع العلم أنّ أهل العلم متّفقون على أن الجهر بالافتتاح ليس بسنة راتبة في الصلاة؛ لأن النبي ﷺ لم يجهر به، وإنما جهر به عمر رضي الله عنه في الصلاة ليعلّم الناس، ولهذا يجوز الجهر به ـ أحياناً ـ إذا دعت الحاجة إلى ذلك، ليعلم أنّه سنة، دون أن يتّخذ الجهر به سنة راتبة في الصلاة، والله تعالى أعلم[(٤)].

---

(١) سنن الترمذي، بتحقيق أحمد محمد شاكر: ٢/ ١٠ ـ ١١.

(٢) ذكره ابن قدامة في المغنى: ٢/ ١٤٢ ـ ١٤٣، وابن القيم في زاد المعاد: ١/ ٢٠٥.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٢/ ٣٤٤، ٣٩٤، وزاد المعاد، لابن القيم: ١/ ٢٠٥.

(٤) انظر: المغني، لابن قدامة: ٢/ ١٤٥، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٢/ ٢٧٤ ـ ٢٧٥، ٣٤٤.

الثاني: أنّ أنواع الافتتاح الواردة في السنة النبويّة عامّتها في قيام الليل، وهذا الافتتاح كان عمر رضي الله عنه يقوله في الفرض ويعلّمه الناس(١).

الثالث: أنّ طائفة من أهل العلم يوجبون الذكر الذي هو ثناء في الصلاة، كهذا الافتتاح ونحوه ممّا هو ثناء محض، بخلاف ما كان من أذكار الصلاة من جنس الدّعاء فإنه لا يجب عند أحد من العلماء(٢).

الرابع: أنّ هذا الافتتاح فيه من الثناء على الله تعالى ما ليس في غيره من أنواع الافتتاح الواردة(٣)، وبيان ذلك كالآتي:

الخامس: أنّ هذا الافتتاح قد اشتمل ـ مع تكبيرة الإحرام ـ على الباقيات الصالحات التي هي أفضل الكلام بعد القرآن: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر(٤).

وتضمّن الإخبار عن صفات كمال الله تعالى ونعوت جلاله في قوله: (تبارك اسمك، وتعالى جَدُّك)(٥).

السادس: أنّ هذا الافتتاح ورد بشأنه فضل خاصّ، في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أحبّ الكلام إلى الله أن يقول العبد: سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى**

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٢/٣٤٧، ٤٠٣، وزاد المعاد، لابن القيم: ١/٢٠٦.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٢/٣٤٢، ٣٨٨.

(٣) انظر: المصدر السابق: ٢٢/٣٩٤، وزاد المعاد، لابن القيم: ١/٢٠٦.

(٤) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٢/٣٩٤، ٣٩٦، وزاد المعاد، لابن القيم: ١/٢٠٥، ٢٠٦.

(٥) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٢/٣٩٤.

جَدُّك، ولا إله غيرك»[١].

السابع: أنّ الله تعالى قد أمر بالتّسبيح بحمده، وعبّر بذلك عن الصلاة في عدة مواضع من القرآن[٢]، فكان ابتداء الامتثال بهذا الافتتاح أولى[٣].

وقد تقدّم في أوّل المبحث أنّ بعض أهل العلم من المفسرين فسّروا قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الطور: ٤٨] بهذا الافتتاح.

فمجموع هذه الأمور المذكورة يقضي بأفضلية هذا الافتتاح على غيره من أنواع افتتاح الصلاة، والله تعالى أعلم.

ومع أفضلية هذا التّسبيح في افتتاح الصلاة، فإنّ الإتيان بالأنواع الأخرى الواردة في الافتتاح أحياناً أفضل من المداومة على نوع وهجر نوع[٤]؛ لأن لكلّ افتتاح ـ وإن كان مفضولاً ـ مناسبة ليست لغيره، فيأخذ العبد بحظّه من ذلك[٥]، والأهمّ في ذلك موافقة هدي رسول الله ﷺ الذي ثبتت عنه هذه الأنواع من الافتتاح في الصلاة، ممّا يدلّ على أنّه ﷺ كان يأتي بهذه الأنواع كلّها، ولم يكن يداوم على افتتاح واحد في الصلاة، والله تعالى أعلم.

❐ المناسبة العقديّة لافتتاح الصلاة بالتّسبيح:

وإذا تبين أنّ التّسبيح في افتتاح الصلاة سنة من سنن الصلاة

---

(١) أخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة: ص٤٨٨ ـ ٤٨٩، برقم (٨٤٩)، وابن منده في كتاب التوحيد: ٣/ ٢١٧ ـ ٢١٨، برقم (٧٠١)، وصححه الألباني وخرّجه في السلسلة الصحيحة، برقم (٢٩٣٩).

(٢) سبق بحث ذلك في ص٨٦ ـ ٩٦.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٢/ ٣٩٧.

(٤) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٢/ ٣٣٧، ٣٤٧ و٢٤/ ٢٤٨.

(٥) انظر: المصدر السابق: ٢٢/ ٣٤٦.

الثابتة عن رسول الله ﷺ، وأنّ أفضل صيغه هي صيغة: «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جَدُّك، ولا إله غيرك»، فإنّ مما ينبغي معرفته أنّ للتّسبيح في هذا الموضع مناسبة عقديّة تتجلّى في أمرين:

الأمر الأول: أنّ التّسبيح في افتتاح الصلاة تمهيد لتحصيل المعنى الذي تتمّ به حياة الصلاة وكمالها، وهو التعظيم لله تعالى، والخشوع له، فإنّ هذا التعظيم والخشوع يتولّد من معرفة عظمة الله تعالى وجلاله وكماله، ومعرفة حقارة النّفس، وأنها مستعبدة لله ﷻ(١).

وملاحظة ما تدلّ عليه صيغة التّسبيح في افتتاح الصلاة من المعاني توجب للمصلّي هذه المعرفة في قلبه، فإنه «إذا قال: (سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جَدُّك، ولا إله غيرك)، شاهد بقلبه ربّاً منزّهاً عن كلّ عيب، سالماً من كل نقص، محموداً بكل حمد، فحمده يتضمّن وصفه بكلّ كمال، وذلك يستلزم براءته من كل نقص. تبارك اسمه، فلا يُذكر على قليل إلا كثّره، ولا على خير إلا أنماه وبارك فيه، ولا آفة إلا أذهبها، ولا على شيطان إلا ردّه خاسراً داحراً. وكمال الاسم من كمال مسمّاه، فإذا كان هذا شأن اسمه ـ الذي لا يضرّ معه شيء في الأرض ولا في السماء ـ فشأن المسمّى أعلى وأجلّ. وتعالى جَدُّه، أي: ارتفعت عظمته، وجلّت فوق كلّ عظمة، وعلا شأنه على كل شأن، وقهر سلطانه على كلّ سلطان، فتعالى جدُّه أن يكون معه شريك في ملكه وربوبيته، أو في إلهيته، أو في أفعاله، أو في صفاته، كما قال مؤمن الجنّ: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً

---

(١) انظر: مختصر منهاج القاصدين، للإمام أحمد بن محمد المقدسي، تحقيق زهير الشاويش: ص٣٣، والخشوع في الصلاة ـ ضمن مجموعة رسائل الإمام الحافظ ابن رجب الحنبلي: ١٥٠.

وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ [الجن: ٣]. فكم في هذه الكلمات من تجلّ لحقائق الأسماء والصّفات على قلب العارف بها، غير المعطّل لحقائقها!»[(١)].

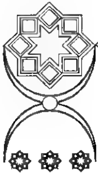
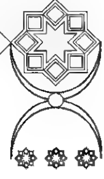
وهكذا سائر صيغ التّسبيح في افتتاح الصلاة، فإنّ ملاحظتها توجب المعرفة بالله تعالى، والتعظيم والخشوع له في الصلاة.

الأمر الثاني: أنّ هيئة القيام في الصلاة فيها ارتفاع واستعلاء، يحتاج معه المصلّي إلى الخضوع لله الكبير المتعال، وإلى الشعور بعظمة الله تعالى، وهيبة الوقوف أمامه، ولهذا شُرع في هيئة القيام التكبير، ثم التسبيح مقروناً، بالحمد والتهليل والتمجيد، ثم تلاوة كلام الله جلّ وعلا، ليكون المصلّي على خضوع تامّ في هذه الهيئة، وليقوم بقلبه من معاني هذه الأذكار ما يوجب له الخشوع التامّ لله تعالى في الصلاة، بتوفيق الله ﷻ[(٢)].

---

(١) مقتبس من: الصلاة وحكم تاركها، للإمام ابن قيم الجوزية: ص٣٠٨ ـ ٣٠٩.

(٢) انظر: المصدر السابق: ص٣١٦.

المبحث الثاني

التّسبيح عند قراءة آية فيها تسبيح الله تعالى

من المواضع التي يشرع فيها التّسبيح: التسبيح عند قراءة آية من القرآن الكريم فيها تسبيح الله تعالى وتنزيهه إذا مرّ بها القارىء في الصلاة أو في غير الصلاة.

ويدلّ على مشروعية التسبيح في هذا الموضع ما ثبت في السنة من حديث حذيفة بن اليمان ﵁ قال: «صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة، فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المائة، ثم مضى. فقلت: يصلي بها في ركعة، فمضى. فقلت: يركع بها. ثم افتتح النساء، فقرأها. ثم افتتح آل عمران، فقرأها. يقرأ مترسّلاً، إذا مرّ بآية فيها تسبيح سبّح، وإذا مرّ بسؤال سأل، وإذا مرّ بتعوّذ تعوّذ» الحديث[١].

وفي رواية: «أنّ النبي ﷺ صلّى، فكان إذا مرّ بآية رحمة سأل، وإذا مرّ بآية عذاب استجار، وإذا مرّ بآية فيها تنزيه لله سبّح»[٢].

والمفهوم من هذه الرواية الثانية أنّ هذا التسبيح لا يختصّ بالآيات التي فيها لفظ التسبيح فقط، بل يشمل كلّ آية فيها تنزيه لله تعالى بأيّ لفظ كان، بلفظ التسبيح أو بغيره من الألفاظ الدّالة على

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: ١/٥٣٦، برقم (٧٧٢)، وسبق ذكره مختصراً في ص٧٢.
(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه: ١/٤٢٩، برقم (١٣٥١)، وإسناده صحيح. وقد سبق مختصراً في ص٧٢.

معناه من التنزيه[1].

ويؤيّد هذا المفهوم ما جاء في الحديث عن موسى بن أبي عائشة[2]، قال: «كان رجل يصلّي فوق بيته، وكان إذا قرأ: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۝٤٠﴾ [القيامة: ٤٠].

قال: سبحانك، فبلى[3]. فسألوه عن ذلك، فقال: سمعته من رسول الله ﷺ»[4].

فالآية المذكورة في هذا الحديث ليس فيها لفظ التسبيح، ولكنها تتضمّن معنى التسبيح ـ وهو التنزيه ـ، ولهذا سبّح الله تعالى عقب قراءتها، فقال: «سبحانك»، «أي: تنزيهاً لك أن يقدر أحدٌ على إحياء الموتى غيرك»[5].

وممّا جاء في السنّة أيضاً دالاً على مشروعية التسبيح عند قراءة آية فيها تسبيح حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «أنّ النبي ﷺ كان إذا قرأ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى: ١] قال: «**سبحان ربي الأعلى**»»[6].

---

(١) سبق بيان الألفاظ الدالة على معنى التسبيح، في ص١١٢.

(٢) هو موسى بن أبي عائشة الهمدانيّ مولاهم، أبو الحسن الكوفي، ثقة عابد، وكان يرسل، ولم تذكر سنة وفاته.
انظر: تقريب التهذيب، لابن حجر العسقلاني: ٢/ ٢٨٩.

(٣) قال الشوكاني: «قوله: (فبلى) في نسخة من سنن أبي داود: فبكى، بالكاف.
قال ابن رسلان: «وأكثر النسخ المعتمدة باللام بدل الكاف. وبلى: حرف لإيجاب النفي، والمعنى: أنت قادر على أن تحيي الموتى» [نيل الأوطار: ٢/ ٣٣٠].

(٤) أخرجه أبو داود في سننه: ١/ ٥٤٩، برقم (٨٨٤). وصحّحه الألباني في «صحيح سنن أبي داود»: ١/ ٢٥٠، برقم (٨٨٤). والرجل المذكور وإن كان مبهماً، فجهالة الصحابي لا تضرّ.

(٥) مقتبس من «نيل الأوطار»، للشوكاني: ٢/ ٣٣٠.

(٦) أخرجه أبو داود في سننه: ١/ ٥٤٩، برقم (٨٨٣)، وأحمد في المسند: =

وهذا الحديث مطلق، فيشمل القراءة في الصلاة وخارجها، والحديثان قبله مقيّدان بالقراءة في الصلاة.

فهذه الأحاديث الثابتة في السنة النبوية ظاهرة في أنه يُشرع للقارىء في الصلاة وفي غير الصلاة، إذا قرأ آية فيها تسبيح أو تنزيه الله تعالى أن يسبّح.

وقد جاء عن جماعة من الصحابة والتابعين ـ رضي الله عنهم ورحمهم ـ أنهم كانوا يسبّحون عند قراءة الآيات التي فيها تسبيح الله تعالى وتنزيهه[1].

ونصّ كثير من أهل العلم على أنّ هذا التسبيح سنة مستحبّة لكل قارىء، سواء كان في الصلاة أو خارجاً عنها[2]، غير أنّ أبا حنيفة

= ١/ ٢٣٢، والحاكم في المستدرك: ١/ ٣٩٥ ـ ٣٩٦، برقم (٩٧٠) وصحّحه ووافقه الذهبي. وكذا صحّحه الألباني في «صحيح سنن أبي داود»: ١/ ٢٥٠، برقم (٨٨٣)، وفي صحيح الجامع، برقم (٤٧٦٦).

قال الإمام أبو داود ـ عقب إخراجه الحديث ـ: «خولف وكيع في هذا الحديث، رواه أبو وكيع وشعبة، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، موقوفاً».

قلت: هذه المخالفة ليست علة قادحة في صحّة الحديث، فإن وكيعاً ـ وهو ابن الجراح الرؤاسي ـ إمام ثقة حافظ، فروايته الحديث مرفوعاً من باب زيادة الثقة، وهي مقبولة.

(١) روى ابن أبي شيبة آثاراً بذلك عن علي بن أبي طالب، وابن عباس، وابن الزبير، وأبي موسى الأشعري، وعمران، وسعيد بن جبير، وعروة بن المغيرة ﷺ. انظر: الكتاب المصنّف في الأحاديث والآثار: ٢/ ٢٤٧ ـ ٢٤٨. وانظر أيضاً: تفسير الطبري: ١٢/ ٥٣٢، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٢٠/ ١٣ ـ ١٤.

(٢) انظر: شرح السنة، للبغوي: ٣/ ١٠٤، وشرح صحيح مسلم، للنووي: ٦/ ٦٢، والأذكار، له: ص١١١، ونيل الأوطار، للشوكاني: ٢/ ٢٣١.

جعله مستحبّاً في غير الصلاة، أما في الصلاة فكرهه[١].

والذين استحبّوه في الصلاة منهم من استحبّه في كلّ صلاة: فرضاً كانت أو نفلا، إماماً كان المصلّي أو مأموماً أو منفرداً، كالشافعية[٢]، والحنابلة[٣].

ومنهم من قصر استحبابه على صلاة النافلة، دون الفريضة، كالمالكية[٤].

والصواب: أنّ هذا التسبيح سنة مستحبّة في كل صلاة، ولكل مصلّ؛ لأن ما ثبت لصلاة ثبت لأخرى، وهذا ضابط جيّد ينطبق على أحكام الصلاة بنوعيها، ولا يخرج عن عموم النّصوص إلا ما خصّص[٥]، وعلى المخالف أن يأتي بدليل التّخصيص[٦].

وإذا كان يسنّ للقارىء أن يسبّح عند هذا الموضع وهو في الصلاة، فلأن يسنّ له وهو في غير الصلاة من باب الأولى.

ولهذا أشار بعض العلماء إلى أنّ التسبيح عند قراءة آية فيها تسبيح أو تنزيه لله تعالى، وكذا السؤال عند قراءة آية رحمة، والتعوذ عند قراءة

---

(١) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن، للنووي: ص٧٢، والكاشف عن حقائق السنن، للطيبي: ٣/ ١٠١٠، وعون المعبود شرح سنن أبي داود، للعظيم آبادي: ٣/ ٩٧.

(٢) انظر: شرح صحيح مسلم، للنووي: ٦/ ٦٢، والتبيان في آداب حملة القرآن، له: ص٧٢.

(٣) انظر: المغنى، لابن قدامة: ٢/ ٤٥٨.

(٤) انظر: حاشية الخرشي على مختصر خليل: ١/ ٥٤٣.

(٥) انظر: توضيح الأحكام من بلوغ المرام، للشيخ عبد الله بن عبد الرحمن البسام: ٢/ ٥٨.

(٦) انظر: الكاشف عن حقائق السنن، للطيبي: ٣/ ١٠١٠، ١٠١١.

آية عذاب، كل ذلك من آداب قراءة القرآن في الصلاة وخارجها[(١)].

وأما صيغة التسبيح في هذا الموضع، فقال الإمام النووي: «وإذا مرّ بآية تنزيه لله سبحانه وتعالى نزّه، فقال: سبحانه وتعالى، أو تبارك الله ربّ العالمين، أو جلّت عظمة ربّنا، أو نحو ذلك» اهـ[(٢)].

وكلامه هذا يبين أنه ليس لهذا التسبيح صيغة توقيفية، وأنه لا يلزم أن يكون بلفظ التسبيح نفسه، بل به وبكل لفظ دلّ على التنزيه والتعظيم لله ﷻ.

ولكن يظهر من الأحاديث التي سبق الاستدلال بها في هذا المبحث أن صيغة التسبيح في هذا الموضع تكون من لفظ التسبيح نفسه، كقوله: «سبحانك» و«سبحان ربّي الأعلى».

ولعل الأحسن ـ إذا كانت الآية المقروءة من الآيات التي فيها أمر بالتسبيح ـ أن يسبح القارىء بصيغة مطابقة للأمر، كما في حديث ابن عباس المتقدّم، وكما في حديث عائشة ﵂: أنّ رسول الله ﷺ كان يكثر من قول: «سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه»، امتثالاً لأمر الله تعالى له بقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾ [النصر: ٣][(٣)].

وإذا كانت الآية المقروءة من الآيات التي فيها معنى التسبيح دون لفظه، فليسبّح القارىء بصيغة مناسبة للمقام، والله تعالى أعلم.

❐ المناسبة:

وإذا ثبتت مشروعية التسبيح عند قراءة آية فيها تسبيح أو تنزيه لله

---

(١) انظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم، للقاضي عياض اليحصبي: ٣/١٣٧، والتبيان في آداب حملة القرآن، للنووي: ص٧١.

(٢) الأذكار: ص١١١، والتبيان في آداب حملة القرآن: ص٧١.

(٣) سبق نصّ الحديث وتخريجه في ص٢٤٢.

تعالى، داخل الصلاة أو خارجها، فإنّ لهذا التسبيح مناسبة عقدية ينبغي ملاحظتها، وهي:

أن العبد ـ وهو يقرأ القرآن ـ يجب أن يعلم أنّه يقرأ كلام الله ﷻ الذي أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ ليبلّغه إلى الناس جميعاً، ويعلم أن هذا الكلام خطاب من الله تعالى له بواسطة رسوله محمد ﷺ، فيكون علمه بذلك حاملاً له على إجماع قلبه وإلقاء سمعه عند تلاوة القرآن الكريم، وعند سماعه، كما قال الإمام ابن قيم الجوزية: «إذا أردت الانتفاع بالقرآن فأجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، والق سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلّم به سبحانه منه إليه، فإنّه خطاب منه لك على لسان رسوله، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: ٣٧]» اهـ[١].

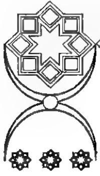
ولهذا المعنى ـ والله تعالى أعلم ـ شرع لقارىء القرآن التسبيح عند قراءة آية فيها تسبيح وتنزيه لله تعالى، لكي يهتمّ بتدبّر تلك الآية وتفهّمها واعتقاد معناها، مؤكّداً ذلك بنطق لسانه، فيطابق لسانه قلبه، ويوافق قوله عقيدته.

ولا شكّ أن من يحرص على الإتيان بهذه السنة في صلاته، فإنه «غالباً يكون حاضر القلب، متخشّعاً خائفاً راجياً، يظهر افتقاره بين يدي مولاه، والصلاة مئنّة ذلك ومظنّته»[٢]، والله تعالى الموفّق.

---

(١) الفوائد: ص٥.

(٢) مقتبس من: الكاشف عن حقائق السنن، للطيبي: ٣/ ١٠١٠ ـ ١٠١١.

المبحث الثالث

التّسبيح في الصّلاة بدلاً من القراءة لمن لا يُحسن شيئاً من القرآن

يُشرع لمن لا يحسن قراءة شيء من القرآن أن يسبّح مكان القراءة في الصلاة تسبيحاً مقروناً بالتحميد، والتهليل، والتكبير، والحوقلة.

ويدلّ على مشروعية هذا التسبيح حديث عبد الله بن أبي أوفى ﷺ قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: إنّي لا أستطيع أن آخذ من القرآن شيئاً، فعلّمني ما يجزئني منه، قال: «**قل: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم**». قال: يا رسول الله، هذا لله ﷻ، فما لي؟ قال: «**قل: اللهم ارحمني، وارزقني، وعافني، واهدني**». فلما قام قال هكذا بيده، فقال رسول الله ﷺ: «**أما هذا فقد ملأ يده من الخير**»»(١).

وفي رواية أنه قال: «إني لا أقرأ القرآن، فمرني بما يجزئني منه، فقال له النبي ﷺ: «**قل: الحمد لله، وسبحان الله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله**». قال: فقالها الرجل، وقبض كفّه، وعدّ خمساً مع إبهامه. فقال: يا رسول الله، هذا لله تعالى، فما لنفسي؟ قال: «**قل: اللهم اغفر لي، وارحمني، وعافني، واهدني، وارزقني**». قال: فقالها، وقبض على كفّه الأخرى، وعدّ خمساً مع إبهامه، فانطلق الرّجل وقد قبض كفّيه جميعاً، فقال النبي ﷺ: «**لقد ملأ**

---

(١) سبق تخريجه ص٤٦٦.

كفّيه من الخير»»[١].

فهذا الحديث دليل على أنّ هذا التسبيح المقرون بالتحميد والتهليل والتكبير والحوقلة يُجزىء من لا يُحسن شيئاً من القرآن من القراءة في الصلاة[٢].

وليس في الحديث تصريح بتكرار هذا التسبيح في الصلاة، ولكنّ جعله بدلاً من القراءة يقتضي قوله في كلّ ركعة من الصلاة، كما تكون القراءة في كل ركعة[٣].

وقد استدلّ العلماء بهذا الحديث على أنّ صلاة الأمّيّ ـ الذي لا يحسن قراءة شيء من القرآن ـ تصحّ بلا قراءة اتّفاقاً[٤].

قال الخطّابي: «الأصل أنّ الصلاة لا تجزىء إلا بقراءة فاتحة الكتاب، لقوله ﷺ: «**لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب**»[٥] ومعقول أنّ وجوب قراءة فاتحة الكتاب إنما هو على من أحسنها دون من لا يحسنها، فإذا كان المصلّي لا يحسنها، وكان يحسن شيئاً من القرآن غيرها كان عليه أن يقرأ منه قدر سبع آيات؛ لأن أولى الذكر بعد فاتحة الكتاب ما كان مثلاً لها من القرآن. فإن كان رجل ليس في وسعه أن يتعلّم شيئاً من القرآن لعجز في طبعه، أو سوء حفظه، أو عجمة لسان، أو آفة تعرض له، كان أولى الذكر بعد القرآن ما علّمه النبي ﷺ من

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده: ٤/ ٣٨٢.

(٢) انظر: نيل الأوطار، للشوكاني: ٢/ ٢٣٧.

(٣) انظر: المصدر السابق، الموضع نفسه.

(٤) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٣/ ٧٥.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٢/ ٢٣٦، برقم (٧٥٦)، ومسلم في صحيحه: ١/ ٢٩٥، برقم (٣٩٤)، كلاهما من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير» اهـ[١].

ويتبّين - بهذا - أن التسبيح في الصلاة بدلاً من القراءة ليس مشروعاً لكلّ أحد، ولا في كل حال، بل هو مشروع في حالة نادرة؛ فقد نصّ العلماء على أن الذّكر في الصلاة بدلاً من القراءة لا يجوز الانتقال إليه إلا عند العجز عن القراءة، بمنزلة التيمّم مع الوضوء، وبمنزلة صيام الشهرين مع العتق[٢]، والصيام مع الهدي[٣][٤].

واستبعد بعض العلماء أن تكون حالة العجز عن القراءة مستمرة مع الإنسان في جميع الأوقات؛ لأنه إذا قدر على تعلّم هذه الكلمات الواردة في الحديث، فإنه - لا محالة - قادر على تعلّم الفاتحة.

ولهذا قال هؤلاء: إنّ قول الرجل - في الحديث -: «لا أستطيع أن آخذ من القرآن شيئاً» أو «لا أقرأ القرآن»، تأويله: «لا أستطيع أن أتعلّم شيئاً من القرآن في هذه الصلاة، وقد دخل عليّ وقت الصلاة، فإذا فرغ من تلك الصلاة لزمه أن يتعلّم»[٥].

وما استبعدوه ليس ببعيد، ولكنه نادر، وليس في الحديث ما يشير إلى توقيت هذا التسبيح حتّى يتعلّم الرجل القرآن.

كما أن الأئمة الذين أخرجوا هذا الحديث من أصحاب السنن بوّبوا له بالإطلاق من دون تقييد ذلك بوقت معيّن، فبوّب له الإمام أبو داود بـ(باب ما يجزىء الأمّيّ والأعجميّ من القراءة)[٦]. وبوّب له

---

(١) معالم السنن: ١/ ١٧٩.
(٢) يعنى في كفارة الجماع عمداً في نهار رمضان مع العلم، وفي كفارة الظهار.
(٣) يعنى في حقّ المتمتع بالعمرة إلى الحج.
(٤) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٤/ ٢٣٨.
(٥) انظر: الكاشف عن حقائق السنن، للطيبي: ٣/ ١٠١٠.
(٦) سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب رقم (١٣٩).

الإمام النسائي بـ (ما يجزىء من القراءة لمن لا يحسن القرآن)[١].

فالظاهر أنّ الرجل الذي علّمه النبي ﷺ هذا التسبيح ليقوله في الصلاة بدلاً من القراءة كان عاجزاً عن القراءة لسبب ما لا يتمكّن معه من تعلّم القرآن وإتقان قراءته، وهذا الذي يفهم من قوله: «إنّي لا أستطيع أن آخذ من القرآن شيئاً»، وفي الرواية الأخرى: «إنّي لا أقرأ القرآن».

وعليه فكلّ من كان بهذه الحالة من العجز عن قراءة القرآن أجزأه منها في الصلاة أن يسبّح الله تعالى بالصيغة الواردة في الحديث.

وهناك مناسبة عقدية لجعل التسبيح المقرون بالتحميد والتهليل والتكبير والحوقلة بدلاً من القراءة في الصلاة لمن لا يحسن شيئاً من القرآن، فإن القرآن كلام الله ﷻ، وهذه الكلمات الأربع أو الخمس هي أفضل الكلام، وأطيبه، وأحبّه إلى الله تعالى بعد القرآن، وإن الله تعالى قد اصطفاها من الكلام لذكره والثناء عليه بها، كما تقدّم بيانه بالأدلة عند الكلام على الفضل المشترك للتسبيح[٢]. وذلك لأن هذه الكلمات ـ كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ: «تتضمن معاني أسماء الله الحسنى وصفاته العليا، ففيها كمال المدح»[٣].

فظهرت بهذا المناسبة التامّة لجعل هذه الكلمات بدلاً من القراءة في الصلاة لمن لا يحسن شيئاً من القرآن، لما اشتملت عليه من المعاني العظيمة المؤكّدة لتوحيد الله تعالى الذي هو لبّ القرآن وغاية مقصوده، والمقوّمة لعقيدة العبد المثني على الله سبحانه بها، مع تفهّم لمعانيها وتدبّر فيها، وبالله التوفيق.

---

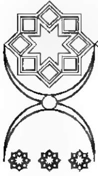
(١) سنن النسائي، كتاب الافتتاح، باب رقم (٣٢).

(٢) انظر: ص٤٤٤ ـ ٤٦٧.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠/ ٢٥٤.



المبحث الرابع



التّسبيح في الرّكوع والسّجود

الرّكوع والسّجود ركنان عظيمان من أركان الصلاة، أوجبهما الله تعالى في الكتاب والسنة، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾﴾ [الحج: ٧٧]. ومدح تعالى المؤمنين الممتثلين لهما فقال: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [التوبة: ١١٢].

وبيّنت السنة النبوية أنّ في كلّ ركعة من الصلاة ركوعاً واحداً وسجودين مفصولين بجلسة بينهما، وأجمع المسلمون على وجوب ذلك كلّه في الصلّاة(١).

وإذا كانت الصّلاة هي أجلّ المواضع التي شرع فيها التسبيح في الإسلام ـ كما سبق ـ، فإن الرّكوع والسّجود هما أجلّ المواضع التي شرع فيها التسبيح في الصلاة. ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والصلاة مبناها على التّسبيح في الرّكوع والسّجود، والتحميد والتوحيد في القيام والقعود، والتكبير في الانتقالات»(٢).

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٢/ ٥٦٥ ـ ٥٦٧.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٦/ ٣٢٠.

❑ أدلّة مشروعية التّسبيح في الرّكوع والسّجود:

وقد دلّ على مشروعية التسبيح في الرّكوع والسّجود أدلّة كثيرة من الكتاب والسنة، تقدّم ذكر جملة وافرة منها عند الكلام على حكم تسبيح الله تعالى من حيث القول[(١)].

ومن تلك الأدلّة أيضاً: ما وقع في كتاب الله تعالى من ذكر السّجود مقروناً بالتسبيح، وذلك في خمس آيات، من خمس سور:

أولاها: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

وهذا خبر عن الملائكة الذين عند ربهم في الملأ الأعلى، جمع الله تعالى في وصفهم بين التسبيح والسجود جميعاً، وقد تقدّم تناول هذه الآية عند الكلام على تسبيح الملائكة لله تعالى[(٢)].

والثانية: قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الحجر: ٩٨].

وفي هذه الآية يخاطب الله تعالى نبيه محمداً ﷺ، ويأمره بالتسبيح مع السجود، كما تقدّم بيانه أيضاً عند الكلام على تسبيح صالحي البشر لله تعالى[(٣)].

والثالثة: قوله تعالى: ﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ﴿١٠٨﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧ ـ ١٠٨].

وهذا خبر عن مؤمني أهل الكتاب، ومدحٌ لهم بخرورهم للأذقان

---

(١) انظر: ص٣٩١ ـ ٤٠٢.
(٢) انظر: ص٢٧٣. وانظر: أيضاً: ص٤٨.
(٣) انظر: ص٣١١.

سجّداً لله تعالى عند سماع القرآن، وقولهم: (سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً)[1].

وهذه الآية هي مما سبق تناوله عند الكلام على صيغة الإفراد في التسبيح[2]، وعند الكلام على تسبيح صالحي البشر لله تعالى[3].

وقد استدلّ بها بعض العلماء على مشروعية التسبيح في السّجود[4]؛ لأن ظاهر الآية أنهم يقولون هذا التسبيح حال خرورهم للأذقان سجّداً.

والرابعة: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾﴾ [السجدة: ١٥].

وهذه الآية تقتضي أنه لا يؤمن بآيات الله تعالى إلا من إذا ذكّر بها خرّ ساجداً، وسبّح بحمد ربه، وهو لا يستكبر[5]، فهي من أبلغ الأدلة على مشروعية التّسبيح في السجود، كما سبق بيان ذلك عند الكلام على حكم التسبيح من حيث القول[6].

والخامسة: قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾ [الإنسان: ٢٦].

وفي هذه الآية أيضاً خطاب للنبي ﷺ، وأمر له بالجمع بين السّجود والتّسبيح في قيام الليل.

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٣/ ١٤١.
(٢) انظر: ص١٨١ من هذا البحث.
(٣) انظر: ص٣١٨ ـ ٣١٩ من هذا البحث.
(٤) انظر: أحكام القرآن، للجصاص: ٥/٣٦، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٠/ ٤٣١.
(٥) انظر: مجموع شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٣/ ١٤١.
(٦) انظر: ص٣٩٧.

فهذه الآيات المذكورة هنا كلها ظاهرة في مشروعية التسبيح في الركوع والسجود. وإن قيل: إنّ هذه الآيات نصّت على السجود ولم تذكر الركوع!، فالجواب: أنّ الركوع أول السّجود، ومقدمته، ولذلك قال الله تعالى ـ عن نبيه داود عليه السلام ـ: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤]. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «لا ريب أنه سجد، كما ثبت بالسنة[١]، وإجماع المسلمين أنه سجد لله، والله سبحانه مدحه بكونه خرّ راكعاً، وهذا أول السّجود، وهو خروره، فذكر سبحانه أوّل فعله، وهو خروره راكعاً، ليبيّن أنّ هذا عبادة مقصودة وإن كان هذا الخرور كان ليسجد» اهـ[٢].

وقد اتّفق علماء المسلمين على مشروعية التسبيح في الركوع والسجود غير أنهم اختلفوا في وجوبه: فذهب بعضهم إلى أنّه سنّة مستحبّة وليس واجباً، وذهب آخرون إلى أنه واجبٌ، فمن تركه عمداً بطلت صلاته، ومن تركه سهواً، جبره بسجدتي السهو.

وتقدّم ذكر هذا الاختلاف، وترجيح القول بالوجوب على القول بعدم الوجوب، مع بيان الأدلة المفيدة لوجوب التسبيح في الرّكوع والسجود من الكتاب والسنة والنظر الصحيح[٣].

ومن القائلين بوجوب التسبيح في الرّكوع والسجود إمام أهل السنة والجماعة أحمد بن حنبل رحمه الله[٤]، وروي عنه أيضاً أنه ركن، ذكره شيخ

---

(١) جاء في الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن النبي ﷺ سجد في ص، وقال: «**سجدها داود توبة، ونسجدها شكراً**». أخرجه النسائي في سننه: ٢/ ٤٩٨، برقم (٩٥٦)، وأخرجه البخاري نحوه في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٨/ ٥٤٤، برقم (٤٨٠٧).
(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٣/ ١٤٥.
(٣) انظر ذلك في: ص٣٩٤ ـ ٤٠٢.
(٤) انظر: المغنى، لابن قدامة: ٢/ ١٨٠.

الإسلام ابن تيمية، وقوّاه، من دون جزم بترجيحه، فقال ـ بعد أن ذكر أن الإمام أحمد يوجب التسبيح في الركوع والسجود ـ: «وروي عنه أنه ركن، وهو قويّ، لثبوت الأمر به في القرآن[1] والسنة[2]. فكيف يوجب الصلاة على النبي ﷺ ولم يجىء أمر بها في الصلاة خصوصاً، ولا يوجب التّسبيح مع الأمر به في الصلاة، ومع كون الصلاة تسمّى (تسبيحاً)؟ وكل ما سمّيت به الصلاة من أبعاضها فهو ركن فيها، كما سُمّيتْ (قياماً) و(ركوعاً) و(سجوداً) و(قراءة)، وسميت أيضاً (تسبيحاً)[3].

ولم يأت عن النبي ﷺ ما ينفي وجوبه في حال السهو، كما ورد في التشهّد الأوّل أنه لما تركه سجد للسهو[4]، لكن قد يقال: لما لم يأمر به المسيء في صلاته[5] دلّ على أنه واجب ليس بركن. وبسط هذه المسائل له موضع آخر» اهـ[6].

وبهذا يتبيّن أنّ التسبيح في الركوع والسجود إن لم يكن ركناً في الصلاة، فلا أقلّ من أن يكون واجباً فيها، لكثرة الأدلة في ذلك وقوّتها.

❐ صيغ التّسبيح في الرّكوع والسّجود:

وأمّا ما يجب قوله من التسبيح في الرّكوع والسّجود، فقد ورد في

(١) سبق بيان آيات الأمر بالتسبيح في القرآن، ص٤٢٣.
(٢) ثبت الأمر بالتسبيح في الركوع والسجود من جهة السنة، في حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه، وقد سبق تخريجه في ص٢٢٥. وانظر: ص٣٩٧.
(٣) انظر: ما سبق بيانه في ص٣٩٦.
(٤) جاء ذلك في حديث عبد الله بن بحينة الأسدي رضي الله عنه، أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٣/٩٩، برقم (١٢٣٠)، ومسلم في صحيحه: ١/ ٣٩٩، برقم (٥٧٠).
(٥) سبق ذكر حديث المسيء صلاته، في: ص٣٩٣.
(٦) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٦/١١٨.

السنة النبوية صيغٌ متعددة للتسبيح في الركوع والسجود، بلغت سبعاً، وهي كما يلي:

١ ـ (سبحان ربي العظيم) في الركوع، و(سبحان ربي الأعلى) في السجود.

وردت هذه الصيغة في حديث حذيفة ﷺ قال: «صلّيت مع النبي ﷺ ذات ليلة... فذكر الحديث» وفيه: «ثم ركع، فجعل يقول: **«سبحان ربي العظيم»**، فكان ركوعه نحواً من قيامه. ثم قال: **«سمع الله لمن حمده»**، ثم قام طويلاً قريباً مما ركع. ثم سجد، فقال: **«سبحان ربي الأعلى»**، فكان سجوده قريباً من قيامه»(١).

ووردت أيضاً في حديث ابن عباس ﷺ قال: «بتّ عند خالتي ميمونة(٢)، قال: فانتبه رسول الله ﷺ من الليل... فذكر الحديث»، قال: «ثم ركع، فرأيته قال في ركوعه: **«سبحان ربي العظيم»**، ثم رفع رأسه، فحمد الله ما شاء أن يحمده، قال: ثم سجد، قال: فكان يقول في سجوده: **«سبحان ربّي الأعلى»**...»(٣).

وفي كلا الحديثين أنّ النبي ﷺ قال هذه الصيغة في صلاة الليل، وقد سبق أن ما ثبت لصلاة ثبت لأخرى ما لم يقم دليل بالتخصيص(٤).

---

(١) سبق ذكر طرفه الأول وتخريجه في ص٧٢.

(٢) هي ميمونة بنت الحارث الهلالية، زوج النبي ﷺ، وهي أخت أمّ الفضل لبابة بنت الحارث الهلالية، زوج العباس بن عبد المطلب، وأمّ عبد الله بن عباس راوي الحديث، رضي الله عنهم أجمعين.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده: ١/ ٣٧١، ورجال إسناده ثقات، غير كامل ـ وهو ابن العلاء التميمي ـ، فإنه صدوق يخطىء. كما في «تقريب التهذيب»، للحافظ ابن حجر: ٢/ ١٣٩، فالحديث به حسن.

(٤) انظر: ص٥٢٧.

٢ ـ (سبحان ربّي العظيم وبحمده) في الركوع، و(سبحان ربّي الأعلى وبحمده) في السجود.

ولا تختلف هذه الصيغة عن الصيغة السابقة إلا بزيادة (وبحمده) في الموضعين، وقد وردت هذه الصيغة في أحاديث برواية عدد من الصحابة رضي الله عنهم[(١)]، ولكن لا يخلو واحد منها من مقال في إسناده، ولهذا اختلف العلماء في زيادة (وبحمده) في صيغة التسبيح في الركوع والسجود: فردّ بعض العلماء هذه الزيادة، لكونها وردت في أحاديث لا تخلو من مقال.

وقبلها بعضهم، لكونها وردت في أحاديث متعددة وقد تعاضدت وتقوّت بكثرة الطرق[(٢)].

---

(١) وردت هذه الصيغة في: ١ ـ حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه، أخرجه أبو داود في سننه: ١/ ٥٤٢ ـ ٥٤٣، برقم (٨٧٠)، وقال: «وهذه الزيادة ـ يعني: (وبحمده) ـ نخاف أن لا تكون محفوظة». وفي إسناد هذا الحديث راو مبهم لم يسمّ، وهو الراوي عن عقبة.

٢ ـ وحديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه، أخرجه أحمد في مسنده: ٥/ ٣٤٣، وفي إسناده شهر بن حوشب، وهو صدوق كثير الإرسال والأوهام، كما في (تقريب التهذيب، لابن حجر: ١/ ٣٤١).

٣ ـ حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، أخرجه الطبراني في كتاب الدعاء: ٢/ ١٠٥٠، برقم (٥٤٢)، والدارقطني في سننه: ١/ ٣٤١، وفي إسنادهما محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، وهو صدوق سيّىء الحفظ جدّاً، كما في (تقريب التهذيب: ٢/ ١٩٣ ـ ١٩٤).

٤ ـ حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أخرجه الدارقطني في سننه: ١/ ٣٤١ ـ ٣٤٢، وفي إسناده السريّ بن إسماعيل، وهو متروك الحديث، كما في (تقريب التهذيب: ١/ ٢٧٨).

(٢) انظر هذا الخلاف في: نيل الأوطار، للشوكاني: ٢/ ٢٤٧، ووبل الغمام على شفاء الأوام، له أيضاً: ١/ ٢٨١.

وقد سئل الإمام أحمد بن حنبل عن تسبيح الركوع والسجود، فقيل له: (سبحان ربي العظيم) أعجب إليك، أو (سبحان ربي العظيم وبحمده)؟ فقال: «قد جاء هذا، وجاء هذا، وما أدفع منه شيئاً»(١).

وما قاله الإمام أحمد هنا هو الراجح ـ إن شاء الله ـ؛ لأن الأحاديث التي وردت بزيادة (وبحمده) صالحة للاحتجاج بمجموعها، ولأنّ زيادة (وبحمده) موافقة لظاهر القرآن في الأمر بقرن التسبيح بالحمد، كما في بعض الآيات التي سبق ذكرها قريباً.

٣ ـ (سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي)، (سبحانك اللهم وبحمدك، اللهم اغفر لي)، (سبحانك ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي)، (سبحانك ربي وبحمدك، اللهم اغفر لي)، (سبحان ربّي وبحمده، اللهم اغفر لي).

وهذه الصيغة وردت في حديث عائشة ﵂ بهذه الألفاظ الخمسة على اختلاف الروايات عنها، والحديث هو: أنّ رسول الله ﷺ كان يقول ذلك في الركوع والسجود، بعد أن نزلتْ عليه سورة النصر، هذا معناه(٢).

---

(١) ذكره ابن قدامة في (المغني: ٢/ ١٧٩). وانظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٦/ ١١٥.

(٢) حديث عائشة ﵂ أخرجه ـ باللفظ الأول ـ البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٢/ ٢٨١، برقم (٧٩٤)، ومسلم في صحيحه: ١/ ٣٥٠، برقم (٤٨٤)، وقد سبق أيضاً في ص٢٠٤.
وأخرجه ـ باللفظ الثاني ـ أحمد في مسنده: ٦/ ٢٣٠. وأخرجه ـ باللفظ الثالث ـ البخاري أيضاً في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٨/ ٧٣٣، برقم (٤٩٦٧).
وأخرجه ـ باللفظ الرابع ـ مسلم أيضاً في صحيحه: ١/ ٣٥١، برقم (٤٨٤).
وأخرجه ـ باللفظ الخامس ـ الطبراني في كتاب الدعاء: ٢/ ١٠٧٠، برقم (٦٠٤)، ورجاله كلهم ثقات.

وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «لما أنزل الله على رسول الله ﷺ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾[(١)]، كان يكثر ـ إذا قرأها وركع ـ أن يقول: «**سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي إنك أنت التوّاب الرّحيم**» ثلاثاً»[(٢)].

٤ ـ (سبحانك وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك).

وردت هذه الصيغة في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «كان نبيّكم ﷺ إذا كان ساجداً قال: «**سبحانك وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك**»»[(٣)].

٥ ـ (سبحانك وبحمدك، لا إله إلا أنت) أو (سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت)، في الركوع والسجود.

وردت هذه الصيغة في حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «افتقدت النبي ﷺ ذات ليلة، فظننت أنه ذهب إلى بعض نسائه، فتحسّست[(٤)]، ثم رجعت، فإذا هو راكع أو ساجد، يقول: «**سبحانك وبحمدك، لا إله إلا أنت**»، فقلت: بأبي أنت وأمي، إني لفي شأن وإنك لفي آخر»[(٥)].

وفي رواية: «فإذا هو راكع أو ساجد يقول: «**سبحانك اللهم**

---

(١) يعني سورة النصر كلها.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده: ١/٣٨٨، من طريق أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود، عن أبيه. والراجح في قول المحدثين أنه لم يسمع من أبيه، كما قال الحافظ ابن حجر في (تقريب التهذيب: ٢/٤٣٩)، فالحديث ـ بهذا الإسناد ـ منقطع.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ١٠/١٩٢، برقم (١٠٣٠٢)، وفي كتاب الدعاء: ٢/١٠٦٦ ـ ١٠٦٧، برقم (٥٩٣) وإسناده حسن.

(٤) هو بمعنى: افتقدت. وانظر: شرح صحيح مسلم، للنووي: ٤/٢٠٣.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه: ١/٣٥١ ـ ٣٥٢، برقم (٤٨٥).

وبحمدك، لا إله إلا أنت»[(١)].

٦ ـ (سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة) في الركوع والسجود.

وردت هذه الصيغة في حديث عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه، وقد تقدّم ذكره عند الكلام على قرن التسبيح بأسماء الله تعالى وصفاته[(٢)].

٧ ـ (سبّوح قدّوس، ربّ الملائكة والرّوح) في الركوع والسجود.

وردت هذه الصيغة في حديث عائشة رضي الله عنها، وقد سبق ذكره، عند الكلام على الألفاظ الدالة على معنى التسبيح[(٣)].

فهذه ما أمكن الاطّلاع عليه من صيغ التسبيح في الركوع والسجود الواردة في السنة النبوية، وهي ـ باعتبار ألفاظها ـ أربع عشرة صيغة.

ومع ورود هذه الصيغ المتعدّدة فقد اختلف العلماء فيما يحصل به التسبيح في الركوع والسجود على ثلاثة أقوال:

القول الأول: أنّه يتعيّن التسبيح بلفظ (سبحان ربّي العظيم) في الركوع، وبلفظ (سبحان ربي الأعلى) في السجود، ولا يجزىء غيرهما. وهو قول كثير من أصحاب الإمام أحمد[(٤)].

وحجتهم: أنّ هذين اللفظين ورد الأمر بهما في الركوع والسجود،

---

(١) أخرجه النسائي في سننه: ٢/ ٥٧٢، برقم (١١٣٠)، ورجال إسناده كلهم ثقات.

(٢) انظر: ص٢٣٩ من البحث. (٣) انظر: ص١١٨.

(٤) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٦/ ١١٤ ـ ١١٥ و٢٣/ ١٥٠.

ولم يرد الأمر بغيرهما[١]، وذلك في حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه: لمّا نزلت ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [الواقعة: ٧٤، ٩٦، والحاقة: ٥٢]، قال رسول الله ﷺ: «**اجعلوها في ركوعكم**». فلما نزلت ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ [الأعلى: ١]، قال: «**اجعلوها في سجودكم**»[٢].

فالله تعالى أمر العباد بهاتين الصيغتين من التسبيح، وبيّن الرسول ﷺ المبلّغ عنه أنّ محلّهما الركوع والسجود[٣]، فتعيّن فيهما هذان التسبيحان دون غيرهما.

وقد ثبت في حديث حذيفة رضي الله عنه وغيره أن رسول الله ﷺ كان يقول في ركوعه: «**سبحان ربي العظيم**»، وفي سجوده: «**سبحان ربي الأعلى**»[٤]، فتأكد تعيّن هاتين الصيغتين من التسبيح في الركوع والسجود بالأمر والفعل.

القول الثاني: أنّه يتعيّن التسبيح في الركوع والسجود بإحدى صيغ التسبيح الواردة في السنة، أو نحوها من التسبيح، كـ(سبحان الله)، أو (سبحان ربّي)، أو (سبحان الأحد)، أو غير ذلك من صيغ التسبيح الجائزة[٥].

---

(١) انظر: المصدر السابق: ١٦/ ١١٥، والصلاة وحكم تاركها، للإمام ابن قيم الجوزية ص٣٢٦.

(٢) سبق تخريجه في ص٢٢٥. وانظر أيضاً: ص٣٩٧.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠/ ٢٢٩، و١٦/ ١١٥، والصلاة وحكم تاركها، لابن القيم: ص٣١٧.

(٤) سبق حديث حذيفة مراراً، في ص٢٢٧، ٣١٣، ٥٣٩، وسبق نحوه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما في ص٥٣٩.

(٥) انظر: المجموع شرح المهذّب، للنووي: ٣/ ٣٨٣، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٦/ ١١٥، و٢٣/ ١٥٠، ونيل الأوطار، للشوكاني: ٢/ ٢٤٦.

ومقصود هذا القول: أن الذي يتعيّن في الركوع والسجود هو جنس التسبيح، لا صيغة بعينها، فيحصل أصل التسبيح في الركوع والسجود بقول: (سبحان الله) مثلاً، ونحوه.

وقد قوّى هذا القول شيخ الإسلام ابن تيمية، وقرّره في مواضع، منها:

قوله: ـ وهو يذكر الخلاف في المسألة ـ: «والأقوى أنه يتعيّن التسبيح، إما بلفظ (سبحان)، وإما بلفظ (سبحانك)، ونحو ذلك»(١).

وقوله: «قد علم أنه ﷺ كان يداوم على التسبيح بألفاظ متنوعة.

وقوله: (اجعلوها في ركوعكم، وفي سجودكم)(٢) يقتضي أن هذا محلّ لامتثال هذا الأمر، لا يقتضي أنه لا يقال إلا هي، مع ما قد ثبت أنه كان يقول غيرها...

وأيضاً قوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ①﴾ [الأعلى: ١] و﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ⑦④﴾ [الواقعة: ٧٤، ٩٦، والحاقة: ٥٢] أمر بتسبيح ربه، ليس أمراً بصيغة معيّنة، فإذا قال: (سبحان الله وبحمده) (سبحانك اللهم وبحمدك)، فقد سبّح ربّه الأعلى والعظيم، فإن الله تعالى هو الأعلى وهو العظيم. واسمه (الله) يتناول معاني سائر الأسماء بطريق التضمن، وإن كان التصريح بالعلو والعظمة ليس هو فيه. ففي اسمه (الله) التصريح بالإلهية، واسمه (الله) أعظم من اسمه (الربّ)»(٣).

وقوله: «وقوله: (اجعلوها في سجودكم) فيه كلام ليس هذا موضعه، إذ قد يقال: المسبّح لربّه، بأي اسم سبّحه فقد سبّح اسم ربه

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٦/ ١١٥.

(٢) يشير إلى حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه، الذي سبق ذكره آنفاً، في ص٥٤٤.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٦/ ١١٦ ـ ١١٧.

الأعلى، كما أنه بأي اسم دعاه فقد دعا ربّه الذي له الأسماء الحسنى. كما قال: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]، وقال: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

فإذا كان يُدعى بجميع أسمائه الحسنى، وبأيّ اسم دعاه، فقد دعا الذي له الأسماء الحسنى، وهو يُسبَّح بجميع أسمائه الحسنى، وبأيّ اسم سبّح، فقد سبّح الذي له الأسماء الحسنى، ولكن قد يكون بعض الأسماء أفضل من بعض، وبسط هذا له موضع آخر»[1].

وقوله: «عامة أدلة الشريعة من الكتاب والسنة تدلّ على وجوب جنس التسبيح، فمن لم يسبّح في السجود، فقد عصى الله ورسوله، وإذا أتى بنوع من أنواع التسبيح المشروع أجزأه»[2].

فهذه بعض كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في تقرير تعيّن التسبيح في الركوع والسجود جنساً، لا نوعاً معيّناً.

وقد اشتمل كلامه على بيان المراد من الحديث الذي احتجّ به، القائلون بتعيّن صيغتي (سبحان ربي العظيم) و(سبحان ربي الأعلى) في الركوع والسجود، وهو حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

القول الثالث: أنه لا يتعيّن التسبيح في الركوع والسجود، وأن ليس فيهما ذكر مخصوص يقوله المصلّي، لا تسبيح ولا غيره.

وهذا القول منقول عن الإمام مالك[3]، وهو غريب جدّاً؛ لأن

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٣/ ١٥٠.

(٢) المصدر السابق: ٢٣/ ١٤٩.

(٣) انظر: بداية المجتهد، لابن رشد الحفيد، تحقيق محمد صبحي حلاق: ١/ ٣١٤، والتاج والإكليل لمختصر خليل، لمحمد بن يوسف المواق، بهامش مواهب الجليل لشرح مختصر خليل، للحطاب: ٢/ ٢٤٢.

أدلة تعيّن التسبيح في الركوع والسجود من الكتاب والسنة كثيرة جدّاً وظاهرة، وإن كان هناك نزاع في وجوب ذلك أو استحبابه، كما سبق بيانه.

وأشار بعضهم إلى أن حجّة الإمام مالك في هذا القول هي حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**ألا وإني نهيت أن أقرأ القرآن راكعاً أو ساجداً، فأما الركوع فعظموا فيه الربّ، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء، فقمن أن يستجاب لكم**»[1]. حيث جاء الأمر فيه بمطلق التعظيم في الركوع، وبمطلق الدّعاء في السجود، ولم يذكر التسبيح فيه[2].

ولا حجة في هذا الحديث للقول بعدم تعيّن التسبيح في الركوع والسجود، فقد تقدّم ذكر الحديث نفسه فيما يدلّ على وجوب التسبيح في الركوع خاصّة من السنة[3]؛ لأن قوله ﷺ: «**فأما الركوع فعظّموا فيه الربّ**» معناه: «سبّحوه ونزّهوه ومجّدوه»[4]، وقد بيّن ﷺ أن هذا التعظيم يكون بالتسبيح، كما في حديثي عقبة بن عامر وحذيفة بن اليمان رضي الله عنهما المتقدّم ذكرهما[5]، وغيرهما من الأحاديث التي تدلّ على أن النبي ﷺ كان يداوم على التسبيح في الركوع والسجود.

وقوله ﷺ: «**وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء**»، تقدم أنه وإن جاء بلفظ الدعاء، فلا يختص ذلك بدعاء المسألة، بل يتناول نوعي الدعاء: دعاء الثناء، ودعاء المسألة.

---

(١) سبق تخريجه في ص٨٢.
(٢) انظر: بداية المجتهد، لابن رشد: ١/ ٣١٤ ـ ٣١٥.
(٣) انظر: ص٣٩٨.
(٤) شرح صحيح مسلم، للنووي: ٤/ ١٩٧.
(٥) انظر: ص٥٤٤.

والتسبيح من دعاء الثناء، فيتناوله الأمر بالاجتهاد في الدعاء في السجود، مع ما يتناوله من دعاء المسألة[١]. والنبي ﷺ كان يكثر في سجوده من النوعين[٢]، كما تدلّ عليه الأحاديث الصحيحة الورادة بما كان يقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ في السجود[٣].

وإذا تبيّن هذا عُلم أن القول بأنه لا يتعين في الركوع والسجود تسبيحٌ ولا ذكرٌ مخصوص قول مردود، لمخالفته للأدلة من الكتاب والسنة.

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية ما نقل عن الإمام مالك في هذه المسألة، مع إبداء توجيه محتمل له، فقال: «وجمهور العلماء على أنه يشرع التسبيح في الركوع والسجود، وروي عن مالك أنه كره المداومة على ذلك، لئلّا يُظنّ وجوبُه»[٤].

وقال بعد ذلك: «فإن كان كراهة المداومة على (سبحان ربي الأعلى، والعظيم)، فله وجه. وإن كان كراهة المداومة على جنس التسبيح، فلا وجه له، وأظنّه الأول.

وكذلك المنقول عنه إنما هو كراهة المداومة على (سبحان ربي العظيم)، لئلا يُظنّ أنه فرض، وهذا يقتضي أن مالكاً أنكر أن تكون فرضاً واجباً. وهذا قويّ ظاهر[٥]، بخلاف جنس التسبيح، فإن أدلة وجوبه في الكتاب والسنة كثيرة جدّاً، وقد عُلم أنه ﷺ كان يداوم على التسبيح بألفاظ متنّوعة» اهـ[٦].

---

(١) انظر: ص٣٩٨.

(٢) انظر: زاد المعاد، للإمام ابن قيم الجوزية: ١/ ٢٣٥.

(٣) انظر ذلك في: زاد المعاد، لابن القيم: ١/ ٢٣٣ ـ ٢٣٤، وصفة صلاة النبي ﷺ، للألباني: ص١٤٥ ـ ١٤٧.

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٦/ ١١٤.

(٥) يعنى عدم وجوب الصيغة المذكورة بعينها.

(٦) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٦/ ١١٦.

ويُعلم مما سبق بيانه أن التسبيح في الركوع والسجود يحصل ـ على القول الراجح ـ بالمجيىء بصيغة من صيغ التسبيح الثابتة عن النبي ﷺ في الركوع والسجود. والصواب في هذا التقيّد بالصيغ الواردة فحسب دون غيرها من التسبيح؛ لأن الصلاة عبادة مشروعة بأفعالها وأقوالها، والعبادات توقيفية، فيلتزم فيها ما ثبت بالدليل من كتاب أو سنة أو إجماع، لا غير.

❐ حكم الجمع بين صيغ التسبيح في الركوع والسجود:

وذهب بعض العلماء إلى أنه يشرع للمصلّي أن يجمع بين صيغ التسبيح المختلفة في الركوع الواحد، أو السجود الواحد(١).

وأبى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية، فقال ـ في الكلام على تسبيح الركوع والسجود ـ: «والجمع بين صيغتي التسبيح بعيد، بخلاف الجمع بين التسبيح والتحميد، والتهليل، والدعاء، فإن هذه أنواع، والتسبيح نوع واحد، فلا يجمع فيه بين صيغتين» اهـ(٢).

وعدم الجمع بين صيغ التسبيح في الركوع والسجود هو الحقّ ـ إن شاء الله ـ؛ لأنه لا دليل على الجمع ـ فيما أعلم ـ، وإنما يأتي المصلّي بهذه الصيغة مرّة، وبتلك الصيغة مرة أخرى، كما دلّت عليه سنة النبي ﷺ، والله تعالى أعلم(٣).

❐ أفضل صيغ تسبيح الركوع والسجود:

ومع أن المصلّي يشرع له أن يسبّح الله في ركوعه وسجوده بأيّة صيغة من صيغ التسبيح الواردة في الركوع والسجود، فإن أفضل ما

---

(١) انظر: الأذكار، للإمام النووي: ص١١٤، ١٢٠.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١١٦/١٦.

(٣) انظر: صفة صلاة النبي ﷺ، للألباني: ص١٣٤ (الهامش).

يقوله المصلّي في الركوع هو: (سبحان ربي العظيم)، وأفضل ما يقوله في السجود هو: (سبحان ربي الأعلى)[(١)].

وإنما كانت هذه الصيغة أفضل صيغ التسبيح في الركوع والسجود، للأمور الآتية:

١ ـ أن هذه الصيغة مطابقة تمام المطابقة للأمر في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [الواقعة: ٧٣، ٩٦، والحاقة: ٥٢]، وقوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ [الأعلى: ١] وقد قال رسول الله ﷺ ـ لما نزلت الآية الأولى ـ: «**اجعلوها في ركوعكم**». وقال ـ لما نزلت الآية الثانية ـ: «**اجعلوها في سجودكم**»[(٢)].

وهذا الجعل المأمور به في الحديث وإن كان يتحقّق بأية صيغة من صيغ التسبيح الواردة في الركوع والسجود، لكنه بهذه الصيغة خاصّة أكثر تحققاً، لمطابقتها للأمر لفظاً ومعنى.

٢ ـ أنّ هذه الصيغة فيها تخصيص الركوع بالتعظيم، وتخصيص السجود بالعلوّ، فهي ـ بهذا ـ موافقة كذلك لقوله ﷺ: «**فأما الركوع فعظّموا فيه الربّ، وأما السجود فاجتهدوا في الدّعاء**»[(٣)]. فجعل التعظيم في الركوع أخصّ منه في السجود[(٤)].

وهذا التعظيم المأمور به في الركوع وإن كان يحصل بكلّ تسبيح؛ لأن التسبيح يتضمّن التعظيم، فإن حصوله بهذه الصيغة خاصّة أتمّ؛ لأنها مشتملة على التسبيح المتضمن للتعظيم، وعلى التعظيم بلفظه الخاصّ، فهي موافقة للحديث تضمّناً وتصريحاً.

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٣/ ١٥٠، والصلاة وحكم تاركها، للإمام ابن قيم الجوزية: ص٣١٧، ٣٢٦.

(٢) سبق من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه. وانظر: ص٥٤٤.

(٣) سبق من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وانظر: ص٥٤٧.

(٤) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠/ ٢٥٣.

٣ ـ أن هذه الصيغة بها تكون المناسبة العقدية للتسبيح في الركوع والسجود أظهر فهماً ونظراً، وأوفر علماً ومعرفةً، كما سيأتي بيانه قريباً إن شاء الله تعالى.

فبهذه الأمور مجتمعة كانت هذه الصيغة أفضل صيغ التسبيح في الركوع والسجود. ولعلّ هذا هو الذي حمل بعض العلماء على القول بتعيّن هذه الصيغة في الركوع والسجود، مع ثبوت صيغ أخرى فيهما، كما سبق بيانه، والله تعالى أعلم.

❑ المناسبة العقديّة للتّسبيح في الرّكوع والسّجود:

وإن مما ينبغي الاهتمام بأمره، والاعتناء بشأنه العلمَ بالمناسبة العقدية للتسبيح في الركوع والسجود، وما فيه من المعاني الإيمانية، والمظاهر التعبّدية لله ﷻ، ليأتي العبد المسلم بهذا التسبيح في ركوعه وسجوده على التمام ظاهراً وباطناً، وصورةً وحالاً.

فإنّ الله تعالى شرع الركوع والسجود ليَخضع بهما العبد لربّه سبحانه ويتواضع، ويَذِلّ له ويخشع، وخضوع العبد وذلّه لا يتمّ إلا بالرّكوع والسّجود المعروفين، وهما فرضان ـ في الجملة ـ على كلّ أحد، والرّبّ ﷻ لا يرضى من العباد بدون هذا الخضوع والذّلّ، إذ هو غاية خضوع العبد وذلّه[١].

أما الرّكوع فهو أول السجود ـ كما تقدم في أول المبحث ـ، وهو كالمقدّمة بين يدي السجود والتّوطئة له، فينتقل العبد من خضوع إلى خضوع أكملَ وأتمَّ منه وأرفعَ شأناً[٢].

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٥٢/٢٣.

(٢) انظر: الصلاة وحكم تاركها، للإمام ابن القيم: ص٣٢٦. وشفاء العليل، له: ١٦٩/٢.

«وتمام الركوع أن يخضع القلب لله ويذلّ له، فيتمّ بذلك خضوع العبد بباطنه وظاهره لله ﷻ، لهذا كان النبي ﷺ يقول في ركوعه: **«خشع لك سمعي وبصري ومخّي وعظمي وعصبي»**(١)، إشارة إلى أن خشوعه في ركوعه قد حصل بجميع جوارحه، ومن أعظمها القلب الذي هو ملك الجوارح، والأعضاء كلّها تبع له ولخشوعه»(٢).

وأما السجود فهو أعظم ما يظهر فيه ذلّ العبد لربه ﷻ، حيث جعل العبدُ وجهَه ـ الذي هو أشرف أعضائه وأعلاها وأعزّها عليه حقيقة ـ أوضعَ ما يمكنه، فيضعه في التراب متعفّراً، وقد أخذ كلُّ عضو من البدن حظّه من هذا الخضوع حتى أطراف الأنامل ورؤوس الأصابع، ويتبع ذلك انكسار القلب وتواضعه وخشوعه لله العليّ الأعلى(٣).

ولما كان هذا غايةَ ذلِّ العبد وخضوعه وانكساره، كان أقربُ ما يكون الربّ تعالى منه في هذه الحال، فأُمر أن يكثر فيها الدعاء، لقربه من القريب المجيب، وقد قال تعالى: ﴿وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب﴾ [العلق: ١٩](٤)، وقال رسول الله ﷺ: **«أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء»**(٥).

والمراد بالقرب ـ في الآية والحديث ـ قرب الله تعالى من الداعي في سجوده(٦)، والكلام في هذا القرب من جنس الكلام في نزوله جلّ

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه: ١/ ٥٣٤ ـ ٥٣٥، برقم (٧٧١).
(٢) مقتبس من رسالة: «الخشوع في الصلاة» ـ ضمن مجموعة رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي: ص١٦١.
(٣) انظر: شفاء العليل، لابن القيم: ٢/ ١٦٨، والمصدر السابق قبله: ص١٦٠.
(٤) انظر: شفاء العليل، لابن القيم: ٢/ ١٦٩.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه: ١/ ٣٥٠، برقم (٤٨٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٦) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/ ٢٣٦.

وعلا كل ليلة، ودنوّه إلى الحجاج عشية عرفة[١]، ومذهب سلف الأمة الصالح في ذلك معروف، وهو الإثبات على الوجه اللائق بذي الجلال والكمال، من غير تأويل ولا تعطيل، ولا تكييف ولا تمثيل.

وفي بيان ما يشتمل عليه السجود من معاني التوحيد والإيمان، ومظاهر الذلّ والعبودية، يقول الإمام ابن القيم: «شرع السجود على أكمل الهيئة وأبلغها في العبودية وأعمّها لسائر الأعضاء، بحيث يأخذ كل جزء من البدن بحظّه من العبودية، والسجود سرّ الصلاة، وركنها الأعظم، وخاتمة الرّكعة، وما قبله من الأركان كالمقدمات له، فهو شبه طواف الزيارة[٢] في الحجّ، فإنه مقصود الحجّ، ومحلّ الدخول على الله وزيارته، وما قبله كالمقدمات له، ولهذا أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، وأفضل الأحوال له حالٌ يكون فيها أقرب إلى الله، ولهذا كان الدعاء في هذا المحل أقرب إلى الإجابة.

ولما خلق الله سبحانه العبد من الأرض، كان جديراً بأن لا يخرج عن أصله، بل يرجع إليه إذا تقاضاه الطّبع والنّفس بالخروج عنه، فإن العبد لو تُرك لطبعه ودواعي نفسه، لتكبَّر وأشر وخرج عن أصله الذي خلق منه، ولوثب على حقّ ربّه من الكبرياء والعظمة فنازعه إياهما، وأُمر بالسجود خضوعاً لعظمة ربّه وفاطره، وخشوعاً له وتذلُّلاً بين يديه، وانكساراً له، فيكون هذا الخشوع والخضوع والتذلّل ردّاً له إلى حكم العبودية، ويتدارك ما حصل له من الهفوة والغفلة والإعراض الذي خرج به عن أصله، فتمثل له حقيقة التّراب الذي خلق منه، وهو يضع أشرف شيء منه وأعلاه وهو الوجه، وقد صار أعلاه أسفله خضوعاً بين يدي ربّه الأعلى، وخشوعاً له وتذلّلاً لعظمته، واستكانة

---

(١) انظر: المصدر السابق: ٥/ ٢٤٢.

(٢) يعنى طواف الإفاضة الذي يأتي به الحاج في يوم النحر.

لعزّته، وهذا غاية خشوع الظاهر، فإن الله سبحانه خلقه من الأرض التي هي مذلّلة للوطء بالأقدم، واستعمله فيها وردّه إليها ووعده بالإخراج منها[(١)]، فهي أمّه وأبوه، وأصله وفصله، فضمته حيّاً على ظهرها وميتاً في بطنها، وجعلت له طهراً ومسجداً، فأمر بالسجود إذ هو غاية خشوع الظاهر، وأجمع العبودية لسائر الأعضاء...، ولهذا كان من كمال السجود الواجب أنه يسجد على الأعضاء السبعة: الوجه، واليدين، والركبتين، وأطراف القدمين، فهذا فرض أمر الله به رسوله، وبلّغه الرسول لأمته[(٢)]، ومن كماله الواجب أو المستحب مباشرة مصلّاه بأديم وجهه، واعتماده على الأرض بحيث ينالها ثقل رأسه، وارتفاع أسافله على أعاليه، فهذا من تمام السجود» اهـ[(٣)].

وهذا الكلام والذي قبله إذا تأمّله العبد تجلّتْ له الحكمة العليا من الركوع والسجود في الصلاة، ولهذا شرع فيهما من التسبيح ما يناسب هيئتهما[(٤)]، فإن التسبيح قد خُصّ به حال الانخفاض، كما جاء في حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «كان النبي ﷺ وجيوشه إذا علوا الثّنايا[(٥)]

---

(١) يعني في قوله تعالى: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۝٥٥﴾ [طه: ٥٥].

(٢) وذلك فيما رواه ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«أمرت أن أسجد على سبعة أعظم: على الجبهة ـ وأشار بيده على أنفه ـ، واليدين، والركبتين، وأطراف القدمين. ولا نكفت الثياب ولا الشّعر»**.
أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ ٢/٢٩٧، برقم (٨١٢)، ومسلم في صحيحه: ١/٣٥٤، برقم (٤٩٠).

(٣) الصلاة وحكم تاركها: ص٣٢١ ـ ٣٢٤.

(٤) انظر: المصدر السابق: ص٣١٧.

(٥) الثنايا: جمع ثنيّة. والثنية: العقبة، أو طريقها، أو الجبَل، أو الطريقة فيه أو إليها. [القاموس المحيط، للفيروزآبادي/ مادة (ثنى) : ص١٦٣٦].

كبّروا، وإذا هبطوا سبّحوا، فوضعت الصلاة على ذلك»[١].

يقصد بقوله: «فوضعت الصلاة على ذلك»: التكبير في حال الارتفاع في الصلاة، والتسبيح في حال الانخفاض فيها في الركوع والسجود[٢].

فيذكر العبد في حال انخفاضه وذلّه ما يتّصف به الربّ جلّ وعلا مقابل ذلك، فيقول في الركوع: (سبحان ربي العظيم)، ويقول في السجود: (سبحان رب الأعلى)[٣].

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي: «ومن تمام خشوع العبد لله ﷻ، وتواضعه له في ركوعه وسجوده أنه إذا ذلّ لربه بالركوع والسجود وصف ربّه حينئذ بصفات العزّ والكبرياء والعظمة والعلوّ، فكأنه يقول: الذّل والتواضع وصفي، والعلوّ، والعظمة والكبرياء وصفك. ولهذا شرع للعبد في ركوعه أن يقول: (سبحان ربي العظيم)، وفي سجوده: (سبحان ربي الأعلى)» اهـ[٤].

وذكر بعض العلماء أن الحكمة في تخصيص الركوع بالتعظيم، والسجود بالأعلى هي: «أن السجود لما كان فيه غاية التواضع، لما فيه من وضع الجبهة التي هي أشرف الأعضاء على مواطىء الأقدام، كان أفضل من الركوع، فحسُن تخصيصه بما فيه صيغة أفعل التفضيل، وهو (الأعلى) بخلاف (العظيم)، جعلا للأبلغ مع الأبلغ، والمطلق مع المطلق» اهـ[٥].

---

(١) أخرجه أبو داود ـ ضمن حديث طويل ـ في سننه: ٣/ ٧٥، برقم (٢٥٩٩).

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٦/ ١١٣.

(٣) انظر: المصدر السابق: ١٦/ ١١٨ ـ ١١٩.

(٤) الخشوع في الصلاة ـ ضمن مجموعة رسائل الحافظ الإمام ابن رجب الحنبلي ـ: ص١٦١.

(٥) نيل الأوطار، للشوكاني: ٢/ ٢٤٧.

والأولى من هذا: أن الركوع قد خصّص بالتعظيم؛ لأن الركوع يقع في الصلاة بعد ركن القيام الذي خصّص بقراءة فاتحة الكتاب المشتملة على الحمد والتوحيد، والثناء والتمجيد. والتعظيم تابع لذلك؛ فإن التحميد والتوحيد مقدّم على مجرّد التعظيم، ولهذا شرع تعظيم الرب في الركوع بعد حمده وتوحيده في القيام. فدلّ على أن التعظيم المجرّد تابع لكونه تعالى محموداً، وكونه معبوداً. فإنه يجب أن يُحمد ويُعبد، ولا بدّ مع ذلك من التعظيم، فإن التعظيم لازم لذلك[1].

والحاصل: أنّ المصلّي يَحني ظهره في الركوع خضوعاً لعظمة ربه عزّ وجلّ، فيسبّحه بذكر اسمه العظيم، تنزيهاً لعظمته سبحانه عن حال العبد وذلّه وخضوعه، فكان الركوع بذلك ركن تعظيم وإجلال للرّبّ جلّ جلاله بالقلب والقالب والقول، كما قال النبي ﷺ: «**أما الركوع فعظّموا فيه الربّ**»[2][3].

وخصّص السجود بالعلوّ؛ لأن السجود غاية الخضوع والذلّ من العبد، وغاية تسفيله وتواضعه بأشرف شيء فيه لله تعالى ـ وهو وجهه ـ بأن يضعه على التراب. فناسب في غاية سفوله أن يصف ربّه بأنه الأعلى ـ والأعلى أبلغ من العليّ ـ، فإن العبد ليس له من نفسه شيء، وليس له من الكبرياء والعظمة نصيب.

فلما كان السجود غاية سفول العبد وخضوعه، سبّح ربّه الأعلى، فهو سبحانه الأعلى، والعبد الأسفل، كما أنه الربّ، والعبدُ العبدُ،

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٦/ ٣٢١.

(٢) جزء من حديث، سبق تخريجه في ص٨٢.

(٣) انظر: شفاء العليل، لابن القيم: ٢/ ١٦٨، والصلاة وحكم تاركها، له: ص٣١٧.

وهو الغنيّ، والعبد الفقير، وليس بين الربّ والعبد إلا محض العبودية، فكلما كمّلها العبد قرب إليه؛ لأنه سبحانه برّ جواد مُحسن، يعطي العبد ما يناسبه، فكلما عظم فقره إليه كان أغنى، وكلما عظم ذلّه له كان أعزّ، فإن النفس ـ لما فيها من أهوائها المتنوعة، وتسويل الشيطان لها ـ تبعد عن الله، حتى تصير ملعونة بعيدة من الرحمة. ومن أعظم ذنوبها إرادة العلوّ في الأرض، والسجود فيه غاية سفولها[1]، فأمر أن يسبّح ربه الأعلى، فيذكر علوّه سبحانه في حالة سفوله هو، وينزهه عن مثل هذه الحال. وإنّ من هو فوق كلّ شيء، وعال على كل شيء ينزّه عن السفول بكلّ معنى، بل هو الأعلى بكلّ معنى من معاني العلوّ[2].

فكان وصف الرّبّ بالعلوّ في حال السجود في غاية المناسبة لحال الساجد الذي قد انحطّ إلى السفل على وجهه، فذكر علوّ ربه في حال سفوله في سجوده، كما ذكر عظمته في حال خضوعه في ركوعه، ونزّه ربّه العظيم الأعلى عمّا لا يليق به مما يضادّ عظمته وعلوّه[3].

وبالجملة فإن التسبيح في الركوع والسجود قد اجتمع فيه تنزيه الله تعالى وتعظيمه بالقول والفعل، فالتسبيح باللسان تنزيه وتعظيم بالقول، والركوع والسجود تنزيه وتعظيم بالفعل، فاقترن في هذه العبادة العظيمة أثر التنزيه الفعليّ بأثر التنزيه القولي[4].

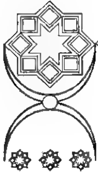
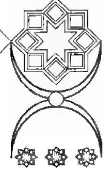
---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/ ٢٣٧ ـ ٢٣٨.

(٢) انظر: شفاء العليل، لابن القيم: ٢/ ١٦٨ ـ ١٦٩. وانظر: ما سبق بيانه من معاني العلوّ الذي يوصف به الله تعالى في ص١٢٨ ـ ١٢٩.

(٣) انظر: الصلاة وحكم تاركها، لابن القيم: ص٣٢٧.

(٤) انظر: تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور: ٣/ ٢٧٥، والشرح الممتع على زاد المستقنع، للشيخ محمد بن صالح العثيمين: ٣/ ١٣٠.

المبحث الخامس

التّسبيح في الصّلاة لأمر طارىء



ومن المواضع التي يُشرع فيها التسبيح في الصلاة: التسبيح فيها لأمر يطرأ على المصلّي، فيحتاج معه إلى الكلام لمعالجته.

وقد دلّ على مشروعية هذا التسبيح داخل الصلاة عدّة أحاديث من السنة النبوية، أهمها:

١ ـ حديث سهل بن سعد[(١)] رضي الله عنهما في قصة تقديم الصحابة أبا بكر الصديق رضي الله عنه ليصلّي بهم عند ما ذهب رسول الله ﷺ ليصلح بين قوم فحانت الصلاة، ثم جاء رسول الله ﷺ وهم في الصلاة، فتخلّص حتّى وقف في الصفّ. فصفّق الصحابة رضي الله عنهم حتّى أكثروا التصفيق، لينبّهوا أبا بكر الصديق رضي الله عنه بمجيء رسول الله ﷺ. وتمام القصة: «فقال رسول الله ﷺ: «**ما لي رأيتكم أكثرتم التصفيق؟ من رابه شيء في صلاته فليسبّح، فإنه إذا سبّح اُلتفت إليه، وإنما التصفيق للنساء**»»[(٢)].

وفي رواية: «**يا أيها الناس، ما لكم حين نابكم شيء في الصلاة**

---

(١) هو سهل بن سعد بن مالك بن خالد الأنصاري، الخزرجي الساعديّ، أبو العباس، له ولأبيه صحبة، وتوفي رسول الله ﷺ وهو ابن خمس عشرة سنة، وكان من مشاهير الصحابة، توفي سنة (٩١هـ) أو قبلها، وهو آخر من مات بالمدينة من الصحابة، رضي الله عنه وعنهم أجمعين.
انظر: الإصابة، لابن حجر العسقلاني: ٣/ ٢٠٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٢/ ١٦٧، برقم (٦٨٤)، ومسلم في صحيحه: ١/ ٣١٦ ـ ٣١٧، برقم (٤٢١).

أخذتم بالتصفيح[١]**؟ إنما التصفيح للنساء. من نابه شيء في صلاته فليقل: سبحان الله»**[٢].

وفي رواية أخرى: «**فإنه لا يسمعه أحد حين يقول: سبحان الله، إلا التفت»**[٣].

وفي رواية أخرى أيضاً: «**إذا نابكم أمرٌ فليسبّح الرجالُ، ولْيصفح النساءُ»**[٤].

٢ ـ وحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**التسبيح للرّجال، والتصفيق للنساء»**[٥].

وفي رواية: «**التسبيح للرجال والتصفيق للنساء في الصلاة»**[٦].

وحديث سهل بن سعد السابق قد جاء ـ في رواية ـ بمثل لفظ حديث أبي هريرة هذا[٧].

٣ ـ وحديث أبي هريرة رضي الله عنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا استؤذن على الرّجل وهو يصلّي فإذنه التسبيح، وإذا استؤذن على المرأة**

---

(١) جاء في بعض روايات الحديث: «قال سهل ـ وهو الصحابي الراوي ـ: هل تدرون ما التصفيح؟ هو التصفيق». أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٣/ ٧٥، برقم (١٢٠١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٣/ ٨٧ ـ ٨٨، برقم (١٢١٨)، وسبق مختصراً في ص١٩١.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٣/ ١٠٧، برقم (١٢٣٤).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ١٣/ ١٨٢، برقم (٧١٩٠).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٣/ ٧٧، برقم (١٢٠٣)، ومسلم في صحيحه: ١/ ٣١٨، برقم (٤٢٢).

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه: ١/ ٣١٩، برقم (٤٢٢).

(٧) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٣/ ٧٧، برقم (١٢٠٤).

وهي تصلّي فإذنها التصفيق»[١].

٤ ـ وحديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: «صلّى بنا رسول الله ﷺ، فنهض في الركعتين، فسبّحنا به، فمضى، فلما أتّم الصلاة، سجد سجدتي السّهو».

وقال مرة: «فسبّح به من خلفه، فأشار أن قوموا»[٢].

وجاء هذا الحديث برواية أخرى من طريق زياد بن علاقة[٣] قال: «صلّى بنا المغيرة بن شعبة، فنهض في الركعتين، قلنا: سبحان الله، قال: سبحان الله، ومضى، فلمّا أتمّ صلاته وسلّم، سجد سجدتي السّهو، فلمّا انصرف قال: رأيت رسول الله ﷺ يصنع كما صنعت»[٤].

فهذه الأحاديث كلّها دآلة على مشروعية التسبيح في الصلاة لأمر طارىء. واتفق علماء المسلمين على مشروعية هذا التسبيح ـ في الجملة ـ في الصلاة[٥]، وإن كانوا مختلفين في بعض مسائله، كما سيأتي.

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى: ٢/٢٤٧، وصحّحه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٣٢٠). وانظر: السلسلة الصحيحة، له: رقم (٤٩٧).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده: ٤/٢٥٣، وهو حديث صحيح، كما يأتي في الرواية الأخرى بعده.

(٣) هو زياد بن علاقة بن مالك الثعلبيّ، أبو مالك الكوفي، تابعي ثقة، رمي بالنصب، وتوفي سنة (١٣٥هـ)، وقد قارب المائة أو جاوزها، رحمه الله.
انظر: تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني: ٣/٣٨٠ ـ ٣٨١، وتقريب التهذيب، له: ١/٢٦٣.

(٤) أخرجه أبو داود في سننه: ١/٦٢٩، برقم (١٠٣٧)، والترمذي في سننه: ٢/ ٢٠١، برقم (٣٦٥)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وصححه الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على سنن الترمذي، والشيخ الألباني في صحيح سنن أبي داود: ١/٢٨٦، برقم (١٠٣٧).

(٥) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٢/٥٤٩.

حكم التسبيح في حقّ الرّجال والنّساء:

وهذه الأحاديث الواردة في هذا الباب، وبخاصّة حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، وحديثا أبي هريرة رضي الله عنه، صرّحتْ بتخصيص هذا التسبيح للرجال في الصلاة، كما صرّحت بتخصيص التصفيق للنساء في الصلاة.

ولهذا اتفق العلماء على أن المشروع في حقّ الرّجال ـ عند ما يطرأ عليهم شيء في الصلاة ـ هو التسبيح[١].

وأما المشروع في حقّ النساء في هذه الحالة، فاختلفوا فيه ـ حسب ما اطّلعت عليه ـ على أربعة أقوال:

القول الأول: أنّ النساء والرّجال سواء في هذه الحالة، فالمشروع في حقّهن هو التسبيح، ولا يجوز التصفيق في الصلاة، لا للرّجال ولا للنساء.

وهذا القول ذهب إليه الإمام مالك وجماعة من أصحابه[٢]، واحتجّوا في ذلك بحجج ذكرها أبو عمر بن عبد البر، فقال: «ذهب مالك وأصحابه إلى أنّ التسبيح للرّجال والنساء جميعاً، لقوله ﷺ: «**من نابه شيء في صلاته فليسبّح**»[٣]، ولم يخصّ رجالاً من نساء[٤]. وتأولوا قول النبي ﷺ: «**إنما التصفيق للنساء**»[٥]، أي: إنما التصفيق

(١) انظر: معالم السنن، للخطابي: ١/ ٢٠١، والتمهيد، لابن عبد البر: ٢١/ ١٠٦، وبداية المجتهد، لابن رشد: ١/ ٤٦٠.
(٢) انظر: المدوّنة الكبرى، للإمام مالك: ١/ ١٣١، وبداية المجتهد لابن رشد: ١/ ٤٦٠.
(٣) هو جزء من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، سبق تخريجه قريباً.
(٤) يعنون أن نصّ الحديث عام في الرجال والنساء.
(٥) هو جزء من حديث سهل أيضاً، سبق قريباً.

من فعل النساء، قال ذلك على جهة الذمّ[(١)]، ثم قال: «**من نابه شيء في صلاته فليسبّح**»، وهذا على العموم للرجال والنساء. وهذه حجة من ذهب هذا المذهب»[(٢)].

واحتجّ لهذا القول أيضاً بحديث أسماء[(٣)] بنت أبي بكر الصديق ﵄ قالت: «أتيت عائشة زوج النبي ﷺ حين خسفت[(٤)] الشمس، فإذا الناس قيام يصلّون، وإذا هي قائمة تصلّي. فقلت: ما للناس؟ فأشارت بيدها نحو السماء، وقالت: (سبحان الله)، فقلت: آية[(٥)]؟ فأشارت، أي: نعم...» الحديث[(٦)].

قال ابن عبد البر ـ تعقيباً على هذا الحديث ـ: «وفيه أنّ النّساء يسبّحن إذا نابهنّ شيء في الصلاة، لقول عائشة حين سألتها أسماء: ما للنّاس؟ فقالت: سبحان الله، وأشارت بيدها ولم تصفّق. وفي هذا حجّة لمالك في قوله: إن النساء والرجال في هذا المعنى سواء، من

---

(١) كما يقال: «كفران العشير من فعل النساء». وانظر: شرح ابن القيم لسنن أبي داود: ٦/١٥٦.
(٢) التمهيد: ٢١/١٠٦.
(٣) هي أسماء بنت أبي بكر الصديق، زوج الزبير بن العوام، ووالدة عبد الله بن الزبير، من كبار الصحابة، أسلمت قديماً بمكة، وكانت تلقّب بذات النطاقين، وقد عاشت مائة فلم يسقط لها سنّ ولم ينكر لها عقل، وتوفيت سنة (٧٤هـ). انظر: الإصابة، لابن حجر: ٧/٤٨٦ ـ ٤٨٨.
(٤) خسفت الشمس، وخسف القمر: أي ذهب نورهما. والأكثر ـ في اللغة ـ استعمال (خسف) للقمر، و(كسف) للشمس، ومعناهما واحد. انظر: النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير: ٢/٣١، والقاموس المحيط، للفيروزآبادي/ مادة (خسف): ١٠٣٩.
(٥) آية: أي علامة وعبرة، وجمعها آي وآيات. وآيات الله: عجائبه. انظر: لسان العرب، لابن منظور/ مادة (أيا): ١٤/٦٢ ـ ٦٣.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ١/٢٨٨، برقم (١٨٤).

نابه شيء في صلاته سبّح، ولم يصفّق رجلاً كان أو امرأة» اهـ[(١)].

وما زعمه أصحاب هذا القول من أن قوله ﷺ: «**إنما التصفيق للنساء**» جاء على طريق الذمّ مردود، وهو وإن كان محتملاً في لفظ هذه الرواية التي ذكروها، فإنّه يتعذّر في الرواية التي جاءت بلفظ الأمر، حيث قال ﷺ: «**إذا نابكم أمر فليسبّح الرجال، وليصفح النساء**»[(٢)]. فلفظ هذه الرواية نصّ يدفع المعنى الذي ذهبوا إليه؛ لأنه ﷺ أمر النساء بالتصفيح ـ وهو التصفيق ـ إذا نابهنّ أمر في الصلاة، ولو كان التصفيق في حقهنّ مذموماً لما أذن لهنّ فيه[(٣)].

ولهذا صرّح بعض كبار علماء المالكية بضعف هذا القول وردّه[(٤)]. وقال ابن عبد البر ـ بعد ذكر الرواية التي فيها أمر النساء بالتصفيق ـ: «فهذا قاطع في موضع الخلاف يرفع الإشكال»[(٥)].

القول الثاني: أن المشروع في حقّ النساء ـ إذا طرأ عليهنّ أمرٌ في الصلاة ـ هو التصفيق، ولا يشرع لهنّ التسبيح في هذه الحالة.

وهذا قول جمهور العلماء من المتقدّمين والمتأخرين[(٦)].

---

(١) التمهيد: ٢٢/ ٢٤٧.

(٢) سبق تخريجه من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه. في ص٥٥٩.

(٣) انظر: شرح سنن أبي داود، للإمام ابن القيم ـ مع عون المعبود ـ: ٦/ ١٥٧ ـ ١٥٨، وفتح الباري، للحافظ ابن حجر: ٣/ ٧٧، وطرح التثريب في شرح التقريب، لزين الدين أبي الفضل العراقي: ٢/ ٢٤٥.

(٤) انظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، لأبي العباس القرطبي: ٢/ ٥٦.

(٥) التمهيد: ٢١/ ١٠٧.

(٦) انظر: معالم السنن، للخطابي: ١/ ٢٠٠، والتمهيد، لابن عبد البر: ٢١/ ١٠٦، وبداية المجتهد، لابن رشد: ١/ ٤٦٠، والمغني، لابن قدامة: ٢/ ٤١٠ ـ ٤١٢، والمجموع شرح المهذب، للنووي: ٤/ ١٣، وشرح سنن أبي داود، لابن القيم: ٦/ ١٥٥ ـ ١٥٦.

وحجتهم في ذلك ما سبق إيراده من الأحاديث في هذا الباب، فإنّها صريحة في تخصيص التصفيق للنساء في الصلاة، إذا طرأ عليهنّ أمر.

وعلّل بعضهم اختصاص النساء بالتصفيق، ومنعهنّ من التسبيح في الصلاة، بأن صوت المرأة عورة، ولذلك أمرت بخفض صوتها مطلقاً، لما يخشى عليه من الافتتان[1].

ولهذه العلة نفسها مُنعت المرأة من الأذان، ومن الجهر بالإقامة والقراءة في الصلاة[2].

وقد صرّح أبو العباس القرطبي ـ وهو من المالكية ـ بأنّ هذا القول هو الصحيح نظراً وخبراً[3]، وهو كذلك.

القول الثالث: أن حكم المرأة إن نابها شيء في صلاتها أن تصفّق بيديها، فإن سبّحت فحسن.

وهذا قول ابن حزم، ونسبه أيضاً إلى الشافعي وداود[4]، وعلّل ذلك بقوله: «وإنما جاز التسبيح للنساء؛ لأنه ذكرٌ لله تعالى، والصلاة مكان لذكر الله ﷻ» اهـ[5].

---

(١) انظر: التمهيد: لابن عبد البر: ٢١/١٠٨، والمفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، لأبي العباس القرطبي: ٢/٥٦، وشرح سنن أبي داود، لابن القيم: ٦/١٦٥، وفتح الباري، للحافظ ابن حجر: ٣/٧٧.

(٢) انظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم، للقاضي عياض: ٢/٣٣٢، والمفهم، لأبي العباس القرطبي: ٢/٥٦.

(٣) انظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم: ٢/٥٦.

(٤) هو داود بن علي الأصبهاني ثم البغدادي، أبو سليمان، الفقيه المجتهد، إمام أهل الظاهر، توفي سنة (٢٧٠هـ)، رحمه الله. انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي: ٢/ ٥٧٢، والبداية والنهاية، لابن كثير: ١١/٥١.

(٥) انظر: المحلّى بالآثار، لابن حزم: ٢/٣٩٥ ـ ٣٩٦.

ولا شك أنّ مَن قال من العلماء بعدم جواز التسبيح للنساء في الصلاة لا ينازعون في كون التسبيح ذكراً لله تعالى، وإنما ينازعون في كونه مشروعاً للنساء عند ما ينوبهنّ شيء في الصلاة؛ لأن السنة وردت بالتفريق بينهن وبين الرجال في هذه الحالة، فشُرعتْ لهنّ التصفيق دون التسبيح، لحكمة في ذلك ـ كما تقدّم ذكره ـ، فلا سبيل إلى الخروج عن ظاهر السنة بمجرّد الرأي، وإن بدا لصاحبه أنه قويّ.

ولهذا ردّ الحافظ العراقي[1] على ابن حزم في مذهبه هذا، فقال: «وما قاله من أنّ تسبيحها حسن ليس بجيّد؛ لأن المراد هنا تسبيحها جهراً للتنبيه، لا تسبيحها في نفسها سرّاً، فإن ذلك حسن. فأمّا رفعها صوتها بالتسبيح لتنبيه الإمام أو غيره فليس بحسن،... والمرأة لا ترفع صوتها بما يُشرع لها الإتيان به من التكبير ونحوه، فكيف ترفع صوتها بما لم يُؤذن لها فيه؟!» اهـ[2].

وابن حزم المنسوب إلى الظاهر ـ أي: الأخذ بظاهر النصوص ـ كان جديراً بموافقة الجمهور في القول بمنع النساء من التسبيح في الصلاة إذا نابهنّ شيء؛ لأن ذلك هو مقتضى ظاهر النصوص من السنة. وقد ذكر هو نفسه أنّه لا يُعرف من الصحابة رضي الله عنهم مخالف لمن قال: التّسبيح للرّجال، والتّصفيق للنّساء[3].

---

(١) هو عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن المهراني المولد، العراقي الأصل، الكردي، زين الدين، أبو الفضل، الشهير بالعراقي، كان محدّثاً حافظاً، انتهت إليه رياسة علم الحديث في وقته، وله مصنفات عديدة منها: الألفية في علم الحديث، والتقييد والإيضاح، وغير ذلك، وتوفي سنة (٨٠٦هـ)، رحمه الله.
انظر: إنباء الغمر بأنباء العمر، للحافظ ابن حجر العسقلاني: ٢/ ٢٧٥ ـ ٢٧٩، والضوء اللامع لأهل القرن التاسع، للسخاوي: ٤/ ١٧٥ ـ ١٧٧.

(٢) طرح التثريب في شرح التقريب: ٢/ ٢٤٧.

(٣) انظر: المحلّى بالآثار: ٢/ ٣٩٦.

القول الرابع: أن المرأة إن كانت تصلّي بحضرة رجال أجانب فالمشروع في حقّها ـ عند ما ينوبها شيء ـ هو التصفيق، ولا يجوز لها التسبيح. وإن كانت تصلّي بحضرة نساء أو رجال من محارمها، جاز لها التسبيح إذا نابها شيء في الصلاة.

وهذا قول بعض العلماء(١)، وقد احتجّوا من جهة الخبر بقول النبي ﷺ: «**إذا نابكم شيء في الصلاة فليسبح الرجال، ولْيُصفّق النساء**»(٢). قالوا: فظاهر الحديث أن هذا فيما إذا كانت المرأة مع الرجال، فوظيفة الرجال حينئذ التسبيح، ووظيفة النساء التصفيق(٣). فحملوا الأمر بالتصفيق على حالة صلاة النساء مع الرجال، وقالوا: هي الحالة الكائنة وقت ورود هذا الحديث(٤).

كما احتجّوا من جهة النظر بأن التسبيح ذكر مشروع جنسه في الصلاة، بخلاف التصفيق، فإنه فعل غير مشروع جنسه في الصلاة، ولجأت إليه المرأة فيما إذا كانت مع رجال؛ لأن ذلك أصون لها، وأبعد عن الفتنة(٥).

وهذا القول له حظّ من النظر، ولكن يُضعفه أن الأحاديث الواردة في هذا الباب دالة على أن التصفيق هو المشروع في حقّ النساء في كلّ حالة، فالقول بأن التصفيق مشروع لهنّ في حالة صلاتهنّ مع الرجال

---

(١) انظر: طرح التثريب في شرح التقريب: ٢/ ٢٤٧، والشرح الممتع على زاد المستقنع، للشيخ محمد بن صالح العثيمين، بعناية الدكتور سليمان أبا الخيل، والدكتور خالد المشيقح: ٣/ ٣٦٢.

(٢) سبق تخريجه من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، في ص٥٥٩.

(٣) انظر: الشرح الممتع على زاد المستقنع: ٣/ ٣٦٢ ـ ٣٦٣.

(٤) انظر: طرح التثريب في شرح التقريب: ٢/ ٢٤٧.

(٥) انظر: المصدر السابق، نفس الموضع، والشرح الممتع على زاد المستقنع: ٣/ ٣٦٢.

فحسب تخصيص من غير دليل من الشرع[(١)].

ولهذا انفصل بعض من ذهب هذا المذهب، فقال: «ولسنا نريد بذلك أنها في هذه الحالة ـ حالة صلاتها بحضرة النساء أو المحارم ـ يكون المشروع لها التسبيح، وإنما نقول: «إنها لو نبّهتْ بالتسبيح لم يكره، وإن كان المشروع في حقّها والأفضل لها التصفيق» اهـ[(٢)].

وهذا أقرب إلى الصواب، ويقوّيه حديث أسماء رضي الله عنها في قول عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: «سبحان الله» وهي في الصلاة تنبيهاً لأسماء أنها في الصلاة[(٣)].

فإن هذا الحديث يدلّ على أنّ المرأة يجوز لها التسبيح في الصلاة إذا طرأ عليها أمرٌ، ولم تكن بحضرة رجال أجانب يسمعون صوتها. ولقد كان هذا الحديث بعينه ممّا احتجّ به للإمام مالك في قوله: إنّ النساء يسبّحن في الصلاة كالرجال، ولا يصفّقن، كما سبق ذكره[(٤)]. ولا يخفى أن غاية ما في هذا الحديث بيان جواز التسبيح للنساء في الصلاة إذا نابهنّ شيء، أمّا منعهنّ من التصفيق فلا دلالة فيه على ذلك.

وابن حزم الذي قال: إن حكم المرأة ـ إن نابها شيء في صلاتها ـ أن تصفّق بيديها، فإن سبّحت فحسن[(٥)]، لو قيّد قوله: «فإن سبّحت فحسن» بحالة كونها مع نساء أو محارم، دون رجال أجانب، لكان أقرب إلى الصواب، ولكان حديث أسماء رضي الله عنها مقوّياً له، كما سبق بيانه آنفاً.

---

(١) انظر: المصدرين السابقين/الأول: ٢/٢٤٧ ـ ٢٤٨، والثاني: ٣/٣٦٣.

(٢) طرح التثريب في شرح التقريب: ٢/٢٤٧.

(٣) سبق تخريجه في ص٥٦٢.

(٤) انظر: ص٥٦٢.

(٥) انظر: ص٥٦٤.

وبالجملة فإن المشروع في حقّ النساء إذا طرأ عليهنّ أمرٌ في الصلاة هو التصفيق، سواء كنّ مع رجال أو لا، ويجوز لهنّ التسبيح في هذه الحال إذا لم يكنّ بحضرة رجال أجانب. هذا ما دلّ عليه مجموع الأحاديث الواردة في هذا الباب، والله تعالى أعلم.

❑ الأمور التي يُشرع من أجلها التسبيح في الصلاة:

والأحاديث الواردة في هذا الباب أيضاً ليس فيها تخصيص أمور لبيان مشروعية التسبيح عند حدوثها في الصلاة، سوى أحد حديثي أبي هريرة رضي الله عنه الذي جاء فيه أن الرجل يسبّح إذا استؤذن عليه وهو في الصلاة[(١)]. وسوى حديث المغيرة رضي الله عنه الذي جاء فيه تسبيح المأمومين بالإمام إذا سها في الصلاة[(٢)].

وقد جاء النصّ عامّاً في حديث سهل بن سعد رضي الله عنه بجميع رواياته، وذلك في قوله ﷺ: «**من رابه شيء في صلاته**». وفي لفظ: «**من نابه شيء في صلاته**». وفي لفظ آخر: «**إذا نابكم أمر**»[(٣)].

فإن هذه الألفاظ مفيدة للعموم؛ لأن (شيء) وكذلك (أمر) نكرة في سياق الشرط، وهي من ألفاظ العموم[(٤)]، فتعمّ أيّ شيء يكون، وكلّ أمر يقع، سواء كان هذا الشيء وذلك الأمر مما يتعلق بالصلاة، أو مما يتعلق بأمر خارج عنها[(٥)].

فمما يتعلق بالصلاة: أن يسهو الإمام في الصلاة، فيسبح به

---

(١) سبق لفظ الحديث وتخريجه في ص٥٥٩.

(٢) سبق لفظه وتخريجه في ص٥٦٠.

(٣) انظر: تخريج الحديث بألفاظه في ص٥٥٨ ـ ٥٥٩.

(٤) انظر: مذكرة أصول الفقه، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: ص٢٠٥ ـ ٢٠٦.

(٥) الشرح الممتع على زاد المستقنع، للشيخ محمد بن صالح العثيمين: ٣/ ٣٦١.

المأمومون، كما في حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

ومما يتعلق بأمر خارج الصلاة: أن يستأذن شخص على المصلّي، فيسبّح، للإذن له بالدخول، أو لإعلامه أنه يصلّي، كما في أحد حديثي أبي هريرة رضي الله عنه.

وبهذا العموم المستفاد من أحاديث هذا الباب أخذ جمهور العلماء من السلف والخلف، فقالوا: إذا طرأ على المصلّي في صلاته ما يقتضي إفهام غيره بشيء، فإنه يشرع له التسبيح لذلك، مثل: أن يسهو إمامه فيسبّح به ليذكّره، أو يستأذن عليه إنسان، أو يكلمه فيسبح ليعلم أنه في صلاة، أو يخشى على إنسان الوقوع في شيء يضرّه فيسبّح به لينبّهه، أو يرى إنساناً يتلف شيئاً فيسبّح به ليتركه، أو غير هذه من أمثلة لا يمكن حصرها.

فهذه الأمور مما يشرع التسبيح من أجلها في الصلاة في قول جمهور العلماء[١]. وقال الإمام أبو حنيفة وبعض أصحابه: إذا سبّح المصلّي في صلاته مريداً بذلك جواباً، أو تنبيهاً لغير إمامه بأمر ما، بطلت صلاته؛ لأنه خطاب آدمي، فيدخل في عموم أحاديث النهي عن الكلام في الصلاة. وإذا سبّح المصلّي في صلاته مريداً بذلك تذكير إمامه، أو إعلام غيره بأنه في الصلاة، لم تبطل صلاته[٢].

فحملوا التسبيح المذكور في الأحاديث على ما كان القصد به تذكير الإمام، أو الإعلام بأنه في الصلاة.

---

(١) انظر: المغني، لابن قدامة: ٢/ ٤٥٤، وطرح التثريب في شرح التقريب، لزين الدين العراقي: ٢/ ٢٤٢ ـ ٢٤٣، ونيل الأوطار، للشوكاني: (٢/ ٣٢٨).

(٢) انظر: المبسوط، للسرخسي: ١/ ٢٠٠ ـ ٢٠١، والمغني، لابن قدامة: ٢/ ٤٥٤، وطرح التثريب: ٢/ ٢٤٢ ـ ٢٤٣.

وحمل هذا التسبيح على الأمرين المذكورين دون غيرهما تخصيص له بغير دليل يجب المصير إليه، بل إنّ الواقعة التي هي سبب ورود حديث سهل بن سعد رضي الله عنه لم يكن القصد فيها شيئاً من الأمرين اللذين ذكروهما، وإنما كان القصد فيها تنبيه أبا بكر الصديق رضي الله عنه على حضور رسول الله ﷺ، فأرشدهم ﷺ إلى أن المشروع في مثل هذه الواقعة وفي كلّ واقعة تنوب في الصلاة هو التسبيح للرجال، والتصفيق للنساء.

وليس في هذا الحديث ما يدع مجالاً لحمل التسبيح المذكور على ما كان القصد به تذكير الإمام أو الإعلام بأنه في الصلاة دون غيرهما من الأمور؛ لأن ذلك مخالف لما ورد به من العموم.

وأما قولهم: إن التسبيح في الصلاة لغير الأمرين اللذين ذكروهما يدخل في عموم أحاديث النهي عن الكلام في الصلاة، فالجواب عنه من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنّه لو كان كما قالوا، لكان التسبيح للأمرين اللذين ذكروهما كذلك، إذ لا فرق بين التسبيحين في حقيقة الأمر[1].

والثاني: أن التسبيح ليس من الكلام الذي منع منه المصلّي في صلاته، بل هو مما أمر به في الصلاة، فكيف يُسوّى بين المأمور والمحظور؟![2].

والثالث: أن الذي حرّم الكلام في الصلاة هو الذي شرع التسبيح المذكور في الصلاة، فلا تعارض بين سنن رسول الله ﷺ بوجه، بل لكل ممّا شرعه ومما حرّمه وجه ينبغي فهمه وامتثاله[3].

---

(١) انظر: المغني، لابن قدامة: ٢/ ٤٥٤.

(٢) انظر: إعلام الموقعين، للإمام ابن قيم الجوزية: ٢/ ٤٠٦.

(٣) انظر: المصدر السابق، الموضع نفسه.

وبهذا يتبين أن الأمور التي شرع من أجلها التسبيح في الصلاة ليست منحصرة في أمر أو أمرين، بل هي عامة في كل ما يطرأ على المصلّي في صلاته فيحتاج بسببه إلى إفهام غيره بشيء، سواء كان ذلك الشيء متعلّقاً بصلاته، أو بخارج عنها، والله تعالى أعلم.

❑ حكم التّسبيح في الصلاة لأمر طارىء على التّفصيل:

وإذا تبيّن أن التسبيح المشروع في الصلاة لأمر طارىء أسبابه متعددة، فإن حكمه يختلف تبعاً لتعدد أسبابه.

ولهذا ذكر بعض العلماء أن التسبيح ينقسم إلى ما هو واجب، وإلى ما هو مندوب، وإلى ما هو مباح، بحسب ما تقتضيه الحال، ويتطلّبه المقام(١).

فمن الصور التي يكون التسبيح فيها واجباً: أن يسهو الإمام في الصلاة فيترك ركناً أو واجباً، أو يأتي بفعل في غير موضعه. فإن تنبيهه في هذه الحالات واجب على المأمومين، فإن كانوا رجالاً سبّحوا به، وإن كانوا نساء صفّقن(٢).

ومنها: أن يشاهد ـ وهو يصلّي ـ أعمى يريد أن يقع في بئر، فإنه يجب أن يسبّح به وهو في الصلاة، إن كان يحصل بالتسبيح إنذاره وتنبيهه(٣).

ومن الصور التي يكون فيها التسبيح مندوباً: أن يكلّم المصلّي شخص في أمر، أو يسأله عن أمر، أو يناديه لأمر غير عالم بأنه يصلّي، فيسبّح لإعلامه بأنه في الصلاة.

---

(١) انظر: طرح التثريب في شرح التقريب: ٢/ ٢٤٥.
(٢) انظر: المغني، لابن قدامة: ٢/ ٤١٠.
(٣) انظر: طرح التثريب في شرح التقريب: ٢/ ٢٤٥.

ومن الصور التي يكون التسبيح فيها مباحاً: أن يكون في الصلاة فيستأذن عليه إنسان، فإنه يباح له أن يسبّح للإذن لمن استأذن، أو لإعلامه بأنه في الصلاة.

◻ صيغة التّسبيح في الصّلاة لأمر طارىء:

ويكون التسبيح في الصلاة لأمر طارىء في جميع الصّور بلفظ (سبحان الله) كما جاء ذلك صريحاً في حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، في قول النبي ﷺ: «**من نابه شيء في صلاته، فليقل: سبحان الله**»(١).

ففي هذا دليل على أن هذه الصيغة هي المشروعة للمصلّي إذا نابه شيء في صلاته، فلا يقوم غيرها مقامها، ولا يحصل بغيرها المقصود، كما جاء تأكيد ذلك في حديث سهل أيضاً رضي الله عنه في قول النبي ﷺ: «**فإنه لا يسمعه أحد حين يقول: سبحان الله إلا التفت**»(٢). وهذا لأن التسبيح ـ بهذه الصيغة ـ قد صار شعاراً للأمر الطارىء في الصلاة، فإذا أتى به المصلّي عند قيام سببه، أفهم من بحضرته، وحصل به المقصود(٣).

◻ حكم الجهر بهذا التسبيح وحكم تكراره:

والسنة في هذا التسبيح هي الجهر، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «**فإنه لا يسمعه أحد حين يقول: سبحان الله إلا التفت**». وذلك لأنه تسبيح مشروع للإفهام والتنبيه حين يطرأ أمر في الصلاة، وهذا المقصود لا يحصل بالتسبيح سرّاً. ولهذا صرّح العلماء بأن الرجل يسبّح إذا نابه شيء في صلاته، ويجهر بالتسبيح جهراً يسمعه من يريد

(١) سبق تخريجه في ص٥٥٨. (٢) سبق تخريجه في ص٥٥٩.
(٣) انظر: طرح التثريب في شرح التقريب: ٢/٢٤٨.

إفهامه أو تنبيهه[١].

ولما كان شأن هذا التسبيح هو الجهرَ لم يكن مشروعاً في حقّ النساء في صلاتهنّ، لا سيما إذا كنّ مع رجال أجانب، كما سبق بيانه.

وإذا سبّح المصلّي في صلاته لأمر طارىء، فحصل المقصود بالتسبيح مرة واحدة، لم يُعد التسبيح مرة أخرى؛ لأنه ذكر مشروع في الصلاة لسبب، فيزول بزوال السبب. فإن لم يحصل بالتسبيح مرة واحدة كرّره، فيسبّح ثانية وثالثة حتى يحصل المقصود[٢]، والله تعالى أعلم.

❐ المناسبة العقدية لهذا التسبيح:

وينبغي للمصلّي أن لا يغفل عن المناسبة العقديةِ لهذا التسبيح إذا أتى به لأمر نابه في صلاته، ويمكن إدراك هذه المناسبة العقدية من وجهين:

أولهما: أن الصلاة محلّ لذكر الله تعالى ومناجاته، ولذلك أُبعد عنها ما يَشغل العبدَ عن هذا المطلب العالي، فحرّم فيها كلام الناس ومخاطبتهم، كما قال رسول الله ﷺ: **«إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن»**[٣].

فلما دعت الحاجة إلى الكلام فيها لأمر طارىء، شرع لذلك ما هو من جنس ما شرع فيها من الذكر، وهو التسبيح، فإنه ذكر الله

---

(١) انظر: المجموع شرح المهذب، للنووي: ٤/ ١٣، وطرح التثريب في شرح التقريب: ٢/ ٢٤٧.

(٢) انظر: الشرح الممتع على زاد المستقنع، للشيخ محمد العثيمين: ٣/ ٣٦١.

(٣) سبق تخريجه في ص٤٠٠.

تعالى، مشروع في الصلاة في مواضع، وليس من جنس مخاطبات الناس[(١)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ومعلوم أن السكوت عن خطاب الآدميين واجبٌ في جميع الصلاة، فاقتضى ذلك الأمر بالقنوت[(٢)] في جميع الصلاة[(٣)]، ودلّ الأمر بالقنوت على السكوت عن مخاطبة الناس؛ لأن القنوت هو دوام الطاعة، فالمشتغل بمخاطبة العباد تارك للاشتغال بالصلاة التي هي عبادة الله وطاعته، فلا يكون مداوماً على طاعته، ولهذا قال النبي ﷺ ـ لما سُلِّم عليه ولم يردّ، بعد أن كان يردّ ـ: «**إن في الصلاة لشغلاً**»[(٤)]، فأخبر أن في الصلاة ما يشغل المصلّي عن مخاطبة الناس، وهذا هو القنوت فيها، وهو دوام الطاعة. ولهذا جاز ـ عند جمهور العلماء ـ تنبيه الناسي بما هو مشروع فيها، من القراءة، والتسبيح؛ لأن ذلك لا يشغله عنها، ولا ينافي القنوت فيها» اهـ[(٥)].

الوجه الثاني: أن الأمور التي يطرأ في الصلاة فيحتاج بسببها

---

(١) انظر: شرح صحيح مسلم، للنووي: ٥/٢١، وتوضيح الأحكام، للشيخ عبد الله البسام: ١/٥١٦.

(٢) القنوت: يرد بمعان متعددة، كالطاعة، والخشوع، والصلاة، والدعاء، والعبادة، والقيام، والسكوت، فيصرف في كل واحد من هذه المعاني إلى ما يحتمله لفظ النص الوارد فيه. انظر: النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير: (٤/١١١).

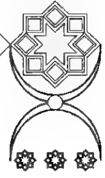
(٣) كما قال الله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ٢٣٨﴾ [البقرة: ٢٣٨].

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٣/٧٢، برقم (١١٩٩)، ومسلم في صحيحه: ١/٣٨٢، برقم (٥٣٨).

(٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٢/٥٤٨ ـ ٥٤٩.

المصلّي إلى إفهام غيره أو تنبيهه غالبها ناشىء عن السهو، والغفلة، والنسيان، وخفاء الأمور عن الإنسان، فناسب أن يأتي المصلّي في هذا المقام بلفظ التسبيح الذي يقتضي تنزيه الله ﷻ عمّا هو جائز على البشر من هذه النقائص والعيوب[1]، فسبحان من لا يسهو ولا يغفل ولا ينسى، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو بكل شيء عليم.

(١) طرح التثريب: ٢/ ٢٤٨.

المبحث السادس

التّسبيح في دُبُر الصّلاة

ومن المواضع التي جاء الشرع بالتسبيح فيها دُبُرُ الصلاة.

والدليل على ذلك قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ۝٤٠﴾ [ق: ٤٠].

فقد جاء في الأثر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أمره أن يسبّح في أدبار الصلوات كلها، يعني قوله: ﴿وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾»[(١)].

وقوله: «أمره أن يسبّح» يعني: أمر الله تعالى نبيه ﷺ[(٢)].

وفي رواية أخرى عن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية، قال: «**هو التسبيح بعد الصلاة**»[(٣)].

وفي رواية أيضاً عن مجاهد ـ في قوله: ﴿وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ ـ قال: «كان ابن عباس يقول: التسبيح في إثر الصلوات كلها»[(٤)].

وهذه الروايات تبيّن أن الآية دالة على الأمر بالتسبيح في دبر الصلاة. ولكن الآية ورد فيها قولان آخران غير ما سبق.

ـ فورد أن التسبيح الذي أمر الله نبيه أن يسبّحه أدبار السجود هو صلاة الركعتين بعد صلاة المغرب.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٨/٥٩٧، برقم (٤٨٥٢).
(٢) انظر: فتح الباري، لابن حجر العسقلاني: ٨/٥٩٨.
(٣) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره: ١١/٤٣٨.
(٤) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره: ١١/٤٣٨.

وهذا القول مروي عن جماعة من الصحابة والتابعين[(١)]، وجاء مرفوعاً من حديث ابن عباس رضي الله عنهما[(٢)]، ولكنه لا يصحّ.

ـ وورد أن التسبيح أدبار السجود يعنى النوافل في أدبار المكتوبات[(٣)].

فتحصّل في التسبيح المأمور به في أدبار السجود ثلاثة أقوال للمفسّرين:

القول الأول: أنه التسبيح باللسان في أدبار الصلوات.

والقول الثاني: أنه الركعتان بعد صلاة المغرب.

والقول الثالث: أنه النوافل بعد المفروضات[(٤)].

وذهب إلى اختيار القول الأول عدد من العلماء، منهم الحافظ ابن العربي، حيث قال ـ بعد حكاية هذا القول ـ: «**وهو الأقوى في النظر**»[(٥)].

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ١١/ ٤٣٧، وتفسير البغوي: ٧/ ٣٦٤ ـ ٣٦٥، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٤/ ٢٤٦.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه: ٥/ ٣٦٦، برقم (٣٢٧٥)، والحاكم في المستدرك: ١/ ٣٦٥ ـ ٣٦٦، برقم (١١٩٨). قال الترمذي: «هذا حديث غريب، لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه».

وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه». وتعقبه الذهبي فقال: «رشدين ضعّفه أبو زرعة والدارقطني». ورشدين هذا هو ابن كريب، أحد رجال الإسناد، وقد ضعفه الأئمة، كما في «تهذيب التهذيب»: ٣/ ٢٧٩ ـ ٢٨٠.

(٣) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره: ١١/ ٤٣٨، من قول ابن زيد.

(٤) انظر: النكت والعيون، للماوردي: ٥/ ٣٥٧، وزاد المسير، لابن الجوزي: ٨/ ٢٤، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٧/ ٢٦.

(٥) أحكام القرآن: ٤/ ١٦٢.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ في كتابه (الكلم الطيب) ـ: «فصل فيما يقال أدبار السجود»[(١)].

قال شارحه: «هذا فصل في بيان الأذكار التي في أدبار السجود، وهي جمع دُبُر، وهو آخر أوقات الشيء، والسجود يذكر ويراد به الصلاة، ويكون المعنى: التسبيحات التي في أدبار الصلاة، لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ ۝٤٠﴾ [ق: ٤٠]»[(٢)].

وقال الإمام ابن قيم الجوزية ـ في كتابه (الوابل الصيب) ـ: «الفصل الثالث عشر في الأذكار المشروعة بعد السلام، وهو أدبار السجود»[(٣)].

وبهذا يكون التسبيح في دبر الصلاة مشروعاً بكتاب الله تعالى، في قوله ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ ۝٤٠﴾ [ق: ٤٠].

وقد جاءت السنة النبوية مؤيّدةً للتسبيح في دبر الصلاة، ومبيّنةً لصيغه وأعداده، وذلك كما يلي:

١ ـ التسبيح والتحميد والتكبير ثلاثاً وثلاثين مرة.

جاء ذلك في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «جاء الفقراء إلى النبي ﷺ فقالوا: ذهب أهل الدثور[(٤)] من الأموال بالدرجات العلى والنعيم المقيم، يصلّون كما نصلّي، ويصومون كما نصوم، ولهم فضل من أموال يحجّون بها ويعتمرون، ويجاهدون ويتصدّقون. قال: «**ألا**

---

(١) الكلم الطيب ـ بشرحه العلم الهيب: ص٣١٤.

(٢) العلم الهيب في شرح الكلم الطيب، لبدر الدين العيني: ٣١٤.

(٣) الوابل الصيب من الكلم الطيب: ص١٥١.

(٤) الدثور ـ بضم الدال والثاء ـ: جمع دَثْر، وهو المال الكثير. انظر: شرح صحيح مسلم، للنووي: ٥/٩٢، والقاموس المحيط، للفيروزآبادي/ مادة (دثر): ص٥٠٠.

أحدّثكم بأمر إذا أخذتم به أدركتم من سبقكم، ولم يدرككم أحد بعدكم، وكنتم خير مَن أنتم بين ظهرانيه، إلا من عمل مثله: تسبّحون، وتحمدون، وتكبرون، خلف كل صلاة ثلاثين وثلاثين»»(١).

٢ ـ مثل ما سبق، مع زيادة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير».

جاء ذلك في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ، قال: **«من سبّح الله في دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين، وحمد الله ثلاثاً وثلاثين، وكبّر الله ثلاثاً و ثلاثين، فتلك تسعة وتسعون. وقال: ـ تمام المائة ـ: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. غفرت له خطاياه، وإن كانت مثل زبد البحر»**(٢).

وفي حديث آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه: «أن أبا ذرّ قال: يا رسول الله، ذهب أصحاب الدثور بالأجور: يصلّون كما نصلّي، ويصومون كما نصوم، ولهم فضول أموال يتصدّقون بها، وليس لنا ما نتصدّق به. فقال رسول الله ﷺ: **«أفلا أدلك على كلمات إذا عملت بهنّ أدركت من سبقك، ولا يلحقك إلا من أخذ بمثل عملك؟»** قال: بلى، يا رسول الله، قال: **«تكبّر دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين، وتسبّح ثلاثاً وثلاثين، وتحمد ثلاثاً وثلاثين، وتختمها بلا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير»**»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٢/ ٣٢٥، برقم (٨٤٣)، ومسلم في صحيحه: ١/٤١٦ ـ ٤١٧، برقم (٥٩٥).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: ١/٣١٨، برقم (٥٩٧).

(٣) أخرجه أبو داود في سننه: ٢/١٧٢، برقم (١٥٠٤)، وأحمد في مسنده: ٢/ ٢٣٨، واللفظ له، وإسناده صحيح. وانظر: صحيح سنن أبي داود، للألباني: ١/٣١٢، برقم (١٥٠٤).

ـ وجاء مثل ذلك أيضاً في حديث أمّ الحكم، أو ضباعة ابنتي الزبير بن عبد المطلب[(١)] رضي الله عنهما قالت: «أصاب رسول الله ﷺ سبيا[(٢)]، فذهبت أنا وأختي وفاطمة بنت رسول الله ﷺ، فشكونا إليه ما نحن فيه، وسألناه أن يأمر لنا بشيء من السبي، فقال رسول الله ﷺ: **«سبقكنّ يتامى بدر، لكن سأدلكنّ على ما هو خير لكنّ من ذلك: تكبرين الله على إثر كلّ صلاة ثلاثاً وثلاثين تكبيرة، وثلاثاً وثلاثين تسبيحة، وثلاثاً وثلاثين تحميدة، ولا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير»**»[(٣)].

٣ ـ التسبيح ثلاثاً وثلاثين مرة، والتحميد ثلاثاً وثلاثين مرة، والتكبير أربعاً وثلاثين مرة.

جاء ذلك في حديث كعب بن عجرة[(٤)] رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ

---

(١) شكّ الراوي في أيتهما صاحبة الحديث، وهما ابنتا عمّ النبي ﷺ.
أما أمّ الحكم: فهي بنت الزبير بن عبد المطلب القرشية الهاشمية، ويقال لها أيضاً: أم حكيم، ويقال: اسمها صفيّة. وقيل: عاتكة، وهي صحابية، لم تذكر سنة وفاتها، رضي الله عنها. وانظر: الإصابة، لابن حجر: ٨/١٩١ ـ ١٩٢، وتقريب التهذيب، له: ٢/٥٣٣.
وأما ضباعة: فهي أيضاً بنت الزبير بن عبد المطلب القرشية الهاشمية، صحابية، كانت تحت المقداد بن الأسود رضي الله عنه، ولم تعرف سنة وفاتها، رضي الله عنه. وانظر: الإصابة، لابن حجر: ٨/٣ ـ ٤، وتقريب التهذيب، له: ٢/٥٢٦.

(٢) السّبي: ما يُسبَى ـ أي: يُؤسر ـ في الجهاد، ويقال ذلك للنساء؛ لأنهن يسببين فيملكن. انظر: القاموس المحيط، للفيروزآبادي/ (سبي): ص١٦٦٨.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه: ٣/٣٩٣، برقم (٢٩٨٧)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود: ٢/٢٤٦، برقم (٢٩٨٧).

(٤) هو كعب بن عجرة بن أميّة بن عديّ البلويّ. ويقال: ابن خالد بن عمرو بن زيد القضاعي، حليف الأنصار، أبو محمد، وأبو إسحاق، وأبو عبد الله، المدني، صحابي مشهور، شهد عمرة الحديبية، ونزلت فيه قصة الفدية =

قال: «**معقّبات**[١] **لا يخيب قائلهنّ، ـ أو فاعلهنّ ـ دبر كل صلاة مكتوبة: ثلاث وثلاثون تسبيحة، وثلاث وثلاثون تحميدة، وأربع وثلاثون تكبيرة**»[٢].

وفي لفظ: «**يسبّح الله في دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين، ويحمده ثلاثاً وثلاثين، ويكبّره أربعاً وثلاثين**»[٣].

وجاء مثله في حديث أبي ذرّ ﷺ قال: «قلت: يا رسول الله، سبقنا أصحاب الأموال والدثور سبقاً بيّناً: يصلّون ويصومون كما نصلّي ونصوم، وعندهم أموال يتصدقون بها، وليست عندنا أموال. فقال رسول الله ﷺ: «**ألا أخبرك بعمل إن أخذت به أدركت من كان قبلك، وفتّ من يكون بعدك، إلا أحداً أخذ بمثل عملك؟ تسبّح خلاف كلّ**

= وقطعت يده في بعض المغازي، ثم سكن الكوفة، وتوفي سنة (٥٣هـ) أو قبلها، ﷺ.
انظر: الإصابة، لابن حجر: ٥/٥٩٩ ـ ٦٠٠.

(١) في معنى هذه الكلمة أقوال:
١ ـ أي: تسبيحات تفعل أعقاب الصلاة.
٢ ـ سميت معقبات لأنها تفعل مرة بعد مرة.
٣ ـ اسم فاعل من التعقيب، أي: أذكار يعقب بعضها بعضاً، أو تعقب لصاحبها عاقبة حميدة.
٤ ـ أنها من التعقيب، وهو الجلوس بعد انقضاء الصلاة للدعاء ونحوه.
وهذه كلها معان محتملة، والله تعالى أعلم. انظر: شرح صحيح مسلم، للنوي: ٥/٩٥، وحاشية السندي ـ بهامش سنن النسائي ـ: ٣/٨٣، وتحفة الذاكرين، للشوكاني: ص١٨٠.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: ١/٤١٨، برقم (٥٩٦).

(٣) أخرجه ـ بهذا اللفظ ـ الترمذي في سننه: ٥/٤٤٦، برقم (٣٤١٢)، والنسائي في سننه: ٣/٨٤ ـ ٨٥، برقم (١٣٤٨). وقال الترمذي: «هذا حديث حسن».

صلاة ثلاثاً وثلاثين، وتحمّد ثلاثاً وثلاثين، وتكبّر أربعاً وثلاثين»[(١)].

وجاء مثله أيضاً في حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال: «قلت: يا رسول الله، ذهب أهل الأموال بالدنيا والآخرة: يصلون كما نصلّي، ويذكرون كما نذكر، ويجاهدون كما نجاهد، ولا نجد ما نتصدّق به. قال: «**ألا أخبرك بشيء إذا أنت فعلته أدركت من كان قبلك، ولم يلحقك من كان بعدك، إلا من قال مثل ما قلت؟: تسبّح الله في دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين تسبيحة، وتحمده ثلاثاً وثلاثين تحميدة، وتكبّره أربعاً وثلاثين تكبيرة**»[(٢)].

٤ ـ التسبيح خمساً وعشرين مرة، والتحميد خمساً وعشرين مرة، والتكبير خمساً وعشرين مرة، والتهليل خمساً وعشرين مرة.

جاء ذلك في حديث زيد بن ثابت[(٣)] رضي الله عنه قال: «أُمرنا أن نسبّح دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين، ونحمد ثلاثاً وثلاثين، ونكبّر أربعاً

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده: ٥/١٥٨، وابن ماجه في سننه: ١/٢٩٩، برقم (٩٢٧)، واللفظ لأحمد، وفي لفظ ابن ماجه شكّ الراوي في أية هذه الكلمات تقال أربعاً وثلاثين.
والحديث صححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه: ١/٢٧٨ ـ ٢٧٩، برقم (٧٦٤).

(٢) أخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة: ص٢٠٥ ـ ٢٠٧، برقم (١٤٧ ـ ١٥١) من عدة طرق، وأحمد في مسنده: ٥/١٩٦، و٦/٤٤٦، وهو صحيح بمجموع طرقه وشواهده.

(٣) هو زيد بن ثابت بن الضحاك بن لَوْذان الأنصاري الخزرجي، أبو سعيد، وأبو ثابت، وأبو خارجه، صحابي مشهور، استصغر يوم بدر، وكان أول مشاهده الخندق، وكتب الوحي للنبي ﷺ، وكان من علماء الصحابة، وهو الذي جمع القرآن في عهد أبي بكر الصديق، ومناقبه ومواقفه كثيرة، وتوفي سنة (٤٥هـ) على قول الأكثر، رضي الله عنه. انظر: الإصابة، لابن حجر: ٢/٥٩٢ ـ ٥٩٥، وتقريب التهذيب، له: ١/٢٦٦.

وثلاثين. قال: فرأى رجل من الأنصار في المنام، فقال: أمركم رسول الله أن تسبّحوا في دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين، وتحمدوا ثلاثاً وثلاثين، وتكبّروا أربعاً وثلاثين؟ قال: نعم، قال: فاجعلوها خمساً وعشرين، واجعلوا التهليل معهنّ. فلما أصبح أتى النبي ﷺ، فذكر ذلك له، فقال: «**اجعلوها كذلك**»(١).

وجاء مثله في حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «أنّ رجلاً رأى فيما يراه النائم، قيل له: بأي شيء أمركم نبيّكم ﷺ؟ قال: أمرنا أن نسبّح ثلاثاً وثلاثين، ونحمد ثلاثاً وثلاثين، ونكبّر أربعاً وثلاثين، فتلك مائة. قال: سبّحوا خمساً وعشرين، واحمدوا خمساً وعشرين، وكبروا خمساً وعشرين، وهلّلوا خمساً وعشرين، فتلك مائة. فلما أصبح ذكر ذلك للنبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «**افعلوا كما قال الأنصاري**»»(٢).

٥ ـ التسبيح عشر مرات، والتحميد عشر مرات، والتكبير عشر مرات.

جاء ذلك في أحاديث:

أحدها: حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قالوا: يا رسول الله، قد ذهب أهل الدثور بالدرجات والنعيم المقيم. قال: «**كيف ذلك؟**». قال: صلوا كما صلينا، وجاهدوا كما جاهدنا، وأنفقوا من فضول أموالهم، وليست لنا أموال. قال: «**أفلا أخبركم بأمر تدركون من كان قبلكم،**

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه: ٥/٤٤٧، برقم (٣٤١٣)، والنسائي في سننه: ٣/٨٥، برقم (١٣٤٩). وقال الترمذي: «هذا حديث صحيح»، وصححه الحاكم في المستدرك: ١/٣٨٣، برقم (٩٢٨)، ووافقه الذهبي، وكذا صححه الألباني في صحيح سنن الترمذي: ٣/٤٠٢، برقم (٣٤١٣).

(٢) أخرجه النسائي في سننه: ٣/٨٥، برقم (١٣٥٠)، وقال فيه الألباني: «حسن صحيح» [صحيح سنن النسائي: ١/٤٣٤، برقم (١٣٥٠)].

وتسبقون من جاء بعدكم، ولا يأتي أحد بمثل ما جئتم به إلا من جاء بمثله: تسبّحون في دبر كل صلاة عشراً، وتحمدون عشراً، وتكبّرون عشراً»[١].

والثاني: حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«خصلتان أو خلّتان لا يحصيهما**[٢] **رجل مسلم إلا دخل الجنة، وهما يسير، ومن يعمل بهما قليل: الصلوات الخمس يسبّح أحدكم في دبر كل صلاة عشراً، ويحمد عشراً، ويكبّر عشراً، فذلك خمسون ومائة باللسان**[٣]**، وألف وخمسمائة في الميزان**[٤]**»**. فلقد رأيت رسول الله ﷺ يعقدها بيده.

«وإذا أوى أحدكم إلى فراشه أو مضجعه سبّح ثلاثاً وثلاثين، وحمد ثلاثاً وثلاثين، وكبّر أربعاً وثلاثين، فذلك مائة باللسان، وألف في الميزان. فأيّكم يعمل في كلّ يوم وليلة ألفين وخمسمائة سيئة؟».

قالوا: يا رسول الله، وكيف لا نحصيها؟ قال: **«يأتي أحدكم الشيطان وهو في صلاته، فيقول: اذكر كذا، اذكر كذا، حتى ينتقل فلا يقولها. ويأتيه في مضجعه، فلا يزال ينوّمه حتى ينام قبل أن يقولها»**[٥].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ١١/ ١٣٢، برقم (٦٣٢٩).

(٢) لا يحصيهما، أي: لا يحافظ عليهما، كما في الرواية الأخرى المذكورة بعده.

(٣) يعنى: إذا أتى بالعشرات الثلاث في دبر كل صلاة من الصلوات الخمس يكون مجموع ذلك: مائة وخمسين باللسان؛ لأن الثلاثين في الخمسة مائة وخمسون.

(٤) باعتبار أن لكل واحدة من الكلمات الثلاث عشراً من الحسنات، والمائة والخمسون في العشر: ألف وخمسمائة.

(٥) أخرجه أبو داود في سننه: ٥/ ٣٠٩، برقم (٥٠٦٥)، والترمذي في سننه: ٥/ ٤٤٥، برقم (٣٤١٠)، والنسائي في سننه: ٣/ ٨٣ ـ ٨٤، برقم (١٣٤٧)، =

وفي رواية: «**خلتان من حافظ عليهما أدخلتاه الجنة، وهما يسير، ومن يعمل بهما قليل**». قالوا: وما هما ـ يا رسول الله ـ؟ قال: «**أن تحمد الله، وتكبره، وتسبحه، في دبر كل صلاة مكتوبة عشراً عشراً، وإذا أويت إلى مضجعك تسبح الله، وتكبره، وتحمده، مئة مرة، فتلك خمسون ومئتان باللسان، وألفان وخمسمائة في الميزان، فأيكم يعمل في اليوم والليلة ألفين وخمسمائة سيّئة؟**» قالوا: كيف من يعمل بهما قليل؟ قال: «**يجيء أحدكم الشيطان في صلاته، فيذكّره حاجة كذا وكذا، فلا يقولها. ويأتيه عند منامه، فينوّمه، فلا يقولها**». قال: ورأيت رسول الله ﷺ يعقدهنّ بيده»[1].

والثالث: حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما يمنع أحدكم أن يسبّح دبر كل صلاة عشراً، ويكبّر عشراً، ويحمد عشراً، فذلك في خمس صلوات خمسون ومائة باللسان، وألف وخمسمائة في الميزان**»[2].

والرّابع: حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «أنّه وزوجه فاطمة رضي الله عنها سألا رسول الله ﷺ أن يخدمهما من السبي، فقال رسول الله ﷺ: «**ألا أخبركما بخير مما سألتماني؟**» قالا: بلى. فقال: «**كلمات علّمنيهنّ جبريل، فقال: تسبحان في دبر كل صلاة عشراً، وتحمدان عشراً، وتكبران عشراً. وإذا أويتما إلى فراشكما فسبّحا ثلاثاً وثلاثين، واحمدا**

= وابن ماجه في سننه: ١/ ٢٩٩، برقم (٩٢٦). وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود: ٣/ ٢٤٥، برقم (٥٠٦٥)، وفي صحيح سنن الترمذي: ٣/ ٤٠٠ ـ ٤٠١، برقم (٣٤١٠)، وفي صحيح سنن النسائي: ١/ ٤٣٣، برقم (١٣٤٧).

(١) أخرجه أحمد في مسنده: ٢/ ١٦٠ ـ ١٦١، وإسناده حسن لغيره.

(٢) أخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة: ص٢٠٨، برقم (١٥٣)، والطبراني في كتاب الدعاء: ٢/ ١١٣١، برقم (٧٢٤).

ثلاثاً وثلاثين، وكبّرا أربعاً وثلاثين». قال علي رضي الله عنه: فوالله ما تركتهنّ منذ علّمنيهنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم»(١).

والخامس: حديث أنس رضي الله عنه قال: «جاءت أمّ سليم(٢) إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقالت: علّمني كلمات أدعو بهنّ في صلاتي. قال: **«سبّحي الله عشراً، واحمديه عشراً، وكبّريه عشراً، ثم سليه حاجتك يقل: نعم نعم»**(٣).

وفي رواية: «أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمّ سليم في بيتها، فصلّى تطوّعاً، ثم قال: **«يا أمّ سليم، إذا صلّيت المكتوبة فقولي: سبحان الله، عشراً، والحمد لله، عشراً، والله أكبر، عشراً. ثم سلي ما شئت، فإنه يقال لك: نعم نعم»**»(٤).

٦ ـ التسبيح إحدى عشرة مرة، والتحميد إحدى عشرة مرة، والتكبير إحدى عشرة مرة.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده: ١/١٠٦ ـ ١٠٧، بإسناد حسن.

(٢) هي أمّ سليم بنت ملحان بن خالد بن زيد بن حرام الأنصارية، والدة أنس بن مالك، اشتهرت بكنيتها، واختلف في اسمها، فقيل: سهلة، أو رميلة، أو رميثة، أو مليكة. وقيل غير ذلك. صحابية أسلمت مع السابقين إلى الإسلام من الأنصار، وكانت من الصحابيات الفاضلات، توفيت في خلافة عثمان، رضي الله عنها.
انظر: الإصابة، لابن حجر: ٨/٢٢٧ ـ ٢٢٩، وتقريب التهذيب، له: ٢/٥٣٤.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه: ٢/٣٤٧، برقم (٤٨١)، والنسائي في سننه: ٣/٥٩، برقم (١٢٩٨). وقال الترمذي: «حديث حسن غريب»، وصححه الحاكم في المستدرك: ١/٣٨٥ ـ ٣٨٦، برقم (٩٣٧)، ووافقه الذهبي، وحسّنه الألباني في صحيح سنن الترمذي: ١/٢٧١، برقم (٤٨١)، وفي صحيح سنن النسائي: ١/٤١٦، برقم (١٢٩٨).

(٤) أخرجه الطبراني في كتاب الدعاء: ٢/١٣٣٢، برقم (٧٢٥).

جاء ذلك في قول سهيل بن أبي صالح[١] فسّر به قول رسول الله ﷺ ـ للفقراء ـ: «**تسبّحون، وتحمدون، وتكبّرون، خلف كل صلاة ثلاثاً وثلاثين**»[٢]، فإن هذا الحديث زيد فيه ـ في بعض الروايات ـ: «يقول سهيل: إحدى عشرة، إحدى عشرة، فجميع ذلك كلّه ثلاثة وثلاثون»[٣].

والظاهر أنّ هذا من تصرّف سهيل نفسه، وليس جزءاً من الحديث.

وقد نبّه على ذلك الحافظان: ابن قيم الجوزية، وابن حجر العسقلاني؛ لأن سهيلاً حمل الحديث على أنّ العدد المذكور مقسوم على الأذكار الثلاثة، فروى الحديث بلفظ: (إحدى عشرة)، وإنما المراد بالحديث أن يكون العدد المذكور لكلّ واحد من الأذكار الثلاثة[٤]، كما جاء بيان ذلك في بعض روايات الحديث[٥].

ويقوّي كون رواية (إحدى عشرة) من تصرف سهيل أمران:

أحدهما: أنه لم يرد في شيء من طرق الحديث كلّها التصريح بإحدى عشرة، إلا من طريق سهيل بن أبي صالح، ولم يتابع على ذلك[٦].

---

(١) هو سهيل بن أبي صالح ذكوان السّمّان، أبو يزيد المدنيّ، صدوق تغيّر حفظه في آخر عمره، وتوفي في خلافة أبي جعفر المنصور، رحمه الله. انظر: تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني: ٤/ ٢٦٣ ـ ٢٦٤، وتقريب التهذيب، له: ١/ ٣٢٥ ـ ٣٢٦.

(٢) سبق من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، في رقم (١) من التسلسل.

(٣) هذه الرواية عند مسلم في صحيحه: ١/ ٤١٧، برقم (٥٩٥).

(٤) انظر: زاد المعاد، لابن القيم: ٢/ ٣٠٠، وفتح الباري، لابن حجر: ٢/ ٣٢٨، و١١/ ١٣٤.

(٥) انظر: صحيح البخاري ـ مع الفتح ـ: ٢/ ٣٢٥، حديث رقم (٨٤٣)، وصحيح مسلم: ١/ ٤١٧، حديث رقم (٥٩٥).

(٦) انظر: فتح الباري، لابن حجر العسقلاني: ٢/ ٣٢٨.

والآخر: أن الذكر (إحدى عشرة مرة) لا نظير له في شيء من الأذكار النبوية الثابتة عنه(١).

ومع هذا كلّه، فقد اعتبر بعض العلماء التسبيح إحدى عشرة مرة، والتحميد كذلك، والتكبير كذلك، وجهاً من أوجه التسبيح في دبر الصلاة، بناء على هذه الرواية(٢)، والعلم عند الله تعالى.

٧ ـ (سبحان الملك القدّوس) ثلاث مرات، في دبر صلاة الوتر.

جاء ذلك في حديث أبيّ بن كعب رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا سلّم في الوتر قال: «**سبحان الملك القدّوس**»»(٣).

وفي رواية: «كان رسول الله ﷺ يقرأ في الوتر بـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ و﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١﴾ و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾، فإذا سلّم قال: «**سبحان الملك القدّوس**» ثلاث مرات»(٤).

وفي رواية أخرى: «ثلاث مرات، يطيل في آخرهنّ»(٥).

وجاء ذلك أيضاً في حديث عبد الرحمن بن أبزى(٦) رضي الله عنه: «أنّ

---

(١) انظر: زاد المعاد، لابن قيم الجوزية: ٢/ ٣٠٠، ٣٠٢.

(٢) انظر: شرح صحيح مسلم، للنووي: ٥/ ٩٤، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٢/ ٤٩٤، ٥١٦.

(٣) سبق تخريجه، ص١١٦.

(٤) أخرجه النسائي في سننه: ٣/ ٢٧٠ ـ ٢٧١، برقم (١٧٢٨)، وصحّحه الألباني في صحيح سنن النسائي: ١/ ٥٥٥، برقم (١٧٢٨).

(٥) أخرجه النسائي في سننه: ٣/ ٢٦١، برقم (١٦٩٨)، وصحّحه الألباني في صحيح سنن النسائي: ١/ ٥٤٧ ـ ٥٤٨، برقم (١٦٩٨).

(٦) هو عبد الرحمن بن أبزى ـ بفتح الهمزة وسكون الباء الموحدة وبعدها زاي، مقصورا ـ الخزاعي مولاهم، صحابي صغير، وكان في عهد عمر رجلاً، وكان قارئاً فقيها عالماً بالفرائض، وسكن الكوفة، وكان على خراسان لعليّ، =

رسول الله ﷺ كان يوتر بـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ و﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾، وكان يقول ـ إذا سلّم ـ: «**سبحان الملك القدوس**» ثلاثاً، ويرفع صوته بالثالثة»(١).

وفي رواية: «ويمدّ في الثالثة»(٢).

فهذه أهم الأحاديث الواردة في السنة النبوية لبيان التسبيح في دبر الصلاة.

وتتبين من خلال هذه الأحاديث مسائل تتعلق بهذا الباب، وهي:

المسألة الأولى: أن التسبيح في دبر الصلاة يكون مقروناً بالتحميد والتكبير أحياناً، ويضاف التهليل مع هذه الثلاثة أحياناً.

وأن الصيغة اللفظية لهذه الأذكار هي: (سبحان الله) و(الحمد لله) و(الله أكبر). وأما التهليل فيكون بصيغة: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير).

ويكون التسبيح بصيغة: (سبحان الملك القدوس) في دبر صلاة الوتر خاصّة.

المسألة الثانية: أن الإتيان بالتسبيح في دبر الصلاة يكون على كيفيّات تؤخذ من الأحاديث السابقة، وهي كما يلي:

الكيفية الأولى: أن يأتي المسلم بالتسبيح والتحميد والتكبير

= ولم تذكر سنة وفاته، رضي الله عنه.

انظر: الإصابة، لابن حجر: ٤/ ٢٨٢ ـ ٢٨٣، وتقريب التهذيب، له: ١/ ٤٤٠.

(١) أخرجه النسائي في سننه: ٣/ ٢٧١ ـ ٢٧٢، برقم (١٧٣١)، وصحّحه الألباني في صحيح سنن النسائي: ١/ ٥٥٦، برقم (١٧٣١).

(٢) أخرجه النسائي في سننه: ٣/ ٢٧٤، برقم (١٧٤٠)، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي: ١/ ٥٥٨، برقم (١٧٤٠).

مجموعة، ثلاثاً وثلاثين مرة، فيقول: (سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر) حتى يبلغ من جميعهنّ العدد المذكور.

الكيفية الثانية: أن يأتي بالتسبيح (سبحان الله)، ثلاثاً وثلاثين مرة، والتحميد (الحمد لله)، ثلاثاً وثلاثين مرة، والتكبير (الله أكبر)، ثلاثاً وثلاثين مرة.

قال الحافظ ابن حجر: «والذي يظهر أن كلاً من الأمرين حسن، إلا أنّ الإفراد يتميّز بأمر آخر، وهو أنّ الذاكر يحتاج إلى العدد، وله على كل حركة لذلك ـ سواء بأصابعه أو بغيرها[1] ـ ثواب لا يحصل لصاحب الجمع إلا الثلث» اهـ[2].

وهذا منه ترجيح للكيفية الثانية على الكيفية الأولى، من جهة أن الكيفية الثانية تكثر فيها حركة الأصابع، فيكون للذاكر ثواب على كلّ حركة، والله أعلم.

الكيفية الثالثة: أن يأتي المسلم بالتهليل ـ مرة واحدة ـ مع إحدى الكيفيّتين السابقتين، ليصير العدد مائة.

الكيفية الرابعة: أن يأتي بالتسبيح، ثلاثاً وثلاثين مرة، والتحميد، ثلاثاً وثلاثين مرة، ويأتي بالتكبير، أربعاً وثلاثين مرة، فيكون العدد مائة.

وهذه الكيفية تستدعى الإتيان بهذه الألفاظ على الإفراد، نظراً لتفاوت العدد، وبذلك جاءت الأحاديث.

الكيفية الخامسة: أن يأتي بالتسبيح خمساً وعشرين مرة، والتحميد، خمساً وعشرين مرة، والتكبير خمساً وعشرين مرة، والتهليل، خمساً وعشرين مرة، وجميع ذلك مائة مرة.

---

(١) قوله: (أو بغيرها) إشارة إلى جواز عدّ التسبيحات بغير الأصابع، وسيأتي الكلام فيه قريباً في المسألة الخامسة.

(٢) فتح الباري: ٢/ ٣٢٩.

الكيفية السادسة: أن يأتي بالتسبيح، عشر مرات، والتحميد، عشر مرات، والتكبير، عشر مرات، وجميع ذلك ثلاثون مرة.

الكيفية السابعة: أن يأتي المسلم بالتسبيح بلفظ (سبحان الملك القدوس)، ثلاث مرات، ويمدّ صوته بالتسبيح في المرة الثالثة.

وهذه الكيفية الأخيرة تختصّ بدبر صلاة الوتر. والكيفيات الستّ قبلها تختصّ بأدبار الصلوات الخمس.

وهذا الاختلاف في كيفية التسبيح في دبر الصلاة هو من اختلاف التنوّع، جمع بينه الإمام البغوي باحتمال أن يكون ذلك صدر من النبي ﷺ في أوقات متعددة، أو أن يكون ذلك على سبيل التخيير، أو يفترق بافتراق الأحوال[١]، وكل هذه الاحتمالات ظاهرة.

وقد تقدّم ـ في مبحث التسبيح في افتتاح الصلاة ـ أن العبادة الواردة في السنة على أنواع مختلفة يشرع فعلها على تلك الأنواع، ولا يكره منها شيء. وأن مقتضى الاتباع أن يأتي المسلم بنوع تارة، وبنوع آخر تارة أخرى[٢].

وفي هذا التنوع فوائد ـ أشار إليها بعض العلماء[٣] ـ منها: إحياء السنن والحفاظ عليها حتى لا تكون مهجورة، واستحضار الذاكر ما يقوله بالقلب، فإن العبد إذا لازم نوعاً واحداً من الذكر أو العبادة، صار يأتي به على العادة، بدون استحضار، إلا من رحم الله.

المسألة الثالثة: أنّ السنة أن يتقيّد المسلم بالصيغ اللفظية الواردة

---

(١) انظر: شرح السنة، للبغوي: ٣/ ٢٣٠، و٥/٤٦، وفتح الباري، لابن حجر العسقلاني: ٢/ ٣٢٩.

(٢) انظر: ص٥٢١ من البحث.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٤/ ٢٤٧ ـ ٢٥٢، والشرح الممتع على زاد المستقنع، للشيخ ابن عثيمين: ٣/ ٣٧ ـ ٣٨، ٣٠٩.

للتسبيح والتحميد والتكبير والتهليل في هذا الموضع؛ لأن العبادات توقيفية.

وبالنسبة للترتيب بين هذه الألفاظ في الذكر، لا يظهر أن فيه توقيفاً، بل الأحاديث جاءت ـ أحياناً ـ بالتقديم والتأخير فيها.

قال الحافظ ابن حجر: «وهذا الاختلاف دالّ على أن لا ترتيب فيها، ويستأنس لذلك بقوله ـ في حديث الباقيات الصالحات ـ: **«لا يضرّك بأيهنّ بدأت»**[(١)]» اهـ[(٢)].

لكن وقع في أكثر الأحاديث تقديم التسبيح على التحميد، وتأخير التكبير عنهما[(٣)]، وكذا التهليل وقع مؤخراً ـ بعد هذه الألفاظ الثلاثة ـ في جميع الأحاديث التي تيسّر لي الوقوف عليها في هذا الباب.

ولهذا كان الأولى ـ في هذا الموضع ـ: البدء بالتسبيح، فالتحميد، ثم التكبير، فالتهليل[(٤)].

وهذا الترتيب في غاية المناسبة؛ لأن النّظم الطّبيعيّ يقتضي تقديم التخلية على التحلية، فقدّم التسبيح الدالّ على التخلّي، على التحميد الدالّ على التحلّي. ثم إذا وصف العبد ربّه تعالى بالنزاهة عن النقص والعيب التي هي مدلول قوله: (سبحان الله)، ووصفه بالكمالات التي هي مدلول قوله: (الحمد لله)، جاءت صفات التكبير والتعظيم المستحقة لمن تنزّه عن النقائص والعيوب، واتّصف بالكمالات والمحامد، فيصفه العبد باللفظ الدالّ على ذلك، وهو (الله أكبر). ثم يختم بالتهليل الدالّ على

---

(١) وردت هذه العبارة في عدة أحاديث، سبق ذكرها عند بيان الفضل المشترك للتسبيح في ص٤٤٨ ـ ٤٥٠.

(٢) فتح الباري: ٢/٣٢٨.

(٣) انظر: المصدر السابق، الموضع نفسه.

(٤) انظر: المصدر والموضع نفسه.

انفراده بالألوهية، لانفراده بجميع الكمال المقدّس عن جميع النقص[١].

المسألة الرابعة: أن السنة أن يتقيّد المسلم أيضاً بالأعداد الواردة للتسبيح والتحميد والتكبير والتهليل في دبر الصلاة ـ بحسب الكيفيات التي سبق بيانها ـ، فلا يزيد عليها، ولا ينقص منها؛ لأن مراعاة العدد المخصوص في الأذكار معتبرة، وقد كان بعض العلماء يقول: إن الأعداد الواردة كالذكر عقب الصلوات، إذا رتّب عليها ثواب مخصوص، فزاد الآتي بها على العدد المذكور لا يحصل له ذلك الثواب المخصوص، لاحتمال أن يكون لتلك الأعداد حكمة وخاصيّة تفوت بمجاوزة ذلك العدد[٢].

ومثّله بعض العلماء بأنه كدواء زيد على قانونه، أو مفتاح زيد على أسنانه[٣]، فإنه لا ينتفع به.

وقال الحافظ ابن حجر: «يؤيّد ذلك أن الأذكار المتغايرة إذا ورد لكلّ منها عدد مخصوص مع طلب الإتيان بجميعها متوالية لم تحسن الزيادة على العدد المخصوص، لما في ذلك من قطع الموالاة، لاحتمال أن يكون للموالاة في ذلك حكمة خاصة تفوت بفواتها» اهـ[٤].

ولهذا لا يحسن ـ مثلاً ـ أن يأتي العبد في دبر صلاته بثلاث وثلاثين تسبيحة، ومثلها تحميدات، وأربع وثلاثين تكبيرة، ويقول معها: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له... إلخ)، خلافاً لما ذهب إليه

(١) انظر: المصدر السابق: ٢/٣٢٨، و١٣/٥٤١، وتوضيح الأحكام من بلوغ المرام، للشيخ عبد الله بن عبد الرحمن البسام: ٢/١٢٨.
(٢) انظر: فتح الباري، للحافظ ابن حجر: ٢/٣٣٠.
(٣) انظر: حاشية ردّ المحتار على الدر المختار، لابن عابدين: ١/٥٣١.
(٤) فتح الباري: ٢/٣٣٠.

الإمام النووي من استحسان ذلك احتياطاً وجمعاً بين الروايات[(١)].

وقد تعقبه غيره في ذلك، فقال: «بل يجمع بأن يختم مرة بزيادة تكبيرة، ومرة بلا إله إلا الله، على وفق ما وردت به الأحاديث» اهـ[(٢)].

المسألة الخامسة: أنّ عقد التسبيح بالأنامل (عدّه بأصابع اليد) ـ في دبر الصلاة ـ هو السنة، كما أنّه هو السنة في جميع الأذكار المشروعة بالأعداد المخصوصة؛ لأن ذلك هو الثابت عن رسول الله ﷺ فعلاً وقولاً.

أما فعلاً، فلحديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: «رأيت رسول الله ﷺ يعقد التّسبيح بيده»[(٣)].

وفي رواية أخرى: «ولقد رأيت رسول الله ﷺ يعدّ هكذا، وعدّ بأصابعه»[(٤)].

وأما قولاً فلحديث يسيرة رضي الله عنها قالت: «قال لنا رسول الله ﷺ: **«عليكنّ بالتسبيح والتهليل والتقديس، واعقدن بالأنامل، فإنهنّ مسؤولات ومستنطقات»**»[(٥)].

وفي هذا الحديث كذلك إشارة إلى العلة في عقد التسبيح وغيره من الأذكار بالأنامل، وهي أنهنّ مسؤولات ومستنطقات، يعني يوم القيامة، فمن عقد بهنّ التسبيح والذكر كنّ له شواهد في ذلك اليوم، فعُلم ـ بهذا ـ أن عقد التسبيح بالأنامل أمر مقصود في الشرع، ليكون

---

(١) انظر: شرح صحيح مسلم، للنووي: ٥/ ٩٤.
(٢) ذكره الحافظ ابن حجر في فتح الباري: ٢/ ٣٢٩.
(٣) سبق تخريجه في ص٩٨.
(٤) أخرجه عبد الرزاق الصنعاني في مصنفه: ٢/ ٢٢٣. وانظر: ما سبق أيضاً في حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما في ص٥٨٤ ـ ٥٨٥.
(٥) سبق تخريجه، في ص٢٠٨.

العبد متعبّداً لله تعالى بلسانه بالنّطق بلفظ التسبيح، وبأنامله بضبط العدد المطلوب في التسبيح.

فعلى العبد المسلم أن يحرص على الإتيان بهذه السنة في التسبيح في دبر كل صلاة، اقتداءً برسول الله ﷺ، وامتثالاً لأمره الحكيم.

وأما ما اعتاده بعض المسلمين من عدّ التسبيح وغيره من الأذكار بما يعرف باسم (السّبْحة) أو (المِسْبحة) أو (التسبيح)(١)، فإنه عدول عن السنة، واستبدال للذي هو أدنى بالذي هو خير. ولو لم تكن في السّبحة إلا أنها قضت على سنة العدّ بالأصابع أو كادت لكفى(٢)، بل وصل الأمر ببعض المسلمين إلى اعتقاد أنها من شعائر الإسلام، مع أنها ليس لها أصل في كتاب الله تعالى، ولا في سنة رسوله ﷺ(٣).

فحقيق بالمسلم أن يجتنب التسبيح بالوسائل المحدثة، وأن يسبّح الله سبحانه بأنامله، كما أرشد إليه رسول الله ﷺ.

❏ المناسبة العقديّة للتسبيح في دبر الصّلاة:

وإذا عُلمت الصورة القولية والعملية للتسبيح في دبر الصلاة، فينبغي أن يعلم أن لهذا التسبيح مناسبةً اعتبارية في العقيدة الإسلامية تتبيّن بأمور ثلاثة:

---

(١) السبحة والمسبحة والتسبيح: أسماء لخرزات أو حبات منظومة في خيط يعدّ بها المسبّح تسبيحه، وهي أسماء مولّدة، وليست من اللغة في شيء، ولا تعرفها العرب. وانظر: تهذيب اللغة، للأزهري: ٣٤١/٤، والمصباح المنير، للفيومي: ص٢٦٣، وتاج العروس، للزبيدي: ٤٤٨/٦ ـ ٤٤٩.

(٢) انظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة، للألباني: ١/ ١٩٢، تحت حديث رقم (٨٣).

(٣) انظر كلاماً مفصّلاً في موضوع السبحة في رسالة: «السبحة/ تاريخها وحكمها»، للشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد. وفي كتاب: «دفاعاً عن السلفية»، للشيخ عمرو عبد المنعم سليم: ص٢١٧ ـ ٢٢٨.

أحدها: أن دبر الصلاة هو وقت انصراف المصلّي إلى الناس من مناجاة الله تعالى، فشرع فيه التسبيح مقروناً بالتحميد والتكبير والتهليل، ليصل العبد مناجاته مع ربّه بالذكر والثناء على الله بما هو أهله، ولتنزل عليه الرحمة، وهو ذاكر لربّه سبحانه، وليكون العبد في حال انصرافه إلى الناس مستحضرا كمال ربه ﷻ، وعظمته ونزاهته من كل نقص وعيب، ومن كل مثيل وشريك، فيظلّ موحّداً له، ذاكراً إياه سائر وقته[١].

والثاني: أن الصلاة ـ بما اشتملت عليه من مظاهر العبودية القولية والعملية والاعتقادية ـ نور تزكو به النفس وتطهُر مما يكون قد دنّسها من الغفلة والخطايا، والتسبيح والذكر في دبر الصلاة بمثابة مسح المرآة بعد صقالها، كما جاء في الأثر عن عائشة رضي الله عنها في الذكر بعد الانصراف من الصلاة، قالت: «هو مثل مسح المرآة بعد صقالها، فإن الصلاة نور، فهي تصقل القلب كما تصقل المرآة، ثم الذكر بعد ذلك بمنزلة مسح المرآة» اهـ[٢].

والثالث: أن التسبيح مشروع في افتتاح الصلاة، كما سبق الكلام فيه، فشرع أيضاً في دبرها، كما شرع في أثنائها أيضاً، ليُعلم أن ذكر الله تعالى بتوحيده وتنزيهه وتمجيده هو مقصود الصلاة أوّلاً وآخراً، كما أنه مقصود الدين أوّلاً وآخراً.

وهذا من الفواتح والخواتم التي أوتيها نبينا ﷺ، فإنه أوتي فواتح الكلم وجوامعه وخواتمه، صلّى الله عليه وعلى آله وسلّم تسليماً، والحمد لله ربّ العالمين[٣].

---

(١) انظر: الإفصاح عن معاني الصحاح، لابن هبيرة: ٣/ ١٣٢، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٢/ ٥١٨، والعلم الهيب في شرح الكلم الطيب، لبدر الدين العيني: ص٣١٦.
(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٢/ ٤٩٥.
(٣) انظر: المصدر السابق: ٢٢/ ٤٨٠.

فهرس موضوعات المجلد الأول

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع **الصفحة**

سلسلة منشورات مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع بالرياض ١٦

التسبيح

في الكتاب والسنة

والرد على المفاهيم الخاطئة فيه

تأليف

د. محمد بن إسحاق كندو

تقديم فضيلة الشيخ

أ.د. عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

الأستاذ في قسم العقيدة بالجامعة الإسلامية

بالمدينة النبوية

المجلد الثاني

مكتبة دار المنهاج

للنشر والتوزيع بالرياض

بسم الله الرحمن الرحيم

التسبيح

في الكتاب والسنة

والرد على المفاهيم الخاطئة فيه

ح مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، ١٤٢٥هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
كندو، محمد إسحاق
التسبيح في الكتاب والسنة والرد على المفاهيم الخاطئة فيه. /
محمد إسحاق كندو.- الرياض، ١٤٢٥هـ
٢مج.
ردمك: ١ - ٦ - ٩٥٥٧ - ٩٩٦٠ (مجموعة)
٨ - ٨ - ٩٥٥٧ - ٩٩٦٠ (ج٢)
١ - العقيدة الإسلامية ٢ - الأدعية والأوراد أ - العنوان
ديوي ٢٤٠ ١٤٢٥/٧٢٦٢

الطبعة الأولى

١٤٢٦هـ

مكتبة دار المنهاج
للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية. الرياض
المركز الرئيسي: طريق الملك فهد / شمال الجوازات
هاتف ٤٠٦٥٥٥٣ - فاكس ٤٠٨٣٦٩٨ - ص ب ٩٢٩ ٥١٩ الرياض ١١٥٥٣
الفروع: طريق خالد بن الوليد (إنكاس سابقا) ت ٢٣٢٢٠٩٥
مكة المكرمة. الشامية هاتف ٥٧٣٠٩٨٠

الفصل الثاني

مواضع يشرع فيها التّسبيح مفرداً ومناسباتها العقديّة

تمهيد

شرع التسبيح في مواضع أخرى غير الصلاة مفرداً غير مقرون بالحمد، أو التهليل، أو التكبير. وهي مواضع متعددة ومتنوعة من أحوال وأوقات، سيتم بيانها في هذا الفصل - بمشيئة الله تعالى - في مباحث خمسة هي:

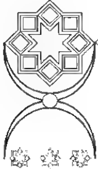
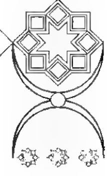
المبحث الأول: التسبيح عند الهبوط في الأماكن المنخفضة.

المبحث الثاني: التسبيح عند سماع الرّعد.

المبحث الثالث: التسبيح عند التّعجّب.

المبحث الرابع: التسبيح في الأوقات المخصوصة.

المبحث الخامس: التسبيح مطلقاً في الأحوال والأوقات.

المبحث الأول

التسبيح عند الهبوط في الأماكن المنخفضة

التسبيح عند الهبوط في الأماكن المنخفضة من الأرض مشروع بالسنة النبوية، فقد جاء في ذلك حديثان:

أحدهما: حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: «كنا نسافر مع النبي ﷺ، فإذا صعدنا كبرنا، وإذا هبطنا سبّحنا»(١).

وفي رواية: «كنا إذا صعدنا كبّرنا، وإذا نزلنا سبحنا»(٢).

وفي رواية أخرى: «كنا إذا صعدنا كبّرنا، وإذا تصوّبنا(٣) سبحنا»(٤).

والثاني: حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كان النبي ﷺ، وجيوشه إذا علوا الثنايا كبّروا، وإذا هبطوا سبّحوا، فوضعت الصلاة على ذلك»(٥).

وهذان الحديثان يدلان على مشروعية التكبير في المرتفعات،

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده: ٣/٣٣٣، ورجال إسناده أئمة ثقات، والراوي فيه عن جابر رضي الله عنه هو الحسن البصري، ولكنه لم يصرّح بالسماع منه.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٦/١٣٥، برقم (٢٩٩٣).
(٣) التصوّب: الانحدار، والنزول من مكان عال. انظر: لسان العرب، لابن منظور/ مادة (صوب): ١/٥٣٤.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٦/١٣٥، برقم (٢٩٩٤).
(٥) سبق تخريجه في ١/٥٥٥.

كالجبال والثنايا، وعلى مشروعية التسبيح في المنخفضات، كالشعاب والوديان.

ويزيد الحديث الثاني بالإشارة إلى أن الصلاة قد وضعت على هذه الصورة، يعنى: التكبير في حال الارتفاع عند القيام، والتسبيح في حال الانخفاض عند الركوع والسجود.

وجماع ذلك أن التّسبيح مختصّ بحال الانخفاض في الأمكنة والأفعال، كما أن التكبير مختصّ بحال الارتفاع في الأمكنة والأفعال[1].

ولم يرد في الحديثين السابقين تصريح بالصيغة اللفظية للتسبيح عند الهبوط في الأماكن المنخفضة، والذي يظهر أن التسبيح في هذا الموضع يكون بصيغة الإفراد، نحو: سبحان الله، وسبحان ربي، ولا بأس أن يكون مقروناً ببعض أسماء الله الدالة على علوّه، كالعلي، والأعلى، والمتعالي، والله تعالى أعلم.

وأما مناسبة التسبيح عند الهبوط في الأماكن المنخفضة، وكذا التكبير عند الصعود إلى الأماكن المرتفعة، من حيث العقيدة، فقال الحافظ ابن حجر: «ومناسبة التكبير عند الصعود إلى المكان المرتفع أن الاستعلاء والارتفاع محبوب للنفوس، لما فيه من استشعار الكبرياء، فشرع لمن تلبّس به أن يذكر كبرياء الله تعالى، وأنه أكبر من كلّ شيء، فيكبّره ليشكر له ذلك، فيزيد في فضله.

ومناسبة التسبيح عند الهبوط لكون المكان المنخفض محلّ ضيق، فيشرع فيه التسبيح؛ لأنه من أسباب الفرج[2]، كما وقع في قصة

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٦/١١٣، و٢٢/٣٩٧، و٢٤/٢٣٦.

(٢) سبق بيان ذلك في فضل التسبيح، ١/٤٢٧ ـ ٤٢٩.

يونس عليه السلام حين سبّح في الظلمات[1] فنجي من الغمّ»[2].

وقال في موضع آخر: «وقيل: مناسبة التسبيح في الأماكن المنخفضة من جهة أن التسبيح هو التنزيه، فناسب تنزيه الله عن صفات الانخفاض، كما ناسب تكبيره عند الأماكن المرتفعة»اهـ[3].

وهذه المناسبة الأخيرة أظهر وأدخل في العقيدة من التي قبلها، وبها يتبين أن التسبيح قد شرع عند الهبوط في الأماكن المنخفضة ليكون العبد في حال هبوطه وانخفاضه منزهاً لربه سبحانه عن الانخفاض الحسّي والمعنوي، وعن كل ما ينافي علوّ ذاته، وعلوّ قدره، وعلوّ قهره. ومثل ذلك ما شرع من التسبيح في الركوع والسجود، كما تقدم الكلام فيه[4]، وتقدم هناك إيضاح المناسبة العقدية للتسبيح في حالات هبوط العبد وسفوله، ليعتقد العبد أن ربه عز وجل عال فوق خلقه، منزه عن جميع النقائص والعيوب.

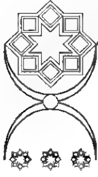
---

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٨٨﴾ [الأنبياء: ٨٧ ـ ٨٨].

(٢) فتح الباري: ١١/١٨٨.

(٣) المصدر السابق: ٦/١٣٦.

(٤) في ١/٥٥١ ـ ٥٥٧ من البحث.

المبحث الثاني

التسبيح عند سماع الرّعد

الرّعد آية من آيات الله الكونية، لها من الصوت العظيم ما فيه تخويف للعباد من عقاب الله تعالى، كما كان الصحابي الجليل عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما يقول إذا سمع الرّعد: «إنّ هذا لوعيد شديد لأهل الأرض»(١).

وقال الله عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾ [الرّعد: ١٢ ـ ١٣].

وتقدم في مبحث تسبيح الملائكة لله تعالى الكلام على حقيقة الرعد وتسبيحه لله سبحانه(٢).

وقد شرع للعبد أن يسبح لله عند سماع الرّعد، كما جاء في الأثر أن ابن عباس رضي الله عنهما كان إذا سمع الرّعد، قال: «سبحان الذي سبحت له»(٣).

وفي الأثر أيضاً عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما: أنه كان إذا سمع

---

(١) انظر تخريجه في الهامش (١) من الصفحة التالية.

(٢) انظر: ١/ ٢٨٥ ـ ٢٨٧ من هذا البحث.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد: ص٢٤٩، برقم (٧٢٢)، وابن جرير الطبري في تفسيره: ١/ ١٨٦، برقم (٤٣٦) و٧/ ٣٦٠، برقم (٢٠٢٦٢)، وحسنه الألباني في تعليقاته على الأدب المفرد.

الرّعد، ترك الحديث، وقال: «سبحان الذي يسبح الرّعد بحمده والملائكة من خيفته» ثم يقول: «إنّ هذا لوعيد شديد لأهل الأرض»(١).

وهذان الأثران وإن كانا موقوفين إلا أن الظاهر أن هذين الصحابيّين الجليلين كانا يقولان ذلك عن توقيف من الشرع.

وقد روي في التسبيح عند سماع الرّعد حديث مرفوع، لكنه لا تقوم به حجة؛ لأن في إسناده راوياً مبهماً لم يعرف عينه فضلاً عن حاله(٢).

وهناك آثار عديدة عن جماعة من التابعين في التسبيح عند سماع الرّعد، منها:

ـ أثر الأسود بن يزيد النخعي(٣) أنه كان إذا سمع الرّعد قال: «سبحان من سبحت له، سبحان الذي يسبح الرّعد بحمده والملائكة من خيفته»(٤).

ـ وأثر طاوس(٥) أنه كان إذا سمع الرّعد قال: «سبحان من

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد: ص٢٤٩، برقم (٧٢٣)، وابن أبي شيبه في مصنفه: ١٠/٢١٥ ـ ٢١٦، برقم (٩٢٦٣)، وصححه النووي في كتابه (الأذكار: ص٣٠١)، والألباني في صحيح الكلم الطيب، لابن تيمية: ص٦٧ ـ ٦٨، برقم (١٣٤).

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره: ٧/ ٣٦٠، برقم (٢٠٢٦٠).

(٣) هو الأسود بن يزيد بن قيس النخعي، أبو عمرو، مخضرم من كبار التابعين، وكان ثقة إماماً فقيهاً عابداً زاهداً، وتوفي سنة (٧٤هـ) أو (٧٥هـ) ﷀ.
انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي: ١/ ٥٠ ـ ٥١، وتقريب التهذيب، لابن حجر: ١/ ٨٨.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبه في مصنفه: ١٠/٢١٦، برقم (٩٢٦٥)، والطبراني في كتاب الدعاء: ٢/ ١٢٦٠، برقم (٩٨٤)، وابن جرير الطبري في تفسيره: ٧/ ٣٦٠، وهو أثر صحيح.

(٥) هو طاوس بن كيسان اليماني، أبو عبد الرحمن الحميري مولاهم، يقال: =

سبحت له»[١].

فجميع هذه الروايات الثابتة عن الصحابة والتابعين ـ رضي الله عنهم ورحمهم ـ تدلّ على مشروعية التسبيح عند سماع الرّعد، وتدلّ هذه الروايات أيضاً على أن صيغة هذا التسبيح تكون مرتبطة بما أخبر الله تعالى به من تسبيح الرّعد له في قوله سبحانه: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ [الرّعد: ١٣]، ولهذا جاء التسبيح في الآثار السابقة على النحو الآتي:

١ ـ (سبحان الذي يسبّح الرّعد بحمده والملائكة من خيفته)، وهذه الصيغة موافقة للآية نصّاً.

٢ ـ (سبحان الذي سبحت له)، وهذه الصيغة موافقة للآية في المعنى.

٣ ـ (سبحان من سبحت له)، وهذه الصيغة مثل سابقتها، و(من) اسم موصول كالذي، والمقصود به الله ﷻ.

ويظهر ـ بالتأمل في هذه الآثار وغيرها مما ورد في هذا الباب ـ أن المناسبة العقدية للتسبيح عند سماع الرّعد تتجلّى في ثلاثة أمور:

أحدها: أن هذا التسبيح إعراب عن إيمان العبد بالله تعالى،

= اسمه ذكوان، وطاوس لقبه، كان ثقة فاضلا من التابعين، وكان رأساً في العلم والعمل، وتوفي سنة (١٠٦هـ) رحمه الله.
انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي: ١/ ٩٠، وتقريب التهذيب، لابن حجر: ١/ ٣٥٩.

(١) أخرجه ابن أبي شيبه في مصنفه: ١٠/ ٢١٥، برقم (٩٢٦١)، والطبراني في كتاب الدعاء: ٢/ ١٢٦٠، برقم (٩٨٣)، وابن جرير الطبري في تفسيره: ٧/ ٣٦٠، وقال النووي: «وروى الشافعي رحمه الله في (الأم) بإسناده الصحيح عن طاوس الإمام التابعي الجليل [فذكر الأثر]. قال الشافعي: كأنه يذهب إلى قول الله تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾» [الأذكار: ٣٠١ ـ ٣٠٢].

وتصديق لما أخبر به من تسبيح الرّعد بحمده، على الرّغم من أنّ العبد لا يفقه من تسبيح الرّعد إلا ما يسمع من الصوت العظيم، وذلك كما قال الله ﷻ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

الثاني: أن هذا التسبيح تجاوبٌ مع الرّعد في تسبيح الله تعالى وتنزيهه عن كل ما لا يليق بجلاله وعظمته.

فإذا سبّح الإنسان عند سماع الرّعد، فإنه بذلك يكون مشاركاً للكائنات في عبودية التسبيح التي يؤديها كل بلغته الخاصة، دون أن يفقه بعض تسبيح بعض؛ لأنهم وإن اختلفوا بالجنس والنوع واللغة، فإنهم جميعاً مخلوقات لخالق واحد، وهو الله تعالى الذي يجب إفراده بالتسبيح وجميع أنواع العبادات.

الثالث: أن هذا التسبيح إشعار بعظمة الله تعالى وقدرته عند سماع الرّعد الذي هو من أعظم الأصوات لمخلوق من مخلوقات الله تعالى.

ولهذا كان من الفوائد العاجلة للتسبيح عند سماع الرعد أن يعافى العبد مما يكون في ذلك الرعد بإذن الله تعالى، كما روى ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كنا مع عمر بن الخطاب في سفر، ومعنا كعب الأحبار فأصابنا رعد وبرق وبرد، فقال كعب: من قال ـ حين يسمع الرعد ـ: (سبحان من سبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته) ثلاثاً، عوفي مما يكون في ذلك الرعد. قال ابن عباس: فقلنا فعوفينا، ثم لقيت عمر بن الخطاب في بعض الطريق، فإذا بردة[١] قد أصابت أنفه،

---

(١) البَرَدة ـ بالتحريك ـ: واحدة البَرَد، ويسمى: حبّ الغمام، وهو الماء الجامد ينزل من السحاب قطعاً صغاراً.
وانظر: القاموس المحيط، للفيروزآبادي/ مادة (برد): ص٣٤١، والمعجم الوسيط/ مادة (برد): ٤٨/١.

فأثّرت به، فأخبرته بما قال كعب، فقال: أوَلا أعلمتمونا حتى نقوله؟»[١].

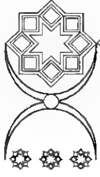
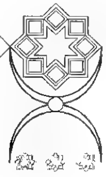
وفي الأثر عن ابن أبي زكريا[٢] قال: «بلغني أن مع سمع صوت الرّعد، فقال: (سبحان الله وبحمده) لم تصبه صاعقة»اهـ[٣].

وهكذا يكون التسبيح عند سماع الرعد عافية للعبد في الدنيا، وعاقبة له في الآخرة، والله ذو الفضل العظيم.

(١) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب المطر والرّعد والبرق والريح: ص١٢١، برقم (١٠٤)، والطبراني في كتاب الدعاء: ٢/ ١٢٦١، برقم (٩٨٥).
قال الحافظ ابن حجر ـ كما في الفتوحات الربانية (٤/ ٢٨٦) ـ: (هذا موقوف حسن الإسناد، وإن كان عن كعب فقد أقره ابن عباس وعمر، فدلّ على أن له أصلاً).

(٢) هو عبد الله بن أبي زكريا الخزاعي، أبو يحيى الشامي، من تابعي أهل الشام، ومن فقهاء أهل دمشق، وكان ثقة فاضلا، وتوفي سنة (١١٧هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ.
انظر: تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني: ٥/ ٢١٨.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبه في مصنفه: ١٠/ ٢١٥، برقم (٩٢٦٢)، وابن جرير الطبري في تفسيره: ٧/ ٣٦٠.

المبحث الثالث

التّسبيح عند التّعجبّ

التّعجّب أو العَجَب: حالة نفسية تعرض للإنسان من شيء إذا عَظُم موقعه، أو خفي سببه، أو خرج عن نظائره(١).

وهو راجع ـ في الجملة ـ إمّا إلى استحسان الشيء والرضا به، وإما إلى استنكار الشيء والكُرْه له(٢).

وقد ورد في كلام العرب استعمال لفظ (سبحان) عند التّعجب، كما ذكر بعض أهل اللغة أن العرب تقول: (سبحان من كذا)، إذا تعجّب منه(٣)، كما قال الشاعر:

«أقول لمّا جاءني فخره   سبحان من علقمة الفاخر»(٤)

قال ابن قتيبة: «أراد التبرّأ من علقمة، وقد يكون تعجّب بالتسبيح من فخره، كما يقول القائل ـ إذا تعجب من شيء ـ: سبحان الله.

---

(١) انظر: مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني: ص٥٤٧، والنهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: ٣/ ١٨٤، والتعريفات، للجرجاني: ص٨٥.

(٢) انظر: المصباح المنير، للفيومي/ مادة (عجب): ص٣٩٣، وبدائع الفوائد، لابن القيم: ٢/ ٣٠٠.

(٣) انظر: الصحاح، للجوهري/ مادة (سبح): ١/ ٣٧٢، والقاموس المحيط، للفيروزآبادي/ مادة (سبح): ص٢٨٤.

(٤) هذا البيت سبق تخريجه والكلام عليه في ١/ ٥٤، ٥٩ من البحث.

فكأنه قال: عجباً من علقمة الفاخر» اهـ[١].

ولهذا ذكر بعض العلماء لفظ التسبيح في ألفاظ التعجّب[٢]، وذكر بعضهم التّعجّب في معاني التّسبيح[٣].

وورد التسبيح عند التعجب في مواضع من القرآن الكريم، وفي عدة أحاديث نبوية، وفي كثير من الآثار السلفية.

قال الإمام النووي: «ولفظة (سبحان الله) لإرادة التعجب كثيرة في الحديث وكلام العرب»[٤].

وقال الحافظ ابن حجر: «وردت عدة أحاديث صحيحة في قول: (سبحان الله) عند التعجب»، ومثل ببعض ما سيأتي ذكره، إن شاء الله تعالى[٥].

واستناداً إلى ما ورد في القرآن والحديث والأثر ذهب أهل العلم إلى مشروعية التسبيح عند التّعجّب، فقال الإمام البخاري في كتاب الأدب من صحيحه: «باب التكبير والتسبيح عند التعجب»، وأخرج في هذا الباب حديثين[٦]، سيأتي ذكرهما إن شاء الله تعالى.

وقال الإمام النووي في كتابه الأذكار: «باب جواز التّعجب بلفظ التسبيح والتهليل ونحوهما»، وأورد فيه أربعة أحاديث وأثرين[٧]، مما سيأتي ذكره أيضاً، إن شاء الله تعالى.

---

(١) تفسير غريب القرآن: ص٨.
(٢) انظر: الأصول في النحو، لابن السراج، تحقيق الدكتور عبد الحسين الفتلي: ١/ ١٠٩، وتهذيب الأسماء واللغات، للنووي: ٣/ ١٤٣.
(٣) انظر: تفسير البغوي: ٥/ ٥٧، وبصائر ذوي التمييز، للفيروزآبادي: ٣/ ١٧٧.
(٤) شرح صحيح مسلم: ٣/ ١٠.
(٥) انظر: فتح الباري: ١٠/ ٥٩٩.
(٦) انظر: صحيح البخاري ـ مع الفتح ـ: ١٠/ ٥٩٨.
(٧) انظر: الأذكار: ص٥١١ ـ ٥١٣.

ويتوصل بالنظر في الآيات والأحاديث والآثار الواردة في هذا الباب إلى أن التّعجّب المقتضي للتسبيح حاصل من أمور متنوعة يختلف بعضها عن بعض في مناسبة التسبيح، ولذلك حسُن أن يكون الكلام على التسبيح عند التعجّب في مطالب، كما يلي:

❖ المطلب الأول ❖

التسبيح عند التّعجّب ممّا ينافي الاعتقاد الصحيح في الله تعالى

إن حدوث ما ينافي الاعتقاد الصحيح في الله تعالى لمن بواعث العجب في كل نفس مؤمنة بربها ﷻ، عالمة بما يجب له من العظمة والكمال المنزه عن كل نقص وعيب، وعن كل تمثيل وإشراك.

وقد تكرر في كتاب الله تعالى العجب من إتيان جهّال العباد بما ينافي الاعتقاد الصحيح في الله تعالى من الأقوال والأفعال(١).

ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ﴾ [البقرة: ١١٦]، فتسبيحه تعالى لنفسه في هذه الآية بقوله: (سبحانه)، كما يتضمن تنزيهه من اتّخاذ الولد، يتضمن كذلك التّعجّب من هذه المقولة الباطلة.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى ـ لنبيه محمد ﷺ، جواباً عمّا اقترحه الكفار من الآيات ـ: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣].

ففي قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّي﴾ تعجب من تعنّت هؤلاء الكفار

---

(١) مثل قول الله تعالى: ﴿۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝٥﴾ [الرعد: ٥] وقوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ۝١٢﴾ [الصافات: ١٢].

وظنّهم السيّىء بالله ﷻ، وتنزيه له ﷻ عمّا لا يليق به مما يصفونه به، ومن أن يتقدم أحد بين يديه في أمر من أمور سلطانه وملكه[١].

وفي هذه الآية دليل على أن العبد المؤمن يسبّح الله تعالى عند حدوث ما ينافي تنزيهه وتعظيمه من قول أو فعل أو اعتقاد.

وجاء في السنة النبوية ما يدل على ذلك أيضاً ويؤكده، كما في حديث أبي واقد الليثي[٢] رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ لـمّا خرج إلى حنين[٣] مرّ بشجرة للمشركين، يقال لها: ذات أنواط[٤]، يعلقون عليها أسلحتهم، فقالوا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال النبي ﷺ: **«سبحان الله، هذا كما قال قوم موسى: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة[٥]، والذي نفسي بيده، لتركبنّ سنّة من كان**

(١) انظر: تفسير الطبري: ٨/١٤٩، وتفسير البغوي: ٥/ ١٣٠، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٦٨، وأضواء البيان، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: ٢/ ٣٢٨، وص١٨١، ٤١٦ من المجلد الأول.

(٢) أبو واقد الليثي: صحابي مشهور بكنيته، واختلف في اسمه، فقيل: الحارث بن مالك، وقيل: ابن عوف، وقيل: عوف بن الحارث، كان حليف بني أسد، كما اختلف في إسلامه، فقيل: أسلم قديماً، وقيل: إنه من مسلمة الفتح، وتوفي في سنة (٦٨هـ) وهو ابن خمس وثمانين على الصحيح، رضي الله عنه. انظر: الإصابة، لابن حجر: ٧/ ٤٥٥ ـ ٤٥٧، وتقريب التهذيب له: ٢/ ٤٦٥.

(٣) حُنَين: واد بين مكة والطائف وراء عرفات، ويعرف اليوم بالشرائع، يبعد عن مكة ستة وعشرن كيلا شرقاً، وهو مكان غزوة حنين المعروفة في السيرة. وانظر: تهذيب الأسماء واللغات، للنووي: ٣/ ٧٦، والمعالم الأثيرة في السنة والسيرة، لمحمد شراب: ص١٠٤.

(٤) أنواط: جمع نَوْط، وهو مصدر سمي به المنوط، وذات أنواط: اسم شجرة بعينها كانت للمشركين ينوطون بها سلاحهم، أي: يعلقونه بها، ويعكفون حولها تبركا بها. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: ٥/ ١٢٨.

(٥) يشير إلى قول الله تعالى ـ في قصة نبيه موسى عليه السلام: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ =

قبلكم»[(١)].

وفي رواية: أنه ﷺ قال: «**الله أكبر**» بدل (سبحان الله)[(٢)].

قال الشيخ سليمان[(٣)] بن عبد الله: «والمقصود باللفظين واحد؛ لأن المراد تعظيم الله وتنزيهه عن الشرك، والتقرب به إليه. وفيه: تكبير الله وتنزيهه عند التعجّب أو ذكر الشرك، خلافاً لمن كرهه» اهـ[(٤)].

وفي حديث جبير بن مطعم[(٥)] رضي الله عنه قال: «أتى رسول الله ﷺ

= ﴿ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الأعراف: ١٣٨].

(١) أخرجه الترمذي في سننه: ٤/ ٤١٢ ـ ٤١٣، برقم (٢١٨٠)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٣٦٠١).

(٢) أخرجه النسائي في السنن الكبرى: ٦/ ٣٤٦، برقم (١١١٨٥)، وأحمد في مسنده: ٥/ ٢١٨، وإسناده صحيح.

(٣) هو سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب التميمي النجدي، أحد أحفاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب الإمام المجدد، ولد سنة (١٢٠٠هـ)، واشتغل بالعلم تعلماً وبحثاً حتى بلغ في العلم مبلغاً كبيراً، فصار مفسراً محدثاً أصولياً فقيهاً نحوياً لغوياً، وكان يضرب به المثل في الذكاء والحفظ وحسن الخط، وله مصنفات عديدة، وفتاوى ورسائل محررة مفيدة، وقد أكرمه الله بالشهادة سنة (١٢٣٣هـ) رحمه الله.
انظر: الأعلام، للزركلي: ٣/ ١٩١ ـ ١٩٢، وعلماء نجد خلال ثمانية قرون، للشيخ عبد الله آل بسام: ٢/ ٣٤١ ـ ٣٤٩.

(٤) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد: ص١٨٢.

(٥) هو جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف القرشي النوفلي، صحابي عارف بالأنساب، وكان من أكابر قريش، وقدم على النبي ﷺ في فداء أسارى بدر، فسمعه يقرأ (الطور)، قال: فكان ذلك أول ما دخل الإيمان في قلبي، ثم أسلم بين الحديبية والفتح، وتوفي سنة سبع، أو ثمان، أو تسع وخمسين من الهجرة، رضي الله عنه.
انظر: الإصابة، لابن حجر: ١/ ٤٦٢ ـ ٤٦٣، وتقريب التهذيب، له: ١/ ١٣٠.

أعرابيّ، فقال: يا رسول الله، جُهدت الأنفسُ، وضاعت العيال، ونهكت الأموال، وهلكت الأنعام، فاستسق الله لنا، فإنا نستشفع بك على الله، ونستشفع بالله عليك. قال رسول الله ﷺ: **«ويحك! أتدري ما تقول؟»** وسبّح رسول الله ﷺ، فما زال يسبح حتى عُرف ذلك في وجوه أصحابه، ثم قال: **«ويحك! إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه، شأن الله أعظم من ذلك، ويحك! أتدري ما الله، إن عرشه على سمواته لهكذا ـ وقال بأصبعه مثل القبة عليه ـ، وإنه ليئطّ(١) به أطيط الرّحل بالراكب»»**(٢).

فتسبيح الرسول ﷺ في هذا الحديث كان للتعجب والإنكار

---

(١) أطّ الرحل ونحوه، يئطّ، أطيطا: صوّت [القاموس المحيط، للفيروزآبادي/ مادة (أطّ): ص٨٤٩].

(٢) أخرجه أبو داود، في سننه: ٥/ ٩٤ ـ ٩٥، برقم (٤٧٢٦)، وفي إسناده علتان: إحدهما/ عنعنة محمد بن إسحاق ـ وهو صدوق مشهور بالتدليس ـ، كما في (تعريف أهل التقديس بمراتب الموصوفين بالتدليس، للحافظ ابن حجر العسقلاني: ص١٣٢).
والأخرى/ جهالة حال (جبير بن محمد بن جبير بن مطعم)، فقد روى عنه اثنان، ولم ينقل فيه جرح ولا تعديل عن أحد من الأئمة، ولكن ذكره ابن حبان (الثقات: ٦/١٤٨)، وقال فيه الحافظ ابن حجر: مقبول [تقريب التهذيب: ١/ ١٣٠]. وانظر: ترجمته في (تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني: ٢/ ٦٣).
والحديث قد رواه عن محمد بن إسحاق جماعة، كما أشار الإمام أبو داود في سننه عقب الحديث.
وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والحديث قد رواه علماء السنة، كأحمد، وأبي داود، وغيرهما، وليس فيه إلا ما له شاهد من رواية أخرى [مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٦/ ٤٣٥].
وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة، رقم (٢٦٣٩)، بالعلة الأولى، وهي تدليس ابن إسحاق.

والتنزيه لله تعالى من قول الأعرابي: (نستشفع بالله عليك)؛ لأن هذا القول لا يليق بالخالق سبحانه(١)، فإن الاستشفاع هو طلب الشفاعة، والخالق تعالى ربّ كل شيء ومليكه، والخير كله بيده، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، ولا رادّ لما قضى، ولا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض، والخلق وما في أيديهم ملكه يتصرف فيهم كيف يشاء، وهو الذي يشفِّع الشافع إليه، ولا يشفّع هو إلى غيره في أن يفعل، ولهذا أنكر على الأعرابي(٢)، وذكر له من شأن الله ﷻ وعظمته، تربية للمهابة في قلبه، حين قال تلك القولة النكراء التي أطلقت لسان رسول الله ﷺ بالتسبيح تنزيهاً وتعظيماً لله سبحانه(٣).

ومن التسبيح عند التّعجّب مما ينافي الاعتقاد الصحيح في الله تعالى ما جاء في الأثر عن مسروق(٤)، قال: «سألت عائشة رضي الله عنها: هل رأى محمد ﷺ ربه؟ فقالت: سبحان الله، لقد قفّ(٥) شعري لما قلت». وساق الأثر مطولاً، وفيه أنها رضي الله عنها قالت: «من زعم أن محمداً ﷺ رأى ربه، فقد أعظم على الله الفرية»(٦).

---

(١) انظر: فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، للشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ: ص٥٠١.

(٢) انظر: المصدر السابق، الموضع نفسه.

(٣) انظر: شرح القصيدة النونية، للدكتور محمد خليل هراس: ١/ ٢٨٧.

(٤) هو مسروق بن الأجدع بن مالك الهمداني الوادعي، أبو عائشة، الكوفي، تابعي مخضرم، وكان ثقة فقيها عابداً، وتوفي سنة (٦٢هـ) أو (٦٣هـ)، رحمه الله. انظر: تقريب التهذيب، لابن حجر: ٢/ ٢٤٩.

(٥) يقال: قفّ شعره، أي: قام فزعاً [القاموس المحيط، للفيروزآبادي/ مادة (قفف): ص١٠٩٣].

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه: ١/ ١٥٩ ـ ١٦٠، برقم (١٧٧)، والبخاري ـ بنحوه ـ في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٨/ ٦٠٦، برقم (٤٨٥٥).

ويظهر من هذا السياق أن عائشة رضي الله عنها سبحت الله تنزيها له، وتعجّباً من اعتقاد حصول رؤيته سبحانه في الدنيا؛ لأن اعتقاد ذلك مناف لما دلّ عليه الكتاب والسنة من أن رؤية الله تعالى بالأبصار غير حاصلة لأحد في الدنيا، لا النبي ﷺ ولا غيره.

قال الإمام النووي: «أما قولها: (سبحان الله) فمعناه التعجّب من جهل مثل هذا، وكأنها تقول: كيف يخفى عليك مثل هذا؟!»[(١)].

وقولها بعده: (لقد قفّ شعري) قال النووي: «معناه: قام شعري من الفزع، لكوني سمعت ما لا ينبغي أن يقال»[(٢)].

وقال الحافظ ابن حجر: «أي: قام من الفزع لما حصل عندها من هيبة الله واعتقدته من تنزيهه واستحالة وقوع ذلك» اهـ[(٣)].

ولذلك قالت: «من زعم أن محمداً ﷺ رأى ربه، فقد أعظم على الله الفرية».

ورؤية النبي ﷺ لربّه في الدنيا ـ يعني: في ليلة المعراج ـ مسألة خلافية بين أهل السنة والجماعة، وليس هنا موضع تفصيلها[(٤)]، إلا أن الحق فيها ما قالته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وهو قول جماهير أئمة المسلمين، كما بين ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية فقال: «وقد اتفق أئمة المسلمين على أنّ أحداً من المؤمنين لا يرى الله بعينه في الدنيا، ولم يتنازعوا إلا في النبي ﷺ خاصة، مع أن جماهير الأئمة على أنه لم يره

---

(١) شرح صحيح مسلم: ٣/ ١٠.
(٢) المصدر السابق: ٣/ ١٠.
(٣) فتح الباري: ٨/ ٦٠٧.
(٤) انظر تفصيلها في: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢/ ٣٣٥ ـ ٣٣٧ و٦/ ٥٠٧ ـ ٥١١، وشرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز: ١/ ٢٢٢ ـ ٢٢٥، وفتح الباري، للحافظ ابن حجر العسقلاني: ٨/ ٦٠٧ ـ ٦٠٩.

بعينه في الدنيا، وعلى هذا دلت الآثار الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ، والصحابة، وأئمة المسلمين، ولم يثبت عن ابن عباس، ولا عن الإمام أحمد وأمثالهما أنهم قالوا: إن محمداً رأى ربه بعينه، بل الثابت عنهم إما إطلاق الرؤية، وإما تقييدها بالفؤاد، وليس في شيء من أحاديث المعراج الثابتة أنه رآه بعينه» اهـ[1].

وبهذا يعلم أن القول بأن أحداً من البشر رأى ربه في الدنيا مناف للاعتقاد الصحيح في الله تعالى، وينبغي التسبيح عند سماع ذلك، تنزيهاً لله ﷻ من هذا القول المنافي للحقّ.

والمناسبة العقدية للتسبيح عند التعجب مما ينافي الاعتقاد الصحيح في الله تعالى ظاهرة جداً؛ لأن التسبيح هو تنزيه الله تعالى عن السّوء، فكان مناسباً أن يقول العبد المؤمن: (سبحان الله) في حالة التعجب، تعظيماً لله ﷻ وتنزيها له إذا سمع من أحد ما لا يليق بعظمة الله وكماله وجلاله، مما فيه هضم للربوبية أو الإلهيّة[2]، وسبحان رب العالمين.

❖ المطلب الثاني ❖

التّسبيح عند التّعجّب من المنكر

منكرات الأقوال والأفعال مزعجات لأهل التقوى والإيمان؛ لأن فيها انتهاكاً للحرمات، ومخالفة للصراط المستقيم الذي يلزم الإنسان سلوكه في حياته.

ولهذا يتعجب كل مؤمن لحصول منكر من المنكرات كبيراً كان أو

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢/ ٣٣٥ ـ ٣٣٦.
(٢) انظر: فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، للشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ: ص١٣٨.

صغيراً، إذا أدرك أنّه منكر، ويشرع له التسبيح عند ذلك.

والأدلة الواردة في التسبيح عند التّعجّب من المنكر عديدة: منها:

١ ـ قول الله تعالى ـ في قصة الإفك ـ: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ۝١٦﴾ [النور: ١٦].

فقد قال البغوي[١]: إن لفظ (سبحانك) ها هنا معناه التعجّب[٢].

وقال الحافظ ابن كثير: «أي سبحان الله أن يقال هذا الكلام على زوجة رسوله وحليلة خليله» اهـ[٣].

وتوجيه ذلك أن ما قاله أهل الإفك منكرٌ عظيم، فيشرع التسبيح عند سماعه تنزيهاً لله تعالى عن أن يحصل لقرابة رسوله ﷺ تدنيس[٤]، وعن أن يبتلي أصفياءه بالأمور الشنيعة[٥].

ومن موافقات الصحابة ﷺ لربّهم ﷻ قبل نزول هذه الآية أن عائشة ﵂ لمّا سمعت بقول أهل الإفك فيها قالت: «سبحان الله، وقد تحدث الناس بهذا؟»[٦].

---

(١) هو الحسين بن مسعود بن محمد البغوي، أبو محمد، المعروف بابن الفراء، الإمام الحافظ، والفقيه المجتهد، محيي السنة، صاحب «معالم التنزيل» في التفسير، وشرح السنة، ومصابيح السنة، وغيرها من المصنفات النافعة، توفي سنة (٥١٦هـ)، رحمه الله تعالى.
انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: ١٩/٤٣٩ ـ ٤٤٣.

(٢) انظر: تفسير البغوي: ٦/٢٥، وانظر: ما تقدم في ١/١٨٦ من هذا البحث.

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٢٨٥.

(٤) انظر: فتح الباري، لابن حجر العسقلاني: ٨/ ٤٨٠.

(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي: ص٥٦٣.

(٦) جزء من حديث عائشة الطويل في قصة الإفك، أخرجه البخاري في صحيحه =

قال الحافظ ابن حجر: «استغاثت بالله متعجبة من وقوع مثل ذلك في حقّها مع براءتها المحقّقة عندها»(١).

ولما بلغ الأمر الرّجل الذي قال فيه أهل الإفك ما قالوا(٢)، قال: «سبحان الله، والله ما كشفت عن كَنَف أنثى(٣) قطّ»(٤).

ولما سُئلتْ جارية عائشة(٥) رضي الله عنها عمّا تعلم في عائشة وصرّحوا لها بالأمر، قالت: «سبحان الله، والله ما علمت عليها إلا ما يعلم الصائغ على تبْر الذهب الأحمر(٦)»(٧).

وورد عن جملة من الصحابة رضي الله عنهم أنهم لمّا سمعوا بقول أهل الإفك، قالوا: «سبحانك، ما يكون لنا أن نتكلم بهذا، سبحانك، هذا بهتان عظيم»(٨).

= ـ مع الفتح ـ: ٧/ ٤٣١ ـ ٤٣٥، برقم (٤١٤١)، و٨/ ٤٥٢ ـ ٤٥٥، برقم (٤٧٥٠)، ومسلم في صحيحه: ٤/ ٢١٢٩ ـ ٢١٣٨، برقم (٢٧٧٠).

(١) فتح الباري: ٨/ ٤٦٧.

(٢) هذا الرجل هو صفوان بن معطّل السلميّ ثم الذّكواني رضي الله عنه، كما جاء مصرّحاً في حديث عائشة رضي الله عنها الماضي تخريجه.

(٣) قال النووي: «الكنف هنا ـ بفتح الكاف والنون ـ أي: ثوبها الذي يسترها، وهو كناية عن عدم جماع النساء جميعهنّ ومخالطتهنّ» [شرح صحيح مسلم: ١٧/ ١١٤].

(٤) ورد ذلك في حديث عائشة رضي الله عنها السابق تخريجه.

(٥) ورد أن اسم هذه الجارية (بريرة)، وانظر: فتح الباري، لابن حجر: ٨/ ٤٦٩.

(٦) تبر الذّهب الأحمر: هي القطعة الخالصة، كذا في شرح صحيح مسلم، للنووي: ١٧/ ١١٥.

(٧) ورد في حديث عائشة عند مسلم في صحيحه: ٤/ ٢١٣٧ ـ ٢١٣٨، برقم (٢٧٧٠).

(٨) انظر: صحيح البخاري ـ مع الفتح ـ: ١٣/ ٣٤٠، برقم (٧٣٧٠). وانظر: الفتح: ٨/ ٤٧٠ و١٣/ ٣٤٤.

فوافق قول هؤلاء الصحابة جميعاً ما نزلت به الآية بعدُ، تبرئة لأم المؤمنين رضي الله عنها مما قيل في حقّها من الإفك، وتعليماً للمؤمنين أن يسبّحوا الله تعالى عند سماع مثل هذا القول المنكر في مؤمن أو مؤمنة، فيقولوا: ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾.

وقد ذكر أهل العلم في فوائد حديث عائشة رضي الله عنها في قصة الإفك أنّ منها: مشروعية التسبيح عند التّعجّب واستعظام الأمر، وعند سماع ما يعتقد السامع أنّه كذب(١).

٢ ـ وحديث عمران بن حصين(٢) رضي الله عنهما قال: «أُسرتْ امرأة من الأنصار، وأُصيبتْ العضباء(٣)، فكانت المرأة في الوثاق، وكان القوم يريحون نَعَمهم بين يدي بيوتهم، فانفلتتْ ذات ليلة من الوثاق، فأتتْ الإبل، فجعلت إذا دنت إلى البعير رغا(٤) فتتركه، حتى تنتهي إلى

---

(١) انظر: شرح صحيح مسلم، للنووي: ١٧/ ١١٧، وفتح الباري، لابن حجر: ٨/ ٤٨٠، ٤٨١.

(٢) هو عمران بن حصين بن عبيد بن خلف الخزاعي، أبو نُجيد ـ بنون وجيم مصغراً ـ، أسلم عام خيبر، وصحب النبي ﷺ وغزا معه غزوات، وكان من أفاضل الصحابة وفقهائهم، وقضى بالكوفة، وتوفي سنة (٥٢هـ) وقيل: (٥٣هـ)، رضي الله عنه.

انظر: الإصابة، لابن حجر: ٤/ ٧٠٥ ـ ٧٠٦، وتقريب التهذيب، له: ٢/ ٨٨.

(٣) العضباء ـ بفتح المهملة وسكون المعجمة بعدها موحّدة ومدّ: عَلَم لناقة النبي ﷺ، كما في حديث أنس رضي الله عنه قال: كانت ناقة النبي ﷺ يقال لها: العضباء». [أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٦/ ٧٣، برقم (٢٨٧١)]، وهو علم لها منقول من قولهم: ناقة عضباء، أي: مشقوقة الأذن، ولم تكن مشقوقة الأذن. وقال بعضهم: إنها كانت مشقوقة الأذن، والأول أكثر. وانظر: النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير: ٣/ ٢٥١.

(٤) رغا البعير والضّبع والنّعام رغاء، بالضم: صوّتت فضجّت. [القاموس المحيط، للفيروزآبادي/ مادة (رغو): ص١٦٦٣.

العضباء فلم ترغ. قال: وناقة منوّقة[(١)]، فقعدت في عجزها ثم زجرتْها فانطلقتْ، ونَذِرُوا بها[(٢)] فطلبوها فأعجزتْهم.

قال: ونذرتْ لله، إن نجاها الله عليها لتنحرنّها. فلما قدمت المدينة رآها الناس، فقالوا: العضباء، ناقة رسول الله ﷺ. فقالت: إنها نذرتْ، إن نجاها الله عليها لتنحرنها. فأتوا رسول الله ﷺ، فذكروا ذلك له، فقال: «**سبحان الله، بئسما جزتها، نذرتْ لله إن نجاها الله عليها لتنحرنها، لا وفاء لنذر في معصية، ولا فيما لا يملك العبد**»[(٣)].

ففي قوله ﷺ هاهنا: «سبحان الله»، دليل على التسبيح عند التّعجّب من المنكر؛ لأن نذر المرأة أن تنحر الناقة كان منكراً من وجهين: أحدهما أنها لا تملك الناقة. والثاني: أنّ الله تعالى نجاها عليها، فكان حقّها الإحسان بدلاً من النحر، ولهذا قال ﷺ: «**بئسما جزتْها**»، والله تعالى أعلم.

٣ ـ وحديث أنس رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ عاد رجلاً من المسلمين قد خفت[(٤)] فصار مثل الفرخ[(٥)]، فقال رسول الله ﷺ: «**هل كنت تدعو**

---

(١) قوله: «ناقة منوّقة» هي بضم الميم وفتح النون والواو المشددة، أي: مذلّلة. انظر: النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير: ٥/١٢٩، وشرح صحيح مسلم، للنووي: ١١/١٠١.

(٢) نذروا ـ بفتح النون وكسر الذال ـ أي: علموا. وانظر: شرح صحيح مسلم، للنووي: ١١/١٠١.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه: ٣/١٢٦٣، برقم (١٦٤١).

(٤) خَفَت: أي ضَعُف، والخفْت والخُفات/ الضعف من الجوع ونحوه. انظر: لسان العرب، لابن منظور/ مادة (خفت): ٢/٣٠.

(٥) الفَرْخ: ولد الطائر، وكل صغير من الحيوان والنبات، وجمعه أفْرُخ، وأفراخ، وفِراخ، وفروخ، وفرخان. وانظر: القاموس المحيط، للفيروزآبادي/ مادة (فرخ): ص٣٢٨.

بشيء أو تسأله إيّاه؟» قال: نعم، كنت أقول: اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة فعجّله لي في الدنيا. فقال رسول الله ﷺ: «سبحان الله، لا تطيقه، أو لا تستطيعه، أفلا قلت: اللهم آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار؟». قال: فدعا الله له، فشفاه»[1].

قال النووي في شرح هذا الحديث: «وفيه جواز التّعجّب بقول (سبحان الله)» اهـ[2].

قلت: وهو تسبيح عند التعجّب من المنكر؛ لأن دعاءه على نفسه باستعجال العقوبة في الدنيا منكر، ولهذا أرشده الرسول ﷺ إلى الدعاء بالحسنة في الدنيا والآخرة، ثم دعا له بالشفاء.

وورد في التسبيح عند التّعجّب من المنكر آثار، منها:

ـ ما رواه قيس بن عباد[3] قال: «كنت في حَلْقة فيها سعد بن مالك[4] وابن عمر، فمرّ عبد الله بن سَلّام[5]، فقالوا: هذا رجل من أهل الجنة. فقمت فقلت له: إنّهم قالوا كذا وكذا، قال: سبحان الله،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: ٤/٢٠٦٨ ـ ٢٠٦٩، برقم (٢٦٨٨).

(٢) شرح صحيح مسلم: ١٧/١٣.

(٣) هو قيس بن عباد ـ بضم العين وتخفيف الباء ـ الضبعيّ ـ بضم الضاد وفتح الباء ـ، أبو عبد الله البصري، ثقة مخضرم، ووهم من عدّه في الصحابة، توفي بعد الثمانين من الهجرة، رحمه الله تعالى. انظر: تقريب التهذيب، لابن حجر: ٢/١٣٦.

(٤) هو سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

(٥) هو عبد الله بن سلام ـ بتخفيف اللام ـ ابن الحارث الإسرائيلي ثم الأنصاري، حليف بني الخزرج، صحابي مشهور، يكنى أبا يوسف، وهو من بني قينقاع، وهم من ذريّة يوسف الصديق عليه السلام، أسلم أول ما دخل النبي ﷺ المدينة، وكان اسمه الحصين، فسماه النبي ﷺ عبد الله، وله فضائل كثيرة، وتوفي بالمدينة سنة (٤٣هـ) رضي الله عنه.

انظر: الإصابة، لابن حجر: ٤/١١٨ ـ ١٢٠، وفتح الباري، له: ٧/١٢٩.

ما كان ينبغي لهم أن يقولوا ما ليس لهم به علم، إنما رأيت[١] كأن عموداً وُضع في روضة خضراء فنُصب فيها، وفي رأسها عروة، وفي أسفلها مِنْصَف ـ والمنصف: الوصيف[٢] ـ فقيل لي: ارْقَهْ[٣]، فرقيت حتى أخذت بالعروة، فقصصتها على رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «**يموت عبد الله وهو آخذ بالعروة الوثقى**»[٤][٥].

فقول عبد الله بن سلام رضي الله عنه هنا: «سبحان الله» كان تعجّباً من جزمهم له بالجنة؛ لأن الجزم لمعيّن بالجنة لا يجوز إلّا بخبر صحيح عن رسول الله ﷺ[٦]، ولهذا قال رضي الله عنه: «ما كان ينبغي لهم أن يقولوا ما ليس لهم به علم».

---

(١) يعني في المنام، كما في رواية أخرى للحديث عند البخاري ومسلم.

(٢) هذا مدرج في الخبر للتفسير، والمنصف ـ بكسر الميم وسكون النون وفتح الصاد، ويقال بفتح الميم أيضاً، والأول أشهر ـ، وقد فسر في الخبر بالوصيف، وهو الخادم الصغير المدرك للخدمة غلاماً كان أو جارية. انظر: شرح صحيح مسلم، للنووي: ١٦/ ٤٢، وفتح الباري، لابن حجر: ٧/ ١٣١.

(٣) فعل أمر من (رقي) أي: صعد، والهاء مزيدة، وهي هاء السكت. وانظر: فتح الباري، لابن حجر: ٧/ ١٣١.

(٤) جاء في رواية أخرى أن رسول الله ﷺ قال: «**تلك الروضة الإسلام، وذلك العمود الإسلام، وتلك العروة عروة الوثقى، فأنت على الإسلام حتى تموت**». أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٧/ ١٢٩، برقم (٣٨١٣)، ومسلم في صحيحه: ٤/ ١٩٣٠ ـ ١٩٣١، برقم (٢٤٨٤).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ١٢/ ٣٩٧، برقم (٧٠١٠) ومسلم في صحيحه: ٤/ ١٩٣١، برقم (٢٤٨٤).

(٦) من منهج أهل السنة والجماعة في الاعتقاد أنهم لا يقطعون لأحد معيّن من أهل القبلة بجنة ولا نار إلا بنصّ، وإنما يرجون للمحسن الصالح، ويخافون على المسيء المذنب. وانظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، للالكائي: ١/ ١٦٢، ١٦٩، وشرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العزّ: ١/ ٥٣٧.

قال النووي: «هذا إنكار من عبد الله بن سلام، حيث قطعوا له بالجنة، فيحمل على أن هؤلاء بلغهم خبر سعد بن أبي وقاص بأن ابن سلام من أهل الجنة[١]، ولم يسمع هو. ويحتمل أنّه كره الثناء عليه بذلك تواضعاً وإيثاراً للخمول وكراهة للشهرة» اهـ[٢].

ـ وما رواه الإمام مالك عن القاسم بن محمد[٣] أنه قال: «إن يزيد بن عبد الملك[٤] فرّق بين رجال وبين نسائهم، وكنّ أمهات أولاد رجال هلكوا، فتزوجوهنّ بعد حيضة أو حيضتين، ففرّق بينهم حتى يعتدّون أربعة أشهر وعشراً. فقال القاسم بن محمد: سبحان الله، يقول الله في كتابه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]، ما هنّ من الأزواج»[٥].

---

(١) يعني حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: «ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لحيّ يمشي على الأرض: إنه من أهل الجنة، إلا لعبد الله بن سلام».
أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ١٢٨/٧، برقم (٣٨١٢)، ومسلم في صحيحه: ١٩٣٠/٤، برقم (٢٤٨٣).

(٢) شرح صحيح مسلم: ٤٢/١٦. وانظر: فتح الباري، لابن حجر: ١٣١/٧.

(٣) هو القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق القرشي التيميّ، أبو محمد، ويقال: أبو عبد الرحمن، المدني، أحد فقهاء المدينة السبعة، وأحد خيار التابعين وساداتهم، تربّى في حجر عمته عائشة ﷺ، فتفقه بها، وكان أفضل أهل زمانه علماً وأدباً وفقهاً، وتوفي سنة (١٠٦هـ) وقيل غير ذلك، رحمه الله تعالى.
انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي: ٩٦/١، وتهذيب التهذيب، لابن حجر: ٨/ ٣٣٣ ـ ٣٣٥.

(٤) هو يزيد بن عبد الملك بن مروان، أبو خالد القرشي الأموي، أحد خلفاء بني أمية، بويع له بالخلافة بعد عمر بن عبد العزيز سنة (١٠١هـ)، وعمره إذ ذاك تسع وعشرون سنة، وبقي خليفة مدة أربع سنين، وتوفي سنة (١٠٥هـ)، رحمه الله تعالى.
انظر: البداية والنهاية، لابن كثير: ٢٢٧/٩، ٢٤١ ـ ٢٤٢.

(٥) موطأ الإمام مالك، كتاب الطلاق: ص٤٦٣، حديث رقم (٩١).

فقول القاسم بن محمد هنا: «سبحان الله» كان للتعجّب من تفريق يزيد بن عبد الملك بين الرجال ونسائهم اللاتي تزوجوهنّ بعد حيضة أو حيضتين، وكنّ أمهات أولاد رجال آخرين ماتوا؛ لأن هذا التفريق منكر عند القاسم بن محمد؛ لأنه يرى ـ كما رواه الإمام مالك ـ أنّ «عدة أم الولد إذا توفي عنها سيدها حيضة»(١).

وهذه مسألة خلافية عند أهل العلم، وتفصيلها في كتب الأحكام الفقهية.

ـ وأثر سماك(٢) قال: «دخلت على عكرمة(٣) في يوم قد أُشْكل من رمضان هو أم من شعبان؟ وهو يأكل خبزاً وبقلاً ولبناً، فقال لي: هلمّ، فقلت: إني صائم، قال: ـ وحلف بالله ـ لَتُفْطِرَنّ، قلت: سبحان الله، مرتين، فلمّا رأيته يحلف لا يستثني، تقدّمت قلت: هات الآن ما عندك، قال: سمعت ابن عباس يقول: قال رسول الله ﷺ: **«صوموا لرؤيته، وأفطروا لرؤيته، فإن حال بينكم وبينه سحابة أو ظلمة، فأكملوا العدة** ـ عدة شعبان ـ، **ولا تستقبلوا الشهر استقبالاً، ولا تصلوا رمضان بيوم من شعبان»**»(٤).

---

(١) المصدر السابق، الموضع نفسه، في رقم (٩٢).

(٢) هو سماك ـ بكسر السين وتخفيف الميم ـ ابن حرب بن أوس الذّهليّ البكريّ، أبو المغيرة الكوفي، من كبار تابعي أهل الكوفة، صدوق، وروايته عن عكرمة خاصّة مضطربة، وكان قد تغير قبل موته فكان ربما يلقّن، توفي سنة (١٢٣هـ)، رحمه الله.

انظر: تهذيب التهذيب، لابن حجر: ٤/ ٢٣٢ ـ ٢٣٤، وتقريب التهذيب، له: ١/ ٣٢٠.

(٣) هو عكرمة بن عبد الله، مولى ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه النسائي في سننه: ٤/ ٤٦٢ ـ ٤٦٣، برقم (٢١٨٨)، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي: ٢/ ١١٤ ـ ١١٥، برقم (٢١٨٨).

فقول سماك هنا: «سبحان الله» مرتين، كان للتعجب من إصرار عكرمة على أن يُفطر، وذلك في نظر سماك منكر؛ لأنه إفساد للصوم الواجب بدون عذر شرعي، غير أن عكرمة روى له ما يدلّ على أنّ صيام يوم الشكّ على أنّه من رمضان لا يجوز شرعاً.

وجميع ما سبق ـ الآية والأحاديث والآثار ـ أدلة على مشروعية التسبيح عند التعجب من المنكر، والمناسبة العقدية لذلك: أن التسبيح هو تنزيه الله تعالى من كل سوء، والمنكر ـ قولاً كان أو فعلاً أو اعتقاداً ـ سوء يجب تنزيه الله تعالى عنه؛ لأنه سبحانه لا يرضى المنكر ولا يأمر به، فيَحْسنُ بالعبد المؤمن إذا حصل منكرٌ من المنكرات أن يُظهر تنزيهَ الله تعالى عنه بالتسبيح.

❖ المطلب الثالث ❖

التّسبيح عند العجائب الدالة على عظمة الله تعالى

إنّ العجائب الدالة على عظمة الله تعالى مما لا يمكن لأحد إحصاؤها عدداً، ولا الإحاطة بها علماً، إلا الله ﷻ وحده الذي أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً.

وكم من عجائب لله تعالى في العالمين يتغافل عنها الناس ويتجاهلونها إلا أولي الألباب الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩١].

فمشاهدة الآيات العظيمة في خلق السماوات والأرض أنطقت ألسنة أولي الألباب بالتسبيح لله ﷻ المتفرّد بالخلق، المنزّه عن العبث

وفعل الباطل، كما سبق بيانه غير مرة(١).

وفي هذا دعوة للمؤمنين إلى التفكر في الكون، وإلى تسبيح الله تعالى عند العجائب الدالة على عظمته وأنه وحده الإله الحق المستحقّ للعبادة. ولهذا افتتح الله تعالى الخبر عن إسرائه بعبده ورسوله محمد ﷺ بالتسبيح، فقال ﷻ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء: ١].

فإن هذه الآية العجيبة مما لا يقدر عليه أحد إلا الله تعالى، فناسب أن تفتتح بالتسبيح تعجّباً من هذه المعجزة الدالة على عظمة الله تعالى، وعلى صدق نبوة محمد ﷺ وعلوّ مكانته عند ربّه ﷻ، كما سبق بيان ذلك أيضاً(٢).

وقد استدلّ بعض العلماء بالتسبيح في هذه الآية على أن الإسراء والمعراج الواقع للنبي ﷺ كان بروحه وبدنه؛ لأن ذلك أعجب، كما نقله قوام السنة أبو القاسم الأصبهاني فقال: «قال بعض العلماء: قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]. سبحان ـ ها هنا ـ للتّعجّب، فوجب أن يحمل على ما هو أعجب، ولو كان عرج بروحه دون بدنه لم يكن فيه كبير عجب؛ لأن الرّجل قد يرى في منامه أنّه عرج به إلى السماء، فإذا أخبر به لم يُتعجّب منه، ولم ينسب إلى الكذب» اهـ(٣).

ومسألة الإسراء والمعراج قد اختلف فيها: هل كان ذلك بروحه وبدنه ﷺ، أو بروحه فقط؟.

---

(١) انظر: ص٢٤٣ وص٣١٧ في المجلد الأول من هذا البحث.
(٢) في ص١/٢٥١ ـ ٢٥٣.
(٣) الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة: ١/٥١١.

والأدلة على أن ذلك كان بروحه وبدنه في اليقظة كثيرة، منها ما سبق ذكره، وتفاصيلها في مظانها(١).

ومن التسبيح عند العجائب الدالة على عظمة الله تعالى:

قول الله ﷻ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [يس: ٣٦].

فقد ورد في تفسير هذه الآية أنّ فيها «معنى التّعجّب، أي: عجباً لهؤلاء في كفرهم مع ما يشاهدونه من هذه الآيات، ومن تعجّب من شيء قال: سبحان الله»(٢).

وجميع ما ذكر هنا من آيات القرآن الكريم أدلة على مشروعية التسبيح عند العجائب الدالة على عظمة الله تعالى، وللتسبيح عند ذلك مناسبة عقدية لا تخفي، وهي أن هذه العجائب لها في النفس روعة وتعظيم، وهي لا تعدو أن تكون أثراً من آثار عظمة الله تعالى التي لا يشركه فيها شيء آخر، فشرع التسبيح عند هذه العجائب، ليستحضر به العبد عظمةَ الله تعالى، وينزهه عن أن يكون شيء أعظمَ منه، وعن أن يقدر على هذه العجائب أحدٌ سواه.

وقال ابن عاشور: «وجه هذا الاستعمال أنّ الأصل أن يكون التسبيح عند ظهور ما يدل على إبطال ما لا يليق بالله تعالى، ولمّا كان ظهور ما يدلّ على عظيم القدرة مزيلاً للشكّ في قدرة الله وللإشراك به، كان من شأنه أن يُنطِق المتأمّل بتسبيح الله تعالى، أي:

---

(١) انظر مثلاً: زاد المعاد، لابن القيم: ٣/ ٣٤ ـ ٤٢، وشرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز: ١/ ٢٧٠ ـ ٢٧٧.

(٢) مقتبس من: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٥/ ١٦. وانظر: ما سبق من الكلام على هذه الآية في ص١/ ٢٦٥ ـ ٢٦٦ من البحث.

تنزيهه عن العجز» اهـ[١].

❖ المطلب الرابع ❖

التسبيح عند التّعجّب من الأشياء المهوِّلة

الأشياء المهوِّلة: هي التي تبعث في النفوس المؤمنة الخوف من الله تعالى والإنابة إليه من الأمور الطارئة التي يحدثها الله ﷻ بحكمته في شرعه أو في خلقه، خيراً كانت أو شرّاً.

وجاء في السّنة التّسبيح عند التّعجّب من الأشياء المهوّلة، كما في حديث أم سلمة ﵂ قالت: «استيقظ رسول الله ﷺ ليلة فزعاً يقول: **«سبحان الله، ماذا أنزل الله من الخزائن، وما أنزل من الفتن؟ ربّ كاسية في الدنيا عارية في الآخرة**[٢]**»**»[٣].

قال الحافظ ابن حجر: «قوله: (سبحان الله، ماذا) ما: استفهامية متضمنة لمعنى التعجب والتعظيم، وعبّر عن الرحمة بالخزائن، كقوله تعالى: ﴿خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ﴾ [ص: ٩]، وعن العذاب بالفتن؛ لأنها أسبابه»[٤].

قال: «وفي الحديث جواز قول: (سبحان الله) عند التّعجب»[٥].

وقال أيضاً: «وفيه التسبيح عند رؤية الأشياء المهوّلة» اهـ[٦].

---

(١) تفسير التحرير والتنوير: ١٥/ ١٠.

(٢) أورد الحافظ ابن حجر في المراد بقوله: (**ربّ كاسية في الدنيا عارية في الآخرة**) أوجها عديدة، فراجعها ـ إن شئت ـ في (فتح الباري: ١٣/ ٢٣).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ١٣/ ٢٠، برقم (٧٠٦٩). وانظر: المصدر نفسه: ١/ ٢١٠، برقم (١١٥)، و١٠/ ٥٩٨، برقم (٦٢١٨).

(٤) فتح الباري: ١/ ٢١٠.

(٥) المصدر السابق: ١/ ٢١١.

(٦) المصدر نفسه، والموضع.

ومن هذا الباب أيضاً ما جاء في حديث محمد بن جحش[(١)] رضي الله عنه قال: «كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ، فرفع رأسه إلى السماء، ثم وضع راحته على جبهته، ثم قال: «**سبحان الله، ماذا نُزِّل من التشديد؟**» فسكتنا وفزعنا، فلما كان من الغد سألته: يا رسول الله، ما هذا التشديد الذي نُزِّل؟ فقال: «**في الدَّين، والذي نفسي بيده، لو أن رجلاً قتل في سبيل الله ثم أحيي، ثم قتل ثم أحيي، ثم قتل وعليه دَيْن، ما دخل الجنة حتّى يقضى عنه دينه**»[(٢)].

فقوله ﷺ هنا: «سبحان الله، ماذا نزل من التشديد؟»، كقوله ﷺ في الحديث السابق: سبحان الله، ماذا أنزل الله من الخزائن، وماذا أنزل من الفتن؟».

وفي هذين الحديثين دليل على مشروعية التسبيح عند التّعجّب من الأشياء المهوّلة الواقعة فيما يَشرَعه الله سبحانه لعباده، أو يقدّره عليهم من خير أو شرّ.

والمناسبة العقدية لهذا التسبيح ـ فيما يظهر لي ـ أن هذه الأشياء المهوّلة لمّا كانت مبعث خوف وفزع في النفوس المؤمنة، ناسب التسبيح عندها تنزيها لله تعالى عن كل سوء، وعن أن تكون تلك

---

(١) هو محمد بن جحش ـ نسب إلى جده ـ الأسدي، ابن أخي زينب أم المؤمنين رضي الله عنها، له ولأبيه صحبة، وكان صغيراً في عهد النبي ﷺ، حيث ذكر أنه ولد قبل الهجرة بخمس سنين، ويكنّى أبا عبد الله، ولم تذكر سنة وفاته، رضي الله عنه.
انظر: الإصابة، لابن حجر العسقلاني: ٦/ ٢١، وفتح الباري، له: ١/ ٤٧٩.

(٢) أخرجه النسائي في سننه: ٧/ ٣٦١، برقم (٤٦٩٨)، وأحمد في مسنده: ٥/ ٢٨٩ ـ ٢٩٠، وصحح الحاكم إسناده في المستدرك: ٢/ ٢٩ ـ ٣٠، برقم (٢٢١٢)، ووافقه الذهبي، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٣٦٠٠).

الأشياء المهوِّلة واقعة عبثاً بلا حكمة ربانية اقتضتْ وقوعها، فإن الله سبحانه يَجِلُّ عن العبث في شرعه وقدره، بل له فيهما الحكمة البالغة، وهو العليم الحكيم.

❖ المطلب الخامس ❖

التسبيح عند مطلق التّعجّب

وزيادة على ما سبق ذكره من أنواع التّعجّب التي يُشرعَ عندها التسبيح، قد وقع في أحاديث رسول الله ﷺ وآثار السلف الصالح ـ رضي الله عنهم ورحمهم ـ ما يدلّ على مشروعية التسبيح عند مطلق التعجب، ومن ذلك:

١ ـ حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «لقيني رسول الله ﷺ في طريق من طرق المدينة وأنا جنب، فأخذ بيدي فمشيت معه حتى قعد، فانسللت(١) فذهبت فاغتسلت، ثم جئت وهو قاعد، فقال: «**أين كنت يا أبا هريرة؟**» فقلت: يا رسول الله، لقيتني وأنا جنب، فكرهت أن أجالسك وأنا على غير طهارة. فقال رسول الله ﷺ: «**سبحان الله، إن المؤمن لا يَنْجُس**»»(٢).

قال النووي: «(سبحان الله) في هذا الموضع وشبهه يراد بها التّعجّب»(٣).

وقال الحافظ ابن حجر: «وقوله: (سبحان الله) تعجّب من اعتقاد

---

(١) أي: ذهبت في خفية [فتح الباري، لابن حجر: ١/ ٣٩٢].

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ١/ ٣٩٠، ٣٩١، برقم (٢٨٣، ٢٨٥)، ومسلم في صحيحه: ١/ ٢٨٢، برقم (٣٧١)، وسبق مختصراً في ١/ ١٩١.

(٣) شرح صحيح مسلم: ٤/ ٦٧.

أبي هريرة التّنجُّس بالجنابة، أي: كيف يخفى عليه هذا الظاهر؟»[(١)].

٢ ـ وحديث عائشة رضي الله عنها: «أنّ امرأة سألت النبي ﷺ عن غسلها من المحيض، فأمرها كيف تغتسل، قال: «**خذي فرصة**[(٢)] **من مسك**[(٣)] **فتطهّري بها**».

قالت: كيف أتطهّر بها؟ قال: «**تطهّري بها**». قالت: كيف؟ قال: «**سبحان الله، تطهري**». فاجتبذتها ـ أو فاجتذبتها ـ إليّ، فقلت: تتبّعي بها أثر الدم»[(٤)].

وفي رواية: «ثم إنّ رسول الله ﷺ سبّح وأعرض عنها، ففطنت عائشة لما يريد رسول الله ﷺ، قالت: فأخذتها وجبذتها إليّ، فأخبرتها بما يريد رسول الله ﷺ»[(٥)].

قال النووي: «قوله: (سبحان الله) قد قدمنا أن (سبحان الله) في هذا الموضع وأمثاله يراد بها التّعجّب، وكذا (لا إله إلا الله)، ومعنى التعجب هنا: كيف يخفى مثل هذا الظاهر الذي لا يحتاج الإنسان في

---

(١) فتح الباري: ١/ ٣٩١.

(٢) فرصة ـ بكسر الفاء ـ، وإسكان الراء، وبالصاد المهملة ـ: قطعة من صوف أو قطن أو خرقة.
وانظر: النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير: ٣/ ٤٣١، وشرح صحيح مسلم، للنووي: ٣/ ١٤.

(٣) مسك ـ بكسر الميم وسكون السين المهملة ـ: الطيب المعروف، ويُروى بفتح الميم أيضاً، يعنى قطعة جلد فيه شعر، والأول هو الصحيح. وانظر: النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير: ٤/ ٣٣٠ ـ ٣٣١، وشرح صحيح مسلم، للنووي: ٤/ ١٤، وفتح الباري، لابن حجر: ١/ ٤١٥ ـ ٤١٦.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ١/ ٤١٤، برقم (٣١٤)، ومسلم في صحيحه: ١/ ٢٦٠ ـ ٢٦١، برقم (٣٣٢).

(٥) أخرجه النسائي في سننه: ١/ ٢٢٧، برقم (٤٢٥).

فهمه إلى فكر. وفي هذا جواز التسبيح عند التّعجب من الشيء واستعظامه»[(١)].

٣ ـ وحديث أنس رضي الله عنه: «أنّ أخت الرُّبيِّع أمّ حارثة جرحتْ إنساناً، فاختصموا إلى النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «**القصاصَ، القصاصَ**[(٢)]». فقالت أمّ الرَّبيع: يا رسول الله، أيقتصّ من فلانة؟ والله، لا يقتصّ منها. فقال النبي ﷺ: «**سبحان الله، يا أمّ الربيع، القصاص كتاب الله**[(٣)]». قالت: لا، والله، لا يقتصّ منها أبداً[(٤)]. قال: فما زالتْ حتّى قبلوا الدّية. فقال رسول الله ﷺ: «**إنّ من عباد الله مَن لو أقسم على الله لأبرّه**[(٥)]»[(٦)].

فتسبيح رسول الله ﷺ في هذه القصة كان للتعجّب من إصرار أمّ الرَّبيع على عدم القصاص من أخت الرُّبيِّع، وحلفها على ذلك مع أنه في أمر لا تملكه، ولكن الله تعالى أبرّ قسمها فضلاً منه وإكراماً لها، والله ذو الفضل العظيم.

٤ ـ وحديث رجل من الأنصار قال: عاد رسول الله ﷺ رجلاً به

---

(١) شرح صحيح مسلم: ٤/ ١٤.

(٢) هما منصوبان، أي: أدّوا القصاص وسلموه إلى مستحقه [شرح صحيح مسلم، للنووي: ١١/ ١٦٣].

(٣) القصاص كتاب الله: أي حكم كتاب الله وجوب القصاص [شرح صحيح مسلم، للنووي: ١١/ ١٦٣].

(٤) ليس هذا ردّاً لحكم الله تعالى وحكم رسوله ﷺ، بل رغبة إلى مستحق القصاص أن يعفو، وإلى النبي ﷺ أن يشفع إليهم في العفو، وإنما حلفت ثقة بفضل الله ولطفه أن لا يحنثه، وأن يلهمهم العفو. وانظر: شرح صحيح مسلم، للنووي: ١١/ ١٦٣.

(٥) معناه: لا يحنثه لكرامته عليه [شرح صحيح مسلم، للنووي: ١١/ ١٦٣].

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه: ٣/ ١٣٠٢، برقم (١٦٧٥).

جرح، فقال رسول الله ﷺ: «**ادعوا له طبيب بني فلان**»، قال: فدعوه فجاء، فقال: يا رسول الله، ويغني الدواء شيئاً؟ فقال: «**سبحان الله، وهل أنزل الله من داء في الأرض إلا جعل له شفاءً؟**»»[١].

فقوله ﷺ هنا: (سبحان الله) تعجّبٌ من ظنّ عدم إغناء الدواء، مع أن الله تعالى جعل لكل داء شفاء بإذنه ﷻ، وهو أمر واقع ومشاهد لا يمكن إنكاره.

٥ ـ وحديث صفية بنت حييّ زوج النبي ﷺ[٢] ﵂ قالت: «كان النبي ﷺ معتكفاً في المسجد في العشر الأواخر من رمضان، فأتيته أزوره ليلاً، فحدّثته، ثم قمت لأنقلب، فقام معي ليقلبني[٣]، حتّى إذا بلغت باب المسجد الذي عند مسكن أم سلمة زوج النبي ﷺ، مرّ رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا، فقال لهما النبي ﷺ: «**على رسلكما**[٤]، **إنما هي صفية بنت حييّ**». فقالا: سبحان الله، يا رسول الله، وكبر عليهما ما قال. فقال النبي ﷺ: «**إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شرّاً ـ أو**

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده: ٥/ ٣٧١، وإسناده صحيح، رجاله كلهم ثقات، وجهالة الصحابي الراوي لا تضرّ، كما هو معلوم.

(٢) هي صفية بن حييّ بن أخطب بن سعنة بن ثعلبة الإسرائيلية، من بني النضير، صارت مع السبي يوم خيبر، فأعتقها النبي ﷺ وتزوجها، وكانت عاقلة حليمة فاضلة، وتوفيت ـ على الصحيح ـ في خلافة معاوية، سنة (٥٢هـ)، ﵂.
انظر: الإصابة، لابن حجر العسقلاني: ٧/ ٧٣٨ ـ ٧٤٢، وتقريب التهذيب، له: ٢/ ٥٢٥.

(٣) ليقلبني ـ بفتح الياء وسكون القاف ـ أي: ليردّني إلى منزلي [شرح صحيح مسلم، للنووي: ١٤/ ١٥٧].

(٤) هو بكسر الراء وفتحها ـ لغتان ـ، والكسر أفصح وأشهر، أي: على هينتكما في المشي، فما هنا شيء تكرهانه [شرح مسلم، للنووي: ١٤/ ١٥٧].

قال شيئاً»»[1].

فهذا الحديث ترجم له الإمام البخاري بباب التكبير والتسبيح عند التّعجّب.

وقال الحافظ ابن حجر: «وهو مطابق لما ترجم له؛ لأن الظاهر أن مرادهما بقولهما: (سبحان الله) التّعجّب من القول المذكور، بقرينة قوله: (وكبر عليهما) أي: عظم وشق»[2].

وقال النووي ـ في فوائد هذا الحديث ـ: «فيه جواز التسبيح تعظيماً للشيء وتعجباً منه»[3].

٦ ـ وحديث المغيرة بن شعبة[4] رضي الله عنه في قصة ذهابه مع رسول الله ﷺ لقضاء الحاجة قبل صلاة الفجر، وكانوا في غزوة، ثم حانت الصلاة. قال المغيرة رضي الله عنه: «فأقبلت معه حتّى نجدُ الناس قد قدّموا عبد الرحمن بن عوف[5] فصلّى لهم. فأدرك رسول الله ﷺ إحدى

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٤/٢٧٨، برقم (٢٠٣٥) و١٠/٥٩٨، برقم (٦٢١٩)، ومسلم في صحيحه: ٤/١٧١٢، برقم (٢١٧٥).

(٢) فتح الباري: ١٠/٥٩٨.

(٣) شرح صحيح مسلم: ١٤/١٥٧.

(٤) هو المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود الثّقفيّ، أبو عيسى أو أبو محمد، صحابي مشهور، أسلم قبل الحديبية، وشهدها، كما شهد بيعة الرضوان، وكان يقال له: مغيرة الرأي، وكان من دهاة العرب، وولي إمرة البصرة، ثم الكوفة، وتوفي سنة (٥٠هـ) على الصحيح، رضي الله عنه.
انظر: الإصابة، لابن حجر: ٦/١٩٧ ـ ٢٠٠، وتقريب التهذيب، له: ٢/٢٧٤.

(٥) هو عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن عبد الحارث القرشي الزهري، أبو محمد، صحابي جليل من السابقين الأولين إلى الإسلام، ومن العشرة المبشرين بالجنة، ومن الستة الذين أوصى إليهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالخلافة من بعده، ومناقبه جمة، وتوفي سنة (٣٢هـ) وقيل غير ذلك، رضي الله عنه.
انظر: الإصابة لابن حجر: ٤/٣٤٦ ـ ٣٥٠.

الركعتين، فصلّى مع الناس الركعة الآخرة، فلما سلّم عبد الرحمن بن عوف قام رسول الله ﷺ يتمّ صلاته، فأفزع ذلك المسلمين، فأكثروا التسبيح، فلما قضى النبي ﷺ صلاته، أقبل عليهم ثم قال: «**أحسنتم**» أو قال: «**قد أصبتم**»، يغبطهم أن صلّوا الصلاة لوقتها»(١).

فإكثار الصحابة رضي الله عنهم من التسبيح في هذه الواقعة كان للتعجّب من هول الموقف، لسبقهم رسول الله ﷺ بالصلاة، ولكن رسول الله ﷺ طمأنهم، وبين أنهم قد أحسنوا أو أصابوا في أدائهم الصلاة لوقتها، دون تأخير لها انتظاراً للنبي ﷺ.

٧ ـ وحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «صلّى النبي ﷺ صلاة الصبح، ثم أقبل على الناس فقال: «**بينا رجل يسوق بقرة إذ ركبها فضربها، فقالتْ: إنّا لم نخلق لهذا، إنما خلقنا للحرث**» فقال الناس: سبحان الله، بقرة تكلّم؟ فقال: «**فإني أومن بهذا، أنا وأبو بكر وعمر**». وما هما ثم(٢).

«**وبينما رجل في غنمه إذ عدا الذئب فذهب منها بشاة، فطلب حتى كأنه استنقذها منه، فقال له الذئب: هذا استنقذتها منّي، فمن لها يوم السّبع**(٣)**، يوم لا راعي لها غيري؟**». فقال الناس: سبحان الله،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: ١/٣١٧ ـ ٣١٨، برقم (٢٧٤).

(٢) جاء في بعض روايات الحديث: «قال أبو سلمة ـ وهو الراوي عن أبي هريرة ـ: وما هما يومئذ في القوم» [صحيح البخاري ـ مع الفتح ـ: ٥/٨، برقم (٢٣٢٤)]، أي: لم يكونا حاضرين عند حكاية النبي ﷺ ذلك. [فتح الباري، لابن حجر: ٧/٢٧].

قال العلماء: إنما قال النبي ﷺ ذلك ثقة بهما، لعلمه بصدق إيمانهما وقوة يقينهما، وكمال معرفتهما لعظيم سلطان الله وكمال قدرته، ففيه فضيلة ظاهرة لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما [شرح صحيح مسلم، للنووي: ١٥/١٥٦].

(٣) السبع: روي بضم الباء وإسكانها، والأكثرون على الضم، كذا قال النووي =

ذئب يتكلّم؟! قال: «**فإني أومن بهذا، أنا وأبو بكر وعمر**». وما هما ثم»[(١)].

فتسبيح الناس في هاتين القصتين كان للتّعجّب، كما جاء في بعض الروايات: «فقال الناس: سبحان الله، تعجّباً وفزعاً»[(٢)].

وقال الحافظ ابن حجر: «في الحديث جواز التّعجّب من خوارق العادات، وتفاوت الناس في المعارف»[(٣)].

٨ ـ وحديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه في استئذانه على عمر بن الخطاب رضي الله عنه ثلاث مرات، وانصرافه بعد الثالثة، وأمر عمر رضي الله عنه بردّه، فقال: «يا أبا موسى، ما ردّك؟ كنا في شغل». قال أبو موسى رضي الله عنه: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الاستئذان ثلاث، فإن أذن لك، وإلا فارجع**». قال عمر: لتأتينّي على هذا ببينة، وإلا فعلت وفعلت. فذهب أبو موسى.

قال عمر: إن وجد بينة تجدوه عند المنبر عشيّة، وإن لم يجد بينة فلم تجدوه. فلما أن جاء بالعشي وجدوه. قال: يا أبا موسى، ما تقول؟ أقد وجدت؟ قال: نعم، أبي بن كعب. قال: عدل. قال: يا أبا

= في (شرح صحيح مسلم: ١٥/١٥٦). ويوم السبع: اختلف في المراد به، والأقرب أنه يوم تشتد الفتن فينشغل الناس بها، فتصير الغنم هملا لا راعي لها، فتنهبها السّباع، فيصير الذئب كالراعي لها، لانفراده بها.
وانظر: شرح صحيح مسلم، للنووي: ١٥/١٥٧ ـ ١٥٨، وفتح الباري، لابن حجر: ٧/٢٧ ـ ٢٨.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٦/٥١٢، برقم (٣٤٧١)، ومسلم في صحيحه: ٤/١٨٥٧ ـ ١٨٥٨، برقم (٢٣٨٨).

(٢) هذه الرواية عند مسلم في الموضع المذكور من صحيحه.

(٣) فتح الباري: ٧/٢٨.

الطّفيل، ما يقول هذا؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك يا ابن الخطاب، فلا تكوننّ عذاباً على أصحاب رسول الله ﷺ. قال: سبحان الله، إنما سمعت شيئاً، فأحببت أن أتثبّت»[١].

فقول عمر رضي الله عنه هنا: (سبحان الله) هو للتعجّب من قول أبيّ له: «فلا تكوننّ عذاباً على أصحاب رسول الله ﷺ». وقد بين عمر رضي الله عنه أنه فعل هذا تثبُّتاً لا تعنتاً.

٩ ـ وحديث سعيد بن جبير قال: «سئلت عن المتلاعنين في إمرة مصعب[٢]: أيفرّق بينهما؟ قال: فما دريت ما أقول، فمضيت إلى منزل ابن عمر بمكة، فقلت للغلام: استأذن لي. قال: إنه قائل[٣]. فسمع صوتي، قال: ابن جبير؟ قلت: نعم. قال: ادخل، فوالله، ما جاء بك هذه الساعة إلا حاجة. فدخلت، فإذا هو مفترش برذعة[٤]، متوسّد وسادة حشوها ليف. قلت: أبا عبد الرحمن، المتلاعنان، أيفرّق

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: ١٦٩٦/٣، برقم (٢١٥٤).

(٢) هو مصعب بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد القرشي الأسدي، أبو عبد الله، ويقال له أيضاً: أبو عيسى، كان من أحسن الناس وجهاً، وأشجعهم قلباً، وأسخاهم كفاً، ولّي إمرة العراقين لأخيه عبد الله بن الزبير، وتوفي سنة (٧١هـ)، رحمه الله.
انظر: البداية والنهاية، لابن كثير: ٣٢١/٨ ـ ٣٢٧.

(٣) قائل: اسم فاعل من القيلولة، وهي النوم نصف النهار. انظر: شرح صحيح مسلم، للنووي: ١٢٤/١٠، والقاموس المحيط، للفيروزآبادي/ مادة (قيل): ص١٣٥٩.

(٤) برذعة ـ بفتح الباء وسكون الراء، ثم ذال معجمة مفتوحة، والأكثر إهمال الذال، فيقال: بردعة ـ وهي: حِلْس ـ أي كساء ـ يلقى تحت الرَّحْل، ويبسط في البيت تحت حرّ الثياب.
وانظر: القاموس المحيط، للفيروزآبادي/ مادتي (حلس، بردعة): ص٦٩٤، ٩٠٧.

بينهما؟ قال: سبحان الله، نعم. إن أول من سأل عن ذلك فلان بن فلان...» وساق الحديث في سبب نزول آيات اللعان[١].

فقول ابن عمر رضي الله عنه: «سبحان الله» كان للتعجّب من خفاء هذا الأمر على ابن جبير، ولهذا ساق له الحديث في ذلك.

١٠ ـ وحديث طاووس، عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنه لمّا سمع إكثار الناس في كراء الأرض[٢]، قال: «سبحان الله، إنما قال رسول الله ﷺ: «**ألّا منحها أحدكم أخاه**»، ولم ينه عن كرائها»[٣].

فتسبيح ابن عباس رضي الله عنهما هنا كان للتعجّب من إنكار الناس كراء الأرض وإكثارهم الكلام في ذلك، وهو مسألة خلافية بين أهل العلم[٤].

١١ ـ وحديث سيّار[٥] قال: «جيء برؤوس[٦] من قبل العراق،

---

(١) أخرجه بطوله مسلم في صحيحه: ٢/ ١١٣٠ ـ ١١٣١، برقم (١٤٩٣).
(٢) الكراء ـ بكسر الكاف ـ: أجرة المستأجر [القاموس المحيط، للفيروزآبادي/ مادة (كرى): ص١٧١٢] وكراء الأرض: هو ما يعرف في الفقه بالمزارعة، وهي المعاملة على الأرض ببعض ما يخرج منها. وانظر: تهذيب الأسماء واللغات، للنووي: ٣/ ١٣٣.
(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه: ٢/ ٨٢١، برقم (٢٤٥٦)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه: ٢/ ٢٩٠، برقم (٢٠٠٤).
(٤) انظر: صحيح البخاري مع شرحه (فتح الباري، لابن حجر العسقلاني): ٥/ ١٠ ـ ١٥، ٢٥، وصحيح مسلم، بشرح النووي: ١٠/ ١٩٦ ـ ٢٠٨.
(٥) هو سيّار الأموي مولاهم، الدمشقي، قدم البصرة، وهو صدوق من التابعين. انظر: تهذيب التهذيب، لابن حجر: ٤/ ٢٩٣، وتقريب التهذيب، له: ١/ ٣٣٠.
(٦) كانت رؤوس أشخاص من الخوارج قتلوا في العراق وجيء برؤوسهم إلى الشام.

فنصبت عند باب المسجد، وجاء أبو أمامة فدخل المسجد فركع ركعتين، ثم خرج إليهم فنظر إليهم، فرفع رأسه فقال: (شرّ قتلى تحت ظلّ السماء ـ ثلاثاً ـ، وخير قتلى تحت ظلّ السماء من قتلوه). وقال: (كلاب النار) ثلاثاً. ثم إنه بكى ثم انصرف عنهم. فقال له قائل: يا أبا أمامة، أرأيت هذا الحديث حيث قلت: (كلاب النار) شيء سمعته من رسول الله ﷺ، أو شيء تقوله برأيك؟ قال: (سبحان الله، إني لجريء لو سمعته من رسول الله ﷺ مرة أو مرتين ـ حتى ذكر سبعاً ـ لخلت أن لا أذكره). فقال الرجل: لأيّ شيء بكيت؟ قال: رحمة لهم، أو من رحمتهم)»[1].

فكان تسبيح أبي أمامة رضي الله عنه هنا تعجبّاً من ظنّ هذا السائل أنه يقول ما قاله من رأيه؛ لأن الحكم على فرقة من المسلمين بالوعيد لا يجوز إلّا بدليل، ولهذا بين رضي الله عنه أنه لولا سماعه ذلك من رسول الله ﷺ مرات عديدة، لما قاله.

وجميع ما سبق ذكره من الأحاديث والآثار أدلة واضحة على مشروعية التسبيح عند مطلق التّعجّب.

وأفاد بعض العلماء في مناسبة هذا التسبيح أن الأصل في ذلك أن يُسبَّح الله تعالى عند رؤية العجيب من صنائعه، ثم كثر حتّى استعمل في كل متعجَّب منه[2].

وعلى هذا فالتسبيح عند مطلق التّعجّب تابع في المناسبة للتسبيح عند العجائب الدالة على عظمة الله تعالى الذي سبق بحثه في

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده: ٥/ ٢٥٠، وأخرجه الحاكم بنحوه في المستدرك: ٢/ ١٦٣، برقم (٢٦٥٤، ٢٦٥٥) من طريق شداد أبي عمار عن أبي أمامة، وصححه، ووافقه الذهبي.

(٢) انظر: تهذيب الأسماء واللغات، للنووي: ٣/ ١٤٣.

المطلب الثالث[١].

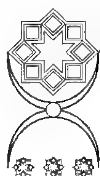
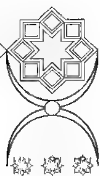
وذكر بعضهم أن مناسبة التسبيح عند التّعجّب هي أنّ التسبيح معناه تعظيم الله وتنزيهه من السوء، واستعمال ذلك عند التّعجّب حسن؛ لأن فيه تمرين اللسان على ذكر الله تعالى[٢].

ومن مناسبة هذا التسبيح أيضاً أن التّعجّب في الغالب ناشىء عن خفاء الأمور وأسبابها، فناسب أن يُسبَّح الله تعالى عند ذلك تنزيها له سبحانه عن النقائص والعيوب العارضة للبشر، وإجلالاً له عن أن يخفى عليه شيء، وعن أن يقع شيء إلا بعلمه وقدرته وحكمته تبارك وتعالى.

---

(١) انظر: ص٣٢.

(٢) انظر: شرح صحيح البخاري، لابن بطال، بضبط وتعليق أبي تميم ياسر بن إبراهيم: ٩/ ٣٦٤، وفتح الباري، لابن حجر العسقلاني: ١٠/ ٥٩٨.

المبحث الرابع

التسبيح في الأوقات المخصوصة

وكما شرع التسبيح مفرداً في الأحوال المخصوصة التي سبق بحثها، شرع التسبيح كذلك مفرداً في أوقات مخصوصة جاء في كتاب الله تعالى بيانها والحثّ على التّسبيح فيها.

وقد بلغت الآيات التي جاء فيها الحثّ على التسبيح في الأوقات المخصوصة اثنتي عشرة آية من عشر سور من القرآن الكريم، وبيانها فيما يلي:

١ ـ قول الله تعالى ـ لنبيه زكريّا عليه السلام ـ: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [آل عمران: ٤١].

وفي هذه الآية أمر الله تعالى نبيه زكريّا عليه السلام بذكر ربه كثيراً، وبالتسبيح في وقتين مخصوصين، وهما: العشيّ والإبكار[(١)].

أما (العشيّ): فهو من حين تزول الشمس إلى أن تغيب[(٢)].

وقال الواحدي: «العشيّ: جمع عشيّة، وهي آخر النهار»[(٣)].

وأما (الإبكار): فهو مصدر من قولهم: أبْكر فلان، يُبكر، إبكاراً. ويقال: بَكَر فلان بكوراً، وبكّر، وابتكر، وباكر[(٤)]، كل ذلك

---

(١) سبق ذكر هذه الآية وبيان معانيها في ١/٣٠٧.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ٣/ ٢٦١، والدر المصون، للسمين الحلبي: ٣/ ١٦٧.

(٣) الوسيط في تفسير القرآن المجيد: ١/ ٤٣٥.

(٤) انظر: مجاز القرآن، لأبي عبيدة: ١/ ٩٣، وتفسير الطبري: ٣/ ٢٦١، =

بمعنى واحد، وهو أن يخرج من بين مطلع الفجر إلى وقت الضّحى[(١)].

فالإبكار هو أول أوقات النهار، كما أن العشيّ آخر أوقات النهار. والباء في قوله: ﴿بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ بمعنى (في)، أي: في العشيّ وفي الإبكار[(٢)].

٢ ـ وقوله تعالى ـ في قصة نبيه زكريّا أيضاً عليه السلام ـ: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾ [مريم: ١١].

وهذه الآية تقدم بيان معناها عند الكلام على تسبيح نبي الله زكريّا عليه السلام[(٣)]، وفيها حثّه عليه السلام لقومه على التسبيح في الوقتين المخصوصين اللذين أمره الله تعالى بالتسبيح فيهما في الآية السابق ذكرها، فإن قوله في هذه الآية: ﴿بُكْرَةً﴾ بمعنى ﴿وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ في تلك الآية.

فالبكرة: هي أول النهار، ومن لفظها اشتق لفظ الفعل (أبكر) الذي مصدره (الإبكار)، وكذلك: بكر وبكّر ـ بتخفيف الكاف وتشديدها ـ وابتكر وباكر[(٤)]، كما سبقت الإشارة إليه.

قال الراغب الأصفهاني[(٥)]: «وتُصوِّر منها معنى التّعجيل، لتقدمها

= ومفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني: ص١٤٠.

(١) انظر: تفسير الطبري: ٣/ ٢٦١.

(٢) انظر: الدر المصون، للسمين الحلبي: ٣/ ١٦٧.

(٣) انظر: ١/ ٣٠٨ من البحث.

(٤) انظر: مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني: ص١٤٠.

(٥) هو الحسين بن محمد بن المفضل الأصبهاني، أبو القاسم، الملقب بالرّاغب، كان من أذكياء المتكلمين، وله تصانيف عديدة، منها: مفردات ألفاظ القرآن. قال الذهبي: «لم أظفر له بوفاة ولا بترجمة». انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: ١٨/ ١٢٠ ـ ١٢١.

على سائر أوقات النهار، فقيل لكلّ متعجّل في أمر: بكر» اهـ[١].

وقوله في هذه الآية: ﴿وَعَشِيًّا﴾ هو العشيّ، كما سبق.

٣ ـ وقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآىِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾ [طه: ١٣٠].

وهذه الآية سبق أن التسبيح المأمور به فيها فُسّر بالصلاة[٢]، وهذا ممّا يؤكد أهمية التسبيح ووجوبه في الصلاة كما سبق عند الكلام على حكم التسبيح من حيث القول[٣]، وعند الكلام على التسبيح في الركوع والسجود[٤].

وقد جاءت هذه الآية بالأمر بالتسبيح في أربعة أوقات مخصوصة:

أولها: (قبل طلوع الشّمس) وهذا الوقت أخصّ من الإبكار والبكرة؛ لأن الإبكار ـ كما سبق ـ يتناول ما قبل طلوع الشمس وما بعد طلوعها إلى وقت الضحى.

والثاني: (قبل غروب الشمس) وهذا الوقت مثل العشيّ المفسّر بأنه من حين زوال الشمس إلى غروبها، كما سبق قريباً.

والثالث: (آناء اللّيل) أي: ساعات الليل، فآناء جمع، واحدها: إنْيٌ[٥]. و(من) في قوله: ﴿وَمِنْ ءَانَآىِٕ ٱلَّيْلِ﴾ للتبعيض، وهذا يعني الأمر بالتسبيح في بعض ساعات الليل، ولهذا جاء في التفسير المأثور عن

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن: ص١٤٠.

(٢) انظر: ١/ ٨٧ من هذا البحث.

(٣) انظر: ١/ ٣٩١. (٤) انظر: ١/ ٥٣٤.

(٥) انظر: مجاز القرآن، لأبي عبيدة: ٢/ ٣٣، وتفسير غريب القرآن، لابن قتيبة: ص٢٨٣، وتفسير الطبري: ٨/ ٤٧٧.

الحسن البصري ـ في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ﴾ ـ قال: «من أوله، وأوسطه، وآخره»[١]، أي: أن العبد بالخيار في أي ساعات الليل يسبّح.

الرابع: قوله تعالى: ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ المعنى: وسبح أطراف النهار[٢]، ونصب (أطراف) عطفاً على (قبل)[٣].

وللمفسرين في المراد بهذا الوقت ثلاثة أقوال:

القول الأول: أنه وقت الزوال من النهار، وهو وقت الظهر؛ لأنه طرف النصف الأول انتهاءً، وطرف النصف الثاني ابتداءً[٤]، وجمعه (أطراف النهار) باعتبار النصفين، أو لأن النهار جنس فيشمل كلّ نهار[٥].

وبناء على هذا القول تكون الآية الكريمة قد نصّت على أربعة أوقات مخصوصة للتسبيح: قبل طلوع الشمس، وقبل غروبها، وعند زوالها، وبعض ساعات الليل.

القول الثاني: أنه وقتان، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ [هود: ١١٤]، وإنما قال الله تعالى هنا: ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ من باب وضع الجمع موضع التثنية، والمراد: طرفا النهار[٦].

---

(١) رواه الطبري في تفسيره: ٨/ ٤٧٨.
(٢) انظر: زاد المسير، لابن الجوزي: ٥/ ٣٣٤.
(٣) انظر: تفسير الطبري: ٨/ ٤٧٧.
(٤) انظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني: ٣/ ٣٦٣، وزاد المسير، لابن الجوزي: ٥/ ٣٣٤.
(٥) انظر: محاسن التأويل، للقاسمي: ٥/ ١٣٣.
(٦) انظر: زاد المسير، لابن الجوزي: ٥/ ٣٣٤، والدر المصون، للسمين الحلبي: ٨/ ١٢٢.

وفسّر ابن جرير الطبري الوقتين المعنيّين بالظهر والمغرب، وقال: «لأن صلاة الظهر في آخر طرف النهار الأول، وفي أول طرف النهار الآخر، فهي في طرفين منه، والطرف الثالث: غروب الشمس، وعند ذلك تصلّى المغرب، فلذلك قيل: أطراف»[١].

وبناء على هذا التفسير لقوله تعالى: ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ تكون الآية الكريمة قد نصّت على خمسة أوقات مخصوصة للتسبيح: الأربعة التي سبق ذكرها، والخامس: بعد غروب الشمس.

وفسّر بعضهم الوقتين بالصبح والعصر، فيكون قوله تعالى: ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ مذكوراً لتأكيد ما سبق من قوله تعالى: ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾[٢]، وتكون الآية بهذا قد نصّت على ثلاثة أوقات مخصوصة فقط.

القول الثالث: أن قوله تعالى: ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ على حقيقته، والمراد: ساعات النهار[٣]، وأن الله تعالى ذكر ذلك في مقابلة ﴿ءَانَآءِ ٱلَّيْلِ﴾[٤]. وساعات النهار شاملة لما قبل طلوع الشمس وما قبل غروبها ولغيرهما، فيفيد هذا القول أن الله تعالى خصّص من ساعات النهار وقتين، ثم عمّم في جميع ساعات النهار.

وأولى هذه الأقوال ـ في نظري ـ القول الثاني بتفسير إمام المفسّرين الطبريّ، ثم القول الثالث، والله تعالى أعلم.

٤ ـ وقوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾

---

(١) تفسير الطبري: ٨/ ٤٧٧.
(٢) انظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني: ٣/ ٣٦٣.
(٣) انظر: المصدر السابق، والدر المصون، للسمين الحلبي: ٨/ ١٢٢.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ١٧٩.

وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الروم: ١٧ ـ ١٨].

وهاتان الآيتان تقدم بعض الكلام عليهما مراراً[1]، وقد وردتا بالتسبيح في أربعة أوقات مخصوصة.

فقوله: ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ﴾ معناه ـ في أحد القولين فيه ـ: فسبّحوا الله[2]، فهو أمر بالتسبيح في الأوقات المذكورة بعده.

وقوله: ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ أي: تدخلون في المساء[3]، وهو إقبال الليل بظلامه[4]، فيكون هذا أمراً بالتسبيح في بعض الليل، كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَانَآىِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾ [طه: ١٣٠].

وقوله: ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ أي: تدخلون في الصباح[5]، وهو إسفار النهار بضيائه[6]، وهذا الوقت كالإبكار والبكرة، ويشمل أيضاً قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ [طه: ١٣٠].

وقوله: ﴿وَعَشِيًّا﴾ أي: وسبحوه عشيّاً[7]، وهو معطوف على (حين)، وما بينهما جملة معترضة[8]. والعشيّ سبق أنه من حين تزول الشمس إلى أن تغيب، فهو كقوله تعالى: ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠].

وقوله: ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ أي: حين تدخلون في وقت الظهر[9]،

---

(١) انظر: ١/ ٨٩، ٢٦٤ من هذا البحث.
(٢) انظر: تفسير الطبري: ١٠/ ١٧٣.
(٣) انظر: الدر المصون، للسمين الحلبي: ٩/ ٣٦.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٤٣٨.
(٥) انظر: الدر المصون، للسمين الحلبي: ٩/ ٣٦.
(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٤٣٨.
(٧) انظر: تفسير الطبري: ١٠/ ١٧٣.
(٨) انظر: الدر المصون، للسمين الحلبي: ٩/ ٣٧.
(٩) انظر: تفسير الطبري: ١٠/ ١٧٣.

وهو قوة الضياء من النهار[١]، وهذا داخل في قوله تعالى: ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ [طه: ١٣٠] على ما ورد في معناه من الأقوال المذكورة قريباً.

٥ ـ وقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الأحزاب: ٤٢].

وفي هذه الآية أمر للمؤمنين بالتسبيح في وقتين مخصوصين، وهما: البكرة والأصيل.

أما البكرة فسبق أنها أول النهار، كالإبكار، وكقوله تعالى: ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾.

وأما الأصيل: فهو الوقت بعد العصر إلى المغرب[٢]، وجمعه: أُصُل، وآصال[٣]. فالأصيل والعشيّ بمعنى واحد.

٦ ـ وقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [غافر: ٥٥].

وفي هذه الآية أمر بالتسبيح في العشيّ والإبكار، وقد تقدم بيان معنى هذين الوقتين.

٧ ـ وقوله تعالى: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾ [الفتح: ٩].

وهذه الآية سبق ذكرها مراراً[٤]، وفيها دعوة إلى التسبيح في البكرة وفي الأصيل، وقد تبيّن معناهما قريباً.

٨ ـ وقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾ [ق: ٣٩ ـ ٤٠].

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٤٣٨/٣.
(٢) انظر: مجاز القرآن، لأبي عبيدة: ١٣٨/٢، وتفسير الطبري: ١٦٦/٦.
(٣) انظر: مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني: ص٧٨.
(٤) انظر: ٤١٤/١، ٤١٧، ٤٢٦، ٤٨٩ من هذا البحث.

وفي هاتين الآيتين أمر بالتسبيح في ثلاثة أوقات مخصوصة، وهي: قبل طلوع الشمس، وقبل غروبها، وبعض اللّيل.

قال نفطويه: «فقد أمر الله ﷻ بالتسبيح، ثم ذكر أوقاتاً يحضّ على التسبيح فيها» اهـ(١).

وأما قوله تعالى: ﴿وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾، فهو أمر بالتسبيح في أدبار الصلوات. وقيل: هو أمر بالنوافل في أدبار المكتوبات. وقيل: هو صلاة الركعتين بعد صلاة المغرب، وقد تقدم بيان هذا كله في مبحث التسبيح في دبر الصلاة.

٩ ـ وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَـٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾ [الطور: ٤٩].

وفي هذه الآية أمر بالتسبيح في وقتين مخصوصين:

أحدهما: بعض الليل، كما سبق في بعض الآيات المذكورة.

والثاني: وقت إدبار النجوم، أي: حين تدبر النجوم ـ تغيب ـ عند إقبال النهار(٢).

وبناء على هذا المعنى يكون (إدبار النجوم) هو الوقت قبل طلوع الشمس، كما قال الله تعالى: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ﴾ [طه: ١٣٠، وق: ٣٩].

وقد جاء في التفسير المأثور عن عليّ وابن عباس وقتادة ـ رضي الله عنهم ورحمهم ـ في قوله تعالى: ﴿وَإِدۡبَـٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ أنه يعني: الركعتين قبل صلاة الفجر(٣).

---

(١) مسألة سبحان: ص٤٩ ـ ٥٠.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ١١/ ٥٠١، وتفسير البغوي: ٧/ ٣٩٦.

(٣) انظر: الروايات في ذلك في: تفسير الطبري: ١١/ ٥٠١، وتفسير البغوي: ٧/ ٣٦٥، ٣٩٦.

وعن الضحاك وابن زيد: أنه يعني: صلاة الفجر[(١)].

ولا تناقض بين هذه التفسيرات في الحقيقة؛ لأن ركعتي الفجر، وصلاة الفجر تصلي عند إدبار النجوم بضوء الفجر، وهذه الصلوات مشتملة على التسبيح، فتحقق جميع هذه العبادات في هذا الوقت.

١٠ ـ وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾ [الإنسان: ٢٦].

وهذه الآية أمر بالتسبيح في اللّيل أيضاً، ولكن مع زيادة قيد الطول، فقوله تعالى: ﴿لَيۡلٗا طَوِيلًا﴾ يعني: مقداراً طويلاً من الليل[(٢)]، وهذا يفيد الأمر بالتسبيح في أكثر اللّيل[(٣)]، سواء كان هذا التسبيح في الصلاة أو في غير الصلاة[(٤)].

وقد ثبت من فعل رسول الله ﷺ أنه كان يسبّح وقتاً طويلاً في الليل في الصلاة وفي غير الصلاة، كما سبق بيان ذلك عند الكلام على تسبيحه ﷺ لله تعالى[(٥)].

وجميع ما سبق ذكره من الآيات القرآنية أدلة على مشروعية التسبيح في الأوقات المخصوصة المذكورة فيها، وهي على الإجمال أربعة أوقات:

أولها: البكرة، وهي الإبكار، والصباح، وتشمل الوقت قبل طلوع الشمس، وإدبار النجوم.

---

(١) انظر: المصدرين السابقين.
(٢) انظر: محاسن التأويل، للقاسمي: ٧/ ٢٣٣.
(٣) انظر: تفسير الطبري: ١٢/ ٣٧٤.
(٤) انظر: فتح القدير، للشوكاني: ٥/ ٥٠٣.
(٥) انظر: ١/ ٣١٣ ـ ٣١٦ من البحث.

والثاني: الظهر، وهو داخل في أطراف النهار.

والثالث: العشيّ، وهو الأصيل، ويشمل الوقت قبل غروب الشمس.

والرابع: بعض الليل، ويدخل فيه المساء.

والمناسبة العقدية للتسبيح في هذه الأوقات تظهر من وجهين:

أحدهما: أن تعاقب هذه الأوقات وتتابعها، وما يحدث فيها من الأمور المختلفة شواهد ناطقة بتوحيد الله تعالى وكمال صفاته وعظيم سلطانه، موجبة لتسبيحه وتنزيهه عن النقائص والعيوب والأمثال والشركاء، فناسب أن يستحضر العبد هذه المعاني العقدية في هذه الأوقات، ويكثر من تسبيح الله تعالى فيها(١).

وثانيهما: أن لهذه الأوقات فضائل ومزايا على سائر الأوقات، فالبكرة والعشّي من أطيب أوقات النهار؛ لأنهما وقت سكون ودعة وتعبّد واجتهاد، وما بينهما الغالب فيه الانقطاع إلى أمر المعاش، ولأنهما وقتان مشهودان تشهدهما الملائكة(٢)، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ: «**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم ربّهم ـ وهو أعلم بهم ـ: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون**»(٣).

---

(١) انظر: الإفصاح عن معاني الصحاح، لابن هبيرة: ٤/ ٢٨١، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٤٣٨، وتفسير أبي السعود: ٧/ ٥٤ ـ ٥٥.

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم، لابن رجب: ٢/ ٥٢٥، وتفسير أبي السعود: ٧/ ١٠٦، ومحاسن التأويل، للقاسمي: ٣/ ٦٨٩.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٢/ ٣٣، برقم (٥٥٥)، ومسلم في صحيحه: ١/ ٤٣٩، برقم(٦٣٢).

والظهر ورد أنه وقت تفتح فيه أبواب السماء[١].

والليل ـ بصفة عامة ـ هو وقت اجتماع القلب، وهدوء البال[٢]، كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ۝٦﴾ [المزمل: ٦].

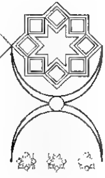
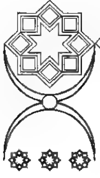
فتبين بهذا أن الله تعالى خصّص هذه الأوقات لشرفها، ولتيسر السير فيها إلى الله ﷻ، فكان التسبيح لله سبحانه فيها من أحسن ما تنهض إليه عقول المؤمنين، وترطُب به ألسنةُ الصالحين، تنزيهاً لله سبحانه وتعظيماً له وثناءً عليه[٣].

---

(١) في حديث عبد الله بن السائب ؓ: «أن رسول الله ﷺ كان يصلّي أربعاً بعد أن تزول الشمس قبل الظهر، وقال: «**إنها ساعة تفتح فيها أبواب السماء، وأحبّ أن يصعد لي فيها عمل صالح**» أخرجه الترمذي في سننه: ٢/ ٣٤٢ ـ ٣٤٣، برقم (٤٧٨)، وقال: «حديث حسن غريب».
قال الشيخ أحمد شاكر ـ تعليقاً عليه ـ: «بل هو حديث صحيح متصل الإسناد رواته ثقات».

(٢) انظر: جامع العلوم الحكم، لابن رجب: ٢/ ٥٢٦، ومحاسن التأويل، للقاسمي: ٥/ ١٣٣.

(٣) انظر: الإفصاح، لابن هبيرة: ٤/ ٢٨١، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٥٦٩.

المبحث الخامس

التّسبيح مطلقاً في الأحوال والأوقات

ولا تقتصر مشروعية التسبيح مفرداً على الأحوال والأوقات المخصوصة التي سبق بيانها، فالتسبيح ـ كما عُلم ـ من ألفاظ ذكر الله تعالى الذي ورد الأمر بالإكثار منه دون قيد بحال أو وقت، كما قال الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الأحزاب: ٤١ ـ ٤٢]، وقد سبق أن التسبيح مندرج في عموم الذكر، ولكنه خُصّص لمزيته[1].

وقال تعالى ـ في وصف أولي الألباب ـ: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١]، وهذا إشارة إلى أنهم يلازمون ذكر الله تعالى في جميع أحوالهم وأوقاتهم[2].

وأيضاً ورد في بعض الآيات القرآنية الأمر بالتسبيح مطلقاً، كقول الله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: ٩٨ ـ ٩٩]، وفي هذه الآية دعوة إلى الاستمرار على العبادة ـ ومنها تسبيح الله تعالى ـ إلى أن يأتي اليقين، وهو الموت[3].

وسبق أن لفظ التسبيح مذكور في كتاب الله تعالى مستوفي من

---

(١) انظر: ١/ ٤٢٥.

(٢) انظر: ما سبق بيانه في ١/ ٣١٧ و٢/ ٣٢ ـ ٣٣.

(٣) انظر: تفسير الطبري: ٧/ ٥٥٤.

جميع جهات التصريف[١]، وأشار بعض المفسّرين إلى أنّ في ذلك إشعاراً بأن التسبيح مطلوب في كل حال، وأنه لا يتقيّد بزمان ولا بمكان[٢]، بل ولا بفاعل معيّن، فقد سبّح الله تعالى نفسه[٣]، وأخبر عن ملائكته الكرام أنهم: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ۝٢٠﴾ [الأنبياء: ٢٠][٤]، وأسند التسبيح إلى جميع الكائنات، فقال سبحانه: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ۝٤٤﴾ [الإسراء: ٤٤]، وفي هذا كله حثّ على التسبيح في جميع الأحوال والأوقات.

وقد رغّب النبي ﷺ أمته في الإكثار من التسبيح، وبيّن وجوهاً كثيرة من فضائله التي سبق بيان جملة منها عند الكلام على فضل التسبيح[٥].

وكان النبي ﷺ أكثر تسبيحاً لله تعالى في ليله ونهاره وفي جميع أحواله، كما سبق بيانه عند الكلام على تسبيح خاتم الأنبياء محمد ﷺ[٦].

ويتبين بهذا تنوّع الأدلة من الكتاب والسنة على مشروعية التسبيح مطلقاً في الأحوال والأوقات، وأنّ على العبد المؤمن أن يحرص على الإتيان بالتسبيح المطلق زيادة على التسبيح الموظّف في الأحوال والأوقات المخصوصة.

ولبيان المناسبة العقدية للتسبيح مطلقاً في الأحوال والأوقات،

---

(١) انظر: ١/ ٤٢٣ ـ ٤٢٤.
(٢) انظر: فتح البيان في مقاصد القرآن، للقنوجي: ١٣/ ٣٩٤.
(٣) سبق بحث تسبيح الله تعالى لنفسه، في ١/ ٢٤٨ ـ ٢٧٢.
(٤) انظر: ما سبق بحثه من تسبيح الملائكة لله تعالى في ١/ ٢٧٢ ـ ٢٩٢.
(٥) انظر: ١/ ٤٢٢ ـ ٤٦٧.
(٦) انظر: ١/ ٣١٠ ـ ٣١٦.

يحسن التذكير بما سبق بحثه من منزلة التّسبيح في العقيدة[١]، فإن فيه بياناً للمعاني والآثار العقدية التي اشتمل عليها التسبيح، والتي بها كان التسبيح من أهمّ الأذكار التي ينبغي للعبد الاعتناء بفهمها، والإكثار من ذكرها، والعمل بمقتضاها.

فيتبين من ذلك أن التسبيح شرع مطلقاً في جميع الأحوال والأوقات ليحقّق به العبد توحيد الله تعالى، وتنزيهه عمّا لا يليق به، وتعظيمه والثناء عليه بما هو أهله. وليكون تزكية للعبد من العقائد الباطلة المنافية لمعنى التسبيح ومفهومه الصحيح.

وهذا يقتضي الإكثار من التسبيح مع الفهم لمعناه، والتحقق به اعتقاداً وقولاً وعملاً، وأن لا يُجعل التّسبيح مُجرَّد لفظ يُردّد باللسان مع الغفلة عن مناسبتها العقدية التي هي لبّه وسرّ مشروعيته، وبالله التوفيق.

---

(١) انظر: ١/٤٧٧ ـ ٥٠٧ من البحث.

الفصل الثالث

مواضع يشرع فيها التّسبيح مقروناً ومناسباتها العقديّة

❑ تمهيد:

لا تقتصر مشروعية التسبيح على مواضعه في الصلاة، ولا على المواضع التي شرع فيها مفرداً، فقد شرع التسبيح في مواضع كثيرة مقروناً بألفاظ الذكر الأخرى، من التّحميد، والتّهليل، والتّكبير، والحوقلة، والاستغفار، ونحو ذلك من الأذكار والأدعية.

ومن الصّعب إحصاء عدد المواضع التي يشرع فيها التسبيح مقروناً، ولكن أمكن بالبحث إحصاء عشرة مواضع للتسبيح المقرون، وسيتمّ ـ بإذن الله ـ بيان كل موضع منها في مبحث مستقلّ مع الاجتهاد في تلمّس المناسبات العقديّة للتسبيحات المشروعة في هذه المواضع.
فهذا الفصل ينتظم عشرة مباحث على النحو التّالي:

المبحث الأول: التسبيح والتحميد والتكبير عند النوم.

المبحث الثاني: التسبيح والتحميد والتكبير والحوقلة والاستغفار والدعاء عند الانتباه من النوم.

المبحث الثالث: التسبيح والتّحميد والتهليل والاستغفار عند الفراغ من الوضوء.

المبحث الرابع: التسبيح والتّحميد والتهليل والتكبير والاستغفار عند الاستواء على المركوب.

المبحث الخامس: التسبيح والتحميد والتكبير عند الإهلال بحجّ أو عمرة.

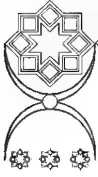
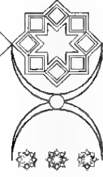
المبحث السادس: التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير والاستغفار والدعاء داخل الكعبة في نواحيها.

المبحث السابع: التسبيح والتحميد والتكبير قبل الدعاء.

المبحث الثامن: التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير والدعاء عند الكسوف.

المبحث التاسع: التسبيح والتهليل والتحميد عند الكرب.

المبحث العاشر: التسبيح والتحميد والتهليل والاستغفار في ختم المجلس.

المبحث الأول

التّسبيح والتّحميد والتّكبير عند النّوم

يُشرع للمسلم إذا أوى إلى فراشه للنوم في الليل أن يسبّح الله تعالى مقروناً بالتحميد والتكبير، كما ثبت الأمر بذلك عن النبي ﷺ في حديث عليّ رضي الله عنه: «أن فاطمة رضي الله عنها شكتْ ما تلقى في يدها من أثر الرّحى، فأُتي النبي ﷺ بسبْي، فأتت النبي ﷺ تسأله خادماً، فلم تجده، فوجدت عائشة فأخبرتها، فلما جاء النبي ﷺ أخبرته عائشة بمجيء فاطمة. قال: فجاء النبي ﷺ إلينا وقد أخذنا مضاجعنا، فذهبنا نقوم، فقال: «**على مكانكما**»، فقعد بيننا حتى وجدت برد قدميه على صدري، فقال: «**ألا أدلّكما على خير مما سألتماني؟ إذا أخذتما مضاجعكما ـ أو أويتما إلى فراشكما ـ فسبّحا ثلاثاً وثلاثين، واحمدا ثلاثاً وثلاثين، وكبّرا أربعاً وثلاثين، فهو خير لكما من خادم**»[(١)].

وفي رواية: أنه ﷺ قال: «**ألا أخبركما بخير مما سألتماني؟**» قالا: «بلى، فقال: «**كلمات علّمنيهنّ جبريل، فقال: تسبحان في دبر كل صلاة عشراً، وتحمدان عشراً، وتكبّران عشراً. وإذا أويتما إلى فراشكما، فسبّحا ثلاثاً وثلاثين، واحمدا ثلاثاً وثلاثين، وكبّرا أربعاً وثلاثين**»»[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٦/ ٢١٥، برقم (٣١١٣) و٧/ ٧١، برقم (٣٧٠٥) و٩/ ٥٠٦، برقم (٥٣٦١) و١١/ ١١٩، برقم (٦٣١٨)، ومسلم في صحيحه: ٤/ ٢٠٩١، برقم (٢٧٢٧).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده: ١/ ١٠٦ ـ ١٠٧، وإسناده حسن، وسبق تخريجه في ١/ ٥٨٥.

وفي رواية أخرى: «قال عليّ: ما تركته منذ سمعته من النبي ﷺ. قيل له: ولا ليلة صفين[١]؟ قال: ولا ليلة صفّين»[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: «أن فاطمة أتت النبي ﷺ تسأله خادماً، وشكتْ العمل. فقال: «ما ألفيتيه عندنا» قال: **«ألا أدلّك على ما هو خير لك من خادم؟ تسبّحين ثلاثاً وثلاثين، وتحمدين ثلاثاً وثلاثين، وتكبرين أربعاً وثلاثين، حين تأخذين مضجعك»**»[٣].

وثبت الترغيب في ذلك أيضاً في حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«خصلتان أو خلّتان لا يحصيهما رجل مسلم إلا دخل الجنة، وهما يسير، ومن يعمل بهما قليل: الصلوات الخمس يسبّح أحدكم في دبر كل صلاة عشراً، ويحمد عشراً، ويكبر عشراً. فذلك خمسون ومائة باللسان، وألف وخمسمائة في الميزان. وإذا أوى أحدكم إلى فراشه أو مضجعه سبّح ثلاثاً وثلاثين، وحمد ثلاثاً وثلاثين، وكبّر أربعاً وثلاثين. فذلك مائة باللسان، وألف في الميزان، فأيّكم يعمل في كلّ يوم وليلة ألفين وخمسمائة سيّئة؟»** قالوا: يا رسول الله، وكيف لا نحصيها؟ قال: **«يأتي أحدكم الشيطان وهو في صلاته، فيقول: اذكر كذا، اذكر كذا، حتّى ينتقل فلا يقولها. ويأتيه في مضجعه، فلا يزال ينوّمه حتّى ينام قبل أن يقولها»**[٤].

---

(١) ليلة صفّين: هي ليلة الحرب المعروفة التي كانت بين عليّ ومعاوية رضي الله عنهما بصفّين ـ وهي موضع بقرب الفرات، بين العراق والشام ـ.
انظر: شرح صحيح مسلم، للنووي: ١٧/ ٤٦، وفتح الباري لابن حجر العسقلاني: ١١/ ١٢٣.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: ٤/ ٢٠٩١ ـ ٢٠٩٢، برقم (٢٧٢٧).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه: ٤/ ٢٠٩٢، برقم (٢٧٢٨).

(٤) سبق تخريجه في ١/ ٥٨٤.

ففي هذه الأحاديث الثلاثة أمر وترغيب في التسبيح والتحميد والتكبير عند النوم بالعدد المذكور لكل من هذه الألفاظ، الذي يصير بالمجموع مائة.

ومما شرع للمسلم أن يذكره من التسبيح المقرون عند النوم ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا أوى أحدكم إلى فراشه، فليأخذ داخلة إزاره**[1]**، فلينفض بها فراشه، وليسمّ الله، فإنه لا يعلم ما خَلَفه بعده على فراشه، فإذا أراد أن يضطجع، فليضطجع على شقّه الأيمن، وليقل: سبحانك اللهمّ ربي، بك وضعتُ جنبي، وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فاغفر لها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين**»[2].

ففي هذا الحديث أمر بالتسبيح مقروناً بالدعاء عند النوم.

وهذه الأحاديث النبوية تدلّ على مشروعية هذه الأذكار عند النوم، وترغيب العبد على الإتيان بها وعدم التهاون فيها.

وأما المناسبة العقدية للتسبيح والتحميد والتكبير عند النوم، فإن النوم دليل على نقص الإنسان وضعفه وافتقاره، ولهذا نزّه الله تعالى نفسه عن ذلك، فقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال رسول الله ﷺ: «**إنّ الله عز وجل لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام**»[3].

(١) قال النووي: «داخلة الإزار: طرفه، ومعناه: أنه يستحبّ أن ينفض فراشه قبل أن يدخل فيه، لئلا يكون فيه حيّة أو عقرب أو غيرهما من المؤذيات، ولينفض ويده مستورة بطرف إزاره، لئلا يحصل في يده مكروه إن كان هناك» [شرح صحيح مسلم: ١٧/ ٣٧ ـ ٣٨].

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: ٤/ ٢٠٨٤ ـ ٢٠٨٥، برقم (٢٧١٤).

(٣) جزء من حديث سبق تخريجه في ١/ ٢٦٠.

ففي التسبيح والتحميد والتكبير عند النوم تنزيه لله تعالى عن النقص الجائز على الإنسان، وثناء عليه بما له من الكمال المطلق المنزّه عن النّقص والعيب والتّمثيل.

وأيضاً فإنّ الله ﷻ هو واهب الحياة، وهو المتصرّف في الأنفس بما يشاء، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزمر: ٤٢].

والتّسبيح والتّحميد والتّكبير عند النوم فيه اعتصام بالله تعالى، واعتراف من العبد بأنه لله وإلى الله، وأنه لا غنى له عن الله تعالى في لحظة من لحظات حياته، وهذا المعنى يظهر جليّاً فيما أمر به الرسول ﷺ عند النوم من قول: «**سبحانك اللهمّ ربّي، بك وضعتُ جنبي، وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فاغفر لها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين**»[١].

فالعبد بدون حفظ الله تعالى ورعايته عرضة للمخاطر والمهالك، لا سيّما في أثناء النوم، ولهذا يكون الشيطانُ عدوُّ الإنسان حريصاً على صرف المسلم عن ذكر الله تعالى عند نومه، كما سبق في حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وكما جاء في حديث آخر عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنّ رسول الله ﷺ **قال**: «**إذا أوى الرّجل إلى فراشه ابتدره مَلَك وشيطان، فيقول الملك: اختم بخير، ويقول الشيطان: اختم بشرّ، فإن ذكر الله ﷻ ونام، بات الملك يكلؤه**»[٢].

---

(١) سبق قريباً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الطبراني في كتاب الدعاء: ٢/٨٨٩، برقم (٢٢٠)، والنسائي في عمل اليوم والليلة: ص٤٨٩ ـ ٤٩٠، برقم (٨٥٣، ٨٥٤)، وصححه ابن حبان ـ الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان ـ: ١٢/٣٤٣، برقم (٥٥٣٣) =

وفي رواية: «**يقول الشيطان: افتح بشرّ، ويقول الملك: افتح بخير، فإن ذكر الله، ذهب الشيطان ويأت الملك ويكلؤه**»[(١)].

فينبغي للمسلم أن يغالب عدوّه، فيحرص على ذكر الله تعالى عند النوم، ومن الفوائد الخاصة للتسبيح والتحميد والتكبير عند النوم ما نقله الإمام ابن قيم الجوزية عن شيخ الإسلام ابن تيمية أنّه قال: «بلغنا أنه من حافظ على هذه الكلمات، لم يأخذه إعياء فيما يعانيه من شغل وغيره» اهـ[(٢)].

ويستفاد ذلك من تعليم النبي ﷺ هذه الكلمات لابنته فاطمة، وزوجها عليّ رضي الله عنهما، وقوله ﷺ لهما: «**هو خير لكما من خادم**»، وذلك لأن الذّكر ـ كما قال ابن القيم ـ «يعطي الذاكر قوّة، حتّى إنه ليفعل مع الذّكر ما لم يظنّ فعله بدونه». قال: «وقد شاهدتُ من قوّة شيخ الإسلام ابن تيمية في سننه وكلامه وإقدامه وكتابه أمراً عجيباً، فكان يكتب في اليوم من التصنيف ما يكتبه الناسخ في جمعه وأكثر، وقد شاهد العسكر من قوّته في الحرب أمراً عظيماً، وقد علّم النبي ﷺ ابنته فاطمة وعليّاً رضي الله عنهما أن يسبحا كلّ ليلة إذا أخذا مضجعهما ـ ثلاثاً وثلاثين ـ، ويحمدا ـ ثلاثاً وثلاثين ـ، ويكبّرا ـ أربعاً وثلاثين ـ، لما سألته الخادمَ، وشكت إليه ما تقاسيه من الطحن والسعي والخدمة، فعلمهما ذلك، وقال: «**إنه خير لكما من خادم**»، فقيل: إن من داوم على ذلك وجد قوّة في يومه مغنيه عن خادم» اهـ[(٣)].

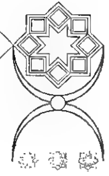
وهكذا يتبيّن ما في التسبيح والتحميد والتكبير عند النوم من المعاني العقدية، والفوائد الدنيوية والأخرويّة، والله تعالى الموفّق.

= والحاكم في المستدرك: ١/ ٧٣٣، برقم (٢٠١١)، ووافقه الذهبي.

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، كما هو مبيّن في الهامش قبله.

(٢) الوابل الصيّب من الكلم الطيّب: ص١٣٢ ـ ١٣٣.

(٣) المصدر السابق: ص١٠٦.




المبحث الثاني

التّسبيح والتّحميد والتّهليل والتّكبير والحوقلة والاستغفار والدّعاء عند الانتباه من النّوم

يُستدلّ على مشروعية التسبيح خاصّة عند الانتباه من النوم بقول الله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الطور: ٤٨].

فقد ورد في التفسير المأثور عن بعض السلف أنّ معنى هذه الآية: «سبّح الله إذا قمت من نومك»، أو «إذا قمت من نومك، فقل: سبحان الله وبحمده»(١).

وهذا أحد الأقوال في معنى هذه الآية(٢)، وقد تقدّم الاستدلال بها في التسبيح في افتتاح الصلاة(٣)، بناءً على قول آخر في معناها.

وثبتت مشروعية التسبيح مقروناً بالتحميد والتهليل والتكبير والحوقلة والاستغفار والدّعاء عند الانتباه من النوم في السنة النبوية، كما في حديث عبادة بن الصامت(٤) رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«من**

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ١١/ ٥٠٠، وزاد المسير، لابن الجوزي: ٨/ ٦٠، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٤/ ٢٦٢، والدر المنثور، للسيوطي: ٦/ ١٥١.

(٢) انظر: بقية الأقوال في الآية في: زاد المسير: ٨/ ٦٠.

(٣) انظر: ١/ ٥١٤.

(٤) هو عبادة بن الصامت بن قيس الأنصاري الخزرجي، أبو الوليد، المدني صحابي مشهور، وهو أحد النقباء، شهد المشاهد كلها، وتوفي سنة (٣٤هـ) وقيل: عاش إلى خلافة معاوية، فتوفي سنة (٤٥هـ) رضي الله عنه. =

تعارّ[١] من اللّيل فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. الحمد لله، وسبحان الله، ولا إله إلا الله والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله. ثم قال: اللهم اغفر لي ـ أو دعا ـ استجيب، فإن توضأ قبلت صلاته»[٢].

ففي هذا الحديث الحثّ والترغيب في هذا الذكر المشتمل على التسبيح والتهليل والتحميد والتكبير والاستغفار والدعاء، عند الانتباه من النوم في الليل، وظاهر الحديث اختصاص ذلك بنوم الليل، والله تعالى أعلم.

وفي الأثر: «أنّ سلمان[٣] كان إذا تعارّ من الليل قال: سبحان ربّ النبيّين والمرسلين»[٤].

والمناسبة العقدية لهذه الأذكار عند الانتباه من النوم هي أن الإنسان في أثناء نومه يفقد وعيه ويغيب عن عقله، كما جاء في الحديث: «**النوم أخو الموت**»[٥]، ولهذا يرفع القلم عن النائم حتى

= انظر: الإصابة، لابن حجر العسقلاني: ٣/ ٦٢٤ ـ ٦٢٦، وتقريب التهذيب، له: ١/ ٣٧٦.

(١) تعارّ ـ بمهملة وراء مشددة ـ: استيقظ. وقيل: يقال ذلك إذا كان الاستيقاظ مع صوت. وفي القاموس: «التعارّ: السّهر والتقلب على الفراش ليلاً مع الكلام». [القاموس المحيط، للفيروزآبادي/ مادة (عرر): ص٥٦٣]. وانظر: فتح الباري، لابن حجر العسقلاني: ٣/ ٤٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٣/ ٣٩، برقم (١١٥٤).

(٣) هو سلمان الفارسي الصحابي المشهور، رضي الله عنه.

(٤) رواه ابن أبي شيبه في مصنفه: ١٠/ ٢٢٣ ـ ٢٢٤، برقم (٩٢٨٨).

(٥) ورد من حديث جابر، وعبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنهما مرفوعاً.

وقد أورده الألباني في صحيح الجامع، برقم (٦٨٠٨)، وخرّجه بطرقه المختلفة في السلسلة الصحيحة: ٣/ ٧٤ ـ ٧٨، برقم (١٠٨٧).

يستيقظ، كما جاء ذلك أيضاً في الحديث عن عليّ رضي الله عنه[(١)]، فحسُن بالإنسان المسلم إذا انتبه من نومه، وعاد إليه وعيه وعقله، أن يذكر ربّه وإلهه الذي أنعم عليه بالحياة والعقل، ويجدّد توحيده وتعظيمه وتنزيهه عن كلّ ما لا يليق به، ويعترف بتقصيره في حقّ ربّه عز وجل، فيلهج بالتهليل والتسبيح والتحميد والتكبير والحوقلة ويستغفر الله تعالى، ويسأله المزيد من العلم والثبات على الهدى وعموم الرحمة في الدنيا والأخرى.

وهذه الكلمات الواردة في الحديث السابق، إذا تأملها العبد المسلم وجدها محتوية على جماع معاني العقيدة الإسلامية، وعلى منتهى مطالب النفس المؤمنة، ولذا أخبر الرسول ﷺ أنّ المستيقظ من الليل إذا افتتح بها كلامه، كان ذلك سبباً لإجابة دعائه، ولقبول صلاته إذا توضأ وصلّى بعد ذلك[(٢)].

وقد بيّن شيئاً من هذه المعاني العقدية ابن بطال[(٣)] في شرحه لحديث عبادة الصامت رضي الله عنه الذي سبق ذكره، فقال: «حديث عبادة شريف عظيم القدر، وفيه ما وعد الله عباده على التيقظ من نومهم لهجةً ألسنتهم بشهادة التوحيد له والربوبية والإذعان له بالملك، والاعتراف له بالحمد على جزيل نعمه التي لا تحصى، رطبةً أفواههم بالإقرار له

---

(١) انظر: سنن أبي داود: ٣/ ٥٦٠، حديث رقم (٤٤٠٣)، وسنن الترمذي: ٤/ ٢٤، حديث رقم (١٤٣٣).

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٢/ ٤٧٩.

(٣) هو علي بن خلف بن بطال البكريّ، أبو الحسن، القرطبي ثم البلنسيّ، يعرف بابن اللّجّام، كان من أهل العلم والمعرفة، وكان من كبار المالكية، وله عناية بالحديث، وشرح صحيح البخاري، وتوفي سنة (٤٤٩هـ)، رحمه الله.
انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: ١٨/ ٤٧ ـ ٤٨.

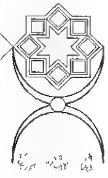
بالقدرة التي لا تتناهى، مطمئنة قلوبهم بحمده وتسبيحه وتنزيهه عما لا يليق بالإلهيّة من صفات النقص، والتسليم له بالعجز عن القدرة عن نيل شيء إلا به تعالى.

فإنه وعد بإجابة دعاء من بهذا دعاه، وقبول صلاة من بعد ذلك صلّى، وهو تعالى لا يخلف الميعاد، وهو الكريم الوهاب.

فينبغي لكل مؤمن بلغه هذا الحديث أن يغتنم العمل به، ويخلص نيّته لربّه العظيم أن يرزقه حظّاً من قيام الليل، فلا عون إلا به، ويسأله فكاك رقبته من النار، وأن يوفّقه لعمل الأبرار، ويتوفّاه على الإسلام» اهـ(١).

---

(١) شرح صحيح البخاري: ٣/ ١٤٧ ـ ١٤٨.

المبحث الثالث

التّسبيح والتّحميد والتهليل والاستغفار عند الفراغ من الوضوء

ويشرع للمسلم بعد فراغه من وضوئه أن يسبّح الله تعالى مقروناً بحمده وتهليله واستغفاره، كما جاء في حديث أبي سعيد الخدري[1] رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من توضّأ فأسبغ الوضوء، ثم قال ـ عند فراغه من وضوئه ـ: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله أنت، أستغفرك وأتوب إليك، كتب في رقّ، ثم طبع بطابع فلم يُكسَر إلى يوم القيامة**[2]»[3].

---

(١) هو سعد بن مالك بن سنان بن عبيد الأنصاري، أبو سعيد الخدري الخزرجي، له ولأبيه صحبة، واستصغر في غزوة أحد، ثم شهد ما بعدها، وكان من أفقه أحداث الصحابة ومن أكثرهم رواية للحديث، وتوفي بالمدينة سنة (٦٣، أو ٦٤، أو ٦٥، أو ٧٤هـ) على خلاف، رضي الله عنه.

انظر: الإصابة، لابن حجر: ٣/٧٨ ـ ٨٠، وتقريب التهذيب، له: ١/ ٢٨١.

(٢) قال الشوكاني: «قوله: (في رقّ) هو ما يكتب فيه من جلد أو غيره. والطابع ـ بفتح الباء ـ: هو الخاتم، وكسر الباء لغة. والمعنى: أنه يختم على ذلك المكتوب في الرّقّ فلا يتطرق إليه تغيير ولا إبطال» [تحفة الذاكرين: ص١٤٧].

(٣) أخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة: ص١٧٣، برقم (٨١) مرفوعاً، وبرقم (٨٢) موقوفاً على أبي سعيد، وفي ص١٧٤، برقم (٨٣) موقوفاً أيضاً. والطبراني في الدعاء: ٢/ ٩٧٥، برقم (٣٨٨، ٣٨٩) مرفوعاً، و٢/ ٩٧٦، برقم (٣٩١) موقوفاً. وابن السنّي في عمل اليوم والليلة: ص٣٦ ـ ٣٧، برقم =

ففي هذا الحديث ترغيب في هذا الذكر عقب الوضوء، وبيان لفضله.

والمناسبة العقدية لمشروعية هذا الذكر عقب الوضوء هي: أن الوضوء طهارة للبدن بالماء، والتسبيح والتحميد والتهليل والاستغفار طهارة للقلب بالتوحيد والتنزيه والثناء الجميل لله تعالى، والتوبة إليه سبحانه. فكما أنّ طهارة البدن هي بالماء الطاهر المطهّر، فكذلك طهارة القلب هي باعتقاد ما دلّت عليه كلمات هذا الذكر من تنزيه الله تعالى عن كلّ ما لا يليق به من النقائص والعيوب، والتمثيل والشرك، ووصفه سبحانه بما يليق به من الكمالات، والإقرار بأنه وحده المستحقّ للعبادة دون كلّ ما سواه، والإنابة إليه بالتوبة والاستغفار من سيّئات الأعمال وشرور النفس، فلا طهارة للقلب ولا نجاة للإنسان إلا بهذه الأصول الاعتقادية، كما قال الله ﷻ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨ ـ ٨٩]، أي: يوم لا ينفع إلا القلب السليم(١)، وهو القلب السالم من الدّنس والشّرك والشكّ في توحيد الله تعالى(٢)، وهو قلب المؤمن الصحيح المعتقد الخالص من البدعة المطمئن إلى السنة(٣).

فإذا توضأ المسلم وأسبغ الوضوء، ثم أتى بهذا الذكر الوارد في الحديث، مع الفهم الصحيح لمعناه، والاعتقاد التّام له، فقد اجتمعت له الطهارتان: طهارة البدن، وطهارة القلب، وصلح عندئذ للدخول على الله تعالى والوقوف بين يديه ومناجاته ﷻ.

ومثل ذلك ما جاء في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي ﷺ

= (٣٠) مرفوعاً. ورجّح النسائي الرواية الموقوفة على المرفوعة، وصحّح الحاكم الرواية المرفوعة في المستدرك: ١/ ٧٥٢ ـ ٧٥٣، برقم (٢٠٧٢)، وكذا الألباني في صحيح الجامع، برقم (٦١٧٠).

(١) انظر: تفسير الطبري: ٩/ ٤٥٤.

(٢) انظر: المصدر السابق، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٣٥٢.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٣٥٢.

قال: «**ما منكم من أحد يتوضأ فُيبلِغ ـ أو فيسبغ ـ الوضوء، ثم يقول: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبد الله ورسوله»، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية، يدخل من أيها شاء**»[١].

وفي رواية: «**من توضأ فأحسن الوضوء، ثم قال: «أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. اللهم اجعلني من التوابين، واجعلني من المتطهّرين»، فتحت له ثمانية أبواب الجنة، يدخل من أيها شاء**»[٢].

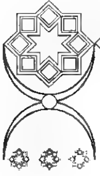
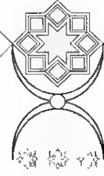
وذهب الإمام النووي إلى استحباب ضمّ هذا الذكر إلى الذكر الوارد في حديث أبي سعيد السابق، واستحباب هذه الأذكار للمغتسل أيضاً، والله أعلم[٣].

وقال الإمام ابن قيم الجوزية: «والله سبحانه بحكمته جعل الدخول عليه موقوفاً على الطهارة، فلا يدخل المصلّي عليه حتى يتطهّر، وكذلك جعل الدخول إلى جنّته موقوفاً على الطّيب والطّهارة، فلا يدخلها إلا طيّب طاهر، فهما طهارتان: طهارة البدن، وطهارة القلب.

ولهذا شرع للمتوضّىء أن يقول ـ عقيب وضوئه ـ: (أشهد أن لا إله إلّا الله، وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله، اللهم اجعلني من التوّابين، واجعلني من المتطهّرين)، فطهارة القلب بالتوبة، وطهارة البدن بالماء، فلما اجتمع له الطّهران صلح للدخول على الله تعالى، والوقوف بين يديه ومناجاته» اهـ[٤].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: ١/ ٢٠٩ ـ ٢١٠، برقم (٢٣٤)، وهذا جزء منه.
(٢) أخرجه الترمذي في سننه: ١/ ٧٧ ـ ٧٨، برقم (٥٥)، وهو صحيح. انظر: صحيح الجامع، للألباني، برقم (٦١٦٧)، وإرواء الغليل، له: ١/ ١٣٤، برقم (٩٦).
(٣) انظر: شرح صحيح مسلم، للنووي: ٣/ ١٢١.
(٤) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان: ١/ ١١٤.

المبحث الرابع

التّسبيح والتّحميد والتّهليل والتّكبير والاستغفار عند الاستواء على المركوب

ويُشرع للمسلم إذا ركب مركوباً من دابة، أو سفينة، أو سيّارة، أو طائرة، أو غيرها من وسائل النقل، أن يسبّح الله تعالى مقروناً بالحمد والتهليل والتكبير والاستغفار.

وذلك امتثالاً وتحقيقاً لقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الزخرف: ١٢ ـ ١٤].

ففي هذه الآيات يُذكّر الله سبحانه عباده بما خلق من أصناف المخلوقات كلّها(١)، ويمتنّ عليهم بما جعله لهم من أنواع المراكب التي يركبونها في البحر والبرّ إلى حيث قصدوا في الأرض لمعايشهم ومطالبهم(٢)، ويعلّمهم ما يقولون إذا استقروا على ظهور المراكب من تسبيحه وشكره على نعمه التي منها تسخيره هذه المراكب للناس، والتي لولاه سبحانه ما أطاقوها ولا ضبطوها، لا في الأيدي ولا في القوّة(٣)،

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٦/٦٥، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٧٦٣.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ١١/١٧٠.

(٣) انظر: المصدر السابق: ١١/١٧١ ـ ١٧٢، والجامع لأحكام القرآن، =

ولكنه تعالى من لطفه وكرمه سخّرها وذلّلها ويسّر أسبابها(١)، وهذا معنى قوله ﷻ: ﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ أي: «وما كنا له مطيقين ولا ضابطين»(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ أي: «وليقولوا أيضاً: وإنا إلى ربنا من بعد مماتنا لصائرون إليه راجعون»(٣).

وقد جاء في السنة المشرّفة تحقيق ما أرشد الله تعالى إليه عباده في هذه الآيات، فعن عليّ بن ربيعة(٤) قال: «شهدت عليّاً رضي الله عنه أتي بدابة ليركبها فلما وضع رجله في الرّكاب(٥) قال: (بسم الله)، فلما استوى على ظهرها، قال: (الحمد لله)، ثم قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾، ثم قال: (الحمد لله) ثلاث مرات، ثم قال: (الله أكبر) ثلاث مرات، ثم قال: (سبحانك إني ظلمتُ نفسي، فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت)، ثم ضحك. فقيل: يا أمير المؤمنين، من أي شيء ضحكت؟ قال: رأيت النبي ﷺ فعل كما فعلت ثم ضحك، فقلت: يا رسول الله، من أي شيء ضحكت؟ قال: «**إنّ ربّك يعجب من عبده إذا قال: اغفر**

= للقرطبي: ١٦/ ٦٦.

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن للسعدي: ص٧٦٣.

(٢) تفسير الطبري: ١١/ ١٧١.

(٣) تفسير الطبري: ١١/ ١٧٢.

(٤) هو علي بن ربيعة بن نَضْلة الوالبي ـ بلام مكسورة وموحدة ـ، أبو المغيرة، الكوفي تابعي ثقة، ولم يُذكر تاريخ وفاته، رحمه الله تعالى.
انظر: تقريب التهذيب، لابن حجر: ٢/ ٤٢.

(٥) الركاب ـ ككتاب ـ: هو للسرج كالغرز من الرَّحْل، وهو ما توضع فيه الرِّجْل، وجمعه: ركب ـ ككتب ـ، وركائب. وانظر: القاموس المحيط، للفيروزآبادي/ مادة (ركب): ص١١٧، والمعجم الوسيط/ مادة (ركب): ١/ ٣٦٨.

لي ذنوبي، يعلم أنه لا يغفر الذنوب غيري»»[١].

وفي رواية زيادة التهليل: «ثم قال: (سبحانك، لا إله إلا أنت، قد ظلمت نفسي...)»[٢]. أو قال: (لا إله إلا أنت سبحانك، إني قد ظلمت نفسي...)[٣].

وفي هذا الحديث دليل على مشروعية التسمية عند الشروع في الرّكوب، ثم التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير والاستغفار، عند الاستواء على المركوب بالكيفية الواردة في الحديث لفظاً وعدداً، ويستوي في ذلك الركوب لسفر أو لغير سفر، ولهذا ترجم الإمام أبو داود لهذا الحديث بـ (باب ما يقول الرّجل إذا ركب)[٤]، فلم يقيّد.

وجاء في السنة أيضاً من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجاً إلى سفر، كبّر ثلاثاً، ثم قال: **«سبحان الذي سخّر لنا هذا وما كنا له مقرنين. وإنّا إلى ربّنا لمنقلبون. اللهمّ إنّا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى. اللهمّ هوّن علينا سفرنا هذا، واطو عنّا بعده. اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل. اللهمّ إنّي أعوذ بك من**

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه: ٣/ ٧٧، برقم (٢٦٠٢)، والترمذي في سننه: ٥/ ٤٦٧، برقم (٣٤٤٦)، والنسائي في عمل اليوم والليلة: ص٣٤٩، برقم (٥٠٢).

وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح»، وصححه الحاكم في المستدرك: ٢/ ١٠٨، برقم (٢٤٨٢)، ووافقه الذهبي، وصححه النووي في الأذكار: ص٣٥٦.

(٢) هذه رواية الإمام أحمد في مسنده: ١/ ٩٧.

(٣) هذه رواية الحاكم في المستدرك: ٢/ ١٠٨، برقم (٢٤٨٢).

(٤) سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب رقم (٨١).

وعثاء[١] **السفر، وكآبة المنظر**[٢]**، وسوء المنقلب في المال والأهل»**. وإذا رجع قالهنّ، وزاد فيهنّ: «**آيبون، تائبون، عابدون، لربّنا حامدون**»»[٣].

وهذا الحديث ظاهر في أنه يقال عند الركوب للسفر، ولهذا عنون له الإمام النووي في شرح صحيح مسلم، بـ (باب استحباب الذكر إذا ركب دابته متوجّهاً لسفر حجّ أو غيره)[٤].

ولهذه الأذكار الواردة عند الاستواء على المركوب لسفر أو لغيره مناسبة عقدية من أوجه عدة:

أحدها: أن ركوب الدّابّة ونحوها من المركوبات قد اجتمع فيه أنّه موضع عال يستوي عليه الرّاكب، وأنه موضع نعمة، فعلوّ العبد يقتضي تكبيره لله العليّ الأعلى، فشرع التكبير في هذا الموضع ليقرّ به العبد الكبرياء لله ﷻ، ويستحضر علوّه على خلقه واستواءه على عرشه بائناً من خلقه. وشرع مع التكبير التهليل؛ لأن التهليل قرين التكبير.

والنعمة تقتضي ذكرها وشكرها، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ١٣]، وذكرها بحمدها، فشرع الحمد في هذا الموضع، وشرع معه التسبيح الذي هو قرين الحمد. وختم ذلك بالاستغفار؛ لأنه مقرون بالتوحيد، فقد رتّب اقتران الاستغفار بالتوحيد

---

(١) الوعثاء ـ بفتح الواو، وإسكان العين المهملة، وبالثاء المثلثة، وبالمد ـ: هي المشقة والشدة [شرح صحيح مسلم، للنووي: ٩/ ١١١].

(٢) الكآبة ـ بفتح الكاف وبالمد ـ: وهي تغيّر النفس بالانكسار من شدة الهمّ والحزن. انظر: النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير: ٤/ ١٣٧، والمصدر قبله أيضاً.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه: ٢/ ٩٧٨، برقم (١٣٤٢).

(٤) شرح صحيح مسلم: ٩/ ١١٠.

في غير موضع من كتاب الله تعالى، كقوله: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد: ١٩].

فكان الذّكر المشروع عند الاستواء على المركوب مشتملاً على الكلمات الأربع الباقيات الصالحات مع الاستغفار[١].

والثاني: أنّ الله تعالى أمر بقول: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ بعد الاستواء على المركوب، وفي هذا القول تنزيه الله سبحانه من كل سوء، وإضافة نعمة المركوب إليه تعالى، مع الاعتراف بعجز العباد عن إطاقة هذه النعمة بدون تسخيره ﷻ وتيسيره لها، ثم تذكّر العاقبة في هذه الحالة، والإيقان بأن مصير العباد ومنتهاهم إلى الله تعالى.

قال أبو عبد الله القرطبي: «لمّا كان الركوب مباشرة أمر مخطور، واتصالاً بأسباب من أسباب التلف، أمر ألّا ينسى عند اتّصاله به يومه، وأنه هالك لا محالة فمنقلب إلى الله ﷻ غير منفلت من قضائه، ولا يدع ذكر الله بقلبه ولسانه حتّى يكون مستعدّاً للقاء الله بإصلاحه من نفسه، والحذر من أن يكون ركوبه ذلك من أسباب موته ـ في علم الله ـ وهو غافل عنه»[٢].

وقال بدر الدين العيني[٣]: «فإن قلت: ما الحكمة بين القولين

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٤/ ٢٤٠ ـ ٢٤١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٦/ ٦٧.

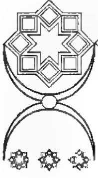
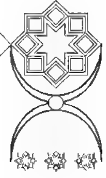
(٣) هو محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين العينتابي الحلبي ثم القاهري، بدر الدين، أبو الثناء وأبو محمد، المعروف بالعينيّ، ولد سنة (٧٦٢هـ) وكان بارعاً في أنواع من العلوم، كثير التصانيف فيها، كما أنه أفتى ودرّس وتقلّد عدة وظائف دينية، منها قضاء قضاة الحنفية بالديار المصرية، ومن تصانيفه المعروفة: «عمدة القاري في شرح صحيح البخاري»، و«البناية في شرح الهداية» في الفقه الحنفي، وتوفي بالقاهرة سنة (٨٥٥هـ)، رحمه الله. =

وهما: (سبحان الذي) إلى آخره، وقوله: ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ۝١٤﴾؟ قلت: إن الله لمّا لقّن عبده شكر ما أنعم عليه من التسخير والتمليك، وأمره بالاعتراف لكونه قاصراً عن تسخير ما سخّر له من مراكب البرّ والبحر، بل الله بفضله ورحمته سخّر له ذلك وأعانه عليه، جعل من تمام شكره أن يتذكّر عاقبة أمره، ويعلم أنّ استواءه على مركب الحياة كاستوائه على ظهر ما سخّر له، لم يكن في المبدأ مطيقاً له، ولا يجد في المنتهى بدّاً من النزول عنه، ثمّ ليتذكّر بركوب مركب الأحياء ومنه معدل ركوب مركب الأموات، ولا محيد عنه» اهـ[1].

والثالث: إنه قد شرع للعبد المسلم أن يقول عند الركوب للسفر ـ مع ما أمر الله تعالى بقوله ـ الدعاء الوارد في حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ليكون في سفره مستحضراً معيّة الله تعالى له بعلمه ورؤيته، فهو الصاحب في السفر، وهو الخليفة في الأهل، وهو الذي يتولّى عبده ويعيذه من السّوء في سفره وفي رجوعه، وليكون العبد باعتقاده لهذه المعاني واستحضاره لها ملازماً في سفره وإقامته البرّ والتقوى، والعمل بما يرضي الله ﷻ، سائلاً إيّاه العون على ذلك، فإنه تعالى هو الموفّق والهادي إلى سواء السبيل.

= انظر: البدر الطالع، للشوكاني: ٢/ ٢٩٤ ـ ٢٩٥، ومعجم المؤلفين، لعمر رضا كحالة: ٣/ ٧٩٧ ـ ٧٩٨.

(١) العلم الهيب في شرح الكلم الطيب: ص٤٣٧.

المبحث الخامس

التّسبيح والتّحميد والتّكبير عند الإهلال(١) بحجّ أو عمرة



الحجّ والعمرة عبادتان من أعظم عبادات الإسلام، تتطلبان جهداً بدنيّاً ونفقة مالية؛ لأنهما رحلتان مشروعتان إلى بيت الله العتيق وحرمه الشريف في مكة المكرمة، لإقامة شعائر التّعبّد لله تعالى، ولإحياء مناهج الأسوة بالأنبياء والمرسلين.

وقد شرع الله تعالى لمن قصد بيته الحرام لحجّ أو عمرة أن يهلّ بهما في مكان محدّد قبل الوصول إلى البيت، وهو الإحرام من الميقات المبيَّن أحكامه في كتب الفقه.

ودلّت السنة النبوية على مشروعية التسبيح والتحميد والتكبير عند الإهلال بالحجّ أو العمرة، لما ثبت عن أنس رضي الله عنه أنه قال ـ وهو يحكي شيئاً من حجّة النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه رضي الله عنهم ـ فقال: «صلّى رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن معه بالمدينة ـ الظهر أربعاً، وصلّى العصر بذي

---

(١) الإهلال: مصدر أهلّ. قال الإمام البخاري: «أهلّ: تكلّم به، واستهللنا وأهللنا الهلال: كله من الظهور. واستهلّ المطر: خرج من السّحاب» [صحيح البخاري ـ مع الفتح ـ، كتاب الحج، باب كيف تهلّ الحائض والنفساء: ٣/ ٤١٥].

ونقل الحافظ ابن حجر عن الطبري قوله: «الإهلال هنا: رفع الصوت بالتلبية، وكلّ رافع صوته بشيء، فهو مهلّ به» [فتح الباري: ٣/٤٠٨].

الحُلَيفة[١] ركعتين، ثم بات بها حتى أصبح، فلما صلّى الصّبح ركب راحلته حتّى استوتْ به على البيداء[٢]، حمد الله وسبّح وكبّر، ثم أهلّ بحجّ وعمرة، وأهلّ الناس بهما، فلمّا قدمنا مكة أمر الناس فحلّوا[٣]، حتى كان يوم التروية[٤] أهلّوا بالحجّ» الحديث[٥].

وهذا الحديث ترجم عليه الإمام البخاري بـ (باب التّحميد والتّسبيح والتّكبير قبل الإهلال عند الركوب على الدّابّة)[٦].

وقال الحافظ ابن حجر ـ في الشرح ـ: «وقوله: (عند الركوب) أي: بعد الاستواء على الدّابّة، لا حال وضع الرجل مثلاً في الرّكاب، وهذا الحكم ـ وهو استحباب التسبيح وما ذكر معه قبل الإهلال ـ قلّ من تعرّض لذكره مع ثبوته. وقيل: أراد المصنّف الرّدّ على من زعم أنه يكتفي بالتسبيح وغيره عن التلبية، ووجه ذلك أنّه ﷺ أتى بالتسبيح وغيره ثم لم يكتف به حتّى لبّى» اهـ[٧].

وفي كلام الحافظ هذا إشارة إلى خفاء سنة التسبيح مقروناً بالتحميد والتكبير عند الإهلال بالحجّ أو العمرة على كثير من الناس، لقلّة تعرّض العلماء لذكرها، وقد دلّ الحديث السابق على أن ذلك سنة النبي ﷺ.

---

(١) ذو الحليفة: هو ميقات أهل المدينة.

(٢) البيداء: الفلاة، وهذه البيداء كائنة فوق علمي ذي الحليفة لمن صعد من الوادي. وانظر: فتح الباري: ٣/ ٤٠١.

(٣) أي: حلّوا من الإحرام بعد أداء العمرة، فصاروا متمتعين بالعمرة إلى الحجّ، وهذه هي السنة في حق من لم يسق الهدي إلى مكة في الحجّ.

(٤) هو اليوم الثامن من ذي الحجة، سمّي بذلك لأنهم كانوا يرتوون فيه من الماء لما بعد. انظر: القاموس المحيط، للفيروزآبادي/ مادة (روي): ص١٦٦٥.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٣/ ٤١١ ـ ٤١٢، برقم (١٥٥١).

(٦) صحيح البخاري، كتاب الحج، باب رقم (٢٧).

(٧) فتح الباري: ٣/ ٤١٢.

ولعلّ السبب في خفاء هذه السنة على الكثير راجع إلى أن أكثر الأحاديث الواردة في بيان حجّ النبي ﷺ لم تذكر هذه السنة، وإنما ورد ذكرها في حديث أنس هذا، وقد نبّه على هذا الإمام أبو داود في سننه، فقال ـ بعد رواية الحديث ـ: «الذي تفرّد به ـ يعني أنساً ـ من هذا الحديث أنه بدأ بالحمد والتّسبيح والتكبير، ثم أهلّ بالحجّ» اهـ[1].

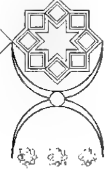
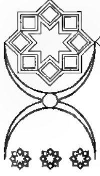
وهذه فائدة تدلّ على أهمية هذا الحديث، وتميّز أنس رضي الله عنه في رواية هذا الحديث عن النبي ﷺ، ولا غرو فهو خادم رسول الله ﷺ الملازم له في أغلب الأوقات، فيتمكّن من الاطّلاع على ما لم يطلّع عليه غيره من الصحابة رضي الله عنهم من أفعال النبي ﷺ وأقواله.

فهذا الحديث دليل على أنّ الحاجّ أو المعتمر يُسنّ له أن يحمد الله تعالى ويسبّحه ويكبّره قبل أن يهلّ بالحجّ أو العمرة.

والمناسبة العقدية لذلك تظهر من أن كلّاً من الحج والعمرة رحلة لزيارة بيت الله الحرام والمشاعر المقدّسة، لأداء أنواع من العبادات عندها، فحسن أن يبدأ المسلم هذه العبادات بالحمد لله تعالى ثناء عليه بما له من الأسماء الحسنى والصفات العلى، وبالتّسبيح تنزيهاً لله تعالى من كل ما لا يليق بكمال أسمائه وصفاته من النقائص والعيوب والشرك والتمثيل، وبالتكبير إجلالاً لله تعالى وإقراراً بأنه سبحانه أكبر من كل شيء، وأعلى من كل غاية يقصدها العبد. وأن يستحضر المسلم هذه المعاني العقدية في حجّه وعمرته، فيخلص لله تعالى في جميع العبادات، ويؤديها على وفق سنة رسول الله ﷺ، ويشكر الله تعالى على توفيقه له إلى زيارة بيته الحرام، وإلى أداء مناسك الحجّ والعمرة امتثالاً لأمر الله تعالى، واقتداءً برسوله ﷺ، والله تعالى أعلم.

---

(١) سنن أبي داود: ٢/٣٩٢، عقب حديث رقم (١٧٩٦).

المبحث السادس

التّسبيح والتحميد والتّهليل والتّكبير والاستغفار والدّعاء داخل الكعبة في نواحيها

الكعبة المشرّفة هي قبلة المسلمين، ومهوى أفئدتهم أينما كانوا في مشارق الأرض ومغاربها، وهي أول بيت وضع في الأرض لعبادة الله تعالى وحده لا شريك له. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران: ٩٦]، وقال سبحانه: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧]، وسمّي البيت كعبة لكونه مربّعة الشّكل[١].

وثبت في السّنة النّبويّة أنّ النبي ﷺ دخل في الكعبة فسبّح الله تعالى وحمده وهلّله وكبّره واستغفره وسأله، كما جاء في حديث أسامة بن زيد[٢] رضي الله عنهما: «أنه دخل هو ورسول الله ﷺ البيت، فأمر بلالاً[٣]

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٥/ ٧٧.

(٢) هو أسامة بن زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبّي، أبو محمد، وأبو زيد، الحبّ ابن الحبّ، أمه أم أيمن حاضنة النبي ﷺ، ولد في الإسلام، ومات رسول الله ﷺ وله عشرون سنة، وقيل: ثماني عشرة، اعتزل الفتن بعد مقتل عثمان رضي الله عنه، إلى أن توفي في أواخر خلافة معاوية سنة (٥٤هـ)، وله فضائل كثيرة، رضي الله عنه.
انظر: الإصابة، لابن حجر العسقلاني: ١/ ٤٩.

(٣) هو بلال بن رباح الحبشي المؤذّن، وهو ابن حمامة، وهي أمه، أبو عبد الله، مولى أبي بكر الصديق، من السابقين الأولين، شهد مع النبي ﷺ جميع المشاهد، وخرج مجاهداً بعد وفاته ﷺ إلى أن توفي بالشام في خلافة عمر =

فأجاف[١] الباب، والبيت إذ ذاك على ستّة أعمدة، فمضى حتّى إذا كان بين الأسطوانتين[٢] اللتين تليان باب الكعبة، جلس فحمد الله وأثنى عليه، وسأله واستغفره، ثم قال حتّى أتى ما استقبل من دبر الكعبة، فوضع وجهه وخدّه عليه، وحمد الله وأثنى عليه، وسأله واستغفره، ثم انصرف إلى كلّ ركن من أركان الكعبة، فاستقبله بالتّكبير والتّهليل والتّسبيح والثّناء عليه، والمسألة والاستغفار، ثم خرج فصلّى ركعتين مستقبل وجه الكعبة، ثم انصرف، فقال: «**هذه القبلة، هذه القبلة**[٣]»[٤].

وفي رواية أخرى عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: «دخل رسول الله ﷺ الكعبة، فسبّح في نواحيها وكبّر، ولم يصلّ، ثم خرج فصلّى خلف المقام ركعتين، ثم قال: «**هذه القبلة**»»[٥].

وجاء في الحديث أيضاً عن الفضل بن عباس[٦] رضي الله عنهما: «أنّ

= سنة (٢٠هـ)، رضي الله عنه. انظر: الإصابة، لابن حجر العسقلاني: ١/٣٢٦ - ٣٢٧، وتقريب التهذيب، له: ١/١١٧.

(١) أجاف الباب: أي ردّه. وانظر: القاموس المحيط، مادة (جوف): ص١٠٣١.

(٢) الأُسطوانة: السارية والعمود، وجمعها: أساطين، وهي معرّب (أستون) الفارسية. انظر: القاموس المحيط، للفيروزآبادي: ص١٥٥٥، والمعجم الوسيط: ١/١٧ ـ ١٨.

(٣) معنى هذا القول: أنّ أمر القبلة قد استقرّ على استقبال هذا البيت، فلا ينسخ بعد اليوم، فصلّوا إليه أبداً. أو معناه: أن هذه الكعبة هي المسجد الحرام الذي أمرتم باستقباله، لا كل الحرم، ولا مكة، بل هي الكعبة نفسها فقط، والله تعالى أعلم. انظر: شرح صحيح مسلم، للنووي: ٩/٨٧.

(٤) أخرجه النسائي في سننه: ٥/٢٤١، برقم (٢٩١٤)، وإسناده صحيح. وانظر: صحيح سنن النسائي، للألباني: ٢/٣١٧ ـ ٣١٨، رقم (٢٩١٤).

(٥) أخرجه النسائي في سننه: ٥/٢٣٩، برقم (٢٩٠٩)، وإسناده حسن.

(٦) هو الفضل بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم الهاشمي، ابن عم النبي ﷺ، وأكبر ولد العباس، ويكنى أبا العباس، وأبا عبد الله، وأبا محمد، غزا مع =

رسول الله ﷺ قام في الكعبة، فسبّح وكبّر ودعا الله ﷻ واستغفر، ولم يركع ولم يسجد»[١].

وقد استدلّ العلماء بهذين الحديثين على مشروعية دخول الكعبة، وذكر الله تعالى فيها بما اشتمل عليه الحديثان من التّسبيح والتّحميد والتهليل والتكبير والاستغفار والدعاء[٢].

وأما ما وقع في الحديثين من نفي صلاة النبيّ ﷺ داخل الكعبة، فقد جاء مُثبتاً عن بلال رضي الله عنه، في حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: «دخل رسول الله ﷺ البيت هو وأسامة بن زيد، وبلال، وعثمان بن طلحة[٣]، فأغلقوا عليهم، فلمّا فتحوا كنت أول من وَلج[٤]، فلقيت بلالاً فسألته:

= النبي ﷺ فتح مكة، وحنينا، وشهد معه حجة الوداع، واستشهد في خلافة عمر، وقيل: توفي في خلافة أبي بكر، رضي الله عنه.
انظر: الإصابة، لابن حجر العسقلاني: ٥/ ٣٧٥ ـ ٣٧٦، وتقريب التهذيب، له: ٢/ ١١٧.

(١) أخرجه أحمد في مسنده: ٢/ ٢١٠، بإسناد صحيح على شرط مسلم.

(٢) انظر: شرح صحيح مسلم، للنووي: ٩/ ٨٢، وفتح الباري لابن حجر: ٣/ ٤٦٦، وتحفة الذاكرين، للشوكاني/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

(٣) هو عثمان بن طلحة بن أبي طلحة بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصي القرشيّ العبْدَريّ، ويقال له: الحجبي ـ بفتح الحاء المهملة والجيم ـ، نسبة إلى حجابة الكعبة، وهي ولايتها وخدمتها، صحابي مشهور أسلم في هدنة الحديبية، وشهد فتح مكة، فدفع رسول الله مفتاح الكعبة إليه، وإلى ابن عمّه شيبة بن عثمان بن أبي طلحة، وقال: «**خذوها ـ يا بني أبي طلحة ـ خالدة تالدة، لا ينزعها منكم إلا ظالم**»، ثم نزل المدينة، ثم مكّة بعد ذلك. وتوفي سنة (٤٢هـ)، رضي الله عنه.
انظر: تهذيب الأسماء واللغات، للنووي: ١/ ٣٢٠ ـ ٣٢١، وتهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني: ٧/ ١٢٤.

(٤) وَلَج: دخل. وفي رواية لمسلم: «كنت أول من دخل».

هل صلّى فيه رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، بين العمودين اليمانيين»[١].

وزاد ـ في رواية ـ: «فنسيت أن أسأله: كم صلّى رسول الله ﷺ؟»[٢].

قال الإمام النووي: «وأجمع أهل الحديث على الأخذ برواية بلال؛ لأنه مثبت، فمعه زيادة علم، فواجب ترجيحه، والمراد الصلاة المعهودة ذات الركوع والسجود، ولهذا قال ابن عمر: (ونسيت أن أسأله: كم صلّى).

وأما نفي أسامة، فسببه أنهم لمّا دخلوا الكعبة أغلقوا الباب، واشتغلوا بالدعاء، فرأى أسامة النبي ﷺ يدعو، ثم اشتغل أسامة بالدعاء في ناحية من نواحي البيت، والنبي ﷺ في ناحية أخرى، وبلال قريب منه، ثمّ صلّى النبي ﷺ فرآه بلال لقربه، ولم يره أسامة لبعده واشتغاله، وكانت صلاة خفيفة فلم يرها لإغلاق الباب مع بعده واشتغاله بالدعاء، وجاز له نفيها عملاً بظنّه، وأما بلال فحقّقها فأخبر بها، والله أعلم» اهـ[٣].

وللعلماء في حكم الصلاة داخل الكعبة خلاف وتفصيل، ليس هنا موضع بيانه[٤]، وحديث ابن عمر رضي الله عنهما ظاهر في جواز الصلاة فيها، والله تعالى أعلم.

ومع اتفاق العلماء على مشروعية دخول الكعبة وذكر الله تعالى

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٣/٤٦٣، برقم (١٥٩٨)، ومسلم في صحيحه: ٢/٩٦٧، برقم (١٣٢٩).

(٢) هذه الزيادة في رواية مسلم في صحيحه، في الموضع الذي سبق تخريجه.

(٣) شرح صحيح مسلم: ٩/٨٢ ـ ٨٣، وانظر أيضاً: فتح الباري، لابن حجر: ٣/٤٦٥، ٤٦٨.

(٤) انظر: في ذلك: شرح صحيح مسلم، للنووي: ٩/٨٣، وفتح الباري، لابن حجر: ٣/٤٦٦.

فيها بالتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير والاستغفار والدّعاء، فقد اختلفوا في كون ذلك من مناسك الحجّ والعمرة أو لا؟.

فجمهور العلماء على أن ذلك ليس من مناسك الحجّ والعمرة(١)؛ لأن المذكور في الأحاديث السابقة من دخول النبي ﷺ الكعبة وذكره الله تعالى فيها، إنما كان يوم الفتح بلا خلاف، ولم يكن حينئذ محرماً(٢).

وثبت عدم دخوله ﷺ الكعبة في عمرته، كما جاء في حديث عبد الله بن أبي أوفي رضي الله عنهما قال: «اعتمر رسول الله ﷺ، فطاف بالبيت وصلّى خلف المقام ركعتين، ومعه من يستره من الناس. فقال له رجل: أدخل رسول الله ﷺ الكعبة؟ قال: لا»(٣).

قال الإمام النووي: «هذا مما اتفقوا عليه. قال العلماء: والمراد به عمرة القضاء التي كانت سنة سبع من الهجرة قبل فتح مكة» اهـ(٤).

وأمّا في حجّته ﷺ، فعن عائشة رضي الله عنها: «أنّ النّبيّ ﷺ خرج من عندها وهو مسرور، ثم رجع إليها وهو كئيب(٥)، فقال: «**إنّي دخلت الكعبة، لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما دخلتها، إني أخاف أن أكون قد شققت على أمّتي**»»(٦).

---

(١) انظر: صحيح البخاري مع شرحه فتح الباري للحافظ ابن حجر: ٣/ ٤٦٦ - ٤٦٧، وتحفة الذاكرين، للشوكاني/ ٢٠٥.

(٢) انظر: شرح صحيح مسلم، للنووي: ٩/ ٨٤، وفتح الباري، لابن حجر: ٣/ ٤٦٦.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه - مع الفتح -: ٣/ ٤٦٧، برقم (١٦٠٠) ومسلم في صحيحه: ٢/ ٩٦٨، برقم (١٣٣٢) مختصراً.

(٤) شرح صحيح مسلم: ٩/ ٨٨.

(٥) أي: حزين، كما في بعض ألفاظ الحديث.

(٦) أخرجه أبو داود في سننه: ٢/ ٥٢٦، برقم (٢٠٢٩) واللفظ له، والترمذي في =

فهذه القصّة يحتمل أن تكون وقعت في حجة النبي ﷺ، وهو الظاهر؛ لأن عائشة رضي الله عنها لم تكن مع النبي ﷺ في فتح مكة، ولا في عمرة القضاء.

ويحتمل أن يكون النبي ﷺ قال ذلك لعائشة رضي الله عنها بالمدينة بعد رجوعه من فتح مكة، فليس في سياق الحديث ما يمنع ذلك(١). ويقوّي هذا الاحتمال ما نُقل عن غير واحد من أهل العلم أنّ النبي ﷺ إنما دخل الكعبة مرّة واحدة عام الفتح، ثمّ حجّ فلم يدخلها(٢). ويقوّيه أيضاً ما ورد في الأثر أنّ ابن عمر رضي الله عنهما كان يحجّ كثيراً ولا يدخل الكعبة(٣)، فإنّ ابن عمر رضي الله عنهما أشهر من روى دخول النبي ﷺ الكعبة، فلو كان دخولها من مناسك الحجّ لما أخلّ به مع كثرة اتّباعه(٤).

والمقصود أنه لا يتوفر دليل قويّ على أنّ دخول الكعبة من مناسك الحجّ، فضلاً عمّا في ذلك من المشقّة. ولا يتعارض هذا مع ما تقدم ذكره من استحباب دخول الكعبة وذكر الله تعالى فيها والصلاة فيها؛ لأن هذا استحباب حكم مستقلّ في جميع الأوقات، غير مقيّد بوقت الحجّ، وهو مشروط بعدم الإيذاء لأحد فيه(٥)، أخذاً من الأحاديث الواردة في هذا الباب.

= سننه: ٣/ ٢٢٣، برقم (٨٧٣)، وابن ماجه في سننه: ٢/ ١٠١٨ ـ ١٠١٩، برقم (٣٠٦٤)، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(١) انظر: فتح الباري، لابن حجر: ٣/ ٤٦٦.

(٢) انظر: المصدر السابق: ٣/ ٤٦٦، ٤٦٩.

(٣) هذا الأثر ذكره الإمام البخاري معلّقاً بصيغة الجزم في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٣/ ٤٦٧، باب من لم يدخل الكعبة. وقال الحافظ ـ في الشرح ـ: «وصله سفيان الثوري في جامعه من رواية عبد الله بن الوليد العدني عنه، عن حنظلة، عن طاوس».

(٤) انظر: فتح الباري، لابن حجر: ٣/ ٤٦٧.

(٥) انظر: المصدر السابق: ٣/ ٤٦٦.

وإذا تبين هذا فإن للتّسبيح والتّحميد والتّهليل والتّكبير والاستغفار والدّعاء داخل الكعبة في نواحيها مناسبة عقدية تظهر في أمور:

أحدها: أن الكعبة المشرّفة قد بُنيتْ لتوحيد الله تعالى وعدم الإشراك به، كما قال سبحانه: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ [الحج: ٢٦].

وفي التّسبيح والتّحميد والتهليل والتّكبير والاستغفار والدّعاء داخل الكعبة في نواحيها تحقيق لما دلّت عليه هذه الآية من النهي عن الإشراك بالله تعالى، والأمر بتطهير بيته من الشرك وجعله خالصاً لعبادته وحده لا شريك؛ لأن معاني هذه الكلمات مشتملة بالتمام والوضوح على التوحيد والتنزيه والتعظيم لله ﷻ، فهي بذلك أهمّ كلمات يُوحَّد الله تعالى بها ويُثنى عليه بها في بيته الحرام.

الأمر الثاني: أن دخول النبي ﷺ الكعبة، وذكره الله تعالى في نواحيها بالكلمات المذكورة، كان بعد تطهير الكعبة مما كان فيها من الأصنام والصور التي وضعها المشركون، كما ثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إنّ رسول الله ﷺ لمّا قدم أبى أن يدخل البيت وفيه الآلهة[1]، فأمر بها فأخرجتْ، فأخرجوا صورة إبراهيم وإسماعيل في أيديهما الأزلام[2]، فقال رسول الله ﷺ: «**قاتلهم الله، قد علموا أنّهما لم**

(١) قال الحافظ ابن حجر: «قوله: (وفيه الآلهة) أي: الأصنام، وأطلق عليها الآلهة باعتبار ما كانوا يزعمون، وفي جواز إطلاق ذلك وقفة، والذي يظهر كراهيته، وكانت تماثيل على صور شتى، فامتنع النبي ﷺ من دخول البيت وهي فيه لأنه لا يقرّ على باطل، ولأنه لا يحبّ فراق الملائكة وهي لا تدخل ما فيه صورة» [فتح الباري: ٣/ ٤٦٩].

(٢) الأزلام: جمع زَلَم، وهي سهام كانوا يستقسمون بها في الجاهلية. انظر: القاموس المحيط، للفيروزآبادي/ مادة (زلم): ص١٤٤٤.

يستقسما بها قط». فدخل البيت فكبّر في نواحيه، ولم يصلّ فيه[(١)]»[(٢)].

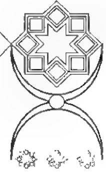
وهذا يبيّن سبب عدم دخوله ﷺ الكعبة في عمرة القضاء، فقد قال العلماء: إنّ سبب ذلك ما كان في الكعبة من الأصنام والصّور، ولم يكن المشركون يتركونه لتغييرها، فلما فتح الله تعالى عليه مكّة، أزال ما في الكعبة من الأصنام والصّور، ثم دخلها فسبّح الله تعالى في نواحيها، وحمّد وهلّل وكبّر واستغفر ودعا وصلّى، فكان الإتيان بهذه الأذكار في هذا المقام مناسباً جدّاً، حيث أظهر التوحيد والتنزيه والتعظيم لله تعالى بعد إزالة ما يناقض ذلك من آثار الشرك به سبحانه.

الأمر الثالث: أن الإتيان بهذه الكلمات الدّالّة على التّوحيد والتّنزيه والتّعظيم لله تعالى في داخل الكعبة لبيان أنّ الله وحده هو المستحقّ للعبادة، وهو المتفرّد بغفران الذنوب وإجابة الدعوات، وأن هذه العبادات الخالصة لله تعالى تليق بها المواضع المطهّرة من النجاسات الحسيّة والمعنوية كالتماثيل والتصاوير وجميع مظاهر الشرك.

---

(١) تقدم قريباً أن رواية من أثبت صلاته ﷺ داخل الكعبة مقدمة على رواية من نفاها، وانظر: تعليق الحافظ ابن حجر على وجه تصحيح البخاري لهذا الحديث واحتجاجه به في (فتح الباري: ٣/٤٦٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٣/٤٦٨، برقم (١٦٠١).



المبحث السابع



التّسبيح والتّحميد والتّكبير قبل الدّعاء

الدعاء ـ وأعني دعاء المسألة ـ مظهر من مظاهر عبودية العبد وافتقاره، واعتقاده بعلم المدعوّ وسمعه، وملكه وقدرته، ولذا كان الدعاء من أعظم العبادات التي لا تجوز صرفها إلى غير الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠].

وفي حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما: «أنّ رسول الله ﷺ قال: «**الدعاء هو العبادة**» وقرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ ـ إلى قوله ـ: ﴿دَاخِرِينَ﴾»(١).

وقد شرع للعبد أن يقدّم بين يدي مسألته الثناء على الله تعالى بالتسبيح والتّحميد والتّكبير ونحو ذلك من الثناء المشروع، كما روى أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «جاءت أمّ سليم إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله ﷺ علّمني كلمات أدعو بهنّ في صلاتي، قال: «**سبّحي الله عشراً، واحمديه عشراً، وكبّرية عشراً، ثم سليه حاجتك يقل: نعم**

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه: ٢/١٦١، برقم (١٤٧٩)، والترمذي في سننه: ٥/ ١٩٤ ـ ١٩٥، برقم (٢٩٦٩)، وابن ماجه في سننه: ٢/١٢٥٨، برقم (٣٨٢٨). وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح»، وقال الحافظ ابن حجر: «أخرجه أصحاب السنن بسند جيّد» [فتح الباري: ١/٤٩]، وصحّحه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٣٤٠٧).

نعم»»(١).

وفي رواية أنها قالتْ: «يا رسول الله، علّمني كلمات أدعو بهنّ. قال: «**تسبّحين الله عشراً، وتحمدينه عشراً، وتكبّرينه عشراً، ثم سلي حاجتك، فإنه يقول: قد فعلت، قد فعلت»»**(٢).

فهذا الحديث دليل على مشروعية هذا الذكر بهذا العدد قبل الدّعاء، وأنه سبب للاستجابة.

ونحو ذلك ما جاء في حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه: أنّ رسول الله ﷺ قال: «**من تعارّ من الليل فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، الحمد لله، وسبحان الله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله. ثم قال: اللهمّ اغفر لي، أو دعا، استجيب، فإن توضّأ وصلّى، قبلت صلاته**»(٣).

ويؤكّد مشروعية البدء بالثناء على الله تعالى قبل المسألة حديث فضالة بن عبيد(٤) رضي الله عنه قال: «سمع رسول الله ﷺ رجلاً يدعو في صلاته، ولم يمجّد الله تعالى، ولم يصلّ على النبيّ ﷺ، فقال

---

(١) سبق في ١/٥٨٦.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده: ٣/ ١٢٠، ورجال إسناده ثقات غير عكرمة بن عمّار، فهو صدوق يغلط، كما في [تقريب التهذيب، لابن حجر: ٢/ ٣٤]، فالإسناد حسن.

(٣) سبق في ص٧٢.

(٤) هو فضالة بن عبيد بن نافذ بن قيس الأنصاري الأوسيّ، أبو محمد، أسلم قديماً، وشهد أحداً فما بعدها، سكن الشام، وولّاه معاوية قضاء دمشق، وتوفي سنة (٥٨هـ) وقيل: سنة (٥٣هـ) على الأصحّ، رضي الله عنه.
انظر: الإصابة، لابن حجر العسقلاني: ٥/ ٣٧١ ـ ٣٧٢، وتقريب التهذيب، له: ٢/ ١١٥ ـ ١١٦.

رسول الله ﷺ: «**عجل هذا**» ثم دعاه، فقال له أو لغيره: «**إذا صلّى أحدكم فليبدأ بتمجيد ربّه جلّ وعزّ والثناء عليه، ثم يصلّي على النبيّ ﷺ، ثم يدعو بعد بما شاء**»(١).

وفي رواية أخرى عن فضالة رضي الله عنه قال: «سمع رسول الله ﷺ رجلاً يصلّي فمجّد الله وحمده وصلّى على النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «**أُدع تُجَبْ، وسَل تُعْطَ**»»(٢).

والمناسبة العقدية لاستفتاح دعاء المسألة بالتسبيح والتّحميد والتّكبير ونحوها من الثناء والتمجيد لله عز وجل ظاهرة لمن تأمّل؛ فإنّ الدعاء في الشّرع يتنوّع ـ كما علم ـ إلى دعاء عبادة ودعاء مسألة، ودعاء العبادة أفضل النوعين؛ لأنه حق الله تعالى، ولهذا جاء في الحديث القدسي: «**إذا شغل عبدي ثناؤه عليّ عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين**»(٣)، فشرع ابتداء المسألة بالثناء على الله تعالى ليأتي العبد بالدعاء المشروع على الوجه الذي هو أحسن، وليقدّم حقّ الله تعالى على حظّ نفسه، ويعلم أنّ الثناء على الله تعالى بما يليق بجلاله وعظمته هو أعظم المطالب وأولاها بالتّقديم والاعتقاد.

ومن وجه آخر فإنّ دعاء المسألة ـ كما سبق في أول المبحث ـ دليل على عجز العبد وافتقاره إلى ربّه سبحانه وتعالى، فناسب أن يذكر العبد بين

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه: ٢/ ١٦٢، برقم (١٤٨١)، والترمذي في سننه: ٥/ ٤٨٢ ـ ٤٨٣، برقم (٣٤٧٧)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وصحّحه الحاكم في المستدرك: ١/ ٣٥٤، برقم (٨٤٠)، ووافقه الذهبي، وصحّحه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٦٤٨).

(٢) أخرجه النسائي في سننه: ٣/ ٥١ ـ ٥٢، برقم (١٢٨٣)، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي: ١/ ٤١٠ ـ ٤١١، برقم (١٢٨٣).

(٣) سبق تخريجه في ١/ ١٠٧.

يدي مسألته ما يدلّ على شهادته لله تعالى بالقدرة والكمال والتّنزّه عن العيوب والنقائص وعن الأمثال والشركاء، فيكون قد توسّل إلى الله ﷻ بأعظم الوسائل وأحبّها إليه سبحانه. قال الإمام ابن قيم الجوزية: «ومن محبّته للثناء عليه شرعه للدّاعي قبل سؤاله ودعائه، ليكون وسيلة له بين يدي حاجته، كالمتقرّب إلى المسؤول بما يحبّه ويسأله بين يدي مطلوبه» اهـ[1].

ومن أجل أنّ تقديم الثّناء والتّمجيد على السؤال والطلب أحبّ إلى الله وأحقّ بإجابته، كانت الفاتحة ـ وهي أعظم سور القرآن[2] ـ نصفين: نصفاً ثناءً، ونصفاً دعاءً، والنّصف الثّنائيّ هو المقدّم، وهو الذي لله ﷻ[3]، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: إنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قسمت الصلاة[4] بيني وبين عبدي نصفين[5]: فنصفها لي، ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل. فإذا قال العبد:** ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾، قال الله تعالى: حمدني عبدي. وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، قال الله تعالى: أثنى عليّ عبدي. وإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾، قال: مجّدني عبدي ـ وقال مرة: فوّض إليّ

---

(١) الصواعق المرسلة: ٤/ ١٤٧٥.

(٢) دليل ذلك حديث أبي سعيد بن المعلّى رضي الله عنه الذي أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٨/ ١٥٦ ـ ١٥٧، برقم (٤٤٧٤)، فانظره إن شئت.

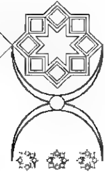
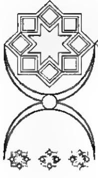
(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٢/ ٣٧٦ ـ ٣٧٧.

(٤) قال النووي: «قال العلماء: المراد بالصلاة هنا: الفاتحة، سمّيتْ بذلك لأنها لا تصحّ إلا بها، كقوله ﷺ: «**الحج عرفة**»، وفيه دليل على وجوبها بعينها في الصلاة» [شرح صحيح مسلم: ٤/ ١٠٣].

(٥) قال النووي: (قال العلماء: والمراد قسمتها من جهة المعنى، لأن نصفها الأول تحميد الله تعالى وتمجيد وثناء عليه وتفويض إليه، والنصف الثاني سؤال وطلب وتضرّع وافتقار) [شرح صحيح مسلم: ٤/ ١٠٣].

عبدي ـ، فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾، قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل. فإذا قال: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾، قال: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل»[١].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: ٢٩٦/١ ـ ٢٩٧، برقم (٣٩٥).

المبحث الثامن

التّسبيح والتّحميد والتّهليل والتّكبير والدّعاء عند الكسوف

الكسوف: ذهابُ ضوء الشّمس أو القمر كلِّه أو بعضِه[(١)]، وكذلك الخسوف[(٢)].

والكسوف أو الخسوف ظاهرة كونية تحدث بمشيئة الله تعالى وتقديره لحكمة إلهيّة معلومة لعباد الله المؤمنين على ما جاء بيانه في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ.

وقد شرع في الإسلام التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير والدّعاء مع الصلاة عند حدوث الكسوف والخسوف للشّمس أو القمر، كما في الحديث عن عبد الرحمن بن سمرة[(٣)] رضي الله عنه قال:

---

(١) انظر: شرح صحيح مسلم، للنووي: ١٩٨/٦، ولسان العرب، لابن منظور/ مادة (كسف): ٢٩٨/٩.

(٢) انظر: لسان العرب/ مادة (خسف): ٦٧/٩. وقيل: الكسوف للشمس، والخسوف للقمر، وهو المشهور في استعمال الفقهاء. وقيل في معناهما غير ذلك. وقد جاءت الأحاديث الصحيحة باستعمالهما في كلّ من الشّمس والقمر. وانظر ذلك في: صحيح البخاري ـ مع الفتح ـ: ٥٢٦/٢ ـ ٥٣٥، وصحيح مسلم: ٦١٨/٢ ـ ٦٣٠، والنهاية في غريب الحديث، لابن الأثير: ٣١/٢، و١٧٤/٤، وتهذيب الأسماء واللغات، للنووي: ٩٠/٣، وفتح الباري، لابن حجر العسقلاني: ٥٣٥/٢.

(٣) هو عبد الرحمن بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس العبشمي، أبو سعيد، =

«كنت أرتمي[(١)] بأسهم لي بالمدينة في حياة رسول الله ﷺ، إذ كسفت الشمس، فنبذتها، فقلت: والله، لأنظرنّ إلى ما حدث لرسول الله ﷺ في كسوف الشمس. قال: فأتيته وهو قائم في الصلاة، رافع يديه. فجعل يسبّح ويحمد ويهلّل ويكبّر ويدعو، حتّى حُسِر عنها[(٢)] قال: فلمّا حُسر عنها، قرأ سورتين وصلّى ركعتين[(٣)]»[(٤)].

وفي الحديث أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنّ رسول الله ﷺ قال: **«إنّ الشّمس والقمر آيتان من آيات الله، لا ينكسفان لموت أحد ولا**

= صحابي من مسلمة الفتح، شهد غزوة تبوك مع رسول الله ﷺ، ثم شهد فتوح العراق وافتتح سجستان وغيرها في خلافة عثمان ثم سكن البصرة، وتوفي بها سنة (٥٠هـ)، وقيل: سنة (٥١هـ)، رضي الله عنه.

انظر: الإصابة، لابن حجر: ٤/ ٣١٠ ـ ٣١٢، وتقريب التهذيب، له: ١/ ٤٥٠.

(١) أرتمي: أي أرمي، كما في بعض الروايات، وانظر: شرح صحيح مسلم، للنووي: ٦/ ٢١٧.

(٢) حسر عنها: أي كُشف وجُلّي عنها. وانظر: شرح صحيح مسلم، للنووي: ٦/ ٢١٧.

(٣) قال الإمام النووي: «هذا مما يُستشكل ويُظنّ أنّ ظاهره أنّه ابتدأ صلاة الكسوف بعد انجلاء الشمس وليس كذلك، فإنه لا يجوز ابتداء صلاتها بعد الانجلاء، وهذا الحديث محمول على أنّه وجده في الصلاة كما صرح به في الرواية الثانية، ثم جمع الراوي جميع ما جرى في الصلاة من دعاء وتكبير وتهليل وتسبيح وتحميد وقراءة سورتين في القيامين الآخرين للركعة الثانية، وكانت السورتان بعد انجلاء تتميماً للصلاة، فتمت جملة الصلاة ركعتين، أولها في حال الكسوف، وآخرها بعد الانجلاء، وهذا الذي ذكرته من تقديره لا بدّ منه؛ لأنه مطابق للرواية الثانية ولقواعد الفقه ولروايات باقي الصحابة...» [شرح صحيح مسلم: ٦/ ٢١٧].

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه: ٢/ ٦٢٩، برقم (٩١٣).

لحياته، فإذا رأيتم ذلك فاذكروا الله وكبّروه وسبّحوه وهلّلوه»[(١)].

فثبت بفعل النبي ﷺ وقوله مشروعية التّسبيح مقروناً بالتحميد والتهليل والتّكبير والدّعاء عند حدوث كسوف للشمس أو القمر.

وقد ورد في شأن الكسوف والخسوف أحاديث عديدة، يتبيّن منها أنّ للتّسبيح والتحميد والتهليل والتكبير والدعاء عند ذلك مناسبةً عقديّةً من أوجه مختلفة:

أحدها: إبطال اعتقادات الجاهلية في الكسوف والخسوف، وترسيخ الاعتقاد الصحيح في ذلك.

فقد جاء في حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنّ رسول الله ﷺ قال ـ حين كسفت الشّمس حاكياً اعتقاد أهل الجاهلية ـ: **«وإنّهم كانوا يقولون: إنّ الشمس والقمر لا يَخْسفان إلّا لموت عظيم، وإنهما آيتان من آيات الله يريكموهما، فإذا خَسَفا فصلّوا حتّى ينجلي»**[(٢)].

وجاء في حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: «كسفت الشّمس على عهد رسول الله ﷺ يوم مات إبراهيم[(٣)]، فقال الناس: كسفت الشمس لموت إبراهيم، فقال رسول الله ﷺ: **«إنّ الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم فصلّوا وادعوا الله»**[(٤)].

---

(١) ذكره الحافظ ابن حجر في (فتح الباري: ٢/ ٥٤٧) وعزاه إلى سعيد بن منصور.

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه: ٢/ ٦٢٢، برقم (٩٠٤).

(٣) هو إبراهيم ابن رسول الله ﷺ، توفي بالمدينة سنة عشر من الهجرة، وله سبعة عشر أو ثمانية عشر شهراً. وانظر: تهذيب الأسماء واللغات، للنووي: ١/ ١٠٢ ـ ١٠٣.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٢/ ٥٢٦، برقم (١٠٤٣).

وجاء نحو هذا الحديث عن عدد من الصحابة ﷺ[١]، كما تقدّم قريباً في حديث ابن عباس ﷺ.

قال الخطّابيّ: «معنى هذا الكلام وتأويله أنهم كانوا في الجاهلية يزعمون أن كسوف الشّمس والقمر يوجب حدوث تغييرات في العالم، من موت وضرر ونقص ونحو ذلك من الأمور على ما يذهب إليه أهل التنجيم[٢] من إعطائها الأحكام، وزعمهم أنّ هذه الأجسام السّفليّة مربوطة بالنجوم، وأنّ لها فعلاً وتأثيراً فيها فأعلمهم النبي ﷺ أنّ الذي كانوا يتوهّمونه من ذلك باطل، وأنّ خسوف الشّمس والقمر آيتان من آيات الله تعالى يريهما خلقه ليعلموا أنهما مسخّران لله ﷻ، ليس لهما سلطان في غيرهما ولا قدرة على الدّفع عن أنفسهما...» اهـ[٣].

---

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب الكسوف، باب لا تنكسف الشّمس لموت أحد ولا لحياته.

(٢) التّنجيم: صناعة رياضية مضمونها الأحكام والتأثير، وهو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية، والتمزيج بين القوى الفلكية والقوابل الأرضية، وهي صناعة محرّمة بالكتاب والسنة وإجماع الأمة؛ لأنها تنافي التوحيد، لما فيها من دعوى علم الغيب الذي انفرد به الله تعالى، ولما فيها من تعلّق القلب بغير الله تعالى، ولما فيها من فساد العقل؛ لأن سلوك الطرق الباطلة وتصديقها من مفسدات العقول والأديان.
ولا يدخل فيما ذكر تعلّم منازل القمر وأقدار الأفلاك والكواكب، وصفاتها ومقادير حركاتها، وما يتبع ذلك، والاستدلال به على الأوقات والجهات، فإنّ هذا في الأصل علم صحيح لا ريب فيه، بل كثير منه نافع؛ لأنه وسيلة إلى معرفة أوقات العبادات، أو إلى الاهتداء به في الجهات. فيجب التفريق بين التنجيم المحرّم، والتنجيم المباح. وانظر في ذلك: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٣٥/ ١٨١، ١٩٢، وتيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، للشيخ سليمان بن عبد الله: ص٤٤١ ـ ٤٤٢، والقول السديد في مقاصد التوحيد، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص٩١ ـ ٩٢.

(٣) أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري، تحقيق الدكتور محمد بن سعد آل سعود: ١/ ٦١٠ ـ ٦١١.

وعلى هذا فالتّسبيح والتّحميد والتهليل والتكبير والدّعاء قد شرعتْ عند كسوف الشمس والقمر لإظهار توحيد الله تعالى وتنزيهه وتعظيمه، وبيان أنّه الرّبّ المتفرّد بالتصرّف في الكون بما يشاء، وأنّ الشمس والقمر وغيرهما من الكواكب والنجوم مخلوقات خاضعة لتصرّف الله تعالى، تابعة لمشيئته، فلا يجوز التعلّق بها ولا اعتقاد تأثيرها على الحوادث الأرضيّة كما يذهب إليه أهل التّنجيم الضالّون المضلّون.

الوجه الثاني: تقبيح عبادة الشمس والقمر، وتنزيه الله تعالى عن الشرك في العبادة.

فإنّ من الناس من يعبد الشمس أو القمر من دون الله تعالى، وهذا كفر وشرك محض، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت: ٣٧].

وجعل الله تعالى كسوف الشمس والقمر من علامات نقصهما وأنهما مخلوقتان لايستحقّان أن يُعبدا.

قال الحافظ ابن حجر: «وفي الكسوف إشارة إلى تقبيح رأي من يعبد الشّمس أو القمر، وحمل بعضهم الأمر في قوله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ على صلاة الكسوف؛ لأنه الوقت الذي يناسب الإعراض عن عبادتهما، لما يظهر فيهما من التغيّر والنّقص المنزّه عنه المعبود جلّ وعلا ﷻ» اهـ[1].

وشرع التّسبيح والتحميد والتهليل والتّكبير والدّعاء عند الكسوف إحقاقاً لتوحيد الله تعالى وتنزيهه واستحقاقه العبادة وحده دون ما سواه،

---

(١) فتح الباري: ٢/ ٥٣٢ ـ ٥٣٣.

وإبطالاً لقول الجهال الذين يعبدون الشّمس أو القمر، وإفساداً لمذاهبهم في عبادتهما(١).

الوجه الثالث: استدفاع البلاء وإزالة المخاوف.

فإنّ الشّمس والقمر نعمتان لأهل الأرض، كما قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ [يونس: ٥].

وفي كسوفهما بلاء وإنذار بالمخاوف لأهل الأرض، ويؤيّد ذلك ما جاء في حديث أبي بكرة(٢) رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا ينكسفان لموت أحد، ولكن الله تعالى يخوّف بهما عباده**»(٣).

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: «خسفت الشمس، فقام النبي ﷺ فزعاً يخشى أن تكون الساعة، فأتى المسجد فصلّى بأطول قيام وركوع وسجود رأيته قطّ يفعله، وقال: «**هذه الآيات التي يرسل الله لا تكون لموت أحد ولا لحياته، ولكن يخوّف الله بها عباده، فإذا رأيتم شيئاً من ذلك فافزعوا إلى ذكره ودعائه واستغفاره**»(٤).

---

(١) انظر: أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري، للخطابي: ٦١١/١

(٢) هو نفيع بن الحارث ـ ويقال: ابن مسروح ـ الثّقفي، أبو بكرة، مشهور بكنيته، أسلم بالطائف، وتدلّى إلى النبي ﷺ من حصن الطائف ببكرة، فاشتهر بأبي بكرة، وكان من فضلاء الصحابة، سكن البصرة وتوفي بها سنة (٥١هـ) أو (٥٢هـ)، رضي الله عنه.
انظر: الإصابة، لابن حجر: ٤٦٧/٦، وتقريب التهذيب، له: ٣١١/٢.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٥٣٦/٢، برقم (١٠٤٨).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٥٤٥/٢، برقم (١٠٥٩)، ومسلم في صحيحه: ٦٢٨/٢، برقم (٩١٢).

وهذان الحديثان موافقان لقول الله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩]، أي: تخويف العباد من بأس الله وسطوته[١].

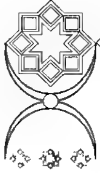
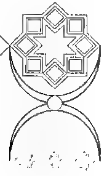
وقد دلّ حديث أبي موسى رضي الله عنه على أنّ الفزع عند البلاء والمخاوف يكون إلى ذكر الله تعالى ودعائه واستغفاره، وأنّ ذلك سبب لدفع البلاء وإزالة المخاوف[٢]، وهذه هي السنة في أسباب الشّر الظاهرة أن يأتي العبد من العبادات ما يدفع الله تعالى به عنه الشّرّ[٣].

ومن هنا فالتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير والدعاء مشروعة عند الكسوف ليفزع بها العبد إلى الله عز وجل، ويتضرّع بها إليه سبحانه؛ لأنها من أفضل العبادات التي تستجلب بها الخيرات، وتستدفع بها الشرور، والله تعالى أعلم.

وجميع ما سلف ذكره من أوجه المناسبة العقديّة للتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير والدعاء عند الكسوف من أكثر الدواعي للعبد المسلم على الاعتبار بظاهرة الكسوف والخسوف، وعلى الإتيان بما وردتْ به السنة المشرّفة من الأذكار وأنواع الطاعات في هذه الحالة تحقيقاً لتوحيد الله تعالى واتباعاً لسنة رسوله ﷺ.

---

(١) انظر: فتح الباري، لابن حجر العسقلاني: ٢/ ٥٢٨.
(٢) انظر: المصدر السابق: ٢/ ٥٣٤، ٥٤٦.
(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٣٥/ ١٧٠.

المبحث التاسع

التّسبيح والتّهليل والتّحميد عند الكرب

الإنسان في الدّار الدّنيا متقلّب بين الكرب والفَرَح، والشدّة والرّخاء، والعُسر واليُسر، ابتلاء من الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

ولقد أرشد رسول الله ﷺ إلى ما يقوله العبد المسلم إذا نزل به كرب أو شدة أو عسر، ومن ذلك:

١ ـ حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «علّمني رسول الله ﷺ إذا نزل بي كرب أن أقول: (لا إله إلا الله الحليمُ الحكيمُ، سبحان الله، وتبارك الله ربّ العرش العظيم، والحمد لله ربّ العالمين)»(١).

وفي رواية: «لقّنني رسول الله ﷺ هؤلاء الكلمات، وأمرني إن نزل بي كرب أو شدة أن أقولهنّ: (لا إله إلا الله الكريمُ الحليم، سبحانه، وتبارك الله ربّ العرش العظيم، والحمد لله ربّ العالمين)»(٢).

---

(١) أخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة من طرق كثيرة: ص٤٠٤ ـ ٤١١، برقم (٦٢٧ ـ ٦٤٦)، وأحمد في مسنده: ١/٩١، والحاكم في المستدرك: ١/ ٦٨٨، برقم (١٨٧٣)، وصححه، ووافقه الذهبي، وكذا صححه الحافظ ابن حجر، كما نقل ابن علان في الفتوحات الربانية: ٤/٧.

(٢) أخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة: ص٤٠٦، برقم (٦٣٠) و(٦٣١)، وأحمد في مسنده: ١/٩٤، والحاكم في المستدرك: ١/٦٨٩، برقم (١٨٧٤).

٢ ـ حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «أنّ النبي ﷺ كان يقول عند الكرب: «**لا إله إلا الله الحليم الحكيم، سبحان الله ربّ العرش العظيم، سبحان الله ربّ السموات السبع وربّ العرش الكريم**»»[١].

٣ ـ حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**دعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قطّ إلا استجاب الله له**»[٢].

وفي رواية أخرى قال: «**ألا أخبركم ـ أو أحدثكم ـ بشيء إذا نزل برجل منكم كرب أو بلاء من بلاء الدنيا دعا به فرج عنه؟**» فقيل له: بلى، قال: «**دعاء ذي النون: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾**»[٣].

فهذه الأحاديث تدلّ على مشروعية الدعاء بما ورد فيها من الصيغ المشتملة على التهليل والتسبيح والتحميد والأسماء والصفات لمن نزل به كرب أو شدة أو بلاء من بلاء الدنيا.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه: ٢/ ١٢٧٨، برقم (٣٨٨٣)، وإسناده صحيح. وانظر: صحيح ابن ماجه، للألباني: ٣/ ٢٦٩، برقم (٣١٤٧). وجاء في بعض الرواية بلفظ التهليل فيه كلِّه، كما أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ١١/ ١٤٥، برقم (٦٣٤٥، ٦٣٤٦)، ومسلم في صحيحه: ٤/ ٢٠٩٢ ـ ٢٠٩٣، برقم (٢٧٣٠).

(٢) سبق تخريجه في ص١/ ١٠٥ وسبق ذكره أيضاً مع التعليق عليه عند الكلام على تسبيح نبي الله يونس عليه السلام في ١/ ٢٩٥.

(٣) أخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة: ص٤١٥، برقم(٦٥٥)، والحاكم في المستدرك: ١/ ٦٨٥، برقم (١٨٦٤)، وفي إسنادهما محمد بن مهاجر القرشي، وهو ليّن [تقريب التهذيب، لابن حجر: ٢/ ٢٢٠]، لكن الحديث صحيح، كما سبق في ١/ ١٠٥.

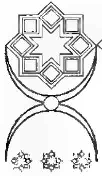
والمناسبة العقدية للتسبيح والتهليل والتحميد ووصف الله تعالى بما يليق به من الأسماء والصفات عند الكرب تتّضح من أن الكرب والشدة حدث من الحوادث الواقعة بقضاء الله وقدره، وهو بالنسبة إلى المسلم ابتلاء من الله تعالى ينطوي على حكم وغايات شريفة، فشرع عنده ما يقرّر به المسلم توحيد الله تعالى في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته، وينزّهه به عن الظلم والعبث في قضائه وقدره، ويحمده على كمالاته ومحاسنه التي لا يحيط بها البشر؛ ولأن في هذه الكلمات المشروعة عند الكرب من كمال التوحيد والتنزيه والتعظيم لله ﷻ ما هو من أبلغ أدوية الكرب والشدة، وأبلغ الوسائل إلى الله تعالى في حصول الفرج والرّخاء.

ولهذا كانت الأدعية المشتملة على التسبيح والتهليل والتحميد وأسماء الله الحسنى وصفاته العلى مفزع أولياء الله تعالى في شدائد الدنيا والآخرة.

وفي هذا كله بيان أن الفزع عند الشدائد والكُرَب يكون إلى الله وحده لا شريك له، وأنه لا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه، وأنه ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [الأنعام: ١٧]، وأن التوحيد الخالص الكامل به يدخل العبد على ربّه، ويصير في جواره، وينجو في الدنيا والآخرة[1].

---

(١) استفدت بعض الشيء في بيان ما سبق من: زاد المعاد، لابن القيم: ٤/ ٢٠٨، وإغاثة اللهفان، له: ٢/ ١٦٦ ـ ١٦٨.




المبحث العاشر

التّسبيح والتّحميد والتهليل والاستغفار في ختم المجلس

يشرع التسبيح مقروناً بالتحميد والتهليل والاستغفار في ختم كلّ مجلس من مجالس المسلم حين يريد القيام.

وقد دلّ على مشروعية ذلك أحاديث نبوية كثيرة برواية عدد من الصحابة ﷺ، وأهمّ تلك الأحاديث:

١ ـ حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من جلس في مجلس فكثر فيه لَغَطُه**[١]**، فقال: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، إلا غُفر له ما كان في مجلسه ذلك**»[٢].

---

(١) اللَّغَط: صوت وضجّة لا يفهم معناها [النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير: ٤/ ٢٥٧].

والمراد به الهزء من القول وما لا طائل تحته، فكأنه مُجرّد الصوت العريّ عن المعنى [الكاشف عن حقائق السنن، للطيبي: ٦/ ١٩٠٠ ـ ١٩٠١].

(٢) أخرجه الترمذي في سننه: ٥/ ٤٦٠ ـ ٤٦١، برقم (٣٤٣٣)، والنسائي في عمل اليوم والليلة: ص٣٠٨ ـ ٣٠٩، برقم (٣٩٧). وقال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب صحيح من هذا الوجه لا نعرفه من حديث سهيل إلا من هذا الوجه»، وصحّحه الحاكم على شرط مسلم في المستدرك: ١/ ٧٢٠، برقم (١٩٦٩)، وذكر إعلال البخاري لإسناده، لكن وقع عند الحاكم أوهام في ذلك بيّنها الحافظ ابن حجر مع بيان العلة المذكورة ووجهة نظر من =

وفي لفظ: «**سبحانك ربّنا وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك**»[(١)].

٢ ـ وحديث عائشة ﵂ قالت: «ما جلس رسول الله ﷺ مجلساً قطّ، ولا تلى قرآناً، ولا صلّى صلاة إلا ختم ذلك بكلمات. قالت: فقلت: يا رسول الله، أراك ما تجلس مجلساً ولا تتلو قرآناً ولا تصلّي صلاة إلا ختمت بهؤلاء الكلمات. قال: «**نعم، من قال خيراً ختم له طابع على ذلك الخير، ومن قال شرّاً كنّ له كفارة: سبحانك وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك**»»[(٢)].

وفي رواية: «فقال: «**إن تكلّم بخير كان طابعاً عليهنّ إلى يوم القيامة، وإن تكلم بغير ذلك كان كفارة له: سبحانك اللهم وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك**»»[(٣)].

وفي رواية أخرى: «**سبحانك اللهمّ ربّي وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك**»[(٤)].

٣ ـ وحديث أبي برزة الأسلمي[(٥)] ﵁ قال: «كان رسول الله ﷺ

= صحّح الحديث غير معتبر تلك العلة، كلّ ذلك في [فتح الباري: ١٣/ ٥٤٤ ـ ٥٤٥].

(١) أخرجه بهذا اللفظ الإمام أحمد في مسنده: ٢/ ٤٩٤، وإسناده كالذي قبله.

(٢) أخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة: ص٢٧٣ ـ ٢٧٤، برقم (٣٠٨)، وأحمد في مسنده: ٦/ ٧٧، وإسناده صحيح، وانظر: السلسلة الصحيحة، للألباني، رقم (٣١٦٤).

(٣) أخرجه النسائي في سننه: ٣/ ٨١، برقم (١٣٤٣)، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي: ١/ ٤٣٢، برقم (١٣٤٣).

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك: ١/ ٦٧٤، برقم (١٨٢٧)، وصحّحه ووافقه الذهبي.

(٥) هو نضلة بن عبيد، أبو برزة الأسلمي، صحابي مشهور بكنيته، وكان إسلامه =

يقول بأَخَرَة[(١)] إذا أراد أن يقوم من المجلس: «**سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك**». فقال رجل: إنّك لتقول قولاً ما كنت تقوله فيما مضى، يا رسول الله، فقال: «**كفّارة لما يكون في المجلس**»»[(٢)].

٤ ـ وحديث رافع بن خديج[(٣)] رضي الله عنه قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اجتمع إليه أصحابه فأراد أن ينهض قال: «**سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، عملت سوءاً وظلمت نفسي، فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت**». فقلنا: يا رسول الله، هذه كلمات أحدثتهنّ. قال: «**أجل، جاء جبريل فقال لي: يا محمد، هنّ كفارة المجالس**»»[(٤)].

= قبل فتح مكة، وسكن المدينة ثم نزل البصرة، وغزا خراسان، وتوفي بها سنة (٦٥هـ) على الصحيح، رضي الله عنه.

انظر: الإصابة، لابن حجر: ٦/ ٤٣٣ ـ ٥٣٥، وتقريب التهذيب، له: ٢/ ٣٠٨.

(١) بأخرة: هو بهمزة مقصورة مفتوحة وبفتح الخاء، ومعناه: في آخر الأمر. قاله الإمام النووي في كتابه (الأذكار: ص٤٦٨).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه: ٥/ ١٨٢ ـ ١٨٣، برقم (٤٨٥٩)، والنسائي في عمل اليوم والليلة: ص٣٢٠، برقم (٤٢٦)، وأحمد في مسنده: ٤/ ٤٢٥، وقال الحافظ ابن حجر: «سنده قويّ» [فتح الباري: ١٣/ ٥٤٥].

(٣) هو رافع بن خَديج بن رافع بن عديّ الأنصاري الأوسيّ الحارثيّ، أبو عبد الله، ويقال: أبو خديج، صحابي جليل، أُستصغر يوم بدر، وكان أول مشاهده أحداً ثم أكثر المشاهد، وتوفي بالمدينة سنة (٧٤هـ) وقيل غير ذلك رضي الله عنه. انظر: الإصابة، لابن حجر: ٢/ ٤٣٦ ـ ٤٣٧.

(٤) أخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة: ص٣٢٠ ـ ٣٢١، برقم (٤٢٧)، والطبراني في المعجم الكبير: ٤/ ٢٨٧، برقم (٤٤٤٥)، والحاكم في المستدرك: ١/ ٧٢١، برقم (١٩٧٢).

وقال الهيثمي: «رواه الطبراني في الثلاثة، ورجاله ثقات» [مجمع الزوائد: =

٥ ـ وحديث جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من قال: سبحان الله وبحمده، سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك. فقالها في مجلس ذكر كانت كالطابع يطبع عليه، ومن قالها في مجلس لغو كانت كفارة له»**(١).

٦ ـ وحديث السائب بن يزيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما من إنسان يكون في مجلس، فيقول حين يريد أن يقوم: سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، إلا غُفر له ما كان في ذلك المجلس»**(٢).

٧ ـ وحديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: «كلمات لا يتكلّم بهنّ أحدٌ في مجلسه عند قيامه ـ ثلاث مرات ـ إلا كُفِّر بهنّ عنه، ولا يقولهنّ في مجلس خير ومجلس ذكر إلا ختم له بهنّ عليه، كما يختم بالخاتم على الصحيفة: (سبحانك اللهمّ وبحمدك، لا إله إلا

= ١/١٤١]، وقال الحافظ ابن حجر: «رجاله موثقون، إلا أنه اختلف على راويه في سنده» [فتح الباري: ١٣/٥٤٥].

(١) أخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة: ص٣١٩ ـ ٣٢٠، برقم (٤٢٤)، والطبراني في المعجم الكبير: ٢/١٣٨ ـ ١٣٩، برقم (١٥٨٦)، والحاكم في المستدرك: ١/٧٢٠، برقم (١٩٧٠).
قال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم»، ووافقه الذهبي.
وقال الهيثمي: «رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح» [مجمع الزوائد: ١٠/١٤٢].
وقال الحافظ ابن حجر: «رجاله ثقات» [فتح الباري: ١٣/٥٤٥]. وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٨١).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده: ٣/٤٥٠، والطبراني في المعجم الكبير: ٧/١٨٣، برقم (٦٦٧٣)، وقال الهيثمي: «رواه أحمد والطبراني، ورجالهما رجال الصحيح» [مجمع الزوائد: ١٠/١٤١].
وقال الحافظ ابن حجر: «سنده صحيح» [فتح الباري: ١٣/٥٤٥].

أنت، أستغفرك وأتوب إليك))»[١].

فهذه الأحاديث وما جاء في معناها[٢] دالّة على مشروعية التسبيح والتحميد والتهليل والاستغفار بإحدى الصيغ الواردة فيها عند إرادة الإنسان القيام من مجلس من مجالسه.

وبما دلّت عليه هذه الأحاديث فُسّر قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الطور: ٤٨] في بعض الروايات عن السلف[٣]، وفُسْر أيضاً بغير ذلك[٤].

وظاهر الأحاديث أن هذا التسبيح مشروع عند إرادة القيام من المجلس الذي حصل فيه كلام بخير، كمجالس الذكر والعلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغير ذلك مما هو مشروع في الأصل.

أو عند إرادة القيام من المجلس الذي حصل فيه كلام بما هو مباحٌ، أو بما ليس مباحاً مما فيه أذى للمتكلّم أو لغيره، ولكن ينبغي أن يُعلم أنّ المجلس الذي يكون فيه كلام بما ليس مباحاً لا يجوز للمسلم حضوره أو الاستمرار فيه إلا على وجه الخير من تقديم نصح

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه: ٥/ ١٨١ ـ ١٨٢، برقم (٤٨٥٧)، موقوفاً. وصححه الألباني دون قوله: (ثلاث مرات)، في صحيح سنن أبي داود: ٣/ ١٩٣، برقم (٤٨٥٧).

(٢) الأحاديث الواردة في هذا الباب كثيرة، وقد تتبّعها الحافظ ابن حجر فوجدها من رواية خمسة عشر صحابيا، وقد ذكرها ملخصا في [فتح الباري: ١٣/ ٥٤٥ ـ ٥٤٦].

(٣) انظر: أحكام القرآن، للجصاص: ٥/ ٢٩٦، وتفسير البغوي: ٧/ ٣٩٤ ـ ٣٩٥، والمحرر الوجيز، لابن عطية: ١٥/ ٢٥١ ـ ٢٥٢، وزاد المسير، لابن الجوزي: ٨/ ٦٠.

(٤) ولهذا سبق الاستدلال بهذه الآية في مبحث التسبيح في افتتاح الصلاة: ١/ ٥١٤، وفي مبحث التسبيح مقروناً عند الانتباه من النوم: ص٧١.

أو تغيير منكر؛ لأن الله تعالى وصف عباده المؤمنين فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾ [الفرقان: ٧٢].

وعلى كلٍّ فالأحاديث دالة على فضيلة الإتيان بهذا التسبيح والتحميد والتهليل والاستغفار في ختم المجلس، وأنه إن كان مجلسَ خيرٍ كان طابعاً عليه إلى يوم القيامة، وإن كان غير ذلك كان كفّارة له.

وهذه الفضيلة توجب أن يأتي المسلم بهذا الذكر مع وعي وفهم لما اشتمل عليه من التنزيه والتعظيم لله تعالى، والإقرار له بالتوحيد، والاعتراف بالذنب والتقصير والتوبة إليه سبحانه. ومع علم ومعرفة كذلك بالمناسبة العقدية للإتيان بهذا الذكر في ختم المجلس؛ لأنه إن كان مجلس خير، فالخيرية لا تكون إلا بما يحقّق توحيد الله تعالى ويكمله، ويقرّر العقيدة الصحيحة ويثبتها من قول أو عمل، وختم ذلك بالتسبيح والتحميد والتهليل والاستغفار مناسب جدّاً من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن فيه تأكيداً وتقريراً للخير الحاصل في المجلس، وتثبيتاً للعبد عليه، وشكراً لله تعالى على ذلك.

والثاني: أن فيه تبرئة للعبد من رؤية الكمال لنفسه، أو أنه وفّى بحقّ الله تعالى عليه، فإن العبد أضعف من أن يستحقّ الكمال المطلق، وإن الله سبحانه أجلّ وأعظم من أن يوفّي المخلوق حقّه.

والثالث: أن فيه تنزيها لله ﷻ من أي خطأ حاصل بسبب جهل العبد وتقصيره، وتوبةً إلى الله تعالى من ذلك، وشهادةً له بالكمال المنزّه عن كل نقص وتمثيل وعن أن يستحقّ العبادة أحدٌ سواه.

وإن كان المجلس غير ما سبق وصفه من الخيرية، فلا يكون كذلك إلا بما ينافي العقيدة الصحيحة ومقتضياتها أو يضعفها من قول أو عمل.

والعبد في هذا الموقف يحتاج إلى أن يتدارك نفسه، ويقوّم عوجه، ويعود إلى ربه وإلى توحيده وتنزيهه وتعظيمه كما يليق بكماله وجلاله، فشرع له في آخر المجلس ما يحقق هذه المطالب العالية من التسبيح والتحميد والتهليل والاستغفار، فإذا أتى العبد بهذه الألفاظ مدركاً ومعتقداً لمعانيها، ومستشعراً الذنب والتقصير والمخالفة، كان ذلك كفارة له بإذن الله تعالى.

وهذا آخر المواضع التي أمكن بالبحث ذكرها من المواضع التي يشرع فيها التسبيح مفرداً أو مقروناً، ومناسباتها العقدية.

وقد كان هذا الموضع آخراً لموافقة السنة في ختم المجلس بالتسبيح والتحميد والتهليل والاستغفار، رجاءً في الفضل الوارد فيها. و(سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك).

الباب الرابع

المفهوم الصحيح في تسبيح اللّٰه تعالى

وفيه:

مدخل، وثلاثة فصول.

المدخل

يعلم مما سبق بحثه في الأبواب الثلاثة أن التسبيح في الإسلام منطق ومعتقد ومسلك يلزم العبد الإتيان به وفقاً لمعناه الشرعي الجامع الذي هو: تنزيه الله ﷻ في الاعتقاد والقول والعمل، عما لا يليق به سبحانه في ذاته وأسمائه وصفاته، وأقواله وأفعاله[١]، وطبقاً لهدي الكتاب والسنة وما كان عليه السلف الصالح والعلماء السائرون على نهجهم من بعدهم.

وتحقيق هذا المطلب الديني يقتضي العلم بطريقة الكتاب والسنة في تنزيه الله تعالى، وبالأسس والقواعد التي قرر بها علماء أهل السنة والجماعة المفهوم الصحيح في تسبيح الله تعالى وتنزيهه في أسمائه وصفاته، وفي أقواله وأفعاله، فإن العلم بذلك والعمل به هو السبيل إلى تحقيق تنزيه الله تعالى على الوجه الذي يريده شرعا ويرضاه دينا.

وقد اجتهدت ـ مستعينا بالله تعالى ـ في بيان المسائل المتعلقة بهذا الباب المهم في ثلاثة فصول:

الفصل الأول: في طريقة الكتاب والسنة في تسبيح الله تعالى.

الفصل الثاني: في تسبيح الله تعالى في أسمائه وصفاته.

الفصل الثالث: في تسبيح الله تعالى في أقواله وأفعاله.

وتحت كل فصل من هذه الفصول الثلاثة مباحث سيأتي بيانها في مواضعها، إن شاء الله تعالى.

---

(١) انظر: ما سبق في ٧٦/١ من البحث.

الفصل الأول

طريقة الكتاب والسنة
في تسبيح الله تعالى

تمهيد

من تدبر الكتاب والسنة وجد فيهما العناية البالغة بتسبيح الله تعالى وتنزيهه عما وصفه به جهلةُ العباد واعتقدوه فيه مما لا يليق به سبحانه، لكثرة الآيات والأحاديث الواردة في هذا الباب، وتنوع عباراتها وأساليبها. وما من شك أن في ذلك دليلاً على خطورة هذا الأمر الذي زلت فيه أقدام، وضلت فيه أفهام، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

وقد علم بالاستقراء(١) أن للكتاب والسنة في باب تسبيح الله تعالى وتنزيهه عما لا يليق به طريقة محكمة واضحة تتجلى في أربعة أمور عليها تدور مباحث هذا الفصل، وهي:

١ ـ الإجمال في التنزيه غالباً.

٢ ـ التفصيل في الإثبات (ذكر الأسماء والصفات الدالة على التنزيه).

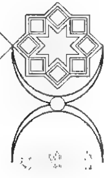
٣ ـ التفصيل في التنزيه ـ أحياناً ـ لأسباب.

٤ ـ إثبات المثل الأعلى لله ﷻ.

وتفاصيل هذه الأمور كما يلي:

---

(١) الاستقراء: هو تتبع الجزئيات ـ في أمر ما ـ للوصول إلى حكم كليّ.
وانظر: التعريفات، للجرجاني: ص٣٧ ـ ٣٨، والمعجم الوسيط/ مادة (قرأ): ٢/ ٧٧٢.

المبحث الأوّل

الإجمال في التنزيه غالباً

من المعلوم لمن عرف نصوص الكتاب والسنة أن الله تعالى قد نزه نفسه، وأن رسوله ﷺ قد نزهه عن كل ما لا يليق بوحدانيته وكماله وعظمته من النقائص والعيوب، ومن التمثيل والشرك.

ومن المعلوم كذلك أن تنزيه الله تعالى لنفسه، وتنزيه رسوله ﷺ له، قد كان بلفظ التسبيح تارة، وبالألفاظ الدالة على معنى التسبيح[(١)] تارة أخرى، كأدوات النفي المعروفة في اللغة.

والذي ينبغي أن يعلم هنا هو أن هذه التنزيهات الواردة في الكتاب والسنة وردت في الغالب مفيدة تنزيه الله تعالى عن النقص والتمثيل على سبيل العموم، غير مخصصة بصفة معينة، وهذا هو المقصود بالإجمال في التنزيه هنا[(٢)].

وهذا الإجمال في التنزيه واضح جلي في كلمة (سبحان الله) التي سبق أن معناها الأصلي في الشرع: تنزيه الله ﷻ من كل سوء، كما جاءت بذلك الأحاديث والآثار[(٣)]، فإن هذا المعنى عام في التنزيه،

---

(١) سبق بيان هذه الألفاظ في ١/ ١١٢ ـ ١٤٤، وهي: التقديس، والسلام، والتعالى، و(حاش لله)، والنفي الوارد في حق الله تعالى.

(٢) انظر: منهاج السنة النبوية، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٢/ ١٨٥، والصفدية، له أيضاً، بتحقيق الدكتور محمد رشاد سالم: ١/ ٢٩٣، وشرح العقيدة الواسطية للشيخ محمد بن صالح العثيمين: ١/١٤٥، ١٤٦.

(٣) انظر: ١/ ٦٨ من البحث.

وليس خاصاً بصفة معينة، فيفيد تنزيه الله ﷻ عن كل ما لا يليق به من النقائص والعيوب والأمثال والشركاء التي نفاها الله تعالى عن نفسه ونفاها عنه رسوله ﷺ.

وهكذا جاء التسبيح في كثير من آيات القرآن الكريم مفيداً تنزيه الله ﷻ على الإجمال، مثل:

١ ـ قوله تعالى ـ حكاية عن الملائكة ـ: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾ [البقرة: ٣٢].

فقول الملائكة هنا: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ تنزيه مجمل، يفيد عموم التنزيه لله تعالى عن كل ما لا يليق بجلاله وعظمته(١)، ومن ضمن ذلك تنزيهه تعالى عن أن يشاركه أحد في كمال العلم، كما دل عليه قولهم: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا ...﴾.

٢ ـ وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨].

وهذه الآية قد سبق الكلام عليها مراراً(٢)، والشاهد منها قوله: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾؛ فإنه يفيد تنزيه الله تعالى على الإجمال عن كل ما لا يليق به تبارك وتعالى، ولهذا قال الحافظ ابن كثير ـ في بيان معناه ـ: «أي وأنزه الله وأجلّه وأعظمه وأقدّسه عن أن يكون له شريك أو نظير أو عديل أو نديد، أو ولد أو والد أو صاحبة، أو وزير أو مشير تبارك وتقدّس وتنزه وتعالى عن ذلك كله علوا كبيراً» اهـ(٣).

٣ ـ وقوله تعالى: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن

---

(١) سبق شرح هذه الآية في ١/ ٢٨٢ ـ ٢٨٣.

(٢) سبق الكلام على هذه الآية في ١/ ١٧٩، ٣١١، ٤٢٦، ٥٠١.

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٥١٤.

قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧ ـ ١٠٨].

وهذا خبر عن مؤمني أهل الكتاب، وأنهم إذا تلي عليهم القرآن سجدوا لله تعالى، ونزهوه بقولهم: (سبحان ربنا)، وهذا تنزيه مجمل يفيد تنزيه الله ﷻ عن كل ما لا يليق به(١)، ومن ضمن ذلك تنزيهه تعالى عن إخلاف الوعد، ولهذا قالوا: ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾.

٤ ـ وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء: ٢٢].

فهذا تنزيه مجمل نزّه الله تعالى به نفسه عن كل ما يصفه به المشركون مما لا يليق به، بعد أن قرر انفراده بالألوهية في السموات والأرض بأوضح برهان وأبلغه(٢).

٥ ـ وقوله تعالى ـ في قصة نبيه وكليمه موسى عليه السلام ـ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾﴾ [النمل: ٨].

فقوله تعالى: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ داخل فيما نودي به موسى عليه السلام في ذلك الموقع المبارك، وهو تنزيه مجمل يفيد تنزيه الله تعالى من كل نقص وعيب، ومن كل مثيل وشريك(٣).

٦ ـ وقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [القصص: ٦٨].

---

(١) انظر: الكلام على هذه الآية في ١/٣١٨ ـ ٣١٩ من هذا البحث.
(٢) سبق تفسير الآية في ١/٢٣١ ـ ٢٣٢.
(٣) سبق تفسير هذه الآية في ١/٢٥٥ ـ ٢٦٣.

فقوله تعالى هنا: (سبحان الله وتعالى عما يشركون) تنزيه لله تعالى عن كل شرك في حقه سبحانه[١]، فيشمل الشرك في الربوبية، والشرك في الألوهية، والشرك في الأسماء والصفات[٢].

٧ ـ وقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [يس: ٣٦].

وهذا ابتداء ثناء من الله تعالى لنفسه المقدسة بالتسبيح الدال على تنزيهه تنزيهاً مجملاً من كل ما لا يليق بجلاله وعظمته، والدال كذلك على التعجب لظهور آيات عظمته وشواهد ربوبيته وألوهيته[٣].

٨ ـ وقوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [يس: ٨٣].

قال الحافظ ابن كثير ـ في تفسير هذه الآية ـ: «أي: تنزيه وتقديس وتبرئة من السوء للحي القيوم الذي بيده مقاليد السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله، وله الخلق والأمر، وإليه يرجع العباد يوم المعاد فيجازي كل عامل بعمله، وهو العادل المنعم المتفضل» اهـ[٤].

وهذا ـ كما ترى ـ إجمال في التنزيه.

٩ ـ وقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الصافات: ١٨٠].

---

(١) سبق الكلام على هذه الآية في ١/ ٢٦٣.
(٢) سيأتي ـ إن شاء الله ـ بيان الشرك وأنواعه عند الرد على تسبيح المشركين بالله تعالى في العبادة. انظر: ٢/ ٣٠٣ من البحث.
(٣) انظر: ما سبق من تفسير الآية في ١/ ٢٦٥ و٢/ ٣٤.
(٤) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٥٩٠. وانظر ما سبق في ١/ ٢٣٣ من هذا البحث.

وهذا تنزيه شامل ـ بطريق الإجمال ـ لكل وصف وصفه به المشركون والكفرة من عباده، مما يخالف ما جاءت به الرسل من توحيده، وإثبات صفات الكمال اللائقة بعظمته وجلاله[1].

١٠ ـ وقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الزخرف: ٨٢].

وفي هذه الآية أيضاً ينزه الله تعالى نفسه تنزيهاً إجمالياً عن كل ما لا يليق بكماله وعظمته وألوهيته مما وصفه به المشركون والجاهلون من الخلق.

فهذه أمثلة من الإجمال في التنزيه بلفظ التسبيح في كتاب الله تعالى.

ومن أمثلة الإجمال في التنزيه بغير لفظ التسبيح:

قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ٤]، وقوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

وهذه الآيات سبق بيان معانيها عند الكلام على النفي الوارد في حق الله تعالى، في مباحث معاني التسبيح[2].

وقد نفى الله تعالى في هذه الآيات التمثيل عن نفسه المقدسة على طريق الإجمال، وذلك باسم المثل والكفء والسمي[3]، «فبين بذلك أن الله لا مثل له، ولا سمي، ولا كفء، فلا يجوز أن يكون شيء من صفاته مماثلاً لشيء من صفات المخلوقين، ولا أن يكون المخلوق

---

(١) انظر: ما سبق في ١/ ٢٣٤، ٢٤٤ ـ ٢٤٥ من البحث.

(٢) انظر: ١/ ١٣٤، ١٣٩، ١٤٤ من البحث.

(٣) انظر: منهاج السنة النبوية، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٢/ ١٨٥.

مكافئاً ولا مسامياً له في شيء من صفاته ﷻ»[(١)].

وإذا علم ـ بهذه الآيات وأمثالها ـ ورود التنزيه مجملاً في القرآن الكريم، فقد ذكر أهل العلم أن الله تعالى بعث رسله ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ بالإجمال في التنزيه، ما لم يقم سبب يقتضي التفصيل فيه، فطريقة القرآن الكريم في التنزيه هي طريقة رسل الله تعالى ـ عليهم السلام ـ[(٢)]، وهي كذلك طريقة أتباع الرسل من أهل السنة والجماعة الذين ساروا على هدي الكتاب والسنة[(٣)].

وضل في هذا الباب طوائف من أهل البدع العقدية، فجعلوا تنزيههم لله تعالى قائماً على النفي المفصل، كما سيأتي بيانه مع الرد عليه في موضعه[(٤)]، إن شاء الله تعالى.

وقد أشار بعض أهل العلم إلى الحكمة من ورود التنزيه بالإجمال غالباً في الكتاب والسنة؛ لأن الإجمال في النفي أعم وأبلغ في التنزيه، وأحسن وأكمل في تعظيم الموصوف، فإن التفصيل في النفي لغير سبب يقتضيه فيه سخرية وتنقص بالموصوف.

ألا ترى أنك لو قلت لملك من الملوك: أنت ملك لا يساميك أحد من ملوك الدنيا في عصرك، لكان هذا مدحاً بالغاً له؛ لأنك أجملت في النفي.

---

(١) مقتبس من: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ٥١٦.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ٣٧، و٢٠/ ١٢٦، والتدمرية له: ص٨، واقتضاء الصراط المستقيم، له أيضاً: ٢/ ٨٥٢، ٨٥٤.

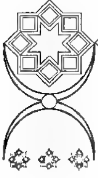
(٣) انظر: منهاج السنة النبوية، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٢/ ١٨٥، ومجموع الفتاوى، له: ٦/ ٦٦، وشرح القصيدة النونية، لهراس: ٢/ ٢٣٤ ـ ٢٣٥.

(٤) في الرد على المفاهيم الخاطئة في التسبيح، وهو موضوع الباب الخامس.

ولو قلت له: أنت ملك لست ببخيل، ولا جبان، ولا فقير، ولا ضعيف، ولا ظالم، وما أشبه ذلك من التفصيل في نفي العيوب، لعدّ هذا استهزاء به وسوء أدب معه[1].

فتبين إذا أنّ الإجمال في التنزيه هو التنزيه الصحيح شرعاً وعقلاً، وأن التفصيل في التنزيه لغير سبب يقتضيه طريق فاسد شرعاً وعقلاً، والله الهادي إلى سواء السبيل.

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الدمشقي: ١/ ٧٠، وتقريب التدمرية، للشيخ محمد بن صالح العثيمين: ص٢٠، وتعليقات على العقيدة الواسطية، له: ص١١.




المبحث الثاني

التفصيل في الإثبات

(ذكر الأسماء والصفات الدالة على التنزيه)

المقصود بالتفصيل في الإثبات: أن صفات الكمال التي أثبتها الله تعالى لنفسه، وأثبتها له رسوله ﷺ، هذه الصفات الثبوتية وردت على التفصيل في الكتاب والسنة، أي: أنها وردت متعددة الألفاظ، ومتنوعة المعاني.

وورود أسماء الله تعالى وصفاته على التفصيل في الكتاب والسنة ليس خافياً على من له أدنى معرفة بنصوص المصدرين؛ لأن دلالة النصوص على ذلك أعظم وأوضح من دلالتها على غيره من المعارف والأحكام[١].

ونظرة متدبرة في كتاب الله تعالى تبين هذا الأمر وتؤكده:

ـ ففي أولى سور القرآن وأعظمها ـ الفاتحة ـ إثبات خمسة أسماء لله تعالى، وهي: (الله، ورب العالمين، والرحمن، والرحيم، ومالك يوم الدين)، وهذه الأسماء دلت على أربعة أوصاف لله تعالى ﷻ، وهي: الإلهية، والربوبية، والرحمة، والملك[٢]. هذا بالإضافة إلى ما في لفظ (الحمد) الذي افتتحت به السورة من إثبات الكمال لله تعالى على الإجمال؛ لأن حقيقة الحمد: الإخبار عن محاسن المحمود الذاتية

---

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٧/ ١٢٧ ـ ١٢٨.

(٢) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم: ١/ ٤٩، ٥١.

والفعلية، مع محبته والرضا عنه والخضوع له، ولهذا لا يحصل الحمد على هذا الوجه، ولا ينبغي إلا لمن هذا شأنه، وهو الله ﷻ[١].

- وفي أعظم آية في كتاب الله تعالى - وهي آية الكرسي[٢] - إثبات خمسة أسماء أيضاً لله تعالى، وهي: (الله، والحي، والقيوم، والعلي، والعظيم)، وتتضمن هذه الأسماء خمس صفات، هي: الإلهية، والحياة، والقيومية، (وهي قيامه بنفسه وعلى غيره)، والعلو، والعظمة. بالإضافة إلى ما في الآية من إثبات صفة العلم والإذن والمشيئة، وغير ذلك من الصفات التنزيهية[٣].

- وفي سورة الإخلاص التي تعدل ثلث القرآن[٤] إثبات ثلاثة أسماء وأوصاف لله تعالى، وهي (الله، والأحد، والصمد)، مع الصفات التنزيهية التي اشتملت عليها السورة[٥].

- وفي قوله تعالى - في أول سورة الحديد -: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٢ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ۝٣ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١١/ ١٣٣، ومدارج السالكين، لابن القيم: ١/ ٤٩، وبدائع الفوائد، له: ١/ ٣٣٣.

(٢) هي الآية (٢٥٥) من سورة البقرة، وكونها أعظم آية في كتاب الله ثابت بحديث أبي بن كعب رضي الله عنه، سبق إيراده في ص١/ ١٣٦.

(٣) انظر: شرح ما تضمنته الآية من الأسماء والصفات في شرح العقيدة الواسطية، للشيخ محمد بن صالح العثيمين: ١/ ١٦٤ - ١٧٩، وانظر: ما سبق من الكلام على الآية في ١/ ١٣٦ - ١٣٨.

(٤) ثبت في أحاديث سبقت الإشارة إليها في ١/ ١٣٨.

(٥) انظر: ما سبق من الكلام على هذه الصفات التنزيهية في ١/ ١٣٩.

مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾﴾ [الحديد: ١ ـ ٦].

أثبت الله تعالى لنفسه في هذه الآيات عشرة أسماء متضمنة عشر صفات، وسبع صفات أخرى، وهي:

١ ـ اسمه (الله) الدال على صفة (الألوهية).

٢ ـ اسمه (العزيز) الدال على صفة (العزة).

٣ ـ واسمه (الحكيم) الدال على صفة (الحكمة).

٤ ـ واسمه (القدير) الدال على صفة (القدرة).

٥ ـ واسمه (الأول) الدال على صفة (الأولية).

٦ ـ واسمه (الآخر) الدال على صفة (الآخرية).

٧ ـ واسمه (الظاهر) الدال على صفة (الظهور).

٨ ـ واسمه (الباطن) الدال على صفة (البطون).

٩ ـ واسمه (العليم) الدال على صفة (العلم).

١٠ ـ واسمه (البصير) الدال على صفة (البصر).

١١ ـ وصفة (الملك) من قوله: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

١٢ ـ وصفة (الإحياء).

١٣ ـ وصفة (الإماتة) من قوله: ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾.

١٤ ـ وصفة (الخلق) من قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾.

١٥ ـ وصفة (الاستواء) من قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾.

١٦ ـ وصفة (العلم) من قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

١٧ ـ وصفة (المعية) من قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾.

- وفي قوله تعالى - في آخر سورة الحشر -: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: ٢٢ - ٢٤].

أثبت الله تعالى لنفسه - في هذه الآيات - سبعة عشر اسماً دالة على صفات كماله ونعوت جلاله وعظمته.

فهذه أمثلة لورود أسماء الله تعالى وصفاته على التفصيل في القرآن الكريم.

وكذلك السنة النبوية، فإن الأحاديث الثابتة عن النبي ﷺ في إثبات أسماء الله وصفاته على التفصيل كثيرة جداً لا يمكن حصرها، وقد عني بإيراد أمثلة منها أئمة السنة في مصنفاتهم المختلفة في تقرير العقيدة الصحيحة والرد على الفرق الضالة في العقيدة.

وكما سبق أن ما جاء به الكتاب والسنة من الإجمال في التنزيه هو طريقة الرسل وأتباعهم، فكذلك ما جاء به الكتاب والسنة من التفصيل في الإثبات هو طريقة رسل الله وطريقة أهل السنة والجماعة المتبعين للرسل فيما جاؤوا به.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وطريقة الرسل - صلوات الله عليهم - إثبات صفات الكمال لله على وجه التفصيل، وتنزيهه بالقول المطلق عن التمثيل، فطريقهم إثبات مفصل، ونفي مجمل»(١).

وقال الإمام ابن قيم الجوزية: «فأما الرسالة، فإنها جاءت بإثبات

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/٥١٥.

الصفات إثباتاً مفصلاً على وجه أزال الشبهة، وكشف الغطاء، وحصل العلم اليقيني، ورفع الشك والريب، فثلجت له الصدور، واطمأنت به القلوب، واستقر به الإيمان في نصابه. ففصلت الرسالة الصفات والنعوت والأفعال أعظم من تفصيل الأمر والنهي، وقررت إثباتها أكمل تقرير في أبلغ لفظ، وأبعده من الإجمال والاحتمال، وأمنعه من قبول التأويل» اهـ[١].

وتظهر الحكمة من التفصيل في الإثبات في ثلاثة أمور:

أحدها: أن التفصيل في الإثبات أبلغ وأكثر في المدح من الإجمال، ولذلك جاءت الصفات الثبوتية كثيرة في الكتاب والسنة[٢].

والثاني: أن صفات الله الثبوتية في الكتاب والسنة كلها صفات كمال، فوردت على التفصيل والتكرار؛ لأنه كلما تعددت وتنوعت دلالاتها، زاد من كمال الموصوف ما هو أعظم، وكلما كثر الإخبار عنها وتكرر؛ ظهر من كمال الموصوف بها ما لم يكن معلوماً من قبل[٣].

والثالث: أن أعظم غايات الدين أن يعرف العباد ربهم بكماله وجماله وجلاله، ولهذا عرف الكتاب والسنة الرب تعالى بأسمائه وصفاته وأقواله وأفعاله تعريفاً مفصلاً، حتى كأن العباد يشاهدونه ﷻ. فلا يستقر للعبد قدم في معرفة الله تعالى والإيمان به حتى يعرف صفات الرب جل جلاله معرفة تخرجه عن حد الجهل بربه، ويؤمن بها كما

---

(١) مدارج السالكين: ٣/ ٣٢٨.

(٢) انظر: تعليقات على العقيدة الواسطية، للشيخ محمد بن صالح العثيمين: ص١١.

(٣) انظر: شرح العقيدة الواسطية، للشيخ محمد بن صالح العثيمين: ١/ ١٤٥، وتقريب التدمرية، له: ص٢٠، والقواعد المثلى، له أيضاً: ص٣٣.

وردت في الكتاب والسنة[١].

وإذا علم ما سبق تقريره، فينبغي أن يعلم أن أسماء الله وصفاته التي ورد إثباتها على التفصيل في الكتاب والسنة دالة على التنزيه لله ﷻ بأحسن دلالة، وذلك أن هذه الأسماء والصفات دالة على ثبوت الكمال لله تعالى، وما دل على ثبوت الكمال له، فهو يدل على تنزيهه عن النقص المناقض لكماله؛ لأن ثبوت الكمال مستلزم نفي نقيضه، فثبوت الحياة ـ مثلاً ـ يستلزم نفي الموت، وثبوت العلم يستلزم نفي الجهل، وثبوت القدرة يستلزم نفي العجز، وهكذا كل صفة كمال تستلزم نفي نقيضها من النقص والعيب[٢].

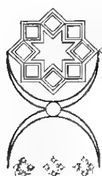
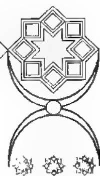
ولهذا قرن الله تعالى أسماءه الحسنى الدالة على صفات كماله بالتسبيح في الآيات التي سبق ذكرها من أول سورة الحديد، ومن آخر سورة الحشر؛ لأن اتصافه بهذه الكمالات من الأسماء والصفات والأفعال يوجب تسبيحه وتنزيهه عن ما لا يليق به من النقائص والعيوب والتمثيل.

ومن هنا فمن آمن بأسماء الله تعالى وصفاته كما جاءت في الكتاب والسنة، وعرفها حق معرفتها، استدل بها على ما يتنزه الله عنه من الصفات والأقوال والأفعال، والله الموفق.

---

(١) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم: ٣/ ٣٢٤، ٣٢٥، وشرح القصيدة النونية، للشيخ محمد خليل هراس: ٢/ ١٩٦ ـ ١٩٧.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ٧١ و١٦/ ٣٦٣.

المبحث الثالث

التفصيل في التنزيه وأسبابه

في الكتاب والسنة آيات وأحاديث جاء فيها تنزيه الله تعالى على التفصيل، بنفي أمور معينة مخصوصة عنه سبحانه، لمنافاتها الكمال الواجب لله ﷻ.

وليس في هذا تعارض مع ما سبق تقريره في المبحث الأول من أن طريقة الكتاب والسنة هي الإجمال في التنزيه؛ لأن ذلك بالنظر إلى كون الإجمال في التنزيه هو الغالب في الكتاب والسنة، وأما التفصيل في التنزيه فوقع في الكتاب والسنة لأسباب اقتضته، وهو من البيان والهدى للناس في هذا الباب الذي هو أعظم مقاصد الكتاب والسنة.

ومن الأسباب المقتضية للتفصيل في التنزيه في الكتاب والسنة ما يأتي:

أ ـ تكذيب ما ادّعاه المفترون في حق الله تعالى(١):

فإن الكفار من اليهود والنصارى والمشركين قد افتروا على الله تعالى، وادعوا في حقه أموراً مما ينافي وحدانيته وألوهيته وكمال صفاته، فكذبهم الله تعالى فيما ادعوه، ونزه نفسه المقدسة عما افتروه عليه مما لا يليق به، ومن ذلك:

---

(١) انظر: أحكام من القرآن، للشيخ محمد بن صالح العثيمين: ص٢٩٨، والقواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى، له: ص٣٣، وتقريب التدمرية، له أيضاً: ص٢١.

١ ـ تنزيه الله تعالى عن أن يكون له ولد:

جاء هذا التنزيه في عدة مواضع من القرآن الكريم رداً على اليهود والنصارى والمشركين في نسبتهم الولد إلى الله تعالى.

أما اليهود والنصارى فحكى الله فريتهم في قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [التوبة: ٣٠].

وأما المشركون فحكى الله فريتهم في قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَـٰتِ سُبْحَـٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [النحل: ٥٧].

وذلك لأن هؤلاء المشركين زعموا أن الملائكة بنات الله، في حين أنهم كانوا يكرهون البنات ويشتهون الذكور، كما قال الله تعالى أيضاً فيهم: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنَـٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الإسراء: ٤٠].

فكانت هذه العقائد الباطلة ظاهرة عند اليهود والنصارى والمشركين، ولهذا جاء التنزيه فيها مفصلاً لبيان بطلانها ومنافاتها لكمال الله تعالى، وجاء تنزيه الله تعالى عن الولد بلفظ التسبيح في عشر آيات من القرآن الكريم، منها الآية السابقة في حكاية مقالة المشركين، وتقدم ذكر بقيتها مع بيان معانيها في الكلام على صيغة الإفراد في التسبيح(١)، وفي الكلام على تسبيح الله تعالى لنفسه المقدسة(٢).

وجاء تنزيه الله تعالى عن اتخاذ الصاحبة أو الولد في الحديث

---

(١) انظر: ١/١٧٧ ـ ١٩١ من البحث.
(٢) انظر: ١/٢٤٨ ـ ٢٧٢ من البحث.

القدسي الذي رواه ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**قال الله: كذبني ابن آدم، ولم يكن له ذلك، وشتمني، ولم يكن له ذلك، أما تكذيبه إياي، فزعم أني لا أقدر على أن أعيده كما كان، وأما شتمه إياي، فقوله: لي ولد، فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولداً**»(١).

وفي الحديث النبوي عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما أحد أصبر على أذى يسمعه من الله تعالى، إنهم يجعلون له نداً، ويجعلون له ولداً، وهو مع ذلك يرزقهم ويعافيهم ويعطيهم**»(٢).

٢ ـ تنزيه الله تعالى عن الفقر:

وجاء هذا التنزيه في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾ [آل عمران: ١٨١].

وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما في سبب نزول هذه الآية قال: «لما نزل قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ﴾ [البقرة: ٢٤٥]، قالت اليهود: يا محمد، أفقير ربك يسأل عباده القرض؟ فأنزل الله: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ﴾ الآية»(٣). وعن قتادة أيضاً نحو هذه الرواية(٤).

فتبين أن مصدر هذه الفرية من اليهود الذين كانوا على عهد

---

(١) تقدم تخريجه في ١/١٩١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ١٠/٥١١، برقم (٦٠٩٩)، ومسلم في صحيحه: ٤/٢١٦٠، برقم (٢٨٠٤)، واللفظ لمسلم.

(٣) رواه ابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم: ٣/٨٢٨، وذكره ابن كثير في تفسير القرآن العظيم: ١/٤٤٣، والسيوطي في الدر المنثور: ٢/١٨٦ ـ ١٨٧.

(٤) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره: ٣/٥٣٦.

رسول الله ﷺ، وقد توعدهم الله بقوله تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ أي: «سنكتب ما قالوا من الإفك والفرية على ربهم»[(١)]، وهذا «تهديد ووعيد، ولهذا قرنه تعالى بقوله: ﴿وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾، أي: هذا قولهم في الله، وهذه معاملتهم رسل الله، وسيجزيهم الله على ذلك شر الجزاء»[(٢)]، وهو قوله تعالى: ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾، أي: «عذاب نار محرقة ملتهبة»[(٣)]، «يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً وتحقيراً وتصغيراً»[(٤)].

فقد نزه الله نفسه عن الفقر على الخصوص لما وجد من الناس من قال في حقه هذه المقالة الشنيعة التي لا يمكن أن تصدر إلا من معاند سفيه، وإلا فإن كل ذي عقل صحيح يدرك أن رب العالمين يستحيل عليه الفقر، بل هو الذي يفتقر إليه كل شيء، ولا يفتقر هو إلى شيء، ﴿۞ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: ١٥].

٣ ـ تنزيه الله تعالى عن البخل:

وهذا التنزيه جاء في كتاب الله تعالى رداً على اليهود أيضاً، كما قال سبحانه: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [المائدة: ٦٤].

فقولهم: (يد الله مغلولة) يعنون: أن الله يبخل ويمنع فضله،

---

(١) تفسير الطبري: ٣/ ٥٣٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ١/ ٤٤٣.

(٣) تفسير الطبري: ٣/ ٥٣٨.

(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ١/ ٤٤٣.

كالمغلولة يده الذي لا يقدر أن يبسطها بعطاء ولا بذل معروف، تعالى الله وتقدس عما يقول أعداء الله[(١)].

ولما كانت مقالة اليهود هذه من المقالات الشنيعة التي لا يجوز وصف الله تعالى بها، لعنهم الله وجزاهم بجنس مقالتهم، فقال سبحانه: ﴿غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾، أي: أمسكت أيديهم عن الخيرات، وقبضت عن الانبساط بالعطيات، ﴿وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ﴾، أي: وأبعدوا من رحمة الله وفضله بسبب الذي قالوا من الكفر والكذب على الله تعالى[(٢)].

وهذا الوصف الشنيع منطبق على اليهود تماماً، فهم ـ قديماً وحديثاً ـ أبخل الناس وأقلهم إحساناً، وأسوأهم ظناً بالله تعالى، وأبعدهم عن رحمة الله التي وسعت كل شيء، وملأت أقطار العالم العلوي والسفلي[(٣)].

ثم نزه الله تعالى نفسه عن ذلك الوصف الجائر بإثبات كمال جوده، وكثرة عطائه، فقال ﷻ: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾ أي: بل يداه الكريمتان مبسوطتان بالبذل والعطاء، غير مغلولتين ولا مقبوضتين، ينفق كيف يشاء، فيعطي هذا كثيراً، ويعطي هذا قليلاً، ويمنع هذا تبعاً لحكمته.

وفي هذا دليل على أن لله تعالى يدين حقيقيتين لائقتين بجلاله وعظمته[(٤)].

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٤/ ٦٣٩.

(٢) انظر: المصدر السابق: ٤/ ٦٣٩.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص٢٣٨، وشرح العقيدة الواسطية، للشيخ محمد بن صالح العثيمين: ١/ ٢٩٥.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ٤/ ٦٣٩، ٦٤١ ـ ٦٤٢، وشرح العقيدة الواسطية، لابن عثيمين: ١/ ٢٩٩.

ب ـ دفع توهم نقص في صفة من صفات الله تعالى[١]:

ويرد التنزيه مفصلاً ـ في الكتاب أو السنة ـ لدفع توهم النقص في بعض صفات الله تعالى، ومما ورد من التنزيه لذلك:

١ ـ قول الله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [الفرقان: ٥٨].

ففي هذه الآية نزه الله تعالى نفسه عن الموت بقوله: ﴿ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾، وجاء هذا التنزيه بعد اسمه (الحي)، لبيان أن له الحياة المطلقة الدائمة التي لا موت معها[٢]، وأن حياته ليست كحياة المخلوق التي يسبقها العدم، ويعقبها الموت والفناء.

٢ ـ وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤].

يعني: وما كان ربك ذا نسيان[٣]، ففيه تنزيه الله تعالى عن النسيان، وهو ضد الذكر؛ لأن الله قد أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً فلا يطرأ عليه ما يطرأ على المخلوق من نسيان وذهول وغفلة، كما قال تعالى ـ على لسان نبيه موسى عليه السلام، في خطابه لفرعون حين قال له ـ: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَـٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ [طه: ٥١ ـ ٥٢][٤].

قال الحافظ ابن كثير ـ في معنى قوله: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ ـ: «أي: لا يشذ عنه شيء ولا يفوته صغير ولا كبير ولا ينسى شيئاً، يصف علمه تعالى بأنه بكل شيء محيط، وأنه لا ينسى شيئاً تبارك وتعالى وتقدس وتنزه، فإن علم المخلوق يعتريه نقصان:

---

(١) انظر: المصادر التي سبقت الإحالة عليها في السبب الأول.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ٩/ ٤٠٢.

(٣) انظر: تفسير الطبري: ٨/ ٣٦١.

(٤) انظر: شرح القصيدة النونية، لهراس: ٢/ ٦٢.

أحدهما: عدم الإحاطة بالشيء. والآخر: نسيانه بعد علمه، فنزه نفسه عن ذلك» اهـ[1].

وأما قوله تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]، وقوله سبحانه: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ [السجدة: ١٤]، وكذا قوله ﷻ: ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ [الأعراف: ٥١].

فالنسيان المسند إلى الله تعالى في هذه الآيات كلها معناه: الترك[2]، وهو غير النسيان الذي ورد تنزيه الله تعالى عنه في الآيات الأخرى.

٣ ـ وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [ق: ٣٨].

ففي هذه الآية نزه الله تعالى نفسه عن اللغوب، ـ وهو الإعياء والتعب[3] ـ، دفعاً لتوهم النقص في قدرته.

وعن قتادة ـ في هذه الآية ـ قال: «أكذب الله اليهود والنصارى وأهل الفرى على الله، وذلك أنهم قالوا: إن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام، ثم استراح يوم السابع، وذلك عندهم يوم السبت، وهم يسمونه يوم الراحة»[4].

فالله ﷻ موصوف بكمال القدرة، منزه عما يضادها من الإعياء والتعب واللغوب.

٤ ـ وما جاء في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: «كنا مع

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ١٦٣.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ٥/ ٥١٠ و٦/ ٤١١.

(٣) انظر: القاموس المحيط، للفيروزآبادي/ مادة (لغب): ص١٧٢.

(٤) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره: ١١/ ٤٣٤ ـ ٤٣٥.

رسول الله ﷺ في غزاة، فجعلنا لا نصعد شرفاً ولا نعلو شرفاً، ولا نهبط في واد إلا رفعنا أصواتنا بالتكبير. قال: فدنا منا رسول الله ﷺ، فقال: «**يا أيها الناس، اربعوا**[١] **على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنما تدعون سميعاً بصيراً**. ثم قال: **يا عبد الله بن قيس، ألا أعلمك كلمة هي من كنوز الجنة: لا حول ولا قوة إلا بالله**»[٢].

وفي رواية أنه ﷺ قال: «**يا أيها الناس، اربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنه معكم، إنه سميع قريب، تبارك اسمه، وتعالى جده**»[٣].

ففي قوله ﷺ: «فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً» تنزيه لله تعالى عن الصمم - وهو ضد السمع -، وعن الغياب. وفي هذا التنزيه دفع لتوهم النقص في سمعه وبصره وقربه، ولهذا قال - بعده - ﷺ: (إنما تدعون سميعاً بصيراً)، وقال: (إنه سميع قريب)، فبين بهذا ﷺ كمال سمعه تعالى، وكمال بصره وكمال قربه، وهو قربه من داعيه وذاكره. وكلما علم العبد كمال هذه الصفات في حق الله تعالى، واستحضر قلبه ذلك، أخفى دعاءه وذكره لله تعالى مهما أمكنه، ولم يتأت له رفع الصوت به، بل يراه غير مستحسن، إلا في المواضع التي شرع فيها رفع الصوت. قال الله تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

---

(١) اربعوا - بهمزة وصل مكسورة ثم موحدة مفتوحة - أي: ارفقوا ولا تجهدوا أنفسكم [فتح الباري، لابن حجر: ١١/ ١٨٨].

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه - مع الفتح -: ١١/ ٥٠٠، برقم (٦٦١٠)، ومسلم في صحيحه: ٤/ ٢٠٧٦، برقم (٢٧٠٤)، واللفظ للبخاري.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه - مع الفتح -: ٦/ ١٣٥، برقم (٢٩٩٢).

وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية فوائد عقدية وسلوكية عديدة لإخفاء الدعاء جديرة بالاطلاع[١].

ج ـ توضيح صفة من صفات الله تعالى وتوكيد معناها:

ورد بعض صفات الله الثبوتية مقرونة بصفات تنزيهية لبيان الصفة الثبوتية وتوكيد معناها، ومثال ذلك:

حديث أبي هريرة ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يأمرنا ـ إذا أخذنا مضجعنا ـ أن نقول: «**اللهم رب السماوات ورب الأرض ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، فالق الحب والنوى، منزل التوراة والإنجيل والفرقان، أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها، اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عنا الدين، وأغننا من الفقر**»[٢].

فقد تضمن هذا الدعاء النبوي بياناً لأربعة من أسماء الله الحسنى الواردة في كتاب الله تعالى، وهي: الأول، والآخر، والظاهر، والباطن. وقد فسر النبي ﷺ كلا منها بصفة تنزيهية توضحه وتؤكد معناه، فقال ﷺ: (اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء).

وفي هذا التفسير النبوي يقول الإمام ابن قيم الجوزية:

«فانظر إلى تفسيره بتدبر ... وتبصر وتعقل لمعان
وانظر إلى ما فيه من أنواع معـ ... ـرفة لخالقنا العظيم الشان»[٣]

---

(١) انظر: بدائع الفوائد، لابن القيم: ٢/٨ ـ ١٦.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: ٤/٢٠٨٤، برقم (٢٧١٣).
(٣) الكافية الشافية (القصيدة النونية): ص٢٤٠.

يحث رَحِمَهُ اللَّهُ في هذين البيتين على تدبر تفسير النبي ﷺ لهذه الأسماء الأربعة وتعقل معانيه؛ لأنه مشتمل على أمور عظيمة من أنواع معرفة الله تعالى التي بها تحيى القلوب وتستنير الأفئدة(١).

ولابن القيم كلام على هذه الأسماء الأربعة في غاية النفاسة مستمدة من مشكاة النبوة، اقتبست منه ما يلي:

«فمعرفة هذه الأسماء الأربعة ـ وهي: الأول، والآخر، والظاهر، والباطن ـ هي أركان العلم والمعرفة، فحقيق بالعبد أن يبلغ في معرفتها إلى حيث ينتهي به قواه وفهمه.

واعلم أن لك أنت أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً، بل كل شيء فله أول وآخر وظاهر وباطن، حتى الخطرة واللحظة والنفس، وأدنى من ذلك وأكثر. فأولية الله عَزَّ وَجَلَّ سابقة على أولية كل ما سواه، وآخريته ثابتة بعد آخرية كل ما سواه. فأوليته سبقه لكل شيء وآخريته بقاؤه بعد كل شيء، وظاهريته سبحانه فوقيته وعلوه على كل شيء، ومعنى الظهور يقتضي العلو، وظاهر الشيء هو ما علا منه وأحاط بباطنه. وبطونه سبحانه إحاطته بكل شيء، بحيث يكون أقرب إليه من نفسه، وهذا قرب غير قرب المحب من حبيبه، هذا لون وهذا لون.

فمدار هذه الأسماء الأربعة على الإحاطة، وهي إحاطتان: زمانية ومكانية، فإحاطة أوليته وآخريته بالقبل والبعد، فكل سابق انتهى إلى أوليته وكل آخر انتهى إلى آخريته، فأحاطت أوليته وآخريته بالأوائل والأواخر، وأحاطت ظاهريته وباطنيته بكل ظاهر وباطن، فما من ظاهر إلا والله فوقه، وما من باطن إلا والله دونه، وما من أول إلا والله

(١) انظر: التوضيح المبين لتوحيد الأنبياء والمرسلين، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص٢٨.

قبله، وما من آخر إلا والله بعده. فالأول قدمه والآخر دوامه وبقاؤه، والظاهر علوه وعظمته، والباطن قربه ودنوه. فسبق كل شيء بأوليته، وبقي بعد كل شيء بآخريته، وعلا على كل شيء بظهوره، ودنا من كل شيء ببطونه، فلا تواري منه سماء سماء، ولا أرض أرضاً، ولا يحجب عنه ظاهر باطناً، بل الباطن له ظاهر، والغيب عنده شهادة، والبعيد منه قريب، والسر عنده علانية.

فهذه الأسماء الأربعة تشتمل على أركان التوحيد، فهو الأول في آخريته، والآخر في أوليته، والظاهر في بطونه، والباطن في ظهوره، لم يزل أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً» اهـ(١).

د ـ تقرير كمال العزة والغنى لله تعالى.

وورد التنزيه مفصلاً لتقرير عزة الله التامة وغناه المطلق، ومن ذلك:

١ ـ قول الله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الأنعام: ١٤].

فقوله ـ في هذه الآية: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ يتضمن إثباتاً وتنزيهاً، حيث أثبت سبحانه أنه الذي يطعم، أي: يرزق خلقه ما يحتاجونه من الطعام، ونزه تعالى نفسه عن الحاجة إلى الطعام، وذلك لكمال غناه عن كل شيء(٢).

٢ ـ وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨].

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين: ص١٥٠ ـ ٥١.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ٥/١٥٩.

فأخبر سبحانه ـ في هذه الآيات ـ أنه لم يخلق الجن والإنس لحاجة منه إليهم، ولا ليربح عليهم، ولكن خلقهم جوداً وإحساناً، ليعبدوه هو وحده فيربحوا هم عليه كل الأرباح[1]، كما قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧]، وقال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الروم: ٤٤].

ونزه سبحانه نفسه ـ في هذه الآيات السابقة أيضاً ـ عن الاحتياج إلى الرزق والطعام، وبين أنه هو الرزاق لجميع خلقه، يوصل إليهم أقواتهم، ويطعمهم ويسقيهم، مع كمال غناه عنهم[2].

٣ ـ والحديث القدسي الذي جاء فيه: «**يا عبادي، إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني. يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً. يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً. يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا على صعيد واحد فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر**» الحديث[3].

فإنه تعالى بين ـ في هذا الحديث ـ أن العباد لن يبلغوا ضره فيضروه، ولن يبلغوا نفعه فينفعوه، وذلك لكمال عزته، ولعظمة سلطانه، ولجلالة كبريائه فامتنع بذلك أن يرام جنابه.

ولهذا بين ـ بعد هذا ـ أن بر العباد وفجورهم الذي هو طاعتهم ومعصيتهم لا يزيد في ملكه شيئاً، ولا ينقص منه شيئاً. وأن إعطاءه

---

(١) انظر: طريق الهجرتين، لابن قيم الجوزية: ص٢٣٥ ـ ٢٣٦.
(٢) انظر: شرح القصيدة النونية، لهراس: ٢/ ٦٢.
(٣) سبق ذكر جزء منه مع تخريجه في ١/ ١٤١.

إياهم غاية ما يسألونه نسبته إلى ما عنده هي أدنى نسبة وأحقرها.

وهذا كله بخلاف المخلوقين من الملوك وغيرهم، فإنهم يبلغ بعضهم نفع بعض ومضرة بعض، ويزداد ملكهم بطاعة الرعية لهم، وينقص بعصيان الرعية، وإذا أعطى أحدهم الناس ما يسألونه نفد ما عنده ولم يغنهم، بل هم لا يعطون غيرهم إلا ليكافئه عليه بنفع أو يدفع عنه ضرراً، والخالق ﷻ منزه عن هذا كله، لكمال عزته وغناه وملكه(١).

هـ ـ التهديد:

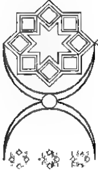
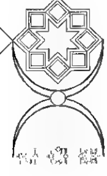
وقد يرد التنزيه مفصلاً للتهديد، كقوله تعالى ـ في مواضع من القرآن ـ: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤ و٨٥ و١٤٠ و١٤٩، وآل عمران: ٩٩]، «فإن المراد بهذه الجملة تهديد المخاطب ببيان أن الله تعالى لن يغفل عما عمل من خير أو شر، قليل أو كثير»(٢).

وجميع ما سبق بيانه أمثلة للتنزيه المفصل في الكتاب والسنة، وبها يعلم أن التفصيل في التنزيه إذا كان لسبب يقتضيه، أو لمناسبة تتطلبه، كان تنزيهاً حسناً؛ لأنه لمعالجة قضية معينة يحتاج فيها إلى التفصيل، وحينئذ لا يكون نفياً محضاً لا يتضمّن إثباتاً، بل يكون نفياً متضمناً إثبات كمال ضد المنفي لله تعالى، ولهذا يكون هذا التنزيه مفيداً المعرفة بالله تعالى والتعظيم له وحسن الاعتقاد فيه، لمن وفقه الله ﷻ.

وهذا بخلاف التفصيل في التنزيه من دون سبب معين يقتضيه، وجعل ذلك منهجاً في تنزيه الله تعالى، كما سلكه بعض الفرق في

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٨/١٩٢ ـ ١٩٣.
(٢) مقتبس من: أحكام من القرآن، للشيخ ابن عثيمين: ص٢٩٨.

وصفهم لله تعالى، فإنه تنزيه سيىء؛ لأنه لا يتضمن إثباتاً ولا يفيد مدحاً في حق الله تعالى، ولا يكسب معرفة صحيحة بالرب ﷻ؛ لأن المعرفة الصحيحة تحصل بما جاء به الكتاب والسنة من التفصيل في الإثبات والإجمال في التنزيه، والله الهادي إلى سواء السبيل.

المبحث الرابع

إثبات المثل الأعلى لله تعالى

ومن طريقة الكتاب والسنة في تنزيه الله تعالى عن النقائص والتمثيل، ووصفه بالكمال المطلق: إثبات المثل الأعلى لله ﷻ.

فقد أثبت الله لنفسه المثل الأعلى في قوله سبحانه: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ [النحل: ٦٠] حيث جعل سبحانه مثل السوء ـ وهو القبيح من المثل، المتضمن للعيوب والنقائص وسلب الكمال ـ للمشركين الذين لا يصدقون بالمعاد والثواب والعقاب. وأخبر أن له المثل الأعلى، وهو الأفضل والأطيب والأحسن والأجمل(١).

وجاء إثبات المثل الأعلى لله تعالى أيضاً في قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [الروم: ٢٧].

فأخبر ﷻ في هذه الآية أن له المثل الأعلى في السموات والأرض.

وقد اختلفت عبارات السلف في تفسير المثل الأعلى الذي أثبته الله تعالى لنفسه في الآيتين السابقتين، ووفق بين أقوالهم الإمام ابن قيم الجوزية فقال: «المثل الأعلى يتضمن الصفة العليا، وعلم العالمين بها،

(١) انظر: تفسير الطبري: ٧/ ٦٠٠، والصواعق المرسلة، لابن القيم: ٣/ ١٠٣٠.

ووجودها العلمي، والخبر عنها وذكرها، وعبادة الرب سبحانه بواسطة العلم والمعرفة القائمة بقلوب عابديه وذاكريه، فهاهنا أربعة أمور:

[**الأول**](١): ثبوت الصفات العليا لله سبحانه في نفس الأمر، علمها العباد أو جهلوها. وهذا معنى قول من فسره بالصفة.

الثاني: وجودها في العلم والتصور، وهذا معنى قول من قال من السلف والخلف: إنه ما في قلوب عابديه وذاكريه من معرفته وذكره ومحبته وإجلاله وتعظيمه، وهذا الذي في قلوبهم من المثل الأعلى لا يشترك فيه غيره معه، بل يختص به في قلوبهم كما اختص في ذاته. وهذا معنى قول من قال من المفسرين: أهل السماء يعظمونه ويحبونه ويعبدونه، وأهل الأرض يعظمونه ويجلونه، وإن أشرك به من أشرك، وعصاه من عصاه، وجحد صفاته من جحدها، فكل أهل الأرض معظمون له مجلون له خاضعون لعظمته مستكينون لعزته وجبروته، قال تعالى: ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [البقرة: ١١٦]، فلست تجد أحداً من أوليائه وأعدائه إلا والله أكبر في صدره وأكمل وأعظم من كل ما سواه.

الثالث: ذكر صفاته والخبر عنها، وتنزيهها عن النقائص والعيوب والتمثيل.

الرابع: محبة الموصوف بها، وتوحيده والإخلاص له، والتوكل عليه، والإنابة إليه، وكلما كان الإيمان بالصفات أكمل كان هذا الحب والإخلاص أقوى.

فعبارات السلف تدور حول هذه المعاني الأربعة لا تتجاوزها» اهـ(٢).

---

(١) ليس في الأصل المنقول منه.

(٢) الصواعق المرسلة: ٣/ ١٠٣٤ ـ ١٠٣٥.

ومن تأمل هذه المعاني وجد أن المعنى الأول هو الأساس لبقية المعاني والجامع لها، وهذا يرجح كون المثل الأعلى بمعنى: الصفة، والأعلى اسم تفضيل، أي: أعلى من غيره[(١)].

فقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي: له الصفة العليا التي هي أعلى من كل صفة، فلا صفة أعلى منها.

وهذا المعنى موافق لما جاء في بعض الروايات عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢٧]، قال: «يقول: ليس كمثله شيء»[(٢)].

فجعل قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

وهذا المعنى أيضاً موافق لتفسير بعض السلف للمثل الأعلى بـ (لا إله إلا الله)، كما جاء عن قتادة ـ في قوله تعالى ـ: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ـ قال: «مثله أنه لا إله إلا هو ولا رب غيره»[(٣)].

وقال الإمام ابن جرير الطبري: «وقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ يقول: ولله المثل الأعلى في السموات والأرض، وهو أنه لا إله إلّا هو وحده لا شريك له، ليس كمثله شيء، فذلك المثل الأعلى، تعالى ربنا وتقدس» اهـ[(٤)].

وإذا فهم هذا، فإثبات المثل الأعلى لله تعالى إثبات للكمال

---

(١) انظر: تفسير غريب القرآن، لابن قتيبة: ص٢٠، والصواعق المرسلة: ٣/ ١٠٣٠.
(٢) رواه الطبري في تفسيره: ١٠/ ١٨١.
(٣) رواه الطبري في تفسيره: ١٠/ ١٨١.
(٤) تفسير الطبري: ١٠/ ١٨٠.

المطلق الذي لا حد له، ولا نقص فيه بوجه من الوجوه، ولا مماثلة ولا شرك فيه لله ﷻ، ولهذا قال الحافظ ابن كثير ـ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ ـ: «أي: الكمال المطلق من كل وجه» اهـ[1].

وتقرير ذلك: «أن الصفات ثلاثة أنواع: صفات كمال، وصفات نقص، وصفات لا تقتضي كمالاً ولا نقصاً. وإن كانت القسمة التقديرية تقتضي قسماً رابعاً، وهو ما يكون كمالاً ونقصاً باعتبارين.

والرب تعالى منزه عن الأقسام الثلاثة، وموصوف بالقسم الأول، وصفاته كلها صفات كمال محض، فهو موصوف من الصفات بأكملها، وله من الكمال أكمله. وهكذا أسماؤه الدالة على صفاته هي أحسن الأسماء وأكملها، فليس في الأسماء أحسن منها، ولا يقوم غيرها مقامها ولا يؤدي معناها[2]، وتفسير الاسم منها بغيره ليس تفسيراً بمرادف محض، بل هو على سبيل التقريب والتفهيم.

وإذا عرفت هذا فله من كل صفة كمال أحسن اسم وأكمله وأتمه معنى، وأبعده وأنزهه عن شائبة عيب أو نقص. فله من صفة الإدراكات: العليم الخبير، دون العاقل الفقيه، والسميع البصير دون السامع والباصر والناظر. ومن صفات الإحسان: البر الرحيم الودود، دون الرفيق والشفوق ونحوهما. وكذلك العلي العظيم، دون الرفيع الشريف. وكذلك الكريم دون السخي. والخالق البارىء المصور، دون الفاعل الصانع المشكل. والغفور العفو، دون الصفوح الساتر. وكذلك سائر أسمائه تعالى يجري على نفسه منها أكملها وأحسنها وما لا يقوم غيره مقامه[3].

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢/٥٧٣.
(٢) انظر: بيان شيء من ذلك في: شأن الدعاء، للخطابي: ص١١١ ـ ١١٣.
(٣) انظر: في هذا أيضاً: طريق الهجرتين، لابن القيم: ص٥٣٧ ـ ٥٣٨.

«فتأمل ذلك، فأسماؤه أحسن الأسماء، كما أن صفاته أكمل الصفات، فلا تعدل عما سمى به نفسه إلى غيره، كما لا تتجاوز ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ إلى ما وصفه المبطلون والمعطلون»[١].

ويتقرر بما ثبت لله تعالى من المثل الأعلى أمران عظيمان في باب تنزيه الله تعالى عن النقائص والتمثيل، وإثبات الكمال المطلق له سبحانه:

الأمر الأول: أن العلم الإلهي لا يجوز أن يستدل فيه بشيء من الأقيسة التي تقتضي المماثلة والمساواة بين المقيس والمقيس عليه، وذلك لأن الله ﷻ لا يقاس بخلقه، ولا يمثل بهم، ولا تضرب له الأمثال، فلا يجوز أن يشترك هو والمخلوق في قياس تمثيل[٢]، يستوي فيه الأصل والفرع، ولا في قياس شمول[٣] تستوي أفراده في الحكم،

---

(١) مقتبس من: بدائع الفوائد، لابن القيم: ١/ ١٨٤ ـ ١٨٥.

(٢) قياس التمثيل: هو إثبات حكم واحد في جزئيّ لثبوته في جزئي آخر، لمعنى مشترك بينهما، وهو القياس عند الفقهاء، ويعرفونه أيضاً بأنه: إلحاق فرع بأصل في حكم لجامع، كإلحاق النبيذ بالخمر في الحرمة، لاشتراكهما في علة الحكم، وهي الإسكار.
وهذا القياس مبني على وجود مماثلة بين المقيس والمقيس عليه، والله تعالى ليس كمثله شيء.
انظر: التعريفات، للجرجاني: ص٩١، وشرح العقيدة الواسطية، لهراس: ص٧٣.

(٣) قياس الشمول: هو الاستدلال بكلي على جزئي بواسطة اندراج ذلك الجزئي مع غيره تحت هذا الكلي. وهذا القياس مبني على استواء الأفراد المندرجة تحت هذا الكلي، ولذلك يحكم على كل منها بما حكم به عليه.
ومعلوم أنه لا مساواة بين الله تعالى وبين شيء من خلقه.
انظر: شرح العقيدة الواسطية، لهراس: ص٧٣.

بل لله تعالى المثل الأعلى[١]. «ويستحيل أن يشترك في المثل الأعلى اثنان؛ لأنهما إن تكافآ لم يكن أحدهما أعلى من الآخر، وإن لم يتكافآ فالموصوف بالمثل الأعلى أحدهما وحده، ويستحيل أن يكون لمن له المثل الأعلى مثل أو نظير، وهذا برهان قاطع من إثبات صفات الكمال على استحالة التمثيل والتشبيه، فتأمله فإنه في غاية الظهور والقوة»[٢].

وتمام هذا أن يعلم أن كمال الرب تعالى أعلى من أن يتصوره الخلق أو يدركوا حقيقته، وأنه لو صور كل كمال في العالم صورة واحدة، ثم كان العالم كله على تلك الصورة، لكان نسبة تلك إلى كماله وجلاله وجماله دون نسبة سراج ضعيف إلى عين الشمس[٣].

ولهذا فالمؤمنون ـ وإن كانوا يحمدون الله ويثنون عليه ـ فهم لا يحصون ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، كما في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يقول: «**لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك**»[٤].

وهو سبحانه يحب حمد العباد له، وحمده لنفسه أعظم من حمد العباد له، ويحب ثناءهم عليه، وثناؤه على نفسه أعظم من ثنائهم عليه. وكذلك حبه لنفسه، وتعظيمه لنفسه، فهو سبحانه أعلم بنفسه من كل أحد، وهو الموصوف بصفات الكمال التي لا تبلغها عقول الخلائق، المنزه عن العيوب والنقائص والأمثال تنزيها لا يدرك الخلق كماله[٥]،

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٣/ ٢٩٧ و٥/ ٢٠١، والتدمرية، له: ص٥٠.
(٢) مقتبس من: الصواعق المرسلة، لابن القيم: ٣/ ١٠٣١ ـ ١٠٣٢.
(٣) انظر: شفاء العليل، لابن القيم: ٢/ ٧٤.
(٤) جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه: ١/ ٣٥٢، برقم (٤٨٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٥) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٨/ ١٤٤، ١٤٩.

﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].

الأمر الثاني: أن العلم الإلهي يستدل فيه بقياس الأولى، في جانب الإثبات وفي جانب التنزيه، وهو ما يتضمن إثباتاً أو نفياً بطريق الأولى والأحرى والأحق، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]، ومفاد ذلك: أن الله ﷻ أعلى من غيره، وأحق بالحمد والثناء من كل ما سواه، وأولى بالكمال وأبعد عن النقص من كل موجود(١)، فكل كمال ثبت لمخلوق من غير استلزام نقص، فالخالق تعالى أحق به، وأكمل فيه منه. وكل نقص وعيب ينزه عنه المخلوق، فالخالق سبحانه أحق بتنزيهه عنه، وأولى ببراءته منه(٢).

ومعلوم أن كل كمال لا نقص فيه بوجه من الوجوه ثبت نوعه للمخلوق، فإنما استفاده من خالقه وربه، والمعطي الكمال لغيره أولى أن يكون موصوفاً به، فالرب تعالى أولى بالكمال من المخلوق المربوب؛ لأن له المثل الأعلى، ولأنه إذا لم يتصف بذلك الكمال لكان في المخلوقين من هو أكمل منه، وهذا محال.

ومعلوم كذلك أن كل نقص وعيب في نفسه ـ وهو ما تضمن سلب هذا الكمال ـ إذا وجب نفيه عن شيء ما من أنواع المخلوقات، فإنه يجب نفيه عن الرب تبارك وتعالى بطريق الأولى(٣).

وهذا القياس ـ قياس الأولى ـ قد قرره شيخ الإسلام ابن تيمية في مواضع عديدة من كتبه وفتاويه، وذكر أنه القياس الذي جاء به الكتاب والسنة في المطالب الإلهية(٤)، ووصفه بأنه قياس عادل كامل،

---

(١) جامع الرسائل، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ١/ ١٣٦.
(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٨/ ١٤٩، والتدمرية، له: ص٥٠.
(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٣/ ٢٩٧ و٥/ ٢٠١.
(٤) انظر: المصدر السابق: ٣/ ٢٩٨ ـ ٣٠٣، ودرء تعارض العقل والنقل: ١/ ٣٠ =

وأنه طريقة عقلية شرعية سلفية[(١)].

وإنما كان هذا القياس كذلك لأنه لا يتضمن تمثيلاً ولا تسوية بين الله تعالى وغيره من الخلق، بل فيه أن الله سبحانه وغيره لا يكونان متماثلين في شيء من الأشياء، لا في إثبات ولا في نفي، بل ما كان من الإثبات الذي ثبت لله تعالى ولغيره، فإنه لا يكون إلا حقاً متضمناً مدحاً وثناء وكمالاً، والله تعالى أحق به وأكمل فيه، ليس هو فيه مماثلاً لغيره. وما كان من النفي الذي ينفى عن الله وعن غيره، فإنه لا يكون إلا نفي عيب ونقص، والله سبحانه أحق بنفي العيوب والنقائص عنه من المخلوق[(٢)].

وقد جاء القرآن بقياس الأولى في حق الله تعالى في مثل قوله سبحانه: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الروم: ٢٨].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «يقول تعالى: إذا كنتم أنتم لا ترضون بأن المملوك يشارك مالكه، لما في ذلك من النقص والظلم، فكيف ترضون ذلك لي، وأنا أحق بالكمال والغنى منكم؟، وهذا يبين أنه تعالى أحق بكل كمال من كل أحد» اهـ[(٣)].

= و٧/ ١٥٤، وبيان تلبيس الجهمية: ١/ ٣٢٨ و٢/ ٢٧٦، وشرح العقيدة الأصفهانية: ص٧٤.

(١) انظر: بيان تلبيس الجهمية: ٢/ ٥٣٦.

(٢) انظر: بيان تلبيس الجهمية: ٢/ ٥٣٦.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ٨٠. وانظر: المصدر نفسه: ٣/ ٣٠٢ ـ ٣٠٣، ودرء تعارض العقل والنقل: ١/ ٣٧، وبيان تلبيس الجهمية: ٢/ ٥٣٥.

وفي مثل قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ١٦ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ١٧﴾ [الزخرف: ١٦ ـ ١٧].

وهذا رد على المشركين الذين كانوا يقولون: الملائكة بنات الله، وهم مع هذا يكرهون البنات، ويجعلونهن نقصاً وعيباً، ويرون الذكر كمالاً، فقال الله تعالى لهم: كيف تصفون ربكم بأنقص الوصفين، وأنتم مع هذا لا ترضون هذا لأنفسكم؟.

فهذا احتجاج عليهم بطريق الأولى في بطلان قولهم: إن لله البنات، ولهم البنون، وبيان أن الرب الخالق أولى بأن ينزه عن الأمور الناقصة منكم[(١)].

وجاءت السنة بقياس الأولى في حق الله تعالى في مثل حديث أبي رزين العقيلي[(٢)] رضي الله عنه قال: «قلت: يا رسول الله، أكلنا يرى ربه مخليا به يوم القيامة، وما آية ذلك في خلقه؟ قال: «**يا أبا رزين، أليس كلكم يرى القمر ليلة البدر مخليا به، وإنما هو خلق من خلق الله؟**» قلت: بلى. قال: «**فالله أعظم وأجل**»[(٣)].

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٣/٣٠٢، ودرء تعارض العقل والنقل: ٧/٣٦٢ ـ ٣٦٣.

(٢) هو لقيط بن صبرة، ويقال: لقيط بن عامر بن صبرة بن عبد الله بن المنتفق، أبو رزين العقيلي، صحابي مشهور، رضي الله عنه. وقد قيل: إن لقيط بن عامر غير لقيط بن صبرة، وقيل: هما واحد، ينسب إلى أبيه، وإلى جده تارة، والله أعلم.
وانظر: تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني: ٨/٤٥٦ ـ ٤٥٧، وتقريب التهذيب، له: ٢/١٤٧.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه: ٥/٩٩ ـ ١٠٠، برقم (٤٧٣١)، وابن ماجه في سننه: ١/٦٤، برقم (١٨٠)، ورجال الحديث كلهم ثقات غير وكيع بن عدس =

فهذا الحديث فيه إثبات رؤية الله تعالى يوم القيامة بطريق الأولى.

واستعمل إمام أهل السنة أحمد بن حنبل قياس الأولى في تقرير كون الله تعالى عالماً بجميع المخلوقات، محيطاً بها، مع كونه تعالى بائناً عنها مستوياً على العرش، فقال: «لو أن رجلاً في يديه قدح من قوارير صاف، وفيه شراب صاف، كان بصر ابن آدم قد أحاط بالقدح من غير أن يكون ابن آدم في القدح، فالله ـ وله المثل الأعلى ـ قد أحاط بجميع خلقه، من غير أن يكون في شيء من خلقه.

وخصلة أخرى: لو أن رجلاً بنى داراً بجميع مرافقها، ثم أغلق بابها وخرج منها، كان ابن آدم لا يخفى عليه كم بيت في داره، وكم سعة كل بيت، من غير أن يكون صاحب الدار في جوف الدار، فالله ـ وله المثل الأعلى ـ قد أحاط بجميع خلقه، وعلم كيف هو، وما هو، من غير أن يكون في شيء مما خلق» اهـ[1].

والإمام أحمد وغيره من الأئمة كانوا يستدلون بهذا القياس في باب العقيدة؛ لأنه برهان عقلي صحيح، ودليل فطري قويم، بدلالة الكتاب والسنة، وهم إنما كانوا يذمون الكلام في العقيدة بلا علم، وبما يخالف الكتاب والسنة من الأقيسة والقوانين التي يدعي أصحابها

= ـ ويقال: ابن حدس ـ، وهو ابن أخي أبي رزين ﷺ، تفرد بالرواية عنه يعلى بن عطاء العامري، وذكره ابن حبان في الثقات، وقال الذهبي: «لا يعرف»، وقال الحافظ ابن حجر: «مقبول»، يعنى عند المتابعة.

وانظر: ميزان الاعتدال، للذهبي: ٤/ ٣٣٥، وتهذيب التهذيب، لابن حجر: ١١/ ١٣١، وتقريب التهذيب، له: ٢/ ٣٣٨. والحديث صححه الحاكم في المستدرك: ٤/ ٦٠٥، برقم (٨٦٨٢). وجعل شيخ الإسلام ابن تيمية إسناده جيداً في مجموع فتاواه: ٦/ ٤٩٧.

(١) الرد على الزنادقة والجهمية ـ ضمن عقائد السلف ـ: ص٩٤.

أنها براهين وعقليات، وهي - في الواقع - شبهات وجهالات تؤدي إلى الحيرة والاضطراب في الاعتقاد(١).

فالواجب الاستمساك بطريقة الكتاب والسنة والسلف الصالح في توحيد الله تعالى وتنزيهه عمّا لا يليق به، والابتعاد عمّا أحدثه المتكلمون، واختلقه المتقولون على الله تعالى بغير علم، و﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل: ١/٢٩ و٧/١٥٣ - ١٥٦.

الفصل الثاني

تسبيح الله تعالى
في
أسمائه وصفاته

تمهيد

هذا الفصل يتضمن بياناً للأسس المنهجية التي يجب على المسلم سلوكها لتحقيق تسبيح الله تعالى في أسمائه وصفاته وفق طريقة الكتاب والسنة التي سبق ـ في الفصل الأول ـ بيانها.

وأسماء الله تعالى وصفاته تقدمت الإشارة إلى أنها أعظم أبواب معرفة الله سبحانه، وأنه لا يستقر للعبد قدم في المعرفة والإيمان حتى يعرف أسماء الله تعالى معرفة تخرجه عن حد الجهل بربه ﷻ[1]، ولا يتأتى للعبد ذلك إلا في ضوء المفهوم الصحيح لتسبيح الله تعالى في أسمائه وصفاته، ولهذا عني أئمة أهل السنة والجماعة ـ من السلف الصالح ومن سار على نهجهم من بعدهم ـ ببيان الأسس القويمة والمتينة لتحقيق تسبيح الله تعالى في أسمائه وصفاته وفق هدي الكتاب والسنة، وسيتم ـ بإذن الله ـ بيان هذه الأسس في أربعة مباحث منتظمة في هذا الفصل، وهي:

المبحث الأول: الإثبات مع التنزيه.

المبحث الثاني: النفي مع إثبات كمال الضد.

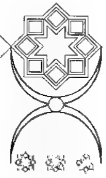
المبحث الثالث: السكوت عما لم يعلم في الكتاب والسنة إثباته أو نفيه.

المبحث الرابع: ما تجب مراعاته في الإثبات والنفي في حق الله تعالى.

وإلى تفاصيل هذه المباحث.

---

(١) انظر: ص١٣٢.

المبحث الأول

الإثبات مع التنزيه

الإثبات مع التنزيه هو الأساس الأول الذي يقوم عليه مفهوم التسبيح في أسماء الله تعالى وصفاته عند أهل السنة والجماعة، وهو مكون من جزءين: الإثبات، والتنزيه.

أما الإثبات، فيعني: الإيمان بما ثبت في الكتاب والسنة من أسماء الله تعالى وصفاته الذاتية والفعلية(١)، وإجراءها على ظاهرها(٢)،

---

(١) الصفات الذاتية: هي التي لم يزل الله تعالى ولا يزال متصفاً بها، لا ينفك عنها بوقت ولا بحال من الأحوال، كالعلم، والغنى، والعلو، والوجه، واليدين، وغيرها من الصفات اللازمة لذاته.

والصفات الفعلية: هي التي تتعلق بقدرته ومشيئته، إن شاء فعلها وإن شاء لم يفعلها على حسب ما تقتضيه حكمته، ويعبر عنها بالأفعال الاختيارية، لتعلقها بإرادته تعالى واختياره، كالاستواء على العرش، والرحمة والغضب، والمحبة، والخلق.

وكل من الصفات الذاتية والفعلية قائمة بالله تعالى قد اتصف بها، فهي مشتركة بقيامها بالله تعالى.

انظر: التوضيح المبين لتوحيد الأنبياء والمرسلين، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص١٤٧ ـ ١٤٩، والقواعد المثلى في صفات الله تعالى وأسمائه الحسنى، للشيخ ابن عثيمين: ص٣٤.

(٢) ظاهر نصوص الأسماء والصفات هو ما يليق بالله تعالى ويختص به، وهو ما يسبق إلى العقل السليم منها لمن يفهم اللغة العربية، وقد يكون ظهورها بمجرد الوضع، وقد يكون بسياق الكلام. =

وحملها على الحقيقة، والثناء على الله تعالى بنسبتها إليه، والإخبار عنه بها.

وهذا التعريف: مستفاد مما نقله غير واحد من العلماء في بيان مذهب السلف في أسماء الله تعالى وصفاته، كما سيأتي ذكر بعضه قريباً، إن شاء الله.

فالإثبات في أسماء الله تعالى وصفاته يتضمن ثلاثة أمور، وهي:

١ ـ إثبات ألفاظها التي وردت بها في الكتاب والسنة.

٢ ـ وإثبات معانيها التي دلت عليها في حق الله تعالى، مع إثبات أحكام تلك المعاني وآثارها المترتبة عليها.

٣ ـ والثناء على الله تعالى بها، ودعاؤه بها، والإخبار عنه بها.

وأما التنزيه: فتقدم ـ عند بيان أنواع التسبيح باعتبار معناه ـ أن التنزيه الذي يستحقه الله ﷻ يجمعه أمران:

أحدهما: تنزيه الله عن النقائص والعيوب.

والثاني: تنزيهه عن التمثيل والتشبيه.

وتقدم هناك الكلام على هذين النوعين بالتفصيل، مع بيان تلازمهما(١).

وعليه فالتنزيه في أسماء الله وصفاته: هو تنزيهها عما ينافيها من النقائص والعيوب، ومن التعطيل(٢)، والتمثيل، ومن كل ما ينافي كمالها وقدسها.

= وانظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٣٥٦/٦، والقواعد المثلى، للشيخ ابن عثيمين: ص٤٥.

(١) انظر: ١٤٦/١ ـ ١٧٥ من البحث.

(٢) المراد بالتعطيل ـ هنا ـ: إنكار ما ثبت لله تعالى من الأسماء والصفات، =

وعلى هذا الأساس من الإثبات مع التنزيه قام مذهب أهل السنة والجماعة في أسماء الله وصفاته، وجاء عن جمع غفير من أهل العلم عبارات في بيان هذا المذهب وتقريره، ومن ذلك:

١ ـ قول الإمام أبي عيسى الترمذي ـ عقب روايته حديث أبي هريرة رضي الله عنه، في أن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه[١]، ـ: «وقد قال غير واحد من أهل العلم في هذا الحديث وما يشبه هذا من الروايات من الصفات، ونزول الرب تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا[٢]. قالوا: قد تثبت الروايات في هذا ويؤمن بها ولا يتوهم[٣]، ولا يقال: كيف؟[٤]،

= وإنكار قيامها بذاته سبحانه، إما كليا في جميع الأسماء والصفات، وإما جزئياً في بعضها دون بعض، وسيأتي ـ إن شاء الله ـ مزيد بيان لذلك عند الرد على تسبيح المعطلة في الباب الخامس. انظر: ص٨٤٤.

(١) نص الحديث: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه، فيربيها لأحدكم كما يربي أحدكم مهره، حتى إن اللقمة لتصير مثل أحد**» [سنن الترمذي: ٣/ ٥٠، برقم (٦٦٢)، وقال: هذا حديث حسن صحيح]، وأخرجه بنحوه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٣/ ٢٧٨، برقم (١٤١٠)، ومسلم في صحيحه: ٢/ ٧٠٢، برقم (١٠١٤).

(٢) حديث نزول الرب تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا ثابت من طرق متواترة عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم عن النبي ﷺ. انظر: التمهيد، لابن عبد البر: ٧/ ١٢٨، وشرح حديث النزول، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق محمد بن عبد الرحمن الخميس: ص١٦٦ ـ ١٧٤، وفتح الباري، للحافظ ابن حجر العسقلاني: ٣/ ٢٩ ـ ٣٠.

(٣) أي: لا يعدل عن ظاهرها إلى التوهم. والتوهم نوعان: توهم كيفية لا تدل عليه ظواهرها، أو توهم معنى غير ما تقتضيه ظواهرها، وكلاهما توهم باطل، وهما توهم تشبيه وتمثيل، أو تحريف وتعطيل. انظر: مدارج السالكين، لابن القيم: ٢/ ٨٦.

(٤) أي: لا يسأل عن كيفية الصفات؛ لأنه لا يعلم كيف الله تعالى إلا الله، وهذا مثل قولهم: (أمروها كما جاءت بلا كيف)، أي: بلا كيف يعقله =

هكذا روي عن مالك، وسفيان بن عيينة[١]، وعبد الله بن المبارك[٢]، أنهم قالوا ـ في هذه الأحاديث ـ: أمروها بلا كيف. وهكذا قول أهل العلم من أهل السنة والجماعة»[٣].

٢ ـ وقول الإمام الحافظ ابن منده: «إن الأخبار في صفات الله ﷻ جاءت متواترة عن نبي الله ﷺ موافقة لكتاب الله ﷻ، نقلها الخلف عن السلف قرنا بعد قرن من لدن الصحابة والتابعين إلى عصرنا هذا على سبيل إثبات الصفات لله ﷻ والمعرفة والإيمان به والتسليم لما أخبر الله ﷻ به في تنزيله، وبينه الرسول ﷺ عن كتابه، مع اجتناب التأويل[٤]، والجحود،

= البشر، فإن من لا تعلم حقيقة ذاته وماهيته، كيف تعرف كيفية صفاته؟، ولا يقدح ذلك في الإيمان بها ومعرفة معانيها، فالكيفية وراء ذلك، كما أنا نعرف معاني ما أخبر الله به من حقائق ما في اليوم الآخر، ولا نعرف حقيقة كيفيته، مع قرب ما بين المخلوق والمخلوق، فعجزنا عن معرفة كيفية الخالق وصفاته أعظم وأعظم.

انظر: مدارج السالكين، لابن القيم: ٣/ ٣٣٥.

(١) هو سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي، أبو محمد، الكوفي ثم المكي، كان إماماً ثقة، وفقيها حافظاً، كبير القدر، قال الشافعي: «لو لا مالك وسفيان، لذهب علم الحجاز»، توفي سنة (١٩٨هـ)، رحمه الله.
انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي: ١/ ٢٦٢ ـ ٢٦٤، وتقريب التهذيب، لابن حجر: ١/ ٣٠٣.

(٢) هو عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي مولاهم، أبو عبد الرحمن، المروزي، كان إماماً ثقة فقيهاً عالماً مجاهداً جواداً، جمعت فيه خصال الخير، ولقب بأمير المؤمنين في الحديث، وتوفي سنة (١٨١هـ)، رحمه الله.
انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي: ١/ ٢٧٤ ـ ٢٧٩، وتقريب التهذيب، لابن حجر: ١/ ٤١٨.

(٣) سنن الترمذي: ٣/ ٥٠ ـ ٥١.

(٤) يعنى تأويل أهل الكلام، وهو ـ في اصطلاحهم ـ: صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل يقترن به. وهو في الحقيقة =

والتمثيل والتكييف[١]، وأنه ﷻ أزلي بصفاته التي وصف بها نفسه ووصفه الرسول ﷺ، غير زائلة عنه ولا كائنة دونه، فمن جحد صفة من صفاته بعد الثبوت كان بذلك جاحداً، ومن زعم أنها محدثة لم تكن ثم كانت على أي معنى تأوله دخل في حكم التشبيه، والصفات التي هي محدثة في المخلوق زائلة بفنائه غير باقية، وذلك أن الله ﷻ امتدح نفسه بصفاته تعالى، ودعا عباده إلى مدحه بذلك، وصدق به المصطفى ﷺ وبين مراد الله ﷻ فيما أظهر لعباده من ذكر نفسه وأسمائه وصفاته، وكان ذلك مفهوماً عند العرب غير محتاج إلى تأويلها»[٢].

٣ ـ وقول الإمام أبي عمر بن عبد البر: «أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسنة، والإيمان بها، وحملها على الحقيقة لا على المجاز، إلا أنهم لا يكيفون شيئاً من ذلك، ولا يحدون فيه صفة محصورة»[٣].

٤ ـ وقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وجماع القول في إثبات الصفات هو القول بما كان عليه سلف الأمة وأئمتها، وهو أن يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله، ويصان ذلك عن التحريف[٤]، والتمثيل، والتكييف، والتعطيل، فإن الله ليس كمثله

= تحريف للنصوص، وحملها على معاني بعيدة عن مقصود الشرع الحكيم.
وانظر: الفتوى الحموية الكبرى، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ص٧٠، والتدمرية، له: ص٩١.

(١) التكييف: هو حكاية كيفية الصفة، أو السؤال عنها بكيف؟.
وانظر: شرح العقيدة الواسطية، لهراس: ص٦٩، وفتح رب البرية بتلخيص الحموية، للشيخ ابن عثيمين ـ ضمن القواعد الطيبات ـ: ص١٠٧.

(٢) كتاب التوحيد: ٣/٧.

(٣) التمهيد: ٧/١٤٥.

(٤) التحريف: هو تغيير النص لفظاً أو معنى، فالتحريف اللفظي: هو تبديل =

شيء، لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، فمن نفى صفاته كان معطلاً، ومن مثل صفاته بصفات مخلوقاته كان ممثلاً، والواجب إثبات الصفات ونفى مماثلتها لصفات المخلوقات، إثباتاً بلا تشبيه، وتنزيها بلا تعطيل»(١).

٥ ـ وقال الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ(٢): «مذهب أهل السنة والجماعة الإيمان بما ثبت في الكتاب والسنة من أسماء الله وصفاته لفظا ومعنى، واعتقاد أن هذه الأسماء والصفات على الحقيقة لا على المجاز، وأن لها معاني حقيقية تليق بجلال الله وعظمته، وأدلة ذلك أكثر من أن تحصر. ومعاني هذه الصفات ظاهرة معروفة من القرآن كغيرها، لا لبس فيها ولا إشكال ولا غموض، فقد أخذ أصحاب رسول الله ﷺ عنه القرآن، ونقلوا عنه الأحاديث، لم يستشكلوا شيئاً من معاني هذه الآيات والأحاديث؛ لأنها واضحة صريحة، وكذلك من بعدهم من القرون الفاضلة» اهـ(٣).

= الحروف أو الضبط. والتحريف المعنوي: هو تفسير النص بمعنى لا يدل عليه ظاهره بدون دليل.
وانظر: فتح رب البرية بتلخيص الحموية، للشيخ ابن عثيمين ـ ضمن القواعد الطيبات ـ: ص١٠٦ ـ ١٠٧.

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ٥١٥.

(٢) هو محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب، آل الشيخ، الشيخ العلامة، مفتى البلاد السعودية ورئيس قضاتها، ولد في مدينة الرياض، في ١٧/ ١/ ١٣١١هـ، ونشأ في بيت علم وشرف، وفقد بصره في السنة الرابعة عشرة من عمره، وأجمع عارفوه على أن الله قد وهبه عقلاً كبيراً، وفهما ثاقباً، وقوة في بدنه وفكره، وتوفي في ٢٤/ ٩/ ١٣٨٩هـ، رحمه الله تعالى.
انظر: علماء نجد خلال ثمانية قرون، للشيخ عبد الله البسام: ١/ ٢٣٢ ـ ٢٦٣.

(٣) فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن إبراهيم ـ قسم العقائد ـ: ١/ ٢٠٣.

فهذه بعض الأقوال التي تنقل مذهب أهل السنة والجماعة وتقرره.

وتتضح من خلال هذه الأقوال وما جاء في بابها أصول مهمة تتعلق بالإثبات والتنزيه عند أهل السنة والجماعة، تجدر الإشارة إليها فيما يلي:

١ ـ أن الإثبات عند أهل السنة والجماعة يتناول كل اسم وكل صفة ثبت لله تعالى في كتابه، أو في سنة رسوله ﷺ. ولا فرق في الأسماء والصفات الثابتة بالسنة فحسب بين ما ثبت بطريق التواتر(١)، وما ثبت بطريق الآحاد(٢).

أما كتاب الله تعالى فمعلوم ثبوت ألفاظه، فينبغي أن تعرف وجوه دلالته. وأما السنة فينبغي معرفة ما ثبت منها وما علم عدم ثبوته، فيؤخذ بما ثبت ويعرف المراد منه، ويترك ما علم عدم ثبوته، فلا يحتج في هذا الباب إلا بما ثبت(٣).

٢ ـ أن الإثبات عند أهل السنة والجماعة ليس إثبات تمثيل ولا

---

(١) التواتر: هو ورود الخبر بطرق ـ أسانيد ـ كثيرة تحيل العادة تواطؤهم على الكذب أو وقوعه منهم اتفاقاً من غير قصد، ويسمى الحديث الوارد بهذه الطرق: متواتراً، إذا كانت الكثرة حاصلة من ابتداء الإسناد إلى انتهائه، وكان مستند الرواة فيه الحس، فإنه بهذا يكون مفيداً العلم اليقيني لسامعه.
انظر: نزهة النظر، للحافظ ابن حجر العسقلاني ـ ومعه النكت، لعلي حسن ـ: ص٥٢ ـ ٥٦.

(٢) الآحاد: هو ورود الخبر بطريق واحد أو أكثر ولم يبلغ حد التواتر.
انظر: المصدر السابق: ص٥٧.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٦/ ٤٣٢.

تكييف، كما أن التنزيه عندهم ليس تنزيه تعطيل وتأويل، وإنما أثبتوا لله تعالى الأسماء والصفات، ونزهوه عن النقائص والتمثيل، فكان إثباتهم بريئاً من التمثيل، وتنزيههم خليا من التعطيل، فمذهبهم وسط بين التعطيل والتمثيل، فهو بذلك حسنة بين سيئتين، وهدى بين ضلالتين(١)، فإن التمثيل غلو في الإثبات، وإن التعطيل غلو في التنزيه، وكل منهما سيئة وضلالة، كما قال الإمام نعيم بن حماد: «من شبه الله بشيء من خلقه فقد كفر، ومن أنكر ما وصف الله به نفسه فقد كفر، فليس ما وصف الله به نفسه وما وصفه رسوله تشبيهاً»(٢).

وقد هدى الله تعالى أهل السنة والجماعة للطريقة المثلى في أسمائه وصفاته، فلم يتلوثوا فيها بشيء من التعطيل أو التمثيل(٣)، ولهذا كان مذهبهم في باب الاعتقاد كمثل اللبن الخالص الذي قال الله ﷻ فيه: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [النحل: ٦٦]، فمذهب أهل السنة والجماعة خالص من الشوائب سائغ للموحدين(٤).

٣ ـ أن التنزيه عند أهل السنة والجماعة أمر لازم للإثبات ومتمم له وليس مستقلاً عنه، إذ إن المقصود بالتنزيه صون كمال الله ﷻ من أن

(١) انظر: المصدر السابق: ١٩٦/٥، والفتوى الحموية الكبرى، له: ص٦٢، وبدائع الفوائد، لابن القيم: ١٨٦/١ ـ ١٨٧، ومدارج السالكين، له: ٣/ ٣٣٤.

(٢) رواه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، برقم (٩٣٦)، وسبق في ص١٢٦.

(٣) انظر: عقيدة السلف، لأبي عثمان الصابوني: ص٢٦ ـ ٢٧، والصواعق المرسلة، لابن قيم الجوزية: ٢/ ٤٢٥ ـ ٤٢٦.

(٤) انظر: الصواعق المرسلة، لابن قيم الجوزية: ٤٢٦/٢، وشرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الدمشقي: ٢٠٧/١.

يظن فيه نقص أو عيب، ومن أن يتوهم فيه مثال أو كيفية[١]. والباعث على هذا التنزيه هو التعظيم والإجلال لله سبحانه، والجزم بأن له المثل الأعلى في السموات والأرض، فلا إله غيره، ولا رب سواه، ولا شيء مثله، ولا نقص فيه بوجه من الوجوه.

وعلى هذا، فلا يتم الإثبات إلا مع التنزيه، ولا يتحقق التنزيه إلا مع الإثبات، ولا يمكن توحيد الله تعالى في أسمائه وصفاته إلا بالجمع بين الإثبات والتنزيه[٢].

٤ ـ أن مذهب أهل السنة والجماعة في الإثبات مع التنزيه متلقى من الكتاب والسنة، فقد دل على ذلك ما جاء في مواضع كثيرة في الكتاب والسنة من ذكر التسبيح مقروناً بالحمد، مثل قول الله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [غافر: ٧].

ومثل حديث أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«إن أحب الكلام إلى الله سبحان الله وبحمده»**[٣].

فإن في هذا النصوص ونحوها إرشاداً إلى الإثبات مع التنزيه وبياناً لتلازمهما، فالتسبيح هو تنزيه الله تعالى عما لا يليق به من النقائص

---

(١) انظر: توضيح الكافية الشافية، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص١١٥ ـ ١١٦.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٧/ ١١٢، ومدارج السالكين، لابن القيم: ٣/ ٤١٤، وتوضيح الكافية الشافية، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص١١٥ ـ ١١٦، ومنهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي ـ ضمن القواعد الطيبات ـ: ص٧٥، ٨٩، وتقريب التدمرية، للشيخ ابن عثيمين: ص١٩ ـ ٢٠، ٤٦.

(٣) سبق تخريجه ١/ ١٩٤.

والتمثيل، والحمد هو إثبات ما يليق به من المحامد، وهي الكمالات التي يحمد عليها، كما سبق بيانه عند الكلام على صيغة قرن التسبيح بالحمد(١).

ودل على ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

فقد جمع الله تعالى في هذه الآية الكريمة بين التنزيه والإثبات، فقوله ـ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ـ تنزيه، وقوله ـ ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ـ إثبات، ففي هذا التنزيه تقييد للإثبات، وأنه إثبات بلا تمثيل، وفي هذا الإثبات تقييد للتنزيه، وأنه تنزيه بلا تعطيل، فدل ذلك على أن المذهب الحق ليس هو نفي الصفات مطلقاً، ولا إثباتها مطلقاً، بل هو إثبات الصفات على ظواهرها، ونفي النقائص والتمثيل عنها، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة(٢).

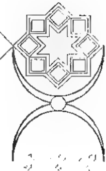
وفي هذا كله بيان أن العصمة والسلامة في باب الأسماء والصفات بإثبات ما أثبته الله لنفسه، وما أثبته له رسوله ﷺ، من غير تمثيل ولا تكييف، وتنزيهه عما نزه نفسه عنه، وما نزهه عنه رسوله ﷺ، من غير تعطيل ولا تحريف، وتلقي الإثبات والتنزيه من مشكاة الوحي، لا من آراء الرجال ونتائج أفكارهم التي هي منشأ البدعة والضلالة(٣)، والله الهادي إلى سواء السبيل.

---

(١) انظر: ص١/١٩٥ ـ ١٩٦، ٢٠٧ من البحث.

(٢) انظر: منهج ودراسات الأسماء والصفات، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي ـ ضمن القواعد الطيبات ـ: ص٨٤، وشرح العقيدة الواسطية، للشيخ محمد خليل هراس: ص٦٩.

(٣) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم: ١/ ٣٧٠.

المبحث الثاني

النفي مع إثبات كمال الضد

قد دل الكتاب والسنة على أن الله تعالى موصوف بالنفي كما هو موصوف بالإثبات[1]، ومن هنا كانت صفاته ﷻ على نوعين: صفات مثبتة، وصفات منفية[2]، وسبق بيان ذلك عند الكلام على كون التسبيح من أصول توحيد الله تعالى[3]، وسبق كذلك ذكر كثير من أدلة الصفات المنفية عند الكلام على النفي الوارد في حق الله تعالى[4]، وعند الكلام على طريقة الكتاب والسنة في تسبيح الله تعالى[5].

وكما أن مذهب أهل السنة والجماعة في صفات الله المثبتة هو الإثبات مع التنزيه، فإن مذهبهم في صفات الله المنفية هو النفي مع إثبات كمال الضد.

فالنفي: يعني نفي ما نفاه الله تعالى عن نفسه، وما نفاه عنه رسوله ﷺ، واعتقاد أن الله تعالى منزه عن تلك الصفة المعينة التي جاء النفي فيها.

وإثبات كمال الضد: يعني اعتقاد ثبوت ضد المنفي لله تعالى على الوجه الأكمل.

---

(١) انظر: التدمرية، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ص٥٧، وشرح العقيدة الواسطية، للشيخ ابن عثيمين: ١/١٤١.

(٢) انظر: القواعد المثلى، للشيخ ابن عثيمين: ص٣١ ـ ٣٢.

(٣) انظر: ١/٤٩٢ ـ ٥٠٠ من هذا البحث.

(٤) انظر: ١/١٣٣ ـ ١٤٤.

(٥) انظر: ٢/١٢٠.

وذلك لأن الصفات المنفية عن الله تعالى في الكتاب والسنة كلها صفات نقص في حقه سبحانه، وأضدادها صفات كمال، فوجب الإيمان بانتفاء تلك الصفات عن الله تعالى، مع الإيمان بثبوت أضدادها من الكمالات لله ﷻ[١].

فمذهب أهل السنة والجماعة في هذا المقام قائم على أن كل صفة نفاها الله تعالى عن نفسه، أو نفاها عنه رسوله ﷺ، فهي متضمنة إثباتاً هو كمال ضد تلك الصفة المنفية، وبيان ذلك:

ـ أن كلمة (سبحان الله) الدالة على التنزيه المطلق لله تعالى عن كل ما لا يليق به متضمنة إثبات الكمال اللائق بالله ﷻ، ولهذا كان التسبيح متضمناً التنزيه والتعظيم معاً، كما سبق بيانه عند الكلام على دلالة التسبيح على التعظيم[٢].

ـ وكذلك ما جاء من التنزيه المجمل في حق الله تعالى، كقوله سبحانه: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وقوله ﷻ: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ٤]، كل ذلك متضمن إثبات جميع صفات الكمال لله تعالى على وجه الإجمال، وأنه سبحانه لكثرة صفات كماله وعظمتها وسعتها فات شبه المخلوقين به، واستحق بقيامها به وانفراده بها أن لا يكون له سمي يساميه، ولا مثل يماثله، ولا كفو يكافيه أو يدانيه[٣].

---

(١) انظر: فتح رب البرية بتلخيص الحموية، للشيخ ابن عثيمين ـ ضمن القواعد الطيبات ـ: ص١٠٤، وأحكام من القرآن، له: ص٢٩٨ ـ ٢٩٩، وتقريب التدمرية، له أيضاً: ص٤٨.

(٢) انظر: ١/ ٧٩ ـ ٨٦ من البحث.

(٣) انظر: الصواعق المرسلة، لابن قيم الجوزية: ٣/ ١٠١٩، ١٠٢٠، ١٠٢٢، وحادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، له: ص٣٣٥.

ـ وكذلك ما جاء من التنزيه المفصل في حق الله تعالى، مثل قوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فإنه متضمن كمال الحياة والقيومية.

وقوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، متضمن كمال الملك والغنى والربوبية.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، متضمن كمال الاختصاص بالتعليم دون ما سواه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَاۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، متضمن كمال القدرة والقوة.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُۗ﴾ [الأنعام: ١٤]، متضمن كمال صمديته وغناه.

وقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام ١٠٣]، متضمن كمال عظمته، وأنه ـ وإن رأته الأبصار ـ أجل من أن يدرك بحيث يحاط به.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [يونس: ٦١]، متضمن كمال العلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ [الإسراء: ١١١]، متضمن كمال التوحيد والتفرد بالملك.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ [الإسراء: ١١١]، متضمن كمال العزة والسلطان.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، متضمن كمال العدل والرحمة.

وقوله تعالى: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢]، متضمن كمال العلم والحفظ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٤٤]، متضمن كمال القدرة والعلم.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الأحقاف: ٣٣]، متضمن كمال القدرة والقوة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾ [الشمس: ١٥]، متضمن كمال القدرة، والعلم والإرادة.

وهذا مطرد في كل ما وصف الله به نفسه المقدسة من الصفات المنفية الثابتة في الكتاب والسنة[(١)]، وإذا تأملت ذلك وجدت كل نفي لا يتضمن ثبوتاً هو مما لم يصف الله تعالى به نفسه، ولم يصفه به رسوله ﷺ[(٢)]، ولهذا لا يتم تنزيه الله تعالى في صفاته المنفية إلا بالنفي مع إثبات كمال الضد.

وقد قرر أهل العلم من أهل السنة والجماعة ضرورة النفي مع إثبات كمال الضد في صفات الله المنفية، قرروا ذلك بالنظر العقلي من أوجه متعددة، كما يلي:

أولاً: أن النفي عدم، والعدم لا يعلم إلا بعد العلم بالثبوت والوجود، فالعبد ـ مثلاً ـ إذا علم أنه (لا إله إلا الله)، فقد تصور إلهاً موجوداً، وعلم عدم ما تصوره إلا عن الله تعالى.

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٩٩/١٦، والتدمرية، له: ص٥٨ ـ ٥٩، والصواعق المرسلة، لابن قيم الجوزية: ١٠٢١/٣، و١٤٤٤/٤، وبدائع الفوائد، له: ١٧٧/١ ـ ١٧٨، والفوائد، له: ص٢٢٧، وحادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، له: ص٣٣٤، ومدارج السالكين، له: ٥١/١، والقواعد المثلى، للشيخ ابن عثيمين: ص٣٢، وتقريب التدمرية، له: ص٤٨.

(٢) انظر: التدمرية، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ص٥٩.

وكذلك سائر ما ينفى لا بد من تصوره أولاً ثم ينفى، ولا يمكن تصوره إلا بعد تصور شيء موجود[١].

ثانياً: أن النفي إذا لم يتضمن إثباتاً، فالعلم به لا فائدة للعالم به؛ لأن تصور (لا شيء) لا يستفيد به العالم صفة كمال.

وإذا كان العلم بالعدم لتمام العلم بالوجود كان مفيداً، كالعلم بانتفاء النقائص ـ مثلاً ـ عن الموجود، فإنه علم بكماله[٢]، «ولهذا كان الرب تعالى موصوفاً بالصفات الثبوتية المتضمنة لكماله، وموصوفاً بالصفات السلبية المستلزمة لكماله أيضاً، فكان عدم ما ينفى عنه هو من الكمال، كما أن وجود ما يستحق ثبوته من الكمال»[٣].

ثالثاً: أن صفات الله المنفية جاءت في الكتاب والسنة في سياق المدح والثناء، والمدح والثناء لا يحصلان بالنفي المحض إن لم يتضمن ثبوتاً[٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وينبغي أن يعلم أن النفي ليس فيه مدح ولا كمال إلا إذا تضمن إثباتاً، وإلا فمجرد النفي ليس فيه مدح ولا كمال؛ لأن النفي المحض عدم محض، والعدم المحض ليس بشيء، وما ليس بشيء هو كما قيل ليس بشيء فضلاً عن أن يكون مدحاً أو كمالاً، ولأن النفي المحض يوصف به المعدوم والممتنع، والمعدوم والممتنع لا يوصف بمدح ولا كمال» اهـ[٥].

وقال الإمام ابن قيم الجوزية: «وقد بينا فيما تقدم أن كل ما ينزه

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/٦٦.
(٢) انظر: المصدر السابق: ٦/٦٧.
(٣) مقتبس من: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٨/١٤٧.
(٤) انظر: حادي الأرواح، لابن قيم الجوزية: ص٣٣٤، والفوائد، له: ص٢٢٧.
(٥) التدمرية: ص٥٧ ـ ٥٨.

الرب عنه، إن لم يكن متضمناً لإثبات كماله ومستلزماً لأمر ثبوتي يوصف به، لم يكن في تنزيهه عنه مدح ولا حمد ولا تمجيد ولا تسبيح، إذ العدم المحض كاسمه، لا حمد فيه ولا مدح، وإنما يمدح سبحانه بنفي أمور تستلزم أموراً هي حق ثابت موجود يستحق الحمد عليها، وذلك الحق الموجود ينافي ذلك الباطل المنفي، فيستدل برفع أحدهما على ثبوت الآخر، فتارة يستدل بثبوت تلك المحامد والكمالات على نفي النقائص التي تنافيها، وتارة يستدل بنفي تلك النقائص على ثبوت الكمالات التي تنافيها»[(١)].

فتبين أن «كل ما يمدح به الرب من النفي فلا بد أن يتضمن ثبوتاً، بل وكذلك كل ما يمدح به شيء من الموجودات من النفي فلا بد أن يتضمن ثبوتاً»[(٢)].

رابعاً: أن الله تعالى إنما نفى عن نفسه المقدسة ما يناقض كماله ويضاد ثبوت الصفات، فعلم أن النفي مقصوده بيان انتفاء الصفة المنفية وإثبات كمال ضدها، وليس المقصود مجرد النفي. فكل نفي في حق الله تعالى في الكتاب والسنة هو لمضادته لثبوت ضده، ولتضمنه ثبوت كمال ضده[(٣)].

خامساً: «أن النفي ـ إن لم يتضمن كمالا ـ فقد يكون لعدم قابلية الموصوف لذلك المنفي أو ضده، لا لكمال الموصوف، كما إذا قيل: (الجدار لا يظلم)، فنفي الظلم عن الجدار ليس لكمال الجدار، ولكن

(١) الصواعق المرسلة: ١٤٤٣/٤ ـ ١٤٤٤.
(٢) مقتبس من: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠٩/١٧.
(٣) انظر: الصواعق المرسلة، لابن قيم الجوزية: ١٠٢٣/٣، ومدارج السالكين، له: ٥١/١، وأحكام من القرآن، للشيخ ابن عثيمين: ص٢٩٩، والقواعد المثلى، له: ص٣٢.

لعدم قابلية اتصافه بالظلم أو العدل، وحينئذ لا يكون نفي الظلم عنه مدحاً له ولا كمالاً فيه»[١].

سادساً: «أن النفي ـ إن لم يكن يتضمن كمالاً ـ فقد يكون لنقص الموصوف لعجزه عنه، كما لو قيل عن شخص عاجز عن الانتصار لنفسه ممن ظلمه: (إنه لا يجزي السيئة بالسيئة)، فإن نفي مجازاته السيئة بمثلها ليس لكمال عفوه، ولكن لعجزه عن الانتصار لنفسه، وحينئذ يكون نفي ذلك عنه نقصاً وذما، لا كمالاً ومدحاً»[٢].

سابعاً: أن الصفات الثبوتية هي الأصل في معرفة الله تعالى، والصفات المنفية تابعة لذلك وفرع عنه، وليست مقصودة لذاتها، وإنما يقصد بها تكميل الصفات الثبوتية، فلا بد في كل صفة منفية في حق الله تعالى أن تتضمن ثبوت كمال ضدها لله ﷻ[٣].

وإذا علم هذا، فالنفي ـ إذا لم يتضمن إثبات كمال ـ لا يليق وصف الله تعالى به، ولا يتحقق التنزيه بمثل هذا النفي، فالذين لا يصفون الله تعالى إلا بالنفي المحض لم يثبتوا ـ في الحقيقة ـ إلهاً محموداً، بل ولا موجوداً[٤].

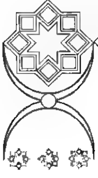
فما ذهب إليه أهل السنّة والجماعة في هذا الباب من وجوب النفي مع إثبات كمال الضد هو التنزيه الموافق لهدي الكتاب والسنّة، ولمقتضى النظر العقلي السليم.

---

(١) تقريب التدمرية، للشيخ ابن عثيمين: ص٤٩.
(٢) المصدر السابق: ص٤٩.
(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/٦٧، و١٧/١١٢، وشرح القصيدة النونية، لهراس: ٢/٥٦.
(٤) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٧/١٤٦، والتدمرية، له: ص٥٩.



المبحث الثالث



السكوت عمّا لم يعلم في الكتاب والسنة إثباته أو نفيه

ومن أسس تسبيح الله تعالى في أسمائه وصفاته ـ عند أهل السنة والجماعة ـ: الانتهاء فيها إلى ما قاله الله تعالى، وقاله رسوله ﷺ، من غير زيادة على ذلك ولا إضافة إليه[١]، والسكوت عما لم يأت في كتاب الله تعالى ولا في سنة رسوله ﷺ إثباته أو نفيه في حقّ الله تعالى.

والسكوت عن ذلك: هو ترك الجزم بإثباته لله تعالى، أو نفيه عنه سبحانه.

وقد قرّر أئمة أهل السنة والجماعة هذا الأساس العقدي في مواضع كثيرة، بعبارات متنوعة، ومن ذلك:

١ ـ قول الإمام مالك بن أنس: «إياكم والبدع!، قيل: يا أبا عبد الله، وما البدع؟ قال: أهل البدع الذين يتكلمون في أسمائه وصفاته وكلامه وعلمه وقدرته، لا يسكتون عمّا سكت عنه الصحابة والتابعون»[٢].

٢ ـ وقول الإمام أحمد بن حنبل: «لا يوصف الله إلا بما وصف به

(١) انظر: عقيدة السلف أصحاب الحديث، لأبي عثمان الصابوني: ص٢٨.
(٢) رواه أبو عثمان الصابوني في عقيدة السلف: ص٦٩، برقم (٨٦).

نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ، لا يتجاوز القرآن والحديث»[(١)].

٣ ـ وقول الإمام البربهاري[(٢)]: «واعلم ـ رحمك الله ـ أن الكلام في الرّبّ تعالى محدث[(٣)]، وهو بدعة وضلالة، ولا يتكلم في الرب إلا بما وصف به نفسه ﷻ في القرآن، وما بين رسول الله ﷺ لأصحابه، فهو جل ثناؤه واحد ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]»[(٤)].

٤ ـ وقول الإمام ابن أبي زمنين[(٥)]: «واعلم أن أهل العلم بالله وبما جاءت به أنبياؤه ورسله يرون الجهل بما لم يخبر به تبارك وتعالى عن نفسه علماً، والعجز عما لم يدع إليه إيماناً، وأنهم إنما ينتهون من وصفه بصفاته وأسمائه إلى حيث انتهى في كتابه، وعلى لسان نبيه»[(٦)].

---

(١) نقله شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتوى الحموية الكبرى: ص٦١.

(٢) هو الحسن بن علي بن خلف البَرْبَهاريّ، أبو محمد، شيخ الحنابلة وكبيرهم في عصره، كان شديداً على أهل البدع والمعاصي، وكان كبير القدر تعظمه الخاصة والعامة، ومن مؤلفاته: شرح السنة، وتوفي سنة (٣٢٩هـ)، رحمه الله.
انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: ١٥/ ٩٠ ـ ٩٣، والبداية والنهاية، لابن كثير: ١١/ ٢١٣ ـ ٢١٤.

(٣) يعنى الكلام في الرب تعالى بما يخالف الكتاب والسنة وما كان عليه سلف الأمة.

(٤) شرح السنة، تحقيق أبي ياسر خالد الردادي: ص٧١.

(٥) هو محمد بن عبد الله بن عيسى بن محمد المري، أبو عبد الله، الألبيري الأندلسي، الشهير بابن أبي زمنين، كان إماماً من أئمة المالكية، وكان من أجل أهل زمانه قدراً في العلم والحفظ والرواية مع الزهد والتمسك بالسنة، وله تصانيف عديدة نافعة، منها: كتابه (أصول السنة)، وتوفي سنة (٣٩٩هـ) أو التي بعدها، رحمه الله.
انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: ١٧/ ١٨٨ ـ ١٨٩، وشجرة النور الزكية، لمحمد مخلوف: ص١٠١.

(٦) أصول السنة، تحقيق عبد الله بن محمد عبد الرحيم البخاري: ٦٠.

٥ ـ وقول الإمام قوام السنة أبي القاسم التيمي: «قال بعض علماء أهل السنة: الكلام في صفات الله صعب، والدخول فيها شديد، ومن تكلم في صفات الله بما لا يليق به، ونسب إليه ما لا يحسن في صفاته، وترك الاتباع، وآثر الاختراع، ضل عن الهدى. وذم الله أقواما خاضوا في آياته، فقال عز من قائل ـ لنبيه ﷺ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [الأنعام: ٦٨]، فأمر بالإعراض عنهم، ثم أمر نبيه ﷺ أن يبين للمؤمنين ما أنزله إليه من كلامه، فقال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، وكل ما بينه الله تعالى، أو رسوله ﷺ، فقد كفانا الله مؤونته، وما لم يبينه فالمرجع فيه إلى كلام الصحابة والعلماء المقتدى بهم الذين هم أعلام الهدى، قال الله ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]»[(١)].

فهذه بعض الأقوال في هذا الباب، وبالجملة فأهل السنة والجماعة متفقون على أن أسماء الله تعالى وصفاته توقيفية[(٢)]، أي: يجب الوقوف فيها على ما جاءت به نصوص الكتاب والسنة، دون زيادة ولا نقصان. وما لم تأت به النصوص لم يجز الجزم بإثباته، ولا الجزم بنفيه، ولكن يجب السكوت عنه.

ولا يقال: إن ما لم تأت به النصوص يجب نفيه عن الله تعالى؛ لأن العمدة في النفي ـ حينئذ ـ على عدم النص، والاكتفاء فيما ينزه عنه الرب تعالى على مجرد عدم ورود النص غلط لوجهين ـ ذكرهما شيخ الإسلام ابن تيمية ـ:

أحدهما: أن النص دليل على المنصوص عليه، وعدم النص هو

(١) الحجة في بيان المحجة: ٢/ ٤٤٥ ـ ٤٤٦.

(٢) انظر: بدائع الفوائد، لابن القيم: ١/ ١٧٩.

عدم دليل معين، والدليل لا ينعكس، فلا يلزم إذا لم يرد النص بالشيء أن يكون منتفياً في نفس الأمر، بل يجوز أن يكون ثابتاً في نفس الأمر، وإن لم يرد به النص، إذا لم يكن قد نفاه، ومعلوم أن الله تعالى أسماء سمى بها نفسه، واستأثر بها في علم الغيب عنده[1].

فكما لا يجوز الإثبات إلا بدليل، لا يجوز النفي إلا بدليل، ولكن إذا لم يرد النص بالشيء ولم يعلم ثبوته يسكت عنه، فلا يتكلم في الله تعالى بلا علم.

الثاني: أن أشياء لم يرد النص بتنزيه الله تعالى عنها، لكن دلت النصوص من الكتاب والسنة على اتصافه بنقائضها، فعلم انتفاؤها؛ لأن إثبات الشيء نفي لنقيضه. فالأصل أن الله تعالى منزه عن كل ما يناقض صفات كماله[2]، وهذا مما دل عليه النقل والعقل.

وما لم يرد به النص إن علم انتفاؤه وجب نفيه، وإلا سكت عنه، فلا يثبت ولا ينفى في حق الله تعالى إلا بعلم[3].

«فالأقسام ثلاثة: ما علم ثبوته أثبت، وما علم انتفاؤه نفي، وما

---

(١) كما في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن، فقال: ...»** الحديث. وفيه: **«أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو علمته أحداً من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك»**.
أخرجه أحمد في مسنده: ٣٩١/١. وانظر: السلسلة الصحيحة، للألباني، رقم (١٩٩).

(٢) سبق بيان ذلك عند التعريف بالنقائص التي ينزه الله تعالى عنها. وانظر: ١/ ١٤٨ من البحث.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٦/ ٤٣٠ ـ ٤٣١، والتدمرية، له: ص١٣٧.

لم يعلم نفيه ولا إثباته سكت عنه، هذا هو الواجب»[١].

ولا شك أن السكوت عما لم يعلم في الكتاب والسنة إثباته أو نفيه، وترك تسمية الله ﷻ أو وصفه بما لم يرد في الكتاب والسنة، وكذا ترك تنزيهه عما لم يعلم في الكتاب والسنة ولا في العقل تنزهه عنه، لا شك أن هذا هو الموافق لمفهوم التسبيح في الكتاب والسنة، فإن أصل التسبيح لله تعالى ـ كما قال الإمام ابن جرير الطبري ـ: «التنزيه له من إضافة ما ليس من صفاته إليه، والتبرئة له من ذلك»[٢].

وجاء هذا المعنى صريحاً في قول الله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٥٩ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝١٦٠﴾ [الصافات: ١٥٩ ـ ١٦٠]، فقد نزه سبحانه نفسه عما يصفه به كل أحد إلا المخلصين من عباده ـ وهم الرسل ومن تبعهم ـ، فإنهم لم يصفوه من عند أنفسهم، وإنما وصفوه بما أذن لهم في وصفه به، مما ثبت بوحيه[٣].

وكذلك قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٨٢﴾ [الصافات: ١٨٠ ـ ١٨٢]، فنزه تعالى نفسه عما وصفه المخالفون للرسل، وسلم على المرسلين، لسلامة ما وصفوه به من النقص والعيب، ولسلامة ما قالوه في حق الله تعالى من الإفك والشرك، وحمد نفسه؛ لأنه سبحانه المستحق لكمال الحمد بما له من الأسماء الحسنى والصفات العلى[٤].

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٦/ ٤٣٢.

(٢) تفسير الطبري: ١/ ٢٤٨.

(٣) انظر: الصواعق المرسلة، لابن قيم الجوزية: ١/ ١٥٢ ـ ١٥٣، ومدارج السالكين، له: ٣/ ٤٨١، وجلاء الأفهام، له أيضاً: ص٢٧٥.

(٤) انظر: العقيدة الواسطية، لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ بشرح الشيخ محمد خليل هراس ـ: ص٧٥ ـ ٧٦، والتدمرية، له: ص٩ ـ ١٠، والصواعق المرسلة، =

ومن الأصول الكلية ـ في هذا الباب ـ أن يعلم أن الألفاظ نوعان:

النوع الأول: ألفاظ وردت في الكتاب والسنة، أو الإجماع، وهي إما إثبات، وإما نفي.

فهذا النوع حق كله،لأن الكتاب ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢]، ولأن الرسول ﷺ لا يقول إلا حقاً، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم: ٣ ـ ٤]، والأمة لا تجتمع على ضلالة[1].

ولهذا وجب على كل مؤمن مراعاة ألفاظ الكتاب والسنة في الإثبات والنفي؛ لأن الألفاظ الشرعية لها حرمة، كما يجب القول بموجب هذه الألفاظ، سواء فهمت معانيها أو لم تفهم، ولكن من تمام العلم أن يبحث عن مراد الله تعالى ومراد رسوله ﷺ بألفاظ الكتاب والسنة، بمعرفة لغة القرآن التي نزل بها، وما قاله الصحابة والتابعون لهم بإحسان وسائر علماء المسلمين من أهل السنة والجماعة في معاني تلك الألفاظ، لكي يثبت ما أثبته الله تعالى ورسوله ﷺ باللفظ الذي ورد به الإثبات، وبالمعنى الذي أريد به اللفظ. وينفى ما نفاه الله تعالى ورسوله ﷺ باللفظ الذي ورد به النفي، وبالمعنى الذي أريد به ذلك اللفظ[2].

= لابن قيم الجوزية: ١/١٥٣، وجلاء الأفهام، له: ص٢٧٥ ـ ٢٧٦.

(١) جاء في معناه أحاديث نبوية متعددة ثابتة بمجموعها. وانظر: كتاب السنة، لابن أبي عاصم، بتخريج الألباني: ص٣٩ ـ ٤٢، الأحاديث (٨٠ ـ ٨٥)، وصحيح الجامع، للألباني، برقم (١٨٤٨).

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/٢٩٨، و١٢/١١٣ ـ ١١٤، و١٧/٣٥٣.

وهذه هي طريقة أهل السنة والجماعة في التعامل مع الألفاظ الشرعية الواردة في الكتاب والسنة.

والنوع الثاني: ألفاظ ليست في الكتاب والسنة، لا بالإثبات ولا بالنفي، ولا قالها أحد من سلف الأمة وأئمتها في حق الله تعالى، لا إثباتاً ولا نفياً.

ومن أمثلة هذا النوع: لفظ (الجسم) و(الجهة) و(المتحيز) و(المركب) و(الجوهر) و(العرض).

فهذه الألفاظ ونحوها استعملها أهل الكلام في حق الله تعالى، وتنازعوا فيها إثباتاً ونفياً، وهي ألفاظ اصطلاحية اختص أهل الكلام بالتعبير بها على معان لم يعبر غيرهم عن تلك المعاني بهذه الألفاظ، وكثير منهم يجمعون في هذه المعاني بين الحق والباطل في الإثبات والنفي(١).

ولهذا كره أهل السنة والجماعة هذه الألفاظ المحدثة، وأنكروا على المتكلمين بها، لاشتمالها على باطل وكذب، وقول على الله تعالى بلا علم. ولم يكرهوا هذه الألفاظ لمجرد كونها اصطلاحية، ولا كرهوا الاستدلال بدليل صحيح موافق للكتاب والسنة، بل كرهوا الأقوال الباطلة المخالفة للكتاب والسنة، ولا يخالف الكتاب والسنة إلا ما هو باطل، لا يصح بنقل ولا عقل(٢).

ثم لما كان بعض هذه الألفاظ مجملاً بحيث يحتمل معاني صحيحة ومعاني فاسدة، قرر علماء أهل السنة والجماعة أن كل لفظ

---

(١) انظر: المصدر السابق: ٥/ ٢٩٩، و١٣/ ١٤٦، و١٧/ ٣٠٤.

(٢) انظر: المصدر نفسه: ٥/ ٢٩٨، و١٧/ ٣٠٤ ـ ٣٠٥، وشرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز: ١/ ٢٠.

أحدثه الناس في حق الله تعالى، فأثبته قوم ونفاه آخرون، فليس على أحد، بل ولا له أن يوافق أحداً على إثباته أو نفيه حتى يفصل ويستفسر المتكلم بذلك عن مراده، فإن أراد به معنى يوافق الكتاب والسنة، قبل، لكن ينبغي التعبير عن المعنى باللفظ الشرعي دون اللفظ المحدث، إلا عند الحاجة، مثل أن يكون الخطاب مع من لا يتم المقصود معه إن لم يخاطب بذلك، وحينئذ لا بد من قرائن تبين المراد، بحيث يحصل تعريف الحق بالوجه الشرعي، وإن أراد المتكلم باللفظ المحدث معنى باطلاً مخالفاً لما جاء به الكتاب والسنة من إثبات أو نفي، رد عليه، ومنع القول به.

وإن اشتمل كلامه على حق وباطل، لم يقبل مطلقاً، ولم يرد جميع معناه، بل يوقف اللفظ، ويفسر المعنى، لتمييز الحق من الباطل[١]. ومثال ذلك:

لفظ (الجهة)، قد يراد به شيء موجود غير الله تعالى، فيكون مخلوقاً، كما إذا أريد بالجهة نفس العرش، أو نفس السموات. وقد يراد به ما ليس بموجود غير الله تعالى، كما إذا أريد بالجهة ما فوق العالم.

فيقال لمن نفى الجهة: أتريد بالجهة أنها شيء مخلوق، فالله تعالى ليس داخلاً في المخلوقات، أم تريد بالجهة ما وراء العالم، فلا ريب أن الله تعالى فوق العالم، بائن من المخلوقات؟.

وكذلك يقال ـ لمن قال: إن الله في جهة ـ: أتريد بذلك أن الله

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/٢٩٩، و٦/٣٦ ـ ٣٧، و١٢/١١٤، و١٧/٣٠٤، والتدمرية، له: ص٦٥، وشرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الدمشقي: ١/٢٦١.

تعالى فوق العالم، أو تريد به أن الله تعالى داخل في شيء من المخلوقات؟. فإن أردت الأول فهو حق، وإن أردت الثاني فهو باطل(١).

وكذلك لفظ (المتحيز)، يراد به ما أحاط به شيء موجود، ويراد به ما انحاز عن غيره وباينه.

فمن قال: إن الله متحيز، وأراد بذلك أن الله تعالى يحوزه شيء من المخلوقات، لم يقبل، فإن الله سبحانه أعظم وأكبر، ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]، وإن أراد بذلك أن الله سبحانه منحاز عن المخلوقات مباين لها منفصل عنها، قبل منه هذا المعنى، وإن لم يطلق اللفظ، فإن الله ﷻ ـ كما قال أئمة السنة ـ: فوق سماواته على عرشه، بائن من خلقه(٢).

وهذا التفصيل والاستفسار على النحو السابق إنما هو لمن كان عارفاً بحل شبهات المتكلمين بهذه الألفاظ المجملة المشتبهة، وأما من لم يكن عارفاً بذلك فليعرض عن هذه الألفاظ المحدثة، ولا يقبل إلا ما جاء به الكتاب والسنة أو أجمع عليه سلف الأمة، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام: ٦٨]، ومن تكلم في الله تعالى وأسمائه وصفاته بما يخالف الكتاب والسنة، فهو من الخائضين في آيات الله بالباطل(٣).

---

(١) انظر: التدمرية، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ص٦٦ ـ ٦٧.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/ ٢٩٩ ـ ٣٠٠، و٦/ ٤٠، والتدمرية، له: ٦٧ ـ ٦٨.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/ ٢٦٠ ـ ٢٦١.

وقد تبين ـ بما تقدم ـ أن الواجب على العبد طلب علم ما أنزل الله تعالى على رسوله ﷺ من الكتاب والسنة والحكمة، ومعرفة ما أراده بألفاظ القرآن والحديث، وجعل ذلك أصلاً في جميع هذه الأمور، كما كان عليه الصحابة والتابعون لهم بإحسان، ومن سلك سبيلهم من بعدهم، فكل ما يحتاج الناس إليه في دينهم، فقد بينه الله تعالى ورسوله بياناً شافياً، فكيف بأسماء الله تعالى وصفاته التي هي أصول التوحيد والإيمان؟!.

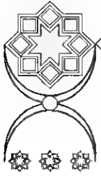
ثم على العبد المؤمن أن يرد ما تكلم فيه الناس في حق الله تعالى إلى الكتاب والسنة، ويبين ما في الألفاظ المجملة من المعاني الموافقة للكتاب والسنة فتقبل، وما فيها من المعاني المخالفة للكتاب والسنة فترد، ويعبر عن الله ﷻ بالألفاظ الشرعية النبوية الإلهية، ويسكت عما لم يعلم في الكتاب والسنة إثباته أو نفيه، فهذا سبيل أهل السنة والجماعة المعتصمين بالكتاب والسنة لفظاً ومعنى[1]، رزقنا الله تعالى سلوك طريقهم، والدعوة إلى سبيلهم، إنه الهادي إلى الصراط المستقيم.

---

(١) انظر: المصدر السابق: ١٣/١٤٥ ـ ١٤٦، و١٦/٤٣٢ و١٧/٣٠٦، و٣٥٥، ٤٤٣ ـ ٤٤٤.



المبحث الرابع



ما تجب مراعاته في الإثبات والنفي في حق الله تعالى

وثمة أمور يقتضي التنزيه مراعاتها في حق الله تعالى إثباتاً ونفياً، وهي:

١ ـ التفريق بين ما تسمى الله به مفرداً، وما تسمى به مقروناً بما يقابله.

٢ ـ والتفريق بين ما أطلق على الله تعالى في الكتاب والسنة مطلقاً، وما أطلق عليه مقيداً.

٣ ـ والتفريق بين ما يطلق على الله في باب الأسماء والصفات، وما يطلق عليه في باب الإخبار.

٤ ـ التوقير والتعظيم لأسماء الله تعالى وصفاته لفظاً ومعنى، ظاهراً وباطناً.

وهذه الأمور مكملة لما سبق بيانه من الإثبات مع التنزيه، والنفي مع إثبات كمال الضد، والسكوت عما لم يعلم في الكتاب والسنة إثباته أو نفيه، فلا يتحقق تسبيح الله تعالى في أسمائه وصفاته إلا بمراعاة هذه الأمور الأربعة بالإضافة إلى الأسس الثلاثة السابقة.

ولتعدد ما تجب مراعاته في الإثبات والنفي في حق الله تعالى جاء هذا المبحث في أربعة مطالب كل مطلب يتناول أمراً من الأمور الأربعة المذكورة، وبيان ذلك كما يلي:

❖ المطلب الأول ❖

التفريق بين ما تسمى الله به مفرداً وما تسمى به مقروناً بما يقابله

قد علم أن أسماء الله تعالى وصفاته كلها دالة على الكمال والجلال والجمال في حقه ﷻ، فأسماؤه كلها حسنى، وصفاته كلها عليا(١).

ولهذا جاز أن يدعى الله تعالى، ويذكر، ويثنى عليه، بكل اسم من أسمائه الحسنى مفرداً، وكل صفة من صفاته مفردة.

وجاز أن يدعى ويذكر ويثنى عليه بأسمائه وصفاته مقروناً بعضها ببعض.

وكثير من أسماء الله تعالى وصفاته ورد في الكتاب والسنة مفرداً ومقروناً بغيره، وذلك مثل:

ـ اسمه (العليم)، ورد مفرداً في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩، والأنعام: ١٠١، والحديد: ٣].

ـ وورد مقروناً باسمه (الواسع) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥].

ـ واسمه (التواب) ورد مفرداً في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾﴾ [النصر: ٣]، ومقروناً باسمه (الرحيم) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٦].

ـ وصفة الوجه لله تعالى وردت مفردة في قوله سبحانه: ﴿وَمَا

---

(١) انظر: ما سبق بيانه عند الكلام على إثبات المثل الأعلى لله تعالى، في ٢/ ١٤٨ ـ ١٥٨.

تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، ووردت مقرونة باسم الله (الأعلى) في قوله تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [الليل: ١٩ ـ ٢٠].

والأمثلة في هذا الباب كثيرة يصعب إحصاؤها.

ومن الفوائد العلمية في ذلك: أن الاسم من أسماء الله تعالى إذا ورد مقروناً بالآخر، فإن لله تعالى بذلك جميع أقسام الكمال: كمال من هذا الاسم بمفرده، وكمال من الآخر بمفرده، وكمال من اقتران أحدهما بالآخر(١).

فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥]، له سبحانه من اسمه (الواسع) صفة كمال، ومن اسمه (العليم) صفة كمال، وله من اقتران سعته بعلمه كمال أيضاً. وهكذا كل ما ورد من أسماء الله تعالى وصفاته مقروناً بعضها ببعض في الكتاب والسنة.

وإذا علم هذا، فقد ذكر أهل العلم أن من أسماء الله تعالى وصفاته ما لا يطلق على الله تعالى بمفرده، بل مقروناً بمقابله، ويسمى هذا النوع: الأسماء المزدوجة(٢) ـ أي: المقترنة ـ، والأسماء المتقابلة(٣) ـ لتقابلها في المعنى تقابل الضدين ـ، ومن ذلك:

١ ـ الخافض ـ الرافع.

٢ ـ القابض ـ الباسط.

٣ ـ المحل ـ المحرم.

---

(١) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم: ١/٥٨ ـ ٥٩، وبدائع الفوائد، له: ١/ ١٧٧.

(٢) انظر: بدائع الفوائد، لابن القيم: ١/ ١٨٤.

(٣) انظر: شرح القصيدة النونية، لهراس: ٢/ ١١١.

٤ ـ المحيي ـ المميت.

٥ ـ المعز ـ المذل.

٦ ـ المعطي ـ المانع.

٧ ـ المقدم ـ المؤخر.

٨ ـ المنتقم ـ العفو.

٩ ـ النافع ـ الضار.

١٠ ـ الهادي ـ المضل.

فهذه الأسماء المزدوجة المتقابلة يجري الاسمان منها مجرى الاسم الواحد الذي يمتنع فصل بعض حروفه عن بعض، فهي ـ وإن تعددت ـ جارية مجرى الاسم الواحد، ولذلك لم ترد في نصوص الوحي مفردة، ولم تطلق على الله تعالى إلا مقترنة[١]، فلا يجوز أن يفرد أحدهما عن قرينه، ولا أن يدعى الله تعالى أو يثنى عليه بواحد منها إلا مقروناً بمقابله، فلا يفرد الخافض عن الرافع، ولا القابض عن الباسط، ولا المحل عن المحرم، ولا المانع عن المعطي، ولا المؤخر عن المقدم، ولا المنتقم عن العفو، ولا الضار عن النافع، ولا المضل عن الهادي، بل لا بد من ازدواجها بمقابلاتها[٢].

والسبب في ذلك: أن هذه الأسماء ـ وهي: الخافض، والقابض، والمحرم، والمميت، والمذل، والمانع، والمؤخر،

---

(١) انظر: بدائع الفوائد، لابن القيم: ١/ ١٨٤، ومعتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله الحسنى، للدكتور محمد بن خليفة التميمي: ص٢٦٤، ٤١١ ـ ٤١٥.

(٢) انظر: بيان تلبيس الجهمية، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٢/ ١٠ ـ ١١، وبدائع الفوائد، لابن القيم: ١/ ١٨٤، والقصيدة النونية، لابن القيم ـ مع شرحها لهراس ـ: ٢/١١١، ١٢٠، ومعارج القبول، للشيخ حافظ الحكمي: ١/١١٧.

والمنتقم، والضار، والمضل - إذا أطلق كل على انفراده أوهم نقصاً، والله سبحانه منزه عن كل نقص وعيب، وإنما الكمال في اقتران كل اسم من هذه بما يقابله[١]؛ لأن الاسمين إذا ذكرا معاً، دل على عموم قدرته وتدبيره، وأنه المنفرد بالربوبية والتصرف في الخلق عطاء ومنعاً، ونفعاً وضراً، ورفعاً وخفضاً، وبسطاً وقبضاً، وإعزازاً وإذلالاً، وتقديماً وتأخيراً، وعفواً وانتقاماً، وإحلالاً وتحريماً، وهداية وإضلالاً، وإحياء وإماتة[٢].

ويفهم - بهذا - أن هذه الأسماء المذكورة متعلقة بأفعال الله تعالى الصادرة عن إرادته النافذة، وقدرته الشاملة، وحكمته الكاملة[٣].

ويفهم - بهذا أيضاً - أن ما كان من أسماء الله تعالى دالة على صفة ذاتية لا يكون داخلاً في حكم الأسماء المزدوجة، وإن كان له ما يقابله في المعنى من أسماء الله تعالى، وذلك مثل أسمائه تعالى: (الأول والآخر، والظاهر والباطن)[٤] فاسمه (الأول) يقابله في المعنى اسمه (الآخر)، واسمه (الظاهر) يقابله في المعنى اسمه (الباطن)، ولو أفرد أحد هذه الأسماء عن الاسم الذي يقابله لم يكن في ذلك ما يوهم نقصاً في حق الله تعالى، بل كل اسم من هذه الأسماء دال على الكمال بمفرده، وإذا قرن بمقابله، دل الاسمان معاً على كمال أيضاً، كما سبقت الإشارة إليه في أول هذا المطلب.

---

(١) القصيدة النونية، لابن القيم - مع شرحها لهراس -: ٢/ ١٢٠، ومعارج القبول، للشيخ حافظ الحكمي: ١/ ١١٧.

(٢) انظر: شأن الدعاء، للخطابي: ص٥٧ - ٥٨، ٧٩ - ٨٠، ٨٦، ٩٤، وبيان تلبيس الجهمية، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٢/ ١١، وبدائع الفوائد، لابن القيم: ١/ ١٨٤، وتوضيح الكافية الشافية، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص١٣١.

(٣) انظر: توضيح الكافية الشافية، للسعدي: ص١٣٠ - ١٣١.

(٤) سبق بيان معاني هذه الأسماء الأربعة في ٢/ ١٤٢ - ١٤٤.

وكذلك لا يدخل في حكم الأسماء المزدوجة ما أخبر الله تعالى به عن نفسه من أفعال متقابلة لا يوهم شيء منها نقصاً في حقه سبحانه، مثل قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ [الروم: ١١]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾﴾ [البروج: ١٣]، ونحوها من الآيات. فإن البدء أو الإبداء والإعادة فعلان متقابلان وكل منهما دال على الكمال في حق الله تعالى، وليس فيهما ما يوهم نقصاً بحال.

وقد ورد في الرواية التي فيها سرد أسماء الله الحسنى ذكر (المبدىء المعيد)(١)، واعتمد على ذلك بعض من جمعوا أسماء الله تعالى، فأوردوا فيها هذين الاسمين مزدوجاً(٢)، لكن المحققين من العلماء قد بينوا أن هذه الرواية التي فيها سرد أسماء الله التسعة والتسعين ليست ثابتة عن النبي ﷺ، فلا يعول عليها في هذا الباب(٣).

ومثل قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَـٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء: ٣٠]. فإن الله تعالى أخبر في هذه الآية أن السماوات والأرض كانتا رتقاً، أي: كان الجميع متصلاً بعضه ببعض، متلاصقاً متراكماً

---

(١) انظر: سنن الترمذي، كتاب الدعوات، باب ٨٣، حديث (٣٥٠٧): ٥/٤٩٦، وسنن ابن ماجه، كتاب الدعاء، باب أسماء الله ﷻ ـ حديث (٣٨٦١): ٢/ ١٢٦٩ ـ ١٢٧٠.

(٢) انظر: شأن الدعاء، للخطابي: ص٧٩، وأحكام القرآن، لابن العربي: ٢/ ٣٤٨.

(٣) انظر: في بيان ذلك: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/٣٧٩ ـ ٣٨٠ و٨/٩٦ و٢٢/٤٨٢ ـ ٤٨٥، وفتح الباري، للحافظ ابن حجر: ١١/٢١٥ ـ ٢١٧، ومعتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله الحسنى، للدكتور محمد بن خليفة التميمي: ص٨٤ ـ ١٠٦.

بعضه فوق بعض في ابتداء الأمر، ففتق الله تعالى هذه من هذه، فجعل السماوات سبعاً، والأرض سبعاً، وفصل بين السماء الدنيا والأرض بالهواء، فأمطرت السماء، وأنبتت الأرض[١]، وفي هذا بيان لقدرة الله تعالى التامة، وسلطانه العظيم في خلقه الأشياء، وقهره لجميع المخلوقات[٢].

وقد اشتق بعض من جمع أسماء الله تعالى من قوله ﷻ: ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ اسماً مزدوجاً لله تعالى، فأورد في أسمائه (الراتق الفاتق)[٣].

وهذا لا يستقيم، لما سبق أن أسماء الله وصفاته توقيفية[٤]، ولأنه لا يلزم من الإخبار عنه تعالى بالفعل مقيداً في الكتاب والسنة أن يشتق له منه اسم مطلق، كما سيأتي بيانه ـ إن شاء الله ـ في المطلب التالي بعد هذا.

وينبغي أن يبين أيضاً أن ما سبق ذكره من الأمثلة العشرة للأسماء المزدوجة ليس كله ثابتاً بصورة الاسم في الكتاب والسنة، بل لم يثبت بصورة الاسم منها إلا مثالان:

أحدهما: (المقدم ـ المؤخر)، ثبت ذلك في حديث أبي موسى

---

(١) هذه عبارة الحافظ ابن كثير في تفسير الآية بتصرف يسير من (تفسير القرآن العظيم: ٣/ ١٨٥)، وفي هذا التفسير جمع للأقوال الواردة عن السلف في معنى الآية. وانظر: تفسير الطبري: ٩/ ١٩ ـ ٢١.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ١٨٥.

(٣) ذكرهما القرطبي في (الأسنى في شرح الأسماء الحسنى). وانظر: معتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله الحسنى، للدكتور محمد بن خليفة التميمي: ص٢٦٦.

(٤) انظر: ٢/ ١٨٠ من هذا البحث.

الأشعري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه كان يدعو بهذا الدعاء: «**اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي جدي وهزلي، وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به منى، أنت المقدم وأنت المؤخر، وأنت على كل شيء قدير**»(١).

وثبت ذلك أيضاً في حديث ابن عباس(٢)، وحديث على بن أبي طالب(٣)، رضي الله عنهم.

والثاني: (القابض ـ الباسط)، ثبت ذلك في حديث أنس رضي الله عنه قال: «غلا السعر على عهد رسول الله ﷺ، فقال الناس: يا رسول الله، غلا السعر، فسعر لنا، فقال رسول الله ﷺ: «**إن الله هو المسعّر القابض الباسط الرازق، وإني لأرجو أن ألقى الله وليس أحد منكم يطالبني بمظلمة في دم ولا مال**»»(٤).

وورد ذلك بصورة الفعل في قول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وأما الأمثلة الأخرى، فـ (الخافض ـ الرافع) ورد في الرواية التي فيها سرد أسماء الله الحسنى، وسبقت الإشارة إلى أن هذه الرواية لم

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ١١/١٩٦، برقم (٦٣٩٨)، ومسلم في صحيحه: ٤/٢٠٨٧، برقم (٢٧١٩).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٣/٣، برقم (١١٢٠).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه: ١/٥٣٤ ـ ٥٣٦، برقم (٧٧١).

(٤) أخرجه أبو داود في سننه: ٣/٧٣١، برقم (٣٤٥١)، والترمذي في سننه: ٣/٦٠٥ ـ ٦٠٦، برقم (١٣١٤)، وابن ماجه في سننه: ٢/٧٤١، برقم (٢٢٠٠)، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح»، وقال الحافظ ابن حجر ـ في التلخيص الحبير: ٣/١٤ ـ: «إسناده صحيح على شرط مسلم».

يثبت رفعها إلى النبي ﷺ[(١)]، ولكن ثبت عن النبي ﷺ الإخبار عن الله تعالى بالفعل من هذين الاسمين مقيداً في عدة أحاديث، كحديث أبي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يد الله ملآى لا تغيضها**[(٢)] **نفقة، سحاء**[(٣)] **الليل والنهار**. وقال: **أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض؟ فإنه لم يغض ما في يده، وكان عرشه على الماء، وبيده الميزان يخفض ويرفع**»[(٤)].

وحديث أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله عز وجل لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه**» الحديث[(٥)].

و(المحل ـ المحرم)[(٦)]، ورد بصيغة الفعل مقيداً في قول الله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، فلا يستقيم اشتقاق اسم مطلق منهما لله تعالى، كما سيأتي.

و(المحيي ـ المميت) ورد بصيغة الفعل في مواضع عديدة من القرآن الكريم، مثل:

قول الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

---

(١) انظر: ٢/ ١٩٣.

(٢) لا تغيضها ـ بالغين المعجمة، والضاد المعجمة ـ أي: لا ينقصها. وانظر: فتح الباري، للحافظ ابن حجر: ٨/ ٣٥٣.

(٣) سحاء ـ بمهملتين مثقلاً ممدوداً ـ أي: دائمة الصب. وانظر: فتح الباري: ٨/ ٣٥٣ و١٣/ ٣٩٥.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٨/ ٣٥٢، برقم (٤٦٨٤)، ومسلم في صحيحه: ٢/ ٦٩١، برقم (٩٩٣).

(٥) سبق تخريجه في ١/ ٢٦٠ وانظر أيضاً: ١/ ٤٨١ من البحث.

(٦) ذكرهما الشرباصي في موسوعة (له الأسماء الحسنى).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾ [التوبة: ١١٦].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾﴾ [النجم: ٤٤].

وإنما ورد (المحيي والمميت) بصورة الاسم في الرواية التي فيها سرد أسماء الله الحسنى، والتي علم أنها لا تثبت.

و(المعز ـ المذل) ورد أيضاً في الرواية المذكورة، وورد بصيغة الفعل في قول الله تعالى: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ﴾ [آل عمران: ٢٦].

و(المعطي ـ المانع) ورد الاسمان مفرقين غير مزدوجين في الرواية المذكورة ـ عند ابن ماجه(١) ـ، وعند الترمذي مزدوجاً بلفظ: (المغني المانع)(٢).

وورد بصيغة الفعل مقيداً في حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ كان يقول في دبر كل صلاة مكتوبة: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد**(٣)»»(٤).

---

(١) انظر: سنن ابن ماجه، كتاب الدعاء، باب أسماء الله عز وجل ـ حديث (٣٨٦١).

(٢) انظر: سنن الترمذي، كتاب الدعوات، باب (٨٣) ـ حديث (٣٥٠٧).

(٣) قال الإمام النووي: «وقوله: (ذا الجد) المشهور فيه فتح الجيم، هكذا ضبطه العلماء المتقدمون والمتأخرون» قال: «وهو الحظ والغنى والعظمة والسلطان. أي: لا ينفع ذا الحظ في الدنيا بالمال والولد والعظمة والسلطان منك حظه، أي: لا ينجيه حظه منك، وإنما ينفعه وينجيه العمل الصالح». [شرح صحيح مسلم: ٤/١٩٦].

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٢/٣٢٥، برقم (٨٤٤)، ومسلم في صحيحه: ١/٤١٤ ـ ٤١٥، برقم (٥٩٣).

و(المنتقم ـ العفو) ورد هكذا مزدوجاً في رواية الترمذي التي فيها سرد الأسماء الحسنى. و(العفو) ثابت في أسماء الله تعالى بنص القرآن الكريم في عدة مواضع، منها:

قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٤٣]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٠].

أما (المنتقم) فقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «واسم (المنتقم) ليس من أسماء الله الحسنى الثابتة عن النبي ﷺ، وإنما جاء في القرآن مقيداً، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [إبراهيم: ٤٧]. والحديث الذي في عدد الأسماء الحسنى الذي يذكر فيه (المنتقم)، فذكر في سياقه (البر، التواب، المنتقم، العفو، الرؤوف)(١)، ليس هو عند أهل المعرفة بالحديث من كلام النبي ﷺ...» اهـ(٢).

و(النافع ـ الضار) ورد أيضاً في الرواية التي فيها سرد الأسماء الحسنى، ولم يرد في الكتاب ولا في السنة ـ فيما علمت ـ نسبة النفع والضر بصيغة اسم أو فعل إلى الله تعالى، وإنما ورد في القرآن قول الله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾﴾ [الفتح: ١١]، والضر والنفع ـ في هذه الآية ـ مفعولان صادران عن إرادة الله تعالى، وليسا اسمين ولا وصفين لله تعالى.

و(الهادي ـ المضل)(٣) لم يرد (المضل) في أسماء الله تعالى، لا

(١) انظر: سنن الترمذي ـ حديث (٣٥٠٧).

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٩٦/٨.

(٣) ذكرهما القرطبي في (الأسنى في شرح الأسماء الحسنى)، والشرباصي في =

مفرداً ولا مزدوجاً، ولكن اسم (الهادي) ورد في قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١]، وورد أيضاً مضافاً في قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الحج: ٥٤].

وإنما ورد من هذين الاسمين فعلان مقترنان، في نحو قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾ [إبراهيم: ٤]، وقوله تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾ [الأعراف: ١٧٨].

وبهذا البيان المتعلق بالأمثلة التي ذكرها العلماء للأسماء المزدوجة المتقابلة يعلم أن الثابت من ذلك بصورة الاسم قليل جداً، وأن بعض ذلك وارد في الكتاب والسنة بصيغة الفعل، فيدخل فيما أخبر الله تعالى به عن نفسه، أو أخبر عنه رسوله ﷺ من أفعاله الدالة على ربوبيته وألوهيته، كما أن الباب كله متعلق بأفعال الله تعالى الصادرة عن إرادته وقدرته وحكمته، كما سبق ذكره(١).

وبالجملة، فإن من الأصول الكلية في عقيدة أهل السنة والجماعة: أن أسماء الله كلها حسنى، وصفاته كلها عليا ليس في شيء من ذلك نقص ولا عيب بوجه من الوجوه، كما أنه سبحانه ليس كمثله شيء في ذاته وأسمائه وصفاته.

وإذا ورد لله تعالى اسم أو صفة مقروناً بآخر في الكتاب والسنة، بحيث لو أفرد أحدهما عن الآخر أوهم نقصاً في حقه سبحانه، فإن

= موسوعة (له الأسماء الحسنى). وانظر: معتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله الحسنى، للدكتور محمد بن خليفة التميمي: ص٢٧٠.

(١) انظر: ٢/ ١٩٢.

مراعاة هذا الاقتران واجبة عند دعاء الله تعالى بذلك الاسم أو تلك الصفة، دعاء طلب ومسألة، أو دعاء ذكر وثناء؛ لأنه لم يطلق في الوحي إلا مقروناً، ولأن الكمال يحصل باقترانهما لا بانفراد كل منهما، ولأن ذلك هو مقتضى تنزيه الله تعالى في أسمائه وصفاته، فإن الاسم أو الصفة المقرون بمقابله إذا علم بدلالة الكتاب والسنة عدم إطلاقه على الله تعالى مفرداً، لم يكن مفرداً مما يدعى الله تعالى به، أو يثنى عليه به، لما قد يوهم من النقص الذي يجب تنزيه الله تعالى عنه. لكن مثل هذا الاسم أو الصفة ليس لأحد أن ينفي مضمونه أيضاً، فيقول ـ مثلاً ـ: إن الله ليس بقابض، أو ليس بمانع، أو ليس بمضل؛ لأن نفي ذلك باطل مخالف للكتاب والسنة، وإن كان إثبات مثل ذلك يثبت على الوجه المتضمن للمدح والثناء لله تعالى كما ورد في الكتاب والسنة[1].

فهذا من الأمور المهمة التي يقتضي التنزيه مراعاتها في حق الله تعالى إثباتاً ونفياً، والله تعالى أعلم.

❖ المطلب الثاني ❖

التفريق بين ما أطلق على الله تعالى في الكتاب والسنة مطلقاً وما أطلق على الله مقيداً

مما لا ينبغي الشك فيه أن كل ما أطلق على الله تعالى في الكتاب والسنة من اسم أو صفة، فهو دال على المدح والكمال في حقه ﷻ، إلا أنه ينبغي التفريق بين ما هو دال على المدح والكمال في حق الله تعالى مطلقاً، وما هو دال على المدح والكمال في حقه مقيداً.

وقد نبه أهل العلم من أهل السنة والجماعة إلى ضرورة هذا التفريق لتحقيق تسبيح الله تعالى في أسمائه وصفاته، بإثبات ما يليق به

---

(١) انظر: بيان تلبيس الجهمية، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٢/١١.

سبحانه من الأسماء والصفات المتضمنة للنقص والذم.

ذلك لأن ما أطلق على الله تعالى في الكتاب والسنة نوعان:

النوع الأول: أسماء وصفات مطلقة، وهي التي تكون معانيها محمودة مطلقاً، ولا تكون مذمومة في حال، مثل أسماء الله تعالى الواردة في قوله سبحانه: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: ٢٢ ـ ٢٤].

وقول رسول الله ﷺ: «**إن ربكم تبارك وتعالى حيي كريم، يستحي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفراً**»(١).

وفي حديث آخر: «**إن الله ﷻ حيي ستير، يحب الحياء والستر، فإذا اغتسل أحدكم فليستتر**»(٢).

ومثل صفة الوجه، واليدين، وعلو الذات الواردة في قول الله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾

---

(١) أخرجه أبو داود سننه: ٢/ ١٦٥، برقم (١٤٨٨)، والترمذي في سننه: ٥/ ٥٢٠، برقم (٣٥٥٦)، وابن ماجه في سننه: ٢/ ١٢٧١، برقم (٣٨٦٥)، كلهم من حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه. وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود: ١/ ٤٠٩، برقم (١٤٨٨)، وفي صحيح سنن الترمذي: ٣/ ٤٦٣، برقم (٣٥٥٦).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه: ٤/ ٣٠٢، برقم (٤٠١٢)، والنسائي في سننه: ١/ ٢١٨ ـ ٢١٩، برقم (٤٠٤) و(٤٠٥)، من حديث يعلى بن أمية رضي الله عنه. وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود: ٢/ ٤٩٧، برقم (٤٠١٢)، وفي صحيح سنن النسائي: ١/ ١٣٥ ـ ١٣٦، برقم (٤٠٤ و٤٠٥).

[الرحمن: ٢٦ ـ ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾﴾ [الملك: ١٦ ـ ١٧].

وقال رسول الله ﷺ في وصف الله تعالى: «**حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**»(١).

وقال ﷺ أيضاً: «**إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن ﷻ، وكلتا يديه يمين**»(٢).

وقال ﷺ: «**ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء**»(٣).

فهذه الأمثلة ونحوها من أسماء الله تعالى وصفاته الواردة في الكتاب والسنة مقتضية المدح والثناء بنفسها؛ لأنها دالة على الكمال الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه، لا احتمالاً ولا تقديراً، ولهذا ورد إطلاقها على الله تعالى مطلقة غير مقيدة.

وهذا النوع من الأسماء والصفات يشرع دعاء الله تعالى بها دعاء ذكر وثناء، ودعاء طلب ومسألة، كما قال ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وذكر أهل العلم أن الاسم من هذا النوع إذا أطلق على الله تعالى في الكتاب والسنة، جاز أن يشتق منه المصدر والفعل، فيخبر بهما عن الله تعالى. مثال ذلك: (السميع) من أسماء الله تعالى الثابتة في

---

(١) سبق تخريجه في ١/ ٢٦٠. (٢) سبق تخريجه في ١/ ١٦٦.

(٣) هو جزء من حديث طويل من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ : ٨/ ٦٧، برقم (٤٣٥١)، ومسلم في صحيحه: ٢/ ٧٤٢، برقم (١٠٦٤).

الكتاب والسنة، فيطلق عليه المصدر منه، فيقال: لله سمع، أو سمع الله. ويطلق عليه الفعل منه، فيقال: قد سمع الله، وإن الله يسمع[(١)].

وهذا إن كان الفعل من الاسم متعدياً بنفسه أو بواسطة حرف جر، فإن كان الفعل لازماً، لم يخبر به عن الله تعالى، بل يطلق عليه الاسم والمصدر منه فحسب، ومثال ذلك: (الحي) من أسماء الله تعالى، فإنه ـ وإن كان من حيث اللغة له فعل، وهو (حيي) على زنة (فَعِل) ـ إلا أنه لا يقال: حيي الله، ولكن يقال: إن الله حي، ولله حياة[(٢)].

والسبب في هذا التفريق بين المتعدي واللازم: أن اسم الله تعالى إن كان الفعل منه متعدياً، تضمن ـ بالإضافة إلى ما يدل عليه من صفة الله تعالى ـ حكماً، وهو ـ أي الحكم ـ: نسبة الصفة إلى متعلقاتها، والإخبار عن آثارها[(٣)].

وإن كان الفعل من الاسم لازماً، تضمن الاسم صفة الله تعالى دون الحكم، فلا يخبر عن الله تعالى بالفعل منه؛ لأن ما دل عليه من الصفة ليس لها متعلق غير قيامها بذات الله تعالى، والله أعلم.

والإخبار عن الله تعالى بالمصادر والأفعال المشتقة من أسمائه الحسنى كثير في الكتاب والسنة؛ لأن هذه الأسماء وما اشتق منها من المصادر والأفعال دالة ـ كيفما وردت ـ على المعاني المحمودة في حق الله تعالى.

---

(١) انظر: بدائع الفوائد، لابن القيم: ١/ ١٧٩، والقواعد المثلى، للشيخ ابن عثيمين: ص١٣.

(٢) انظر: المصدرين السابقين.

(٣) انظر: القصيدة النونية، لابن القيم ـ مع شرحها، لهراس: ١/ ٤٢٦ ـ ٤٢٧.

النوع الثاني: أسماء وأفعال مختصة مقيدة، وهي التي تكون معانيها منقسمة إلى محمود ومذموم، وإلى كمال ونقص، فتمدح في موضع، وتذم في موضع، وتكون كمالاً في حال ونقصاً في حال، ولهذا لم ترد في حق الله تعالى على سبيل الإطلاق، وإنما وردت مقيدة مخصوصة بكمالاتها وما يقتضي المدح منها.

ومن أمثلة هذا النوع في كتاب الله تعالى ما يلي:

١ ـ قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ [البقرة: ١٥].

وهذه الآية جاءت في معرض الكلام عن المنافقين، وقوله تعالى فيها: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ هو فعل أطلقه تعالى على نفسه في مقابلة ما حكاه عن المنافقين، حيث قال: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾ [البقرة: ١٤]. فكان استهزاء المنافقين سيئة ونقصاً، إذ جاء على وجه الباطل وسوء الطوية، وكان استهزاء الله تعالى بهم محموداً وكمالاً، إذ جاء على وجه المقابلة بالعدل، والمجازاة بالمثل، وهذا لا يمتنع عليه سبحانه، وإنما يمتنع عليه الاستهزاء على وجه اللعب والعبث، لكونه في هذه الحال مذموماً ونقصاً، بخلاف حالة المقابلة والمجازاة، فهو ممدوح وكمال(١)، فالاستهزاء ـ إذا ـ يكون ممدوحاً، ويكون مذموماً، والله تعالى أطلق على نفسه الفعل منه مقيداً بحالة المدح الكمال.

٢ ـ وقوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [آل عمران: ٥٤].

---

(١) انظر: تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة: ص٢٧٧، وتفسير الطبري: ١/ ١٦٥ ـ ١٦٨، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ١/ ٥٤.

والشاهد هنا قوله: ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾، وهو فعل أطلق الله تعالى على نفسه على وجه المقابلة والمجازاة أيضاً، كما في الآية السابقة. وهذه الآية في شأن بني إسرائيل، وكان مكرهم الذي وصفهم الله به ـ في قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ﴾ ـ مواطأتهم على الفتك بنبي الله عيسى عليه السلام وقتله.

وأما مكر الله بهم: فهو أنه تعالى ألقى شبه عيسى عليه السلام على رجل ممن كان عنده في المنزل، فلما دخل أولئك الماكرون المنزل اعتقدوا ذلك الرجل عيسى، فقتلوه وصلبوه، وقد نجى الله تعالى نبيه عيسى عليه السلام ورفعه إليه، وتركهم في ضلالهم يعمهون يعتقدون أنهم قد ظفروا بطلبتهم، ثم أعقب الله في قلوبهم شكاً وريبة، وأورثهم ذلة لا تفارقهم إلى يوم القيامة(١).

فالمكر من الله تعالى في هذه الحال محمود وكمال، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾.

ونظير هذه الآية قوله تعالى ـ في نبيه محمد ﷺ ـ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال: ٣٠].

٣ ـ وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف: ١٨٢ ـ ١٨٣].

وهنا أطلق الله تعالى على نفسه ثلاثة أمور:

ـ أنه سيستدرج الذين كذبوا بآياته. والاستدراج: أن يدنيهم من بأسه قليلاً قليلاً، من حيث لا يعلمون(٢).

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٣/ ٢٨٧، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ١/ ٣٧٤.
(٢) انظر: تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة: ص١٦٦.

ـ وأنه يملي لهم، أي: يؤخرهم حتى يبلغوا بمعصيتهم المقدار الذي قد كتبه لهم من العقاب والعذاب، ثم يقبضهم إليه[(١)].

ـ وأن كيده متين، يعني: أن مكره قوي شديد[(٢)].

وهذه كلها مما أطلقه الله على نفسه مقيداً في مقابلة من يعاملونه ورسله بالمثل جزاء وعدلاً.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦﴾ [الطارق: ١٥ ـ ١٦]. أي: إن هؤلاء المكذبين بالله ورسوله، والوعد والوعيد، يمكرون مكراً، وأمكر مكراً، ومكره ـ جل ثناؤه ـ بهم: هو إملاؤه إياهم على معصيتهم حتى يأخذهم بأعمالهم السيئة ويجازيهم بها من العقوبة ما قد أعدها لهم[(٣)].

٤ ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢].

قال الإمام ابن جرير الطبري ـ في تفسير هذه الآية ـ: «إن المنافقين يخادعون الله بإحرازهم دماءهم وأموالهم، والله خادعهم بما حكم فيهم من منع دمائهم بما أظهروا بألسنتهم من الإيمان، مع علمه بباطن ضمائرهم واعتقادهم الكفر، استدراجاً منه لهم في الدنيا، حتى يلقوه في الآخرة فيوردهم بما استبطنوا من الكفر نار جنهم» اهـ[(٤)].

فأطلق الله تعالى على نفسه الخداع مقيداً بالمنافقين على وجه المقابلة بالعدل والمجازاة بالمثل.

٥ ـ وقوله تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٦/ ١٣٤.

(٢) انظر: المصدر السابق، الموضع نفسه.

(٣) انظر: تفسير الطبري: ١٢/ ٥٤١. (٤) تفسير الطبري: ٤/ ٣٣٢.

بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [التوبة: ٦٧].

والشاهد هنا قوله: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾، ومعناه ـ كما قال الإمام ابن جرير ـ: «تركوا الله أن يطيعوه ويتبعوا أمره، فتركهم الله من توفيقه وهدايته ورحمته»(١)، فالنسيان ـ هنا ـ بمعنى الترك، وأطلقه الله تعالى على نفسه على سبيل المقابلة والجزاء بالمثل.

٦ ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ [الأنعام: ٩٥].

وهذا مما أطلقه الله تعالى على نفسه مقيداً، حيث أضاف (فالق) إلى (الحب والنوى)، بمعنى: الذي فلق الحب والنوى، أي: شق الحب من كل ما ينبت من النبات، فأخرج منه الزرع، وشق النوى من كل ما يغرس مما له نواة، فأخرج منه الشجر(٢).

وقال تعالى ـ بعده ـ: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦]، وهنا أضاف (فالق) إلى (الإصباح)، بمعنى: شاق ضياء الصبح عن ظلمة الليل وسواده(٣).

٧ ـ وقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الواقعة: ٦٣ ـ ٦٤].

فقوله تعالى: ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ المراد: أن الله هو الذي يجعل الحرث زرعاً، وهو في معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ [الأنعام: ٩٥].

٨ ـ وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات: ٤٧].

---

(١) تفسير الطبري: ٦/ ٤١١.
(٢) انظر: تفسير الطبري: ٥/ ٢٧٥.
(٣) انظر: تفسير الطبري: ٥/ ٢٧٧.

فقوله تعالى: ﴿بَنَيْنَاهَا﴾ فيه إطلاق فعل البناء على نفسه مقيداً، بمعنى: بنينا السماء ورفعناها سقفاً ﴿بِأَيْيْدٍ﴾ أي: بقوة[(١)].

٩ ـ وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٥٣].

فيه إطلاق الفعل (فتن) على الله تعالى مقيداً، وهو من الفتنة، بمعنى: الاختبار والابتلاء[(٢)].

قال الإمام ابن جرير الطبري: «وإنما فتنة الله تعالى ذكره بعض خلقه ببعض مخالفته بينهم فيما قسم لهم من الأرزاق والأخلاق، فجعل بعضهم غنياً، وبعضهم قوياً، وبعضهم ضعيفاً، فأحوج بعضهم إلى بعض اختباراً منه لهم بذلك» اهـ[(٣)].

١٠ ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧].

و(فعال) صيغة مبالغة من الفعل، بمعنى: الذي يكثر منه الفعل.

وقد أطلق الله تعالى على نفسه مقيداً بقوله: ﴿لِّمَا يُرِيدُ﴾، لبيان أن الفعل منه سبحانه حاصل بمشيئته النافذة، وقدرته الشاملة، وحكمته البالغة، «فكل ما أراد فعله واقتضته حكمته فعله تبارك وتعالى، ولا يرده أحد عن مراده»[(٤)].

فإطلاق الفعل عليه سبحانه بهذا القيد يقتضي المدح والكمال في حقه تعالى، بخلاف إطلاق الفعل عليه مطلقاً؛ لأن الفعل إذا أطلق بلا قيد، احتمل ما يمدح به منه وما يذم، ولهذا إنما أطلق الله تعالى على نفسه من ذلك ما فيه المدح والكمال.

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ١١/ ٤٧٢، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٨١١.

(٢) انظر: تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة: ص٤٧٢، وتفسير الطبري: ٥/ ٢٠٤.

(٣) تفسير الطبري: ٥/ ٢٠٤.

(٤) مقتبس من: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي: ص٣٩٠.

وجميع ما ذكر أمثلة لما أطلقه الله تعالى على نفسه من أسماء وأفعال على سبيل التخصيص والتقييد، ولم يطلقه على نفسه على سبيل العموم والإطلاق.

وبناء على هذه الأمثلة وما ورد في بابها في الكتاب والسنة قرر أهل العلم من أهل السنة والجماعة أصولاً مهمة في هذا الباب ينبغي معرفتها، وهي:

أولاً: أن ما أطلق على الله تعالى في الكتاب والسنة مقيداً، مما معناه منقسم إلى كمال ونقص لا يدخل في الأسماء الحسنى التي أثبتها الله تعالى لنفسه في قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]؛ لأن أسماء الله الحسنى المعروفة هي التي وردت في الكتاب والسنة مطلقة غير مقيدة، وهي التي تقتضي المدح والكمال في حق الله تعالى بنفسها بدون متعلق وقيد(١)، كما سبق ذكره قريباً في النوع الأول، وكما سبق عند الكلام على إثبات المثل الأعلى لله تعالى(٢).

ثانياً: أن ما أطلق على الله تعالى في الكتاب والسنة مقيداً، مما معناه منقسم إلى كمال ونقص لا يجوز إطلاقه على الله تعالى مطلقاً بغير قيد، فلا يقال ـ مثلاً ـ: إن الله يستهزىء، أو يمكر، أو يكيد. ولا يقال: الله خادع، أو فالق، أو زارع، أو مريد، هكذا على الإطلاق، وذلك:

ـ لأن هذا النوع لم يرد في حق الله تعالى إلا مقيداً، كما سبق.

---

(١) انظر: شرح العقيدة الأصفهانية، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ص١٩، وطريق الهجرتين، لابن القيم: ص٥٤٠، ومدارج السالكين، له: ٣/ ٣٨٤، ومعتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله الحسنى، للدكتور محمد التميمي: ص٥٥.

(٢) انظر: ٢/ ١٤٨.

ـ ولأن هذا النوع إذا أطلق مجرداً عن قيد يدل على الكمال، كان معناه محتملاً الكمال والنقص، والمدح والذم، فيفضي إلى وصف الله تعالى بما يحتمل النقص والذم، والله تعالى منزه عن ذلك(١).

ثالثاً: أن الصفة إذا كانت كمالاً في حال، ونقصا في حال، لم تكن جائزة في حق الله تعالى على سبيل الإطلاق، ولا ممتنعة على سبيل الإطلاق، فلا تثبت له إثباتاً مطلقاً، ولا تنفى عنه نفياً مطلقاً، بل لا بد من التفصيل، فتجوز في الحال التي تكون كمالاً، وتمتنع في الحال التي تكون نقصاً(٢)؛ لأن الله تعالى مستحق للكمال الذي لا نقص فيه مطلقاً، منزه عن النقص مطلقاً.

وإذا فهمت هذه الأصول المذكورة، علمت ضرورة التفريق بين ما أطلق على الله تعالى في الكتاب والسنة مطلقاً، لكونه دالاً على المدح والكمال في حق الله مطلقاً، وما أطلق عليه تعالى في الكتاب والسنة مقيداً بما يدل على المدح والكمال، لكونه منقسماً إلى مدح وذم، وكمال ونقص.

فبهذا التفريق يتمكن العبد المؤمن من تحقيق تنزيه الله تعالى في أسمائه وصفاته، بإطلاق ما يجوز في حقه تعالى مطلقاً، وتقييد ما لا يجوز في حقه سبحانه إلا مقيداً.

ولما لم يراع هذا التفريق بعض من تصدوا لجمع أسماء الله الحسنى من الكتاب والسنة، وقعوا في أخطاء شنيعة؛ لأن مراعاة ما يقتضيه التنزيه واجبة في هذا الباب.

---

(١) انظر: بدائع الفوائد، لابن القيم: ١/١٧٨، وطريق الهجرتين، له: ص٥٣٨ ـ ٥٤٠، ومعارج القبول، للشيخ حافظ الحكمي: ١/١١٨، وتعليقات على العقيدة الواسطية، للشيخ ابن عثيمين: ص٢٧.

(٢) انظر: بدائع الفوائد، لابن القيم: ١/١٧٨، والقواعد المثلى، للشيخ ابن عثيمين: ص٢٩.

ومن أخطاء هذا الصنف من المؤلفين ذكرهم في أسماء الله الحسنى: الباطش[(١)]، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ [البروج: ١٢].

والباني[(٢)]، لقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ [الذاريات: ٤٧].

والجاعل[(٣)]، لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: ١].

والخادع[(٤)]، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢].

والزارع[(٥)]، لقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الواقعة: ٦٣ ـ ٦٤].

والصانع[(٦)]، لقوله تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨].

والطابع[(٧)]، لقوله تعالى: ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ٩٣].

والفاتن[(٨)]، لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾ [ص: ٣٤].

---

(١) ذكره أحمد الشرباصي في موسوعة (له الأسماء الحسنى).
(٢) ذكره أحمد الشرباصي في موسوعة (له الأسماء الحسنى).
(٣) ذكره ابن الوزير في إيثار الحق على الخلق: ص١٦٠، وأحمد الشرباصي في موسوعة (له الأسماء الحسنى).
(٤) نسب ابن القيم ذكره إلى بعض جهال المصنفين في أسماء الله، كما في طريق الهجرتين: ص٥٣٩، ومختصر الصواعق المرسلة: ص٢٥٠.
(٥) ذكره ابن العربي في أحكام القرآن: ٢/ ٣٤٢، وابن الوزير في إيثار الحق على الخلق: ص١٦٠.
(٦) ذكره الحليمي في المنهاج في شعب الإيمان: ١/ ١٩٤، والبيهقي في الأسماء والصفات: ١/ ٧٤.
(٧) ذكره أحمد الشرباصي في موسوعة (له الأسماء الحسنى).
(٨) ذكره ابن العربي في أحكام القرآن: ٢/ ٣٤٨، والشرباصي في موسوعته.

والفاعل[١]، لقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

والكاتب[٢]، لقوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

والكائد[٣]، لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ [الطارق: ١٥ ـ ١٦].

والماكر[٤]، لقوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

والمبتلي[٥]، لقوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ [الإنسان: ٢].

والمريد[٦]، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: ٤٠].

وهذه بعض الأمثلة لأخطاء من لم يراعوا في جمع أسماء الله الحسنى ما يقتضيه التنزيه من التفريق بين ما أطلق على الله تعالى في الكتاب والسنة مطلقاً، وما أطلق عليه مقيداً، والأمثلة على ذلك

---

(١) ذكره ابن الوزير في إيثار الحق على الخلق: ص١٦٠.

(٢) ذكره ابن الوزير في إيثار الحق على الخلق: ص١٦٠.

(٣) نسب ابن القيم ذكره إلى بعض جهال المصنفين في أسماء الله، كما في مختصر الصواعق المرسلة: ص٢٥٠.

(٤) نسب ابن القيم ذكره إلى بعض المصنفين، كما في مختصر الصواعق المرسلة: ص٢٥٠.

(٥) ذكره ابن العربي في أحكام القرآن: ٢/٣٤٨، وابن الوزير في إيثار الحق على الخلق: ص١٦٠.

(٦) ذكره ابن العربي في أحكام القرآن: ٢/٣٤٦، وأحمد الشرباصي في موسوعته.

عديدة ومتنوعة[١].

ومن أغرب هذه الأخطاء ذكر بعضهم في أسماء الله تعالى: رابع ثلاثة، وسادس خمسة[٢]، لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٧﴾ [المجادلة: ٧].

وأين في هذه الآية رابع ثلاثة، وسادس خمسة؟ بل كان اللائق بمراد هذا القائل أن يقول: رابع كل ثلاثة في نجواهم، وسادس كل خمسة كذلك، فإنه تعالى يعلم أفعالهم ويسمع أقوالهم، كما هو مفهوم من صدر الآية، ولكن لا يليق بهذا المعنى إلا سياق الآية[٣].

فهؤلاء أتوا إلى ما جاء في حق الله تعالى مقيداً فجعلوه مطلقاً، وغرهم أن الله تعالى أطلق على نفسه هذه الأسماء والأفعال المقيدة، فاشتقوا له منها أسماء مطلقة، وأدخلوها في أسمائه الحسنى، وقرنوها بما ورد مطلقاً، نحو: الرحيم، الحكيم، الودود[٤]، وهذا خطأ من وجوه ـ ذكرها الإمام ابن قيم الجوزية ـ:

«**أحدها**: أنه سبحانه لم يطلق على نفسه هذه الأسماء، **فإطلاقها** عليه لا يجوز.

---

(١) انظر: ـ في ذلك ـ: بدائع الفوائد، لابن القيم: ١/١٧٨، وطريق الهجرتين، له: ص٥٣٩، ومختصر الصواعق المرسلة، لابن القيم، اختصار محمد الموصلي: ص٢٥٠، ومعتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله الحسنى، للدكتور محمد التميمي: ص٢٧١ ـ ٣٣٤.

(٢) ذكرهما ابن العربي في أحكام القرآن: ٢/٣٤٢.

(٣) انظر: معارج القبول، للشيخ حافظ الحكمي: ١/١١٩.

(٤) انظر: مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم، للموصلي: ص٢٥٠.

والثاني: إنه سبحانه أخبر عن نفسه، بأفعال مختصة مقيدة، فلا يجوز أن ينسب إليه مسمى الاسم عند الإطلاق.

الثالث: أن مسمى هذه الأسماء منقسم إلى ما يمدح عليه المسمى به، وإلى ما يذم، فيحسن في موضع، ويقبح في موضع، فيمتنع إطلاقه عليه سبحانه من غير تفصيل.

الرابع: أن هذه ليست من الأسماء الحسنى التي يسمى بها سبحانه، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وهي التي يحب سبحانه أن يثنى عليه ويحمد بها دون غيرها.

الخامس: أن هذا القائل لو سمي بهذه الأسماء، وقيل له: هذه مدحتك وثناء عليك، فأنت الماكر، الفاتن، المخادع، المضل، اللاعن، الفاعل، الصانع، ونحوها، لما كان يرضى بإطلاق هذه الأسماء عليه، ويعدها مدحة، ولله المثل الأعلى ﷻ عما يقول الجاهلون به علواً كبيراً.

السادس: أن هذا القائل يلزمه أن يجعل من أسمائه: اللاعن، والجائي، والآتي، والذاهب، والتارك، والمقاتل، والصادق، والمنزل، والنازل، والمدمدم، والمدمر، وأضعاف ذلك، فيشتق له اسماً من كل فعل أخبر به عن نفسه، وإلا تناقض تناقضاً بيناً، ولا أحد من العقلاء طرد ذلك، فعلم بطلان قوله، والحمد لله رب العالمين»[1].

❖ المطلب الثالث ❖

التفريق بين ما يطلق على الله تعالى في باب الأسماء والصفات وما يطلق عليه في باب الإخبار

الأصل في مذهب أهل السنة والجماعة التعبير عن الله تعالى

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين: ص٥٣٩ ـ ٥٤٠. وانظر: مختصر الصواعق المرسلة: ص٢٥٠.

بالألفاظ الشرعية الإلهية النبوية الواردة في نصوص الكتاب والسنة، سواء في ذلك ما يذكر في حال مناجاة الله تعالى ومخاطبته وسؤاله والثناء عليه، وما يذكر في حال الإخبار عنه لإثبات ما يستحقه تعالى من صفات الكمال، ونفي ما تنزه عنه سبحانه من العيوب والنقائص، كما سبق بيانه في مبحث السكوت عما لم يعلم بالكتاب والسنة إثباته أو نفيه(١).

إلا أنه في بعض المواقف قد يخبر عن الله تعالى بما لم يرد إطلاقه عليه سبحانه في نصوص الكتاب والسنة، وذلك إذا احتيج إلى الإخبار عنه تعالى لإثبات حق أو نفي باطل، مثل أن يقال: ليس هو بقديم، ولا موجود، ولا ذات قائمة بنفسها، ونحو ذلك مما يتضمن نفي ما هو حق عن الله تعالى. فيقال ـ في تحقيق الإثبات ـ: بل هو سبحانه قديم، موجود، وهو ذات قائمة بنفسها(٢).

ومثل أن يقال: هو حال في مكان، أو في شخص، أو نحو ذلك مما يتضمن إثبات باطل في حقه سبحانه. فيقال ـ في تحقيق نفي ذلك ـ: بل هو سبحانه بائن عن العالم، لا يحل في شيء من مخلوقاته.

فهذه الألفاظ ـ قديم، موجود، ذات، بائن، لا يحل ـ وأمثالها ليست من الألفاظ الواردة في حق الله تعالى في الكتاب والسنة(٣)، وقد

(١) انظر: ٢/١٧٨.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٩/٣٠١، ودرء تعارض العقل والنقل، له: ١/٢٩٧.

(٣) ورد في الحديث إضافة لفظ (ذات) إلى الله تعالى، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات، ثنتين منهن في ذات الله عز وجل...» الحديث. [أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٦/٣٨٨، برقم (٣٣٥٨)، ومسلم في صحيحه: ٤/١٨٤٠، برقم (٢٣٧١)].
=

احتاج علماء أهل السنة والجماعة إلى التعبير به عن الله تعالى ـ أحياناً ـ لإثبات الحق ونفي الباطل رداً على أهل الأهواء المخالفين لمذهب السلف الصالح في العقيدة، وإن كانوا لا يذكرون مثل هذه الألفاظ في الخبر المطلق عن الله تعالى[١].

وبهذا يتبين أن باب الإخبار عن الله تعالى أوسع من باب الأسماء والصفات[٢]؛ لأن الأسماء والصفات توقيفية، فلا يسمى الله تعالى ولا يوصف إلا بما ورد به الكتاب والسنة.

وأما الإخبار عنه تعالى، فيخبر عنه بما ورد من أسمائه وصفاته، ويخبر عنه ـ عند الحاجة ـ بما لم يرد، مثل: شيء، وموجود، ومذكور، ومعلوم، ومراد[٣].

قال الإمام ابن قيم الجوزية: «ما يطلق عليه في باب الأسماء

= ومعنى قوله: (في ذات الله) أي: من أجل الله، أو حق الله. [انظر: فتح الباري، لابن حجر: ١٣/ ٣٨٣].

فمعنى هذا اللفظ في الحديث مختلف عن المعنى الذي يقصد به عند إطلاقه على الله تعالى في باب الإخبار، إذ يقصد به: النفس والحقيقة.

وانظر ـ في الكلام على هذا اللفظ ـ: صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب ما يذكر في الذات والنعوت وأسامي الله ﷻ، وتهذيب الأسماء واللغات، للنووي: ٣/ ١١٣، وبدائع الفوائد، لابن القيم: ١/ ٢٤٦ ـ ٢٤٨، وفتح الباري، للحافظ ابن حجر: ١٣/ ٣٨١ ـ ٣٨٣.

(١) انظر: بيان تلبيس الجهمية، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٢/ ١١، ومجموع الفتاوى، له: ٦/ ١٤٣.

(٢) انظر: بدائع الفوائد، لابن القيم: ١/ ١٧٨، ومدارج السالكين، له: ٣/ ٣٨٤، ومعتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله الحسنى، للدكتور محمد التميمي: ص٣٦، ٥٨.

(٣) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم: ٣/ ٣٨٤.

والصفات توقيفي، وما يطلق عليه من الأخبار لا يجب أن يكون توقيفياً، كالقديم، والشيء، والموجود، والقائم بنفسه. فهذا فصل الخطاب في مسألة أسمائه: هل هي توقيفية، أو يجوز أن يطلق عليه منها بعض ما لم يرد به السمع[(١)]» اهـ[(٢)].

ومن هنا لزم التفريق بين ما يدعى الله تعالى به في حال مناجاته ومخاطبته والثناء عليه، وما يطلق عليه في حال الإخبار عنه لإثبات حق أو نفي باطل. فإنه سبحانه لا يدعى إلا بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، والدعاء بها يتناول دعاء الثناء والعبادة، ودعاء الطلب والمسألة[(٣)]، «فلا يثنى عليه إلا بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، وكذلك لا يسأل إلا بها، فلا يقال: يا موجود، أو يا شيء، أو يا ذات اغفر لي وارحمني، بل يسأل في كل مطلوب باسم يكون مقتضياً لذلك المطلوب، فيكون السائل متوسلاً إليه بذلك الاسم»[(٤)]، مثل: دعاء أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام الوارد في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِۦمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة: ١٢٧ ـ ١٢٩].

ومثل دعاء عبد الله ونبيه عيسى عليه السلام الوارد في قول الله تعالى:

---

(١) السمع: يعنى الكتاب والسنة؛ لأنهما منقولان عن طريق التلقي والسماع.

(٢) بدائع الفوائد: ١/ ١٧٩.

(٣) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم: ١/ ٤٢٠ ـ ٤٢١، وبدائع الفوائد، له: ١/ ١٨٠.

(٤) مقتبس من: بدائع الفوائد، لابن القيم: ١/ ١٨٠.

﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [المائدة: ١١٤].

ومثل أدعية خاتم النبيين محمد ﷺ، كدعائه ـ كما في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ـ: «**اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر، وأنت على كل شيء قدير**»(١).

وكما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يقول: «**اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، اللهم إني أعوذ بعزتك، لا إله إلا أنت أن تضلني، أنت الحي الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون**»(٢).

ونحو هذه من أدعية الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ التي فيها ثناؤهم على الله تعالى وتوسلهم إليه بأسمائه وصفاته المناسبة لمطالبهم.

والفرق بين مقام المخاطبة ومقام الإخبار فرق ثابت بالشرع، كما في حق الرسول ﷺ، حيث قال الله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣].

فدلت هذه الآية على أن المؤمنين إذا خاطبوا رسول الله ﷺ كان عليهم أن يتأدبوا بآداب الله تعالى، فلا يقولوا: يا محمد، يا أحمد، يا أبا القاسم، كما يدعو بعضهم بعضاً، بل يقولون: يا رسول الله، يا نبي الله، كما خاطبه الله تعالى بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ [المائدة: ٤١، و٦٧] ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ [الأنفال: ٦٤، ٦٥، ٧٠، والتوبة: ٧٣،

---

(١) سبق تخريجه في ٢/ ١٩٥.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: ٤/٢٠٨٦، برقم (٢٧١٧)، وأخرجه البخاري مختصراً في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ١٣/٣٦٨، برقم (٧٣٨٣).

والأحزاب: ١، ٢٨، ٤٥، ٥٠، ٥٩][1].

وأما إذا كانوا في مقام الإخبار عنه، قالوا ـ مثلاً ـ: أشهد أن محمداً رسول الله. وقالوا: محمد رسول الله وخاتم النبيين، فيخبرون عنه ﷺ باسمه، كما قال الله تعالى ـ لما أخبر عنه ﷺ ـ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وقال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

فقد فرق سبحانه بين حالتي الخطاب والإخبار في حق الرسول ﷺ، وأمر المؤمنين بالتفريق بينهما في حقه ﷺ. وكذلك هو المعتاد في عقول الناس إذا خاطبوا الأكابر من الأمراء، والعلماء، والمشايخ، والرؤساء، لم يخاطبوهم ويدعوهم إلا باسم حسن، وإن كان في حال الخبر عن أحدهم يقال: هو إنسان، وجسم، ومخلوق، ومربوب، وابن أنثى، ويأكل الطعام، ويشرب، ونحو ذلك[2].

وإذا كان سلوك هذا الأدب ثابتاً في حق المخلوق شرعاً وعقلاً، فهو في حق الله أولى وأوجب؛ لأن الله الرب الخالق أحق بكل تعظيم وتنزيه، ومدح وثناء من المخلوق المربوب.

ولهذا كان الأصل في الإخبار عنه أن يكون بأسمائه وصفاته الواردة في الكتاب والسنة، فهي التي ينبغي التعبير بها عن الله تعالى في جميع الحالات، إلا أن يضطر إلى الإخبار عنه بلفظ غير وارد لبيان حق ورد باطل، كما وقع في الكتاب والسنة من التفصيل في النفي ـ أحياناً ـ رداً لقول من وصف الله تعالى بما ينافي كماله، أو لسبب

---

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ١/٢٩٧، ٢٩٨، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/١٤٢.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/١٤٢ ـ ١٤٣.

آخر اقتضى التفصيل ـ كما سبق بيانه[١] ـ، مع أن الأصل في طريق الكتاب والسنة الإجمال في النفي، كما سبق بيانه أيضاً[٢].

وإذا علم أن الإخبار عن الله تعالى بما لم يرد في الكتاب والسنة مختص في حالة الضرورة، فينبغي أن يعلم أن ما يخبر به، عن الله تعالى في هذه الحالة يشترط فيه شرطان:

الشرط الأول: أن لا يكون دالاً على معنى سيىء.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ويفرق بين دعائه والإخبار عنه، فلا يدعى إلا بالأسماء الحسنى، وأما الإخبار عنه، فلا يكون باسم سيىء، لكن قد يكون باسم حسن، أو باسم ليس بسيّئ وإن لم يحكم بحسنه» اهـ[٣].

الشرط الثاني: أن لا يكون من الألفاظ المجملة التي تحتمل الحق والباطل، كالألفاظ التي أحدثها المتكلمون في حق الله تعالى، مثل: لفظ (الجسم، والمتحيز، والجوهر، والعرض) ونحو ذلك.

وقد تقدم أن مذهب أهل السنة والجماعة في هذه الألفاظ المجملة المحدثة عدم موافقة أحد على إطلاقها، لا في النفي ولا في الإثبات. ومن أطلقها استفصل عن مراده، فإن أراد معنى صحيحاً موافقاً لما دل عليه الكتاب والسنة، كان ما أراده حقاً، لكن لا يوافق على إطلاق ذلك اللفظ، لما فيه من مفسدة. وإن أراد معنى مخالفاً لما دل عليه الكتاب والسنة، كان ما أراده باطلاً، فيكون مردوداً لفظاً ومعنى[٤].

فمراعاة هذين الشرطين هي مقتضى تنزيه الله تعالى في حالة الإخبار عنه بما لم يرد في الكتاب والسنة، كما أن دعاءه بأسمائه

---

(١) انظر: ٢/ ١٣٤. (٢) انظر: ٢/ ١٢١.
(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ١٤٢.
(٤) انظر: ٢/ ١٨٤ من البحث.

الحسنى وصفاته العليا دون غيرها هو مقتضى أمره تعالى وهدي رسوله ﷺ.

❖ المطلب الرابع ❖

التوقير[(١)] والتعظيم لأسماء الله تعالى وصفاته لفظاً ومعنى، ظاهراً وباطناً

ومن موجبات تنزيه الله تعالى في أسمائه وصفاته إعطاء الأسماء والصفات ما تستحق من التوقير والتعظيم؛ لأن هذه الأسماء والصفات قد تعرف الله بها إلى عباده، وأثنى بها على نفسه المقدسة، كما أثنى بها عليه رسوله ﷺ، وهو سبحانه يدعو عباده إلى أن يعرفوه بأسمائه وصفاته، ويثنوا عليه بها، ويأخذوا بحظهم من عبوديتها[(٢)].

ولكون هذه الأسماء والصفات لله ﷻ كان لها شأن عظيم في الدين، وكان لها من الحرمة والقدس ما ليس لغيرها من الأسماء والصفات، فهي أكمل وأحسن من غيرها لفظاً ومعنى، وهي أليق وأحق بالتوقير والتعظيم ظاهراً وباطناً.

وما تستحقه أسماء الله وصفاته تعالى من التوقير والتعظيم يصعب حصره في أمور محدودة، ولكن المقصود في هذا المطلب التنبيه على أمور مهمة في هذا الباب دل عليها جملة قول الله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [الواقعة: ٧٤، و٩٦، والحاقة: ٥٢]، وقوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ [الأعلى: ١].

---

(١) التوقير: التبجيل، وهو تفعيل من الوقار، كسحاب، أي: الرزانة. انظر: القاموس المحيط، للفيروزآبادي، مادة (وقر): ص٦٣٥.

(٢) انظر: كتاب التوحيد، لابن منده: ٣/ ٧، ومدارج السالكين، لابن القيم: ١/ ٤٢١.

ففي هذه الآيات أمر بتسبيح اسم الله تعالى، وتقدم بيان أقوال أهل العلم في ذلك عند الكلام على قرن التسبيح باسم من أسماء الله أو صفة من صفاته تعالى[١].

وقد بين كثير من أهل العلم أن من موجبات تنزيه الله تعالى تنزيه أسمائه وصفاته عما لا يليق بحرمتها وقدسيتها واختصاص الله تعالى بها، وإعطاءها ما تستحق من التوقير والتعظيم والتقديس، بمراعاة الأمور الآتية:

الأمر الأول: عدم ذكر أسماء الله وصفاته فيما ينافي الوقار والإجلال والخشوع.

وقد كان هذا دأب سلفنا الصالح، لعظم وقار الله تعالى في قلوبهم[٢]، ومن ذلك ما نقله الخطابي حيث قال: «وقد روينا عن عون بن عبد الله[٣] أنه كان يقول: (ليعظم أحدكم ربه أن يذكر اسمه في كل شيء، حتى يقول: أخزى الله الكلب، وفعل الله به كذا[٤])» اهـ[٥].

وما نقله القاضي عياض حيث قال: «وحدثنا الثقة أن الإمام أبا بكر الشاشي[٦] كان يعيب على أهل الكلام كثرة خوضهم فيه تعالى وفي

(١) انظر: ١/ ٢٢٠ ـ ٢٢٢ من البحث.
(٢) انظر: الفوائد، لابن القيم: ص٣٢٩.
(٣) هو عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي، أبو عبد الله الكوفي، أحد ثقات التابعين وعبادهم وقرائهم، ويقال: إنه كان يرى الإرجاء ثم تركه ورجع عن ذلك، وصحب عمر بن عبد العزيز في خلافته، وتوفي قبل سنه (١٢٠هـ)، رحمه الله.
انظر: تهذيب التهذيب، لابن حجر: ٨/ ١٧١ ـ ١٧٣.
(٤) يعني تبجيل اسم الله أن يذكر مع الكلب الذي هو من أخس الحيوانات.
(٥) شأن الدعاء: ص١٨.
(٦) اشتهر بهذه الكنية والنسبة إمامان من أئمة المذهب الشافعي. =

ذكر صفاته، إجلالاً لاسمه تعالى، ويقول: هؤلاء يتمندلون[١] بالله ﷻ» اهـ[٢].

ومن ذلك أيضاً ما ذكره بعض العلماء من عدم جواز قول: (بسم الله الرحمن الرحيم) على المحرم والمكروه[٣]؛ لأن في ذلك استخفافاً باسم الله إذ ذكره على المعصية، والعياذ بالله تعالى.

الأمر الثاني: عدم تعريض أسماء الله وصفاته تعالى للامتهان والابتذال[٤].

فلا يجوز أن تمتهن أو تبتذل أسماء الله وصفاته، أو توضع في أشياء تستعمل وتهان، كنقش الثوب أو الفراش الممتهن، أو تكتب على لوحات تعلق لمجرد الزينة، أو تكتب على أشياء تداس بالأقدام، أو تقع في الطرق.

= أحدهما: محمد بن علي بن حامد الشاشي، أبو بكر، الإمام العلامة، شيخ الشافعية في وقته، المتوفي سنة (٤٨٥هـ)، رحمه الله. انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: ١٨/ ٥٢٥ ـ ٥٢٦.
والآخر: محمد بن أحمد بن الحسين الشاشي، التركي، أبو بكر، فخر الإسلام، شيخ الشافعية في وقته، ومصنف (حلية العلماء في معرفة مذاهب الفقهاء)، المتوفى سنة (٥٠٧هـ)، رحمه الله. انظر: سير أعلام النبلاء: ١٩/ ٣٩٣ ـ ٣٩٤.

(١) يتمندلون: من المنديل، وهو ما يمسح به العرق ونحوه. وتمندل بالمنديل، ويقال أيضاً: تمدل، وتندل به.
وانظر: القاموس المحيط، للفيروزآبادي/ مادة (مدل): ص١٣٦٥، ومادة (ندل): ص١٣٧٢.
شبه خوضهم في أسماء الله وصفاته بدون مراعاة لحرمتها بتمسح الشخص بالمنديل.

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفي، تحقيق حسين عبد الحميد نيل: ٣/ ٢٨٩.

(٣) انظر: معجم المناهي اللفظية، للشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد: ص١٧٩.

(٤) الامتهان كالابتذال: وهما ضد الصيانة والاحترام.

ويجب على من وجد شيئاً من ذلك أن يرفعه، أو يتلفه، أو يزيل ما فيه من اسم الله تعالى صوناً لأسماء الله وصفاته من الابتذال[١].

كما يجب تنزيه ما كتب فيه اسم الله تعالى عن المواطن غير الطاهرة بقدر الإمكان[٢].

الأمر الثالث: عدم تصغير أسماء الله وصفاته تعالى.

والمراد هنا: التصغير اللفظي المعروف في علم الصرف[٣]، فإن أهل العلم اتفقوا على أنه لا يجوز أن تصغر أسماء الله وصفاته تعالى[٤]؛ لأن التصغير قد يفهم منه التحقير[٥]، وإن لم يكن ذلك قصد المتكلم، فلزم تنزيه أسماء الله وصفاته عن ذلك.

و(المهيمن) من أسماء الله تعالى ليس مصغراً؛ لأن فعله (هيمن) ـ كـ (سيطر)، وبناء الفاعل منه (مهيمن)[٦].

قال الخطابي: «قالوا: ولم يأت (مفيعل) في غير التصغير إلا في

---

(١) انظر: أضواء البيان (تكملته): ٦/ ٢٧، وإعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد، للشيخ صالح الفوزان: ٢/ ١٨٣.

(٢) انظر: أضواء البيان (تكملته): ٦/ ٢٨.

(٣) تعريفه: «تغيير صيغة الاسم لأجل تغيير المعنى: تحقيراً، أو تقليلاً، أو تقريباً، أو تكريماً، أو تلطيفاً، كرجيل، ودريهمات، وقبيل، وفويق، وأخي». [التعريفات، للجرجاني: ص٨٣]. وللتصغير ثلاثة أبنية: فعيل، وفعيعل، وفعيعيل. وانظر: أوضح المسالك، لابن هشام: ص١٩٠.

(٤) انظر: فتح الباري، لابن حجر العسقلاني: ١٣/ ٣٦٦.

(٥) انظر: الأسماء والصفات في معتقد أهل السنة والجماعة، للدكتور عمر الأشقر: ص١١٣.

(٦) قال الإمام ابن جرير الطبري: «وأصل (الهيمنة) الحفظ والارتقاب. يقال ـ إذا رقب الرجل الشيء وحفظه وشهده ـ: قد هيمن فلان عليه، فهو يهيمن هيمنة وهو عليه مهيمن». [تفسير الطبري: ٤/ ٦٠٦].

ثلاثة أحرف: مسيطر، ومبيطر، ومهيمن» اهـ[(١)].

الأمر الرابع: عدم تسمية المخلوق بأسماء الله تعالى.

وأسماء الله تعالى على قسمين[(٢)]:

الأول: أسماء مخصوصة بالله تعالى لا تصح إلا له، مثل: الله، الرحمن، الأحد، الصمد، الخالق، الرزاق، الجبار، والمتكبر، رب العالمين، علام الغيوب، وما أشبه ذلك.

الثاني: أسماء تطلق على الله تعالى وعلى غيره، مثل: السميع، البصير، الرؤوف، الرحيم، وما أشبه ذلك.

فالأسماء المختصة بالله تعالى لا تجوز تسمية المخلوق بها، وإن لم يقصد بالتسمية معانيها الخاصة بالله تعالى.

قال الإمام ابن قيم الجوزية: «ومما يمنع تسمية الإنسان به: أسماء الرب تبارك وتعالى، فلا تجوز التسمية بالأحد، ولا بالصمد، ولا بالخالق، ولا بالرزاق، وكذلك سائر الأسماء المختصة بالرب تبارك وتعالى.

ولا تجوز تسمية الملوك بالقاهر، والظاهر، كما لا يجوز تسميتهم بالجبار، والمتكبر، والأول، والآخر، والباطن، وعلام الغيوب» اهـ[(٣)].

وإذا سمي المخلوق بشيء من هذه الأسماء وما أشبهها وجب

---

(١) شأن الدعاء: ص٤٦.

(٢) انظر ـ في ذلك ـ: تحفة المودود بأحكام المولود، لابن قيم الجوزية، تحقيق سليم الهلالي: ص٢١٥، والقول المفيد على كتاب التوحيد، للشيخ ابن عثيمين: ٣/ ٢٢، وإعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد، للشيخ صالح الفوزان: ٢/ ١٨٤.

(٣) تحفة المودود بأحكام المولود: ص٢١١.

تغييره، كما قال الإمام محمد بن عبد الوهاب ـ في كتاب التوحيد ـ: «باب احترام أسماء الله تعالى وتغيير الاسم لأجل ذلك»(١)، «أي: لأجل احترامها، وهو تعظيمها»(٢).

وقال ـ في مسائل الباب ـ: «الأولى: احترام صفات الله وأسمائه، ولو لم يقصد معناه»(٣) «أي: بترك تسمية المخلوق بها، ولو لم يقصد معناه الخاص بالله»(٤).

وقال: «الثانية: تغيير الاسم لأجل ذلك»(٥)، أي: يجب تغيير الاسم احتراماً لأسماء الله تعالى(٦)، «ويستفاد منه المنع من التسمي بهذا ابتداء من باب الأولى»(٧)، وهذا كله في الأسماء المختصة بالله تعالى.

«وأما الأسماء التي تطلق عليه وعلى غيره، كالسميع، والبصير، والرؤوف، والرحيم، فيجوز أن يخبر بمعانيها عن المخلوق(٨)، ولا يجوز أن يتسمى بها على الإطلاق، بحيث يطلق عليه كما يطلق على

---

(١) كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد: ص١٥١.
(٢) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، للشيخ سليمان بن عبد الله آل الشيخ: ص٦١٤.
(٣) كتاب التوحيدُ ص١٥١.
(٤) التوضيح المفيد لمسائل كتاب التوحيد، للشيخ عبد الله بن محمد الدويش: ص٩٥.
(٥) كتاب التوحيد: ص١٥١.
(٦) انظر: إعانة المستفيد، للشيخ صالح الفوزان: ٢/ ١٨٣.
(٧) تيسير العزيز الحميد، للشيخ سليمان بن عبد الله آل الشيخ: ص٦١٤.
(٨) مثل قول الله تعالى ـ عن نبيه محمد ﷺ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨].

الرب تعالى»[١].

وقد ثبت في السنة أن رسول الله ﷺ غير أسماء بعض الصحابة من أجل أنهم سموا بأسماء الله تعالى، مثل: من كان اسمه (عزيز) فسماه النبي ﷺ: عبد الرحمن[٢].

ومن كانت كنيته (أبا الحكم)؛ لأنه كان يحكم بين قومه، فغير النبي ﷺ كنيته، وكناه ـ بأكبر أولاده ـ: أبا شريح. وقال ﷺ: **«إن الله هو الحكم، وإليه الحكم»**[٣].

والأمثلة على ذلك كثيرة في الأحاديث وتراجم الصحابة، رضي الله عنهم أجمعين.

ويدخل في هذا الأمر كل اسم أو لقب فيه تعظيم بالغ لا يليق إلا بالله ﷻ، مثل: ملك الملوك، وسلطان السلاطين، وحاكم الحكام، وما أشبه ذلك من الألقاب الضخمة التي قد يتلقب أو يتسمى بها بعض المستكبرين[٤].

وقد ثبت في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال

---

(١) مقتبس من: تحفة المودود بأحكام المولود، لابن القيم: ص٢١٥.

(٢) ثبت ذلك في حديث عبد الرحمن بن أبي سبرة رضي الله عنه، أخرجه أحمد في مسنده: (٤/١٧٨) من عدة طرق، وهو حديث صحيح.

(٣) ثبت ذلك في حديث هانىء ـ وهو أبو شريح صاحب القصة رضي الله عنه، أخرجه أبو داود في سننه: ٥/ ٢٤٠، برقم (٤٩٥٥)، والنسائي في سننه: ٨/ ٦١٨، برقم (٥٤٠٢)، والبخاري في الأدب المفرد: ص٢٨٢، برقم (٨١١)، وهو حديث صحيح.
وانظر: السلسلة الصحيحة، للألباني، رقم (١٩٣٩)، وإرواء الغليل، له: ٨/ ٢٣٧ ـ ٢٣٨، برقم (٢٦١٥).

(٤) انظر: تحفة المودود بأحكام المولود، لابن القيم: ص١٨٩، وإعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد، للشيخ صالح الفوزان: ٢/ ١٨٠.

رسول الله ﷺ: «**أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه وأغيظه، رجل كان يسمى ملك الأملاك، لا ملك إلا الله**»(١).

قال الحافظ ابن حجر: «واستدل بهذا الحديث على تحريم التسمي بهذا الاسم، لورود الوعيد الشديد. ويلتحق به ما في معناه، مثل: خالق الخلق، وأحكم الحاكمين، وسلطان السلاطين، وأمير الأمراء»(٢).

وقال الإمام ابن قيم الجوزية: «لما كان الملك الحق لله وحده، ولا ملك على الحقيقة سواه، كان أخنع(٣) اسم وأوضعه عند الله، وأغضبه له اسم (شاهان شاه)(٤)، أي: ملك الملوك، وسلطان السلاطين، فإن ذلك ليس لأحد غير الله، فتسمية غيره بهذا من أبطل الباطل، والله لا يحب الباطل.

وقد ألحق بعض أهل العلم بهذا (قاضي القضاة)، وقال: ليس قاضي القضاة إلا من يقضي الحق وهو خير الفاصلين، الذي إذا قضى أمراً فإنما يقول له: كن، فيكون» اهـ(٥).

ويتبين بما سبق أنه لا يجوز أن يسمى أحد أو يوصف بما قد

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: ٣/ ١٦٨٨، برقم (٢١٤٣)، والبخاري بنحوه في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ١٠/ ٥٨٨، برقم (١٢٠٥).

(٢) فتح الباري: ١٠/ ٥٩٠.

(٣) أخنع: وقع هذا اللفظ في بعض روايات الحديث السابق عند البخاري ومسلم في صحيحيهما، وعند مسلم عن الإمام أحمد بن حنبل: «سألت أبا عمرو: عن أخنع؟ فقال: أوضع». [صحيح مسلم: ٣/ ١٦٨٨، حديث (٢١٤٣)].

(٤) هذا من كلام العجم، مثل به لبيان أنه مثل (ملك الملوك) في المعنى وفي ذم التسمي به. وانظر: فتح الباري، للحافظ ابن حجر: ١٠/ ٥٩٠.

(٥) زاد المعاد: ٢/ ٣٤٠ ـ ٣٤١.

يظن به مشاركة شيء لله تعالى في أسمائه وصفاته، ولو لم يقصد أن يكون المسمى أو الموصوف مشاركاً لله تعالى، وذلك كله حفظ للتوحيد، وتنزيه لأسماء الله وصفاته عن أن يستحقها غيره أو أن يظن مشاركة أحد لله تعالى في شيء منها[1].

الأمر الخامس ـ وهو من أهم الأمور في هذا الباب وأجمعها ـ: الحذر من الوقوع في الإلحاد في أسماء الله تعالى وصفاته، لقوله سبحانه: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وهذا تهديد منه ﷻ للملحدين في أسمائه، ووعيد منه لهم، وهو كلام خرج مخرج الأمر لإرادة التهديد والوعيد، ومعناه: أن مهل ـ أيها النبي ـ الذين يلحدون في أسماء الله إلى أجل هم بالغوه، فسوف يجزون جزاء أعمالهم التي كانوا يعملونها من الإلحاد في أسماء الله تعالى[2].

ففي هذه الآية نهي وتحذير شديد من الإلحاد في أسماء الله تعالى وصفاته.

«وأصل الإلحاد ـ في كلام العرب ـ: العدول عن القصد والجور عنه والإعراض، ثم يستعمل في كل معوج غير مستقيم، ولذلك قيل للحد القبر: لحد؛ لأنه في ناحية منه، وليس في وسطه»[3].

وأما الإلحاد في أسماء الله وصفاته، ففسره أهل العلم بعدة معان:

---

(١) انظر: القول السديد، للشيخ عبد الرحمن السعدي ـ مع كتاب التوحيد ـ: ص١٢٤ ـ ١٢٥.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ٦/ ١٣٣.

(٣) مقتبس من: تفسير الطبري: ٦/ ١٣٢.

أحدها: التكذيب، كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «الإلحاد: التكذيب»[(١)].

وهذا المعنى منطبق على من يجحد أسماء الله وصفاته وينفيها بالكلية[(٢)]، وعلى من يجحد صفات الله ويعطل أسماءه عن معانيها، ويزعم أنها ألفاظ مجردة لا تتضمن صفات الله تعالى[(٣)].

فإن من وقع في شيء من هذا فقد كذب بأسماء الله وصفاته، وذلك من أعظم الإلحاد فيها[(٤)].

الثاني: الكذب، كما جاء عن قتادة قال: ﴿يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾: يكذبون في أسمائه»[(٥)].

وهذا المعنى منطبق على من سمى الله تعالى أو وصفه بما لم يرد في الكتاب والسنة[(٦)]؛ لأن من فعل ذلك فقد أدخل في أسماء الله وصفاته ما ليس منها، وهو كذب على الله تعالى، ويؤيد ذلك، ما جاء عن الأعمش[(٧)] ـ في تفسير قوله تعالى: ﴿يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ ـ قال:

---

(١) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره: ٦/ ١٣٢.

(٢) إنكار الأسماء والصفات بالكلية هو مذهب الجهمية. انظر: ص(٨٥٤) من هذا البحث.

(٣) وهو مذهب المعتزلة، فإنهم ينكرون صفات الله عموماً، ويثبتون أسماءه بلا صفات ولا معاني، بل ألفاظ مجردة.
وانظر: ص(٨٥٧) من هذا البحث.

(٤) انظر: بدائع الفوائد، لابن القيم: ١/ ١٨٦، ومدارج السالكين، له: ١/ ٥٣ ـ ٥٤.

(٥) أورده السيوطي في الدر المنثور: ٣/ ٢٧٢.

(٦) انظر: بدائع الفوائد، لابن القيم: ١/ ١٨٦، وفتح الباري، لابن حجر: ١١/ ٢٢١.

(٧) هو سليمان بن مهران الأسدي الكاهلي مولاهم، أبو محمد، الكوفي، =

«يدخلون فيها ما ليس منها»[(١)].

وهذا المعنى أيضاً منطبق على من فسر أسماء الله وصفاته بما يخالف معانيها الظاهرة اللائقة بالله تعالى، سواء كان ذلك بالتأويل الذي هو في الحقيقة تحريف، أو كان ذلك بالتمثيل والتشبيه لها بصفات المخلوقين؛ لأن من فعل ذلك فقد أدخل في معاني أسماء الله وصفاته ما ليس منها، وخرج بها عن حقائقها، وعدل بها عن الصواب، وهو كذب على الله تعالى، وإلحاد في أسمائه وصفاته[(٢)].

والثالث: الإشراك، كما جاء عن قتادة أيضاً قال: «﴿يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾: يشركون»[(٣)].

وهذا المعنى منطبق على من سمى بعض المخلوقين بأسماء الله، أو وصفهم بصفات الله تعالى، كما فعله المشركون في الجاهلية، حيث اشتقوا لمعبوداتهم أسماء من أسماء الله تعالى، فسموا بعضها: اللات، من لفظ الجلالة (الله)، وسموا بعضها: العزى، من اسم الله (العزيز)، وسموا بعضها: مناة، من اسم الله (المنان)، وسموا الصنم إلها. وهذا إلحاد حقيقة، فإنهم عدلوا بأسماء الله تعالى عما هي عليه، فسموا بها أصنامهم وأوثانهم، وزادوا فيها، ونقصوا منها[(٤)].

= الأعمش، أحد أئمة التابعين، كان من أعلم أهل زمانه وأحفظهم للقرآن، والحديث، والفرائض. وكان ثقة ثبتاً، وعابداً ورعا، وصاحب سنة، وتوفي سنة (١٤٧هـ) وقيل: سنة (١٤٨هـ) وله (٨٨) سنة، رحمه الله. انظر: تهذيب التهذيب، لابن حجر: ٤/ ٢٢٢.

(١) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره: ٥/ ١٦٢٣.

(٢) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم: ١/ ٥٤، وبدائع الفوائد، له: ١/ ١٨٦.

(٣) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره: ٦/ ١٣٢.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ٦/ ١٣٢، وبدائع الفوائد، لابن القيم: ١/ ١٨٦، والقول السديد، للشيخ عبد الرحمن السعدي ـ مع كتاب التوحيد ـ: ص١٣٤ ـ ١٣٥.

ويتبين بما سبق أن الإلحاد في أسماء الله وصفاته تعالى: إما بجحدها وإنكارها، وإما بجحد معانيها وتعطيلها، وإما بتحريفها عن الصواب، وإخراجها عن الحق بالتأويلات الفاسدة، وإما بتمثيلها بصفات المخلوقين، أو جعلها أسماء وصفات لبعض المخلوقين، وإما بتسمية الله ﷻ ووصفه بما لم يثبت في كتابه ولا في سنة رسوله ﷺ[١].

فحقيقة الإلحاد في أسماء الله تعالى وصفاته: هو العدول والميل بها عن مقصودها لفظاً ومعنى، تصريحاً أو تأويلاً أو تحريفاً، وكل ذلك مناف للتوحيد والإيمان[٢].

ومعرفة هذا الإلحاد بأنواعه المتعددة مع الحذر الشديد من الوقوع فيها أو في شيء منها كل ذلك من موجبات تسبيح الله تعالى في أسمائه وصفاته، ومما تستحقه أسماء الله وصفاته من التوقير والتعظيم، ومن التنزيه والتقديس، والله الموفق[٣].

---

(١) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم: ١/ ٥٤، وشرح العقيدة الواسطية، لهراس: ص٧٠.
(٢) انظر: القول السديد، للشيخ عبد الرحمن السعدي ـ مع كتاب التوحيد ـ: ص١٣٥.
(٣) انظر: بدائع الفوائد، لابن القيم: ١/ ١٨٥، وفقه الأدعية والأذكار، للشيخ الدكتور عبد الرزاق البدر: ص١٣٨.

الفصل الثالث

تسبيح الله تعالى
في
أقواله وأفعاله

تمهيد

أقوال الله وأفعاله تعالى من صفاته العلى التي جاء الكتاب والسنة بتقريرها وإثباتها لله ﷻ على ما يليق بكماله وعظمته.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج: ١٨].

وأقوال الله وأفعاله تعالى لا حصر لها ولا نهاية، كما قال سبحانه: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف: ١٠٩].

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [لقمان: ٢٧].

ومعنى هاتين الآيتين: أنه لو فرض جميع البحار مداداً، وجميع الأشجار أقلاماً، فكتبت بها كلمات الله ـ وهي أقواله ـ لتكسّرت الأقلام وفنيت البحار وكلمات الله باقية لا يفنيها شيء، ولا يحيط بها أحد(١).

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ١١٤، ٤٦٠.

وهذا من باب تقريب المعنى إلى الأذهان؛ لأن البحار والأشجار مخلوقة، وجميع المخلوقات فانية منتهية، وأما كلام الله فإنه من جملة صفاته، وصفات الله ﷻ غير مخلوقة، ولا لها حد ولا منتهى، فأي سعة وعظمة تصورتها القلوب، فالله تعالى فوق ذلك وأعظم(١).

ووصف الله تعالى نفسه بأنه ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦]، وفي هذا دليل على كثرة أفعاله سبحانه، وأنه يفعل بإرادته ومشيئته، وأنه لم يزل ولا يزال كذلك، وأن كل فعل من أفعاله له إرادة تخصه، فشأنه سبحانه أنه يريد على الدوام، ويفعل ما يريد، وأن فعله وإرادته متلازمان، فما أراد أن يفعله فعله لا يعوقه شيء، وما فعله فقد أراده، بخلاف المخلوق، فإنه قد يريد ما لا يفعل، وقد يفعل ما لا يريد، فلا فعالاً لما يريد إلا الله تعالى وحده لا شريك له(٢).

ويدخل في معنى أقواله وأفعاله تعالى: خبره وحكمه، وقضاؤه وقدره، وخلقه وتكوينه، وأمره ونهيه، ووعده ووعيده.

وجميع أقوال الله تعالى ـ على كثرتها وتنوعها ـ صادرة عن كمال ذاته وكمال صفاته التي منها أسماؤه الحسنى، فالله تبارك وتعالى لم يزل كاملاً، فحصلت أقواله وأفعاله عن كماله؛ لأنه كامل بذاته وصفاته، فأقواله وأفعاله صادرة عن كماله، كمل فعل، والمخلوق كماله عن أفعاله، فعل فكمل الكمال اللائق به، فاشتقت له الأسماء بعد أن كمل بالفعل(٣).

ومن هنا فأسماء الله الحسنى وصفاته العلى دالة على ما يفعله

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص٤٨٩.
(٢) انظر: التبيان في أقسام القرآن، لابن قيم الجوزية: ص٦١ ـ ٦٢.
(٣) انظر: بدائع الفوائد، لابن قيم الجوزية: ١/ ١٧٩، ومجموع الفتاوى: ٨/ ٣٨٧.

ويقوله، وما لا يفعله ولا يقوله، فإنه سبحانه يفعل ويقول ما هو موجب كماله وعظمته، ولا يفعل ولا يقول ما يناقض ذلك.

ومن رزقه الله علماً صحيحاً بأسمائه وصفاته وفق هدي الكتاب والسنة وفهم السلف الصالح، فإنه يستدل بأسماء الله وصفاته تعالى على ما تجوز نسبته إلى الله تعالى من الأقوال والأفعال، وما لا تجوز نسبته إليه من الأقوال والأفعال(١).

ومما يلزم في هذا المقام بيان أهم الأسس التي يقوم عليها تسبيح الله تعالى وتنزيهه في أقواله وأفعاله في عقيدة أهل السنة والجماعة، وهي ثلاثة أسس:

أحدها: تسبيح الله تعالى عن العبث في أقواله وأفعاله باعتقاد أنها صادرة عن حكم عليا.

الثاني: تسبيح الله تعالى عن الظلم في أقواله وأفعاله.

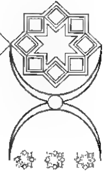
الثالث: تسبيح الله تعالى عن نسبة الشر إليه.

وعلى هذه الأسس الثلاثة من التسبيح تدور مباحث هذا الفصل، وهي من المسائل الكبار التي تكلم فيها الناس من أمور الاعتقاد؛ لأن كل ما في الوجود متعلق بها(٢)، فتلزم معرفة ما يجب من التسبيح في هذا الباب على الأسس الصحيحة التي دل عليها الكتاب والسنة، وسار عليها السلف الصالح، وقررها علماء أهل السنة والجماعة، وبيان ذلك في المباحث الثلاثة التالية:

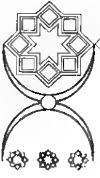
---

(١) انظر: مدارج السالكين، لابن قيم الجوزية: ٣/ ٣٣٣.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٨/ ٨١.



المبحث الأول



تسبيح الله تعالى عن العبث في أقواله وأفعاله باعتقاد أنها صادرة عن حكم عليا

العبث: بمعنى اللعب، وهو ضد الجد[١]، وكل قول أو فعل لم يقصد به مصلحة ولا منفعة ولا فائدة بوجه من الوجوه، لا عاجلة ولا آجلة، فهو عبث وباطل، وقائله أو فاعله عابث وصاحب باطل[٢].

فالعبث مذمة ومنقصة، والعابث مذموم غير محمود، كما قال نبي الله هود عليه السلام لقومه: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الشعراء: ١٢٨]، أي: أتبنون بكل مرتفع من الأرض عند جواد الطرق بناء هائلاً باهراً تلعبون[٣]، أنكر عليهم عملهم هذا؛ لأنهم إنما يفعلون ذلك عبثاً لا للاحتياج إليه، بل لمجرد اللعب واللهو وإظهار القوة، فهو تضييع للزمان وإتعاب للأبدان في غير فائدة، واشتغال بما لا يجدي في الدنيا ولا في الآخرة[٤].

وإذا كان العبث مذموماً من المخلوق وينبغي التنزه عنه، فإن

---

(١) انظر: لسان العرب، لابن منظور/ مادة (عبث): ٢/ ١٦٦.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٨/ ٨٩ ـ ٩٠، وجامع الرسائل له: ١/ ٢٠.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٣/ ١٢٢ ـ ١٢٣، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٣٥٤.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٣٥٤.

الخالق جل وعلا أولى بالتنزيه عن العبث؛ لأنه سبحانه أحق بكل حمد، وأبعد عن كل ذم.

ولا يتم تنزيه الله تعالى عن العبث إلا باعتقاد أن أقواله وأفعاله صادرة منه على وجه يستحق عليه الحمد والتسبيح عن العبث، وذلك بأن يعلم العبد أن كل ما يقوله الله تعالى ويفعله فلحكمة، وكل ما يمتنع من قوله وفعله فلحكمة.

والحكمة: هي الغاية المحمودة المحبوبة لله ﷻ التي يقول ويفعل ويترك لأجلها، وتكون هي المطلوبة بالقول والفعل والترك، ويكون وجودها أولى من عدمها(١).

ولهذا كان (الحكيم) من أسماء الله تعالى الحسنى، وورد ذكره في القرآن الكريم في حق الله تعالى إحدى وتسعين مرة(٢)، منها:

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾﴾ [آل عمران: ٦].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾ [النساء: ١٣٠].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾ [النمل: ٦].

ومعنى هذا الاسم الكريم ـ كما قال الحليمي ـ: «الذي لا يقول ولا يفعل إلا الصواب، وإنما ينبغي أن يوصف بذلك لأن أفعاله سديدة، وصنعه متقن، ولا يظهر الفعل المتقن السديد إلا من حكيم،

---

(١) انظر: طريق الهجرتين، لابن قيم الجوزية: ص١٦٨، ومدارج السالكين، له: ٢/٥٤١ و٣/٤٢٨.

(٢) هذا العدد بحسب ما جاء في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، لمحمد فؤاد عبد الباقي.

كما لا يظهر الفعل على وجه الاختيار إلا من حي عالم قدير» اهـ[1].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والحكيم يتضمن حكمه وعلمه وحكمته فيما يقوله ويفعله، فإذا أمر بأمر كان حسناً، وإذا أخبر بخبر كان صدقاً، وإذا أراد خلق شيء كان صواباً، فهو حكيم في إرادته وأفعاله وأقواله» اهـ[2].

وقال الإمام ابن قيم الجوزية: «والحكيم: الذي إذا أمر بأمر كان حسنا في نفسه، وإذا نهى عن شيء كان قبيحاً في نفسه، وإذا أخبر بخبر كان صدقاً، وإذا فعل فعلاً كان صواباً، وإذا أراد شيئاً كان أولى بالإرادة من غيره، وهذا الوصف على الكمال لا يكون إلا لله وحده» اهـ[3].

فتبين ـ بما ذكر من معنى (الحكيم) ـ أن الحكمة صفة عظيمة من صفات الله تعالى القائمة به اللازمة لذاته[4]، وأنها في غاية الكمال الذي لا يتصور زيادة عليها كسائر صفاته ﷻ[5].

وأن الحكمة وإن تضمنت العلم والقدرة والإرادة، فهي أمر زائد على ذلك[6]، إذ الحكمة ـ كما سبق ـ: هي الغاية المحمودة المحبوبة لله تعالى التي اقتضت صدور أقواله وأفعاله.

وارتباط أقواله وأفعاله بحكمته التي لا يخل بها يقتضي وقوعها

---

(١) المنهاج في شعب الإيمان: ١/ ١٩١ ـ ١٩٢.
(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٤/ ١٨٠.
(٣) مدارج السالكين: ٣/ ٤٢٧.
(٤) انظر: المصدر السابق: ١/ ٤١٨ و٢/ ٤٥١.
(٥) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٨/ ٥١٣.
(٦) انظر: المصدر السابق: ١٤/ ١٨٣ و١٦/ ٢٩٧ ـ ٢٩٨.

على أكمل الوجوه وأحسنها، واشتمالها على المصالح والعواقب الحميدة عاجلاً وآجلاً، وخلوها عن الخلل والعيب والتناقض والتفاوت[(١)].

كما وصف الله تعالى كلامه فقال: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾ [هود: ١]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ۝٢٣﴾ [الزمر: ٢٣]، وقال تعالى أيضاً: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ۝٨٢﴾ [النساء: ٨٢].

ووصف سبحانه فعله فقال: ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ۝٧﴾ [السجدة: ٧]، وقال ﷻ: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾ [الملك: ٣].

ومن هنا فسر بعض العلماء اسم الله (الحكيم) بمعنى: المحكم للأمر كيلا يتطرق إليه الفساد[(٢)]، وبمعنى: الحاكم الذي يقضي بالعدل[(٣)]، وبمعنى: الذي لا يدخل تدبيره خلل ولا زلل[(٤)].

وهذه المعاني متلازمة، واسمه تعالى (الحكيم) متضمن لها دال

---

(١) انظر: طريق الهجرتين، لابن قيم الجوزية: ص١٧١، ٦٨١، وبدائع الفوائد، له: ١/ ١٨٠.

(٢) انظر: شأن الدعاء، للخطابي: ص٧٣، وتفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني: ١/ ٦٦، وتفسير البغوي: ١/ ٨٠.

(٣) انظر: تفسير الطبري: ١/ ٢٥٨، وتفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني: ١/ ٦٦، وتفسير البغوي: ١/ ٨٠.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ١/ ٦٠٨.

عليها، فالله ﷻ هو الحكيم بمعنى: ذو الحكمة[١]، وذو الحكم، وذو الإحكام[٢]، فله تعالى الحكمة العليا، وله الحكم كله في الدنيا والآخرة، وله الإحكام التام فلا يقع في قوله ولا في فعله عيب ولا نقص.

وبهذا البيان يعلم أن (الحكيم) من أسماء الله تعالى الحسنى يدل على أنه سبحانه لا يقول ولا يفعل شيئاً عبثاً، وأنه سبحانه لا يكون في قوله ولا فعله عيب أو نقص بوجه من الوجوه، بل أقواله وأفعاله كلها واقعة بمقتضى الحكمة وعلى وجه الكمال الذي يستحق عليه كمال الحمد[٣].

وكما سمى الله تعالى نفسه: الحكيم، أخبر عن نفسه أنه على صراط مستقيم، كما قال سبحانه ـ حاكياً عن نبيه هود عليه السلام: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: ٥٦]، فقوله: ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: إنه على طريق الحق[٤].

قال الإمام ابن قيم الجوزية: «وأما وصفه سبحانه بأنه على صراط مستقيم، فهو كونه يقول الحق ويفعل الصواب، فكلماته صدق وعدل كله صواب وخير، ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤]، فلا يقول إلا ما يحمد عليه لكونه حقاً وعدلاً وصدقاً وحكمة في نفسه. . .

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ١/ ٢٥٨.

(٢) انظر: القصيدة النونية، لابن قيم الجوزية، بشرح الشيخ خليل هراس: ٢/ ٨٠ ـ ٨١.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ١٣٨، وشفاء العليل، لابن قيم الجوزية: ٢/ ٨٧، ومدارج السالكين، له: ٣/ ٣٣٣، ٤٢٧.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ٧/ ٦٠.

وإذا عرف هذا، فمن ضرورة كونه على صراط مستقيم أنه لا يفعل شيئاً إلا بحكمة يحمد عليها، وغاية هي أولى بالإرادة من غيرها. فلا تخرج أفعاله عن الحكمة والمصلحة والإحسان والرحمة والعدل والصواب، كما لا تخرج أقواله عن العدل والصدق» اهـ(١).

وكذلك أخبر الله تعالى أنه أنزل كتابه الذي هو كلامه بالحق، وأنه خلق المخلوقات بالحق، وهذا الحق فسره أهل العلم بالحكمة(٢).

أما إنزاله تعالى كتابه بالحق، فقال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾ [البقرة: ١٧٦].

وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾﴾ [آل عمران: ١ ـ ٣].

وقال تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾﴾ [الإسراء: ١٠٥]، وغير هذه من الآيات.

بل صرح الله تعالى بأن كلامه حكمة بالغة في قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾﴾ [القمر: ٤ ـ ٥].

قال الإمام ابن جرير الطبري: «قوله: ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ﴾ يعني

---

(١) شفاء العليل: ٢/ ١١٦ ـ ١١٧. وانظر أيضاً: مدارج السالكين، له: ٣/ ٤٢٥.

(٢) انظر ـ على سبيل المثال ـ: تفسير الطبري: ٥/ ٢٣٥ و٨/ ١٦١، وتفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني: ٣/ ١٤٩ و٤/ ١٨٣ و٥/ ٧٠، وزاد المسير، لابن الجوزي: ٣/ ٦٧ و٤/ ٣٥٥، ٤١٢ و٥/ ٩٦ و٧/ ٢٨٠، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ١/ ٥٦٣ و٢/ ٤٢٢، ٥٧٦، ٥٨٢ و٣/ ٤٢٥ و٤/ ١٥٦، ١٦٥، ٣٩٩، وتيسير الكريم الرحمن، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص٤٣٤، ٧١٩، ٨٦٦.

بالحكمة البالغة: هذا القرآن، ورفعت الحكمة رداً على (ما)[1] التي في قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤﴾.

وتأويل الكلام: ولقد جاءهم من الأنباء النبأ الذي فيه مزدجر، حكمة بالغة. ولو رفعت الحكمة على الاستئناف[2] كان جائزاً، فيكون معنى الكلام حينئذ: ولقد جاءهم من الأنباء الذي فيه مزدجر، ذلك حكمة بالغة، أو هو حكمة بالغة، فتكون الحكمة كالتفسير لها» اهـ[3].

وقال الإمام ابن قيم الجوزية: «لا يكون الكلام حكمة حتى يكون موصلاً إلى الغايات المحمودة والمطالب النافعة، فيكون مرشداً إلى العلم النافع والعمل الصالح، فتحصل الغاية المطلوبة.

فإذا كان المتكلم به لم يقصد مصلحة المخاطبين ولا هداهم ولا إيصالهم إلى سعادتهم ولا دلالتهم على أسبابها وموانعها، ولا كان ذلك هو الغاية المقصودة المطلوبة، ولا تكلم لأجلها، ولا أرسل الرسل وأنزل الكتب لأجلها، ولا نصب الثواب والعقاب لأجلها، لم يكن حكيماً ولا كلامه حكمة، فضلاً عن أن تكون بالغة» اهـ[4].

وأما خلقه تعالى المخلوقات بالحق، فكما قال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝٧٣﴾ [الأنعام: ٧٣].

---

(١) يعنى أن لفظ (الحكمة) مرفوع لكونه بدلاً من (ما) وهي اسم موصول بمعنى (الذي).

(٢) أي: على أنها خبر لمبتدأ مقدر، تقديره: ذلك حكمة بالغة، كما جاء في كلامه.

(٣) تفسير الطبري: ١١/٥٤٩.

(٤) شفاء العليل: ٢/٨٨.

وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾﴾ [الحجر: ٨٥].

وقال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾ [التغابن: ٣]، وغير هذه من الآيات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ في كلام له على بعض هذه الآيات ـ: «والمراد هنا أنه سبحانه بين أنه إنما خلق المخلوقات لحكمته، وهذا معنى قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾» اهـ(١).

وقال الإمام ابن قيم الجوزية: «الحق: هو الحكم والغايات المحمودة التي لأجلها خلق ذلك كله» اهـ(٢).

وبين ـ في موضع آخر ـ معنى قوله تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ في الآيات السابقة ونحوها، فقال ما ملخصه: أن الله تعالى خلق المخلوقات خلقاً صادراً عن الحق، آيلاً إلى الحق، مشتملاً على الحق، فالحق سابق لخلقها مقارن له غاية له، ولهذا أتى بالباء الدالة على هذا المعنى دون اللام المفيدة لمعنى الغاية وحدها، فالباء مفيدة اشتمال خلقها على الحق السابق والمقارن والغاية.

فالحق السابق: صدور ذلك عن علمه وحكمته، فمصدر خلقه تعالى وأمره عن كمال علمه وحكمته، وبكمال هاتين الصفتين يكون المفعول الصادر عن الموصوف بهما حكمة كله ومصلحة وحقاً.

وأما الحق المقارن لهذه المخلوقات: فهو ما اشتملت عليه من الحكم والمصالح والمنافع والآيات الدالة للعباد على إلٰههم ووحدانيته وصفاته وصدق رسله، وأن لقاءه حق لا ريب فيه.

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٧/ ٩٩.

(٢) شفاء العليل: ٢/ ١٠٨.

وأما الحق الذي هو غاية خلقها: فهو غاية تراد من العباد، وغاية تراد بهم، فالتي تراد منهم: أن يعرفوا الله تعالى وصفات كماله ﷻ، وأن يعبدوه لا يشركوا به شيئاً، فيكون هو وحده إلههم ومعبودهم ومطاعهم ومحبوبهم. والغاية التي تراد بهم: هي الجزاء بالعدل والفضل والثواب والعقاب، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾ [النجم: ٣١].

فتأمل الآن كيف اشتمل خلق السموات والأرض وما بينهما على الحق أولاً وآخراً ووسطاً، وأنها خلقت بالحق وللحق وشاهدة بالحق(١).

هذا ملخص كلامه في بيان معنى كون الله تعالى خلق السموات والأرض بالحق، وهو كلام مفصل مفيد.

ومما يدل أيضاً على أن لله تعالى في كل قول قاله حكمة، وفي كل فعل فعله حكمة، أنه سبحانه قد صرح بالغايات المطلوبة والعواقب المحمودة لبعض أقواله وأفعاله، وذلك في مواضع من كتابه العزيز لا تكاد تحصى، ولا سبيل إلى استيعاب أفرادها في هذا المقام، ولكن تكفي اللبيب أمثلة منها(٢)، وهي:

١ ـ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة: ٢١].

فهذا نداء عام لجميع الناس بأمر عام وهو عبادة الله تعالى(٣)،

---

(١) بدائع الفوائد: ٢/ ٤٦٣ ـ ٤٦٦، بتصرف.

(٢) انظر: مزيداً من الأمثلة مع البيان في: شفاء العليل، لابن قيم الجوزية: ٢/ ٨٧ ـ ١٠٨.

(٣) انظر: بدائع الفوائد، لابن القيم: ٢/ ٤٣٢، وتيسير الكريم الرحمن، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص٤٥.

مع ذكر الغاية المطلوبة والعاقبة الحميدة لذلك، وهي قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. و(لعل) «في كلام الله سبحانه للتعليل مجردة عن معنى الترجي؛ فإنها إنما يقارنها معنى الترجي إذا كانت من المخلوق، وأما في حق من لا يصح عليه الترجي، فهي للتعليل المحض»[(١)]، وتفسر بـ (كي)[(٢)].

واختلف العلماء في متعلق هذا التعليل في الآية:

• فقال بعضهم: إنه تعليل للأمر، وهو قوله: ﴿ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾[(٣)]، فهو حينئذ تعليل لشرعه تعالى الذي هو الأمر بالعبادة، والمعنى: اعبدوا ربكم كي تتقوه بعبادته، وتنجوا من العذاب[(٤)].

• وقال غيرهم: إنه تعليل للخلق، وهو قوله: ﴿خَلَقَكُمْ﴾[(٥)]، فهو حينئذ تعليل لفعله سبحانه، والمعنى: خلقكم كي تتقوه[(٦)].

قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ في هذا القول الثاني ـ: «وهو أظهر لوجوه:

أحدها ـ أن التقوى هي العبادة، والشيء لا يكون علة لنفسه.

الثاني ـ أن نظيره قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

---

(١) مقتبس من: شفاء العليل، لابن القيم: ٢/ ١٠١.

(٢) انظر: مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني: ص٧٤١، ومغني اللبيب، لا بن هشام الأنصاري: ص٣٧٩.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ١/ ٢٢٧، وبدائع الفوائد، لابن القيم: ٢/ ٤٣٣.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ١/ ١٩٦ ـ ١٩٧، وتفسير البغوي: ١/ ٧١ ـ ٧٢.

(٥) انظر: بدائع الفوائد، لابن القيم: ٢/ ٤٣٣، وشفاء العليل، له: ٢/ ١٠٢.

(٦) انظر: بدائع الفوائد، لابن القيم: ٢/ ٤٣٣.

الثالث ـ أن الخلق أقرب في اللفظ إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ من الأمر».

قال: «ولمن نصر الأول أن يقول لا يمتنع أن يكون قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ تعليلاً للأمر بالعبادة، ونظيره قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]، فهذا تعليل لكتب الصيام».

قال: «ولا يمتنع أن يكون تعليلاً للأمرين معاً، وهذا هو الأليق بالآية، والله أعلم» اهـ[١].

وهذا الذي قرره أخيراً هو الذي قرره في موضع آخر، حيث قال ـ بعد ذكر القولين ـ: «والصواب أنه تعليل للأمرين: لشرعه وخلقه» اهـ[٢].

وبهذا تجتمع الأقوال، وتكون الآية مصرحة بحكمة الله تعالى في أمره وخلقه، والله تعالى أعلم.

٢ ـ وقوله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء: ١٦٥].

فقوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ﴾ اللام فيه للتعليل، وهي متعلقة بقوله: ﴿مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾[٣]، «أي: أنه تعالى أنزل كتبه وأرسل رسله بالبشارة والنذارة، وبين ما يحبه ويرضاه مما يكرهه ويأباه، لئلا يبقى لمتعذر عذر»[٤]، وفي هذا بيان للغاية المطلوبة من إرسال الرسل، وهي إقامة الحجة على العالمين، حتى لا يقولوا: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ [المائدة: ١٩].

---

(١) بدائع الفوائد: ٢/ ٤٣٣ ـ ٤٣٤. (٢) شفاء العليل: ٢/ ١٠٢.

(٣) انظر: تفسير النسفي: ١/ ٣٨٣.

(٤) مقتبس من: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ١/ ٦٠٢.

وفي الحديث: «**ليس أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل**»[١].

٣ ـ وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

فـ (تبيانا، وهدى، ورحمة) كل ذلك منصوب على المفعول له، وكل ذلك علة لقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾[٢]، وهذا بيان للغاية المطلوبة بتنزيل الكتاب، وهو القرآن الكريم.

٤ ـ وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم: ٢١].

فقوله: ﴿لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ تعليل لقوله: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾، فهذا بيان للغاية المطلوبة من خلق الأزواج ـ وهن الإناث ـ، ومن شرع الزواج بينهن وبين الذكور، فلا تكاد تجد بين أحد في الغالب مثل ما بين الزوجين من الائتلاف والمودة والرحمة، وهذا من أبين الآيات الدالة على عظمة الله تعالى وكمال قدرته وحكمته[٣].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: ٤/٢١١٤، برقم (٢٧٦٠)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.
وأخرج نحوه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ١٣/٣٩٩، برقم (٧٤١٦)، ومسلم أيضاً في صحيحه: ٢/١١٣٦، برقم (١٤٩٩)، كلاهما من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

(٢) انظر: شفاء العليل، لابن القيم: ٢/٩٨.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/٤٣٩، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٦٣٩.

٥ ـ وقوله تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [النحل: ٨].

فقوله: ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ﴾ تعليل للخيل والبغال والحمير، وبيان للغاية المطلوبة من خلقها. قال الحافظ ابن كثير: «هذا صنف آخر مما خلق تبارك وتعالى لعباده يمتن به عليهم، وهو الخيل والبغال والحمير التي جعلها للركوب والزينة، وذلك أكبر المقاصد منها» اهـ(١).

وقوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أشار به تعالى إلى ما يكون بعد نزول القرآن من الأشياء التي يركبها الخلق في البر والبحر والجو، ويستعملونها في منافعهم ومصالحهم(٢)، وهذا من أوجه الإعجاز في القرآن الكريم.

٦ ـ وقوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ﴾ [الحشر: ٧].

فقوله: ﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ﴾ تعليل للتقسيم المذكور للفيء، علل تعالى قسمة الفيء بين هذه الأصناف كي لا يتداوله الأغنياء دون الفقراء، والأقوياء دون الضعفاء(٣)، وفي هذا بيان لحكمة الله تعالى في شرعه.

٧ ـ وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: ١٢].

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٥٨٣.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص٤٣٦.
(٣) انظر: شفاء العليل، لابن القيم: ٢/ ٩٧.

فقوله: ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ﴾ تعليل لقوله: ﴿خَلَقَ﴾، «فأخبر أنه خلق العالم ليعرف عباده كمال قدرته وإحاطة علمه، وذلك يستلزم معرفته ومعرفة أسمائه وصفاته وتوحيده»[(١)].

فهذه أمثلة لما فيه تصريح بالغايات المطلوبة والعواقب المحمودة لبعض أقوال الله تعالى وأفعاله، إلى أضعاف أضعاف ذلك في كتاب الله تعالى، مما يفيد من له أدنى تأمل العلم القطعي بأن الله سبحانه قال وفعل للحكم والمصالح التي ذكرها وغيرها مما لم يذكره.

ولا تنحصر الأدلة التي تثبت حكمة الله تعالى في أقواله وأفعاله في الأنواع التي سبق ذكرها في هذا المبحث، بل النقل الصحيح والعقل السليم والفطرة القويمة تشهد بحكمة الله الباهرة في قوله وفعله.

وجماع ذلك أن كمال الرب ﷻ وجلاله وعظمته تمنع أن تكون أقواله وأفعاله صادرة منه لا لحكمة هي الغاية المطلوبة بالقول والفعل، وجميع أسماء الله الحسنى وصفاته العليا تنفي ذلك وتشهد ببطلانه[(٢)].

ولهذا نزه الله تعالى نفسه عن العبث ـ وهو أن يقول قولاً أو يعمل عملاً لا لحكمة[(٣)] ـ وأنكر على من زعم أنه تعالى يقول أو يفعل شيئاً عبثا، فقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥ ـ ١١٦]. وهذا استفهام إنكار على من جوز ذلك على الرب تعالى[(٤)]، ولهذا نزه نفسه سبحانه وباعدها عن هذا الحسبان، وأنه يتعالى عنه ولا يليق به لقبحه، ولمنافاته لحكمته

---

(١) مقتبس من: بدائع الفوائد، لابن القيم: ٢/ ٤٦٥.
(٢) انظر: شفاء العليل، لابن القيم: ٢/ ١٢٣.
(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٧/ ١٧٤.
(٤) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٦/ ٢٩٩.

وملكه وإلهيته[١].

وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ١٦﴾ [الأنبياء: ١٦].

وفي هذه الآية يخبر سبحانه أنه لم يخلق الخلائق لعباً[٢]، واللعب كالعبث. «فنزه نفسه أن يكون فعله كفعل اللاعب العابث الذي لا يقصد غاية محمودة يريد سوق الوسائل إليها، فإن هذا فعل الجاد الذي يجيء بالحق»[٣]، كما قال تعالى ـ في موضع آخر ـ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ٣٨ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٣٩﴾ [الدخان: ٣٨ ـ ٣٩].

وقال تعالى أيضاً: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ٢٧﴾ [ص: ٢٧].

فهذا الباطل الذي نزه الله تعالى نفسه عنه، وأخبر أنه ظن الذين كفروا هو معنى العبث، وهو ضد الحق الذي أخبر تعالى في آيات أخرى أنه خلق الخلق به[٤]، كما تقدم.

وفي مقابل إنكار الله سبحانه وذمه لمن ظن فيه العبث والباطل، أثنى تعالى على عباده المؤمنين الذين نزهوه عن العبث والباطل، فقال جل وعلا: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١﴾ [آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩١].

---

(١) انظر: مفتاح دار السعادة، لابن القيم: ٢/ ١٢.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ١٨٣، وتيسير الكريم الرحمن، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص٥٢٠.
(٣) مقتبس من: جامع الرسائل، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ١/ ١٩ ـ ٢٠.
(٤) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم: ١/ ٢٥٢ ـ ٢٥٣.

فقولهم: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ أي: لم تخلق هذا الخلق عبثا ولا لعبا، بل خلقته بالحق وللحق مشتملاً على الحق(١).

وقولهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أي: تنزيها لك عن كل ما لا يليق بكمالك وجلالك وحكمتك(٢)، فنزهوه أولاً تنزيها خاصاً، ونزهوه ثانياً تنزيها عاماً، وقد تقدم الكلام على هذه الآيات غير مرة(٣).

وهكذا أهل السنة والجماعة متقدموهم ومتأخروهم، فإنهم قد نزهوا الله تعالى عن العبث واللعب والباطل، وآمنوا بحكمته، كما آمنوا بخبره وحكمه، وقضائه وقدره، وخلقه وشرعه، ووعده ووعيده. وقالوا: إن لله تعالى في ذلك كله حكمة بالغة ونعمة سابغة يستحق لأجلها أن يثنى عليه ويحمد، فهو المحمود على ذلك كله أتم حمد وأكمله، لما اشتملت عليه أقواله وأفعاله من الغايات المحمودة والمصالح المحبوبة(٤).

فالحكمة ـ عند أهل السنة تتضمن شيئين:

أحدهما: حكمة تعود إلى الله تعالى يحبها ويرضاها.

والثاني: نعمة تعود إلى عباده يفرحون بها ويلتذون بها(٥).

وقرر علماء أهل السنة والجماعة أن حكمة الله تعالى في أقواله وأفعاله مما تعجز العقول عن الإحاطة بكنهها، وتكل الألسن عن التعبير

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٣/ ٥٥١، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ١/ ٤٤٨، وتيسير الكريم الرحمن، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص١٦١.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص١٦١.
(٣) انظر: ١/ ٢٤٣، ٣١٧ من البحث.
(٤) انظر: طريق الهجرتين، لابن القيم: ص١٦٨ ـ ١٦٩، ٢٦١، ومدارج السالكين، له: ١/ ٤٠٩.
(٥) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٨/ ٣٥ ـ ٣٦.

عنها[١]، وإن كان العباد أو بعض العباد قد يعلمون من حكمته ما يطلعهم عليه وقد لا يعلمون ذلك[٢]، ولهذا كان كافياً في تنزيه الله تعالى عن العبث أن يعلم العبد ـ من حيث الجملة ـ أن لله سبحانه فيما قاله وفعله حكمة عظيمة، وإن لم يعرف التفصيل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وعلى هذا فكل ما فعله علمنا أن له فيه حكمة، وهذا يكفينا من حيث الجملة وإن لم نعرف التفصيل، وعدم علمنا بتفصيل حكمته بمنزلة عدم علمنا بكيفية ذاته، وكما أن ثبوت صفات الكمال له معلوم لنا، وأما كنه ذاته فغير معلومة لنا، فلا نكذب بما علمناه ما لم نعلمه.

وكذلك نحن نعلم أنه حكيم فيما يفعله ويأمر به، وعدم علمنا بالحكمة في بعض الجزئيات لا يقدح فيما علمناه من أصل حكمته، فلا نكذب بما علمناه من حكمته ما لم نعلمه من تفصيلها» اهـ[٣].

بل إن في إخفاء بعض الحكم عن الخلق حكمة أيضاً، وذلك كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية أيضاً: «ومن المعلوم ما لو علمه كثير من الناس لضرهم علمه، ونعوذ بالله من علم لا ينفع، وليس اطلاع كثير من الناس ـ بل أكثرهم ـ على حكم الله في كل شيء نافعاً لهم، بل قد يكون ضاراً» اهـ[٤].

والمقصود أن تفاصيل حكمة الله ﷻ مما يعجز كثير من الناس عن معرفتها، ومنها ما يعجز عن معرفته جميع الخلق، حتى الملائكة،

---

(١) انظر منهاج السنة النبوية، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٣/ ٣٩، ومدارج السالكين، لابن القيم: ١/ ٤٠٩.
(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٨/ ٩٣.
(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ١٢٨.
(٤) منهاج السنة النبوية: ٣/ ٣٩.

كما دل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: ٣٠]، حيث أجابهم سبحانه بأنه يعلم من الحكم والمصالح في خلق هذا النوع ما لا يعلمونه[١]، فتكفي في حكمة الله تعالى المعرفة المجملة والإيمان العام[٢].

وكلما ازداد العبد علماً وإيماناً ظهر له من الحكمة الإلهية ما يبهر عقله ويقوي يقينه، وبهذا يتفاضل العباد كل بحسب استعداده، وقوة فهمه، وكمال إيمانه[٣]، والله الموفق.

---

(١) انظر: ما سبق من الكلام على الآية المذكورة في ١/ ٢٧٦ من البحث.
(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٨/ ٥١٤.
(٣) انظر: المصدر السابق: ٨/ ٩٧، ٥١٣ ـ ٥١٤.




المبحث الثاني

تسبيح الله تعالى عن الظلم في أقواله وأفعاله

الظلم ـ في كلام العرب وعند أهل العلم ـ: وضع الشيء في غير موضعه المختص به، إما بنقصان أو زيادة، وإما بعدول عن وقته أو مكانه(١).

ويدخل في هذا المعنى: التفريق بين المتماثلين، والتسوية بين المختلفين؛ لأن ذلك كله وضع للشيء في غير موضعه.

ويفهم من هذا أن الظلم يتنوع أنواعاً عديدة، وأنه يكون بالأقوال وبالأفعال.

كما يفهم مما قيل في معنى الظلم أنه مذموم مطلقاً، فلا يطلق الظلم إلا على وجه الذم والعيب.

ولما ثبت أن الله تعالى أولى بكل كمال وأحق بكل حمد وأبعد عن كل نقص وعيب وذم، كان الظلم منتفياً عنه سبحانه بكل حال.

وقد نزه الله تعالى نفسه عن الظلم في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، بصور لفظية متنوعة: بصورة الاسم، وبصورة الفعل، وبصورة الوصف. وتبلغ الآيات التي جاء فيها تنزيه الله تعالى عن الظلم بلفظه

---

(١) انظر: تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة: ص٤٦٧ ـ ٤٦٨، ومقاييس اللغة، لابن فارس: ٣/٤٦٨ ـ ٤٦٩، ومفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني: ص٥٣٧، وجامع الرسائل، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ١/١٢٣ ـ ١٢٤، ١٢٩.

الصريح اثنتين وأربعين آية[١]، ومنها:

١ ـ قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [آل عمران: ١٠٨].

فهذه الآية تدل على تنزيه الله تعالى عن إرادة الظلم فضلاً عن أن يفعله[٢]. وقوله: ﴿ظُلْمًا﴾ يفيد العموم؛ لأنه نكرة في سياق النفي.

٢ ـ وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾ [آل عمران: ١٨٢، والأنفال: ٥١].

وهذه الآية سبق إيرادها في النفي الوارد في حق الله تعالى[٣]، عند بيان الألفاظ الدالة على معنى التسبيح.

٣ ـ وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [النساء: ٧٧].

فقوله: ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ خبر من الله تعالى عن أنه لا يظلم عباده أقل الأشياء التي لا خطر لها ـ كالفتيل ـ فكيف بما له خطر؟[٤].

واختلف المفسرون في معنى الفتيل على قولين:

أحدهما: أنه الخيط الذي في شق النواة من التمر.

والثاني: أنه ما خرج من بين الإصبعين والكفين من الوسخ إذا فتلت إحداهما بالأخرى.

---

(١) هذا الإحصاء مستفاد بالتتبع من المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص١٤٣.

(٣) انظر: ١/ ١٣٣ من البحث.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ٤/ ١٣٣.

وكلا القولين متقارب، وكلاهما داخل في معنى الفتيل[(١)]، وهو مما يضرب به المثل في القلة والنزارة[(٢)].

٤ ـ وقوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الأنعام: ١٦٠].

قال الإمام ابن جرير الطبري: «﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ يقول: و لايظلم الله الفريقين، لا فريق الإحسان، ولا فريق الإساءة، بأن يجازي المحسن بالإساءة، والمسيء بالإحسان، ولكنه يجازي كلا الفريقين من الجزاء ما هو له؛ لأنه جل ثناؤه حكيم لا يضع شيئاً إلا في موضعه الذي يستحق أن يضعه فيه، ولا يجازي أحداً إلا بما يستحق من الجزاء» اهـ[(٣)].

٥ ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [يونس: ٤٤].

قال الإمام ابن جرير الطبري: «يقول تعالى ذكره: إن الله لا يفعل بخلقه ما لا يستحقون منه، لا يعاقبهم إلا بمعصيتهم إياه، ولا يعذبهم إلا بكفرهم به، ولكن الناس هم الذين يظلمون أنفسهم باجترامهم ما يورثها غضب الله وسخطه» اهـ[(٤)].

٦ ـ وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ﴾ [هود: ١٠٠ ـ ١٠١].

---

(١) انظر: المصدر السابق: ٤/ ١٣١ ـ ١٣٣، وعمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، للسمين الحلبي: ص٤١٢، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ١/ ٥٢٤.

(٢) انظر: عمدة الحفاظ، للسمين الحلبي: ص٤١٢.

(٣) تفسير الطبري: ٥/٤١٦.

(٤) تفسير الطبري: ٦/ ٥٦٤.

فالله سبحانه نزه نفسه عن ظلم أهل القرى المذكورة بإهلاكهم، وبين أنهم هم الذين ظلموا أنفسهم بشركهم، فمن لم يكن ظالماً لنفسه تكون عقوبته ظلماً تنزه الله تعالى عنه(١).

٧ ـ وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود: ١١٧].

وهذه الآية أيضاً تفيد أن إهلاك القرى مع إصلاح أهلها وعدم إساءتهم ظلم يتنزه الله تعالى عنه، فلا يهلك سبحانه إلا قوماً استحقوا الهلاك بإساءتهم(٢).

٨ ـ وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ [طه: ١١٢].

قال المفسرون: الظلم ـ هنا ـ: أن يحمل عليه ما لم يعمله، فيعاقبه عليها. والهضم: أن ينقص من حسناته. فجعل سبحانه عقوبته بما لم يعمله ظلماً، ونزه نفسه عنه(٣).

٩ ـ وقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وهذا خبر عن حكمه تعالى بين العباد يوم القيامة وحسابه لهم، بين فيه أنه سبحانه لا يظلم نفساً ـ مسلمة أو كافرة ـ شيئاً، بأن يعاقبها

---

(١) انظر: منهاج السنة النبوية، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/ ١٠٤.
(٢) انظر: تفسير الطبري: ٧/ ١٣٧، ومدارج السالكين، لابن القيم: ١/ ٢٥١.
(٣) انظر: تفسير الطبري: ٨/ ٤٦٢ ـ ٤٦٣، ومنهاج السنة النبوية، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/ ١٠٣، ومدارج السالكين، لابن القيم: ١/ ٢٥١، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ١٧٥.

بذنب لم تعمله، أو يبخسها ثواب عمل عملته، ولكن يجازي المحسن بإحسانه، ولا يعاقب مسيئا إلا بإساءته(١).

١٠ ـ وقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾ [غافر: ١٧].

وهذا مما يقوله الله تعالى يوم القيامة، حين يبعث خلقه من قبورهم لموقف الحساب، بين أنه لا ظلم في ذلك اليوم على أحد بزيادة في سيئاته، أو نقص من حسناته، بل يجزي فيه كل نفس بما كسبت في الدنيا من خير وشر، قليل وكثير، وهو تعالى سريع المحاسبة لعباده يومئذ، فلا يخفى عليه شيء من أعمالهم، ولا يشغله شأن عن شأن، لكمال علمه وكمال قدرته(٢).

وفي مواضع أخرى من القرآن الكريم نزه الله تعالى نفسه عن أفعال لكونها من الظلم فلا يفعلها، ومن ذلك:

ـ قوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص: ٢٨].

وهذا استفهام إنكار، أنكر سبحانه إنكار منبه للعقل والفطرة على أن جعل هؤلاء مثل هؤلاء قبيح لا يجوز أن يظن بالله أنه يفعله، ولا يليق بالله نسبته إليه(٣).

ـ وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٩/ ٣٣، وتيسير الكريم الرحمن، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص٥٢٤ ـ ٥٢٥.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ١١/ ٤٨، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٧٣٥.

(٣) انظر: منهاج السنة النبوية، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/ ١٠٦ ـ ١٠٧، ومدارج السالكين، لابن القيم ١/ ٢٥٣.

وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية: ٢١].

فأنكر سبحانه هذا الحسبان إنكار منبه للعقل على قبحه وأنه حكم سيىء، والحكم السيىء هو الظلم الذي لا يجوز[١].

ـ وقوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [القلم: ٣٥ ـ ٣٦].

فهذا استفهام إنكار أيضاً كالآيتين السابقتين[٢].

فدلت هذه الآيات على أن التسوية بين المختلفين ـ كالمسلم والكافر ـ من الحكم السيىء الذي ينزه الله تعالى عنه، وأنه سبحانه يتعالى ويتقدس عن أن يجوز عليه ذلك أو ينسب إليه[٣]، بل التسوية بين المتماثلين والتفضيل بين المختلفين هو الحكم الحسن الذي يوصف به الله ﷻ[٤]، كما سوى سبحانه بين المؤمنين ـ مع تفاوت درجاتهم ـ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء: ٦٩]، فجعلهم سبحانه رفقاء في دار كرامته مع تفاوتهم في الدرجات[٥]، جعلنا الله منهم بفضله ورحمته.

وقد تبين بهذه الأدلة المذكورة من القرآن الكريم أن الله منزه عن الظلم بأنواعه في أقواله وأفعاله، وأن ليس في الوجود ظلم من الله سبحانه، بل وضع كل شيء في موضعه الذي يناسبه بقوله وفعله، فلا

---

(١) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم: ١/٢٥٣، شفاء العليل، له: ٢/١١١.
(٢) انظر: منهاج السنة النبوية: ٥/١٠٧، وشفاء العليل: ٢/١١٠.
(٣) انظر: منهاج السنة النبوية: ٥/١٠٧.
(٤) انظر: منهاج السنّة النبوية: ٥/١٠٦، وشفاء العليل: ٢/١١٠.
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ١/٥٣٤ ـ ٥٣٥، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص١٨٦.

يحل إلا الطيبات، ولا يحرم إلا الخبائث، ولا يجزي على الإحسان إلا إحساناً، ولا يعذب أحداً إلا بذنبه، ولا ينقص من حسنات أحد شيئاً، ولا يزيد في سيئاته شيئاً، ولا يفرق بين متماثلين، ولا يسوي بين مختلفين[(١)]، وهو سبحانه قادر على أن يفعل خلاف ذلك، فهو يفعل باختياره ومشيئته، ولكنه تعالى لا يفعله لغناه وعلمه بقبحه، ولإخباره أنه لا يفعله، ولكمال نفسه لا يقع الظلم منه[(٢)]، فإن الظالم إنما يظلم لحاجته إلى الظلم أو لجهله، والله تعالى غني عن كل شيء، عليم بكل شيء، فما له والظلم؟![(٣)].

فعلم بهذا أن من الأمور الممكنة ما هو ظلم تنزه الله تعالى عنه مع قدرته عليه، ويستحق بذلك الحمد والثناء عليه[(٤)].

ويدل على هذا المعنى ويؤكده ما ثبت في الحديث القدسي عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: «**يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً، فلا تظالموا**» الحديث[(٥)].

قال النووي: «قوله تعالى: «**إني حرمت الظلم على نفسي**» قال العلماء: معناه: تقدست عنه وتعاليت» اهـ[(٦)].

---

(١) انظر: جامع الرسائل، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ١/ ١٢٤، ١٢٦، ١٢٩، والتوضيح المبين لتوحيد الأنبياء والمرسلين، للسعدي: ص٢٢.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ١٢٧، وجامع الرسائل، له: ١/ ١٢٩، وتوضيح الكافية الشافية، للسعدي: ص٩.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠/ ٢٥٠، والتوضيح المبين لتوحيد الأنبياء والمرسلين، للسعدي: ص٢٢.

(٤) انظر: منهاج السنة النبوية، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/ ١٠٤، وجامع الرسائل، له: ١/ ١٢٩.

(٥) رواه مسلم في صحيحه: ٤/ ١٩٩٤، برقم (٢٥٧٧).

(٦) شرح صحيح مسلم: ١٦/ ١٣٢.

وفي هذا دليل على أن الله ﷻ ترك الظلم باختياره ومشيئته، وتمدح بعدم ظلمه، وبذلك يحمد ويثنى عليه، فإن الحمد والثناء يقع بالأمور الاختيارية من فعل وترك، كعامة ما في القرآن من الحمد[1].

وإذا علم تنزه الله ﷻ وتعاليه عن الظلم، فإن ضد الظلم هو العدل، وهو وضع الأشياء مواضعها وتنزيلها منازلها قولاً وفعلاً[2]، فلا يتم تنزيه الله تعالى عن الظلم في أقواله وأفعاله إلا بالإيمان بعدل الله تعالى واعتقاد أن جميع أقواله وأفعاله داخلة في عدله، واقعة بالعدل.

وعدل الرب جل وعلا أصل عظيم قرره الله تعالى في كتابه العزيز بألفاظ متعددة، منها:

١ ـ قوله سبحانه: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران: ١٨].

فوصف تعالى نفسه ـ في هذه الآية ـ بأنه قائم بالقسط. قال الإمام ابن جرير الطبري: «وأما قوله: ﴿قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ﴾، فإنه بمعنى: أنه الذي يلي العدل بين خلقه. والقسط: هو العدل، من قولهم: هو مقسط، وقد أقسط، إذا عدل» اهـ[3].

ونصب ﴿قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ﴾ على الحال، وفيه وجهان:

أحدهما: أنه حال من الفاعل في ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾، والمعنى على هذا: شهد الله حال قيامه بالقسط أنه لا إله إلا هو.

---

(١) انظر: منهاج السنة النبوية، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/ ١٠٤.

(٢) انظر: جامع الرسائل، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ١/ ١٢٣، ومدارج السالكين، لابن القيم: ٣/ ٤٢٧.

(٣) تفسير الطبري: ٣/ ٢١٠.

والثاني: أنه حال من الضمير ﴿هُوَ﴾، أي: لا إله إلا هو حال كونه قائماً بالقسط.

وكلا الوجهين صحيح[(١)]، لكن بينهما فرق ظاهر، ليس هنا موضع تفصيل ذلك[(٢)]، ولفظ (القيام بالقسط) يتناول القول والفعل، فهو سبحانه قائم بالقسط ـ قولاً وفعلاً ـ لا بالظلم[(٣)].

وقد تضمنت هذه الآية ثلاثة أصول: شهادة أن لا إله إلا الله، وأنه قائم بالقسط، وأنه العزيز الحكيم؛ فتضمنت الدلالة على وحدانيته المنافية للشرك، وعدله المنافي للظلم، وعزته وحكمته المنافية للذل والسفه، ففيها الشهادة له سبحانه بالتوحيد، والعدل والقدرة والعلم والحكمة، ولهذا كانت أعظم شهادة[(٤)].

٢ ـ وقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ [الأنعام: ١١٥].

وفي هذه الآية وصف لكلام الله تعالى بالكمال في الصدق والعدل الذي لا يمكن تبديله، فإن قوله: ﴿تَمَّتْ﴾ بمعنى: كملت[(٥)]. وقوله: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ «المراد بالكلمة هنا: الكلمات؛ لأنها أضيفت إلى معرفة، فتفيد معنى الجمع»[(٦)]. وقوله: ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ نصبا على

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٤/ ١٧٥، ومدارج السالكين، لابن القيم: ٣/ ٤٢٥.

(٢) انظر بيان ذلك في: مدارج السالكين، لابن القيم: ٣/ ٤٢٥ ـ ٤٢٦.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٤/ ١٧٦، ومدارج السالكين، لابن القيم: ٣/ ٤٢٥.

(٤) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٤/ ١٨٠ ـ ١٨١، ومدارج السالكين، لابن القيم: ٣/ ٤٢٧.

(٥) انظر: تفسير الطبري: ٥/ ٣١٨.

(٦) مقتبس من: شرح العقيدة الواسطية، للشيخ محمد خليل هراس: ص١٥١.

التمييز[١]، والمراد: صدقاً في أخبارها، وعدلاً في أحكامها[٢]، «لأن كلامه تعالى إما إخبار، وهي كلها في غاية الصدق، وإما أمر ونهي، وكلها في غاية العدل الذي لا جور فيه، لابتنائها على الحكمة والرحمة»[٣]. وقوله: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ﴾ أي: لا مغير لها[٤]، «حيث حفظها وأحكمها بأعلى أنواع الصدق وبغاية الحق، فلا يمكن تغييرها، ولا اقتراح أحسن منها»[٥]. ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

٣ ـ وقوله تعالى ـ حكاية عن نبيه هود عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦].

وهذه الآية سبق الاستدلال بها على تنزيه الله تعالى عن العبث، وإثبات الحكمة له، وهي كذلك دالة على تنزيه الله تعالى عن الظلم، وإثبات العدل له، وذلك أن كون الرب عز وجل على صراط مستقيم بمنزلة كونه قائماً بالقسط؛ فإن الاستقامة والاعتدال متلازمان، فمن كان قوله وعمله بالقسط كان مستقيماً ومن كان قوله وعمله مستقيماً كان قائماً بالقسط[٦]، فهو سبحانه على صراط مستقيم في قوله وفعله[٧].

وهذا كقوله تعالى أيضاً: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٥/ ٣١٨.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص٢٧٠، وتوضيح الكافية الشافية، له: ص٣٠، وشرح العقيدة الواسطية، لهراس: ص١٥١.
(٣) مقتبس من: شرح العقيدة الواسطية، لهراس: ص١٥١. وانظر: الفتاوى: ١٦/ ٢٤٥.
(٤) انظر: تفسير الطبري: ٥/ ٣١٩.
(٥) مقتبس من: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص٢٧٠.
(٦) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٤/ ١٧٩.
(٧) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم: ٣/ ٤٢٥.

لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [النحل: ٧٦].

«فهذا مثل ضربه الله لنفسه وللصنم، فهو سبحانه الذي يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم. والصنم مثل العبد الذي هو كل على مولاه، أينما يوجهه لا يأت بخير»[١].

٤ ـ ومما هو دال كذلك على عدل الله تعالى وحكمته معاً لفظ الحق الذي أخبر تعالى أنه خلق لأجله الخلائق، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٥]. قال الإمام ابن جرير الطبري: «﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ يقول: إلا بالعدل والإنصاف، لا بالظلم والجور» اهـ[٢].

وقال سبحانه: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الجاثية: ٢٢]، فجمع الله تعالى في هذه الآية بين إثبات الحق الذي هو العدل والحكمة، ونفي الظلم المنافي لذلك.

ويتبين بهذا أن عدل الله تعالى وحكمته متلازمان، فإن العدل يتضمن وقوع أقواله وأفعاله كلها على السداد والصواب وموافقة الحكمة[٣]، والحكمة تقتضي وضع الأشياء مواضعها وتنزيلها منازلها اللائقة[٤]، فكل من العدل والحكمة يتضمن معنى الآخر ويستلزمه، فلا عدل بدون الحكمة، ولا حكمة بغير العدل.

---

(١) مقتبس من: مدارج السالكين، لابن القيم: ٣/ ٤٢٥.

(٢) تفسير الطبري: ٧/ ٥٣٢.

(٣) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم: ٣/ ٤٢٣.

(٤) انظر: توضيح الكافية الشافية، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص٩، ١٢٠.

وهذا الأصل ـ وهو عدل الله تعالى ـ يتعلق بجميع أنواع العلم والدين، فإنه يتعلق بجميع أفعال الرب تعالى ومخلوقاته، وكذلك أقواله وشرائعه وكتبه المنزلة، وما يدخل في ذلك من مسائل المبدأ والمعاد، والقضاء والقدر، والهداية والإضلال، والأمر والنهي، والوعد والوعيد، والثواب والعقاب، فإن هذه كلها صادرة بالعدل التام قائمة به، لا ظلم فيها ولا حيف ولا جور(١).

ولقد شهد بعدل الله تعالى في هذه الأمور كلها وتنزهه عن الظلم في شيء منها الملائكة وأولو العلم من الناس، كما أخبر الله تعالى بذلك في قوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨]، فإن هذه الآية تفيد أن الملائكة وأولو العلم قد شهدوا بأن الله تعالى قائم بالقسط ـ وهو العدل ـ، كما شهدوا بأنه لا إله إلا هو(٢).

وكما أخبر الله تعالى عن نبيه يونس عليه السلام في قوله سبحانه: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧]، فإن تسبيح هذا النبي الكريم بقوله: ﴿سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يتضمن تعظيم الله تعالى وتنزيهه عن الظلم وغيره من النقائص، فإن المقام يقتضي تنزيهه عن الظلم والعقوبة بغير ذنب، يقول: أنت مقدس ومنزه عن ظلمي وعقوبتي بغير ذنب، بل أنا الظالم الذي ظلمت نفسي(٣).

---

(١) انظر: جامع الرسائل، لشيخ الإسلام ابن تيمية ١/ ١٢٥، ومدارج السالكين: ٢/ ٤٥٠.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٤/ ١٧٧، ومدارج السالكين: ٣/ ٤٢٦.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠/ ٢٤٨، ٢٥٠.

وكذلك كان النبي ﷺ يقول ـ في استفتاح الصلاة ـ: «**اللهم أنت الملك، لا إله إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي، فاغفر لي ذنوبي جميعاً، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت**»(١). وعلم ﷺ أفضل هذه الأمة بعد نبيها أبا بكر الصديق رضي الله عنه أن يقول في صلاته: «**اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم**»(٢).

وهذا كله يبين أهمية تسبيح الله تعالى عن الظلم، وضرورة الاعتراف بعدله سبحانه في جميع ما أجراه على عباده من أحكامه الدينية والكونية، وأنه عز وجل لا يظلم الناس شيئاً، ولكن الناس أنفسهم يظلمون، فكل نقمة منه عدل، وكل نعمة منه فضل.

وقد اتفق المسلمون وسائر أهل الملل على أن الله تعالى عدل لا يظلم الناس شيئاً، بل هو منزه عن الظلم، ولكنهم اختلفوا في معنى كونه تعالى عدلاً، وفي الظلم الذي هو منزه عنه(٣).

فأما أهل السنة والجماعة فعقيدتهم في هذا الباب مستمدة من الكتاب والسنة لا من غيرهما، حيث قالوا: إن الظلم هو وضع الشيء في غير موضعه، والعدل هو وضع كل شيء في موضعه.

وحيث أثبتوا لله تعالى ما أثبته لنفسه، فقالوا: إنه سبحانه له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وهو خالق كل شيء، وهو سبحانه عادل في كل ما قاله وفي

(١) جزء من حديث طويل من حديث علي رضي الله عنه، أخرجه مسلم في صحيحه: ١/ ٥٣٤ ـ ٥٣٦، برقم (٧٧١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٢/ ٣١٧، برقم (٨٣٤)، ومسلم في صحيحه: ٤/ ٢٠٧٨، برقم (٢٧٠٥).

(٣) انظر: جامع الرسائل، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ١/ ١٢١.

كل ما فعله، واضع للأشياء مواضعها التي تناسبها وتقتضيه الحكمة والعدل، لا يفرق بين متماثلين، ولا يسوي بين مختلفين، ولا يعاقب إلا من يستحق العقوبة بذنبه، ولا ينقص من حسنات أحد شيئاً، بل يضاعفها ويؤتي من لدنه أجراً عظيماً، فضلاً منه ورحمة.

وقالوا: إنه ﷻ قادر على أن يظلم، لكنه سبحانه منزه عن ذلك لا يفعله؛ لأنه السبوح القدوس السلام، المستحق للتنزيه عن كل ذم وسوء، وللحمد على كل قول وفعل(١).

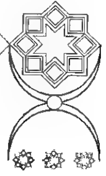
وأما سائر الطوائف المنتسبة إلى الإسلام فلكثير منها خلل وانحراف في هذا الباب، سيأتي التنبيه عليه ـ إن شاء الله ـ عند بيان المفاهيم الخاطئة في التسبيح(٢).

والواجب على العبد تسبيح الله تعالى عن الظلم واعتقاد عدله في جميع أقواله وأفعاله وفق عقيدة أهل السنة والجماعة التي دل على صحتها واستقامتها الكتاب والسنة، والله تعالى الموفق.

---

(١) انظر: المصدر السابق: ١/١٢٣ ـ ١٢٤، ١٢٩، والتوضيح المبين لتوحيد الأنبياء والمرسلين، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص١٢٤.

(٢) انظر: ٢/٢٩٥ من البحث.

المبحث الثالث

تسبيح الله تعالى عن إضافة الشر إليه

تسبيح الله تعالى عن إضافة الشر إليه مسألة ذات أهمية كبيرة في باب تنزيه الله سبحانه عما لا يليق بكماله وجلاله وعظمته، وهو مكمل لما سبق بحثه من تسبيح الله تعالى عن العبث وعن الظلم في أقواله وأفعاله، ولما سبق بحثه قبل ذلك من تسبيح الله تعالى في أسمائه وصفاته عما يضادها وينافيها من النقائص والعيوب، والتمثيل والتعطيل، وعن كل ما ينافي قدسيتها وحرمتها.

وبيان ذلك: أن الشر هو السوء[1]، وهو نقيض الخير[2]، قولاً كان أو فعلاً، وصفاً كان أو اسماً.

فتسبيح الله تعالى عن إضافة الشر إليه ـ بهذا المعنى ـ هو حقيقة التسبيح، إذ قد علم من اللغة والشرع أن التسبيح هو تنزيه الله تعالى عن السوء[3]، والسوء هو الشر، فالله ﷻ منزه عن الشر من كل وجه بمقتضى التسبيح الذي ورد به الكتاب والسنة.

وقد ثبت على لسان رسول الله ﷺ تنزيه الله تعالى عن إضافة الشر إليه بلفظه الصريح، وذلك فيما جاء عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال: «**وجهت وجهي**

---

(١) انظر: تهذيب اللغة، للأزهري: ١١/ ٢٧٢، ولسان العرب، لابن منظور: ٤/ ٤٠٠.

(٢) انظر: القاموس المحيط، للفيروزآبادي: ص٥٣١.

(٣) انظر: مبحث معاني التسبيح ـ من هذا البحث ـ: ١/ ٧٦.

للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً، وما أنا من المشركين... إلخ» وفيه: «**والخير كله في يديك، والشر ليس إليك**»[١].

فتضمنت هذه العبارة النبوية الثناء على الله تعالى بإضافة الخير كله إليه، وتنزيهه عن إضافة الشر إليه.

وللعلماء في معنى قوله: «**والشر ليس إليك**» أقوال:

أحدها: أن معناه: والشر ليس مما يتقرب به إليك[٢].

والثاني: أن معناه: والشر لا يصعد إليك، وإنما يصعد إليك الكلم الطيب والعمل الصالح[٣].

والثالث: أن معناه: والشر ليس مما يضاف إليك إفراداً وقصداً، فلا يقال ـ مثلاً ـ: يا خالق الشر، أو يا مقدر الشر، وإن كان هو الخالق والمقدر له، ولا يقال: يا رب القردة والخنازير، ونحوها من سفل الحيوان، وإن كان هو رب كل شيء[٤].

والرابع: أن معناه: والشر ليس شراً بالنسبة إليك، فإنك خلقته بحكمة بالغة، وإنما هو شر بالنسبة إلى المخلوقين[٥].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: ١/٥٣٤ ـ ٥٣٥، برقم (٧٧١).

(٢) انظر: شأن الدعاء، للخطابي: ص١٥٣ ـ ١٥٤، والاعتقاد، للبيهقي: ص١٤٥، وشرح صحيح مسلم، للنووي: ٦/٥٨، والعلم الهيب في شرح الكلم الطيب، للعيني: ص٢٦٨.

(٣) انظر: شرح صحيح مسلم، للنووي: ٦/٥٩، والعلم الهيب، للعيني: ص٢٦٨.

(٤) انظر: شأن الدعاء، للخطابي: ص١٥٣، وعقيدة السلف أصحاب الحديث، لأبي عثمان الصابوني: ص٩٤، وشرح صحيح مسلم، للنووي: ٦/٥٩.

(٥) انظر: شرح صحيح مسلم، للنووي: ٦/٥٩، والعلم الهيب، للعيني: ص٢٦٨.

والخامس: أن معناه: امتناع إضافة الشر إليه تعالى بوجه ما، فإن الشر لا يلحق ذاته، ولا يدخل في شيء من أسمائه وصفاته، ولا في شيء من أقواله وأفعاله؛ لأن ذاته تبارك وتعالى لها الكمال المطلق الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه، وكذلك أسماؤه كلها حسنى، ليس فيها اسم ذم ولا عيب، وصفاته كلها كذلك لها الكمال المطلق والجلال التام، وكذا أقواله وأفعاله كلها حكم ومصالح وعدل ورحمة وفضل وإحسان وخيرات محضة لا تخرج عن ذلك البتة، وله كمال الحمد على هذا كله، فبأي وجه ينسب الشر إليه؟ تعالى وتقدس عن ذلك[(١)].

وهذا المعنى الخامس ـ إذا تأملته ـ وجدته أجل معنى، وأعظم قدراً من المعاني المذكورة قبله، وتلك المعاني صحيحة أيضاً، لكنها ليست في الدلالة والشمول كهذا المعنى الأخير، فبه يتبين أن قوله ﷺ: «**والشر ليس إليك**» يتضمن تنزيه الله تعالى عن إضافة الشر إليه في ذاته، أو أسمائه، أو صفاته، أو أقواله، أو أفعاله، فالشر ليس إليه مطلقاً بوجه من الوجوه، سبحانه وتعالى[(٢)].

وبهذا يعلم أن الله ﷻ إنما يضاف إليه الخير؛ لأنه سبحانه لا يريد إلا الخير، ولا يحب إلا الخير، ولا يقول إلا الخير، ولا يفعل إلا الخير، ولا يوصف إلا بالخير، ولا يسمى إلا بالخير[(٣)]، فالخير كله منه وله وفي يديه، ليس لأحد معه منه شيء[(٤)].

---

(١) انظر: بدائع الفوائد، لابن القيم: ١/ ٤٥٠، ٤٥٤، وطريق الهجرتين، له: ص١٧٢، ومدارج السالكين، له: ١/ ٤٤، و٢/ ٣٠٩.

(٢) انظر: بدائع الفوائد: ١/ ٤٥٤، وطريق الهجرتين: ص٢٣٩، ومدارج السالكين: ١/ ٤٤.

(٣) انظر: شفاء العليل، لابن القيم: ٢/ ٣٧.

(٤) انظر: المصدر السابق: ٢/ ٦٣، وطريق الهجرتين: ص٢٣٩.

وهذا البيان المجمل مقنع لمن عنده معرفة صحيحة بالله تعالى وكماله وجماله وعظمته وجلالته التي يستحيل معها أن يضاف إليه الشر إرادة، أو قولاً، أو فعلاً، أو وصفاً، أو اسماً.

ولكن المسألة تحتاج إلى مزيد بيان فيما يتعلق بأفعال الله تعالى وأقواله، وقضائه وقدره، وذلك أن من أصول الدين: الإيمان بأن الله تعالى خالق كل شيء وربه ومليكه، وأنه سبحانه على كل شيء قدير، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأن كل ما هو حاصل في الكون من خير وشر، وصلاح وفساد، وهداية وضلال، ورحمة وعذاب، ونعمة ونقمة، وحسنة وسيئة، كل ذلك قد علمه الله تعالى، وكتبه، وشاءه، وخلقه.

فهذا مما لا يكون المرء مؤمناً، ولا يقبل منه قول ولا عمل حتى يؤمن به، وأدلة ذلك معلومة واضحة في الكتاب والسنة، وفي عقيدة أهل السنة والجماعة من الصحابة والتابعين ومن سار على طريقتهم إلى قيام الساعة(١).

وإذا كان الأمر كذلك، فكثير من الناس قد يكون عندهم التباس بين هذا الأصل الديني الإيماني وبين تنزيه الله تعالى عن إضافة الشر إليه مطلقاً، كما سبق بيانه.

وفي هذا المقام لا بد من التفريق بين ما هو قائم بذات الله تعالى من قول وفعل وقضاء وقدر وخلق، مما يدخل في صفاته الفعلية الصادرة عنه سبحانه بقدرته ومشيئته.

---

(١) انظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، للالكائي: ٢/ ٥٣٤ ـ ٦٢٣، وعقيدة السلف، لأبي عثمان الصابوني: ص٩٠ ـ ٩٥، والعقيدة الواسطية، لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ بشرح محمد خليل هراس ـ: ص٢١٩ ـ ٢٣٠.

وبين ما هو منفصل عنه تعالى من مفعول ومقضي ومقدور ومخلوق، مما يقع ويحدث في الوجود.

فما هو قائم بذات الله تعالى خير كله، والشر يستحيل قيامه به واتصافه به[١]، كما سبق بيانه آنفا.

وما هو منفصل عنه تعالى فيه الخير والشر، فالشر قائم بمفعوله ومخلوقه المباين له، لا بفعله وخلقه الذي هو وصفه[٢].

وكون الشر في مفعولات الله تعالى ومخلوقاته لا يقتضي إضافة الشر إليه سبحانه، لا فعلاً ولا اسما ولا صفة ولا إرادة ولا محبة، وذلك للأمور الآتية:

الأمر الأول: أن الله تبارك وتعالى منزه عن فعل الشر، فلا يفعل شراً قط؛ لأنه سبحانه كامل الصفات له الأسماء الحسنى، ولا يكون عن الكامل في ذاته وصفاته إلا الفعل المحكم الحسن[٣]، ولأنه تعالى هو الغني الحميد، وفاعل الشر لا يفعله إلا لحاجته المنافية لغناه، أو لنقصه وعيبه المنافي لحمده، فلا يصدر الشر من الغني الحميد، وإن كان هو الخالق للخير والشر[٤]، وسائر أسمائه الحسنى شاهدة بذلك، وأنه لا يفعل إلا الخير[٥]، ولو فعل الشر ـ سبحانه ـ لاشتق له منه اسم، ولم تكن أسماؤه كلها حسنى، ولعاد إليه منه حكم، وهذا باطل، تعالى وتقدس عن ذلك[٦]، ولهذا ليس من أسماء الله تعالى اسم

---

(١) انظر: شفاء العليل، لابن القيم: ٢/ ٦٤، ٦٨.
(٢) انظر: بدائع الفوائد، لابن القيم: ١/ ١٨٠، وحادي الأرواح، له: ص٤١٣.
(٣) انظر: طريق الهجرتين، لابن القيم: ص٢٤٨.
(٤) انظر: بدائع الفوائد، لابن القيم: ١/ ٤٥٠ ـ ٤٥١.
(٥) انظر: شفاء العليل، لابن القيم: ٢/ ٦٤، ٦٦.
(٦) انظر: بدائع الفوائد، لابن القيم: ١/ ١٨٠، ٤٥٠.

يتضمن الشر، وإنما يذكر الشر في مفعولاته، كما قال تعالى: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ۝٥٠﴾ [الحجر: ٤٩ ـ ٥٠]، وقال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٩٨﴾ [المائدة: ٩٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٦٧]، فجعل تعالى المغفرة والرحمة من معاني أسمائه الحسنى التي يسمي بها نفسه، فتكون المغفرة والرحمة من صفاته، ومن موجب نفسه المقدسة ومقتضاها ولوازمها.

وأما العذاب والعقاب الذي يتصل بالعباد، فهو مخلوق له، وذلك هو الأليم والشديد، فلم يقل سبحانه: وإني أنا المعذب، أو المعاقب(١).

وما يذكره بعض العلماء من اسم (الضار) و(المانع) و(المنتقم)، ونحو ذلك مما يتضمن معنى الشر، ليس شيء من ذلك من أسماء الله الحسنى الثابتة في الكتاب والسنة، كما سبق بيانه(٢).

والذين ذكروا هذا النوع من الأسماء جعلوه من الأسماء المزدوجة التي لا يطلق الاسم منها بمفرده على الله تعالى، بل مقروناً بمقابله، فيقال: النافع الضار، والمعطي المانع، والعفو المنتقم، وهكذا(٣).

والمقصود أن أسماء الله الحسنى دالة وشاهدة على أنه تعالى منزه عن فعل الشر، وكذلك تسبيحه يقتضي تنزيهه عن فعل الشر، كما

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٨/ ٩٦ و١٤/ ٢٧٢ ـ ٢٧٣، و١٧/ ٩٤ ـ ٩٥.

(٢) في مطلب: التفريق بين ما تسمى الله به مفرداً، وما تسمى به مقروناً بمقابله. انظر: ٢/ ١٨٩ ـ ٢٠٠.

(٣) كما سبق في المطلب المذكور.

يقتضي تنزيهه عن سائر العيوب والنقائص[1].

الأمر الثاني: أن ما هو شر أو متضمن للشر فإنه لا يكون إلا مخلوقاً منفصلاً[2]، والله تعالى لا يوصف بشيء من مخلوقاته، بل صفاته قائمة بذاته، وخلق الله تعالى للشيء وفعله له ليس هو نفس الشيء المخلوق ولا نفس الشيء المفعول، وهذا مطرد على أصول أهل السنة والجماعة الذين يفرقون بين خلق الله وفعله الذي هو وصفه، وبين مخلوقه ومفعوله الذي هو منفصل عنه، ويقولون: إن الخلق غير المخلوق، والفعل غير المفعول. وهذا هو الحق الذي يشهد له النقل والعقل الصريح[3].

وتوضيح ذلك: أن الله إذا خلق في الإنسان عمى ومرضاً وجوعاً وعطشاً ووصباً ونصباً ونحو ذلك، كان العبد هو الأعمى والمريض والجائع والعطشان والمتألم، فضرر هذه المخلوقات وما فيها من الأذى والكراهة عاد إليه، ولا يعود إلى الله تعالى شيء من ذلك[4].

وكذلك إذا خلق تعالى أفعال العباد فذلك من جنس خلقه لصفاتهم، فهم الموصوفون بذلك، فإذا خلق في العبد كذباً وظلماً وكفراً، كان العبد هو الكاذب الظالم الكافر، وإذا خلق فيه صلاة وصوماً وحجاً، كان العبد هو المصلي والصائم والحاج، والله سبحانه لا يتصف بشيء من ذلك، فصفات المخلوقات ليست صفات له، وأفعالهم ليست أفعالاً له، بل الصفات هي صفات لمن قامت به، والأفعال هي للفاعل الذي قام بها، لا للخالق الذي خلقها وجعلها

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٦/ ١٢٦.
(٢) انظر: بدائع الفوائد، لابن القيم: ١/ ٤٥٠.
(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ٢٩٨ و٨/ ١٢٦.
(٤) انظر: المصدر السابق: ٨/ ١٢٤.

صفات وأفعالاً لغيره[١]. فالشر ليس إلى الله تعالى بهذا الاعتبار، لكونه مفعولاً منفصلاً خلقه الله تعالى في غيره، وحكمه عائد إلى ذلك المحل، لا إلى الله سبحانه.

الأمر الثالث: أن اسم الشر يقال لما كان شراً من غيره، كما أن اسم الخير يقال لما كان خيراً من غيره، وهذا غالب استعمال هذين الاسمين في الكتاب والسنة وفي كلام الناس، ولذلك فالخير والشر درجات[٢].

وإذا قيل: إن الله سبحانه هو خالق الخير والشر، فالمراد بالشر هنا: ما هو شر من غيره، وغيره خير منه[٣]، وكونه شراً هو أمر نسبي إضافي، أي: هو شر بالنسبة إلى المحل المعين الذي هو شر في حقه[٤]، وليس شراً مطلقاً أو شراً كليا عاما، فإن الله سبحانه لا يخلق شراً محضاً من جميع الوجوه والاعتبارات، بل هو منزه عن ذلك[٥]، فكل ما خلقه الله تعالى وأوجده، فوجوده خير من عدمه، وهو أيضاً خير من موجود غيره يقدر موجوداً بدله، فكما أن وجوده خير من عدمه، فهو كذلك خير من موجود آخر يقدر مخلوقاً بدله.

وكل ما لم يخلقه الله تعالى ولم يشأه ـ وهو المعدوم الباقي على عدمه ـ، فلا خير فيه، إذ لو كان فيه خير لفعله سبحانه، فإنه سبحانه

---

(١) انظر: المصدر نفسه: ٨/١٢٣، ١٢٦، و١٨/١٥١، وشفاء العليل، لابن القيم: ٢/٥٧.
(٢) انظر: جامع الرسائل، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ١/١٣٢، ١٣٣.
(٣) انظر: المصدر السابق: ١/١٣٤.
(٤) انظر: بدائع الفوائد، لابن القيم: ١/ ٤٥٠.
(٥) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٤/٢٦٦، وشفاء العليل، لابن القيم: ٢/٤٣، ومدارج السالكين، له: ٢/ ١٩٤.

بيده الخير[١].

وهكذا سنته تعالى في خلقه وقضائه وقدره، فما أراد أن يخلقه ويفعله كان أن يخلقه ويفعله خيراً من أن لا يخلقه ولا يفعله، وما لم يرد أن يخلقه ويفعله كان أن لا يخلقه ولا يفعله خيراً من أن يخلقه ويفعله، فهو لا يفعل إلا الخير، وهو ما وجوده خير من عدمه، وما كان عدمه خيراً من وجوده، فوجوده شر، وهو سبحانه لا يفعله، بل هو منزه عنه، والشر ليس إليه[٢].

فعلم بهذا أن الموجودات التي خلقها الله تعالى ليس فيها ما هو شر كلي مطلق عام، وأن الشر المخلوق الموجود شر إضافي مقيد خاص، وفيه وجه آخر هو به خير وحسن، وهو أغلب وجهيه، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النمل: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾﴾ [السجدة: ٧]، فبين تعالى إتقانة لكل شيء، وإحسانه له، وهذا عام في كل مخلوق موجود، لا يستثنى منه شيء[٣]، وفيه دليل على أن دخول الشر في الأمور الموجودة إنما هو بالنسبة والإضافة، لا أنها من حيث وجودها وذواتها شر[٤]، فإنها من حيث وجودها وذواتها خير، وهو جهة تعلق فعل الرب ﷻ وتكوينه بها[٥].

---

(١) انظر: جامع الرسائل، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ١/ ١٣١ ـ ١٣٦.

(٢) انظر: المصدر السابق: ١/ ١٣١، وشفاء العليل، لابن القيم: ٢/ ٦٧.

(٣) انظر: كتاب التوحيد، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق الدكتور محمد السيد الجليند: ص١٧٨، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٠/ ١١٧.

(٤) انظر: شفاء العليل، لابن القيم: ٢/ ٧١.

(٥) انظر: بدائع الفوائد، لابن القيم: ١/ ٤٥٠.

مثال ذلك: ماء جار في نهر إلى أرض يسقيها وينفعها، فكماله في جريانه حتى يصل إليها، فإذا عدل به عن مجراه وطريقه إلى أرض يضرها ويخرب دورها، كان الشر في العدول به عما أعد له وعدم وصوله إليه.

وكذلك النار، كمالها في إحراقها، فإذا أحرقت ما ينبغي إحراقه فهو خير، وإن صادفت ما لا ينبغي إحراقه فأفسدته، فهو شر إضافي بالنسبة إلى المحل المعين.

وكذلك أفعال العباد جارية على هذا المجرى، فكل ما وجوده كفر وشرك ومعصية إنما كان شراً بإضافته إلى ما جعله كذلك، كالسجود لغير الله تعالى، وتعظيم الأصنام، وقتل النفس البريئة. فالسجود ليس شراً من حيث ذاته ووجوده، فإذا أضيف إلى غير الله كان شراً بهذه النسبة والإضافة.

والتعظيم من حيث هو تعظيم لا يمدح ولا يذم إلا باعتبار متعلقه، فإذا كان تعظيماً لله وكتابه ودينه ورسوله، كان خيراً محضاً، وإن كان تعظيماً للصنم وللشيطان، فإضافته إلى هذا المحل جعلته شراً.

والقتل هو استعمال الآلة القطاعة في تفريق اتصال البدن ـ مثلاً ـ، فقوة الإنسان على استعمال الآلة خير، وكون الآلة قابلة للتأثير خير، وكون المحل قابلاً لذلك خير، وإنما الشر نسبي إضافي، وهو وضع هذا التأثير في غير موضعه، والعدول به عن المحل اللائق به إلى غيره، وهذا بالنسبة إلى الفاعل، وأما بالنسبة إلى المفعول، فهو شر إضافي أيضاً، وهو ما حصل له من التألم وفاته من الحياة، وقد يكون ذلك خيراً له من جهة أخرى خيراً لغيره[1].

---

(١) انظر: شفاء العليل، لابن القيم: ٢/ ٧٠ ـ ٧١.

وكذلك النفوس الشريرة، فإن وجودها خير من حيث هي موجودة، وإنما حصل لها الشر بقطع مادة الخير عنها؛ لأنها خلقت في الأصل متحركة لا تسكن، فإن أعينت بالعلم وإلهام الخير تحركت، وإن تركت تحركت بطبعها إلى خلافه، وحركتها من حيث هي حركة خير، وإنما تكون شراً بالإضافة، لا من حيث هي حركة، فعلم أن جهة الشر فيها نسبة إضافية[(١)].

ومن تمام العلم بهذا الأمر: أن يعلم أن ما يقدر في الوجود إما أن يكون خيراً من كل وجه، أو شراً من كل وجه، أو خيراً من وجه شراً من وجه، وهذا على ثلاثة أقسام: قسم خيره راجح على شره، وقسم شره راجح على خيره، وقسم مستو خيره وشره.

وإما أن لا يكون فيه خير ولا شر. فهذه ستة أقسام لا مزيد عليها، فبعضها واقع وبعضها غير واقع[(٢)].

فالذي يدخل في الوجود حقيقة قسمان: ما هو خير من كل وجه، وهو الخير المحض الذي لا شر فيه بوجه ما، فهو أشرف الموجودات وأكملها وأجلها. وما هو خير من وجه وشر من وجه، وخيره راجح على شره، فله وجهان هو من أحدهما خير، وهو الوجه الذي نسب منه إلى الخالق سبحانه إيجاداً وتكوينا ومشيئة[(٣)].

وأما الأقسام الأربعة الباقية، فلا يدخل شيء منها في الوجود، وليس لها حقيقة، بل هي معدومة، والمعدوم لا شيء، وذلك لأن الله تعالى لم يشأها، ولو شاءها لفعلها، ولكنه سبحانه منزه عن فعل الشر، وهو الشر المحض الذي لا خير فيه بوجه.

---

(١) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم: ٢/ ١٩٤.
(٢) انظر: المصدر السابق: ٢/ ٧٢.
(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٠/ ١١٧، وشفاء العليل، لابن القيم: ٢/ ٧٣، ٧٤، وبدائع الفوائد، له: ١/ ٤٥٠.

وأما الذي لا خير فيه ولا شر، فلا يدخل أيضاً في الوجود؛ لأنه عبث، والله تعالى منزه عن العبث. وإذا امتنع وجود هذا القسم في الوجود، فدخول ما الشر في إيجاده أغلب من الخير أولى بالامتناع[١].

فظهر أن الوجود والواقع منحصر في الخير المحض، والخير الغالب الذي يكون فيه شر جزئي إضافي.

«ومن تأمل هذا الوجود علم أن الخير فيه غالب، وأن الأمراض وإن كثرت فالصحة أكثر منها، واللذات أكثر من الآلام، والعافية أعظم من البلاء، والغرق والحرق والهدم ونحوها ـ وإن كثرت ـ فالسلامة أكثر. ولو لم يوجد هذا القسم الذي خيره غالب لأجل ما يعرض فيه من الشر لفات الخير الغالب، وفوات الخير الغالب شر غالب.

ومثال ذلك: النار، فإن في وجودها منافع كثيرة، وفيها مفاسد، لكن إذا قابلنا بين مصالحها ومفاسدها لم تكن لمفاسدها نسبة إلى مصالحها. وكذلك المطر والرياح والحر والبرد.

وبالجملة فعناصر هذا العالم السفلي خيرها ممتزج بشرها، ولكن خيرها غالب، وأما العالم العلوي، فبريء من ذلك»[٢].

الأمر الرابع: أن الشر المخلوق الموجود إنما خلقه الله تعالى لحكمة هو باعتبار تلك الحكمة التي خلق لأجلها خير وحسن؛ لأن الشر الذي يقصد به الخير الأرجح هو خير من الفاعل الحكيم، وإن كان فيه شر من جهة أخرى، وذلك أمر عارض جزئي، ولكن لو لم يخلقه الله ﷻ لفاتت الحكمة، وليس في الحكمة الإلهية تفويت هذه الحكمة التي هي أحب إليه سبحانه من الخير الحاصل بعدمها، لما في

---

(١) انظر: شفاء العليل، لابن القيم: ٢/ ٧٤.
(٢) مقتبس من: المصدر السابق: ٢/ ٧٤.

وجودها من الغايات التي يحمد عليها سبحانه أضعاف ما في عدمها من ذلك. وظن الظان أن الحكمة المطلوبة التامة قد تحصل مع عدم هذا الشر الجزئي العارض، إنما يقوله لعدم علمه بحقائق الأمور، وارتباط بعضها ببعض، فإن الخالق سبحانه إذا خلق الشيء فلا بد من خلق لوازمه، ووجود الملزوم بدون لازمه ممتنع، وليس في الحكمة تفويت هذه الحكمة العظيمة لأجل ما يحصل للنفس من الشر مع ما حصل من الخيرات التي لم تكن تحصل بدون هذا الشر(١).

وبهذا يعلم أن ما وقع من الشر الموجود في المخلوقات فقد وجد لأجل تلك الحكمة المطلوبة المحبوبة المرضية، فهو في نفسه خير من جهة إضافته إلى الله تعالى، لما فيه من الحكمة البالغة، وهو من الله تعالى حسن جميل، وإن كان شراً بالنسبة إلى من قام به(٢)، وهو من هذه الجهة ليس إليه سبحانه، ولا تضاف إليه من جهة أنه شر، وكونه شراً إنما حصل لعدم هذه الإضافة والنسبة إليه ﷻ، فانقطاع نسبته إليه هو الذي صيره شراً، فلو كان إليه سبحانه لم يكن شراً، فتأمله(٣).

والرب تبارك وتعالى لا تقاس أفعاله بأفعال عباده، فهو يخلق جميع ما يخلقه لحكمة ومصلحة، وإن كان بعض ما خلقه فيه قبح وشر، كما يخلق الأعيان الخبيثة ـ كالشياطين والنجاسات ـ لحكمة راجحة، ويخلق أفعال العباد المذمومة ـ كالكفر والشرك والبدع والمعاصي ـ لحكمة راجحة، ويخلق ما تتألم به النفوس وتتأذى به

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٨/ ٥١٢، وطريق الهجرتين، لابن القيم: ص١٨٥.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٧/ ٩٩.

(٣) انظر: شفاء العليل، لابن القيم: ٢/ ٦٤، وطريق الهجرتين، له: ص١٧٢، ومدارج السالكين، له أيضاً: ٢/ ١٩٤.

ـ كالأمراض والهموم والغموم والأضرار ـ لحكمة عظيمة[(١)].

كما أن خلقه للشر الموجود في المخلوقات عدل منه سبحانه وصواب ووضع للأشياء مواضعها، وهو سبحانه منزه عن الظلم الذي حقيقته وضع الشيء في غير موضعه، كما تقدم[(٢)]. فلا يضع سبحانه الأشياء إلا في مواضعها اللائقة بها، وذلك خير كله، وإنما الشر وضع الشيء في غير محله، فإذا وضع في محله لم يكن شراً[(٣)].

ولله تعالى كذلك خصائص في خلقه ورحمة وفضل يختص بها من يشاء، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ (٧٤)﴾ [آل عمران: ٧٣ ـ ٧٤]، ولذلك حكمة ورحمة هو أعلم بها، كما خص بعض الأبدان بقوى لا توجد في غيرها، وبسبب عدم القوة قد تحصل له أمراض وجودية، وغير ذلك من حكمته ﷻ[(٤)].

والمقصود أن حكمة الرب وقدرته ومشيئته اقتضت خلق هذا العالم ممتزجاً فيه الخير بالشر، والطيب بالخبيث، والنافع بالضار، والحق بالباطل، واللذة بالألم.

وفرض الذهن وجود الخلائق بدون هذه الأمور كفرضه وجود المسببات بدون أسبابها، والملزومات بدون لوازمها، كفرض وجود الابن

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٨/ ١٢٣ و١٦/ ٤٢٥، ٤٥١.
(٢) انظر: ٢/ ٢٥٥.
(٣) انظر: جامع الرسائل، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ١/ ١٣٠، وشفاء العليل، لابن القيم: ٢/ ٦٤.
(٤) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٤/ ٣٣٧، وطريق الهجرتين، لابن القيم: ص٢٣٩.

بدون الأب، والحركة بدون المتحرك، والتوبة بدون التائب، ونحو ذلك مما تمنعه حكمة الله تعالى ومشيئته[١]؛ لأن خلق الأضداد والمتقابلات التي يقهر بعضها بعضاً، ويكسر بعضها بعضاً ـ كالليل والنهار والحر والبرد، والداء والدواء، والحياة والموت ـ هو من شأن كمال الربوبية، والقدرة النافذة، والحكمة التامة، والملك الكامل، وإن كان شأن الربوبية كاملاً في نفسه ولو لم تخلق هذه الأشياء، لكن خلقها من لوازم كماله ومن موجبات ربوبيته وإلهيته وملكه وقدرته ومشيئته وحكمته، فظهور تأثيرها وأحكامها في عالم الشهادة تحقيق لذلك الكمال، وخلو الوجود عنها بالكلية تعطيل للكمال الإلهي عما يقتضيه من الآثار[٢].

وبالجملة: فالعبودية والآيات والعجائب التي ترتبت على خلق هذه الأضداد وتقديرها ومشيئتها أحب إليه سبحانه من فواتها وتعطيلها بتعطيل أسبابها[٣].

وبما سبق شرحه من الأمور الأربعة يندفع اللبس ـ بإذن الله ـ عن مسألة تنزيه الله تعالى عن إضافة الشر إليه في فعله وخلقه، وفي قضائه وقدره، ويعلم أنه سبحانه ـ وإن كان هو الخالق للخير والشر ـ فالخير مضاف إليه من كل وجه وبكل اعتبار، وأما الشر فهو سبحانه إنما خلقه وقدره وقضاه بحكمته وعدله، فلا يضاف إليه من جهة كونه شراً، بل من جهة ما تضمنه من الحكمة والعدل[٤].

وهذا تحقيق قوله ﷺ: «**والخير كله في يديك، والشر ليس إليك**»،

---

(١) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم: ١/ ٤١٠ و٢/ ١٩٣.

(٢) انظر: المصدر السابق: ١/ ١٤٧ و٢/ ١٩٠ ـ ١٩١، ١٩٣، وطريق الهجرتين، لابن القيم أيضاً: ص١٨٢، ١٨٦، ١٨٩.

(٣) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم: ٢/ ١٩٣.

(٤) انظر: شفاء العليل، لابن القيم: ٢/ ٣٦، ٤٢.

فلم يقل ـ عليه الصلاة والسلام ـ: وأنت لا تخلق الشر، وإنما نفى إضافة الشر إليه فعلاً ووصفاً واسماً[(١)]، كما سبق بيانه، فالرب سبحانه لا يفعل سوءاً قط، كما لا يوصف به، ولا يسمى باسمه، بل فعله كله حسن وخير وحكمة وعدل[(٢)]، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران: ٢٦]، فتناولت هذه الآية الكريمة ملكه تعالى وحده، وتصرفه بمشيئته، وعموم قدرته. وتضمنت أن هذه التصرفات كلها بيده، وأنها كلها خير، فسلبه الملك عمن يشاء، وإذلاله من يشاء خير، وإن كان شراً بالنسبة إلى المسلوب والذليل، فإن هذا التصرف دائر بين العدل والفضل والحكمة والمصلحة لا يخرج عن ذلك، وهذا كله خير يحمد عليه الرب سبحانه ويثنى عليه به، كما يحمد ويثنى عليه بتنزيهه عن الشر، وأنه ليس إليه[(٣)].

ولهذا لا يجيء في كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ إضافة الشر وحده إلى الله تعالى، بل لا يذكر الشر في الكتاب والسنة إلا على أحد وجوه ثلاثة[(٤)]:

الوجه الأول: أن يذكر بطريق العموم، فإنه إذا دخل في العموم أفاد عموم القدرة والمشيئة والخلق، وتضمن ما اشتمل عليه من حكمة تتعلق بالعموم[(٥)]، وذلك نحو قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾﴾ [الزمر: ٦٢].

---

(١) انظر: حادي الأرواح، لابن القيم: ص٤١٣.

(٢) انظر: شفاء العليل، لابن القيم: ٢/ ٤٢.

(٣) انظر: شفاء العليل، لابن القيم: ٢/ ٦٣.

(٤) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٨/ ٩٤ و١٤/ ٢٦٦ و١٧/ ٩٤، وكتاب التوحيد، له: ص١٧٩.

(٥) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٨/ ٩٤.

الوجه الثاني: أن يضاف الشر إلى السبب الفاعل المخلوق، مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِن شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥)﴾ [الفلق: ١ ـ ٥].

فالشر في هذه السورة مضاف إلى أسبابها المخلوقة، ويتضمن شر المخلوقات عموماً وخصوصاً[(١)]. وللإمام ابن قيم الجوزية تفسير بديع لهذه السورة والتي تليها ـ وهما المعوذتان ـ كشف فيه عن معانيهما الفذة وفوائدهما الجمة[(٢)].

ومن هذا الباب ما حكى الله تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام من قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠)﴾ [الشعراء: ٧٨ ـ ٨٠]. «فنسب الخلق والهداية والإحسان بالطعام والسقي إلى الله تعالى، ولما جاء إلى ذكر المرض، قال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ﴾، ولم يقل: أمرضني. وقال: ﴿فَهُوَ يَشْفِينِ﴾»[(٣)]، «فأضاف المرض إلى نفسه، والشفاء إلى ربه، وإن كان الجميع منه جل جلاله»[(٤)].

وما حكى الله تعالى عن الخضر عليه السلام من قوله: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩]، فأضاف إرادة العيب ـ وهو خرق السفينة ـ إلى نفسه[(٥)].

وقال ـ في شأن الجدار واليتيمين ـ: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٧/٥٠٨.
(٢) انظر: كتابه (بدائع الفوائد): ١/٤٣٧ ـ ٥٢١.
(٣) متقبس من: بدائع الفوائد، لابن القيم: ١/٢٥٩.
(٤) مقتبس من: عقيدة السلف، لأبي عثمان الصابوني: ص٩٤.
(٥) انظر: عقيدة السلف، للصابوني: ص٩٤، وبدائع الفوائد، لابن القيم: ١/٢٥٩.

﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكهف: ٨٢]، فأضاف إرادة الخير والرحمة إلى الله تعالى[١]. ثم قال بعد ذلك: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ [الكهف: ٨٢].

الوجه الثالث: أن يحذف فاعل الشر ويبنى الفعل معه للمفعول، كقوله تعالى ـ حكاية عن مؤمني الجن ـ: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ⑩﴾ [الجن: ١٠]، «فنسبوا إرادة الرشد إلى الرب، وحذفوا فاعل إرادة الشر، وبنوا الفعل للمفعول»[٢].

ومنه قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ⑦﴾ [الفاتحة: ٧]، حيث أضاف النعمة إلى الله سبحانه، وحذف فاعل الغضب وبناه للمفعول[٣]، وذلك لأن النعمة هي الخير والفضل، والغضب من باب الانتقام والعدل، والرحمة تغلب الغضب، فأضاف إلى نفسه أكمل الأمرين وأسبقهما وأقواهما[٤].

فالطريقة المعهودة في الكتاب والسنة هي إضافة الخير إلى الله تعالى وإسناده إليه؛ لأنه تعالى أحسن به من كل وجه، فما من وجه من وجوهه إلا وهو يقتضي الإضافة إليه سبحانه[٥]. وأما الشر فمضاف إلى المخلوق الذي صدر عنه ووقع به، وليس إلى الله تعالى.

ومن هنا أرشد أهل العلم من أهل السنة والجماعة إلى استعمال الأدب في الثناء على الله تعالى والمدح له، بأن تضاف إليه محاسن

---

(١) انظر: عقيدة السلف، للصابوني: ص٩٤.
(٢) مقتبس من: بدائع الفوائد، لابن القيم: ١/ ٢٥٩.
(٣) انظر: بدائع الفوائد، لابن القيم: ١/ ٢٥٩.
(٤) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم: ١/ ٣٥.
(٥) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٤/ ٢٦٥، وبدائع الفوائد، لابن القيم: ١/ ٢٥٩.

الأمور دون مساوئها، وإن كان كل ذلك صادر عن خلقه وبقضائه وقدره[١].

قال الإمام أبو عثمان الصابوني[٢]: «ومن مذهب أهل السنة وطريقتهم ـ مع قولهم بأن الخير والشر من الله وبقضائه ـ لا يضاف إلى الله ما يتوهم منه نقص على الانفراد، فلا يقال: يا خالق القردة والخنازير والخنافس والجعلان، وإن كان لا مخلوق إلا والرب خالقه»[٣].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ومع هذا يمنع الإنسان أن يخص ما يتقذر من المخلوقات وما يستقبحه الشرع من الحوادث، بأن يقول ـ على الإنفراد ـ: يا خالق الكلاب، ويا مريداً للزنا، ونحو ذلك. بخلاف ما لو قال: يا خالق كل شيء، ويا من كل شيء يجري بمشيئته» اهـ[٤].

وإذا علم ما يتعلق بتنزيه الله تعالى عن الشر في فعله وخلقه وقضائه وقدره، فالشأن كذلك فيما يتعلق بقول الله تعالى وشرعه وأمره ونهيه، فإنه سبحانه منزه عن الشر في ذلك أيضاً.

وسنة الله تعالى في شرعه أنه لا يأمر إلا بالخير الذي به تحصيل

---

(١) انظر: شأن الدعاء، للخطابي: ص١٥٣.

(٢) هو إسماعيل بن عبد الرحمن بن أحمد بن إسماعيل النيسابوري، أبو عثمان الصابوني، الإمام الحافظ، الواعظ المفسر، كان شيخ خراسان في زمانه، وله مصنفات مفيدة، منها: الفصول في الأصول، وكتاب الانتصار، وعقيدة السلف أصحاب الحديث، وتوفي سنة (٤٤٩هـ) رحمه الله.
انظر: البداية والنهاية، لابن كثير: ١٢/ ٨١، وشذرات الذهب، لابن العماد: ٣/ ٢٨٢ ـ ٢٨٣.

(٣) عقيدة السلف أصحاب الحديث: ص٩٣ ـ ٩٤.

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ٥٠٤.

المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، ولا ينهى إلا عن الشر المضاد للخير والمسبب للفساد، وليس في الشريعة أمر بفعل إلا ووجوده خير من عدمه، ولا نهي عن فعل إلا وعدمه خير من وجوده[١]. ولهذا أمر تعالى عباده أن يأخذوا بأحسن ما أنزل إليهم من ربهم، كما قال سبحانه: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزمر: ٥٥]، فإن الأحسن هو المأمور به، وهو خير من المنهي عنه[٢].

ويستدل سبحانه بأسمائه وصفاته على بطلان ما نسب إليه من الأحكام والشرائع الباطلة، وأن كماله المقدس يمنع من شرعها، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأعراف: ٢٨]، فذكر براءته تعالى من الأمر بالفحشاء على وجه المدح له بذلك، وتنزيهه عن ذلك[٣].

وكقوله تعالى ـ عقيب ما نهى عنه من الشرك والظلم وأنواع من الفواحش والمنكرات ـ: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾ [الإسراء: ٣٨]، فبين أن ما كان سيئه في نفسه فهو يكرهه، وأن كماله يأبى أن يجعله شرعاً وديناً[٤].

وفي هذا ونحوه من الأدلة ما يدل على أن من الأمور ما لا يجوز أن يضاف إلى الله تعالى الأمر به أو شرعه، لمنافاته لكماله

---

(١) انظر: جامع الرسائل، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ١/ ١٣٠، وشفاء العليل، لابن القيم: ٢/ ٦٧.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ١١/ ١٨، وجامع الرسائل، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ١/ ١٣١، وشفاء العليل، لابن القيم: ٢/ ٦٧.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٧/ ١٨١، ومدارج السالكين، لابن القيم: ٣/ ٤٣٤.

(٤) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم: ٣/ ٤٣٤ ـ ٤٣٥.

المقدس[١]، وهو سبحانه يدل عباده بأسمائه وصفاته على ما يأمر به وينهى عنه، وما يحبه ويبغضه، وما يثيب عليه ويعاقب عليه[٢].

ومن كان له نصيب من معرفة أسماء الله وصفاته علم ما يليق به تعالى أن يقوله ويأمر به ويشرعه مما لا يليق به، وعلم أنه سبحانه لا يشرع ولا يحكم بخلاف موجب حمده وحكمته وكماله، فإذا رأى في بعض الأحكام جوراً وظلماً، أو سفهاً وعبثاً ومفسدة، أو ما لا يوجب حمداً وثناء، علم أنه ليس من أحكام الله تعالى ولا دينه، وأنه سبحانه بريء منه ورسوله ﷺ، فإنه تبارك وتعالى إنما شرع لعباده ما فيه الحكمة والعدل والمصلحة والخير، لا ما فيه العبث والسفه والظلم والمفسدة والشر، وإنما بعث رسوله ﷺ بالحنيفية السمحة، لا بالغلظة والشدة، وبعثه بالرحمة لا بالقسوة، فإنه سبحانه أرحم الراحمين، ورسوله ﷺ رحمة مهداة إلى العالمين، ودينه كله رحمة وخير، وذلك كله موجب أسمائه الحسنى وصفاته العليا[٣].

ومما يلزم علمه أيضاً في باب تنزيه الله تعالى عن الشر في أقواله: أنه يجب تنزيه كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ عن أن يدل على أمر باطل، أو أن يراد به معنى لا يليق الخطاب بمثله، مما فيه تناقض أو تعقيد أو تدليس أو تلبيس أو غير ذلك مما يوجب العيب والنقص في كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ[٤]، وينافي ما وصف الله به القرآن الكريم من أنه بيان وهدى وشفاء ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وإن ضل به من ضل بسبب تفريطه، كما قال ﷻ:

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٧/ ١٨١.
(٢) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم: ٣/ ٤٣٥.
(٣) انظر: طريق الهجرتين، لابن القيم: ص٢٢٧ ـ ٢٢٨.
(٤) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ٤٠٠، ٤٧١ و١٨/ ١٤٤.

﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ١٣٨﴾ [آل عمران: ١٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ٨٢﴾ [الإسراء: ٨٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ٤٢﴾ [فصلت: ٤١ ـ ٤٢].

وينافي كذلك ما هيأ الله عليه رسوله ﷺ من كمال العلم بالله تعالى وبمراده، وكمال البيان والفصاحة وحسن التعبير، وكمال النصيحة للأمة والحرص على هداية الخلائق[(١)].

فإنه مع ثبوت هذه الأوصاف الجميلة الكاملة يستحيل أن يشتمل كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ على عيب أو نقص أو خلل أو قصور أو فساد أو شر في ألفاظهما ومعانيهما، بل الكتاب والسنة بريئان من المعايب من كل وجه.

وهل قدر الله تعالى حق قدره، أو قدر رسوله ﷺ حق قدره من نسب كلامه سبحانه أو كلام رسوله ﷺ إلى مثل هذه المعايب أو ظن فيهما شيئاً من ذلك؟.

ولكن هناك أسباب تؤدي إلى نسبة هذه المعايب إلى كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ، ومنها:

١ ـ سوء الفهم، فقد «يؤتى الإنسان من سوء فهمه، فيفهم من كلام الله ورسوله معاني يجب تنزيه الله سبحانه عنها، ولكن حال المبطل مع كلام الله ورسوله كما قيل:

---

(١) انظر: طريق الهجرتين، لابن القيم: ص٣٩٢.

وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم»(١)

٢ ـ تفسير كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ بالمعاني المبتدعة والأوضاع المحدثة التي لم يتلق من عرف المتكلم بالكتاب والسنة، ولا من التفاسير الصحيحة الثابتة عن السلف الصالح، فإن مثل هذا التفسير يتضمن ـ بلا شك ـ تعطيل ما جاء به الكتاب والسنة من المعاني الصحيحة، والكذب على الله تعالى وعلى رسوله ﷺ بإرادة معاني غير مرادة، فتضمن ذلك إبطال الحق، وتحقيق الباطل، ونسبة المتكلم إلى ما لا يليق به، والقول عليه بلا علم، والعياذ بالله تعالى(٢).

٣ ـ حمل كلام الله تعالى أو كلام رسوله ﷺ على مجرد الاحتمال النحوي الإعرابي دون اعتبار عرف الكتاب والسنة والمعهود من معانيهما ومقاصدهما.

وفي التحذير من هذا الأمر يقول الإمام ابن قيم الجوزية: «وينبغي أن يتفطن ـ هاهنا ـ لأمر لا بد منه، وهو أنه لا يجوز أن يحمل كلام الله ﷻ ويفسر بمجرد الاحتمال النحوي الإعرابي الذي يحتمله تركيب الكلام، ويكون الكلام به له معنى ما، فإن هذا مقام غلط فيه أكثر المعربين للقرآن، فإنهم يفسرون الآية ويعربونها بما يحتمله تركيب تلك الجملة، ويفهم من ذلك التركيب أي معنى اتفق، وهذا غلط عظيم، يقطع السامع بأن مراد القرآن غيره، وإن احتمل ذلك التركيب هذا المعنى في سياق آخر وكلام آخر، فإنه لا يلزم أن يحتمله القرآن. مثل قول بعضهم في قراءة من قرأ ﴿وَٱلْأَرْحَامِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، بالجر: أنه قسم...

---

(١) مقتبس من: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/٣٩٩.

(٢) انظر: المصدر السابق: ٦/١١١ ـ ١١٣، وشفاء العليل، لابن القيم: ١/٢١٨.

ونظائر ذلك أضعاف أضعاف ما ذكرنا وأوهى بكثير.

بل للقرآن عرف خاص ومعان معهودة لا يناسبه تفسيره بغيرها، ولا يجوز تفسيره بغير عرفه، والمعهود من معانيه، فإن نسبة معانيه إلى المعاني كنسبة ألفاظه إلى الألفاظ، بل أعظم، فكما أن ألفاظه ملوك الألفاظ وأجلها وأفصحها، ولها من الفصاحة أعلى مراتبها التي يعجز عنها قدر العالمين، فكذلك معانيه أجل المعاني وأعظمها وأفخمها، فلا يجوز تفسيره بغيرها من المعاني التي لا تليق به، بل غيرها أعظم منها وأجل وأفخم، فلا يجوز حمله على المعاني القاصرة بمجرد الاحتمال النحوي الإعرابي.

فتدبر هذه القاعدة، ولتكن منك على بال، فإنك تنتفع بها في معرفة ضعف كثير من أقوال المفسرين وزيفها، وتقطع أنها ليست مراد المتكلم تعالى بكلامه» اهـ(١).

فيجب على العبد تجنب هذه الأسباب ونحوها تحقيقاً لتنزيه الله تعالى عن الشر في قوله وشرعه وأمره ونهيه، وصونا لكلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ عن الظنون الكاذبة، والاحتمالات المرجوحة، والتأويلات الفاسدة.

وبمعرفة ما سبق بيانه من تسبيح الله تعالى عن إضافة الشر إليه يفتح للعبد ـ بإذن الله ـ باب عظيم من معرفة الرب جل وعلا وتنزيهه وتعظيمه ومحبته وحمده حمد الثناء وحمد الشكر.

فهو سبحانه المحمود المحبوب المعظم ذو الجلال والإكرام على جميع أقواله وأفعاله، وعلى كل ما قدره وخلقه، وكل ما أمر به وشرعه، وعلى كل ما في الكون من خير وشر، لصدور ذلك عن كمال

---

(١) بدائع الفوائد: ٢/ ٢٩ ـ ٣٠.

ذاته وجمال أسمائه وصفاته، ولأن ذلك خير وحكمة وعدل ومصلحة ونعمة وفضل وإحسان، فالخير كله في يديه، والشر ليس إليه، وكل ذرة من ذرات الكون شاهدة بإضافة الخير إليه وتنزيهه عن إضافة الشر إليه، ولهذا سبح بحمده السموات والأرض ومن فيهن ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤]، فسبحان الله رب العالمين تنزيها لربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته وأقواله وأفعاله وقضائه وقدره وحكمه وشرعه وأمره ونهيه ووعده ووعيده وثوابه وعقابه عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله وجماله من سوء ونقص وعيب وتعطيل وتمثيل وشرك، والحمد لله رب العالمين.

الباب الخامس

الرد على المفاهيم الخاطئة في التسبيح

مدخل

لما كان الخلق مفطورين على الإقرار بالخالق ﷻ وبعظمته، كانت الأمم كلها تعظّمه وتقدّسه، لكن تعظيماً وتقديساً قد يستلزم شبهة وسُبَّة وشِرْكة[1].

وقد بعث الله تعالى الرسل وأنزل الكتب ليبين للناس توحيده وتعظيمه وتقديسه وتنزيهه على الوجه الذي يليق بكماله وجلاله وعظمته ووحدانيته، بعيداً عن كلّ شبهة، سليماً من كلّ سبة، بريئاً من كل شركة.

فما كان من التوحيد والتعظيم والتقديس والتنزيه لله تعالى موافقاً لما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب فهو المحمود المحبوب لله تعالى المقبول عنده، وهو الذي تزكو به النفس وتسعد. وما كان مخالفاً لذلك فهو مذموم مبغوض لله تعالى مردود عنده، ولا تحصل به زكاة ولا سعادة للنفس، وإن سمّي توحيداً أو تعظيماً أو تقديساً أو تنزيهاً، فإن العبرة ليست بالأسماء والدعاوى، وإنما العبرة بالحقائق والبيّنات.

وقد سبّح الله تعالى نفسه المقدّسة تنزيهاً له عمّا يصفه به كلّ أحد إلا المخلصين من عباده، وهم الرسل ومن تبعهم، الذين لم يصفوه من عند أنفسهم، وإنما وصفوه بما أذن لهم في وصفه به مما أثبته لنفسه المقدّسة أو نفاه عن نفسه المقدّسة في وحيه المبين، وذلك في قوله

---

(١) انظر: جامع الرسائل، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠٧.

تعالى: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الصافات: ١٥٩ ـ ١٦٠]، وتقدّم بيان هذا الأمر عند الكلام على قرن التسبيح بالسلام على المرسلين[١].

كما أن الله ﷻ أمر بالتسبيح بحمده، في نحو قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [الحجر: ٩٨، والنصر: ٣]، وذكر بعض العلماء أن هذا أمر بأن يكون تسبيح الله تعالى بما حمد به نفسه، والمعنى: سبحه بما حمد به نفسه، أي: ليكن تنزيهك له بما نزه به نفسه عنه، وأعلمك أنه غير لائق به[٢].

قالوا: وفائدة هذا الأمر أنه ليس كل تنزيه محموداً، فمن نزه الله تعالى عما نزه نفسه عنه وأعلم عباده أنه غير لائق به، فتنزيهه محمود، ومن نزهه بما لم ينزه به نفسه، ولا أعلم عباده أنه غير لائق به، فتنزيهه مذموم وليس محموداً؛ لأنه تنزيه بغير ما أذن الشرع فيه[٣].

وفي هذا كله بيان أن توحيد الله تعالى وتسبيحه وتعظيمه وتنزيهه يجب أن يكون وفق الضوابط الشرعية وفي ضوء الأدلة النقلية، ولا يجوز بحال أن يبنى ذلك على الآراء المجردة أو الأقيسة العقلية الصرفة؛ لأن ذلك يوقع في مزالق خطيرة واعتقادات باطلة في هذا الباب[٤].

---

(١) انظر: ١/ ٢٤٤ ـ ٢٤٦ من البحث.

(٢) انظر: ما سبق بيانه عند الكلام على قرن التسبيح بالحمد، في ١/ ٢٠٠.

(٣) انظر: نور المسرى، لأبي شامة: ص٤١ ـ ٤٢، ومغني اللبيب، لابن هشام: ص١٤٠، وتفسير سورة النصر، لابن رجب الحنبلي ـ ضمن مجموعة رسائل له ـ: ص٢١٣.

(٤) انظر: فقه الأدعية والأذكار، للأستاذ الدكتور عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر: ص٢٢٢.

ومن البلاء العظيم على المسلمين ـ من بعد القرون المفضلة ـ أن أهل البدع والأهواء من المتكلمين وغيرهم قد ابتدعوا في العقيدة أقوالاً ومذاهب، وسمى كل طائفة ما ابتدعه توحيداً وتنزيهاً لله تعالى، وجعله حقيقة عقدية يجب اعتقادها وتحرم مخالفتها.

ومن هنا تعددت المفاهيم ودخل الاشتراك في لفظ (التوحيد، والتنزيه) بسبب اختلاف اصطلاحات المتكلمين وغيرهم، وليس فيما عنوه جميعاً ما يوافق الكتاب والسنة واعتقاد أهل السنة والجماعة، بل التوحيد والتنزيه الذي دل عليه الكتاب والسنة واعتقده أهل السنة والجماعة لا يتضمن شيئاً من هذه المفاهيم ولا الاصطلاحات التي قررها المتكلمون وغيرهم، وزعموا أنهم يحققون بها التوحيد والتنزيه لله تعالى، بينما هم في حقيقة الأمر يهدمون التوحيد والتنزيه، ويبطلون الحق ويحققون الباطل.

وإنما وقع هؤلاء المتكلمون وغيرهم من أهل البدع والأهواء في هذا الغلط لجهلهم بما جاء به الكتاب والسنة، وهذا الجهل نشأ من إعراضهم عن تدبر كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ، وتركهم لما كان عليه السلف الصالح، وسلوكهم في العقيدة أدلة بآرائهم ظنوها عقلية، وهي جهلية، فغلطوا في الدلائل النقلية والعقلية معاً، فاختلفوا وضلوا ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾ [البقرة: ١٧٦]، ولم يكفهم أنهم لم يهتدوا إلى الحق، ولم يدلوا على الحق، حتى أصلوا أصولاً تناقض الحق وتناصر الباطل[١].

ولهذا اشتد نكير السلف الصالح على أهل الكلام والبدع والأهواء. و«قال بعض أهل السنة: ما كانت بدعة ولا ضلالة إلا كان

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٦/ ٣٨٤ ـ ٣٨٥، ٤٤٠.

مفتاحها وتولدها من الكلام والقول في ذات الله ﷻ وفي صفاته بالمعقول والقياس، وإنما أمور الدين اتباع كلام الله ﷻ، واتباع سنة نبيه ﷺ»[١].

«والسلف إذا ذموا أهل الكلام، وقالوا: علماء الكلام زنادقة[٢]، وما ارتدى أحد بالكلام فأفلح، فلم يريدوا به مطلق الكلام، وإنما هو حقيقة عرفية فيمن يتكلم في الدين بغير طريقة المرسلين»[٣].

فأصل ضلال المتكلمين في باب الاعتقاد هو تكلمهم بكلمات محدثة مجملة لا أصل لها في كتاب الله تعالى ولا في سنة رسوله ﷺ، ولا قاله أحد من أئمة المسلمين[٤]، وتعبيرهم بألفاظ الكتاب والسنة عن معان مخالفة لما أراد الله تعالى ورسوله ﷺ بتلك الألفاظ، وجعلهم التعبير عن المعاني المخالفة بألفاظ الكتاب والسنة حجة لهم وعمدة لهم، ليظهروا بذلك أنهم متابعون للرسول ﷺ لا مخالفون له[٥]، وأكثر المتقلدين لأقوال هؤلاء المتكلمين لا يتصورونها تصوراً تاماً حتى يكون تصورها التام موجباً للعلم بفسادها، وقد يشتهر بعض هذه الأقوال عند طائفة لم يعلموا غيره، فيظنون أنه الحق الذي أراده الله

(١) مقتبس من: الحجة في بيان المحجة، لأبي القاسم التيمي: ٢/ ٤٨٩.

(٢) زنادقة: جمع زنديق، الاسم منه: زندقة، فارسي معرب، يطلق على كل ملحد ينكر الربوبية ووحدانية الخالق، أو يقول بدوام بقاء الدهر، ولا يؤمن بالآخرة. ويطلق أيضاً على من يظهر الإسلام ويبطن نحلة أخرى، وعلى أهل الزيغ والإلحاد من المسلمين.
انظر: لسان العرب، لابن منظور: ٦/ ٩١ ـ ٩٢، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٧/ ٤٧١ ـ ٤٧٢، وفتح الباري، لابن حجر العسقلاني: ١٢/ ٢٧٠ ـ ٢٧١.

(٣) مقتبس من: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٢/ ٤٦٠ ـ ٤٦١.

(٤) انظر: المصدر السابق: ٥/ ٢٦٠. (٥) انظر: المصدر نفسه: ١٧/ ٣٥٢.

تعالى ورسوله ﷺ[(١)].

وهكذا ديدن أهل الباطل يكسون باطلهم من العبارات الرائعة، ويتخيرون له من الألفاظ الرائقة ما يسرع إلى قبوله كل من ليس له بصيرة نافذة، كما هو حال أكثر الناس إلا من وفقه الله وهداه للحق[(٢)].

ولهذا كان من منهج علماء أهل السنة والجماعة الكشف عما في عبارات أهل البدع والأهواء من المعاني الزائفة، وما في كلامهم من المفاهيم الخاطئة، مع بيان الحق الذي يجب اعتقاده في ذلك، إحقاقاً للحق وإبطالاً للباطل، وتحذيراً للمسلمين من الانخداع بزخارف أهل البدع والأهواء، والاغترار بتمويهاتهم وإيهاماتهم.

ويكون التنبيه على المفاهيم الخاطئة في العقيدة وسائر أمور الدين أمراً ضرورياً عند انتشار هذه المفاهيم ووجود كتب مؤلفة فيها ودعاة يروجونها، مع جهل كثير من الناس بحقيقتها وخطورتها.

ولما كان من المشركين بالله تعالى من يدعي تنزيه الله بشركه، ومن أهل البدع والأهواء من يزعمون أنهم ينزهون الله تعالى ويسبحونه ويقدسونه بما أحدثوه من مقالات واعتقادات في الإسلام، كان من المهم جداً التنبيه على هذه المفاهيم الخاطئة في التسبيح والتنزيه، مع بيان وجه خطئها، والرد الصحيح عليها بالنقل المصدق والقول المحقق، بإذن الله تعالى.

وقد شملت هذه المفاهيم الخاطئة في تنزيه الله تعالى معظم الأصول التي ضلت بها الفرق المبتدعة من المسلمين، كما «قال بعض

---

(١) انظر: المصدر نفسه أيضاً: ١٧/ ١٦٤.

(٢) انظر: الصواعق المرسلة، لابن القيم: ٢/ ٤٣٦ ـ ٤٣٧.

العلماء: الأصول التي ضل بها الفرق سبعة أصول: القول في ذات الله سبحانه، والقول في صفاته، والقول في أفعاله، والقول في الوعيد، والقول في الإيمان، والقول في القرآن، والقول في الإمامة»[1].

وسيتجلى ذلك ـ إن شاء الله ـ في هذا الباب الذي يتضمن سبعة فصول، وهي:

الفصل الأول: الرد على تسبيح المشركين بالله تعالى في العبادة.

الفصل الثاني: الرد على تسبيح الممثلة.

المفصل الثالث: الرد على تسبيح المعطلة.

الفصل الرابع: الرد على تسبيح القدرية.

الفصل الخامس: الرد على تسبيح الجبرية.

الفصل السادس: الرد على تسبيح الوعيدية.

الفصل السابع: الرد على تسبيح الصوفية.

وإليك تفاصيل هذه الفصول فصلاً فصلاً:

---

(١) مقتبس من: الحجة في بيان المحجة، لأبي القاسم التيمي: ٢/ ٣٨٢ ـ ٣٨٣.

الفصل الأول

الرد على تسبيح المشركين بالله في العبادة

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: التعريف بالشرك وبيان أنواعه.

المبحث الثاني: مفهوم التسبيح عند المشركين.

المبحث الثالث: إبطال تسبيح المشركين بالله تعالى



المبحث الأول



التعريف بالشرك وبيان أنواعه

وهذا المبحث ضروري لمعرفة المقصود بالمشركين الذين يجري عليهم الكلام في هذا الفصل، وذلك لأن الحكم على الشيء لا يتم إلا بعد تصوره.

فالمشرك: هو من وقع منه الشرك، فهو اسم فاعل من الإشراك، والإشراك: إفعال من الشرك، يقال: أشرك، يشرك، إشراكاً وشركة وشركة، فهو مشرك.

والشرك له معنى في اللغة، وله معنى في الشرع، ويتنوع ـ بحسب معناه الشرعي ـ إلى أنواع عديدة.

والمقام يقتضي بيان ذلك بالقدر المناسب في مطلبين:

المطلب الأول: التعريف بالشرك في اللغة والشرع.

المطلب الثاني: أنواع الشرك في الشرع.

وهما كما يلي:

❖ المطلب الأول ❖

التعريف بالشرك في اللغة والشرع

أولاً: الشرك في اللغة:

تدل مادة (شرك) ـ في اللغة ـ على المقارنة، والمخالطة، والتساوي، والنصيب، وخلاف الانفراد.

فهذه أبرز المعاني التي تستعمل فيها مادة (شرك) بمشتقاتها المختلفة في اللغة[١].

ثانياً: الشرك في الشرع:

والشرك من الألفاظ التي ورد في الشرع استعمالها في معنى خاص، وهو الشرك بالله تعالى، وصار هذا عرفاً شرعياً في لفظ الشرك: سواء ورد مقيداً أو مطلقاً.

فالشرك ـ في الشرع ـ: اسم للإشراك بالله تعالى، وقد ورد في الكتاب والسنة التعبير عن معناه بعبارات مختلفة، منها:

١ ـ قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

ففي هذه الآية ينهى الله تعالى الناس عن أن يجعلوا له أنداداً، والأنداد: هي الأمثال، والأشباه، والنظراء[٢]. والمراد بذلك النهي عن الشرك، كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «وإنما عنى تعالى ذكره بقوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: لا تشركوا بالله غيره من الأنداد التي لا تنفع ولا تضر، وأنتم تعلمون أنه لا رب لكم يرزقكم غيره، وقد علمتم أن الذي يدعوكم إليه الرسول من توحيده هو الحق لا شك فيه»[٣].

---

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس: ٣/ ٢٦٥، ولسان العرب، لابن منظور: ١٠/ ٤٤٨ ـ ٤٥١، مادة (شرك) في كل منهما.

(٢) انظر: مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني ص٧٩٦، وعمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، للسمين الحلبي ص٥٦٧.

(٣) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره: ١/ ١٩٩، وذكره الحافظ ابن كثير في تفسير القرآن العظيم: ١/ ٦١.

٢ ـ وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ①﴾ [الأنعام: ١].

وفي هذه الآية يخبر تعالى عن الذين كفروا أنهم ﴿بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾، وفي هذه العبارة تقديم وتأخير، تقديره: يعدلون بربهم، أي: يجعلون له عدلاً(١)، والعدل: كالند وزنا ومعنى(٢).

وقال الإمام ابن جرير الطبري: «يقال من مساواة الشيء بالشيء: عدلت هذا بهذا، إذا ساويته به، عدلاً»(٣).

وفي التفسير المأثور عن ابن زيد ـ في هذه الآية ـ قال: «الآلهة التي عبدوها عدلوها بالله. قال: وليس لله عدل ولا ند، وليس معه آلهة، ولا اتخذ صاحبة ولا ولدا»(٤).

وعن مجاهد ـ في قوله: ﴿يَعْدِلُونَ﴾ ـ قال: «يشركون»(٥).

٣ ـ وقوله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الحجر: ٩٤ ـ ٩٦].

فقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ وصف للمشركين المستهزئين، ومعناه: الذين يجعلون مع الله شريكاً في العبادة(٦)، لأن (إله) بمعنى مألوه، أي: معبود(٧)، وجمعه: آلهة. قال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا

---

(١) انظر: مجاز القرآن، لأبي عبيدة: ١/ ١٨٥.
(٢) انظر: القاموس المحيط، للفيروز آبادي، مادة (عدل) ص١٣٣٢.
(٣) تفسير الطبري: ٥/ ١٤٤.
(٤) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره: ٥/ ١٤٥.
(٥) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره: ٥/ ١٤٥.
(٦) انظر: تفسير الطبري: ٧/ ٥٥٣.
(٧) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة (أله): ٦/ ٢٢٢٣، والقاموس المحيط، =

مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةً يُعۡبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف: ٤٥].

والآيات القرآنية التي تعبر عن معنى الشرك كثيرة جداً، لا سبيل إلى إيرادها كلها في هذا المقام.

ومما جاء في السنة في التعبير عن معنى الشرك: حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «سألت النبي ﷺ: أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: «**أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك**» الحديث»[١].

وهذه النصوص وغيرها مما ورد في بابها في الكتاب والسنة تدل على أن معنى الشرك ـ في الشرع ـ: هو أن يجعل العبد لله تعالى نداً وعدلاً ومثلاً، أيا كان، وبأي وجه كان، وأن يجعل معه إلهاً آخر يعبده، أيا كان، وبأي نوع من العبادة كان.

وهكذا قرر علماء أهل السنة والجماعة معنى الشرك بالله تعالى، وهم ـ وإن اختلفت عباراتهم في ذلك ـ إلا أنهم متفقون على أن الشرك: هو تسوية المخلوق بالله سبحانه في شيء مما يستحقه ويختص به ولا ينبغي إلا له، في ضوء ما دلت عليه الأدلة الشرعية النقلية والعقلية[٢].

❖ المطلب الثاني ❖

أنواع الشرك في الشرع

وهناك اعتبارات يتنوع بها الشرك في الشرع إلى أنواع عديدة، وذلك أن الشرك أمر يتعلق بالله تعالى، يصدر من العبد، ويتفاوت من

= للفيروز آبادي، مادة (أله) ص١٦٠٣.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٨/ ١٦٣، برقم (٤٤٧٧)، ومسلم في صحيحه: ١/ ٩٠، برقم (٨٦).

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٣/ ١٨ ـ ١٩، ١٦٣، والاستقامة، له: ١/ ٣٤٤.

حيث عظم شره على العبد، ومن حيث كثرة وقوعه في العالم.

فأنواع الشرك في الشرع ـ بحسب هذه الاعتبارات ـ كما يلي:

أولاً: أنواع الشرك باعتبار تعلقه بالله تعالى:

ويتنوع الشرك ـ بهذا الاعتبار ـ إلى ثلاثة أنواع:

شرك يتعلق بذات الله تعالى وأسمائه وصفاته، وشرك يتعلق بربوبية الله تعالى، وشرك يتعلق بإلهية الله تعالى.

أما النوع الأول ـ وهو الشرك المتعلق بذات الله تعالى وأسمائه وصفاته ـ: فهو إثبات شريك أو مثل لله ﷻ في ذاته، أو في شيء من أسمائه وصفاته.

ومن ذلك: شرك النصارى الذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة، فجعلوا المسيح وأمه عليهما السلام إلهين مع الله.

قال سبحانه: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [المائدة: ٧٣].

ومن ذلك: شرك الكفار الذي ادعوا لله تعالى ولداً، فجعلوا له جزءاً؛ لأن الولد لا بد أن يكون من جنس والده.

قال سبحانه: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدٗا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدّٗا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٗا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾ [مريم: ٨٨ ـ ٩٢]. وقال سبحانه: ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًاۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [الزخرف: ١٥].

ومن ذلك: شرك الطغاة من العباد الذين يدعون لأنفسهم الكمال المطلق، والعظمة والكبرياء. أو يدعون لأنفسهم أو لغيرهم علم الغيب، وقد قال الله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [النمل: ٦٥]، وفي الحديث القدسي:

قال رسول الله ﷺ: «**قال الله ﷻ: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النار**»[(١)].

وأما النوع الثاني ـ وهو الشرك المتعلق بربوبية الله تعالى ـ: فهو إثبات فاعل مستقل بشيء من الإحداث غير الله تعالى من حيوان أو جماد، إذ ليس في الوجود فاعل واحد يستقل بفعل شيء دون مانع ولا شريك ولا معين إلا الله وحده، وهو سبحانه المتفرد بالخلق والملك والتدبير والتصرف والعطاء والمنع، والنفع والضر، والرفع والخفض، والإعزاز والإذلال، والإحياء والإماتة، فمن شهد أن غيره يستقل بفعل شيء من ذلك فقد أشرك بربوبيته[(٢)].

ومن هذا النوع: شرك الصابئة[(٣)] الذين يجعلون الكواكب العلوية أرباباً مدبّرة لأمر هذا العالم[(٤)].

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه: ٤/ ٣٥٠، برقم (٤٠٩٠)، وابن ماجه في سننه: ٢/ ١٣٩٧، برقم (٤١٧٤)، كلاهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وأخرجه مسلم في صحيحه: ٤/ ٢٠٢٣، برقم (٢٦٢٠)، من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما بلفظ: «**العز إزاره، والكبرياء رداؤه، فمن ينازعني عذبته**».

(٢) انظر: درء تعارض العقل والنقل، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٧/ ٣٩٠، والتدمرية، له ص٢١١، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١/ ٩٢.

(٣) الصابئة: يقال في اللغة: صبأ الرجل، إذا مال وزاغ، أو خرج من دين إلى دين آخر. ولهذا يطلق هذا الاسم على أصناف من الناس. ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: إن الصابئة نوعان: صابئة حنفاء موحدون، وصابئة مشركون، فالأولون هم الذين أثنى الله تعالى عليهم بقوله [سورة البقرة، الآية ٦٢]، والصابئة المشركون هم عبدة الكواكب، وأصحاب الروحانيات.

انظر: الملل والنحل، للشهرستاني: ٢/ ٥ ـ ٦، والبرهان في معرفة عقائد أهل الأديان، للسكسكي ص٩٢ ـ ٩٣، والرد على المنطقيين، لشيخ الإسلام ابن تيمية ص٢٨٨.

(٤) انظر: الجواب الكافي، لابن القيم ص١٣٥.

وشرك الثنوية[١] من المجوس[٢] الذين يقولون بالأصلين: النور والظلمة، وأن النور خلق الخير، والظلمة خلقت الشر[٣].

وشرك الملاحدة[٤] الذين يجعلون الأسباب الكونية مبدعة للمسببات.

وأما النوع الثالث ـ وهو الشرك المتعلق بإلهية الله تعالى ـ: فهو صرف شيء من العبادة لغير الله تعالى[٥].

وإلهية الله تعالى: هي استحقاقه سبحانه للعبادة، وكون العبادة مختصة به لا تنبغي إلا له وحده، فمن صرف منها شيئاً لغيره، فقد أشرك به في خالص حقه، وجعل معه إلهاً آخراً[٦]، كما قال ﷻ:

---

(١) الثنوية: سموا بذلك لقولهم بإثبات اثنين أزليين: النور إله الخير، والظلمة إله الشر.
انظر: الملل والنحل، للشهرستاني: ١/ ٢٤٤.

(٢) المجوس: هم عبدة النار، بزعم أنها أعظم شيء في الدينا، ويسجدون للشمس إذا طلعت، ويقولون بالأصلين: النور والظلمة، وقد نشأت المجوسية في بلاد الفرس.
انظر: الملل والنحل، للشهرستاني: ١/ ٢٣٠ ـ ٢٣٣، والبرهان، للسكسكي ص٩٠ ـ ٩١.

(٣) انظر: التدمرية ص١٧٨، والجواب الكافي ص١٣٥، وتجريد التوحيد المفيد ص٥٥ ـ ٥٦.

(٤) الملاحدة: جمع ملحد، وهم الذين ينكرون الأديان والرسالات السماوية، وينكرون وجود الخالق. ويطلق هذا الاسم حديثاً، كما كان يطلق اسم الزنادقة قديماً.

(٥) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١/ ٧٤، ٩١، والقول السديد في مقاصد التوحيد، للشيخ عبد الرحمٰن السعدي ص٢٤، ٤٤، ومعارج القبول، للشيخ حافظ الحكمي: ٢/ ٤٥٩.

(٦) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١/ ٨٨ ـ ٨٩ و١٠/ ٢٤٩، =

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾ [البقرة: ١٦٥]، فهذه الآية دلت على أن من أحب شيئاً من دون الله كما يحب الله تعالى فقد أشرك بالله سبحانه، وجعل له نداً[(١)]، وهكذا من دعا شيئاً من دون الله كما يدعو الله تعالى، أو خاف شيئاً من دون الله كما يخاف الله تعالى، أو ذبح لشيء من دون الله كما يذبح لله تعالى، أو خضع لشيء من دون الله ظاهراً أو باطناً كما يخضع لله تعالى.

وبالجملة: فكل اعتقاد أو قول أو عمل ثبت أنه مأمور به شرعاً، فصرفه لله وحده توحيد وإيمان، وصرفه لغيره شرك وكفر[(٢)]، ولا فرق في هذا بين أن تسمى تلك العبادة المصروفة لغير الله تعالى: عبادة، أو تسمى بغير ذلك من الأسماء، فكل ذلك شرك بالله تعالى في الإلهية؛ لأن العبرة بحقائق الأشياء ومعانيها لا بمجرد ألفاظها وعباراتها[(٣)].

وبهذا البيان يعلم أن الشرك المتعلق بإلهية الله تعالى هو شرك في عبادته ومعاملته، وإن كان صاحبه يعتقد أنه سبحانه رب كل شيء، وأنه لا شريك له في ذاته ولا في أسمائه وصفاته[(٤)].

= وبيان تلبيس الجهمية، له: ١/ ٤٨٠، ودرجات الصاعدين إلى مقامات الموحدين، للشيخ محمد بن أحمد الحفظي ـ ضمن عقيدة الموحدين ـ للشيخ عبد الله بن سعدي العبدلي ص٣٠٠.

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١/ ٩٢ و١٠/ ٢٦٥.

(٢) انظر: القول السديد، للشيخ عبد الرحمٰن السعدي ص٤٤.

(٣) انظر: المصدر السابق ص٢٤.

(٤) انظر: الجواب الكافي، لابن القيم: ١٣٤، وتجريد التوحيد المفيد، للمقريزي ص٦٩.

ثانياً: أنواع الشرك باعتبار صدوره من العبد:

كل ما سبق بيانه من أنواع الشرك باعتبار تعلقه بالله تعالى إنما يصدر من العبد الذي يسيء في حق ربه فيشرك به في ذاته أو في أسمائه وصفاته، أو في ربوبيته، أو في إلهيته. وهذا الشرك ـ إذا نظر إليه باعتبار صدوره من العبد ـ تنوع بهذا الاعتبار إلى أربعة أنواع:

شرك في الاعتقادات، وشرك في الأقوال، وشرك في الأفعال، وشرك في الإرادات والنيات(١).

فالنوع الأول ـ الشرك في الاعتقادات ـ: هو الذي يكون صادراً من اعتقاد القلب، كاعتقاد العبد وجود متصرف غير الله تعالى معه في أمور الكون(٢). وكاعتقاد بعض الفلاسفة(٣) قدم العالم، وأنه لم يزل ولا يزال(٤).

والنوع الثاني ـ الشرك في الأقوال ـ: هو الذي يكون صادراً من أقوال اللسان، وقد يقارنه اعتقاد القلب، وقد يكون قولاً بلا اعتقاد، ومن هذا النوع:

---

(١) انظر: الجواب الكافي، لابن القيم ص١٣٧، وتجريد التوحيد المفيد، للمقريزي ص٥٨.

(٢) انظر: معارج القبول، للشيخ حافظ الحكمي: ٢/ ٤٥٩.

(٣) الفلاسفة: جمع فيلسوف، والفيلسوف: كلمة يونانية، بمعنى محب الحكمة، وأصلها (فيلاسوفا)، ف(فيلا) محب، و(سوفا) الحكمة.
والفلاسفة طوائف لهم مذاهب مختلفة، غير أن هذا الاسم صار ـ في عرف كثير من الناس ـ مختصاً بمن خرج عن ديانات الأنبياء، ولم يذهب إلا إلى ما يقتضيه العقل في زعمه.
انظر: الملل والنحل، للشهرستاني: ٢/ ٥٨، وإغاثة اللهفان، لابن القيم الجوزية: ٢/ ٣١١ ـ ٣١٢.

(٤) انظر: درء تعارض العقل والنقل، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ١/ ١٢٢ ـ ١٢٣.

١ ـ الحلف بغير الله تعالى وبغير أسمائه وصفاته.

ففي الحديث: «أن ابن عمر رضي الله عنهما سمع رجلاً يقول: (لا، والكعبة)، فقال ابن عمر: لا يحلف بغير الله، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من حلف بغير الله، فقد كفر أو أشرك**»»(١).

٢ ـ التشريك بين الله وبين خلقه في الألفاظ(٢)، كـ(ما شاء الله وشئت، وأنا متوكل على الله وعليك، وأنا في حسب الله وحسبك، وما لي إلا الله وأنت، وهذا من الله ومنك، وهذا من بركات الله وبركاتك، والله لي في السماء وأنت لي في الأرض، وأرجو الله وفلاناً، ونحو ذلك»(٣).

والنوع الثالث ـ الشرك في الأفعال ـ: هو الذي يكون صادراً من أعمال القلب أو أعمال الجوارح، وقد يقارنه الاعتقاد، وقد يكون شركاً عملياً بلا اعتقاد، ومن ذلك: الخوف من غير الله، والتوكل على غيره، والتوبة والإنابة إلى غيره، والسجود أو الركوع لغيره، والطواف بغير بيته الحرام، وتقبيل الأحجار ونحوها غير الحجر الأسود، وحلق الرأس عبودية لغير الله، ونحو ذلك(٤).

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه: ٣/ ٥٧٠، برقم (٣٢٥١)، والترمذي في سننه: ٤/ ٩٣ ـ ٩٤، برقم (١٥٣٥)، واللفظ له، وعند أبي داود: (**فقد أشرك**) بدون (كفر).
قال الترمذي: «هذا حديث حسن». وصححه الحاكم على شرط الشيخين في المستدرك: ١/ ٦٥ ـ ٦٦، برقم (٤٥)، و٤/ ٣٣٠ ـ ٣٣١، برقم (٧٨١٤)، ووافقه الذهبي في الموضعين. وكذا صححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٦٢٠٤).

(٢) انظر: القول السديد، للسعدي ص١١٩.

(٣) انظر: الجواب الكافي، لابن القيم ص١٣٩ ـ ١٤٠، وتجريد التوحيد المفيد، للمقريزي ص٦٤ ـ ٦٥.

(٤) انظر: الجواب الكافي ص١٣٨، وتجريد التوحيد المفيد ص٥٨ ـ ٥٩.

والنوع الرابع ـ الشرك في الإرادات والنيات ـ: هو الذي يكون صادراً من قصد العبد بأقواله وأعماله التي هي عبادات وطاعات لله تعالى، وذلك بأن يأتي بها العبد وهو لا يقصد بها وجه الله وابتغاء مرضاته والدار الآخرة، وإما يقصد بها الحظ من الدنيا، والمنزلة عند الخلق، فهذا شرك بالله تعالى في القصد والنية والإرادة(١)، وقد قال الله سبحانه: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

فقوله: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ هو ما كان موافقاً لشرع الله. وقوله: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ هو أن يقصد بالعمل الصالح وجه الله تعالى وحده لا شريك له، وهو المعبر عنه بالإخلاص(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه**»(٣).

فقوله: «**أشرك فيه معي غيري**» أي: قصد بعمله غيري من المخلوقين(٤). وقوله: «**تركته وشركه**» في رواية أخرى: «**فأنا منه بريء، وهو للذي أشرك**»(٥).

ثالثاً: أنواع الشرك باعتبار عظم شره:

الشرك كله شر ووبال على صاحبه، ولكنه متفاوت من حيث شدة

---

(١) انظر: الجواب الكافي ص١٤١، وتجريد التوحيد المفيد ص٦٧.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ١١٤.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه: ٤/ ٢٢٨٩، برقم (٢٩٨٥).
(٤) انظر: فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، للشيخ عبد الرحمٰن بن حسن آل الشيخ ص٣٦٩.
(٥) هذه الرواية عند ابن ماجه في سننه: ٢/ ١٤٠٥، برقم (٤٢٠٢).

قبحه، وعظم خطره على العبد، ويتنوع باعتبار ذلك إلى نوعين: شرك أكبر، وشرك أصغر(١).

فالشرك الأكبر: هو الجلي الظاهر(٢)، وهو الشرك الذي يتضمن تسوية المخلوق بالله ﷻ في شيء من خصائصه(٣)، كالربوبية، والألوهية، والأسماء والصفات.

وهذا الشرك الأكبر قبحه أشد، وشره أعظم، فلا يبقى مع صاحبه من التوحيد شيء، ولا يصلح معه من العمل شيء، ويكون صاحبه كافراً خارجاً عن دائرة الإسلام، ولا يغفره الله تعالى إلا بالتوبة منه، وإذا مات عليه صاحبه لا يدخل الجنة، بل يدخل النار خالداً مخلداً فيها، وبئس المصير(٤). قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء: ٤٨]. وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر: ٦٥].

وفي الحديث عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من مات يشرك بالله شيئاً دخل النار**»(٥).

---

(١) انظر: مدارج السالكين: ١/ ٣٤٨، والقول السديد، للسعدي ص٢٤، ومعارج القبول، للشيخ حافظ الحكمي: ٢/ ٤٧٥، ٤٨٩.

(٢) انظر: التوضيح المبين، للسعدي ص١٩٩، وتوضيح الكافية، له ص١٣٤.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١/ ٧٤، ومدارج السالكين، لابن القيم: ١/ ٣٤٨، ومعارج القبول، للحكمي: ٢/ ٤٨٣.

(٤) انظر: القول السديد، للسعدي ص٢٤، والتوضيح المبين لتوحيد الأنبياء والمرسلين، له ص١٩٩.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٣/ ١١٠، برقم (١٢٣٨)، ومسلم =

والشرك الأصغر: هو إشراك شيء مع الله تعالى في القصد، أو اللفظ، أو الفعل، إذا لم يصل إلى رتبة العبادة، ولم يصدر من اعتقاد القلب.

فالإشراك مع الله تعالى في القصد: هو ما ينافي الإخلاص، كالرياء[(١)]، والسمعة[(٢)]، والتصنع للمخلوقين، والعمل لحظ النفس، أو لطلب الدنيا[(٣)].

والإشراك مع الله في اللفظ: هو عطف المخلوق على الله تعالى بما يقتضي الجمع والمشاركة ـ وهو حرف الواو ـ مثل: ما شاء الله وشئت، وأنا بالله وبك، ولولا الله وفلان، ونحو ذلك مما سبق بيانه في الشرك الصادر من أقوال اللسان.

وكذلك نسبة الحوادث إلى غير الله، مع اعتقاد أن الله هو الفاعل لها[(٤)]. والحلف بغير الله[(٥)]. وتعبيد الاسم لغير الله[(٦)]. والتسمي باسم

= في صحيحه: ١/ ٩٤، برقم (٩٢).

(١) الرياء ـ بكسر الراء وتخفيف الياء ممدودة ـ، مشتق من الرؤية، ومعناه: إظهار العبادة لقصد رؤية الناس لها، ليمدحوا صاحبها ويحترموه. وانظر: فتح الباري، للحافظ ابن حجر: ١١/ ٣٣٦، وفي الرياء تفصيل، انظره في: القول السديد، للسعدي ص١٠٨ ـ ١٠٩.

(٢) السمعة ـ بضم السين المهملة، وسكون الميم ـ، مشتقة من السمع، ومعناها: نحو معنى الرياء، لكنها تتعلق بحاسة السمع، والرياء يتعلق بحاسة البصر، ومن السمعة: أن يخفي العمل لله، ثم يحدث به الناس. وانظر: فتح الباري، للحافظ ابن حجر: ١١/ ٣٣٦.

(٣) انظر: الجواب الكافي، لابن القيم ص١٣٦، وتيسير العزيز الحميد، للشيخ سليمان بن عبد الله آل الشيخ ص٥٢٤ ـ ٥٤٢.

(٤) كنسبة السقيا ومجيء المطر إلى الأنواء والنجوم. وانظر: تيسير العزيز الحميد، للشيخ سليمان بن عبد الله آل الشيخ ص٦٣١ ـ ٦٣٦.

(٥) إن لم يقصد بالحلف تعظيم المحلوف به، وإلا صار شركاً أكبر.

(٦) كعبد النبي، وعبد المسيح، وعبد الكعبة، وأشباه ذلك. وانظر: تيسير العزيز الحميد ص٦٣١ ـ ٦٣٦.

فيه نوع مشاركة لله في أسمائه وصفاته[١].

والإشراك مع الله تعالى في الفعل: هو الغلو في المخلوق[٢] وجعل ما ليس سبباً شرعياً ولا قدرياً سبباً لجلب النفع أو دفع الضر[٣]، والتطير[٤]، ونحو ذلك.

وأنواع الشرك الأصغر في الغالب وسائل موصلة إلى الشرك الأكبر، ولهذا عرف بعض أهل العلم الشرك الأصغر بأنه: «كل وسيلة وذريعة يتطرق منها إلى الشرك الأكبر، من الإرادات، والأقوال، والأفعال، التي لم تبلغ رتبة العبادة»[٥].

وسمي هذا الشرك أصغر لأنه أخف خطراً من الشرك الأكبر، فلا يخرج صاحبه عن دائرة الإسلام، ما لم يقترن به ما يجعله شركاً أكبر، ولكنه ـ مع ذلك ـ يعد أكبر الكبائر وأعظم المعاصي بعد الشرك

---

(١) انظر: ما سبق بيانه في ٢/ ٢٢٥ ـ ٢٢٩ من البحث.

(٢) أي: الغلو الذي لا يبلغ رتبة العبادة، كالتبرك بآثار الصالحين، وتقبيل الأحجار والأشجار ونحوها، واستلامها وقصد القبور، والمشاهد لدعاء الله تعالى عندها.
وانظر: كتاب التوحيد، للشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ ومعه القول السديد، للسعدي ـ ص٤٠ ـ ٤٣.

(٣) ومن ذلك: تعليق التمائم، ولبس الحلقة والخيط، واستعمال الرقى التي لا تعلم معانيها. وانظر: المصدر السابق ص٣٤ ـ ٤٠.

(٤) هو التشاؤم بالطيور، والأسماء، والأشخاص، والألفاظ، والبقاع، ونحوها. وصفة ذلك: أن يعزم على أمر من الأمور النافعة في الدين أو في الدنيا، فيرى أو يسمع ما يكره، فيتطير بذلك ويترك ما كان عازماً عليه، أو يمضي فيه مع تأثر قلبه حزناً وهماً وغماً. وانظر: القول السديد، للسعدي ص٨٨ ـ ٩٠.

(٥) القول السديد، للسعدي ص٤٥. وانظر أيضاً: التوضيح المبين لتوحيد الأنبياء والمرسلين، له ص٢٠٠.

الأكبر[(١)]، لأنه يوجب النقص في التوحيد، وينافي كماله الواجب، فصاحبه مذموم ممقوت، مستحق للذم والعقاب[(٢)].

وعلى كل، فالشرك ـ أكبر كان أو أصغر ـ هو أظلم الظلم، وأقبح القبائح، وأنكر المنكرات، وأبغض الأشياء إلى الله تعالى وأكرهها له، وأشدها مقتاً لديه، ولهذا رتب عليه من عقوبات الدنيا والآخرة ما لم يرتبه على ذنب آخر[(٣)].

ومن هنا «كان حقاً على العبد أن يخاف منه أعظم خوف، وأن يسعى في الفرار منه ومن طرقه ووسائله وأسبابه، ويسأل الله العافية منه، كما فعل الأنبياء والأصفياء وخيار الخلق»[(٤)].

رابعاً: أكثر أنواع الشرك وقوعاً في العالم

يتبين من نصوص الكتاب والسنة التي تحكي سير الرسل مع أممهم، ومما جمعه أرباب مقالات الأولين والآخرين في الملل والنحل والآراء والديانات، يتبين من هذه كلها أن أحداً من بني آدم لم ينقل عنه إثبات شريك مع الله تعالى مساو له في جميع الأفعال، ولا في جميع الصفات، ولا إثبات صانعين متكافئين للعالم[(٥)]، بل عامة من

---

(١) انظر: تيسير العزيز الحميد، للشيخ سليمان بن عبد الله ص٥٩٥، وفتح المجيد، للشيخ عبد الرحمٰن بن حسن ص٤١٤.

(٢) انظر: تلخيص كتاب الاستغاثة، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ١/ ٣٠١.

(٣) انظر: إغاثة اللهفان، لابن القيم: ١/ ١٢٠.

(٤) مقتبس من: القول السديد، للشيخ عبد الرحمٰن السعدي ص٢٥.

(٥) أشهر الناس قولاً بإلهين هم المجوس الثنوية، لكنهم متفقون على أن الإله الخير المحمود هو النور الفاعل للخيرات ـ بزعمهم ـ، وأما الظلمة ـ التي هي فاعل الشرور عندهم ـ فلهم فيها قولان: أحدهما: أنها محدثة، فتكون من جملة المخلوقات. والآخر: أنها قديمة كالنور، لكنها لم تفعل إلا الشر، =

أشرك بالله تعالى من بني آدم مقرون بأن الله رب العالمين، وأنه ليس له شريك مثله في الصفات والأفعال، بل عامتهم مقرون بأن الشريك ـ أياً كان ـ مملوك له، كما كان مشركو العرب يقولون في تلبيتهم: «لبيك، لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك»، يقولون هذا وهم يطوفون بالبيت[1].

ومن نقل عنهم جحود الرب ﷻ من الكفار هم قلة جداً، كفرعون وأضرابه، وهم ـ مع ذلك ـ مقرون بالربوبية باطناً، كما قال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل: ١٤]، وبقية المشركين ـ كما سبق ـ يقرون بالربوبية باطناً وظاهراً، كما بينته الأدلة النقلية[2].

وإنما دلت الأدلة وما نقل من مقالات الناس ودياناتهم على أن الشرك الواقع في العالم إنما وقع بجعل بعض المخلوقات مخلوقة لغير الله[3]، وبعبادة غير الله تعالى واتخاذ الوسائط من دونه ودعائها واستغاثتها والتقرب إليها وطلب الحوائج منها[4].

= فكانت ناقصة في ذاتها وصفاتها ومفعولاتها عن النور، فهؤلاء ـ وإن أثبتوا خالقين للعالم ـ لكن لم يجعلوهما متماثلين ولا مشتركين في الفعل، بل يمدحون أحدهما، ويذمون الآخر.

انظر: درء تعارض العقل والنقل، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٩/٣٤٦، والتدمرية، له ص١٧٨.

(١) جاء ذلك في حديث عن ابن عباس رضي الله عنهما، أخرجه مسلم في صحيحه: ٢/ ٨٤٣، برقم (١١٨٦).

(٢) انظر: التدمرية ص١٧٦ ـ ١٧٩، ومعارج القبول، للشيخ حافظ حكمي: ٢/ ٤٧٤.

(٣) انظر: ما سبق من الكلام على الشرك المتعلق بربوبية الله تعالى، في ٢/٣٠٩.

(٤) انظر: درء تعارض العقل والنقل: ٩/٣٤٤، ومدارج السالكين: ١/ ٨٥ ـ ٨٦.

فالأول شرك في الربوبية، وإن لم يتضمن إثبات رب آخر لجميع المخلوقات غير الله تعالى.

والثاني شرك في الإلهية، وهو أكثر أنواع الشرك وقوعاً في العالم، فإن أكثر المشركين ليس شركهم من جهة الربوبية، وإنما شركهم من جهة الإلهية مع إقرارهم بالربوبية، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٦].

عن مجاهد ـ في معنى هذه الآية ـ قال: «إيمانهم قولهم: الله خالقنا، ويرزقنا ويميتنا، فهذا إيمان مع شرك عبادتهم غيره»[١].

وعن عكرمة قال ـ في الآية أيضاً ـ: «يعلمون أنه ربهم، وأنه خلقهم، وهم يشركون به»[٢].

إذاً فالشرك في الإلهية والعبادة هو الغالب على أهل الإشراك بالله تعالى[٣]، «مع أن الشرك في الربوبية لازم لهم، من جهة إشراكهم في الإلهية، وكذا في الأسماء والصفات، إذ أنواع التوحيد متلازمة لا ينفك نوع منها عن الآخر[٤]، وهكذا أضدادها، فمن ضاد نوعاً من أنواع التوحيد بشيء من الشرك، فقد أشرك في الباقي»[٥]، ومثال ذلك: أن من يدعو غير الله ـ كمن يدعو الموتى مثلاً ـ فيقول: يا فلان أغثني، أو افعل بي كذا، ونحو ذلك، فدعاؤه إياه عبادة صرفها له من دون الله تعالى، فهذا شرك في الإلهية. وسؤاله إياه الحاجة من جلب خير، أو

---

(١) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره: ٧/ ٣١٢ ـ ٣١٣.

(٢) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره: ٧/ ٣١٢. وانظر أيضاً: ما سبق من معنى هذه الآية عند بيان أن التسبيح من أصول توحيد الله تعالى في ١/ ٤٩٤.

(٣) انظر: تجريد التوحيد المفيد، للمقريزي ص٥٢.

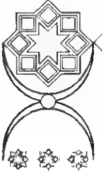
(٤) سبق ذكر أنواع التوحيد مع بيان تلازمها، في ١/ ٤٩٢ ـ ٤٩٥.

(٥) مقتبس من: معارج القبول، للشيخ حافظ الحكمي: ٢/ ٤٧٤ ـ ٤٧٥.

دفع ضر، أو نحو ذلك مما لا يقدر عليه إلا الله، معتقداً أنه قادر على ذلك، هذا شرك في الربوبية، حيث اعتقد أنه متصرف مع الله تعالى في ملكوته. ثم إنه لم يدعه هذا الدعاء إلا مع اعتقاده أنه يسمعه على البعد والقرب في أي وقت كان، وفي أي مكان، وهذا شرك في الأسماء والصفات، حيث أثبت لمدعوه من دون الله سمعاً محيطاً بجميع المسموعات، لا يحجبه قرب ولا بعد، فاستلزم هذا الشرك في الإلهية الشرك في الربوبية وفي الأسماء والصفات[1].

وبهذا يعلم أن الشرك في الإلهية هو أصل شرك العالم، وأنه يستلزم الشرك في الربوبية وفي الأسماء والصفات، ولهذا كان توحيد الله في الإلهية هو المطلوب من العباد، وهو أساس دعوات الأنبياء والرسل من لدن آدم عليه السلام إلى خاتم النبيين محمد ﷺ، وهو متضمن لتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، فمن وحد الله تعالى في الإلهية، كما هو مطلوب شرعاً، وحده في الربوبية وفي الأسماء والصفات لزوماً، ومن أخل بتوحيد الإلهية أخل بتوحيد الربوبية وبتوحيد الأسماء والصفات ولا بد.

(١) انظر: المصدر السابق: ٢/ ٤٧٥، ٤٨٦.




المبحث الثاني

مفهوم التسبيح عند المشركين

وإن المرء ليعجب أن يكون أكثر الناس مشركين بالله تعالى في العبادة مع إقرارهم بربوبيته، ومع ظهور دلائل ألوهيته ووحدانيته، ومع أن قبح الشرك مستقر في العقول السليمة والفطر القويمة.

وما ذلك إلا أن الشيطان ـ عدو الإنسان ـ قد تلاعب بعقول كثير من الناس، فأغواهم وأوقعهم في شَرَك الشرك بالله تعالى، وزين لهم عبادة غير الله بدعاوي فاسدة وظنون كاذبة، حتى عموا وصموا عن قبح الشرك وخطره، وحسبوه أمراً حسناً، وطريقة مرضية عند الله سبحانه.

ومن هنا ادعى كثير من المشركين أنهم ينزهون الله تعالى عما لا يليق به بصرفهم العبادة عنه إلى غيره، وأنهم لا يقصدون بعبادة غيره إلا تعظيم جنابه ورعاية جلاله، وقالوا: إن عظمة الرب وجلاله يقتضي أن لا يتقرب إليه العبد إلا بواسطة وحجاب، وإن التقرب إليه ابتداء من غير شفعاء ووسائط غض من جنابه الرفيع، واستهانة بجلاله العظيم(١).

وقد أشار كثير من أهل العلم إلى هذا التنزيه والتعظيم الذي ادعاه المشركون في شركهم بالله تعالى في الإلهية، ومن ذلك:

١ ـ قول الإمام عبد الرحمٰن بن مهدي(٢): «هل هلك المجوس

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ٧٠، ١٣٣.

(٢) هو عبد الرحمٰن بن مهدي بن حسان العنبري مولاهم، أبو سعيد البصري، =

إلا من جهة التعظيم؟ قالوا: الله أعظم من أن نعبده، ولكن نعبد من هو أقرب إليه منا، فعبدوا الشمس وسجدوا لها، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]» اهـ(١).

٢ ـ وقول ابن سيده(٢): «غلط عبدة الأوثان فقالوا: الله أجل من أن يقصد بالعبادة، وإنما ينبغي أن نتخذ واسطة تجعل لنا عنده المنزلة، فعبدوا لذلك الأوثان، واتخذوا الأنداد» اهـ(٣).

٣ ـ وقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ في كلام له عن مقالات أهل الباطل ـ: «وكقول عبدة الأوثان: هو أجل من أن نعبده، بل نعبد الوسائط. وهو أجل من أن يبعث بشراً رسولاً، فجحدوا توحيده ورسالته على وجه التعظيم له» اهـ(٤).

٤ ـ وقول العلامة ابن قيم الجوزية ـ في كلام له عن أرباب الحيل الباطل ـ: «وأخرج المشركون شركهم في قالب التعظيم لله، وأنه أجل من أن يتقرب إليه بغير وسائط وشفعاء وآلهة تقربهم إليه» اهـ(٥).

= الحافظ الكبير، الإمام العلم الشهير، كان من أعلم الناس بالحديث، وكان فقيهاً بصيراً بالفتوى، توفي سنة (١٩٨هـ) رحمه الله.
انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي: ١/ ٣٢٩ ـ ٣٣٢، وتقريب التهذيب، لابن حجر العسقلاني: ١/ ٤٦٣.

(١) ذكره الإمام أبو القاسم التيمي في الحجة في بيان المحجة: ١/ ٤٤٠.

(٢) هو علي بن إسماعيل المرسي، أبو الحسن، الضرير، المعروف بابن سيده، أحد من يضرب بذكائه المثل، كان إماماً في اللغة والعربية حافظاً لهما، وقد تكلم فيه في أشياء، وكانت وفاته سنة (٤٥٨هـ) رحمه الله.
انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: ١٨/ ١٤٤ ـ ١٤٦.

(٣) المخصص: ١٦/ ١٦٢.

(٤) جامع الرسائل: ١/ ١٠٧.

(٥) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان: ٢/ ٩٤.

ويتبين ـ بالتأمل فيما سبق ـ أن التسبيح الشركي مداره على أمرين بهما سوغ المشركون عبادة غير الله تعالى، واعتبروها تعظيماً لله سبحانه:

أحدهما: زعمهم أن الله تعالى لعظمته وجلاله لا ينبغي للعبد الدخول عليه إلا بوسائط وشفعاء، وأن العبد أقل شأناً وأحقر منزلة من أن يتوجه مباشرة بالعبادة إلى الله تعالى(١).

وقد وضع الإمام ابن قيم الجوزية تصوراً لهذا الأمر، حيث قال:

«هذا وثان قال أنت مليكنا ... وسواك لا نرضاه من سلطان
إذ حزت أوصاف الكمال جميعها ... ولأجل ذا دانت لك الثقلان
وقد استويت على سرير الملك ... واستوليت مع هذا على البلدان
لكن بابك ليس يغشاه امرؤ ... إن لم يجيء بالشافع المعوان
ويذل للبواب والحجاب والشفعاء ... أهل القرب والإحسان»(٢)

الثاني: زعمهم أن هناك وسائط وشفعاء ذوي وجاهة عند الله تعالى وقربى لديه، وينبغي للعبد أن يخضع لهم ويدعوهم ويعبدهم ليقربوه إلى الله زلفى، ويشفعوا له عنده، ويرفعوا حوائجه إليه، ويتوجهوا بجاههم عنده في قضائها، كما هو المعهود في الدنيا من حصول الزلفى والكرامة لمن يخدم أعوان الملك وأقاربه وخاصته(٣).

---

(١) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم: ٢/٢٤١، والانتصار لحزب الله الموحدين، للشيخ عبد الله بن عبد الرحمٰن أبا بطين ـ ضمن عقيدة الموحدين ـ ص١١، وشرح القصيدة النونية لهراس: ٢/٣٠٧.

(٢) الكافية الشافية (القصيدة النونية) ص٣٤٣.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٤/٤١٤، وتجريد التوحيد المفيد، للمقريزي ص٥٢، وتوضيح الكافية الشافية، للسعدي ص١٦٨، والقول السديد، له ص٦٠، ٦١.

وهذا ما ذكره الله في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، وفي قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

فالمشرك ـ بهذا ـ لم يقصد الاستهانة بجناب الربوبية، وإنما قصد تعظيمه، وقال: إنما أعبد هذه الوسائط لتقربني إليه، وتدخلني عليه، فهو المقصود، وهذه وسائط وشفعاء(١).

وقد تفرقت بالمشركين السبل فيما اتخذوه وسائط وشفعاء عبدوها من دون الله، وتلاعب الشيطان بكل قوم في ذلك على قدر عقولهم، فلا يكاد يوجد نوع من أنواع المخلوقات إلا وقد عبد من دون الله تعالى(٢)، كما بين الله تعالى في كتابه: الشرك بالملائكة، والشرك بالأنبياء، والشرك بالصالحين، والشرك بالجن، والشرك بالحيوان، والشرك بالكواكب، والشرك بالأصنام(٣).

«وأصل الشرك في بني آدم كان من الشرك بالصالحين المعظمين، فإنهم لما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم، ثم عبدوهم. فهذا أول شرك كان في بني آدم، وكان في قوم نوح عليه السلام، فإنه أول رسول بعث إلى أهل الأرض يدعوهم إلى التوحيد، وينهاهم عن الشرك، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا﴾ [نوح: ٢٣، ٢٤]، وهذه أسماء قوم صالحين، كانوا في قوم نوح، فلما ماتوا جعلوا الأصنام على صورهم، ثم ذهبت هذه

---

(١) انظر: الجواب الكافي، لابن القيم ص١٣٤، وتجريد التوحيد المفيد، للمقريزي ص٦٧.
(٢) انظر: إغاثة اللهفان، لاين القيم: ٢/ ٢٧٠، فما بعدها.
(٣) انظر: التدمرية، لشيخ الإسلام ابن تيمية ص١٧٥.

الأصنام لما أغرق الله أهل الأرض، ثم صارت إلى العرب ـ كما ذكر ذلك ابن عباس وغيره[١] ـ، إن لم تكن أعيانها، وإلا فهي نظائرها»[٢].

فالشرك في قوم نوح كان أصله من عبادة الصالحين ـ أهل القبور ـ، فكان شركهم بأهل الأرض.

ثم في قوم إبراهيم عليه السلام انتقلوا إلى الشرك بالسماويات، فكانوا يعبدون الكواكب السماوية، ويتخذون لها أصناماً أرضية، بحسب ما رأوه من طبائعها، فيضعون لكل كوكب طعاماً وخاتماً وبخوراً ولباساً وأموالاً تناسبه، وإذا تقربوا إليه تختموا بخاتمه الخاص به، وتبخروا ببخوره، ولبسوا لباسه، وتضرعوا بدعائه[٣].

وهكذا تعددت معبودات المشركين وتنوعت، فكان منها العاقل، كالملائكة، والجن، والآدميين. وكان منها غير العاقل، كالحيوانات، والجمادات، والنيران، والكواكب، وغير ذلك.

وصرح بعض المشركين بأن معبوده هو الإله على الحقيقة، وادعى بعضهم أن معبوده هو أكبر الآلهة، وزعم بعضهم أن معبوده إله من جملة الآلهة، واعتقد بعضهم أن معبوده الأدنى يقربه إلى الإله الذي هو فوقه، والفوقاني يقربه إلى من هو فوقه، حتى تقربه تلك الآلهة إلى الله الأعلى، فتارة تكثر الآلهة، والوسائط، وتارة تقل[٤].

---

(١) قول ابن عباس رضي الله عنهما رواه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٨/ ٦٦٧، برقم (٤٩٢٠).

وانظر بقية الأقوال في: تفسير الطبري: ١٢/ ٢٥٤.

(٢) مقتبس من: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٤/ ٣٦٣.

(٣) انظر: الملل والنحل، للشهرستاني، ٢/ ٦، ٤٩ ـ ٥١، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ٢٥٤ ـ ٢٥٦.

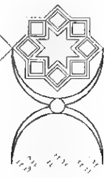
(٤) انظر: الجواب الكافي، لابن القيم ص١٣٥ ـ ١٣٦.

ولما تمكن الشيطان من إيقاع المشركين في الشرك بالله تعالى بدعوى التعظيم والتنزيه، تدرج بهم إلى أن ردوا توحيد الإلهية الذي دعا إليه الأنبياء والمرسلون، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾﴾ [الصافات: ٣٥، ٣٦]، وقال تعالى أيضاً: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ [ص: ٤، ٥].

وإذا كان هذا هو مفهوم التسبيح عند المشركين الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله، فأشنع بمن ينتسب إلى الإسلام ويقول: لا إله إلا الله وهو يجعل بينه وبين الله تعالى واسطة حياً أو ميتاً، يدعوه من دون الله ويصرف له بعض أنواع العبادة، فيسجد له، أو ينذر له، أو يذبح له، أو يتوب إليه، أو يتوكل عليه، أو يخافه، أو يحلف به، أو يطيعه طاعة مطلقة، في ما يأمره به وينهاه عنه دون معرفة ما إذا كان ذلك موافقاً لما جاء به الرسول ﷺ من عند الله تعالى أو لا، ولا يرى أن هذا شرك بالله تعالى، ولا أنه اتخذه من دون الله إلهاً آخر، بل يدعي أنه لم يعتقد أن هذه الواسطة هي المدبرة له، وإنما توسل به إلى الله تعالى لما له من جاه ومنزلة عند الله، وتقرب إليه ليقربه إلى الله زلفى، ويشفع له عنده.

فهذا حال فريق ممن يدعي الإسلام، وإذا طولبوا بالفرق بينهم وبين المشركين، قالوا: المشركون هم الذين يعبدون الأصنام، ويعتقدون فيها الإلهية، ولا يشهدون أن لا إله إلا الله، ولا يؤمنون برسول الله ﷺ. وأما من قال: لا إله إلا الله، وآمن بالرسول ﷺ، فإنه لا يكون مشركاً إذا توجه بالدعاء والطلب أو نوع من أنواع العبادة إلى الأنبياء أو الأولياء، ولا يسمى ذلك شركاً ما دام هو لا يعتقد الربوبية والإلهية في هؤلاء المعبودين.

ومن هنا يعلم أن دعوى تسبيح الله وتعظيمه بالشرك به في العبادة ليست موجودة فقط في المشركين المكذبين بالرسل ﷺ، بل هي موجودة أيضاً في فريق ممن ينتسب إلى الإسلام، مع أن بطلان هذا التسبيح الشركي من الحقائق المعلومة بالضرورة في الإسلام، كما سيتم بيانه ـ إن شاء الله ـ في المبحث التالي.

المبحث الثالث

إبطال تسبيح المشركين بالله تعالى

إن من أبطل الباطل وأشده تشويهاً للحقائق دعوى المشركين أن اتخاذهم وسائل ووسائط بينهم وبين الله تعالى في العبادة هو تعظيم لجنابه ورعاية لجلاله، وزعمهم أن هذه الوسائل والوسائط تقربهم إلى الله زلفى، وتشفع لهم عنده.

والأدلة التي تدل على بطلان هذه الدعوى وهذا الزعم كثيرة جداً في الكتاب والسنة، ويستفاد من تلك الأدلة الكثيرة أن ما ادعاه المشركون من التعظيم والإجلال، وما أثبتوه لوسطائهم من الشفاعة والتقريب إلى الله تعالى باطل من أوجه عديدة:

الوجه الأول: أن الله تعالى لم يشرع عبادة شيء آخر سواه، ولم يجعل لغيره نصيباً في شيء من العبادة، بل أمر عباده أن يعبدوه وحده ولا يشركوا به شيئاً، وبعث رسله وأنزل كتبه لتقرير ذلك والدعوة إليه.

قال الله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأنعام: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ [الرعد: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[1] [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ

---

(١) الطاغوت: اسم لكل ما عبد من دون الله تعالى، فكل مشرك إلهه طاغوته. =

﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وكل من أرسله الله تعالى من الرسل يقول لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾(١).

ونظائر هذه النصوص كثيرة جداً في القرآن الكريم، وكذلك في الأحاديث النبوية، وكلها تبين أن الله سبحانه لم يشرع عبادة غيره قط، ولا أذن في ذلك(٢)، وتبين أنه لا معبود بحق إلا الله ﷻ، وأنه لا يستحق أن يعبد أحد سواه(٣)، وأن إلهية ما سواه باطل ومحال، كما أن ربوبية ما سواه كذلك، فلا أحد سواه يستحق أن يؤله ويعبد، ويصلى له ويسجد، ويستحق نهاية الحب مع نهاية الذل، لكماله في ذاته وفي أسمائه وصفاته وفي أقواله وأفعاله، فهو المعبود بحق وحده، وكل عبودية لغيره باطلة(٤)، وهذا معنى (لا إله إلا الله) التي هي كلمة التوحيد، وقلب الإيمان، وقطب رحى الدين وأصل أصوله، وأوله وآخره، وظاهره وباطنه، وهو الإسلام العام الذي اتفق عليه جميع النبيين(٥).

الوجه الثاني: أن الله ﷻ أثبت لنفسه حقا لا يشركه فيه مخلوق،

= انظر: مدارج السالكين: ٣/ ٤٤٧.

(١) ذكر الله تعالى ذلك عن نوح، وهود، وصالح، وشعيب عليهم السلام كما في سورة الأعراف، الآيات (٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥)، وسورة هود، الآيات (٥٠، ٦١، ٨٤).

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٠/ ١٠٧، ودرء تعارض العقل والنقل: ٧/ ٣٩٢.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١/ ٨٩.

(٤) انظر: طريق الهجرتين، لابن القيم ص٨٤.

(٥) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١/ ٢١، ٧٠، ٧١ و١٨/ ١٦٠، ومدارج السالكين، لابن القيم: ٣/ ٤٤٩.

كما في الحديث عن معاذ بن جبل[(١)] رضي الله عنه قال: «كنت ردف[(٢)] النبي ﷺ على حمار يقال له: عُفَير، فقال: **«يا معاذ، هل تدري حقّ الله على عباده، وما حقّ العباد على الله؟»** قلت: الله ورسوله أعلم. قال: **«فإن حقّ الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحقّ العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً»**. قلت: يا رسول الله، أفلا أبشر به الناس؟ قال: **«لا تبشرهم فيتّكلوا»**»[(٣)].

فهذا الحديث دليل على أن العبادة حق خالص لله تعالى، فليس لأحد أن يعبد إلا الله وحده، فلا يصلي إلا لله، ولا يصوم إلا له، ولا يحج إلا بيت الله، ولا يطوف إلا به، ولا يحلق الرأس عبودية إلا لله، ولا يتوكل إلا على الله، ولا يخاف إلا الله، ولا ينذر إلا لله، ولا يحلف إلا بالله، ولا يستغفر إلا الله، ولا يسبح إلا إياه، وكذلك سائر أنواع العبادات الاعتقادية والقولية والعملية، كل ذلك محض حق الله الذي لا يصلح إلا له وحده، ولا ينبغي لسواه، لا لملك مقرب، ولا لنبي مرسل، ولا لولي صالح، فضلاً عمن دون هؤلاء من العقلاء والحيوانات والجمادات[(٤)].

---

(١) هو معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الأنصاري الخزرجي، أبو عبد الرحمٰن، من أعيان الصحابة، شهد بدراً والمشاهد كلها، وكان إليه المنتهى في العلم بالقرآن والحلال والحرام، وأمره النبي ﷺ على اليمن، وقدم من اليمن في خلافة أبي بكر الصديق، ومناقبه كثيرة جداً، وتوفي بالطاعون في الشام، سنة (١٨هـ) رضي الله عنه، انظر: الإصابة، لابن حجر، ٦/١٣٦ ـ ١٣٨، وتقريب التهذيب، له: ٢/٢٦٢.

(٢) الردف ـ بكسر الراء وسكون الدال ـ: الراكب خلف الراكب، ويقال: الرديف، والمرتدف. انظر: القاموس المحيط، للفيروز آبادي، مادة (ردف) ص١٠٤٩.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٨/٥٨، برقم (٢٨٥٦)، ومسلم في صحيحه: ١/٥٨، برقم (٣٠).

(٤) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١/٧٤ ـ ٧٥، ٨٠ ـ ٨١، =

الوجه الثالث: أن الله تعالى لم يأمر خلقه باتخاذ وسائط بينه وبينهم في العبادة ولا في الطلب وقضاء الحوائج، بل أمر بالتوجه إليه وحده بذلك كله.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: ١٨٦].

فأخبر تعالى عن نفسه أنه قريب من عابده وسائله إذا دعاه، والدعاء يتناول: دعاء العبادة، ودعاء المسألة[1]. وقوله: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ أي: بالطاعة، ﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ أني أثيبهم على الطاعة، وأجيب دعاءهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ أي: يهتدون[2].

وقال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل: ٦٢].

فنبه تعالى على أنه هو المدعو عند الشدائد، والمرجو عند النوازل، وأنه الذي يكشف البلاء، لبيان أن العبادة والتضرع والاستغاثة ينبغي أن تكون له وحده، ولهذا قال: ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمٰن: ٢٩].

فبين تعالى أنه إليه يفزع بمسألة الحاجات كل من في السموات والأرض من ملك وإنس وجن وغيرهم، لا غنى بأحد منهم عنه، وهو

= والجواب الكافي، لابن القيم ص١٤٠.

(١) انظر: تفسير الطبري: ٢/١٦٧، وتيسير الكريم الرحمٰن، للسعدي ص٨٧.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ٢/١٦٦ ـ ١٦٧، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١/١٣٥.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/٣٨٢ ـ ٣٨٤.

تعالى كل يوم هو في شأن خلقه، يدبر أمورهم، ويقضي حوائجهم، ويصلح أحوالهم، وينفذ فيهم قضاءه وقدره[(١)].

فهذه الآيات وغيرها دالة على أن إجابة الدعاء، وكشف البلاء، وقضاء حوائج الخلق، ونحو ذلك، الله تعالى هو المتفرد بذلك، الذي يسمع ويرى، ويعلم السر والنجوى، وهو القادر على إنزال النعم وإزالة النقم من غير احتياج إلى أن يعرفه أحد أحوال عباده، أو يعينه على قضاء حوائجهم[(٢)]، وهو سبحانه كاف عباده، فليسوا معه في حاجة إلى غيره في قليل ولا كثير، ولا يسير ولا عسير، بل ليس لهم وجود ولا قيام، ولا حول ولا قوة إلا به ﷻ.

وقد بين تعالى هذا كله في كتابه، وحسم مواد الإشراك به، فلا يجوز للعبد أن يجعل بينه وبين ربه تعالى واسطة يدعوه أو يرجوه أو يتوكل عليه ـ وإن ظن أن ذلك سبب في حصول بعض حوائجه ـ لأن الله يجيب دعوة المضطر ولو كان كافراً، وقد يحصل بالشرك والفسوق بعض أغراض الإنسان، فيظن الجاهل أن لذلك تأثيراً في حصولها، ويظن أن فعله مرضي لله تعالى[(٣)].

فليس كل من أجاب الله دعاءه، أو قضى حاجته، يكون راضياً عنه، ولا راضياً عن فعله، فإنه سبحانه يعطي المؤمن والكافر، والبر والفاجر، كما قال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء: ٢٠][(٤)].

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ١١/٥٩١ ـ ٥٩٢.

(٢) انظر: تلخيص كتاب الاستغاثة، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ١/١٤١.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١/١٣٧ ـ ١٣٨، وإغاثة اللهفان، لابن القيم: ١/٣٣١ ـ ٣٣٢.

(٤) انظر: إغاثة اللهفان، لابن القيم: ١/٣٣١ ـ ٣٣٢.

الوجه الرابع: أن الله تعالى قد ذم الذين يتخذون الملائكة والأنبياء أرباباً من دونه، في قوله: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران: ٨٠]، فبين سبحانه أن اتخاذ الملائكة والنبيين أرباباً كفر.

ومعلوم أن أحداً من الخلق لم يزعم أن الملائكة والنبيين شاركوا الله تعالى في خلق السماوات والأرض[١]، وإنما عبدهم بعض الناس مع الله تعالى وزعموا أنهم يتقربون بعبادتهم إياهم إلى الله تعالى.

فمن جعل الملائكة والأنبياء وسائط يدعوهم، ويتوكل عليهم، ويسألهم جلب المنافع ودفع المضار، مثل: أن يسألهم غفران الذنوب، وهداية القلوب، وتفريج الكروب، وسد الفاقات، ونحو ذلك، فهو كافر بإجماع المسلمين.

ومن سوى الملائكة والأنبياء ـ من الأولياء والصالحين ومشايخ العلم والدين ـ من أثبتهم وسائط بين الله تعالى وبين خلقه، بحيث يكونون هم يرفعون إلى الله حوائج خلقه، فالله إنما يهدي عباده ويرزقهم بتوسطهم، فالخلق يسألونهم، وهم يسألون الله، كما أن الوسائط عند ملوك الدنيا يسألون الملوك الحوائج للناس، لقربهم منهم، والناس يسألونهم أدباً منهم أن يباشروا سؤال الملك، أو لأن طلبهم من الوسائط أنفع لهم من طلبهم من الملك مباشرة، لكون هؤلاء الوسائط أقرب إلى الملك من الطالب للحوائج، فمن أثبت بين الله تعالى وبين خلقه وسائط على هذا الوجه، فهو كافر مشرك، يجب أن يستتاب، فإن تاب وإلا قتل[٢].

---

(١) انظر: التدمرية، لشيخ الإسلام ابن تيمية ص١٧٦.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١/١٢٤ ـ ١٢٦.

ولا شك أن الملائكة والنبيين أقرب إلى الله تعالى من غيرهم من العباد، وأن سائر العباد بعضهم أقرب إلى الله تعالى من بعض، بحسب كمال الإيمان، وكمال الإخلاص لله تعالى، وكمال المتابعة للأنبياء والمرسلين، ولكن لا يجوز أن يجعل من يعلم أو يظن أنه أقرب إلى الله تعالى واسطة يدعى ويطلب منه قضاء الحوائج، ويرغب إليه، ويتوكل عليه، ويفعل له غير ذلك من أنواع العبادة؛ لأن الله تعالى لم يأذن بجعل أحد من خلقه واسطة إليه، بل بين أن ذلك كفر وشرك، كما سبق بيانه.

وقول بعض الضلال: هذا أقرب إلى الله مني، وأنا بعيد من الله، لا يمكنني أن أدعوه إلا بهذه الواسطة ونحو ذلك، هو من الأقوال الباطلة المخالفة لدين الله تعالى(١).

ويقال لهذا المشرك: إذا دعوت هذا الذي ترى أنه أقرب إلى الله منك، فإن كنت تظن أنه أعلم بحالك، وأقدر على عطاء سؤالك، أو أرحم بك من ربك، فهذا جهل وضلال وكفر. وإن كنت تعلم أن الله تعالى أعلم وأقدر وأرحم، فلماذا عدلت عن التوجه إليه بالسؤال إلى سؤال غيره؟!.

فإن قال: هذا إذا دعا الله تعالى أجاب دعاءه أعظم مما يجيبه إذا دعوته أنا، قيل له: هذا إنما يجوز إذا كان حياً، فتطلب منه أن يدعو لك، كما كان الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ يطلبون من النبي ﷺ الدعاء، فهذا مشروع في الحي، وأما الميت والغائب، فلم يشرع لنا أن نقول: ادع لنا، ولا اسأل لنا ربك، ولا نحو ذلك، ولم يفعل هذا أحد

---

(١) انظر: اللمعة في الأجوبة السبعة، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق سليمان بن صالح الغصن: ٣٣.

من الصحابة والتابعين، ولا أجازه أحد من أئمة الدين المتبوعين[(١)].

وهذا مما يظهر به الفرق بين سؤال النبي والرجل الصالح في حياته، وبين سؤاله بعد موته أو في مغيبه؛ لأن الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ والصالحين ـ إذا كانوا أحياء ـ لا يتركون أحداً يشرك بهم بحضورهم، بل ينهون عن ذلك[(٢)].

والمقصود أن من عدل عما أمر الله تعالى به وبلغته رسله الكرام من عبادة الله وحده، والتوكل عليه، والرغبة إليه، وإخلاص الدين له، من عدل عن هذا التوحيد إلى اتخاذ الملائكة والأنبياء والصالحين وسائط يسألهم ويستغيث بهم ويصرف إليهم شيئاً من العبادة فقد كفر وأشرك بإجماع المسلمين.

الوجه الخامس: أن الشرك الذي كفر الله تعالى به المشركين، وأباح به دماءهم وأموالهم، وأوجب لهم به النار، إنما كان باتخاذهم من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله، ويستجلبون بعبادتها المنافع، ويستدفعون بها المضار، ويستشفعون بها إلى الله تعالى، ويجعلونها وسائط بينهم وبينه سبحانه، ويزعمون أنها تقربهم إليه[(٣)].

وقد أخبر الله تعالى عن المشركين بذلك، فقال سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ﴾ [البقرة: ١٦٥]، فهذه الآية تدل على أن من أحب شيئاً من دون الله كما يحب الله تعالى فقد أشرك[(٤)].

---

(١) انظر: المصدر السابق ص٣٤ ـ ٣٧، وتلخيص كتاب الاستغاثة، له ١/ ٢٢٤.
(٢) انظر: اللمعة في الأجوبة السبعة ص٤٢.
(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١/ ٩٢، ١٢٣ و١٤/ ٣٧٧ ـ ٣٧٨، ودرء تعارض العقل والنقل، له: ٧/ ٣٩١.
(٤) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١/ ٩٢.

وقال سبحانه: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

وقال سبحانه: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، وهذا التقريب الذي ادعاه المشركون لأوليائهم هو الشفاعة، يعني: ما نعبدهم إلا ليرفعوا حوائجنا إلى الله، ويشفعوا لنا عنده، والزلفى: القربى والمنزلة(١).

فهذه الآيات المذكورة ونحوها مما جاء في كتاب الله تعالى تبين بوضوح أن اتخاذ الوسائط والشفعاء من دون الله تعالى، واستجلاب المنافع أو استدفاع المضار بهم، هو من أعظم الشرك بالله تعالى، ومن أكبر ما ينافي التنزيه والتعظيم لله تعالى، ومن أجل ذلك كان هذا الفعل من أبغض الأشياء إليه سبحانه، وكان مقته تعالى للفاعلين لذلك أكبر من مقتهم لأنفسهم عندما يلقون سوء المصير يوم القيامة، كما قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾﴾ [غافر: ١٠].

الوجه السادس: أن الأسباب التي تعلق بها المشركون وتعللوا بها في شركهم بالله تعالى قد دل الكتاب والسنة على أنها كلها أسباب مقطوعة، وأنها لا حقيقة لها، وإنما هي أوهام خادعة، وظنون كاذبة، وأهواء ضالة عن العقل والهدى، فهم مع وسائطهم وشفعائهم التي اتخذوها من دون الله كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [العنكبوت: ٤١].

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ١٠/ ٦١١، والتوضيح عن توحيد الخلاق، المنسوب للشيخ سليمان بن عبد الله آل الشيخ ص٨٩ ـ ٩٠، وتيسير الكريم الرحمٰن، للسعدي ص٧١٨.

وعن قتادة ـ في تفسير هذه الآية ـ قال: «هذا مثل ضربه الله للمشركين، مثل إلهه الذي يدعوه من دون الله كمثل بيت العنكبوت واهن ضعيف لا ينفعه» اهـ[(١)].

وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ يعني: لو كان هؤلاء المشركون يعلمون حقيقة العلم حالهم وحال أوليائهم الذين اتخذوهم من دون الله تعالى ـ في عدم غنائهم عنهم، وعدم قدرتهم على تحقيق مطالبهم ـ لما اتخذوهم أولياء، ولتولوا الله رب العالمين وحده دون من سواه[(٢)].

وقال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾ [السجدة: ٤]، فأخبر سبحانه أنه ليس لخلقه من دونه ولي ولا شفيع، والولي: الذي يتولى أمرك كله، وينصرك ممن أراد بك ضراً. والشفيع: الذي يكون شافعاً فيه، أي: عوناً[(٣)].

وقوله: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: «أفلا تعتبرون وتتفكرون ـ أيها الناس ـ فتعلموا أنه ليس لكم من دونه ولي ولا شفيع، فتفردوا له الألوهية، وتخلصوا له العبادة، وتخلعوا ما دونه من الأنداد والآلهة»[(٤)].

وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء: ٥٦، ٥٧].

---

(١) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره: ١٠/ ١٤٣.
(٢) انظر: تفسير الطبري: ١٠/ ١٤٣، وتيسير الكريم الرحمٰن، للسعدي ص٦٣١.
(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١/ ٧٣.
(٤) مقتبس من: تفسير الطبري: ١٠/ ٢٣٠.

قالت طائفة من السلف: كان أقوام يدعون عزيراً، والمسيح، والملائكة فأنزل الله تعالى هذه الآية، بين فيها أن الملائكة والأنبياء لا يملكون كشف الضر عنهم، ولا تحويله عنهم إلى غيرهم. وأنهم يتقربون إلى الله تعالى، ويرجون رحمته، ويخافون عذابه(١). وإذا كان هذا حال من يدعون من دون الله تعالى من الملائكة والأنبياء فكيف بمن دونهم من الخلق؟(٢).

وقالت طائفة أخرى من السلف: كان ناس من الإنس يعبدون نفراً من الجن، فأسلم الجن، والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون بإسلامهم، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية(٣).

وكل هذه الأقوال حق، فإن الآية تعم كل من كان معبوده عابداً لله تعالى، سواء كان من الملائكة، أو من الجن، أو من البشر.

وهي أيضاً خطاب لكل من دعا من دون الله مدعواً وذلك المدعو يبتغي إلى الله الوسيلة، ويرجو رحمته، ويخاف عذابه، ولكل من دعا ميتاً أو غائباً من الأنبياء والصالحين، فإن هؤلاء كلهم يكونون وسائط فيما يقدره الله تعالى بأفعالهم، ومع هذا فقد نهى الله تعالى عن دعائهم، وبيّن أنهم لا يملكون كشف الضرّ عن الداعين لهم ولا تحويله،

---

(١) روى ابن جرير الطبري عدة روايات في هذا المعنى عن ابن عباس، ومجاهد [تفسير الطبري: ٨/ ٩٤، ٩٦].
وانظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١/ ٦٩ ـ ٧٠، ١٢٤، ١٢٩، والتدمرية، له ص١٩٨، واللمعة في الأجوبة السبعة، له ص١٩ ـ ٢٠.

(٢) انظر: اللمعة في الأجوبة السبعة ص٢٠.

(٣) أخرج البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه رواية في هذا المعنى، في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ٨/ ٣٩٧، برقم (٤٧١٤). وكذلك ابن جرير الطبري في تفسيره: ٨/ ٩٥ ـ ٩٦.

فهم لا يرفعونه ولا يحولونه من موضع إلى موضع، كتغيير صفته أو قدره، فكل من دعا ميتاً أو غائباً ـ سواء كان بلفظ الاستغاثة أو غيرها ـ، فقد دعا من لا يغيثه ولا يملك كشف الضر عنه ولا تحويله[(١)].

وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣].

فبين سبحانه أن من دعي من دون الله من جميع المخلوقات، من الملائكة والجن والبشر وغيرهم، أنهم لا يملكون مثقال ذرة في ملكه. وأنه ليس له شريك في ملكه، بل هو سبحانه له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، وأنه ليس له ظهير يعاونه، كما يكون للملك أعوان، وأن الشفاعة لا تنفع عنده إلا لمن أذن له، فنفى بذلك وجوه الشرك[(٢)].

وذلك أن المشرك إنما يتعلق بالمعبود لما يعتقد أنه يحصل له به من النفع، وإلا فلو لم يرج منه نفع لم يتعلق قلبه به، والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الأربع: إما مالك لما يريده عابده منه. وإما شريك للمالك، وإما معين له، وإما وجيه يشفع عنده، فإذا انتفت هذه الأمور الأربعة من كل وجه وبطلت، انتفت أسباب الشرك وانقطعت مواده[(٣)].

فنفى سبحانه المراتب الأربع نفياً مرتباً، متنقلاً من الأعلى إلى ما دونه، فنفى الملك، والشركة، والمظاهرة، والشفاعة التي يظنها

---

(١) انظر: الكلمات النافعة في المكفرات الواقعة، للشيخ عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ ضمن عقيدة الموحدين ـ ص٢٤٨ ـ ٢٤٩.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١/ ١١٤، ١٢٨، واللمعة في الأجوبة السبعة، له ص٢٠.

(٣) انظر: اللمعة في الأجوبة السبعة ص٢٠، والصواعق المرسلة، لابن القيم: ٢/ ٤٦١، ومدارج السالكين، له: ١/ ٣٥١.

المشرك، وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك، وهي الشفاعة بإذنه[١].

«فتأمل كيف أخذت هذه الآية على المشركين بمجامع الطرق التي دخلوا منها إلى الشرك، وسدتها عليهم أحكم سد وأبلغه»[٢]، وكفى بها نوراً وبرهاناً، وتجريداً للتوحيد، وقطعاً لأصول الشرك ومواده لمن عقلها[٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [الزخرف: ٨٦].

فقوله: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ يتناول كل معبود من دون الله تعالى، من الملائكة والأنبياء والصالحين وما سواهم من المعبودات، فلا يملك أحد من دون الله الشفاعة مطلقاً، لا يستثنى من ذلك أحد عند الله تعالى، فإنه سبحانه لم ينف الفعل، فلم يقل: ولا يشفع أحد، ولا قال: لا يشفع لأحد، وإنما نفى الملك، فكل من دعي من دون الله لا يملك الشفاعة البتة؛ لأن المالك للشيء هو الذي يتصرف فيه بمشيئته وقدرته، والرب تعالى لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه، فلا يملك أحد من المخلوقين الشفاعة بحال. ولا يقال في هذا: (إلا بإذنه)، إنما يقال ذلك في الفعل، كما قال سبحانه: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥][٤].

وقوله: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ التحقيق في تفسيره أن الاستثناء منقطع[٥]، فقوله: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾

---

(١) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم: ١/ ٣٥١.

(٢) مقتبس من: الصواعق المرسلة: ٢/ ٤٦١.

(٣) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم: ١/ ٣٥١.

(٤) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٤/ ٤٠٢ ـ ٤٠٥.

(٥) الاستثناء المنقطع: هو أن لا يكون المستثنى بعضاً مما قبله. وانظر: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك: ١/ ٥٤٤.

قد تم الكلام هنا. ثم استثنى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، فهذا استثناء منقطع(١)، والمنقطع يكون في المعنى المشترك بين المذكورين، فلما نفى ملكهم الشفاعة، بقيت الشفاعة بلا مالك لها. كأنه قد قيل: فإذا لم يملكوها فهل يشفعون في أحد؟ فقال: نعم ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

وهذا يتناول الشافع والمشفوع له، فلا يشفع إلا من شهد بالحق وهم يعلمون. فالملائكة والأنبياء والصالحون ـ وإن كانوا لا يملكون الشفاعة ـ لكنهم يشفعون بإذن الله لهم، وهم لا يؤذن لهم إلا في الشفاعة للمؤمنين الذين يشهدون أن لا إله إلا الله، فيشهدون بالحق وهم يعلمون، لا يشفعون لمن لم يشهد بهذه الكلمة، ولا لمن قالها تقليداً بدون علم(٢).

فدلت هذه الآية على أن من اتخذهم المشركون وسائط وشفعاء لا يملكون الشفاعة، وليس توليهم لهم واستشفاعهم بهم بالذي يوجب أن يشفعوا لهم. وأن الشفاعة إنما تكون لأهل توحيد الله تعالى وإخلاص القلب والدين له سبحانه، الذين لم يتخذوا من دون الله شفعاء(٣).

والأحاديث الصحيحة الواردة في الشفاعة يوم القيامة كلها تدل على أن الشفاعة إنما تكون لأهل التوحيد الخالص من الشرك، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قلت: يا رسول الله، من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: «**لقد ظننت ـ يا أبا هريرة ـ**

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٤/ ٤٠٩.
(٢) انظر: المصدر السابق، الموضع نفسه.
(٣) انظر: المصدر السابق، ١٤/ ٤١٢.

أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك، لما رأيت من حرصك على الحديث. أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه، أو من قبل نفسه»[١].

فبين ﷺ أن المخلص في كلمة التوحيد من قلبه ومن قبل نفسه هو الأسعد بالشفاعة من غيره ممن يقولها بلسانه وتكذبها أقواله وأفعاله[٢].

فالذي تنال به الشفاعة عند الله تعالى هو تجريد التوحيد له سبحانه، لا تنال بتولي غير الله واتخاذه شفيعاً من دونه، لا الملائكة ولا الأنبياء ولا الصالحين، فمن والى أحداً من هؤلاء وقرب له القرابين ليشفع له لم يغن ذلك عنه من الله شيئاً، وكان من أبعد الناس عن شفاعته وشفاعة غيره؛ لأن الله تعالى لم يجعل سؤال هؤلاء والتقرب إليهم سبباً للشفاعة، وإنما السبب كمال التوحيد، فجاء هذا المشرك بسبب يمنع الشفاعة، وهو بمنزلة من استعان في حاجة بما يمنع حصولها، وهذه حالة كل مشرك. فالذين عبدوا الملائكة والأنبياء والصالحين ليشفعوا لهم، كانت عبادتهم إياهم، وإشراكهم بهم ـ الذي به طلبوا شفاعتهم ـ به حرموا شفاعتهم، وعوقبوا بنقيض قصدهم؛ لأنهم أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً[٣].

الوجه السابع: أن إثبات الوسائط والشفعاء بين الله تعالى وبين

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ١/١٩٣، برقم (٩٩) و١١/ ٤١٨، برقم (٦٥٧٠).

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٤/ ٤١٠، ومدارج السالكين، لابن القيم: ١/ ٣٤٩.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٤/ ٤١٢، ومدارج السالكين، لابن القيم: ١/ ٣٥٣.

خلقه هو في واقع الأمر قياس وتمثيل لله سبحانه الذي ليس كمثله شيء بالمخلوق الناقص.

وذلك أن المشرك لما رأى أن الملوك والكبراء لا يوصل إليهم إلا بوسائط وشفعاء من الأقارب والحجاب والوجهاء عندهم، ظن بعقله السقيم أن الله تعالى كذلك، فاتخذ لذلك ولياً من دون الله وصرف له العبادة ليقربه إلى الله ويشفع له عنده.

وهذا من أفسد القياس وأبطله، وهو يتضمن تمثيل الخالق رب العالمين بالمخلوق المربوب، مع ثبوت الفرق العظيم بينهما عقلاً وشرعاً وفطرة، فإن كل ما يحتاج الناس من أجله إلى اتخاذ الوسائط والشفعاء عند الملوك والكبراء ليس موجوداً في حق الله تعالى، وكل ما يحتاج الملوك والكبراء من أجله إلى اتخاذ الأعوان والوزراء، فإن الله تعالى غني عن ذلك غنى مطلقاً(١).

وبيان ذلك: أن الوسائط التي بين الملوك وبين الناس يكونون على أحد وجوه ثلاثة(٢):

(أحدها): أن الملوك والكبراء لا يعلمون أحوال الناس، فيحتاجون إلى الوسائط لإخبارهم من أحوال الناس بما لا يعرفونه.

ومن ظن أن الله تعالى لا يعلم أحوال عباده حتى يخبره بها بعض الملائكة أو الأنبياء أو الأولياء أو غيرهم، فهو كافر. بل الله سبحانه مطلع على كل شيء، شهيد عليه، لا يغيب عنه وجه من وجوه

---

(١) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم: ٢/ ٢٤١، والقصيدة النونية، له ـ مع شرحها، لهراس ـ: ٢/ ٣٠٧ ـ ٣٠٨، وتوضيح الكافية الشافية، للسعدي ص١٦٧، وتيسير الكريم الرحمٰن، له ٧١٨.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١/ ١٢٦.

تفاصيله، ولا ذرة من ذراته باطناً وظاهراً، ولا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، يعلم السر وأخفى، ويسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات، لا يشغله سمع عن سمع، ولا تغلطه المسائل، ولا يتبرم بإلحاح الملحين. ومن هذا شأنه، كيف يليق بالعباد أن يشركوا به، ويجعلوا بينهم وبينه وسائط؟[(١)].

(الثاني): أن الملوك والكبراء عاجزون عن تدبير شؤون رعاياهم بأنفسهم، فلا بد لهم من وسائط وأعوان يعينونهم على ذلك ويرفعون إليهم حوائج الناس.

والله تعالى هو القوي المتين، ذو القدرة التامة على كل شيء، لا يحتاج إلى معونة أحد في تنفيذ ما يريد، فليس له وزير ولا عوين، بل كل ما في الوجود من الأسباب هو خالقه وربه ومليكه، فهو الغني عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقير إليه، بخلاف الملوك المحتاجين إلى الوزراء والأعوان، وهم ـ في الحقيقة ـ شركاؤهم في الملك. والله ﷻ ليس له شريك في الملك، وليس له ولي من الذل، وهو الكبير المتعال[(٢)].

(الثالث): أن الملوك والكبراء قد لا يريدون نفع الناس، وقد لا يكون في قلوبهم رحمة للمحتاجين أو رغبة في الإحسان إليهم، فيحتاج إلى وسائط وشفعاء يستعطفونهم على الناس، ويسترحمونهم لهم، ويرغبونهم في الإحسان إليهم، وهم يقبلون توسط الوسائط وشفاعة الشفعاء: تارة لحاجتهم إليهم، وتارة لخوفهم منهم، وتارة لمكافأتهم

---

(١) انظر: المصدر السابق: ١/١٢٦ ـ ١٢٧، ومدارج السالكين، لابن القيم: ٣/٤٣٣.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١/١٢٧، والقصيدة النونية، لابن القيم ـ مع شرحها، لهراس ـ: ٢/٣٠٨.

على إحسانهم إليهم، وغير ذلك من الأسباب. وهم أيضاً فقراء، قد يمنعون لما يخشون من الفقر، ولعدم قدرتهم على توفير ما يحتاجه الناس في كل وقت[(١)].

فالوسائط والشفعاء عند الملوك والكبراء هم شركاؤهم، فإن قيام أمرهم ومصالحهم بهم، ولولا هم لما انبسطت أيديهم وألسنتهم في الناس، ومن أجل هذه الأسباب احتاجوا إلى الوسائط والشفعاء حاجة لا ينفكون عنها في وقت من الأوقات[(٢)].

والله تعالى منزه عن هذه الآفات كلها، فهو سبحانه أرحم الراحمين، وسعت رحمته كل شيء، وهو ذو الفضل العظيم، والإحسان إلى خلقه أجمعين، لا يحتاج إلى أحد يجعله راحماً لعباده، ولا يرجو أحداً ولا يخافه، بل الشفعاء يخافونه، فلا يشفع عنده أحد إلا بمشيئته وإذنه ورضاه عن الشافع والمشفوع له. وهو سبحانه يقبل الشفاعة تفضلاً ورحمة وإكراماً لمن رضي قوله وعمله من أهل التوحيد الخالص، فالأمر كله لله وحده، وليس لأحد معه من الأمر شيء[(٣)].

وبهذا يعلم شدة جهل المشركين، وعظم غلطهم في حق الله تعالى، حيث اتخذوا من دونه شفعاء من جنس ما يعهدونه من شفاعة

---

(١) انظر: المصدرين السابقين، وتيسير الكريم الرحمٰن، للسعدي: ٧١٨، وتوضيح الكافية الشافية، له ص١٦٧.

(٢) انظر: إغاثة اللهفان، لابن القيم: ١/ ٣٣٨ ـ ٣٣٩، والقصيدة النونية، له ـ مع شرحها، لهراس ـ: ٢/ ٣٠٨، وتوضيح الكافية الشافية، للسعدي ص١٦٧.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١/ ١٢٩، و١٤/ ٣٨١ ـ ٣٨٢، والقصيدة النونية، لابن القيم ـ مع شرحها، لهراس ـ: ٢/ ٣٠٨ ـ ٣٠٩، وتوضيح الكافية الشافية، للسعدي ص١٦٧ ـ ١٦٨، وتيسير الكريم الرحمٰن، له ص٧١٨.

المخلوق عند المخلوق، وظنوا أنهم ـ بهذا القياس الفاسد ـ يعظمون الله تعالى ويقدسونه، وينالون القربى عنده[(١)]، وهم قد أتوا بما ينافي التعظيم والتقديس من كل وجه.

الوجه الثامن: أن من اتخذ بينه وبين الله تعالى وسيطاً يصرف له شيئاً من العبادة، ويعتقد أنه يقربه إلى الله ويشفع له عنده، ويرى أن ذلك أولى من التوجه بالعبادة مباشرة إلى الله تعالى وإفراده سبحانه بها، فقد هضم حق الربوبية، ونقص عظمة الإلهية، وأساء الظن برب العالمين، وظن به خلاف كماله المقدس[(٢)]؛ لأن الذي لا يتقرب إليه إلا بوسائط إما أن يكون قادراً على سماع كلام عابديه وقضاء حوائجهم بدون الوسائط، وإما أن لا يكون قادراً على ذلك، فإن لم يكن قادراً كان هذا نقصاً فيه، والناقص لا يصلح أن يكون معبوداً. والله ﷻ منزه عن النقص مطلقاً، موصوف بالكمال من كل وجه، فوجب أن يكون متصفاً بأنه يسمع كلام عباده، ويجيب دعاءهم، ويحسن إليهم بدون حاجة في ذلك إلى وسائط[(٣)].

فالمشرك المتخذ بينه وبين الله واسطة: إما أن يظن أن الله سبحانه يحتاج إلى من يدبر أمر العالم معه، وإما أن يظن أنه تعالى إنما تتم قدرته بقدرة الشريك، وإما أن يظن أنه لا يعلم حتى يعلمه الواسطة، أو لا يرحم حتى يجعله الواسطة يرحم، أو لا يكفي عبده وحده، ولا يفعل ما يريد العبد حتى يشفع عنده الواسطة، أو لا يجيب دعاء عباده حتى يسألوا الواسطة أن يرفع تلك الحاجات إليه، أو لا يسمع دعاء

---

(١) انظر: القصيدة النونية، مع شرحها: ٣٠٧/٢، وتوضيح الكافية الشافية ص١٦٨، وتيسير الكريم الرحمن ص٧١٨.

(٢) انظر: إغاثة اللهفان، لابن القيم: ١٢٠/١، والجواب الكافي، له ص١٤٣.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٣٣/٦.

عباده لبعده عنهم حتى ترفع الوسائط ذلك إليه، أو يظن أن للمخلوق عليه حقاً فهو يقسم عليه بحق ذلك المخلوق عليه، ويتوسل إليه بذلك المخلوق، كما يتوسل الناس إلى الملوك والأكابر بمن يعز عليهم ولا يمكنهم مخالفته[(١)].

وكل هذا هضم لحق الربوبية، وتنقص لعظمة الإلهية، وسوء ظن برب العالمين، كما حكى الله تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الصافات: ٨٥ ـ ٨٧]، وهذا استفهام على وجه الإنكار عليهم[(٢)]، أي: أي شيء تعبدون؟ أتعبدون من دون الله آلهة كذباً، ليست بآلهة، ولا تصلح للعبادة، فما ظنكم برب العالمين أن يعاملكم ويجازيكم به، وقد عبدتم معه غيره؟ وهذا تهديد لهم بالعقاب على شركهم، وتحت هذا التهديد من المعنى: ما ظننتم بربكم من السوء حتى عبدتم معه غيره؟[(٣)].

وقال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾﴾ [الفتح: ٦]، وهذا وعيد شديد، لم يجمع الله تعالى على أحد من الوعيد والعقوبة ما جمع على أهل الشرك، فإنهم ظنوا به ظن السوء حتى أشركوا به، ولو أحسنوا به الظن، وظنوا به ما هو أهله من الأسماء والصفات، لوحدوه حق توحيده[(٤)].

---

(١) انظر: إغاثة اللهفان، لابن القيم: ١/ ١٢٢.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمٰن، للسعدي ص٧٠٥.

(٣) انظر: تفسير الطبري: ١٠/ ٥٠٠، وإغاثة اللهفان، لابن القيم: ١/ ١٢١ ـ ١٢٢، والجواب الكافي، له ص١٤٣ ـ ١٤٤، وتيسير الكريم الرحمٰن، للسعدي ص٧٠٥.

(٤) انظر: إغاثة اللهفان، لابن القيم: ١/ ١٢٠.

فسوء الظن وتنقص الرب سبحانه لازم للشرك ضرورة، شاء المشرك أم أبى، فلا تجد مشركاً قط إلا وهو ظان بالله تعالى ظن السوء متنقص له سبحانه، وإن زعم أنه يعظمه بذلك[1].

الوجه التاسع: أن المشركين الذين توجهوا بالعبادة إلى غير الله تعالى من الملائكة والصالحين والأصنام والأوثان والكواكب، عبادتهم في نفس الأمر واقعة للشيطان، وليس لهذه المعبودات المزعومة. فإن الشيطان يدعو المشرك إلى عبادته ويوهمه أنه ملك، وكذلك عباد الكواكب يزعمون أنهم يعبدون روحانيات هذه الكواكب، وهي التي تخاطبهم وتقضي لهم الحوائج، ولهذا إذا طلعت الشمس قارنها الشيطان فيسجد لها المشرك، فيقع سجوده له، وكذلك عند غروبها[2].

كما أن الشياطين تدخل في أصنام المشركين وتخاطبهم منها، وتخبرهم ببعض المغيبات، وهم لا يشاهدون الشياطين، فجهلتهم يظنون أن الصنم نفسه هو المتكلم، وعقلاؤهم يقولون: إن تلك روحانيات الأصنام، أو روحانيات الأجرام العلوية، وبعضهم يقول: إنها الملائكة، أو العقول المجردة. وكثير منهم لا يسأل عما عهد، بل إذا سمع الكلام من الصنم اتخذه إلهاً، ولا يسأل عما وراء ذلك[3].

وكذلك الذين عبدوا المسيح وأمه عليهما السلام، لم يعبدوهما، وإنما عبدوا الشيطان، فإنهم يزعمون أنهم يعبدون من أمرهم بعبادته وعبادة أمه ورضيها لهم، وهذا هو الشيطان، لا عبد الله ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام[4].

---

(١) انظر: المصدر السابق: ١/ ١٢٢.
(٢) انظر: الجواب الكافي، لابن القيم ص١٤٨.
(٣) إغاثة اللهفان، لابن القيم: ٢/ ٢٧٣.
(٤) انظر: الجواب الكافي ص١٤٨.

وهكذا عباد القبور من المنتسبين إلى الإسلام، فإن الشيطان بلطف كيده يحسن لهم الدعاء عند القبر أولاً، وأنه أرجح من الدعاء في المسجد أو البيت، فإذا تقرر ذلك عنده نقله درجة أخرى من الدعاء عنده إلى الدعاء بالمقبور والإقسام على الله تعالى به، وهذا أعظم من الذي قبله فإن شأن الله أعظم من أن يقسم عليه، أو يسأل بأحد من خلقه[(١)]. فإذا قرر الشيطان عنده أن الإقسام على الله به والدعاء به أبلغ في تعظيمه واحترامه، وأنجع في قضاء حاجته، نقله درجة أخرى إلى دعائه نفسه، من دون الله تعالى.

ثم ينقله بعد ذلك درجة أخرى إلى أن يتخذ قبره وثناً يعكف عليه، ويوقد عليه القنديل، ويعلق عليه الستور، ويبني عليه المسجد، ويعبده بالطواف به، وتقبيله واستلامه، والحج إليه، والذبح عنده.

ثم ينقله درجة أخرى إلى دعاء الناس إلى عبادته، واتخاذه عيداً ومنسكاً، وأن ذلك أنفع لهم في دنياهم وآخرتهم[(٢)].

وبالجملة: فما عبد أحد من بني آدم غير الله تعالى كائناً من كان إلا وقعت عبادته للشيطان[(٣)]، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ

---

(١) انظر: ما سبق بيانه عند الكلام على حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه، في ٢/ ٢٠ ـ ٢١.

(٢) انظر: إغاثة اللهفان: ١/ ٣٣٢ ـ ٣٣٤.

(٣) انظر: الجواب الكافي ص١٤٨، وشفاء العليل: ١/ ٨٣.

خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾﴾ [النساء: ١١٦ ـ ١٢١].

وقال ﷻ: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [يس: ٦٠، ٦١].

الوجه العاشر: أن سعادة العبد وكماله البشري في كمال افتقاره إلى الله تعالى، وكمال توحيده له، بأن يشهد ذلك ويعرفه، ويتصف بموجب ذلك، ويجتنب ما ينافيه من الشرك الأكبر والأصغر(١).

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢].

وقد ثبت في السنة تفسير الظلم ـ في هذه الآية ـ بالشرك(٢)، والاستدلال على ذلك بقوله تعالى ـ حكاية لقول لقمان لابنه ـ: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

فدل الكتاب والسنة على أن الذين أخلصوا العبادة لله تعالى وحده، ولم يشركوا به شيئاً هم الآمنون المهتدون في الدنيا والآخرة(٣). وأما تعلق العبد بغير الله تعالى، وصرفه لشيء من العبادة لغيره سبحانه، فهو مفسدة عظيمة لصاحبه، ومضرة بالغة عليه، فإن الإنسان خلق محتاجاً إلى جلب ما ينفعه، ودفع ما يضره، ونفسه مريدة دائماً، ولا بد لها من مراد يكون غاية مطلوبها لتسكن إليه وتطمئن به،

---

(١) انظر: مجموع فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية: ١/ ٤١، ٥٠.
(٢) انظر: صحيح البخاري ـ مع الفتح ـ: ١/ ٨٧، حديث رقم (٣٢)، وصحيح مسلم: ١/ ١١٤، حديث رقم (١٢٤).
(٣) انظر: فتح المجيد، للشيخ عبد الرحمٰن بن حسن آل الشيخ ص٣٢.

وليس ذلك إلا لله وحده، فلا تطمئن القلوب إلا به، ولا تسكن النفوس إلا إليه، وكل مألوه سواه يحصل به الفساد، ولا يحصل صلاح القلوب إلا بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له[(١)].

ولهذا قال الله ﷻ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء: ٢٢].

فبين أنه لو كان في الوجود إلهان يستحقان العبادة لفسد نظامه أعظم فساد، واختل أعظم اختلال، كما يستحيل أن يكون له فاعلان مستاويان كل منهما مستقل بالفعل، فإن استقلالهما ينافي استقلالهما، واستقلال أحدهما يمنع ربوبية الآخر، فتوحيد الربوبية أعظم دليل على توحيد الألوهية، ولذلك وقع الاحتجاج به في القرآن الكريم أكثر مما وقع بغيره، لصحة دلالته وظهورها، وقبول العقول والفطر لها[(٢)].

وبهذا يعلم أن صلاح العباد وفلاحهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة بأن يكون الله تعالى وحده هو مقصودهم ومألوههم ومنتهى آمالهم ورجائهم وخوفهم، وأن يتبرؤوا من الشرك قولاً وعملاً واعتقاداً. و«متى لم يؤمن الخلق بأنه (لا إله إلا الله) بمعنى: أنه المعبود المستحق للعبادة دون ما سواه، وأنه يحب أن يعبد، وأنه أمر أن يعبد، وأنه لا يعبد إلا بما أحبه مما شرع من واجب ومستحب، فلا بد أن يقعوا في الشرك وغيره»[(٣)].

ومن أهم الأسباب التي أوقعت المشركين في الشرك بالله تعالى: «الجهل بحقيقة ما بعث الله به رسوله، بل جميع الرسل من تحقيق

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١/ ٥٥.

(٢) انظر: طريق الهجرتين، لابن القيم ص٨٤.

(٣) مقتبس من: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٤/ ٣٦٣.

التوحيد وقطع أسباب الشرك، فقل نصيبهم جداً من ذلك، ودعاهم الشيطان إلى الفتنة، ولم يكن عندهم من العلم ما يبطل دعوته، فاستجابوا له بحسب ما عندهم من الجهل، وعصموا بقدر ما معهم من العلم»[١].

وبما تقدم ذكره يعلم بطلان تسبيح المشركين، وأنه أعظم شيء مناقضة لتسبيح الله تعالى وتوحيده، وأنه لا نجاة للعبد إلا بالنجاة من هذا التسبيح الباطل، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

(١) مقتبس من: إغاثة اللهفان، لابن القيم: ١/ ٣٣١.

الفصل الثاني

الرد على تسبيح الممثلة

تمهيد

ويتناول هذا الفصل الحديث عن فرقة ضالة من الفرق التي تنتسب إلى الإسلام، وما زعمته هذه الفرقة من التنزيه لله تعالى في ما أحدثته من الاعتقاد الفاسد في حقه سبحانه.

وسيتم ـ بإذن الله ـ تناول ذلك في ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: التعريف بالممثلة.

المبحث الثاني: مفهوم التسبيح عند الممثلة.

المبحث الثالث: إبطال ما ادعته الممثلة من التسبيح.

وتفاصيل هذه المباحث كما يلي:




المبحث الأول

التعريف بالممثلة

أولاً: الممثلة في اللغة:

الممثل: اسم فاعل من التمثيل، وتقدم التعريف بالتمثيل في اللغة، وأنه بمعنى التشبيه والتسوية والتصوير(١).

وعليه فالممثل بمعنى: المشبه الذي يشبه الشيء بالشيء، أو يسوي بينهما. وبمعنى المصور الذي يصنع صور المخلوقات والتماثيل.

وزيدت التاء في (الممثلة) للدلالة على الاسمية والجماعة.

ثانياً: الممثلة في الشرع:

تقدم أن التمثيل الذي ورد في الشرع نفيه عن الله تعالى يتنوع إلى نوعين:

أحدهما: تمثيل المخلوق بالخالق.

والآخر: تمثيل الخالق بالمخلوق.

وأن طوائف من بني آدم وقعت في هذين النوعين من التمثيل(٢). فالواقعون في النوع الأول من التمثيل ـ وهو تمثيل المخلوق بالخالق ـ هم المشركون الذين أشركوا بالله تعالى غيره من المخلوقات، إما في

---

(١) انظر: ١/١٥٥ من هذا البحث.

(٢) انظر: ١/١٦٥ ـ ١٧٢ من هذا البحث.

الألوهية، وإما في الربوبية، أو في الأسماء والصفات، فكل مشرك ممثل؛ لأنه جعل المخلوق مثلاً لله تعالى في شيء من الأشياء، كما سبق الكلام فيه في الفصل الأول من هذا الباب.

والواقعون في النوع الثاني من التمثيل ـ وهو تمثيل الخالق بالمخلوق ـ هم الذين يذكرهم العلماء باسم الممثلة والمشبهة، وهم الذين يشبهون الله تعالى بخلقه، ويجعلون صفاته سبحانه من جنس صفات المخلوقين[1]، كما نقل عن الإمام أحمد بن حنبل وغيره من الأئمة: أن «المشبهة: الذين يقولون: بصر كبصري، ويد كيدي، وقدم كقدمي. ومن قال هذا فقد شبه الله بخلقه»[2].

وهؤلاء ـ في الحقيقة ـ ممثلة في الصفات؛ لأنهم أثبتوا لله الصفات على وجه يماثل صفات المخلوقين.

والمقصود: أن اسم الممثلة أو المشبهة يراد به ـ عند الإطلاق ـ في كلام العلماء من أهل السنة والجماعة، كل من جعل الله مثل خلقه في شيء من صفاته سبحانه وتعالى.

ثالثاً: نشأة الممثلة وطوائفهم:

لم يكن تمثيل الخالق بالمخلوق عقيدة معروفة في طائفة من

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ٣٥، و١٦/ ٣٩٨، ودرء تعارض العقل والنقل: ٤/ ١٤٥، وبيان تلبيس الجهمية: ١/ ١٠٤، وشرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز: ٢/ ٧٩١، والعقيدة الإسلامية وتاريخها، للدكتور محمد أمان الجامي ص٥٧.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٣/ ١٥٤، وبيان تلبيس الجهمية: ١/ ٥١، ٤٧٦ ـ ٤٧٧، والمسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد بن حنبل في العقيدة، جمع وتحقيق الدكتور عبد الإله الأحمدي: ١/ ٣٦٤.

طوائف بني آدم، فلم يكن في الأمم من جعل المخلوق أصلاً وشبه به الخالق، وإنما كان تمثيل المخلوق بالخالق هو المعروف في طوائف أهل الشرك، غلوا فيمن يعظمونه ويحبونه، حتى شبهوه بالخالق ﷻ، وأعطوه خصائص الإلهية(١).

ومعلوم أن كثيراً من أفعال المشركين يلزم منها تمثيل الخالق بالمخلوق، وأن الذين كفروا من اليهود والنصارى وغيرهم وصفوا الله تعالى بالنقائص والعيوب التي تستلزم تمثيله سبحانه بالمخلوق، ومع هذا لم يكن قصدهم أن يجعلوا المخلوق أصلاً ثم يشبهون به الخالق، بل وصفوه بهذه الأشياء استقلالاً، لا قصداً أن يكون غيره أصلاً فيها ويكون هو مشبهاً به(٢).

ولكن صار تمثيل الخالق بالمخلوق عقيدة لبعض الفرق الضالة التي انتسبت إلى الإسلام في بعض الفترات من التاريخ الإسلامي. وكان بدء ظهور التمثيل في الإسلام من الشيعة(٣)، الذين ضموا إلى ضلالتهم في الإمامة ضلالتهم في ذات الخالق سبحانه وصفاته، حيث

---

(١) انظر: إغاثة اللهفان، لابن قيم الجوزية: ٢/ ٢٧٥، ٢٧٧.

(٢) انظر: المصدر السابق: ٢/ ٢٧٦.

(٣) الشيعة: اسم لإحدى أكبر الفرق المبتدعة وأقدمها نشأة في الإسلام، تدعي أنها تشايع علياً ﷺ، وتقدمه على سائر أصحاب رسول الله ﷺ، وتقول بإمامته نصاً ووصية، إما جلياً وإما خفياً، وتعتقد أن الإمامة لا تخرج عن أولاده، وإن خرجت فبظلم يكون من غيره، أو بتقية من عنده، وتجعل الإمامة قضية أصلية وهي ركن الدين. والشيعة طوائف عديدة لها عقائد مختلفة، وتتفاوت درجاتها في البدعة والضلال، فمنهم الغالية، ومنهم الرافضة، ومنهم المفضلة.
انظر: مقالات الإسلاميين، للأشعري: ١/ ٦٥، والملل والنحل، للشهرستاني: ١/ ١٤٦، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٣/ ٣٣ ـ ٣٤.

ابتدعوا في الإثبات مقالات صرحوا فيها بتكييف الله تعالى وتمثيله بخلقه[١]، وأوردت كتب المقالات من مقالاتهم في ذلك ما لا يعرف مثلها في أحد من طوائف الأمة سوى الشيعة.

ومن أبرز الممثلة من الشيعة:

١ ـ بيان بن سمعان التميمي[٢]، رأس الفرقة البيانية من غلاة الشيعة، يقول هو وأصحابه: إن الله ﷻ على صورة الإنسان، وإنه يهلك كله، ما عدا وجهه[٣].

٢ ـ داود الجواربي، من كبار متكلمي الشيعة، كان يقول: إن الله تعالى على صورة الإنسان، وإن له جميع أعضاء الإنسان إلا الفرج واللحية[٤]، ويقول ـ مع ذلك ـ: إنه جسم لا كالأجسام، ولحم لا كاللحوم، ودم لا كالدماء، وكذلك سائر الصفات[٥].

٣ ـ المغيرة بن سعيد[٦]، رأس الفرقة المغيرية من غلاة الشيعة،

---

(١) انظر: الفرق بين الفرق، للبغدادي ص٢٠٦، واعتقادات فرق المسلمين والمشركين، للرازي ص٦٣، ومنهاج السنة النبوية، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ١/ ٧١ ـ ٧٢ و٢/ ١٠٢.

(٢) يقال له: بيان الزنديق ظهر بالعراق بعد المائة من الهجرة، وكان من القائلين بإلهية علي رضي الله عنه، ثم ادعى أنه انتقل إليه الجزء الإلهي بنوع من التناسخ، ودعا إلى نفسه. وانظر: الملل والنحل، للشهرستاني: ١/ ١٥٢، وميزان الاعتدال، للذهبي: ١/ ٣٥٧.

(٣) انظر: مقالات الإسلاميين، للأشعري: ١/ ٦٧، والفرق بين الفرق، للبغدادي ص٢٠٧، والملل والنحل، للشهرستاي: ١/ ١٥٣.

(٤) انظر: الفرق بين الفرق، للبغدادي ص٢٠٨، والفصل في الملل والأهواء والنحل، لابن حزم: ٥/ ٤٠، والملل والنحل، للشهرستاني: ١/ ١٠٥.

(٥) انظر: الملل والنحل، للشهرستاني: ١/ ١٠٥.

(٦) هو المغيرة بن سعيد البجلي، أبو عبد الله الكوفي، الرافضي الكذاب، كان =

قال: إن الله على صورة رجل من نور على رأسه تاج من نور، وله أعضاء على أشكال حروف الهجاء وعددها(١).

٤ ـ هشام بن الحكم(٢)، من متكلمي الشيعة، وتنسب إليه الفرقة الهشامية، وكان هو وفرقته يقولون: إن الله جسم ذو حد ونهاية، وأنه طويل عريض عميق، وأن طوله مثل عرضه، وعرضه مثل عمقه، لا يوفى بعضه على بعض(٣).

وحكي عنهم قولهم: إن الله سبعة أشبار بشبر نفسه(٤).

وقد قيل: إن هشاماً هذا هو أول من قال في الإسلام: إن الله جسم(٥).

٥ ـ هشام بن سالم الجواليقي، من متكلمي الشيعة أيضاً، وتنسب إليه فرقة باسم الهشامية أيضاً، ويقول هو وأتباعه: إن الله على صورة

= ألحن الناس، وكان يشعل النيران بالكوفة على التمويه والشعوذة حتى أجابه خلق، وقتله خالد بن عبد الله القسري، في حدود سنة (١٢٠هـ).
انظر: ميزان الاعتدال، للذهبي: ٤/ ١٦٠ ـ ١٦٢.

(١) انظر: مقالات الإسلاميين، للأشعري: ١/ ٦٩ ـ ٧٢، والفرق بين الفرق، للبغدادي ص٢٠٧، والفصل، لابن حزم: ٥/ ٤٣، والملل والنحل، للشهرستاني: ١/ ١٧٦ ـ ١٧٧.

(٢) هو هشام بن الحكم الشيباني بالولاء، أبو محمد الكوفي، كان من كبار الرافضة، وكان متكلماً مناظراً، وله مصنفات، وتوفي سنة (١٩٠هـ). انظر: لسان الميزان، لابن حجر العسقلاني: ٦/ ١٩٤.

(٣) انظر: مقالات الإسلاميين، للأشعري: ١/ ١٠٦، والفرق بين الفرق، للبغدادي ص٧١، ٢٠٨، والملل والنحل، للشهرستاني: ١/ ١٨٤.

(٤) انظر: الفرق بين الفرق، للبغدادي ص٧٢، ٢٠٨.

(٥) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٣/ ١٥٤، ومنهاج السنة النبوية، له: ١/ ٧٢ ـ ٧٣.

الإنسان، نصفه الأعلى مجوف، ونصفه الأسفل مصمت، وهو ذو حواس خمس كحواس الإنسان، ولكنه ليس بلحم ولا دم، بل هو نور ساطع يتلالأ بياضاً[1].

فهؤلاء بعض رؤوس الشيعة الذين صرحوا بتمثيل الله تعالى بخلقه. وبالجملة: فقد كان التمثيل عقيدة فاشية في طوائف الشيعة كلها تقريباً[2]، حتى إن بعضهم قال ـ قديماً ـ: ليس على ظهر الأرض رافضي إلا وهو يزعم أن ربه مثله[3].

ثم إن قدماء الشيعة ومتأخريهم متناقضون في هذا الباب، فقدماؤهم غلوا في التمثيل والتشبيه ـ على نحو ما سبق بيانه ـ، ومتأخروهم غلوا في النفي والتعطيل[4] على نحو ما سيأتي بيانه ـ إن شاء الله ـ في الرد على تسبيح المعطلة.

وقد نسب التمثيل إلى فرق أخرى تنتسب إلى الإسلام غير الشيعة، ومنها:

١ ـ الكرامية، وهي فرقة منسوبة إلى زعيمها محمد بن كرام[5]، وكان هو وأتباعه يبالغون في إثبات صفات الله تعالى حتى انتهى بهم

---

(١) انظر: مقالات الإسلاميين، للأشعري: ١/ ١٠٩، الفرق بين الفرق ص٧١، ٧٥، ٢٠٨، والملل والنحل: ١/ ١٨٥.

(٢) انظر: منهاج السنة النبوية: ٢/ ١٠٢.

(٣) انظر: المصدر السابق: ١/ ٧٣.

(٤) انظر: المصدر نفسه: ١/ ٧٢ و٢/ ١٠٢، ومقالات الإسلاميين، للأشعري: ١/ ١٠٩.

(٥) هو محمد بن كرام السجستاني، العابد المتكلم، شيخ الكرامية، كان ساقط الحديث على بدعته، وقد سجن بنيسابور لأجل بدعته ثمانية أعوام، ثم أخرج وسار إلى بيت المقدس، ومات بالشام في سنة (٢٥٥هـ).
انظر: ميزان الاعتدال، للذهبي: ٤/ ٢١ ـ ٢٢.

الأمر إلى نوع من التمثيل للخالق ﷻ بالمخلوق، ويطلقون على الله تعالى لفظ الجسم، ويقولون: هو جسم لا كالأجسام[(١)]، ولكنهم في إطلاقهم للفظ الجسم أقرب إلى صحيح المنقول وصريح المعقول ممن أطلقوا لفظ الجسم من الشيعة[(٢)].

٢ ـ الشيبانية، وهي فرقة من الخوارج[(٣)] منسوبة إلى زعيمها شيبان بن سلمة الخارجي[(٤)]، وقد أحدثت هذه الفرقة التشبيه لله تعالى بخلقه[(٥)]، خلافاً لسائر فرق الخوارج في هذا الباب.

٣ ـ قوم من جهال أهل الحديث وبعض المنحرفين قابلوا نفاة الصفات بالغلو في الإثبات، حتى وقعوا في تمثيل الخالق سبحانه بالمخلوق[(٦)].

وبالجملة: فإن الممثلة ـ الذين يمثلون الله تعالى بخلقه ـ في مجموع الفرق المنتسبة إلى الإسلام قليلون[(٧)]، غير أن بعض من كتب

---

(١) انظر: الملل والنحل، للشهرستاني: ١/ ١٠٨، وميزان الاعتدال، للذهبي: ٤/ ٢١.

(٢) انظر: منهاج السنة النبوية: ٢/ ١٠٢، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ٣٦.

(٣) انظر: التعريف بالخوارج في ٢/ ٥١٤ ـ ٥١٥.

(٤) خرج شيبان هذا في أيام أبي مسلم صاحب دولة بني العباس، وأعان أبا مسلم على أعدائه في حروبه، وبرئت منه الخوارج لذلك، ومات مقتولاً في سنة (١٣٠هـ).

انظر: مقالات الإسلاميين، للأشعري: ١/ ١٨٠ ـ ١٨١، والفرق بين الفرق، للبغدادي ص١٠٢، والبداية والنهاية، لابن كثير: ١٠/ ٣٦.

(٥) انظر: مقالات الإسلاميين، للأشعري: ١/ ١٨٠، والفرق بين الفرق ص١٠٢.

(٦) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ٣٥، ٥١ و١٨/ ١٤٦.

(٧) انظر: شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز: ١/ ٢٥٩، والعقيدة الإسلامية وتاريخها، للشيخ محمد أمان الجامي ص٥٧.

في مقالات الناس قد ينسب هذا التمثيل إلى من هو منه براء، تبعاً لاعتقاده الفاسد، فإن أهل الكلام الذين ابتدعوا في الإسلام نفي صفات الله أو تأويلها يعدون كل من يثبت الصفات على ظاهرها ممثلاً ومشبهاً[(١)]، ويفسرون التمثيل والتشبيه في هذا الباب بما يتضمن إثبات صفات الله تعالى على ظاهرها كما وردت في الكتاب والسنة، وبهذا لبس هؤلاء المتكلمون على الناس التعريف بالممثلة.

ويزول هذا التلبيس ـ بإذن الله ـ بمعرفة حقيقة التمثيل الذي نفاه الله تعالى عن نفسه، ونفاه عنه رسوله ﷺ، كما سبق بيانه في أنواع التسبيح باعتباره معناه[(٢)]، وبمعرفة مذهب السلف الصالح في أسماء الله وصفاته، كما سبق بيانه في المفهوم الصحيح لتسبيح الله تعالى في أسمائه وصفاته[(٣)].

ومن الشأن ذي الصلة بالتعريف بالممثلة أيضاً: أنه ينبغي التنبيه على ما يقع في كلام المتكلمين من لفظ المجسمة مراداً به الممثلة، فإن هذا الاستعمال غلط من وجوه:

أحدها: أن لفظ الجسم لا يوجد له ذكر في الكتاب والسنة في حق الله تعالى، لا بنفي ولا إثبات[(٤)]، وليس في السلف الصالح وأئمة المسلمين المشهورين من يقول: إن الله جسم، ولا إن الله ليس بجسم[(٥)]، ولهذا كان استعمال هذا اللفظ في حق الله تعالى ـ نفياً وإثباتاً ـ بدعة[(٦)].

---

(١) انظر: بيان تلبيس الجهمية، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ١/ ١٠٤ ـ ١٠٥.

(٢) انظر: ١/١٥٦ ـ ١٦٢. من البحث. (٣) انظر: ٢/ ١٦٠. من البحث.

(٤) انظر: بيان تلبيس الجهمية: ١/ ٥٤. (٥) انظر: منهاج السنة النبوية: ٢/ ١٠٥.

(٦) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ١٠٢، ودرء تعارض العقل والنقل: ٤/ ١٤٦.

الثاني: أن أهل الكلام نسبوا التجسيم إلى بعض الناس، وسموهم مجسمة، وذلك بحسب ما يعتقده هؤلاء المتكلمون في معنى الجسم ويرونه لازماً لغيرهم؛ لأنهم يريدون بالجسم معاني ابتدعوها واصطلحوا عليها، لم يدل عليها لغة ولا شرع[(١)].

ومن هنا صار في لفظ الجسم اشتراك بين معناه في اللغة ومعناه في عرف أهل الكلام[(٢)]، فلا يصح نسبة شخص إلى التجسيم لما فيه من الاشتراك والاشتباه، إضافة إلى كونه بدعة.

الثالث: أن السلف الصالح والأئمة المشهورين لم يذموا أحداً بأنه مجسم، وإنما ذموا الممثلة والمشبهة الذين يجعلون صفات الله تعالى كصفات المخلوقين، وذموا ـ كذلك ـ أهل الكلام الذي يتكلمون في حق الله تعالى بألفاظ مبتدعة يشتبه فيها الحق بالباطل، وتلتبس على جهال الناس[(٣)].

فتبين ـ بهذا ـ أن الكلام في الممثلة مقام، والكلام في المجسمة مقام آخر، فليس الاسمان على حد سواء.

ولا بد من التنبيه أيضاً على استعمال لفظ (المشبهة) بمعنى الممثلة، وهذا وإن وقع في كلام بعض الأئمة ـ كما وقع في كلامهم التشبيه بمعنى التمثيل ـ، فإن استعمال لفظ الممثلة في الذين يمثلون الله تعالى بخلقه أولى؛ لأن التمثيل دل عليه القرآن، ونفى موجبه عن الله تعالى، وأما لفظ التشبيه والمشبهة فليس لهما ذكر في الكتاب والسنة، ولا في كلام أحد من الصحابة ولا التابعين، بل اشتهر التكلم به عند

---

(١) انظر: التدمرية ص٥٣ ـ ٥٤، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ١٠٢ ـ ١٠٣.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/ ٢١٥.

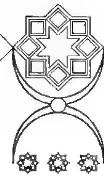
(٣) انظر: بيان تلبيس الجهمية، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ١/ ١٠٠.

أهل الكلام على اصطلاح خاص بهم، فصار فيه إجمال واشتراك وإيهام[١].

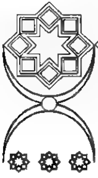
والخلاصة: أن اسم (الممثلة) أدل ـ لغة وشرعاً ـ على الذين جعلوا صفات الله تعالى من جنس صفات خلقه، وقالوا: بصر كبصري، ويد كيدي، وقدم كقدمي، ونحو ذلك من التمثيل.

---

(١) انظر: المصدر السابق: ١/١٠٩.



المبحث الثاني



مفهوم التسبيح عند الممثلة

من الواضح أن الممثلة الذين سبقت حكاية بعض مقالاتهم ليسوا سواء في طريقة تمثيلهم لله تعالى بالمخلوق، بل هم على طرائق قدد، وإن كان اسم الممثلة صادقاً عليهم جميعاً.

فمنهم من يظهر من مقالته أنه تلقى تمثيله للخالق بالمخلوق من الوثنية وعقائد الأديان المحرفة، وهذا ظاهر تماماً في المقالات المنسوبة إلى بعض فرق الشيعة في التمثيل، وما ذلك بغريب؛ لأن عقائد الشيعة ـ في الأصل ـ متلقاة من اليهودية والمجوسية[1].

ومن الممثلة من يظهر أن تمثيله للخالق بالمخلوق ناشئ من توهمات نفسه الجاهلة وتخيلات فكره الهائم.

ومع ما علم في العقيدة الإسلامية الصحيحة من منافاة التمثيل للتوحيد والتسبيح إلا أن بعض الممثلة ـ الذين زعموا أن صفات الخالق من جنس صفات المخلوقين ـ حاولوا تحسين هذا التمثيل والاحتجاج له وإخراجه في صورة الاعتقاد الصحيح في حق الله تعالى.

وتتمثل محاولتهم في ذلك في شبهات يثيرونها، ومنها:

١ ـ أن الله تعالى وصف نفسه بالوجه واليد، والوجه واليد لا

---

(١) انظر: الملل والنحل، للشهرستاني: ١/١٠٦، ١٧٣، وشرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز: ٢/٧٣٨ ـ ٧٣٩.

تكون إلا جسماً، والموصوف بهذه الصفات لا يكون إلا جسماً. قالوا: فالله تعالى جسم. وقالوا أيضاً: إن العلم والقدرة ونحوهما لا تكون إلا عرضاً وصفة حيث كان، فعلم الله وقدرته عرض، وسائر صفاته أجسام وأعراض(١).

٢ ـ أن الله تعالى أخبر عن نفسه في سورة الإخلاص بقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ [الإخلاص: ٢]. قالوا: فالله تعالى صمد، والصمد لا جوف له، وهذا إنما يكون في الأجسام المصمتة، فإنها لا جوف لها، كما في الجبال والصخور وما يصنع من عواميد الحجارة. وكما قيل: إن الملائكة صمد، ولهذا قيل: إنه لا يخرج منه شيء، ولا يدخل فيه شيء، ولا يأكل ولا يشرب، ونحو ذلك، ونفي هذا لا يعقل إلا عمن هو جسم.

وقالوا: أصل (الصمد) الاجتماع، ومنه تصميد المال، وهذا إنما يعقل في الجسم المجتمع(٢).

٣ ـ أن الله تعالى ذم في القرآن ما ليس له جوارح، وهي الأصنام التي كان يعبدها المشركون، فقال سبحانه: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ۝١٩٥﴾ [الأعراف: ١٩٥].

قالوا: فلو كان الله فاقداً للجوارح، فلم تكن له عين ولا يد ولا أذن ولا رجل، ونحو ذلك، لكان كالأصنام التي ذمها بفقد هذه الجوارح(٣).

---

(١) انظر: بيان تلبيس الجهمية، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ١/١٠٠ ـ ١٠١.
(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٧/٢٩٦.
(٣) انظر: البرهان في عقائد أهل الأديان، للسكسكي ص٣٨ ـ ٣٩.

٤ ـ أن الله تعالى خاطبنا في القرآن بما نفهم ونعقل. قالوا: ومحال أن يخاطبنا الله سبحانه بما لا نعقله، ثم يقول: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣]، و﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩]، ويقول: ﴿لِيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩]، ونظائر ذلك[(١)].

قالوا: ونحن لا نفهم ولا نعقل إلا ما كان مشاهداً، فإذا خاطبنا عن الغائب بشيء وجب حمله على المعلوم في الشاهد[(٢)].

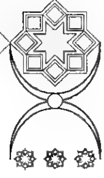
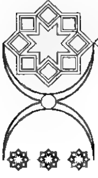
فما جاءت به النصوص من أسماء الله وصفاته يجب حمله على ما يعقل من صفات المخلوقين، مثل: علم الله، ويده. قالوا: لا نعقل علماً ويداً إلا من جنس العلم واليد المعهودين. ومثل: استوائه على العرش. قالوا: هو مماثل لاستواء الإنسان على السرير والفلك، إذ لا نعقل استواء إلا هكذا[(٣)].

فهذه جملة من شبهات الممثلة التي احتجوا بها لما أحدثوه من تمثيل الله تعالى بخلقه، وادعوه أنهم بذلك ينزهون الله تعالى ويجرون صفاته على ظاهرها، وأنهم ليسوا بذلك مشركين به ولا متنقصين له، بل موحدين ومسبحين له.

وسيتبين ـ في المبحث التالي ـ أن هذا باطل مناف للتسبيح والتقديس لله ﷻ.

---

(١) انظر: الصواعق المرسلة، لابن القيم: ٢/ ٤٢٥.
(٢) انظر: تقريب التدمرية، للشيخ ابن عثيمين ص٢٣.
(٣) الفتوى الحموية الكبرى، لشيخ الإسلام ابن تيمية ص٦٣، ١٥٧.

المبحث الثالث

إبطال ما ادعته الممثلة من التسبيح

لا ينبغي أن يرتاب في فساد مذهب أهل التمثيل الذين شبهوا الله تعالى بخلقه، وجعلوا صفاته مماثلة لصفات المخلوق، وادعوا أن ذلك هو المفهوم من النصوص التي خاطب الله بها عباده، وأخبر بها الرسول ﷺ عن الله تعالى.

فإن فساد هذا المذهب وبطلانه ظاهر في الشرع والعقل معاً، وبيان ذلك كما يلي:

أولاً: أن القرآن الكريم قد نطق بنفي التمثيل عن الله سبحانه في مواضع عديدة، مثل:

١ ـ قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وهذه الآية نفي للتمثيل عن الله تعالى من جميع الجهات، وبكل المعاني(١)، فليس كمثله شيء لا في ذاته، ولا في أسمائه وصفاته، ولا في أقواله وأفعاله(٢).

٢ ـ وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [النحل: ٧٤].

وهذه الآية نهي للعباد أن يضربوا لله الأمثال، ومعناها ـ كما قال

---

(١) انظر: شرح حديث النزول، لشيخ الإسلام ابن تيمية ص١٧٦.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٩٥/٥.

الإمام ابن جرير الطبري ـ: «فلا تمثلوا لله الأمثال، ولا تشبهوا له الأشباه، فإنه لا مثل له ولا شبيه»(١).

٣ ـ وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

وهذه الآية نهي أيضاً للعباد أن يجعلوا لله أنداداً، والأنداد: هي الأمثال والنظراء، كما سبق عند بيان معنى الشرك في الشرع(٢).

٤ ـ وقوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

وهذه الآية سبق أنها استفهام بمعنى النفي(٣). وعن ابن عباس رضي الله عنهما في معناها، قال: «هل تعلم للرب مثلاً أو شبيهاً؟»(٤). وهذا نفي أن يكون لله تعالى مثل أو شبيه من خلقه.

٥ ـ وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤].

وهذه السورة التي هي صفة الرحمٰن(٥) قد تضمنت من وصفه سبحانه ما ينفي قول أهل التمثيل ويبطله(٦)، ولا سيما قوله تعالى: ﴿أَحَدٌ﴾ فإن كونه أحداً يقتضي أنه لا مثل له ولا نظير(٧). وكذلك قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾. وقد تقدم الكلام على هذه السورة وما فيها من النفي في حق الله تعالى، في مبحث الألفاظ الدالة على معنى التسبيح(٨).

---

(١) تفسير الطبري: ٧/ ٦٢١. (٢) انظر ذلك في: ٢/ ٣٠٥.

(٣) انظر ذلك في: ١/ ١٤٤.

(٤) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره: ٨/ ٣٦١.

(٥) جاء ذلك عن عائشة رضي الله عنها عند البخاري في صحيحه ـ مع الفتح ـ: ١٣/ ٣٤٧ ـ ٣٤٨، برقم (٧٣٧٥).

(٦) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠/ ٥٤.

(٧) انظر: المصدر السابق: ١٦/ ٩٩. (٨) انظر: ١/ ١٣٨ ـ ١٤٠ من البحث.

فهذه الأدلة من كتاب الله تعالى ناطقة بنفي التمثيل عن الله سبحانه من جميع الوجوه، وناهية للعباد أن يجعلوه تعالى مثلاً لشيء من خلقه، أو يجعلوا شيئاً من خلقه مثلاً له.

فمن قال ـ في ذات الله تعالى، أو في صفة من صفاته ـ: إنها مثل شيء من مخلوقاته، فهو ضال مبطل، مكذب لله تعالى فيما وصف به نفسه المقدسة في هذه الآيات الكريمة(١).

ثانياً: أنه ليس في العقل الصريح ما يوجب مخالفة ما دلت عليه النصوص الشرعية من نفي التمثيل عن الله تعالى، بل العقل الصريح يوافق النصوص، وذلك من وجوه:

الوجه الأول: أنه قد علم بضرورة العقل أن في الوجود خالقاً ومخلوقاً، وأن الخالق أزلي، واجب بنفسه، غني عما سواه. والمخلوق حادث كائن بعد أن لم يكن، ممكن يقبل الوجود والعدم، مفتقر إلى ما سواه. وهذا يستلزم تباينهما في الذات والصفات، كما تباينا في الوجود(٢).

الوجه الثاني: أنه قد علم بالعقل أن التماثل يقتضي أن يجوز ويجب ويمتنع لكل من المتماثلين ما يجوز ويجب ويمتنع للآخر.

فلو كان الخالق مماثلاً للمخلوق ـ كما ادعته الممثلة ـ للزم اشتراكهما فيما يجوز ويجب ويمتنع، فيلزم ـ حينئذ ـ أن يثبت لهذا ما يثبت لذاك، وينفى عن ذاك ما ينفى عن هذا، فيكون كل منهما خالقاً غير خالق، واجباً بنفسه غير واجب بنفسه، غنياً عما سواه غير غني

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١١/ ٤٨١ ـ ٤٨٢.

(٢) انظر: التدمرية، لشيخ الإسلام ابن تيمية ص٢٠، وشرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز: ١/ ٦٢، والقواعد المثلى، للشيخ ابن عثيمين ص٣٥.

عما سواه، موجوداً معدوماً وأمثال ذلك في الأمور المتناقضة، **فعلم** أن تماثلهما منتف بصريح العقل[(١)].

الوجه الثالث: أن الاتفاق في الأسماء لا يستلزم الاتفاق في المسميات والحقائق[(٢)]، فإن الله تعالى أخبر أن في الجنة من المخلوقات من أصناف المطاعم والمشارب والملابس والمناكح والمساكن ما قد ذكره في كتابه. وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لا يشبه شيء مما في الجنة ما في الدنيا إلا الأسماء»[(٣)].

فإذا كانت تلك الحقائق التي في الآخرة موافقة ـ في الأسماء ـ لهذه الحقائق التي في الدنيا، وليست مماثلة لها ـ في الحقائق ـ، بل بينهما من التباين ما لا يعلمه إلا الله تعالى، فالخالق سبحانه أعظم مباينة للمخلوقات من مباينة المخلوق للمخلوق، ومباينته لمخلوقاته أعظم من مباينة موجود الآخرة لموجود الدنيا، إذ المخلوق أقرب إلى المخلوق الموافق له في الاسم من الخالق إلى المخلوق[(٤)].

كما أننا نشاهد في المخلوقات الموجودة في الدنيا ما يتفق في الأسماء ويختلف في الحقائق والكيفيات، فللإنسان يد ليس كيد الفيل، وللبعوضة جسم ليس كجسم الجمل، وللذرة قوة ليست كقوة الأسد،

---

(١) انظر: التدمرية ص١٤٤ ـ ١٤٦، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/ ٢١٧، وبيان تلبيس الجهمية، له: ١/ ٥٣، وشرح العقيدة الأصفهانية، له أيضاً ص٢٥، وشرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز: ١/ ٦٢.

(٢) انظر: القواعد المثلى، للشيخ ابن عثيمين ص٣٥.

(٣) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره: ١/ ٢١٠، وانظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ١/ ٦٦.

(٤) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/ ٢٠٧ ـ ٢٠٨ و١١/ ٤٨٢، والتدمرية ص٤٦ ـ ٤٧.

وهكذا مع الاتفاق في الاسم، فهذه يد وهذه يد، وهذا جسم وهذا جسم، وهذه قوة وهذه قوة(١).

فإذا كان المخلوق منزهاً عن مماثلة المخلوق مع الموافقة في الاسم، فالخالق أولى أن ينزه عن مماثلة المخلوق، وإن حصلت الموافقة في الاسم(٢).

فهذه الأوجه يعلم بها بطلان قول الممثلة من العقل، ويتبين بذلك أن ما دل عليه الشرع من نفي التمثيل عن الله تعالى معلوم بالعقل أيضاً، وأن مذهب أهل التمثيل ضلال في الشرع والعقل معاً.

ثالثاً: أن سبب ضلال طوائف الممثلة في حق الله تعالى يتمثل في ثلاثة أمور:

الأمر الأول: الإعراض عن الكتاب والسنة وما كان عليه سلف الأمة، والأخذ بشبهات أهل الكلام.

ومما يوضح هذا الأمر أن بعض طوئف الممثلة هم من متكلمي أهل الإثبات، ثم إنهم لما ناظروا متكلمي أهل التعطيل ألزموهم لوازم لم ينفصلوا عنها إلا بمقابلة الباطل بالباطل(٣)، وهذا ظاهر في الشبهات التي أثارها هؤلاء الممثلة، واحتجوا بها على التمثيل، مثل:

١ ـ وصفهم لله تعالى بالجسم، والجوارح، والأعراض.

فإن هذه الألفاظ ابتدعها المتكلمون في حق الله تعالى، ثم انقسموا: فقوم ينفيها ليتوصلوا بنفيها إلى نفي ما أثبته الله تعالى لنفسه،

---

(١) انظر: القواعد المثلى، للشيخ ابن عثيمين ص٣٥، وتقريب التدمرية، له ص٢٤.
(٢) انظر: التدمرية، لشيخ الإسلام ابن تيمية ص٥٠.
(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٨/١٤٦.

وأثبته له رسوله ﷺ من الأسماء والصفات، وهذا هو منهج أهل التعطيل، كما سيأتي قريباً إن شاء الله(١).

وقوم يثبتها، ليتوصلوا بإثباتها إلى إثبات ما نفاه الله تعالى عن نفسه، ونفاه عن رسوله ﷺ من النقائص والمماثلة للمخلوقات، وهذا منهج أهل التمثيل، كما علم(٢).

وقد تقرر في مذهب أهل السنة والجماعة أن هذه الألفاظ المجملة المحتملة للحق والباطل التي لم يأت في الكتاب ولا في السنة: لا بإثبات ولا بنفي، أنها لا يجوز استعمالها في حق الله تعالى، لا إثباتاً ولا نفياً، لئلا يثبت معنى فاسد ـ كما فعلته الممثلة ـ، أو ينفى معنى صحيح ـ كما فعلته المعطلة ـ، ولذلك أيضاً لا يوافق أهل السنة أحداً على إطلاق الإثبات، ولا على إطلاق النفي في هذه الألفاظ ونحوها(٣)، وقد تقدم بيان هذا عند الكلام على المفهوم الصحيح في تسبيح الله تعالى(٤).

٢ ـ احتجاجهم بأن الله تعالى ذم في القرآن الأصنام بكونها ليس لها جوارح كما في قوله تعالى: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٩٥].

وهذا الاحتجاج باطل؛ لأن هذه الآية ـ كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية ـ فيها قولان للعلماء:

---

(١) انظر: الفصل الثالث من هذا الباب.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٧/ ٣٠٠ ـ ٣٠١.

(٣) انظر: المصدر السابق: ١٧/٣٠٦، وشرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز: ١/ ٢٦٦.

(٤) انظر: ٢/ ١٨٤ ـ ١٨٧ من هذا البحث.

القول الأول: أن الله تعالى وصف الأصنام بهذه النقائص ليبين أن العابد لهذه الأصنام أكمل من المعبود.

القول الثاني: أن الله تعالى ذكر ذلك ليبين أن المعبود الحق يجب أن يكون موصوفاً بنقيض هذه الصفات.

فإن قيل بالقول الأول لا يكون في الآية تعرض لصفات الإله، وإن قيل بالقول الثاني كان في الآية دليل على أن الله متصف بما نفاه عن الأصنام[(١)].

ومعلوم أن الصفات التي نفاها الله تعالى عن الأصنام ـ في هذه الآية ـ هي صفات كمال كلها، وأن الله متصف بالكمال الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه على الوجه الذي يليق بجلاله وعظمته.

فتبين بهذا أن هذه الآية ونحوها مبينة بطلان الشرك الذي أصله وحقيقته تمثيل المخلوق بالخالق، وتمثيل الخالق بالمخلوق.

٣ ـ قولهم: إن الصمد ـ من أسماء الله تعالى ـ دال على الجسم المصمت المجتمع. وهذا القول باطل وجهل كبير بمعنى هذا الاسم الكريم الذي قال فيه أهل العلم والإيمان: إنه يجمع معاني صفات الكمال[(٢)]، كما دلت على ذلك الأقوال الواردة في معناه عن السلف الصالح[(٣)].

وقول هؤلاء: إنه جسم مصمت مجتمع، سواء أرادوا بذلك أنه كان أجزاء متفرقة ثم اجتمع، أو أرادوا أنه لم يزل مجتمعاً لكن يمكن انفصال بعضه عن بعض، كما في بدن الإنسان وغيره من الأجسام، أي

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/٢٢٣.

(٢) انظر: المصدر السابق: ١٦/٩٨، وبدائع الفوائد، لابن القيم: ١/١٧٦ ـ ١٧٧.

(٣) انظر هذه الأقوال في: تفسير الطبري: ١٢/٧٤١ ـ ٧٤٤، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٨/١٤٩ ـ ١٥٠.

هذين المعنيين أرادوا فالله سبحانه منزه عن ذلك؛ لأن ذلك إنما يجوز على ما يجوز أن يفنى بعضه أو يعدم، وما قبل الفناء والعدم لم يكن واجب الوجود بذاته، ولا أولاً ولا آخراً، فإن ما وجب وجوده امتنع عدمه، وكذلك صفاته التي لم يزل موصوفاً بها وهي من لوازم ذاته، إذ يمتنع أن يعدم اللازم إلا مع عدم الملزوم.

ولهذا قال من قال من السلف: (الصمد) هو الدائم، وهو الباقي بعد فناء خلقه(١)، فإن هذا من لوازم الصمدية، إذ لو قبل العدم لم تكن صمديته لازمة له، بل جاز عدم صمديته، فلا يبقى صمداً، ولا تنتفي عنه الصمدية إلا بجواز العدم عليه، وذلك محال، فلا يكون مستوجباً للصمدية إلا إذا كانت لازمة له، وذلك ينافي عدمه، وهو مستوجب للصمدية، لم يصر صمداً بعد أن لم يكن تعالى وتقدس، فإن ذلك يقتضي أنه كان متفرقاً فجمع، وأنه مفعول محدث مصنوع، وهذه صفة مخلوقاته. وأما الخالق تعالى الذي يمتنع عليه أن يكون معدوماً، أو مفعولاً، أو محتاجاً إلى غيره بوجه من الوجوه، فلا يجوز عليه شيء من ذلك، فعلم أنه لم يزل صمداً، ولا يزال صمداً، فلا يجوز أن يقال: كان متفرقاً فاجتمع، ولا أنه يتفرق، بل ولا أنه يخرج منه شيء، ولا يدخل فيه شيء.

وهذا مما هو متفق عليه بين طوائف المسلمين، وإن كان أحد من الجهال أو من لا يعرف قد يقول خلاف ذلك، فمثل هؤلاء لا تنضبط خيالاتهم الفاسدة، كما أنه ليس في طوائف المسلمين من يقول: إنه مولود ووالد، وإن كان هذا قد قاله بعض الكفار(٢).

---

(١) ممن قال بذلك: قتادة والحسن، كما رواه ابن جرير الطبري في تفسيره: ١٢/ ٧٤٤.

(٢) الكلام في هذه الفقرة منقول بتصرف من مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٧/ ٢٩٧ ـ ٢٩٨.

وبالجملة: فإن معنى اسمه (الصمد) ـ إذا حققته ـ ينفي قول أهل التمثيل الذين يمثلونه بخلقه، كما أن سورة الإخلاص التي ورد فيها هذا الاسم الكريم هي ـ عند أهل السنة والجماعة ـ عمدة في إثبات صفات الكمال لله تعالى ونفي التمثيل عنه سبحانه[1].

٤ ـ قولهم: إن الله تعالى خاطبنا في القرآن بما نفهم ونعقل، هو كلمة حق أريد بها باطل؛ لأنهم يريدون به أنهم لا يفهمون ولا يعقلون من آيات الصفات إلا مثل ما هو مشاهد في المخلوق.

فيقال لهم: أما المؤمنون المتمسكون بكتاب الله وبسنة رسوله ﷺ فلا يفهمون ولا يعقلون من آيات الصفات مماثلة بين الخالق والمخلوق بوجه من الوجوه، لما ثبت عندهم بالشرع والعقل من التباين بين الخالق والمخلوق، وأنه تعالى ليس كمثله شيء، ولم يكن له كفواً أحد، كما سبق بيانه.

ومن لم يفهم ولم يعقل من صفات الله تعالى إلا مثل ما هو مشاهد في المخلوق فلكونه ضالاً في عقله، جاهلاً بالعقيدة التي جاء بها الرسول ﷺ في الله ﷻ.

وهكذا يتبين أن الشبهات التي أثارها أهل التمثيل كلها متلقى من المنهج الكلامي المبتدع، وهم يحاولون تصحيح باطلهم ببعض ما يذكرونه من النصوص الشرعية التي لا تدل على مذهبهم، بل تدل على عكس ما يريدون لأن النصوص الشرعية لا تدل إلا على الحق، ولا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها بحال من الأحوال.

الأمر الثاني: ـ في سبب ضلال الممثلة ـ: الغلو.

وذلك أن هؤلاء الممثلة أخذوا ما جاء في الكتاب والسنة من

---

(١) انظر: المصدر السابق: ١٠/ ٥٤.

الإثبات في حق الله تعالى وزادوا فيه على الحق فضلوا[١]، ولأنهم لم يقنعوا بما وردت به نصوص الكتاب والسنة من أسماء الله تعالى وصفاته، حتى ابتدعوا في الإثبات في حق الله تعالى ألفاظاً ومعاني مخالفة لما دلت عليه النصوص من نفي التمثيل عن الله سبحانه[٢].

فالممثلة ـ إذا ـ غلوا في جانب الإثبات، فجاوزوا نصوص الكتاب والسنة وفهم السلف الصالح لها، وقصروا في جانب النفي الذي دل عليه الكتاب والسنة في حق الله تعالى، فمثلوه سبحانه بخلقه وأطلقوا في وصفه تعالى ألفاظاً مبتدعة[٣].

ولهذا قال يزيد بن هارون[٤]: «إن المشبهة غلت ففرغت في غلوها حتى مثلت»[٥].

وقال أحمد بن سنان[٦]: «المشبهة: الذين غلوا فجاوزوا

---

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز: ١/ ٦٤.

(٢) انظر: منهاج السنة النبوية، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ١/ ٧١ ـ ٧٢.

(٣) انظر: شرح العقيدة الطحاوية: ١/ ٢٥٩، وتقريب التدمرية، للشيخ ابن عثيمين ص٢٣.

(٤) هو يزيد بن هارون بن زاذان السلمي مولاهم، أبو خالد الواسطي، كان إماماً ثقة حافظاً متقناً عابداً، توفي سنة (٢٠٦هـ) رحمه الله.
انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي: ١/ ٣١٧ ـ ٣٢٠، وتقريب التهذيب، لابن حجر: ٢/ ٣٨١.

(٥) أورده اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة: ٢/ ٥٣١ ـ ٥٣٢، برقم (٩٣٤).

(٦) هو أحمد بن سنان بن أسد بن حبان، أبو جعفر الواسطي القطان، كان إماماً ثقة حافظاً، وتوفي سنة (٢٥٦هـ) وقيل: بعدها، رحمه الله تعالى.
انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي: ١/ ٥٢١، وتقريب التهذيب، لابن حجر: ١/ ٣٥ ـ ٣٦.

الحديث، فأما الذين قالوا بالحديث، فلم يزيدوا على ما سمعوا»[١].

ولقد كان من أسباب غلو بعض طوائف الممثلة أنهم لما رأوا إفراط أهل التعطيل في نفي صفات الله تعالى، عارضوهم بالإفراط في إثبات صفات الله، فقالوا بالتمثيل والكيفية فيها، وسبحان الله وتعالى عما يصفون[٢].

الأمر الثالث: ـ مما ضلت الممثلة ـ: التوهم والتكييف في ذات الله تعالى وصفاته.

فإن هؤلاء الممثلة تعرضوا للكلام في كنه الله تعالى، وتعسفوا في البحث عن حقائق أسمائه وصفاته، وراموا علم ما لم ينالوا، فضلوا وهلكوا، وكانوا ـ كما قال بعض العلماء ـ: «من رام علم ما حظر عنه علمه، ولم يقنع بالتسليم فهمه، حجبه مرامه عن خالص التوحيد وصافي المعرفة وصحيح الإيمان»[٣].

وذلك أن كنه ذات الله تعالى، وكيفيات أسمائه وصفاته التي هي عليها، قد حظر علمها عن العباد، ولم يجعل لهم إلى ذلك سبيل، فالله ﷻ لا تبلغه الأوهام، ولا تدركه الأفهام، ولا يعلم كيف هو إلا هو[٤]؛ لأنه سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ولقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

ولهذا بدَّع الإمام مالك السائل الذي سأله عن كيفية استواء الله تعالى، كما جاء في الأثر: «جاء رجل إلى مالك بن أنس، فقال: يا

---

(١) رواه أبو القاسم التيمي في الحجة في بيان المحجة: ١/ ١٨٠.

(٢) انظر: الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة، لابن قتيبة ـ ضمن عقائد السلف ـ ص٢٤٣.

(٣) من متن العقيدة الطحاوية ـ مع شرحه، لابن أبي العز ـ: ١/ ٢٣٣.

(٤) انظر: المصدر السابق: ١/ ٨٤.

أبا عبد الله، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، كيف استوى؟».

قال الراوي: «فما رأيت مالكاً وجد من شيء كموجدته من مقالته، وعلاه الرحضاء ـ يعني العرق ـ، قال: وأطرق القوم وجعلوا ينتظرون ما يأتي منه فيه. قال: فسري عن مالك، فقال: الكيف غير معقول، والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وإني أخاف أن تكون ضالاً، وأمر به فأخرج»[1].

وجميع أئمة الدين كلامهم يدل على ما دل عليه كلام الإمام مالك، من أن العلم بكيفية الصفات ليس بحاصل لنا؛ لأن العلم بكيفية الصفة فرع عن العلم بكيفية الموصوف، فإذا كان الموصوف لا تعلم كيفيته، امتنع أن تعلم كيفية الصفة[2].

ومن هنا كان معتقد أهل السنة والجماعة في الله تعالى قائماً على إثبات أسمائه وصفاته الثابتة في الكتاب والسنة، وتنزيهه عما يضادها من النقائص والتمثيل، مع قطع الطمع عن إدراك الكيفية[3].

فالمؤمن يعلم معاني أسماء الله وصفاته، ويعلم أحكام هذه الأسماء والصفات وآثارها، وهذا هو الذي أريد منه شرعاً، وهو الذي

---

(١) رواه الدارمي في الرد على الجهمية ـ ضمن عقائد السلف ـ ص٢٨٠، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة: ٢/٣٩٨، برقم (٦٦٤).

وانظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/١٨٠ ـ ١٨١، ومختصر العلو، للذهبي، باختصار الألباني ص١٤١، رقم (١٣٢)، وفتح الباري، لابن حجر: ١٣/٤٠٦.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/٣٩٩.

(٣) انظر: منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي ـ ضمن القواعد الطيبات ـ ص٤٣ ـ ٤٤، ٨٣ ـ ٨٧.

يفيده ويصلحه[١]، وأما علم ما وراء ذلك من الحقائق والكيفيات فليس مراداً منه، وليس له سبيل إليه، بل غاية علم الخلق هكذا يعلمون الشيء من بعض الجهات ولا يحيطون بكنهه، وعلمهم بأنفسهم من هذا الضرب[٢].

ولو سلم أهل التمثيل بهذه الحقيقة العلمية الإيمانية لسلموا، ولكنهم أبوا، فضلوا والله يهدي من يشاء إلى الصراط المستقيم.

رابعاً: أن تمثيل الله ﷻ بالمخلوق ينطوي على مخاطر جسيمة تتمثل في ثلاثة أمور:

الأمر الأول: الإلحاد في أسماء الله وصفاته، وذلك لأن الممثلة زعموا أنهم يجرونها على ظاهرها، ويجعلون ظاهرها من جنس ما للمخلوقين من الأسماء والصفات، فاعتقدوا فيها معنى باطلاً لا يليق بالله تعالى ـ وهو التمثيل ـ، وأبقوا دلالتها على ذلك، فهم بهذا جمعوا بين التمثيل لها بخصائص المخلوقين، والتعطيل لها عن حقائقها اللائقة بالله سبحانه[٣].

الأمر الثاني: التنقيص لرب العالمين، فإنه سبحانه العلي الأعلى العظيم، فهو أعلى من كل شيء، وأعظم من كل شيء، ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].

فالممثل الذي يمثل الله تعالى بغيره، إن قصد تعظيمه لم يكن في هذا تعظيم، بل هو تنقيص؛ لأنه مثل أعظم العظماء بما هو دونه، بل بما ليس

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٣٥٨/٦.
(٢) انظر: المصدر السابق: الموضع نفسه.
(٣) انظر: الفتوى الحموية الكبرى، لشيخ الإسلام ابن تيمية ص١٥٦، وبدائع الفوائد، لابن القيم: ١٨٦/١، والتوضيح المبين، للسعدي ص١٧٣، والقواعد المثلى، للشيخ ابن عثيمين ص٤٦.

بينه وبينه نسبة وشبه في العظمة والجلالة، وعاقل لا يفعل هذا[(١)].

فالتمثيل بين الخالق والمخلوق ـ على أي وجه كان ـ يستلزم نقص الخالق سبحانه[(٢)].

الأمر الثالث: الشرك بالله تعالى، فإن «القول بمماثلة الخالق للمخلوق يقتضي بطلان العبودية الحق؛ لأنه لا يخضع عاقل لأحد ويذل له على وجه التعظيم إلا أن يكون أعلى منه»[(٣)].

والممثل الذي يمثل الله بخلقه إنّما هو عابد للصنم الذي قد صوره بخياله، لا لله تعالى، فإنه ليس كمثله شيء[(٤)].

خامساً: أن السلف الصالح قاطبة اتفقت أقوالهم على نبذ التمثيل، والإنكار على الممثلة[(٥)]، كما قال نعيم بن حماد الخزاعي: «من شبه الله بشيء من خلقه فقد كفر، ومن أنكر ما وصف الله به نفسه فقد كفر، فليس ما وصف الله به نفسه ورسوله تشبيهاً»[(٦)].

وقال إسحاق بن راهويه[(٧)]: «من وصف الله فشبه صفاته بصفات

---

(١) انظر: إغاثة اللهفان، لابن القيم: ٢/ ٢٨١.

(٢) انظر: تقريب التدمرية، للشيخ ابن عثيمين ص٢٤.

(٣) مقتبس من: المصدر السابق ص٢٤.

(٤) انظر: الكافية الشافية، لابن القيم ص٢٨، وشرح القصيدة النونية، لهراس: ١/ ٤٢٥.

(٥) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ٣٥٦، وبيان تلبيس الجهمية، له: ١/ ٥٣.

(٦) سبق ذكره في ١/ ١٦٢ ـ ١٦٣.

(٧) هو إسحاق بن إبراهيم بن مخلد الحنظلي، أبو محمد المروزي، المعروف بابن راهويه ، أحد الأئمة من أقران الإمام أحمد بن حنبل الذي قال فيه: «إسحاق لم يلق مثله»، وكان ثقة حافظاً مجتهداً، وتوفي سنة (٢٣٨هـ)، رحمه الله تعالى. =

أحد من خلق الله فهو كافر بالله العظيم؛ لأنه وصف بصفاته، إنّما هو استسلام لأمر الله ولما سن الرسول» اهـ[١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأما لفظ (المشبهة)، فلا ريب أن أهل السنة والجماعة والحديث من أصحاب مالك والشافعي وأبي حنيفة وأحمد وغيرهم متفقون على تنزيه الله تعالى عن مماثلة الخلق، وعلى ذمّ المشبهة الذين يشبهون صفاته بصفات خلقه، ومتفقون على أن الله ليس كمثله شيء، لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله» اهـ[٢].

وبهذا يتبين فساد مذهب التمثيل، وأن الممثلة ناقضوا التسبيح المشروع كل المناقضة، وخالفوا العقيدة الصحيحة التي كان عليها السلف الصالح.

= انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي: ٢/ ٤٣٣ ـ ٤٣٥، وتقريب التهذيب، لابن حجر: ١/ ٦٧.

(١) رواه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة: ٢/ ٥٣٢، برقم (٩٣٧).

(٢) منهاج السنة النبوية، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٢/ ٥٢٢.

الفصل الثالث

الرد على تسبيح المعطلة

تمهيد

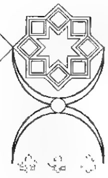
وهذا الفصل يتناول فرقة هي في الواقع أكبر الفرق المنتسبة إلى الإسلام وأكثرها تأثيراً في عقيدة الأمة الإسلامية، بما أحدثته من مقالات اعتقادية، وما ادعته من التنزيه والتقديس لله تعالى.

وسيكون تناول ذلك في ثلاثة مباحث على النحو الآتي:

المبحث الأول: التعريف بالمعطلة.

المبحث الثاني: مفهوم التسبيح عند المعطلة.

المبحث الثالث: إبطال ما ادعته المعطلة من التسبيح.

المبحث الأول

التعريف بالمعطلة

أولاً: المعطلة في اللغة:

المعطل: اسم فاعل من التعطيل، والتعطيل تفعيل من مادة (عطل)، وهذه المادة اللغوية أصل صحيح يدل على العدم، والخلو، والفراغ والترك، والضياع[1].

ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ [الحج: ٤٥]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «التي قد تركت»[2]. وقال الضحاك: «لا أهل لها»[3].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾﴾ [التكوير: ٤] أي: أهملت وسيبت، فلا راعي لها[4]. والعشار: يعني عشار الإبل، جمع عشراء، وهي التي أتى عليها عشرة أشهر من حملها[5].

والعرب تقول: عَطِلت المرأة، تعطل، عَطَلاً وعُطولاً، وتعطّلت:

---

(١) انظر: مادة (عطل) في تهذيب اللغة، للأزهري: ٢/ ١٦٥ ـ ١٦٦، ومقاييس اللغة، لابن فارس: ٤/ ٣٥١ ـ ٣٥٢، والصحاح، للجوهري: ٥/ ١٧٦٧ ـ ١٧٦٨، ولسان العرب، لابن منظور: ١١/ ٤٥٣ ـ ٤٥٦، والقاموس المحيط، للفيروز آبادي ص١٣٣٥.

(٢) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره: ٩/ ١٦٩.

(٣) المصدر السابق.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ١٢/ ٤٥٩.

(٥) انظر: المصدر السابق: ١٢/ ٤٥٨.

إذا لم تلبس الزينة[(١)]، وامرأة عاطل، إذا كانت لا حلي لها[(٢)].

وعطل الرجل من المال أو الأدب: إذا خلا منه، فهو عُطْل، وعُطُل. وتعطل الرجل: إذا بقي لا عمل له، والاسم: العطلة. والأعطال: الرجال الذين لا سلاح معهم[(٣)]. وكل ما ترك ضياعاً: مُعَطَّل ومُعْطَل[(٤)].

والتعطيل: التفريغ، والإخلاء، والإهمال، وترك الشيء، وتضييعه[(٥)]. والمُعطِّل: فاعل ذلك.

والمعطلة زيدت فيه التاء لإفادة الاسمية والجماعية.

ثانياً: المعطلة في الشرع:

يطلق اسم (المعطلة) ـ عند أهل السنة والجماعة ـ على أصحاب التعطيل في حق الله تعالى.

والتعطيل في حقه سبحانه إما أن يتعلق بذاته وربوبيته للعالمين، وإما أن يتعلق بأسمائه وصفاته، وإما أن يتعلق بألوهيته وعبادته.

فهذه أنواع التعطيل شرعاً، وهي ـ في الحقيقة ـ راجعة إلى التعطيل في توحيد الله تعالى بأنواعه الثلاثة المعلومة في الشرع، وهي: توحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات، وتوحيد الألوهية[(٦)].

وهذه الأنواع من التعطيل ذكرها الإمام ابن قيم الجوزية، حيث بين أن التعطيل ثلاثة أقسام:

---

(١) انظر: تهذيب اللغة، للأزهري: ٢/ ١٦٥.

(٢) انظر: مقاييس اللغة، لابن فارس: ٤/ ٣٥٢.

(٣) انظر: الصحاح، للجوهري: ٥/ ١٧٦٨.

(٤) انظر: لسان العرب، لابن منظور: ١١/ ٤٥٥.

(٥) انظر: القاموس المحيط، للفيروز آبادي ص١٣٣٥.

(٦) سبق الكلام على أنواع التوحيد، في ١/ ٤٩٢ من البحث.

الأول: تعطيل المصنوع عن صانعه وخالقه.

الثاني: تعطيل الخالق سبحانه عن كماله المقدس، بتعطيل أسمائه وأوصافه وأفعاله.

الثالث: تعطيل معاملته عما يجب على العبد من حقيقة التوحيد[١].

وذكرها أيضاً غير ابن القيم من العلماء[٢].

فالمعطلة ـ إذاً ـ ثلاثة أصناف، بحسب أنواع التعطيل:

الصنف الأول: المنكرون لوجود الله تعالى الجاحدون لربوبيته.

وهذا الصنف عرفهم أبو الحسين الملطي[٣] بقوله: «المعطلة: الذين يزعمون أن الأشياء كائنة من غير تكوين، وأنه ليس لها مكون ولا مدبر، وأن هذا الخلق بمنزلة النبات في الفيافي والقفار، يموت سنة شيء، ويحيى سنة شيء، وينبت شيء، وأنها تغلب عليها الطبائع الأربعة[٤] في أبدانها، فإذا غلبت إحداهن قتلته؛ لأنه يموت الصغير، ويحيى الكبير، وأن أباه خلقه وخلق الأب أبوه، لا يعرفون آدم، وأن

---

(١) انظر: الجواب الكافي ص١٣٤ ـ ١٣٥ وشفاء العليل: ٢/ ٨ ـ ٩.

(٢) انظر: تجريد التوحيد المفيد، للمقريزي ص٦٩ ـ ٧٠، والتنبيهات السنية على العقيدة الواسطية، للشيخ عبد العزيز الناصر الرشيد ص٢٣.

(٣) هو محمد بن أحمد بن عبد الرحمٰن الملطي، أبو الحسين، المقرئ، الفقيه الشافعي، من مؤلفاته: التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع، وتوفي سنة (٣٧٧هـ) رحمه الله.

انظر: الطبقات الشافعية الكبرى، للسبكي: ٣/ ٧٧، ومعجم المؤلفين، لكحالة: ٣/ ٧٢ ـ ٧٣.

(٤) الطبائع الأربعة: هي الحرارة، والبرودة، والرطوبة، واليبوسة.
انظر: المعجم الوسيط، مادة (طبع): ٢/ ٥٥٠.

آدم له آباء، وتعالى الله عما يقولون علواً كبيراً» اهـ[١].

وهؤلاء ـ كما قال الإمام ابن القيم ـ «هم المعطلة حقاً، وهم فحول المعطلة»[٢]؛ لأن قولهم هو نفي وجود الخالق وجحده بالكلية.

ولا يدخل هذا الصنف في المعطلة المقصودين بالرد في هذا الفصل؛ لأن هؤلاء لا يقرون بوجود الخالق ولا بربوبيته، فضلاً عن دعوى تسبيحه وتقديسه.

الصنف الثاني: المعطلون لمعاملته سبحانه عما يجب عليهم من حقيقة التوحيد، وهم المشركون بالله تعالى في ألوهيته وعبادته، مع إقرارهم بوجوده وأنه رب العالمين.

وهذا الصنف من المعطلة اسم الشرك أخص بهم من اسم التعطيل، وإن دخلوا في جملة المعطلة بالمعنى العام؛ لأنهم عطلوا حق الله تعالى عليهم بصرفهم العبادة إلى غيره، واتخاذهم آلهة أخرى من دونه.

وقد سبق الكلام عن هؤلاء المشركين، والرد على ما ادعوه من التسبيح في إشراكهم بالله تعالى في العبادة[٣].

الصنف الثالث: المعطلون لأسماء الله تعالى وأوصافه وأفعاله، أو لشيء منها، مع الإقرار بربوبيته وألوهيته سبحانه.

واسم (المعطلة) أخص بهذا الصنف من غيرهم، ولا سيما في كلام السلف والأئمة من أهل السنة والجماعة، وهم المعنيون بالرد في هذا

---

(١) التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع، تحقيق يمان بن سعد الدين المياديني ص١٠٦.
(٢) إغاثة اللهفان: ٢/ ٣١١.
(٣) كان ذلك موضوع الفصل الأول من هذا الباب. وانظر: ٢/ ٣٠٣.

الفصل؛ لأن هؤلاء المعطلة ينتسبون إلى الملة الإسلامية، ويدعون تنزيه الله تعالى وتقديسه بتعطيل أسمائه وأوصافه وأفعاله كلها أو بعض منها.

وقد عرف بهم الإمام أبو زرعة الرازي[١]، فقال: «المعطلة: النافية الذين ينكرون صفات الله ﷻ التي وصف بها نفسه في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ، ويكذبون بالأخبار الصحاح التي جاءت عن رسول الله ﷺ في الصفات، ويتأولونها بآرائهم المنكوسة على موافقة ما اعتقدوه من الضلالة، وينسبون رواتها إلى التشبيه، فمن نسب الواصفين ربهم تبارك وتعالى بما وصف به نفسه في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ ـ من غير تمثيل ولا تشبيه ـ إلى التشبيه، فهو معطل ناف، ويستدل عليهم بنسبتهم إياهم إلى التشبيه أنهم معطلة نافية. كذلك كان أهل العلم يقولون، منهم عبد الله بن المبارك، ووكيع بن الجراح[٢]» اهـ[٣].

---

(١) هو عبيد الله بن عبد الكريم بن يزيد بن فروخ القرشي مولاهم، أبو زرعة الرازي، الإمام الحافظ المشهور، كان من كبار أفراد الدهر حفظاً وذكاء، وديناً وإخلاصاً، وعلماً وعملاً، وهو من أئمة الجرح والتعديل، ومن أحفظ الناس لحديث رسول الله ﷺ، توفي سنة (٢٦٤هـ)، رحمه الله تعالى.
انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي: ٢/ ٥٥٧ ـ ٥٥٨، وتهذيب التهذيب، لابن حجر: ٧/ ٣٠ ـ ٣٣.

(٢) هو وكيع بن الجراح بن مليح الرؤاسي، أبو سفيان الكوفي، أحد الأئمة الأعلام، كان ثقة مأموناً عابداً رفيع القدر كثير الحديث، وكان حفظه للحديث عجباً، ولم يكن بالكوفة في زمانه أفقه ولا أعلم بالحديث منه، وتوفي راجعاً من الحج، سنة (١٩٧هـ)، رحمه الله تعالى. انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي: ٢/٣٠٦ ـ ٣٠٩، وتهذيب التهذيب، لابن حجر: ١١/ ١٢٣ ـ ١٣٠.

(٣) رواه أبو الشيخ في كتاب السنة، ونقله عنه أبو القاسم التيمي في الحجة في بيان المحجة: ١/ ١٨٧، ١٩٦ ـ ١٩٧، وشيخ الإسلام ابن تيمية في بيان تلبيس الجهمية: ١/ ١٠٥ ـ ١٠٦.

ويصدق هذا التعريف على من نفى جميع صفات الله تعالى الثابتة في الكتاب والسنة، وعلى من نفى بعضاً منها.

كما يؤخذ من هذا التعريف أهم سمات المعطلة[(١)]، وأنهم سموا بهذا الاسم لنفيهم عن الله تعالى صفات كماله، وإخلائهم له منها[(٢)]، وبذلك تظهر المناسبة بين هذه التسمية وبين المعنى اللغوي للفظ (المعطلة)، كما سبق بيانه.

ثالثاً: نشأة المعطلة في الإسلام:

وليس هناك أدنى شك في أن نفي شيء من صفات الله تعالى وأسمائه وأفعاله، وإنكار قيامه بذاته سبحانه، مخالف لعقيدة الإسلام التي جاء بها كتاب الله تعالى، ودعا إليها رسول الله ﷺ. ولهذا لم يعرف ـ في المائة الأولى من التاريخ الهجري ـ أحد من المسلمين قال بالتعطيل. وإنما ظهر القول بذلك في أوائل المائة الثانية من الهجرة[(٣)]، على يد الجعد بن درهم[(٤)]،

---

(١) هذه السمات هي:
١ ـ نفي الصفات وإنكارها.
٢ ـ التكذيب بأحاديث الصفات.
٣ ـ تأويل نصوص الصفات بالرأي وفق معتقدهم الباطل.
٤ ـ نسبة أهل السنة والجماعة المثبتين لأسماء الله وصفاته على ظاهرها ـ بلا تعطيل ولا تمثيل ـ إلى التشبيه.

(٢) انظر: الروضة الندية شرح العقيدة الواسطية، للشيخ زيد بن عبد العزيز بن فياض ص٢٦.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ٣٣ و٨/ ٢٢٨ و١٠/ ٣٥٧.

(٤) قال الذهبي: «الجعد بن درهم، عداده في التابعين، مبتدع ضال، زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى، فقتل على ذلك بالعراق، يوم النحر، والقصة مشهورة» [ميزان الاعتدال: ١/ ٣٩٩].
وقال الحافظ ابن حجر: «وللجعد أخبار كثيرة في الزندقة» [لسان الميزان: ٢/ ١٠٥].

=

وصاحبه الجهم بن صفوان[١].

فكان الجعد أول من ابتدع مقالة التعطيل في الإسلام[٢]؛ لأنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليماً، وهذا نفي وإنكار لمحبة الله تعالى ولكلامه[٣]، وبسبب ذلك أمر علماء الإسلام بقتله[٤]. وكان الجهم قد أخذ هذا المذهب عنه[٥]، فأظهره وبسطه، وبالغ فيه، ودعا إليه، فصارت به مذهباً لم يزل هو يدعو إليه الرجال، وامرأته زهرة تدعو إليه النساء، حتى استهويا خلقاً من خلق الله كثيراً[٦].

فللجهم في هذه المقالة مزية المبالغة في النفي، والابتداء بكثرة

= وكتب الأستاذ الدكتور محمد بن خليفة التميمي ترجمة مفصلة عنه في كتابه: مقالة التعطيل، والجعد بن درهم ص١٣١ ـ ١٩٨.

(١) قال الذهبي: «جهم بن صفوان، أبو محرز السمرقندي، الضال المبتدع، رأس الجهمية، هلك في زمان صغار التابعين، وما علمته روى شيئاً، لكنه زرع شراً عظيماً» [ميزان الاعتدال: ١/ ٤٢٦]. وكان هلاك جهم سنة (١٢٨هـ). انظر: البداية والنهاية، لابن كثير: ١٠/ ٢٨، ٣٠.

(٢) انظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، للالكائي: ١/ ٣١٢، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠/ ٦٦ و١٢/ ١١٩، ومنهاج السنة النبوية، له ١/ ٣٠٩.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٨/ ٣٥٧.

(٤) انظر: المصدر السابق: ١٢/ ٢٦، ٣٥٠.

(٥) قال ابن كثير: «وأما الجعد فإنه أقام بدمشق حتى أظهر القول بخلق القرآن، فتطلبه بنو أمية، فهرب منهم، فسكن الكوفة، فلقيه فيها الجهم بن صفوان فتقلد هذا القول عنه» [البداية والنهاية: ٩/ ٣٦٤].

(٦) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠/ ٦٧، وبيان تلبيس الجهمية، له: ١/ ٢٧٧.

إظهار ذلك، والدعوة إليه، وإن كان الجعد بن درهم قد سبقه إلى بعض ذلك[١].

ولما كان في حدود المائة الثالثة من الهجرة انتشرت مقالة التعطيل بسبب بشر المريسي[٢]، وأحمد بن أبي دؤاد[٣]. وبسبب مناصرة بعض خلفاء بني العباس لهذه المقالة، وحملهم الناس عليها بقوة السلطان، بعد تلقيهم لها عن المعطلة الذين تمكنوا من الغلبة على مجالس هؤلاء الخلفاء، والتأثير فيهم[٤].

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٢/ ١١٩.

(٢) هو بشر بن غياث بن أبي كريمة المريسي، أبو عبد الرحمٰن، المتكلم، شيخ المعتزلة، تفقه على أبي يوسف، فبرع وأتقن علم الكلام، ثم جرد القول بخلق القرآن وناظر عليه، ولم يدرك الجهم بن صفوان، وإنما أخذ مقالته واحتج لها، ودعا إليها، وقد هلك سنة (٢١٨هـ).
انظر: ميزان الاعتدال، . للذهبي: ١/ ٣٢٢، والبداية والنهاية، لابن كثير: ١٠/ ٢٩٤.

(٣) هو أحمد بن أبي دؤاد فرج بن جرير الإيادي، أبو عبد الله، ولي القضاء للمعتصم، ثم للواثق، وكان جهمياً معتزلياً بغيضاً، ضالاً مضلاً، وكان مع ذلك موصوفاً بالجود والسخاء، كما كان أديباً فصيحاً، وقد ابتلاه الله بالفالج قبل موته بأربع سنين، حتى بقي طريحاً في فراشه لا يستطيع أن يحرك شيئاً من جسده، وكان هلاكه سنة (٢٤٠هـ). انظر: البداية والنهاية، لابن كثير: ١٠/ ٣٣٣ ـ ٣٣٦.

(٤) الخلفاء العباسيون الذين كان لهم دور في مناصرة مقالة التعطيل هم:
١ ـ عبد الله المأمون بن هارون الرشيد، وخلافته (١٩٨ ـ ٢١٨هـ).
٢ ـ المعتصم، وخلافته (٢١٨ ـ ٢٢٧هـ).
٣ ـ الواثق، وخلافته (٢٢٧ ـ ٢٣٢هـ).
وبعد هؤلاء جاء المتوكل الذي تولى الخلافة (٢٣٢ ـ ٢٤٧هـ) فكسر شوكة أهل التعطيل ونصر السنة.
وانظر: مقالة التعطيل، للدكتور محمد بن خليفة التميمي ص٨٠ ـ ٨٧.

وصاحب هذا التطور تعريب كتب المنطق[(١)] والفلسفة[(٢)]، واشتغال بعض المسلمين بها، مما فتح باب الجدل والنظر العقلي البحت في مسائل الاعتقاد، وساعد على انتشار مقالة التعطيل[(٣)]، وتأثيرها في عقائد كثير من المسلمين ـ حتى يومنا هذا ـ، إلا من رحمه الله تعالى فتمسك بالكتاب والسنة بفهم السلف الصالح ومنهجهم في الاعتقاد والعمل.

رابعاً: جذور مذهب المعطلة:

وقد أوضح شيخ الإسلام ابن تيمية جذور مذهب المعطلة، والأصول التي ترجع إليها مقالتهم في التعطيل، فقال رحمه الله: «ثم أصل هذه المقالة ـ مقالة التعطيل للصفات ـ إنما هو مأخوذ عن تلامذة اليهود والمشركين، وضلال الصابئين، فإن أول من حفظ عنه أنه قال هذه المقالة في الإسلام ـ أعني: أن الله سبحانه وتعالى ليس على العرش حقيقة، وأن معنى (استوى) بمعنى استولى، ونحو ذلك ـ هو الجعد بن درهم، وأخذها عنه الجهم بن صفوان، وأظهرها فنسبت مقالة الجهمية إليه.

---

(١) المنطق: يعرفه أهله بأنه آلة قانونية تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ في الفكر. فهو علم عملي آلي، كما أن الحكمة علم نظري غير آلي [التعريفات، للجرجاني ص٣٠١].
ويزعم أصحاب المنطق أنه ميزان المعاني، ولكن أهل البصيرة من علماء الإسلام بينوا فساد هذا الميزان وعوجه، وتعويجه للعقول، وتخبيطه للأذهان، وصنفوا في رده كتباً عديدة، منها: نقض المنطق، والرد على المنطقيين، كلاهما لشيخ الإسلام ابن تيمية. وانظر: إغاثة اللهفان، لابن القيم: ٢/ ٣١٥.

(٢) انظر: التعريف بالفلاسفة، في ص٢/ ٣١٢.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٣/ ١٨٣ ـ ١٨٤، والفتوى الحموية الكبرى، له ص٥٠، والصواعق المرسلة، لابن القيم: ٣/ ١٠٧٢ ـ ١٠٧٣.

وقد قيل: إن الجعد أخذ مقالته عن أبان بن سمعان، وأخذها أبان عن طالوت ابن أخت لبيد بن الأعصم، وأخذها طالوت من لبيد بن الأعصم اليهودي الساحر الذي سحر النبي ﷺ(١).

وكان الجعد بن درهم هذا ـ فيما قيل ـ من أهل حران(٢)، وكان فيهم خلق كثير من الصابئة والفلاسفة...، فكانت الصابئة ـ إلا قليلاً منهم ـ إذ ذاك على الشرك، وعلماؤهم هم الفلاسفة، وإن كان الصابئ قد لا يكون مشركاً، بل مؤمناً بالله واليوم الآخر، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة: ٦٢]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [المائدة: ٦٩].

لكن كثيراً منهم أو أكثرهم كانوا كفاراً أو مشركين، كما أن كثيراً من اليهود والنصارى بدلوا وحرفوا، وصاروا كفاراً أو مشركين. فأولئك الصابئون ـ الذين كانوا إذ ذاك ـ كانوا كفاراً أو مشركين، وكانوا يعبدون الكواكب ويبنون لها الهياكل.

ومذهب النفاة من هؤلاء في الرب: أنه ليس له إلا صفات سلبية، أو إضافية، أو مركبة منهما(٣)، وهم الذين بعث إليهم إبراهيم

(١) ذكر الحافظ ابن كثير إسناد هذه المقالة أيضاً في البداية والنهاية: ٩/ ٣٦٤.
(٢) حران ـ بتشديد الراء ـ: مدينة من مدن الجزيرة التي بين دجلة والفرات، وهي على طريق الموصل والشام.
انظر: معجم البلدان، لياقوت الحموي: ٢/ ٢٣٥.
(٣) أي: أن الله تعالى: «إنما يوصف عندهم بالسلب والنفي، مثل قولهم: ليس بجسم، ولا جوهر، ولا عرض، ولا داخل العالم ولا خارجه. أو بإضافة، =

الخليل ﷺ، فيكون الجعد قد أخذها عن الصابئة الفلاسفة...، وأخذها الجهم أيضاً ـ فيما ذكره الإمام أحمد وغيره ـ لما ناظر السمنية[(١)] بعض فلاسفة الهند، وهم الذين يجحدون من العلوم ما سوى الحسيات، فهذه أسانيد جهم ترجع إلى اليهود والصابئين والمشركين، والفلاسفة الضالون هم إما من الصابئين، وإما من المشركين» اهـ[(٢)].

وبشر المريسي الذي كان من دعاة هذا المذهب قد ذكر في ترجمته أن أباه كان يهودياً صباغاً بالكوفة[(٣)].

وهكذا يتبين أن جذور مذهب المعطلة ممتدة من عقائد اليهود المحرفين، والصابئة المشركين، والفلاسفة الضالين، وهؤلاء كلهم من أعداء الإسلام، المكذبين بالقرآن، المعارضين لما جاءت به الأنبياء والمرسلون.

خامساً: طوائف المعطلة:

والمعطلة النافية لأسماء الله تعالى وأوصافه وأفعاله من المنتسبين إلى الإسلام ليسوا طائفة واحدة، بل هم طوائف متعددة، يشتركون في

= مثل: كونه مبدأ العالم، وأو العلة الأولى. أو بصفة مركبة من السلب والإضافة، مثل: كونه عاقلاً ومعقولاً وعقلاً» [مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٢/ ٢٠].

(١) السمنية: هم من القائلين بقدم العالم، وبتناسخ الأرواح في الصور المختلفة، وأنه لا معلوم إلا من جهة الحواس الخمس. وانظر: الفرق بين الفرق، للبغدادي ص٢٤١.

(٢) الفتوى الحموية الكبرى: ٤٦ ـ ٥٠. وانظر أيضاً: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ٥١ و١٠/ ٦٧، ودرء تعارض العقل والنقل، له: ١/ ٣١٢ ـ ٣١٣.

(٣) انظر: البداية والنهاية، لابن كثير: ١٠/ ٢٩٤.

تعطيل الخالق عن كماله المقدس، ويختلفون في طريقة هذا التعطيل، وما يجب نفيه من الأسماء والأوصاف والأفعال عن الله تعالى.

وقد كان السلف يسمون كل من نفى صفات الله أو نفى بعضها جهمياً ـ نسبة إلى الجهم بن صفوان، إذ كان هو الذي أظهر هذه المقالة ودعا إليها بعد الجعد بن درهم، كما سبق بيانه ـ، وبهذا اللقب تميز أهل التعطيل ـ عند السلف ـ عن سائر الطوائف المبتدعة[١].

ولقب (الجهمية) صادق على جميع طوائف المعطلة ـ مع وجود الاختلاف بينهم ـ لأنهم موافقون للجهم في ما نفوه من الصفات والأفعال عن الله تعالى، ولأن أقوالهم في التعطيل مبنية على أصول الجهمية، فالجهمية أصل وهم فروع[٢].

ومن هنا صارت المعطلة على قسمين رئيسين:

القسم الأول: الجهمية المحضة:

وهم الذين ينفون أسماء الله وصفاته[٣]، وينكرون أن يسمى الله تعالى باسم، أو يوصف بصفة[٤]، ويقولون: إن الله لا يقال: إنه شيء[٥]،

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٢/١١٩ و١٤/٣٤٩، ٣٥٢، والعقيدة الإسلامية وتاريخها، للشيخ محمد أمان الجامي ص٢٩.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٢/٢٠٦، ٣٥٨، ٣٦٨.

(٣) انظر: الحجة في بيان المحجة، لأبي القاسم التيمي: ٢/٣٨٣، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٤/٣٤٨.

(٤) انظر: التنبيه والرد، للملطي ص١١٠ ـ ١١٢، والفرق بين الفرق، لعبد القاهر البغدادي ص١٩٤، والملل والنحل، للشهرستاني، ١/٨٦، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٢/٣١١ و١٤/٣٥٣ و١٧/٤٤٧.

(٥) انظر: مقالات الإسلاميين، للأشعري: ٢/٢٠٢، والتدمرية، لشيخ الإسلام ابن تيمية ص١٢٧.

وربما قالوا: هو شيء لا كالأشياء[١].

وهذا مذهب الجهم بن صفوان ومن اتبعه ـ في الأصل ـ، وهو مذهب قائم على النفي التام لأسماء الله تعالى وصفاته.

وقد نقل عن الجهم وأتباعه طرق وأساليب من النفي في هذا الباب: فتارة يصفون الله تعالى بالنفي فقط، فيقولون: ليس بحي، ولا سميع، ولا بصير، ولا يتكلم، ولا يرى، ونحو ذلك من النفي المحض[٢].

وتارة ينفون عنه النقيضين، فيقولون: ليس بحي ولا ميت، ولا عالم ولا جاهل، ولا هو داخل العالم ولا خارجه، ولا فوق ولا تحت، ولا مباين ولا محايث، ونحو ذلك[٣].

ويحكى عن الجهم أيضاً أنه كان يقول: إن الله تعالى بذاته في كل مكان، وإنه سبحانه لا يخلو منه مكان، ولا يكون في مكان دون مكان[٤].

فجميع مقالات الجهمية المحضة تنطق بالإنكار لأسماء الله الحسنى، وأوصافه العليا، وأفعاله العظمى، وعلوه على خلقه.

ويوافق الجهمية المحضة في النفي القرامطة[٥]، وطائفة من

---

(١) انظر: الرد على الزنادقة والجهمية، للإمام أحمد بن حنبل ـ ضمن عقائد السلف ـ ص٦٨، والتدمرية ص١٢٧.

(٢) انظر: التنبيه والرد، للملطي ص١١٠ ـ ١١٢، والتدمرية ص٦٣.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/ ١٢٢، ١٦٦، ٢٧٤.

(٤) انظر: المصدر السابق: ٥/ ١٦٦، والرد على الزنادقة والجهمية، للإمام أحمد بن حنبل ص٦٧.

(٥) القرامطة: جمع قرمطي، طائفة من الباطنية نسبوا إلى حمدان بن الأشعث المعروف بقرمط؛ لأنه كان قصيراً متقارب الخطو، وهم زنادقة يتسترون =

الفلاسفة، الذين يسلبون عن الله النقيضين، ويقولون: لا نقول: هو شيء، ولا ليس بشيء، ولا موجود ولا لا موجود، ولا حي ولا لا حي، ولا عالم ولا لا عالم، وأمثال ذلك من نفي الإثبات والنفي معاً[١]. كما يقولون بإثبات ذات بلا صفات[٢]، أو يقولون: بإثبات وجود مطلق بشرط الإطلاق[٣]، لا يوصف بشيء من الأمور الثبوتية أو السلبية[٤]. فإن مقالة هؤلاء ومقالة الجهمية المحضة من جنس واحد[٥].

القسم الثاني: الجهمية الفروع:

وهم الذين ينفون بعضاً ويثبتون بعضاً من أسماء الله تعالى وصفاته وأفعاله، فيوافقون الجهمية المحضة من وجه، ويخالفونهم من وجه آخر، على تفاوت بينهم في هذه الموافقة وتلك المخالفة، حتى إن منهم

= بالرفض ويبطنون الإلحاد المحض، وقد نال المسلمين منهم أذى عظيم، من سفك الدماء وانتهاك الحرمات، وأحداثهم في التاريخ شنيعة كثيرة.
انظر: الفرق بين الفرق، للبغدادي ص٢٥١، وإغاثة اللهفان، لابن القيم: ٢/ ٣٢٤، والبداية والنهاية، لابن كثير: ١١/ ١٧١ ـ ١٧٣.

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/ ٢٧٤، ٣٢٧ و٨/ ٢٢٧ و١٤/ ٣٤٨، والتدمرية ص١٤ ـ ١٧.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/ ٢٨٢.

(٣) الوجود المطلق بشرط الإطلاق: هو الوجود المجرد الذي لا يتقيد بقيد، وهذا لا يكون موجوداً في الأعيان (الخارج)، بل في الأذهان. انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ٥١٦ ـ ٥١٧.

(٤) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/ ٢٨٢، وإغاثة اللهفان، لابن القيم: ٢/ ٣١٦ ـ ٣١٧.

(٥) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٢/ ٢٠٢، ٢٠٥، وبيان تلبيس الجهمية، له: ١/ ١٤.

من هو أقرب إلى الجهمية المحضة، ومن هو أقرب إلى مذهب السلف من حيث الجملة.

فالقسم الثاني من المعطلة على أصناف بحسب تفاوتهم في التعطيل، واختلافهم في طرقه وأساليبه، والمشهور منهم أربع طوائف، تميز كل منها باسمه ومذهبه، وهم: المعتزلة[(١)]، والكلابية[(٢)]، والأشاعرة[(٣)]،

---

(١) فرقة كلامية عرفت بالغلو في تقديس العقل وتقديمه على النقل، زعيم مذهبهم واصل بن عطاء الغزال، وتابعه عمرو بن عبيد، ثم افترقوا إلى طوائف عدة يختلفون في أمور، ويتفقون على أمور خمسة هي أصولهم، وهي: التوحيد، والعدل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمنزلة بين المنزلتين، وإنفاذ الوعيد.
وفي تسميتهم معتزلة أقوال: إما لاعتزالهم مجلس أصحاب الحسن البصري بعد خلافهم معهم، وإما لأنهم كانوا يجلسون معتزلين للجماعة، وإما لاعتزالهم قول الأمة الإسلامية في حكم مرتكب الكبيرة، بل وفي جميع أصولهم الخمسة التي ابتدعوها، فهم معتزلون للمسلمين في عقيدتهم.
انظر: التنبيه والرد، للملطي ص٤٩ ـ ٥٦، والفرق بين الفرق، للبغدادي ص٢٧ ـ ٢٨، والملل والنحل، للشهرستاني: ١/٤٣ ـ ٤٩، والبرهان في معرفة عقائد أهل الأديان، للسكسكي ص٤٩ ـ ٦٣، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٨/٢٢٨ و١٣/٣٧ ـ ٣٨ و١٤/٣٤٩، وشرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز: ٢/٧٩١ ـ ٧٩٤.

(٢) فرقة كلامية تنسب إلى أبي محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب البصري، المتوفى بعد سنة (٢٤٠هـ)، وكان رأس المتكلمين بالبصرة في زمانه، وصنف مصنفات رد فيها على الجهمية والمعتزلة وغيرهم، ولكنه وافقهم في بعض أصولهم، كما أنه أحدث في العقيدة أقوالاً لم تعرف قبله، وتبعه أقوام من المالكية والشافعية والحنابلة.
انظر: مقالات الإسلاميين، للأشعري: ١/٦٥، ٢٤٩، والبرهان، للسكسكي ص٣٦ ـ ٣٧، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٢/٣٦٦ ـ ٣٦٨.

(٣) الأشاعرة: جمع أشعري، نسبة إلى أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، المتوفى سنة (٣٢٤هـ)، وكان على مذهب المعتزلة نحو أربعين سنة، ثم انتقل =

والماتريدية(١).

١ ـ أما المعتزلة: فقد وافقوا الجهمية المحضة في نفي الصفات والأفعال الاختيارية عن الله تعالى، وقالوا: لا يقوم بذاته شيء من الصفات ولا غيرها، فليس له حياة، ولا سمع، ولا بصر، ولا علم، ولا قدرة، ولا صفة أزلية(٢)، وليس له كلام قائم بذاته، بل كلامه

= عنه وسلك طريقة أبي محمد بن كلاب (الكلابية)، ثم رجع في آخر أمره إلى مذهب أهل السنة، وانتسب إلى الإمام أحمد بن حنبل، غير أن مذهبه الذي كان عليه في طوره الثاني ـ الكلابية ـ هو الذي انتشر عنه، والمنتسبون إليه إنما أخذوا عنه مذهبه الكلابي، وزادوا على ذلك حتى قاربوا المعتزلة والفلاسفة، ولا سيما متأخروهم، كأبي المعالي الجويني، وأبي حامد الغزالي، والفخر الرازي، ومن وافقهم. ومذهب الأشاعرة في العقيدة أكثر انتشاراً من غيره من المذاهب الكلامية في العقيدة، الأمر الذي كان له أثر سيئ على عقيدة كثير من المسلمين إلا من رحم الله تعالى منهم.
انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٣/ ٩٩، وكتاب: بين أبي الحسن الأشعري والمنتسبين إليه في العقيدة، للشيخ أبي بكر خليل الموصلي، والعقيدة الإسلامية وتاريخها، للشيخ محمد أمان الجامي ص٤٥ ـ ٤٧، ومقالة التعطيل، للدكتور محمد بن خليفة التميمي ص٩٤ ـ ١٠٤.

(١) فرقة كلامية تنسب إلى أبي منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي، المتوفى سنة (٣٣٣هـ)، وكان ممن وافق أبا محمد بن كلاب على أصله، وتعد فرقته الماتريدية شقيقة الأشاعرة، لما بينهما من الاتفاق في مسائل الاعتقاد، حتى لكأنهما فرقة واحدة، غير أن معظم الماتريدية من أتباع المذهب الحنفي في الفروع، إذ كان إمامهم أبو منصور حنفي المذهب.
انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٧/ ٤٣٣، والماتريدية: دراسة وتقويماً، تأليف أحمد بن عوض الله اللهيبي الحربي، ومقالة التعطيل، للدكتور محمد بن خليفة التميمي ص١٠٥ ـ ١١٣.

(٢) انظر: الفرق بين الفرق، للبغدادي ص١١٢، ٢٩٣، والملل والنحل، للشهرستاني: ١/ ٤٤، والبرهان، للسكسكي ص٥٠، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ٢١٧ و٨/ ١٤٩، ٢٢٧.

مخلوق منفصل عنه[١]، وقالوا: إن الله لما كلم موسى خلق صوتاً في الشجرة، فكان ذلك الصوت المخلوق من الشجرة هو كلامه[٢]، وقالوا باستحالة رؤية الله تعالى بالأبصار في الآخرة، وأنه لا يرى نفسه، ولا يراه غيره[٣].

هذا مذهب المعتزلة في صفات الله تعالى ـ إجمالاً ـ وأما في أسمائه سبحانه، فهم مخالفون للجهمية المحضة؛ لأنهم يثبتون الأسماء لله، إلا أن إثباتهم لها صوري وليس حقيقياً؛ لأنهم أثبتوا له الأسماء دون ما تضمنته من الصفات ـ إذ إن مذهبهم هو نفي الصفات ـ، فمنهم من جعل أسماء الله تعالى ـ مثل: العليم والقدير والسميع والبصير ـ كالأعلام المحضة المترادفة التي لم توضع لمسماها باعتبار معنى قائم به.

ومنهم من جعل كل اسم منها علماً مستقلاً يسمي الله تعالى به، ولكنه ينفي ما تضمنه من الصفة، فيقول: عليم بلا علم، وقدير بلا قدرة، وسميع بلا سمع، وبصير بلا بصر، وهكذا في جميع الأسماء[٤].

فإثبات المعتزلة للأسماء هو ـ في الحقيقة ـ ليس إثباتاً، وإن خالفوا بذلك الجهمية المحضة في الظاهر، فهم موافقون لهم في الباطن، كما وافقوهم في نفي الصفات ظاهراً وباطناً.

---

(١) انظر: البرهان، للسكسكي ص٥٠، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ٢١٩.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ٣١٥.

(٣) انظر: الفرق بين الفرق، للبغدادي ص١١٣.

(٤) انظر: التدمرية، لشيخ الإسلام ابن تيمية ص١٨، والتحفة المهدية شرح الرسالة التدمرية، للشيخ فالح بن مهدي ص٤٦، ومعتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله الحسنى، للدكتور محمد بن خليفة التميمي ص٢٠ ـ ٢١.

ومن أصول المعتزلة والجهمية المحضة: أنهم يصفون الله تعالى بما لم يقم به، بل بما قام بغيره ـ مما يخلقه في العالم ـ، أو بما لم يوجد، ويقولون: هذه إضافات لا صفات ـ إذ ليس عندهم صفة لله تعالى قائمة به، ولا فعل قائم به ـ، فيقولون: هو رحيم ويرحم، والرحمة لا تقوم به، بل هي مخلوقة، وهي نعمته. ويقولون: هو يرضى ويغضب، والرضا والغضب لا يقوم به، بل هو مخلوق، وهو ثوابه وعقابه. ويقولون: هو متكلم ويتكلم، والكلام لا يقوم به، بل هو مخلوق قائم بغيره. ويقولون: هو مريد ويريد، ثم قد يقولون: ليست الإرادة شيئاً موجوداً، وقد يقولون: إنها هي المخلوقات والأمر المخلوق، وقد يقولون: أحدث إرادة لا في محل[١].

وهم إذا قالوا: صفات الله، فالصفات ـ عندهم ـ هي الأخبار التي يخبر بها عنه سبحانه، لا معاني تقوم به. وإذا قالوا: الصفات تنقسم إلى ذاتية وفعلية، أرادوا بذلك ما يخبر به عنه تعالى من الكلام، تارة يكون خبراً عن ذاته، وتارة عن المخلوقات، ليس عندهم صفات تقوم به[٢].

ويعلم ـ بهذا ـ ما بين المعتزلة والجهمية المحضة من التقارب الشديد، ولهذا يقرن بينهما كثيراً في باب الصفات والتوحيد[٣]، بل قد قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن المعتزلة عند التحقيق حقيقة أمرهم أمر الملاحدة نفاة الأسماء والصفات بالكلية، وإن تظاهروا بالرد عليهم»[٤]، وصرح في موضع آخر بأنهم ـ في باب الصفات ـ جهمية

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٨/ ١٢٥، و١٧/١٤٨ ـ ١٤٩.
(٢) انظر: المصدر السابق: ١٦/ ٣٧٤ ـ ٣٧٥.
(٣) انظر: المصدر السابق: ٦/ ٥١ و١٣/ ١٣١.
(٤) بيان تلبيس الجهمية: ٢/ ٣٩٧.

محضة[١]، وإن كان ـ في موضع آخر ـ قد قال: «ولكن المعتزلة ـ وإن وافقوا جهما في بعض ذلك ـ فهم يخالفونه في مسائل غير ذلك، كمسائل القدر[٢]، والإيمان[٣]، وبعض مسائل الصفات أيضاً، ولا يبالغون في النفي مبالغته. وجهم يقول: إن الله تعالى لا يتكلم. أو يقول: إنه يتكلم بطريق المجاز. وأما المعتزلة، فيقولون: إنه يتكلم حقيقة، لكن قولهم في المعنى هو قول جهم[٤].

وجهم ينفي الأسماء أيضاً، كما نفتها الباطنية[٥] ومن وافقهم من الفلاسفة، وأما جمهور المعتزلة فلا ينفون الأسماء[٦]»[٧].

والذي لا جدال فيه هو أن المعتزلة ـ كما وصفهم شيخ الإسلام أيضاً وغيره من العلماء ـ مخانيث الجهمية[٨]، ومن الناس من يقول:

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ٥٥.
(٢) سيأتي ـ إن شاء الله ـ بيان مذهب كل من المعتزلة والجهمية في القدر عند الرد على تسبيح القدرية، والرد على تسبيح الجبرية.
(٣) انظر: مذهب الفريقين في الإيمان، في مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٧/ ٣٣١
(٤) لأن معنى كونه سبحانه متكلماً ـ عند المعتزلة ـ: أنه خلق الكلام في غيره، فمذهبهم ومذهب الجهمية سواء في المعنى، وإنما اختلفا في اللفظ بكون الجهمية ينفون أن يكون متكلماً حقيقة، والمعتزلة يقولون: هو متكلم حقيقة. وحقيقة قول الطائفتين أنه غير متكلم.
انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٢/ ٣١١ ـ ٣١٢.
(٥) الباطنية: اسم لطوائف من الملاحدة، منهم من يتظاهر بالتشيع، ومنهم من تظاهر بالتصوف، وسموا بذلك؛ لأنهم يدعون أن لكل ظاهر باطناً، ولكل تنزيل تأويلاً، ولهم ألقاب أخرى، كالقرامطة، والإسماعيلية، والخرمية، وغيرها. انظر: الملل والنحل، للشهرستاني: ١/ ١٩٢.
(٦) لكن سبق بيان ما في إثباتهم للأسماء من الخلل والفساد.
(٧) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٢/ ١١٩.
(٨) انظر: المصدر السابق: ٨/ ٢٢٧ و١٤/ ٢٤٨.

المعتزلة مخانيث الفلاسفة؛ لأنه لم يعلم أن جهماً سبقهم إلى هذا الأصل، أو لأنهم مخانيثهم من بعض الوجوه[(١)].

٢ ـ وأما الكلابية: فقد وافقوا الجهمية المحضة والمعتزلة على نفي الصفات الاختيارية التي تقوم بذات الله تعالى وتتعلق بمشيئته وقدرته، من الأفعال وغير الأفعال، وخالفوهم في نفي أصل الصفات، فأثبتوا لله تعالى الصفات اللازمة التي تقوم بذاته ولا تتعلق بمشيئته وقدرته، كما أثبتوا العلو لله على العرش ومباينته للمخلوقات[(٢)].

فمذهب الكلابية في باب أسماء الله تعالى وصفاته قائم على التفريق بين الصفات اللازمة والصفات الاختيارية، بإثبات قيام الصفات اللازمة به تعالى، ونفي قيام الصفات الاختيارية به سبحانه، ويقولون: إن الله تعالى لا يقوم بذاته شيء بمشيئته وقدرته[(٣)]، ولا يحب ولا يبغض، ولا يرضى ولا يسخط، ولا يرى أفعال العباد بعد أن يعملوها[(٤)]، ولا ينزل إلى السماء الدنيا في كل ليلة، ولا يأتي يوم القيامة لفصل القضاء بين العباد، ولا يفعل فعلاً ـ هو الخلق ـ يخلق به المخلوق، ولا يقدر على فعل يقوم بذاته، بل مقدوره لا يكون إلا مخلوقاً منفصلاً عنه[(٥)]، ولا يتكلم بمشيئته وقدرته، بل كلامه صفة ذات قائمة به بدون مشيئته ولا قدرته، وبدون حرف وصوت، وكلامه كله معنى واحد قائم بذاته أزلاً وأبداً، هو الأمر بكل مأمور، والنهي عن

---

(١) المصدر نفسه: ٨/ ٢٢٧ و١٤/ ٢٤٩.

(٢) المصدر نفسه: ٦/ ٢١٧، ٥٢٠ و٨/ ٢٢٨ و١٢/ ٢٧٢، و١٤/ ٣٤٨، ودرء تعارض العقل والنقل: ٢/ ٦، ١٢.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ٢٣٧.

(٤) يقصدون نفي رؤية حادثة يرى بها الباري أفعال العباد بعد أن يعملوها.

(٥) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ٢٣٧ و١٣/ ١٣١.

كل محظور، والخبر عن كل مخبر به، إن عبر عنه بالعربية كان قرآناً، وإن عبر عنه بالعبرية كان توراة، وإن عبر عنه بالسريانية كان إنجيلاً، ومعنى آية الكرسي هو معنى آية الدين. والأمر والنهي والخبر صفات نسبية للكلام لا أنواع له، بل ذات الكلام الذي هو أمر هو ذات الكلام الذي هو نهي، وإنما تنوعت الإضافة(١). ومن محققيهم من جعل المعنى يعود إلى الخبر، والخبر يعود إلى العلم(٢).

ويقولون أيضاً: إن تكليم الله لموسى عليه السلام ليس إلا خلق إدراك فهم به موسى ذلك المعنى(٣). وإن نداءه لموسى حين أتى ليس إلا خلق سمع سمع به موسى نداءه القديم، فاستجد سماع موسى، وإلا فما زال الرب ـ عندهم ـ منادياً(٤).

وهذا التفريق الذي قرره الكلابية بين الصفات اللازمة والصفات الاختيارية في حق الله أمر أحدثه ابن كلاب شيخ الطائفة الكلابية، وحاول به التلفيق بين النصوص الشرعية والنظريات الكلامية، فأنشأ بذلك مذهباً جديداً، لم يكن معروفاً قبله(٥).

فقد كان الناس قبل ابن كلاب صنفين ـ في باب توحيد الله بأسمائه وصفاته ـ: فأهل السنة والجماعة يثبتون ما يقوم بالله تعالى من الصفات اللازمة والصفات الاختيارية من الأفعال وغيرها، لا يفرقون بين شيء

---

(١) انظر: مقالات الإسلاميين، للأشعري: ٢/ ٢٥٧ ـ ٢٥٨، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ٢٣٧، ٥٥٢ و١٢/ ٤٩، و١٧/ ١٤٧.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٢/ ٤٩.

(٣) انظر: المصدر السابق، الموضع نفسه.

(٤) انظر: المصدر نفسه: ١٣/ ١٣١.

(٥) انظر: مقالة التعطيل والجعد بن درهم، للدكتور محمد بن خليفة التميمي ص٩١ ـ ٩٢.

منها. والجهمية من المعتزلة وغيرهم ينكرون هذا وهذا، وينفون ذلك كله. فجاء أبو محمد بن كلاب فأثبت قيام الصفات اللازمة بالله تعالى، ونفى أن يقوم به ما يتعلق بمشيئته وقدرته من الأفعال وغيرها، ووافقه على ذلك جماعة من أتباع المذاهب الأربعة في الفقه[١].

كما أنه ليس من طوائف المسلمين من أنكر أن الله يتكلم بصوت إلا ابن كلاب ومن اتبعه، وكذلك ليس من طوائف المسلمين من قال: إن كلام الله معنى واحد قائم به، إلا هو ومن اتبعه[٢].

فابن كلاب هو أول من أحدث ـ في توحيد الأسماء والصفات ـ هذا المذهب الثالث في الإسلام[٣].

ولا شك أن ابن كلاب وأتباعه على مذهبه هم خير من الجهمية المحضة ومن المعتزلة؛ لأنهم يوافقون السلف والأئمة على إثبات الصفات اللازمة وعلو الله على خلقه، وكان هو وأتباعه يقولون: إن العلو على المخلوقات صفة عقلية تعلم بالعقل، وأما استواؤه على العرش، فهو من الصفات الخبرية التي لا تعلم إلا بالخبر، وهم يثبتون الصفات العقلية، وأئمتهم يثبتون الصفات الخبرية في الجملة[٤].

ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن الكلابية فيهم قرب إلى أهل السنة والحديث، وإن كان في مقالتهم ما يخالف أهل السنة والحديث[٥].

---

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٢/ ٦.
(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ٥٢٨.
(٣) انظر: المصدر السابق: ٨/ ٤٢٤ و١٢/ ٤٩.
(٤) انظر: المصدر السابق: ٦/ ٥٢٠، ودرء تعارض العقل والنقل، له: ٢/ ١٢، والتدمرية، له ص١٩١.
(٥) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ٥٥ و١٢/ ٣٦٦.

وبين شيخ الإسلام أن ابن كلاب أحدث ما أحدثه لما اضطره إلى ذلك من دخول أصل كلام الجهمية في قلبه[١]، حيث كان ممن انتدب للرد عليهم[٢]، ولكنه لم يهتد لفساد أصل الكلام المحدث الذي ابتدعوه في دين الإسلام، بل وافقهم عليه[٣]، وبنى عليه قوله في كلام الله تعالى وصفاته الاختيارية[٤].

ومن هنا قيل: إن الكلابية هم الجهمية الإناث، وهم مخانيث المعتزلة[٥].

٣ ـ وأما الأشاعرة: فالحديث عنهم ذو شجون؛ لأنهم ـ وإن اشتركوا في الانتساب إلى أبي الحسن الأشعري ـ إلا أن بينهم وبين إمامهم من جهة، وبين متقدميهم ومتأخريهم من جهة أخرى تبايناً واختلافاً كثيراً في باب أسماء الله وصفاته:

فالإمام أبو الحسن الأشعري كان على مذهب المعتزلة في هذا الباب، إلى سن الأربعين من حياته[٦].

ولما رجع عن مذهب المعتزلة سلك مسلك الكلابية في هذا الباب[٧]، لكن بقي عليه شيء من أصول المعتزلة[٨]. ولهذا كان يوجد في كلامه من النفي الذي أخذه من المعتزلة ما لا يوجد في كلام أبي

---

(١) انظر: المصدر السابق: ٥/٥٥٧.
(٢) انظر: المصدر نفسه: ٥/٥٥٥.
(٣) انظر: المصدر نفسه: ٥/٥٥٦.
(٤) انظر: المصدر نفسه: ٥/٥٥٨.
(٥) انظر: المصدر نفسه: ٥/٣٤٩.
(٦) انظر: تبيين كذب المفتري، لابن عساكر ص٤٠ ـ ٤١، ومنهاج السنة النبوية، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/٢٧٦ ـ ٢٧٧.
(٧) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/٥٥٦، و١٢/١٧٨، ودرء تعارض العقل والنقل، له: ٢/١٦.
(٨) انظر: منهاج السنة النبوية، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٨/٨.

محمد بن كلاب الذي أخذ أبو الحسن طريقه[١].

ثم مال بعد ذلك إلى أهل السنة، وصرح باتباعه لمذهبهم في العقيدة، فقال ـ بعد أن حكى جملة مما اعتقد أنه مذهب أهل السنة والجماعة في العقيدة ـ: «وبكل ما ذكرنا من قولهم نقول، وإليه نذهب، وما توفيقنا إلا بالله، وهو حسبنا ونعم الوكيل...»[٢].

وكان آخر كتاب ألفه أبو الحسن الأشعري هو كتابه (الإبانة عن أصول الديانة)[٣]، وقد قرر فيه أصول الديانة على مذهب أهل السنة، ورد فيه على مخالفيهم بالأدلة النقلية والعقلية.

وبهذا يكون الإمام أبو الحسن الأشعري قد رجع عن مذهب الكلابية، كما رجع قبل ذلك عن مذهب المعتزلة، وصار في آخر أمره منتسباً إلى أهل السنة، آخذاً بمذهبهم في العقيدة[٤].

لكن الإمام أبا الحسن الأشعري ـ مع رجوعه إلى مذهب أهل السنة ـ لم تكن له خبرة مفصلة بالسنة وأقوال السلف، بل كانت خبرته في ذلك خبرة مجملة، في حين كانت خبرته بالكلام خبرة مفصلة، فلذلك وافق المعتزلة في بعض أصولهم التي التزموا لأجلها خلاف السنة، واعتقد أنه يمكن الجمع بين تلك الأصول وبين الانتصار للسنة، كما فعل في مسألة الرؤية، والكلام، والصفات الخبرية وغير ذلك[٥].

---

(١) انظر: بغية المرتاد، لشيخ الإسلام ابن تيمية ص٤٥١.
(٢) مقالات الإسلاميين، للأشعري: ١/ ٣٤٥ ـ ٣٥٠.
(٣) انظر: شذرات الذهب، لابن العماد: ٢/٣٠٣، والمقدمة التي كتبها الشيخ حماد بن محمد الأنصاري لكتاب الإبانة ص١٤ ـ ٢٣.
(٤) انظر: مقدمة الشيخ حماد الأنصاري لكتاب الإبانة ص٢٣ ـ ٢٥، ٣٦.
(٥) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٢/ ٢٠٤، ودرء تعارض العقل والنقل: ٧/ ٤٦٢.

ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والأشعري وأمثاله برزخ بين السلف والجهمية، أخذوا من هؤلاء كلاماً صحيحاً، ومن هؤلاء أصولاً عقلية ظنوها صحيحة، وهي فاسدة. فمن الناس من مال إليه من الجهة السلفية، ومن الناس من مال إليه من الجهة الجهمية» اهـ[1].

والأشاعرة الذين ينتسبون إلى أبي الحسن الأشعري أكثرهم ممن مالوا إليه من الجهة البدعية الجهمية؛ لأنهم لم يعرفوا عنه إلا مذهبه الكلامي، وبالأخص مذهبه الذي كان عليه عندما سلك طريقة ابن كلاب، ولهذا يقال في الأشاعرة: إنهم كلابية.

غير أن هؤلاء الأشاعرة لم يلازموا مذهب الأشعري الذي كان عليه في الصفات عند ما كان كلابياً، بل زادوا في النفي أشياء على مذهبه، ونقصوا من إثباته أشياء، وانحرفوا إلى التعطيل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ مبيناً مراتب الأشاعرة في موافقة الجهمية المعتزلة في نفي الصفات ـ: «فالأشعرية وافق بعضهم في الصفات الخبرية، وجمهورهم وافقهم في الصفات الحديثية[2]، وأما في الصفات القرآنية فلهم قولان:

فالأشعري والباقلاني[3] وقدماؤهم يثبتونها، وبعضهم يقر ببعضها،

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٦/ ٤٧١.

(٢) يعني: صفات الله الواردة في الأحاديث النبوية، كما أن الصفات القرآنية هي صفات الله الواردة في القرآن الكريم. وإذا قيل: الصفات الخبرية دخل فيها القسمان.

(٣) هو محمد بن الطيب بن محمد، أبو بكر القاضي، المعروف بابن الباقلاني، المالكي الأصولي المتكلم الأشعري، كان من أعرف الناس بالكلام، وأوضحهم بياناً، وله تصانيف كثيرة، وتوفي سنة (٤٠٣هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ.
انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: ١٧/ ١٩٠.

وفيهم تجهم من جهة أخرى، فإن الأشعري شرب كلام الجبائي[١] شيخ المعتزلة، ونسبته في الكلام إليه متفق عليها عند أصحابه وغيرهم. وابن الباقلاني أكثر إثباتاً بعد الأشعري في (الإبانة)، وبعد ابن الباقلاني ابن فورك[٢]، فإنه أثبت بعض ما في القرآن.

وأما الجويني[٣] ومن سلك طريقته، فمالوا إلى مذهب المعتزلة، فإن أبا المعالي كان كثير المطالعة لكتب أبي هاشم[٤]، قليل المعرفة بالآثار، فأثر فيه مجموع الأمرين»[٥].

وقال شيخ الإسلام أيضاً ـ في موضع آخر ـ: «وابن كلاب إمام

---

(١) هو محمد بن عبد الوهاب البصري، أبو علي الجبائي، شيخ المعتزلة من أهل البصرة، وإليه تنسب الفرقة الجبائية من المعتزلة، وتوفي سنة (٣٠٣هـ). انظر: مقالات الإسلاميين، للأشعري: ١/ ٢٣٦، والبداية والنهاية، لابن كثير: ١١/ ١٣٤.

(٢) هو محمد بن الحسن بن فورك الأنصاري الأصبهاني، أبو بكر الشافعي، المتكلم الأشعري، له مصنفات كثيرة، منها: تأويل مشكل الحديث، ملأه بالتأويلات الفاسدة لأحاديث الصفات، وتوفي سنة (٤٠٦هـ).
وانظر: سير الأعلام النبلاء، للذهبي: ١٧/ ٢١٤.

(٣) هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني، أبو المعالي، الملقب بإمام الحرمين، كان عالماً أصولياً، وكان من أبرز متكلمي الأشاعرة، وله مصنفات كثيرة في العقيدة والأصول، منها: الشامل في أصول الدين، والبرهان في أصول الفقه، وغيرهما، وتوفي سنة (٤٧٨هـ)، رحمه الله تعالى.
انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: ١٨/ ٤٦٨، والبداية والنهاية، لابن كثير: ١٢/ ١٣٦ ـ ١٣٧.

(٤) هو عبد السلام بن محمد بن عبد الوهاب الجبائي، أبو هاشم، المتكلم، شيخ المعتزلة، صنف كتباً على مذهبهم، وسكن بغداد حتى توفي بها سنة (٣٢١هـ).
انظر: شذرات الذهب، لابن العماد: ٢/ ٢٨٩.

(٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ٥٢.

الأشعرية أكثر مخالفة لجهم، وأقرب إلى السلف من الأشعري نفسه، والأشعري أقرب إلى السلف من القاضي أبي بكر الباقلاني، والقاضي أبو بكر وأمثاله أقرب إلى السلف من أبي المعالي وأتباعه، فإن هؤلاء نفوا الصفات، كالاستواء، والوجه، واليدين.

ثم اختلفوا: هل تتأول أو تفوض؟ على قولين أو طريقين:

فأول قولي أبي المعالي هو تأويلها، كما ذكر ذلك في (الإرشاد)[١].

وآخر قوليه تحريم التأويل، ذكر ذلك في (الرسالة النظامية)[٢]، واستدل بإجماع السلف على أن التأويل ليس بسائغ ولا واجب» اهـ[٣].

وهذا الكلام يظهر ما لدى الأشاعرة من الاضطراب والاختلاف في باب الصفات، وإن كان الذي عليه جمهور الأشاعرة ومتأخروهم هو إثبات سبع صفات فقط، ونفي ما عداها من الصفات: إما بالتأويل لها أو التفويض فيها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ثم أقرب هؤلاء الجهمية الأشعرية يقولون: إن له صفات سبعاً: الحياة، والعلم، والقدرة، والإرادة، والكلام، والسمع، والبصر[٤]، وينفون ما عداها. وفيهم من يضم إلى

(١) يعني كتابه: الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد. وانظر: ص٥٩ ـ ٦٠، ١٤٦ ـ ١٥٤ من هذا الكتاب، بتحقيق أسعد تميم.

(٢) يعني كتابه: العقيدة النظامية. وانظر: ص٣٢ ـ ٣٣ منه، بتحقيق الدكتور أحمد حجازي السقا. وقد ذم فيه التأويل، وارتضى التفويض، وزعم أن ذلك هو مذهب السلف. ومعلوم أن التفويض الذي يعنيه هؤلاء الأشاعرة: هو تفويض معاني الصفات إلى الله تعالى. فنسبة هذا التفويض إلى السلف باطل؛ لأن السلف إنما يفوضون في الكيف لا المعنى، كما سبق بيان ذلك.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٢/٢٠٢ ـ ٢٠٣.

(٤) الأشاعرة يسمون هذه الصفات السبع: صفات المعاني، وهي ـ عندهم ـ: =

ذلك (اليد) فقط، ومنهم من يتوقف في نفي ما سواها، وغلاتهم يقطعون بنفي ما سواها» اهـ[١].

وهؤلاء الأشاعرة الذين أنكروا صفات الله تعالى عدا السبع المذكورة قد تلقوا إنكارهم هذا عن الأصول التي شاركوا فيها المعتزلة ونحوهم من الجهمية، فالجهمية ـ من المعتزلة وغيرهم ـ هم أصل هذا الإنكار[٢].

ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن هؤلاء الأشاعرة «حقيقة باطنهم باطن المعتزلة الجهمية المعطلة، وإن كان ظاهرهم ظاهر أهل الإثبات» اهـ[٣].

وكان بعض العلماء من أهل السنة يقولون: المعتزلة الجهمية الذكور، والأشعرية الجهمية الإناث، ويقول بعضهم: الأشعرية مخانيث المعتزلة[٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ومرادهم الأشعرية الذين ينفون الصفات الخبرية، وأما من قال منهم بكتاب (الإبانة) الذي صنفه الأشعري في آخر عمره، ولم يظهر مقالة تناقض ذلك، فهذا يعد من أهل السنة، لكن مجرد الانتساب إلى الأشعري بدعة، لا سيما وأنه بذلك

= «كل صفة قائمة بموصوف موجبة له حكماً» [تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد، للبيجوري ص٦٣].
ثم إن إثباتهم لهذه الصفات السبع هو إثبات كلامي، وليس كإثبات السلف.
وانظر: كلام أبي حامد الغزالي على هذه الصفات السبع، في كتابه: الاقتصاد في الاعتقاد ص١٠٩ ـ ١٥٤.

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/٣٥٨ ـ ٣٥٩.
(٢) انظر: المصدر السابق: ٥/١٨٣.
(٣) بيان تلبيس الجهمية: ٢/٣٩٧.
(٤) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/٣٥٩.

يوهم حسناً بكل من انتسب هذه النسبة، وينفتح بذلك أبواب شر» اهـ[١].

٤ ـ وأما الماتريدية: فهم والأشاعرة صنوان، لاتفاقهم في الأصول الكلامية، وفي المسائل المتعلقة بأسماء الله وصفاته.

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أبا منصور الماتريدي ـ شيخ الطائفة الماتريدية ـ ضمن المتكلمين الذين وافقوا ابن كلاب على أصله الذي كان أئمة السنة ينكرونه على الكلابية، وهو أصلهم الذي بنوا عليه قولهم بنفي صفات الله تعالى الاختيارية، وقولهم في كلام الله بأنه معنى واحد لازم لذاته، وليس بحرف وصوت، ولا يتعلق بمشيئته وقدرته[٢]. وهذا يعني أن الماتريدية وجه آخر من الكلابية كالأشاعرة.

وذكر شيخ الإسلام أيضاً من القائلين بأن القرآن قديم أبا الحسن الأشعري وأتباعه، وأبا منصور الماتريدي[٣].

ومما يؤكد الاتفاق بين الماتريدية والأشاعرة: أن الماتريدية يثبتون الصفات السبع التي أثبتها الأشاعرة، ويزيدون عليها صفة ثامنة يسمونها صفة التكوين، وهي ـ عندهم ـ صفة أزلية لله تعالى بها الإيجاد والإعدام[٤]، ولا يثبتون غير هذه الثمان من الصفات، بل ينفونها بالتأويل أو التفويض[٥]، كما هو مذهب الأشاعرة تماماً.

وبهذا يتبين أن الماتريدية والأشاعرة مشتركون في نفي أكثر الصفات عن الله تعالى وأنهم مشابهون للمعتزلة في التعطيل، وإن كان المعتزلة يزيدون عليهم بنفي جميع الصفات عن الله سبحانه.

---

(١) المصدر السابق: ٦/ ٣٥٩ ـ ٣٦٠. (٢) انظر: المصدر نفسه: ٧/ ٤٣٣.

(٣) انظر: المصدر نفسه: ٦/ ٢٩٠.

(٤) انظر: التمهيد لقواعد التوحيد، لأبي الثناء محمود بن زيد الحنفي الماتريدي، تحقيق عبد المجيد التركي ص٦٥، ٧٠، ٧٤، ٧٨.

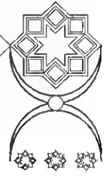
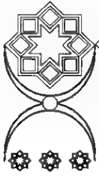
(٥) انظر: المصدر السابق ص٥٨ ـ ٥٩.

ولما كان كل من الكلابية والأشاعرة والماتريدية يثبتون بعض الصفات لله تعالى ـ خلافاً للمعتزلة ـ صاروا يعرفون بالصفاتية[١]، أو المتكلمون الصفاتية، لما عندهم من الإثبات للصفات في الجملة[٢].

ولما كان في أقوال هذه الطوائف شيء من أصول الجهمية، صاروا جامعين بين الضدين، وصاروا مذبذبين ـ بين السلف والجهمية ـ لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء[٣].

وشيخ هؤلاء المتكلمين الصفاتية هو أبو محمد بن كلاب، الشيخ الأول[٤]، وهو وأصحابه المتقدمون كانوا خيراً في باب الصفات من أتباعهم المتأخرين من الأشاعرة والماتريدية[٥]، «وإذا كان الغلط شبراً صار في الأتباع ذراعاً، ثم باعا، حتى آل هذا المآل، فالسعيد من لزم السنة»[٦].

(١) الصفاتية: نسبة إلى الصفات، وهو لقب لكل من يثبت الصفات لله تعالى، وإن كانوا في الإثبات على مراتب. وانظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ٤٠.
(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ٥١، ٥٢٠.
(٣) انظر: المصدر السابق: ١٢/ ٢٠٦. (٤) انظر: المصدر نفسه: ٦/ ٣٧٩.
(٥) انظر: التدمرية ص١٩٢.
(٦) مقتبس من: بغية المرتاد، لشيخ الإسلام ابن تيمية ص٤٥١.

المبحث الثاني

مفهوم التسبيح عند المعطلة

وجميع طوائف المعطلة الذين سبق بيان مقالاتهم في أسماء الله تعالى وصفاته وأفعاله قد جعلوا التعطيل في هذا الباب ديناً وعقيدة، وادعوا أنهم بذلك يقدسون الله تعالى وينزهونه عما لا يليق به، وأنهم يريدون بنفي ما نفوا من أسماء الله وأوصافه وأفعاله تصحيح التوحيد وتحقيق التنزيه.

وإذا كانوا هم غير متفقين على ما يجب نفيه عن الله تعالى من الأسماء والصفات والأفعال، فإن كل طائفة منهم ترى أن ما ذهبت إليه هو مقتضى التنزيه والتقديس لله سبحانه.

فالجهم بن صفوان ـ كما نقل الإمام أحمد بن حنبل ـ «زعم أن من وصف الله بشيء مما وصف به نفسه في كتابه، أو حدث عنه رسوله، كان كافراً، وكان من المشبهة»[(١)]، فجعل إثبات الصفات لله تعالى كفراً وتشبيهاً؛ لأن نفيها ـ عنده ـ هو الإيمان والتنزيه.

ولهذا كان هو وأصحابه الجهمية ينفون أحاديث الصفات الثابتة عن رسول الله ﷺ، ويقولون: الله أعظم من أن يوصف بشيء من هذا[(٢)]. فجعلوا نفي الصفات تعظيماً لله تعالى. وكذلك الجهم كان ينكر أسماء الله تعالى، فلا يسميه شيئاً، ولا حياً، ولا سميعاً، ولا

---

(١) الرد على الزنادقة والجهمية ـ ضمن عقائد السلف ـ ص٦٦.

(٢) انظر: الحجة في بيان المحجة، لأبي القاسم التيمي: ١/ ٤٤٠.

بصيراً، ولا عليماً، ولا غير ذلك، إلا على سبيل المجاز. قال: لأنه إذا كان له اسم من هذه الأسماء ونحوها، لزم أن يكون متصفاً بمعنى الاسم، كالحياة، والسمع، والبصر، والعلم؛ فإن صدق المشتق مستلزم لصدق المشتق منه، وذلك يقتضي قيام الصفات به، وذلك محال. ولأنه إذا سمي بهذه الأسماء ـ وهي مما يسمى به المخلوق ـ كان تشبيهاً، والله منزه عن مشابهة غيره[(١)].

فالتنزيه عند الجهم وأصحابه: هو أن ينزه العبد ربه عن كل اسم ووصف وفعل.

والمعتزلة زعموا أن أخص وصف لله تعالى هو القدم، وأن نفي الصفات هو السبيل الوحيد إلى القول بإفراده تعالى بالقدم[(٢)].

وقالوا: لو وصف الله تعالى بصفة ما لشاركته تلك الصفة في القدم، ولزم من ذلك تعدد القدماء، فتكون هناك ذات قديمة وصفة قديمة، ولا يكون القديم واحداً فقط، وهذا مناف للتوحيد[(٣)].

وقالوا أيضاً: إن ثبوت الصفات يقتضي كثرة وعدداً في الذات الإلهية، وذلك خلاف التوحيد[(٤)].

ولهذا نفوا أن تكون أسماء الله تعالى متضمنة معاني هي صفات قائمة بذاته سبحانه، ويقولون: هو عالم بذاته، وقادر بذاته، وحي

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ٣٥ و١٢/ ٢٠٢، ٣١١.
(٢) انظر: المغني في أبواب العدل والتوحيد، للقاضي عبد الجبار المعتزلي: ٤/ ٣٤١.
(٣) انظر: الملل والنحل، للشهرستاني: ١/ ٤٤ ـ ٤٥، وبيان تلبيس الجهمية، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ١/ ٤٦٣، ٤٦٥، والصواعق المرسلة، لابن القيم: ٣/ ٩٣٨، ودعوة التوحيد، للشيخ محمد خليل هراس ص٢٢٨.
(٤) انظر: بيان تلبيس الجهمية: ١/ ٤٦٥.

بذاته، لا بعلم وقدرة وحياة تقوم به، وهكذا في سائر أسماء الله تعالى[(١)].

وقالوا كذلك: لو قامت بذات الله تعالى صفات وجودية، لكان مفتقراً إليها، وهي مفتقرة إليه، فيكون الرب مفتقراً إلى غيره[(٢)].

ولأن الصفات أعراض، والأعراض لا تقوم إلا بجسم، والجسم مركب، والمركب ممكن محتاج، وذلك عين النقص[(٣)].

وهكذا يفسر المعتزلة التوحيد بنفي الصفات عن الله تعالى، ويجعلون نفي هذه الصفات داخلاً في مسمى التوحيد الذي هو أول الأصول الخمسة عندهم، لا يتحقق إلا به.

والقرامطة الباطنية الذين يسلبون عن الله تعالى النقيضين زعموا أن وصفه بالإثبات تشبيه له بالموجودات، ووصفه بالنفي تشبيه له بالمعدومات، وكل ذلك تشبيه[(٤)]، والتنزيه أن يسلب عنه النقيضان: فلا يوصف بإثبات ولا بنفي.

والفلاسفة الذين أثبتوا لله ذاتاً مجردة عن الصفات، قالوا: «إن اتصافه بهذه الصفات إن أوجب له كمالاً، فقد استكمل بغيره، فيكون ناقصاً بذاته، وإن أوجب له نقصاً لم يجز اتصافه بها»[(٥)]، فجعلوا إثبات الصفات نقصاً فيه على كل حال.

---

(١) انظر: الملل والنحل، للشهرستاني: ١/ ٤٤، وأقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات، لمرعي بن يوسف الكرمي المقدسي، تحقيق شعيب الأرنؤوط ص٦٧.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ٦٩.

(٣) انظر: المصدر السابق: ٦/ ٦٩، و١٢/ ٣١٥.

(٤) انظر: المصدر نفسه: ٥/ ٣٢٧ و٦/ ٣٥، والتدمرية ص١٦.

(٥) مقتبس من: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ٦٩.

وقالوا أيضاً: إن الذي ألجأنا إلى نفي الصفات الوجودية عن الله تعالى هو الخوف من الإفضاء إلى التركيب والتجسيم المستلزم للإمكان، فنفينا عنه هذه الصفات تنزيهاً له عن الإمكان(١).

والكلابية الذين نفوا قيام الصفات الاختيارية بالله تعالى، قالوا: «لأنها حادثة، ولو قامت به الحوادث لكان حادثاً؛ لأن ما قبل الشيء لم يخل عنه وعن ضده، فلو قبل بعض هذه الحوادث لم يخل منه ومن ضده، فلم يخل من الحوادث، فيكون حادثاً»(٢).

وقالوا أيضاً: «الحادث إن أوجب له كمالاً، فقد عدمه قبله، وهو نقص، وإن لم يوجب له كمالاً لم يجز وصفه به»(٣).

فجعلوا نفي صفات الله الاختيارية تنزيهاً له عن حلول الحوادث به، وجعلوا هذا النفي من كمال التوحيد عندهم(٤).

والأشاعرة والماتريدية موافقون للكلابية فيما سبق ذكره آنفاً، ولكنهم ـ كما تقدم ـ ينفون جميع الصفات الخبرية: الذاتية منها والفعلية، ويتأولونها على خلاف ظاهرها، أو يفوضون العلم بمعانيها؛ لأنهم زعموا أنّ إجراء هذه الصفات على ظاهرها يستلزم التركيب والتجسيم المستلزم للحاجة والافتقار، وأن يكون الله تعالى مماثلاً للحوادث أو محلاً لها(٥)، فنفوها تنزيهاً له ـ بزعمهم ـ عن هذه الأمور.

---

(١) انظر: القصيدة النونية، لابن القيم ـ مع شرحها، لهراس ـ: ٢/ ٤٨ ـ ٤٩.
(٢) مقتبس من: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٣/ ١٥٤، وانظر: المصدر نفسه: ٦/ ٢٢٠ و١٢/ ٣١٦.
(٣) المصدر السابق: ٦/ ٦٩.
(٤) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم: ٣/ ٤١٤.
(٥) انظر: لمع الأدلة في قواعد عقائد أهل السنة والجماعة، لأبي المعالي =

«وهكذا نفيهم أيضاً لمحبته؛ لأنها مناسبة بين المحب والمحبوب، ومناسبة الرب للخلق نقص. وكذا رحمته؛ لأن الرحمة رقة تكون في الراحم، وهي ضعف وخور في الطبيعة، وتألم على المرحوم، وهو نقص. وكذا غضبه؛ لأن الغضب غليان دم القلب طلباً لانتقام. وكذا نفيهم لضحكه وتعجبه؛ لأن الضحك خفة روح تكون لتجدد ما يسر، واندفاع ما يضر. والتعجب استعظام للمتعجب منه»(١).

فهم ينفون هذه الصفات كلها تنزيهاً لله ـ بزعمهم ـ عن النقص والتشبيه.

وقد تبين بما سبق ذكره أن المعطلة مجمعون على إخراج تعطيلهم في قالب التنزيه، وعلى إدخاله في مسمى التوحيد.

ولما كان هذا تصورهم للتنزيه والتوحيد، كان كل ما خالف تعطيلهم تشبيهاً وشركاً بالله تعالى عندهم.

فالجهمية والمعتزلة يريدون بالتنزيه والتوحيد: نفي جميع الصفات، وبالتشبيه والتجسيم إثبات شيء منها، حتى إن من قال: إن لله علماً، أو إن الله يرى في الآخرة، أو إن القرآن كلام الله وليس بمخلوق، لم يكن موحداً عندهم، بل يسمونه مشبهاً مجسماً(٢).

وكثير من المتكلمة الصفاتية ـ الكلابية والأشاعرة والماتريدية ـ

= الجويني، تحقيق الدكتورة فوقية حسين محمود ص١٠٧ ـ ١٠٩، والاقتصاد في الاعتقاد، لأبي حامد الغزالي ص٧٢ ـ ٩١، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ٦٩.

(١) مقتبس من: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ٦٩.

(٢) انظر: المصدر السابق: ٤/ ١٥٠ و١١/ ٤٨٨، وبيان تلبيس الجهمية، له: ٢/ ١٣٦، والتدمرية ص١١٧، ١٨٢ ـ ١٨٣.

يريدون بالتنزيه والتوحيد: نفي الصفات الخبرية جميعها أو بعضها، وبالتشبيه والتجسيم: إثباتها أو بعضها، حتى إن من قال: إن الله عال فوق خلقه، مستو على عرشه، أو إن الله ينزل إلى السماء الدنيا كل ليلة، ويأتي يوم القيامة لفصل القضاء. أو قال: إن لله تعالى وجهاً وعينين ويدين، كان عندهم مشبهاً مجسماً[(١)].

والفلاسفة يريدون بالتنزيه والتوحيد ما يعنيه الجهمية وزيادة، حتى يقولون: ليس له إلا صفة سلبية أو إضافية أو مركبة منهما، أو هو وجود مجرد عن الماهية والصفة[(٢)]. والشرك عندهم: هو إثبات الماهية والصفات[(٣)].

وإذا كان جميع هؤلاء المعطلة قد فهموا التنزيه والتوحيد بمعنى تعطيل أسماء الله وأوصافه وأفعاله كلها أو بعضها، وسموا أنفسهم موحدين، وسموا غيرهم مشبهاً ومشركاً بناء على ما فهموه من معنى التنزيه والتوحيد، إذا كان هذا هو الحال، فمن الضرورة الملحة الكشف عن حقيقة هذا التنزيه الذي فهمه المعطلة، وهل هو موافق للعقيدة الإسلامية التي دعا إليها الرسول ﷺ وآمن بها المؤمنون الأولون من الصحابة والتابعين والأئمة المتبوعين، أو هو مخالف لذلك، لا سيما وقد صار هذا التنزيه الذي قرره المعطلة منتشراً ومسلماً به عند كثير من المسلمين في القرون المتأخرة، وبالأخص ما قرره الأشاعرة والماتريدية من التنزيه والتوحيد، فإن عقائد هاتين الطائفتين قد دان الله تعالى بها، ولا يزال يدين الله تعالى بها أفراد وجماعات من المسلمين

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٤/ ١٥٠.

(٢) انظر: المصدر السابق، الموضع نفسه، ومدارج السالكين، لابن القيم: ٣/ ٤١٥.

(٣) انظر: القصيدة النونية، لابن القيم ـ مع شرحها، لهراس ـ: ٢/ ٤٨ ـ ٤٩.

في شتى أنحاء العالم[1].

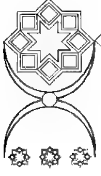
وفي المبحث التالي الكشف عن حقيقة تنزيه المعطلة، وبيان مخالفته للعقيدة الإسلامية الصحيحة، بتوفيق الله تعالى.

---

(١) هناك عدة أسباب لانتشار العقيدة الأشعرية بين المسلمين. وانظر في ذلك: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، لتقي الدين المقريزي: ٣٠٦/٣، والعقيدة الإسلامية وتاريخها، للشيخ محمد أمان الجامي ص٤٦ ـ ٤٩، ومقالة التعطيل، للدكتور محمد بن خليفة التميمي ص٩٩ ـ ١٠٢.



المبحث الثالث



إبطال ما ادعته المعطلة من التسبيح

وليس المقصود في هذا المبحث الرد التفصيلي على ما ادعته المعطلة من التسبيح في ما ذهبوا إليه من التعطيل، فإن ذلك يحتاج إلى دراسة خاصة، لتعدد طوائف المعطلة، ولما لدى كل طائفة من شبهات وأساليب قد تتفق وقد تختلف مع ما لدى غيرها من الشبهات والأساليب.

ولأن علماء أهل السنة والجماعة من السلف فمن بعدهم لم يألوا جهداً ـ منذ ظهور مقالة التعطيل في الأمة الإسلامية ـ في الكشف عن عوارها، وتزييف حجج أصحابها، وجهودهم في هذا المجال ظاهرة ومعلومة.

ومن أبرز تلك الجهود وأشملها جهود شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه العلامة ابن قيم الجوزية، فإنهما قد وجدا بعد اكتمال بنيان مقالة التعطيل بما وضعه فحول هذه المقالة من مصنفات أجلبوا فيها على المسلمين بخيلهم ورجلهم، وأوقعوا كثيراً منهم في التعطيل بشبههم ولبسهم، فأتيا ـ أعني شيخ الإسلام وابن القيم ـ بنيانهم من القواعد، وقلعا غرسهم من الجذور، بما صنفاه من كتب ورسائل وفتاوى نفع الله تعالى بها المسلمين وأنقذ بها من شاء من عقيدة التعطيل، وصارت مصنفاتهما مراجع مهمة لا يستغني عنها من أراد معرفة مذهب أهل التعطيل وفساده ومخالفته للعقيدة الإسلامية الصحيحة النقية.

ولا شك أن الاعتناء بإبطال هذا المفهوم الخاطئ الذي أحدثه المعطلة في التسبيح والتنزيه والتوحيد مطلب ديني مهم؛ لأن توحيد الأسماء والصفات يحتل مكان الصدارة في العقيدة الإسلامية، إذ على أساسه يحقق العبد توحيد العبادة لله تعالى، وبقدر ما يكون عند العبد من خلل في توحيد الأسماء والصفات يكون عنده خلل في توحيد العبادة.

والمقصود في هذا المبحث بيان أهم الأوجه التي يعلم بها فساد ما ادعاه المعطلة من التنزيه بتعطيل أسماء الله وأوصافه وأفعاله تعطيلاً كلياً أو جزئياً، وهي كما يلي:

أولاً: أن تنزيه المعطلة لم يعتمدوا فيه على طريقة مأخوذة عن الكتاب والسنة والسلف الصالح، وإنما اعتمدوا فيه على أصول كلامية ناشئة عن شبهات عقلية فاسدة، ومركبة من ألفاظ مجملة، ومعان مشتبهة، لم يميزوا بين حقها وباطلها(١)، مثل:

قولهم: لو كان له صفات لكان محلاً للأعراض، وما كان محلاً للأعراض فهو محل للآفات والعيوب، فلا يكون قدوساً ولا سلاماً(٢).

وقولهم: لو قام به فعل بمشيئته وقدرته لقامت به الحوادث، ولو قامت به الحوادث لكان جسماً؛ لأن الجسم لا يخلو من الحوادث، وما لا يخلو من الحوادث فهو حادث(٣).

وقولهم: لو كان له وجه ويد، أو كان يرى بالأبصار، لزم أن

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٣/ ١٧٥، ودرء تعارض العقل والنقل: ١/ ١٠٣.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/ ٢١٥.

(٣) انظر: لمع الأدلة، لأبي المعالي الجويني ص١٠٢ ـ ١٠٣، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٢/ ٣١٥.

يكون جسماً، ويلزم من كونه جسماً أن يكون مركباً من الجواهر المفردة[١]، أو من المادة والصورة[٢]، ويلزم من كونه مركباً أن يكون مفتقراً إلى أجزائه، وأجزاء المركب غيره، ويلزم من افتقاره إلى غيره أن يكون مخلوقاً مصنوعاً[٣].

ويقولون نحو هذه من العبارات زاعمين أنها دلائل عقلية توجب نفي ما نفوه من أسماء الله تعالى وأوصافه وأفعاله[٤].

وهذا غلط كبير منهم؛ لأن موجب الأدلة العقلية لا يتلقى من مجرد التعبير[٥].

ولكن أصل منشأ الغلط في هذا الباب: أن المتكلمين ـ من الجهمية، والمعتزلة، ومن اتبعهم من الأشاعرة وغيرهم ـ سلكوا في إثبات حدوث العالم وإثبات الخالق طريقة مبتدعة زعموا أنه لا يمكن معرفة الخالق إلا بها، وتلك الطريقة فيها مقدمات مجملة، ولها نتائج مجملة، فغلط كثير من سالكيها في مقصود الشارع ومقتضى العقل، فلم

---

(١) الجواهر المفردة: هي الأجزاء التي يتألف منها الجسم. وللمتكلمين في معنى الجوهر تعريفات عديدة. انظرها ـ إن شئت ـ في: لمع الأدلة، للجويني ص٨٧، والاقتصاد في الاعتقاد، للغزالي ص٥٧، والكليات، للكفوي ص٣٤٥ ـ ٣٤٧.

(٢) المادة والصورة مخصوصتان بالأجسام، فالصورة: الشكل. والمادة: العنصر. وقيل: الصورة: ما به يحصل الشيء بالفعل. والمادة: هي التي يحصل الشيء معها بالقوة.
انظر: التعريفات، للجرجاني ص١٧٨، ٢٥٠، والكليات، للكفوي ص٥٥٩، ٨٦٥.

(٣) انظر: الصواعق المرسلة، لابن القيم الجوزية: ٣/١٠١٢ ـ ١٠١٣.

(٤) انظر: المصدر السابق: ٣/١٠١٣، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/١١٠، والكافية الشافية (القصيدة النونية)، لابن القيم ص٢٧١ ـ ٢٧٥.

(٥) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/١١٠ ـ ١١١.

يفهموا ما جاءت به النصوص الشرعية، ولم يحرّروا ما اقتضته الدلائل العقلية، وذلك أنهم قالوا: إنّما نفينا الصفات لأن دليلنا على حدوث العالم وإثبات الخالق دل على نفيها، فإن الخالق أثبتناه بحدوث العالم، وحدوث العالم إنما أثبتناه بحدوث الأجسام، والأجسام إنما أثبتنا حدوثها بحدوث الصفات التي هي الأعراض. أو قالوا: إنما أثبتنا حدوثها بحدوث الأفعال التي هي الحركات، وأن القابل لها لا يخلو منها، وما لا يخلو من الحوادث فهو حادث. أو أن ما قبل المجيئ والإتيان والنزول كان موصوفاً بالحركة، وما اتصف بالحركة لم يخل منها أو من السكون الذي هو ضدها، وما لا يخلو من الحوادث فهو حادث.

فإذا ثبت حدوث الأجسام، قلنا: إن المحدَث لا بد له من محدِث، فأثبتنا الخالق بهذا. ومبنى الدليل على أن ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث، لامتناع حوادث لا أول لها.

قالوا: فلو وصفنا الخالق بالصفات، أو بالأفعال القائمة به، لجاز أن تقوم الصفات والأفعال بالقديم، وحينئذ فلا يكون دليلاً على حدوث الأجسام، فيبطل دليل إثبات الصفات[1].

فهذا أصل ما بنى عليه المعطلة دينهم وعقيدتهم، والتزموا لأجله نفي صفات الله تعالى مطلقاً، أو نفي بعضها؛ لأن الدال عندهم على حدوث المخلوقات هو قيام الصفات بها، والدليل يجب طرده، فالتزموا

(١) انظر: المصدر السابق: ٦/ ٤٩ ـ ٥٠ و١٢/ ٢١٣ ـ ٢١٤، والصواعق المرسلة، لابن القيم: ٣/ ١١٨٧ ـ ١١٨٨.
وانظر ـ لمعرفة اعتماد المتكلمين على هذه الطريقة في إثبات حدوث العالم وإثبات الصانع ـ: الإرشاد، لأبي المعالي الجويني ص٣٩ ـ ٥٠، والاقتصاد في الاعتقاد، لأبي حامد الغزالي ص٥٧ ـ ٦٨، ونهاية الأقدام في علم الكلام، لعبد الكريم الشهرستاني، تحقيق الفرد جيوم ص٥ ـ ٥٣.

حدوث كل موصوف بصفة قائمة به، وهو في غاية الفساد والضلال. ولهذا التزموا القول بخلق القرآن، وإنكار رؤية الله بالأبصار في الآخرة، ونفي علوه على عرشه، إلى أمثال ذلك من اللوازم التي التزمها من طرد مقدمات هذه الحجة التي جعلها المعتزلة ومن اتبعهم أصل دينهم وعقيدتهم[(١)].

فيقال لهؤلاء المعطلة: «إن بطلان هذا الدليل المعين لا يستلزم بطلان جميع الأدلة، وإثبات الصانع له طرق كثيرة لا يمكن ضبط تفاصيلها، وإن أمكن ضبط جملها»[(٢)].

وقولكم: إنّا عرفنا حدوث العالم بهذه الطريقة، وبها أثبتنا الصانع، الجواب عليه، أنكم ابتدعتم طريقاً لا يوافق الشرع ولا العقل، فالعالمون بالشرع معترفون أنكم مبتدعون محدثون في الإسلام ما ليس منه. والذين يعقلون ما يقولون، يعلمون أن العقل يناقض ما قلتم، وأن ما جعلتموه دليلاً على إثبات الصانع لا يدل على إثباته، بل هو استدلال على نفي الصانع، وإثبات الصانع حق، وهذا الحق يلزم من ثبوته إبطال استدلالكم بأن ما لم يخل من الحوادث فهو حادث.

وأما كون طريقكم مبتدعة، فلأن كل من يعرف ما جاء به الرسول ﷺ ـ وإن كانت معرفته متوسطة، لم يصل في ذلك إلى الغاية ـ يعلم أن الرسول ﷺ لم يدع الناس في معرفة الله تعالى وتوحيده إلى الاستدلال بثبوت الأعراض، وأنها حادثة ولازمة للأجسام، وما لم يخل من الحوادث فهو حادث، لامتناع حوادث لا أول لها[(٣)].

---

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ١/ ٤١، والصواعق المرسلة، لابن القيم: ٣/ ١١٨٨ ـ ١١٨٩ و٤/ ١٤٢٣ ـ ١٤٢٩.
(٢) مقتبس من: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ٥٠.
(٣) انظر: المصدر السابق: ٦/ ٢٣٩.

ولو كانت معرفة الرب ﷻ والإيمان به موقوفة على هذا الدليل ـ وهي واجبة ـ لكان واجباً، وإن كانت مستحبة كان مستحباً، ولو كان واجباً أو مستحباً لشرعه رسول الله ﷺ، ولو كان مشروعاً لنقله الصحابة رضوان الله تعالى عليهم[١].

«فعلم بالاضطرار أن هذه الطريق لم يتكلم بها الرسول ﷺ، ولا دعا إليها، ولا أصحابه، ولا تكلموا بها، ولا دعوا بها الناس، وهذا يوجب العلم الضروري من دين الرسول ﷺ، فإن عند الرسول والمؤمنين به أن الله يعرف، ويعرف توحيده، وصدق رسله بغير هذه الطريق، فدل الشرع دلالة ضرورية على أنه لا حاجة إلى هذه الطريق، ودل ما فيها من مخالفة نصوص الكتاب والسنة على أنها طريق باطلة، فدل الشرع على أنه لا حاجة إليها، وأنها باطلة»[٢].

ويقال لهؤلاء المعطلة أيضاً: إن الألفاظ التي علقوا بها تنزيههم لله تعالى ـ كنفي الجسم، والتركيب، والتحيز، والأعراض وقيام الحوادث، ونحو ذلك ـ هي ألفاظ فيها إجمال وإبهام، وهي ألفاظ اصطلاحية، وقد يراد بها معان متنوعة، ولم يرد الكتاب والسنة في هذه الألفاظ لا بنفي ولا إثبات، ولا يوجد في كلام أحد من الصحابة والتابعين، ولا أحد من الأئمة المتبوعين أنه علق بهذه الألفاظ شيئاً من أصول الدين، لا الدلائل ولا المسائل؛ فالتعبير بها في حق الله تعالى بنفي أو إثبات ليس بدلالة شرعية، لا من كتاب، ولا من سنة، ولا إجماع، بل ولا أثر لا عن صحابي ولا عن تابعي، ولا عن إمام من أئمة المسلمين، بل الأئمة من أهل السنة والجماعة قد أنكروا على المتكلمين بهذه الألفاظ، وجعلوهم من أهل

---

(١) انظر: المصدر نفسه: ٦/ ٥٠.

(٢) مقتبس من: المصدر نفسه: ٦/ ٢٣٩ ـ ٢٤٠.

الكلام الباطل المبتدع[١].

كما جاء عن أبي العباس بن سريج[٢] أنه سئل عن التوحيد؟ فذكر توحيد المسلمين. وقال: «وأما توحيد أهل الباطل، فهو الخوض في الجواهر والأعراض، وإنما بعث الله النبي ﷺ بإنكار ذلك» اهـ[٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ولم يرد بذلك أنه أنكر هذين اللفظين، فإنهما لم يكونا قد أحدثا في زمنه، وإنما أراد إنكار ما يعني بهما من المعاني الباطلة، فإن أول من أحدثهما الجهمية والمعتزلة، وقصدهم بذلك إنكار صفات الله تعالى أو أن يرى، أو أن يكون له كلام يتصف به، وأنكرت الجهمية أسماءه أيضاً» اهـ[٤].

وقال الإمام أبو المظفر السمعاني: «الأصل الذي يؤسسه المتكلمون والطريق الذي يجعلونه قاعدة علومهم: مسألة العرض والجوهر، وإثباتهما، فإنهم قالوا: إن الأشياء لا تخلو من ثلاثة أوجه:

إما أن يكون جسماً أو عرضاً أو جوهراً.

فالجسم: ما اجتمع من الافتراق.

والجوهر: ما احتمل الأعراض.

والعرض: ما لا يقوم بنفسه، وإنما يقوم بغيره...

---

(١) انظر: المصدر السابق: ٥/٢٩٨، ودرء تعارض العقل والنقل: ١/ ٤٥.

(٢) هو أحمد بن عمر بن سريج البغدادي، أبو العباس، الإمام العلامة، والقاضي الشافعي، كان صاحب سنة واتباع ، وكان يفضل على جميع أصحاب الإمام الشافعي في وقته، وتوفي سنة (٣٠٦هـ) رحمه الله.
انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي: ٣/ ٨١١ ـ ٨١٣.

(٣) رواه أبو القاسم التيمي في الحجة في بيان المحجة: ١/٩٦ ـ ٩٧، وذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى: ١٧/ ٣٠٥.

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٧/ ٣٠٥.

وردوا أخبار رسول الله ﷺ التي لا توافق نظرهم واختراعهم...، ولهذا قال بعض السلف: إن أهل الكلام أعداء الدين؛ لأن اعتمادهم على حدسهم وظنونهم وما يؤدي إليه نظرهم وفكرهم، ثم يعرضون عليه الأحاديث، فما وافقه قبلوه، وما خالفه ردوه.

وأما أهل السنة ـ سلمهم الله ـ فإنهم يتمسكون بما نطق به الكتاب، ووردت به السنة، ويحتجون له بالحجج الواضحة والدلائل الصحيحة على حسب ما أذن فيه الشرع وورد به السمع، ولا يدخلون بآرائهم في صفات الله تعالى، ولا في غيرها من أمور الدين، وعلى هذا وجدوا سلفهم وأئمتهم...»(١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والمفترقة من أهل الضلال تجعل لها ديناً وأصول دين قد ابتدعوه برأيهم، ثم يعرضون على ذلك القرآن والحديث، فإن وافقه احتجوا به اعتضاداً لا اعتماداً، وإن خالفه، فتارة يحرفون الكلم عن مواضعه، ويتأولونه على غير تأويله، وهذا فعل أئمتهم. وتارة يعرضون عنه، ويقولون نفوض معناه إلى الله، وهذا فعل عامتهم» اهـ(٢).

ثانياً: أن تنزيه المعطلة مناقض لموجب الكتاب والسنة في النفي والإثبات:

أما مناقضة تنزيههم لموجب الكتاب والسنة في النفي، فمن ثلاث جهات:

---

(١) الانتصار لأصحاب الحديث، جمع وتعليق محمد حسين الجيزاني ص٦٦ ـ ٧٠، ببعض التصرف، وذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في بيان تلبيس الجهمية: ١/ ١٣٢.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٣/ ١٤٢.

الجهة الأولى: أن النفي في الكتاب والسنة يأتي في الغالب مجملاً، وجاء مفصلاً في مواضع لأسباب معينة، كما سبق بيانه عند الكلام على طريقة الكتاب والسنة في تسبيح الله تعالى(١).

والمعطلة قد ناقضوا الكتاب والسنة في هذا، فإنهم في عقائدهم الغالب النفي مفصلاً: ليس بكذا، ليس بكذا، ليس بكذا(٢).

ومن أوضح الأمثلة على ذلك ما نقله الإمام أبو الحسن الأشعري عن المعتزلة، أنهم قالوا ـ في الله سبحانه ـ: «ليس بجسم، ولا شبح، ولا جثة، ولا صورة، ولا لحم، ولا دم، ولا شخص، ولا جوهر، ولا عرض، ولا بذي لون، ولا طعم، ولا رائحة، ولا مجسة، ولا بذي حرارة، ولا برودة، ولا رطوبة، ولا يبوسة، ولا طول، ولا عرض، ولا عمق، ولا اجتماع، ولا افتراق، ولا يتحرك، ولا يسكن، ولا يتبعض، وليس بذي أبعاض وأجزاء وجوارح وأعضاء، وليس بذي جهات...» إلى آخر ما نقل(٣).

الجهة الثانية: أن النفي في الكتاب والسنة ليس نفياً مجرداً أو نفياً محضاً، بل هو نفي لتقرير كمال الله تعالى وتنزيهه سبحانه عن الشرك والتمثيل في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، ولهذا لا يأتي النفي في حق الله تعالى إلا متضمناً إثباتاً هو كمال ضد المنفي، كما سبق بيانه أيضاً عند الكلام على تسبيح الله تعالى في أسمائه وصفاته(٤).

---

(١) انظر: ٢/ ١٢١، ١٣٤ من البحث.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ٦٦، ٥١٥، و١١/ ٤٨٣ و١٢/ ٤٣٢، و٢٠/ ١٢٦، والتدمرية، له ص١٢ ـ ١٥، والقصيدة النونية، لابن القيم ـ مع شرحها، لهراس ـ: ٢/ ٢٨٤ ـ ٢٨٨.

(٣) مقالات الإسلاميين: ١/ ٢٣٥.

(٤) انظر: ٢/ ١٧١ ـ ١٧٧ من البحث.

والمعطلة قد ناقضوا الكتاب والسنة في هذا أيضاً، فإن تنزيههم لله تعالى قائم على النفي المحض الذي لا يتضمن إثبات كمال، ولا يكون الموصوف به ممدوحاً ولا محموداً(١)، وهذا ظاهر في الأمثلة التي سبق ذكرها آنفاً وغير ذلك من عبارات النفي التي يصفون الله تعالى بها.

والذي أوقع المعطلة في هذا النفي المحض الخالي عن المدح والحمد هو اعتقادهم أن الله تعالى ليس له في الحقيقة صفات وجودية قائمة بذاته ـ كما يعتقده الجهمية والمعتزلة ـ، أو ليس له في الحقيقة صفات اختيارية قائمة بذاته ـ كما يعتقده الكلابية ـ، وإنما تلقوا هذا الاعتقاد الفاسد من أصولهم الكلامية التي ابتدعوها.

الجهة الثالثة: أن المعطلة قد نفوا عن الله تعالى معاني بألفاظ مجملة تحتمل حقًّا وباطلاً، وقد دلّ الكتاب والسنة على إثبات تلك المعاني لله تعالى بالألفاظ الشرعية.

فناقض هؤلاء المعطلة الكتاب والسنة مناقضة لفظية بابتداع ألفاظ لم ينطق بها الكتاب والسنة، ومناقضة معنوية بنفي ما أثبته الكتاب والسنة من المعاني لله ﷻ(٢).

وأما مناقضة تنزيه المعطلة لموجب الكتاب والسنة في الإثبات، فهي أن نصوص الكتاب والسنة مملوءة بإثبات الأسماء والصفات لله تعالى على وجه التفصيل(٣)، بحيث يتبين لمن درس الكتاب والسنة أن ما فيهما من الإثبات في باب الأسماء والصفات أعظم مما فيهما من

---

(١) انظر: التدمرية، لشيخ الإسلام ابن تيمية ص٥٩، وشرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز: ١/ ٦٩ ـ ٧١.
(٢) انظر: بيان تلبيس الجهمية، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ١/ ٤٤٤.
(٣) انظر: مبحث (التفصيل في الإثبات) في ٢/ ١٢٨ من البحث.

إثبات الشرائع العملية[١]، وقد قيل: إن ذلك يبلغ ثلاثمائة آية، وهي دلائل جلية من القرآن، مفهومة من كلام الله تعالى[٢]. وأما الأحاديث النبوية الصحيحة فلا يمكن ضبطها في هذا الباب[٣].

وتنزيه المعطلة قائم على ترك الإثبات، فغلاتهم ـ كالجهمية والقرامطة والفلاسفة ـ ليس معهم إثبات أصلاً، ويقاربهم المعتزلة، فإنهم وإن أثبتوا الأسماء لكنهم عطّلوها عن معانيها، ومن يوصفون بالصفاتية من المعطلة لم يثبتوا إلا قليلاً من الصفات، كما سبق بيانه عند الكلام على طوائف المعطلة.

وبهذا يعلم أن تنزيه المعطلة على عكس ما دلّ عليه الكتاب والسنة، وأنه ليس مع المعطلة عن الكتاب والسنة كلمة واحدة توافق ما يقولونه من النفي في حقّ الله تعالى[٤].

ولا بد من الإشارة إلى أن المعطلة قد يتمسكون بنصوص يظنّون أنها توافق مذهبهم، ولا يكون كذلك، ومن ذلك:

١ ـ استدلالهم بما في القرآن من تسمية الله تعالى أحداً وواحداً على نفي الصفات الذي بنوه على نفي التجسيم، وزعمهم أن الأحد والواحد هو الذي لا صفة له، ولا يتميز منه شيء عن شيء، ولا يشار إلى شيء منه دون شيء[٥].

ومعلوم أن ما فسّروا به (الأحد والواحد) معنى باطل، فليس في كلام العرب، ولا في كلام عامة أهل اللغات أن الذات الموصوفة

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/ ١٧٧.
(٢) انظر: المصدر السابق: ٥/ ٢٢٤. (٣) انظر: المصدر نفسه: ٦/ ٢٣٣.
(٤) انظر: المصدر نفسه: ٥/ ١٢٢، و٦/ ٥٧٨.
(٥) انظر: المصدر نفسه: ٦/ ١١٢، ودرء تعارض العقل والنقل: ١/ ١١٣، وبيان تلبيس الجهمية: ١/ ١٣٣، ٤٦٤.

بالصفات لا تسمّى واحداً ولا تسمّى أحداً في النفي والإثبات، بل المنقول بالتواتر عن العرب وعن جميع أهل اللغات تسمية الموصوف بالصفات واحداً وأحداً، حيث أطلقوا ذلك(١).

وقد قال الله تعالى: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ﴾ [النساء: ١١]، فسماها (واحدة) وهي امرأة واحدة متصفة بالصفات، بل جسم حامل للأعراض(٢).

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦].

فاللغة التي نزل بها القرآن لفظ (الواحد والأحد) فيها يتناول الموصوفات، ويتناول القائم بنفسه المشار إليه، الذي يتميز منه شيء عن شيء، وهذا يناقض ما استدلّ عليه هؤلاء المعطلة بهذا اللفظ(٣).

٢ ـ استدلالهم بقول الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] على نفي صفات الله تعالى، كما قال الشهرستاني(٤): «فمذهب أهل الحقّ أن الله سبحانه لا يشبه شيئاً من المخلوقات، ولا يشبهه شيء منها بوجه من وجوه المشابهة والمماثلة ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ

---

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل: ١/ ١١٣.
(٢) انظر: درء تعارض العقل والنقل: ١/ ١١٣.
(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ١١٢، ودرء تعارض العقل والنقل: ١/ ١١٤ ـ ١١٥، وبيان تلبيس الجهمية: ١/ ٤٨٢ ـ ٤٨٣.
(٤) هو محمد بن عبد الكريم بن أحمد الشهرستاني، أبو الفتح، أحد كبار الأشاعرة، كان بارعاً في علم الكلام، ونحل الأمم ومذاهب الفلاسفة، وله تصانيف عديدة، منها: الملل والنحل، ونهاية الأقدام في علم الكلام، وغير ذلك، وتوفي سة (٥٤٨هـ).
انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: ٢٠/ ٢٨٦ ـ ٢٨٨، وشذرات الذهب، لابن العماد: ٤/ ١٤٩.

ﵟٱلۡبَصِيرُﵞ، فليس البارئ سبحانه بجوهر ولا جسم، ولا عرض، ولا في مكان ولا في زمان، ولا قابل للأعراض، ولا محلّ للحوادث» اهـ(١).

فتوسّل بهذه الآية على نفي مسمى هذه الأسماء التي أرادوا بها ـ في اصطلاحهم الحادث ـ نفي صفاته سبحانه(٢).

ومعلوم أن هذه الآية قد ذكرها الله تعالى بعد ذكر بعض أوصاف كماله، مع اشتمال الآية على اسميه (السميع والبصير) الدالين على صفتي السمع والبصر، فكان في ما أثبته تعالى لنفسه من الأوصاف والأفعال ما يقرّر معنى النفي في قوله: ﵟلَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖﵞ، أي: ليس كمثله شيء في أوصافه وأسمائه وأفعاله، لكثرتها وثبوتها له على وجه الكمال الذي لا يماثله فيه شيء(٣).

ولهذا كانت هذه الآية ـ لمن فهمها حق فهمها ـ من أعظم الأدلة على ثبوت صفات كماله سبحانه(٤)، عكس ما فهمه المعطلة، فإنهم مع نفيهم لصفاته وحقائق أسمائه وأفعاله لا يبقى لكونه ﵟلَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖﵞ معنى حقيقي يذكر.

وبالجملة: فجميع الآيات القرآنية التي يستدلّ بها المعطلة على نفي الصفات لا تدلّ على مرادهم، بل فيها ما يدلّ على نقيض قولهم، وهو إثبات الصفات لله تعالى(٥)، مع أنهم ـ كما سبق ـ لا يستدلون

---

(١) نهاية الأقدام في علم الكلام ص١٠٣.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ١١٢ ـ ١١٣، ودرء تعارض العقل والنقل: ١/ ١٠٢.

(٣) انظر: الصواعق المرسلة، لابن القيم: ٣/ ١٠٢٨ ـ ١٠٢٩، وشرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز: ١/ ٧١.

(٤) انظر: الصواعق المرسلة: ٣/ ١٠٣٢.

(٥) انظر: درء تعارض العقل والنقل: ١/ ١٠٩.

بالأدلة النقلية اعتماداً ، بل يستدلون منها بما يظنّون أنه يوافق مذهبهم اعتضاداً، والأمر كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فالآيات التي احتجّوا بها هي عليهم لا لهم. وهذا أمر قد وجدناه مطّرداً في عامة ما يحتج به نفاة الصفات من الآيات، فإنّما تدلّ على نقيض مطلوبهم، لا على مطلوبهم» اهـ(١).

ثالثاً: أن تنزيه المعطلة كما أنه باطل بالشرع، فهو كذلك باطل بدلالة العقل الصريح، والفطرة المستقيمة.

فإن العقل الصريح جازم بثبوت صفات الكمال للربّ ﷻ، مقرّ بأنه سبحانه أحق بالكمال من كل ما سواه، وإن كان العقل لا يستقل بمعرفة تفاصيل هذه الصفات، كما أنه لا يحيط بكيفياتها علماً.

وقد جاءت نصوص الكتاب والسنة مفصّلة لما جزم به العقل وأقرّ به، فليس في الكتاب والسنة صفة إلا وقد دلّ العقل الصريح على إثباتها لله تعالى(٢).

وكذلك الفطرة المستقيمة جازمة بثبوت صفات الكمال لله تعالى، مقرّة به، قابلة لإثباتها كما جاءت في الكتاب والسنة، وذلك لأن الله ﷻ قد أودع في الفطر السليمة أنه سبحانه الكامل في أسمائه وصفاته، وأنه الموصوف بكل كمال، المنزّه عن كل عيب ونقص(٣).

كما أن الله تعالى نصب على اتصافه بصفات الكمال الدلائل الحسية، من المخلوقات والمأمورات، فإنها «بأسرها شواهد صفات

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/ ٢٢٢.
(٢) انظر: الصواعق المرسلة، لابن القيم: ١/ ٢٩٣ و٣/ ٩٠٩، ١٠٨٠.
(٣) انظر: المصدر السابق: ٣/ ١١١٢، ومدارج السالكين، له: ٣/ ٤٣٣.

الربّ جلّ جلاله ونعوته وأسمائه، فهي كلها تشير إلى الأسماء الحسنى وحقائقها، وتنادي عليها، وتدلّ عليها، وتخبر بها بلسان النطق والحال، كما قيل:

تأمّل سطور الكائنات فإنها — من الملك الأعلى إليك رسائل
وقد خطّ فيها ـ لو تأملت خطّها ـ — ألا كل شيء ما خلا الله باطل
تشير بإثبات الصفات لربّها — فصامتها يهدي ومن هو قائل

فلست ترى شيئاً أدلّ على شيء من دلالة المخلوقات على صفات خالقها ونعوت كماله وحقائق أسمائه، وقد تنوّعت أدلتها بحسب تنوّعها، فهي تدلّ عقلاً وحسًّا، وفطرة ونظراً، واعتباراً»(١).

فتبيَّن بهذا أن الأدلة العقلية الصحيحة البيّنة التي لا ريب فيها، والعلوم الفطرية الضرورية جميعها موافقة لما أخبر به الكتاب والسنة من إثبات الأسماء والصفات لله تعالى، ومخالفة لما أخبر به المعطلة من النفي والتعطيل لأسماء الله وصفاته(٢).

وتبيّن بهذا أيضاً أنه لا يمكن أن يعارض ثبوت الأسماء والصفات دليل صحيح البتة، لا عقلي ولا نقلي، بل إن كان المعارض نقليًّا كان كذباً مفترى، أو مما أخطأ المعارض في فهمه، وإن كان عقليًّا فهو شبهة خيالية وهمية لا دليل عقلي برهاني(٣).

و«هذه دعوى عظيمة ينكرها كل جهميّ وناف وفيلسوف وقرمطيّ وباطنيّ، ويعرفها من نوّر الله قلبه بنور الإيمان، وباشر قلبه معرفة الذي دعت إليه الرسل، وأقرت به الفطر، وشهدت به العقول الصحيحة

---

(١) مقتبس من: مدارج السالكين، لابن القيم: ٣/ ٣٣٢.
(٢) انظر: درء تعارض العقل والنقل: ١/ ١٣٣.
(٣) انظر: الصواعق المرسلة، لابن القيم: ٣/ ٩٠٩.

المستقيمة، لا المنكوسة[١] الموكوسة[٢] التي نكست قلوب أصحابها فرأت الحق باطلاً، والباطل حقًّا، والهدى ضلالة، والضلالة هدى»[٣].

ولهذا إذا تأمل المؤمن البصير بدينه في ما يذكره المعطلة من العقليات التي نفوا بها صفات الله تعالى، وجد أنّما هي جهل وضلال تواطؤوا عليه، وتقلّده متأخروهم عن متقدميهم، وسموا ذلك عقليات، وإنما هي جهليّات[٤]، «فسادها معلوم بالضرورة العقلية، وإن كان قد تواطأ عليها جماعة كثيرة؛ فإن الجماعة الذين يقلدون مذهباً تلقّاه بعضهم عن بعض يجوز اتفاقهم على جحد الضروريات، كما يجوز الاتفاق على الكذب مع المواطأة والاتفاق، ولهذا يوجد في أهل المذاهب الباطلة ـ كالنصارى والرافضة والفلاسفة ـ من يصرّ على القول الذي يعلم فساده بالضرورة.

وإنما الممتنع ما يمتنع على أهل التواتر، وهو اتفاق الجماعة العظيمة على الكذب من غير مواطأة ولا اتّفاق، فيمتنع عليهم جحد ما يعلم ثبوته بالاضطرار، وإثبات ما يعلم نفيه بالاضطرار؛ لأن هذا اتفاق على الكذب، وأهل التواتر لا يتصوّر منهم الكذب، فأما إذا لقّنوا قولاً بشبهة وحجج، واعتقدوا صحته جاز أن يصرّوا على اعتقاده، وإن كان مخالفاً لضرورة العقل، وإن كانوا جماعة عظيمة...

وإنما تؤخذ الضروريات من القلوب السليمة، والعقول المستقيمة

---

(١) اسم مفعول من (نكس). يقال: نكسه، أي: قلبه على رأسه. انظر: القاموس المحيط، للفيروزآبادي، مادة نكس ص٧٤٦.

(٢) اسم مفعول من (وكس). والوكْس: النقصان والتنقيص، لازم متعدّ. انظر: القاموس المحيط، للفيروزآبادي، مادة (وكس) ص٧٤٨.

(٣) مقتبس من: الصواعق المرسلة، لابن القيم: ٣/ ٩٠٩.

(٤) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/ ١٧٢.

التي لم تمرض بما تقلّده من العقائد، وتعوّدته من المقاصد»[١].

ومن المعلوم أن من ذُكر له قول النفاة لصفات الله تعالى ـ من أجناس بني آدم السليمي الفطر ـ علم بالضرورة فساده، وكلّما كان أذكى وأحدّ ذهناً، كان علمه بفساده أشدّ[٢].

ولو كان قول النفاة صحيحاً معلوماً بالعقل كما زعموا، لكان مع الداعي التام يجب تحصيله، فكان يجب أن يظهر هذا القول من أفضل الناس عقلاً وديناً، وهم الرسول ﷺ والسلف الصالح من الصحابة والتابعين والأئمة المتبوعين، فلما لم يكن الأمر كذلك، عُلم أن ذلك لفساده، وأنهم لصحة عقولهم لم يعتقدوا هذا القول، كما لم يعتقدوا مذهب القرامطة الباطنية، والرافضة الغالية، وأمثالهم من الطوائف التي يعلم فساد قولهم بصريح المعقول[٣].

«ومعلوم أن الباطل ليس له حد محدود، فلا يجب أن يخطر ببال أهل العقل والدّين كل باطل، وأن يردوه، فإن هذا لا نهاية له، بخلاف ما هو حقّ معلوم بصريح العقل في حق الله تعالى، لا سيّما إذا كان مما يجب اعتقاده، بل يتوقف تصديق الرسول على معرفته، فإن هذا يمتنع أن تكون العصور الفاضلة ـ مع كثرة أهلها وفضلهم عقلاً وديناً ـ لم يعلموها ولم يقولوها.

فعلم بذلك أن هذه المعارضات ليست من العقليّات الصحيحة التي هي مستقرّة في صريح العقل، بل هي من الخيالات الفاسدة المشابهة للعقليات، التي تنفق على طائفة من الناس دون طائفة، كما

(١) مقتبس من: المصدر السابق: ٥/ ٢٧٤ ـ ٢٧٥.
(٢) انظر: المصدر نفسه: ٥/ ٢٧٥.
(٣) انظر: درء تعارض العقل والنقل: ٧/ ٧٥ ـ ٧٦.

نفقت على الجهمية ومن وافقهم دون جمهور عقلاء بني آدم»[١].

وهذا مما يتبيّن به أن من خرج عن الكتاب والسنة، فليس معه علم لا عقلي ولا نقلي ـ لا سيّما في هذا المطلوب الأعظم[٢] ـ، وأن كل ما عارض الشرع من العقليات فالعقل يعلم فساده، وإن لم يعارض العقل، وما علم فساده بالعقل لا يجوز أن يعارض به لا عقل ولا شرع[٣].

وأنه كلما كان المرء عن الكتاب والسنة أبعد كان عقله أقلّ وأفسد، فأكمل الناس عقولاً أتباع الرسل، وأفسدهم عقولاً المعرض عنهم وعما جاؤوا به، ولهذا كان أهل السنة والجماعة أعقل هذه الأمة الإسلامية وأسدها طريقة في العقيدة والعبادة[٤].

رابعاً: أن تنزيه المعطلة تلبيس وتمويه على العقول والفطر.

وذلك أن حقيقة هذا التنزيه ـ كما سبق ـ هي تعطيل الله ﷻ عن صفات كماله، ونفي ما أثبته لنفسه في كتابه، وما أثبته رسوله ﷺ في سنته من الصفات، والألفاظ الدالة على صفات الله تعالى في الكتاب والسنة ألفاظ شرعية إيمانية لها حرمة عند كل مؤمن، فلا يمكن لمن يظهر الإسلام أن يعارضها صراحة؛ لأن ذلك كفر واضح لا يقبله مؤمن بالله تعالى.

ولهذا فإن المعطلة يعبّرون عن المعاني التي تنافيها بعبارات أخرى ابتدعوها، ويكون فيها إجمال وإيهام تشتبه فيها المعاني، ويلتبس فيها

(١) المصدر السابق: ٧/ ٧٦.
(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٣/ ١٦٧.
(٣) انظر: درء تعارض العقل والنقل: ١/ ١٩٤.
(٤) انظر: الصواعق المرسلة: ٣/ ٨٦٤.

الحق بالباطل[(١)]، ويفهمون الناس بهذه العبارات أنهم ينزهون الله تعالى عما لا يليق به من الأوصاف، فتكون ظاهر هذه العبارات التنزيه، وباطنها التعطيل.

قال الإمام ابن قيم الجوزية: «إن هؤلاء المعارضين للكتاب والسنة بعقلياتهم التي هي - في الحقيقة - جهليات، إنما يبنون أمرهم في ذلك على أقوال مشتبهة محتملة تحتمل معاني متعددة، ويكون ما فيها من الاشتباه في المعنى والإجمال في اللفظ يوجب تناولها بحق وباطل، فبما فيها من الحق يقبل من لم يحط بها علماً ما فيها من الباطل، لأجل الاشتباه والالتباس، ثم يعارضون بما فيها من الباطل نصوص الأنبياء. وهذا منشأ ضلال من ضلّ من الأمم قبلنا، وهو منشأ البدع كلّها، فإن البدعة لو كانت باطلاً محضاً لما قبلتْ، ولبادر كلّ أحد إلى ردّها وإنكارها، ولو كانت حقًّا محضاً لم تكن بدعة، وكانت موافقة للسنة، ولكنّها تشتمل على حق وباطل، ويلتبس فيها الحق بالباطل، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [البقرة: ٤٢]، فنهى عن لبس الحق بالباطل وكتمانه. ولبسه به: خلطه به حتى يلتبس أحدهما بالآخر، ومنه التلبيس، وهو التدليس والغشّ الذي يكون باطنه خلاف ظاهره، فكذلك الحق إذا لبس بالباطل، يكون فاعله قد أظهر الباطل في صورة الحق، وتكلم بلفظ له معنيان: معنى صحيح، ومعنى باطل، فيتوهّم السامع أنّه أراد المعنى الصحيح، ومراده الباطل، فهذا من الإجمال في اللفظ.

وأما الاشتباه في المعنى، فيكون له وجهان، هو حق من أحدهما، وباطل من الآخر، فيوهم إرادة الوجه الصحيح، ويكون مراده الباطل.

---

(١) انظر: بيان تلبيس الجهمية، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ١/ ١٢.

فأصل ضلال بني آدم من الألفاظ المجملة والمعاني المشتبهة، ولا سيما إذا صادفت أذهاناً مخبطة[١]، فكيف إذا انضاف إلى ذلك هوى وتعصب، فسل مثبّت القلوب أن يثبت قلبك على دينه، وأن لا يوقعك في هذه الظلمات» اهـ[٢].

ومن عبارات المعطلة التي يلبّسون بها على الناس:

١ ـ قولهم: إن الله تعالى ليس بجسم.

إذا قالوا هذا أوهموا الناس أنه تعالى ليس من جنس المخلوقات، ولا مثل أبدان الخلق، وهذا المعنى صحيح، ولكن مقصودهم بذلك أنه لا يُرى، ولا يتكلم بنفسه، ولا تقوم به صفة، ولا هو مباين للخلق، وأمثال ذلك[٣].

٢ ـ قولهم: إن الله منّزه عن الأبعاض.

ومرادهم بتنزيهه عنها أنه ليس له وجه، ولا يدان، ولا يمسك السموات على أصبع، والأرض على أصبع، والشجر على أصبع، والماء على أصبع، فإن ذلك كله أبعاض ـ عندهم ـ، والله منّزه عن الأبعاض[٤].

٣ ـ قولهم: إن الله منّزه عن الأعراض.

---

(١) من الخبط، وأصله: ضرب البعير الشيء بخف يده. وقيل: الخبط: كل سير على غير هدى. والمعنى: أن أذهانهم تضرب في كل ناحية، فليس لها منهج واضح.
انظر: لسان العرب، لابن منظور، مادة (خبط): ٧/ ٢٨٠.

(٢) الصواعق المرسلة: ٣/ ٩٢٥ ـ ٩٢٧.

(٣) انظر: درء تعارض العقل والنقل: ٢/ ١١، والصواعق المرسلة: ٢/ ٦٧٢ ـ ٦٧٣.

(٤) انظر: الصواعق المرسلة: ٣/ ٩٣٥.

وهذه العبارة ليس في ظاهرها ما ينكر؛ لأن الناس يفهمون من ذلك أنه تعالى منّزه عن الاستحالة والفساد، كالأعراض التي تعرض لبني آدم من الأمراض والآفات، ولا ريب أن الله منزه عن ذلك. ولكن مقصودهم بهذه العبارة نفي صفاته، كالسمع والبصر والعلم والقدرة والحياة؛ لأن هذه الصفات وأمثالها هي ـ عندهم ـ أعراض ينزّهون الله عنها(١).

٤ ـ قولهم: إن الله منّزه عن الحدود والأحياز والجهات.

يوهمون بهذه العبارة أنهم ينّزهون الله تعالى عن أن تحصره المخلوقات، أو تحوزه المصنوعات، وهذا المعنى صحيح، ولكن مقصودهم: أنه تعالى ليس مبايناً لخلقه ولا منفصلاً عنهم، وأنه ليس فوق السماوات ربّ، ولا على العرش إله، وأنه لا يشار إليه بالأصابع إلى فوق، ولا ترفع إليه الأيدي في الدعاء ولا غيره، ونحو ذلك من المعاني(٢).

٥ ـ قولهم: إن الله لا تحلّه الحوادث.

يوهمون بهذه العبارة أنهم ينزهونه عن أن يكون محلًّا للتغيّرات والاستحالات ونحو ذلك من الأحداث التي تحدث للمخلوقين فتحيلهم وتفسدهم، وهذا معنى صحيح، ولكن مقصودهم بهذه العبارة: أنه تعالى ليس له فعل اختياري يقوم بذاته، وأنه لا يتكلم بمشيئته وقدرته، ولا ينزل ولا يجيء، ولا يغضب، ولا يرضى، ولا استوى على العرش بعد أن لم يكن مستوياً عليها، وأن المخلوقات التي خلقها لم يكن منه عند خلقها فعل أصلاً، بل عين المخلوقات هي الفعل، ليس هناك فعل

---

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل: ٢/ ١١، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ٥٢٠، والصواعق المرسلة: ٢/ ٦٧٣ و٣/ ٩٣٤.

(٢) انظر: درء تعارض العقل والنقل: ٢/ ١١، والصواعق المرسلة: ٣/ ٩٣٥.

ومفعول، وخلق ومخلوق، بل المفعول عين الفعل، والمخلوق عين الخلق، ونحو ذلك[١].

فهذه أمثلة لما في تنزيههم من التلبيس والتمويه، وهم «دائماً يعتمدون هذه الطريقة المتضمنة للتلبيس والتدليس، وينفون بها حقائق ما أخبر الله به عن نفسه، فيأتون إلى ألفاظ معناها ـ في اللغة العربية ـ أخصّ من معناها في اصطلاحهم، فينفون معناها العام الذي اصطلحوا عليه، ويوهمون الناس أنهم إنما نفوا معناها المعروف في اللغة. والناس أول ما يسمعون تلك الألفاظ إنما يفهمون منها معناها اللغوي، فيوافقونهم على النفي تعظيماً لله وتنزيهاً له، ومرادهم نفي المعنى العام الذي اصطلحوا عليه، وقد جمعوا في ذلك تحريف لغة العرب عن مواضعها، وتحريف كلام الله ورسوله عن مواضعه، ولبس الحق بالباطل في النفي والإثبات»[٢].

ولهذا كان معرفة مقاصد هؤلاء المعطلة وكلامهم من تمام مقاصد الدين، ليتمكن أهل السنة من ردّ باطلهم، وتبيين إفكهم، وكشف مرادهم للناس لئلا ينخدعوا بظاهر ألفاظهم[٣].

ولقد كان العلماء من السلف يعلمون أن هذه الألفاظ التي ابتدعها المتكلمون ـ كالألفاظ التي سبق ذكرها ونحوها ـ ينفيها قوم ليتوصلوا بنفيها إلى نفي ما أثبته الله تعالى ورسوله ﷺ. ويثبتها قوم ليتوصلوا بإثباتها إلى إثبات ما نفاه الله تعالى ورسوله ﷺ. فالأولى طريقة المعطلة، والثانية طريقة الممثلة[٤].

---

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل: ٢/ ١٢، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ٥٢١، والصواعق المرسلة: ٢/ ٦٧٣ و٣/ ٩٣٥.

(٢) مقتبس من: الصواعق المرسلة: ٤/ ١٤٤٠ ـ ١٤٤١.

(٣) انظر: المصدر السابق: ٤/ ١٤٤١.

(٤) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٧/ ٣٠٠.

فكان العلماء من السلف يحذّرون من موافقتهم على إطلاق هذه الألفاظ أو القبول بها، كما قال الإمام أحمد بن حنبل ـ يصفهم ـ: «فهم مختلفون في الكتاب، مخالفون للكتاب، مجمعون على مفارقة الكتاب، يقولون على الله وفي الله وفي كتاب الله بغير علم، يتكلمون بالمتشابه من الكلام، ويخدعون جهال الناس بما يشبهون عليهم، فنعوذ بالله من فتن المضلين»[١].

وقال: «فإذا سمع الجاهل قولهم يظنّ أنهم من أشدّ الناس تعظيماً لله، ولا يعلم أنهم إنما يعود قولهم إلى ضلالة وكفر، ولا يشعر أنهم لا يقولون قولهم إلا فرية في الله» اهـ[٢].

وبالجملة: فطريقة المتكلمين النفاة لصفات الله تعالى مما يجب الحذر والتحذير منه؛ لأنهم يأتون بحجج عقلية، وعبارات منطقية تشتبه على كثير من الناس وتروج عليهم، إلا على قليل ممن لهم خبرة بذلك. وأكثر الناس ـ كما قال ابن قيم الجوزية ـ:

«والناس أكثرهم فأهل ظواهر تبدو لهم ليسوا بأهل معان
فهم القشور وبالقشور قوامهم واللّبّ حظّ خلاصة الإنسان»[٣]

خامساً: أن تنزيه المعطلة جمع بين التمثيل والتعطيل؛ لأن هذا التنزيه قائم على نفي صفات الله تعالى وإنكار قيامها بذاته سبحانه، وهذا النفي والإنكار ناشئ عن التمثيل، حيث فهم المعطلة بعقولهم السخيفة من الصفات الإلهية ما فهموه من صفات المخلوقين، وظنّوا أنهم إذا أثبتوا لله تعالى هذه الصفات فقد مثّلوه بالمخلوق، فلذلك نفوها وأنكروا قيامها بذات الله تعالى، لئلا يلزم من إثباتها التمثيل،

---

(١) الرد على الزنادقة والجهمية ـ ضمن عقائد السلف ـ ص٥٢.
(٢) المصدر السابق ص٦٨.
(٣) الكافية الشافية (القصيدة النونية) ص٤٣.

فمثّلوا أولاً، وعطّلوا ثانياً[١].

وهذا تمثيل منهم للمفهوم من أسماء الله وصفاته بالمفهوم من أسماء خلقه وصفاتهم، وتعطيل لما يستحقه الله سبحانه من الأسماء والصفات اللائقة به[٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «هؤلاء الجهّال يمثّلون في ابتداء فهمهم صفات الخالق بصفات المخلوق، ثم ينفون ذلك ويعطّلونه، فلا يفهمون من ذلك إلا ما يختصّ بالمخلوق، وينفون مضمون ذلك، ويكونون قد جحدوا ما يستحقّه الربّ من خصائصه وصفاته، وألحدوا في أسماء الله وآياته، وخرجوا عن القياس العقليّ والنصّ الشرعيّ، فلا يبقى بأيديهم لا معقول صريح ولا منقول صحيح»[٣].

وقال العلامة ابن قيم الجوزية ـ وهو يتحدث عن هذه العقدة، عقدة التمثيل عند المعطلة ـ: «وهل نفى أحد ما نفى من صفات الرب ونعوت جلاله إلا لسبق نظره الضعيف إليها واحتجاجه بها عن أصل الصفة وتجرّدها عن خصائص المحدث، فإن الصفة يلزمها لوازم باختلاف محلّها، فيظن القاصر ـ إذا رأى ذلك اللازم في المحل المحدث ـ أنّه لازم لتلك الصفة مطلقاً، فهو يفرّ من إثباتها للخالق سبحانه حيث لم يتجرّد في ظنه عن ذلك اللازم، وهذا كما فعل من نفى عنه سبحانه الفرح والمحبة والرضا والغضب والكراهة والمقت والبغض، وردّها كلها إلى الإرادة، فإنه فهم فرحاً مستلزماً لخصائص

(١) انظر: الفتوى الحموية الكبرى، لشيخ الإسلام ابن تيمية ص٢٦، ومدارج السالكين، لابن القيم: ٣/ ٣٣٥ ـ ٣٣٦، ومعارج القبول، للشيخ حافظ الحكمي: ١/ ٢١٠.

(٢) انظر: الفتوى الحموية الكبرى ص٦٢.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/ ٢٠٩.

المخلوق، من انبساط دم القلب وحصول ما ينفعه، وكذلك فهم غضباً هو غليان دم القلب طلباً للانتقام، وكذلك فهم محبة ورضى وكراهة ورحمة مقرونة بخصائص المخلوقين، فإن ذلك هو السابق إلى فهمه، وهو المشهود في علمه الذي لم تصل معرفته إلى سواه، ولم يحط علمه بغيره، ولما كان هو السابق إلى فهمه لم يجد بدًّا من نفيه عن الخالق، والصفة لم تتجرّد في عقله عن هذا اللازم، فلم يجد بدًّا من نفيها»(١).

وقال أيضاً: «وهذا الغلط منشؤه إنما هو توهّم صفة المخلوق المقيّدة به أولاً، وتوهّم أنّ إثباتها لله هو مع هذا القيد، وهذان وهمان باطلان، فإن الصفة الثابتة لله مضافة إليه لا يتوهم فيها شيء من خصائص المخلوقين، لا في لفظها ولا في ثبوت معناها، وكل من نفى عن الرب تعالى صفة من صفاته لهذا الخيال الباطل، لزمه نفي جميع صفات كماله؛ لأنه لا يعقل منها إلاّ صفة المخلوق، بل ويلزمه نفي ذاته؛ لأنه لا يعقل من الذوات إلا الذوات المخلوقة.

ومعلوم أن الرب ﷻ لا يشبهه شيء منها، وهذا الباطل قد التزمه غلاة المعطّلة، وكلّما أوغل النافي في نفيه، كان قوله أشدّ تناقضاً وأظهر بطلاناً، ولا يسلم على محكّ العقل الصحيح الذي لا يكذب إلا ما جاءت به الرّسل صلوات الله وسلامه عليهم، ورحمة الله وبركاته عليهم» اهـ(٢).

وقال بعض السلف ـ فيما نقله ابن قيم الجوزية أيضاً ـ: «إن النفاة جمعوا بين التشبيه والتعطيل، فسمّوا تعطيلهم تنزيهاً، وسموا ما وصف به نفسه تشبيهاً، وجعلوا ما يدلّ على ثبوت صفات الكمال وكثرتها دليلاً على نفيها وتعطيلها، وراج ذلك على من لم يجعل الله له

---

(١) طريق الهجرتين ص٣٩٣. (٢) جلاء الأفهام ص٢٧٥.

نوراً، واغترّ به من شاء الله، وهدى الله من اعتصم بالوحي والعقل والفطرة، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم» اهـ[(١)].

فتبيّن بهذا أن تنزيه المعطلة بني على خطأين كبيرين، لا يتحقّق التنزيه الصحيح إلا باجتنابهما والسلامة منهما، كما قال الإمام أبو جعفر الطحاوي[(٢)]: «ومن لم يتوقّ النفي والتشبيه، زلّ ولم يصب التنزيه»[(٣)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ومتى جنب المؤمن طريق التحريف والتعطيل، وطريق التمثيل، سلك سواء السبيل»[(٤)].

سادساً: أن تنزيه المعطلة تمثيل لله تعالى بالمنقوص والمعدوم.

وهذا إلزام ألزمه أهل السنة والجماعة للمعطّلة، وهو لازم لهم بلا ريب[(٥)]؛ لأن تنزيههم قائم على وصف الله تعالى بالصفات السلبية التي لا تتضمن إثباتاً، مثل كونه لا وجه له، ولا عين، ولا يد. وكونه لا يتكلم، ولا ينزل، ولا يحبّ، ولا يغضب. وكونه لا مبايناً للعالم ولا مداخلاً للعالم، ونحو ذلك. وهذه الصفات السلبية منها ما لا يتّصف به إلا الناقص أو الموات، ومنها ما لا يتّصف به إلا المعدوم[(٦)]،

---

(١) الصواعق المرسلة: ٣/ ١٠٢٩ ـ ١٠٣٠.

(٢) هو أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي الحجري، أبو جعفر الطحاوي المصري، الحنفي، الإمام العلامة الحافظ، كان ثقة ثبتاً، وفقيهاً عاقلاً، عالماً باختلاف العلماء، بصيراً بالتصنيف، وله مصنفات عديدة، منها: شرح معاني الآثار، والعقيدة الطحاوية، وغير ذلك، وتوفي سنة (٣٢١هـ)، رحمه الله تعالى.
انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي: ٣/ ٨٠٨ ـ ٨١٠.

(٣) العقيدة الطحاوية ـ بشرح ابن أبي العز ـ: ١/ ٢٤٩.

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ٣٩٩.

(٥) انظر: توضيح الكافية الشافية، للسعدي ص٣٩.

(٦) انظر: التدمرية، لشيخ الإسلام ابن تيمية ص٦١.

فصار تنزيههم تمثيلاً لله تعالى بالمنقوص تارة، وبالمعدوم تارة أخرى[١].

أما كون تنزيههم تمثيلاً لله تعالى بالمنقوص، فلأنهم لما نفوا عن الله تعالى صفات كماله التي وصف بها نفسه ووصفه بها رسوله ﷺ، لزمهم إثبات أضداد هذه الصفات من النقائص والعيوب[٢]، كنفيهم لسمعه وبصره وكلامه، لازمه وصفه بالصمم والعمى والبكم، وكذلك في سائر الصفات[٣]، فلزم من ذلك تمثيله سبحانه بالمخلوق في صفات النّقص[٤].

ولكن المعطّلة لهم ـ في هذا المقام ـ اعتراض، وهو: أن نفي الكلام ـ مثلاً ـ يكون نقصاً إذا نفي عما من شأنه أن يقبل الكلام وضدّه، كالإنسان، فإنه إذا كان أخرس نقص بكثير من المتكلم، وأما الذي لا يقبل الكلام ولا يصحّ منه، فليس نفي الكلام عنه نقصاً[٥]

وشبهة المعطّلة ـ في هذا الاعتراض ـ ظنهم أن الله تعالى إذا لم يوصف بصفات الكمال من الحياة والعلم والسمع والبصر والكلام، لم يلزم أن يتصف بصفات النقص؛ لأنهما متقابلان تقابل العدم والملكة[٦]،

---

(١) انظر: تلبيس الجهمية، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٢/ ٩٦.
(٢) انظر: الصواعق المرسلة، لابن القيم: ١/ ٢٦٣.
(٣) انظر: التدمرية ص٦١، ومعارج القبول، للشيخ حافظ الحكمي: ١/ ٢١٠.
(٤) انظر: درء تعارض العقل والنقل، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٧/ ٢٦٠، وتوضيح الكافية الشافية، للسعدي ص٣٩.
(٥) انظر: التدمرية ص٦١، وتوضيح الكافية الشافية ص٣٩.
(٦) اصطلح المتفلسفة على تقسيم المتقابلين بالنفي والإثبات إلى: النقيضين، وإلى (العدم والملكة)، فالعدم ـ عندهم ـ: سلب الشيء عما من شأنه أن يكون متصفاً به، كالعمى والخرس، فإنه عدم البصر والكلام عما من شأنه أن يكون بصيراً متكلماً، كالإنسان. فأما الجماد فلا يوصف لا بهذا ولا بهذا. =

لا تقابل النقيضين[١].

فيقال لهم: هذا باطل من وجوه:

الوجه الأول: أن كل موجود في الخارج لا بدّ له من صفة، فإذا انتفت عنه صفات الكمال لزم أن يكون متصفاً بصفات النقص[٢].

الوجه الثاني: أن كل موجود يقبل الاتصاف بهذه الأمور ونقائضها، فإن الله قادر على جعل الجماد حيًّا، كما جعل عصا موسى حيّة ابتلعت الحبال والعصيّ[٣].

الوجه الثالث: أن هذا التفريق بين السلب والإيجاب، وبين العدم والملكة أمر اصطلاحيّ اصطلح عليه المتفلسفة، وإلّا فكلّ ما يوصف بعدم الحياة والسمع والبصر والكلام يمكن وصفه بالموت والصمم والعمى والخرس[٤]، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾ [النحل: ٢٠، ٢١]، فوصف سبحانه الأوثان التي تعبد من دون الله بأنها أموات، وهي جمادات[٥].

الوجه الرابع: أن الموجودات نوعان: نوع يقبل الاتصاف

= انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٢/٣٥٧، والتعريفات، للجرجاني ص٢٥٤ ـ ٢٥٥.

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٢/٣٥٧.

(٢) انظر: المصدر السابق، الموضع نفسه، وفتح رب البرية بتلخيص الحموية، للشيخ ابن عثيمين ـ ضمن القواعد الطيبات ـ ص١٦٦.

(٣) انظر: التدمرية: ٦٢.

(٤) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/٨٩، و١٢/٣٥٧، والتدمرية ص٦١.

(٥) انظر: تفسير الطبري: ٧/٥٧٣.

بالكمال، كالحي. ونوع لا يقبله، كالجماد. ومعلوم أن القابل للاتصاف بصفات الكمال أكمل مما لا يقبل ذلك. وحينئذ: فالربّ تعالى إذا قيل: إنه لا يتصف بهذه الصفات لكونه لا يقبل ذلك، كان في ذلك من وصفه بالنقص أعظم مما إذا وصف بالعمى والصمم والخرس ونحو ذلك، مع أنه إذا جعل غير قابل لهما، كان تشبيهاً له بالجماد الذي لا يقبل الاتصاف بواحد منهما، وهذا تشبيه بالجمادات لا بالحيوانات[1].

وبهذا ينعكس الأمر على هؤلاء المعطلة، ويقعون في شرّ مما فرّوا منه[2]، فإنّهم فرّوا من تشبيهه بالأحياء، فشبّهوه بالجمادات، وزعموا أنّهم ينزّهونه عن النقائص، فوصفوه بما هو أعظم النقص[3].

الوجه الخامس: أن مجرّد نفي صفات الكمال نقص، وإن لم يقدّر هناك ضدّ ثبوتيّ، والعلم بذلك ضروريّ[4]، ولهذا عاب الله تعالى آلهة المشركين بأنها لا تتكلم ولا تكلم عابديها؛ وأنها لا تسمع ولا تبصر، كما قال سبحانه عن إبراهيم عليه السلام: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾ [مريم: ٤٢]، وقال أيضاً ـ في قصّته ـ: ﴿فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣]، فدلّ على أن السميع البصير الغني الناطق أكمل، وأن المعبود يجب أن يكون كذلك[5].

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ٨٩ و١٢/ ٣٥٧ ـ ٣٥٨، والتدمرية ص٦٢.

(٢) انظر: فتح رب البرية، للشيخ ابن عثيمين ـ ضمن القواعد الطيبات ـ ص١٦٦.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ٨٩.

(٤) انظر: المصدر السابق: ٦/ ٩٠، والتدمرية ص٦٢، ١٦٣.

(٥) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ٨٢، والتدمرية ص١٦٤.

ولهذا قال الإمام البخاري: «وقال بعض أهل العلم: إن الجهمية هم المشبهة؛ لأنهم شبّهوا ربّهم بالصنم والأصمّ والأبكم، الذي لا يسمع ولا يبصر ولا يتكلم ولا يخلق» اهـ(١).

فهذا بيان لكون تنزيههم تمثيلاً لله تعالى بالمنقوصات، بل بأنقص المنقوصات.

وأما كون تنزيههم تمثيلاً لله تعالى بالمعدوم، فإنهم تارة يصفونه بالصفات السلبية التي لا تنطبق إلا على المعدوم، فيكونون عادلين به المعدومات(٢)، مثل قولهم: لا هو داخل العالم، ولا خارجه، ولا متّصل به، ولا منفصل عنه، ولا محايث له، ولا مباين له، ولا هو فينا، ولا خارج عنا(٣).

وقولهم: ليس له فوق، ولا تحت، ولا يمين، ولا شمال، ولا قدام، ولا خلف(٤).

ومعلوم أن هذا الوصف إنما هو خيال مقدّر في الذهن، لا حقيقة له، وإنما غايته أن يفرضه الذهن ويقدّره، كما يفرض الأشياء المقدّرة(٥).

وانطباق هذا السلب على العدم المحض أقرب إلى العقول والفطر

---

(١) خلق أفعال العباد ـ ضمن عقائد السلف ـ ص١٣٤.

(٢) انظر: تلبيس الجهمية، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٢/ ٩٦، ومدارج السالكين، لابن القيم: ١/ ١٨٣.

(٣) انظر: نهاية الأقدام في علم الكلام، للشهرستاني ص١١١، والتدمرية، لشيخ الإسلام ابن تيمية ص٦٠، ومدارج السالكين، لابن القيم: ١/ ١٨٣.

(٤) انظر: الاقتصاد في الاعتقاد، لأبي حامد الغزالي ص٧٤، وتحفة المريد شرح جوهرة التوحيد، للبيجوري ص٩٦.

(٥) انظر: إغاثة اللهفان، لابن القيم: ٢/ ٣١٧.

من انطباقه على ربّ العالمين الذي ليس في مخلوقاته شيء من ذاته، ولا في ذاته شيء مخلوقاته، بل هو بائن من خلقه، مستو على عرشه، عال على كل شيء، وفوق كل شيء[(١)].

ولهذا يحكى أن بعض النفاة ادّعى مثل هذا الوصف السلبيّ في الخالق سبحانه بحضرة السلطان محمود بن سبكتكين[(٢)]، فقال له السلطان: «ميّز لنا بين هذا الربّ الذي تثبته وبين المعدوم»![(٣)].

والمقصود: أن المعطلة قد فرّوا من إثبات صفات الكمال لله تعالى حذراً ـ في زعمهم ـ من التشبيه، فوصفوه بأعظم النقص، ومثّلوه بأنقص المعقولات الذهنية، وجعلوه دون الموجودات الخارجية، ففرّوا من تشبيه إلى تشبيه أشد وأقبح[(٤)].

سابعاً: أنّ تنزيه المعطلة لا يستقيم عليه تنزيه الله تعالى عن النقائص والعيوب؛ لأن عمدتهم في تنزيه الله على نفي التشبيه والتجسيم ونحو ذلك مما سبق بيانه. ولهذا إذا ذكروا المقالات الباطلة في الربّ سبحانه ـ كمقالات اليهود الذين يصفونه بالنقائص، ومقالات النصارى الذين ينسبون إليه الولد ـ جعلوا يردّونها بأن ذلك تشبيه وتجسيم[(٥)].

---

(١) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم: ١/ ١٨٣.

(٢) هو محمود بن سبكتكين الغزنوي، أبو القاسم، الملقب بيمين الدولة، وأمين الملة، وصاحب بلاد غزنة وما والاها، امتدت سلطنته من أقاصي الهند إلى نيسابور، وعاش مجاهداً في سبيل الله، محبًّا للعلم والعلماء، وتوفي سنة (٤٢١هـ) رحمه الله.

انظر: البداية والنهاية، لابن كثير: ١٢/ ٣٢ ـ ٣٣، وشذرات الذهب، لابن العماد: ٣/ ٢٢٠.

(٣) ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في التدمرية ص٦٠.

(٤) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢/ ٢٨٥ ـ ٢٨٦ و١٣/ ١٦٤.

(٥) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٣/ ١٦٤، ١٦٧.

بل وجد من أئمة المعطلة من صرّح بأنه ليس في العقل ما يوجب تنزيه الرب ﷻ عن النقائص، وأنه لم يقم على ذلك دليل عقليّ أصلاً[(١)]، وإنما تنفى عنه النقائص لاستلزامها التشبيه والتمثيل[(٢)].

والاعتماد ـ في تنزيه الله تعالى عن النقائص ـ على نفي التشبيه والتجسيم ونحو ذلك، لا يحصل به المقصود، ولا تقوم به حجة على من وصفه سبحانه بالنقص، للوجوه التالية:

الوجه الأول: أن وصف الله تعالى بالنقائص والعيوب أظهر فساداً في العقل والدين من نفي التجسيم والتشبيه الذي يزعمه المعطلة، فإن هذا فيه من الاشتباه والخفاء والنزاع ما ليس في ذلك، وكفر من وصف الله تعالى بالنقائص معلوم بالضرورة من دين الإسلام. والدليل معرّف للمدلول ومبيّن له، فلا يجوز أن يستدلّ على الأظهر الأبين بالأخفى[(٣)].

الوجه الثاني: أن الذين يصفون الله تعالى بالنقائص والعيوب يمكنهم أن يقولوا: نحن لا نقول بالتشبيه والتجسيم، بل نثبت له هذه الصفات على وجه لا يماثل فيها خلقه، كما يقوله من يثبت له حياة وعلماً وقدرة لا يماثل فيها خلقه، فيصير نزاعهم مثل نزاع مثبتة صفات الكمال، ولا يتمكن النفاة من إبطال قولهم؛ لأنهم قد أعطوهم أن العقل لا ينفي عنه النقائص، وإنما نفى عنه ما نفى من أجل التشبيه والتمثيل، وقد أثبت هؤلاء المبطلون صفات النقص له على وجه لا

---

(١) انظر: بيان تلبيس الجهمية، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٢/ ٢٩٥، والصواعق المرسلة، لابن القيم: ٤/ ١٢٢٨، وشفاء العليل، له: ٢/ ١٢٩.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ٧٣، وإغاثة اللهفان، لابن القيم: ٢/ ٢٧٦.

(٣) انظر: التدمرية، لشيخ الإسلام ابن تيمية ص١٣٣.

يستلزم التشبيه[١].

ولما عرف بعض المعطلة أن هذا لازم لهم لا محالة، استروح إلى دليل الإجماع، وقال: إنما نفينا النقائص والعيوب عنه بالإجماع، مع أن الإجماع دليل سمعيّ، وهو ـ عندهم ـ دليل ظنيّ لا يفيد اليقين[٢].

فليس عند المعطلة يقين وقطع بأن الله سبحانه منّزه عن النقائص والعيوب[٣].

الوجه الثالث: أن هؤلاء المعطلة ينفون عن الله تعالى صفات الكمال بمثل هذه الطريقة التي زعموا أنهم نفوا بها النقائص، وهي طريقة التجسيم والتشبيه، ويجعلون إثبات العلو، والنزول، واليدين لله تعالى، بمنزلة إثبات الأكل، والشرب، والنوم له، بل بمنزلة إثبات الزوجة والولد له، وأن وصفه بهذا كوصفه بذاك، فذلك كله ـ عندهم ـ تشبيه وتجسيم ولا فرق[٤].

وبهذا وأمثاله يتبيّن أن المعطلة ـ مع ما هم عليه من التعطيل الذي زخرفوه بشوب التنزيه ـ فإنهم لا ينزّهون الله تعالى عمّا يجب تنزيهه عنه من النقائص والعيوب، بل يصفونه بما يستلزم النقص أو العدم[٥]، كما سبق بيانه.

---

(١) انظر: التدمرية ص١٣٣، وإغاثة اللهفان: ٢/ ٢٧٦.
(٢) انظر: الإرشاد، لأبي المعالي الجويني ص٨٨، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ٧٣.
(٣) انظر: إغاثة اللهفان: ٢/ ٢٧٦.
(٤) انظر: بيان تلبيس الجهمية: ٢/ ٢٩٥، والصواعق المرسلة: ٣/ ٨٣٢ و٤/ ١٣١٣.
(٥) انظر: بيان تلبيس الجهمية: ٢/ ٢٩٣.

وأن الطرق التي سلكوها في التنزيه لا تدلّ على إثبات شيء من صفات الكمال، ولا على تنزيهه من النقائص والعيوب، فليس عند القوم ما يحيلون به عنه شيئاً من النقائص(١)، وكل من بنى تنزيهه للرب سبحانه على نفي التجسيم والتركيب ونحوه، فإنه لا يمكنه أن ينزّهه عن عيب أصلاً بهذه الحجة(٢).

وأهل السنة والجماعة يقولون: إن تنزيهه عن النقائص والعيوب واجب لذاته، كما أن إثبات صفات الكمال واجب له لذاته، وهو أظهر في العقول والفطر وجميع الكتب الإلهية وأقوال الرسل من كل شيء(٣)، فلا يحتاج تنزيهه تعالى عن النقائص إلى نفي التشبيه والتجسيم، بل هذه النقائص منتفية عنه سبحانه مع قطع النظر عن التشبيه والتجسيم(٤).

ويقال للمعطلة: لا يمكنكم تنزيه الرب سبحانه عن النقائص والعيوب إلا أن تتحيّزوا إلى أهل السنة والجماعة، وتصيروا أضيافاً لهم، وتستضيئوا بنورهم، وإلا فلا يمكنكم على أصولكم تنزيه الربّ البتّة(٥).

ثامناً: أن تنزيه المعطلة متناقض في مسائله وأدلته:

أما أنه متناقض في مسائله: فيوضّحه أن المعطلة ليس لهم قول واحد في التنزيه، بل هم فيه مختلفون مضطربون، كل طائفة منهم تنفي ما تثبته الأخرى، وتثبت ما تنفيه الأخرى، كما سبق عند الكلام على طوائف المعطلة.

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٦/ ٣٦٣.
(٢) انظر: المصدر السابق: ١٣/ ١٦٣، ١٦٦.
(٣) انظر: إغاثة اللهفان، لابن القيم: ٢/ ٢٧٦.
(٤) انظر: بيان تلبيس الجهمية: ١/ ٥٧.
(٥) انظر: الصواعق المرسلة، لابن القيم: ٤/ ١٢٢٩.

وأيضاً: فإن الطائفة الواحدة منهم تضطرب وتتناقض في النفي والإثبات، فتنفي عن الله شيئاً ـ فراراً من المحذور بزعمها ـ، وتكون قد أثبتت له شيئاً يلزمه فيه نظير ما فرّت منه، وإذا طولبت بالفرق بين المحذور فيما نفت وما أثبتت لم تجد بينهما فرقاً واضحاً[١].

وهذا ظاهر في الأشاعرة والماتريدية الذين يثبتون لله تعالى الصفات السبع أو الثمان، وينفون ما عداها من الصفات: بالتفويض أو التأويل.

وكذلك المعتزلة الذين يثبتون الأسماء وينفون الصفات.

فليس لهؤلاء المعطلة ضابط مستقيم تجب مراعاته وتمنع مخالفته في تنزيه الله تعالى[٢]، وحينئذ فلا بدّ لهم من أمور ثلاثة: إما النفي العام والتعطيل الكلي ـ كما هو مذهب الجهمية المحضة ـ، وإما الإثبات لجميع ما ورد في الكتاب والسنة من الأسماء والصفات، دون تفريق بينها ـ كما هو مذهب أهل السنة والجماعة ـ، وإما التناقض الذي لا يثبت لصاحبه قدم في النفي ولا في الإثبات[٣].

والأصل الجامع المنضبط المستقيم في باب الأسماء والصفات هو ما قرّره أهل العلم من أهل السنة والجماعة، وهو: أن القول في بعض صفات الله تعالى كالقول في سائرها، وأن القول في صفاته سبحانه كالقول في ذاته[٤]، وأن من فرّق بين صفة وصفة مع تساويهما في أسباب الحقيقة والمجاز كان متناقضاً في قوله، متهافتاً في مذهبه،

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/٢٠٩، والتدمرية ص٤٢.
(٢) انظر: التدمرية ص٤٥، والصواعق المرسلة: ٢/٤١٨.
(٣) انظر: الصواعق المرسلة: ١/٢٢٨ ـ ٢٣٠.
(٤) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/٣٥١، والتدمرية ص٣١، ٤٣.

مشابهاً لمن آمن ببعض الكتاب وكفر ببعض(١).

وأما أن تنزيه المعطلة متناقض في أدلته: فيوضحه أن المعطلة ليس لهم دليل واحد اتفقوا على مقدماته، بل كل طائفة تقدح في دليل الأخرى.

والمعلوم أن عمدة النفاة في هذا الباب طريقان: طريق الجهمية والمعتزلة، وطريق الفلاسفة. وغير هؤلاء المعطلة ـ كالأشاعرة والماتريدية ـ تبع: إما للمعتزلة والجهمية، وإما للفلاسفة.

فأما المعتزلة والجهمية، فطريقهم هي طريق الأعراض والحركات، وأنه لو ثبت للقديم الصفات والأفعال، لكان محلًّا للأعراض والحركات، وذلك يقتضي تعاقبها عليه، وذلك يوجب حدوثه.

وقد عُرف أن الفلاسفة يقدحون في هذه الطريقة، كما يقدح فيها غيرهم.

وأما طريقة الفلاسفة فهي مبنية على أن واجب الوجود لا يكون متّصفاً بالصفات؛ لأن ذلك يستلزم التركيب.

وقد بيّن أئمة النظر من أهل الكلام فساد هذه الطريقة، وبيّنوا عجز الفلاسفة عن إقامة دليل على نفي الجسم، وعن إقامة دليل على التوحيد، وأنه لا يمكن نفي الجسم إلا بالطريقة الأولى التي هي طريقة المعتزلة، التي قدح فيها الفلاسفة وغيرهم.

فإذا كان كلٌّ من أذكياء المعطلة وفضلائهم يقدح في دليل الفريق الآخر الذي يزعم أنه بنى عليه النفي، كان في هذا دليل على أن

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/٢١٢.

مقدّمات تلك الأدلة ليست ضرورية، إذ الضروريّات لا يمكن القدح فيها.

وإن قيل: إن هؤلاء قدحوا في هذه المقدمات الضرورية. قيل: فإذا جاز على أئمة النفاة أن يقدحوا بالباطل في المقدمات الضرورية، فالتي يستدل بها أهل الإثبات أولى وأحرى[١].

وهذا الاختلاف والتناقض في المسائل والدلائل مما يعلم به بطلان تنزيه المعطلة، وأنه لم يصدر عن وحي علمتْ عصمته، ولا عن عقل اشترك العقلاء فيما أثبته ونفاه، بل هو صادر عن خيالات وشبهات يظنها من يتأملها بيّنات ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾[٢] [النور: ٣٩].

ولا شك أن هؤلاء المعطلة لم يقصدوا هذا التناقض، ولكن أوقعتهم فيه قواعدهم المنطقية الفاسدة التي زعموا فيها تركيب الموصوفات من صفاتها، ووجود الكليّات المشتركة في أعيانها. فتلك القواعد التي جعلوها قوانين تمنع مراعاتها الذهن أن يضلّ في فكره، أوقعتهم في هذا الضلال والتناقض[٣].

ولهذا صار كثير من حذّاقهم ينتهون إلى الحيرة، ويعترفون بفساد طريقهم ولذلك شواهد عديدة يطول المقام بذكرها[٤].

---

(١) انظر: المصدر السابق: ٥/ ٢٨٩ ـ ٢٩١، ودرء تعارض العقل والنقل: ٦/ ١٨٣ ـ ١٨٤.

(٢) وانظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/ ٢٩١، والصواعق المرسلة: ٤/ ١٤٢٩ ـ ١٤٣٠.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/ ٣٤١، و١٣/ ١٦٧.

(٤) انظر في ذلك: المصدر السابق: ١٣/ ١٢٨، ١٤١، ١٦٨، ودرء تعارض =

وإذا تأمل اللبيب هذه الأمور تبيّن له أن مذهب السلف والأئمة من أهل السنة والجماعة في غاية الاستقامة والسداد، والصحة والاطّراد، وأنه مقتضى المعقول الصريح، والمنقول الصحيح، وأن من خالفه كان ـ مع تناقض قوله ـ خارجاً عن موجب العقل والنقل، مخالفاً للفطرة والشرع[(١)].

تاسعاً: أن تنزيه المعطلة قدح في رسالة النبي ﷺ، وفي اعتقاد السلف الصالح، فإن النبي ﷺ جاء بإثبات الأسماء والصفات لله تعالى على وجه التفصيل، كما نطق بذلك الكتاب والسنة واعتقاد السلف الصالح موافق لما جاء به النبي ﷺ من الإثبات، كما ثبت ذلك بالنقل المتواتر عنهم.

ومن المعلوم أن تنزيه المعطلة على عكس ذلك تماماً ـ كما سبق بيانه ـ، فإذا كان ما ذهب إليه المعطلة من النفي هو الحق ـ لا سيما وهم يجعلون ذلك أصل الدين، وهو عندهم التوحيد الذي لا يخالفه إلا شقيّ[(٢)] ـ تضمن ذلك أن النبي ﷺ لم يأت بالحق في هذا الباب، ولم يبيّن للناس ما يجب اعتقاده في هذا الباب[(٣)]، وتضمّن كذلك أن المعطلة برزوا في هذا الباب على السلف الصالح، وفاقوهم في العلم بالتوحيد والتنزيه[(٤)].

ولا شك أن هذا أعظم قدح في النبي ﷺ، وفي سلف الأمة من الصحابة والتابعين ﷺ ورحمهم أجمعين.

= العقل والنقل: ١/ ٢٩، ١٥٨ ـ ١٦٥، والصواعق المرسلة: ١/ ١٦٦ ـ ١٦٨ و٢/ ٦٦٣ ـ ٦٧٩ و٤/ ١٢٥٩ ـ ١٢٦٣.

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/ ٢١٢ ـ ٢١٣.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/ ١٧٦.

(٣) انظر: المصدر السابق: ١٣/ ١٧٥. (٤) انظر: المصدر نفسه: ١٣/ ٢٢٨.

وقد صرّح المعطلة ـ على اختلاف طوائفهم ـ بهذا القدح، وأجمعوا على تقديم أقوالهم وآرائهم على ما جاء به الرسول ﷺ، وعلى ما أجمع عليه السلف الصالح من الاعتقاد في أسماء الله وصفاته.

فالمعطلة من الفلاسفة والقرامطة يقولون: إن الرسول ﷺ أخبر عن الله تعالى بأمور غير مطابقة للأمر في نفسه، لكنه خاطب جمهور الناس بما يتخيّلون به ويتوهمون به أن الله جسم عظيم، وإن كان الأمر ليس كذلك في نفس الأمر؛ لأن مصلحة الجمهور لا تقوم إلا بإظهار الإثبات، وإن كان هذا كذباً، فهو كذب لمصلحة الجمهور، إذ كانت دعوتهم ومصلحتهم لا تمكن إلا بهذه الطريقة[1].

والمعطلة من أهل الكلام ـ كالمعتزلة والأشاعرة ومن وافقهم ـ أكثرهم يقولون: إن الرسول ﷺ لم يقصد أن يخبر عن الله تعالى إلا بالحق، لكن بعبارات لا تدلّ وحدها عليه، بل تحتاج إلى التأويل، وإنما لم يبيّن الحقّ بخطابه ليجتهد الناس في معرفة الحق من غير جهته بعقولهم وأذهانهم، ثم يجتهدون في تأويل أخباره إلى ما يوافق رأي عقولهم بأنواع التأويلات التي يحتاجون فيها إلى معرفة غرائب اللغات التي يتمكنون بها من التأويل، ويعظم بذلك أجرهم[2].

وبعض المعطلة من أهل الكلام يقولون: إن نصوص الصفات ألفاظ لا تعقل معانيها، ولا ندري ما أراد الله ورسوله منها، لكن نقرأها ألفاظاً لا معاني لها، ونعلم أن لها تأويلاً لا يعلمه

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ٥٧٩ و١٦/ ٤٤٠، ودرء تعارض العقل والنقل؛ ١/ ٨ ـ ٩، والصواعق المرسلة: ٢/ ٤١٨ ـ ٤٢١ و٣/ ٩١٨.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٦/ ٤٤١ و١٧/ ٣٦١ ، ودرء تعارض العقل والنقل: ١/ ١٢ ـ ١٤.

إلا الله تعالى[١].

وهؤلاء المعطلة مشتركون في أن الرسول ﷺ لم يبيّن الحق الذي يجب اعتقاده في أسماء الله وصفاته، إما لكونه لم يمكنه مخاطبة الخلق بالحق في نفس الأمر، وإما لكونه وكله إلى استنباط الأمة، وإما لكونه لم يعلم معاني أسماء الله وصفاته، أو علمها ولم يبيّنها[٢].

ولهذا آل الأمر بهؤلاء المعطلة إلى أنهم لا يستفيدون من جهة الرسول ﷺ من الأمور الخبرية المتعلقة بأسماء الله وصفاته وأفعاله، ولا يعتمدون في ذلك على ما جاء به الرسول ﷺ، بل يعتمدون في ذلك على ما يظنّونه أدلّة عقليّة، ويعارضون بذلك الكتاب والسنة. فصار وجود الرسول ﷺ ـ عندهم ـ كعدمه في المطالب الإلهية، بل وجوده ـ على قولهم ـ أضرّ من عدمه، لأنهم لم يستفيدوا من جهته شيئاً، واحتاجوا إلى أن يدفعوا ما جاء به: إما بتكذيب، وإما بتأويل، وإما بتفويض[٣].

وهذا كله مما يعلم بالضرورة بطلانه، فإن معرفة ما يستحقه الله تعالى وما ينزّه عنه هو من أجل أمور الدين وأعظم أصوله، وإن بيان هذا وتفصيله أولى من كل شيء، فكيف يجوز أن يكون هذا الباب لم يبيّنه الرسول ﷺ ولم يفصّله ولم يعلّم أمته ما يقولون ويعتقدون في هذا الباب؟!.

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٦/ ٤٤٢، ودرء تعارض العقل والنقل: ١/ ١٤ ـ ١٦، والصواعق المرسلة: ٢/ ٤٢٢ ـ ٤٢٤.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٣/ ٢٢٨، ودر تعارض العقل والنقل: ١/ ١٦ ـ ١٧.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٣/ ١٧٥، ودر تعارض العقل والنقل: ١/ ١٣٥ ـ ١٣٦.

وكيف يكون الدين قد كمل، وقد تركوا على الطريقة البيضاء وهم لا يدرون بماذا يعرفون ربهم: أبما يقوله المعطلة، أو بما جاء به الرسول ﷺ من الإثبات؟![1].

كما أن الرسول ﷺ هو ـ بلا ريب ـ أعلم الخلق بالحق، وأفصح الخلق في البيان، وأنصح الخلق للخلق، ومع هذه المقامات الثلاث ـ أعني: كمال العلم بالحق، وكمال القدرة على بيانه، وكمال النصح للأمة ـ يستحيل عليه ﷺ أن يخاطبهم بشيء وهو لا يريد منهم ما يدلّ عليه خطابه، بل لا بدّ أن يكون خطابه أبلغ ما يكون، وأتمّ ما يكون، وأعظم ما يكون بياناً لما بينه في الدين من أمور الإلهية وغير ذلك[2].

ومن وقر هذا في قلبه لم يقدر على معارضة ما جاء به الرسول ﷺ بعقله، ولا أن يزعم أن نصوص الصفات لا يعلم أحد معانيها إلا الله تعالى. ولكن المعطلة لما نسبوا ما جاء به الرسول ﷺ إلى التخييل، أو التأويل، أو التجهيل، عاقبهم الله تعالى بجنس ذنوبهم، وسلبهم ـ في هذا الباب ـ معرفة الأدلة النقلية والعقلية، فكان ما يقولونه خارجاً عن النقل والعقل، مع دعواهم أنه من العقليات البرهانية، فإذا اختبره العارف وجده من الشبهات الشيطانية، وكانوا هم من أضلّ البرية في هذا الباب، مع دعواهم أنهم أعلم من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين، وقد يدّعون أنهم أعلم من النبيّين، وهذا ميراث من فرعون وحزبه اللعين[3].

عاشراً: أن تنزيه المعطلة تقويض للإيمان والعبادة.

ووجه هذا ظاهر، فإن حقيقة تنزيههم أن الله تعالى منزّه عن

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/ ١٧٤.
(٢) انظر: المصدر السابق: ١٧/ ١٢٩، وطريق الهجرتين، لابن القيم ص٣٩٢.
(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٣/ ١٧٥ ـ ١٧٦.

الوجود، وعن الإلهية، وعن الربوبية[(١)]، ولهذا كان السلف والأئمة يسمّون نفاة الصفات: معطلة؛ لأن حقيقة قولهم تعطيل ذات الله تعالى، وإن كانوا هم قد لا يعلمون أن قولهم مستلزم للتعطيل[(٢)].

وهم في تعطيلهم موافقون ـ في الحقيقة ـ لفرعون رئيس الكفار الذي جحد الخالق بالكلية، فإن جحود صفاته مستلزم لجحود ذاته. ولهذا وافقوا فرعون في تكذيبه لموسى عليه السلام بأن ربه فوق السموات[(٣)]، حيث قال ـ فيما حكى الله تعالى عنه ـ: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [القصص: ٣٨].

والمعطلة يقولون: إن الله تعالى ليس فوق العالم، ولا فوق العالم شيء أصلاً، ولا فوق العرش شيء[(٤)]، وهذا قول الجهمية والمعتزلة وطوائف من متأخري الأشاعرة، والفلاسفة النفاة، والقرامطة الباطنية.

أو يقولون: هو في كل مكان بذاته، وهذا قول طوائف من عبادهم وعامّتهم. ومنهم من يقول: ليس هو داخلاً في العالم، ولا خارجاً عنه، ولا حالًّا فيه، وليس في مكان من الأمكنة، فهؤلاء ينفون عنه الوصفين المتقابلين جميعاً، وهذا قول طوائف من متكلّميهم ونظّارهم[(٥)].

وهم كذلك موافقون لفرعون وغيره من الكفار في نفي كلام الله تعالى وتكليمه لموسى عليه السلام، فعند الجهمية والمعتزلة لا يقوم بذاته كلام

(١) انظر: الصواعق المرسلة: ٣/ ١١١١، ٩٤٨.
(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/ ٣٢٦.
(٣) انظر: المصدر السابق: ١٢/ ٣٥١.
(٤) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/ ١٨٤.
(٥) انظر: المصدر السابق: ٥/ ٢٧٢.

أصلاً، بل كلامه مخلوق منفصل عنه. وعند الكلابية والأشاعرة والماتريدية ليس له كلام مسموع، بل كلامه معنى واحد قائم بذاته، ليس بحرف ولا صوت، وهم موافقون للجهمية والمعتزلة في الباطن، وإن خالفوهم في الظاهر(١).

هذا بالإضافة إلى نفيهم لجميع صفاته الاختيارية الفعلية منها وغير الفعلية، ونفيهم لصفاته اللازمة كلها أو بعضها، كما سبق بيانه.

فالتنزيه الذي قرّره المعطلة ـ على اختلاف طوائفهم ـ لا يقتضي إلا الجهل بالله تعالى، وبما يستحقّه من الأسماء والصفات، والغفلة عن ذكره، والإعراض عنه، والكفر به(٢)؛ فلا يمكن أن يقوم على أساسه إيمان بالله تعالى، ولا عبادة له سبحانه.

فإن الإيمان والعبادة أصلهما وأساسهما معرفة الله ﷻ بما وصف به نفسه في كتابه، وبما وصفه به رسوله ﷺ في سنته(٣)، فمن لم يعرف الله تعالى بأسمائه وصفاته الواردة في الكتاب والسنة لم يكن له في الحقيقة إله يعبده، ولا ربّ يسأله ويقصده(٤).

ولهذا تجد غالب هؤلاء المعطلة النفاة لصفات الله تعالى فيهم من الانحلال عن دعاء الله ومسألته وعبادته بقدر تعطيلهم، إلا من يكون منهم جاهلاً بحقيقة مذهبهم يوافقهم بلسانه على قول لا يفهم حقيقته، وفطرته على الصحة والسلامة، فإنه يكون فيه إيمان ونفاق، فأما إذا استحوذ التعطيل على قلبه تغيّرت فطرته، وهؤلاء ليس فيهم عبادة لله تعالى، ولا إنابة إليه، ولا توجّه إليه، وإن صلّوا صلّوا بقلوب غافلة،

---

(١) انظر: المصدر نفسه: ١٢/٣٥، ٤٨ ـ ٥٣.
(٢) انظر: المصدر نفسه: ٦/٤٨. (٣) انظر: المصدر نفسه: ١٣/١٦٠.
(٤) انظر: المصدر نفسه: ٥/٢٥٩.

وإن دعوه دعوه بقلوب لاهية[١].

كما أن هؤلاء المعطلة هم أبعد شيء عن حقيقة ذكر الله تعالى وعن محبّته، وهم قد أقرّوا بذلك على أنفسهم إذ قالوا: إن الله لا يحبّ أحداً، ولا يحبّه أحد، فهم لا يحبونه ولا يذكرونه، وإن ذكروه فإنما يذكرونه بالسلب والعدم لا بالحمد والتسبيح، وإن أحبّوه فإنما يحبّون ثوابه المنفصل، لا ذاته ولا صفاته، ولا يثبتون ألذّ ما في الجنة وأطيب ما فيها وأعظم نعيمها، وهو النظر إلى وجهه وسماع كلامه، فهم عمدوا إلى لبّ الدين وقلبه فنبذوه وأبطلوه، ووقفوا في طريق الرسل وعارضوهم في دعوتهم[٢]، وبيانه:

أن دعوة الرسل ـ من أولهم إلى خاتمهم، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ تدور على ثلاثة أمور:

١ ـ تعريف الربّ المدعوّ إليه بأسمائه وصفاته وأفعاله.

٢ ـ معرفة الطريق الموصل إليه، وهو ذكره وشكره وعبادته التي تجمع كمال الحبّ وكمال الذلّ له.

٣ ـ تعريفهم ما لهم بعد الوصول إليه، وهو ما تضمنه اليوم الآخر من الجنة والنار، وما قبل ذلك من الحساب والحوض والميزان والصراط.

فهذه الأمور الثلاثة ضرورية في كلّ ملّة على لسان كلّ رسول.

وقد قعدت المعطلة على رأس الأمر الأول فحالوا بين القلوب وبين معرفة ربّها، وسموا إثبات صفاته تشبيهاً وتجسيماً، فنفّروا عنه صبيان العقول.

---

(١) انظر: بيان تلبيس الجهمية، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٢/٤٥١، ٤٦٧.

(٢) انظر: الصواعق المرسلة، لابن القيم: ٤/١٤٨٨ ـ ١٤٨٩.

وقعدت على الأمر الثاني فصدّت القلوب والألسنة عن ذكر الله تعالى وعن الثناء عليه، بإنكار صفاته، وإنكار أن يقوم به فعل من الأفعال الاختيارية التي يحمد بها ويشكر، وإنكار حقيقة عبادته وإن قاموا بصورها وظواهرها، فإن حقيقة العبودية كمال محبّته وكمال الخضوع له، ولا يتحقق ذلك مع إنكار صفاته وأفعاله.

وقعدت على الأمر الثالث فأنكروا أجلّ ما في اليوم الآخر وأشرفه، وهو رؤية وجه الله تعالى وسماع كلامه[١].

والمقصود أن هؤلاء المعطلة الذين نفوا صفات الله تعالى، ونفوا قيام الأفعال الاختيارية به، ونفوا علوّه على خلقه واستواءه على عرشه، لا يمكن على أصولهم التي بنوا عليها تنزيههم هذا الإيمان بالله تعالى إيماناً صحيحاً، ولا عبادته عبادة صحيحة، كما دعا إليه الرسول ﷺ ومضى عليه السلف الصالح.

وبجميع ما سبق ذكره من الأوجه في هذا المبحث يتبيّن أنّ التسبيح الذي ادّعاه المعطّلة ليس ـ في الحقيقة ـ تسبيحاً ولا تنزيهاً ولا توحيداً كما سمّوه، وإنما هو ـ في الحقيقة ـ إلحاد في أسماء الله وصفاته، وإبطال لآياته ورسالاته، وهو حجاب ضرب عليهم، وخيال خيّله لهم الشيطان، فظنّوه تنزيهاً وتقديساً لله تعالى، كما ضرب حجاب الشرك والتمثيل والبدع المضلّة على قلوب أصحابها، وزيّن لهم الشيطان الباطل فرأوه حقًّا.

لكن التعطيل شرّ من الشرك؛ لأن التعطيل جحد للذات أو لكمالها، وهو جحد لحقيقة الإلهية، والشرك عبادة شيء مع الله تعالى،

---

(١) انظر: الصواعق المرسلة: ٤/١٤٨٩ ـ ١٤٩١، ومدارج السالكين: ٣/٣٢٥ ـ ٣٢٦.

فلا يستوي جحد صفات الملك وحقيقة ملكه والطعن في كماله هو والتشريك بينه وبين غيره في الملك. بل كل شرك في العالم فأصله وقاعدته التي يرجع إليها هو التعطيل، فإنه لو لا تعطيل كماله أو بعضه، وظنّ السوء به لما أشرك به، فلا تجد معطّلاً إلا وشركه على حسب تعطيله، فمستقلّ ومستكثر[١].

كما أن التعطيل شرّ من التمثيل[٢]، فإن شبهة التعطيل ردّ وتكذيب لما جاء به الرسول ﷺ، وشبهة التمثيل غلوّ ومجاوزة للحدّ فيما جاء به الرسول ﷺ[٣]، ولأن الخالق ﷻ كلما وصف بصفات المعدومات الممتنعات كان أعظم بطلاناً وفساداً من وصفه بما هو أقرب إلى الوجود[٤]، ولهذا يقال: المعطّل أعمى، والممثّل أعشى[٥]. ويقال: المعطّل يعبد عدماً، والممثّل يعبد صنماً[٦]. فأهل التمثيل مع ضلالهم خير من أهل التعطيل[٧]، واللوازم التي تلزم النفاة شرّ من اللوازم التي تلزم الممثّلة الغلاة[٨].

---

(١) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم: ٢/٣٧٨ ـ ٣٧٩، و٣/٣٢٤ ـ ٣٢٥، والجواب الكافي، له ص١٣٤، ١٤٩، والقصيدة النونية، له ـ مع شرحها، لهراس ـ: ٢/٣٠٣ ـ ٣١٦.
(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٣/١٥٤، ١٦٤، وبيان تلبيس الجهمية، له: ٢/٩٧، ٤٩٩.
(٣) انظر: شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز: ١/٢٥٩.
(٤) انظر: در تعارض العقل والنقل: ٦/١٧٦، والصواعق المرسلة: ١/٢٦٤ ـ ٢٦٥.
(٥) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/٢٦١ و١٢/٤٣٢.
(٦) انظر: المصدر السابق: ٥/١٩٦، ٢٦١، والقصيدة النونية، لابن القيم ـ مع شرحها، لهراس ـ: ١/٤٢٤.
(٧) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٢/٤٣٢، والصواعق المرسلة: ٤/١٤٦٧.
(٨) انظر: الصواعق المرسلة: ٤/١٢٣٤ ـ ١٢٣٥.

ومن هنا تعدّ مقالة التعطيل أغلظ البدع المحدثة في الإسلام، وأشدّها مناقضة للمعقول والمنقول، بل هي شرّ مقالات أهل الأرض على الإطلاق[١]. ويعدّ أصحاب هذه المقالة ـ عند الأمة الإسلامية ـ من شرار أهل الأهواء[٢]، وقد كان ذمّ السلف والأئمة لهم من أعظم الذمّ[٣]، حتى أطلقوا من القول بتكفيرهم ما لم يطلقوه بتكفير أحد من الفرق المبتدعة[٤]، كما قال عبد الله بن المبارك: «إنا لنحكي كلام اليهود والنصارى، ولا نستطيع أن نحكي كلام الجهمية»[٥].

قال أبو سعيد الدارميّ[٦]: «وصدق ابن المبارك، إنّ من كلامهم في تعطيل صفات الله تعالى ما هو أوحش من كلام اليهود والنصارى»[٧].

وقال سعيد بن عامر[٨]: «الجهمية أشرّ قولاً من اليهود والنصارى،

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٣/٤٩، ١٤٣، والصواعق المرسلة: ٤/١٢٣٣.

(٢) انظر: بيان تلبيس الجهمية، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ١/١٢٧.

(٣) انظر: در تعارض العقل والنقل: ١/٢٤٣.

(٤) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/٣١، وبيان تلبيس الجهمية: ١/١٢٧.

(٥) رواه أبو داود في مسائل الإمام أحمد بن حنبل ـ ضمن عقائد السلف ـ ص١٠٤، وذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى: ١٢/٣٠، ٣٥٢، و١٣/١٨٤.

(٦) هو عثمان بن سعيد بن خالد السجستاني، أبو سعيد، الدارمي، الإمام الحافظ الحجة، صنف الرد على الجهمية، والنقض على بشر المريسي، وتوفي سنة (٢٨٠هـ)، رحمه الله تعالى.
انظر: تذكرة الحفاظ: ٢/٦٢١ ـ ٦٢٢.

(٧) الرد على الجهمية ـ ضمن عقائد السلف ـ ص٢٦٣.

(٨) هو سعيد بن عامر الضبعي، أبو محمد البصري، إمام ثقة مأمون، توفي سنة =

قد اجتمعت اليهود والنصارى وأهل الأديان على أن الله تبارك وتعالى على العرش، وقالوا هم: ليس على العرش شيء»[١].

وقال الإمام أحمد بن حنبل: «ما أحد على أهل الإسلام أضرّ من الجهمية، ما يريدون إلا إبطال القرآن وأحاديث رسول الله ﷺ»[٢].

وقال أيضاً: «وأما الجهمية، فإنهم يسمّون أهل السنة المشبّهة، وكذبت الجهمية أعداء الله، بل هم أولى بالتشبيه والتكذيب، افتروا على الله ﷻ الكذب، وقالوا الإفك والزور، وكفروا بقولهم» اهـ[٣].

ولا شك أن المعطلة متفاوتون في التعطيل ـ كما سبق بيانه ـ، ولكلّ منهم نصيب من الكفر بقدر ما جحد من أسماء الله وصفاته[٤]، فالجهمية المحضة نفاة الأسماء والصفات أشدّ كفراً، ولهذا صرّح عدد من الأئمة بأنهم ليسوا من أمة محمد ﷺ، وأنهم خارجون عن الثلاث وسبعين فرقة[٥]. والمعتزلة نفاة الصفاة يقاربون الجهمية المحضة، وإن كانوا دونهم في الشّرّ، والكلابية والأشاعرة والماتريدية يقاربون المعتزلة، ومنهم من هو أقرب إلى أهل السنة مع شوب من التجهّم والاعتزال.

= (٢٠٨هـ)، وله ست وثمانون سنة، رحمه الله تعالى.
انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي: ١/ ٣٥١، وتقريب التهذيب، لابن حجر: ١/ ٢٩١.

(١) أورده الإمام البخاري كتابه خلق أفعال العباد ـ ضمن عقائد السلف ـ ص١٢٠، وذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى: ٥/ ١٨٤.

(٢) المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد بن حنبل في العقيدة، جمع وتحقيق عبد الإله بن سلمان الأحمدي: ٢/ ٣٧٧، برقم (٩٤٩).

(٣) المصدر السابق: ٢/ ٣٧٨، برقم (٩٥٢).

(٤) انظر: تيسير العزيز الحميد، للشيخ سليمان بن عبد الله آل الشيخ ص٥٧٥.

(٥) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/ ١٢٢ ـ ١٢٣، و١٣/ ١٤٣، والنبوات، له ص٢٢٤.

وجملة القول: أن المعطلة قصدوا تنزيه الله تعالى بما ينافي تنزيهه، وقصدوا نصر الإسلام بما ينافي الإسلام، وهذا لمن حسن قصده منهم ولكنه ساء فهمه لقصوره وتقصيره عن معرفة ما جاء به الرسول ﷺ، وما كان عليه السلف الصالح، وعن معرفة العقل الصريح الموافق للنقل الصحيح. ومنهم من ساء قصده كما ساء فهمه، فاجتمع فيه الجهل بالحق والعداوة له ولأهله، فهو من زمرة الشيطان الرجيم.

ونعوذ بالله من تنزيه يوقع في تعطيل، ومن تقديس يؤدّي إلى تنقيص، ونسأله سبحانه الهداية إلى تنزيه يحقّق توحيداً وتعظيماً ومحبّة وخضوعاً لذي الجلال والإكرام، ويورث زكاة وسعادة للنفس في الدنيا والآخرة، و﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الصافات: ١٥٩، ١٦٠].

الفصل الرابع

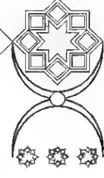
الرد على تسبيح القدريّة

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: التعريف بالقدرية.

المبحث الثاني: مفهوم التسبيح عند القدرية.

المبحث الثالث: إبطال تسبيح القدرية.




المبحث الأول

التعريف بالقدرية

القدرية: من أشهر الفرق المبتدعة في الإسلام، ومقام التعريف بهذه الفرقة يقتضي التعريف بالقدر أوّلاً، ثم التعريف بها، وبيان نشأتها في الإسلام، وطوائفها، وذلك فيما يلي:

أوّلاً: التعريف بالقدر:

القدر ـ بفتح الدال وسكونها، مع فتح القاف، وقد يضمّ ـ له في اللغة عدّة معان، منها: القضاء، والحكم، وتدبير الأمر، والتضييق، ومبلغ الشيء، وكنهه ونهايته، وقياس الشيء بالشيء، والطاقة، والقوّة(١).

ب ـ والقدر ـ في الشرع ـ: هو أنّ الله تبارك وتعالى قد علم كلّ شيء مما كان ومما هو كائن إلى الأبد، وكتبه في اللوح المحفوظ عنده، ثم أوجده سبحانه بمشيئته على ما سبق به العلم وجرى به القلم، فكلّ شيء صادر عن علمه تعالى وكتابته ومشيئته وخلقه(٢).

هذا هو المعلوم من الدين بالأدلة القطعيّة، وعليه كان السلف

---

(١) انظر: مادة (قدر) من: مقاييس اللغة، لابن فارس: ٥/ ٦٢، ولسان العرب، لابن منظور: ٥/ ٧٤، والقاموس المحيط، للفيروز آبادي ص٥٩١.

(٢) انظر: شرح صحيح مسلم، للنووي: ١/ ١٥٤، وفتح الباري، لابن حجر العسقلاني: ١/ ١١٨، ولوامع الأنوار البهية، للسفاريني: ١/ ٣٤٨.

الصالح من الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان[(١)].

ومنه يُعلم أنّ للقدر ـ في الشرع ـ أربع مراتب من لم يؤمن بها لم يؤمن بالقدر، وهي:

المرتبة الأولى: علم الربّ سبحانه بالأشياء قبل كونها.

المرتبة الثانية: كتابته لها قبل كونها.

المرتبة الثالثة: مشيئته لها.

المرتبة الرابعة: خلقه لها[(٢)].

ولكلّ مرتبة من هذه المراتب الأربع أدلَّة كثيرة في الكتاب والسنة. وقد اتفق أهل السنة والجماعة على إثبات هذه المراتب الأربع للقدر، والإيمان بها كلّها، كما دلّ عليه الكتاب والسنة وإجماع السلف الصالح[(٣)].

ثانياً: التعريف بالقدرية:

القدرية ـ عند المسلمين ـ: اسم للذين ينفون القدر ـ بالمعنى الشرعي الذي سبق بيانه ـ عن الأفعال الاختيارية من أفعال الملائكة والجنّ والإنس وسائر الحيوانات، خيراً كانت هذه الأفعال أو شرًّا، وأقوالاً كانت أو حركات أو اعتقادات أو إرادات. ويقولون: إنّ هذه الأفعال كلّها لا تدخل تحت قدر الله تعالى.

وبهذا المعنى عرّف الإمام أحمد بن حنبل القدريّة، فقال: «القدرية: هم الذين يزعمون أنّ إليهم الاستطاعة والمشيئة والقدرة،

---

(١) انظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، للالكائي: ٢/ ٥٣٤ ـ ٦٩١، وفتح الباري: ١/ ١١٨.

(٢) انظر: شفاء العليل، لابن القيم: ١/ ٩١، ومعارج القبول، للحكمي: ٣/ ٩٥٠ ـ ٩٥١.

(٣) انظر: العقيدة الواسطية مع شرحها (الروضة الندية) ص٣٥٢ ـ ٣٥٣.

وأنهم يملكون لأنفسهم الخير والشر، والنفع والضر، والطاعة والمعصية، والهدى والضلال، وأنّ العباد يعملون بدءاً من غير أن يكون قد سبق لهم ذلك من الله ﷻ أو في علمه»[(١)].

وكثير من أهل العلم عرّفوا القدريّة بما يتّفق مع ما قاله الإمام أحمد، ويتبيّن به أنّ عقيدة القدريّة قائمة على أنّ الله تعالى لم يقدر على العباد أفعالهم الاختيارية، وأنّه تعالى لم يكتبها، ولم يشأها، ولم يخلقها، وربّما قالوا: ولم يعلمها أيضاً. وإنّما العباد هم المحدثون لأفعالهم بقدرتهم ومشيئتهم على وجه الاستقلال، وليس لله تعالى في شيء منها صنع أو تقدير[(٢)].

ولأجل هذه العقيدة سمّيت هذه الفرقة: قدريّة؛ لأنهم أنكروا القدر من الله تعالى، وأضافوا القدر إلى أنفسهم[(٣)].

وقد يطلق اسم القدريّة على طوائف ممّن أثبتوا القدر لله تعالى على وجه فاسد مخالف لما جاء به الكتاب والسنة ـ كما سيأتي، إن شاء الله[(٤)] ـ، لكنّ الأغلب والأكثر إطلاق اسم القدريّة على نفاة القدر

---

(١) المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد بن حنبل في العقيدة: ١/ ١٤٨، رقم (١٢٤).

(٢) انظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، للالكائي: ١/ ١٧٢، رقم (٣١٩) و٢/ ٧٠٠، ورقم (١١٩٨)، و٢/ ٧٠١، رقم (١٣٠٢)، والفرق بين الفرق، للبغدادي ص١١٣، والملل والنحل، للشهرستاني: ١/ ٤٥، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٨/ ٤٣، ١١٦، ٢٥٨ و١٢/ ٣٢٧، ٣٢٨، وشفاء العليل، لابن القيم: ١/ ١٩، والصواعق المرسلة، له: ٤/ ١٥٤٨، ومدارج السالكين، له: ١/ ٤٠٨.

(٣) انظر: الفرق بين الفرق ص١١٣، وشرح صحيح مسلم، للنووي: ١/ ١٥٤، وشرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العزّ: ١/ ٧٩.

(٤) انظر: ٢/ ٥٠٥.

الذين مضى بيان مقالتهم آنفاً[١]، وهم المقصودون بالردّ في هذا الفصل.

ثالثاً: نشأة القدريّة في الإسلام:

حدثت بدعة القدرية في أواخر أيّام الصحابة ﷺ، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وهذا القول أوّل ما حدث في الإسلام بعد انقراض عصر الخلفاء الراشدين، وبعد إمارة معاوية بن أبي سفيان، في زمن الفتنة التي كانت بين ابن الزبير وبين بني أميّة في أواخر عصر عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وغيرهما من الصحابة، وكان أوّل من ظهر عنه ذلك بالبصرة معبد الجهنيّ[٢]...» اهـ[٣].

وروى الإمام مسلم عن يحيى بن يعمر[٤] قال: «كان أوّل من قال في القدر بالبصرة معبد الجهنيّ...»[٥].

---

(١) انظر: الدرة البهية شرح القصيدة التائية في حلّ المشكلة القدرية، للشيخ عبد الرحمٰن السعدي ص١٧، والعقيدة الإسلامية وتاريخها، للشيخ محمد أمان الجامي ص٢٤.

(٢) معبد الجهني: يقال: هو ابن خالد، ويقال: ابن عبد الله بن عكيم، ويقال: ابن عبد الله بن عويم، البصريّ كان الحسن البصريّ يقول: «إياكم ومعبداً فإنّه ضالّ مضلّ». وقال الذهبي: «صدوق في نفسه، ولكنه سنّ سنة سيئة، فكان أوّل من تكلّم في القدر». وقال الحافظ ابن حجر: «صدوق مبتدع». وقتل معبد سنة (٨٠هـ)، وقيل: بعدها. انظر: ميزان الاعتدال، للذهبي: ٤/ ١٤١، وتهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني: ١٠/ ٢٢٥ ـ ٢٢٦، وتقريب التهذيب، له: ٢/ ٢٦٨.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٨/ ٤٥٠.

(٤) هو يحيى بن يعمر ـ بفتح الياء والميم، وسكون العين ـ البصريّ، ونزيل مرو وقاضيها، توفي قبل المائة من الهجرة، وقيل: بعدها، رحمه الله تعالى. انظر: تقريب التهذيب، لابن حجر: ٢/ ٣٦٩.

(٥) صحيح مسلم: ١/ ٣٦، حديث رقم (٨).

ويقال: إنّ معبداً أخذ هذا القول عن رجل من أهل العراق، يقال له: سوسن، كان نصرانيّاً فأسلم ثمّ تنصّر(١).

ويقال أيضاً: إنّ أوّل من تكلّم في القدر رجل يُدعى سنسويه البقال(٢).

وهناك شخص آخر اسمه غيلان الدمشقي(٣)، يعدّ من أوائل من تكلّم في القدر في الإسلام.

فعلى أيدي هؤلاء المذكورين حدثت بدعة القول بنفي القدر، ثم انتشرت حتّى ضلّ بها أقوام من المسلمين.

رابعاً: طوائف القدرية:

وقد تقلّد بدعة القدريّة طوائف من الفرق المبتدعة في الإسلام، ومن أشهرهم المعتزلة فقد ضمّوا إلى بدعتهم في نفي الصفات بدعة القول بنفي القدر، فهم في باب الصفات معطّلة، كما سبق. وهم في باب القدر قدريّة(٤).

---

(١) انظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، للالكائي: ٢/ ٧٥٠، وتهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني: ١٠/٢٢٦.

(٢) قال ابن حجر العسقلاني: «اسمه يونس الأسواريّ، أوّل من تكلّم بالقدر، وكان بالبصرة فأخذ عنه معبد الجهنيّ ذكره الكعبيّ في طبقات المعتزلة، وذكر أنّه كان يلقّب سنسويه» اهـ. لسان الميزان: ٦/ ٣٣٥.

وانظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، للالكائي: ٢/ ٧٤٩.

(٣) هو غيلان بن مسلم الدمشقيّ، تنسب إليه فرقة الغيلانية من القدرية، وكان غير ثقة ولا مأمون، ناظره الأوزاعيّ وأفتى بقتله، فصلب بعد الخمسين ومائة من الهجرة. انظر: ميزان الاعتدال، للذهبي: ٣/ ٣٣٨، ولسان الميزان، لابن حجر: ٤/ ٤٢٤.

(٤) انظر: الفرق بين الفرق، للبغدادي ص١١٣، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ٥٥، و٨/ ٣٢٨، و١٤/ ٣٥٠، وشفاء العليل، لابن القيم: ١/ ١٩.

ونسب إلى بعض طوائف الخوارج[١] القول بنفي القدر أيضاً[٢].

وكان القدريّة ـ في أوّل أمرهم ـ ينكرون القدر بجميع مراتبه: العلم السابق، والكتاب السابق، والمشيئة، والخلق، ويقولون: إنّ الأمر أُنْف، أي: مستأنف، لم يسبق لله تعالى فيه علم ولا كتاب، كما أنّه لم يشأه ولم يخلقه، وهؤلاء هم القدريّة الأوائل الذين نبغوا في أواخر عصر الصحابة، وهم غلاة القدرية[٣].

فلما شنّع عليهم المسلمون وتبرّؤوا منهم صار أكثر القدريّة وجمهورهم يثبتون العلم السابق، والكتاب السابق، وينفون المشيئة والخلق، ويقولون: إنّ أفعال العباد ليست مخلوقة لله تعالى، وليست واقعة بمشيئته، وهؤلاء هم القدريّة المتأخرون، كالمعتزلة وغيرهم[٤].

قال الحافظ ابن حجر: «وقد حكى المصنّفون في المقالات عن طوائف من القدريّة إنكار كون الباري عالماً بشيء من أعمال العباد قبل وقوعها منهم، وإنّما يعلمها بعد كونها. قال القرطبيّ وغيره: قد انقرض هذا المذهب، ولا نعرف أحداً ينسب إليه من المتأخرين. قال: والقدريّة اليوم مطبقون على أنّ الله عالم بأفعال العباد قبل وقوعها، وإنّما خالفوا السلف في زعمهم بأنّ أفعال العباد مقدورة لهم وواقعة منهم على جهة الاستقلال، وهو مع كونه مذهباً باطلاً أخفّ من المذهب الأوّل» اهـ[٥].

---

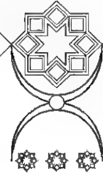
(١) سيأتي الكلام عن الخوارج عند بيان الرد على تسبيح الوعيدية، في ٢/ ٥١٤ ـ ٥١٥.

(٢) انظر: مقالات الإسلاميين، للأشعري: ١/ ١٧٧.

(٣) انظر: شرح صحيح مسلم، للنووي: ١/ ١٥٤، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٨/ ٢٨٨، ٤٢٩، ٤٣٠، ٤٥٠، وجامع الرسائل، له: ١/ ١٧٧ ـ ١٧٨، وشفاء العليل، لابن القيم: ٢/ ٧٩، والدرة البهية شرح القصيدة التائية، للسعدي ص٢٠ ـ ٢١.

(٤) انظر: المصادر السابقة نفسها.

(٥) فتح الباري: ١/ ١١٩.

المبحث الثاني

مفهوم التّسبيح عند القدريّة

وهؤلاء القدريّة الذين ينفون قدر الله تعالى عن أفعال عباده يزعمون أنّهم يريدون بذلك تنْزيهه سبحانه عن إضافة الشرّ إليه، وعن الظلم والعيب، وعن مشيئة القبائح وخلقها. وأنّهم يريدون وصفه تعالى بالخير، والعدل، والحكمة، وإرادة ذلك دون غيره[1].

ويقرّرون هذا التنْزيه بطرق وأساليب، فيقولون:

ـ إنّ أفعال العباد فيها ما هو شرّ وظلم، وقد حصل الاتّفاق على أنّ الله سبحانه لا يضاف إليه شرّ ولا ظلم، بل هو منّزه عن ذلك كما دلّ عليه الكتاب والسنة، فلو كان خالقاً لأفعال العباد التي هي الشرّ والظلم لكان شرّيراً ظالماً، ولو أراد ذلك منهم لكان كذلك، فإنّ مريد الشرّ شرّير، ومريد الظلم ظالم[2].

ـ وإنّ الكفر والفسوق والعصيان أفعال قبيحة، والله تعالى لا يفعل القبيح ، وإرادة هذه الأفعال أيضاً قبيحة، وهو سبحانه لا يريد القبيح،

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٩٩/١٧، وجامع الرسائل، له: ٣٦٤/٢، والصواعق المرسلة، لابن القيم: ٢٣٥/١.

(٢) انظر: شرح الأصول الخمسة، لعبد الجبار الهمذاني، تحقيق الدكتور عبد الكريم عثمان ص٣٤٥، والملل والنحل، للشهرستاني: ٤٥/١، ٤٧، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٥٢/١٨، وطريق الهجرتين، لابن القيم ص٢٥٥.

فهذه الأفعال ليست مخلوقة له، ولا مرادة له[١].

- وإنّ الله تعالى لو قدّر الذنوب والمعاصي على عباده ثمّ عذّبهم عليها، لكان ظالماً لهم، وهو سبحانه منَزّه عن ذلك، فإنّه حَكَم عَدْل لا يظلم من عباده أحداً، وليست هذه الذنوب والمعاصي واقعة بقدر الله، بل العباد هم الذين تجرّأوا عليها وأحدثوها بأنفسهم استقلالاً، فعاقبهم الله تعالى بأفعالهم، ولم يظلمهم[٢].

- ولو كان الله تعالى خالقاً لأفعال العباد لبطل الثواب والعقاب، إذ كيف يعقابهم على أمر خلقه فيهم؟ والله عدل حكيم، لا يظلم أبداً، فلو كان هو الفاعل لأعمالهم الخالق لها، لم يخاطبهم، ولم يعظهم، ولم يلمهم على ما كان منهم من تقصير، ولم يمدحهم على ما كان منهم من جميل وحسن، كما لم يخاطب المرضى فيقول: لم مرضتم؟ ويخاطب العميان، فيقول: لم عميتم؟[٣].

فهذه الأقاويل مما يُعلم به أنّ القدريّة جعلوا مشيئة الله تعالى لأفعال عباده وخلقه لها من النقائص التي يجب تنْزيه الله سبحانه عنها، ولذلك نفى غلاتهم علمه السابق وكتابته السابقة لأفعال العباد، وزاد بعضهم على نفي القدر أنّه تعالى لا يوصف بالقدرة على الشرور

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٨/١١٨، و١٤/٢٦٧، وجامع الرسائل، له: ١/١٢٣.

(٢) انظر: الملل والنحل، للشهرستاني: ١/٤٧، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/٦٩، وجامع الرسائل، له: ١/١٢٣، ١٢٧، وطريق الهجرتين، لابن القيم ص٢٥٥، وشرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العزّ: ٢/٧٩٢، والدرة البهية شرح القصيدة التائية، للسعدي ص١٧، ٩٢.

(٣) انظر: القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة ومذاهب الناس فيه، للدكتور عبد الرحمٰن بن صالح المحمود ص٢٢٣.

والمعاصي؛ لأنّ ذلك يوجب النقص فيجب نفيه[١].

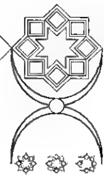
وقد بنى المعتزلة ومن وافقهم عقيدتهم على هذا المفهوم من التنزيه، وسمّوه عدلاً[٢]، وبناء عليه فسّروا العدل الإلهيّ، والحكمة الإلهيّة. فجعلوا من العدل أنّه تعالى لم يشأ أفعال العباد ولم يخلقها[٣]، وأنّه لم يخصّ بعض عباده بتوفيق صاروا به مؤمنين، ولا بخذلان صاروا به كافرين؛ لأنّه لو خصّ بعض عباده بتوفيقه الذي هو من فضله وإحسانه، لكان ظالماً[٤]، وأنّه لا يعاقب على ما قضاه وقدّره[٥].

وجعلوا الحكمة قاصرة على مصالح العباد ومنافعهم العائدة إليهم[٦]، وقالوا: يجب من حيث الحكمة رعاية مصالح العباد[٧]، وأن يفعل الله تعالى بكلّ عبد ما هو الأصلح له في دينه، وتنازعوا في وجوب الأصلح في دنياه، ومذهبهم أنّه تعالى لا يقدر أن يفعل مع مخلوق من المصلحة الدينيّة غير ما فعل، ولا يقدر أن يهدي ضالاً ولا يضلّ مهتدياً[٨].

وهكذا زعم القدريّة أنّهم ينَزّهون الله تعالى ويعظّمونه بهذه الأصول التي قرّروها وأوجبوا اعتقادها، وهم في الحقيقة قد خالفوا الأدلّة الصريحة من النقل والعقل، ووقعوا في اعتقاد فاسد، كما يأتي بيانه في المبحث التالي.

---

(١) انظر: الملل والنحل، للشهرستاني: ١/ ٥٤.
(٢) انظر: المصدر السابق: ١/ ٤٥، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٨/ ٩٢.
(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٣/٩٨، إغاثة اللهفان، لابن القيم: ٢/ ٩٤.
(٤) انظر: طريق الهجرتين، لابن القيم ص٢٥٥.
(٥) انظر: الفوائد، لابن القيم ص٤٨.
(٦) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم: ١/ ١١٣ و٢/ ٤٥١.
(٧) انظر: الملل والنحل، للشهرستاني: ١/ ٤٥.
(٨) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٨/ ٩٢.




المبحث الثالث

إبطال تسبيح القدريّة

ينبغي أن يعلم ـ بدءاً ـ أنّ باب القضاء والقدر كباب الأسماء والصفات، وأنّهما أعظم وأجلّ ما تكلّم فيه الناس في أصول الدين، وأنّ الحاجة إليهما وإلى معرفة الحقّ فيهما أعمّ وأنفع من غيرهما[1]، فعليهما يقوم الاعتقاد السليم والعبوديّة الصحيحة لله تعالى، وأيّ خلل أو زلل يقع فيهما ينتج عنه خلل وزلل في الاعتقاد والعبوديّة.

ومن هنا كان الاعتناء بالكشف عمّا في مقالة القدريّة من الغلط مطلباً دينيّاً واجباً، لإحقاق الحقّ ودحض الباطل في باب القدر الذي هو من أهمّ أبواب العقيدة.

وقد كان لأئمة أهل السنة والجماعة من السلف ومن بعدهم جهود كبيرة في الردّ على بدعة القدرية وإبطال ما ادعوه من التنْزيه، وهذه الجهود أكثر من أن يحصيها إلا الله تعالى.

والمقصود في هذا المبحث الإشارة إلى جملة من الأمور التي يتبيّن بها بطلان تنْزيه القدريّة ومخالفته للكتاب والسنة، ولعقيدة السلف الصالح[2]، وهي:

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ٢٩٠.

(٢) انظر: بيان مجمل اعتقاد السلف في القدر في: شرح السنة، للبربهاري ص٩٠، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، للالكائي: ٢/ ٥٣٤ ـ ٦٩١، وعقيدة السلف، للصابوني ص٩٠ ـ ٩٥، والحجة في بيان المحجة، =

أولاً: أنّ تنْزيه القدريّة تكذيب بقدر الله تعالى الذي هو ركن من أركان الإيمان في الإسلام، كما قال رسول الله ﷺ: «**الإيمان: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر. وتؤمن بالقدر خيره وشرّه**»(١). «ففي هذا الحديث أنّ الإيمان بالقدر من أصول الإيمان الستّة المذكورة، فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشرّه، فقد ترك أصلاً من أصول الدين وجحده، فيشبه من قال الله فيهم: ﴿**أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ**﴾ [البقرة: ٨٥]»(٢).

وليس الشأن في الإيمان بالقدر الإيمان بلفظه مع جحد حقيقته، كما يفعل كثير من طوائف الضلال، فإنّ القدريّة أنفسهم قد يؤمنون بلفظ القدر، ولكن منهم من يردّه إلى العلم، ومنهم من يردّه إلى الأمر والنهي، ويجعل مشيئة الله تعالى لأفعال عباده هي نفس أمره لهم بها أو نهيه لهم عنها، وهذا حقيقة إنكار القدر(٣).

والمقصود أنّ الإيمان بالقدر لا يتحقّق إلا بالإيمان بجميع مراتبه التي سبق ذكرها(٤)، وبشموله لكلّ شيء في الكون، كما قال الله تعالى: ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾**﴾ [القمر: ٤٩](٥).

= لأبي القاسم التيمي: ٢/ ٢٦٥، ٤١٠، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٨/ ٢٣٦، وشفاء العليل، لابن القيم: ١/ ١٥٢، ٢٨٤، وشرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العزّ: ١/ ٣٢١.

(١) جزء من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه - في مجيء جبريل عليه السلام - وسؤاله النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان، وأخرجه مسلم في صحيحه: ١/ ٣٦ - ٣٨، برقم (٨).

(٢) مقتبس من: فتح المجيد، للشيخ عبد الرحمٰن بن حسن آل الشيخ ص٤٧٦.

(٣) انظر: طريق الهجرتين، لابن القيم ص١٦٩، والفوائد، له ص٥٠.

(٤) انظر: ٢/ ٤٧٥.

(٥) وانظر: صحيح مسلم: ٤/ ٢٠٤٦، حديث رقم (٢٦٥٦).

ثانياً: أنّ منشأ ضلال القدريّة من عجز عقولهم عن الإيمان بقدر الله تعالى، والإيمان بشرعه ـ بأمره ونهيه، ووعده ووعيده ـ، وظنّهم أنّ القدر يناقض الشرع، وكانوا قد آمنوا بدين الله، وأمره ونهيه، ووعده ووعيده، فظنّوا أنّه إذا كان كذلك لم يكن قد علم قبل الأمر والنهي عمن يطيع ومن يعصي؛ لأنهم اعتقدوا أنّ من علم ما سيكون لم يحسن منه أن يأمر وهو يعلم أنّ المأمور يعصيه ولا يطيعه. وظنّوا أيضاً أنّه إذا علم أنهم يفسدون لم يحسن أن يخلق من يعلم أنّه يفسد[1].

كما اعتقدوا أنّهم إذا أثبتوا مشيئة الله تعالى لأفعال العباد وخلقه لها، لزم من ذلك القدح في عدله وحكمته، وأن يكون العبد مجبوراً، وأن يرتفع التكليف والوعد والوعيد، والثواب والعقاب[2].

فهذه الظّنون الفاسدة أوجبت للقدرية العجز عن الإيمان بالشرع والقدر جميعاً، ولم يوفّقوا للجمع بينهما، فأثبتوا الشرع، ونفوا القدر، وكانوا ضالّين قاصري النظر[3].

ثالثاً: أنّ ضلال القدرية نشأ أيضاً من تسويتهم بين المشيئة والإرادة وبين المحبّة والرضا، واعتقادهم تلازمهما[4]، وقولهم: «إنّ كلّ من جازت عليه الإرادة جازت عليه المحبة، وإنّه تعالى إذا صحّ كونه مريداً فيجب كونه محبًّا، وكلّ ما صحّ أن يريده صحّ أن يحبّه،

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٣/٣٦، ٢١١.

(٢) انظر: المصدر السابق: ٨/٩٩ و١٢/٣٢٨.

(٣) انظر: المصدر نفسه: ٨/٢٤٣، والقصيدة النونية، لابن القيم ـ بشرح هراس ـ: ١/١٠٧ ـ ١٠٨.

(٤) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم: ١/٢٦٤، وشرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العزّ: ١/٣٢٤.

وكلّ ما أوجب قبح محبّته أوجب قبح إرادته»[١].

وقولهم ـ بناء عليه ـ: إنّ المعاصي ليست محبوبة لله تعالى، فليست مرادة له، بل هي خارجة عن مشيئته وخلقه[٢].

وهذه التسوية مردودة لمخالفتها الكتاب والسنة والمعقول الصحيح، كما بيّن المحقّقون من أهل العلم أنّ إرادة الله تعالى نوعان: إرادة أمر وتشريع، وإرادة قضاء وتقدير. فإرادة الأمر والتشريع هي المتضمّنة للمحبّة والرضا، وهي إنّما تتعلّق بالطاعات دون المعاصي، سواء وقعت أو لم تقع، كما في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ [النساء: ٢٦].

وهذه الإرادة هي المذكورة في مثل قول الناس ـ لمن يفعل القبائح ـ: هذا يفعل ما لا يريده الله، أي: لا يحبّه ولا يرضاه ولا يأمر به. وإرادة القضاء والتقدير هي المشيئة الشاملة لجميع الكائنات، المحيطة بجميع الحادثات، وقد أراد الله تعالى من العالم ما هم فاعلوه بهذا المعنى لا بالمعنى الأوّل، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧].

وهذه الإرادة هي المذكورة في قول المسلمين: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن. وهي تتناول ما حدث من الطاعات والمعاصي دون ما لم يحدث، كما أنّ الإرادة الأولى تتناول الطاعات حدثت أو

---

(١) المغني في أبواب التوحيد والعدل، لعبد الجبار الهمذاني المعتزليّ: ٦، القسم الثاني ص٥٤.

(٢) انظر: مدارج السالكين: ١/ ٢٦٥، وشرح العقيدة الطحاوية: ١/ ٣٢٤.

لم تحدث. والسعيد من أراد منه تقديراً ما أراد منه تشريعاً، والشقيّ من أراد به تقديراً ما لم يرد به تشريعاً، والحكم يجري على وفق هاتين الإرادتين، فمن نظر إلى أفعال العباد بهاتين العينين كان بصيراً، ومن نظر إلى الشرع دون القدر، أو القدر دون الشرع كان أعور(١).

رابعاً: أنّ ضلال القدريّة ناشئ كذلك من عدم تفريقهم في حقّ الربّ ﷻ بين فعله القائم به، ومفعوله المنفصل عنه، فإنّ المعتزلة نفاة القدر هم معطّلة في الصفات ـ كما تقدّم ـ، ومن أصولهم الفاسدة أنّهم يصفون الله ﷻ بما يخلقه في العالم، إذ ليس عندهم صفة لله تعالى قائمة به، ولا فعل قائم به، بل فعله هو مفعوله، فيسمّونه ويصفونه بما يخلقه في العالم.

ومن ذلك قولهم: إنّه لو كان خالقاً لظلم العبد وكذبه، لكان هو الظالم الكاذب، وأمثال هذا من الأقوال التي إذا تدبّرها العاقل علم فسادها بالضرورة(٢).

والذي يكشف تلبيس المعتزلة القدريّة أن يقال لهم: لا يعرف الناس من يسمّى ظالماً ولم يقم به الفعل الذي به صار ظالماً، بل لا يعرفون ظالماً إلا من قام به الفعل الذي فعله وبه صار ظالماً، وإن كان فعله متعلّقاً بغيره، وله مفعول منفصل عنه، لكن لا يعرفون الظالم إلا بأن يكون قد قام به ذلك، فكونكم أخذتم في حدّ الظالم أنّه من فعل الظلم، وعنيتم بذلك: من فعله في غيره، فهذا تلبيس وإفساد للشرع والعقل واللغة، كما فعلتم في مسمّى المتكلّم، حيث قلتم: هو من فعل الكلام ولو في غيره، وجعلتم من أحدث كلاماً منفصلاً عنه قائماً بغيره

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٨/١٩٧ ـ ١٩٨، وشرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العزّ: ١/٧٩ ـ ٨٠.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٨/١٢٢، ١٢٥.

متكلّماً، وإن لم يقم به هو كلام أصلاً، وهذا من أعظم البهتان.

ثم يقال لهم: الظلم فيه نسبة وإضافة، فهو ظلم من الظالم، بمعنى أنّه عدوان وبغي منه، وهو ظلم للمظلوم، بمعنى أنّه بغي واعتداء عليه. وأما من لم يكن متعدّى عليه به ولا هو منه عدوان على غيره، فهو في حقّه ليس بظلم، لا منه ولا له.

والله سبحانه إذا خلق أفعال عباده فذلك من جنس خلقه لصفاتهم، فهم الموصوفون بذلك، فهو سبحانه إذا جعل بعض الأشياء أسود، وبعضها أبيض، أو طويلاً، أو قصيراً، أو متحرّكاً، أو ساكناً، أو عالماً، أو جاهلاً، أو قادراً، أو عاجزاً، أو حيًّا، أو ميتاً، أو مؤمناً، أو كافراً، أو سعيداً، أو شقيًّا، أو ظالماً، أو مظلوماً، كان ذلك المخلوق هو الموصوف بأنّه الأسود، والأبيض، والطويل، والقصير، والحيّ، والميّت، والظالم، والمظلوم، ونحو ذلك. والله سبحانه لا يوصف بشيء من ذلك؛ لأنّ صفات المخلوقات ليست صفات له، وأفعال العباد ليست أفعالاً له، بل هي مخلوقات ومفعولات له، وهو سبحانه لا يتّصف بما خلقه في غيره، ولا بما فعله في غيره.

وقد ظهر ـ بهذين الوجهين ـ تدليس القدريّة، وزالت شبهتهم[1].

خامساً: أنّ من أسباب ضلال القدريّة عدم تفريقهم بين الشرّ الخاصّ والعامّ، وبين الشرّ الإضافي والشرّ المطلق، ولم يجعلوا في الشرّ الخاصّ الإضافيّ حكمة يصير بها من قسم الخير[2]، ولهذا نفوا أن تكون الشرور الواقعة من العباد بقضاء وقدر من الله تعالى. وهذا تنزيه خاطئ؛ لأنّ كون هذه الشرور بقضاء الله وقدره لا يستلزم نسبة

(١) انظر: المصدر السابق: ١٨/١٥٣، ١٥٤ ـ ١٥٥.

(٢) انظر: المصدر نفسه: ١٤/ ٢٧٠.

الشرّ إليه سبحانه؛ لأنّ له حكمة عظيمة فيما خلقه في العالم مما هو مستقبح وضارّ ومؤذ، والمخلوق المستقبح الضارّ المؤذي خير باعتبار تلك الحكمة العظيمة، وإن كان شرًّا باعتبار محلّه أو ما هو شرّ في حقّه.

وهذه المسألة قد سبق بحثها عند الكلام على تسبيح الله تعالى في أقواله وأفعاله(١).

سادساً: أنّ ما تزعمه القدريّة من أنّ تفضيل الله تعالى بعض عباده على بعض بفضله وإحسانه من باب الظلم جهل منهم، وكذلك جزاؤهم بأعمالهم التي جرى بها القدر ليس بظلم، فإنّ الواحد من الناس إذا عاقبه غيره بسيّئاته، وانتصف للمظلوم من الظالم لم يكن ذلك ظلماً منه باتفاق العقلاء، بل ذلك أمر محمود منه، ولا يقول أحد: إنّ الظالم معذور لأجل القدر.

فربّ العالمين إذا أنصف بعض عباده من بعض، وأخذ للمظلومين حقّهم من الظالمين، كيف يكون ذلك ظلماً منه لأجل القدر؟!.

وكذلك الواحد من العباد إذا وضع كلّ شيء موضعه، فجعل الطيّب مع الطيّب في المكان المناسب له، وجعل الخبيث مع الخبيث في المكان المناسب له، كان ذلك عدلاً منه وحكمة.

فربّ العالمين إذا وضع كلّ شيء موضعه، ولم يجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض، ولم يجعل المتّقين كالفجّار، ولا المسلمين كالمجرمين، كان ذلك هو العدل والحكمة(٢).

سابعاً: أنّ القدريّة ضلّوا حيث شبّهوا أفعال الله سبحانه بأفعال

---

(١) انظر: ٢/٢٦٩ ـ ٢٩٣ من البحث.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٧/١٧٥ ـ ١٧٦.

العباد، واعتقدوا أنّ ما حسن منهم حسن منه مطلقاً، وما قبح منهم قبح منه مطلقاً، بقدر علمهم وعقلهم، حتّى حجروا عليه أن يفعل إلا ما ظنّوا بعقلهم أنّه الجائز له، ووضعوا له شريعة التعديل والتجويز، فأوجبوا عليه ـ بعقلهم ـ أموراً كثيرة، وحرّموا عليه ـ بعقلهم ـ أموراً كثيرة، لا بمعنى أنّ العقل آمر له وناهٍ، فإنّ هذا لا يقوله عاقل، بل بمعنى أنّ تلك الأفعال علم بالعقل وجوبها وتحريمها، ولكن أدخلوا في ذلك من المنكرات ما بنوه على بدعتهم في التكذيب بالقدر وتوابع ذلك.

فالقدريّة ممثّلة في الأفعال، يمثّلون الخالق بالمخلوق والمخلوق بالخالق في الأفعال، وهذا قول باطل، كما أن تمثيل الخالق بالمخلوق، والمخلوق بالخالق في الصفات باطل.

فأفعال الله ﷻ لا تمثّل بأفعال المخلوقين، فإنّ المخلوقين عبيده، وهو الربّ الخالق الذي له الكمال المطلق الذي لا يلحقه فيه نقص ولا عيب، وله المثل الأعلى في السموات والأرض، وكلّ فعل منه فله فيه الحكمة البالغة والنعمة السابغة، ولهذا يجتمع له سبحانه ما يتناقض في حقّ المخلوقين، كما اجتمع له أنّه خالق كلّ شيء من أفعال العباد وغيرها من الأعيان والأفعال، مع ما فيها من الخبث، وأنّه عدل حكيم رحيم، وأنّه يمكّن من مكّنه من عباده من المعاصي مع قدرته على منعهم، وهو في ذلك حكيم عادل، فإنّه أعلم الأعلمين، وأحكم الحاكمين، وخير الفاتحين، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، وهو على كلّ شيء قدير[1].

---

(١) انظر: الحجة في بيان المحجة، لأبي القاسم التيمي: ١/٢٩٩ ـ ٣٠٠، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٨/٩١، ٣٨٧، ٤٣١، ٤٣٢ و١٦/ ٤٢٥ و١٨/١٣٨، ١٤٧، وطريق الهجرتين ص٢٥٥، ٢٧٦، وشرح العقيدة الطحاوية: ٢/٧٩٢.

ثامناً: أنّ القدريّة ضلّوا حيث سلبوا كمال الله ﷻ في الخلق والقدرة والمشيئة والملك؛ لأنّهم لا يجعلونه خالقاً لكلّ شيء، ولا قادراً على كلّ شيء، بل يجحدون مشيئته النافذة، وقدرته الشاملة، ويشهدون أنّه يكون في ملكه ما لا يشاؤه، وأنّه يشاء ما لا يكون. فحقيقة قول القدريّة أنّه تعالى ليس ربًّا لكلّ شيء، إذ كيف تتناول ربوبيّته ما لا يدخل تحت قدرته ومشيئته وخلقه؟(١).

ولهذا ضاهى القدريّة المجوس في الإشراك بربوبية الله تعالى، حيث أثبتوا لغيره الانفراد بإحداث أشياء من الشرّ بدون مشيئته وقدرته وخلقه(٢)، فكانوا بذلك مجوس هذه الأمة، كما جاء في الحديث عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «القدريّة مجوس هذه الأمّة، إن مرضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تشهدوهم»(٣).

تاسعاً: أنّ القدريّة ضلّوا حيث جعلوا العبد مستغنياً عن ربّه، باعتقادهم أنّ العبد هو الذي يحدث ويخلق أفعاله بدون مشيئة الله

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/١٢٦ و٨/٢٥٨ و١٣/٢١٢، ومدارج السالكين، لابن القيم: ١/٨٥، ٤٠٨، وشرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العزّ: ٢/٧٩٢.

(٢) انظر: الفرق بين الفرق، للبغدادي ص٢٩٧، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٨/٤٥٢ و١٣/٢١٢ ـ ٢١٣، ومدارج السالكين: ١/٨٥، وطريق الهجرتين ص٢٦٨.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه: ٥/٦٦، برقم (٤٦٩١)، وابن أبي عاصم في السنة ص١٤٩، برقم (٣٣٨)، والحاكم في المستدرك: ١/١٥٩، برقم (٢٨٦)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين إن صحّ سماع أبي حازم من ابن عمر». وأبو حازم هذا هو سلمة بن دينار، وهو ثقة، ولكنه لم يسمع من ابن عمر. وانظر: تهذيب التهذيب، لابن حجر: ٤/١٤٣. ولذا فالحديث فيه انقطاع، ولكنّه حسن، لمتابعاته وشواهده. وقد حسّنه الألباني في ظلال الجنّة، برقم (٣٣٨)، وفي صحيح الجامع، برقم (٤٤٤٢).

وخلقه، فهو الذي يهدي نفسه ويضلّها، ويوجب لها فعل الطاعة وفعل المعصية، بغير إعانة من الله وتوفيق للطاعة، ولا خذلان منه في المعصية[(١)].

والقدريّة ـ لاعتقادهم هذا ـ هم مبخوسوا الحظّ جدًّا من الاستعانة بالله تعالى، والتوكّل عليه، والاعتصام به، وسؤاله أن يهديهم وأن يثبّت قلوبهم وأن لا يزيغها، وأن يوفّقهم لمرضاته، ويجنّبهم معصيته، إذ هذا كلّه واقع بهم وعين أفعالهم، لا يدخل تحت مشيئة الربّ شيء منها[(٢)].

فهم «من أجهل الخلق بالله، وأغلظهم عنه حجاباً، وحقّ لهم أن يكونوا مجوس هذه الأمّة. ويكفي في جهلهم بالله: أنّهم لم يعلموا أنّ أهل سمواته وأرضه في منّته، وأنّ من تمام الفرح والسرور، والغبطة واللذة اعتباطهم بمنّة سيّدهم ومولاهم الحقّ، وأنّهم إنّما طاب عيشهم بهذه المنّة. وأعظمهم منه منْزِلة وأقربهم إليه أعرفهم بهذه المنّة، وأعظمهم إقراراً بها، وذكراً لها، وشكراً عليها، ومحبّة له لأجلها. فهل يتقلّب أحد قطّ إلّا في منّته؟ ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَـٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحجرات: ١٧]»[(٣)].

عاشراً: أنّه إذا علم ما سبق ذكره، تبيّن أنّ ما ادّعاه القدريّة من التنْزيه لله تعالى باطل مناقض للتنّزيه، وأنّهم باعتقادهم لهذا التنْزيه الباطل صاروا كالمستجير من الرمضاء بالنار، فإنّهم هربوا من شيء

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٨/ ٣٧٤ و١٤/ ٣٨٣.
(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٧/ ٦٤، ومدارج السالكين، لابن القيم: ١/ ٤٠٨.
(٣) مقتبس من: مدارج السالكين، لابن القيم: ١/ ١١٥.

فوقعوا فيما هو شرّ منه، هربوا من إثبات الشرّ والظلم لله تعالى، فسلبوه كمال علمه وقدرته، وكمال ملكه وربوبيّته، وأثبتوا له شركاء يخلقون كخلقه، ويحدثون في ملكه ما لا يشاء، ويشاء منهم ما لا يكون، فأيّ افتراء أكثر على الله من هذا؟ ﷻ عما يصفون.

ولهذا ورد عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه قال: «القدر نظام التوحيد، فمن وحّد الله وآمن بالقدر تمّ توحيده، ومن وحّد الله وكذّب بالقدر نقض تكذيبه توحيده» اهـ[1].

فالتوحيد والتنْزيه إنّما يتحقّق ويصحّ بإثبات القدر بجميع مراتبه المعلومة، لا بنفيه أو نفي بعضه، وبالله التوفيق.

---

(١) هذا الأثر ذكره ـ بهذا اللفظ ـ شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى: ٨/٢٥٨، وفي التدمرية ص٢١٢ ـ ٢١٣. ورواه بلفظ نحوه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة: ٢/٦٢٣، برقم (١١١٢) و٢/٦٧٠، برقم (١٢٢٤).

الفصل الخامس

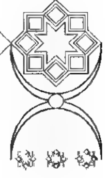
الرد على تسبيح الجبرية

وفيه ثلاثة مباحث:

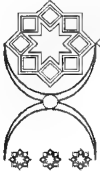
المبحث الأول: التعريف بالجبرية.

المبحث الثاني: مفهوم التسبيح عند الجبرية.

المبحث الثالث: إبطال تسبيح الجبرية.



المبحث الأول



التعريف بالجبرية

أولاً: الجبرية في اللغة:

الجبرية: نسبة إلى الجبر، والجبر ـ في اللغة ـ يرجع إلى ثلاثة أصول:

أحدها: أن يغنى الرجل من فقر، أو يجبر عظمه من كسر، وهذا من الإصلاح، وهذا الأصل الفعل منه يستعمل لازماً ومتعدياً، يقال: جبر العظم وجبرته.

والثاني: الإكراه والقهر. وهذا الأصل يستعمل على (أفعل). يقال: أجبرته على الأمر، إذا أكرهته عليه، ولا يكاد يجيء: جبرته عليه إلا قليلاً.

والثالث: العز والامتناع، ومنه نخلة جبارة، وهي ما طال من النخل وفات اليد(١).

وذكر بعض اللغويين من معاني الجبر أنه خلاف القدر(٢)، ولكن هذا المعنى ليس له أصل في اللغة، بل قال أبو عبيد: «هو كلام

---

(١) انظر: شفاء العليل، لابن القيم: ١/٣١٠ ـ ٣١١. وانظر ـ مادة (جبر) ـ: في الصحاح، للجوهري: ٢/٦٠٨، ولسان العرب، لابن منظور: ٤/١١٦، والقاموس المحيط، للفيروز آبادي ص٤٦٠.

(٢) انظر: الصحاح: ٢/٦٠٨، والقاموس المحيط ص٤٦٠.

مولد»[١].

ثانياً: الجبرية في الاصطلاح:

الجبرية: فرقة من الفرق المبتدعة المنتسبة إلى الإسلام، تقول بالجبر - في باب القدر - وهو نفي الفعل حقيقة عن العبد، وإضافته إلى الرب تعالى[٢]، أي أن العبد مجبور في أفعاله، جبره الله عليها، فلا تأثير له في وجودها، وإنما تنسب إليه كما تنسب الأفعال إلى الجمادات، كما يقال: أثمرت الشجرة، وجرى الماء، وتحرك الحجر، وطلعت الشمس وغربت، وتغيمت السماء وأمطرت، واهتزت الأرض وأنبتت، إلى غير ذلك[٣].

ثالثاً: نشأة الجبرية في الإسلام:

ظهرت مقالة الجبرية في الإسلام على يد الجهم بن صفوان؛ فإن الجهم كان قد اشتهر عنه نوعان من البدعة:

أحدهما: نفي الصفات، كما سبق عند الكلام على المعطلة.

والثاني: الغلو في القدر، بأن جعل العباد لا فعل لهم ولا قدرة ولا اختيار[٤]، ولهذا نقل عنه أنه سمى الله تعالى قادراً فاعلاً - مع ما علم عنه من نفي الأسماء والصفات عن الله تعالى - لأن العبد عنده

---

(١) نقله الجوهري في الصحاح، الموضع السابق.

(٢) انظر: الملل والنحل، للشهرستاني: ١/ ٨٥.

(٣) انظر: المصدر السابق: ١/ ٨٧، والبرهان، للسكسكي ص٤٢ - ٤٣، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٨/ ٤٦٠، وشفاء العليل، لابن القيم: ١/ ١٤٥ - ١٤٦.

(٤) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٨/ ٢٢٩ - ٢٣٠، ٤٦٠، و١٤/ ٣٥٢ - ٣٥٣.

ليس بقادر ولا فاعل[١]. وكان ظهور جهم ومقالته في تعطيل الصفات، وفي الجبر، في أواخر دولة بني أمية، بعد حدوث القدرية والمعتزلة وغيرهم[٢].

ويمكن أن يلاحظ أن بدعة الجبرية نشأت ردّة فعل لبدعة القدرية؛ فإن البدعتين متقابلتين تقابل التباين والتناقض، وكلتاهما بدعتا ضلالة في باب القدر، فالقدرية بالغوا في نفي القدر، حتى جعلوا العبد خالقاً لأفعاله من دون الله تعالى، والجبرية بالغوا في إثبات القدر، حتى جعلوا العبد مجبوراً في أفعاله مقهوراً عليها[٣].

قال الإمام ابن قتيبة: «ولما رأى قوم من أهل الإثبات إفراط هؤلاء في القدر، وكثر بينهم التنازع، حملهم البغض لهم واللجاج على أن قابلوا غلوهم بغلو، وعارضوا إفراطهم بإفراط، فقالوا بمذهب جهم في الجبر المحض، وجعلوا العبد المأمور المنهي المكلف لا يستطيع من الخير والشر شيئاً على الحقيقة، ولا يفعل شيئاً على الصحة، وذهبوا إلى أن كل فعل ينسب إليه فإنما ينسب إليه على المجاز، كما يقال: في الموات: مال الحائط، وإنما يراد: أميل، وذهب البرد، وإما ذهب به، وكلا الفريقين غالط» اهـ[٤].

رابعاً: طوائف الجبرية:

قد وافق جهماً على مذهبه في الجبر أو بعضه طوائف من أهل

---

(١) انظر: المصدر السابق: ١٢/ ٢٠٢، ٣١١ و١٣/ ٣٧.
(٢) انظر: المصدر نفسه: ٨/ ٤٦٠.
(٣) انظر: شفاء العليل، لابن القيم: ١/ ١٤٥، ومدارج السالكين، له: ١/ ١١٤.
(٤) الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة ـ ضمن عقائد السلف ـ ص٢٣١.

الكلام وبعض متأخري الفقهاء وغيرهم[١].

ومن أبرز الفرق الكلامية التي قاربت الجهمية في القول بالجبر: «النجارية»[٢] أصحاب الحسين بن محمد النجار[٣]، و«الضرارية»[٤] أتباع ضرار بن عمرو[٥].

وكذلك الأشعرية، فإن الأغلب أنهم جبرية في باب القدر[٦]، حيث وافقوا جهماً وأتباعه على أصل قولهم في الجبر، لكن قد ينازعونهم منازعات لفظية[٧]، حيث أثبتوا للعبد قدرة حادثة لا تأثير لها، وسموها كسبا[٨]، ولهذا فقد يقولون: إنا لا نقول بالجبر المحض، بل نثبت للعبد قدرة حادثة، والجبري المحض الذي لا يثبت للعبد قدرة[٩].

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٧/ ٦٣.

(٢) انظر: الملل والنحل، للشهرستاني: ١/ ٨٦، والتدمرية ص١٩٠.

(٣) هو الحسين بن محمد بن عبد الله النجار، أبو عبد الله، الرازي، رأس الفرقة النجارية، يقرب هو وأتباعه من الجهمية في مسائل القدر والإيمان ونفي الصفات. انظر: الأعلام، للزركلي: ٢/ ٢٧٦.

(٤) انظر: الملل والنحل، للشهرستاني: ١/ ٨٦، والتدمرية ص١٩٠.

(٥) هو ضرار بن عمرو القاضي. قال الذهبي: «معتزلي جلد، له مقالات خبيثة»، فهو مع اعتزاله يقول بالجبر والإرجاء، على خلاف أكثر المعتزلة. انظر: ميزان الاعتدال، للذهبي: ٢/ ٣٢٨.

(٦) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ٥٥.

(٧) انظر: المصدر السابق: ٨/ ٢٣٠ و١٣/ ٢٢٨ و١٤/ ٣٥٣.

(٨) انظر: الملل والنحل، للشهرستاني: ١/ ٨٩، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٨/ ١١٨، ١٢٨، ٤٦٧، وشفاء العليل، لابن القيم: ١/ ١٤٦.

(٩) انظر: الملل والنحل: ١/ ٨٥، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٨/ ١١٨.

وهذا الكسب الذي أثبتوه ليس لهم فيه قول واحد، بل هم مضطربون في تفسيره اضطراباً كثيراً، وهو في واقع الأمر لا حقيقة له[1].

قال الإمام ابن قيم الجوزية: «وكسب الجبرية لفظ لا معنى له ولا حاصل تحته، وقد اختلفت عباراتهم فيه، وضربوا له الأمثال، وأطالوا في المقال» اهـ[2].

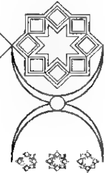
وبالجملة: فالجبرية أصناف، منهم الغالي المفرط، والغالي المتوسط[3]، ولكل منهم نصيب من الضلال بقدر ما ابتعد عن الحق، والله المستعان على ما يصفون.

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٢٨/٨، وشفاء العليل: ١/ ٣١٣ ـ ٣١٤.

(٢) شفاء العليل: ١/ ٣١٣.

(٣) انظر: الملل والنحل: ١/ ٨٥.




المبحث الثاني

مفهوم التسبيح عند الجبرية

من الواضح ـ عند النظر في مقالة الجبرية ـ أنهم أرادوا بالجبر تقرير انفراد الله تعالى بالقدرة والفعل وعموم المشيئة، بحيث لا يكون لغيره قدرة ولا فعل، بل يكون الله وحده هو القادر الفاعل، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

ومن هنا كان هذا المعنى هو مفهوم التوحيد والتنزيه عند الجبرية، كما قال الإمام ابن قيم الجوزية: «توحيد القدرية الجبرية، وهو إخراج أفعال العباد أن تكون فعلاً لهم، وأن تكون واقعة بكسبهم وإرادتهم، بل هي نفس فعل الله، فهو الفاعل لها دونهم، فنسبتها إليهم وأنهم فعلوها، مناف للتوحيد عندهم» اهـ[1].

وذلك أنهم يقولون: إن عموم قدرة الله وعموم مشيئته لا يخرج عنه حادثة، ومن أعظم الحوادث أفعال العباد، من طاعات ومعاصي وغيرها، فلو أنها خارجة عن قدرة الله ومشيئته لم يكن الله قديراً على كل شيء، ولا خالقاً لكل شيء.

ومقتضى ذلك أن العباد مجبورون على أفعالهم، غير مختارين لها؛ لأنهم لو اختاروها وفعلوها حقيقة لخرجت عن مشيئة الله وقدرته[2].

---

(١) الصواعق المرسلة: ٣/ ٩٣١.

(٢) انظر: الدرة البهية شرح القصيدة التائية، للسعدي ص٩٣.

قالوا: فالقول بالجبر لازم لصحة التوحيد، ولا يستقيم التوحيد إلا به، لأنا ـ إن لم نقل بالجبر ـ أثبتنا فاعلاً للحوادث مع الله، إن شاء فعل، وإن شاء لم يفعل، وهذا شرك ظاهر لا يخلص منه إلا القول بالجبر[1].

ثم إن الجبرية أدخلوا في مفهوم التوحيد والتنزيه أيضاً: أن الله تعالى لا علة لفعله ولا غاية ولا غرض، بل يفعل ما يفعله بلا سبب ولا غاية، وإنما بمحض المشيئة[2]. قالوا: لأن الفعل لغرض إنما يكون ممن يحتاج إلى الفعل، وممن ينتفع ويتضرر ويتألم ويلتذّ، والله تعالى منزه عن ذلك[3]، وقالوا: له أن يأمر بما شاء لا لمعنى فيه، وينهى عما شاء لا لأجل معنى فيه[4].

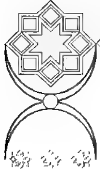
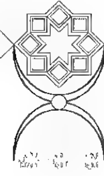
وقالوا أيضاً: ليس في المخلوقات قوى وأسباب يخلق بها، كما أنه ليس في خلقه وأمره حكمة يخلق ويأمر لأجلها، فليس لشيء سبب ولا حكمة، بل كل شيء حاصل بخلق الله وقدرته[5].

ومن هذا الأصل نشأ قولهم باستواء الأفعال بالنسبة إلى الرب سبحانه، وأنها لا تنقسم في نفسها إلى حسن وقبيح، وقولهم بأن مشيئة الله تعالى هي عين محبته، فكل ما شاءه فهو محبوب ومرضي له[6].

---

(١) انظر: شفاء العليل، لابن القيم: ١/ ٣٥١.
(٢) انظر: نهاية الأقدام في علم الكلام، للشهرستاني ص٣٩٧، والصواعق المرسلة، لابن القيم: ٤/ ١٥٤٧.
(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٣/ ٢١٤ و١٤/ ١٨٣.
(٤) انظر: المصدر السابق: ١٦/ ٢٣٨.
(٥) انظر: المصدر نفسه: ١٧/ ٦٣، ٥٣٠.
(٦) انظر: شفاء العليل، لابن القيم: ١/ ٣٢٤.

وهم إنما أصلوا هذه الأصول كلها محافظة على القدر، وتنزيهاً لله تعالى، وتحقيقاً لتوحيده، بحسب ما علموا وفهموا. ولقد ضلوا بمقالتهم هذه، وشوشوا بها القدر، وكدروا بها التنزيه، كما سيتبين ـ بإذن الله ـ في المبحث التالي.

المبحث الثالث

إبطال تسبيح الجبرية

إنّ بدعة الجبرية تعدّ من أشنع البدع وأنكرها في الإسلام، وما ادعاه أصحابها من التوحيد والتنزيه لله تعالى باطل بالكتاب والسنة، وباطل بالعقل والحس، وبيان ذلك:

أولاً: أن الجبر الذي تمسكت به هذه الفرقة وجعلوا القول به لازماً في العقيدة، ليس له أصل في كتاب الله تعالى ولا في سنة رسوله ﷺ، وقد صار ـ بسبب اصطلاح هذه الفرقة ـ لفظاً مبتدعاً ظاهراً في إرادة المعنى الباطل[1]، «ولهذا نص الأئمة ـ كالإمام أحمد ومن قبله من الأئمة كالأوزاعي وغيره ـ على إنكار إطلاق القول بالجبر نفياً وإثباتاً، فلا يقال: إن الله جبر العباد، ولا يقال: لم يجبرهم، فإن لفظ الجبر فيه اشتراك وإجمال، فإذا قيل: جبرهم أشعر بأن الله يجبرهم على فعل الخير والشر بغير اختيارهم، وإذا قيل: لم يجبرهم، أشعر بأنهم يفعلون ما يشاؤون بغير اختياره، وكلاهما خطأ»[2].

ثانياً: أن الله ﷻ أجل وأعظم من أن يجبر عبده بالمعنى الذي يقرره الجبرية ـ وهو إلزام الإنسان بخلاف اختياره ورضاه ـ، فإن من

---

(١) انظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي: ٢/ ٧٠٠، رقم (١٣٠٠) ، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٨/ ١٠٣، ١٣١ ـ ١٣٢، ٤٦١ و١٢/ ٣٣١، ودرء تعارض العقل والنقل، له: ١/ ٦٧، ٢٥٤ ـ ٢٥٥.

(٢) مقتبس من: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٦/ ٢٣٧.

قال: إن الله تعالى جبر العباد ـ بهذا المعنى ـ فهو مبطل؛ فإن الله أعلى وأجل قدراً من أن يجبر أحداً، وإنما يجبر غيره العاجز عن أن يجعله مريداً للفعل مختاراً له، محباً له، راضياً به، والله سبحانه قادر على ذلك، فهو الذي يجعل العبد مختاراً راضياً لما يفعله ومبغضاً وكارهاً لما يتركه، كما هو الواقع، فكيف يقال: أجبره وأكرهه، كما يجبر المخلوق المخلوق؟!(١).

ومن هنا يعلم أن لازم قول الجبرية وصف الله تعالى بالعجز والعيب، وتشبيهه بالمخلوق العاجز.

ثالثاً: أن الجبرية يدخلون في مسمى القدرية المذمومين الذين ذمهم السلف، لخوضهم في القدر بالباطل، إذ هذا جماع المعنى الذي ذمّت به القدرية(٢).

وأهل الضلال الخائضون في القدر بالباطل انقسموا إلى أربع فرق: مجوسية، ومجبرة، ومشركية، وإبليسية.

فالمجوسية: هم الذين نفوا القدر، كما سبق الرد عليهم.

والمجبرة: هم الذين غلوا في إثبات القدر حتى جعلوا العبد مجبوراً على أفعاله، كما سبق التعريف بهم في هذا الفصل.

والمشركية: هم الذين أقروا بالقدر، وأنكروا الأمر والنهي، كما قال الله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

---

(١) انظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، للالكائي: ٢/ ٧٠٠، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٨/ ١٣٢، ٤٣٦، ودرء تعارض العقل والنقل، له: ١/ ٦٦ ـ ٦٧، وشفاء العليل، لابن القيم: ١/ ٣٢٧.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٨/ ١٠٣، ١٠٥ و١٣/ ٢١٢، ودرء تعارض العقل والنقل: ١/ ٦٦.

والإبليسية: هم الذين أقروا بالقدر وبالأمر والنهي، لكن جعلوا ذلك تناقضاً من الرب ﷻ وطعنوا في حكمته وعدله[(١)].

فكل هؤلاء خاضوا في القدر خوضاً منحرفاً، وبعضهم أغلظ من بعض، وكلهم عن الصراط ناكبون[(٢)].

رابعاً: أن غلط الجبرية نشأ من عدم تفريقهم ـ في حق الله تعالى ـ بين الفعل والمفعول، وقولهم: إن الفعل هو المفعول؛ لأنهم في الصفات معطلة، فليس لله تعالى ـ عندهم ـ فعل يقوم به، وقد جعلوا أفعال العباد فعلا لله، والفعل ـ عندهم ـ هو المفعول، فامتنع مع هذا أن يكون فعلاً للعبد، لئلا يكون فعل واحد له فاعلان[(٣)]، ولزمهم في هذا القول مفعول لا لفاعل في الحقيقة، فإنّ العبد ـ عندهم ـ ليس بفاعل حقيقة، والفاعل هو الله، وأفعال الإنسان قائمة به لم تقم بالله تعالى، فإذا لم يكن الإنسان فاعلها مع قيامها به، فكيف يكون الله سبحانه هو فاعلها؟ ولو كان فاعلها لعادت أحكامها عليه، واشتقت له منها أسماء، وذلك مستحيل على الله، فيلزمهم أن تكون أفعالاً لا فاعل لها، فإن العبد ليس بفاعل عندهم، ولو كان الرب فاعلاً لها لاشتقت له منها أسماء، وعاد حكمها عليه، والحق أنها أفعال للعباد حقيقة، ومفعولة للرب تعالى، والفعل غير المفعول، وهذا إجماع من أهل السنة والجماعة، فالعبد فاعل حقيقة، والله خالقه وخالق ما فعل به من القدرة والإرادة ، وخالق فاعليته.

وسر المسألة أن الرب سبحانه فاعل غير منفعل، والعبد فاعل

---

(١) انظر: التدمرية ص٢٠٧ ـ ٢٠٨، وطريق الهجرتين ص١٦٢، والدرة البهية، للسعدي ص١٥، ١٦.

(٢) انظر: الدرة البهية، للسعدي ص١٦.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٨/ ٤٦٨.

منفعل باعتبارين، وهو في فاعليته منفعل للفاعل الذي لا ينفعل بوجه. فالجبرية شهدوا كونه منفعلاً يجري عليه الحكم بمنزلة الآلة والمحل، وجعلوا حركته بمنزلة حركات الأشجار، ولم يجعلوه فاعلاً إلا على سبيل المجاز، ونظروا بعين عوراء. وأهل السنة والجماعة أعطوا كلا المقامين حقه، ولم يبطلوا أحد الأمرين بالآخر، فاستقام لهم نظرهم وعملهم واعتقادهم[(١)].

خامساً: أن العبد فاعل على الحقيقة، وله مشيئة ثابتة، وله إرادة جازمة، وقوة صالحة، وقد نطق القرآن بإثبات مشيئة العباد في غير ما آية، كقوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩] ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٩].

ونطق بإثبات الأفعال إلى العبد باسمها العام وأسمائها الخاصة، فالاسم العام، كقوله تعالى: ﴿تَعْمَلُونَ﴾، ﴿تَفْعَلُونَ﴾، ﴿تَكْسِبُونَ﴾. والأسماء الخاصة: ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ﴿يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، ﴿يُؤْمِنُونَ﴾، ﴿يَتُوبُونَ﴾، ﴿يَكْفُرُونَ﴾، ﴿يَتَّقُونَ﴾[(٢)]. وهذه النصوص الكثيرة التي لا يمكن حصرها في الكتاب والسنة فيها ردّ صريح لعقيدة الجبرية.

وكما أن أهل السنة والجماعة فارقوا مجوس الأمة بإثبات أن الله تعالى خالق لكل شيء من أفعال العباد وغيرها، كذلك فارقوا الجبرية بإثبات أن العبد فاعل كاسب عامل مريد، وبالتفريق بين أفعال الإنسان الاختيارية وأفعاله الاضطرارية، وكل عاقل يجد تفرقة بديهية بين قيام الإنسان وقعوده وصلاته وجهاده، وزناه وسرقته، وبين انتعاش المفلوج، وانتفاض المحموم، ويعلم أن الأول قادر على الفعل مريد

---

(١) انظر: شفاء العليل: ١/ ٣٣٠، ٣٣٩.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٨/ ٣٩٣، وشفاء العليل: ١/ ٣٣٠.

له مختار، وأن الثاني قادر عليه لا مريد له ولا مختار.

وبما بين القسمين من الفرقان انقسمت الأفعال إلى اختاري واضطراري، واختص المختار منها بإثبات الأمر والنهي عليه دون المضطر منه.

وهذا مما يبين أن مذهب الجبرية ظاهر الفساد شرعاً وعقلاً[(١)].

سادساً: أن الجبر مناف للشرائع منافاة ظاهرة لا خفاء فيها، فإن مبنى الشرائع على الأمر والنهي، والثواب والعقاب، وأمر الآمر بفعل نفسه لا بفعل المأمور، ونهيه عن فعله لا فعل المنهي عبث ظاهر، فإن متعلق الأمر والنهي فعل العبد وطاعته ومعصيته، فمن لا فعل له كيف يتصور أن يوقعه بطاعة أو معصية؟ وإذا ارتفعت حقيقة الطاعة والمعصية ارتفعت حقيقة الثواب والعقاب، وكان ما يفعله الله بعباده يوم القيامة من النعيم والعذاب أحكاماً جارية عليهم بمحض المشيئة والقدرة، لا أنها بأسباب طاعاتهم ومعاصيهم[(٢)].

فشهود أفعال العباد ونسبتها إليهم قياماً ومباشرة وصدوراً منهم من تمام الإيمان بالشرع والجزاء، والقدح في ذلك مستلزم لإبطال الشرع والجزاء[(٣)].

سابعاً: أن الجبر مناف للحمد، فإن الحمد من لوازم الحكمة، والحكمة إنّما تكون في حقّ من يفعل شيئاً لشيء، فيريد بما يفعله الحكمة الناشئة من فعله، فأما من لا يفعل شيئاً لشيء البتة، فلا يتصور في حقه الحكمة.

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٨/ ٣٩٣ ـ ٣٩٤.
(٢) انظر: شفاء العليل، لابن القيم: ١/ ٣٥٢ ـ ٣٥٣.
(٣) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم: ٢/ ٢٧٢ ـ ٢٧٣.

والجبرية يقولون: ليس في أفعاله سبحانه وأحكامه حكم ولا غايات، وما اقترن بمفعولاته من قوى وطبائع ومصالح فإنما اقترنت بها اقتراناً عادياً، لا أن هذا كان لأجل هذا، ولا نشأ السبب لأجل المسبب، بل لا سبب عندهم ولا مسبب البتة، إن هو إلا محض المشيئة وصرف الإرادة التي ترجح مثلاً على مثل، بل لا مرجح أصلاً[(١)].

فعلى قول هؤلاء يمتنع أن يحمد على ما فعله لأمر ما حصل للعباد من نفع، فهو سبحانه لم يقصد بما خلقه نفعهم، ولا خلقه لنفعهم ومصالحهم، بل إنما أراد مجرّد وجوده لا لأجل كذا، ولا لنفع أحد ولا لضره، فكيف يتصور في حقّ من يكون فعله ذلك حمد؟ فلا يحمد على فعل عدل، ولا على ترك ظلم؛ لأن الظلم ـ عندهم ـ هو الممتنع الذي لا يدخل في المقدور، ولا يتصور فيه ترك اختياري، فلا يتعلق به حمد، وإخباره عن نفسه بقيامه بالقسط حقيقته عندهم مجرد كونه فاعلاً، لا أن هناك شيئاً هو قسط في نفسه يمكن وجود ضده، وكذلك إخباره عن نفسه بأنه ليس بظلام للعبيد، هو عندهم نفي لما هو مستحيل في نفسه لا حقيقة له، كجعل الجسم في مكانين في آن واحد، وجعله موجوداً معدوماً في آن واحد، فهذا ونحوه هو الظلم الذي تنزه عنه، وليس هناك ممكن يكون ظلماً في نفسه وقد تنزه عنه. ومعلوم أنه لا يمدح الممدوح بترك ما لو أراده لم يقدر عليه.

والذي أوجب للجبرية هذا مناقضة القدرية المجوسية، وردّ أصولهم، لكن ردوا باطلاً بباطل، وقابلوا بدعة ببدعة[(٢)].

ثامناً: أن الجبر مناف للتوحيد، وهذه المنافاة من أظهر الأمور، وبيان ذلك: أن أصل عقد التوحيد وإثباته هو شهادة أن لا إله إلا الله،

---

(١) انظر: طريق الهجرتين، لابن القيم ص٢٠٧.

(٢) انظر: المصدر السابق ص٢٠١ ـ ٢٠٩.

وأن محمداً رسول الله. والجبر ينافي الكلمتين، فإن الإله هو المستحق لصفات الكمال، المنعوت بنعوت الجلال، وهو الذي تألهه القلوب، وتصمد إليه بالحب والخوف والرجاء.

فالتوحيد الذي جاءت به الرسل هو إفراد الرب تعالى بالتأله الذي هو كمال الذل والخضوع والانقياد له، مع كمال المحبة والإنابة وبذل الجهد في طاعته ومرضاته، وإيثار محابه ومراده الديني على محبة العبد ومراده، فهذا أصل دعوة الرسل، وإليه دعوا الأمم، وهو التوحيد الذي لا يقبل الله من أحد ديناً سواه، وهو الذي أمر به رسله، وأنزل به كتبه، ودعا إليه عباده، ووضع الثواب والعقاب لأجله، وشرع الشرائع لتكميله وتحصيله.

والجبري يقول: إن العبد لا قدرة له على هذا البتة، ولا أثر له فيه، ولا هو فعله، وأمره بهذا أمر له بما لا يطيق، بل أمر له بإيجاد فعل الرب، وإن الرب سبحانه أمره بذلك وأجبره على ضده، وحال بينه وبين ما أمره به، ومنعه منه، وصده عنه، ولم يجعل له إليه سبيلاً بوجه من الوجوه. ويقول: إنه تعالى لا يُحِبّ ولا يُحَبّ، فلا تألهه القلوب بالمحبة والطلب وإرادة وجهه. والتوحيد معنى ينتظم من إثبات الإلهية وإثبات العبودية، فرفع معنى الإلهية بإنكار كونه محبوباً مودوداً تتنافس القلوب في محبته وإرادة وجهه والشوق إلى لقائه، ورفع حقيقة العبودية بإنكار كون العبد فاعلاً وعابداً ومحباً، فضاع التوحيد بين الجبر وإنكار محبته وإرادة وجهه.

وبهذا يعلم أن الجبري زعم أنه يقرر التوحيد بقوله، وقد قلع شجرة التوحيد من أصلها[1].

تاسعاً: أن القدرية المجبرة من جنس المشركين، كما أن القدرية النفاة من جنس المجوس، فالمجبرة يضاهون المشركين الذين لا يفرقون

(١) انظر: شفاء العليل: ١/٣٥١ ـ ٣٥٢.

بين عبادة الله تعالى وعبادة غيره، بل يجوزون عبادة غيره كما يجوزون عبادته، ومنتهى توحيدهم توحيد المشركين، وهو توحيد الربوبية، فأما توحيد الإلهية المتضمن للأمر والنهي، ولكون الله يحب ما أمر به، ويبغض ما نهى عنه، فهم ينكرونه، ولهذا هم أكثر اتباعاً لأهوائهم، وأكثر شركاً وتجويزاً له من المعتزلة القدرية(١).

والمقصود: أن قول القدرية الجهمية المجبرة أعظم مناقضة لما جاءت به الرسل من قول القدرية النفاة، ولهذا لم يكن هؤلاء مظهرين لهذا القول في زمن السلف، بل كلما ضعف نور النبوة أظهروا حقيقة قولهم، فإنه من جنس قول المشركين المكذبين للرسل، ومنتهاهم الشرك وتكذيب الرسل، وهذا جماع الكفر، كما أن التوحيد وتصديق الرسل جماع الإيمان(٢).

عاشراً: أن الأدلة الشرعية التي حاول الجبرية الاحتجاج بها لتصحيح مقالتهم لا تدل على مرادهم، وإنما تدل على بطلان مقالة القدرية النفاة الذين هم خصوم الجبرية ومعارضوهم، كما أن الأدلة التي يحتج بها القدرية لا تدل على مرادهم، وإنما تدل على بطلان مقالة الجبرية.

فكل واحدة من هاتين الطائفتين المنحرفتين تركت نوعاً من الحق، وارتكبت لأجله نوعاً من الباطل، بل أنواعاً. وهدى الله أهل السنة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣](٣).

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٣/٢١٣.

(٢) انظر: المصدر السابق: ١٣/٢٢٥.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٣/٢٢٦ ـ ٢٢٧، وشفاء العليل، لابن القيم: ١/١٥٠ ـ ١٥٢، ومدارج السالكين، له: ١/١١٦، والدرة البهية، للسعدي ص٩٤.

الفصل السادس

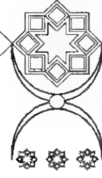
الردّ على تسبيح الوعيديّة

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: التعريف بالوعيدية.

المبحث الثاني: مفهوم التسبيح عند الوعيدية.

المبحث الثالث: إبطال تسبيح الوعيدية.

المبحث الأول

التعريف بالوعيدية

أولاً: الوعيدية في اللغة:

الوعيدية: نسبة إلى الوعيد، والوعيد ـ في اللغة ـ: التهديد، وهو ضدّ الوعد. والعرب تقول ـ في الخير ـ: وعده. و ـ في الشر ـ: أوعده[(١)].

ثانياً: الوعيدية في الاصطلاح:

الوعيدية: هم القائلون بإنفاذ الوعيد والتخليد في النار لمن دخلها، ولا يرون اعتقاد خروج أهل الكبائر من النار، ولا قبول الشفاعة فيهم[(٢)].

ثالثاً: طوائف الوعيدية:

عرفت مقالة الوعيدية عن فرقتين من الفرق المنتسبة إلى الإسلام، وهما:

١ ـ الخوارج:

وهذا لقب لكل من خرج على الإمام الحقّ الذي اتّفقت

(١) انظر: القاموس المحيط، للفيروز آبادي، مادة (وعد) ص٤١٦.

(٢) انظر: الملل والنحل، للشهرستاني: ١/ ١١٤، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٨/٢٢٨، و١٤/ ٣٤٧ و٢٠/١٠٥، والصواعق المرسلة، لابن القيم: ٢/ ٤٥٤.

الجماعة عليه، سواء كان الخروج في أيام الصحابة على الأئمة الراشدين، أو كان بعدهم على التابعين بإحسان، والأئمة في كل زمان[١].

وأطلق هذا اللقب أولاً ـ في الإسلام ـ على الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وفارقوه، وفارقوا جماعة المسلمين. وكان ذلك بعد حادثة التحكيم في وقعة صفين بين الفئتين المقتتلتين من المسلمين[٢].

وقد أرسل عليٌّ ابن عباس رضي الله عنهم إليهم فناظرهم، فرجع نصفهم، وبقي الآخرون منهم على الخروج[٣].

ثم صاروا فرقة قائمة برأسها، وهم من أوائل الفرق المبتدعة ظهوراً في الإسلام[٤].

وقد افترقت الخوارج ـ بعد ـ إلى فرق متعددة[٥]، وصارت لهم ألقاب مختلفة[٦]، وآراء متباينة، ولكنهم متفقون على مقالات، منها:

القول بتكفير صاحب الكبيرة من أهل التوحيد، وتخليده في النار، وأن من لم يقل بقولهم فهو كافر[٧].

---

(١) انظر: الملل والنحل: ١/ ١١٤.
(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠/ ٣٥٦ و١٣/ ٣٢، ٢٠٨.
(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٣/ ٢٠٨.
(٤) انظر: المصدر السابق: ١٠/ ٣٥٦ و١٣/ ٣٢، ٢٠٨.
(٥) انظر: الفرق بين الفرق، للبغدادي ص٧٨.
(٦) انظر: مقالات الإسلاميين، للأشعري: ١/ ٢٠٦ ـ ٢٠٧.
(٧) انظر: المصدر السابق: ١/ ١٦٧ ـ ١٦٨، والفرق بين الفرق ص٧٨ ـ ٧٩، والحجة في بيان المحجة، لأبي القاسم التيمي: ٢/ ٤٧٩، والملل والنحل، للشهرستاني: ١/ ١١٤، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٣/ ٣٧.

٢ ـ المعتزلة:

فإن من أصول المعتزلة القول بإنفاذ الوعيد، ومعناه ـ عندهم ـ: أن فسّاق الملة مخلّدون في النار، لا يخرجون منها بشفاعة ولا غير ذلك، كما تقوله الخوارج[١].

وقال الإمام الأشعري: «وأما الوعيد، فقول المعتزلة فيه وقول الخوارج قول واحد، لأنهم يقولون: إن أهل الكبائر الذين يموتون على كبائرهم في النار خالدين فيها مخلدين، غير أن الخوارج يقولون: إن مرتكبي الكبائر ممن ينتحل الإسلام يعذّبون عذاب الكافرين، والمعتزلة يقولون: إن عذابهم ليس كعذاب الكافرين» اهـ[٢].

فالخوارج والمعتزلة يوجبون إنفاذ الوعيد في أصحاب الكبائر من أهل القبلة.

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٣/ ٣٨٧ و١٤/ ٢٢٨.

(٢) مقالات الإسلاميين: ١/ ٢٠٤. وانظر: الفرق بين الفرق ص١١٦، والملل والنحل: ١/ ٤٥.




المبحث الثاني

مفهوم التّسبيح عند الوعيديّة

والوعيدية من الخوارج والمعتزلة أرادوا بمقالتهم في وجوب إنفاذ الوعيد تنزيه الله تعالى عن الكذب وعن الإخلاف في الوعيد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وكذلك هم ـ يعني المعتزلة ـ والخوارج قالوا بإنفاذ الوعيد، ليثبتوا أن الربّ صادق لا يكذب، إذ كان ـ عندهم ـ قد أخبر بالوعيد العام، فمتى لم يقل بذلك لزم كذبه، وغلطوا في فهم الوعيد»(١).

وذكر الإمام ابن قيم الجوزية أن الوعيدية «حجرت على الرب تعالى بعقولها الفاسدة أن يترك حقّه ويعفو عن من يشاء من أهل التوحيد، وأوجبوا عليه أن يعذّب العصاة ولا بدّ، وقالوا: إن العفو عنهم وترك تعذيبهم إخلال بحكمته، وطعن في خبره»(٢).

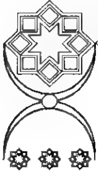
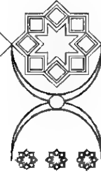
وعلى هذا فالوعيدية يقيسون إخلاف الوعيد على إخلاف الوعد في كونه مذموماً، ويتمسكون بما أخبر الله تعالى عن نفسه أنه ﴿لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩، الرعد: ٣١]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾ [ق: ٢٨، ٢٩].

ولكن هذا التنزيه الذي أراد الوعيدية تقريره لا يصحّ، بل هو باطل، كما سيتبيّن في المبحث التالي.

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٣/ ٩٨.

(٢) الصواعق المرسلة: ٢/ ٦٩١.

المبحث الثالث

إبطال تسبيح الوعيديّة

وبطلان مقالة الوعيدية وما ادّعوه من التنزيه معلوم من عدة أوجه، منها:

أولاً: أن قول الوعيدية تكذيب بما أخبر الله تعالى به من مغفرته ورحمته، وإخراجه أهل الكبائر من النار بالشفاعة وغيرها[(١)]، والأدلة على ذلك كثيرة ومستفيضة في الكتاب والسنة.

وقد اتفق أهل السنة والجماعة على إثبات الشفاعة لأهل الكبائر، وعلى أنه لا يخلد في النار من أهل التوحيد أحد، ولهذا كان الوعيدية مبتدعة ضلالاً، لمخالفتهم عقيدة أهل السنة والجماعة التي جاء بها كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ[(٢)].

ثانياً: أن الكتاب والسنة فيهما وعد ووعيد، والعبد عليه أن يصدّق بهذا وبهذا، كما عليه أهل السنة والجماعة، خلافاً للوعيدية، فإنهم أرادوا أن يصدّقوا بالوعيد دون الوعد.

وما توعّد الله به العبد من العقاب، قد بيّن سبحانه أنه بشروط: بأن لا يتوب، فإن تاب تاب الله عليه. وبأن لا تكون له حسنات تمحو ذنوبه، فإن الحسنات يذهبن السيّئات. وبأن لا يشاء الله أن يغفر له،

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/٢٠٤ ـ ٢٠٥.

(٢) انظر: مقالات الإسلاميين، للأشعري: ٢/١٦٦، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١/١٠٤، ١٠٨، ١١٦.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨ و١١٦][(١)].

وهذه الآية استدلّ بها أهل السنة والجماعة على جواز المغفرة لأهل الكبائر في الجملة، خلافاً لمن أوجب نفوذ الوعيد بهم من الخوارج والمعتزلة[(٢)].

وفي الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كنا نوجب لأهل الكبائر النار حتى نزلت هذه الآية على النبي ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾. فنهانا رسول الله ﷺ أن نوجب لأحد من أهل الدين النار»[(٣)].

وهكذا الوعد له تفسير وبيان، فمن قال بلسانه: لا إله إلا الله، وكذّب الرسول ﷺ فهو كافر باتفاق المسلمين، وكذلك إن جحد شيئاً مما أنزل الله.

فلا بد من الإيمان بكلّ ما جاء به الرسول ﷺ، ثم إن كان من أهل الكبائر فأمره إلى الله، إن شاء عذّبه، وإن شاء غفر له، فإن ارتدّ عن الإسلام ومات مرتدّاً كان في النار، فالسّيئات تحبطها التوبة، والحسنات تحبطها الردّة، ومن كانت له حسنات وسيّئات فإن الله لا يظلمه، بل من يعمل مثقال ذرّة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرًّا يره، والله تعالى قد يتفضّل عليه، ويحسن إليه بمغفرته ورحمته[(٤)].

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٨/ ٢٧٠ ـ ٢٧١.

(٢) انظر: المصدر السابق: ١٨/ ١٩١.

(٣) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة ص٤٥٧ ـ ٤٥٨، برقم (٩٧٣). وقال الألباني ـ في ظلال الجنة ـ: «إسناده جيد، رجاله كلهم ثقات».

(٤) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٨/ ٢٧١.

ثالثاً: أن الوعيدية يصفون الله تعالى بالظلم، مع دعواهم تنزيهه عن الظلم، فإنهم يقولون: إنه تعالى يحبط الحسنات العظيمة بالذنب الواحد، ويخلد عليه في النار، وهذا من الظلم الذي نزّه الله سبحانه نفسه عنه، فإنه تعالى لم يجعل شيئاً يحبط جميع الحسنات إلا الكفر، كما أنه لم يجعل شيئاً يحبط جميع السيئات إلا التوبة[١].

رابعاً: أن الموجب لضلال الوعيدية سوء فهمهم للقرآن، فهم ـ وإن لم يقصدوا معارضته ـ لكن فهموا منه ما لم يدلّ عليه، فظنّوا أنه يوجب تكفير أرباب الذنوب، إذ كان المؤمن هو البرّ التقيّ. قالوا: فمن لم يكن برًّا تقيًّا، فهو كافر، وهو مخلّد في النار[٢].

وهم ـ في سوء فهمهم هذا ـ إنما أتوا من جهة عدم اتّباعهم للسنة، وعدم إيمانهم بما دلّت عليه من الرحمة للمؤمن وإن كان ذا كبيرة[٣].

فقد استفاضت الأحاديث النبوية في خروج عصاة الموحّدين من النار ودخولهم الجنة. وذكر أهل العلم أن الوعيد يزول عن العبد بنحو عشرة أسباب عرفت ـ بالاستقراء ـ من الكتاب والسنة، وهي ـ بإيجاز ـ: التوبة، والاستغفار، والحسنات الماحية، ودعاء المؤمنين واستغفارهم في الحياة وبعد الممات، وما يعمل للميت من أعمال البر، والمصائب الدنيوية، وعذاب القبر، وأهوال يوم القيامة، وشفاعة الشافعين، وعفو أرحم الراحمين من غير شفاعة[٤].

خامساً: أن عدم تعذيب الله تعالى من غفر له من عصاة الموحدين

---

(١) انظر: المصدر السابق: ٦/ ٢٠٤ و٧/ ٤٩٣ و٨/ ٩٢.
(٢) انظر: المصدر نفسه: ١٣/ ٣٠.
(٣) انظر: المصدر نفسه: ٢٠/ ١١٠ ـ ١١١.
(٤) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٧/ ٤٨٧ ـ ٥٠١، وشرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز: ٢/ ٤٥١ ـ ٤٥٥.

المتوعدين ليس من إخلاف الوعيد في شيء، بل هو عفو ومغفرة، ولهذا يروى: «أن أعرابياً خرج من خيمته، فوقف على بابها، ثم رفع يديه، فقال: إلهي، إن استغفاري لك مع إصراري للؤم، وإن تركي الاستغفار مع سعة رحمتك لعجز، إلهي، كم تحبب إليّ وأنت عنّي غنيّ، وكم أتبغّض إليك وأنا إليك فقير، فسبحان من إذا وعد وفّى، وإذا توعّد عفا»[(١)].

وذلك لأن الوعيد إنّما ينفذ بانتفاء الأسباب المانعة من إنفاذه، وزوال الوعيد ببعض هذه الأسباب هو من كرم الله تعالى وعفوه ورحمته، وهو مما يمدح به تبارك وتعالى ويثنى عليه به، فإنه حقّ له إن شاء تركه وإن شاء استوفاه.

وفي الحديث عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من وعده الله على عمل ثواباً فهو منجزه له، ومن وعده على عمل عقاباً فهو فيها بالخيار**»[(٢)].

وهذا كله مما يتبيّن به أن الوعيدية قد جانبوا التنزيه في إيجابهم إنفاذ الوعيد على الله تعالى، وأن قولهم هذا معلوم الفساد شرعاً وعقلاً.

وبالجملة: «فوعده تبارك وتعالى للمؤمنين المطيعين صدق، ووعيده للكفار والمشركين حقّ، ومن مات من المؤمنين مصرًّا على ذنبه فهو في مشيئته وخياره، وليس لأحد أن يتسوّر على الله في علم غيبه بجحود قضائه، فيقول: أبى ربك أن يغفر للمصرّين، كما أبى أن يعذب التائبين، ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم»[(٣)].

---

(١) رواه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة: ٣/ ١٠٨١، برقم (٢٠٢٩).

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة ص٤٥٢، برقم (٩٦٠)، وهو حديث حسن لشواهده. وانظر: ظلال الجنة، للألباني، والسلسلة الصحيحة، له، برقم (٢٤٦٣).

(٣) مقتبس من: أصول السنة، لابن أبي زمنين ص٢٥٧.

الفصل السابع

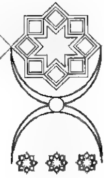
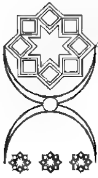
الرد على تسبيح الصوفية

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: التعريف بالصوفية.

المبحث الثاني: مفهوم التسبيح عند الصوفية.

المبحث الثالث: إبطال تسبيح الصوفية.

المبحث الأول

التعريف بالصوفيّة

أولاً: الصوفية في اللغة:

يعدّ اسم (الصوفية) من أسماء النَّسب، واللفظ الذي نُسب إليه هذا الاسم لا يعرف بالتحديد[١]، بل الأقوال فيه متعددة[٢]، وأكثر تلك الأقوال لا يستقيم من حيث قاعدة النّسب في اللغة، ولا من حيث المعاني التي علّل بها[٣].

ورجح بعض المحققين نسبة الصوفية إلى الصوف[٤]، ولا يعني ذلك أن طريق القوم مقيّد بالصوف، ولكن لأن هذه النسبة هي الأقوم لغةً، وأظهر حالاً، إذ كان الصوف غالب لباس من يدّعي الزّهد[٥].

ثانياً: الصوفية في الاصطلاح:

وكما أنه ليس للصوفية معنى محدّد في اللغة، كذلك ليس له في

---

(١) انظر: الرسالة القشيرية ص١٢٦.

(٢) انظر: المصدر السابق، وتلبيس إبليس، لابن الجوزي ص١٦١ ـ ١٦٢، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٣٦٩/١٠ و٦/١١، ١٩٥.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٣٦٩/١٠ و٦/١١، ١٩٥، والفرقان بين أولياء الرحمٰن وأولياء الشيطان ص١٣٠.

(٤) انظر: الفرقان بين أولياء الرحمٰن وأولياء الشيطان ص١٢٩، ومقدمة ابن خلدون ص٤٦٧.

(٥) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٦/١١.

الاصطلاح تعريف محدّد[١].

والمعلوم أن اسم (الصوفية) يُطلق على فريق ممن ينتسب إلى الإسلام، ولهذا الفريق سلوك خاصّ يعبّر عنه بالتّصوّف. فالتصوف هو المذهب، والصوفية اسم لأتباع هذا المذهب.

ويظهر أن السبب في عدم وجود تعريف محدّد للصوفية والتصوف، هو أن المعروفين بهذا الاسم والمنتمين لهذا المذهب ليس لهم أصول عقدية معيّنة تجمعهم، كما هو الشأن في معظم الفرق المبتدعة التي تنتسب إلى الإسلام، ولهذا أهمل ذكرهم كثير ممن كتب في الفرق[٢].

وقد عقد ابن حزم في كتابه (الفصل) فصلاً بعنوان: «ذكر شنع لقوم لا تعرف فرقهم»، وقال فيه: «ادّعت طائفة من الصوفية أن في أولياء الله تعالى من هو أفضل من جميع الأنبياء والرسل، وقالوا: من بلغ الغاية القصوى من الولاية سقطت عنه الشرائع كلها، من الصلاة والصيام والزكاة وغير ذلك، وحلّت له المحرمات كلها، من الزنا والخمر وغير ذلك، واستباحوا بهذا نساء غيرهم، وقالوا: إننا نرى الله ونكلّمه، وكل ما قذف في نفوسنا فهو حق» اهـ[٣].

وقال ابن الجوزي[٤]: «الصوفية من جملة الزهاد، وقد ذكرنا

---

(١) ليس للصوفية أنفسهم تعريف واحد يحدّد مفهوم التصوف عندهم، بل لهم في ذلك عبارات كثيرة مختلفة.
وانظر: عوارف المعارف، للسهروردي ص٥٤، والتعريفات، للجرجاني ص٨٣ ـ ٨٤.

(٢) انظر: اعتقادات فرق المسلمين، للرازي ص٧٢.

(٣) الفصل في الملل والأهواء والنحل: ٥/٩٧.

(٤) هو عبد الرحمٰن بن علي بن محمد بن علي القرشي التيمي البكري، =

تلبيس إبليس على الزهاد، إلا أن الصوفية انفردوا عن الزهاد بصفات وأحوال، وتوسموا بسمات، فاحتجنا إلى إفرادهم بالذكر.

والتصوّف طريقة كان ابتداؤها الزهد الكلّيّ، ثمّ ترخّص المنتسبون إليها بالسماع(١)، والرقص، فمال إليهم طلّاب الآخرة من العوام لما يظهرونه من التزهّد، ومال إليهم طلّاب الدنيا لما يرون عنده من الراحة واللعب، فلا بدّ من كشف تلبيس إبليس عليهم» اهـ(٢).

وقال أبو الفضل السكسكي(٣): إن الصوفية ينتسبون إلى أهل السنة وليسوا منهم، فقد خالفوهم في الاعتقاد والأفعال والأقوال. ثم أشار إلى شيء من مخالفاتهم(٤).

فهذا بعض ما ذكره من كتب في الفرق عن الصوفية، ومنه يتبيّن أن الصوفية: هي إحدى الفرق المبتدعة التي أحدثت في الإسلام أقوالاً

= أبو الفرج، جمال الدين، البغدادي، الحنبلي، كان عالماً حافظاً وواعظاً بارزاً، وله تصانيف في فنون العلم، وتوفي سنة (٥٩٧هـ) رحمه الله.
انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي: ٤/١٣٤٢ ـ ١٣٤٧، والبداية والنهاية، لابن كثير: ١٣/٣١ ـ ٣٢.

(١) السماع ـ عند الصوفية ـ: هو ما ينشدونه في مجالسهم من القصائد والأشعار التي استبدلوها بسماع الآيات القرآنية والأحاديث النبوية. وللسماع عندهم وضع خاص، ولهم فيه أقوال كثيرة. وانظر: الرسالة القشيرية ص١٥١ ـ ١٥٨، وعوارف المعارف، للسهروردي ص١٧٣ ـ ٢١٢.

(٢) تلبيس إبليس ص١٦٠.

(٣) هو عباس بن منصور بن عباس التريمي السكسكي، أبو الفضل، اليمني، الحنبلي، وقيل: الشافعي، كان أصولياً متكلماً، وكان قاضياً في تعز من مدن اليمن، وتوفي سنة (٦٨٣هـ) رحمه الله.
انظر: الأعلام، للزركلي: ٣/٢٦٨، ومعجم المؤلفين، لكحالة: ٢/٣٥ ـ ٣٦.

(٤) انظر: البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان ص١٠١ ـ ١٠٥.

وأفعالاً واعتقادات خالفوا بها الكتاب والسنة وما كان عليه سلف الأمة.

ولقد صارت الصوفية ـ مع مرور الزمن ـ فرقة كبيرة واضحة المعالم ظاهرة المفاسد في دين كثير من المسلمين.

ثالثاً: نشأة الصوفية في الإسلام:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «أما لفظ (الصوفية) فإنه لم يكن مشهوراً في القرون الثلاثة، وإنما اشتهر التكلم به بعد ذلك»[(١)].

وذكر ـ في موضع آخر ـ أنه لما انقرض جمهور تابعي التابعين في أوائل الدولة العباسيّة، وعرّب بعض الكتب العجمية، حدث ـ في الأمة الإسلامية ـ ثلاثة أشياء: الرأي، والكلام، والتصوّف[(٢)].

كما ذكر أن أول ما ظهر الصوفية من البصرة، وأن أول من بنى دويرة الصوفية في الإسلام هو أحمد بن علي الهجيمي[(٣)] الذي صحب عبد الواحد بن زيد[(٤)]، وعبد الواحد صحب الحسن البصري[(٥)].

وينبغي أن يعلم أن بدعة الصوفية كانت في أول نشأتها قاصرة على ناحية التعبّد، فكانوا يجتمعون في دويرة لهم للسماع والصوت حتّى إن أحدهم يموت أو يغشى عليه[(٦)].

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١١/ ٥.

(٢) انظر: المصدر السابق: ١٠/ ٣٥٧ ـ ٣٥٨.

(٣) قال الذهبي: (أحمد بن عطاء الهجيمي البصري الزاهد. قال الدارقطني: متروك) [ميزان الاعتدال: ١/ ١١٩].

(٤) هو عبد الواحد بن زيد البصري الزاهد، شيخ الصوفية وواعظهم، متكلم فيه في الحديث، ولم تذكر سنة وفاته. انظر: ميزان الاعتدال: ٢/ ٦٧٢ ـ ٦٧٣.

(٥) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠/ ٣٥٨ ـ ٣٥٩.

(٦) انظر: المصدر السابق: ١٠/ ٣٥٩.

وكان المتقدمون الذين وضعوا طريق التصوف يخلطون ذلك بأصول من الكتاب والسنة والآثار، إذ العهد قريب، وأنوار الآثار النبوية بعد فيها ظهور، ولها برهان عظيم، وإن كان عند بعض الناس قد اختلط نورها بظلمة غيرها[1].

ثم تشعبت بدعة الصوفية وتنوّعت، وصارت عقائد وأقوالاً وأعمالاً شديدة البعد عن الكتاب والسنة وآثار السلف، بالغة الخطورة في الدين. بل صار التصوف مجالاً لكلّ دجّال وملحد وزنديق يبثّ منه سمومه في الأمة الإسلامية، ويتوصل به إلى أغراضه الدنيئة.

رابعاً: أصناف الصوفية:

ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن الصوفية ثلاثة أصناف: صوفية الحقائق، وصوفية الأرزاق، وصوفية الرسم.

فأما صوفية الحقائق: فهم الذين لهم أوضاع معيّنة في الكلام، ولهم طرق خاصّة في التعبّد وتربية النفس.

وأما صوفية الأرزاق: فهم الذين وقفت عليهم الوقوف، ولا يشترط فيهم أن يكونوا من أهل الحقائق، بل يشترط فيهم التأدب بآداب أهل الطريق.

وأما صوفية الرسم: فهم المقتصرون على النسبة، فهمّهم في اللباس والآداب الوضعية، فهؤلاء في الصوفية بمنزلة الذي يقتصر على زيّ أهل العلم ونوع ما من أقوالهم وأعمالهم، بحيث يظنّ الجاهل بحقيقة أمره أنه منهم، وليس منهم[2].

---

(١) انظر: المصدر نفسه: ١٠/٣٦٦ ـ ٣٦٧.

(٢) انظر: المصدر نفسه: ١١/١٨ ـ ٢٠.

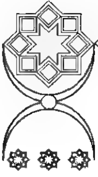
ويمكن تقسيم الصوفية ـ في الجملة ـ إلى اتجاهين:

١ ـ اتجاه عمليّ، يتمثّل فيما أحدثوه من الشعائر التعبّديّة والمظاهر السلوكية، والأحوال القلبيّة.

٢ ـ واتجاه كلاميّ، يتمثل فيما أحدثوه من النظريات العقدية، والإشارات الباطنية، والعبارات الشّطحيّة.

وهذان الاتجاهان نتجت عنهما مصطلحات صوفية كثيرة، كما نشأت عنهما طرق صوفية عديدة، نسب أتباع كلّ طريقة إلى شيخهم المؤسس.

وقد انتشرت الطرق الصوفية في طول البلاد الإسلامية وعرضها، وأثّرت على كثير من المسلمين لجهلهم بحقيقة الصوفية وبأصولها البدعية المنافية للإسلام، أو لأسباب أخرى.




المبحث الثاني

مفهوم التسبيح عند الصوفية

إن الصوفية ـ كما سبق بيانه ـ لا يجمعهم مذهب واحد، بل لهم مذاهب مختلفة، لكن مذاهب الصوفية ـ على اختلافها ـ تشترك في أنها متلقّاة من مصادر منافية للإسلام، يرجع معظمها إلى عقائد الأمم الشركية ومسالكهم، وإلى آراء الطوائف الفلسفية ومناهجهم.

كما أن الصوفية ـ بالإضافة إلى تصوّفهم الذي هو بدعة برأسه ـ يعتقد كثير منهم عقائد بعض الفرق المبتدعة في الإسلام، كالممثلة، والمعطّلة، والجبريّة، والباطنيّة.

وهذا التداخل والتمازج في العقائد والمسالك ولّد لدى الصوفية مفاهيم عديدة وغريبة في التسبيح والتوحيد اعتقاداً وقولاً وعملاً.

فأهل الكلام والفلسفة من الصوفية يقرّرون التسبيح والتوحيد بنفي التكثّر والتّعدّد عن الوجود بكل اعتبار[(١)]، وإثبات أنّ الوجود واحد وليس وجودين: خالق ومخلوق، وواجب وممكن، بل الوجود واحد بالعين[(٢)]، فيجعلون وجود الخالق عين وجود المخلوقات، ووجود المخلوقات عين وجود الخالق، وليس للخالق عندهم وجود مباين

---

(١) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم: ١/ ١٧٤.

(٢) انظر: المصدر السابق، الموضع نفسه، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢/ ١١٢، والصواعق المرسلة، لابن القيم: ٣/ ٩٣١ ـ ٩٣٢.

لوجود المخلوقات منفصل عنها أصلاً[(١)]، بل عندهم لا وجود سوى وجود الله تعالى أزلاً وأبداً وحالاً، فليس في الوجود إلا الله وحده، وليس ثمّ غير ولا سوى في نفس الأمر، وكلّ ما تراه وتلمسه وتذوقه وتشمّه وتباشره، فهو حقيقة الله وماهيته[(٢)].

فهذا هو التسبيح والتوحيد عند هذا الصنف من الصوفية[(٣)]، ويسمون أهل وحدة الوجود. وهؤلاء يقولون في ذكرهم: ليس إلا الله ـ أي: ليس موجود إلا الله ـ، بدل قول المسلمين: لا إله إلا الله[(٤)].

وحكى شيخ الإسلام ابن تيمية أن التلمساني[(٥)] ـ وهو من الصوفية المعتقدين لوحدة الوجود ـ «قد أضلّ شيخاً زاهداً عابداً ببيت المقدس يقال له: أبو يعقوب المغربي المبتلى، حتى كان يقول: الوجود واحد، وهو الله، ولا أرى الواحد، ولا أرى الله. ويقول: نطق الكتاب والسنة بثنوية الوجود، والوجود واحد لا ثنوية فيه. ويجعل هذا الكلام له تسبيحاً، يتلوه كما يتلو التسبيح»[(٦)].

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢/ ١٢٤، ١٤٠.

(٢) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم: ٣/ ٣٦٤.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٤/ ١٥٠، والصواعق المرسلة، لابن القيم: ٣/ ٩٣١، ومدارج السالكين، له: ٣/ ٤١٥.

(٤) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢/ ١٢٤، ٣٠٦، ٤٩٠، و١٣/ ١٩٦.

(٥) هو سليمان بن علي بن عبد الله العابدي الكومي، أبو الربيع، عفيف الدين، التلمساني، الشاعر، كان متفنناً في علوم، منها: النحو والأدب والفقه والأصول، وله في ذلك مصنفات، وله ديوان مشهور. قال الحافظ ابن كثير: (وقد نسب هذا الرجل إلى عظائم في الأقوال والاعتقاد في الحلول والاتحاد والزندقة والكفر المحض)، وتوفي سنة (٦٩٠هـ).
انظر: البداية والنهاية، لابن كثير: ١٣/ ٣٤٥، وشذرات الذهب، لابن العماد: ٥/ ٤١٢ ـ ٤١٣.

(٦) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢/ ٣٤٣.

وأهل الإرادة والسلوك من الصوفية يقصدون بالإرادة التوحيد، ويسمون أنفسهم أهل التوحيد والتجريد(١). وغاية ذلك عندهم: أن لا يشهد القلب إلا الله تعالى، وأن يغيب بموجوده عن وجوده، وبمشهوده عن شهادته، وبمعبوده عن عبادته، وبمذكوره عن ذكره، وبمعروفه عن معرفته، فيفنى من لم يكن ـ وهي المخلوقات المعبّدة ـ ويبقى من لم يزل ـ وهو الرب تعالى ـ(٢). وليس مرادهم فناء وجود ما سوى الله في الخارج، بل فناؤه عن شهودهم وحسّهم(٣).

وهذا المعنى هو الذي يشير إليه أكثر الصوفية، ويعدّونه غاية السلوك، وهو الذي يعرض لكثير منهم، بحيث يعجز عن شهود شيء من المخلوقات إذا شهد قلبه وجود الخالق(٤). ويسمّونه حال الفناء والاصطلام، والمحو، والجمع، ونحو ذلك، وقد يفرّقون بين معاني هذه الأسماء(٥).

وهذا المفهوم للتوحيد والتسبيح عند الصوفية ليس هو الأول الذي سبق بيانه، فإنّ هذا المفهوم عندهم هو الفناء عن شهود السوى، والذي قبله هو الفناء عن وجود السوى.

ومن الصوفية أفراد وجماعات استحدثوا ألفاظاً وكيفيات لتسبيح الله تعالى وذكره، كالذكر بالاسم المفرد (الله)، والذكر بالاسم

---

(١) انظر: المصدر السابق: ١٠/ ٣٥٩ ـ ٣٦٠.
(٢) انظر: المصدر نفسه: ٢/ ٣١٣، ٣٧٠ و١٠/ ٢١٩، ومدارج السالكين، لابن القيم: ١/ ١٦٨، ١٧٥.
(٣) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم: ١/ ١٧٥.
(٤) انظر: المصدر السابق، الموضع نفسه، والاستقامة، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ١/ ١٤٢ ـ ١٤٣.
(٥) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢/ ٣٧٠، ومدارج السالكين: ١/ ١٧٥.

المضمر (هو)، واعتقاد أن ذلك أبلغ في التنزيه والثناء على الله، ولهذا يقولون: «ذكر العامة (لا إله إلا الله)، وذكر الخاصة (الله، الله)»، وذكر خاصّة الخاصّة (هو هو)»[١].

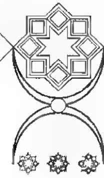
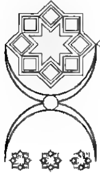
ومن الصوفية أيضاً من جعل النظر إلى الوجوه الجميلة من النساء والصبيان طريقاً إلى الله تعالى، فيخصّ هذا النظر بالتسبيح ظانًّا أنه ينظر إلى الجمال الإلهي، وأنه يشهد صفات خالقه في هذه الصور[٢].

فهذه إشارة إلى جملة من مفاهيم التسبيح والتوحيد عند الصوفية، يتبيّن منها أن هذه المفاهيم بعضها اعتقاديّ، وبعضها قوليّ، وبعضها الآخر عمليّ. ولا يشك من عنده أدنى علم بما جاء به الرسول ﷺ من الدين الخالص أن هذه المفاهيم الصوفية باطلة ومنافية للدين والعقل، كما سيأتي بيانه في المبحث التالي.

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠/٣٩٦.

(٢) انظر: المصدر السابق: ٢١/٢٤٨، ٢٥٥ ـ ٢٥٦.

المبحث الثالث

إبطال تسبيح الصوفية

أولاً: إبطال عقيدة وحدة الوجود:

وهذه العقيدة التي أحدثها بعض الصوفية وزعموا أنها هي حقيقة التوحيد والتسبيح بطلانها معلوم بالضرورة من أوجه عدّة:

أوّلها: أن هذه العقيدة انفرد بها هؤلاء الصوفية عن جميع مثبتة الخالق من المسلمين واليهود والنصارى والمجوس والمشركين، ولا يُعلم أحد سبقهم إليها إلا من أنكر وجود الله تعالى، مثل: فرعون والقرامطة(١).

الوجه الثاني: أن هذه العقيدة مركّبة من ثلاث موادّ(٢):

١ ـ تعطيل الجهمية، فإن أصحاب وحدة الوجود هم ـ في الأصل ـ جهمية، غير أنهم حققوا هذا المذهب أعظم من تحقيق غيرهم من الجهمية(٣).

٢ ـ والزندقة الفلسفية التي هي أصل التجهّم، وكلامهم في الوجود المطلق، والعقول، والنفوس، والوجوب والإمكان، ونحو ذلك(٤).

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢/ ١٦٠، ٤٦٦.
(٢) انظر: المصدر السابق: ٢/ ١٧٥.
(٣) انظر: المصدر نفسه: ٢/ ٩١، ١٤٠، ٣٦٧.
(٤) انظر: المصدر نفسه: ٢/ ١٧٥.

٣ ـ وشطحات الصوفية وما يوجد في كلامهم من الكلمات المجملة المتشابهة[١].

فهذه هي الموادّ التي تتكون منها عقيدة وحدة الوجود، وحقيقة ذلك أن أصحاب هذه العقيدة طافوا على أبواب المذاهب الردية وفازوا بأردء الآراء وأخسّ المطالب[٢].

الوجه الثالث: أن هذه العقيدة أشدّ قبحاً وأغلظ كفراً من عقائد اليهود والنصارى، وذلك من جهة أن أولئك قالوا: إن الربّ يتّحد بعبده الذي قرّبه واصطفاه، بعد أن لم يكونا متّحدين. وهؤلاء يقولون: ما زال الربّ هو العبد وغيره من المخلوقات ليس هو غيره. فأولئك خصّوا الاتّحاد بمن عظموه ـ كالمسيح ـ، وهؤلاء جعلوا ذلك سارياً في جميع المخلوقات حتى الكلاب والخنازير والأقذار والأوساخ.

وإذا كان الله تعالى قد قال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧ و٧٢]، فكيف بمن قال: إن الله هو الكفار والمنافقون والمجانين والأنجاس وكل شيء؟.

وإذا كان الله ﷻ قد ردّ قول اليهود والنصارى لما قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ وقال لهم: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ الآية [المائدة: ١٨] فكيف بمن يزعم أنّ اليهود والنصارى هم أعيان وجود الربّ الخالق ليسوا غيره ولا سواه؟[٣].

الوجه الرابع: أن سلف الأمة وأئمتها كفّروا الجهمية لما قالوا: إن ذاته تعالى في كل مكان، وكان مما أنكروا عليهم: أنه كيف يكون

(١) انظر: المصدر والموضع نفسه.

(٢) انظر: جامع الرسائل، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ١/ ١٦٧.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢/ ١٧٢ ـ ١٧٣.

في البطون والحشوش والأخلية؟ تعالى الله عن ذلك. فكيف بمن يجعله ـ سبحانه ـ نفس وجود البطون والحشوش والأخلية والنجاسات والأقذار؟ لا شك أنّ هؤلاء أخبث وأكفر من أولئك الجهمية، فإن مقالتهم تجمع كلّ شرك وكلّ شرّ في العالم. ولهذا إذا قيل: إنّ في هذه المقالة كفراً، لم يُفهم هذا اللفظ حالها، فإن الكفر جنس تحته أنواع متفاوتة، بل كفر كلّ كافر جزء من كفر أصحاب وحدة الوجود[1].

الوجه الخامس: أنّ هذه العقيدة تقتضي أن يتّصف الله تعالى بكل ما تتصف به المخلوقات من حسن وقبح، ومدح وذمّ، بل يصرّحون بهذه القولة النكراء، فيقولون: إن الحقّ يوصف بجميع ما يوصف به المخلوق من صفات النقص والذمّ، وما ثمّ من يتّصف بالنقائص والعيوب غيره، فكل عيب ونقص، وكفر وفسوق في العالم فإنه هو المتّصف به، لا متّصف به غيره، كلّهم متّفقون على هذا في الوجود، وأنّه ما ثمّ سوى وجود الحقّ الذي هو متّصف بهذه المعايب والمثالب، سبحانه وتعالى عن قولهم علوًّا كبيراً[2].

الوجه السادس: أنّ هذه العقيدة تقتضي أنّ كلّ من عبد شيئاً من دون الله فقد عبد الله، إذ ليس لله تعالى ـ بحسب هذه العقيدة ـ «غير» تتصوّر عبادته، بل الله نفسه هو العابد وهو المعبود، وهو الوجود كله[3].

وعند أصحاب هذه العقيدة أن الذين عبدوا اللات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى، والذين عبدوا ودًّا وسواعاً ويغوث ويعوق ونسراً،

---

(١) انظر: المصدر السابق: ٢/ ١٢٦، ١٢٧، ٤٧٧.
(٢) انظر: المصدر السابق: ٢/ ١٢٤، ٢٥٠، ٣٦٠.
(٣) انظر: المصدر السابق: ٢/ ١٢٤ و٦/ ٤٧٠ و١٣/ ١٨٥.

والذين عبدوا الشعرى والنجم والشمس والقمر، والذين عبدوا المسيح وعزيراً والملائكة، وسائر من عبد الأوثان والأصنام من المشركين، كل هؤلاء ما عبدوا إلا الله، ولا يتصور أن يعبدوا غير الله[١].

وعندهم أيضاً أن من ادّعى الإلهية من البشر، كفرعون والدجال المنتظر، أو ادّعيت فيه كالمسيح وعليّ وغيرهما من أولياء الله وغير أوليائه، فإن هذه الدعاوى الباطلة صحيحة عند هؤلاء الملاحدة من الصوفية[٢].

ولهذا يقول بعض محققيهم: إن القرآن كله شرك، ليس فيه توحيد؛ لأنه فرّق بين الرب والعبد، وإنما التوحيد في كلامنا[٣].

ولهذا أيضاً صاروا يعيبون على الأنبياء وينقصونهم، ويذمّون الصراط المستقيم، ويمدحون فرعون ويجعلونه من كبار العارفين، ويحمدون طريق أهل الضلال، ويأتون من الإفك والفرية على الله تعالى والإلحاد في آياته بما ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠﴾ [مريم: ٩٠][٤].

الوجه السابع: أن هذه العقيدة حقيقتها أن الله تعالى لم يخلق شيئاً ولم يبدعه ولم يصوّره؛ لأن أصحاب هذه العقيدة يرون أن عين وجود الحق سبحانه هو عين وجود الخلق، ويقولون: «إن الحق المنزّه هو الخلق المشبّه»[٥]، فلا يتصوّر عندهم أن يكون الله تعالى خلق

---

(١) انظر: المصدر السابق: ٢/ ٢٥٠. (٢) انظر: المصدر نفسه: ٢/ ٢٦٨.
(٣) انظر: المصدر نفسه: ٢/ ٢٠١، ٣٦٥.
(٤) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢/ ١٢٤، ١٩٨ ـ ١٩٩، ٢٠٣ و١٣/ ١٨٥.
(٥) هذه مقولة ابن عربيّ زعيم أصحاب وحدة الوجود، في كتابه (فصوص الحكم)، وقد نقلها شيخ الإسلام ابن تيمية في مواضع من فتاويه. وانظر =

غيره، ولا أنه ربّ العالمين، ولا أنه غنيّ وما سواه فقير. بل عندهم أن الله تعالى لم يخلق شيئاً، ولم يرزق أحداً شيئاً، ولم يعط أحداً شيئاً. وعندهم ـ في الجملة ـ لم يصل منه إلى أحد لا خير ولا شرّ، ولا نفع ولا ضرّ، ولا عطاء ولا منع، ولا هدى ولا إضلال أصلاً، وأن هذه الأشياء جميعها عين نفسه ومحض وجوده، فليس هناك «غير» تصل إليه، ولا أحد سواه ينتفع بها، ولا عبد يكون مخلوقاً مربوباً مرزوقاً[(١)].

الوجه الثامن: أن هذه العقيدة حقيقتها ـ فوق ما سبق ـ جحود الخالق أصلاً، وإنكار وجوده رأساً، فإن أصحاب هذه العقيدة تارة يجعلون وجود الله هو عين وجود المخلوقات، ليس غيرها، وعلى هذا فلا يتصوّر وجوده تعالى مع عدم المخلوقات، وهذا تعطيل محض للخالق سبحانه. وتارة يجعلون له وجوداً قائماً بنفسه، ثم يجعلون نفس ذلك الوجود هو أيضاً وجود المخلوقات، بمعنى: أنه فاض عليها، وهذا أقلّ كفراً من الأول، وإن كان كلاهما من أغلظ الكفر وأقبحه[(٢)].

ولكن هؤلاء يقرّون بالله تعالى في الظاهر، فهم بهذا ينافقون المسلمين، فلا يمكنهم إظهار جحود الخالق. وهم ـ من وجه آخر ـ ضلّال يحسبون أنهم على حقّ، وأن الخالق هو المخلوق، فكان قولهم هو قول فرعون، لكنّ فرعون كان معانداً مظهراً للجحود والعناد، وهؤلاء إمّا جهّال ضلّال، وإمّا منافقون مبطنون الإلحاد والجحود، يوافقون المسلمين في الظاهر، ويخالفونهم في الباطن[(٣)].

= ـ مثلاً ـ: مجموع الفتاوى: ٢/١١٣. وانظر: تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي، لبرهان الدين البقاعي، بتحقيق عبد الرحمٰن الوكيل ص٦٩.

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢/٢٤٨ ـ ٢٤٩، ٤٦٦.

(٢) انظر: المصدر السابق: ٢/١٦٠، ١٩٧ ـ ١٩٨.

(٣) انظر: المصدر نفسه: ٢/٢٤١ و١٣/١٨٧.

الوجه التاسع: أن هذه العقيدة ظاهرة التناقض في العقل، فإن أصحابها يقولون: ما ثمّ «غير» ولا «سوى»، ثم يقولون: إن من لا يرى رأيهم فهو محجوب. فإذا كان ما ثمّ غير ولا سوى ـ كما زعموا ـ، فمن المحجوب؟ ومن الحاجب؟ وعمّ حجب؟ ومن الذي ليس بمحجوب؟.

فقد أثبتوا أربعة أشياء: قوم محجوبون، وقوم ليسوا بمحجوبين، وأمراً انكشف لهؤلاء، وحجب عن أولئك. فأين هذا من قولهم: ما ثم اثنان ولا وجودان؟![1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وهؤلاء اشتبه عليهم الواحد بالنوع بالواحد بالعين، فإنه يقال: الوجود واحد، كما يقال: الإنسانية واحدة، والحيوانية واحدة، أي يعني: واحد كلّيّ، وهذا الكلّيّ لا يكون كلّيًّا إلا في الذهن لا في الخارج، فظنّوا هذا الكلّيّ ثابتاً في الخارج، ثم ظنّوه هو الله. وليس في الخارج كلّيّ مع كونه كلّيًّا، وإنما يكون كلّيًّا في الذهن، وإذا قدّر في الخارج كلّيّ فهو جزء من المعيّنات وقائم بها، ليس هو متميّزاً قائماً بنفسه، فحيوانيّة الحيوان، وإنسانية الإنسان، سواء قدّرت معيّنة أو مطلقة هي صفة له، ويمتنع أن تكون صفة الموصوف مبدعة له، ولو قدّر وجودها مجرّداً عن العيان، على رأي من أثبت (المثل الأفلاطونية)[2]، فتثبت الماهيّات الكلية مجردة عن الموصوفات، ويدّعي أنها قديمة أزلية، مثل: إنسانية مجرّدة، وحيوانية مجرّدة، وهذا خيال باطل.

---

(١) انظر: المصدر نفسه: ١٣/١٩٦ ـ ١٩٧.

(٢) المثل الأفلاطونيّة: هو إثبات الحقائق المجردة الكلية قائمة بأنفسها في الخارج.
وانظر: درء تعارض العقل والنقل: ١/٢١٦، ٢٨٦ و٦/٢٨٧.

وهذا الذي جعله مجرّداً هو مجرّد في الذهن، وليس في الخارج كلّيّ مجرّد، وإذا قدّر ثبوت كلّيّ مجرّد في الخارج - وهو مسمى الوجود -، فهذا يتناول وجود المحدثات كلّها، كما يتناول وجود القديم، وهذا لا يكون مبدعاً لشيء، ولا اختصاص له بصفات الكمال، فلا يوصف بأنه حيّ عليم قدير، إذ ليس وصفه بذلك بأولى من وصفه بأنه عاجز جاهل ميت. والخالق لا بدّ أن يكون حيًّا عليماً قديراً، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوًّا كبيراً.

ثم لو قدّر أن هذا هو الخالق فهذا غير الأعيان الموجودة المخلوقة، فقد ثبت وجودان: أحدهما غير الآخر، وأحدهما محدث مخلوق، فيكون الآخر الخالق غير المخلوق، ولا يمكن جحد وجود الأعيان المعيّنة» اهـ[١].

الوجه العاشر: أنه قد عُلم بالكتاب والسنة والإجماع، وبالعلوم العقلية الضرورية إثبات غير الله تعالى، وأنّ كلّ ما سواه من المخلوقات فإنّه غير الله تعالى، ليس هو الله ولا صفة من صفات الله.

ولهذا أنكر الله تعالى على من عبد غيره، فقال سبحانه: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الزمر: ٦٤]، وقال سبحانه: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٤]، وقال تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣]. ولو لم يكن هناك غير الله تعالى لما صحّ الإنكار في هذه الآيات ونحوها من الآيات في كتاب الله تعالى[٢].

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٣/١٩٧ ـ ١٩٨.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢/٣٥٣.

وأخبر الله تعالى في كتابه أيضاً أنّ ما في السماوات والأرض يسبّح له، كقوله ﷻ: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١﴾ [الحديد: ١].

قال الإمام ابن جرير الطبري: «يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أنّ كلّ ما دونه من خلقه يسبّحه تعظيماً له، وإقراراً بربوبيته، وإذعاناً لطاعته، كما قال جلّ ثناؤه: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ﴾ [الإسراء: ٤٤]» اهـ[١].

وهذا دليل صريح على التباين بين الله تعالى وخلقه، وأنّ السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما مخلوقة لله تعالى مسبّحة له، والمسبّح غير المسبَّح[٢].

ولهذا اتفق أئمة المسلمين على أن الله سبحانه ليس هو خلقه ولا جزءاً من خلقه ولا صفة لخلقه، بل هو سبحانه بنفسه المقدسة، بائن بذاته المعظّمة عن مخلوقاته، بل الرب ربّ، والعبد عبد.

وبذلك جاءت الكتب الإلهية من التوراة والإنجيل والزبور والقرآن، وعليه فطر الله عباده، وعلى ذلك دلّت العقول[٣].

وبهذه الأوجه المذكورة يتبين أن أهل وحدة الوجود عمدوا إلى أعظم الكفر والإلحاد فأخرجوه في قالب التوحيد والتسبيح[٤]، وأن هذه العقيدة الصوفية معلومة الفساد بأدنى عقل وإيمان، وأيسر ما يسمع من

---

(١) تفسير الطبري: ١١/٦٦٩.
(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٥/١٢٣، والفرقان بين أولياء الرحمٰن وأولياء الشيطان، له ص٢٤٣ ـ ٢٤٤.
(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢/١٢٦، ٣٤٠، ٤٧٤ ـ ٤٧٥.
(٤) انظر: إغاثة اللهفان، لابن قيم الجوزية: ٢/٩٤.

كتاب وسنة[١]، ولولا أن هذه العقيدة الباطلة قد انتشرت لدى طوائف الصوفية الذين يعدّهم كثير من الناس من المسلمين الصالحين، لما كانت هناك حاجة إلى بيان فسادها وإيضاح بطلانها؛ لأن مجرّد تصوّر هذه العقيدة كاف في بيان فسادها، لا يحتاج مع حسن التصوّر إلى دليل آخر، وإنما تقع الشبهة لأن أكثر الناس لا يفقهون حقيقتها، ولا قصد أصحابها، لما في عباراتهم من الإبهام والإجمال والاشتراك[٢].

وأما من يزعم أن كلام هؤلاء الصوفية الملاحدة له تأويل يوافق الشريعة، أو له سرٌّ خفيّ وباطن حقّ، وأنه من الحقائق التي لا يطلع عليها إلا خواصّ الخلق، فهو أحد رجلين: إما أن يكون من كبار أهل الزندقة والإلحاد، وإما أن يكون من كبار أهل الجهل والضلال. فالزنديق الملحد يجب قتله، والجاهل الضالّ يعلّم ويعرّف حقيقة الأمر، فإن أصرّ على هذا الاعتقاد الباطل ـ بعد قيام الحجة عليه ـ، كان أظهر كفراً وإلحاداً، ووجب قتله[٣].

وبالجملة: فإنّ عقيدة وحدة الوجود التي قرّرها أهل الكلام والفلسفة من الصوفية من أعظم العقائد منافاة للتسبيح والتوحيد، ومعتقدها من أظهر الناس كفراً وإلحاداً، وأبعدهم عن التوحيد والتسبيح.

ثانياً: الردّ على الفناء الصوفي (الفناء عن شهود السوى):

وهذا الفناء الذي عدّه بعض الصوفية غاية السلوك ونهاية التوحيد والتسبيح، ليس هو بأمر محمود، ولا هو وصف كمال، ولا هو مما

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢/ ٢١٠.
(٢) انظر: المصدر السابق: ٢/ ١٣٨، ٣٥٧.
(٣) انظر: المصدر نفسه: ٢/ ١٣١، ١٣٣، ٣٦٧، ٣٧٨.

يُرغّب فيه ويؤمر به، فضلاً عن أن يكون نهاية التوحيد والتسبيح(١).

بل هو أمر مذموم، ووصف نقص؛ لأنه حال يعدم الصوفيّ السالك فيه شعوره وتمييزه، بحيث لا يفرّق بين نفسه وغيره، ولا بين شهوده ومشهوده، ولا بين الربّ والعبد ـ مع اعتقاده الفرق ـ، بل لا يرى الغير ولا السّوى(٢).

ومن هنا صار يعرض للسالك على درب هذا الفناء معاطب ومهالك لا ينجيه منها إلا بصيرة العلم الصحيح ونور الاعتقاد القويم(٣).

من هذه المعاطب والمهالك: أن هذا الفناء المبتدع أوقع بعض المتصوفة في نوع من الاتحاد(٤) أو الحلول(٥)، فإنه مع عدم شعوره

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢/ ٣١٤، ومدارج السالكين، لابن القيم: ١/ ١٧٦.

(٢) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم: ١/ ١٧٦.

(٣) انظر: المصدر السابق: ١/ ١٧٩.

(٤) الاتّحاد: هو امتزاج الشيئين واختلاطهما حتى يصيرا شيئاً واحداً. وهو إما خاصّ، وإما عامّ. فالاتحاد الخاص: كقول بعض النصارى في المسيح: إن اللاهوت والناسوت اختلطا وامتزجا كاختلاط اللبن بالماء. والاتحاد العام: كقول ملاحدة الصوفية، الذين يزعمون أن الله تعالى عين وجود المخلوقات، وهو عقيدة وحدة الوجود. وانظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢/ ١٧١ ـ ١٧٢، والتعريفات، للجرجاني ص٢٢.

(٥) الحلول: عبارة عن كون أحد الجسمين ظرفاً للآخر، كحلول الماء في الإناء [التعريفات، للجرجاني ص١٢٥]. وهو إما خاصّ ، وإما عامّ.
فالحلول الخاص: هو الذي تدعيه غالية الرافضة في أئمتهم، وتدّعيه غالية الصوفية في مشايخهم. والحلول العام: كاعتقاد غالب متعبدة الجهمية ومن وافقهم أن الله بذاته في كل مكان.
وانظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢/ ١٧١ ـ ١٧٢.

وتمييزه قد يظنّ أنه اتّحد بمشهوده وامتزج، وقد يتوهم أن الأشياء قد فنيت، وأن نفسه فنيت، حتى يتوهم أنه هو الله، وأن الوجود هو الله[(١)]. وفي هذه الحال قد يقول صاحبها: (سبحاني ما أعظم شأني) أو (أنا الحق) أو (أنا نور من نور ربي) أو (ما في الجبة إلا الله)، أو نحو ذلك من الكلمات التي تؤثر عن أبي يزيد البسطاميّ[(٢)]، وعن الحلّاج[(٣)]، وعن غيرهما من الصوفية[(٤)]. وقد أخذ قوم هذه الشطحات فجعلوها غاية يجرون إليها، ويعملون عليها[(٥)].

ولا شك أن هذا الفناء يعدّ من الأحوال الفاسدة والخيالات الباطلة، وهذه الكلمات المأثورة عن بعضهم في هذه الحال هي من الكلمات الكفرية، والتصورات الخاطئة التي يطرق بها باب وحدة الوجود.

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠/٢٢٠ و١٣/١٩٩.

(٢) هو طيفور بن عيسى، أبو يزيد البسطامي، من كبار مشايخ الصوفية، وقد حكيت عنه شطحات عدّها العلماء من أكبر البدع، وأنها تدلّ على اعتقاد فاسد كامن في القلب ظهر في أوقاته، وتأولها له بعض الصوفية وحملوها على محال بعيدة، وتوفي أبو يزيد سنة (٢٦١هـ).
انظر: ميزان الاعتدال، للذهبي: ٢/٣٤٦ ـ ٣٤٧، والبداية والنهاية، لابن كثير: ١١/٣٨.

(٣) هو الحسين بن منصور بن محمي الحلاج، أبو المغيث، فارسي الأصل، كانت له بداية جيدة، ثم انسلخ من الدين، وتعلم السحر، وأراهم المخاريق، ولذا نسبه العلماء إلى الزندقة، وأباحوا دمه. ومع هذا فإن بعض الصوفية يقبلونه بل يعدونه من كبار الموحدين، وله أصحاب ينسبون إليه ويغالون فيه، وقد قتل الحلاج سنة (٣١١هـ). انظر: ميزان الاعتدال، للذهبي: ١/٥٤٨، والبداية والنهاية، لابن كثير: ١١/١٤١ ـ ١٤٥.

(٤) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢/٣٩٦، ٤٦١، ومدارج السالكين: ١/١٧٥ و٣/٣٩٨.

(٥) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم: ٣/٣٩٨.

وليس من الصواب الاعتذار عن هؤلاء بأنهم قالوا ما قالوه من الكفر وهم فانون لا شعور لهم ولا تمييز، فإن مثل هذا الاعتذار يفتح باب شرّ، ويؤدي إلى مفسدة في الدين.

والأسوء من ذلك أن يقال: إن الحق تعالى نطق على ألسنتهم لغيبتهم عن شهود أنفسهم، فإن هذا تصريح بحلول الحق أو اتحاده بهم(١)، وهذا غلط فاحش واعتقاد باطل من جنس عقائد النصارى والباطنية وغلاة الرافضة، والحق ﷻ لا يحلّ في شيء ولا يتّحد به شيء أصلاً(٢)، بل هو أكبر وأعظم وأجلّ من ذلك، كما سبق ذكره.

ومن معاطب الفناء الصوفي ومهالكه: أن منهم من يغلب عليه شهود القلب وتجلّيه حتى يتوهم أنه رأى الله تعالى بعيني رأسه(٣). ومنهم من يجوّز على الله تعالى المعانقة والملامسة والمجالسة في الدنيا(٤).

وكل هذا من ترّهات الصوفية وخيالاتهم الفاسدة، والله ﷻ منزّه مقدّس عن هذه الأباطيل(٥). وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**تعلّموا أنه لن يرى أحد منكم ربّه ﷻ حتى يموت**»(٦)، وروي هذا المعنى عن النبي ﷺ من وجوه أخرى متعدّدة(٧). ولهذا اتفق سلف الأمة وأئمتها على أن الله تعالى يرى في الآخرة وأنه لا يراه أحد في الدنيا بعينه(٨).

---

(١) انظر: جامع الرسائل، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ١/ ١٥٨.
(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠/ ٢٢٠.
(٣) انظر: المصدر السابق: ٢/ ٣٩٧، ومدارج السالكين: ٣/ ٦٧.
(٤) انظر: مقالات الإسلاميين، للأشعري: ١/ ٣٤٤ و٢/ ١٢٦.
(٥) انظر: مدارج السالكين: ٣/ ٢٣٤.
(٦) جزء من حديث طويل أخرجه مسلم في صحيحه: ٤/ ٢٢٤٥، برقم (٢٩٣١).
(٧) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢/ ٣٩٧.
(٨) انظر: المصدر السابق: ٢/ ٢٣٠، ٣٣٥.

ومن معاطب الفناء الصوفي ومهالكه أيضاً: دعواهم أن العارف الواصل إلى مقام الفناء يسقط عنه الأمر والنهي، فلا يفرق بين المأمور والمحظور، والمحبوب والمكروه؛ لأن مشاهدة العارف الحكم ـ وهو المشيئة الإلهية ـ لا تبقي له استحسان حسنة ولا استقباح سيئة؛ لأن الحسنة والسيئة تفترقان في حظ العبد، لكونه ينعم بهذه، ويعذب بهذه، والالتفات إلى هذا هو من حظوظ النفس، ومقام الفناء ليس فيه إلا مشاهدة مراد الحق تعالى، فيفنى العارف عن جميع مراداته بمراد الحق، وجميع الكائنات مرادة له[١].

وهذه الدعوى الصوفية غلط عظيم، غلطوا بشهود القدر وأحكام الربوبية عن شهود الشرع وأحكام الألوهية[٢]. ومن كان هذا الفناء غاية توحيده انسلخ من دين الله تعالى، ومن جميع رسله وكتبه، إذ لم يميّز بين ما أمر الله به وما نهى عنه، ولا بين المعروف والمنكر، ولم يفرّق بين أولياء الله وأعدائه، ولا بين المنعم عليهم والمغضوب عليهم. وسوّى بين الطاعة والمعصية، وبين المتقين والفجار، بل ليس عنده ـ في الحقيقة ـ إلا الطاعة، لاستواء الحوادث كلها في المشيئة العامة[٣].

ثم هم في هذه الدعوى متناقضون، فإنهم لا يسوّون بين من أحسن إليهم وبين من ظلمهم، ولا يسوّون بين ما يلذّهم وبين ما يؤلمهم، بل يفرقون بينهما، ويفرقون أيضاً بموجب أهوائهم وأعراضهم، لا بموجب الأمر والنهي، ولا يقفون مع القدر، ولا مع الأمر، بل كما قال بعض العلماء: أنت عند الطاعة قدريّ، وعند المعصية جبريّ، أيّ مذهب يوافق هواك تمذهبت به[٤].

---

(١) انظر: المصدر نفسه: ٢/ ٣١٤ و١٤/ ٣٥٤، ومدارج السالكين: ١/ ١٧٩.
(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢/ ٣١٤ و٨/ ٣٦٩.
(٣) انظر: مدارج السالكين: ١/ ١٨٠.
(٤) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢/ ٣٠٠.

وعلى هذا فإن الفرق أمر ضروري للإنسان، والتسوية بين جميع الحوادث ممتنع لذاته، بل لا بد للعبد من أن يفرّق. فإن لم يفرق بالفرق الشرعي ـ فيفرّق بين محبوب الله ومكروهه، وبين ما يرضاه وما يسخطه ـ، وإلا فرّق بالفرق الطبعي بهواه وشيطانه، فيحبّ ما تهواه نفسه وما يأمر به شيطانه، ويكره ما خالف ذلك[1].

ومن هنا وقع خلق من الصوفية في المعاصي، وآخرون في الفسوق، وآخرون في الكفر، حتى جوّزوا عبادة الأصنام، واعتقدوا الحلول والاتّحاد ووحدة الوجود[2].

ومن مظاهر ذلك لدى بعض الصوفية جعلهم النظر إلى الوجوه الحسان عبادة، والتسبيح عند ذلك، بدعوى مشاهدة الجمال الإلهي في تلك الصور الجميلة. ومعلوم أن من جعل هذا النظر المحرم عبادة كان بمنزلة من جعل الفواحش كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأعراف: ٢٨].

وقد اتفق العلماء على تحريم النظر إلى الأمرد بشهوة، كما اتفقوا على تحريم النظر إلى الأجنبيّة وذوات المحارم لشهوة. والخالق سبحانه يُسبَّح عند رؤية مخلوقاته كلها[3]، وليس خلق الأمرد بأعجب في قدرته من خلق ذي اللحية، ولا خلق النساء بأعجب في قدرته من خلق الرّجال، بل تخصيص الإنسان التسبيح بحال نظره إلى الأمرد دون غيره كتخصيصه التسبيح بنظره إلى المرأة دون الرجل، وليس ذلك لأن هذه المناظر دلت

(١) انظر: المصدر السابق: ١٤/٣٥٦، ومدارج السالكين: ١/١٨٠.
(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٤/٣٥٦.
(٣) انظر: مطلب (التسبيح عند العجائب الدالة على عظمة الله تعالى) في ٢/٣٢ من البحث.

على عظمة الخالق عنده، ولكن لكون الجمال يغيّر قلبه وعقله، وقد يذهله ما رآه فيكون تسبيحه بما يحصل في نفسه من الهوى[١]. وقد يكون تسبيحه لما يعتقد من أن الله سبحانه ظهر في هذه الصور وتجلّى فيها، مما يقتضي حلول ذاته فيها أو اتّحاده بها، فلا شك أن هذا أعظم كفراً، وأبين فساداً في الشرع والعقل[٢]، وسبحان الله وتعالى عما يصفون.

ثالثاً: الرد على استحداث الصوفية تسبيح الله تعالى وذكره بالاسم المفرد مظهراً أو مضمراً:

ـ أما تسبيح الله وذكره بالاسم المفرد مظهراً، مثل (الله، الله) فهذا بدعة، لم يشرع بحال، وليس في الأدلة الشرعية ما يدل على استحبابه، ولا هو مأثور عن أحد من سلف الأمة، ولا عن أعيان الأمة المقتدى بهم، وإنما أحدثه هؤلاء المتصوفة الضلال[٣].

وإن الشرع لم يستحبّ من الذكر إلا ما كان كلاماً تامًّا مفيداً، مثل: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وتبارك الذي بيده الملك، ونحو ذلك من الأذكار المشروعة المعلومة[٤].

وجميع ما في القرآن الكريم من الأمر بذكر اسمه، وتسبيح اسمه ـ كقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨﴾ [المزمل: ٨]، وقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤﴾ [الواقعة: ٧٤، ٩٦، والحاقة: ٥٢]، ونحو ذلك ـ لا يقتضي ذكره بالاسم المفرد، إنما هو بالكلام التام المفيد، كما سبق[٥].

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢١/٢٤٦، ٢٤٨.
(٢) انظر: المصدر السابق: ٢١/٢٥٥ ـ ٢٥٦.
(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠/٣٩٦، ٥٥٦، ٥٥٨.
(٤) انظر: المصدر السابق: ١٠/٢٣١، ٥٥٦.
(٥) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠/٢٢٩.

وذلك لأن الاسم المفرد ليس بكلام تامّ ولا جملة مفيدة، ولا يتعلق به إيمان ولا كفر، ولا أمر ولا نهي، ولا يعطي بنفسه معرفة مفيدة، ولا حالاً نافعاً، وإنما يعطي تصوّراً مطلقاً لا يحكم عليه بنفي ولا إثبات، فإن لم يقترن به من معرفة القلب وحاله ما يفيد بنفسه، وإلا لم تكن فيه فائدة، والشريعة إنما تشرع من الأذكار ما يفيد بنفسه، لا ما تكون الفائدة حاصلة بغيره(١).

ولهذا لو كرّر الإنسان اسم (الله) ألف ألف مرة، لم يصر بذلك مؤمناً، ولم يستحق ثواب الله ولا جنته، فإن الكفار من جميع الأمم يذكرون اسم الله مفرداً، سواء أقرّوا به وبوحدانيته أم لا(٢).

وما يتوهمه بعض الغالطين في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ [الأنعام: ٩١] من أنه أمر بقول الاسم المفرد خطأ واضح باتفاق أهل العلم، فإن قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ جواب لقوله ـ في الآية نفسها ـ: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾. فالمعنى: قل: الله أنزل الكتاب الذي جاء به موسى. وهذا كلام تام، وجملة اسمية مركبة من مبتدأ وخبر، حذف الخبر منها لدلالة السؤال على الجواب(٣).

ـ وأما الذكر بالاسم المضمر (هو)، فإنه أبعد عن السنة، وأدخل في البدعة، وأقرب إلى إضلال الشيطان؛ لأن هذا الضمير بنفسه لا يدل على معيّن، وإنما هو بحسب ما يفسره من مذكور أو معلوم، فيبقى معناه بحسب قصد المتكلم ونيته، ومن قال: يا هو يا هو، أو هو هو، ونحو ذلك، لم يكن الضمير عائداً إلا إلى ما يصوّره قلبه، والقلب قد يهتدي وقد يضلّ. ولهذا قد يذكر بهذا الاسم المضمر من يعتقد أن الله

---

(١) انظر: المصدر السابق: ١٠/٢٢٦ ـ ٢٢٧.
(٢) انظر: المصدر نفسه: ١٠/٥٦٢.
(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠/٢٢٨، ٥٥٨ ـ ٥٥٩.

هو الوجود المطلق، وقد يقول: (لا هو إلا هو) ـ أي: أنه هو الوجود، وأنه ما ثمّ خلق أصلاً، وأن الرب والعبد، والحق والخلق شيء واحد ـ ويسري قلبه في وحدة الوجود[١].

وقد ظهر ـ بما سبق ـ أن الذكر بالاسم المفرد مظهراً أو مضمراً بدعة في الشرع، وخطأ في القول واللغة، وأنه وسيلة إلى أنواع من البدع والضلالات، وذريعة إلى تصوّرات أحوال فاسدة من أحوال أهل الإلحاد وأهل الاتّحاد[٢].

ومن أسباب هذه الاعتقادات الباطلة والأحوال الفاسدة لدى الصوفية خروجهم عن الشرعة والمنهاج الذي بعث به الرسول ﷺ إلينا، فإن البدع مبادئ الكفر ومظانها، كما أن السنن المشروعة هي مظاهر الإيمان ومقوّياته، فإن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، كما دلّ على ذلك الأدلة الكثيرة من الكتاب والسنة وإجماع السلف الصالح[٣].

وهكذا جميع الفرق المبتدعة المنتسبة إلى الإسلام، فإن من تأمل ما وقعت فيه هذه الفرق من المفاهيم الخاطئة في توحيد الله تعالى وتنزيهه وتسبيحه، وجد أن أساس ذلك ترك هذه الفرق لما أمروا به من اتّباع السنة وسبيل المؤمنين، وسلوكهم طريق النظر والبحث وطريق الإرادة والطلب من غير اعتصام بالكتاب والسنة وما كان عليه سلف الأمة.

فلا يبلغ العبد أن ينزه الله تعالى تنزيهاً صحيحاً بالاعتقاد والقول والعمل حتى يسلم من هذه المفاهيم الخاطئة، وحتى يجعل تنزيهه لله تعالى وتسبيحه له وعبادته إياه واعتقاده فيه على هدي الكتاب والسنة وفهم السلف الصالح، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

---

(١) انظر: المصدر السابق: ١٠/ ٢٢٧، ٥٦٥.
(٢) انظر: المصدر نفسه: ١٠/ ٢٣٣، ٣٩٦.
(٣) انظر: المصدر نفسه: ١٠/ ٥٦٥.

الخاتمة

انتهى - بعون الله وتوفيقه - البحث في موضوع (**التسبيح في الكتاب والسنة والرد على المفاهيم الخاطئة فيه**)، ومن المفيد الإشارة هنا إلى ملخص عام لهذا البحث:

- فقد تناولت في مقدمته - بعد الافتتاحية - فكرة الموضوع، وأهميته، وأسباب اختياره، مع بيان خطته والمنهج المتبع في كتابته، والشكر والتقدير لمن يستحق ذلك.

- وكان الباب الأول في معاني التسبيح وأنواعه، ففي معانيه بيّنت بناء لفظ (التسبيح)، ومعناه في اللغة، وأصله اللغوي، وطريقة تعدّيه، كما بينت ماهية (سبحان) في اللغة، وطريقة استعماله في الكلام، وإعرابه.

ثم بيّنت المعنى الأصلي للتسبيح في الشرع، ودلالته على التعظيم في حق الله تعالى، وأنه جاء في الشرع بمعنى الصلاة، وبمعنى الذكر عموماً، وبمعنى الاستثناء وبمعنى العبادة، وأنه سمّي دعاء مع بيان المناسبة لاستعماله في هذه المعاني كلها.

كما بينت الألفاظ التي ترادف التسبيح في الدلالة على تنزيه الله تعالى، وهي: التقديس - ومنه اسم الله (القدوس) -، والسلام من أسماء الله تعالى، وتعالى - مسنداً إلى الله ﷻ -، وكلمة (حاش لله)، والنفي الوارد في حق الله تعالى في الكتاب والسنة.

وفي أنواع التسبيح بينت أنواعه باعتبار معناه، وأنه - بهذا الاعتبار - نوعان:

أحدهما: تسبيح الله عن النقائص والعيوب.

والثاني: تسبيح الله عن التمثيل والتشبيه.

وبينت أن هذين النوعين متلازمان.

ثم بينت أنواعه باعتبار صيغه،وأنه ـ بهذا الاعتبار ـ نوعان أيضاً: أحدهما: صيغة الإفراد. والثاني: صيغة القران.

وبينت ـ في صيغة القران ـ أنها تنوعت بحسب ما قرن به لفظ التسبيح من الألفاظ الأخرى، إلى سبعة أنواع، وهي:

قرن التسبيح بالتحميد، وقرنه بالتهليل، وقرنه بالتكبير، وقرنه بأسماء الله وصفاته، وقرنه بالاستغفار، وقرنه بالدعاء، وقرنه بالسلام على المرسلين.

كما بينت أنواع التسبيح باعتبار فاعله، وأنه ـ بهذا الاعتبار ـ خمسة أنواع، وهي:

١ ـ تسبيح الله تعالى لنفسه المقدسة.

٢ ـ وتسبيح الملائكة لله تعالى.

٣ ـ وتسبيح صالحي البشر ـ من الأنبياء وأتباعهم ـ لله تعالى.

٤ ـ وتسبيح الكائنات كلها لله تعالى.

٥ ـ وتسبيح أهل الجنة فيها لله تعالى.

ـ وكان الباب الثاني في حكم التسبيح وفضله ومنزلته في العقيدة، ففي حكمه بينت حكم تسبيح الله تعالى من حيث القول، وحكم تسبيحه من حيث الاعتقاد. كما بينت حكم تسبيح غير الله تعالى من حيث القول، ومن حيث الاعتقاد كذلك.

وفي فضل التسبيح بينت الفضل المختص به، ببيان ما ورد في

ذلك في كتاب الله تعالى، وفي سنة رسوله ﷺ، كما بينت أفضل صيغ التسبيح.

ثم بينت الفضل المشترك للتسبيح، وهو ما ورد في الكتاب والسنة دالًّا على فضل التسبيح مقروناً مع التحميد، والتهليل، والتكبير، وغير ذلك من الذكر والدعاء.

ثم تكلمت على المفاضلة بين التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير في ضوء الأدلة الواردة في ذلك.

وفي منزلة التسبيح في العقيدة بينت أن التسبيح دال على وصف لله تعالى، وأنه قد اشتق منه اسم من أسماء الله الحسنى، وهو اسمه (السّبّوح)، وبينت أن التسبيح من شواهد الإيمان بالله تعالى، وأنه كذلك من أصول توحيد الله تعالى، كما أنه من دلائل حسن العقيدة الإسلامية.

ـ وكان الباب الثالث في المواضع التي يشرع فيها التسبيح، وقد تضمن هذا الباب المواضع التي يشرع فيها التسبيح في الصلاة خاصة، وهي ستة مواضع:

١ ـ التسبيح في افتتاح الصلاة.

٢ ـ والتسبيح عند قراءة آية فيها تنزيه الله تعالى.

٣ ـ والتسبيح بدلاً من القراءة لمن لا يحسن شيئاً من القرآن.

٤ ـ والتسبيح في الركوع والسجود.

٥ ـ والتسبيح في الصلاة لأمر طارئ.

٦ ـ والتسبيح في دبر الصلاة

كما تضمن هذا الباب المواضع التي يشرع فيها التسبيح مفرداً في غير الصلاة، وهي تسعة مواضع:

١ ـ التسبيح عند الهبوط في الأماكن المنخفضة.

٢ ـ والتسبيح عند سماع الرعد.

٣ ـ والتسبيح عند التعجب مما ينافي الاعتقاد الصحيح في الله تعالى.

٤ ـ والتسبيح عند التعجب من المنكر.

٥ ـ والتسبيح عند العجائب الدالة على عظمة الله تعالى.

٦ ـ والتسبيح عند التعجب من الأشياء المهولة.

٧ ـ والتسبيح عند مطلق التعجّب.

٨ ـ والتسبيح في الأوقات المخصوصة.

٩ ـ والتسبيح مطلقاً في الأحوال والأوقات.

وتضمن هذا الباب كذلك المواضع التي يشرع فيها التسبيح مقروناً بغيره من ألفاظ الذكر والدعاء، وهي عشرة مواضع:

١ ـ عند النوم.

٢ ـ عند الانتباه من النوم.

٣ ـ عند الفراغ من الوضوء.

٤ ـ عند الاستواء على المركوب.

٥ ـ عند الإهلال بحج أو عمرة.

٦ ـ في داخل الكعبة في نواحيها.

٧ ـ قبل الدعاء.

٨ ـ عند الكسوف.

٩ ـ عند الكرب.

١٠ ـ في ختم المجلس.

ـ وكان الباب الرابع في بيان المفهوم الصحيح في تسبيح الله

تعالى، وقد تناولت فيه طريقة الكتاب والسنة في تسبيح الله تعالى، وبينت أن طريقتهما تتجلى في أربعة أمور:

١ ـ الإجمال في التنزيه غالباً.

٢ ـ والتفصيل في الإثبات، بذكر الأسماء والصفات الدالة على التنزيه.

٣ ـ التفصيل في التنزيه ـ أحياناً ـ لأسباب.

٤ ـ إثبات المثل الأعلى لله تعالى.

ثم تناولت تسبيح الله تعالى في أسمائه وصفاته، وبينت أن أسس هذا التسبيح هي:

١ ـ الإثبات مع التنزيه.

٢ ـ والنفي مع إثبات كمال الضدّ.

٣ ـ والسكوت عما لم يعلم في الكتاب والسنة إثباته أو نفيه.

٤ ـ ومراعاة ما يقتضي التنزيه مراعاته في حق الله تعالى إثباتاً ونفياً، وهي:

أ ـ التفريق بين ما تسمى الله به مفرداً، وما تسمّى به مقروناً بما يقابله.

ب ـ والتفريق بين ما أطلق على الله تعالى في الكتاب والسنة مطلقاً، وما أطلق عليه مقيّداً.

جـ ـ والتفريق بين ما يطلق على الله في باب الأسماء والصفات، وما يطلق عليه في باب الإخبار.

د ـ والتوقير والتعظيم لأسماء الله تعالى وصفاته لفظاً ومعنى، ظاهراً وباطناً.

وتناولت ـ بعد ذلك ـ تسبيح الله تعالى في أقواله وأفعاله، وبينت أن أسس هذا التسبيح ثلاثة، وهي:

١ ـ تسبيح الله تعالى عن العبث في أقواله وأفعاله باعتقاد أنها صادرة عن حكم علياً.

٢ ـ تسبيح الله عن الظلم في أقواله وأفعاله.

٣ ـ وتسبيح الله تعالى عن نسبة الشر إليه.

ـ وكان الباب الخامس في الرد على المفاهيم الخاطئة في التسبيح، فذكرت فيها التسبيح الذي ادّعاه المشركون بالله تعالى في العبادة، والتسبيح الذي ادعاه الممثلة، والمعطلة، والقدرية، والجبرية، والوعيدية، والصوفية. ورددت على هذه المفاهيم الخاطئة في التسبيح لدى هذه الفرق والطوائف في ضوء الكتاب والسنة واعتقاد أهل السنة والجماعة.

وبهذا يكون هذا البحث قد استوفى الأبواب والفصول والمباحث التي وضعت في خطة البحث.

وأما الموضوع نفسه فأرجو أن أكون قد وفقت في عرضه وإخراجه على الوجه المطلوب، أما الوفاء بحقّه من البحث والدراسة فمما يقصر عنه مثلي، لكن حسبي أني بذلت جهدي بحسب ما أتيح لي من الوقت لتناول هذا الموضوع، وأسأل الله تعالى أن يجعل فيما قدّمته فائدة ونفعاً لي وللمسلمين، وأن يعفو عن زلاتي وأخطائي، وأن يلهمني الصواب، وأن يعينني على ذكره وشكره وحسن عبادته.

والحمد لله أوّلاً وآخراً، وظاهراً وباطناً، و(سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك).

الفهارس

وفيه:

فهرس الآيات القرآنية.

فهرس الأحاديث النبوية.

فهرس الأعلام المترجم لهم.

فهرس المصادر والمراجع.

فهرس الموضوعات.

فهرس الآيات القرآنية

مرتبة حسب السور

(سورة الكهف)

فهرس الأحاديث النبوية

الحديث	الصفحة
سبحانك وبحمدك، استغفرك...	١/ ٥٤٢
سبحي الله عشرا...	١/ ٥٨٦ و٢/ ٩٥
سبقكن يتامى بدر...	١/ ٥٨٠
سبوح قدوس رب الملائكة والروح...	١/ ١١٨، ٤٧٩، ٥٤٣
سجدها داود توبة...	١/ ٥٣٧
(ص)	
صلوا كما رأيتموني...	١/ ٣٩٩
صلي بنا رسول الله ﷺ...	١/ ٥٦٠
صلى رسول الله ﷺ ونحن معه بالمدينة...	٢/ ٨٤
صوموا لرؤيته...	٢/ ٣١
(ط)	
الطهور شطر الإيمان...	١/ ١٩٤
(ع)	
العزّ إزاره والكبرياء رداؤه...	٢/ ٣٠٩
عجبت لها فتحت لها أبواب السماء...	١/ ٢١٠، ٤٦٠، ٥١٦
على رسلكما، إنما هي صفية...	٢/ ٤٠
عليكن بالتسبيح والتهليل...	١/ ٢٠٨، ٤٩٠، ٥٩٤
(ف)	
فأما الركوع فعظموا فيه الرب...	١/ ٥٥٠، ٥٥٦
فأنا رأيت رسول الله ﷺ يعقدها بيده...	١/ ٩٨
فإنه لا يسمعه أحد...	١/ ٥٧٢
فجعل يسبح ويحمده ويهلل...	٢/ ١٠١
فلما خلقه قال: اذهب فسلّم...	١/ ٣٧٩
فنهانا رسول الله ﷺ أن نوجب لأحد...	٢/ ٥١٩
فيسألهم الله ﷻ: من أين جئتم...	١/ ٤٥٩
(ق)	
القدرية مجوس هذه الأمة...	٢/ ٤٩١

فهرس الأعلام المترجم لهم

فهرس المصادر والمراجع

١ ـ آداب البحث والمناظرة: للشيخ محمد بن الأمين الشنقيطي، نشر: مكتبة ابن تيمية بالقاهرة، ومكتبة العلم ـ بجدة، بدون تاريخ.
٢ ـ الإتقان في علوم القرآن: لجلال الدين عبد الرحمٰن السيوطي، تحقيق الدكتور مصطفى البغا، ط١ سنة ١٤٠٧هـ، دار ابن كثير، دمشق.
٣ ـ اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة الجهمية: للإمام ابن قيم الجوزية، تحقيق عواد عبد الله المعتق، ط١ سنة ١٤٠٨هـ، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض.
٤ ـ الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان: لعلاء الدين علي بن بلبان الفارسي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، ط١ سنة ١٤٠٨هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.
٥ ـ إحكام الأحكام على عمدة الأحكام: لتقي الدين بن دقيق العيد، وحاشيته العدّة، للأمير الصنعاني، تحقيق علي بن محمد الهندي، ط٢ سنة ١٤٠٩هـ، المكتبة السلفية، القاهرة.
٦ ـ أحكام أهل الذمة: للإمام ابن قيم الجوزية، تحقيق أبي براء يوسف البكري، وأبي أحمد شاكر العاروري، ط١ سنة ١٤١٨هـ، رمادي للنشر، الدمام.
٧ ـ أحكام القرآن: للإمام أبي بكر الجصاص، تحقيق محمد الصادق قمحاوي، طبع سنة ١٤٠٥هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٨ ـ أحكام القرآن: للقاضي أبي بكر ابن العربي، تحقيق محمد عبد القادر غطا، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت.
٩ ـ أحكام من القرآن الكريم، للشيخ محمد بن صالح العثيمين، جمع أبي خالد عبد الكريم بن صالح المقرن، ط٢ سنة (١٤١٥هـ)، نشر: دار الوطن، الرياض.
١٠ ـ الأدب المفرد للإمام محمد بن إسماعيل البخاري، بتخريج وتعليق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ط٢ سنة ١٣٢١هـ، دار الصديق، الجبيل.

١١ ـ الأذكار: للإمام أبي زكريا يحيى بن شرف النووي، بتحقيق محيي الدين مستو، ط١ سنة (١٤٠٧هـ) دار ابن كثير، دمشق، نشر: مكتبة دار التراث، بالمدينة المنورة.

١٢ ـ الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد: لأبي المعالي الجويني إمام الحرمين، بتحقيق أسعد تميم، ط١ سة ١٤٠٥هـ، نشر: مؤسسة الكتب الثقافة، بيروت.

١٣ ـ إرواء الغليل في تخريج أحاديث مار السبيل، للشيخ محمد بن ناصر الدين الألباني، ط٢ سنة ١٤٠٥هـ، المكتب الإسلامي، بيروت.

١٤ ـ أساس البلاغة: لجار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، ط٢ سنة ١٩٧٢م، مطبعة دار الكتب، مصر.

١٥ ـ الاستقامة، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم، مكتبة ابن تيمية، القاهرة.

١٦ ـ الاستيعاب في معرفة الأصحاب، للإمام أبي عمر ابن عبد البر، تحقيق علي محمد البجاوي، مطبعة نهضة مصر، القاهرة.

١٧ ـ الأسماء والصفات: للإمام أبي بكر البيهقي، تحقيق عبد الله بن محمد الحاشدي، ط١ سنة ١٤١٣هـ، مكتبة السوادي للتوزيع، جدة.

١٨ ـ الأسماء والصفات في معتقد أهل السنة والجماعة: للدكتور عمر سليمان الأشقر، ط١ سنة ١٤١٣هـ، دار النفائس، عمان، الأردن.

١٩ ـ الاشتقاق: لعبد الله أمين، ط١ سنة ١٣٧٦هـ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.

٢٠ ـ الإصابة في تمييز الصحابة: للحافظ ابن حجر العسقلاني، تحقيق علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة.

٢١ ـ أصول السنة: للإمام أبي عبد الله ابن أبي زمنين، تحقيق عبد الله بن محمد بن عبد الرحيم البخاري، ط١ سنة ١٤١٥هـ، نشر: مكتبة الغرباء الأثرية، بالمدينة المنورة.

٢٢ ـ الأصول في النحو: لأبي بكر ابن السراج النحوي البغدادي، تحقيق الدكتور عبد الحسين الفتلي، ط١ سنة ١٣٠٥هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٢٣ ـ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: للشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، ط١ سنة ١٤١٧هـ، نشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢٤ ـ إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد: للشيخ صالح الفوزان، ط٢ سنة ١٤٢٢هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٢٥ ـ اعتقاد فرق المسلمين والمشركين: لفخر الدين الرازي، تحرير علي سامي النشار، طبع سنة ١٣٥٦هـ، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

٢٦ ـ الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث: للإمام أبي بكر البيهقي، بتخريج وتعليق أحمد عصام الكاتب، ط١ سنة ١٤٠١هـ، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت.

٢٧ ـ إعراب القرآن: لأبي جعفر النحاس، تحقيق الدكتور زهير غازي زاهد، طبع ١٣٩٧هـ، مطبعة العاني، بغداد.

٢٨ ـ إعراب القرآن: لأبي القاسم إسماعيل بن محمد التيمي الأصبهاني، تحقيق الدكتورة فائزة بنت عمر المؤيد، طبع سنة ١٤١٥هـ.

٢٩ ـ الإعلام بفوائد عمدة الأحكام: لابن الملقن: عمر بن علي الأنصاري، تحقيق عبد العزيز بن أحمد المشيقح، ط١ ١٤١٧هـ، دار العاصمة، الرياض.

٣٠ ـ أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري: للإمام أبي سليمان الخطابي، بتحقيق الدكتور محمد بن سعد بن عبد الرحمٰن آل سعود، ط٢ سنة ١٤٠٩هـ، جامعة أم القرى، مكة المكرمة.

٣١ ـ إعلام الموقعين عن رب العالمين: للإمام ابن قيم الجوزية، مراجعة طه عبد الرؤوف سعد، نشر مكتبة الكليات الأزهرية.

٣٢ ـ إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان: للإمام ابن قيم الجوزية: تحقيق خالد بن عبد اللطيف السبع، ط٣ سنة ١٤١٩هـ، دار الكتاب العربي، بيروت.

٣٣ ـ الإفصاح عن معاني الصحاح: للوزير العلامة ابن هبيرة، تحقيق الدكتور فؤاد عبد المنعم أحمد، ط١ سنة ١٤١٧هـ، دار الوطن، الرياض.

٣٤ ـ أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات: لمرعي بن يوسف الكرمي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، ط١ سة ١٤٠٦هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٣٥ ـ الاقتصاد في الاعتقاد: لأبي حامد الغزالي، بتقديم وتعليق الدكتور السيد الجميلي، نشر: دار ابن زيدون ببيروت، بدون تاريخ.

٣٦ ـ اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم: لشيخ الإسلام ابن تيمية، بتحقيق الدكتور ناصر بن عبد الكريم العقل، ط١ سنة ١٤٠٤هـ بدون ذكر دار النشر.

٣٧ ـ إكمال المعلم لفوائد مسلم: للقاضي عياض اليحصبي، تحقيق الدكتور يحيى إسماعيل، ط١ سنة ١٤١٩هـ، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، مصر.

٣٨ ـ ألفية ابن مالك في النحو والصرف، ط٣ سنة ١٤٠٩هـ، مؤسسة الرسالة.

٣٩ ـ الأمالي الشجرية: لهبة الله بن علي المعروف بابن الشجري، تحقيق الدكتور محمود الطناحي، ط١ سنة ١٤١٣هـ، مكتبة الخانجي، القاهرة.

٤٠ ـ إنباء الغمر بأنباء العمر: للحافظ ابن حجر العسقلاني، تحقيق الدكتور حسن حبشي، طبع في سنة ١٣٨٩هـ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، بالقاهرة.

٤١ ـ الانتصار لأصحاب الحديث: لأبي المظفر السمعاني، جمع وتعليق محمد بن حسين الجيزاني، ط١ سنة ١٤١٧هـ، مكتبة لينة، دمنهور، مصر.

٤٢ ـ الانتصار لحزب الله الموحّدين: للشيخ عبد الله بن عبد الرحمٰن أبا بطين، ضمن (عقيدة الموحدين والرد على الضلال والمبتدعين، جمع الشيخ عبد الله بن سعدي الغامدي العبدلي)، ط١ سنة ١٤١١هـ، مكتبة الطرفين، الطائف.

٤٣ ـ أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك: لجمال الدين ابن هشام الأنصاري، ط٢ سنة ١٣٦٩هـ، نشر: مصطفى البابي الحلبي بمصر.

٤٤ ـ إيثار الحق على الخلق في ردّ الخلافات إلى المذهب الحق من أصول التوحيد: لأبي عبد الله محمد بن المرتضى الشهير بابن الوزير اليماني، ط٢ سنة ١٤٠٧هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

٤٥ ـ البحر الزخار المعروف بمسند البزار: للإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن عمر البزار، تحقيق الدكتور محفوظ الرحمٰن زين الله، ط١ سنة ١٤٠٩هـ، مؤسسة علوم القرآن، دمشق.

٤٦ ـ البحر المحيط: لأبي حيان الأندلسي، تحقيق مجموعة من المحققين، ط١ سنة ١٤١٣هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

٤٧ ـ بدائع الفوائد: للإمام ابن قيم الجوزية، تحقيق محمد صبحي حلاق، ط١ سمة ١٤١٥هـ، مكتبة ابن تيمية، القاهرة.

٤٨ ـ البداية والنهاية: للحافظ ابن كثير الدمشقي، تحقيق الدكتور أحمد أبو ملحم، وآخرين، ط١ سنة ١٤٠٨هـ، نشر: دار الريان للتراث، القاهرة.

٤٩ ـ البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن التاسع: للإمام الشوكاني، نشر: نكتبة ابن تيمية، القاهرة، بدون تاريخ.

٥٠ ـ البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان: لأبي الفضل عباس بن منصور السكسكي الحنبلي، بتحقيق الدكتور بسام علي سلامة، ط١ سنة ١٤٠٨هـ، نشر: مكتبة المنار، الأردن، الزرقاء.

٥١ ـ بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، تحقيق محمد علي النجار طبع ونشر لجنة إحياء التراث الإسلامي بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، مصر.

٥٢ ـ بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية أهل الإلحاد من القائلين بالحلول والاتّحاد، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق الدكتور موسى بن سليمان الدويش، ط١ سنة ١٤٠٨هـ، مكتبة العلوم والحكم.

٥٣ ـ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة: للسيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١ سنة ١٣٨٤هـ، مطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر.

٥٤ ـ بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية: لشيخ الإسلام ابن تيمية، تصحيح وتكميل وتعليق محمد بن عبد الرحمٰن بن قاسم، بدون تاريخ ومكان نشر.

٥٥ ـ البيان في غريب إعراب القرآن: لأبي البركات ابن الأنباري، تحقيق الدكتور طه عبد الحميد طه، طبع ونشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٤٠٠هـ.

٥٦ ـ بين أبي الحسن الأشعري والمنتسبين إليه في العقيدة: لأبي بكر خليل إبراهيم الموصلي، ط١ سنة ١٤١٠هـ، نشر: دار الكتاب العربي، بيروت.

٥٧ ـ تاج العروس من جواهر القاموس: للسيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تحقيق الدكتور حسين نصار، مطبعة حكومة الكويت، سنة ١٣٦٩هـ.

٥٨ ـ التاج والإكليل لمختصر خليل: لمحمد بن يوسف المواق، بهامش (مواهب الجليل لشرح مختصر خليل، للحطاب)، ضبط وتخريج الشيخ زكريا عميرات، ط١ سنة ١٤١٦هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

٥٩ ـ تأويل مختلف الحديث: للإمام ابن قتيبة الدينوري، عبد القادر عطا، ط١ سنة ١٤٠٣هـ، نشر: دار الكتب الإسلامية.

٦٠ ـ تأويل مشكل القرآن: للإمام ابن قتيبة الدينوري، تحقيق السيد أحمد صقر، المكتبة العلمية (بدون تاريخ).

٦١ ـ التبيان في آداب حملة القرآن: للإمام أبي زكريا النووي، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، ط١ سنة ١٤٠٥هـ، مكتبة دار البيان، دمشق.

٦٢ ـ البيان في أقسام القرآن، للإمام ابن قيم الجوزية، تصحيح طه يوسف شاهين، طبع ١٤٠٢هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

٦٣ - تبيين كذب المفتري: لأبي القاسم بن عساكر، طبع سنة ١٣٩٩هـ، دار الكتاب العربي، بيروت.
٦٤ - تجريد التوحيد المفيد: للعلامة أحمد بن علي المقريزي، تحقيق علي بن محمد العمراني، ط١ سنة ١٤١٧هـ، دار عالم الفوائد، مكة.
٦٥ - تحرير ألفاظ التنبيه، أو لغة الفقه: للإمام النووي، تحقيق عبد الغني الدقر، ط١ سنة ١٤٠٨هـ، دار القلم.
٦٦ - تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي: لمحمد عبد الرحمٰن المباركفوري، مراجعة عبد الرحمٰن محمد عثمان، ط٢ سنة ١٣٨٤هـ، مطبعة المعرفة.
٦٧ - تحفة الذاكرين بعدة الحصن الحصين من كلام سيد المرسلين: للعلامة محمد بن علي الشوكاني، ط١ سنة ١٩٨٤م، دار القلم، بيروت.
٦٨ - تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد: للشيخ إبراهيم بن محمد البيجوري، ط١ سنة ١٤٠٣هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
٦٩ - تحفة المودود بأحكام المولود، للإمام ابن قيم الجوزية، تحقيق سليم بن عيد الهلالي، ط١ سنة ١٤٢١هـ، دار ابن القيم، الدمام.
٧٠ - التدمرية: لشيخ الإسلام ابن تيمية، بتحقيق محمد بن عودة السعوي، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٥هـ، بدون ذكر دار النشر.
٧١ - تذكرة الحفاظ: للإمام الذهبي، نشر: دار إحياء التراث العربي (بدون تاريخ).
٧٢ - الترغيب والترهيب من الحديث الشريف: للحافظ زكي الدين المنذريّ، تحقيق مجموعة من المحققين، ط١ سنة ١٤١٤هـ، دار ابن كثير، دمشق.
٧٣ - تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد: للعلامة محمد بن عبد الله مالك الأندلسي، تحقيق محمد كامل بركات، نشر: دار الكليات العربي سنة ١٣٨٧هـ.
٧٤ - التسهيل لعلوم التنزيل: لابن جزي الكلبي، ضبط محمد سالم هاشم، ط١ سنة ١٤١٥هـ، دار الكتب العلمية.
٧٥ - التعريفات: للعلامة علي بن محمد الجرجاني، بتحقيق إبراهيم الأنباري، الطبعة الثانية، سنة ١٤١٣هـ، نشر: دار الكتاب العربي، بيروت.
٧٦ - تعريف أهل التقديس بمراتب الموصوفين بالتدليس: للحافظ ابن حجر العسقلاني، تحقيق الدكتور عبد الغفار البنداري، والأستاذ محمد أحمد، ط١ سنة ١٤١٥هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
٧٧ - تعظيم قدر الصلاة: للإمام محمد بن نصر المروزي، تحقيق الدكتور عبد الرحمٰن الفريوائي، ط١ سنة ١٤٠٦هـ، مكتبة الدار، المدينة المنورة.

٧٨ ـ تعليقات على العقيدة الواسطية: للشيخ محمد بن صالح العثيمين، ط١ سنة ١٤١٢هـ، نشر: دار الوطن، الرياض.

٧٩ ـ تفسير أبي سعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم)، للقاضي أبي السعود العمادي، طبع ونشر دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٨٠ ـ تفسير البغوي (معالم التنزيل): للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق مجموعة من المحققين، ط١ سنة ١٤١١هـ، دار طيبة، الرياض.

٨١ ـ تفسير البيضاوي المسمى أنوار التزيل وأسرار التأويل: للقاضي البيضاوي، ط١ سنة ١٤١٨هـ، دار الكتب العلمية.

٨٢ ـ تفسير التحرير والتنوير: للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، طبع سنة ١٩٨٤م، الدار التونسية للنشر.

٨٣ ـ تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل: لعلاء الدين علي بن محمد البغدادي الشهير بالخازن، ضبط عبد السلام شاهين، ط١ سنة ١٤١٥هـ، دار الكتب العلمية.

٨٤ ـ تفسير السمرقندي المسمى بحر العلوم: لأبي الليث نصر بن محمد السمرقندي، تحقيق علي بن محمد معوض وآخرين، ط١ سنة ١٤١٣هـ.

٨٥ ـ تفسيرة سورة النصر: للحافظ ابن رجب الحنبلي (ضمن مجموعة رسائل، له)، جمع عادل بن يوسف العزازي، ط١ سنة ١٤١٢هـ، مكتبة التربية الإسلامية لإحياء التراث الإسلامي، الجيزة.

٨٦ ـ تفسير الطبري (جامع البيان في تأويل القرآن): لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، ط١ سنة ١٤١٢هـ، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت.

٨٧ ـ تفسير غريب القرآن: للإمام ابن قتيبة الدينوري، تحقيق السيد أحمد صقر، طبع سنة ١٣٧٨هـ، دار إحياء الكتب العربية.

٨٨ ـ تفسير القرآن: للإمام عبد الرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق الدكتور مصطفى مسلم محمد، ط١ سنة ١٤١٠هـ، نشر مكتبة الرشد، الرياض.

٨٩ ـ تفسير القرآن: للإمام أبي المظفر السمعاني، تحقيق أبي تميم ياسر بن إبراهيم، وأبي بلال غنيم بن عباس، ط١ سنة ١٤١٨هـ، دار الوطن، الرياض.

٩٠ ـ تفسير القرآن العظيم: للإمام ابن أبي حاتم الرازي، تحقيق الدكتور أحمد بن عبد الله الزهراني، ط١ سنة ١٤٠٨هـ، مكتبة الدار، المدينة المنورة.

٩١ ـ تفسير القرآن العظيم: للإمام ابن أبي حاتم الرازي، جمع وتحقيق أسعد محمد الطيب، ط١ سنة ١٤١٧هـ، مكتبة الباز، مكة.

٩٢ ـ تفسير القرآن العظيم: للحافظ ابن كثير، بتقديم الدكتور يوسف بن عبد الرحمٰن المرعشلي، ط١ سنة ١٤٠٧هـ، نشر: دار المعرفة، بيروت.
٩٣ ـ التفسير الكبير: للفخر الرازي، ط٣ دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٩٤ ـ تقريب التدمرية: للشيخ محمد بن صالح العثيمين، باعتناء وتخريج سيد بن عباس الجليمي، ط١ سنة ١٤١٣هـ، نشر: مكتبة السنة، القاهرة.
٩٥ ـ تقريب التهذيب: للحافظ ابن حجر العسقلاني، تحقيق الشيخ خليل مأمون شيحا، ط٢ سنة ١٤١٧هـ، دار المعرفة، بيروت.
٩٦ ـ تلبيس إبليس: للإمام أبي فرج عبد الرحمٰن بن الجوزي، بتقديم وتخريج محمود مهدي الاستانبولي، نشر: سة ١٤١٣هـ، بدون ذكر دار النشر.
٩٧ ـ التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير: للحافظ ابن حجر العسقلاني، تصحيح السيد عبد الله هاشم اليماني، طبع سنة ١٣٨٣هـ، شركة الطباعة الفنية المتحدة، القاهرة.
٩٨ ـ تلخيص كتاب الاستغاثة المعروف بالرد على البكري: لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق أبي عبد الرحمٰن محمد بن علي عجال، ط١ سنة ١٤١٧هـ، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنورة.
٩٩ ـ التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد: للإمام أبي عمر بن عبد البر، بتحقيق سعيد أحمد أعراب، طبع في سنة ١٤٠٧هـ، نشر: دار طيبة، الرياض.
١٠٠ ـ التمهيد لقواعد التوحيد: لأبي الثناء محمود بن زيد اللامشي الحنفي الماتريدي، تحقيق عبد المجيد تركي، ط١ سنة ١٩٩٥م، دا رالغرب الإسلامي، بيروت.
١٠١ ـ التنبيهات السنية على العقيدة الواسطية: لفضيلة الشيخ عبد العزيز الناصر الرشيد، نشر: دار الرشيد، بدون تاريخ.
١٠٢ ـ التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع: للإمام أبي الحسين الملطي، تحقيق يمان بن سعد الدين المياديني، ط١ سنة ١٤١٤هـ، رمادي للنشر، الدمام.
١٠٣ ـ التنقيح في حديث التسبيح: للحافظ ابن ناصر الدين الدمشقي، تحقيق محمد بن ناصر العجمي، ط١ سنة ١٤١٣هـ، دار البشائر الإسلامية.
١٠٤ ـ تهذيب الأسماء واللغات: للإمام أبي زكريا النووي، طبعة إدارة الطبعة المنيرية، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت (بدون تاريخ).
١٠٥ ـ تهذيب التهذيب: للحافظ ابن حجر العسقلاني، ط١ سنة ١٣٢٥هـ، مجلس دائرة المعارف النظامية بالهند.

١٠٦ ـ تهذيب اللغة: لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق الأستاذ عبد الكريم هارون، نشر: الدار المصرية للتأليف والترجمة.
١٠٧ ـ توضيح الأحكام من بلوغ المرام: للشيخ عبد الله بن عبد الرحمٰن البسام، ط١ سنة ١٤١٣هـ، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة.
١٠٨ ـ التوضيح عن توحيد الخلاق: المنسوب للشيخ سليمان بن عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ط١ سنة ١٤٠٤هـ، دار طيبة، الرياض.
١٠٩ ـ توضيح الكافية الشافية: للشيخ عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي، ط١ سنة ١٤٠٧هـ، مكتبة ابن الجوزي، الدمام.
١١٠ ـ التوضيح المبين لتوحيد الأنبياء والمرسلين من الكافية الشافية: للشيخ عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي، تصحيح محمد بن سليمان آل بسام، ط١ سنة ١٤٢٠هـ، دار عالم الفوائد، مكة.
١١١ ـ التوضيح المفيد لمسائل كتاب التوحيد: للشيخ عبد الله بن محمد الدويش، مطابع القصيم، الرياض.
١١٢ ـ تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد: للشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، طبع سنة ١٤٠٢هـ، نشر المكتب الإسلامي.
١١٣ ـ تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان: للشيخ عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي، تحقيق عبد الرحمٰن اللويحي، ط١ سنة ١٤٢٠هـ، مؤسسة الرسالة.
١١٤ ـ الثقات: للإمام بن حبان البستي، ط١ سنة ١٣٩٣هـ، دائرة المعارف العثمانية، الهند.
١١٥ ـ جامع الرسائل: لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم، ط٢ سنة ١٤٠٥هـ، مطبعة المدني، القاهرة.
١١٦ ـ جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم، للحافظ ابن رجب الحنبلي، تحقيق شعيب الأرناؤوط، وإبراهيم باجس، ط٢ سنة ١٤١٢هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.
١١٧ ـ الجامع لأحكام القرآن: لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الطبعة الثانية، نشر: دار الشام للتراث، بيروت، بدون تاريخ.
١١٨ ـ الجرح والتعديل: للإمام ابن أبي حاتم الرازي، ط١ سنة ١٣٧١هـ، الهند.
١١٩ ـ جزء في تفسير الباقيات الصالحات: للحافظ أبي سعيد العلائي، تحقيق بدر الزمان محمد شفيع، ط١ سنة ١٤٠٧هـ، مكتبة الإيمان، المدينة المنورة.
١٢٠ ـ جمهرة اللغة: لابن دريد الأزدي، طبعة الحلبي (بدون تاريخ).

١٢١ ـ الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي: للإمام ابن قيم الجوزية، تحقيق بشير محمد عيون، ط١ سنة ١٤٠٩هـ، مكتبة دار البيان، دمشق.

١٢٢ ـ جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام: للإمام ابن قيم الجوزية، تحقيق مشهور بن حسن آل سلمان، ط١ سنة ١٤١٧هـ، دار ابن الجوزي.

١٢٣ ـ حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح: للإمام ابن قيم الجوزية، تحقيق الدكتور السيد الجميلي، ط٤ سنة ١٤٠٩هـ، نشر: دار الكتاب العربي، بيروت.

١٢٤ ـ حاشية ردّ المحتار على الدر المختار: لابن عابدين، ط٢ سنة ١٣٨٦هـ، دار الفكر.

١٢٥ ـ حاشية السندي على سنن النسائي، بهامش السنن.

١٢٦ ـ حروف المعاني: لأبي القاسم الزجاجي، تحقيق الدكتور علي توفيق الحمد، ط١ سنة ١٤٠٤هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.

١٢٧ ـ الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة: للإمام الحافظ قوام السنة أبي القاسم إسماعيل بن محمد التيمي، بتحقيق الدكتور محمد ربيع المدخلي، والدكتور محمد محمود أبو رحيم، الطبعة الأولى، سنة ١٤١١هـ، نشر: دار الراية، الرياض.

١٢٨ ـ حلية الأولياء: لأبي نعيم الأصبهاني، طبعة السعادة سنة ١٣٩١هـ.

١٢٩ ـ حلية العلماء في معرفة مذاهب الفقهاء: للإمام أبي بكر الشاشي القفال، تحقيق الدكتور ياسين أحمد دراكه، ط١ سنة ١٤٠٠هـ، مؤسسة الرسالة.

١٣٠ ـ خزانة الأدب ولبّ لباب العرب: لعبد القادر بن عمر البغداد، تحقيق عبد السلام هارون، طبع ونشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، ومكتبة الخانجي بالقاهرة.

١٣١ ـ الخشوع في الصلاة: للحافظ ابن رجب الحنبلي (ضمن مجموعة رسائل، له)، جمع عادل بن يوسف العزاري، ط١ سنة ١٤١٢هـ، مكتبة التربية الإسلامية لإحياء التراث الإسلامي.

١٣٢ ـ الخصائص: لأبي الفتح عثمان بن جنى، تحقيق محمد على النجار، نشر: دار الهدى.

١٣٣ ـ خلق أفعال العباد: للإمام أبي عبد الله البخاري، ضمن (عقائد السلف، للنشار والطالبي)، نشر منشأة المعارف بالإسكندرية سنة ١٩٧١م.

١٣٤ ـ درء تعارض العقل والنقل: لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم، ط١ سنة ١٣٩٩هـ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض.

١٣٥ ـ درجات الصاعدين إلى مقامات الموحدين في علم التوحيد: للشيخ محمد بن أحمد الحفظي، ضمن (عقيدة الموحدين، جمع الشيخ عبد الله بن سعدي العبدلي) ط١ سنة ١٤١١هـ، مكتبة الطرفين، الطائف.

١٣٦ ـ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: للحافظ ابن حجر العسقلاني، تحقيق محمد بن سيد جاد الحق، نشر: دار الكتب الحديثة، بمصر بدون تاريخ.

١٣٧ ـ الدر المصون في علم الكتاب المكنون: للسمين الحلبي، تحقيق الدكتور أحمد محمد الخراط، ط١ سنة ١٤٠٦هـ، دار القلم، دمشق.

١٣٨ ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور: لجلال الدين السيوطي، ط١ سة ١٤١١هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٣٩ ـ الدعاء المأثور وآدابه: للإمام أبي بكر الطرطوشي، تحقيق الدكتور محمد رضوان الداية، ط١ سنة ١٤٠٩هـ، دار الفكر المعاصر، بيروت.

١٤٠ ـ دعوة التوحيد: للشيخ الدكتور محمد خليل هراس، ط١ سنة ١٤٠٦هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٤١ ـ دقائق التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية، جمع الدكتور محمد السيد الجليند، ط٢ سنة ١٤٠٦هـ، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة.

١٤٢ ـ دلائل النبوة: للإمام البيهقي، تحقيق الدكتور عبد المعطي قلعجي، ط١ سنة ١٤٠٥هـ، دار الكتب العلمية.

١٤٣ ـ دلائل النبوة: لأبي نعيم الأصبهاني، تحقيق الدكتور محمد رواس قلعة جي، وعبد البر عباس، ط٢ سنة ١٤٠٦هـ، دار النفائس.

١٤٤ ـ الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب: لابن فرحون المالكي، تحقيق الدكتور محمد الأحمدي، نشر مكتبة دار التراث، القاهرة.

١٤٥ ـ ديوان أبي الطيب المتنبي، بشرح أبي البقاء العكبري، وضبط مصطفى السقا وأخرين، دار الفكر.

١٤٦ ـ ديوان الأعشى (ميمون بن قيس)، طبع سنة ١٩٦٦م، دار صادر، بيروت.

١٤٧ ـ ديوان أمية بن أبي الصلت، جمع وتحقيق الدكتور عبد الحفيظ السطلي، الطبعة الثانية (بدون تاريخ).

١٤٨ ـ ديوان جرير، طبع سنة ١٣٨٤هـ، دار صادر، بيروت.

١٤٩ ـ ديوان حسان بن ثابت، تعليق الأستاذ عبد أ. مهنا، ط٢ سنة ١٤١٤هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٥٠ ـ ذيل تذكرة الحفاظ للذهبي: للحافظ أبي المحاسن الدمشقي، دار إحياء التراث العربي.

١٥١ ـ الرد على الجهمية: للإمام أبي سعيد الدارمي، ضمن (عقائد السلف، للنشار، والطالبي)، نشر: منشأة المعارف بالإسكندرية، سنة ١٩٧١م.

١٥٢ ـ الرد على الجهمية: للإمام أحمد بن حنبل، ضمن (عقائد السلف، للنشار والطالبي).

١٥٣ ـ الرد على المنطقيين: لشيخ الإسلام ابن تيمية، ط٢ سنة ١٣٩٦هـ، إدارة ترجمان السنة، لاهور.

١٥٤ ـ رسالة ابن أبي زيد القيرواني، بشرحها (الثمر الداني)، للشيخ عبد السميع الآبي، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٥٥ ـ الرسالة القشيرية: لأبي القاسم القشيري، دار الكتاب العربي، بيروت.

١٥٦ ـ رسالة لطيفة جامعة في أصول الفقه المهمة: للشيخ عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي، وبذيلها التعليقات المنيفة على فصول الرسالة السعدية اللطيفة، باعتناء أبي الحارث نادر بن سعيد آل مبارك التعمري، ط١ سنة ١٤١٨هـ، دار ابن حزم، بيروت.

١٥٧ ـ الروح: للإمام ابن قيم الجوزية، تحقيق الدكتور بسام العموش، ط١ سنة ١٤٠٦هـ، دار ابن تيمية، الرياض.

١٥٨ ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: لمحمود الألوسي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع (بدون تاريخ).

١٥٩ ـ الروض المعطار في خبر الأقطار: لمحمد عبد المنعم الحميري، تحقيق الدكتور إحسان عباس، ط٢ سنة ١٩٨٤م، شر: مكتبة لبنان.

١٦٠ ـ روضة الناظر وجنة المناظر: لموفق الدين بن قدامة المقدسي، مع شرحها (نزهة الخاطر العاطر، لابن بدران)، ط٢ سنة ١٤٠٤هـ، مكتبة المعارف، الرياض.

١٦١ ـ الروضة الندية شرح العقيدة الواسطية: للشيخ زيد بن عبد العزيز بن فياض، ط٣ سنة ١٤١٤هـ، نشر: دار الوطن، الرياض.

١٦٢ ـ زاد المسير في علم التفسير: لأبي الفرج ابن الجوزي، ط١ سنة ١٣٨٥هـ، المكتب الإسلامي.

١٦٣ ـ زاد المعاد في هدي خير العباد: للإمام ابن قيم الجوزية، تحقيق شعيب الأرناؤوط، وعبد القادر الأرناؤوط، ط٢ سنة ١٤٢٠هـ، مؤسسة الرسالة.

١٦٤ ـ الزاهر في غريب ألفاظ الإمام الشافعي: لأبي منصور الأزهري، تحقيق الدكتور عبد المنعم طوعي بشناتي، ط١ سنة ١٤١٩هـ، دار البشائر الإسلامية.

١٦٥ ـ الزاهر في معاني كلمات الناس: لأبي بكر الأنباري، تحقيق الدكتور حاتم صالح الضامن، ط٢ سنة ١٩٨٧م، إرادة الشؤون الثقافية العامة، بغداد.

١٦٦ ـ الزهد: للإمام أحمد بن حنبل، طبع سنة ١٣٩٦هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٦٧ ـ سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة: للشيخ محمد بن ناصر الدين الألباني، الطبعة الأولى، سنة ١٤١٢هـ، نشر: مكتبة المعارف، الرياض.

١٦٨ ـ السنة: للإمام ابن أبي عاصم، تحقيق الشيخ الألباني، ط١ سنة ١٤٠٠هـ، نشر: المكتب الإسلامي، بيروت.

١٦٩ ـ سنن ابن ماجة، تحقيق وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة دار إحياء الكتب العربية، دار الريان للتراث، بدون تاريخ.

١٧٠ ـ سنن أبي داود، ومعه كتاب «معالم السنن» للخطابي، إعداد وتعليق عزت الدعاس، وعادل السيد، ط١ سنة ١٣٨٨هـ، دار الحديث، بيروت.

١٧١ ـ سنن الترمذي: للإمام أبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي، تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي، وغيرهما، طبع ونشر دار الكتب العلمية، بيروت.

١٧٢ ـ سن الدارقطني، مع التعليق المغني على الدارقطني، لمحمد شمس الحق العظيم آبادي، ط٢ سنة ١٤٠٣هـ، عالم الكتب، بيروت.

١٧٣ ـ السنن الكبرى: للبيهقي، مع الجوهر النقي، لابن التركماني، دار الفكر (بدون تاريخ).

١٧٤ ـ سنن النسائي، بشرح السيوطي، وحاشية السندي، ترقيم مكتب تحقيق التراث الإسلامي، الطبعة الثانية، سنة ١٤١٢هـ، نشر: دار المعرفة، بيروت.

١٧٥ ـ سير أعلام النبلاء: للإمام الذهبي، تحقيق أكرم البوشي، وتخريج شعيب الأرناؤوط، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٣هـ، نشر: مؤسسة الرسالة، بيروت.

١٧٦ ـ شأن الدعاء: للإمام أبي سليمان الخطابي، بتحقيق أحمد بن الدقاق، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٤هـ، نشر: دار المأمون، دمشق.

١٧٧ ـ شجرة النور الزكية في طبقات المالكية: للشيخ محمد بن محمد مخلوف، الطبعة الأولى، سنة ١٣٤٩هـ، نشر: دار الكتاب العربي، بيروت.

١٧٨ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب: لأبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي، نشر: المكتب التجاري، بيروت، بدون تاريخ.

١٧٩ ـ شرح أبيات سيبويه: لأبي محمد السيرافي، تحقيق الدكتور محمد علي سلطاني، طبع سنة ١٩٧٩م، دار المأمون للتراث، دمشق.

١٨٠ ـ شرح ابن عقيل لألفية ابن مالك، ومعه ومنحة الجليل بتحقيق شرح ابن عقيل، لمحمد محيي الدين عبد الحميد، بدون بيانات الطباعة.

١٨١ ـ شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة: للإمام أبي القاسم هبة الله بن الحسن الطبري اللالكائي، تحقيق الدكتور أحمد سعد حمدان، دار طيبة، بالرياض، بدون تاريخ.

١٨٢ ـ شرح الأصول الخمسة: لعبد الجبار الهمذاني، تعليق أحمد بن الحسين ابن أبي هاشم، تحقيق الدكتور عبد الكريم عثمان، طبع سنة ١٣٨٤هـ، مكتبة وهبة.

١٨٣ ـ شرح جوهرة التوحيد: للشيخ إبراهيم البيجوري، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٣هـ، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت.

١٨٤ ـ شرح حديث النزول: لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق محمد بن عبد الرحمٰن الخميس، ط١ سنة ١٤١٤هـ، دار العاصمة، الرياض.

١٨٥ ـ شرح رضي الدين الاستراباذي لكتاب الكافية في النحو، لابن الحاجب، ط٢ سنة ١٣٩٩هـ، دار الكتب العلمية.

١٨٦ ـ شرح السنة: للإمام أبي محمد الحسن بن علي البربهاري، تحقيق خالد بن قاسم الردادي، ط١ سنة ١٤١٤هـ، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنورة.

١٨٧ ـ شرح السنة: للإمام البغوي، تحقيق شعيب الأرناؤوط، ط١ سنة ١٣٨٤هـ، المكتب الإسلامي، بيروت.

١٨٨ ـ شرح شافية ابن الحاجب: لرضي الدين الاسترباذي، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.

١٨٩ ـ شرح صحيح البخاري: لابن بطال، ضبط أبي تميم ياسر بن إبراهيم، ط١ سنة ١٤٢٠هـ، مكتبة الرشد، الرياض.

١٩٠ ـ شرح صحيح مسلم: للإمام النووي، طبع ونشر: المطبعة المصرية ومكتبتها، بدون تاريخ.

١٩١ ـ شرح العقيدة الأصفهانية: لشيخ الإسلام ابن تيمية، بتقديم الشيخ حسنين مخلوف، دار الكتب الحديثة، بدون تاريخ.

١٩٢ ـ شرح العقيدة الطحاوية: للقاضي علي بن أبي العز الدمشقي، بتحقيق الدكتور عبد الله عبد المحسن التركي، والشيخ شعيب الأرناؤوط، نشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، بدون تاريخ.

١٩٣ ـ شرح العقيدة الواسطية: للشيخ محمد خليل هراس، بضبط وتخريج علوي السقاف، الطبعة الأولى، سنة ١٤١١هـ، نشر: دار الهجرة، الرياض.

١٩٤ ـ شرح العقيدة الواسطية: للشيخ محمد بن صالح العثيمين، باعتناء سعد بن فواز الصميل، ط٢ سنة ١٤١٥هـ، دار ابن الجوزي، الرياض.

١٩٥ ـ شرح فتح القدير على الهداية: للكمال ابن الهمام الحنفي، ط٢ سنة ١٣٩٧هـ، دار الفكر.

١٩٦ ـ شرح القصيدة النونية: للدكتور محمد خليل هراس، ط١٤٠٧هـ، مكتبة ابن تيمية، القاهرة.

١٩٧ ـ شرح مشكل الآثار: للإمام أبي جعفر الطحاوي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، ط١ سنة ١٤١٥هـ، مؤسسة الرسالة.

١٩٨ ـ شرح معاني الآثار: للإمام أبي جعفر الطحاوي، تحقيقث محمد زهري النجار، ط١ سنة ١٣٩٩هـ، دار الكتب العلمية.

١٩٩ ـ شرح المفصّل: لابن يعيش، نشر عالم الكتب (بدون تاريخ).

٢٠٠ ـ الشرح الممتع على زاد المستقنع: للشيخ محمد بن صالح العثيمين، بعناية الدكتور سليمان أبا الخيل، والدكتور خالد المشيقح، ط٤ سنة ١٤١٦هـ، مؤسسة آسام، الرياض.

٢٠١ ـ الشريعة: للإمام أبي بكر محمد بن الحسن الآجري، تحقيق الدكتور عبد الله بن عمر الدميجي، ط٢ سنة ١٤١٨هـ، دار الوطن، الرياض.

٢٠٢ ـ الشفا بتعريف حقوق المصطفى: للقاضي عياض اليحصبي، تحقيق حسن عبد الحميد نيل، طبع ونشر: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت.

٢٠٣ ـ شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل: للإمام ابن قيم الجوزية، بتخريج وتعليق مصطفى أبو النصر الشلبي، ط٢ سنة ١٤١٥هـ، نشر: مكتبة السوادي، جده.

٢٠٤ ـ الصحاح: لإسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، ط٢ سنة ١٣٩٩هـ، نشر: دار العلم للملايين، بيروت.

٢٠٥ ـ صحيح البخاري، بشرحه (فتح الباري، للحافظ ابن حجر العسقلاني)، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، نشر: دار المعرفة، بيروت.

٢٠٦ ـ صحيح الجامع الصغير وزيادته: للشيخ الألباني، الطبعة الأولى، سنة ١٤١٤هـ، نشر: المكتب الإسلامي، بيروت.

٢٠٧ ـ صحيح سنن أبي داود: للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، ط١ سنة ١٤١٩هـ، مكتبة المعارف، الرياض.

٢٠٨ ـ صحيح سنن ابن ماجه: للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، ط١ سنة ١٤١٧هـ، مكتب المعارف، الرياض.

٢٠٩ ـ صحيح سنن الترمذي: للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، ط١ سنة ١٤٢٠هـ، مكتبة المعارف، الرياض.

٢١٠ ـ صحيح سنن النسائي: للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، ط١ سنة ١٤١٩هـ، مكتبة المعارف، الرياض.

٢١١ ـ صحيح الكلم الطيب: للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، طبع ونشر المكتب الإسلامي، بيروت.

٢١٢ ـ صحيح مسلم، بتحقيق وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، طبع ونشر: دار إحياء الكتب العربية.

٢١٣ ـ صفة الصفوة: لأبي الفرج ابن الجوزي، تحقيق محمود فاخوري، وتخريج محمد رواس قلعجي، ط١ سنة ١٣٩٣هـ، دار الوعي بحلب.

٢١٤ ـ صفة صلاة النبي ﷺ: للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، ط١ سنة ١٤١١هـ، مكتبة المعارف، الرياض.

٢١٥ ـ الصفدية: لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم، ط٢ سنة ١٤٠٦هـ، مكتبة ابن تيمية، القاهرة.

٢١٦ ـ صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم: للشيخ عبد الرحمٰن بن محمد الدوسري، ط١ سنة ١٤٠١هـ، مكتبة دار الأرقم، الكويت.

٢١٧ ـ الصلاة وحكم تاركها: للإمام ابن قيم الجوزية، تحقيق سيد إبراهيم، ط٣ سنة ١٤١٨هـ، دار الحديث، القاهرة.

٢١٨ ـ الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة: للإمام ابن قيم الجوزية، تحقيق الدكتور علي ابن محمد الدخيل الله، ط١ سنة ١٤١٢هـ، نشر: العاصمة، الرياض.

٢١٩ ـ الضوء اللامع لأهل القرن التاسع: للسخاوي، نشر: دار مكتبة الحياة، بيروت، بدون تاريخ.
٢٢٠ ـ طبقات الشافعية الكبرى: للسبكي، تحقيق الدكتور عبد الفتاح الحلو، والدكتور محمود الطناحي، طبع سنة ١٩٧١م، مكتبة الحلبي، القاهرة.
٢٢١ ـ طبقات المفسرين: للداوودي.
٢٢٢ ـ طبقات المفسرين: للسيوطي، تحقيق علي محمد عمر، ط١ سنة ١٣٩٦هـ، مكتبة وهبة.
٢٢٣ ـ طرح التثريب في شرح التقريب: للحافظ زيد الدين العراقي، وابنه ولي الدين أبي زرعة العراقي، طبع ونشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٢٢٤ ـ طريق الهجرتين وباب السعادتين: للإمام ابن قيم الجوزية، ضبط عمر بن محمود أبو عمر، ط١ سنة ١٤٠٩هـ، دار ابن القيم، الدمام.
٢٢٥ ـ طريق الوصول إلى العلم المأمول بمعرفة القواعد والضوابط والأصول، جمع وتأليف الشيخ عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي، باعتناء سمير بن عدنان الماضي، ويوسف بن أحمد البكري، ط١ سنة ١٤١٦هـ، رمادي للنشر.
٢٢٦ ـ العجاب في بيان الأسباب: للحافظ ابن حجر العسقلاني، تحقيق عبد الحكيم محمد الأنيس، ط١ سنة ١٤١٨هـ، دار ابن الجوزي.
٢٢٧ ـ العظمة: للإمام أبي الشيخ الأصبهاني، تحقيق رضاء الله بن محمد إدريس المباركفوري، ط١ سنة ١٤٠٨هـ، دار العاصمة، الرياض.
٢٢٨ ـ العقيدة الإسلامية وتاريخها: للشيخ الدكتور محمد أمان علي الجامي، الطبعة الأولى، سنة ١٤١٤هـ، نشر: دار المنار، الرياض.
٢٢٩ ـ عقيدة السلف أصحاب الحديث: لأبي عثمان إسماعيل بن عبد الرحمٰن الصابوني، تحقيق بدر عبد الله البدر، ط٢ سنة ١٤١٥هـ، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنورة.
٢٣٠ ـ العقيدة النظامية: لإمام الحرمين، أبي المعالي الجويني، بتحقيق الدكتور أحمد حجازي السقا، الطبعة الأولى، سنة ١٣٩٨هـ، نشر: مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة.
٢٣١ ـ العلل الواردة في الأحاديث النبوية: للإمام الحافظ الدارقطني، تحقيق الدكتور محفوظ الرحمٰن السلفي، ط١ سنة ١٤٠٦هـ، دار طيبة، الرياض.
٢٣٢ ـ علماء نجد خلال ثمانية قرون: للشيخ عبد الله بن عبد الرحمٰن البسام، ط٢ سنة ١٤١٩هـ، دار العاصمة، الرياض.

٢٣٣ ـ العلم الهيّب في شرح الكلم الطيب: لبدر الدين العيني، تحقيق خالد بن إبراهيم المصري، ط١ سنة ١٤١٩هـ، مكتبة الرشد، الرياض.

٢٣٤ ـ علوم الحديث: للحافظ ابن الصلاح، تحقيق الدكتور نور الدين عتر، طبع سنة ١٣٨٦هـ، مطبعة الأصيل، حلب.

٢٣٥ ـ عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: للسمين الحلبي، تحقيق محمود محمد السيد، ط١ سنة ١٤٠٧هـ، دار السيد للنشر، استانبول.

٢٣٦ ـ عمل اليوم والليلة: للحافظ أبي بكر ابن السنيّ، تحقيق الدكتور عبد الرحمٰن كوثر البرني، ط١ سنة ١٤١٨هـ، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت.

٢٣٧ ـ عمل اليوم الليلة، للإمام النسائي، تحقيق الدكتور فاروق حمادة، ط٣ سنة ١٤٠٧هـ، مؤسسة الرسالة، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت.

٢٣٨ ـ عوارف المعارف: لعمر بن محمد السهرودي، ط٢ سنة ١٤٠٣هـ، دار الكتاب العربي، بيروت.

٢٣٩ ـ عون المعبود شرح سنن أبي داود: لأبي الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي، ومعه (شرح الحافظ شمس الدين ابن قيم الجوزية) ط١ سنة ١٤١٠هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٤٠ ـ غرائب التفسير وعجائب التأويل: لتاج القراء محمود بن حمزة الكرماني، تحقيق الدكتور شمران سركال العجلي، ط١ سنة ١٤٠٨هـ، مؤسسة علوم القرآن، بيروت.

٢٤١ ـ غريب الحديث: لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي، ط١ سنة ١٣٨٥هـ، دائرة المعارف العثمانية، الهند.

٢٤٢ ـ فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ، جمع وترتيب محمد بن عبد الرحمٰن بن قاسم، القسم الأول (العقائد)، ط١ سنة ١٣٩٩هـ، مطبعة الحكومة بمكة المكرمة.

٢٤٣ ـ فتاوى ومسائل ابن الصلاح، ومعها (أدب المفتى والمستفي، له)، تحقيق عبد المعطي قلعجي، ط١ سنة ١٤٠٦هـ، دار المعرفة.

٢٤٤ ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري: للحافظ ابن حجر العسقلاني، مصوّر عن الطبعة السلفية، نشر دار المعرفة، بيروت.

٢٤٥ ـ فتح البيان في مقاصد القرآن: لأبي الطيب صديق حسن خان القنوخي، بعناية عبد الله ابن إبراهيم الأنصاري، طبع سنة ١٤١٢هـ، نشر المكتبة العصرية، بيروت.

٢٤٦ ـ فتح رب البرية بتلخيص الحموية لشيخ الإسلام ابن تيمية، تلخيص الشيخ محمد بن صالح العثيمين، ضمن (القواعد الطيبات في الأسماء والصفات)، باعتناء أبي محمد أشرف بن عبد المقصود، ط١ سنة ١٤١٦هـ، مكتبة أضواء السلف.

٢٤٧ ـ فتح القدير: للإمام محمد بن علي الشوكاني، تحقيق أبي حفص سيد بن إبراهيم، ط١ سنة ١٤١٣هـ، دار الحديث، القاهرة.

٢٤٨ ـ فتح المجيد شرح كتاب التوحيد: للشيخ عبد الرحمٰن بن حسن آل الشيخ، بتحقيق محمد حامد الفقي، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٤٩ ـ فتح المغيث شرح ألفية الحديث: للسخاوي، تحقيق عبد الرحمٰن محمد عثمان، ط٢ سنة ١٣٨٨هـ، المكتبة السلفية بالمدينة المنورة.

٢٥٠ ـ الفتوحات الربانية على الأذكار النواوية: لمحمد بن علان الصديقي، طبع سنة ١٣٩٨هـ، دار الفكر، بيروت.

٢٥١ ـ الفتوى الحموية الكبرى: لشيخ الإسلام ابن تيمية، بتحقيق شريف محمد فؤاد هزّاع، الطبعة الأولى، سنة ١٤١١هـ، نشر: دار فجر للتراث.

٢٥٢ ـ الفرقان بين أولياء الرحمٰن وأولياء الشيطان: لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق الدكتور عبد الرحمٰن بن عبد الكريم اليحيى، ط١ سنة ١٤٢٠هـ، دار الفضيلة.

٢٥٣ ـ الفرق بين الفرق: لعبد القاهر بن طاهر البغدادي، اعتناء الشيخ إبراهيم رمضان، ط٢ سنة ١٤٢١هـ، دار المعرفة.

٢٥٤ ـ الفصل في الملل والنحل: لأبي محمد بن حزم الظاهري، بتحقيق الدكتور محمد إبراهيم نصر، والدكتور عبد الرحمٰن عميرة، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٢هـ، نشر: شركة مكتبات عكاظ.

٢٥٥ ـ فقه الأدعية والأذكار: للأستاذ الدكتور عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر، القسم الأول، ط١ سنة ١٤١٩هـ، دار ابن عفان.

٢٥٦ ـ الفوائد: للإمام ابن قيم الجوزية، بتحقيق بشير محمد عيون، الطبعة الثانية، سنة ١٤٠٨هـ، نشر: مكتبة المؤيد، الطائف.

٢٥٧ ـ قاعدة حسنة في الباقيات الصالحات وبيان اقتران التهليل بالتكبير والتسبيح بالتحميد: لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق أشرف بن عبد المقصود، ط١ سنة ١٤٢٢هـ، مكتبة أضواء السلف.

٢٥٨ ـ القاموس المحيط: لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٦هـ، نشر: مؤسسة الرسالة، بيروت.

٢٥٩ ـ قصيدة البردة (الكواكب الدرية)، للبوصيري، ضمن مجموعة مهمات المتون، ط١ سنة ١٤١٩هـ، دار الكتب العلمية.

٢٦٠ ـ القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة ومذاهب الناس فيه: للدكتور عبد الرحمٰن بن صالح المحمود، الطبعة الأولى، سنة ١٤١٤هـ، نشر: دار النشر الدولي، الرياض.

٢٦١ ـ قواطع الأدلة في أصول الفقه: للإمام أبي المظفر السمعاني، تحقيق الدكتور عبد الله بن حافظ الحكمي، ط١ سنة ١٣١٩هـ، مكتبة التوبة.

٢٦٢ ـ القواعد الحسان لتفسير القرآن: للشيخ عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي، ط١ سنة ١٤١٣هـ، دار ابن الجوزي.

٢٦٣ ـ القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى: للشيخ محمد بن صالح العثيمين، تحقيق أشرف بن عبد المقصود، ط٢ سنة ١٤١٤هـ، مكتبة السنة، القاهرة.

٢٦٤ ـ القول السديد في مقاصد التوحيد: للشيخ عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي، مع كتاب التوحيد، للإمام محمد بن عبد الوهاب، ط١٢ سنة ١٤١٤هـ، مركز شؤون الدعوة في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

٢٦٥ ـ القول المفيد على كتاب التوحيد: للشيخ محمد بن صالح العثيمين، جمع وتخريج الدكتور سليمان أبا الخيل، والدكتور خالد المشيقح، ط٣ سنة ١٤١٩هـ، دار ابن الجوزي.

٢٦٦ ـ الكاشف عن حقائق السنن (شرح الطيبي على مشكاة المصابيح): لشرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي، تحقيق الدكتور عبد الحميد هنداوي، ط١ سنة ١٤١٧هـ، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة.

٢٦٧ ـ الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية (القصيدة النونية): للإمام ابن قيم الجوزية، باعتناء عبد الله بن محمد العمير، ط١ سنة ١٤١٦هـ، دار ابن خزيمة، الرياض.

٢٦٨ ـ الكافية الشافية وشرحها: لابن مالك الطائي الجياني، تحقيق الدكتور عبد المنعم أحمد هريدي، ط١ سنة ١٤٠٢هـ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة.

٢٦٩ ـ الكافي في فقه أهل المدينة المالكي: للإمام أبي عمر ابن عبد البر، تحقيق الدكتور محمد محمد أحيد الموريتاني، ط١ سنة ١٣٩٨هـ، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض.

٢٧٠ ـ كتاب الأفعال، لأبي القاسم ابن القطاع الصقلي، ط١ سنة ١٣٦٠هـ، دائرة المعارف العثمانية.

٢٧١ ـ كتاب التوحيد ومعرفة أسماء الله ﷻ وصفاته على الاتفاق والتفرد: للإمام ابن منده، تحقيق فضيلة الدكتور علي بن محمد بن ناصر الفقهي، ط٢ الجامعة الإسلامية، بالمدينة المنورة.

٢٧٢ ـ كتاب التوحيد مع إخلاص العمل والوجه لله ﷻ: لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق الدكتور محمد السيد الجليند، ط٣ سنة ١٤٠٧هـ، دار القبلة للثقافة الإسلامية.

٢٧٣ ـ كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد: للإمام محمد بن عبد الوهاب، تصحيح أحمد محمد شاكر، وتخريج إبراهيم بن عبد الله الحازمي، ط١ سنة ١٤١٤هـ، دار الشريف الرياض.

٢٧٤ ـ كتاب حروف المعاني: لأبي القاسم عبد الرحمٰن الزجاجي، تحقيق الدكتور علي توفيق الحمد، الطبعة الثانية، سنة ١٤٠٤هـ، نشر: مؤسسة الرسالة، بيروت.

٢٧٥ ـ كتاب الدعاء: للإمام أبي القاسم الطبراني، تحقيق الدكتور محمد سعيد البخاري، ط١ سنة ١٤٠٧هـ، دار البشائر الإسلامية، بيروت.

٢٧٦ ـ كتاب سيبويه، بتحقيق عبد السلام محمد هارون، طبع ونشر: عالم الكتب، بيروت، بدون تاريخ.

٢٧٧ ـ كتاب العين: لأبي عبد الرحمٰن الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق الدكتور مهدي المخزومي، والدكتور إبراهيم السامرائي، الطبعة الثانية، سنة ١٤٠٨هـ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.

٢٧٨ ـ كتاب المطر والرعد والبرق والريح: للحافظ أبي بكر ابن أبي الدنيا، تحقيق طارق محمد العمودي، ط١ سنة ١٤١٨هـ، دار ابن الجوزي.

٢٧٩ ـ كتاب المعرفة والتاريخ: لأبي يوسف يعقوب بن سفيان الفسوي، تحقيق الدكتور أكرم ضياء العمري، طبع سنة ١٩٧٥م، مطبعة الإرشاد، بغداد.

٢٨٠ ـ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: لأبي القاسم الزمخشري، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض، ط١ سنة ١٤١٨هـ، مكتبة العبيكان، الرياض.

٢٨١ ـ كشف الأستار عن زوائد البزار: للحافظ نور الدين الهيثمي، تحقيق حبيب الرحمٰن الأعظمي، ط١ سنة ١٣٩٩هـ، مؤسسة الرسالة.

٢٨٢ ـ الكفاية في علم الرواية: للخطيب البغدادي، الطبعة الهندية، نشر المكتبة العلمية بالمدينة المنورة.

٢٨٣ ـ الكلمات النافعة في المكفرات الواقعة: للشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، ضمن (عقيدة الموحدين، جمع الشيخ عبد الله بن سعدي العبدلي، ط١ سنة ١٤١١هـ، مكتبة الطرفين، الطائف.

٢٨٤ ـ الكلم الطيب: لشيخ الإسلام ابن تيمية، مع شرحه (العلم الهيب، لبدر الدين العيني)، تحقيق خالد المصري، ط١ سنة ١٤١٩هـ، مكتبة الرشد.

٢٨٥ ـ الكليات، معجم في المصطلحات والفرق اللغوية، أبي البقاء أيوب بن موسى الكفوي، بإعداد الدكتور عدنان درويش، ومحمد المصري، ط٢ سنة ١٤١٣هـ، نشر: مؤسسة الرسالة.

٢٨٦ ـ الكواشف الجلية عن معاني الواسطية: للشيخ عبد العزيز بن محمد السلمان، ط١٠ سنة ١٤٠١هـ، شركة الراجحي للصرافة والتجارة.

٢٨٧ ـ لامية الأفعال: لابن مالك الأندلسي، بشرح ابنه بدر الدين، نشر المكتبة الشعبية، بيروت.

٢٨٨ ـ لسان العرب: لابن منظور الأفريقي، طبعة دار صادر بيروت، بدون تاريخ.

٢٨٩ ـ لسان الميزان: للحافظ ابن حجر العسقلاني، ط١ سنة ١٣٣١هـ، دائرة المعارف العثمانية، الهند.

٢٩٠ ـ لمع الأدلة في قواعد عقائد أهل السنة والجماعة: لعبد الملك الجويني (إمام الحرمين أبو المعالي)، بتقديم وتحقيق الدكتورة فوقية حسين محمد، الطبعة الثانية، سنة ١٤٠٧هـ، نشر: عالم الكتب، بيروت.

٢٩١ ـ اللمعة في الأجوبة السبعة: لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق سليمان بن صالح الغصن، ط١ سنة ١٤١٩هـ، دار الصميعي، الرياض.

٢٩٢ ـ لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقيدة الفرقة المرضية: للشيخ محمد بن أحمد السفاريني الأثري الحنبلي، الطبعة الثانية، سنة ١٤٠٣هـ، نشر: مؤسسة الخافقي ومكتبتها، دمشق.

٢٩٣ ـ المبسوط: للسرخسي، طبع سنة ١٤٠٩هـ، دار المعرفة، بيروت.

٢٩٤ ـ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: لضياء الدين ابن الأثير، بتحقيق الدكتور أحمد ابن الحوفي، والدكتور بدوي طبانه، الطبعة الأولى، سنة ١٣٨٠هـ، نشر: مكتبة نهضة بمصر.

٢٩٥ ـ مجاز القرآن: لأبي عبيدة معمر بن المثنى التيمي، بتحقيق محمد فؤاد سزكين، نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة، بدون تاريخ.

٢٩٦ ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: للحافظ أبي بكر الهيثمي، ط٢ سنة ١٩٦٧م، دار الكتاب، بيروت.

٢٩٧ ـ المجموع شرح المهذب: للإمام النووي، تحقيق محمد نجيب المطيعي، مكتبة الإرشاد، جدة.

٢٩٨ ـ مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب الشيخ عبد الرحمٰن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي، نشر: عالم الكتب، سنة ١٤١٢هـ، الرياض.

٢٩٩ ـ مجموعة التوحيد، تحقيق بشير محمد عيون، ط٣ سنة ١٤١٤هـ، مكتبة المؤيد.

٣٠٠ ـ محاسن التأويل: لجمال الدين القاسمي، تصحيح محمد فؤاد عبد الباقي.

٣٠١ ـ المحرر في الحديث: للحافظ ابن عبد الهادي المقدسي، تحقيق الدكتور يوسف المرعشلي وآخرين، ط١ سنة ١٤٠٥هـ، دار المعرفة.

٣٠٢ ـ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: للقاضي أبي محمد بن عطية الأندلسي، تحقيق المجلس العلمي بالمغرب العربي، نشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

٣٠٣ ـ المحكم والمحيط الأعظم في اللغة: لعلي بن إسماعيل ابن سيده، تحقيق الدكتورة عائشة عبد الرحمٰن بنت الشاطئ، الطبعة الأولى، سنة ١٣٧٧هـ، الحلبي بمصر.

٣٠٤ ـ المحلى بالآثار: لابن حزم بتحقيق الدكتور عبد الغفار سليمان البنداري، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.

٣٠٥ ـ مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة: لابن قيم الجوزية، اختصره الشيخ محمد بن الموصلي، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٥هـ، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٠٦ ـ مختصر العلو للعلي الغفار: للإمام الذهبي، اختصر الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠١هـ، نشر: المكتب الإسلامي، بيروت.

٣٠٧ ـ مختصر منهاج القاصدين: للإمام أحمد بن محمد المقدسي، تحقيق زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت.
٣٠٨ ـ المخصص: لابن سيده، نشر المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت.
٣٠٩ ـ مدارج السالكين: للإمام ابن قيم الجوزية، بتحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي، الطبعة الأولى، سنة ١٤١٠هـ، نشر: دار الكتاب العربي، بيروت.
٣١٠ ـ مدارك التنزيل وحقائق التأويل (تفسير النسفي): لأبي البركات النسفي، تحقيق يوسف علي بدوي، ط١ سنة ١٤١٩هـ، دار الكلم الطيب، بيروت.
٣١١ ـ المدونة الكبرى: للإمام مالك بن أنس، ومعها مقدمات ابن رشد لبيان ما اقتضته المدونة من الأحكام، ط١ سنة ١٤١٥هـ، دار الكتب العلمية.
٣١٢ ـ مذكرة في أصول الفقه: للشيخ محمد الأمين الشنقيطي، نشر المكتبة السلفية بالمدينة المنورة (بدون تاريخ).
٣١٣ ـ مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع: لصفي الدين البغدادي، تحقيق علي محمد البجاوي، ط١ سنة ١٣٧٤هـ، دار إحياء الكتب العربية.
٣١٤ ـ المزهر في علوم اللغة وأنواعها: لجلال الدين السيوطي، بشرح وضبط محمد أحمد جاد المولي، وآخرين، نشر: دار إحياء الكتب العربية.
٣١٥ ـ المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد بن حنبل في العقيدة: للدكتور عبد الإله بن سليمان الأحمدي، الطبعة الأولى، سنة ١٤١٢هـ، نشر: دار طيبة، الرياض.
٣١٦ ـ مسألة سبحان: لنفطويه، تحقيق الأخ جمال عزون، مطبوع ولم يتم نشره بعد.
٣١٧ ـ المستدرك على الصحيحين: لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، بتحقيق مصطفى عبد القادر عطا، الطبعة الأولى، سنة ١٤١١هـ، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت.
٣١٨ ـ مسند أبي داود الطيالسي، تحقيق الدكتور محمد بن عبد المحسن التركي، ط١ سنة ١٤١٩هـ، هجر للطباعة والنشر والتوزيع.
٣١٩ ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل، وبهامشه منتخب كنز العمال، نشر: المكتب الإسلامي، بيروت.
٣٢٠ ـ مشارق الأنوار على صحاح الآثار: للقاضي عياض اليحصبي، طبع ونشر: المكتب العتيقة.

٣٢١ ـ مشكاة المصابيح: للخطيب التبريزي، تحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، ط٢ سنة ١٣٩٩هـ، المكتب الإسلامي، بيروت.

٣٢٢ ـ مشكل إعراب القرآن: لمكي بن أبي طالب، تحقيق الدكتور حاتم صالح الضمان، ط٢ سنة ١٤٠٥هـ، مؤسسة الرسالة.

٣٢٣ ـ المصباح المنير: لأحمد الفيومي، بتحقيق الدكتور عبد العظيم الشناوي، نشر: دار المعارف بالقاهرة، بدون تاريخ.

٣٢٤ ـ مصنف ابن أبي شيبة، (الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار)، ط١ سنة ١٤٠١هـ، الدار السلفية، بومباي، الهند.

٣٢٥ ـ مصنف الإمام عبد الرزاق الصنعاني، تحقيق الدكتور حبيب الرحمٰن الأعظمي، الطبعة الأولى، سنة ١٣٩٠هـ، نشر: المكتب الإسلامي، بيروت.

٣٢٦ ـ مطالع السعيد بكشف مواقع الحمد: للإمام ابن قيم الجوزية، تحقيق فهد بن عبد العزيز العسكر، ط١ سنة ١٤١٤هـ، دار ابن حزيمة.

٣٢٧ ـ معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول: للشيخ الحافظ بن أحمد الحكمي، بتعليق وتخريج عمر بن محمود أبو عمر، الطبعة الأولى، سنة ١٤١٠هـ، نشر: دار ابن القيم، الدمام، السعودية.

٣٢٨ ـ المعالم الأثيرة في السنة والسيرة: لمحمد حس شراب، ط١ سنة ١٤١١هـ، دار القلم ، دمشق.

٣٢٩ ـ معالم السنن شرح سنن أبي داود لأبي سليمان الخطابي، ط١ سنة ١٤١١هـ، دار الكتب العلمية.

٣٣٠ ـ معاني القرآن: للفراء، تحقيق محمد علي النجار، طبع ونشر: الدار المصرية للتأليف والترجمة.

٣٣١ ـ معاني القرآن: للأخفش سعيد بن مسعدة البلخي، تحقيق الدكتور عبد الأمير محمد أمين الورد، ط١ سنة ١٤٠٥هـ، عالم الكتب، بيروت.

٣٣٢ ـ معاني القرآن الكريم : لأبي جعفر النحاس، تحقيق الشيخ محمد علي الصابوني، ط١ سنة ١٤٠٨هـ، جامعة أم القرى، مكة المكرمة.

٣٣٣ ـ معاني القرآن وإعرابه: للزجاج أبي إسحاق إبراهيم بن السري، تحقيق الدكتور عبد الجليل عبده شلبي، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٨هـ، نشر: عالم الكتب، بيروت.

٣٣٤ ـ معتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله الحسنى: للدكتور محمد بن خليفة التميمي، ط١ سنة ١٤١٧هـ، دار إيلاف الدولية للنشر والتوزيع.

٣٣٥ ـ معجم الأدباء: لياقوت الحموي، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٣٣٦ ـ المعجم الأوسط: للطبراني ، تحقيق طارق بن عوض الله، وعبد المحسن الحسيني، ط١ سنة ١٤١٥هـ، دار الحرمين للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.
٣٣٧ ـ معجم البلدان: لياقوت الحموي، بتحقيق فريد عبد العزيز الجندي، الطبعة الأولى، سنة ١٤١٠هـ، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت.
٣٣٨ ـ المعجم الكبير: للطبراني، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، نشر: مكتبة ابن تيمية، القاهرة.
٣٣٩ ـ معجم المؤلفين: لعمر رضا كحالة، ط١ سنة ١٤١٤هـ، مؤسسة الرسالة.
٣٤٠ ـ معجم متن اللغة: للشيخ أحمد رضا، طبع سنة ١٣٧٨هـ، نشر: دار مكتبة الحياة، بيروت.
٣٤١ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: لمحمد فؤاد عبد الباقي.
٣٤٢ ـ معجم مقاييس اللغة: لابن فارس، بتحقيق عبد السلام محمد هارون، الطبعة الثانية، سنة ١٣٩٢هـ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر.
٣٤٣ ـ معجم المناهي اللفظية مع فوائد في الإلفاظ: للشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد، ط٣ سنة ١٤١٧هـ، دار العاصمة.
٣٤٤ ـ المعجم الوسيط، إعداد مجمع اللغة العربي، طبع ونشر: دار الدعوة، استانبول.
٣٤٥ ـ معرفة الثقات: للعجلي، تحقيق عبد العليم البستوي، ط١ سنة ١٤٠٥هـ، مكتبة الدار، المدينة المنورة.
٣٤٦ ـ المغرب: لأبي الفتح ناصر الدين المطرّزي، تحقيق محمود فاخوري، وعبد الحميد مختار، الطبعة الأولى، سنة ١٣٩٩هـ، نشر مكتبة أسامة بن زيد، حلب.
٣٤٧ ـ المغني: لابن قدامة، تحقيق الدكتور عبد الله التركي، وعبد الفتاح الحلو، ط٣ سنة ١٤١٧هـ، دار الكتب الرياض.
٣٤٨ ـ المغنى في أبواب العدل والتوحيد: للقاضي عبد الجبار بن أحمد الهمداني، تحقيق مجموعة من المحققين بإشراف الدكتور طه حسين، الدار المصرية للتأليف والترجمة.
٣٤٩ ـ مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: لجمال الدين بن هشام الأنصاري، بتحقيق الدكتور مازن المبارك، وآخرين، الطبعة السادسة، سنة ١٩٨٥م، نشر: دار الفكر، بيروت.

٣٥٠ ـ مفتاح دار السعادة: للإمام ابن قيم الجوزية، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.
٣٥١ ـ مفردات ألفاظ القرآن: للعلامة الراغب الأصفهاني، تحقيق صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق.
٣٥٢ ـ المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم: لأبي العباس القرطبي، تحقيق مجموعة من المحققين، ط١ سنة ١٤١٧هـ، دار ابن كثير، دمشق.
٣٥٣ ـ مقالة التعطيل والجعد بن درهم: للدكتور محمد بن خليفة التميمي، ط١ سنة ١٤١٨هـ، مكتبة أضواء السلف، الرياض.
٣٥٤ ـ مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين: لأبي الحسن الأشعري، بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الثانية، سنة ١٣٨٩هـ، نشر: مكتبة النهضة المصرية.
٣٥٥ ـ المقتضب: لأبي العابس المبرد، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت (بدون تاريخ).
٣٥٦ ـ ملحة الاعتقاد: للعلامة عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام، باعتناء حسن السماحي سويدان، ط١ سنة ١٤١٣هـ، دار القادري بيروت.
٣٥٧ ـ الملل والنحل: للشهرستاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، طبع سنة ١٤٠٦هـ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي.
٣٥٨ ـ المنار المنيف في الصحيح والضعيف: للإمام ابن قيم الجوزية، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، ط٢ سنة ١٤٠٣هـ، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب.
٣٥٩ ـ المنصف شرح ابن جنى لكتاب التصريف: لأبي عثمان المازني، تحقيق إبراهيم مصطفى، وعبد الله أمين، الطبعة الأولى، سنة ١٣٧٣هـ، الحلبي، بمصر.
٣٦٠ ـ منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز: للشيخ محمد الأمين الشقيطي، نشر: مكتبة ابن تيمية، القاهرة، بدون تاريخ.
٣٦١ ـ منهاج السنة النبوية: لشيخ الإسلام ابن تيمية، بتحقيق الدكتور محمد رشاد سالم، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٦هـ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
٣٦٢ ـ المنهاج في شعب الإيمان: لأبي عبد الله الحسين بن الحسن الحليمي، تحقيق حلمي محمد فوده، ط١ سنة ١٣٩٩هـ، دار الفكر.

٣٦٣ ـ منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات: للشيخ محمد الأمين الشنقيطي، باعتناء أشرف بن عبد المقصود، ضمن (قواعد الطيبات في الأسماء والصفات)، ط١ سنة ١٣١٦هـ، مكتبة أضواء السلف.

٣٦٤ ـ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار: لتقي المقريزي، طبعة بولاق، سنة ١٢٨٠هـ، نشر: دار الكتاب اللبناني.

٣٦٥ ـ الموطأ: للإمام مالك بن أنس، بتعليق وترقيم محمد فؤاد بن عبد الباقي، الطبعة الثانية، سنة ١٤١٣هـ، نشر: دار الحديث، القاهرة.

٣٦٦ ـ ميزان الاعتدال في نقد الرجال: للإمام الذهبي، بتحقيق علي محمد البجاوي، نشر: دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ.

٣٦٧ ـ النبوات: لشيخ الإسلام ابن تيمية، بتحقيق محمد عبد الرحمٰن عوض، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٥هـ، نشر: دار الكتاب العربي.

٣٦٨ ـ نتائج الأفكار في تخريج أحاديث الأذكار: للحافظ ابن حجر العسقلاني، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، ط١ سنة ١٤٢١هـ، دار ابن كثير دمشق.

٣٦٩ ـ نتائج الأفكار في شرح حديث سيد الاستغفار: للعلامة أبي العون محمد بن أحمد السفاريني، بإشراف عبد العزيز الدخيل، ط١ سنة ١٤١٦هـ، دار الصميعي للنشر والتوزيع.

٣٧٠ ـ نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر: للحافظ ابن حجر العسقلاني، ومعه «النكت» للشيخ علي بن حسن الحلبي، ط١ سنة ١٤١٣هـ، دار ابن الجوزي، الدمام، السعودية.

٣٧١ ـ النكت والعيون: لأبي الحسن علي بن محمد الماوردي، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٧٢ ـ نهاية الإقدام في علم الكلام: للشهرستاني، تحرير الفرد جيوم، طبع ونشر: مكتبة الثقافة الدينية.

٣٧٣ ـ النهاية في غريب الحديث والأثر: لمجد الدين أبي السعادات ابن الأثير، تحقيق طاهر أحمد الزاوي، ومحمود الطناحي، نشر: المكتبة العلمية، بيروت، بدون تاريخ.

٣٧٤ ـ نور المسرى في تفسير آية الإسرا: لأبي شامة المقدسي، تحقيق الدكتور علي حسين البواب، طبع سنة ١٤٠٦هـ، مكتبة المعارف.

٣٧٥ ـ نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار: للإمام الشوكاني، بترقيم وتصحيح محمد حلاق، وعز الدين خطاب، ط١ سنة ١٤١٩هـ، دار إحياء التراث العربي.

٣٧٦ ـ هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، للإمام ابن قيم الجوزية، تحقيق الدكتور محمد أحمد الحاج، ط١ سنة ١٤١٦هـ، دار القلم، دمشق.
٣٧٧ ـ هدي الساري (مقدمة فتح الباري شرح صحيح البخاري): للحافظ ابن حجر العسقلاني، مصورة الطبعة السلفية، نشر دار المعرفة.
٣٧٨ ـ همع الهوامع في شرح جمع الجوامع: لجلال الدين السيوطي، تحقيق الدكتور عبد العال سالم مكرم، طبع سنة ١٤٠٠هـ، دار البحوث العلمية، الكويت.
٣٧٩ ـ الوابل الصيب من الكلم الطيب: للإمام ابن قيم الجوزية، تحقيق محمد عبد الرحمٰن عوض، ط١ سنة ١٤٠٥هـ، دار الكتاب العربي.
٣٨٠ ـ وبل الغمام على شفاء الأوام: للإمام الشوكاني، تحقيق محمد صبحي حلاق، ط١ سنة ١٤١٦هـ، مكتبة ابن تيمية، القاهرة.
٣٨١ ـ الوسيط في تفسير القرآن المجيد: لأبي الحسن الواحدي النيسابوري، تحقيق مجموعة من الأساتذة، ط١ سنة ١٤١٥هـ، دار الكتب العلمية.

فهرس موضوعات المجلد الثاني

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع **الصفحة**